

19085

عصر المأمون

قلم

الدكتور

أحمد فريد زعامي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

(حقوق الطبع محفوظة للزمام)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الأول من عصر المأمون

صحة	كلمة العهد الأمهاني
(ط)	إهداء الكتاب... .. .
(ك)	المقدمة
(م)	

الكتاب الأول — عصر بني أمية

الفصل الأول — تحول المذنية الاسلامية :

١	توطئة
٤	نظام الحكم في عهد الصحابة
٥	حكومة عثمان وطر الخانات العربية اليها

الفصل الثاني — الجهاد بين الخلافة والمملك :

١٠	توطئة
١١	كلنا عن علي رضي الله عنه
١٣	حول الرأي العام
١٥	معارية
١٥	سياسة معاوية
١٦	مميزات معاوية
١٨	معارية والسياسة الميكافيلية

الفصل الثالث — سياسة معاوية وخلفائه :

٢٠	توطئة
٢٢	اصطلاح الأحرار المال
٢٥	السمال
٢٨	الوحدة الدينية
٣٥	التصوب المذهبي

الفصل الرابع - ولاية العهد :

٣٨	نظام ولاية العهد وأثر حليدوں
٣٩	خطر نظام ولاية العهد وأثر الطوائف
٤٣	. . .	نظام ولاية العهد وعلاقته بالمصيبة العربية

المفصل الخامس — الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي :

٤٥	توطئة
٤٦	آثار الآداب والعلوم العارسية والرياضية في العصر الأموي
٤٧	حركة القل
٤٩	الخطاة وعمراتها
٥١	الكتابة
٥٣	حانة الشعر في العصر الأموي وتحزله
٥٦	العرل
٥٩	الشعر الميامي

الكتاب الثاني - عصر بني العباس

الفصل الأول - الوحة السياسية :

٦٩	توطئة
٦٩	دور الانتقال
٧١	التيعة المملوكة

الفصل الثانی - العصبیه والموالی فی الدوله العباسیہ :

٧٤ . قوطنة . * * * * * * * * *

٧٥ العنينة * * * * * * * *

٧٩ الموال . * * * * * * * *

الفصل الثالث - الدولة العاصيه :

٨٢ توطئة
٨٢ تأليف الجمعيات السرية
٨٤ الدعوة العامة وأوسم الخراساني
.....

المفصل الرابع - أبو العباس السجاح ٨٨

صفحة	
٩٢	الفصل الخامس — أبو جعفر المنصور
١٠١	الفصل السادس — المهدي
١٠٧	الفصل السابع — الهادي
١١٤	الفصل الثامن — هارون الرشيد :
١٢٢	(١) السياسة الداخلية
١٢٨	(٢) السياسة الخارجية
١٣٠	(٣) التكلم عن البرعة
١٣٥	(٤) الدولة الرومية والسكة الرميكية
	الفصل التاسع — الحياه العلمية في العصر العباسي :
١٦٠	توطئة
١٦١	حركة انتل
١٦٤	العلوم القرآنية والقوية والفقهية
	الفصل العاشر — الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس
١٦٦	توطئة
١٦٧	الحطابة والحطباء
١٧٢	الصفحات
١٧٤	مخالي الخلفاء والمخاطرة
١٨٢	الشعر

الكتاب الثالث — عصر المأمون

الفصل الأول — محمد الأمين :

١٨٩	توطئة
١٩١	مولده
١٩٢	نشأته وأحواله

الفصل الثاني — المأمون :

٢١٠	توطئة
٢١٠	مولده
٢١١	نشأته وأحواله

صفحة

الفصل الثالث - التراع بين الأمين والمأمون :

٢١٩	توطئة
٢٢٠	بقة الأمين وحلته
٢٢٢	مسداً الراع وكيف تحزل
٢٢٨	الرمود السياسية
٢٣٦	صور الراى العام واستقرار الرمود السياسية
٢٤٥	إطلائ الحرب
٢٤٨	اتصار الحىوش المأمونية ومقولات الشراء
٢٥٢	عرد على ذه ، جهرد الأمين فى سبل العور
٢٥٤	مظاهر الشورة وحطاؤها
٢٥٥	قتل الاميب

الفصل الرابع - الخليفة المأموب :

٢٥٧	توطئة
٢٥٨	السياسة الداخلية
٢٥٨	ملخص الحالة العامة فى المدة الحراساية
٢٦٩	المدة العدادية
٢٧٣	ثورة مصر شت
٢٧٧	الرب
٢٧٨	ثورة مصر
٢٨١	مالك الخسرى
٢٨٦	مهاب ونحصل
٢٨٧	اتراضات
٢٨٨	السياسة الخارجية
٢٩٠	عزرة المأموب الروم
٢٩٢	- ككلة ختاية

الفصل الخامس - الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

٢٩٦	توطئة
٢٩٦	وزارة العسل ر سبل راحبه الحسن
٣٠٤	وزارة أهدن أى خاله

صفحة	
٣٠٨	وزارة أحمد بن يوسف
٣٠٨	وزارة يحيى بن أكثم
٣٠٨	وزارات أخرى
٣٠٩	الحمد والتقوادي عصر المأمون
٣٠٩	ديوان القضاء والحكام والحمة
	الفصل السادس — خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية :
٣١١	توطئة
٣١١	صكبة الوزراء
٣١٢	الاستعفاء
٣١٧	ثروة الخلفاء ورجال الدولة وديارهم
٣٢٠	الحجاج في عهد المأمون
٣٢٣	الحجاج في عهد المتصم
٣٢٧	السايات والحاسوبية
٣٢٨	الدعاية (البريد احدا)
٣٣٠	صحة مهنة القوارج
	الفصل السابع — شخصية المأمون :
٣٣١	توطئة
٣٣١	صكره وصحائه
٣٣٧	كيف تمك المأمون قلوب طلائع
٣٤٠	قدره لرجال دولته
٣٤٢	قدره للشعاعة الادبية
٣٤٥	عدله و إصافه
٣٤٩	عصوه
٣٥٢	احتماله
٣٥٣	صبره بالأدب
٣٥٩	علم المأمون
٣٦٢	احترامه للدين
٣٦٤	سياسته
٣٦٧	مذهبه الذي
٣٧٢	كله خاتمة عن المأمون

صفحة

المصبل الثامن — الحياة العالمية في عصر المأمون :

٣٧٥	توطئة
٣٧٩	حركة الترجمة والقل
٣٨١	صكت العصر
٣٩٤	آثار البصة المأمونية
٣٩٥	القول بحق القرآن

الفصل التاسع — الحياة الأدبية في عصر المأمون

٣٩٩	توطئة
٤٠٢	المادة أولمة التعاطف
٤٠٣	المطاة
٤٠٥	الصناعة
٤٠٦	محال المطاة وأها، الأدب
٤٠٦	الشعر

الفصل العاشر — نماذج لمص الشخصيات البارزة في العصر المأموني :

٤١٧	توطئة
٤١٧	حراثيل بن عتيشوع
٤٢٠	الحاحط
٤٢٩	أمان بن عبد الحميد اللاحق
٤٣٤	أحد بن يوسف الكاتب
٤٤٠	يحيى بن أكنم
٤٥٢	بصاق بن اراهيم

« إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتَبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ »
 « فِي غَدِهِ : لَوْ غَيَّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ »
 « يُسْتَحْسَنُ ؛ وَلَوْ قُتِلَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ »
 « أَجْمَلَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِثْلَاءِ »
 « النِّقْصِ عَلَى جَمَلَةِ الْبَشَرِ » .

العماد الأصفهاني'

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مولای

الله على نعمة التوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك،
والاستغلال بظلك، فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلك،
وتقفهم نصحك، وهذبهم أدبك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ،
ومثقف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنْتُ قد أخذتُ نفسي بآبِ أَقْفٍ على خدمتك ما أملك من
وقتٍ وجهْد، ولكن الإنسان طُلْعَةٌ بَطْبَعَه، فاذا اتصل بك فلا حدَّ
لرغبته في البحث، وحرصه على الجِدِّ، وطُمُوحه الى الكمال .
وكذلك أراد الله أن أقتطع من هذا الوقت الذي وهبته لك خالصاً
ما أمكنتني من وَضْعِ هذا الكتاب .

فهل تأذن لي يا مولای أن أرفع اليك "عصر المأمون" على
أنه أثر يُهدى الى مُنشئه، وحقُّ يَرُدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من
رجلٍ مَهْمًا يَقَعْلُ ومهما يَقُلْ فلن يورثكَ بعض ما يَدِينُ به ضميره لك
من حُبٍّ وإجلال .

مدَّ الله في حياة مولای، وجعل مستقبلها كإضيائها حافلاً بالجِدِّ
والتوفيق في خدمة أمته وعصره ومليكته .

أحمد فريد رفاعي

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . ومعدوني أقدم بهذا الأثر الصبيل من "عصر المأمون" الى أمي، وإلى الناطقين بالصاد من أبناء لقي . وآمل بفضل إرشاد العلماء والقاد أن يوفقني الله الى إكمال القصص، وإصلاح الخطأ، وتلاي القصص في الطعرات القادمة . معترفاً، في صدق وإخلاص، بأن طبعي هذه لا تعدو أن تكون "محاولة" لكتابة التاريخ العربي على الطم العلمية الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخاً العربي لا يزال، بلا مباله ولا إعراف، تُعوّذه شتى المصادر كما يُعوّذه التظيم والتريب والتحقيق والاستفراء . وإني أسأله تعالى أن يعطيني ممن يُدعُن لكلمة الحق . فترعى حرمها، وينسدي بهتها، غير مفتون بمدح المادح، ولا مُنتسٍ ففسح القادح . كما أسأله أن يُرشدني الى المعنى موقفاً مسنداً فيما أحدث به نفسي من البحث عن عصور "معاوية" و"المصور" و"الرشيد" و"عبد الرحمن الأندلسي" . وآملُ بمحنته تعالى، وإرشاد العلماء والأدباء، ومعوّنة المستشرقين والباحثين، وبما يَبُ لي الله من صبر وحلد، ومواطبة ومتأبره، ومتابعة للدرس والاستفراء، وبما أوفقني اليه من مصادر وصوص، ومراجع ومظان، أن أكون - بعد الانتهاء من كتابة ما اوتيت به، لو كان في العمر بقية - قد وَفقتُ الى تنظيم دراسته تلك الحوث تطلياً جريئاً، يعق ووسائل ومقدوري، ويختشي - الى حدّ ما - والطريقة التحليلية الحديثة في كتابة التاريخ، وأن يكون عملي حين دالك مما يسمح لي أن أقول، في نحه وإيمان، إني قد قمت

حقاً "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكن ميري من اتخاذها أساساً لكتابة تاريخ المذنبات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة ، كتابة تاريخية صحيحة .

٢ - وقد وقع "عصر المأمون" في مجلدات ثلاثة ، خصصت أولاً للتاريخ ومآلى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما الى الأدب . وأعتمدت في تلخيصي للشعراء فهما على أهميات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأعاني ، وأعترف - في صدي وإخلاص - أن مهمتي في المجلدين الآخرين لم تخرج عن مهمة التحير لي في تلك المصور الراهية من عُمر وودرد ، المتقّب عما فيها من طُرف وملتج ، الملخص لحياه أدبائها وشعرائها ، المتخطب بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى صُكتب ثلاثة . طابعتُ فيها البحث عن عصور بني أمية وبني العباس والمأمون . وقد توجّيت بالإيجاز في قُدلكتي التاريخية عن عَصْرِي الأمويين والعباسيين لأهما بنبأة تُكَاة وأساس لموصوعاً ، كما لاحظتُ الاستمساك بالحيدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرخين والرواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكبت بهم عن تحمة الصواب معالائهم في الانتصار لفكرهم الحزبية . وقسمتُ المجلدين الثاني والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما ويسمه المقام من المنشور والمطوم والصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُييت عاية حاصه الى جانب ذلك بذكر جملة صالحه من آثار كاتب حاص وشاعر حاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أمويّاً ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث و بشّار بن بُرد مثالا عباسياً ، ومن عمرو ابن مُسْعَدَه وأبي نُوَاس نموذجاً لتصوير الحياه الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، لجاء المجلدان الثاني والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لن يعترض علىّ معترض لعابقي بالعصر العباسي من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يَسُدَّ "عصر المأمون" عن كونه شطراً يُعْمَلُ به من العصر العباسي ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لنههم العصر العباسي أن نصوّر لك العصر الذي قبله

بما يسمعه المقام . وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواصلة نأمل أن تكون فيها الثنية
والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كتبت دهبته اليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة ،
رغبة في ألا أشغل نظر القارئ بما لا يُجدي عليه ، وحرصا على توحيد مجهوده في استيعاب
الموضوع وتمهيد شئ من مآجيه ، مُلحَقاً في الوقت نفسه نهاية المجلد الثالث بيان مصادر
الكتاب لمن أراد توسعا مُتراجعا .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي اردات
برعاية مولانا المليك "فؤاد الأول" حفظه الله . كما ازدانت باصعة حدم أقطابا
وزعمائنا ، دوى الصحف البيضاء ، والآثار الخالدات الباقيات ، وعلى رأسهم أصحاب الدولة
الأحلاء ، فقيدها المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقبطان الخطيران "عبدل يكن باشا"
و"عبد الحافظ ثروت باشا" . فهؤلاء الثلاثة ، قد وهب الله لهم أصالة الرأي ، ونائلة القصد ،
وثروة الذهن ، وعنى العقل ، وحجابه سدادا في سياسة ، وتواصعا مع رئاسة ، وحكمة في سياسة ،
ونبوغا مع ثقافة ، وحرما في حصافة . وأتمتهم بثقوب النظر ، ورجاحة الفكر ، وأفاض
على أشغافهم ليا ودماثة ، وسماحة ودعاة ، حتى أجمع القوم على حبهم لإجماعهم على
الاعتراف بوافر فصلهم ، والإشادة بعطرد كرمهم ، وتساقوا الى الاستفادة من سديد
مواقفهم ، وحكيم صممهم ، ونزيبه أعمالهم ، استفادتهم من أفابيق عرفانهم ، وقبض
بينهم ، ومقنع برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهة السياسية ،
نجاحهم في تكوينها من الوجهة القومية . فإلههم رحمة واسعة لرعيما الراحل الكريم ، وعوضا
الله من خسارتنا العادة في فقده ، أحوج ما كنا الى عظيم جهوده ، وهب اللهم
حياة طويلة لقطبينا محط الآمال ومعتد الرجا .

وأحمد تعالى على أن دخلت البلاد عهدا جديدا من حياتها العلمية ، برعاية وزير معارفنا
. الهام ، مُرَهَف الزمات ، مسدد الوثائق ، صاحب المعالي "علي الشامي باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الحليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رجالات العلم والأدب في هذا الجيل .

٤ - وإنى أنتهز هذه العرصه لأشيد بما للرحوم الأستاذ محمد الحصرى بك من فضل عظيم . ومعترفا بما لصديق الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونَة قِيمَة في غير موضع من الكتاب ، كما أنتهزها لأشكر لسادنى العلماء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسن استضافتهم لكاتبى . كما أحمد لحصرات النقّاد الأخلاء جميلَ تسجييمهم وحكيم أخذهم الأمور بهوادة ورفق . معترفاً صادق رعبتهم في الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قدر روحهم المالية فيا دتيه فاجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعلم القدر عدما عما وُصِم به أخيرا من القَطَّاعُن وَالرَّمَاء ، والجَلَّاد والشَّعَاء ، والعمل على الهدم لا على البناء ، كما أشكر لسادنى الأستاذين الجليلين محمد عبدالوهاب البحار وعبدالحق عمر والكاتبين الأديبين محمد المهياوى ومحمد صادق عبر ، حُسْن صنيعهم في تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما للوعى أحسن الله جرائهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حصرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشَّاء . وأحمد زكى العدوى امدى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الموامش الحسان . وعبد الرحيم محمود امدى ومحمد عبد الجواد الأصمعى امدى المصححين به وصاحبي الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم العاقل ، في ضبط الكتاب وتصحيح مسوداته . كما أشكر حصرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جراه المأمون على حَدِّه وكبير عايته بدور الحكمة (دور الكتب) العليدة في عصره ، بأن وفق دار الحكمة في مصر ، في هذا العصر ، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، وتقيق وتحقيق ٥

أحمد فريد رفاعى

الكتاب الأول

عصر بنى أمية

الفصل الأول

تحول المدينة الإسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عثمان وطلح الجماعات العربية لها .

(١) توطئة :

حمل الفتح الإسلامي الذي فتحه الخلفاء الراشدون في سبيل الدعوة الدينية من العاصر المادية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائج وآثاره ، فبعد أن كانت الأموال في أيام النبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفاً وحيل ، وبعد أن كان عمر بن الخطاب دهباً مرتاباً حينما أُلِّفه أبو هريرة عند قدومه من التحرير أنه أتى بمائة ألف درهم فاستكثرها عمر وقال : أندري ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المنبر وقال : «أما الناس ، قد جاء ما لى كثير ، وإن شئتم كلاً لكم كلاً ، وإن شئتم عدداً لكم عدداً» — بعد أن كان دهباً من هذه الثروة أصبحوا نرى ، بعد عهده بقليل ، حسامة الهبات مما لا تعد هذه الأموال في جانبه شيئاً مذكوراً .

ونحن لا نعترض الآن للقول فيما وصلت إليه الثروة الإسلامية في أيام المأمون ، ولا نعترض لقول المدنيات العديدة التي سادت في عهده ، لأننا رسماً لأنفسنا خطة من لا يريد

استبأق الحوادث وآثارها ، ولا التاريخ ونتائجها . وإنا نحترئ الآن بكلاما عن عصر قريب من عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، القريب العهد بتأثر الأذهان بالمثل العليا : من أبي بكر الذي مات ولم يحدوا عنه من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من عرارة ، والذي أوصى حينما دنا أجله بأن تُباع أرض كانت له ويُدفع ثمنها بدلا مما أخذ من مال المسلمين ، ومن عمر بن الخطاب الذي حرّم على المسلمين اقتناء الصباغ والزرارة ، لأن أرواقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عبيد وموالي ، كلّ ذلك يدصّه لهم من بيت المال ، فما هم الى اقتناء المال من حاجة ، وليس لئال في نفوسهم من إعراء ولا الى صحايرهم من إفساد .

هذه حال المسلمين المادية والمعوية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، نظريتها وبين ما حدّد بعد ذلك من كثرة في المال وإسراف في الترف مما كان له أعمق الأثر في تغيّر أحوال المسلمين الاجتماعية والمعيشية والخلقية . يحدّثنا أبو حلدون عن عامل أموي ، ليس بملك ولا خليفة ، يحدّثنا عن خالد القسري أمير العراق في أيام هشام يقول : إن علته بلغت ثلاثة عشر ألف ألف درهم . ويثبت لنا ابن الأثير دليلا ليس بأقل مما ذهب اليه ابن حلدون قيمة وخطرا ، إذ يقول ما نصه : « إن طارقا حليلة خالد على الكوفة لما حتّى ولده أهدى اليه خالد ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب » . وذكر اليعقوبي : أن حالدا فرق أموالا عظاما مبلغها ستة وثلاثون ألف ألف درهم .

أجل ! لقد تحوّلت الاعتبارات الاجتماعية وفقا للتميزات المادية ، فبعد أيام الورع وغبية سلطان الدين والعدل في أعطيات المسامين ، بعد أيام عمر وصحابة عمر التي نلم الشيء الكثير من وجهة نظر محمد الدين الاسلامي فيها الى المال — وهو عصر حيوي شديد الأثر في تحوّل العلم المعيشية والاجتماعية والسياسية أيضا — والى ضرر اختراجه ، فقد قال قائل لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين ، لو تركت في بيوت الأموال شيئا يكون عُدّة لحادث إذا حدث » ! فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرّها ! وهي فتنة لمن بعدى . إني لا أعدّ لحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهي

عَدُّنَا الَّتِي بَلَّغْنَا بِهَا مَا بَلَّغْنَا - بعد هذه البَطْرَاتِ التَّقْشِيقِيَّةِ الْبَرِيَّةِ، نَظَرَاتِ الْوَرَعِ وَالزَّهْدِ، سَرَقَاتِ مَا حَمَلَتْ الْفَتْوحُ مَعَهَا وَمَعَ تِلْكَ الثَّرَوَاتِ الطَّائِلَةِ الَّتِي أَتَتْ بِهَا مَا عَمِرَ عَاصِرُ عِدَّةٍ، فَاخْتَرَيْنَ الْمَالَ، وَكَانَتِ الْعِنَةُ كَمَا تَبَأَتْ طَرَاتُ عَمَرِ الصَّائِنَةِ إِلَى الْمَالِ وَاحْتِرَانِهِ، وَذَهَبَتْ فِي آثَارِهَا إِلَى مَا هُوَ أَعَمَّقُ وَأَخْطَرُ، دَهَسَتْ إِلَى الْيَكَاكِ الْخَلْقِ لِلْعَرَبِ، فَبَدَلَتْ مِنْ سِيرَةِ قَادَتِهِمْ وَسِيرَةِ شَعْبِهِمْ : كَانَتْ سِيرَةُ قَادَتِهِمْ عَدْلًا وَإِنْصَافًا، وَسِيرَةُ شَعْبِهِمْ أَنْفَعًا وَاتِّصَافًا، فَتَنَلَّ الْحَالُ غَيْرَ الْحَالِ، حَتَّى أُتِيحَ لِمَصَّبِ بْنِ الرَّيْرِ مِثْلًا، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ بُنَاوَيْ سَيِّ أُمِيَّةٍ وَيَافِئُهُمْ فِي الْمَلِكِ، أَنْ يَدُلَّ أَلْفَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ فِي زَوْاجِهِ مِنْ سَكِينَةَ بِنْتِ الْحَسَنِ، وَمِثْلَهَا فِي زَوْاجِ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ، فِي حِينٍ كَانَ حَيْدُ الْمُسْلِمِينَ يَتَصَوَّرُونَ مَسْعَبَةَ وَحُوعًا. حَتَّى كَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ مُصْعَبٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّيْرِ لِمَنَاسَةِ مَا يَمَانِيهِ الْجَدُّ وَتَرَفِ شَقِيْقِهِ زَيْمِ الْجَدِّ :

بَلَّغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً * مِنْ رَاحِمٍ لَكَ لَا يَرِيدُ حِدَاةَا
نُصِّحُ الْعَتَاةَ أَتَى أَيْلَ كَامِلٍ * وَتَبَيَّتْ سَادَاتُ الْجُودِ حِيَاةَا
لَوْ لَا بِيْ حَفِيفِ أَقُولُ مَقَالَتِي * وَأَبَتْ مَا سَابَقَتْكُمْ لَأَرَاتَا

صَدَقَ الشَّاعِرُ فِي قَوْلِهِ، إِنَّ تِلْكَ الْحَالَ لِيَرْتَاغَ مِنْهَا عَمْرُ حَقًّا، وَلِيَفْرُقَ مِنْ ذِكْرِهَا أَوْ نَكْرَ، وَيَلْتَاغَ مِنْ سَمَاعِهَا عَلَى . وَلَكِنْ الْحَالُ تَعَيَّرَتْ إِلَى مَدَى مَعِيْدٍ، حَتَّى أَصْبَحَ الْمَالُ عَرَاضًا تَشْرِبُ لِحَاظَتِهِ الْأَعْيَاقُ، وَتَمْرَعُ نَحْوَ تَمْلِكَةِ الْفُؤُوسِ، إِلَى أَنْ رَأَيْنَا فِيهَا بَعْدَ أَنْ الْحَاجَّ بْنَ يُوْسُفَ لَمَّا حَاصَرَ الْكُفَّةَ، وَفِيهَا ابْنُ الرَّيْرِ، وَتَرَقَّدَ جَدُّهُ فِي صَرْبِهَا بِالْمَجْثِقِ حَاءَ نَكْرَتِي وَحَلَسَ عَلَيْهِ وَقَالَ : « يَا أَهْلَ الشَّأَمِ، قَاتِلُوا عَلَى أُعْطِيَاتِ عَبْدِ الْمَلِكِ » ؛ فَعْمَلُوا .

ذَلِكَ هُوَ أَثَرُ الْمَالِ فِي الْأَحْلَاقِ وَالْأَحْوَالِ وَالْفُؤُوسِ طَبَقًا لِلتَّغْيِيرَاتِ الْإِحْتِمَاعِيَّةِ .

(١) هذه الآيات من عروض الكامل ومطالع :

متاعل متاعل متاعل

مرتفع

وقوله : " لو لاني " مصنف يقال له . الحزل ، وهو سكوت الـ . وسقوط الألف من متاعل كما هو طاهر في " لو لاني " يبقى مصطل وهذا البناء غير مقول يصرف إلى ساء مقول وهو معتل ؛ والحزل في الكامل قبيح .

ولحاول فيما سيعقده من العصول الآتية بيان حال الدولة العربية أيامَ عثمان، وكيف وصل الأمر إلى معاوية، وكيف نرج الملك من بني أمية حتى وصل إلى بني العباس . ولحاول بعد هذه التقديم دراسة الحياة الأدبية إلى جانب دراستنا السياسية الاجتماعية؛ وإن ذلك ينعمنا كثيرا فيما نرومه من التكلم بتسطة في القول وتصوير صحيح لعصر المأمون الذهبي ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيه، ملاحظين في ذلك كله جانب القصص والإيجاز، مآزين سريعا على حلّ الحوادث الجبار في ذاتها، والتي لا تعيبنا كثيرا في موضوعا، مثل عصر معاوية، مما نرحو أن نوفق في المستقبل القريب فكتب عنه وعما فيه من أسرار وثورات .

(ب) نظام الحكم في عهد الصحابة :

الاس من حيث مؤولم ومعتقداتهم، دينة كانت أو سياسية، لا يكادون يعدون طبقة من ثلاث : محافظين، ومعتدلين، ومُتطرفين . ولسا أحدى بسيل س التوصيح لأحكام هذه الجماعات أو الأحزاب في حياه عثمان، ولا تطر كل فيه منهم إلى سياسة حكومته، وإنما يكفينا أن قول : إن هذه العنات التي تكوّن دائما قوة الرأي العام الذي كان له في حكومات الصحابة صوتٌ يؤبه له وإرادته تُحترم، مع مراعاة طبيعة العسية العربية البدوية الشديدة الإماء والأمة — هذه العنات لم يكن شأنها ولا كهولها، رهاؤها ولا الفقيرون فيها، براصين عن حكومة عثمان .

كان نظام الحكم في عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات نظاما يُوقراطيا — اذا صحّ لنا هذا التعبير، وهو صحيح لا محالة — ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم، جعلوا الله تعالى مصدر السلطات الدينية والدنيوية، فكل شيء لله : المسأل مال الله، والحد جند الله . ومن هذه الباحية توافرت الشورى وتوافرت الكرامة الدينية . وربما كان المحافظون من رجال الدين يتبرمون من هذه الباحية أيضا بمنهج حكومة عثمان، التي لا نشك أن حزبها أيام عثمان لم يكن بدى خطر، اللهم في ماضيه من حيث الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك في العصر الجاهلي . ولكنه فاز أخيراً ، ولَمَّتِ الجماعةُ العُثمانيَّةُ ومنهم الأمويُّونَ
تَورَهُمُ المعروفَ ذا الأثر الكبير في العقليَّة العربيَّة والمدنيَّة الإسلاميَّة .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربيَّة إليها :

وبعد ، فإذا قَمَّ الشَّبابُ والشُّيوخُ من حكومَةِ عثمانَ *

أما نحن فلا يُطلَبُ ما أن نُسيِّدَ رأياً في عثمانَ ، فهو صحابيٌّ جليلٌ ، وله أثره الخالدُ
في جمع القرآن وعيد القرآن ، وله دِينُهُ السَّمْعُ الذي لا تنسُو به شائبةٌ . وما كان الدينُ لِيُحْتَمَ
على الناسِ جميعاً أن يَكُونَ طَرَهُمُ إلى الحياة الدنيا نَظَرُ التَّقشُّفِ والرَّهْدِ . ولا يُطلَبُ ما
أن تُنْهَتِ صَعْفُ الحُكُومَةِ العُثمانيَّةِ ، وإِما يُطلَبُ ما أن تُسَرَّدَ الحوادثُ بإِيجازٍ ، ولِما
في تسلسل هذه الحوادثِ ودراسِتها وتَقْيِيدِ آثارها ما قد يَسْمَحُ لنا بالتعرُّضِ له حينَ معاينِنا
الكلامَ عن عصرِنا فيما بعدُ .

سُودُ فتسائلُ : ماذا قَمَّ الشَّبابُ والشُّيوخُ من حكومة عثمانَ *

يقولُ اليعقوبيُّ : « إن عثمانَ آثرَ القرباءَ ، وحمى الحمى ، وحبى الدارَ ، واتَّحدَ الضَّيَّاعَ
والأموالَ بِمالِ الله والمسالمينَ ، ونهى أماً ذرَّ صاحبَ رسولِ الله وعبدَ الرحمنِ بنِ حَبَلٍ ،
وأوى الحَكَمَ بنَ أبي العاصِ وعبدَ الله بنَ سَعْدِ بنِ أبي سَرحٍ طَرِيدَي رسولِ الله صلى الله
عليه وسلم ، وأهدرَ دَمَ المُرُمرِابِ ولم يَقْتُلْ عُبَيْدَ الله بنَ عمرَ به ، وولى الوليدَ بنَ عُفَّةِ
الكوفةَ ، فأحدثَ في الصلاة ما أحدثَ ولم يَمِعه ذلكَ من إعاذته إياه . »

ويذكر اليعقوبيُّ في مكان آخر ما كان من إغصابِ عثمانَ لعائشةَ أُم المؤمنينَ ، ومكانةُ
عائشةَ مكاتِبها ، وأنه قصَّ ما كان يعطِها عمرُ بنُ الخطَّابِ ، وأنها ترَبَّصتْ بِعثانَ حتى رَأتهُ
يُحطَبُ الناسُ فدلَّتْ قِيسَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادَتْ : « يا مَعْشَرَ المسالمينَ ، هذا
جَلِيبُ رسولِ الله لم يَتَلَّ وقد ألى عثمانُ سَنَتَهُ » . وليس أدلُّ على شِدَّةِ حَفِظَتِها عليه من
امتناعها أن تقومَ بالصلحِ بينه وبين الخارِجِينَ عليه حينَ اشتدَّ عليه الأمرُ وصارَ إليها

مروان فقال لها : يا أم المؤمنين ، لو قُتِيتِ فأصلحتِ بين هذا الرجل وبين الناس ! قالت : قد مرغتُ من جهازى وأنا أريد الخ ، قال : يدفعُ اليك بكلِّ درهم أمقته درهمين ، قالت : « لعلك ترى أنى و شك من صاحبك ! أما والله لو دِدْتُ أنه مُقَطَّعٌ و عِرَارِيَّةٌ من عرّارى ، و أنى أُطِيق حمله فأطرحه و البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم و عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات كان نظاماً ثيوقراطياً فى إرجاعه كلِّ شيء الى الله تعالى ، و أن المال مالُ الله ، و الحمدُ جُدُّ الله ، و أن الحكم لله لا للناس . و يقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان و حازن بيت المال فى عهده مُشَادَّةٌ و مامرةٌ ، و أن حُلَّ القَادِ اتحدوا من هذه المشادَّة مَطْعَمًا و سياسته المالية ، و ثُلْمَةٌ يَتَجَمَّعُونَ منها عليه . و كانت هذه المشادَّة بينه و بين حازن بيت المال و أمر غُطَّاه ، حتى قال له عثمان : « إنما أنت حازنٌ لنا إذا أعطيتك نغذ ، و إذا سَكُنَّا عك فاسْكُتْ » . فقال : « كَذَبْتَ والله ! ما أنا لك بحازنٍ و لا لأهل بيتك إنما أنا حازنُ المسلمين » . و جاء بالمفتاح يوم الجمعة و عثمان يحطب فقال : « أيها الناس ، زعم عثمانُ أنى حازنٌ له و لأهل بيته ، و إنما كُتُّ حاربا للمسلمين ، و هذه مفاتيحُ بيت مالكم » و رمى بها . فأحدها عثمان و دفعها الى زيد بن ثابت .

و ليس من شكٍّ و أن شباب العرب عامةً و قريش خاصةً لم آلمهم و لم مطالبهمهم و هم و مُقتل عمرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصْطَدِمًا بالوارع الدينى ، و أنهم تألموا أن يبال عدُّ الله بنُ خالد بن أسيد خمسين ألف درهم ، و مروان بن الحكم خمسة عشر ألفاً مع أن عثمان استرقها منهما لما عُوت و نُوقِش ، و تألموا أن ينهب آل عثمان بمناصب الدولة و هم يرون فى أنفسهم من الكعابيات و المواهب ، و من الحسب و النفس ما لا يقل عما لهؤلاء .



و ما لنا نذهب بعيدا فى الاستدلال على نظريتنا هذه و العسُ الإنسانية هى هى الطموحُ الى زينة العاجلة و زُجرِها . و قد جاء فى الأغاني فى معرض كلامه عن أبى قُطَيْبَةَ الشاعر :

«أن ابن الزبير مضى الى صِفِّية بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أن خروجَه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثر معاوية وآبى وأهله بالقيء وسأله مسألته أن يُبايعه . فلما قُدمت لزوجها عَشَاهُ ذَكَرَتْ له أَمْرَ ابْنِ الزبير واجتنباه وأتت عليه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثر القول في ذلك، فقال لها : أما رأييت بَغْلَاتِ معاوية اللواتي كان يَحْتَجّ عليهنَّ الشَّهْبُ ! فإنَّ ابن الزبير ما يريد غيرهنَّ» .

هذا رأى كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالف فُوسَّ الشباب من طُموح الى السلطان ولّداته . مع أن ابن الزبير كان حارجا على أهل بيت يرى حُلّ لباس في ذلك العصر أنهم اعتصموا الملك من أهله اغتصابا . ويظهر أن معاوية نفسه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجنَّبُ مابرة على الحرب والعداء حين ذكّره على بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالة ولده له : « كلا ! ولكم رأيت سيوف بني هاشم حِدادا مملها شداً » ، فثارت ثائرتُه وقال : « ويلك ! ومثل يُعَيَّرُ لِحُبِّ ! هلم الى الرِّح ! » وأحد الرِّح وحمل على أصحاب علي .

فمقول أن يعصت هؤلاء الشَّابُّ وأمثالهم من حكومة عثمان وهم يرون السائم والقروات تكتسح بلادهم ، وللال حكمه وسلطانهُ . ومقول أيضا أن ينصب منها أمثال عمرو بن العاص الذي قال له عثمان ، يوم نذبه ليعذره عبد الناس ما كان . إلا أن أصرم جدوة الحقد عليه : « يابن الباعة ، والله ما ردت أن حرمت الناس على .. يابن الباعة ، قِلْ دِرْعَكَ مذ عزتُك عن مصر » .

هذا من ناحية النفيين ومهم المتظنون . وهناك المعتدلون ، وهؤلاء قد أوا بجانهم عن العتة واعتزلوا الناس من شرّها وآثارها ، وهم لها كارهون ومها ناقدون . وهناك المحافظون الأقياء حقا أمثال أبي ذر ورافع بن خديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهداهم ومن حبهم للأخرة وإعلاء كلمة الدين الشيء الكثير، والذين

يقول فيهم الجاحظ في رسالته عن بني أمية : « إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض » . ولو صح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين في عقيدتهم الدينية صدقا، ولتُصير مثلا أي دَرِّ المعاري ولتطر ما يحكيه لنا ابن الأثير في هذا السبيل، فهو معتدل مُستقر للحقيقة أكثر من سواء . يقول ابن الأثير : إن أبا در كان يذهب إلى أن المسلم لا سبي له أب يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليتبه أو شيء ينفعه في سبيل الله أو بعده لكريم، وكان أحد بظاهر القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِصَّةَ وَلَا يَبْقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۚ ﴾ فكان يقوم بالنام ويقول : « يا معشر الأعياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكتُمون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يملكون نار تُكوى بها جباههم وجوئهم وظهورهم » فما زال حتى وَلَّحَ الفقراء بمثل ذلك وأوجبه على الأعياء، وشكا الأعياء ما يلقونه منهم ، فأرسل معاوية إليه ألف دينار في حُجَّ الليل فأنفقها، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه ، فقال : اذهب إلى أي دَرِّ فعل له . أيقَد جسدِي من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك وإني أخطأت بك، فعل ذلك . فقال أبو در : يا أيُّ، قل له : والله ما أصبح عبدا من دنائركَ ديناراً ولكني أُنثرنا ثلاثة أيام حتى جمعها . فلما رأى معاوية أن فعله يُصدِّق قوله كتب إلى عثمان . إن أبا در قد صَبَقَ عليّ، وقد كان كذا وكذا : للذي يقوله الفقراء . فكتب إليه عثمان : « إن العنة قد أحرحت حَظَهَا وعَيْنَهَا ولم يبق إلا أن تَبَّ ، فلا تسكُ الفُرَجَ وَجَهْزُ أبا در إلى وآسَتْ معه دليلاً وَكَفَيْكَ النَّاسَ وَنَفْسَكَ ما أَسْمَعْتَ » . وسب إليه معاوية ماى دَرِّ، فلما قَدِمَ المدينة ورأى المجالسَ وأصل جبل سَلَع قال : بَشِّرْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ غَارَةَ شِعْوَاءَ وَحَرِيَّ مِدْكَارٍ . ودخل على عثمان ، فقال له : ما لأهل الشام يشكون دَرِّ لِسَامِكٍ ؟ فأجابه ، فقال : يا أبا در، عليّ - أن أقصى ما عليّ - وأن أدعو الرعيَّة إلى الاجتهاد

(١) راجع رسالة الجاحظ في أمية في باب المشركين ملحق الكتاب الثالث في المحدث الثاني .

(٢) الحلم . الأمل . (٣) حرب اللسان : حدته .

والاقتصاد، وما على أن أخبرهم على الرهد؛ ثم انتهت الحاجة إلى أن نرحل أبو دزمن المدينة وتزل الرعدة^(١).

هذا النوع من التقشيع المتبرم بحكومة عثمان، وذلك النوع من الشاب الطامع يبيته إلى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعة المعتلة التاركة الحبل على الغارب — كل هذه العوامل تجعلنا نقع بحاج الفتنة ضد حكومه عثمان وانهايتها بتلك المأساة المروعة التي كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الحاحط : من قتل عثمان رضى الله عنه، وما أسكن منه، ومن حطهم إياه بالسلاح، وتفتح بطنه بالحرا، وقرى أوداحه بالمشاقص^(٢)، وشده حامتة بالعمد، مع صرب نسائه بمحصرتة وإلحاق الرجال على حرمته، مع اتقاء مائلة بيت الفراصة^(٣) عنه بيدها حتى أطوا^(٤) أصابع من أصابعها .

كانت تلك المأساة المروعة التي تفتت القلوب الحلامدة، وتصحّر لها العيون الجوامد، فلقف عدد دكرها وألجس آسعين .

- (١) الرعدة . من قرى المدينة على ثلاثة أميال قرية من ذات عرف وها قرأى در المعارى .
(٢) المشاقص . جمع مشقص وهو يصل غريض وقيل مهم . (٣) المروعة هي الفاء لا غير .
وليس في العرب ما يسمى بالمروعة بالألف واللام غيره كما أن أما على الثقال ذكر أن كل ما في العرب مروعة نعم الفاء إلا مروعة هذا أما مائة امرأة عثمان رضى الله عنه . (٤) أطوا قطعوا .

الفصل الثباني

الجهاد بين الخلافة والملك

توطئة — كلمتنا عن علي رضي الله عنه — نحول الرأي العام — معاوية — سياسة معاوية — ميراث معاوية — معاوية والسياسة المكيطة .

(١) توطئة :

نحن الآن مقلون على فترة جهاد عفيف بين الخلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبر الجهاد فيها جهادا بين علي ومعاوية ، أو بين علي وعير معاوية من مفاسيه في الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنما يخلق بنا أن متبرها بمثابة جهاد عفيف بين وجهات الطر العربيّة في الحياة ، فإن موت عثمان رضي الله عنه لم يمت العتة بل أدكاها وزادها صرّاما واشتالا .

وإنه لمن الميسور للنقاد أن يلتمس العلة في أن الأحرار العربية حين ذاك لم تُنزع على سيدنا عليّ ، ذلك بأن الجماعة الرابعة في الوظائف والأموال لم تعد فيه طليتها وسؤلها ، ولم تعثر فيه على أشودتها ورحلها ، بل على القيص قد لقيت مه حاكما صلّا لا تلي قناته ، سار فيهم سيرة الحق لا بأحده في الله لومه لائم ، وكانت حركته وسكاته رضي الله عنه حيمها لله وفي الله لا يعط بها حق أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أحاه عقيلا ، وهو أن أبه وأمه ، طلب من بيت المال شيئا لم يكن له بحق ، فمعه رضي الله عنه وقال . يا أنى ، ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن أصبر حتى يحى . مالى وأعطيتك مه ما تريد فلم يرخص عقيلا هذا الجواب وفارقه وقصد معاوية بالشام . وكان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . فأطرد الى رجل حمله ورعه على هذا الصنيع بولديه وبأبيه من أويه ! فلما سار فيهم هذه السيرة تقل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه .

هذه خُطَّةٌ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمهم من آثار العزلة وترك حبل الأمة على غاربها ، تطاحنُ أحرابها بين مُلَّاب الخلافة ، ومنهم الخوارج الذين عصوا على عليّ كما غصبوا على معاوية ، وتدّوا من بينهم عبد الرحمن بن ملجم لقتل عليا ، والبرك بن عامر ليُخلّصهم من معاوية ، وعبد الله بن مالك الصيداوي يُريهم من حليف معاوية عمرو بن العاص . هؤلاء الخوارج كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للناس » فقموا من على حضوّة الصحكم ، وما خضع إلا مُكرها مُعتنا .

(ب) كلمتنا عن عليّ رضي الله عنه :

كان عليّ إماما دينيا ، كان مؤثلا للشرية ومثالا للورع والاستمسك بأحكام الكتاب ، كان مصدرا خصبيا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان في حكومته وحروبه على السواء مؤثرا ربا الله ومُعصيا شهوات الناس وقادعا أطماعها ، وكان عونا كاملا لأممى صعقات الخلق الإسلامي من حيث الحدة والشجاعة لا الخلق والسياسة ، كان مُصلحا دينيا على أتم ما يكون عليه مصلح ديني ، يتعاضد في هذا الإصلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا إرضاء الناس ، وكان كما وصفه عدي بن حاتم لمعاوية : « يقول عدلا ويحكم فصلا ، لتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عرير الدمعة ، طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا حلا ، ويُقلب كفيه على ما مضى ، يُعجبه من اللباس القصير ، ومن المعاش الخش ، وكان ميا كأحدنا . كان يعظم أهل الدين ويتعجب إلى المساكين ، لا يخاف الأقوي ظلمه ولا يئأس الضعيف من عدله ، فأقيم لقد رأيته ليلة وقد مثّل في محرابه وأرعى الليل سرأله وعارت نجومه ، ودموعه تتحدّر على لحينه وهو يتأمل تأمل السليم ويكي مكاة الحزين ، فكأن الان أسمعته وهو يقول : يا دنيا ألى تعزّيت أم إلى أقبلت ! عرّى غري لا حار حيك ، قد طلقك ثلاثا لا رجعة فيها » .

هذا هو عليّ حقا ، عليّ الذي بالغ في التدقيق في محاسبة عماله حتى أعصب أكثرهم وحتى خسر نصرتهم ، وفي جملتهم مصقلة بن هيرة الشيباني وابن عمه عبد الله بن عباس

بعد أن كان أكثر بصيرة له ، والذي أعصت الزير وطلحة وكان في مقدوره أن يصمّمها إليه ، والذي لم يكتسب إلى حاسه عمرو س العاص ، ولم يصل نصيحة ابن العاص ولا المغيرة اس شعبة في إقرار معاوية وآس عاصر ومُحال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال « لا أدأيس في ديني ولا أعطي الدينه وأسرى » ، فقيل له : انزع من شئت وأترك معاوية ، فإن في معاوية جرأة وهو في أهل الشام يُستَمع منه وله محبة في إثباته مما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولأه الشام ، فأبى وقال : لا والله لا أستعمل معاوية يومين . فلم تكن الحيل والخذع من مدهه ، ولم يكن عده غير ممر الحق ، والذي يقول لأصحابه بعد أن أضحوا في أعدائه : « لا تفتعوا مؤلّا ، ولا تُجهروا على حرج ، ولا تهبوا مالا » . فجعلوا يبرون الذهب والفضة في مُعسكرهم فلا يعرض له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدواث إلى حاربوا عليها . فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ، كيف حلّ لنا قاتلهم ولم يحلّ لنا سُدّهم وأموالهم ! فقال عليّ رضي الله عنه : « ليس على الموحدين سئ ولا يعم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعله ، فدعوا ما لا تعرفون والزمو ما تؤمرون » .

أحلّ هذا هو عليّ حقا ، الذي أبنت رأفته وأبى دينه أن يجمع أهل الشام من الماء كما سمعه أثناء مبارلهم حتى كاد يهلك جسده عطشا ، والذي مع شيعته وأبصاره من شم معاوية ، صارنا صغحا عن آثار استعلال ذلك في الدعوة السياسية لتأيد حلايه والخط من ملك مُبايسه ، فإنه لما لمعه أن تجرس عدى وعمروس الحقيق يُظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل اليهما : أن كُفّا عما لفتى عكبا ، فأبياه فقالا : « يا أمير المؤمنين ، ألسا على الحق وهم على الباطل ! قال : كرهت لكم أن تكونوا شتامين لقائين ، ولكن قولوا . اللهم أحقق دما ما ودماهم ، وأصلح ذات بينا وبينهم ، وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الحق من لمّح به » .

هذا هو عليّ حقا ، الشديد في محاسبة نفسه وعماله . أما محاسبة نفسه فظاهرة حليّة واضحة الوصوح كلّ . وأما محاسبته عماله فإن تاريخه مُعَمّم بنبات الأدلة والشواهد مما

أعاد منه معاوية أيتما فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مصقلة بن هبيرة النيباني من عليّ وانضمامه إلى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجة التيمي الذي كان قد استعمله عليّ على الرّيّ فكسر من نواحها ثلاثين ألفاً ، فكتب إليه عليّ يستدعيه فحصر ، فسأله عن المال قال . أين ما علّته من المال ؟ قال . ما أخذت شيئاً ، حققه بالدرة حقائق وحبسه . ووكل به سعداً مولاه ، فهرب منه يزيد إلى الشام ، فسوّعه معاوية المال ، فكان يال من عليّ ، وبقى بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معه إلى العراق فولاه العراق .

هذه الشواهد وأمثالها فيها أفطع الدلالات على شدة محاسبته لعماله وإعصائه آل بيته تدينا وورعا ، وعملا للأخرة ، لا لساء ملك في الدار الأولى .

فلتحفظ هذه الصورة جيّداً ، ولذكر أنها لم يتّج لها المورد والحاخ في ذلك الجهاد السياسي ، وإن الكفة الراححة في سياستنا الدبوية كانت لمارله الذي نعدّرها أن مدرسته باحجاز واقتصاب .

(ج) تحوّل الرأى العام :

صوّر الشاعر المقرئ "شكسیر" في روايته "يوليوس قيصر" تأثير الرأى العام سلاعه رحمانه التي يستعملون بها سدا جمة موقفه ، ويملكونها عقول قومهم التي بها يهكرون ، ويسجرون بها عيونهم التي بها يُصهرون ، فلا يصدّرون إلا عن إرادتهم ، ولا يهكرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيتما إبداع في موقعي "روتس" قاتل قيصر وسعد الرومان ، و"أطوليوس" مؤسسه وراثيه ، وأطهر إلى أيّ مدى آفتن بهما الجمهور ، وإلى أيّ مدى تناقص في حبه وبصه وإكباره وتألبه .

شكر الرومان "روتس" قاتل قيصر لأحل الرومان في سبيل الرومان ، فأسلس له قيادهم وطلخوا منه أن يتبوا العرش مكانه ، ويحلّ على الأعناق بعد أن تنوا منهم حبات القلوب ، ثم استموا إلى "أطوليوس" يرثي قيصر ، وما استموا له لأن "روتس" طلب منهم أن

يَنْصِتُوا لِأَن قِصْرًا طَائِغِيَّةً غَيْرُ قِصِيرِ الرَّاحِلِ ، فَأَصْتَوُا وَتَكَلَّمْ « أَنْطُونْيُوس » فَتَرَكَ مِنْ شُؤْنِهِمْ وَأَسْأَمَهُمْ ، وَأَسْتَمَلَ فِي مَوْقِعِهِ مَا نَثَابَ قِصِيرٍ مِنْ دِمَاءٍ وَثَقُوبٍ ، وَمَا بِجَسَمِهِ مِنْ طُعْمَاتٍ وَجُرُوحٍ ، حَتَّى اصْطَرَمَتِ الْفِتْنَةُ ، وَكَانَ نَصِيبُ « رُوتِس » مَا تَعْلَمُ بَعْدَ حِمْلِهِ عَلَى الْأَعْصَا !

هكذا حصل معاوية في جهاده وحلاده علياً ، فقد صدع بما أشار به عليه عمرو ابن العاص إدا طلب اليه إظهار مبيض الدم الذي قُتِلَ فيه عثمان وأصابع زوجته وأن يُعَلِّقَ ذلك على المبر ثم جمع الناس ويكي عليه عازياً قتل عثمان الى علي مطالبا بدمه مستميلاً بذلك أهل الشام وعيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاوية القميص والإصابع وعلقه على المبر ويكي واسنكي الناس ودكهم بمصائب عثمان ، فانتدت أهل الشام من كل جانب وأيدهم الأشراف ودووا العود كشرخيل س السميط وسواه ، وبدلوا له الطلب بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قتلته . ثم حلق لعل مَعْصِلَةَ سياسه لا يهون على السياسي حلها ، ذلك بأن بعث برسالة الى جماعه علي ، وهذه الرسالة تحتوى على أسس المبادئ العثمانية وتقول : « أما بعد ، فإنكم دعوتكم الى الطاعة والجماعة ، أما الجماعة التي دعوتكم اليها فعصا ، وأما الطاعة لصاحبكم فلا زها ، إن صاحبكم قتل حليفتنا وقرق جماعتنا وآوى نازنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فحق لا نرد ذلك عليه ، أرايتم قتلة صاحبنا ، ألسن تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ، فليدفعهم اليها فليقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علي أن يدعع الى معاوية قتلة عثمان ! وماذا يكون موقعه أمام ذلك الحزب القوي الباقي على الحليفة المقتول ! فذلك كان من المعقول أن يقف رده أمام هذه المشكلة السياسية عند قوله : « أما ما سألت من دفعي اليك قتلته فأني لا أرى ذلك ، لعلني أملك إنما تطلب ذلك دريعة الى ما تأمله ومرقاة الى ما ترجوه ، وما الطلب بدمه تريد » .

(د) معاوية :

لسا نتعرض للحكم على دين معاوية وسلج تمشيه و تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع، فقد تكلم في ذلك في الشافعي والحسن البصري، وإنما نريد أن نمثل معاوية مؤسس الملكية في الإسلام، وواضع أسس السياسة الدنيوية، والذي قال فيه عمر بن الخطاب بللسانه : "تدكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعدمكم معاوية ! " .

(هـ) سياسة معاوية :

كان معاوية ذا مواهب سياسية كبيرة، وكان داهية، دها، بعيد مدى العقل، ما لكا قياد أهوائه، كان ذا مكر وذا رأى وكرم في أمر دنياه، اذا رأى الفرصة لم يترى ولم يتوقع، واذا خاف الأمر توارى عنه، واذا حوصم في مقال اصله وقطع الكلام على سطره . كان يعمل جهده ليشترى صفائر القبائل العربية، وكان كثير البدل في المعطاء . وقد ذكر الطبري حادثة نستطيع أن نستدل منها نظر معاوية الى المال والى ملع استعماله إياه ليملك به صفائر أهل المكانة والعمود من معاصريه : ذكر أن أبا مازل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بيما أعطى جماعة من الرعاء مئ في مرتته مائة ألف : فصحتني في بي تميم ، أما حسبي فصحيح ! أولست ذايس ! أولست مطاعا و عشيرتي ! فقال معاوية : بلى، قال : فما بالك خستت بي دون القوم ! فقال : إني اشتريت من القوم دنهم ووكلك الى دبك ورأيك في عثمان بن عمان - وكان عثمانيا - فقال : وأنا فاشترى مني دى، فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته، معطاء وهويا بسجيته، وقد صدق في صفته أبو الجهم

الشاعر إذ قال :

نميل على جوانبه كما * نميل ولا نميل على أينا
قلبه لنغير حالته * فنغير منها كرها وليا

وإنا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورة معاوية لقتل عثمان ثورة مصدرها إخلاصه العبيق في العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجَرِّى حَكَمَ الشرع في قَتْلَةِ عثمان، أم ثورة مصدرها طُموحه إلى الملك ليعتصنه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان، فإن التاريخَ بحديثنا أن معاوية لما قدم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أستاذ ! ونكت، فقال معاوية : « يا بنّة أُنّى، إن الناس أعطوا وأعطيهم أمانا، وأطهروا لم حِلما تحتَه دَهَبٌ، وأطهروا لسا طاعةً تحتها حَقْدٌ، ومع كلِّ إنسانٍ سَيْفُهُ وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا سا، ولا ندرى أعليا تكون أم لسا، ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكونى امرأةً من عُرُصِ المسلمين » .

” وقد لا نعد تصورا أدق لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله : ” لا أصع سبني حيث يكفيني سوطي، ولا أصع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت. قيل: وكيف ذلك“ قال : كنت اذا مدّوها حلتها وادا حلّوها مددتها“. فهذا القول يُبين حلمه وطولَ باعه في السياسة، وهدوء أعصابه اذا حابهته المشكلاتُ، أو نزَلَتْ بساحته الكوارثُ والمعضلاتُ، ويُظهرُ سعةَ عطفه وحرمة . واقصد قال له يزيد يوم يبيع له على عهده جعل الناس بمدحونه ويقزطونه - « يا أمير المؤمنين، والله ما ندرى أنخدعُ الناس أم يمدعوننا ! » فقال معاويةُ « كلٌّ من أردت حديثه فتداع لك حتى تلعّقه منه حاجتك فقد حدثته » .

ثم أطر الى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها، فإليك لتقتعُ بصدق حكم الشعب الذي قال فيه : « كان معاوية كالجلل الطب اذا سكت عنه تقدّم، واذا ردّ تأخّر » .

(و) مميزات معاوية :

ولقد أمتاز معاوية الى جانب إلمامه التام بيمول كل من له به علاقة من الناس، وصايد تقديره مع ثقب بصيرته بما فهم من نواح للضعف يستطيع التسرّب اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كله بصفات ثلاث لما مكانتها السامية في تكوين النشأة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاث هي : أولاً إيقاع أعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة، بأفانين طريفة طالما عمد اليها الكثير من ساسة اليوم، مثال ذلك طريفته في إيقاع بطارقة الروم الذين يكدون للإسلام، وذلك بمهادتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من سمات معاوية الخلقية هي حلمه ، وهالك مثاث الأمثال أترعت بها كتبها الأدبية والتاريخية ، مُشيدة بحلمه مُطية في فصائل سعة صدره . على آنا نحترقها بما مثل عادي، ذلك أنه لما ألحق زيادا ما يبه دخل عليه بنو أمية وفيهم عدو الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي ، فقال له : يا معاوية لو لم تعد إلا الرنج لاستكثرت بهم علينا قلة وفلة، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخبيث ، فقال مروان : والله إنه للخبيث ما يطاق ، فقال معاوية . والله لولا حلمي وتحازي لعاست أنه يطاق ! ألم يلفني شعره في وى زياد ! ثم قال لمروان : أشيعية، فقال :

ألا أبلغ معاوية بن سحر * لقد صاقت بما نأق البدان
أفغصب أن يقال أبوك عف * وترعى أن يقال أبوك راي

الصفة الثالثة هي عومته السياسية، وهي غير الحلم، وقد تُتبر الى حد ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن علي في شأن نزوله في الخلافة له ، إذ كتب اليه معاوية كتابا فيها جاء فيه : «أما بعد، فأت أولى هذا الأمر وأحق به لقرايتك، ولو علمت أنك أصبطل له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايتك، صل ما شئت . وبعت اليه بصحيفة بيضاء مخنومة في أسفلها : أن أكتب فيها ما شئت . فكتب الحسن أموالا وضياعا وأمانته لشيعه على .

أصف الى هذه الصفات ما كُتِبَ لمعاوية من توفيق وسداد في اختيار أكبر دُعاة الولاية كعمروس العاص وزيد بن أبيه والمغيرة بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا، الى حدٍ غير قليل ، خطوات زعيمهم السياسى فى شراء الضمائر وسعة العَظَن ورُجوح حَصَاة العقل . وهذا زياد المعروف بِشَدَّةِ الوطَاة لعله عن رجل يُكْنَى أبا الخير من أهل الباس والَّحْدَة أنه يرى رأى الخوارج ، فدناه فولاه جُـدَيْتَسَاوَر^(١) وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كلَّ شهر، وجعل عَمَّالته فى كلِّ سنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : «مارأيت شيئا حيرا من لُومِ الطاعة، والتقلب بين أظهر الجماعة» . كذلك فعل المفسيرةُ بن شمة حين حَصَّه مُحَرَّبٌ عِدَى وهو على المبرق حطبة الجمعة، فإنه نزل مُسِرَّعًا ودخل قَصْرَ الإِمَارَة وبعث الى حَجَرٍ بِمِئَةِ آلاف درهم ترضاه بها . فقيل للغيره : لم فعلت هذا وفيه عليك وَهْنٌ وَعَصَاصَةٌ ؟ فقال : «قد قتلتُ بها» ! !

الى حاب هذه العاصير المكوَّنة لتلك الشخصية البارزة التى اعتمدت فى تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه مِنْ رَضَى الأحراب بالمال وعاقبة الناس بالطعام ، واستغلال العصبية العربية ، والتساهل فى إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعة الأحوال السياسية ، فإن معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على على بقوله : « أُعِيتُ على على بن أبى طالب أربع خصال : كان رجلا طُهرَةً عُلَّةً لا يكتم سرا ، وكنتُ كُتُومًا لِسَرَى ، وكان لا يسئ حتى يُفاجئته الأمرُ مفاجأة ، وكنتُ أَبَادِرُ الى ذلك ، وكان فى أخْبَثِ جَسِدٍ وأشدَّهم حلافا ، وكنتُ أحبُّ الى قريش منه ، فليت ما شئتُ ، فله من جامع الى ومُعَزِّقٍ عه ! » .

(ز) معاوية والسياسة الميكافلية :

وبعد ، فإن السياسة الحديثة قد أُماحت لرجالاتها فى سبيل تحقيق أعيانهم أن يتنجسوا من الوسائل ما يكفل لهم تَحْقِيقُهم السياسى . ويجب علينا أن نثبت أن جُلُومهم ، ولو أنهم يتظاهرون بعفروهم من مدرسة « ما يكافئ » التى تُضَحِّى بكلِّ شئٍ تسويها للوصول الى العاية السياسية ، يأخذون فى الواقع بتعاليمها ويعملون على بَرَأَتِهَا . هذه السياسة 'الإيجابية فى نجاحها العملى' ، السلية فى إرسائها الماسخى الخلقية ، هى التى أُنْجِزَتْ لَهَا

(١) مدينة محروستان ساها ساوورس أردشير همت اليه وأسكنهاسى الروم وطاعة من حده . أطرهم باقوت .

«ماترنيج» و «كافور» و «دزرائلي» و «بسمرك» و «بت» ، وهى التى كان من أطلالها «جلادستون» ذو المواقف الرئيه فى الإقاع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلّ من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، فى حلّ تصرفاته ، يحصل كثيرا بتحقيق عاياته فى تشييد الملك ، فهو يدير أمور الناس لهذه الوجهة ، وهو ينتج من الوسائل السياسية ما يكفل نجاحه فى هذه الوجهة . وإياه نلحق بما وبسواها ألا نمدّو بعيدا عن هذه الوجهة حين نظرنا الى معاوية فى كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حته شاعره الكبير أبى سبيحان ، وحين حكم لابس الرير بش داره المحترقة ، وحين أرمى عقيلا ، واحتمل من الأحف بر قيس ما احتمل ، وحين تحلّص من الأشر السحيّ ومن عد الرحى س خالد ، وحين فصل فى مازعة عمرو أب عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكاية الأرض التى قبل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدهما ، وحين كان يبذل المال طباقا لماجه السياسية . وإما نبيح لأنفسا حين نظرنا الى قول زير العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاوية بذمه » أن نقول : « إن معاوية كان يقاتل عليا بذمه وذمه » .

وإننا لنظنّ أنا قد صوّرا معاوية بما هو أهله ، وأوضحا ما كان عليه تلك الشخصيّة العدة فى مسيره الناس واحتمال الأذى مهم ، والتى يقول صاحبها : " ما من شيء عدى الله من غيظ أئجره " . « وإنى لا أحول بين الناس والسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا » . والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية وميراته ، أن نفهم قيمة قول على رضى الله عنه فى كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نختم به كلمتنا فيه : " إنى وليّك ما وليّك وأما أراك له أهلا . وقد كانت من أبى سميان فتنة من أمانى الباطل وكذب النفس ، لا تُوجب لك ميراثا ولا تحلّ له نسا . وإن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ثم أحذر . والسلام " .

الفصل الثالث

سياسة معاوية وخلفائه

توطئة — اصطاع الأعراب المال — المال — الوجهة الدينية — التصف المدهى .

(١) توطئة :

إن معاوية الذى مرَّ على السياسة بشأته وحَدَقَهَا بسجيته وأَهْمَهَا بِمُخْتَلِفِ أدوارها التى تَقَلَّبَ فيها ، فَطَبَعَ عليها وطَبَعَتْ عليه ، وأَصْبَحَ منها وأَصْحَتْ منه ، لم يكن فى مقدوره إلا أن يكون سياسياً هذا مَوْفِقاً ، بل مصدر سياسات عبقرية طالما تَشَدَّدَ عَصْرُهُ وزَمَانُهُ حتَّى بُنِيَ بها وَبُنِيََتْ له ، وَخُلِقَ منها وَحُلِقَتْ منه ؛ وكانت فى نفسها وجوهرها حليقة للإجلال والإكبار ، كما كان صاحبها قَبِيلاً بالجاح جديراً بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن فى وسعه ، بطبيعته واستعداده ومواهبه واستتماته لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يُوَفِّقَ مَظْهَرًا فى مُخْتَلِفِ خُطَطِهِ التى ارتسمها سديدةً ناجحةً ، لأنها قطعةٌ من نفسه ؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمشابهة أصول السياسة فى تشييد الملك بمجابهٍ من الأُصْغَرِ التى تقتلع كلُّ مُلْكٍ قائمٍ على غير طبيعة السنن الملكية الصَّوْرِيَّةِ لها ولضمان حياتها ودوام قُوَّةِ بيوتاتها .

إن معاوية ومن ضَرَبَ على قَالْبِهِ وِعِرَارِهِ علموا الخَفِيَّاتِ من أهواء النفوس ، فَمَ لَمْ تَمْلِكُهَا وَقِيادَتُهَا ، واتَّهَجُوا بها من المسالك ما أشعَ نَهْمَتَهُمْ ونَهْمَتِهَا ، وَحَقَّقَ بُغْيَتَهُمْ وَبَغْيَتِهَا ، ووَعَدُوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومُخْتَلِفِ رَغْبَاتِهَا ومُصْطَلَمِ مَنَازِعِهَا ، وَفَطِنُوا بِتَقَوُّبِ بصائرهم الى استخدام كُلِّ ما فيه القُوَّةُ والحياةُ لِمُلْكِهِمْ من شَيْءٍ العناصر : فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبِهِمْ .

أما فى نفوسهم فبأخذها ، مَكْرَمَةً أو طَائِعَةً ، بالقرام ما فيه التَّجَبُّعُ والتَّوَفِّيقُ مع قَصْدٍ واعتدال ، فتحَارَ من الولاة والرعماء والقواد والبطانة مَنْ فهِمُوا الْفَنِيَّةَ والكفايةُ وحسنُ

البلاء ، يبحث عنهم أتى وُجِدُوا ، مهما كانت عصبيايتهم وخفة ظلمهم أو كثافة فوسهم ، ويُعملون في مراكزهم بمنزلة عن التغيير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملك .

وأما في ولايتهم فبعدمهم عن جور الرعية وإصافهم الناس جميعا ، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسي أو مذهبهم الديني عسف ولا ظلم .

ولقد سأل الوليد عامله الحاج المعروف سسفه وجبروته أن يكتب اليه بسيرته ، فكتب ما انتهت ها ، وكنا نود أن يكون نيراسا حقا للحجاج وعير الحجاج ، قال :

” إني أيقظت رأيي وأمنت هواي ، فادنيت السيد المطاع في قومه ، ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموقر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما يعطيه حظا من نظري ولطيف عنايتي ، وصرفت السيف إلى اليطيف المسمى ، والثواب إلى المحسن البري ، تغاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب “ .

وأما في سائر شعبيهم فإن يستمتعوا بكل ما يرضى العدل والحق مع طمأنينتهم على ما لهم وأههم ، وأن تكون أبواب الولاة لشكايتهم مفتوحة ، وأدأهم لمطالبهم مُصيبة ، وعبوهم لخبرهم ناظرة . وكَمْ تُعيد تلك الصعات مع حرم في الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدته لا يحتج عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا ببليل . وهو الذي كانت عقوبته القتل للدج ، وأحد المقبل بالمدير والمقيم بالطاع . وقد وُفق زياد إلى استتباب الأمن في روعه حتى قال المسدثي . « قَدِمَ قادم على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية : هل من مُغرَبة حَبْر ؟ قال : نعم ، نزلت بماء من مياه الأعراب فينا أنا عليه أورد أعرابي إبله ، فلما شربت ضرب على جوسها وقال : عليك زيادا ، قلت له : ما أردت بهذا ؟ قال : هي سُدى ما قام لي فيها راع منذ ولي زياد . فسر ذلك معاوية وكتب به إلى زياد » .

قلنا : إن معاوية ومن صُيرَ على قاله ويغراره قَطُّوا بثقوب بصائرهم الى استعمال كل ما فيه القوة والحياة للمكهم من شئ المعاصر في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبيهم ، والآن يريد أن ندرُس بإيجاز الأسس التي ماتباعها تم الحاح في تشييد البيت الأموي ، والتي باضطرابها والتشكك عن سنتها وطبيعتها كان صياعه ومفاؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمال :

قال ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : « إن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبي يعقوب الحريري : مَدَّحْتُكَ لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب الغرامكة — أشعر من مرثيائك فيه وأجود ، فقال : كما يؤمّد نمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبنهما بولٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبة فقال : « وهذه عدى قصة الكُتَيْب في مدحه بى أمية وآل أبى طالب فإنه كان يتشيع ويحرف عن بى أمية بالرأى والهوى ، وشعره في بى أمية أحوذ منه في الطالبين ، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أساب الطمع وإثارة النفس لآحل الدنيا على آحل الآخرة » .

صدق أن قتيبة فيما ذهب اليه . فإن أثر المال في النفس الإنسانية غير قليل ، وإن أثره في اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ، وقد جُلبت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها .

ولقد كان معاوية كيتافاً في استعمال المال واكتساب رصا الجمهور ، وكذلك كان كل من آتم بهديه وسنته ، في الدل والمطاء ، وفي التوسعة على من أزرهم ، وعمل على نصرتهم ، ومدّ ظلمهم وتثبيت عرشهم ، فقد زاد معاوية في المطاء لمن شهد موافقه ، كما فرض الأغطية للشعراء ، عاصاً طرفة عما في ذلك من إعصاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يملك الأتواق المدحاة ويسترضيها بهاته ونواله ، لئلا تُنشر في الآفاق ذكره وترفع الى السماكين فضله ، حتى قصده الشعراء وتتبعوه ، وباصروه وظاهره ، وحتى لم يخلص

والعالم أنه إن مدحه أثراه، وإن آسرفه أغناه، وإن ناصره رأسه وأعلى مكانه، فاصحى
نُحمة الرؤاد ومقصدهم، وموئل القصاد ومنهلهم . وكانت الزوجة تسحت عزمات زوجها
أن يبرع إليه ليصيب من نوافله، وليعود إليها بوائله، كما كانت رعبُ معلها أن يبيع إبله
وأن يفترس في المعطاء بشعره .

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهاني شيئا من ذلك في أخبار جبهة الأتشي^(١) في خبر
طويل انتهى بأن قال جبهة الأتشي قصيدته التي فيها :

قالت أَيْسَةُ دَعْ بِلادَكَ وَأَتَيْسْ * دارا يَطِيَّسَ رِيَّةَ الاطام
تُكْتَبُ عَلَيْكَ فِي الْمَعْطَاءِ وَتُفْتَرَسُ * وكذلك يَفْعَلُ حَازِمُ الْأَسْوَاعِ

وهالك مسألة مهمة من سياستهم في اصطلاح الأحرار، وإلحاق الأفواه بالمال،
وفرض المعطاء للشعراء الذي ظل معمولاً به إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم
كانوا يملكون رقاب المسلمين بإقراض من شاموا من مال الصدقة ويكتبون صكاً عليهم .
ونحن نعلم أن الدين هم بالليل ومدلةً بالنهار .

ويذكر لنا الأغانى في باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرضه له سليمان بن عبد الملك
إد امر له ألف دينار في دية، وألف دينار معاوية على عماله، وبرقيق من البيص
والسودان، ومكثير من طعام الجارى، وأن يُدَانَ من الصدقة بألى دينار .

على أنه قد يعترض علينا بأن الحادثة التي قدمناها حادثة فردية لا يصح أن نتخذ قاعدة
عامة أو أن نستنبط منها وقوع مثيلاتها وذيوع نظيراتها .

بيد أن الأغانى يُجهز على هذا الاعتراض، إذ يُثبت ما نصه : « كان السلطان بالمدينة
إذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش مه، وكتب صكاً عليه يستمدهم به ويحتلون
إليه ويدارونه، فإذا غصب على أحد منهم استخرج ذلك مه، حتى كان هارون الرشيد،

(١) قال شارح القاموس في مادة « حسة » : جبهة الأتشي ككبراء : شاعر معروف كان في الصحاح .
وقال ابن دويد : هوجبها الأتشي بالكثير .

فكلمه عبد الله بن مُصَنَّب في صكوك قيت من ذلك على غير واحد من قریش فأمر بها فأحرقت .

فقل هذا التصرف في استرضاء الناس واستعبادهم وفي إقراضهم المال ليكونوا أولياء وتصغيرهم وإرهاقهم ان ححوا لماواة ولأه الأمور أو ما فستهم، له آثاره من خير وشر في المصلحة الحربية ليت بنى أمية، طبقا لما يديه الرعاء من حُكْمَةٍ وحريم، وإصابة لمواقع الصواب .

وسعد، فإن هذا السلاح الماصي في يد الأقوياء هو أشد مَصَآءً في القضاء على الصغفاء إذا أساءوا استعماله ، لأنه قد يندل لشراء مثل «الدلاء» وغيرها من القيان، ولأنه قد يبدله الثناب من الخلفاء في صروب الخلالة والاستهتار، فيكون يعول هُدم ودمار، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سورده عليك .

وإما لرى في أحرار هذا البيت ذى الأثر الكبير في تحول المدينة العربية أن بعض الخلفاء بقص الناس العطاء فهاوا صبقا مد سعيه ، وشطفاً مد رهاية . وشر السياسات أن تُصَيَّبَ صاحب عيش رعيه بإصافة وحرام، وأن تُنَزَلَ به عَصَاةُ التقنير والعصر .

ولسظر ما يقوله اليعقوبى عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضافة في أرزاق الناس وعوانٍ اصمحلل الدولة إذا آد مدحها بالأقول، وآل أمرها الى الإفلاس .

يقول اليعقوبى عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُئِمَ يزيدَ الباقر لأنه نقص الناس من أعطياتهم واضطربت عليه الدنان، وكان ممن خرج عليه الناس بن الوليد بمخص وشايحه أهل حمص، وبشر بن الوليد قنيسير، وعمر بن الوليد بالأردن، ويزيد بن سليمان فلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد اليعقوبى أن يقول من غير شك : إن هؤلاء الامراء اتهمزوا غضب الجند لتقصان الأعطية فتأروا .

ليس هذا لحسب ، بل إن سياسة بعض الخلفاء دعوتهم الى حرمان مُدِّيٍ بخذافيها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرِّمُوا سِتَّةَ كاملة ، في حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعداقه بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة فضاعفها مائتي مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يحذر بنا بعد ما أسلفناه أن قَتَعَ بأن المال كان سببا قويا لساء بيت معاوية ، وأن المال نفسه كان ، الى حدٍّ غير قليل ، سببا له خطره وقيمه في إسيار هذا الساء ! .

(ج) العمال :

قال زياد : ما علمني أمر المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد : طلعتُ اليه رجلا من عمالي كسر عليّ الخراج طعنا اليه ، فكتبت اليه : "إن هذا فسادٌ عمل وعملك" . فكتب إليّ : "إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة : لا تلين حينا فيمرح الناس في المعصية ، ولا نشدّ فصحيل الناس على المهالك ، ولكن تكون أنت للشدّة والعظاظة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة" .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الخجاج حين استأذنه في أحد تلك الصّباية من المال التي تُترك لأصحاب الأراضي يتعلّون بها ولتكون لهم ردها وطهيرا إذا نزلت بساحتهم النواشب والجوائح ، قال : "لا تُكنّ على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المترك ، وأبقى لهم حُومًا يقدون بها شعورًا" .

يمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء ، ويمثل اختيار معاوية وغير معاوية ، كهشام وعبد الملك ، لعمال ذوى كفاية ودعاء ، وحذق وحسن ملاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أتبع لمعاوية وحلفاء معاوية يتوّء عرش المملكة العربية قوى الأركان لا تهتصره العواصف والأعاصير ، ثابتا لا تُزعزعهُ تَوَارُثُ الخوارج ولا حروبُ المنافسين .

كانت الدولة أيام معاوية ، أيام بانها وتسيدها ، أيام تلك المصاعب الكدائد التي اضوت سبلهم ، وتلك الشدائد التي تُنهب وتُفزع ، وتُفرض المضاجع ، وتجتث من النفوس

آمالها ، ومن العزمات مَصَافها : ومن القلوب مَاسَها — كانت الدولة يومئذ عنيةً بالكفايات ، خِصْبَةً بِمَهْرَةِ الْعَمَالِ وَحَدَايِ الْوَلَاةِ . ولعلها سمة طوعية أن يكون دور بقاء العروش والممالك خِصْباً بِرَحَالِهِ الْكُفَاءِ ، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيما في كل شيء ، وإن كانت الأمم ، وهي تُنْقَطِعُ أَنْفُسُهَا ، قد لا تحلومس إلا بالوَجْهِدِ فِي سَبِيلِ إِقَاتَتِهَا مِنْ عَثَرَتِهَا ، وَإِنْهَاضِهَا مِنْ سَقَطَتِهَا .

ألم يكن إلى جانب معاوية في عصر الساء أصحاب الكفايات النادر من العمال والولاة أمثال عمرو بن العاص وزيد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الذين يقول فيهم بعض القاد : « ما رأيت أثقل حِلما ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيت أظلم للرجال ولا أبلد لم حين يحذمون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سرا علاتية من زيد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخْرِجُ مِنْ بَابِ مِنْهَا إِلَّا بِالْمَكْرِ لَخَرَجَ مِنْ أَبْوَابِهَا كُلِّهَا » .

على أنه يحذر بما أن نصور حالة الولاة الكُفَاءَةِ أَيَّامَ الْقُوَّةِ ، وما آل إليه أمرهم سد ذلك حتى اصمحو يتقربون إلى الخلفاء بالهدايا والألطف والرشا مع صَفِّ الرعية والكيد لها . ولترك لليعقوبي التكلّم عن الحالة الأولى ، ولايس الأثير بيان الثانية ، ثم يُرِيدُ ذلك بعض الحقائق التاريخية لكي يُتَبَّحَ لنا بعدئذ أن نطمئن إلى تقدير هذا العصر — عصر العمال — وأنه لا يقلّ عن المال قوة وأثر ، سواء أكان ذلك في الباء أم في الهدم ، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم ، وأما الهدم فبعسف الولاة وتزقيهم ، وسوء اختيارهم وقلة بصاعتهم في تدبير الممالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبي في معرض كلامه عن زيد بن أبيه بعد أن وصف ماله من دهاء وحيلة وصولة : « كان زيد يقول : مَلَاكَ السُّلْطَانُ أَرْبَعُ خِلَالٍ : الْعَفَافُ عَنِ الْمَالِ ، وَالْقُرْبُ مِنَ الْمُحْسِنِ ، وَالشَّدَّةُ عَلَى الْمُسِيءِ ، وَصِدْقُ اللِّسَانِ . وكان زيد أول من بسط الأرزاق على عماله ألف درهم ألف درهم ولعمري خمسة وعشرين ألف درهم . وكان يقول : ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم » . وبعد أن ضرب اليعقوبي الأمثال

على معرفة زياد بدحائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتقلبه مصص الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولاه : كان زياد يقول « أرعة أعمال لا يليها إلا المسء الذي قد عص على تاجذه : الثغر، والصائفة، والشرط، والقضاء . ويبغى أن يكون صاحب الشرط شديد الصولة قليل الفعلة، ويبغى أن يكون صاحب الحرس ميساً عفيفاً مأموناً لا يطمعن عليه . ويبغى أن يكون في الكاتب نحمس خلال : مدعور، وحسن مداراة، وإحكام للعمل، وألاً يؤخر عمل اليوم لغد، والنصيحة لصاحبه . ويبغى للملاحب أن يكون عاقلاً قطعاً قد حدم الملوك قبل أن يتولى مجاباتهم » .

ثم أنظر ما آل اليه الأمر أيام الوليد بن زيد الذي رعب في اكتساب قلوب الناس مدهورها، وإرصادها بعد تبرمها، وإياسها بعد وحشتها، بأن يزيدي أعطياتهم ويصاعف أرزاقهم . يسد أن معين المال قد نصبت أوكاد، وانحرزانه قد استنرتها الملائد وحروث الخوارج وإخماد الفتق، فعمد الى بيع الولايات . وإن أبى الأثير ليحبرها، في حوادث ستة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولّى نصر بن سيار خراسان كلها وأفرده بها، ثم وقد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه بصراً وعمالة، فرد اليه الوليد ولاية خراسان، وكتب يوسف الى نصريامره بالقدم ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يقدم معه عماله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد الى نصريامره أن يتجده له برابط وطاير وأمايق ذهب وقصبة، وأن يجمع له كل صالحة خراسان، وكل باز وريثون فار، ثم سير بكل ذلك بعسه في وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغاني من عامل لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية اس عبد الملك الذي كتب اليه يقول : « إن نراج خراسان لا يبي بطنخي »، وما أئنه الفاسي ابن حلكان في تاريخه عن أبي خالد يزيد بن أبي المثني عمر س هيرة الى مروان ابن محمد على العراق : من أن يزقه كال ستمائة ألف درهم .

هذا الى ما نزل أهل الذمة ويبرهم من السيف وزياده الضرائب، وما كان من تخليه أصحاب الأراضي لها بنهر حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال في إهداء الخلفاء،

وتزوعهم الى جمع الثروة واحتران المال، فإنك بعد كل هذا تطمئن معى الى الاقتناع بأن المال الكفاءة مصدر قوته في بناء الممالك وعُصْرُ يُحْفَلُ به في مادة حياتها، وأنهم عنوان مهامها وصولتها، وأن الولاة الظلمة الضعاف مصدر ويل وثبور، وأداة هديم وتخريب وانتقار وفناء .

وإنا نسوق هنا كلمة لبعض بنى أمية حين سُئِلَ عن سبب زوال ملكهم لا تحلون عظة واعتبار، قال : « قِلَّةُ التَّقْطِطِ، وَشُغْلُنَا لِمَدَانَتِنَا عَنِ التَّفَرُّغِ لِمَهْمَاتِنَا، وَوَقْتُنَا بِكُفَاتِنَا فَأَثَرُوا مَرَايِقَهُمْ عَلَيْنَا، وَظَلَمَ تَحْمَالُنَا رَعِيَّتَنَا فَفَسَدَتْ نِيَّاتُهُمْ لَنَا، وَجُمِلَ عَلَى أَهْلِ خَرَجِنَا قَتْلُ دَحْلُنَا، وَبَطَلَّ عَطَاءُ جَدَمَا قَرَالَتِ طَاعَتُهُمْ لَنَا، وَاسْتَدْعَاهُمْ أَعْدَاؤُنَا فَأَعَاوَهُمْ عَلَيْنَا، وَقَصَدْنَا نَعَاتُنَا فَعَجَزْنَا عَنْ دَفْعِهِمْ لِقِلَّةِ أَنْصَارِنَا، وَكَانَ أَوَّلُ زَوَالِ مَلِكِنَا اسْتِنْتَارَ الْأَخْبَارَ عَنَّا، فَزَالَ مَلِكُنَا عَنَّا بِنَا » .

(د) الوجهة الدينية :

إنَّ سُنَّةَ معاوية في بناء دولته لم تكن، مع ما فعله من ترخصه في إقامة الحدود في بعض الأحوال لصرورات سياسية، سُنَّةَ استهانة بالدين ولا إيمان في ازدرائه أو اخروجه عن حُلِّ مظاهر الاحتشام الديني، الخليفة بن يسوس أمور الدين والدنيا، هذه سُنَّةُ معاوية وطريقته في سياسة الملك . أما خلفاؤه فقد تَكَبَّرَ جُلُثُهُمْ سُنَّةَ الحكيمية، وأطلقوا لشهواتهم العنان فيما ينبغي أن يكون حلفاء المسلمين وأعمتهم بنحوه منه . وقد كان لذلك آثاره في الدولة من حيث تأثر أحلافها القومية، وما أصابها من انحلال وضعيف، ومن تفكك وفور . وسنعالج تصوير هذه العوامل بأجاز واقتضاب في كتبنا هذه، فلا نُفَرِّدُ لكل منها ما، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحها لهذه الأصول فائدةٌ حُلِّيٌّ، بيد أن اتساع نواحي الموضوع وتشعب فروعه ومختلف أبوابه — كل ذلك يُلْزِمُنَا إلزاماً اتباع ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة، على ما نظن، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفاية من خلفاء معاوية من ناحية الدين والخلق العام، لأن فيما جالحناه من تحليل أخلاق معاوية الفنية والكفاية .

ونريد الآن أن ندرُس تلك الناحية العكسية ، ناحية أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التقاليد الدينية فازدروا طقوسها ، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خُرق .

إن أَمَّا يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد ، أما ابن معاوية فقد أصاب اليعقوبي سِدْرَةَ الصَّوَاب حين وصفه بأنه حَلَفَ نَسْوَةً وصاحبٌ مَلَأَ . ويكفى أن ندرُس حياته — مع أن الدولة كانت في إبان قُوَّتِها ومِيعَةِ شَبَابِها — لِنَتَّسِعَ بأنها كانت بمثابة مَعَاوِيٍّ هَدِمْ وتَحْرِيبَ ، وإن في المأسا بما كان من مسلم بن عقبة الذي انتَهَكَ المدينة لَمَقَمًا بما قول . لقد كان جندُ يزيد مد واقعة الحرة وغيروا يطلبون الى الرجل القرشي أن يبيع ليزيد ، لا من ناحية اقتناعه الديني طبعاً ، ولا بدافع الترضيع والمال ، ولا بسياسة الرقة واللطف التي قد يَأْلُ بها أكثر مما يَأْلُ بالشدة والعنف ، بل من ناحية السيف والإرهاب ، يحس أن يبيع وأَنَّهُ رَاغِمٌ ، ويجب أن يبيع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت حنْدُ يزيد تقول للقرشي : يبيع على أنك عبد قن ليزيد ، فإن أبي ضَرِبَ عَقَّهُ ، فكانت مقتلة ذريته . ثم انظر ما كان من حصارهم مكة التي إذا قال قائلها : « يا أهل الشام ، هذا حرم الله الذي كان مأمأ في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد فاتموا الله يا أهل الشام » ، صاح الشاميون « الطاعة الطاعة » .

لترك يزيد حاسباً ، عجليس القارئ الى ما في الأعاني وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولترد الطرف في حياة يزيد بن عبد الملك ، فجدد أبا الفرج الأصبهاني يذكر لنا ، في غير موضع من حياة سَلَامَةِ الْقَسْ ، وحجابه وغيرهما ، شيئاً لا يُسْتَبان به عن إسراره في تهتكه ، فيقول لنا عن المدائحي قوله : قَدِمَ يزيد بن عبد الملك المدينة في خلافة سليمان ، فترج سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار ، ورُيْجَةُ بنت محمد بن علي بن عبيد الله ابن جعفر على مثل ذلك ، واشترى الغالية بألف دينار . وفي رواية محمد بن سلام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول في موضع آخر : إن رُسِلَ يزيد بن عبد الملك قَدِمَتِ المدينة فاشترى سَلَامَةَ الْمُعْتَمَةِ من آل رُمَانة عشرين ألف دينار .

ولمَّا تَمِيلُ إِلَى مَقَالَةٍ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ مَعَ تَعَلُّدِ رَوَاتِبِهَا بِتَحْفِظِ الْمَوْزُخِ الْعَلِيِّ الَّذِي لَا يُقْنِعُهُ إِلَّا الْوَسَائِلُ التَّحْلِيلِيَّةُ الْمُؤَيَّدَةُ لِمَصْدِقِ الرِّوَايَةِ . عَلَى أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ بِاطْلَاعِكَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْيَعْقُوبِيُّ مِثْلًا عَلَى طَرِيقِهِ جَبَايَةِ الْمَالِ ، وَعَلَى مَا كَتَبَهُ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى عُمَرَ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْعِرَاقِ ، بِأَمْرِهِ : أَنَّ يَمْسَحَ السَّوَادَ مَسْحَهُ سَنَةَ ١٠٥ هـ . وَلَمْ يَمْسَحِ السَّوَادُ مِذَّ مَسْحِهِ عُثْمَانُ بْنُ حَيْفٍ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حَتَّى مَسَحَهُ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ فَوَضَعَ عَلَى السَّحْلِ وَالشَّجَرِ وَأَصْرًا بِأَهْلِ الْخُرَاجِ وَوَضَعَ عَلَى الثَّانِيَةِ وَأَعَادَ الشَّحْرَ وَالْهَدَايَا وَمَا كَانَ يُؤْخِذُ فِي الْبُرُوزِ وَالْمُهِرْحَاكِ . لَيْسَ هَذَا خَسْبٌ بَلْ أَنْظُرْ إِلَى تَعْلَلِهِ فِي فُرْصِ الْغَرَامَاتِ الْمَالِيَةِ عَلَى كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ لَا بِالْحَرَمِ إِلَّا أَنْ نَعُودَ لَهُمْ حَدَّثَهُمْ أَنْ يَتَرَجَّعُوا بِعَصَى آلِ الْبَيْتِ ، إِذَا عَدَّ اللَّهُ بْنُ الصَّحَّاحِ بْنِ قَيْسٍ الصَّهْرِيَّ عَامِلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ كَانَ قَدْ خُطِبَ لِنَفْسِهِ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ بِطَرِيقَةٍ حَافَةِ ، فَهَرَلَهُ يَزِيدُ عَلَى الْمَدِينَةِ وَوَلَاهَا عَبْدَ الْوَاحِدِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الصَّعْدِيِّ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَيَعْدِيهِ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ . وَيَقُولُ الْمَوْزُخُ الَّذِي قُلْنَا عَنْهُ : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الصَّحَّاحِ قَدْ رَأَى وَفَى عَقْدَهُ حَرْقَةً صَوْبَ يَسَّالِ النَّاسِ .

وَلَمْ يَكْتَفِ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِهَذَا ، بَلْ عَزَلَ عُمَّالَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَمِيعًا . وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَنْ هُوَ عَمْرُوهُمَا عَدْلُهُ وَمَا رَقَاتُهُ عَمَّالَهُ . وَيَكْفِينَا أَنْ نَذْكُرَ مَا كَانَ مِنْهُ مَعَ يَزِيدِ ابْنِ الْمُهَلَّبِ عَامِلِهِ عَلَى خُرَاسَانَ ، فَقَدْ قَالَ لَهُ عُمَرُ : « إِنِّي وَجَدْتُ لَكَ كِتَابًا إِلَى سُلَيْمَانَ تَذْكُرُ فِيهِ أَنَّهُ احْتَمَعَ قَبْلَكَ أَلْفَ أَلْفٍ ، فَأَنْكَرْهَا ثُمَّ قَالَ : دَعْنِي أَجْمَعُهَا ، قَالَ : أَيْنَ ؟ قَالَ : أَسْأَلُ إِلَى النَّاسِ ، قَالَ : تَأْخُذُهَا مِنْهُمْ مَرَّةً أُخْرَى ! » . ثُمَّ وَلَّى خُرَاسَانَ الْجُرَّاحُ بْنُ الْحَكَمِيِّ . وَإِنَّهُ لَمَنْ الْمُنْتَجِعُ حَقًّا تِلْكَ الْمَاقِشَةُ الْوَرَعَةُ الْمَهَادِنَةُ الَّتِي دَارَتْ بَيْنَ عُمَرَ وَيَزِيدَ ، وَبَيْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ، وَتِلْكَ الصَّرَامَةُ الَّتِي لَا تَعْرِفُ فِي سَبِيلِ الْمَحَافِظَةِ عَلَى مَالِ الْمُسْلِمِينَ لِيَأْ وَلَا هَوَادَّةً ، وَقَدْ أَثْنَبْنَا ابْنَ الْأَثِيرِ فِي كَامِلِهِ وَلَا حَاجَةَ بِنَا هَا إِلَى الْإِسْتِطْرَادِ بِذِكْرِهَا .

(١) الثَّانِي . الْحَاجَةُ الْمُقْبِيُونَ فِي الْبِلَادِ الَّتِي لَا يَمُرُّونَ بِهَا مَعَ الْعَرَاةِ . أَطْرَافُ السَّانِ مَادَّةُ « تَأْ » .



في أمثال ما قدمناه نستطيع أن نقتنع بأن روايات صاحب الأعلى عن إسرائفه قريبة من الواقع ، إن لم تكن صحيحة لا مبالغة فيها ولا غبار عليها . ثم لِنَظُرَ الآنَ إلى أَى مَنى كان هذا الصنف من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القِيَانِ والمَغْنِيَّاتِ ، وما كان لهن من سلطانٍ في أمور الدولة وتولية العِمالِ وعِزْلِهِمْ ، فإن ذلك يمدنا في تفهما دور الانتقال الذى نحن فيه فهما هو في نظرنا أشد اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرخين وسردهم للحوادث بغير عناية ولا استقراء للتصية العربية وخاصة في أبهاء الخليفة . وحيدا العاية بها ، سواء أكانت في بيت الخليفة أم في بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبتها تحولا نفعا وكبير جدوى .

يقول لنا أبو العرج الأصفهاني عن المدائني أن حَبَابَةَ ، وهى عالية القِيَّةُ ، « غلبت على يزيد وتبني بها عمر بن هبة ، صلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد في أى وقت شاء . وحسد الناس من بنى أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقصدوا فيه عد يزيد ، وقالوا : إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شيء ليسه وخفته ، وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحدا من أهل بيته في الخراج ، فوَقَرَّ ذلك في قلب يزيد وعزم على عزله . وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حَبَابَةَ صملت له في ذلك . وكان بين ابن هبيرة والقصاع بن خالد صداوة ، وكانا يتنازعا ويخاصدان ، فقبيل للقصاع : لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة ، إنه لصاحب العراق غدا ، فقال : ومن يطيق أبن هبيرة ؟ حَبَابَةُ بالليل وهدايا بالنهار ! مع إله وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكين . فلم تزل حبابة تعمل له في العراق حتى وليها . »

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية في تعزف حال الدولة العربية في ذلك الحين . ولو حاز لنا أن نحلل لنظرنا طويلا في قول القصاع بن خالد : « ومن يطيق أبن هبيرة ، حبابة بالليل وهدايا بالنهار مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بنى سكين » فانه لا يعيدنا

وتعديتَ واعتديتَ وأسرف * ستَ وأغويتَ وانبعثت فسوقا
أبدا هاتِ ثم هاتِ وهاتِ * ثم هاتِ حتى تحمرَّ صبيحا
أنتِ سكرانُ ما يُحققُ فاطر * تُقُ فقا وقد حققتِ فسوقا

وإما ثبت لها أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر في قصره ويزيد بن صبرة السكسكي، فقد قال له الوليد : «يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم ! ألم أرفع المؤنَ عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أحدم زمامكم ! » قال . «إما ما نتم عليكم في أنفسنا، وإنما سقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستحفاك ما أمر الله ! » .

ولننظر معي أيضا إلى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطاباً لهذه الدولة ، وإلى ما كان من حبروته وصعف الوازع الدينيّ عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر : «مَنْ قَالَ لِي بَعْدَ مَقَامِي هَذَا آتَى اللَّهَ صَرِيْتُ عَقَّةٍ» .

وبعد، فإنه ليخيلُ لي أن فيما قنمناه بعضَ المقصع ، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم في التهلك والخرج عليه . وزيد الآن أن ندرُسَ تأثيرَ الخلقِ العربيِّ بما كان للخلفاء من تنكُّبٍ عن سننِ الدين وإمعانٍ في التهلك والاستهتار . والبأسُ على دينِ ملوكهم، والملوكُ على سعةِ رعيّتهم؛ أو كما يقول عبد الملك بن مروان : «تطلون ما أن نسيرَ معكم بسيرةِ الشيعين أبي بكر وعمر ولا سيعرون أتم بسيرةِ الناسِ أيامَ أبي بكر وعمر ! » . على أنا نُرِغمُ أنفسنا إرغاماً على أن نكتفي في هذا الفصل ، الذي كادت تُشعَّبُ عليها فروعه وواجهه، وكذا نصلُّ في مهاميه وبنواديهِ، بمثلينِ قد لا يخلوان من النفع . وعُمدتُنا في ذلك الأغانى، وعبودُ الأخبار لأبنِ قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو إلى الأدب والعظة ، أقربَ منه إلى التاريخ والتحليل العلمي . بيد أنّا آثرنا إيرادَه لأنه حسنٌ في نفسه، ومصيبٌ بحمّةِ الصواب في جملة .

يقول أبو الفرج : إنه لما قدم عثمانُ بن حيانَ المزي إلى يزيد بن عبد الملك

أن تُصلحُ فطهرها من الماء والرايح . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يفز في مهمته بظائل ولم يُوق إلى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويهِ لنا ابنُ قتيبة في عيون أخباره فيها هو ذا ببصه وعبارته ، وهو حتام هذا العصل بعد أن كدنا بطليل .

قال : « سَمَرَ المصور دات ليلة فذكر حلفاء بني أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترين ، فكانت همهم من عِظَم شأن الملك وحلّالة قدره قصص الشهوات وإيثار اللذات والدحوّل في ماضي الله ومساحطه ، جهلا منهم باستدراج الله وأما لمكره ، مدامهم الله العزّ وقبّل عنهم العمة . فقال له صالح بن عليّ : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض الوبّة هاربا فيمى معه سأل ملك الوبّة عنهم فأخبر ، فرك إلى عبد الله فكلّمه بكلام عجيب في هذا الحولا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بمحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك ! فأمر المصور بإحصاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض الوبّة ثمانين ليلة فافتشّتها بها وألّمت ثلاثا ، فأناى ملك الوبّة ، وقد خبر أمرنا ، فدخل على رجل أفنى طولاً حسن الوجه ، فقعده على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت له : ما يملكك أن تقعد على ثيابنا ؟ قال : لأنى ملك ، وحق على كلّ ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رصه ! ثم قال لى : لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ؟ قلت : استرا على ذلك عبيداً وأتساعاً لأن الملك زال عاباً قال : فلم تطوون الزروع بدوابكم والعسائد محزّمة عليكم في كتابكم ؟ قلت : يفعل ذلك عبيداً وأتساعاً بمجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباج والحريّة ، وتستعملون الذهب والفضة ؟ قلت : ذهب الملك ما وقّل أنصاراً ، فانتصراً يقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فليسوا بذلك على الكره منا ، قال : فاطرق ملياً وحمل يلقب يديه ويسكت في الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعا ! دخلوا في ديننا ! وزال الملك عنا ! يردده مرارا ، ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت ، بل أتم قوم استحلّتم ما حرّم الله

عليكم وركبتهم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكُم الله العزَّ والبسكُم الذلَّ بذنوبكم، والله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتهَا، وأحاف أن يحلَّ بكم العذابُ وأنتم بيلدى فيصينى معكم وإمما الضيافة ثلاثة أيام، فترؤدوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(٥) التعمسُ المذهبي :

زيد أن تنظر الآن نظرةً عملياً في أمر التعمس المذهبي . ونحن علم ما أصاب جماعة على أيام معاوية وهو هو في حكمه وحلمه ومرورته ، علم ما أصاب مُحَرَّرَ بَنَ عَدَى الْيَكْسَدَى وجماعته ، كما نعلم ما أصابها أيامَ يزيد من قتل هاني بن عروة ومسلم بن عقيل والحسين ابن علي وزيد بن علي الذي صُلِبَ على شاطئ الصرّات وذُرِّيَ رَمَادُهُ في الماء . ولننظر نظرة حاصلة الى حياة بُسْرِ بن أبي أُرطاة وقَتْلِهِ الأَطْفَالَ وَالرَّحَالَ وَالنِّسَاءَ ، ولترك معاوية هـا يصوّر لنا مِيعَ تَأَثَّرَ نَفْسُ بِي هَاشِمٍ مِنْ خُطَّةِ التَّعْمَسِ الْمَذْهَبِيَّةِ هـهـه ، فإنَّ أَبَا الْعَرَجِ الْأَصْفَهَانِيَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : لما كانت الجماعة واستقرَّ الأمر لمعاوية ، دخل عليه عُبَيْدُ اللَّهِ ابْنُ الْعَبَّاسِ وعده بُسْرُ بْنُ أَبِي أُرطاة ، فقال له عُبَيْدُ اللَّهِ : أأنت قاتلُ الصَّبيِّينِ أَيْهَا الشَّيْخُ ؟ قَالَ بُسْرٌ : نعم أنا قاتلهما ، فقال عُبَيْدُ اللَّهِ : أما والله لو دِدْتُ أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ أُنْتَقَى عِنْدَكَ ! فقال بسر : فقد أُنْبِتَكَ الْآنَ عَدَى ، فقال عُبَيْدُ اللَّهِ : أَلَا سَيْفٌ ؟ فقال له بسر : هَآكُ سَيْفِي ، فلما أهوى عُبَيْدُ اللَّهِ إِلَى السَّيْفِ لِيَتَبَاوَلَهُ أَحَدَهُ مَعَاوِيَةُ ثُمَّ قَالَ لِبُسْرِ «أَخْرَاكَ اللَّهُ شَيْعاً ! قَدْ كَبِرْتَ وَذَهَبَ عَقْلُكَ ! وَذَلِكَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ قَدْ وَرَّثَهُ وَقَتَلْتَ أَبْيَهُ ، تَدْفَعُ إِلَيْهِ سَيْفَكَ إِنَّكَ لَنَافِلٌ عَنْ قُلُوبِ بَنِي هَاشِمٍ ! وَلَوْ تَمَكَّنَ مِنْهُ لَدَأَ بِكَ قَلْبَكَ » . قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ : «أَجَلٌ ! وَكَسْتُ أَتْنِي بِهِ» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصل به حتى وثق به ، ثم احتال لقتل ابنيه فخرج بهما الى وادى أوطاس فقتلهما وهرب .

(١) أوطاس : وادى ديار حوران فيه كانت واقعة حنين ويومئذ قال النابى صلى الله عليه وسلم «حي الوطيس» وهو أوّل من قال ذلك . انظر معجم البقوت في أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نضوّر الى أى مدى لفت نتائج خطط الأمويين السياسية ، من حيث تُهم العصباء في العوس لملئ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكرهم ، وما كان من لعنهم على الما بر من تأثير حليقي بعنايتنا . ومراحضا في هذه الناحية عدّة مصادر ، بيد أنّنا نجتري اجتراء ، ونُحيل القارئ الى ما رواه ابن عائشة عن شعور رجل من الشام بحو حفيد ملّ وقد نقل ذلك المبرّد في الكامل .

ولنظر كذلك الى مدى الأحرار الدينية وأصدادها التي كانت نتيجة لارمة لآثار التعسف المذهبي والصحرّ الديني ، وقد ذكر البيروني في «الآثار الباقية» طرفا من ذلك . ونجتري ها بنى ، مما جاء في «المواهب المتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله . قال : ما أحسن قول أى الحسين الجزار خصوصا في بيته الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكّرني * رزء الحسين فليت لم يعد
أم ليت عيا فيه قد كُلت * بلأئيد لم تحل من رمد
ويدا به لثامته خُضبت * مقطوعة من زبدها بيدي
يوم سبلى حين أذكّره * ألا يدور الصبر في خلدي
أنا وقد قُتِلَ الحسبُ به * فأبو الحسين أحقّ بالكند

ولعص الهاشميين معتدرا من الكحل يوم عاشوراء :

لم أكتحل في صباح يوم * أهرى في فيه دم الحسين
إلا لحزنى وذاك أنى * سودت حتى بياض عيني

الى غير ذلك مما أثبتته المؤلف لعمارة النجفي والإمام ابن الجوزي مما لا سبيل الى الاستطراد فيه ههنا .

ولنظر الى حادثة رواها المسعودي في «مروج الذهب» قال : «ما طلب عبد الله ابن علي مروان ونزل بالشام ، وجه الى أبي العباس أشياعا من أهل الشام من أرباب العلم والرياسة ، خلّفوا لأبي العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة ! فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناس اسمعوا خبركم * عجا زاد على كل العجَب
عجا من عبد شمس إنهم * فحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيا زعموا * دون عباس بن عبدالمطلب
كدبوا والله ما تعلمه * يُحرز الميراث إلا من قُرب

ولنلِ الآن الإمامة على بما كان للمتسف المدهي من الأثرى هوس الخوارج، يُحيلين إلى الكامل للبرد من أراد توسعا وتبصرا، وتكتفى ها بنقل مثلي من الطبري يُظهر لنا مقدار استماتتهم في سبيل نُصره مذهبهم مهما نالهم من تقتيل . وأماما حوادث سنة خمسين التي يقول فيها الطبري : إن عُبد الله بن زياد اشتد فيها على الخوارج قتل منهم صبرا جماعة كثيرة وفي الحرب جماعة أخرى . ويقول عنهم في موضع آخر : نرح مرداس أو بلال ، وهو من بني ربيعة بن حنظلة ، في أربعين رجلا إلى الأهواز فبعث اليهم ابن زياد جوشا عليهم ابن حصن التيمي فقتلوا في أصحابه وهزموه ، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة :

أألما مؤمن مكم زعتم * ويقتلهم تأسك^(١) أروعونا
كذتم ليس ذاك كما زعتم * ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة ينصرونا

(١) آسك . طه من مواش الأهواز قرب أرحاح بن أرحاح ورامهرمز ، بينها وبين أرحاح يومان وهي بلدة ذات نخيل ومياه . أطر ياقوت في آسك وكامل المبرد (ص ٨٧ طعة أدبا) .

الفصل الرابع

ولاية العهد

نظام ولاية العهد واسر حلدون — حطوطام ولاية العهد الثاني وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبة العربية .

(١) نظام ولاية العهد وأبن حلدون :

قال ابن حلدون في مقدمته : "إن معاوية عهده الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرصوا تسليم الأمر الى سواهم . فلو قد عهده الى غيره اختلفوا عليه" ثم زاد هذا توصيحا في مكان آخر من مقدمته فقال : "إن الذي دعا معاوية لإيثار أبنه يزيد بالمعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم ، بانفاق أهل الحل والعقد عليه حيثئذ من بنى أمية ، اد بنو أمية يومئذ لا يرصون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل العرب منهم ، فأثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاصل الى المعضول ، حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء" .

لسا هنا في موقف الراغب في تحليل أقوال مؤرخا الكبير ، وهل أصاب محجة الصواب في تحليله ما دفع معاوية الى عقد البيعة ليزيد ، ولكنا صدّرنا هذا الباب بكلمة ابن حلدون لصقور سرقول العرب ، لأول عهدهم ، نظام ولاية العهد عامة والوراثي خاصة . وما قبولهم إياه إلا لأن شوكة يزيد يومئذ مستمدة من عصابة بنى أمية كلها ، وجمهور أهل الحل والعقد من قريش ، وبذلك تستنح عصبية مصر أجمع ، وعصبيتهم أعظم من كل شوكة إذ لا نطاق لمقاومتهم ، ومن هنا أقعى العرب عن يزيد وأقاموا على الدعاء بهديته والراحة منه . ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن علي وأبن الزبير في مطالبتهم بالخلافة ، كما بين ذلك ابن حلدون مما لا حاجة بالتمترض له الآن .

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهد لم تقله العقيلة العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون من سبب استمرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية. وربما جاز لنا أن نغزو سقوطها من بعض النواحي إلى هذه العصبية أيضا مما لا تَرِصُ له هنا الآن .

أجل ، يجرنا التاريخ بتلك الأدوار العديدة ، التي مرت بها مسألة البيعة ليزيد ، وأن السياسة نهضت بصيب غير قليل في سبيل تذليل الصعوبات التي قامت بادية ذي بدء دون أن تتحمل البيعة ليزيد سهلةً ميسورة ، تؤتي ثمرها خير عاء كبير .

يجبرنا التاريخ بما فعله المعيرة بن شعبة وعير المعيرة بن شعبة ، وإيهادهم الوفود إلى معاوية . ويخبرنا بمبلغ ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتيال وكرم ، وما بذله لاسه يزيد من شدة وعسف ، وكل هذه العوامل تستدعي دراسة دقيقة لا تَرِصُ لها لأنها لا تتينا في هذه المقدمة كثيرا .

نريد أن نقول شيئا واحداً ميسوراً ففهمه ، ذلك أن نظام ولاية العهد — الذي ربما كان ضرورياً لا مندوحة عنه في أول عهد الدولة ، لما بينه وبينه لنا ابن خلدون — كان في نفسه سببا يُتدب به من أسباب سقوط الدولة الأموية ، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أحيرا أثره الكبير في ضعف سلطان بني أمية وذهاب ريحهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لِنَظُرْ نظرةً عَمَلِيَّةً في تاريخ هذا النظام لنقبح بما وصلت إليه بُحُوثنا ، فزرى مثلا أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده ، فإن جُلَّ حلفاء بني أمية من بعده اتخذوا صبيحة سئة متعة . سزى في كلامنا عن العصر العباسي إلى أية مدى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة ، أو على الأقل ، مبلغ ما فيه من صعيّف لها ، وإيذانٍ باحتمالها ، واضطراب حلها .

لم يكن هذا الطام شراً مستطيراً وعاملاً كبيراً من عوامل الضعف ؛ إلا لما يستلزمه من نكث المهد ، ثم من آتشفاق البيت المالك على نفسه ، وترك المجال واسعاً ليوشايات تسمى بها طنانات السوء ممن نرجو أن تصور مثلهم ومثل صنيعهم السيئ ومثل خطرهم على الدولة حين تعرض للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكت البطانة بينهما من حلاف — هذه البطانة ترقب دائماً آتشفاق البيت المالك أو ما هو مرگب في الطبيعة البشرية وولاية المهد من ترقب لتسلم مقاليد الأمور وتعمل للذة الحكم والسلطان — فتستله لتقضى مآربها وتستمتع بأطماعها . وسرعان ما تجد الفرصة سانحة لها ومواتية لأطماعها ، اذا صار الأمر الى ولي المهد الأول الذي حاول ماهو طبعى من خلج من أشرك معه في ولاية المهد ، إما كراهية له ، أو إشاراً لغيره عليه ، ممن هم أمس منه رحماً وأقرب مودة .

هم قد يجد ولي المهد كثيرين من الناصحين الذين يستكبرون الخلع ، بيد أنه لا يعدم أيضاً كثيرين من هواهم مع غير هذا الذى يراد حلعه يُزينون له ما يحاول ، حتى اذا صار الأمر الى من أريد حله كما كالا من الفريقين بما يستحق . وكانا أحياناً يفتك بكثير من ذوى البلاه الحس فى تشديد الملك . وهذا الفتك على ما فيه من خسارة قوم من ذوى الرأى والتحارب ، قد كان يدور فى قلوب أنصارهم وعشائهم بدور الحقد وحث الانتقام . وبذلك صار بو أمية يفقدون العشائر عشيرة بعد عشيرة ، وأخذ طل سلطانهم على النفوس يغمس شيئاً فشيئاً ، حتى اذا قام لهم منافس عظيم لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلب عليه .

قد تطلب الى توضيح ما قدمته لك من المقدمات من حوادث التاريخ ، لأنك تعتبر الوشائج والصلات التى بين مانحن بصددده وبين عصرنا المأمونى قوية من حيث ما وقع فيه الرشيد وغيره من خطأ فى نظام ولاية المهد . وقد تطلب منى أن أمر مسرعاً بحسام الحوادث التى لها آثارها ونتائجها ، وأن أكون مجللاً لا مفصلاً وموجزاً لا مسهباً .

على أني سأترك الأدلة التي أفهم به الطبري وآبن الأثير كل سة من سلهما تحدث
 وحدها بصدق ما ذبعت اليه . وأسمع لنمسي أن أساقل ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما
 وصل الحكم الى يده ؟ لقد حاول ما هو طبعي من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده
 الى الوليد . ولولا وفاة عبد العزيز لوقعت الأزمة وشجر الخلاف وعمد كل الى سلاحه
 وحربه .

ثم ماذا فعل عبد الملك ؟ لقد ولي الوليد وسليمان . لحاول الوليد ما هو طبعي من
 عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمان ؟ لقد ولي عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك .
 ثم ماذا فعل عمر بن عبد العزيز ، وماذا فعل يزيد ، وماذا فعل هشام ؟ إن التاريخ
 وحتم عهده كل لبؤيدان ، بقوه ووصوح ، ليس بعدهما من مزيد ، حمة ما ذهبا اليه مما
 يبيع لنا أن تختصر الحوادث والأدلة اختصارا .

على أنه قد يطل ما إثبات تلك الحال المؤلة التي نتج عن المباينة لاثنين بولاية
 المهدي ، وملع حسارة البولة من رسالها المدودين وأقطابها البادرين في هذا السيل ،
 سيل اصطدام صاحبي ولاية المهدي . وسجمل ذلك إجمالا يستدعيه مقامنا .

لانه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية المهدي كتبت لهشام ثم للوليد من بعده مثلا .
 وربما فاته أن لكل حرما ياصره ، وبطانة تنشر دعوته . وربما تظرفت في منجهما
 السياسي ، تنازفا يؤكد المداوة في القلوب ، ويستثير السخام في النفوس . ولماذا نذهب
 بعيدا وأماما ما وقع بين هشام والوليد ، فإن هشام مات قل أن يكفل بالنجاح سعا ،
 فسرتان ما تمت أقوال الوليد عن شديد مقتته لهشام ، فقال مثلا :

هلك الأحول المشو ، م وقد أرسل المطر
 وملكتنا من بعد ذا . لك فقد أورق الشجر
 فاشكر الله إنه . زائد كل من شكر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل أَدْفَعَ فيما يجبرنا المؤرِّحون مع تيار بطانته ومُشايِعه، وشترعى ساعد الانتقام، مم ماصرعه هشاما مثل محمد وإبراهيم ابني هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفي - وإلى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فصر به مائة سوط ومثل به اذ حلق رأسه ولحيته، كما حبس يزيد بن هشام والكثيرين من البيت المالِك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أخرج حالدا القسري، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، مان يبيع لأبسه الحكم وعثمان ولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى وإلى العراق يوسف بن عمر الثقفي فزع ثيابه وعذبه عذابا مبرحا، وهو يحتمل ذلك كله بصمت وإباء، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كل لون من ألوان العذاب حتى مات . وما مات إلا بئس باهظ دفعه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسه عداوة قصاعة واليمن، وجل جدد الشام من قضاة واليمن، وهم هم الذين مثلوا دوزم الخطير أحياء مع الوليد، إذ بايعوا يزيد وثاروا معه، فكانت حاتمة الوليد ما قد علمنا من احتائه بقصره وتفحصهم عليه دأره، وفعلهم به ما أصاب عثمان من مأساة اذ حرّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم بصوه على ربح وطيف به في دمشق .

على أنا نفترض المبالغة فيما يسببه الرواة الى هذا الخليفة المألوب على أمره، ولكنا نؤمن مع ذلك إيمانا صادقا بالنتائج السيئة لطعام ولاية العهد الشائى أو الثلاثى .

وإنا نفل أن فيما قدمناه لك غنية وكفاية . وإن أردت مس مزيدا فانظر ما نال به سليمان قادة الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلى وموسى بن نصير، وما كان يعد للهباج وغيره : ممن قل أن يجتمع أمثالهم فى عصر واحد . وإنا نحيل القارئ الى ابن الأثير ليقدر معا الأسس التى بيها عليها رأينا فيهم، وليقف بنفسه على كبريات توحهم وجسام أعمالهم التى كانت عزة فى حين عصرهم، بل فى حين تاريخ الدولة الأموية .

ومعد، أفلس من العدل أن يستنبط الفارئ مما ما يصيب الدولة من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسي، من جراء ذلك النظام المفقوت، نظام ولاية العهد على هذا النحو في غير قانون ولا سنة، وأن يمدَّ معها سببا لا يستهان به، من أسباب سقوط البيت الأموي !

(ج) العصبية العربية :

الذي يهمنا الآن هو أن نوجه النظر إلى تأثير نظام ولاية العهد في صورته التي سورتها لك من حيث مسأسه بالعصبية العربية التي كانت، كما تعلم، عيفة محتلّمة بين المصرية والبيمية . وأنت تعلم أن الخلفاء من بني أمية كانوا يصّهرون إلى قبائل مضر كما كانوا يصّهرون إلى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجد في تأييد الأمير الذي يتصل بها نسبه . وهذه العكوة نفسها تُعيدنا على أن نفهم، بسويع خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعيدنا على أن نفهم ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخصومات التي قدّما لك طرفا منها . ولم يكنك ينهي الأمر إلى مروان بن محمد حتى كانت الخسومة بين المصرية والبيمية قد انتهت إلى أقصاها بحيث عجز هذان العريقان من العرب عن أن يكونا وحدة قوية تثبت للطواري، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب معتريقين متعادلين ، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا . وسنلتكلم على العصبية وآثارها بسطّة في القول أكثر مما تكلمنا هنا في موضعها الطبيعي من الكتاب الثاني .

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت بالموالي وأستهم ، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بني أمية الدين سامهم سوء العذاب وساسوهم شرّ سياسة فإنما رُجى كلامنا عن هذا العنصر القوي من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها إلى موضعه الطبيعي من تطعيم كتابنا ، وحين ذاك ، يَحَقُّ لنا أن نبين تحوّل العصبية العربية إلى تلك النواحي الشائكة الوعرة التي قضت على الدولة الأموية وأقامت دولة بني العباس والتي أدالت منها هي أيضا . وحين ذاك أيضا يحق لنا أن ندرّس نظراً

العربى الى غير العربى فى العصر الأموى وفى غير العصر الأموى مما كانت له نتائج الخطيرة
فى حياة العرب وفى تحول مدنيات العرب .

فلترىث أدًا، وحير لنا وللتاريخ أن يكون موضعُ هذا الباب فى كلامنا على الدولة
العباسية . وحير لنا أيضا أن نتقل الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من نثر وشعر وخطابة،
والى تصوير الحياة العلمية بصورها لذلك العصر الأموى، الذى كان بحق نواة طيبة
للعصر العباسى، متوحيين فى ذلك الإيجاز والإجمال . ولعلنا نوفق الى حسن الإصاـبة
فيما نريد .

افضل النماذج

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي

توطئه — آثار الآداب والعلوم العارسية واليونانية في العصر الأموي — حركة النقل — الحطابة وميراثها —
الكثافة — حالة الشعر في العصر الأموي ونحوه — العزل — الشعر السياسي .

(١) توطئة :

لسا نزيد أن دُهبَ في بيان الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي ، لأن ذلك يكاد يبرح باع . مقصداً الأساسي ، من اقتصار مقتضات هذه على توصيح موجز من غير إسراف ولا تطويل ، للعصر السابق لعصرنا الماهوني الذي كان نتيجة لازمة لما تقدمه واكتسبه من عوامل متعددة ، توصيحا معتدلاً يحملنا طمئناً ، بعد مهمما للآداب العباسية ، الى تبيين العروق والميزات والآثار التي خلفها لتاريخ المدنية الإسلامية ، بل لتاريخ المدنية الإنسانية ذلك العصر النهجي وهو عصر المأمون الخالد .

لقد تغيرت حالة اللغة وآدابها في العصر الأموي عما كانت عليه في الدور الجاهلي تغيراً عظيماً ، إذ رقت الأساليب وقل الحوشي والمتناهر ، واتسعت الأغراض وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة ووقرتها . وهذا يتمشى بوجه عام مع تغير حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية ، وصبرة أخرى : تغيرت حياة الآداب والعلوم في ذلك العصر طبقاً لما أعادته العرب في فتوحهم وبغازيمهم وغنائم وأموال ، ووقوفهم على آثار المدينيات لأهم ذات حظ من العلم غير قليل . ولقد كان لكاتب الله ، المعجز بآياته ومهر بلاسته (كُتِبَ) أُنْكِبَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْهِ حَكِيمٌ خَبِيرٌ) أثره في تقي أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم ، بل كان الكثرة الذي يلجئون الى ما فيه من أدب جم وعظيمة بالغية وأساليب رائعة ، ويستمدون منه ما ينفعهم في معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

ولأنه يجدر بنا أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآداب العربية من تغيير في العصر الأموي، وهو تغير خطير يستدعي درسه حايةً ودقيق ملاحظته، ونعزاً غير قليل لما كانت عليه الآداب في العصر الجاهلي .



إن تحول الآداب العربية في ذلك العصر أصاب التراث الجاهلي القديم، من لغة وخطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، كما أنه أحدث علومها وآدابها اقتصاصها الإسلام . وقد كان لشكاب الله وسه رسوله، وما للأئمة من تأويل في فهمهما، كان لذلك كله أثره في حلق علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظ من قبل، فبدأ في هذا العصر علم التفسير ورواية الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما إلى النحو . على أن هذه العلوم الإسلامية المحدثه، التي كانت وليدة العصر الأموي خاصة وعصر صدر الإسلام عامة، لم تكن مواد هذا العصر الوحيد الذي أصبحت فيه المصرفة داراً للعلم والعرفان والمدنية ومسرحاً للهو والافتتان، والشام مقر الملك والسلطان، بل كان إلى جانبها مولود آخر كان من شأنه وصح التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ دوان الحام، وقل الدواوين من لغة إلى أخرى . وقد كان هذا المولود الآخر نتيجة الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأقطار التي كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وصارة أدق : تلك العلوم التي أضافتها العرب أو الدولة الإسلامية من أعراق الفرس وأهل الشام ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام . وقد تستدعي هذه النقطة توضيحاً، ونظراً أما إذا ما فسرناها بعض التفسير نتعجل بموضوعها الذي سيقبل عليه أحياناً، وخاصة إذا علمنا أن عصر المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدب وفق كان متأثراً بمحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هذا كان إلى مدى كبير يعطيه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نلج به إلى ما سأله .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي

كانت آداب الفرس قبيل الإسلام آداباً يونانية في جملتها لأن التاريخ يُحدثنا أن آدابهم الفنية القديمة التي كانت مجموعة طيبة لتاج العقل الفارسي والهندي والأشوري —

هذه الآداب قد نقلها الاسكندر الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياة العرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، الى أن تسلّم كسرى صولجانت ملكه ولعب دوره العظيم في تاريخ بلاده. ولعلّ الأحوال المالية عهدتد ساعدته على مهمته في النهوض بالعقبة الفارسية وفي تجديد ميثا. ويقول لنا «جبون»: إن «يوسنيان» قصر الروم حين أضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء المفكرين، فأضطرب جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد العرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم. ويقول لنا الأستاذ «برون» في كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرّض لرأى المستشرق (نولدكه Noldke) في هذا الصدد: «إن شفق كسرى بالبحوث الدينية والمطارات الفلسفية وما كان يحصد في ذلك من لداذة وإمتاع ليعيد اليها ذكرى المأمون والأميراطور الأكبر مما نمسك عه الآن».

على أنّا مع إمساكنا عن التبسط في القول لا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسّس مدرسة للطب والفلسفة في جنديسابور كانت لها شهرة مدرسة الإسكدرية. وإنه ليحذر بها أن ننظر هل استعاد العرب حقاً من علوم العرس عند ظهور الإسلام؟ وهل استعادوا من عزوهم مصر وفيها مدرسة الإسكدرية؟ ومن إحصاءهم الشام المتأثرة بآثار العقبة الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل في العصر الأموي؟ لأن في توصيفها ذلك بعض المع لى في دراسة التحول العلمى والأدبى في تاريخ التمدن الإسلامى الذى وصل الى درجة حقيقة بالإجلال والإكبار في عصر المأمون، العصر الذى نصح فيه مختلف الفنون والآداب. فلنحاول توصيف شىء من ذلك ستوخين حدّ القصد والإيجاز.

(ج) حركة النقل في العصر الأموي :

يخبرنا ابن أبى أصيبعة في الباب الذى أمرده لأطباء العرب في إبان الإسلام : أن «الحارث بن كلدة» تعلم الطب بإحابة فارس وتميز هناك وعرف الداء والدواء. ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أحمَر الكُفائي، الذي أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيا عالما ماهرا، وأنه كان في أوّل أمره في الاسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين، وزاد بأن عمر بن عبد العزيز لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أطاكية وحرّان وتخرّج في البلاد . ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أبا الحكم « وتماذوق » طبيب الحجاج . وحسبنا هذا دلالة على ما أماد العرب أو ما يمكن أن يُعيدوا من علم الطب . فلتنقل من هذا الى التكلم ص حركة القل والترجمة . ويكعبنا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب المهرست عن ذلك إذ يقول .

« كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان ، وكان فاضلا في نفسه ، وله همة ومجبة للعلوم ، خطر باله الصنعة ، فامر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين من كان يتزل مدينة مصر، وقد تصمّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبلي الى العربي ، وهذا أوّل نقل كان في الإسلام من لغة الى لغة ، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية في أيام الحجاج والذي نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم ، وكان أبو صالح من سبي محبّستان ، وكان يكتب لراد إنفروخ بن يرى كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية يخف على قلب الحجاج ، فقال صالح لراد إنفروخ : إلك أنت سبي الى الأمير ، وأراه قد استخفى ولا آمن أن يُقدّني عليك وأن تسقط منزلك ، فقال : لا تظن ذلك هو الى أحوج مني اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابا غيري ، فقال : والله لو شئت أن أحوّل الحساب الى العربية لحولته ، قال : حقول مه أسطرا حتى أرى ، ففعل به فقال له : تمارض ، قمارض ، فبعث الحجاج اليه تبادروس طبيبه فلم يربه علة ، وبلغ زادانفروخ ذلك فأمره أن يظهر . وانفق أن تقتل زادانفروخ في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله ، فاستكتب الحجاج صالحا مكانه ، فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين صاحبه في نقل الديوان ، فعزم الحجاج على ذلك وقبّله صالحا ، فقال له مردانشاه

ابن زاذانفروخ : كيف تصنع بهويوه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع ، ويد ؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والريادة تزداد ، فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له العرس مائة ألف درهم على أن يُطهر العجز عن نقل الديوان ، فأبى إلا أقله فقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ! ما أعلم مثه على الكتاب . وكان المحاج أحله أحلا في نقل الديوان » .

فأما الديوان بالشام فكان بالرومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبي سفيان ، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام من عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى يحيى وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقل في أيام عبد الملك ، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فتراح فيه فأحفظ ذلك عبد الملك فاستشار سليمان ، فقال له : أقل الديوان وأرتحل منه .

ثم يجده يتكلم في مكان آخر ص اصطلح القدم وأمه نقل لخالد بن يزيد س معاوية كتب السبعة وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيره أن اللغة العربية أحدث تحرى أشواطا في حلة العلوم في هذا العصر .



ونريد أن نشرح شرحا بسيطا حال الخطابة والكتابة في العصر الأموي مُتَوَحِّين الاختصار على قدر العلاقة فنقول :

(د) الخطابة ومميزاتها :

لم تزد الخطابة في عصر من عصور الآداب العربية ، كما ازدهرت في هذا العصر ، لاعتماد الناس عليها في السياسة والدين . وقد جعلها الدين الإسلامي فرصا من العروض في الدعوة اليه ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كانت الوسيلة في قمع الفتن وردة البدع ، وكانت لسان القائد في جنده يستنهض بها عز مآتهم ، والوالى في رعيته يستفز بها

حيثهم ، والزعم في شغفه يجمع بها شنائهم ، إذ لم يكن غيرها من وسائل التليغ مسورا ،
لذبوع الأمية وقندان وسائل الشر .

وقد وحدثت مد مقتل عثمان رضى الله عنه ، سبب اختلاف المسلمين ، وتمتد الرق
واختلاف الأحرار ، محالاً واسعا للرق والسبق ، لاعتماد كل حرب عليها في نشر نحلته ،
وتأييد دعوته .

يميز الخطابة في هذا العصر ما يميز الآداب عامة فيه : من حامة الألفاظ ومثانة
التركيب ، والتاعده عن حوشي الكلام . ويميزها أيضا أنها أقتسنت من القرآن كثيرا ،
ونهجت نهجه في الارشاد والاقناع ، وأنها تبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قيل
خطبة زياد المشهورة التي خطبها في العراق . " الخطبة التراء " إذ لم يحمد الله ولم يصل
على نبيه فيها . وقد كان هذا العصر أحفل المصور بالخطباء ، فقد كان حل الحلفاء والقواد
وولاء الأمصار وزعماء الأحرار المختلعة حطباء مصاقع . ولما يجمعه تاريخ الآداب من
آثار الخلفاء ، ولا سيما الإمام علي ، ومن خطب المحاسن يوسف ، وزياد بن أبيه ، وطارق
ابن زياد ، مصداق ما قول .

ولسفل لها حطة المحاج في أهل العراق مد دبر المحاجم فهي حير مثال لصبح الخطا -
في العصر الأموي . قال :

« ياهل العراق ، إن الشيطان قد استنطقكم خالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع
والأطراف والشفاف ، ثم معى الى الأعماح والأصباح ، ثم ارفع صئش ، ثم باش وفزع ،
فشاكم نفاقا وشقاقا ، وقد اتخذكموه دليلا تبعمونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤتمرا تستشيرونه ؛
فكيف تنفعكم تجربة أو تعطكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يرذكم إيمان ! أستم أمصابي
بالأهواز حيث رتم المكر ، وسعيت بالقدر ، وظلتم أن الله يخذل دينه وخلاقته ، وأنا أرميكم
بطرفي وأتم تسفلون لؤانا وتهزمون سراعا . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان
فشلكم وتنازعكم ، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد الى أوطانها ،

التوازع الى أعطائها، لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه ولا يُلَوِّى الشيخُ على بيده، حتى عَضَمَ السلاحُ وقصَصَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماح، وما دير الجماح ! بها كانت الماركُ والملاحمُ ضرب يزيل الهام عن مقله، ويدهل الخليل عن خليله^(١) .

«يا أهل العراقِ أهل الكمرات والصدرات، والثورة سد الثورات، إن استكم الى تموركم علمتم وختم، وإن أمِنتم أرجفتكم، وإن خفتم نافتكم لا تدكرون خشيةً ولا تشكرون نعمةً، هل استضعكم ماكتُ، واستفواكم علو، واستصركم طالم، واستعصدكم حالم، إلا وتقتموه وآوتجوه ونصرتوه ووصيتموه ! . هل شَفَّ شاغٌ أو نسب ناعٌ أو نعى ناعٌ أو زمر زافر إلا كتمتُ أشياعه وأنصاره ! ألم تنهكم المواعظُ ! ألم ترَ حرك الوقاتعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«يا أهل الشام إنما أنا لكم كالنظلم الذات عن فراخه، ينفى عنها المدر ويُبعدُ عنها الحجر، ويُكَبِّها من المطر . يا أهل الشام أنتم الحنة والرداء، وأنتم العدة والِفطاء . » .

وقد يكون من المفيد حقاً أن ترجع الى «صبح الأعشى» وغيره من المظان الأدبية، لتقف بمسك على خطب القوم المتمتع أسلوباً، الفخمة لفظاً، العية معنى، في ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت في تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم في إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المشور — لا ترقى بل لا تكون إلا في الأُمم التي أخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومة منظمة، ودواوين معددة، وصناعة متومة، وزراعة نامية، وتجارة رائجة، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية في الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مفتتان من نصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التي أشدها بين بني النبي صلى الله عليه وسلم عند حوله مكة في عمرة القضاء وأصل البيت :

ضرباً يزيل الهام عن مقله • ويدهل الخليل عن خليله

١٥١ من سيرة أبي هشام .

وقد كانت الكتابة معروفةً عند التباسة حنوماً ، والماذرية والفساسية في الشمال ، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحصار نصيبٌ . أما البدومس سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخط في أواخر العصر الجاهلي . وقد كان حفظ الكتابة فيهم حفظاً في أمة نادية قليلة الشؤون ، لذلك لم يلبها في الرق ما نال أحويها الشعر والخطابة . فلما جاء الإسلام وصار للعرب حكومةً سطةً وفتح الله عليهم أقطار الأرض ، اشتدت حاجتهم إلى الكتابة ، فأخذت سبلها إلى الرق والكال ، حين صارت حاجةً من حاجات الدولة .

بيد أن الكتابة لم تلغ كالمأهول المحكم ، في التنسيق والإبلاغ الحاحية ، وفي اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس ، إلا بعد أن تَلَّت الدواوين التي كانت بالعربية في فارس ، والرومية في الشام ، والقبطية في مصر ، إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وإلا بعد أن طهر في العربية كتابٌ صقلهم الإطلاعُ على آداب العرس وغير العرس من الأمم التي كانت لها قدمٌ راحمةٌ في الحصار : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب .

على أما لسا نرعى بذلك إلى أن لا ملاءة في ذلك العصر خير إطلاع على بلاغة الأمم الأخرى ، لأن في بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وترات الجاهلية ، الكثرة الذي لا يسبُّ ، والمعِين الذي ينهل من أمانيه كُتُبُ العصر غير مُنَزَّع ولا مُدافِع . وإما لعل في مظان الأدب العربي على أمثلة راحمة لما نقول . فهذا كلام أُم الخبير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش ، فإنه لما يُخذ حير مثال للثري في العصر الأموي .

وسنيت لك في باب المنشور من الكتاب الأول في المجلد الثاني رسالتين متمتين
فتبرهما بحق من خير المنشور العربي ، أحدهما تلك الرسالة المنسوبة لأبي بكر الصديق والتي قيل إنه كتبها لعل بن أبي طالب رضى الله عنه فهي تمثل عصرها ببلاغة ونهضة .
والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحالك بن قيس الشيباني الخارجي ، فهي فريدة في نوعها رشاقة أسلوب وسمو معنى .

(و) حالة الشعر في العصر الأموي وتحوله :

لكي تأمس بأيدينا حمة قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموي، كان عصر تجديد في الآداب العربية، وأنه كان عصر تجديد قوى طاهر في اللفظ والمعنى، يلزما أن فهم فهمًا أوليًا سداجة الشعر الجاهلي - وصادق تعبيره عن الحياة الجاهلية .

علم أن العصر الجاهلي للعرب كان في مجموعه، ككل العصور الأولية للعقل البشري، ساذجًا فطريًا في علومه وطقمه وعاداته ولكنه لم يكن كذلك في آدابه، وإن عرب الجاهلية بدعوا في شعرهم وآدابهم، في ذلك الطور الأول، بما كان عليه ميراثهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى في أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية، مع ملازمتهم للفطرة، وعصرهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية .

إن العرب في جاهليتهم عظموا الشعر في كل حاجتهم وأبدعوا فيه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا في دور فوصاهم فقد مضجت لهم أفاضل كانت آية في بلاغة اللسان العربي . وكان الأدب الجاهلي فطريًا ممتلًا خلق العصر منها استقلال الفكرة البدوية، وكان في ضروبه كافة من وصف ومدح ورتاء وهما مطلقًا بما يجهش في نفس قائله حقًا، كما كان في بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آية في بلاغة الفطرة وشاهدنا في مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسلة عن شعور صاحبها في النفوس والأمهام .

على أنه يحذر بما أن تقول : إن المعالقات وصيها من آثار العقل العربي الجاهلي، قد لا تتأثر بها نفوس العصر الحاضر، ثمير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشعب المدييات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكم بنوا ألفاظها وخشوتها، فكما أن الأدب الانكليزي قد لا يستعمل اليوم ألفاظا كان يستعملها شيوخ العقل الانكليزي « كما كون » و « شكسبير » و « ملتون » من حيرة نتاج عصر اليزابت الذهبي وقبلهما « شوسر » وشعراء المغاني، ويعتبرها البعض ناسًا حافة، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسة تاريخية، كما هم الحال في نظر أدب العصر

الانكليزي أو العرسي أو الألساني في تراجمهم عن الكتاب المقدس، والى شعرائهم وأدبايهم المتفهمين، كذلك هو الحال في أحكامنا عن نتاج العصر العربي الجاهلي.



إن المدنية ما وَتَّ ساعة ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكادُ تكون هي بنفسها في كل المصور: يمزك لواعجه الجمال، ويمطر قلبه ريبُ الرمان، ويُنثَّ شكائته الى أترابه وإخوانه، ويحاول أن يتوَّأ حَبَاتِ الأُمَيْدَة بسحر بيانه، فهو يعمر ويشدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يحطُّ ويطم ويصيرُ الأمثال. وهو صادق في ترجمة مشاعره، وتبيان مقاصده ما كان في دَوَّرِ سذاجته بعيدا عن صروب المدينيات التي كثيرا ما تَلَزِمُها تقاليد خاصة وتنصحبها آدابٌ تُعَوِّرُ عليها ثَقُلُ صراحته وتَعْلُ من حدة شأته، وتحصل له سلطاما على ميوله وأهوائه. واللسان طَلَّةٌ مصعاجٌ إن تركت له عيانه، كَتَمَةُ مُصَلِّلٌ إن جعلت العقل والتقليد ميراثه.

من هنا نستطيع أن نُفسِّر سداحة العربي الجاهلي وجنوحه الى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الاسلامي الذي قد صفقته بلاعة القرآن وتعاليمه، وشدَّ به سمةُ الرسول ومهامته، وأفسح المجال لخياله ما وقف عليه أشاء الفتوح العربية من تراث المدينيات الفارسية في العراق وفارس، والرومانية في الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والرومان الى ما حَلَفَ له آباؤه العرب من حكمة وبيان.



كان شعراء الجاهلية يُسَدِّدون قولهم نحو كيد الحقيقة فلا يُحِطُّونَها، ويقولون الشعر عن شعور حي، ولا يُحَفِّظُونَ الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، فجاء شعرهم مثلا صادقا لبدائيتهم وحضارتهم، حتى لو أندثرت جميع أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شيء من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفا كاملا لجميع أحوالهم، كما استخرج الباحثون كثيرا من عواص «أهلية اليونان من شعر «هوميرس».

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُلَين اذ حصرها مع أخيه كليب وفرّ ابن عنق الحيرة من وجههما :

لو كان ناهٍ لأبْن حَيَّةَ زاجراً - لهاء دا عن وقعة السُلَين
يومٌ لساكنت رياضةُ أهله - دون القبائل من بني عدنان
عَضِبَتْ مَعْدُ غُثًّا وَنَمِينُهَا - به مملأة على عسان
فازالهم عاكِلِبُ طلعمة - في عُمر مائل من بني قحطان
ولقد مضى عنها أبْنُ حَيَّةَ مدبراً - تحت المصاحبة والخنوف دواني
لما رآنا بالكلابِ كأننا - أسدٌ مَلَاوِثُهُ على خفان
رك التي سَجِبَتْ عليه ذيوفاً - تحت الصراح بدلةً وهوان
ونحاً بمهجته وأسلم قومه - متمسكين رواعف المزار
يمشون في حَلَقِ الحديد كأنهم - جُرْبُ الجبال طليين بالقطران
عم الفوارسُ لافوارسُ مَدَحٍ - يوم الميلاج ولا بنو همدان
هزموا العُدَّةَ بكل أسمر مارين - ومهيدٍ مثل الفدير يمان

وبعد، فإننا بعد ما قمنا من موجر كلامنا عن تصوير حالة الشعر في الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته في العصر الأموي، لا نرى مدوحة من الإشارة لها الى أمان معنى عاية، خاصة، مرعي العزل والشعر السياسي، لأنهما بمجالتيهما الأموية يكادان يكونان وليدي العصر ونبتاه .

وليس معنى ذلك أنا نكرتلك المعاني الجديدة التي دخلت على الوصف والمدح والثناء والهجاء، ولكنا نلاحظ أن الفرق لا يعدو مقدمات المدنية، مع رقة اكتسبتها العصور الإسلامية، القريبة العهد من نزول القرآن واشتغال الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطموا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المعبد أن تُشير الى شيء جديد أصاب فن المدح في العصر الأموي، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابن قتيبة في كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرُجَّازِ نصرَ بنِ سيار وإلى خراسانَ لئى أمية، فمدحه بقصيدة تشبيهاً مائة بيتٍ ومدبجها عشرة أبيات، فقال نصرُ : « والله ما بقيت كلمةٌ عنده ولا معنى لطيف إلا شَفَقْتَهُ عى مديحى بتشبيك، فان أردت مديحى فاقصد فى النسيب، فأتاه فأشد :

هل تعرف الدارَ لأمِ العمر . . . دع ذا وحترِ مدحةً فى نصر

فقال نصر . لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغزل :

كان عَزَلُ الجاهلية من عمو الخاطر وفيص البديهة، ناطقاً بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، وبقيد أدهانهم وثائر طباعهم، وكان يرثا من الصعقة والكلفة .

ومع أى من يذهبون الى أن الشاعر الجاهلى، كان يعالج المون الشعرية كافة غير مقصور على السبب والمذات، بيد أى من يقول إن المعانى العلية والعاطفها تكاد تكون مُعَادَةً فيما بعد العصر الجاهلى، بتوسع تقتضيه المدنية، وطلاوة اكتسبها الألفاظ من تلامه القرآن، وعدوية انتخبها ثروة الأذهان من أفلاويق العرفان .

ولقد صدق زهيرٌ إذ يقول :

ما أراما مقول إلا مُعَارَا * أو مُعَادا من لفظا مكرورا

أجل، لقد كان العَرَلُ الأموى عيا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أننا نجد فيه لوانج الحب ولعائنه، وشكايات الصبِّ وأماته، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمس التوجع والأسى فى قول ابن الدمينه الخنعمى :

ألا يا صبا مجدٍ متى هجيت من نجد . . . لقد زادنى مَسْرَاك وجداً على وحيد

وفى قول الصَّعْثَةِ بن عبد الله بن طفيل :

حَسَنَتْ الى رَيَّا ونفْسُك باعدت * مَرَارَكَ مِنْ رَيَّا وشَعْبَاكُ مَعَا

نريد أن ندرّس حالة الغزل في العصر الأموي الذي هو عصر الترف والفن والثروة ، عصر القصور والملاد ، عصر الاندماج في صير العرب واتحاد المراري والساي ، تكاد مات ووصيقات وزوجات .

لقد كثرت الترف كثرة حمل معها الاندفاع مع الغزل وما يحوزه المنزل ، وحلق أنواص صريحة من المباح الشعرية في الحب والتشبيب بالنساء ، رغبة في الحب من حيث هو ، وفي التشبيب من حيث هو : بمعنى أما كنا في العصر الجاهلي قلما نجد شاعرا وقف حياته الشعرية على معالجة فن الغزل حساً ، لا يتكلف غيره ولا يُعنى بسواه ، فادبا في العصر الأموي نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صاعداً وما .

وطاهرة أخرى ملاحظها في المنزل الأموي تظهر بجلاء مقدار اختلافه عما كان عليه في العصر الجاهلي ، تلك أنواعه المتباينة التي يصبح لها أن تقسمها الى أربعة أبواب : عزل إباحي ، ويصح لها أن تتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيماً لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها ، معاني العبث بها والاستمتاع باللذة المادية مما يبرمه الأدب الجاهلي وما حَقَّره عليه الكثيرون من علماء الإسلام وأئمنه .

ولقد صدق ابن جريح إذ يقول : "مادخل على العواتق في حذورهن شيء أصغر طيهن من شعر ابن أبي ربيعة" . ونحيل القارئ الى حديث الزبير بن بكار عن عمه مُصعب في صفة هذا الشاعر الكبير ، على أن نكتب الأغاني وصية من أمهات كتب الأدب العربي مُترعة بشعره وتشبيه مما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان تبع ساء وحسن غانيات ، وصافاً لأحاديث ، واقفاً على دعاتهن ، مطلعا على هوى نعوسهن . ولا حاجة بنا الى التطويل هنا فيما هو مشهور مُتعارف ، خصوصاً أنك ستجد طرفاً من شعره ، في باب المفاوم من الكتاب الأول في المجلد الثاني ، فراجعه ثمة .

على أنه مع ذلك يذوب رقةً وحناناً في بعض مُقطعاته ، ولا سيما مع الثريا بنت علي ، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتح قلبه لأحد سواها .

كتب ابن أبي ربيعة الى الثريا وهي مايعن يقول :
 كتبتُ إليك من بلدى * كتاب مؤله صَعيد

ولقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع في العصر الأموي . وسبب ذلك ميسور فهمه ، معقول تعليقه ، ذلك أن الخلفاء تعمد جلهم الإغداق على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوق ما ورثهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم وبين ما يطمحُ اليه أمثالهم من منافسة في الملك ، أو مشاكسة للسلطان ، وليشغلهم عن أمور الدولة بإرضاء العنان لهم في لذاتهم وسامعهم .

وهناك العزل العُدريُّ البريء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والمواطف المتأججة ، والممس المتألمة المعانة ، تلك المس التي تجدد لثتها في الكَلَف بمن تحب والتعلق به والشعور بالسعادة في الإناء بحبه ، حباً يملك عليه لبه ويعتد رُوحه ويفنى جسمه كعزل جميل . وليس أدل على صدق حبه مما أنته صاحب الأعاني في الجزء السابع ، إذ حاول أبوه أن يصره من حبه وحاجته في ذلك أجمل مُحاجة ، فكان من جميل ما كان مما نجده مفصلاً في موضعه .^(١)

وغزل صاعى بين هذا وذاك ، همه الإجابة في الشعر من حيث هو شعر ، لا في الحب من حيث هو حب ، ولما في كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث .^(٢)

وغزل قصصى ، حلقه الرواة لأنهم رأوا ميلَ الناس الى العزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف ، فظموا قصائد نخلوها لشعراء لانستطيع أن نحتمل تبعة القول بوجودهم في الحياة أو القول بأنهم أشخاص خياليون حلقهم الرواة أو زادوا من عدم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعياً هذا النوع . قيس بن الملقح وليلاه ،^(٣) وقيس بن ذريح ولُبَّاء .^(٤)

(ح) الشعر السياسي .

بداية عصر بنى أمية معركةً سياسيةً ، لَبَّ فيها معاوية وأنصاره دوراً مُتِمِّعاً طريفاً في سبيل استلاب الخلافة من عليّ ، وتأسيس ملك بنى أمية ، على قواعدٍ وسننٍ تحالف قليلاً أو كثيراً ما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين .



الإنسانُ في سبيل تحقيق أطماعه السياسية ، هو بعينه في عصر معاوية ، وفي عصر يوليوس قيصر ، وفي عصر بومبارت ، وفريدريك الأكبر أولَ أهل لألمانيا ، هو بعينه إنسانُ اليوم ، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها ، يستعمل المالُ في شراء الضمير الإنسانيّ ، ويعمل جهده على إذاعة دعوته ، وتبيان فصائله ، وتصويب خطّته ، باتِّحاد الحملات الصحفية والخطابية وغيرها من وسائل الدعوة التي وصلت إليها المدنية الحديثة ، والتي كانت في عصر معاوية وحلفاء معاوية وفي عصر المأمون وحلفاء المأمون ، تستعيدُ ألسنة الشعراء ، وهي أسرع انتشاراً ، وأعمق أثراً ، وأكثر روايةً ، وأطول عمراً ، مما يكتب اليوم ، فلا يرويه من الناس إلا قليلٌ .

إنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية ، وأستحضات العزمات وإنهاض الهمم في الاقطابات الاجتماعية ، وما «لرسلير» من أثر في نفوس الجنود الفرنسيين ، ادا حَمَى وطيس الحرب واشتدَّ أوارها . وأنت جِدُّ عالمٍ بما كان لقصائد «اللورد بيرن» ، الواحدة تلو الأخرى ، في سبيل استقلال اليونان الحديثة ، وفي سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها وجمهورها وملوكها ونوابها ومصحفها ، ليأخذوا بأمر أمية مَهِيضَةً غُلِبَتْ على أمرها .

أنت جِدُّ عالمٍ بأن قصائد «بيرن» هذه فعَّلت في المعركة السياسية ما لم تفعله جيوش مصر وأساطيلها وبذخيرة الترك وأنتصارها ، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصار لشعره .



كذلك كان الحال في عصر بني أمية، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغ وأوسع نطاقاً. ألم يُوعر معاوية، في رواية يزيد أبنه، الى مسكين الدارمي أن يقول أبياتا في معنى المايعة ليزيد و يشدها إياه في مجلسه وهو حامل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغاني : إن معاوية لما أراد البيعة ليزيد، تهيّب ذلك وحاف ألا يماثله عليه الناس لحسن التقية فيهم وكثرة من يُرَجَّح للخلافة، وبلغه في ذلك ذرو^(١) كلام، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكيا، وكان يؤثره وبصله ويقوم بحاجاته عند أبيه، أن يقول أبياتا ويشدها معاوية في مجلسه اذا كان حاملا وحصره وحوه بني أمية، فلما اتمق ذلك دخل مسكين اليه وهو جالس وأبه يزيد عن يمينه وبو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه، فمثل بين يديه وأنشأ يقول :

إن أَدْعَ مسكيا فإني أبى معشير . من الناس أحبّ عنهم وأودو
اليك أمير المؤمنين رحلتها . شير القطا ليلا ومن هود
وهاجرة طلت كأن طساعها . اذا ما آتقتها بالقرون سمود
ألا ليت شعري ما يقول أبى عامر . ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني حلفاء الله مهلا فإنما . يئونها الرحمن حيث يريد
اذا الممر العسري حلاه ربه . فإنت أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد . لكل أناس طائر وجدود
فلا ريت أعل الناس كهبا ولا زل . وفود تساهبها اليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك غالبا . تسيد أطناب له وعمود
فدور أبى حرب كالجوابي ونحتها . أفاف كأمثال الرثال رمود

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله». قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراه يزيد، ليعلم ما عندهم، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجرلا صلته اهـ.

وأنتك لا تطلب مما حين مطالعتك لهذه القصيدة تحليها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا إليه؛ فيها أسفاه لك من القول بأن شعر المعصر الأموي "عربي" جاهلي في معناه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأعراض ومقاصد تكاد تكون جديدة بالنسبة للمعصر الجاهلي. وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يسبنا كثيرا.

على أنه لزامٌ عنقاً أن نصور، إلى مدى أوسع، استخدام الشعر الأموي في الأعراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريف نتائج وآثاره في هذا المعصر والمصور التي تلتها، ولأن لهذه الميزة اصطلاح الشعر بالفرض السياسي وانقطاع صاحبه في سبيل نصره دعوته مبعداً ما قد يتصور طريقه من صغاب، مُدلا ما يعترضه من عقاب، متبها حرمة التقاليد والأشخاص، مل حارجا إلى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، ورمالاً يرضى عنه الشرع حقاً، نزم أن لهذه الميزة آثارها ونتائجها. ولما بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيّد للحوادث لحسب، المثبت لمبدأ وقوعها، ولما مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط ميدانها ما سنباح لنا تفصيله فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصة، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين.



مثل أمرد ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير علي، بين كعب بن جعيل والنجاشي. وهاك قصيدة كل منهما، قال كعب بن جعيل:

أرى الشام تذكره ملك العرا * ق واهل العراق لم تاركوا
وكل لصاحبه مبيض * يرى كل ما كان من ذلك ديا

وقالوا على إمامنا * فقلنا رضيّا ابنَ هند رضيّا
 وقالوا نرى أنّ تدينوا لنا * فقلنا لم لا نرى أنّ تدينّا
 وكلّ يُسرّ ما عده * يرى عثّ ما في يديه سمينّا
 وما في علىّ بمستعيب * مال موسى صمّه المحدثينا
 وليس براص ولا ساحيط * ولا في النهاء ولا الأمرينا
 ولا هو ساء ولا هو ستر * ولا بدّ من معددا أن يكونا
 فلما قرأه علىّ رضي الله عنه قال للجاشيّ أح، فقال :

دعني معاويّ مالي يَكُونا * فقد حقّق الله ما تحدّرونا
 أنا كم علىّ أهل المرا * ق وأهل الحجاز فما تصمّونا
 يرون الطعان جلال الصما * ح وضرب القوايس في القع دينا^(١)
 هم هزموا الجمع جمع الزير * وطلحة والمعرّ الثا كينا
 فان يكره القوم ملك المراق * حينما رضيّا الذي تَكروهنا
 فقولوا لعكب أحى وائل * ومن جعل الفث يوما سمينّا
 حلّتم عليّا وأشباعه * نظير ابن هيد ألا تستحوّنا



وهاك مثلا آخر ذكره صاحب الأغانى في ترجمة النعمان بن بشير قال : تشبّه عبد الرحمن
 ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمَلْ هَلْ تَدَكْرِين يَوْمَ عِزَال * إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرًا مَاتَقِي
 إِدْ تَقُولِينَ عَمْرَكَ اللَّهُ هَلْ شَى * وَإِنْ جَلْ سَوْفَ يُسْلِكَ عَنِي
 أَمْ هَلْ أَطْمَعْتَ يَا بَنَ حَسَانِ فَاذَا * لَكَ بِمَا قَدْ أَرَاكَ أَطْمَعْتَ مِنِّي

قال: فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فنصب، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين،
 ألا ترى الى هذا الطبع من أهل يقرب يتهم بأعراضنا ويُشبّه بنسائنا! فقال : ومن هو؟

(١) القوانس : جمع قونس وعراصل الرأس، وأهل بيمة الحديد أو مقدمها .

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال ؛ فقال ، يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقبج منها بدوى المقدرة ، ولكن امهل حتى يقدم وفد الأصهارم دكرنى به ، فلما قدموا ذكره به ؛ فلما دخلوا قال : يا عبد الرحمن ، ألم يلفنى أنك تُشَبُّ برملة بنت أمير المؤمنين ! قال : بل ولو علمت أن أحدا أشرف بشعرى منها لذكرته ؛ قال : أين أنت من أحتا هند ! . قال : وإن لها لأختا يقال لها هند ؟ قال : نعم ! وإنما أراد معاوية أن يشبَّ بهما جميعا فيكذب هسه ، فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان مه معه ، فأرسل الى كعب بن جعيل فقال له : أُلج الأنصار ، فقال : أفرق من أمير المؤمنين ، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل ، قال فدعاه فقال له ، أُلج الأنصار ، فقال : أفرق من أمير المؤمنين ؛ قال : لا تخف شيئا أما لك بذلك ، فهجاهم فقال :

وإذا نسبت أن القرية جلته • كالجحش بين حمارة وحمار
لنن الآله من المهور عصابة • بالخرزج بين صليصيل وصُدَّار
قوم اذا هدر المصير رأيتهم • حمرا عيونهم من المصطار
خلو المكارم لستم من أهلها • وخنوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يرمون ظهوركم • أولاد ككل مقحح أكار
ذهبت قريش بالمكارم كلها • واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فدخل على معاوية ففسر عمائمته عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين ، أترى لوما ؟ قال : لا بل أرى كوما وخيرا ، فإذا ؟ قال : زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار ! قال : أو فصل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : لك لسانه ، وكتب فيه أن يؤتى به ، فلما أتى به سأل الرسول أن يدخله الى يزيد أولا ، فأدخله عليه ، فقال : هذا الذى كنت أخاف ؛ قال : لا تخف شيئا ، ودخل على معاوية فقال : سلام أرسل الى هذا الذى يمدحنا ويرى من وراء حجرتنا ؟ قال : هجا الأنصار ؛ قال : ومن زعم ذلك ؟ قال : النعمان بن بشير ، قال : لا تحبل قوله وهو المدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالينة وإن أثبت شيئا أخذت له ، فدعاه بالينة فلم يأت بها فخلَّاه ، فقال الأخطل :

وإي وإن أستعمرت أم مالك * لراض من السلطان أن يتهذبا
 ولولا يزيد أن الملوكة وسعيه * تحلت جرأدا من الشر أنكدا
 أما رد العمان على الأخطل فما كه كما قله أبو الفرح الأصبهاني عن خالد بن كلثوم :
 معاوي ألا تعطيا الحق تعترف * على الأزد مشدودا عليها العائم
 حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعد شتائه * من لك بالأمر الذي هو لازم
 هم شرع الله الهدى فاحتدى بهم * ومنهم له هاد إمام وحائم

وإنما نحيل القارئ الى الكتاب الأول من المجلد الثاني ليقف على قصيدة العجائب
 هذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائية الأخرى التي أشدها معاوية لما صرّب
 مروان بن الحكم، عند الرحمن بن حسان الحدّ ولم يصرب أحاه حين تهاجيا وتقاذفا .
 وتحرير الخبر فيها : أنه لما كثر المعاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم
 ابن أبي العاصي وتفاخشا، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة،
 أن يخلد كلّ واحد منهما مائة سوط . وكان ابن حسان صديقا لسعيد وما مدح أحدا
 غيره قط، فكه أن يصرب أو يصرب ابن عمه فأمسك عنهما، ثم وكى مروان، فلما قدم
 أخذ ابن حسان فصره مائة سوط ولم يصرب أحاه، فكتب ابن حسان الى العجائب
 ابن بشير وهو بالشام، وكان كبيرا أثيرا مكبّا عد معاوية، قال :

ليت شعري أظننت أنت بالث * نام خليلي أم راقد سمان
 أية ما يكن فقد يرجع الف * نائب يوما ويوقط الوسمان
 ابن عمرا وطامرا أويانا * وحراما قديما على المهدي كانوا
 أفهم ما ينوك أم قللة الك * ناب أم أنت عاتب غضبان
 أم جفاء أم أعوزتك القراطيد * من أم أمري به عليك هوان
 يوم أنبت أن ساق رصنت * وأنتكم بذلك الركبان

ثم قالوا إن ابن عمك في ط . . . حوى أموراً فيها الحدّانُ
فنسبت الأرحام والود والصحة . . . فها أنت به الأزماتُ
إنما الرمح فأعلمهُ قاةً . . . أو كعبس الميدان لولا السانُ

وهي قصيدة طويلة . فدخل الهامس شيعلي معاوية فقال : يا أمير المؤمنين، إنك أمرت سعيداً بأن يصرب ابن حسان وابن الحكم مائة سوط فلم يفعل، ثم وليت مروان فصرّب ابن حسان ولم يصرب أحاه ! قال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتب إليه بمثل ما كتبت إلى سعيد، فكتب إليه معاوية يعزّم عليه أن يصرب أحاه مائة، فصرّبه حمسين وبعث إلى ابن حسان بجملة وسأله أن يعفو عن حمسين، ففعل وقال لأهل المدينة : إنما صرّبني حدّ الحز وصرّبه حدّ العبد حمسين، فشاعت الكلمة حتى بلغت ابن الحكم، فبغاه إلى أخيه فأجابه وقال : « لا حاجة لي بما عاينه ابن حسان »، فبعث إليه مروان : « لا حاجة لنا فيما تركت، فاهمل فاقنع من صاحبك » . فحصر فصرّبه مروان حمسين أخرى اه .



ويحذر بنا الآن، بعد أن أومحنا ميرة استعمال الشعر في الأعراض السياسية في الدولة الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تحلو من بيع فيما سماجله، وهي أن تلك الأعراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود . وقد سبق لنا أن أنشأنا إلى كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم في صدد حدّه للشاعر المناصر لسياسة بني أمية وهو عبد الرحمن بن أوطاة المعروف بابن سيجان وكان حدّه لشعره الخمر . وابن سيجان هذا هو الذي قال في صمته أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبد الرحمن شاعراً مُقلاً إسلامياً، ليس من الفحول المشهورين، ولكنه كان يقول في الشراب والقزل ومديح أحلافه من بني أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بني أمية كواحد منهم، إلا أن اختصاصه بآل أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر، وخصوصه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب » .

وزيد الآن أن نفسَ هذه الحادثة تمسيرا معتدلا لخرج منها بما عساه يمدنا وينفعنا فيما سَنُقدِّمُ عليه من ماقشة العصور التي تلت هذا العصر، تلك العصور التي تفتت، من غير شك، بأماويي العصر الأموي الذي تقدّمها، فنبت فيها بذوره حتى كادت تنمو في حديقته الأنف الحسانة دوحاتٍ خطره على الاعتبارات الخلقية التي توضح عليها .
وإنك إذا رجعت الى كتاب معاوية، ورجعت الى كتاب الأعاني نفسه، ومولفه أموي كما تعلم، وحدته قد أقام الخجة في غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهالك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان ، ذا علّة في الحمار ، يخرج إليها في زمان التمر ينمر من قومه ، يحسون له ويعاوبونه ، فكان إذا حصر خروجهم دفع إليهم هقيات لأهلهم الى رحمتهم ؛ يخرج بهم مرة كما كان يخرج وفيهم ابنُ سيحان ، فاقى ابنُ سيحان كتاب من أهله يسألونه القدوم حاجة لا بد منها ، فاستأذنه فأذن له ، فقال له ابنُ سيحان : زودوني من شراكم هذا ، فزودوه إداوة ملأها له من شرايهم ، فكان يشربها في طريقه حتى قدم على أهله ، فالتقاها في حانب بيته فارعة ، فكث زما لا يذكرها حتى كنسوا البيت فراها ملقاة في الكساسة فقال :

لا تَبْعِلِيْ إداوة مطروحة * كانت حديثاً للشراب العاتق
إن تُصْبِحِي لا شئَ يَكُ مرثاً ، أَتُرْعِي من كأس تَلْدُ لذاتي
بابي الوليد وأُم هسي كلبا * بنت النجوم وذرقرن الشارق
كم عسده من نائل وسماحة * وشمايل ميمونة وحلاقي
وكرامة للعنتين اذا أعتصوا * في ماله حقاً وقول صادق
أثوى فأكرم في التواء وقُصِّيت * حاجاتنا من عد أروع بإسقي
لما أتينا ما جد السخاقل سباقاً لقرم سابق
قال الوليدُ يدى لكم رهن بما * حاولتمو من صامت أو ناطق
فإلى الوليد اليوم حنّت ناقي * تهوى بغير المتون سمالي
حنّت الى برق قتلت لها قري * بعض الحنين فإن شجوك شاتي

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للحمر . ثم لُتِثَتْ لها قصيدته التي مدح بها معاوية :

إني أمرؤ أنمى إلى أفصل الورى * عديداً اذا رفصت عصا المتخطف
إلى بعد من عد شمس كأنهم * هصاب أحأ أركأها لم تُقَصَّف
ميامين يرصون الكفاية إن كعوا * ويكعون ما ولؤوا بنير تكلف
عطارفة ساسوا البلاد فاحسوا * سياستها حتى أقرت لمردف
من يك منهم موسراً يُشَشَّ فصله * ومن يك منهم معمرًا يتعقِف
وإن تسط المعى لم بسطوا بها * أكفأ سباطا فعها غير مقرِف
وإن تزو عنهم لا يصحوا وتلفهم * قليل التشكى عدها والتكلف
إذا انصرفوا للحق يوما تصرفوا * إذا الجاهل الحيران لم يتصرف
سموا فملوا فوق البرية ككلها * ببيان عالٍ من مُبِيف ومُشْرِف

وكان من حفظها أن كتب معاوية أن يعطى أربع مائة شاة وثلاثين لقة ، مما يوطن
السيالة فير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقع الذي حداً أبى الحكم إلى حده فإن السياسة الحزبية ومدائح
أبى سيجان في معاوية ، واستعمال الأخير الشعراء في ماصرة بيته — كل ذلك دفع بمعاوية
إلى كتابة ما كتب لأبى الحكم أولاً ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بمائة دينار
مما وصفه صاحب الأغاني ، فكانت الغلبة للشعراء لا للشعر ، وللغاية السياسية لا الدينية ،
فليقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسع ولا إسهاب .



وبعد ، فلنلخص ما تقدم عن شعراء السياسة ، وهم العصر الحامى الذى لعب دوراً
بارزاً في الأدب العربى في العصر الأموى ، والذي كان له أثره وتناحه في العصر العباسى ،
في كلمة ختامية في هذا الموضوع نين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ، فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بني أمية شعراء آخرين أخذوا بإصرهم ودافعوا عن يكلمهم مثل أبي العباس الأعمى وهبائه ابن الزبير، وأبي قطيعة طريد اس الزبير، وأبي مخنف المحدث المتعصب لآل مروان وهبائه ابن الزبير، وعدى س الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ المحدث ، وجيبهائه الأنصبي والحكم بن عدل الأسدي، والسلوى، وموسى شهوات، وغيرهم .

والشعراء العلويون، وى طليعتهم العماد بن شير الأنصاري، والكيت بن يزيد، وأمين اس حريم . على أن الأخيرين اضطرا الى امتداح بن أمية ومسايرتهم، فانا نجد الكيت قد مدح هشاما، كما نجد أمين مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلب ابن أبي صُفرة كزياد الأعجم وثابت قُطنة وحمة س بيص وكعب الأشقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حرب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدي .

وصعوة القول أن الحركة السياسية بين بنى أمية وماسيهم فى الملك أو الجاه وما يتنهما : من إضاداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن اليهم، واللها تمنعُ الله .



من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من ميمانٍ مسيح فى صروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنا أن ننقل الى الكتاب الثانى من موضوعنا، ورجو أن نوفق الى إضاداح ما أوجرياه، ونسط ما أجملناه، مبتلين الى الله ألا نصلل فى شعبه ومهامه ، وبُهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .

الكتاب الثاني

عصر بني العباس

الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشبّة العلوية .

(أ) توطئة :

رأينا كيف كانت الحياة السياسية والعلمية والأدبية في العصر الأموي، وكيف ظهرت مواطن الصعيف وعوامل الأعطاط، وكيف وقع نزوية بين الساخطين من العرب والتأثرين من الموالي، وكيف أحرف حلفاء معاوية عن خطته السياسية، وكيف عيرف فريق منهم بالدين وشعل آخرون بالعش والمجور . وزيد الآن أن لم الماسة قصيرة تدور الانتقال الى العصر العباسي، قبل التكلم عن العصر فيه، لنرى كيف كان اتجاه الأفكار في ذلك الحين .

(ب) دور الانتقال :

إن الذي ينظر في كتب التاريخ الإسلامي عامة، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصة عن الدولة الفارسية في دور انحطاطها وصباغ استقلالها وفناء أهلها في الإسلام، مع رسوخهم في المدنية وسبقهم الى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب، ليدكر حياة اليونان وعلماء اليونان، حين دالت دولتهم وخضعوا للرومان وهم دونهم في العلوم والعنون .

ولساها بصدد الإحاطة في بيان المباحي التي تعلت فيها الموالى على العرب فإن
لذلك مكانه الطبعي في هذا الكتاب . وقصّارنا الآن أن نجيّل القارئ الى الجزء الأول من
كتاب الأستاذ «ادوارد برو» الذي وضعه عن التاريخ الأدبي للعرب ، وهو من مجلدات
«مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أدعّ الموالى صاعرين لعلّة العرب عامّة والأمويين خاصّة ، وداقوا ماداقوا من الذلّة
والمسكّة ، وطاوا ماعاوا من صروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقوا العُرض لينقصوا
على سادتهم العرب ، وأن ينظروا أوّل بارقة تلوح في أفق السياسة ليأجروا الباقيين على المملكة
الأموية : فقد كانت دولة بني أمية مكروهة عند الناس ، ملعونة مدمومة ثقيلة الوطأة ، مُستهترة
المعاصي والقبايح ، فكان الناس من أهل الأمصار يتطرون زوال هذه الدولة صباح مساء .



أضيف الى ما تقدم أن الشيعة كانت ، الى جانب قوّة المحبة في أنها أحق بالخلافة ، إذ كان
أصبارها يدعون الى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي ، تَصُم الى رحالاتها شخصيات بارزة
في الدين والكماية والصلاج ، فكان خيار الناس يُطيعونها تدينا ، وكان غيرهم يُطيعها ربة
أو رهة . وكان العلويون لا يفترون عن بت دُعائهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من
البلاد النائية عن مركز الخلافة التي انفصمت عُروتها وكان من انحلالها ما وصناه .
وكان العرس يستحدمون زلامهم المنتشرين في البقاع العربية في الدعوة الى مبايعة خصوم
الأمويين ومناصرتهم ، رصة في التحلص من ظلم بني أمية وعسفهم ، وطمعا في أن يكون
لهم من تبذل الحال حظّ من العزة والسلطان .

ولنذكر مع هذا ثورة المهالك الإسلامية عامّة على الأمويين ، تلك الثورة المصادئة
الخفيفة ، التي كان من آثارها أن قيلَ حصّ ولاتهم في الأمصار وأب خرج فريق على
الخليصة . ولنذكر كذلك انشقاق البيت الأمويّ نفسه وتصدّع أركانه ، فإن لذلك أثره
الفعال في نفي عرش الأمويين . ولقد كانت بدايته ذلك الانشقاق ، خروج زيد بن الوليد على

عمه الوليد بن يزيد وتنهيه إياه أسوأ تشهير ووصمه بأقبح الوصمات ، حتى تمثل بعض
بنى أمية بقول الشاعر :

إني أعيدُكو بالله من قتي * مثل الجلال نَسَأَى ثم تدع
إني البرية قد ملّت سياستكم * فاستفسكو بعمود الدين وأرتدعوا
لا تلجس ذناب الناس أنصكم . إن الذناب إذا ما ألحت رُئُ
لا تبقرن بأيديكم بطونكو * فثم لا حمره تُقنى ولا جزع

ولما تمّ ليزيد الأمرُ نرح عليه مروان بن محمد ، وكان أمير الجزيرة وأرمينية ، ومعه
جيش جرار يأمر بأمره ، ومعه الثغر من يزيد لطلاله بدم أخيه ، فقبل يزيد على أمره
وانبسطت في البيت المسالك يدُ الفرقة والانشقاق .

(ج) الشيعة العلوية :

لم تصل الخلافة إلى معاوية إلا بدعائه وسعة حيلته وتعد نظره وحسن تصرفه
للأُمُور ، وإلا فقد كان هناك حرب قوى الشكيم عزيرُ المكابة ، يرى على بن أبي طالب
أحق بالخلافة : ولولا دعاء معاوية ما نزل الحسن بن علي ولا أحلى لحصمه الميدان
في سنة ٤١ هجرية ، وقد كان من نتيجة ذلك أن تحطت الأحزاب العلوية من نصرته ،
بجمعوا الجموع وجنّوا الجسود ، وثاروا على أمير الكوفة الأموي وهو زياد بن أبيه —
وكان يدّ معاوية التي بها يصول — ولكن زيادا يعرف كيف يُحمدُ العتة ، وتطعمُ الثورة ،
فبادر إلى استئصال الداء ، وقتل منهم حلقا كثيرا ، أشهرهم جُبَر بن عدى وأصحاب جبر
ابن عدى . بيد أن إراقة الدماء تهيج الحاسة وتؤجج نارُ الصداوة والغضاضة في قلوب
المخلوعين ، وكذلك ظلت العتة تُدير الشر المستطير .

رأى الدعاة العلويون أنه لا قبل لهم بمعاوية ولا برجاله ، فتربصوا بهم ريبَ المود
وعلموا النفس بتقلبات الحوادث وعنت الأمام ، راجين أن تعود الخلافة إلى بيت النبي ،

ولكن شدّ ما مزعوا يوم أحد معاوية البيعة لأبيه يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقصف والتلّهي بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همام السلولي :

حُبِّهَا الْغَيْظَ حَتَّى لَوْ شَرِبَا ۝ دَمَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ مَا رَوَيْتَا
لَقَدْ صَاعَتْ رَعِيَّتُكُمْ وَأَنْتُمْ ۝ تَصِيدُونَ الْأَرَانِبَ عَالِيَا

وإنا نعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أوى الحسين أن يبايع له بالخلافة ، بل رأى أكثر أهل التقي ومباينة يزيد تحرقاً لحكمة الدين . ثم قُتِلَ الحسين في كربلاء سنة ٦١ هـ . فألفت الشيعة « حرب التّوايين » بعد وفاة يزيد وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا إلى الكوفة الأموي عبيد الله بن زياد ، وولّوا عليهم رجلاً منهم . ثم تألف حرب « شرط الله » بزطمة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي . وانقسمت الشيعة العلوية إلى فريقين عِدَّةٍ ، أهمها الفرقة الإمامية ، وهي التي ترى أن أحقّ الناس بالخلافة هم ولد عليّ من فاطمة بنت النبي ، والأئمة في نظرهم اثنا عشر إماماً ، وهم : عليّ ، والحسن ، والحسين ، وزيار العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعليّ الرضا ، ومحمد التقي ، وعليّ التقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . ومنها الفرقة الكيسانية ، وهي التي تقول بتحوّل الخلافة بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفريق آخرى أصغر من تلك شأنًا وأقل أثرًا .



على أنه كان يوجد بجانب أولئك الولاة المخلصين لبني أمية والمسرفين في مطاردة الحزب العلوي ، فريق آخر ، على رأسه خالد القسري ، يعمل لمناصرة العلويين سرّاً لا علانية ، كما يعمل ، في العادة ، فريق من موظفي الحكومة لحزب الأقلية المضطهد طمعاً في المناصب ، أو نصراً لعقيدة سياسية ، أو إشارة للعدل والإنصاف .

على أن الدعوة العلوية كانت فاترةً صميغةً ، إذا قورنت بالدعوة العباسية التي ستكلم عليها في الكلمة الآتية . ولعلّ من أكبر أسباب ضعف الدعوة العلوية مبايعة زعماء العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الركيه ، عهد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصور وغيرهما من أئمة الحزب العباسي .

وكذلك سارت الدعوة لآل محمد شوطاً بعيداً ، وظهرت شخصيات مارة ، قوية الشوكة ، وفيرة المال والجاه : أمثال أبي سلمة الحلال الفارسي المعروف .

ومستوى كيف تحولت الدعوة العلوية الى وجهة أخرى ، وكيف استغلّت لمصلحة العباسيين . . .

(١) يحالفا أساندا الشيخ عبد الوهاب الحارثي دها اليه ويرى . « أن العلويين كانوا يتهاونون على الخروج على الخلفاء ، فكثرت القتل معهم فقتلوا بجلاد أولاد علي بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحداً الى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة » .

الفصل الثاني

العصية والموالى فى الدولة العباسية

توطئة - العبة - الموال .

(١) توطئة :

لقد مرت بك إشارة بسيطة حين تكلمنا عن العصر الأموى الى حق الموالى الذين ألم فى ذلك العصر من الاحتقار والرياء حط غير قليل ، وبينا لك أن هذه الالحية من المعاملة ، التى لا تنطق على المذهب الحديث « حرية . إزاء . مساواة » كانت عاملاً قوياً من عوامل الضعف والانحطاط فى دولتهم ، ووجدناك أن ندروس حال العصية والموالى فى هذا الفصل من الكتاب ، تمثيلاً مع النظام الذى وضعت له .

والآن نعرض عليك حال الشعوب التى كانت خاضعة لسلطان بنى أمية حتى نبين أحوالها النفسية والأهواء التى كانت عالة عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بث الدعوة وتنظيمها وحرم القائمين بها وإحلاص المشيرين وكفاية القواد ، بل لابد مع هذه الأمور أن تصادف الدعوة الجديدة نفوساً مستعدة لها ، راغبة فيها ، عاملة على إنعائها ، لى تزهر وتؤتى ثمارها .

والحق أن الدعوة العباسية قامت فى وقت كانت قد توزعت فيه الحواصر الإسلامية أهواء مختلفة ، وتقسمت القبائل العربية عوامل العصية ، وأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها والتى أصبحت خاضعة للغزو العربى ، تستفيق من الدهشة التى استولت عليها من العورة العربية التى أخضعها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضر الإسلامية فكان قد علب على كل حاضرة هوى أسرة أو شخص معين ، ولم تكن يخضع للسلطان العربى الأموى لولا القوة القاهرة ، ولهذا لم يكده مضطرباً أصراً

بنى أمية في الأطراف، ويظهرُ الخارجون من الدعاء على ولايتهم، حتى أحدث هذه الحواضر تنسّل عن طاعة بنى أمية واحدة بعد أخرى . وتستطيع أن تلتصق هذه الظاهرة بصفة واضحة من تقاعد الولايات عن نصرة آخر خلفاء بنى أمية عند ما حربه الأمر وتعقبه مطاردوه .

(ب) العصبية :

العصبية هي مُاصرة من يمت اليك بصلية من صلات الحياة : كالتمعك ربح قرية أو بعيدة، أو عقيدة دينية، أو هوى سياسى . ويظهر أنها من طبيعه الوجود، إذ لا تختص بها قبيلة دون قبيلة، ولا أمه دون أمية، ولا جنس دون جنس، ولا عصر دون عصر . وكما توجد في الأمم البادية، كذلك توجد في الأمم الحاضرة . وما الدعوات القومية والعرات الجنسية إلا نوع من العصبية معنى أوسع .

والعصبية العربية، التي نحن بسبيل القول فيها، والتي كانت من الأسباب التي اصحمت بها سلطان بنى أمية، قديمة في القائل العربية : كانت في الجاهلية قبل الإسلام، وكانت تصيق وتوسع بحسب الظروف والماسات، فبنا زواها بين العدانية والقحطانية، وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، زواها بين ربيعة ومصر وهي قائل عدانية، وزواها بين بنى أمية وبنى هاشم، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها . وكانت هذه العصبيات تستند حيا وتفتر آخر .

فلما جاء الإسلام ودخل الناس فيه أواحا وتم له السلطان في جزيرة العرب، ألّف بين القبائل وأزال ما في صدورهم من أحقاد، وذلك ما يشير إليه قول الله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بُنْصِرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) . ألّف الإسلام بين قلوب العرب، وأزال كل أثر للعصبية القديمة في نفوسهم، ولكنه استبدل عصبية واسعة شاملة هي عصبية الإسلام، وجعل المؤمنين جميعا اخوة .

وبقي أمر العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين ، وذلك راجع لا محالة الى عوامل شديدة الأثر في نفوسهم ، كهيمة الروح الدينية عليهم ، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتح من عاثم ، وكحزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاء وقسوتهم .

فلما كان العصر الأموي واستقر الناس في الحواضر الإسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح ، واجتمعت الشنشة القديمة ، فأخذ بعضهم يفتحر على بعض مما كان لأبائهم من مجدي الجاهلية وبلاء الإسلام ، وما لقبالهم من قوة وأيد . وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة لذلك ، فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعدي :

أيت أرمي النجوم مرتفعاً * اذا استقلت تجرى أوائلها
من قنية أصبحت مجللة * قد عم أهل الصلاة شاملها
من بحراسان والعراق ومن * بالشام كل شجاء شاعلها
فالناس منها في لون مظلمة * دماء متجعة غياطلها
يُمسِي السفيه الذي يستغها مال * جهل سواء فيها وعافلها
والناس في كربة يكاد لها * تبد أولادها حواملها
يعدون منها في كل مبهمة * عياء تمنى لهم عوائلها
لا يطر الناس في عواقبها * إلا التي لا يبين قائلها
كرعوة البكر أو كصيحة حب * بلى طرقت حولها قوايلها
جاء فيها أزرى بوجهته * فيها خطوب حمز لا زلها

ولقد زاد في إذكاء العصبية بين القبائل العربية حُقوق بعض الولاة ، وعدم أخذهم الأمور التي تقع بين أيديهم بالحزم والحكمة ، وأيضا استهانة بعض الخلفاء الأمويين ببعض الأمور وعزورهم بما لم من سلطان ، فكانوا لا يبالون شعور الناس في تعيين الولاة عليهم ، مما كان له أبعاد أثر في صرف النفوس عنهم واستجابتها لكل داعج الى الخروج عليهم . وحسبك

أن ترى هشام بن عبد الملك، مع حزمه وتعد نظره، يُعين نصر بن سيار والياً على خراسان، وهو يعلم أن عصبته بها ضعيفة، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسرى، كان مستشاره يُسمي له أشخاصاً بما لهم من حماد ومدام، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال : إن اضمرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل، قال هشام : وما هي ؟ فقال المشير : عشيرته بها ضعيفة، فقال هشام : «أو تريد عشيرة أقوى منى ! أنا عشيرته !» .

على أن كلمة هشام قد تُخفف من آثارها السيئة متانة حكمته، ونفاذ صولته، وقوة شوكته، ولكن الخلفاء جميعاً ليسوا كهشام حراً واقتداراً، وليست أيامهم كأيام هشام نجماً وانتصاراً .

ومهما يكن من شيء فإن تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت في الواقع ثوباً على بنى أمية .

وقد لفت العصبية بين مصر واليمن في خراسان طوراً عتيقاً، حمل التراوح بين الفريقين موصع اضطهادٍ وتُحرية وازدراء .

ولقد قالت أم كثير العصبية لما هدم اليمينيون ثور المصرية أثناء الحروب التي كانت بين مصر والكرمانى بسبب العصبية :

لا بارك الله في أخى وعدبها * تنقجت مُضرباً آخر الدهر
ألع رجال تميم قول موجبة * أحللتموها بدار الدل والمقير
إب أنتم لم تكروا بعد جوتكم * حتى تُعيدوا رجال الأزد والظهر
إني استحييت لكم من بذل طاعتكم * هذا المزونى يتيكم على فهير

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصر قد رَح الخماء * وقد طال التقي والرحاء
وأصحت المزون بأرض مزرو * تُقصي في الحكومة ما تشاء
يموز قضائها في كل حكم * على مُصير وإن جار القضاء

وَحَيْرٌ فِي مَجَالِهَا قَمُودٌ - تَرَقَّرُ فِي رِقَابِهِمُ الدَّمَاءُ
فَإِنْ مُصِّرٌ مَذَا رَصِيَتْ وَذَلَّتْ - فَعَالٍ لَهَا الْمَذَلَّةُ وَالشَّقَاءُ
وَإِنْ هِيَ أَعْبَتَ فِيهَا وَإِلَّا - حُلَّ عَلَى عَسَاكِرِهَا الْعَفَاءُ

ولقد استغلَّ الدعاة العاسيون العصبية ، التي فتَّتْ في عضدِ الأمويين ومزقتهم أشتاتا وطرائق قديدا ، حيرة استعلال ، وهو ما كان له أبلغ أثر في القضاء على سلطان بني أمية . ذلك أن نصر بن سيار ، وهو عامل خراسان ، قد تحامل على اليمن وربيعة وقدم المضربة هوث به حديق بن علي الكرماني الأزدي ، وكان رئيس الأزد يومئذ ورحلهم ، وقال له : ندعك وصلك ومالت معه اليمايه وربيعة فأخذه نصر وحبسه ، فأتت اليمن وربيعة حتى أخرجوه من عسرى كنيف^١ ثم اجتمعوا . ورأى نصر أن يحدده يصير اليه ، فلم يفعل . وكان في نصر بعض الخسوف . فلما علم حديق أن اليمن وربيعة قد اجتمع رأيهما معه على نصر وثب خاربه ، وكان له الملو على نصر ، فقال أبو مسلم إلى الكرماني فقال : ادع إلى آل محمد ، وحمل يمايل أصحابه ويدعوهم إلى ذلك ، حتى أظهروا دعوة بني هاشم بخراسان .

هذا ما كان من أمر العصبية بين العرب واستغلالها في إظهار الدعوة لى العباس .

على أنه يحدُّ بك ، ألا يعرب عن ذلك ، أن العصبية وإن كانت قد حذمت العباسيين أحلَّ الخدم فكانت مفعول هذيم وعامل هاء في صرح الأموية ، كان صرامها وأجيجها وحروبها وقتها لم تُحمد سراجا ، ولم ترجع أمور العباد إلى نصايها من الموادعة وحسن المصانعة بتيسير حال ، بل أخذت دورها المحتوم ، وكانت حسكا وقتادا ، القبة بعد القبة ، في بعض الولايات والأمصار ، لى العباس أنفسهم ، كما ستقف عليه فيما سنفرده عليك ، من خلاصة أخبارهم ، وبجمل تاريخهم .

(ج) الموالى :

لما أفصحت الخلافةُ الى الأمويين ، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد ، بسبب ما حلته الفتوحُ الإسلاميةُ من الأسرى ، وما كان يُهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق ، فإن الولاة كثيرا ما كانوا يعثون الى الخليفة بمئات أو الوف من الرقيق الأبيض أو الأسود هديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يحرم من هؤلاء سقى أو مكتنية أو تدبير يصير موثقًا ، وينسبُ الى أسرة معتقه أو قبيلته ، مع ملاحظة عدم أهليته للباء على قرشية أو عربية .

كثُر عددُ الموالى هذا ، فانصرف فريقٌ منهم الى الصبغة ، وآخرون الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة ، وانصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب ، فكان منهم جلةُ الفقهاء ورواةُ الحديث ، كما كان منهم الشعراءُ والكُتّابُ والمفسرون ، وتولت طائفةٌ منهم الماصبَ السامية فى الدولة كالتفضاء والمجاهبة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثير من الموالى من قدِّم راحية ، ومنزلة رفيعة ، فى العلم والأدب والصون ، كان العرب ينظرون اليهم دائمًا نظرة احتقار وازدراء .

وكان هذا الاحتقارُ والازدراءُ . يظهرُ فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهلَ علم وأدب ، ويتسمى كثيرٌ منهم الى ذوي كان لها من السلطان ومظاهرِ الحصارِ حفظٌ عظيمٌ ، بل كان للفرس وحلّ الموالى منهم سيادةً طاهرةً على العرب قبل الإسلام - لما كان كلُّ هذا عظمًا على الموالى أن يحتملوا كلَّ هذا الضيم من العرب فاندفعوا ينددون عن شرفهم وكرامتهم . ومن هنا نشأت الشعوبية . والشعوبيةُ مذهبٌ من يرى تفضيلَ العجم على العرب أو التسويةَ بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارون فى إكثار كلِّ لفريقه والخطِّ من الفريق الآخر .

وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمدحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مدعاةً الى زيادة مقمتهم لهم وزيادة السخيمة فى قلوبهم عليهم . ولما تُثبِتُ لك هنا مثلاً استشهد به الأستاذ

«برون» في كتابه عن أدب الفرس نقلًا عن الأغاني قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في حلاته ، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصره ، فاستنشه وهو يرى أنه يُشيدُ مدينا له ، فأشدّه قصيدته التي يتحرف فيها بالعجم :

ياربع رامةً بالعلياء من ريم > هل ترجعن إذا حيث تسلمي
ما مال حتى غدت بزل المطى بهم . تحدى لغريتهم سيرا بتقجيم
كأنى يوم ساروا شارب سلبت . فؤاده قهوة من حمرداروم
حتى انتهى الى قوله :

إني وحدك ما عودى مدى خور > عد الحفاظ ولا بوصى بمهلوم
أصلي كريمٌ وعدي لا يقاس به . ولى لسان تحذ السيف مسموم
أحيى به عد أقوام دوى حسب > من كل قرم بتاج الملك معموم
بحجاج سادة تلج مرابزة . جرد حقائق مسامح مطاعيم
من مثل كسرى وساور الجلود معا > والمهرمراب لفجر أو لتعظيم
أسد الكائب يوم الزوع إن زحفوا . وهم أدلوا ملوك الترك والروم
يمشون في حلقى المادى سابعة > مشى الصراصة الأسد اللهاميم
هناك إن تسأل تثنى بأن لنا . جنومة فهزرت عرا الجحرايم

قال : فعصب هشام وقال له : يا عاص ظئر أمه ، أطلت تصحر ، وإياي تشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! عطوهُ في الماء ، فغطوهُ في البركة ، حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإحراجه وهو يشتر ، وبماه من وقته ، فأنشرح من الرصافة مقيماً الى الجحاز . قال : وكان مبتلىً بالمصيبة للعجم والفجر بهم ، فكان لا يزال محروماً مطروداً .

ولما كان شأن الخلفاء الأمويين شأن سائر العرب في التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم في الحروب مشاةً ولا يُعطونهم شيئاً من العائث والىء ، نفرت نفوسهم منهم

وأصبح سلطانُهم مُضَيًّا إليهم، وصاروا عونًا لكل من خلع الطاعة ، أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدركون هذا الشعور فى الموالى ، فاستغلّوه خيرَ استغلالٍ ، إذ اتَّحدوا حِلَّةَ المُشرِين بدعوتهم منهم ، واعتمدوا كلَّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حِقْدٍ على بنى أمية خاصة وعلى العرب عامة ، فأخلصوا للدعوة الجديدة ، وبدلوا فى تحقيقها كلَّ ما يملكون من نفوس وأموال .

على أن لهذا الموضوع نواحى منشعبة ، يحول دون التحدث فيها ما رسمناه لأهمسا من الترام القصص والإيجاز .

الفصل الثالث

الدعوة العباسية

توطئة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني .

(١) توطئة :

كانت الدعوة العلوية تسير حسا الى حب مع الدعوة العباسية ، فقد كان العريقان مصطفاهذين مغلوبين على أمرهما ، وكان من المعقول والطبي أن ظلم بني أمية هؤلاء وهؤلاء يجمع ما تهزق من أهوائهم ويقفل حنة ما بينهم من عوامل التافس والخلاف . وقد كان بوهاشم أعداء للأمويين قبل الإسلام بسبب التراحم على السيادة في قريش . ولشد ما كان طلب السيادة والرامة مدعاة الى العداوة والشحاء وسبها الى التاحر والتقاتيل بين بني الإنسان !

حدّ العباسيون في دعوتهم السياسية وهم في الحيمة من أعمال اللقاء بالشام ، وزادوا حمية وحاسة تنزل أبي هاشم بن محمد بن الحمية العلوي رعيم الحزب الكيساني لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس حين دس اليه سليمان بن عبد الملك من سمه ، إذ رأى فيه من المهابة والوقار ما يؤهله للسلامة ويقربه من قلوب الجماهير . وقد كان في تنزل أبي هاشم هذا لصاحب الدعوة العباسية توحيد لحزبين قويين : هما الحزب العباسي^(١) والشعبة الكيسانية . وهذا التوحيد أو التقريب بين الحزبين كانت ثمرة لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمل العباسيون في تأليف الجماعات السرية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثني عشر نقيباً وهم : سليمان بن كثير الخزازي ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،

(١) هذا رأياً ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحارثي : « أنه لم يكن لدى العباس حرب قبل أبي هاشم » .

وعيسى بن أعين، وقطبة بن شيب الطائى، ولاهز بن قريط التميمى، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد بن إبراهيم الشيبانى، وأبو على المروى شبل ابن طهمان الحنفى، وعمران بن اسماعيل الميعطى .

واختار محمد بن على سبعين رجلاً يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتاباً يوصيهم فيه بما يرجو أن يوفقوا الى العمل به وهم يوجهون الدعوة ويحاورون الأحزاب .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيم العباسى من علم بأحوال الناس فى عصره، ونصير لأحلاق الشعوب التى كانت حاصعة للسلطان الاسلامى، ومما كانت تحيى به النفوس فى كل صُقع وحاضرة . ويمثل هذا الزعيم الداهية ومن احتدام للدعوة العباسية، قد كُتِبَ الموز لهذه الدعوة آنر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم فى كتابه :

« أما الكوفة وسوادها مشبعة على ولده . وأما البصرة وسوادها مغشاة تدب بالكف تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الحرية فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أحلاق البصارى . وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان، وعداوة راسخة وجهلاء متراكما . وأما مكة والمدينة فقد علب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الطاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغُل، وهم جدد لم أبدأن وأجسام ومالك وكواهل وهامات ويلي وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات نفمة تخرج من أجواف مكوة ... وسد، فإنى أتعامل الى المشرق، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق . »



(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني :

كان الدعاة العباسيون يتنقلون في مختلف الأمصار ، وكاوا في ظاهر الأمرِ طَلَبَاتٍ رزقي يزاولون التجارة ، وكاوا في الواقع رجالَ سياسةٍ ودهاءٍ يُثَوِّنُ الدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، ويدعون الناس الى مُناصرتهم بِشَيِّ الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن تُوَفِّيَ محمد بن عليّ ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكانت هذا مشايخُ خُرَاسَانَ ودهاقينها ، وبعث اليهم الدعاة ، وأرسل أنا مسلم الخراساني لبث الدعوة هالك ، فكان يدعو الى آل محمد ، يريد أهل البيت ، من غير أن يُعَيِّنَ العباسيين ولا العلويين .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة ، شديد الإخلاص للعباسيين ، مُسِرِّفاً في خدمتهم ، كثير الدماء ، واسع الحيلة ، خيرا مما يقتضى عمله من الحزم والقسوة ، فلا تعرف الرحمة قلبه ، ولا يتناول الأمور إلا بالحزم والناس الشديد .

ونستطيع أن نقبضَ مَرْمِي السياسة العباسية من الكتاب الذي بعث به ابراهيم الإمام الى أبي مسلم الخراساني ، فيما يرى أن يعمل لتأييد الدولة الجديد . قال : « إنك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتي : اظهر هذا الخي في اليمن فالزمهم وآسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يُثِمُّ هذا الأمر إلا بهم . وأثيم ربيعة في أمرهم . وأما مصر فأنهم العدو القريب الدار . وأقل من شككت فيه . وإن استطعت ألا تدع بحرسان من يتكلم بالعريية فافعل . وأيمما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فأقتله » .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هذه الوصية ، فكان يُسرعُ الى قتل كل من يتهمه ، ويقضى على كلّ من يرتاب في أمره ، حتى بلغت صحايا هذه الخطّة فيما يقول المؤرخون العربُ ، ستمائة ألف نفس قُتِلَتْ صبوا .

ومهما اقتصرت المبالغة والغلو في إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أَيْمًا إسراف في القتل وسفك الدماء تنفيذاً لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم نراسان سنة ١٢٨ هـ حاسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام قرية من قرى مرو يقال لها "سفيدنج"، وقد كثُر أنصاره وأنتال الناس عليه من كل صوب، فأعلن فيهم لبس السواد واتخذ شعارا للماسيين، ثم غيّر شكل صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بعير أدان ولا إقامة، وكانت سوامية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة، وأمر بأن يُكبّرت تكبيرات تناء، وكتب نصر سيار الوالى الأموى . ولما صاقت "سفيدنج" عليه ولم تنسح لأنصاره، رحل الى الماخوان، وكانت عدّه رحاله، فيما يقول المؤرخون، سبعة آلاف رجل . ثم أحتال في التفرقة بين نصر ورحاله، حتى أهدبأ خصمه ينهاز، ويقتل عنه أنصاره واحدا بعد واحد . وفي هذا يقول نصر شعرا بعث به الى مروان الحمار الخليفة الأموى :

أرى بين الرماذ وميص يار * ويوشك أن يكون لها صرام
وان لم تُطفئها عقلاء قوم * يكون وقوتها جنت وهام
فإن النار بالمؤدبين تُدكى * وإن الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري * أأيقاظ أم نيام

فلما ورد هذا الشعر على مروان لم يُحبّ عليه بما يحب أن يُحبّ به الملك الحازم الحريص على ملكه المبقى على عرشه : من مبادرته بإرسال الكُتّاب والجيوش لكبح النافرين على الملك أو إعداده المعدات لإرسالها، ولما كتب الى نصر كتابا يمثل الصمف والاستسلام، ويبيّن يمنحه الى سياسة القول والكلام، في موضع يتطلب تفهيد الرج والحسام، يقول فيه :

(١) الماحوان بضم الحاء المصححة وآخره فود قرية كثرة ذات سارة وحامع من قرى مرو ومهاجر أبو مسلم صاحب الدعوة الى الصمراء .

« إن الحاصري ما لا يرى الغائب، فاحسب أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك »
فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنه » .



يجب ألا يموتنا أب نسيرها الى ناحية مهمة وخلق أبي مسلم ثمثل ما يجب على
القواد من الحرم والكتان ، فقد جاء في « كتاب الحاس والمساوي » للبيهقي ما نصه :
« قيل لأبي مسلم صاحب الدولة . ماى شيء أدركت هذا الأمر » فقال : أردت
الكتان ، وأتررت بالحرم ، وحالفت الصدر ، وساعدت المقادير ، فأدركت طي وحرث حد
نعيقي . وأنشد :

أدركت بالحرم والكتان ما عثرت * عه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أشتى عليهم في ديارهم * والقوم في عسلة بالشام قد رقدوا
حتى صرتهمو بالسيف فانتهبوا * من رومة لم يهما قبلهم أحد
ومن رعى عما في أرض مسبه * وبام عنها نوى رعيها الأسد اه

على أن مروان استيقظ أخيراً من غفوته ، وانشه من عفلته ، وأمر بأخذ إبراهيم بن
محمد . فلما قيص عليه في الخيمة باللقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبى العباس ، وأمر أهله
وأنصاره بالمسير الى الكوفة ، وحصهم على السمع والطاعة لأبى العباس .

وقد حُسِس إبراهيم في محس « حران » مع جماعة من حصوم مروان من بى أميه ، وظل
في محبه حتى مات . وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : إنه سُقِيَ سُمًّا ،
ومنهم من قال : هُذِمَ عليه بيت هات .

على أن المؤرخين وإن اختلفت أقوالهم في كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات
عيلةً وانتقاماً . وقد رثاه بعض الشعراء فقال :

قد كست أحسبني جلدًا فضمضني * قبر بمزات فيه عصمة الدين
به الإمام وحير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيه الإمام الذي عمت مصيبتُهُ * وَعَلَتْ كُلُّ دِي مَالٍ وَمُسْكِينٍ
فلا حفا الله من مروان مظلمة ۞ لكن عما الله عن قال آمين

ثم انتقل الأصار إلى الكوفة، وقد ساعدتهم أبو سلمة الحلّال المعروف "توزير آل محمد"،
ولكنه عدل عنهم أخيراً . وقيل : إنه كاتب ثلاثة من أعيان بني علي : يعرض الخلافة
على أحدهم وهم : حمير الصادي بن محمد الباقري، وعبد الله المحض بن حسن، وعمر الأشرف
ابن زين العابدين ، وكانت حاتمة حياته القتل .

ونريد عد الذي قدمناه أن نلمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمون، لنرى كيف
كانت الحياة السياسية في عهدهم الذي كان بلا شك بؤاً صالحة لعصر المأمون . وإنا
نرجو، إذا وفقنا إلى بيان الماضي التي امتاز بها هؤلاء ، أن يكشف الغطاء عن حقيقة
أمرهم ومكانتهم التاريخية ، كما نرجو أن تطر من وراء فهم أقدارهم وحقيقة عبورهم
بتهم الأصول التي كوّنت العصر الذي من أحله وصع هذا الكتاب .

الفصل الرابع

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أوّل من تولى الخلافة العباسية ونقل الملك من بنى أمية الى بنى العباس . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان وافر الكرم ، ظاهر المروءة ، حليّل الوقار ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق ، وصوّلاً لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمحة الرصية ، يجمع قلباً ذكياً وأثقاً حياً ، في تعقب الأمويين وتبديد شملهم ، في كل قطعة يحشى أن تُسمع لم فيها كلمة ، أو يطاع لم رأى ، أو يؤثّر عنهم صنيع . وكانت هذه الدولة الناشئة تحتاج الى مثل هذه القسوة من مثل أبي العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائماً في مثل هذه الظروف ، أن جلّ الملوك الذين يُشوا لإنشاء دول جديدة ، وممالك جديدة ، وأسرار ملكية جديدة ، مثل أبي العباس السفاح وغيره ، هم مُكرّهون لا محالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشدة ، دون إغفالهم المواقفة والملاينة فيما لا يهدد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان في بعض أيامه حالسا في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سيديف الشاعر وأنشده :

لا يفزك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داءً دويّا
وضع السيّف وأرفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويّا

فقال له سليمان : قتلني يا شيخ ! ودخل السفاح وأخذ سليمان فقتل .

وهذا الذي صعبه السفاح أصبح سنة عباسية في تأييد الملك . وكان قليل من الإغراء كافياً في حق من تقع عليه العين من خصوم الخلافة ، فقد دخل شبيل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن علي، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبل عليه فقال :

أصبح الملك ثأت الآساس * نالها ليل من بى العباس
طلبوا وترهائم مشقوها * عد ميل من الزمان وباس
لا تُقبل عد شمس عثارا * واقطع كل رقعة وعراس
خوفهم أظهر التودد منهم * وبهم مكك كحر المواسي
ولقد ساءنى وساء قبيلى * قربهم من تماري وكراسي
أزلىها بحيث أنزلها الله مدار الهوان والإعساس
واذكروا مصرع الحسين وزيد * وقتيلا بحساب المهراس
والقتيل الذى تحزان أسمى * رهن ريس في عرية وتاسي

فأمر بهم عبد الله فصيروا نالعمد حتى قتلوا، وبسط الطوع عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أين يصمم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشية عند حد التكبيل للأحياء، بل تعدت بهم إلى الأموات، فقد ذكر
أن عبد الله بن علي أمر بنش قبور بى أمية بدمشق، فُبش قبر معاوية بن أبى سفيان
فوجدت فيه عظام كأنها الرامد . وبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدت فيه جمجمته .
وكان لا يوجد في القبر إلا العنق من العنق، مير هشام بن عبد الملك فقد وجد صحيحا
لم يبل منه إلا أرنبة أنفه، فصر به بالسياط وصلبه وأحرقه وفزاه في الريح . ثم تعقب أولاد
الخلفاء من بى أمية فلم يلبث منهم إلا من كان في المهدي صليا . وأدرك بعض الهاريين
إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبى طرس، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والعمر

(١) نهر أبى طرس هم الماء وسكون الماء وصف الزاء وسين مهمل . موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به
كانت رقعة عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس مع بى أمية فقتلهم في سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ؛ واستصنى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَسَبٍ ومال ، فلما فرغ منهم تعفى بيده الأبيات :

بني أمية قد أفيت حمكو * فكيف لي منكوب بالأقول الماضي
بُعْثِي الْعَسَّ أَنْ السَّارِ تَحْمَكُم * عَوْصُكُو مِنْ لُظَاهَا شَرٌّ مُعْتَاضِ
مُيْتِمُو - لَا أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَكُمْ - * بَلِيثْ عَابَ إِلَى الْأَعْدَاءِ نَهَاضِ
إِنْ كَانَ عِظْلِي لَمُوتٍ مَكُوفَقْد * مُيْتٌ مَكُم بِمَا رَبِّي بِهِ رَاضِي

قلنا : إن السماح كان إلى حاش هذه القسوة رآ يدوى رحمه ، وَصُولًا لَهُمْ . ولد كرمثالا لذلك : تصرفه مع آل الحسن بن عليّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلاً منهم هو محمد ابن عبد الله كما ينبا من قبل ، فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصري عن عثمان بن سعيد ابن سعد المديني : أنه لما وليّ الخلافة أبو العباس السماح قدم عليه بنو الحسن بن عليّ بن أبي طالب فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطاعات ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم عليّ ، قال : « يا أمير المؤمنين بألف ألف درهم ، فإني لم أرها قط » ، فاستقرصها أبو العباس من ابن مقرن الصيرفي وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيت مال . ثم إن أبا العباس أتى بخوهر مروان فجعل يقلبه وعبد الله بن الحسن عده فبكى عبد الله ، فقال له : ما يبكيك يا أبا محمد ؟ قال : هذا عبد بنات مروان وما رأيت بنات عملك مثله قط ! قال . خذاه به ، ثم أمر ابن مقرن الصيرفي أن يصل إليه ويتأخه منه فاستراه منه ثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفق واللين ، وهذه السياسة والحكمة ، لم تُنِسْ أبا العباس السفاح ما يحب عليه من مراقبة الطالبين ، والتسمع لما قد ينجس في خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ، وإن صلة الرحم من مثل السماح لا تكون ظاهرة حلقة بقدر ما تكون حيلة سياسية ، وكذلك رأياه يقول لبعض ثقاته وقد خرج من عده بنو الحسن :

« قُمْ بِأَزْوَاجِهِمْ وَلَا تَأَلَّ فِي إِيَّائِهِمْ ، وَأَظْهَرِ الْمَيْلَ إِلَيْهِمْ وَالتَّحَامَلَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى نَاحِيَتِنَا ، وَأَنْهَمِ

أحقُّ بالأمر منا كلما خلوت بهم، وأُحِصَّ لى ما يقولون وما يكون منهم فى مسيرهم ومقدِّمهم .

ومما ذكرناه يرى القارئُ مما أن السفاحَ قد جمع حقًّا بين القسوة واللين، وأنه لم يكن فى عنقه باخترَ منه فى رفقته، وإنما كان يلين ليستلَّ ضخمةً مدفونةً أو ليستدرجَ بعض الحاقدين؛ ويقسولبرى أعداءه أن لا أمل لهم فى الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شيء، فإن خلافة أبى العباس كانت أقصرَ من أن تسمحَ لحصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القوى فى سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عمَّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم لخطأه حطةً تُجسِّمهم بعض ما توزطوا فيه من الاضطراب .

الفصل النجاشي

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً، شديد الرأي، مُحْكَم التدبير، وكان قوياً العزيمة، جرىء القلب، يصبى إلى عايته مِصْبَى السهم إلى الرميَّة لا يَتَّبِعُه عنها شيءٌ . سياسياً حاذقٌ لا يقبل أن تُتَدَحَّلَ في سياسته عاطفةٌ ولا حُلُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسي ليس مير . وهو إلى ذلك داهية . وربما اضطره الدهاء إلى شيء إن لم يكن الإنمُّ لِنَلْقَى فهو شبهه في كثير من الأحيان .

وهو من هذه الناحية أحد أولئك الساسة الذين عرَّهم التاريخ من حين إلى حين بالإقدام في غير تَرَدُّدٍ ولا لبٍ ولا تَهَيُّبٍ للوسائل ، والذين مثلهم «ميكافلي» أحسن تمثيل . فقد ذكر ابن الأثير أنه أحصر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ، فقال : شاورْ عموماً يا أمير المؤمنين ، قال المنصور : فإني قول ابن هرمة :

نزور أصرأ لا يحص القوم سره * ولا يتجى الأذنين فيما يحاول
إذا ما أتى شيئاً معى كالذى أتى * وإن قال إني فاعلٌ فهو فاعلٌ

ثم قال : امض أيها الرجل ! فوالله ما يراد عيرى وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخاصاً ، فسار وسير معه الجود . وقال المنصور لما سار عيسى : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ! » .

وكان إلى جانب ذلك ، كما قال الجاحظ ، : مُقَدِّماً في علم الكلام ومُكثِّراً من كتاب الآثار ، ولكلامه كاب يدور في أيدي العارفين والوزّاقين معروف عندهم .

وفي وصف المنصور يقول يزيد بن هيرة : « ما رأيت رجلا قط في حرب ولا سمعت به في سِلْمٍ أمكرو ولا أندع ولا أشدَّ تيقظا من المنصور، لقد حصرنى في مدينتي تسعة أشهر ومضى قُرسانُ العرب، بجهدنا كلَّ الجُهد أن ننال من عسكره شيئا يَكْسرُه به ما تَبَيَّا ، ولقد حصرنى وما في رأسي بيصاء، فخرجت إليه وما في رأسي سوداء . »

وكان المنصور يعطى في موضع المطاء ويمع في موضع المع ، ولكن المع كان أعلت عليه، حتى صرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوانيق » ، لشدة في محاسبة العمال والصباغ على الحجة والذائق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى في تمثيل هذه الحاجة من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واحدا مولاة قال : « إني لواقف يوما على رأس أبي جعفر إداد دخل المهدي وعليه قباء أسود جديد، فسلم وحلس، ثم قام مصرا وأتبعه أبو جعفر بصرة، لحه له وإعجابه به، فلما توسط الرواق عثر بسيمه فتحرق سواده، فقام ومضى لوحجه عير مكثري لذلك ولا حائل به ، فقال أبو جعفر : ردوا أبا عبد الله فرددناه ، فقال : يا أبا عبد الله، استقلالا للواهب ! أم طرا بالعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر إليه كيف لام أبه وولى عهده، وقد كان عده أثيرا، ولامه بمخبر من حاشيته في شيء ليس ذا مال عد أو ساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعْتَذَرُ للمنصور محروصه على الاقتصاد في أموال دولة ناشئه ، وأحد ولى العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثة وأمثالها مما سنرويهِ لك ، تُظهِرُ ناحيةً صغيةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائل الأعمال في الدولة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميله إلى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسَيِّفَ إلى هذه الصفات .



على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقاربة بيسه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية ؛ فقد كان معاوية، كما رأيت،

أكرم الناس ، وأشدّهم تسخيرا للأموال العامّة والخاصّة ، في الأغراض السياسيّة . وكان المنصور أشجع الناس بالأموال العامّة والخاصّة ، يؤثّر النصيحة بالدماء والكمايات في سبيل أغراضه السياسيّة على النصيحة بالأموال .

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظ الفرق بين العصرين ، وبين الدعائم التي اعتمد عليها الرحلان في إقامة ملكهما . فقد كان معاوية في بيئة عربية ، لم تحلّص بعد من البداوة ولا من سماعة الدين ، فكان الحلم والكرم أليق به وأصحّ ، بينما كان المنصور في بيئة من العرس والموالى ، تأثّرها بالحصاره شديد ، وحظها من الدين قليل .

ولو بسط معاوية سلطانه بالسيف لمثل ، ولكسا نرى أن لو بسط المنصور سلطانه بالمال و شيء من الحرم لوفق ولحق الدماء ولرسم لجلهائه حطة أقرب الى اللين والعمارة من هذه الحطة المبيحة التي سترها في سيره أكثرهم .

وحدث الوزير بن عطاء قال : « استتراني أبو جعفر ، وكانت بيني وبينه خلالة قبل الخلافة ، فصرت الى مديسه السلام ، فخلوا يوما فقال لى : يا أبا عبد الله ، ما مآلك ؟ فقلت : الخير الذى يعرفه أمير المؤمنين ، قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بات والمرأة وحادم لمن ؟ فقال لى : أربع في بيتك ؟ قلت : نعم . قال : فوالله لردّد ذلك علىّ حتى ظننت أنه سيموتنى . قال : ثم رفع رأسه الى فقال : أنت أيسر العرب ، أرفع معازل يدرن في بيتك ! »

على أن شخ المنصور لم يكن يحلو أحيانا من بعض الظرف والفكاهة ، فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقال له أزهر الساج قبل خلافته ، فلما ولى الخلافة زاره الرجل وطلب صلته ، فوصله ثم عاوده فوصله ، وجاءه في الثالثة فقال له المنصور : يا أزهر ما جاء بك ؟ قال : دعاء سمعته منك أحببت أب آخذة عك ، قال : لا تردّه فإنه غير مستجاب ، لأنى قد دعوت الله أن يرخصنى من خلقك فلم يعمل ! وصرفه ولم يعطه شيئا .

وربما كان من العدل التاريخي أن نحتاط أمام هذه الروايات الكثيرة التي أسرف المؤرخون في روايتها إثباتاً لحل المنصور وثمته ، فقد يكون مصدرها ما ألقوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثر من أنه كان شديد الميل الى الحرص والتدبير ، والعمرة من اللطفين ، وأحد أهل بيته بذلك كله .

ولم يمت المنصور أن يعلل ذلك الحل ، فقد جاء في عيون الأحرار أنه قال في مجلسه لقواده . « صدق الأمرابي حيث يقول : أَحْبَبُّ كَلْبِكَ يَتَمَكُّ » فقام أبو العباس الطوسي وقال : « يا أمير المؤمنين ، أحسن أن يلقح له عيرك رعيته فيتدعك ! » . وقد كان أبرويز أحكم من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو في حبسه « لا تُوسَّعْ على حدك فيستموا عنك ولا تُصَيِّقَنَّ عليهم فيصيحوا بك ، أعطهم عطاء قصدا ، وأمعهم مئاً حيلة ، ووسَّع عليهم في الرجاء ، ولا تُسِرِّفْ عليهم في العطاء » .



وليس أدل على الشخصية السياسية لهذا الخليفة من سيرته مع ثلاثة ، هم في حقيقة الأمر أكبر زعماء الدولة في عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، في وصوح وحلا ، ما قدماء من أن المنصور كان « مكافئ » السياسة ، لا يُحجِّمُ عن المصدر وقطع الرحيم وكفيرة النعمة ، إذا رأى مسفعته في ذلك .

وهؤلاء الرعماء هم أولاً : أبو مسلم الذي أحلص في نصره المنصور والسهر على ملكه ، فلم يأل جهداً في تقبب الخارجيين على الملك ، لا يعرف في ذلك بين أشياخ المنصور وأهله من بنى العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له في السر أو في العلانية ، فقتل الشيباني والكرماني وأبا سلمة الخلال ، وحارب عم المنصور عبد الله بن علي واستولى على ما في عسكره من العاثم والأسلحة . وثانياً : عمه عبد الله بن علي ، وهو الذي فعل ما فعل في نصرته الدعوة العباسية وتقتيل خصومها من بنى أمية ، فصلا عن حروبه الموقفة في صد جيوش مروان ، ومع ذلك فقد سأل عليه المنصور أبا مسلم فخاربه وفهره ، ولما لم يصل الى قتله ، كلّف ابن عمه عيسى

ابن موسى إلى الكوفة أن يقتله، فلما لم يقتله تولى المنصور قتله بنفسه، ليأمن ما قد يحدثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولى عهده عيسى بن موسى، وقد رأيت كيف أشخصه المنصور لقتل محمد بن عبد الله ملجأ في ذلك، حتى إذا أشخص قال المنصور: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه!» ثم ما زال المنصور يكيد لهذا الأمير حتى حلقه من ولاية المهدي، وبايع مكانه لاسه المهدي، ثم مضى في الكيد له . وقد يكون من المعيد أن ننقل ما جاء في المستطرف عن حلق عيسى بن موسى من ولاية المهدي بمعرفة المنصور، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن علي، فإن فيما قاله تصويراً دقيقاً لسياسة المنصور، وتمثيلاً لحرصه على الملك الذي كان لا يسأل في سبيل توطيده أن يسكت بما عهده من عهد، أو يفتن ما أرم من ميثاق .

حاء في المستطرف : أن عيسى بن موسى لما عذره المنصور وقتل ولاية المهدي به إلى المهدي ابنه أنشد :

أبسى بسو العباس دني عنهم * نسي ونار الحرب زاد سعيها
فتحت لهم شرق البلاد وعمرها * فذل لها ديارها وعمر نصيرها
أقطع أرحاما على عزيرة * وأيدي مكيدات لها وأثيرها
فلما وصفت الأمر في مستقره * ولاحث له شمس ثلاثاً نورها
دفع عني الأمر الذي استحقه * وأوسق أوساقا من الفدر عيرها

وحاء في ابن الأثير : أن المنصور أحصر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وأمره قتله وقال له : إن الخلافة صائرة إليك عد المهدي فاضرب عقه ، وإياك أن تصبف فتقص على أمرى الذي دبرته . ثم مضى إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل في الأمر الذي أمره، فكتب عيسى : «قد أفتنت ما أمرت به»، فلم يشك في أنه قله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونس بن فروة وأحبره الخبر، فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك ، لأنه أمر بقتله

سراً ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله ولا تدفعه إليه سراً أبداً وأكتم أمره ، ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المصور وصح على أعمامه من يحركهم على الشناعة في أخيهام عبد الله ففعلوا وشفعوا ، مشفعهم ، وقال لعيسى : إني كنت دفتُ اليك عتي وعمتك ليكوما في منزلك وقد كتبتُ عمومك فيه ، وقد صفحتُ عنه فأنا به ، قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته ، قال : ما أمرتك ، قال : بل أمرتني ، قال : ما أمرتك إلا بحسه وقد كذبت . ثم قال المصور لعمومته : إن هذا قد أقر قتل أخيك ، قالوا : فادعه إلينا فيقبضه به ، فسلبه اليهم ونرحلوا به إلى الرحة واجتمع الناس وشهر الأمر وقام أحدُهم ليقنله ، فقال عيسى : أفاعل أنت ؟ قال : إني والله ! قال : رُدوني إلى أمير المؤمنين ، فردوه إليه ، فقال له : إنما أردتُ قتله أن تقتلني ، هذا عمتك حتى سوى ، قال : آتينا به فأنا به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي ، ثم اصرفوا فامر بجعل في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه مسقط عليه فأت .

وهذه الرواية يؤيدها أكثر المؤرخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير ، وكان من أركان هذه الدولة ، ما يُصِفُ حَلَقَةً ، إلى سلسلة الاصطهادات التي ارتكبتْ تأييداً لهذا الملك ، فقد أحصره إليه وقال له : اتخبط قول الإمام لي : « مَيَّ اتهمتُه فاة له » قال : نعم ، قال : فإني قد اتهمتُك ، تخاف سليمان وقال : أناشدُكَ الله ! قال : لا تُأشِدُنِي فأت مطوي على عثر الإمام ، وأمر بصرب عقه .

وقد سَمَّ الناسُ هذه الحالة ، وثارَ صُصُ أمراء بني العباس أنفسهم احتجاجاً على ما أدرك من الدماء ، فقد جاء في الأغانى في أخبار عبد الله بن عمر العقيلي الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لما سمع للعقيل قصيدته التي مطلعها :

تقول أمانة لما رأت * تُسَوِّى عن المصجَّع الأنفيس

والتي ختامها :

ها أنس لا أنس قتلهم * ولا عاش مدهم من نسي

بكي واستعمر؛ فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي : أتبكي على بنى أمية ، وأنت تريد بنى العباس ماتريد ! فقال . « والله يا عم لقد كاتَمَمَّا على بنى أمية ما قَمَمَّا ، ما أبو العباس إلا أقلُّ خوفاً لله منهم ، وإنَّ الحجة على بنى العباس لأوجبُّ منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمٌ ليست لأبي جعفر . » وذكر الأصفهاني أيضاً : أن محمداً وآله وهواً للشاعر مالا يلدحته تلك . وهكذا تعيرت يهوسُ آل البيت من إسرار العباسيين في الفتك والقتل .^(١)



ومادا كان حظُّ أبي مسلم وكيف كان حراؤه على ذلك الإخلاص الدموي ؟

كان حراؤه أن قُتلَ بيد الخليفة هبة عملاً بسنته المعروفة : « أقتل من آتته » ، مع أنه كان لا يقطع أمراً دونَه .

وقد ذكر الحافظ : أنَّ المصور لما هم قتل أبي مسلم ، سقط بين الاستداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرقَّ في ذلك ليته ، فلما أصبح ، دعا بإصحاق بن مسلم العقيلي ، فقال له : حدثني حديثُ الملك الذي أحرمتي عنه محزون ، قال : أحرمتي أي عن الحصين بن المدر : أنَّ ملكاً من ملوك فارس ، يقالُ له ساورُ الأكبر ، كان له وزيرٌ ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشابَّ ذلك فهم في الدين ، فوجهه ساورُ داعيةً إلى خراسان ، وكاوا قوماً عظماء يطمعون الدين جهالةً بالدين ، ويحُلون بالدين استكانةً لقوة الدنيا وذُلًّا لجبارتها ، يجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا ، واعتزَّ بقتل ملوكهم لهم وتخوُّلهم إياهم ، وكان يقال لكلِّ ضعيف صَوْلَةٌ ، ولكل دليل دولةٌ . فلما تلاحت أَعْصاءُ الأمور التي لقح ، استحالت حرماً عَوَّاناً ، شالت أساطهاً أعاليها ، فانتقل الغزالي أرضهم ، والساهة إلى أنحلهم ، فأثيروا له حبا مع خصص من الدنيا اتضح بدعوه من الدين ، فلما استوسقت له البلاد ، بلغ ساورُ أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمن زوال القلوب وغدرات الوزراء ، فاحتال في قطع رجائه عن قلوبهم ، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمنزل ياس * تُبَادِعُهُ الْقُلُوبُ عَلَى اعْتِارِ

(١) يخالفنا أسنادنا الشيخ عبد الوهاب السحار في هذا الرأي قوله : (أحبُّ أن تميز آل البيت على بنى العباس إما كان منه أهم هوساً عليهم ما أتبع لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحق بذلك منهم) .

فصنم على قتله عدد وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفرسانهم، فقتله ففتهم بمحدث فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين العربية، وبأي الرحمة، وتحطف الأعداء، وتفرق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستموا الدعوة طاعة ساور، ويتعوضوه من العرق، فاذعوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه . فاطرق المصور ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذي الحلم قل اليوم ما تُقرِّعُ العصا . وما علَّم الإنسان إلا ليعلم

وأمر إسحاق بالخروج، ودعا أبي مسلم فلما نظر إليه داحلاً قال :

قدا اكتشفتك ثلاث ثلاث . حلبي عليك محذور الجمام

حلافك وامتساؤك ترميني . وقودك للماهير المعظام

ثم وثب إليه ووثب معه بعض حشمه بالسيوف، فلما رأهم وثب مدبره المصور فصرية ضربة طوحه بها، ثم قال :

إشرب بكأس كنت تسقى بها * أمر في الخلق من العلقم

رعمت أن الدين لا يقتضى * كذبت فاستوف أما محرم

ثم أمر حترأسه وصحت به الى أهل خراسان وهم بابه، بلالوا حوله ساعة ثم ردهم عن شقبيهم اقطاعهم عن بلادهم وإحاطة الأعداء بهم . فدلوا وسألو له . فكان إسحاق اذا رأى المصور قال :

وما صرخوا لك الأمثال إلا . لتحدثوا إن حدثت على مثال

وكان المنصور اذا رآه قال :

وحلفها ساور لاس يُتَدَى * أمانها في المضلات المعظام

وما أجل تلك الجملة التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين أتمه المصور على نفسه

فقد قال : إى- أمان تعطيني : أمان أبى هيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم !

ولقد تنفس المصور حين قتل أبا مسلم، حتى قال له بعض أقربائه ساعة قتله : عُدَّ هذا اليومَ أوَّلَ يومٍ من حلاتك !



على أنه من الحق أن نقتر أن عدوان المصور وإسرافه في التكيل بمحبومه له قيمته في الدلالة على عرفانه بحق الملك وحرصه على نجاة الدولة من أخطار البغي، والخروج على الطام، هي سبيل هذه العاية أسرف في سبك الدماء وتقطيع الأرحام وقتل أمثال بى الحسن والحسين، والديساح الأصغر، والعس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك حراة رموس فيما ترك ميراثا لأبيه المهدي .

ولقد كان مع هذه الفسوة ثاقب الرأي محكم التدبير، وهو الذي يقول لأبيه المهدي : «يا أبا عبد الله، ليس العاقل الذي يحتال للامر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكنه الذي يحتال للامر الذي عَيشه حتى لا يقع فيه» .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان اذا جنى على أحد جباية أو أحد من أحد ما لا جعله في بيت المال معدا وكتب عليه اسم صاحبه، فلما أدركته الوفاة قال لاسه المهدي : «يا بى إلى قد أمرت كل شيء أحدثه من الناس على وجه الجباية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أست فأعده على أربابه، ليدعوك الناس ويحموك» . وفي عهد المصور أنشئت "معدن" موئل العلم ودار السلام .

افضل البائين

المهدى

عياى واحدة تُرى مسرورة أميرها حذلى وأخرى تعرف
تسكى وتصلحك تارة ويسوعها ما أنكرت ويسرها ما تعرف
يسوعها موث الحليفه محرمًا ويسرها أن قام هذا يملف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى شعرا أسرعه وآخر أتيث
هذا جباه الله فصل خلافة ولذلك حنات العيم تُزترف

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دلامة أول من تقدم بتعزية المهدي - وفاة والده المصور
وتبثته ارتقاء عرش الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدي ، بما أجمع عليه الرواة ، شهماً قبطاً كريماً ، شديد الأسى و تعقب
الملحدين والزنادقة ، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم .

وكان كثيراً ما يجلس لرد المظالم . وقد عُرف عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال :
« أدخلوا على القضاة ، فلولم يكن ردى المظالم إلا لحياء منهم لكفى » . وروى الطبرى
في حوادث سنة تسع وستين ومائة أن مسورس مُساور قال : « ظلمنى وبكل للمهدى
وغصبنى صبعة لى ، فأننت سلّاماً صاحب المظالم فتطلعت منه ، وأعطيتُه رُقعة مكتوبة
فأوصل الرقعة الى المهدي وعده عمه العباس بن محمد وأبى علاثة وعافية القاضي ، قال
فقال لى المهدي : أدنّه فدنوت ، فقال : ما تقول ؟ قلت : ظلمتنى ، قال : فترضى بأحد
هذين ؟ قلت : سم ، قال : فاددنى ، فدنوت منه ، حتى الترفت بالقراس ، قال : تكلم ،
قلت : أصلى الله القاضي ، إنه ظلمنى في ضيعتى هذا ، فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟
قال : ضيعتى وى يدي ، قال : قلت أصلى الله القاضي ، سلله صارت الضيعة إليه قبل

انخلافه أو بعدها؛ قال : فسأله ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : صارت إلى بعد انخلافه ؛
قال : فأطلقها له ، قال : قد صعلتُ ، فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين قد
الجلسُ أحبُّ إلى من عشرين ألف ألف درهم !



أما كرمه فسحبة قديمة فيه ، وسببه مال عتَب المصور عمره . وقد ذكر الطبري
أن المؤمل بن أميل قال : قَدِمْتُ عَلَى الْمَهْدِيِّ بِالرَّيِّ وَهُوَ وَلِيَّ عَهْدٍ ، فَأَمَرَنِي بِعِشْرِينَ أَلْفَ
دِرْهَمٍ لِأُيُوتِ اسْتَدْحَنَهُ بِهَا ، فَكَتَبَ ذَلِكَ صَاحِبُ الرِّيدِ إِلَى الْمَصُورِ ، وَهُوَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ ،
يُحْصِرُهُ أَنَّ الْمَهْدِيَّ أَمَرَ لِشَاعِرٍ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْمَصُورُ بِعَدْلِهِ وَيَقُولُ
لَهُ : إِمَّا كَانَ يَسْنِي لَكَ أَنْ تُعْطِيَ الشَّاعِرَ بَعْدَ أَنْ يُقِمَّ بِبَابِكَ سِتَّةَ أَرْبَعَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ .
قال المؤمل : فكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه الشاعر ، فطلب فلم يُقدَّر عليه ،
فكتب إليه : إنه قد توجه إلى مدينة السلام ، فوجه المصور قائداً من قواده ، فاجلسه على
جسر النهروان ، وأمره أن يتصفَّح الناس رجلاً رجلاً ممن يترهبه حتى يظفرَ بالمؤمل ، فلما
راه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من رِوَّارِ الأُميرِ المهدي ؛ قال : إياك
طلت ؛ قال المؤمل : فكاد قلبي يصدع خوفاً من أبي جعفر ، فقصص على ثم أتى بي
مات المقصورة وأسلمني إلى الربيع ، فدخل إليه الربيع فقال : هذا الشاعر قد طَغَرْنَا بِهِ ؛
فقال : أدخلوه عليّ ، فَأُدْخِلْتُ عَلَيْهِ ، فَاسْلُتُ فَرْدَ عَلِيٍّ السَّلَامِ ، فَقُلْتُ : لَيْسَ هَاهَا
إِلَّا حَبِيرٌ ، قال : أنت المؤمل بن أميل ؟ قلت : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ؛ قال : هيه !
أَتَيْتُ غُلَامًا عَرَا لِحَدِثَتِهِ ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَيْتُ غُلَامًا كَرِيماً لِحَدِثَتِهِ
فَانْحَدَعَ ، قال : فَكَأَنَّ ذَلِكَ أَعْمَهُ فَقَالَ : أَشَدَّنِي مَا قَلَّتْ فِيهِ ، فَاثْنَدْتُهُ :

هو المهدي إلا أن فيه * مشابه صورة القمر المسير
تشابهنا وذا فهما إذا ما * أمارا مشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراح ليل * وهذا في النهار سراح نور

ولكن فصلَ الرحم هذا * على ذا المنابرِ والسريـرِ
والملك العزيز هذا أميرٌ * وما ذا بالأميرِ ولا الوديرِ
ونقص الشهر يُحمد ذا وهذا * مُنيرٌ عند نقصانِ الشهورِ
فيا بنَ حليفةِ الله المصطفى * به تعملو مغانةَ المحورِ
لئن فتَ الملوكَ وقد توافوا * إليك من المبهلةِ والوعورِ
لقد سبق الملوكَ أولكَ حتى * نقوا من بين كآبٍ أو حسيرِ
وحثَّ وراءه تحميرِ حثيثا * وما لك حين تحميرِ من تُورِ
فقال الناسُ ما هذان إلا * بمنزلةِ الخليقِ من الجديرِ
لئن سبقَ الكبيرُ فأهلُ سبقي * له فصلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغَ الصغيرُ مدىَ كبيرِ * لقد حُلِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ! ثم قال لى :
أين المال ؟ قلتُ : ها هو ذا ، قال : ياربيعُ أنزلْ معه فأعطه أربعة آلاف درهم ، وحد
الباقى ، قال : نخرجُ الربيعَ لحطِّ ثِقَلِي ووزن لى أربعة آلاف درهم وأحد الباقي . فلما
صارت الحلامةُ الى المهدى ولّى ابنُ ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرصاصة . فاذا ملأ
كسائه رقاعا رفعها الى المهدى ، فرفعت اليه يوما رقعة أدكره قصتي ، فلما دخل بها
ابن ثوبان حمل المهدى ينظر الى الرقاع ، حتى اذا طوى رقعةً صمكت ، فقال له ابنُ ثوبان :
أصلح الله الأمير ! ما رأيتك صمكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ! قال :
هذه رقعة أعرف سبها ، رتوا اليه العشرين ألف درهم ، فودت لى وانصرفت .

ولترك هذه الساحة في إحالة الشعراء لرى كيف كانت أريحية المهدى في الإحسان
الى الجماهير ، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم في تلك السنة
مالا عظيما في أهل مكة وفي أهل المدينة كذلك ، وأنه نظر فيما قسم في تلك السفرة ، فوجد
ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه ، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن
مائتا ألف دينار ، فقسم ذلك كله ، وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب .



وكان المهديّ الى جانب جوده وحمائه حيّاً محبوباً وبراّ رحيماً . دخل عليه رجل فقال :
 « يا أمير المؤمنين ، إن المصور شتى وقد أفنى ، فإما أمرتني أن أحله ، وإما عوصتني
 واستعرت الله له ، قال المهديّ : ولم شتمك ؟ قال : شئتُ عدوّه بحصرته فنضب ، قال :
 ومن عدوّه الذي عصب لشمته ؟ قال : ابراهيم بن عبد الله بن حسن ، قال : إن ابراهيم
 أمس به رحيماً ، وأوجب عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمت من رجه ذنب ، وعص عرصه
 دفع ، وما أساء من استصر لاس عمه ، قال : إنه كان عدوّاً له ؛ قال فلم يتصر للعداوة وإما
 استصر للرحم ، فاستكت الرجل ؛ فلما ذهب ليوتى قال : لملك أردت أمراً فلم تحمله دريئة
 عدك أطلع من هذه الدهوى ! قال : سم ، قال : تبسم المهديّ وأمر له بحمسة آلاف
 درهم . »

ولمظفر الى ما يرويه الربيع عنه ، قال : رأيت المهديّ صلى في ليلة مُقَمَّرَةٍ
 فما أدري أهو أحسن أم السوأم القمر أم ثيابه ! قال . فقرأ هذه الآية : ﴿ فإهل عَسَيْتُمْ إِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قال : فأنتم صلاته والتفت الى فقال :
 يا ربيع ! قلت . ليك يا أمير المؤمنين ، قال : عليّ موسى ، وقام الى صلاته قال : فقلت
 من موسى ؟ أبوه موسى أم موسى بن حمير وكان محمداً عدي ، قال : جعلت أفكر قال
 فقلت : ما هو إلا موسى بن حمير . قال : فأحصرته ، قال : فقطع المهديّ صلاته وقال :
 يا موسى ؛ إني قرأت هذه الآية : ﴿ فإهل عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا
 أَرْحَامَكُمْ ﴾ جعلت أن أكون قطعاً ورحمك ، فوثق لي أملك لا تخرج علي ، قال : فقال نعم ،
 فوثق له وحلّاه . »

ومثل هذا ما حدث به علي بن صالح قال : غضب المهديّ على بعض القواد ، وكان
 غضب عليه غير مرة فقال له : الى متى تُذنبُ اليّ وأعفوا ! قال : الى أيدي نبيّ ، ويُعْفِكَ
 الله تعفو عنا ، فكررها عليه مرات ، فاستغنى منه ورضى عنه .

ثم لنتَقِلْ الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فرى النولُ يَحْتَشَا عن البيعة للمهدى وما كاد من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيعَ تناول يدَ الحسن بن زيد فقال : قم يا أبا محمد فبايع ، فقام معه الحسنُ فاتمى به الربيعُ الى موسى فأجلسه بين يديه ، تناول الحسنُ يدَ موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المصور كان ضربي واستصفي مالى ، فكلبه المهدى فرجى عني وكلمه في رد مالى على فاني ذلك ، فأحلعه المهدى من ماله وأصمعه مكان كلِّ عِلْيَ عِلْيَين ، فمن أولى أن يبايعَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بصدرٍ منشرج ونفيسٍ طيبةٍ وقليِّ ناصحٍ مني ، ثم بايع موسى للمهدى ثم مسح على يده .



وبعد ، فالمهدى من الخلفاء العباسيين في الذؤانة . وقد صدق الأستاذ «ميور» اذ يقول : إن المهدى كان في إدارته لشؤون رعيته كمن يعملُ بوجهٍ عامٍ على رهايةِ الأمة وإسعادها ، وكان مُعِيَّاً ومُحَلِّاً للعصر الذهبي الذي تلا أيامه . وما أحد عليه من بعض الهتات لا يجمع المؤرخ المصنف أن يرى في عصره ترفهاً للناس ، مما كانوا يعاوبون من الشدة أيام المصور . كان المهدى مُوَفَّقاً في اختيار وورثائه ، وإن كانت السعاية أحلتْ سَعْصَمَ العذاتِ وسوءَ المصير ، وكان دقيقاً في نظره للأُمُور . وقد بدأ حلاته بإطلاق من كان في سجن المصور ، إلا من كان قِيْلَةً تَبَاعَةٌ من دم أوقتل ومن كان معروفاً أنه يسيء في الأرض بالقساد أو كان لأحد قِيْلَةً مَظْلَمَةً ، وإنما أطلق من كان جُرْمُهُم سياسياً .

وكان محباً للأدب ، مشجعاً على التأليف فيه ، حاقاً في طلب الزادقة والبحث عنهم في الآفاق ، محباً للغزوات والغتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشربُ البَيْدَ وإن كان سُمَّارُهُ يشربونه في مجلسه ، وكان محباً للسماع ، ويحبنا الطبرى في حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدى مات مسموماً وقد لَبَسَتْ عليه قِيَانَةُ المُسَوِّحِ ؛ فقال أبو العتاهية في ذلك :

رَحَى في الوُثَى وأصبح * من عليهنَّ المسوِّحُ
كلَّ طَاحٍ من الدهر * مر له يومُ طُحُوِّ

لَسْتُ بِالْبَاقِ وَلَوْ عُمُّ * رَتَّ مَا عَمَّرَ سُوْحُ
فَعَلَى مَسْكِ نَحْ إِنْ * كَتَّ لَا يَدُ تَسُوْحُ



والطاهر مما قدمناه أن المهدي كان يخالف أماء المصور مخالفة شديدة من بعض
الواحي، ويلائمه ملاءمة ما من وواح آخر: كان كريما مهيأ للال، بينما كان أوه بجيلاً
شحيحاً، ولكنه ورث عن أبيه بعض القسوة والميل الى سفك الدماء^(١).

ولم تكن السياسة لتعصيه على ذلك، فقد ثنت له المصور أركان الملك فالتمس الدماء
في نفع الرادقة والعتك هم، وأسرف في ذلك، حتى قتل بعض الأرياء في قسوة تمثلها
قصته مع اس وزيره أي عبيد الله.

وفي المهدي ناحية حديدة في حلفاء العاسين، هي الميل الى الاعتدال السياسي
في معاملة الطالبين، فقد كان على شيء من الرقي هم والعطف عليهم، لا يجمعه من آتقائهم
والإشفاق منهم.

وهذه السياسة الرقيقة الحازمة تذكرنا بعض التدكير بما سيكون من سياسة المأمون.
ومن أظهر حصال المهدي الشخصية غيرته على النساء. تلك التي أعمرته بشائر
فصر به حتى مات، متعللاً بزندقته، وإن كانت العلة الحقيقية هي استنثار شائر بالفرز^(٢).
وقد أورث المهدي غيرته هذه أسه الهادي كما سترى.

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار في هذا الرأي قوله: «قسوة المهدي في سفك الدماء، لم تكن
عامة وإنما كان ذلك في الرادقة خاصة».

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار: «أن قتل مشار لم يكن سبه البيرة على النساء وإنما كان تدبير
يعقوب بن داود الوزير وديسه». وبشار هو الذي يقول

في أمية هوا طال يومكم * إن الخليقة يعقوب بن داود

صاعت حلالكم يا قوم فالتقوا * خليقة الله بين الاني والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليقة أن أحمره بأن مشاراً وقع في الخليقة وهما. فاستندبه المهدي هما
فامنع صرم عليه فالتقه.

خليقة يرى حماه * يصرب بالني وبالصلحاء

أبدل الله وعيره * ودس موسى في حر الحيران

افضل التبايع

المهادى

قال محمد بن على بن طباطبائي في كتاب «الآداب السلطانية» : كان المهادى متيقظاً غيوراً كريماً شديداً البطش جريء القلب، محتجماً الحس دا إقدام وعزيم وحريم .
وعين نحشى أن يكون في هذا الناء إسرأف كثير ، فلم يطل عهد المهادى بالخلافة يَمَكِّنَ الحكم له أو عليه ، وإعما مرتهما مرور الطيف .
ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدث عنه بالخير . وليس يستوقعنا من سيرته كلها إلا ثلاثة أمور :

الأول ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال كَسَتْ أنولى الشرطة للمهدى وكان المهدى يبعث الى ندماء المهادى ومُعيه ، ويأمرنى بصرهم ، وكان المهادى يسألنى الرِمْقَ بهم والتزفيه لهم ، ولا أئفْتُ الى ذلك ، وأمضى يَأْ أمرنى به المهدى . قال : فلما ولى المهادى الخلافة أَيْهَنُ باللف ، معث إلى يوماً ، فدخلت عليه متكئاً متحطاً ، وإذا هو على كرسى ، والسيف والطع بين يديه ، فسألت ، فقال . لا سلم الله على الآخر ! تذكرُ يومَ معثُ اليك في أمر الحزائى وما أمر أمير المؤمنين به من صربه وحبسه فلم تُجِبنى ؟ وفي فلان وفلان ، وجعل يُعَدِّد بدماءه ، فلم تلتفت الى قولى ولا أمرى ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أفتأذن لى في استيعاء المحبة ؟ قال : نعم ، قلت . ناشدتك بالله يا أمير المؤمنين ، أيسرك أمك وليتى ما ولأى أولك ، فأمرتنى بأمرٍ معث إلى بعض نيكٍ فأمرى بحالف به أمرك ، فاستعتُ أمره وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ، قلت : فكذلك أما لك وكذا كَسَتْ لأبيك ، فاستدناى فقلتُ يديه ، فأمرى يحلِّع فصَبَّتْ على ، وقال : قد وليتُك ما كَسَتْ لتولاه فأمرى راشداً ، فخرجت من عنده فصرت الى منزلى ، مفكراً فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَّثْتُ يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم ندماءؤه ووراءؤه وكلاه ، فكأنى بهم حين يَنْلُبُ

عليهم الشراء قد أراوا رأيه في وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوف . قال :
 إني لحالس وبين يدي نية لي ، في وقتي ذلك ، وكانوا من يدي ، ورقائق أشطره بكاح
 وأصمحه وأصمعه للصبية ، وإذا صحة عقيمة ، حتى تومت أن الدنيا قد اقلعت وتزلزلت ،
 وضع الحوافر وكثره الضوضاء ، فقلت : هاهنا كان والله ما طست ووافاني من أمره
 ما تخوفت ، فإذا اللاب قد فُتح ، وإذا الخدم قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار
 في وسطهم ، فلما رأيت ، وثقت عن مجلسي مُأدراً ، فقلت يده ورحله وحافر حماره ،
 فقال لي : يا عبد الله ، إني فكرت في أمرك ، فقلت يسق الى قلبك أي اذا شربت وحول
 أعدائك ، أزالوا ما حس من رأيي فيك ، فأقلقك وأوحشك ، فصررت الى مراك لأونسك
 وأهلكت أن السحيمة قد رالت عن قلبي لك ، فهات فأطعمني مما كنت تأكل فأفعل فيه
 ما كنت تفعل ، لتعلم اني قد تحزمت بطعامك ، وأنسيت بمراك ، فيزول حوكك ووحشتك ،
 فادنيت اليه ذلك الرقاق والسكجة التي فيها الكاعج ما كل منها ، ثم قال : هاتوا الرلة التي
 أزلتها لعبد الله من مجلسي فأدخلت الى أرمائة فلة موقرة دراهم ، وقال : هذه رلتك
 فاستعين بها على أمرك ، واحفظ لي هذه الحال عندك ، لعل أحتاج اليها يوما لبعض أسعاري ،
 ثم قال : أطلق الله بحير ، واصرف راجعا . ونحن وإن كنا نعترض في هذه الرواية وأمثالها
 المألوفة نرى أنها تدل في حملتها على بصير السياسة ، ووطية في العلم بالناس ، والانتفاع بكماياتهم .

الأمر الثاني وقوفه موقف حرم معتقد أنه أمقد القصر العباسي ، من شر عظيم ، أفسد
 على ملوك العرس قصورهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمور الخلافة بعد عصر المأمون ،
 ذلك هو تدخل النساء في أمور الدولة .

فقد ذكر الطبري أن الخيزران والدته الهادي ، كانت في أول خلافته ، تفتت عليه
 في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله ، في الاستعداد بالأمر والنهي ، فأرسل اليها :
 ألا تحرجي من خسر الكفاية الى بدأة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض
 في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتبذليك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيا يجب لك .

قال : وكانت الحيزرانُ في حلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحاجات ، فكان يجيبها الى كل ما تسأله ، حتى معنى لذلك أرسه أشهر من حلاقته ، وانتال الناس عليها وطعموا فيها ، وكانت المواكُ تغدو الى بابها ، قال . فكلمته يوما في أمر لم يجد الى إحابتها اليه سبيلا فاعتل بعلته فقال : لاني من إحمى ، قل . لا أفعل ، قالت : فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعد الله بن مالك ، قال مصعب . موسى وقال . ويل على أبي الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قصبتها له ! قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبداً ، قال : إذا والله لا أألى ، وحي وعصب ، فقامت مُفَضَّةً ، فقال : مكانك تستوعى كلامي ، والله وإلا فإنا نبي من قرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لن ملني أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من حاصتي أو حدى لأصربن عقه ولأقبصن ماله ، هـ شاء فليزم ذلك ! ما هذه المواكُ التي تغدو وتروح الى مالك في كل يوم ! أما لك مغزل يسفك ، أو مضحك يدرك ، أو بيت يصوبك ! إياك ثم إياك ما فحيت بابك ليلى أولدى ! فانصرفت ما تمقل ما تعأ ، فلم تعطى عده بمخلوة ولا مرة بعدها .

ولم يكتب المهادى بكلامه معها ، بل جمع قواده يوما وقال لهم : أيما خير أنا أم أمم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال : أيما خير أمتي أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال . فأيكم يحب أن يتحدث الرجل بحبر أمه يقولوا فطنت أم فلاں وصغت أم فلاں وقالت أم فلاں ؟ قالوا : ما أحد ما يحب ذلك ، قال . هـ ما للرجال باتون أمتي فيتحدثون بمحدثها ! هـ سمعوا ذلك انقطعوا عنها آلبته ، فشق ذلك عليها ، فاعتزته وحلفت لا تكلمه ، هـ دخلت عليه حتى حصرته الوقاة . وقد قالوا : إن المهادى حاول تمها فلم يفلح . على أن الحيزران أفلحت في القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكرها أنها دسست اليه من جواريا من قتله بالجلوس على وجهه .

لنتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته العدر بأخيه الرشيد .

ولسظرفى حوادث ستة سبعين ومائة، لرى كيف أحلص آل بريك للرشد، قد هم الهادى بحويل الخلافة عه لاسه حمفر، ولكن يمى بن خالد ثنت فى المحافظة على ولاية هارود، محتلا فى ذلك كلّ مكروه. وكان لطافة الهادى أثر سىء فى تشجيعه على حلح الرشيد ومبايعه حمفر، وكان يمى نايعة يزيد بن مرید وعد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم، من أصحاب الأعراس .

ولم تزد الحوادث يمى بن خالد إلا حرصاً على حق الرشيد، فعصار يعقله ويُسرى عه، ولولاه نلخ الرشيد نفسه، بعد أن تقصوه فى مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى طهر، وأمر الهادى ألا يسار قدّام الرشيد بحرية، فاجتده الناس .

أما الأحمار عن كرمه فكثيره. من ذلك ما رواه الطبرى فى حوادث ستة سبعين ومائة أنه أمر دات لیسلة ثلاثين ألف دينار اعينى بن دأب أحد حُلّاسه وكان — كما وصفه الطبرى — لديد العكاهه، طيب المسامره، كثير البادره . ويقول على بن صالح : إنه كان يوما على رأس الهادى وهو علام، وقد كان حقا المظالم عامة ثلاثة أيام، فدخل عليه الخزان فقال له : يا أمير المؤمنين إن العامة لا تقاد على ما أنت عليه، لم تطرف فى المظالم منذ ثلاثة أيام، فالتفت الى وقال . يا على — ائذن للناس على — بالحق لا بالقوى، فخرجت من عنده أظير على وجهى، ثم وقعت فلم أدري ما قال لى، قلت : أراجع أمير المؤمنين فيقول : أتحنى ولا تعلم كلامى ! ثم أدركنى دعى، فبعثت الى أعرابى كان قد وفد، ومأنته عن الحق والقوى فقال : الحق جفالة، والقوى بقر خواصهم، فأمرت بالسور فرفقت، وبالأبواب ففتحت، فدخل الناس على بكره أبيهم، فلم يزل ينطرف المظالم الى الليل، فلما تقوى المجلس مثلت من يديه، فقال : كأنك تريد أن تدكر شيئا يا على؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين، كنتنى بكلام لم أسمعه قبل يومى هذا، ويخفت مراجعتك فتقول أتحنى وأنت لم تعلم كلامى ! فبعثت الى أعرابى كان عندنا ففسرلى الكلام، فكافته عنى يا أمير المؤمنين، قال : نعم، مائة ألف درهم تمحل اليه . قال : قلت يا أمير المؤمنين،

لأنه أعرابي حَلَفَ في عشرة آلاف درهم ما أغساه وكفاه ! فقال : وبلك يا علي
أَجُودُ وَتَجَلُّ !



وكان المهادي شديد العيرة، طاهر الشهامة . وهناك حديثاً لا يخلو من الأدب والعُكاهة ،
حدث به السديُّ بن شَاهِك قال : كنت مع موسى بجرحان ، فأثابه يحيى المهديّ والخلافة ،
فركب البريد إلى بغداد ومعه سعيد بن سلم ووحشي إلى حرامسان ، فحدثني سعيد بن سلم
قال : سرنا بين أبيات جُرْحان وبساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من
رجل يتنقّى ، فقال لصاحب شُرطته : عليّ بالرجل الساعة ، قال : قلتُ يا أمير المؤمنين
ما أشبه قِصّة هذا الحائِز ، قصّه سليمان بن عبد الملك ! قال : وديف ؟ قال : قلت له .
كان سليمان بن عبد الملك في مُنتزِهِ له ومعه حرْمُه ، فسمع من بستان آخر صوت رجل
يتنقّى ، فدعا صاحب شُرطته فقال : عليّ بصاحب الصوت فأثى به ، فلما مثّل بين يديه
قال له : ما حملك على الماء وأنت إلى جبي ومعي حرّمي ، أما علمت أن الرّمْلَ إذا تَمَعَتْ
صوت الصلح حتّت إليه ! يا علام جُبّه ! بلُحُ الرّجل ، فلما كان في العام المقبل ، رجع
سليمان إلى ذلك المنتزه فجلس مجلسه الذي جلس فيه ، فذكر الرّجل وما صنع به ، فقال
لصاحب شُرطته . عليّ بالرجل الذي كا حَبْباء ، فأحصّره ، فلما مثّل بين يديه قال له :
إما مت فوفيك ، وإما وهبت فكافأناك ، قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له :
يا سليمان ! الله الله ! إلك قطعت نسل فذهبت بماء وحشي ، وحرمتني لِدَيْتي ، ثم تقول .
إما وهبت فكافأناك وإما مت فوفيك ! لا والله ! حتى أقف بين يدي الله ! قال : فقال
موسى : يا علام رُدْ صاحب الشُّرطة فرقه ، فقال : لا تعرّض للرجل .



وأما حمّه للخدمة فيحتملنا به عمر بن شبة ، إذ ذكر أن عليّ بن الحسين بن عليّ بن الحسين
ابن علي بن أبي طالب ، وكان يلقب بالجزريّ ، تزوّج رُقِيّة بنت عمرو العثمانية ، وكانت تحت

المهدي، فبلغ ذلك موسى الهادي في أقل خلافة، فأرسل اليه جُهله وقال : أعياكَ النساءُ إلا امرأة أمير المؤمنين^١ فقال . ما حرّم الله على خلقه إلا نساءَ جدّي صلى الله عليه وسلم، فأما غيرهنّ فلا ولا كرامة؛ فشبهه بمحصّرة كانت في يده وأمر بصره بحسّانة سوط مضرب، وأرادَه أن يُطلقها فلم يفعل، فحُمِلَ من بين يديه في يَطْع فأُلقيَ ناحيةً، وكان في يده حاتم سري، فرآه مصّ الخدم وقد عُشيَ عليه من الضرب، فاهوى الى الخاتم فقصّ على يد الخادم فدقها، فصاح وأتى موسى فأراه يده، فاستشاط وقال : يفعل هذا بخادمي مع استحفافه بأني وقولُه لي ! وعتّ اليه : ما حملك على ما فعلت^٢ قال . قل له وسله ومُرّه أن يضع يده على رأسك وليصدقك ، فعزل ذلك موسى قصّده الخادم ، فقال : أحسن والله ! أما أشهد أنه إن عَمي لو لم يفعل لاتّقيت منه وأمر بإطلاقه .



وقد كان الهادي مثل أبيه محباً للأدب مُشجعاً للشعراء، وكان على سنته في مص الزبادة ومقتبهم، مؤقفاً في اختيار الوزراء، مُصانماً كآبيه ببطانة سوء، مُهماً الوقعة والوشاية وإمراء الخليفة والبيت المالك باجتراح المآثم وأقتراف المظالم .

قال الطبري : إن عبد الله بن محمد المقرئ حدث عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند مصّره من الخ^(١)، فوحده حائفاً يلتبس عدواً من قتل من قتل فقال له : أصلح الله الأمير، أشدك شعراكت به يزيد من معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه^٢ قال . أشدني، فأنشده :

يا أيها الراكب القادي لِعَظِيته * على عُدائِفِرَةٍ في سيرها حَقَمُ

(١) الخ هنا أوله وتشديد نايه : وادي الزاهر . ويوم الخ كان أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج يدعو الى هبة في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ وواجه حامية من العلويين بالخلافة في المدينة وخرج الى مكة طلباً كان مع لقيه جيوش من العباس وطهيم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التزوية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا حامية من عسكره وأهل بيته ، ولم تكن مصيبة بند كرملاء أشد وألح من الخ ووجه دعي عبد الله بن عمرو بن عمر من الصحابة الكرام ا هـ ملخصاً من باقوت مادة « خ » .

(٢) المدامرة . الالة الشديدة الالاية الوثيقة الظهيرة، أنظر لسان العرب مادة « مدمر » .

ألمع قريشا على قحط المزار بها * بنى وبين حسين الله والرحم
 وموقف فناء البيت أنشده * عهد الاله وما ترعى له الذم
 عمت قومكم نخرا بامكم * أم حصان لممرى برة كرم
 هي التي لا يدانى فصلها أحد * بنت البى وحير الناس قد علموا
 وفصلها لكم فصل وعيركم * من قومكم لهم من فصلها قسم
 إني لأعلم أو ظننا كعالمه * والظن يصدق أحيانا فينظم
 أن سوف يترككم ما تطلون بها * قتل تهادا كم العقبان والرحم
 يا قوم لا تشبوا الحرب اذ حدثت * وسكوا بحبال السلم واعتصموا
 لا تركبوا البعى إن البنى مصرمة * وإن شارب كأس البنى ينفم
 قد جرب الحرب من قد كان قهلكم * من القرون وقد بادت بها الأمم
 فأنصموا قومكم لا تهلكوا مدحا * فرب ذى بذج زلت به القدم

قال : فسرى عن موسى بن عيسى شخص ما كان فيه .

وإذا لم يكن بد من اختصار حياة المهادى فى كلمة جامعة فليقل : إنه وريث عن أبيه
 المهدي كرمه وغيته وجبه للأدب، وورث عن حذو المصور حرمة وشيئا من ميله الى الغدرة.

افضل الثمن

هارون الرشيد

يَا حَبْرَاءُ هَكَذَا ثُمَّ هَكَذَا • أَمْسَى يَسُوسُ الْعَالَمِينَ أَسَاكَ

بهذا يُعْلِنُ مروانُ بن أبي حمصة الشاعر الباهُ تَوّاً الرشيد عرش الخلافة ، بعد أخيه المهدي ، يهدى من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية . وبهذا يَهَيِّئُ الشاعرُ الخليفةَ الرَّشِيدَ . يَقُولُ الرشيد لعرش كائن الخليفةَ مُعَدَّةً بِمَنْ كَانَ يَتْلُوهُ قول الرشيد . وقد يكون من المستصوب أن تترك ليوسف بن القاسم بن صبيح كائن الرشيد ، يُعْلِنُ اليَا مَا أَعْلَنَهُ بنفسه الى العالم العربي ، من حبر اعتلاء الرشيد للخلافة ، فإنه ، بأسلوبه الرشيقي وبلاغته السهلة ومكانته من الرشيد ، أحقُّ بذلك وأحدر ، ولا سيما وقد طُيِّرَتْ قطعته للحافقين ، مُبْتَدَأَ بِمَوْتِ حَلِيعَةٍ وَتَنْوِيجِ حَلِيعَةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ بَمَنْ وَلَطَعَهُ ، مَنْ عَلَيْكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَأَنَا كَمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ ، مَنْ أَنْصَارُ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانُ الدَّعْوَةِ ، مِنْ عَمَةٍ أَلَّتْ لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تُقْصَى بِمَدَى الْأَدْبِ ، وَأَبَادِيهِ الثَّامَةِ إِذْ جُمِعَ أُلُفَتُكُمْ ، وَأَهْلُ أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَصَدُكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوُّكُمْ ، وَأَطْلَهَ كَلِمَةُ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوَّلَى بِهَا وَأَهْلَهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ، فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمُرْتَضَى ، وَالنَّازِلِينَ بِسَمْعِهِ الْمُنْتَصَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَبِكُمْ أَسْتَقْدِمُ مِنْ أَيْدِي الظُّلَمَةِ أُمَّةِ الْجُورِ ، وَالْبَاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدِّينَ الْحَرَامَ ، وَالْأَكْلِينَ الْهَيْءَ ، وَالْمُسْتَائِرِينَ بِهِ . فَأَذْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْعَمَةِ ، وَاحْدَرُوا أَنْ تُصَيِّرُوا فَيَغَيِّرَكُمْ . وَإِنَّ اللَّهَ حَلَّ وَعَزَّ اسْتَأْثَرَ بِحَلِيعَتِهِ مُوسَى الْمَهَادِي الْإِمَامَ فَبَصَّه إِلَيْهِ ، وَوَلَّى مَعْدَهُ رَشِيدًا مَرْضِيًّا أَمِيرًا مُؤْمِسِينَ بِكُمْ رُؤُوفًا رَحِيمًا ، مِنْ مُحْسِنِكُمْ قَوْلًا ،

وعلى مسيبتكم بالمعو عطفوا . وهو — أمتعه الله «العمة» ، وحيط له ما استتراه إياه من أمر الأمة ، وتولاه مما تولى به أوليائه وأهل طاعته — يبعدكم من حسه ، الرافة لكم والرحمة لكم ، وقسم أعطياتكم فيكم ، عند استحقاقكم ، ويدل لكم من الجائزة مما أفاض الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ، مايوبى عن رزق كذا وكذا شهرا عبر مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحاملا ما في ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في السواحي والأقطار من العصاة المارقين الى بسوت الأموال ، حتى تعود الأموال الى حمايتها وكثرتها والحال التي كانت عليها . فاحمدوا الله وحددوا شكرا يوجب لكم المزية من إحسانه اليكم بما حدد لكم من رأى أمير المؤمنين وتوصل به عليكم أيده الله بطاعته ، وأرغبوا الى الله له في الفناء ، ولكم به في إدامه العناء ، لعلكم تُرحمون : وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عاده الصالحين .

هذا الكتاب القيم البليغ ، أشعر العالم العربي بابتداء خلافة هارون الذي نستطيع بحقي أن نقول إنه أصحم الخلفاء المسامحين اسما ، وأعدلهم صوتا ، وأشدهم في الخيال تأثيرا ، فانت لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد ، حتى يُحدث في نفسك صورة خيالية ، مختلفة النوع ، ولكنها متفحة في القوة ، فهو ينشئ في نفسك حياء صورة الخليفة المترف ، المسرف في الترف ، الذي طعمه ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده . وينشئ في نفسك حياء آخر صورة الخليفة القوى ، الذي أذل أعداء الإسلام وبسط سلطان الخلافه على أطراف الأرض ، وأخذ ملوك الروم مدح الجزية . وينشئ فيها مرة أخرى صورة الخليفة الحدير ، الذي ث الجواسيس ، ليعرف من أمر الناس ما ظهر وما خفى ، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو حاسوسا ، يطوف في الأسواق ، ويوعل في البيوت ، وينشئ المجالس والاندية ، حتى ألم بكل شيء ، وأحاط بكل خفية ، ثم طعن أعدائه والمؤتمرين به طعنا لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم ينشئ في نفسك صورة الخليفة العالم الأديب ، الفقيه بالوان

العلم والدين والأدب ، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك في الشرق والغرب . ويُنشئ في نفسك أيضاً صورة الخليفة الورع الزاهد ، المتهاك نُسكاً وطاعة وتقلّاداً لله ، كما ينشئ فيها صورة الخليفة الذي لا يكاد يخلو إلى نفسه ويَسْدِلُ الستارَ بينه وبين رعيته حتى يأخذ مع المحتال في مجونهم ، ويُجَبِّلُ اليك أنه لا يدع من سُبُل اللذة سبيلاً إلا سلكها وحنى ثمارها ، فمن عتاه ، إلى شرايب ، إلى عبيث ، إلى استمتاع بالنساء ، من حرائر وإماء ، وهو مد هذا كله سياسياً ، ماهراً ، بعيد النظر في تصرّفه الأمور ، فيه حرمُ المصور وعنته وميله إلى القدر والأثرة ، وكل ما يُشخص سياسة « ميخائيل » ، وفيه حلم معاوية ودهائمه اللين المرئ ، ومحاوّه المال واصطباعه الناس .

ومن غريب الأمر أن كلّ هذه الصور المتناقضة التي تُناقض أشدّ الناقض ، قد اجتمعت حقاً في شخص هذا الخليفة ، لا كما يصورها المؤرخون والرواة والقصاص وأصحاب الأساطير ، بل اجتمعت اجتماعاً يختلف قوه وصعفا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التي كوَّنت مِراجِه وشخصيته ، وقصره ، وبيته السياسية العامة ، طيس الرشيد في حقيقته الأمر . شخصاً كبيره من الأشخاص يمثل نفسه وما ورث عن أسرته ، ولكنه مِرآةُ اجتمعت أمامها صورٌ مختلفة من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هذه الصور .

والرشيدُ يمثل كلّ هؤلاء الناس ، وكلّ هذه الأشياء ، وكلّ هذه الظروف التي شهدتها بغداد قرب آخر القرن الثاني للهجرة . ومن هنا كان من العسير حداً أن نستخلص منه صورة تاريخية صادقة ، بريئة من الغلو والإسراف .

فأما المؤرخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكلّ ما عرَفَت أنهمم تأثروا به ، من الإغراق والمبالغة والعلو في المدح مُخلصين في أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من البرنج فلم يسلم أشدّهم احتياطا من التأثير هذه الطائفة الصخرية من الأساطير التي شها في نفوس الجماعات ككأن " ألف ليلة وليلة " مد زمي طويل .

وقد طهر هذا التأثير مظهره بمُخْتَفِيهِ ، مظهر المدح والإسراف فيه عند قوم ، ومظهر الدم والإعراق فيه عند قوم آخرين . وأولئك وهؤلاء محدوعون عن أهمهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

وممن يجتهدون — لا في أن سطيكَ هذه الصورة الصادقة من الرشيد التي لا يرال التاريخ محتاحا إليها ، فليس ذلك عرصا في هذا البحث ، وليس في هذا الكتاب مُتَسَعُّ له ، بل في أن سطيكَ صورة صادقة من فهم المؤرخين من العرب والعِرنجة لعصر الرشيد ، غير مُهْمِلِينَ مع ذلك أن تُسَلِّ آراءَ لها ها وهناك حين تُشعر بالحاجة الى ذلك ، لتوصيح مدنها في فهم عصر المأمون الذي وضع فيه هذا الكتاب .



يجمع المؤرخون العرب على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وسعاية يده بالحير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسعاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصلى في كل يوم مائة ركعة الى أن هارق الدنيا إلا أن تعرض له حيلةٌ ، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجّ معه مائة من الفقهاء وأبائهم ، وادا لم يجمع أجمع ثلاثمائة بالمقعة الساعة والكسوة الباهرة . وكان يقتنى آثار المصور ويطلبُ العمل بها إلا في بدل المال ، فانه لم يُر حليفةً قبله كان أعطى منه للال ثم المأمون من بعده . وكان لا يضيغُ عنه إحسانُ محسبي ولا يؤخر ذلك في أوّل ما يحب ثوابه . وكان يُحبُّ الشعراء والشعراء ، ويميلُ الى أهل الأدب والفقه ، وكره المراءى في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له والحري ألا يكون فيه ثواب . وكان يحبّ المدبج ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتره بالثمن العالي .

ولقد كانت دولة الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولة من أحسن الدول وأكثرها وقارا وروفا وخيرا وأوسعها رقعة مملكة ، جي الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب

حليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقزاة والقصة والكتاب والدماء والمثنيين من اجتمعوا على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجرل صلة، ويرفعه أعلى درجة. وكان فاضلا شاعرا راوية للأحبار والآثار والأشعار، صحيح الدوى والتغير، مهيأ عد انخاصة والماتمة.



ولقد حاول الهادى أن برعم الرشيد على حلق نفسه من الخلافة بعده، وأن يكتب ولاية المهدي لاسمه حمير، وقد تم له شيء من ذلك. وإلا لحد في حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيء الكثير من إحلاص آل برمك للرشيد لاسيما شدة محافظة يحيى البرمكى على حقوق الرشيد في ولاية المهدي، فعُدَّت وحُيس وأودى في هذا السبيل إبداء شديدا.

ولقد أظهر الرشيد، وهو ولي عهد، من الجرأة ومثانة الأخلاق والصراحة، ما هو حقيق بالإعجاب. ولسا يرى مدوحة من ذكر الرواية التي ذكرها محمد بن عمر الرومي، فهي تُعطي صورة دقيقة لما نحن بسيله، فقد حَدَّث عن أبيه قال: جلس موسى الهادى بعد ما ملك في أول خلافته حلوسا خاصا، ودعا إبراهيم بن حمير بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم ابن قتيبة والحزاي بجلوسا عن يساره، ومعهما خادم له أسود يقال له أسلم ويكنى أبا سليمان، وكان يثق به ويقدمه، فيبا هو كذلك، إذ دخل صالح صاحب المصلى فقال: هارون بن المهدي، فقال: آتدن له، فدخل فسلم عليه وقبّل يديه وحلّس عن يمينه بعيدا من ناحية؛ فأطرق موسى ينظر اليه وأدمن ذلك ثم التفت اليه فقال: يا هارون كفى لك تحدث نمسك بهام الرؤيا، وتؤمل ما أنت مه بعيد، ودون ذلك خرط القناد، تؤمل الخلافة! قال: برك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى إنك إن تجرّب وُضعت، وإن تواضعت رُفعت، وإن ظلمت خُلت، وإني لأرجو أن تُفيعي الأمر الى، فأبصفت من ظلمت، وأصل من قطعت، وأصير أولادك أعلى من أولادى، وأزوجهم بناتى، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي. قال: فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر! أدن منى، فدنا

منه قَبَّلَ يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك البيل ، أعنى أَمَاك المصور ، لا حِلستْ إلّا معي ! وأجلسه في صدر المجلس معه . ثم قال : يا حُرّاقِ إحِلْ الى أخى ألف ألف دينار ، وإذا انتَحَجَ الحُرّاقُ فاحمل اليه البَصَفَ منه وأعيرْهُ من عليه ما في الخزان من مالنا ، وما أحد من أهل بيت اللعة ، يأخذ جميع ما أراد ، قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصالح : أدِنِ دانتَه الى البساط .

قال عمرو الرومي : وكان هارون يأمر في فممت اليه فقلت : يا سيدي ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدي : أُريْتُ في منامى كأنى دَقَعْتُ الى موسى قصيباً والى هارون قضييّا ، فأورق من قضييب موسى أعلاه قليلاً ، فأما هارون فأورق قضييبه من أقرله الى آخره ، فدعا المهديّ الحكم بن موسى الصمري ، وكان يُكنى أبا سعيان ، فقال له : عرِّهه الرؤيا ، فقال : يملكك جميعاً ، فأما موسى فتَقَلُّ أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش حليلةً وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال ولم يَلِثْ إلّا أياما يسيرةً ثم اعتلَّ موسى ، ومات وكانت حِلَّتُهُ ثلاثة أيام .

قال عمرو الرومي : أفصحتْ الخِلافةُ الى هارون فروحَ حَمْدُوتُهُ من حمير من موسى ، وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووقى بكل ما قال ، وكان دهره أحسن الدهور .



ولقد كان الرشيدُ مشغولاً بالفنون والعلوم ، وكان قصره الزاهي الزاهر مركزاً لمختلف الثقافات . وأما ولَّمَهُ بالشعر وصروب الآداب وإحارته الشعراء بسجاء والحديث في ذلك طويل الماحي .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمرافة الحياة ومبايعها : تزوج ست زوجات وتبنى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبري وأسماء أولاده منهن ، وكان ، مع تَبَرُّج المدنية في أيامه ، ومع إحيائه أندية اللغة والآداب والمادمة ، ورطاً متأثراً بالمواظع والزهديات . وسدّ لك طرفاً من مواقفه البالغة على خشيته لله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيتة لله وأدبه، فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالزقة مد أن شخصاً من بغداد، نخرح معه يوماً إلى الصيد، فعرض له رجلٌ من النسيك فقال : يا هارون اتقي الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نيك: خذ هذا الرجل اليك حتى أنصيرف، فلما رجع دعا بقائه، ثم أمر أن يُطعم الرجل من حاص طعمه؛ فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أبعثني في المحاطة والمساءلة قال : ذاك أقل مما يجب لك، قال : فأجبرني أما شر وأخبت أم فرعون؟ قال : بل فرعون، قال : (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) وقال : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) . قال : صدقت، فأجبرني : من حير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليم الله وصعبه اصطفاؤه لنسبه وأتمه على وحيه وكلمه من بين خلقه؛ قال : صدقت، أما تعلم أنه لما بعته وأحاه إلى فرعون قال لها : (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَبِيبًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) . — ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكتياه — هذا وهو في عتوه وحبروته، على ما قد علمت، وأنت جنتي، وأما بهذه الحالة التي تعلم أؤذي أكثر فرائض الله علي، ولا أبعد أحدا سواه، أقف عدا أكر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني وأعطتني الألفاظ وأشتمتني، وأخترت الكلام وأفطعته، فلا مذهب الله تأدبت، ولا أخلاق الصالحين أحدثت، فما كان يؤمك، أن أسطوبك، فإذا أنت قد عرصت هتك لما كنت عنه عيباً، قال الزاهد : أخطأت يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك؛ قال : قد غفر لك الله، وأمر له عشرين ألف درهم؛ فأبى أن يأخذها وقال : لا حاجة لي في المال، أنا رجل سائح؛ فقال هرة ونحره : ترد على أمير المؤمنين يا جاهل صلتك ! فقال الرشيد : أميك عنه، ثم قال له : لم تعطك هذا المال لحاجتك إليه، ولكن من عادتنا أنه لا يحاطب الخليفة أحدٌ ليس من أوليائه ولا أهدائه إلا وصلته ومسحه، فأقبل من صلبنا ما شئت وصمها حيث أحببت؛ فأخذ من المال ألفي درهم وخرقها على الخفاف ومن حصر الباب .

وأما ورعه فقد ذكر، أن أبا مريم المدني كان مع الرشيد وكان مضطجاً له محذاتاً فكها، فكان الرشيد لا يبصر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممن قد جمع إلى ذلك المعرفة

بأخبار أهل الخراز، وألقاب الأشراف ومكاييد الحان، فبلغ من حاصته بالرشيد أن يؤاء منزلاً في قصره، وغلطه بجرمه وطلاته ومواليه وعلمانه، بهاء ذات ليلة وهو قائم وقد طلع العجبر وقام الرشيد إلى الصلاة فالتقاء ثامناً، فكشف الخفاف عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحتُ سعداً، اذهب إلى عملك، قال: ويلك! قم إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجسارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، فبني وتركه ثامناً وتأهب الرشيد للصلاة، بهاء علامته فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة، فقام فأنى عليه ثيابه ومعى نحوه، فاذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فأتى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن صحك في صلاته، ثم ألتفت إليه وهو كالمُنصَّب فقال: يا بن أبي مريم في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا وما صنعت! قال: قطعت على صلاتي، قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاماً عمنى حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلت: لا أدري والله، فعاد فضحك وقال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما توصعه فترك الكلمة فيه لأبي معاوية الصرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلت مع الرشيد يوماً، فصب على يدي الماء رحل فقال: يا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يديك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين؛ قال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم؛ قال: نعم. فتصور إلى أي حد بلغ صنيمه.

ترك جانباً الآن التكلم عن البرامكة ونبذة البرامكة إلى فصل مستقل. وربما كان من المصلحة الفنية للكتاب أن يُفرد لكل بحث من بحوثه باب خاص، نستوعب فيه ما يجدر بها استيعابه من تلك التواحي الهائلة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عقنا أن نتحقق إليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية؛ (٣) التكلم عن بعة الرشيد للأميين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة الرمكية والكبة الرمكية . وسنتوئى الإيجاز المقع من غير إحلال بما لا يلقى ما الإحلال به ، ولا سيما باب بيعات الرشيد ، فإنا لا رى مدوحة من إثبات بصوصها لما لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخى حقيقى للدراسة والبحث .

١ - السياسة الداخلية

أنت جد عالم بما كان من تطلع الطالبين للخلافة . وقد مر بك القول فى تحفزاتهم ونزوحهم وحروبهم للبيعة العاصى ، الخالس على العرش ، كلما واتهم المرص وأمكتهم الأحوال .

وأنت جد عالم أن الخلفاء ما كانوا يركنون الى حابهم بماساً وتاغصاً ، واصطداماً للصلحة الخاصة وتعارضاً . بيد أن الرشيد وهو الزوم نسجته ، المحصول على الخبر برعته ، رأى فى أول عهده ، أن يحدب عليهم ويستل بحجمة العداوة من قلوبهم ، فرجع المحر عن كان منهم بغداد ، وسيرهم الى المدينة ، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله ، وكان أوه مع ذلك فيمس أنخص الى المدينة .

لم يشجع الطالبون الرشيد على الاستقرار على خطته تلك ، بل كان من مصهم ما دفعه الى تعبير خطته السديدة ، إذ حرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناحين من وقعة «ع» التى كانت فى أيام الهادى ، ونزع الى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكتة واشتد ساعده ، وهرع اليه الناس من الأهصار والكور ، فاعتم الرشيد لذلك آيما اغتياهم وترك ، فيما يقول الرواة ، شرب البید ، ثم بدت الى قتاله الفصل س يحيى بن خالد بن خمسين الها ، ومعه من القواد صابديهم ومن الجند شعاعهم ، فاستممت يحيى ، فكتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ، وكتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وجمعت اليه ، فاجاب يحيى الى الصلح والخروج ، على أن يكتب له الرشيد أمناً بحطه ، فادر الفصل برع ذلك الى الرشيد ، فأنجق فؤاده وعظم موقعه لديه ، وكتب أمناً ليحيى بن عبد الله وأشهد عليه القضاء والفقهاء وحلة بنى هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن على والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم ، ووحه به مع حوائز وكرامات وهدايا ، فوجه الفصل بذلك اليه فقدم يحيى بن عبد الله عليه .

و في رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده ، وأنه قد اشتد في مطاردته ، واقتعاء أثره ، طلب الأمان من الفضل ، فآمنه وحمله الى الرشيد .

و يحتمل أن جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفصل بن يحيى البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي معداداً ، لقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى عليه أرزاقاً سنية ، وأزله مراً سرياً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياماً ، وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره ، وأمر الناس بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد العابة في إكرام الفصل ، وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حصية :

طَفِرَتْ فَلَا شَلْتُ يَدُ رَمَكِي * رَتَقَتْهَا الْعَتَقُ الدِّي بَيْنَ هَاشِمٍ
عَلَى حِينِ أَعْيَا الرَّاغِبِينَ الثَّامَةَ * فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُتَسَلِّحِ
فَأَصْبَحَتْ قَدْ فَازَتْ يَدَاكَ حُطْلِي * مَنِ الْمُدَّاقِ ذِكْرُهَا فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا زَالَ قَدْحُ الْمَلِكِ يَمْرُجُ فَائِزًا * لَكُمْ كَلَامٌ صُمْتُ قِدَاحُ الْمُسَاهِمِ

ووجه النظرها الى طاهرة في شعر مروان وأى قامه الخطيب الذي أنشد في هذا المعنى أياتاً له يُستدلُّ منها على اغتباط الشاعر ، وجمهرة الناس طعناً ، بالوافق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك ، معجزة للعاملين على رتقي العتق والتنام الصدع . ولكن وأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرهما بين الملوك وبين السعاة الغنيمة ، ولها أثرها السيء في إلصاق تهم بالأبرياء ، ولها مغبتها الصارة في بلور دور الكراهية والبغضاء ، بين الملوك والزعماء .

وقد بينا لك أن الأمان الذي كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه العقهاء والقضاة وزعماء الشعب . وقد يكون من المفيد في تصوير ناحية من نواحي المصر أن نذكر

لك هما نصيب هذا الأمان وحطه من بعض الفقهاء ، في العُتيا بتقصيه وآخرين بالوفاء له . ولدع لأى خطاب أحد المعاصرين الكلمة قال . إن حفتر بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال : دعا الرشيد اليوم يحيى بن عدا الله بن حسن ، وقد حصره أبو النحرى القاصى ، ومحمد بن الحسن العميه صاحب أبى يوسف ، وأحصر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمان أصحح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجه في ذلك الرشيد ، فقال له محمد بن الحسن : ما تصعب بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان أمسا ! فاحتملوا الرشيد على محمد بن الحسن ، ثم سال أبا النحرى أن يظفر الأمان ، فقال أبو النحرى : هذا الأمان مُتَقَصُّصٌ من وحه كذا وكذا ! فقال الرشيد . أنت قاصى القصاه وأنت أعلم بذلك ! ومزق الأمان وتفل فيه أبو النحرى !

ولك أن تُعَلِّقَ ما شئت على تصرف أبى النحرى ، الفقيه الدينى ، الذى أصبح بعتياه تلك قاصى القصاه ، ولك أن تستدط ما أحببت في موقفه ومروسته حين مرق الأمان ، ولم تزد قيمته في نظره على "قصاصات الورق" حتى تمل فيه . ولك أن تقول ما أردت في موقف زميله محمد بن الحسن العميه صاحب أبى يوسف وعدم ترجمته أو جموده . أما نحن فإننا لا نعدو خُطَّتْنا التى رسمها لأهسا ، في مثل هذه المواقف ، من التزام الحيد السامة وعدم الرح بأفسا في المزالق الخطره ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى بالحمية بين الرشيد ويحيى بن عدا الله الساعون ، وكلما رقى الرشيد له أثاروا في نفسه السحيمه عليه ، فقد ذكر وا أن يحيى بن عدا الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قراة ورحما ولسا نترك ولا ديلم ، يا أمير المؤمنين ، إننا وأتم أهل بيت واحد ، فاذ كرك الله قراتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علام تمهيسى وتمدى ! قال : فرق له هارون ، ولكن الريرى — وكان حاكما للدينه أيام الرشيد ، وهو يعد من الأحراب المعادية للعلويين واشتهر بشدة الغض لهم ، وكان حاصرا بجلسمها — أقل على الرشيد فقال : « يا أمير المؤمنين لا يفترك كلام هذا ، فإنه شاق عاص ، وإنما هذا مكر وخبت ، إن هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر

فيها المصيان؛ قال : فأقبل يمي عليه ، فوافقه ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال :
أصد عليكم مدينتكم ! ومن أتم عافاكم الله ! قال الزبيري : هذا كلامه قدامك ، وكيف
إذا عاب علك ! يقول : ومن أتم استخفافا بنا ، قال : فأقبل عليه يمي فقال : نعم ومن
أتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجرة عبد الله بن الزبير أم مهاجرة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ! ومن أنت حتى تقول أفسد عليا مدينتا ! وإنما بآثا وآناه هذا هاجر أبوك
إلى المدينة . ثم قال « ما أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأتم ، فان نرحا عليكم قلنا : أكلتم
وأحتمدوا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرحتمونا ، فوحدا بذلك مقلنا فيكم ، ووحدهم
محررجا عليكم مقلنا فينا ، فتكافأ فيه العول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل ،
يا أمير المؤمنين قلّم تحترق هذا وضرماءه على أهل بيتك سعى بهم علك ! إنه والله ما يسعى
بنا إليك نصيحة منه لك ، وإنما يأتيها فيسعى بك عدنا عن غير نصيحة منه لنا ، إنما يريد أن
يباعد بيما ، ويستتري من بعض بمص . والله يا أمير المؤمنين لقد جاء إلى هذا حين قيل
أنى محمد بن عبد الله فقال : اس الله قاتله ! وأنشدني فيه مرثية قالها نحو من عشرين بيتا ،
وقال : إن تحزكت في هذا الأمر فاما أول من يبايعك ، وما يملك أن تلحق بالبصرة
فأيديا مع يدك ! تحذير روحه الزبيري وأسود ، فأقبل عليه هارون فقال . « أى شيء
يقول هذا » قال : كادب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف ! قال . فأقبل الرشيد على
يحيى بن عبد الله وقال : تروى القصيدة التي رثا بها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك
الله ! وأنشدها إياه ، فقال الزبيري : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو — حتى أتى
على آخر البيتين الغموس — ما كان مما قال شيء ، ولقد يقول على ما لم أقبل . قال : فأقبل
الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف مهل من بينة سمعوا هذه المرثية منه ؟ قال ،
لا يا أمير المؤمنين ، ولكن استحلته بما أريد ، قال فاستحلته ، قال : فأقبل على الزبيري
فقال : قل أنا برئ من حول الله وقوته موكل إلى حولي وقوتي إن كنت قلته ؟ فقال الزبيري :
يا أمير المؤمنين أى شيء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا إله إلا هو ويستحلمنى

بشيء لا أدري ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما استحلّعه به ! فقال له هارون : احلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولي وقوتي . ويقول الطبري : إنه اضطرب منها وأزعج ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أدري أى شيء هذه اليمين التي يستحلني بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفن له أولاً صدقك عليك ولأعاقبك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولي وقوتي إن كنتُ قلته ، قال : فخرج من عند هارون فصربه الله بالفالج مات من ساعته .

وقد روى المؤرخون العرب في صدد موت ذلك الريي روايات لا نرى بأساً بإيرادها ، فقد ذكر الفحري أنه ما انقضى النهار حتى مات ، حملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب فكأوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينظم القبر صلوا أنها آية سماوية ، فسقموا القبر وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان في ميمته اذ يقول :

يا جَاهِدًا في مَسَويهم يُكْتَمُها * عدو الرشيدي يحيى كيف ينكم
داق الريي عت الحنث وانكشعت * عني آني فاطمة الأقوال والثهم

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيى في الحبس شرق قلعة . على أن هناك رأياً آخرى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكل به في الحبس منعه الأكل مات .

ولسقط ما روي له معاصره وهو عباس بن الحسن عما كان من الرشيد صد ما أصاب الريي مما أجمع رواة العرب على إصابته به إثر كذبه في قسمه ، فقد قال . دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عباس بن الحسن أما علمت ما الخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذي صرعه بلسانه ، ووقاك الله يا أمير المؤمنين قطع أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحب ، ورمع الستر فدخل يحيى وأنا والله اثنين الارتياح في الشيخ ، فلما نظر إليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار ! قال : الحمد لله

الدى انا لأمير المؤمنين كذب علوه على ، وأعماه من قطع رجه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر بما أطله وأصلح له وأريده — فكيف ولست تطالب له ولا مريده — ولم يكن الطعنه إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق في الدنيا عيرى وعيرك وعيره ، ما تقويت به عليك أندا ، وهذا واقعه من إحدى آفاتك — وأشار الى الفصل من الربيع — والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع مئى في زياده ثمرة لناعك بها ، فقال : أما العباسى فلا تقل له إلا حياء وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حسبه بعض يوم . قال أبو يوس : كان هارون حسبه ثلاث حسبات مع هذه الحبسة وأوصل اليه أربعمائة ألف دينار .



وبعد ، فقد عينا بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هذا الخليفة العباسى مع علوى من رجالات عصره لتبين نسيئة المعاصرين والولاة ، وما اطلوث عليه صدورهم من حن لال على وتوقير لأشخاصهم ، وستهم بالكرامات والمعجزات . وإذا اعتبرت أب هذا كله قد حصل في عهد خليفة عظيم بسعائه وفواصله ، محبوب لماثره وبواعله ، قوى في مملكته ، كثير الأنصار في شيعته ، أيقنت أن لخزب العلوى أنصارا يعتد بهم ، ومكانة في العوس يحفل بها . وهذا مقول حقا ، وإمك لتستسيغه من نفسك وفهمك اذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من العرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبني أمية حاصة من عدا وبيحار ، ومقت وكراهية ، وأنت تعلم أن الدعوة في بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من العرس ، من المقول أن ثُربت قلوبهم حب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة ، والتفتى بمذهب هذه الدعوة ، مد الساعة الأولى ، ولا يزيد مرور الزمان كل دعوة أو مذهب حرى إلا قوة وانتشارا وكثرة أنصار ورسوخ عقيدة . فلاحظ ذلك جيدا ، فإنه قد يفيدا في تعليل بعض أعمال البرامكة .

ولرجع الى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية في عصر الرشيد ، ولقسم القول الى ناحيتين : أولاها نوارت ناتجة عن العصبية ، وثانيتهما فتوق ونوارت في شتى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين التزارية واليمية وعيرهما ، فإن أرنَ جرير الطبري يَحْكُثُنَا أن قد وقع هياج في الشام سنة ست وسبعين ومائة بين التزارية واليمية ، ورأسُ التزارية يومئذ أو الهيدام ، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خالد ، وضم إليه القواد والأجَادَ ومشائخَ الكُتُب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنتِ الفتنة .

وأما الثوراتُ الأخرُفا ما نجد في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسة سبع وثمانين ومائة ، ما يدل على حصولِ فتنٍ وحروب من جرّاءِ العصبية أيضا .

ولقد حصلتْ حروبٌ في ثُرَاسَانَ والطالِقَانِ وحُورَانَ والجزيرةِ واليمن ومصر وأرمينية وحصن لرامع بن ليث ، وكان المصْرُ في أكثرها حليفَ حيوش الرشيد وولاته .

على أن حُلَّ هذه الثورات ناجمٌ في الواقع عن اتساع رقعة المملكة ، وسُرعة تبدل الولاء ، وسوء تصرف بعض هؤلاء الولاء ، ولا سيما في جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإلا لَحَرَى بما قدماه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأتدلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية ، في بحثها عن الرشيد ، الى أن حروما ملفت نهاية الشدة وقد وقعت بين الرشيد والبنظيين . وقالت : إن ولاية الرشيد عملوا مد بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧-٧٩٨ م) ، بيد أنه عجل بمودته ، ثم شبت حربٌ في السنة التالية كالعادة ، واذ كانت الأمبراطورة إيرين كانت تعاني متاعبَ داخلية فقد عجلت بالصلح حل أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تيأ الأمبراطور سيقعور أريكنه سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) فقد سب إلى الخليفة بكتاب مuiين طلب فيه أن يُعيد إليه الجزية التي أُديت من قتل ، فلم يتقبل الخليفة بشروط الصلح صادت الحروب .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هرقلة" واضطر الأمبراطور إلى أن يدفع جزية جديدة ، عن نفسه وعن أسرته ، فو الخيرية العامة . وفي السنة التالية هزم الزطبيون يزيد مقلد ، وكانت أغلاط هرثة معهم مائة لأغلاط « ابن مقلد » .

ويعول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بشارلمان ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيراً عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك في المراجع العربية ، وإنه لبشك كثيراً في صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأمويين في الأندلس ، فلم يكن مرجوا أن تكون علاقة صفاء ومودة ، فقد كان العباسيون يعتبرونهم حارجين على سلطانهم ، ولا يرون في دولتهم بطيراً يستحق أن يمش وإياهم في سلام وهدهد .

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « صف » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، صار إلى مصر وشخص منها إلى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التقى حوله براءة أوربة ، فأنشأ هناك أقل خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة .

وطهرت كذلك أيام الرشيد دولة الأعالة في إفريقيا ، فإنه ولأها إبراهيم بن الأعلب التميمي ، ليحصل من مملكته حاجراً ميعاً بين الخلافة العباسية والأدارسة الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، معظم أمره ، وصار كملك مستقل ، إلا أنه كان يخضع للرشيد .

٣ - التكلم عن البيعة

والآن نتحدث إليك عن أكثر أعلام الرشيد، وأعيدنا أثرًا في حياته وفي الدولة العباسية، بل في حياة المسلمين السياسي وجه عام، وهي بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأئمة والمأمون والقاسم .

وقد قدمنا لك في الكتاب الأول رأيًا في هذا النوع من احتياط الخلفاء لأعيانهم ولأبنائهم ، وما كان له من الأثر السيئ في حياة القصور خاصة وفي السياسة عامة ، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد ، فقد كان ذلك ينشئ بطانات مختلفة ، ويكوّن أحرارًا لا تلتف حول مدبر أو فكره وإنما تلتف حول الأشخاص والمناصب التي تنتظر منهم .

وهذه البطانات والأحزاب ، تتنافس في القصر ، فتقيد على الخليفة والأحرار حياتهم الخاصة ، وتقطع ما بينهم من صلوات كان يجب أن ترفع حرمتها . كما أنها تتنافس خارج القصر ، فتقيد على الدولة سياسيًا العاقبة تصريفها عن مرافقها الداخلية ، كما تصريفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سنة أموية ، أتت ثمرةا الخبيث ، وجرت على الأمويين أنواع الوال هزقتهم وأضاعَت ملكهم ، كما قدمنا ، وكان المعقول أن يسعيد العباسيون من هذا الدرس ، ويحرصوا عن سنة سيئة سكرها ، وفيها ، وقد سنها أعداؤهم السياسيون - مع هذا كله توارث الرشيد فيما توارث فيه عبد الملك ، وخلفاء عبد الملك ، وتعرضت الدولة العباسية لِمَا تعرضت له الدولة الأموية ، بل كان خطر هذه السنة على العرب أيام بني العباس أشد منه أيام بني أمية . ذلك أن سقوط الدولة الأموية قد نقل السلطان من أسره إلى أسرته واحتيط به لقرش . فاما أثر هذه السنة أيام بني العباس فهو نقل السلطان الفعلي من العرب إلى الفرس ثم إلى الترك ، وحصل الخلافة بوا من العبث والسحرية في أيدي المتعلمين من القواد والخدم والرقى .

ومهما تنتمس الأسابَ تَوزَطَ الرشيد في هذه السَّنة التي كان يجب أن يتحصها قل
نستطيع أن نُهمَل سبين أساسيين . أحدهما تآثر القصر الماسي- بسبي الملك العارسي-
القديم وسياسته . والآخر تآثر الخلفاء بما كان للنساء حرائرهن وإمائهن ، من سلطان ومود .
فلولا هذان السببان لما تَوَزَطَ الرشيد في هذه السَّنة التي تَوَزَطَ فيها أبوه المهدي ،
وداى هو صير قليل من ثمرها .

ستمول : ولكن الرشيد احتاط ، فأخذ على أبائته اليهود والمواثيق أن في سبهم
لنمض ، ويبرعضهم بميص . ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سَطَوَةِ الملك وسلطانهِ ،
ومطامع الإنسان التي لا حد لها ؟ وما قيمة هذه اليهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في حل
مراحلهِ أنها لا تُقْتَر عهودا ومواثيق إلا عند الصعفاء من الأمم والأفراد ، أما الأقوياء
ودوى السلطان والعلش فهي عديم ليست يهود ولا مواثيق ، إنما هي « قُصَصَاتُ وَرَقٍ »
لا أكثر ولا أقل ، وقد يُقْبَى ماها « قصاصات وري » أولئك الدس وكذَّوها وشهدوا على
صحتها ، وصباموا في البرها والوفاء لأصحابها !

وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يجتاطون لكل بيعه فيها أحد لليهود والمواثيق .
ومع ذلك لم ينمض هذا الاحتياط أيام بني أمية ولا أيام بني العباس .

وإليك الآن أحاديث المؤرِّخين من العرب وغير العرب في هذا الموضوع :

لما لاحظ الفصل بن يحيى سبه خمس وسبعين ومائة أن جماعة من بني العباس قد
مدَّوا أعتاقهم الى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له وليٌ عهيد ، أجمع على البيعة لمحمد ،
ولما صار الفصل بن يحيى الى خراسان فرق في أهلها أموالا وأعطى الجند أعطيات متباينات ،
ثم أطلع البيعة لمحمد بن الرشيد ، فباع الناس له وسماه الأمين . وفي ذلك يقول النمرى :

أمسى بمرو على التوقيع قد صَفَقْتُ * على بد الفصل أيدى النجم والعرب
بيعة لولى المهد أحكمها * فالصبح منه والإشفاق والحدب
قد وَكَّدَ الفصل عقدًا لا أنقاص له * لمصطفى من بني العباس مُتَحَبِّ

ولما تاهى الخبر الى الرشيد بذلك وبيع له أهل المشرق بايع، وكتب الى الآفاق
ببيع له في جميع الأمصار . فقال أنا أن اللاحق في ذلك :
عزمت أمير المؤمنين على الرشيد . رأى هدى فالحمد لله دى الحد

ويقول لنا اليعقوبى في هذا الصدد : إن هارون بايع لابنه محمد بالعهد من بعده
سنة ١٧٥ هـ ومحمد آن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة، وأخرج محمد الى
القواد، فوقف على وسادة حمد الله وصلى على نبيه، وقام عبد الصمد بن عل ، فقال :
أيها الناس لا يهركم صعر السن ، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .
وجعل الرجل من سى هاشم يقول في ذلك حتى اقصى المجلس، وتبرّت عليهم الدراهم والدنانير
وفار المسك وبيص العبر .

ويقول لنا الطبري في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان انصراف الرشيد
من مكة، ومسيره الى الرقة، وبيعته بها لاسه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأحد
البيعة له على الحمد بذلك الرقة، وصمّه إياه الى حمير بن يحيى وأنه قد بوع له بمدينة السلام
حين قدمها ، وولاه أموه خراسان وما يتصل بها الى همدان ، وسماه المأمون . وقد قال
في ذلك سلم بن عمرو الخاسر :

بايع هارون إمام الهدى * ليدى الجما وانلحق العايل
الخفيف المتلف أمواله * والضامن الأثقال للعايل
والعالم الناقد في علمه * والحاكم الفاصل والعايل
والرائق الفائق حلف الهدى * والقائل الصادق والعايل
لخير عباس اذا حصلوا * والمفصل المجيد على العايل
أبرزهم سزا وأولاهم * بالعرف عند الحدث الازل
لمشبه المنصور في ملكه * انا تدجّت ظلمة الباطل
فتم بالمأمون نور الهدى * واكشف الجهل عن الجاهل

وفي سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لأبيه القاسم سد المأمون ، وحمل أمر القاسم في حله وإقراره الى عد الله إن أفصت الخلافة اليه .

وأراد الرشيد أن يوثق الأمر بين بني في ولاية المهدي ، حتى يسدّ دونهم باب الفتنة ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هي ما يحدّثها عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزرائه وقصائده في سنة ١٨٦هـ ، وحلف بالزفة إبراهيم بن عثمان بن نبيك العكي على الحرم والخزائن والأموال والمسكر ، وأشخص القاسم أبه الى متّيج ، فانزله إماما بن صمّ اليه من القواد والجديد ، فلما قصي ماسيكه ، كتب لعبد الله المأمون أبه كتابين جهده الفقهاء والقضاة أراهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وليّ عبد الله من الأعمال وصير اليه من الصباغ والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وحمل الكنايين في البيت الحرام ، وعبد أحد البيعة على محمد وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من ساير ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكناجه وعيرهم ، وكانت الشهادة بالبيعة والكاتب في البيت الحرام ، وتقدّم الى المحبة في حفظهما ومع من أراد إنحراجهما والنهات هما ، فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وإبراهيم الخفي . أن الرشيد حصر وأحصر وجوه بني هاشم والقواد والعقهاء وأدحلوا البيت الحرام وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهد عليهما جماعة من حصر ، ثم رأى أن يملق الكتاب في الكعبة . فلما رفع يملق وقع قليل : إن هذا الأمر سريع انتقاصه قليل تمامه . وقد أشنا الكنايين ، لعظيم خطرهما التاريخي ، في باب المنشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وبعد ، فإن لعصر الرشيد مكانته وقدره ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية أيما ازدهار ، وظهرت فيه آثار تحوّل المدنية في المصور التي سبقته ، كما أقر هو في المصور التي تلته . ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبي علي صالح بن محمد الحافظ ،

قال : «احتجم للرشد ما لم يحتجم لغيره : وزراؤه الرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي جهم ، وديمه العاس بن محمد عم أبيه ، وحاحه الفصل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم ، ومعه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر» .

وإنا لحتم محشاً في حياة الرشيد وعصره ، بكلمه تين وجهة نظر مؤرخ كبير المكانة في الشريقات وهو الأستاذ «ميور» ، ونتقدم ملاحظة واحدة وهي شدته على هارون الرشيد . وقد يكون الذي دفعه الى ذلك تأثره بمرجه العظيم الذي وصحه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسه بأن «ويل» كان بالغا في قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيص ما عهد فيه من الحيدة والهدوء في أحكامه ، فقد اعتبره من العظم في الدرّة ، ولم يكن الرشيد من الرءاء مملع من سقه ومن أتى بعده . ويظهر أن العاحمة البرمكية هي التي أعطته هذه الأسبقية التي لا يُبطل عليها في حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرد على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه ، أن كتابته عن الرشيد مع حفظها العظيم من المتانة والإصاف ، لا تزال عليها غلالة من صرامة «ويل» وقواعد تقدمه .

ترجم لك رأى «ميور» ، لأنه يكاد يكوّن صورة صحيحة للرأى العلمى الأخير في الرشيد ، فهو لا يعدو الرأى الذي أبداه الأستاذ ك . ف . «زوتستين» في العدد الثانى والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية . وعلى جد علمين يحظر المراجع العديدة التي استند عليها «زوتستين» في رأيه في الرشيد . فلتقل لك الآن كلمة «ميور» فهي مثل الأخرى إن لم تكن أوسع وألمح .

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة : «إن مكانة هارون الرشيد وأبنه المأمون في التاريخ لم تسمى مكانة بل فيها الخلفاء العباسيون ، وإن هارون لقديم بأن يكون في الدرّة مع الخيرة من أفاضل ملوك أسرة بني أمية ، لولا شائبة القساوة المدطوية على الخذل التي وصمت سيرته جمعا .

أفد كان الرشيدُ في قصوره عموماً بصروب الرافيه والرعد، وكان ملكاً في مكارمه وجوده، ومع ذلك قد ترك في أقاته خرائش عاصرة طعت تسماعنه مليون، جُمعت بوسائل العسف وعدم التدقيق . وإذا استثنينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلة موفقة .

ولما كان الرشيد قد اعتاد مد ميمه شابه الحياة الحريسه فإنه كثيراً ما شاطر جنده ميدان القتال . وقد كان من حراء استصاداته العديده، لاسيما على اليونان (الروم) ، أن طبع عصره بطاع المهد والصيت .

ولم يُظهر حليمة، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الحمه والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في سبيل الخ أم الإدارة أم الحرب .

على أن أصل شهره هذا الخليفه ، ومصدر صيته ، راجع الى أن حكمه غلّ مدحول عصر الآداب ، فقد كان عصره المثانة التي يُبرع اليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سؤو البلاعه والسمر والتاريخ والفقه والطب والموسقى والمون نافقة، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في صحته السل والكرم ، كل ذلك مما آتى أكله ونمره الناصح في العصور الآتية .

أفد كان الرشيد يُحير العلماء في كل من حازب ملكية نيلة، على أن الشعراء كانوا موضع كرمه انطاص . وهاك مثلاً ما أحاره مروان س أى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشيد بكيس فيه خمسة آلاف دينار وكساه حلته تشريقاً له، وأمر له عشرة من رقبى الروم، وحمله على برّون من حاض مراكه . ١ هـ

٤ — الدولة البرمكية والتكة البرمكية

صدق الفخرى إدا يقول : إن دولة البرامكة كانت عرة في جبهه العصر ، وتاجاً على فمق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدت اليها الرحا، ونيطت لها الآمال، وبذلت

لها الدنيا أفلاذ أبادها، ومسحتها أوفر إسعادها، مكان يحيى وبنيوه كالجموم زاهرة،
والبحور زاهرة، والسيول داهية، والقبوت ماطرة؛ أسواق الآداب عندهم نافذة، ومراتب
دوى الحرمات عديم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملحا
اللهيف ومعتصم الطريد، ولم يقول أبو نواس :

سلام على الدنيا إذا ما قدتم * بى برك من راحين وعاد

ويؤخذ من المباحث التاريخية الحديثة للشرقين : أن البرامكة هم أسرة فارسية
أنتجت أول الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظة برك باسم لشخص ، وإنما تدل على
رتبة وراثية خاصة برئيس الكهّان بمصد «نوسار» ببلغ . وكانت البرامكة تملك الأراضى
التابعة للعبد، ويبلغ طولها ثمانية فراع وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعائة
ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية . ويقول
ياقوت : إن قرية « روان » — الكريمة الفنية — وهى شرق بلخ كانت في حوزة يحيى
ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسسكريية : الدير الحديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذى .
وقد وُصف كذلك بواسطة حاج صيني اسمه «هوان شايخ» في القرن السابع للشيخ في كتاب
اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية «ست جوليان» . على أن
هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج
ص ٣٢٢) إذ قرر أن الوهباء كانت محصنة لعباده الأوثان لا النار . وإذا تركا جانباً
بعض المبالغات في وصف ابن العقي، فإننا نجد وصفه مطابقاً للبوذية .

فللاحظ هذه العبادة لأقطاب من زعماء الفرس لعبوا دورا هاما في التاريخ
العباسي . وللاحظها جيدا، فربما أفادتنا في إمطة اللثام قليلا عن عبادات لغثات عديدة
اعتُبرت زنادقة أو مانية أو ملحدين . ومهما كانت هذه الفئات موضع اضطهاد من خلفاء
العصر، فإنه من المبالغة الكتابية التي لا ترضى العلم ولا التاريخ في شيء، ألا يُفهل بها

أولا يشار إليها إشارة طفيفة، اذ لم يكن لدينا من المواد ما يسمح لنا بأن نُفرد لدراسها باباً، كما حفل بها الخلفاء فأوردوا لها إدارة أسموا رئيسها «صاحب الرادقة» .

ولعل أول ذكرٍ لبرمكى حفل به التاريخُ واعتبره مؤسساً لتلك الأسرة البرمكية الى نعت في تلك الأيام الراهية الزاهرة والتي امتدت الى أن آهضت في أيام الرشيد، ونُظرَ اليه باعتباره حذَّ البرامكة، هو خالد بن برمك الذى استورره السفاح بعد أن سلمه الخلال وأبى الحهم . كان خالد بن برمك من رحلات الدولة العباسية، فاصلاً حليلاً كما حارماً بقطعاً، استورره السفاح وخف على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل . إن كل من استورّر بعد أن سلمه كان يُختبأ أن يسمى وزيراً نظيراً مما حرى على أن سلمه، وتقول من قال :

إن الوزير وزير آل محمد - أودى من يتسكك كان وزيراً

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً . كان خالدٌ عظيمَ المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوماً - يا خالد ما رصيت حتى استخدمتني، فعزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأما عبدك وحادمك ! فصحك وقال : إن رِيطة ابني، نام مع ابنتك في مكانٍ واحدٍ، فأقوم بالليل فأحدهما قد سرحَ العطاءُ عنهما، فأردّه عليهما، فقتل خالد يده وقال . مولى يكتسب الأحرى عده وأمتيه .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، وانجعمه الناس . وكان الوافدون يسمون سُؤلاً، فقال خالد : إني أستقبح هذا الاسمَ لمثل هؤلاء، وهم الأشرافُ والأكابرُ، فسأهم الرّؤاء، وكان خالد أول من سأمهم بذلك، فقال له معصم والله ما ندرى أىّ إباديك عدنا أحل، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه شار بن بُرد فقال فيه :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك * وما كل من كان العنى عده يُحدي
جلبتُ بشعري راحتيه فدننا * سمحاً كما دثر السحاب مع الرد
إذا جتته لمحمد أشرق وجهه * اليك وأعطاك الكرامة بالمحمد

له يَسْمُ في القوم لا يستثيبها حراً وكيلاً التاجر المذموم
مُعِيدٌ وَمِتْلَافٌ سبيلُ ثرائِهِ إذا ما عدا أوراخ كالجوز والمذ
أحالةُ ابنِ الحمد يبقَى لأهله حملاً ولا تبقى الكنوز على الكفة
فأطعم وكل من عارة مستردّه ولا تُبْقِها إن العواري للرد

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قل ذلك يعطيه في كل وفاء خمسة آلاف درهم، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان، الأخيران، في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه. وقال أسه يحيى: آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين.

واقعد أشرا في كلبنا عن الهادي إلى ملج إحلاص يحيى بن خالد البرمكي للرئيس في أيام الهادي حينما شرع في حلج هارون من ولاية العهد، وإن الأخبار التي رواها الطبري في سنة سبعين ومائة ماطقة بولاء يحيى وصدق إحلاصه.

ومجدد ما هنا أن تقتطف موقعين كثيرين لمواقف يحيى مع الهادي ذوداً عن الرئيس وحقوق الرئيس، إلهما يعطيا صورة من إحلاص آل برمك للرئيس ومبلغ ما روع به يحيى في سبيل الرئيس.

ذكر أبو حفص الكرماني أن محمد بن يحيى البرمكي حدثه قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلا فليس من نفسه وودع أهله وتحت وطء ثيابه ولم يشك في أنه يقتله؛ فلما أذحل عليه قال: يا يحيى مالي ولك! قال: أما عندك ما أمير المؤمنين، ما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته! قال: فلم تدخل بي وبين أني تصدده علي؟ قال: يا أمير المؤمنين من أنا حتى أذحل بينكما! إنما صيرني المهدي معه. وأمرني بالقيام بأمره، ففقت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتبهت إلى أمرك، قال: ما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئا ولا ذلك فيه ولا عده، قال: فسكن غضبه. وقد كان هارون طاب نفساً بالطلع فقال له يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لي الهنيء والمرئيهما يسعاني وأعيش مع أبنه عمي،

وكان هارون يحبُّ أم جعفر وجداً شديداً، فقال له يحيى . وأب هذا من الخلافة ! ولعلك ألا تُترك هذا في يديك حتى يخرج أجمع، ومعه من الإحالة .

وذكر الكرماني أنبأ عن نحرمة بن عبد الله قال : أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد، على ما أَرَادَهُ عليه من حلح الرشيد، فوضع اليه يحيى رقعة : إن عندى بصيحةً، فدعاه، فقال : يا أمير المؤمنين أخطئ فأحلاه، فقال . يا أمير المؤمنين أرايت إن كان الأمرُ — أسأل الله ألا نلغهُ وإن يقدّمنا قبله — أنطى أن الناس يُستلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم، ويرصون به لصلاتهم ومحبههم وعزهم ! قال والله ما أطى ذلك، قال : يا أمير المؤمنين أفأتمس أن نسمو إليها أهلُك وحلثهم مثل ملاس وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : انتهى يا يحيى . قال وكان يقول . ما كنت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى . قال وقال له لو أن هذا الأمر لم يُعقد لأحييت أو أكان ينبغي أن يعقده له ! فكيف أبى تحمل عَقْدَهُ وعد عمده المهديّ له ! ولكن أرى أن تُقرَّ هذا الأمرُ يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أثبته بالرشيد نلج بهه وكان أوّل من يُبايعه ويعطيه صفقةً بده، فقال : فقبل الهادي قوله ورأيه، وأمر بإطلاقه .

ولما ولي الرشيد الخلافة قلد يحيى بن خالد الوزارة، وقال له : قد قلدتك أمرَ الرعية وأخرجته من عني إليك . فأحكم في ذلك بما ترى من الصواب . واستعمل من رأيت . وأعزل من رأيت . وأمس الأمور على ما ترى . ودفع اليه حاتمته . هي ذلك يقول إبراهيم الموصلي .

لم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها

بين أمين الله هارون ذي السدى * فهارون واليا ويحيى وريرها

وليس في مقدورنا أن نصوّر شخصية يحيى بن خالد بن برمك أحسن من إشارتنا رأيه في الأحلافات، فقد قيل له : أى الأشياء أقل ؟ قال : قاعه دى الهمة العبيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون العيس الى المدح . وقيل له :

ما الكرم" فقال . مَلِكٌ في زِيٍّ مَسْكِينٍ . وقيل له : ما الجود ؟ فقال . عَفْوٌ عَدَّ قَدْرَهُ . وقال مرة : اذا فَتَحَتْ بَيْكَ وَبَيْنَ أَحَدٍ أَبَا مِنَ الْمَعْرُوفِ فَاحْدَرْ أَنْ تُغْلِقَهُ وَلَوْ بِالْكَلِمَةِ الْجَمِيلَةِ . وقال . « أَحْسَنْ حِمْلَةَ الْوَلَاءِ إِصَابَةُ السِّيَاسَةِ ، وَرَأْسُ إِصَابَةِ السِّيَاسَةِ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَفَتْحُ بَابَيْنِ لِلرَّعِيَةِ ، أَحَدُهُمَا رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَبَدَلٌ وَتَحَنُّنٌ ، وَالْآخَرُ غِلْظَةٌ وَمُبَاعَدَةٌ وَإِسْكَالٌ وَمَعِ » .

و يروى لنا "ياقوت الرومي" في "معجمه" عنه : أنه لما كان الفضل بن يحيى والياً على خراسان ، كتب صاحبُ البريد إلى الرشيد كتاباً يذكر فيه : أن الفصل تشاغل بالصيد واللذات عن الطر في أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب واكتب إلى العصل كتاباً يردمه عن مثل هذا ، فمد يحيى يده إلى دواء الرشيد وكتب إلى أنه على طهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد .

"حفظك الله يا يحيى وأمتع بك . قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات ، عن الطر في أمور الرعية ما أنكروه ، معاوذة ما هو أضر بك ، فإنه من عاد إلى ما يزييه لم يعرفه أهل زمانه إلا به والسلام" وكتب تحتها هذه الأبيات :

لَمَصَتْ نَهَاراً فِي طَلَابِ الْعِلَالِ . وَأَصْبَحَ عَلَى فَقْدِ لِقَاءِ الْحَبِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ بَدَأَ مُقْبِلًا . وَعَابَ فِيهِ عَكَ وَجْهَ الرَّقِيبِ
فَادِرَ اللَّيْلِ بِمَا تَسْتَهِي . فَاغْمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ مِنْ مَقَى تَحْسِبُهُ مَسْكَاً . يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبِ
أَلْقَى عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ . فَبَاتَ فِي لَهْوٍ وَعَيْشٍ خِصِيبِ
وَلَذَةُ الْأَحْمَقِ مَكْشُوفَةٌ . يَسْمَى بِهَا كُلُّ عَذْوٍ مَرِيبِ

هذا هو يحيى الذي يقول عنه المأمون : «لم يكن كيعبي بن خالد وكولده أحد في البلافة والكفاية والجود والشجاعة» . وهذا هو يحيى الذي كان يُعْرِى على سفیان الثوري رضي

الله عنه ألف درهم في كل شهر ، فكان اذا صلب سعيان يقول في سجوده : « الله إن يحيى كفاني أمر دنياي فاكفه أمر آخرته » .

هذا ، واذا علمت أن أم الفضل بن يحيى ، وهى زينب بنت ميمون ، كانت ظنرا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزران . والدة الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعت أن تعدد الى أى مدى كانت علاقته الرشيد بآل برمك ، وهو لم يدرج في مهده ، ولم يعرف بين أميه ويومه .

ونجد في أخبار سنة ست وسعين ومائة أن الرشيد ولّى الفضل بن يحيى كُور الجبال وطبرستان وثنائند وقومس وأرمينية وأذربيجان ، ونذبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبي حين خروجه بالديلم ، فوفق الفضل لأخذ أمان له من الرشيد وأصلح أيتما لإصلاح ونجح النجاشي كله في غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو ثامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقي وقبله . يوم أمخ به على حاقان

ما مثل يوميه اللذين تواليا . في عزوتين تواليا يومان

سد الثغور ورد ألفة هاشم . بعد الثبات فثعبا متدار

عصمت حكومته جماعة هاشم . من أن يحسرد بينها سعيان

تلك الحكومة لا التي عن ليسها . عظم الباء وتفزق الحكمان

فأعطاه الفضل مائة ألف درهم وخلص عليه .

ونجد في أخبار السيرة نفسها أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التي بين التزارية والإيمانية ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها ، فهداه الشمراء . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشام هيجا . يُسبب رأس وليده

فصّب موسى عليها . بخيله وجوده

فدانت الشام لها . آتى نسيج وحيد

هو الخوادم الذي نَدَّى كُلُّ حُودٍ بِحُودِهِ
 أعداء حُودٍ أَبِيهِ - يَحْيَى وَحُودٌ جُدُودِهِ
 حَمَادٌ مُوسَى بْنِ يَحْيَى طَارِفٌ وَتَلِيدُهُ
 وِثَالٌ مُوسَى دُرَى الْحَدِّ - يَدٌ وَهُوَ حَشَوُ مُهُودِهِ
 حَصْمَتُهُ بِمَدْيَنِي - مَثُورُهُ وَقَصِيدُهُ
 مِنْ الْبَرَامِكِ حُودٌ - لَهُ فَكْرٌ بِمُودِهِ
 حَوَّاهُ عَلَى الشَّعْرِ طَرًّا - حَيْمَةُ وَمَدِيدُهُ

وقد مدحه مثل ذلك اسحاق بن حسان الخرمي .

ويقول الطبري في أحوال سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوض أموره كلها إلى يحيى
 ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شيوخ الفصل بن يحيى إلى خراسان والياً عليها ، فأحسن
 السيرة بها ، وسى بها المساحد والرماطات ، وعزها ما وراء الهر ، فخرج إليه حارث بن ملك
 أشروسة ، وكان ممتنعاً . وقد مدحه مروان بن أبي حمصه وغيره بقصائد عديدة ، وقد ذكر محمد
 ابن العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب في قديمته تلك على الفصل سبعمائة ألف درهم .

وقد مدحه سلم الخاسر فقال .

وكيف يحاف من رؤس بدار تكفيها البرامكة الحور
 وقوم منهم الفصل بن يحيى - ميرما يواز به نفي
 له يومان يوم ندى وأيس - كانت الدهر بينهما أسير
 إذا ما البرمكي عدا ابن عشر - يهتته وزير أو أمير

واسطر إلى مكانة الفصل وآل برمك من الرشيد ، فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري
 يحدثنا أنه لما قدم الفصل بن يحيى من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله ،

وتلقاه بوهاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف، جعل يصل الرجل بألف الألف
ومئة ألف . ومده مروان بن أبي حفصة فقال .

حَدِّثْنَا الْهَيْدَى أَدَّى أَبْنِيَّ مَا ضَبَحَتْ بِمَقْدَمِهِ تَحْرَى لَهَا الطَّيْرُ أَشْعَدَا
وَمَا تَهَمَّتْ حَتَّى رَأَتْهُ عِيُونُنَا وَمَا زَلَّ ، حَتَّى آتَ . وَالْذَّمُّ حُشْدَا
فِي عَمْرِائِ الْعَدُوِّ كَمَا نَفَى . تَحْمَى الصَّبْحُ جَلْبَابَ الدَّبِي فَنَمُودَا
لَقَدْ رَاحَ مِنْ أَمْسِي تَمَرُوسِيْرُهُ . إِلَيْهَا وَقَالُوا شَمُّهَا قَدْ تَنُودَا
عَلَى حَيْرٍ أَلْقَى قَفْلَ كُلِّ ظَلَامِيْهِ . وَأَطْلُقْ بِالْعَمْرِ الْأَسِيرَ الْمُقِيدَا
وَأَفْتِنِيْ بِلَا مَنٍّ مَعَ الْعَدْلِ فِيهِمْ . أَبَادَى حُرُوفِ بَاقِيَاتِ وَعُودَا
فَأَدْبَعَ رُوعَابِ الْمَخَافِيفِ عَنْهُمْ . وَأَضْرَعَ أَعْيَ الْأَمْنِ فِيهِمْ وَأَوْرَدَا
وَأَجْدَى عَلَى الْإِيْتَامِ فِيهِمْ مُرَبِّهِ . فَكَانَ مِنَ الْآثَاءِ أُخْتَى وَأَعُودَا
إِذَا النَّاسُ رَامُوا غَايَةَ الْعَصْلِ فِي الْهَدَى . وَفِي النَّاسِ أَلْفُوهَا مِنَ الْجَمِّ أَعْدَا
سَمَا صَاعِدَا بِالْعَصْلِ بِحَيْ وَحَالِدٍ . إِلَى كُلِّ أَمْرٍ كَابِ أَسَى وَأَعْدَا
يَلِيْنُ لِيْنٍ أَعْطَى الْخَلِيْفَةَ طَاعَةً . وَيُسْقَى دَمَ الْعَاصِيِ الْأُسَامَ الْمُهْدَا
وَشَدَّ الْقَوَى مِنْ تَبِيْعَةِ الْمُصْطَلَى الَّذِي عَلَى مَصْلِهِ عَهْدُ الْخَلِيْفَةِ قَدْ دَا
سَمِيَّ النَّبِيِّ الْفَاتِحِ الْخَاتَمِ الَّذِي . بِهِ اللَّهُ أَعْطَى كُلَّ حَيْرٍ وَسَدَا
أَبْجَتْ جِبَالَ الْكَأْبِلِ وَلَمْ تَدْعُ . بِهِ لِسِرَانِ الصَّلَاةِ مُوقَدَا
فَأَطْلَقَتْهَا خَيْلًا وَطَرْنَ حَوْمَهُ قَتِيلًا وَمَأْسُورًا وَقَلًا مُشْرَدَا
وَعَادَتْ عَلَى ابْنِ الْبَرَمِ مَعَاكَ مَدْمَا . تَحْوِبَ مَحْدُولًا يَرَى الْمَوْتَ مُفْرَدَا

وفي أخبار رسة ثمانين ومائة، هاجت العصبية بالشام، وتفانم أمرها، واعتم الرشيد
بذلك، فمعد للجمع بن يحيى على الشام، وقال له . إيا أب تخرج أنت أو أرحح أنا ،
فقال له جدهم : بل أفيك رمسى . وشخص بهم جدهم في حلة القواد والكراخ والسلاج،

فأصلح بينهم، وقتل زواجيلهم والمتلصصة منهم، فسادوا الى الأمن والطمانينة، وأطعوا تلك
الثائرة . وقد مدحه مصور النرى بقصيدة مطلعها :

لقد أوقعت بالشام سرانٍ فيه * فهذا أوانُ الشام تُغمدُ نازها
إذا حاش موجُ الحرمن آل ريمك * عليها خبتُ شهبانها وشرارها

ولما عاد جعفر موقفاً من سفرته هذه، وقد استحل على الشام مكانه عيسى بن
العكي، دخل على الرشيد فزاده إكراماً وإجلالاً .

وأما لسفل لك هما ما قاله جعفر للرشيد، حين مثَّلَ بين يديه، لأنه يُعتبر أثراً قيماً من
ناحية تحليل نفسيّة الطرفين، ولزوّجه وبلاغته في أدب العصر، ولأنه في الوقت نفسه بمثابة
نص تاريخي للعصر الذي نلُزمه .

قال الطبري : لما دخل جعفر على الرشيد قَلَّ يديه ورجليه، ثم مثَّلَ بين يديه فقال :
الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آتس وحشني، وأحباب دعوتي، ورحم تصرعي، وأنساً
في أحلى حتى أراى وجهَ سيدي، وأكرمنى بقربه، وأتمنّ على بتقيل يده، وردنى الى
جِدنته، فوالله إن كُتُّ لأذكر عبيق عه ومحرجى، والمقادير التى أزعجتنى، فأعلم أنها كانت
بمعاصي لحقتى، وحطايا أحاطت بى، ولو طال مُقامى عكّ يا أمير المؤمنين، جعلنى الله
هداك، خلفت أن يذهب عقلى، إشفافاً على قريك، وأسفاً على فراقك، وأن يُعجل بى عن
إدراك الاشتياؤ الى رؤيتك . والحمد لله الذى عصمنى في حال الغيبة، وأمتنى بالعافية،
وعرّمنى بالإحابة، ومكّنّى بالطاعة، وحال بينى وبين استعمال المعصية، فلم أشخص إلا عن
رأيك، ولم أقدم إلا عى إذك وأمرِك، ولم يخترمنى أجلٌ دونك، والله يا أمير المؤمنين،
ولا أعظم من الجيم بالله، لقد عايشتُ ولو تُعرّص لى الدنيا كلها، لاخترت عليها قربك وكنا
رأيتها عوصاً من المُقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام : إن الله
يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكَ في خلافتك، بفدر ما يعلم من نيتك، ويُريك في رعيك، غايةً

أمنيتك ، فيصلح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويلم شعبتهم ، حفظاً لك فيهم ، ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاحتصام بحبل مرصاتك . والله المأمودُ على ذلك ، وهو مستحقه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كور الشام وهم مفاهون لأمرك ، يادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، محسكون بحبلك ، نازلون على ححكك ، طالبون لمعوك ، واثقون بحملك ، مؤقلون فصلك ، آمنون بأدركك ، حالمون في اتلاهم كالحلم كانت في احتلامهم ، وحالمون في ألفتهم كالحلم كانت في امتاعهم . وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتغذته لهم سابق لمذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدمٌ عنده لمساكنهم . وآيم الله يا أمير المؤمنين لئلا كنت قد شغصت عنهم ، وقد أحمد الله شرارهم وأطاع نارهم ونفى مراقهم وأصلح دهماءهم وأولاني الجميل فيهم ورزقني الانتصارَ منهم ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمك وريحك ، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتحققهم منك ورحانتهم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقمست اليهم إلا بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمرك ، ولا سرتُ فيهم إلا على حد ما مثلت لي ورسمته ، ووقفتني عليه . والله ما أقادوا إلا لدعوتك وتوحيده الله بالصبح لك ، وتحققهم من سطوتك . وما كان الذي كان مني ، وإن كنت قد بذلت جهدي وبلغتُ مجهودي ، قاضياً ببعض حقلك على ، بل ما ازدادت بعنتك على عظمي إلا ازددتُ عن شكرك عمراً وصعفاً . وما خلق الله أحداً من رعيته ، أحد من أن يطمع نفسه في قضاء حقلك مني ، وما ذلك إلا أن أكون نادلاً مُهيجاً في طاعتك ، وكل ما يقرب إلى موافقتك ؛ ولكنني أعرف من أياديك حسدى ما لا أعرف مثلاً عند غيري ، فكيف بشكري وقد أصبحتُ واحد أهل دهرى فيما صمته في وبى ! أم كيف بشكري وإعما أقوى على شكرك يا كرامك إياي ! وكيف بشكري ولو جعل الله شكرى في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدى ! وكيف بشكري وأنت كهى دوى كل كهف لي : أو كيف بشكري وأنت لا ترصى لي ما أرساه لي ! وكيف بشكري وأنت تجتد من سمك عندى ما يسفرق كل ما سلف عندك لي ! أم كيف بشكري وأنت تُيسى ما تعلم من إحسانك بما تُحدثه لي :

أم كيف بشكرى وأنت تُقدسى بملوك على جميع أكفانى ! أم كيف بشكرى وأنت ولّى !
 أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ' وأنا أسأل الله ، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق
 له ، إذ كان الشكر مُقَصَّرًا عن تأدية نصيبه ، بل دون شعص من عُشر عشيره ، أن يتولى
 مكافأتك عى ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن قصى عنى حَقك وحليلَ منك ، فإن ذلك
 بيده وهو القادر عليه ” .

و أبحار ستة ثمانين ومائة مِصْبَا وَلَّى الرشيدُ جعفر بن يحيى الحرَّس . وهكذا تحد
 فى أخبار كلِّ سنة سَأَى آل برمك ، وتعدّاحًا لآل برمك وأثرًا حليلًا فى خدمة الدولة من
 آل برمك ، ومكافئة سامية نَوَّأها آل برمك من الرشيد .

وإما لا نرى ندحة من إيراد واقعه حال رواها العجريت بين جعفر بن يحيى البرمكى
 وعند الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قمامة وأبسه عند الرحمن عبد الرشيد تهمه طلبه
 الخلافة لنفسه ، حتى حبسه الرشيد عند الفصل بن الربيع ، وهو منافس لآل برمك ، وكثيراً
 ما سعى الساعون من صالح والرشيد . فإذا ما تمزق البرمكيون بالخير لرحل من كبار
 رحالات الدولة ، المتهمين بالتطلع الى الخلافة ، وإذا ما صحح البرمكيون إيصال الخير لهم ،
 وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم ، كان فى ذلك أصدق دليل على مكاتبتهم الربيعية من الرشيد ،
 فما مالك إذا ما وصلوا الى آبى بنى أحد أولاد صالح على إحدى سنات الرشيد ، وإذا
 ما اقتطعوا له الولايات ورددوه بأجرل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لاس طاحناً لبعض عليك ما يرويه فيما نحن فى صدره — قيل : إن
 جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوماً للشرب ، وأحب الخلو ، فأحضر ثدياه الدين يأس
 بهم ، وجلس معهم وقد هُمَّى المجلس وأيسوا الثياب المصبغة ، وكانوا إذا حاسوا فى مجلس
 الشراب واللغو ، لبسوا الثياب الحرَّ والصفَر والخضر . ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم الى
 الحاجب ألا يادن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الدماء كان قد تأخر عنهم
 اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ، ودارب الكاسات ، وخفقت العيذان ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوفا والدين والحشمة، وكان الرشيد قد التمس منه أن يادّمه ويشرّبه معه، وبذل له على ذلك أموالاً خفيفة فلم يفعل، فأتى أن عبد الملك بن صالح حصر إلى ما بين جعفر بن يحيى ليحاطه في حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدّم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجب له، فدخل عبد الملك ابن صالح السامى على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عمله يذهب من الحياء، وطمع أن القضية قد اشتهت على الحاجب، فطرق آتياً الاسم، وطمع عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة وطمع له المحل في وجه جعفر بن يحيى، فاستطاع عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحصروا لنا من هذه الثياب المصنعة شيئاً، فأخبر له قبض مصوغ، فلبس وحلّس بإسطة جعفر بن يحيى وبمازحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقوه وطلا وقال آرقوا سا فليس لنا عادة بهذا، ثم اسطهم وبمازحهم، وما زال حتى انسط جعفر بن يحيى وزال انقاضه وحياءه، فخرج جعفر بذلك مرعاً شديداً وقال له: ما حاجتك؟ قال: حئت، أصلحك الله، في ثلاث حوائج أريد أن تحاطب الخليفة فيها. أولها أن على دسا مبلغه ألف ألف درهم أريد قصاه، وثانيها أريد ولاية لأبى يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدى بابي الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها، فقال له جعفر بن يحيى: قد قصى الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال هي هذه الساعة يُحل إلى منرك، وأما الولاية فقد وليت أهلك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة أبة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فأشهر في أمان الله. فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المال قد سقه، ولما كان من الغد، حصر جعفر عبد الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوجه ابنته، فحجب الرشيد من ذلك، وأمضى العقد والولاية، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتِبَ له التقليد بمصر، وأحصر المضاة والشهود وعقد العقد.

أرايت كيف لم ينقص الرشيد ما أبرمه جعفر في مسألة خطية الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسر الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة !!

أليس في ذلك ما يقطع ربيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى منزلتهم ، عند الرشيد وفى الدولة التى هم معزج رجالها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يعوتك فى المثل المتقدم ، ما جاء فيه حصا بالملايس فإنه قد يعطيك فكرة ما عن تخصص بعضنا للسهرات والردعات والمادامات مما لا يختلف عن نظام اليوم من « ردينجوت » و « سموكيج » و « فراك » الى غير ذلك مما بدل على مبلغ الثروة واستعمال أصر المدنية ، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات ، فتأمل !



ربما تطلب الى مثالا على حودهم وساق الناس بهم ، فأملك ، أرشدك الله ، أن كنت الأدب مُتَرَعَّةً بالثبات من ذلك ، فلا مبالغة ولا علو ولا تهويل ولا إغراق .

وسترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسحاق الموصلى ، والآخر الانليدى .
فما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمدر بن المغيرة . وأنا نكتى بإيراد هذين المثليين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُئِلَتْ عليه بقوسهم من المروءة وتُعد الهمة وحب الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلى فتفصيل الخبر فيها أن العصل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكنى وعلوية ومخارقا للاجتماع عنده ، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصة متضعصة ، فلما اجتمعوا عنده كتب الى إسحاق الموصلى يسأله أن يصير اليه ، ويُسَلِّمَ الحال فى اجتماعهم عنده ، فكتب إسحاق اليهم بمصوره ولكن جامهم متاخرا ، وكان علوية يعنى فاحطا ، فقال له إسحاق : أخطأت ، فعصب علوية وعاتبه بكلام طويل ، ومعه قوله له : إنه من صنعة البرامكة ، فقال إسحاق : أما البرامكة وملازمتى لهم فأشهر من أن أحمده ، وإنى لحقيق فيه بالمعذرة ، وأخرى أن أشكرهم على صنيعهم وأن أديعه وأشهره ، وذلك واقف أقل ما يستحقونه منى . ثم أقبل على العصل ، وقد عاطفه مدحه لهم ، فقال : أنسمع منى شيئا أحبك به مما فعلوه ، وليس هو كبير فى صنائعهم عدى ولا عد

أبي قبل * فان حدثت لي عذرا وإلا فم * كست في استداء أمرى نازلا مع ألى فى داره ،
فكان لا يزال يجرى بين علمائى وعلمائه وحوارى وحواريه المخصوصه ، كما يجرى بين هذه
الطقات ، فيشكونهم اليه ، فأتين الصجر والسكر في وجهه ، فاستأجرت دارا قربه ، وانتقلت
اليها أما وعلمائى وحوارى ، وكانت دارا واسعة ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن
يدخل الى من إخوانى أن يروا مثله عدى ، فمكرت في ذلك وكيف أصعب ، وزاد فكرى
حتى خطر قلبي قبج الأحذوية من زول مثل في دار أبجرة ، وإنى لا آمن في وقت أن
يستأذن على ، وعدى من أحشمه ولا يعلم حالى ، فيقال صاحب دارك ، أو يوحه وقت
فيطلب أبجرة الدار وعدى من أحشمه ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى حاوَز
الحذ ، فأمرت علمائى بأن تخرج لى حمارا كال عدى لأميى الى الصحراء ، أخرج بها مما
دخل على قلبي ، فأمرته وركت برداء وعل ، فأصغى الى المسير ، وأما مكر لا أمر الطريق
الى أسلك بها ، حتى هم بى على باب يحيى بن خالد ، فتائب علمائه الى وقالوا : أين هذا
الطريق ، فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأدوا لى ، ورحح الحاح فأمرنى بالدخول ،
وقيت تجملا قد وقع في أمرين ماصين : إن دخلت اليه برداء وعل وأعلمته أنى قصده
فى تلك الحال كان سوء آدب ، وإن قلت له كست مجتارا ، ولم أقصده ، بفعتك طريقا ، كان
قيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلما رأى تسم وقال : ما هذا الزى يا أما محمد * احتبسنا
لك مالب والقصد والتعقد ثم علمنا أنك جعلنا طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدى ، ولكنى
أصدقتك ، قال : هات ، فأخبرته القصة من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حق مستو أهدا
شغل قلبك * قلت : لى والله ، وزاد فقال : « لا تشغل قلبك هدا ، يا غلام ردوا حماره ،
وهانوا له حلة » ، فجاءونى بحلة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا الطعام فأكلت ، ووضع البيد
فشربت وشرب فميتته ، ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقمة وكتب أربع رفاع طنت بعضها
توقعا لى بجانزة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاق وساره بشئ فزاد طمعى
فى البجانزة ، ومضى الرجل وجلسا لشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، ففعلت وأنا مسكرٌ حائب، نهرحتُ وقُدِّم لي حارِي، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لي غلامي:
 الى أين نغى؟ فقلت: الى البيت، قال: قد والله يبعثُ دارُكَ وأشهدُ على صاحبها
 وأبيعُ الدرَّ كله ووُوزَنَ ثَمُّه، والمشتري حالسٌ على مالك يتنظرُك ليعزفك، وأظله اشترى
 ذلك للسلطان، لأى رأيتُ الأمر في استعماله واستحاثته أمرًا سلطانيًا، ففعلتُ من ذلك
 فيما لم يكن في حساني، وجئتُ وأما لا أدري ما أعمل، فلما نزلت على باب دارى اذا أنا
 بالوكيل الذى سازه يميى قد قام الىّ، فقال لي: ادخل أَيْدِكَ الله دارُكَ حتى أَدْخَلَ الى
 محاطبتك في أمر احتاج اليك فيه، فطاب نفسى بذلك، ودخلتُ ودخل الىّ فأقرأنى
 توقيع يميى: يُطْلَقُ لأبى محمد إسماعيل بمائة ألف درهم يُتَّاعُ له بها دارُه وجميعُ ما يحاورُها
 ويلاصقُها، والتوقيعُ الثانى الى ابنه الفصل: قد أمرتُ لأبى محمد إسماعيل بمائة ألف
 درهم يُتَّاعُ له بها دارُه، فأُطْلَقَ اليه مثلُها ليُفَقِّها على إصلاح الدار كما يريد وبائِها على
 ما يشتهى. والتوقيع الثالث الى حمزة: قد أمرتُ لأبى محمد إسماعيل بمائة ألف درهم
 يتَّاعُ له بها منزلٌ يسكنه، وأمر له أحوك بدفع مائة ألف درهم يفعها على بابِها ومزقتها
 على ما يريد، فأُطْلَقَ له أنت مائة ألف درهم يتَّاعُ بها فرشا لمنزله. والتوقيع الرابع الى
 محمد: قد أمرتُ لأبى محمد إسماعيل أما وأحواك بثلاثمائة ألف درهم لمزل يتَّاعه ونصفه ينفقها
 عليه وفرش يتدله، فمُرَّ له أنت بمائة ألف يصرفها في سائر مهنته. وقال الوكيل: قد حملتُ
 المال واشتريتُ كلَّ شئ، ساورك بسبعين ألف درهم، وهذه كتب الالباعات باسمى
 والإقرار لك، وهذا المال بورك لك فيه فأقبضه؛ فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالا من
 أبى في منزلى وفرشى وآلتى، ولا والله ما هذا ما كبر شئ، فعلمو لي، أألاام على شكر هؤلاء!
 فبكى الفصل بى الربيع وكلُّ من حصره، وقالوا: لا والله لا نلأم على شكر هؤلاء!

أرأت الى أى مدى بلغت مكانة البرامكة من رجالات العصر وأدبانه، حتى تملَّكوا
 من القلوب أعنتها، ومن النفوس أزقتها، وكيف استعبدوا على السُّوداء والمهج، ولم
 لمجيت الألسنة بمجداهم والإشادة بذكورهم!

أما حديث المأمون والمعزة بن المسنر الذي رواه لنا الاتليديّ فهاكه محداً : قال
 خادم المأمون : طلى أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : حد معك فلانا
 وفلانا ، سماها لي . وأحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، وأدعت مسرعاً لما أقول لك ،
 فإنه بلغني أن شيحا يحضر ليلاً الى آثار دور البرامكة ويُنشدُ شعراً ويدكُرهم ذكراً كثيراً
 ويُدبهم ويكي عليهم ثم يصرف ، فأصص أنت وعلى ودبار ، حتى تردوا تلك الخمرات ،
 فاستتروا خلف بعض الجُدُر ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء ونكى وندب وأنشد أبياتاً ، فأنوني
 به . قال . فأحدنهما ومصبا حتى أينا الخمرات ، فإذا نحن علام قد أتى ومعه بساطٌ وكري
 حديد ، وإذا شيخ قد أتى وله جلالٌ وطيه مهابةٌ ولطفٌ ، يجلس على الكرسي ويجعل يكي
 ويتصب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأيتُ السيفَ حذَلْ جمعراً * وبأدى مبادٍ لطيفه في يمي
 صكبتُ على الديار زاد نأسي عليهم وقلت الآن لا تنع الديار

مع أبيات أطالها . فلما ورع قصصاً عليه وقلنا له : أحي أمير المؤمنين ، فزعزع فزعاً
 شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصيه ، إني لا أوقن بعدها عياده ، ثم تقدم الى بعض
 الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيةً وسلمها الى علامه . ثم سرّاً ، فلما مثل
 بين يدي أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ ومما استوجبت منك البرامكة ما فعله
 في خرائف دُورهم . قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أياديَ حصرةً عدى ، أتأذن
 لي أن أحدثك بحالي معهم ؟ قال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المدر بن المغيرة من
 أولاد الملوك ، وقد زالت عني معنى ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركني الدين واحتجحت الى
 بيع ما على رأسي ورموس أهلي ، وبقى الذي ولدت فيه ، أشاروا علي بالخروج الى البرامكة ،
 فخرجتُ من دمشق ومعي ثلاثون رجلاً وبيفٌ من أهل وولدي ، وليس معاً ما يباع
 ولا ما يوهب ، حتى دخلنا مضافاً ونزلنا في بعض المساجد ، فدهوتُ ببعض ثياب كنت
 أهديتها لأستتر بها ، فلبستها ونرجت ، وتركتم جياً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع

فقداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد من حريف، وفي جانبهِ شيخٌ بأحْسَى زِيٍّ وزيْنَةٍ،
وعلى الباب خادمان، وفي الجامع جماعةٌ حلوسٌ، فطعمت في القوم، ودخلت المسجد وحلست
بين أيديهم، وأنا أقدم رحلاً وأقنر أخرى والعرق يسيلُ متى لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم
قد أقبل ودعا القومَ فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، وإذا يحيى
جالس على دكة له وسط ستانٍ، فسلمنا وهو يعدُّ مائةً وواحداً وبين يديه عشرةٌ من ولده،
وإذا بمائةٍ واثني عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار،
فوضعوا بين يدي كل رجلٍ صينيته، فرأيتُ القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم،
ويجمعون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأثول فالأثول، حتى بقيت وحدي لا أحسرُ على
أخذ الصينية، فغمزني الخادمُ بهسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي،
وقتُ وحملت ألتقت ورائي حافة أن أمتع من الذهب، فوصلت وأنا كذلك الى صحن
الدار ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: اثنتي بهذا الرجل: فأتاه بي فقال: مالي أراك تتلفتُ
يميناً وشمالاً؟ فقصصْتُ عليه قصتي، فقال للخادم: اثنتي بولدي موسى، فأتاه به، فقال:
يا يحيى هذا رجلٌ عريب، نخذه اليك، واحفظه بمسك وعمتك، فقبص موسى ولده على
يدي، وأدخلني الى دار من دورهِ، فأكرمني غايةَ الإكرام، وأتت عده يومى وليتي في الدَّ
عيش وأنم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا
الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فاقبضه اليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني
غايةَ الإكرام، ثم لما كان من الغد تسألني أخوه أحمد. ثم لم أزل في أيدي القوم يتبادلوني
مدة عشرة أيام، لا أعرف خبرَ عيالي وصبيانى أفى الأموات هم أم في الأحياء!، فلما كان
اليومُ الحادى عشر جاءني خادمٌ ومعه جماعةٌ من الخدم فقالوا: قم فانحرج الى عيالك بسلام،
فقلت: واويلاه! سُلِّيت الدنانير والصينية وأخرجُ على هذه الحالة! لما لله وأنا اليه راجعون!
فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادمُ الستَ الأخيرَ قال لى: مهما
كان لك من الخوايج فارفعها الى، فإني مأمور بقضاء جميع ما أمصرف به، فلما رُفِعَ الستُ

الأخير، رأيتُ حجرة كالشمس حساً ووراً، واستقبلني منها رائحةُ الدِّ والعود ونفحاتُ المسك، وأنا صبياني وعيالي يتقلدون في الحرير والديساج، وحمل الـ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، ومفشور بصيغتين وتلك الصيغتين التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقيمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاثَ عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما حلّتهم البلية، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل، أجهضني عمرو بن مسعدة، وأزمنى في حاتين الصبيغتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل على الدهر كنتُ في آخر الليل أقصدُ خرابات دورهم، فأنبئهم وأذكروا حسنَ صلحهم الـ وأني على إحسانهم، فقال المأمون : على عمرو بن مسعدة ! فلما أتني به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال : كم ألزمته في صيغته ؟ قال : كذا وكذا ؛ فقال له : ردّ إليه كل ما أخذت منه في مدته وأفرغهما له، ليكونا له ولعقبه من بعده، قال : فعلا نجيب الرجل، فلما رأى المأمون كثرة نكاته، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك ما ينبغيك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنيع البرامكة ! لو لم آت خراباتهم فأنكبهم وأنبئهم حتى اتصلتُ بغيري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل، من أين كنتُ أصل إلى أمير المؤمنين ! قال إبراهيم بن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعَتْ عيناه وظهر عليه حره، وقال : « لعمري هذا من صنائع البرامكة فليعلم فإني، وإياهم فاشكر، ولم أقاوم، وإحسانهم فاذا كر » .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكرم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبلاغة والجلود والشجاعة ؛ قال القاضي : فقلت يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والساحة فتعرفها فيهم، فغيس الشجاعة ؟ فقال : في موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند .



مكانة عالية ملا ريب مكانة آل رمك، وسلطان لا حد له سلطانهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصوله وعود قويل في دولة الرشيد، ها الذي يا ترى غير قلب الرشيد عليهم حتى نكهم *

لندكر ما يقوله المعاصرون ومُقت عليه بكلمة هادئة حكيمة لاس حلون .

أما بَحْتِشُوعُ الطيب المأمون، فانه يقول نقلا عن أبيه حبريل : إنه لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إدد، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، ردّ عليه ردّا صعباً، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر . قال : ثم أقبل على الرشيد فقال : يا حبريل يدخل عليك وأنت في معرك أحد بلا إددك ! فقلت : لا ولا يطمع في ذلك، قال : ها بالآ يدخل علينا بلا إدد ! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قد منى الله قتلك، والله ما انتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به دكري، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجزأ حيا وحيا في عص إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإد قد علمت هاى أكون عده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك، قال : فاستحيا الرشيد، وكان من أرق الخلاء وجهها، وعيابه في الأرض ما يرض اليه طرفه، ثم قال : ما أردت ما تكره ولكي الناس يقولون، قال حبريل فظننت أنه لم يسع له جواب يرتضيه، فأحاب بهذا القول، ثم أمسك عه وخرج يحيى .

أما أحمد بن يوسف كانت عصرنا المأمونى الباهة، فانه يتحدثنا عن ممامة بن أشرس حديث سبقه لك . وقيل إيراد هذا الحديث نوذ أن نذكرك أن محمد بن الليث الذي سيرد فيه هو محمد بن الليث الذي اختاره المهدي كاتبا للسر في مجلس مشاورته لتدبير رأى في حرب نخراسان، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثبات مقاتلهم في كتاب .

وربما كان من المعيد أن يزيد القارئ محمد بن الليث معرفة ، لا لأنه من رحلات
عصرنا ومن ذوى الأثر الادبى القيم فيه ، ولا لأنه صاحب تلك الرسالة الشائقة التى بُعثَ
بها من الرشيد الى ملك الروم التى أشتهاها و المجلد الثانى من هذا الكتاب ^(١) ، بل لأنها نرى
فى توصيحه قدره توصيحا لقدرة البرامكة ، ولأنك حينما نرى الرشيد يقص على محمد بن الليث
بسبب البرامكة وكرامتهم ومزلتهم من نفسه ، لنصحه له بأن يضع حدا لاستفحال شأن
البرامكة ، وللرجل قدره ومنزلته ، تستطيع أن تتصور تصورا صحيحا مكانة البرامكة من
الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشيد أطلق
محمد بن الليث من حبسه واعتدله قبيل نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم اذا مقدار التحول
الذى نال نفسية الرشيد .

سنرى فى مشاورة المهدي ^(٢) التى ذكرها ابن سعد ربه و المقدره التى أشتهاها لك و المجلد
الثانى أن محمد بن الليث يتكلم و المجلس — وكان الرشيد بلا شك ولى العهد — كلاما
يرضى الرشيد . اذا فمحمد بن الليث كاتب الى جانب وظيفته كامويس لمجلس المشاورة ،
صاحب رأي و مجلس الاستشارة نفسه يُعْتَدُّ به . فهو ذو شخصية عظيمة من ذوى شخصيات
الدولة الذين لكلامهم حطره ولقولهم أثره .

قال : أول ما أكره يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رجع رسالة الى الرشيد
سخطه فيها ، و يذكر أن يحيى بن خالد لا يحب عك من الله شيئا ، وقد جعلته فيما بينك وبين
الله ، فكيف أنت اذا وقعت بين يديه ، سألك عما عملت و عبادته و ملاده ، فقلت : يارب
إلى استكفيت يحيى أمور عبادك ، أنراك تحتج بحجه يرصى بها ! مع كلام فيه توبيخ و تعريض ،
فدعا الرشيد يحيى ، وقد تقدم إليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : نعم ،
قال فأبى الرجال هو ؟ قال : منهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يهتمون فى الدين —
فأمر به الرشيد فوضع فى المطبق دهره . فلما شكر الرشيد للبرامكة ، ذكره فامر بإخراجه

فَأُحْضِرَ، فقال له بعد محاطة طويلة: يا محمد، أَمْحَى؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ قال: تقول هذا!! قال: سم وصمت في رجل الإِكَّالِ وَصَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْعِيَالِ، بلا ذنب أَتَيْتُ وَلَا حَدِيثٌ أَحْدَثْتُ، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويعبثُ الإِلْهَادَ وأهله، فكيف أُجِبَكَ!! قال: صدقت، وأمر ما طلاقه؛ ثم قال: يا محمد أَمْحَى؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولعلكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يُعْطَى مائة ألف درهم فَأُحْضِرْتُ؛ فقال: يا محمد أَمْحَى؟ قال: أما الآن فعم! قد أَسَمْتُ عَلَى وَأَحَسْتُ إِلَى؛ قال: اِسْتَقَمَ اللهُ مِنْ طَلَمِكَ وَأَحَدَكَ بِحَقِّكَ مِنْ سَتْنِي عَلَيْكَ، قال ثَمَامَةُ: فقال السَّاسُ في البرامكة فأكثرُوا، وكان ذلك أَوَّلَ ما طهر من تَغْيِيرِ حَالِهِمْ.

هَذَا حَدِيثٌ مَعْدُ ذَلِكَ *

حدث — كما يحبرها أحدُ المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبي جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دار الرشيد في الآوَةِ التي نحن في صددِها، فقام الغلمانُ إليه احتراماً وإحلالاً، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرور الخادم: مَرِ الغلمانَ آلا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار! قال: فدخل فلم يَقم له أحدٌ فَارْبَدَ لَوْنُهُ، قال: وكان الغلمانُ وانحَنَوا مُعْدَاً إذا رَأَوْهُ أَعْرَصُوا عَهُ، قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو ضربه فلا يسقونه، والحرى إن سَقَوْهُ أن يكون ذلك بعد أن يدعوا بها مرارا.

ولننظر في سبب آخريويه لنا أحدُ المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد البزدي، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى فغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تُصَدِّقْهُ، وذلك أن الرشيد دَعَى يحيى إلى حفرة لحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالي، فسأله عن شيء من أمره فأجاب به، إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك عَدَاً مَحْدَاً صِلَ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوالله ما أحدثتُ حدثاً، ولا آوَيْتُ محدثاً؛ ففرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله؛ قال: وكيف أذهبُ ولا آمن أن أُوَحَّدَ بعد قليلٍ فَأُرَدَّ إِلَيْكَ أَوْ إِلَى ضَرْكَ! فوجهه معه من أذاه إلى مأمنه. وبلغ الخبرُ الفضل بن الربيع من حين

كانت له عليه من حاص حدمه، فبلا الأمر فوجدته حقا وانكشف عده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بجبره، وقال : وما أنت وهذا ! لا أُمُّ لك ! فملل ذلك عن أمرى ! فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالفداء فأكلا، وجعل يلقمه ويمحذته، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكل، قال : بحياتى؟ فأحجم جعفر، وكان من أدق الخلق دعاء وأصحهم فكرا، فهجس فى نفسه أنه قد علم شئ من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عده، قال : يتم ما فعلت، ما عدوت ما كان فى نفسى، فلما خرج أتبعه بصره، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتل الله بسيف الهدى على عميل الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، وتذكره لك هنا على علته، استكالا للوضع من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يطل أن المصدر للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يبصر جعفر وعن أخته عاسه بنت المهدي ، وكان يحصرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عه وعنها ، وقال لجعفر تزوجها ليعلم لك النظر إليها اذا أحصرتها على ، وتقدم اليه ألا يسما ولا يكون مه شئ مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوجها مه على ذلك ، فكان يحصرهما مجلسه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخلطهما ، فيشمل من الشراب ، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت علما ، فظاعت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجهت بالمولود مع حواصن له من ماليتها الى مكة ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين حاسة وبعض جواربها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي الى الرشيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواربها وما معه من الحل الذى كانت زيتها به أمه ، فلما سمع هارون هذه الحجة — سة سبع وعثمان ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجارية أخبرته أن الصبي به ، من يأتيه بالصبي ، ومن معه من حواصنه . فلما أحصروا

سأل اللواتي معهنّ الصبيّ، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الراضة على عباسه، فأراد،
مما زعم، قتل الصبيّ ثمّ تحوّل عن ذلك، وكان حمير يتخذ للرشيّد طعاما كلما حجّ بمسّافان
فيُقرّيه إذا أنصرف شاحصا من مكة إلى العراق، فلما كان في هذا العام اتحد الطعّام
حمفراً كما كان يتخذ هالك، ثم استأذنه فاعتل عليه الرشيّد ولم يحصّر طعامه، ولم يزل
جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان .

أما نحن فلا نريد القطع بأنّ بكبه البرامكة كانت أثراً لسبب فيه من هذه الأسباب،
ورعنا كانت نتيجة لطائفة من الأسباب مجتمعة، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعد،
ومحبّ ألاّ يعوتنا هنا أب فتعرض فرصاً صرت أنه فرض لا أكثر ولا أقل، ونعترف
بأنه في حاجة إلى التحقيق العلمي، ولكنّا نعرف أيضاً أنّ عرصه على حالته لا يحلّو من
المع، وهو أنّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعتزلة^(١)، وهي
الاعتدال بين أهواء الأحرار السياسية المتطرفة وتلطيف الخصومة بين جناحي الحزب الهاشمي
فلم يرصّ الرشيّد على هذا النحو من السياسة، ومالاه على ذلك المعيون من أنصار الجناح
العباسي . وسرى صدقيل أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، في هذا النحو من
السياسة المعتدلة، الموفقة بين وجهات النظر المختلفة .



أما كيفيه القبض على البرامكة، واحتياط الرشيّد وحذره قبل قتلهم، ومصادرتهم
لأموالهم، وما قالته الشعراء في رثائهم، حديث طويل يتطلب رسالة خاصة، وفقاً ل
لدراسه موضوع البرامكة وبكبتهم وأثرهم في الدولة العباسية في موضوعا (عصر الرشيّد)
في القريب العاجل إن شاء الله .

(١) نالها أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحارثي هذا بقوله . " ليس الاضطرال مدعها سياسيا ولم ترج
سوق الاضطرال في زمن الرشيّد ولم يكن شيئا يتنبّه به على عهده " .

على أنسا نرى من المستصوب قبل أن تم هذه العذلكة الموجه أن نحتّمها بكلمة
لاس حلدون ، لا تخلو من تحليل صحيح ، وذهب في الموارنة رحيح ، وبات في التاريخ
بجميل المنهج ، معقول التعليل .

قال اس حلدون : إنما مكّ الرامكة ما كان من استندادهم على الدولة واحتسابهم أموال
الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فلبوه على أمره وشركوه
في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فغلظت آثارهم وعتد صيتهم وعمّروا
مراتب الدولة وحطّطها للرؤساء من ولدهم وصانهم ، واختاروها عن سواهم : من وزاره
وكتابه وقياده وحجابه وسيف وقلم . يقال . إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد
خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحموا بها أهل الدولة بالمناك
ودعمهم عنها بالراح ، لمكان أسهم يحيى من كفاالة هارون ولّى عهد وعلية ، حتى شت
في حجره ، ودرّج من عشته ، وعلّه على أمره ، وكان يدعو يأت ، فتوحه الإيتار من السلطان
اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانسط الحاه عندهم ، وانصرفت بحوهم الوحوه ، وخصمت
لم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتمحلت اليهم من أقصى التحوم هدايا الملوك ونحف
الأمرء ، وتسربت الى خرائتهم ، في سبيل الترف والاستقالة أموال الجباية ، وأفاصوا
في رجال الشيعة وعطاء القراءة العطاء وطوّقهم المن ، وكسوا من بيوتات الأشراف
المعتم ، وفكوا العاي ، ومُدّحوا عما لم يُمدح به حليتهم ، وأسّوا لعقائهم الجوايز والصلات ،
واستولوا على القرى والصياع من الصواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسعو الطاعة
وأحقنوا الخاصة ، وأغصّوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وحوه المامسة والحسد ، ودبت
الى مهادهم الوثيرة من الدولة عمارب السعاية ، حتى لقد كان سوق حطمة أخوال جعفر من
أعظم الساعين عليهم ، لم تعطهم ، لما وقر في موسهم من الحسد ، عواطف الرّحم ،
ولا وزعتهم أوأصر القراءة ، وقارن ذلك عدد مخدومهم بواشي العيرة والاستكاف من المهر
والأمة وكان الحقود التي عنتها منهم صفائر الدالة ، واتبى سهم الإصرار على شأنهم الى
بكاثر المخالفة .

الفصل التاسع

الحياة العلمية في العصر العباسي

توطئة — حركة النقل — العلوم القرآنية والعنصرية والعلمية .

(١) توطئة :

هذه فذلكة بمجلة بمثابة توطئة لما سعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح في العصر المأموني . مهمتنا الآن أن لم بيان العاصر المهمة في الحياة العلمية العباسية .

علم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان في الثقافة الانسانية عظيم عميق ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمشعات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومعكرهم قد أمدوه أيضا بالنخب والمُتَلِّج مما وقف عليه اليونان من زُبد طوم الأشوريين والبابليين والميلقيين والمصريين واليهود والعرب والرومان . فاذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ومُستَحَات المعول اليونانية ، فكأننا نقول صمما إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسية الى حد ما ، أو على الأقل كانت مُتَسَمَةً بالطابع الفارسي متأثرة به . وعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جيون» أن «جستيان» اصطهد مدارس أمينا ، لأنه كان خصما للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حين ذلك قد آتت ثمرتها ونصبت ، ثم هرع أصحابها الى العرس ، واتصل بأنوشروان سبعة من علماء اليونان ما كرم وقادتهم ، وأفسح لهم مجال التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القُدَح المعَل فيه . ويقول ابن النديم في الفهرست : إن الفرس نقلت في القديم شيئا من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فقل ذلك الى اللسان العربي عبد الله بن المقفع . فمن المعقول أفا أن يكون

العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا في الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُقْطَعُ قدره، لأنك اذا استقصيت تاريخ ملوكهم الكار، مثل سابورس أردشير، تجد أنه في حلال عهده صحت الى بلاد اليونان، وحلت كتب الفلسفة، وأمر بقلها الى الفارسية، واحترنها في مدينته وأحد الناس في نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربية أفادت أيما إفادة من مستجات العرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقل :

لندرج الآن الى شيء من التوضيح، فنقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسي في هذا الباب، لأنه مختصر عما تعرض له أمثال الأساندة « نليسو » و « ابن أبي أصيبعة » « والتقطعي » « وابن النديم » وغيرهم ممن سيكونون عتقنا وموثقا حين نعرض لهذه البحوث في العصر المأموني .

يقول ابن صاعد : « إن أول علم آتني به من علوم الفلسفة علم المنطق والجوهر . فاما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب العارسي، فإبه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقيه الثلاثة التي في صورة المنطق، وهي كتاب « قاطاعوريان » وكتاب « ماري أرمياس » وكتاب « أتولوجيا » وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول، ونزج ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بإيساجوجي » « لفرموريوس الصوري »، وعبر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ، ورجع مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بـ « كليله » و « دمه »، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية.....

وأما علم الجيوم فأول من عُني به في هذه الدولة محمد بن ابراهيم الغزاري، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الأديمي ذكر في تاريخه الكبر المعروف بنظام المقد . « أنه قدم على الخليفة المصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من المحدث عالم بالحساب المعروف

بالسند هندی في حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كروحات محسوبة لنصف نصف درجة مع صروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع الروح وعير ذلك ، في كتاب يحتوي على اثني عشر مائاة ، وذكر أنه اخصره من كروحات مدسوبة الى ملك من ملوك الهند يسمى قعر ، وكانت محسوبةً لدقيقة ، فأمر المصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتابٌ يُنحده العرب أصلاً في حركات الكواكب ؛ فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الغزاري ، وعمل منه كتاباً بسميه المنحومون "السد همد الكبير" وتفسيرُ السد همد باللغة الهندية : الدهر الداهر . »

وقد يكون من المستصوب أن همهم حقيقةً وجهة نظر العرب حين ذاك الى علم الفلك ، فهم كاليونانيين في رمس "تليموس" كان عرضهم في الهيئة تبين الحركات السماوية مع كل اختلافاتها المربية ، بأشكال هندسية ، يمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأى وقت مُرضى ، وإس كات تلك الأشكال تصلح لحساب الظواهر رؤوا بها وما اهتموا بالبحث في حقيقة حركات الأحرار السماوية ، وذلك لطهم أن البحث عن حقيقة الحركات وعلاها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ومن مجد ، قطع الطر عن أحكام الهجوم الى صارت غير مقبولة في أياما ، أن الهيئة عد العرب كما يقول الأستاذ «تليو» ، قد اشتملت على علم الهيئة الكروى والعمل ، وقسم صعب من النظرى يحص الكسوفات واستارات الكواكب السياره ، مع علم التاريخ الرياضى وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الخرافية لتليموس ، فقد حرح من علم الهيئة عد العرب علم المسكانيكاء الملكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة الطرى ، إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب .

فلا مريبة أذا في أن العرب ، الى جانب وقوفهم على العاسمة المارسية والحكمة اليونانية ، قد وقفوا أيضا على آحر الآراء العلمية الخاصة بعلم الفلك في ذلك الحين ، وأنهم وقفوا على آراء تليموس فيما وقفوا عليه من الآراء . وتليموس — كما قال البتاني — قد تمصى

علم الفلك من وجوهه، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعديّ الذي لا تدعّ حجتَه ولا يُشكّ في حقيقته، فأمر بالمحبة والاعتناء به، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أربخس وغيره من نظرائه، لخللة الصبغة، ولأنها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدركُ إلا بالتقريب .

ولا يعوتنا أن نشير هنا إلى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسراه محمد بن خالد البرمكي . وزيجو حين تعرّضا لهذه الموضوعات في العصر المأموني أن لم بها إلما أدق وأوسع .

على أنه بمجرد بنا في هذه المدركة أن نشير إلى الكتب البهلوية الثلاثة التي استطاع الأستاذ « بلينو » أن يكتشف أثر قلها مما قبل انتهاء القرن الثاني للهجرة . فواحد منها في علم الهيئة الحقيقي وهو ريج الشاه أو ريج الشهريار، والآحران في صباغة أحكام النجوم وهما الميزنج في المواليذ المنسوب إلى بُزْجَمَهْر، وكتاب صور الوحوش لتكولس ؛ وكذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن كتاب المجسطي نقل في أيام الرشيد .

وإما نلخص لك ها ما لا حظله المرحوم جورج بك زيدان في أمر النقل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتعرّصوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس واليهود، فقد نقلوا جملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم وزججوا الشاهنامة، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا حُفَرافة استرابون ولا إلياذة هوميروس ولا أوديسة . وسبب ذلك أن أكثر ما صحت المسالين على النقل رعبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق^(١) .

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبدالوهاب الحارثي : « أنه يمكن إرجاع ذلك إلى سبب يراه أهم . وهو أن الرافعين من البرهان أيام الاضطهاد إلى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا في تلك البلاد مدرستهم وأحد أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدب والتاريخ والجغرافيا لم يهاجروا إلى البلاد التي أخذ عنها العرب وإلما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة » .

ولا يُستَحَفُّ بما اقتضاه ذلك القل، عن أشهر أُم الأرض في ذلك العصر، من التأثير في الآداب الاحتياجيه والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معظمه في الأدب والتاريخ، فدخل الآداب العربية كثيرٌ من آداب الفرس الساسانية وأفكارهم، اقتبسها العربُ من الكتب التي نُقِلَتْ عنهم، ولم يبقَ منها إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وُتِفَّ متفرقة في بعض الكتب. وقد درس في هذا الموضوع المُتَشَرِّقُ «ايواسترانشتيف» الروسي ووضِع فيه كتابًا طبع في طرسبرج سنة ١٩٠٩ م.

على أنَّا ملاحظ أن تأثير هذا القل عن الفرس لا يزال قائمًا الى الآن في بعض الكتب العربية التي وُصِفَتْ في عصور قريسه من عصر المأمون. يذكرُ منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأحبار» لأبى قتيبه، و«التاج» المنسوب للماحط، فعلى هذه المقولات وأمثالها بجى المسلمون ما ألفوه في هذه العلوم أثناء تمدنهم غير ما اختبروه وأصافوا إليها من عدد أنفسهم.

وإن المطلع على ما جاء بالمهرست لأبى الديق حاصبا بتلك المقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جُلَّها قد صاع، على أنه كان للقليل الباقي منها أثره الفعّال في هضبة أوروبا، وأهم ما بقي من ذلك التراث القيم هو كتابُ المجسطى لبطليموس، ترجمه الحاجب بن يوسف وكتاب السياسة في تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن الطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكي وغيرها.

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرخون القدماء يقولون في العلوم القرآنية إنه قد تفرّع عن القرآن نحو ثلاثمائة علم. ونحن نحيلك على أمثال «مفتاح السعادة» لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى راده المطبوع بمطبعة دائره المعارف النظامية بمجدر آفاد، ومقدمه أبى حلدون و«مفاتيح العلوم» وغيرها. وأما الحاة وطبقاتهم واللغة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة في العصر العباسي، فأماك أمثال «شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدحيل» لشهاب الدين

الخطافي "ودرة المواضع" للحريري . وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمي" لأبي منصور الجواليقي المتوفى في منتصف القرن السادس وطبع في ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النخاعة» المعروف "نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لأبي البركات عبد الرحمن ابن محمد الأتباري، وغيرها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن في الحاهلية ولا في صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُصِف في العصر العباسي - خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتذريج ، ونبس ، وهضم ، ومبرّدات ، وقاصص ، ومسهل ، ونشيج ، وذات الزئفة ، وسج ، والهيولى ، والقاموس ، والقانون ، إلى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذي تحدّه في مطابقه . ولا يرى حاجة بها إلى الاستطراد فيه .

ويحدّر بها ما أن نشير إلى أثر من أحل الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية في بداية العصر العباسي . ويمكن النظر إليه كما ينظر الاسكتلديون إلى كتاب "جور سكر" من تاريخهم الاقتصادي . وهذا الأثر القيم الخالد الذي نظم جباية الدولة أبجلاً تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للمقيه الأكبر أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري - صاحب الإمام أبي حنيفة المال .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس

توطئة — الخطأ والخطأ — التكاثر — محاسن الخلفاء والمطهرة — الشعر .

(١) توطئة :

أسلفنا لك القول في الحالة الأدبية في عصر بني أمية التي كانت في الواقع ، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلي ، قريبة في جملتها من عضاضة البدو وخشونة المدر ، فلم نسمع لها الاغراض ولم تفرج لها الجوانب إلا بقدر ما تطبق عليه جزيرة العرب وبادية الشام من الأفكار والأخيلة ، وما توحى به غياض دمشق ونبرات معبد ، من صفاء الفكر ووضوحه ، وجلال المعنى وأقترابه ، لا يبالى القوم الإيمان في الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة ، وإنما كان منهم ، كما يقول الرواة : أن تجود العاظمهم ، ويحل تراكيهم . وفي الحقيقة أنهم قد اقتعدوا في ذلك من البلاغة ذروتها ، وطفوا من الجزالة غايتها ، فكان الرجل منهم يصح لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زياد وعبد الملك والمهاجر ، وما أرسله جرير والأخطل والعرزق ، لتعرف أين كان القوم من البلاغة ، وكيف تملكوا أعينها في أيديهم . فلما حامت دولة العباسيين وقامت أركانها على سواعد العجم ، ودلّ اليها السريان واليهود والعرس ، وصمتهم الدولة الى أحصائها ، وأفرجت لهم بين ذراعها ، وأزنتهم في كثير من أمور الدولة وشؤونها ، وأجرت عليهم من الأرزاق والنفقات ، وتقدّموا لها بتراث آبائهم وعصارة قرائع علماتهم ، وحولوا ميراثهم الى ميراثها ، أفادت لغة العرب ، وأمتزجت المدنية السامية بالآرية ، وأكسعت دائرة المعارف ، وقشعت أغراض اللغة ، وثمر كل ذي فضل في تموين العلوم واستلباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها ، وترجموا كتب الحكمة والمنطق ، وازدهرت الآداب ازدهار

الفتاء والقوة، فانتظمت رضاء الدنيا وسعادة الإنسان، وآزيت بالجمع الحكمة والبراهين العقلية. وتولى كبر ذلك بشار وأبو المقفع وأبو نواس وأصرارهم، وأدخلوا إليها الحديد عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم ينجحوا من استعمال الألفاظ الأعجمية في أسماء الألوان والانية والفرش، وتأقوا في صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضهم إلى السجع والأزدواج. ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة إلى سعيد بن مسلم إذ يقول: "أَسْتَسِيءُ اللَّهَ أَحَلَّكَ، وَأَسْعِيْدهُ من الآفات لك، وَأَسْتَعِيْهُ على شكر ما وهب من العمة فيك إبه لذلك ولي"، وبه ملي. أتاني علامك المليح فذه، السعيد مذكك حذو، بكتاب قرأته، فبر مستكره اللفظ ولا مُزَوَّر عن القصد، ينطق بمحنتك ويُسُّ عن فصلك".

وجملة القول أن الله قد تحدّد إهابها، واهرحت شعابها، وبوَّعت أساليبها، بما دخل عليها من عجم العولة وبرف الحصار، وما آخوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيدة لغات العالم جميعا.

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعية إلى الخطابة في العصر العباسي قوَّة متواصلة بليغة. كانت قوَّة لأن طبيعة الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادة، والثورات الاجتماعية العسة، من شأها خلق محاللات التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتمييزها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها. وكانت متواصلة لتعدد موضوعاتها وتشعب ماحيها ولايكاب الدعاة والمفيعين عليها لا تهاز أمثال تلك المواقف. وكانت بليغة لقرب العصر العباسي من عصر البلاغة الإسلامية الأموية من ناحية الحرارة والتشيع إلى بني العباس، وقوه المحاجة في إنكار ما آتته الأمويون من حُرُمات الدين، ولتعدد أسباب التعاضل بين آل العباس والعلمويين.

وإن نظرة تحليلية إلى خطبة المنصور التي خطبها حينما أخذ عبد الله بن الحس وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزز قولنا وتؤيد حكمنا. قال: «يا أهل نُرسان

أنتم شيعتنا وأصيارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا، وإن اهل
 بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ركنهم، والله الذي لا إله إلا هو، والخلافة فلم نعرض
 لهم فيها قليل ولا كثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطّع وحكم عليه الحكّان،
 فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثت عليه شيعته وأصياره وأصحابه
 وبطائنه وثمانه قتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل! قد عُيرِصَتْ
 عليه الأموال فقلها قدس إليه معاوية: إني أحملك وليّ عهدي من عدي، فهدده
 فانسخ له مما كان فيه وسلمه إليه، فأقبل على النساء يترقح في كل يوم واحدة فيطلقها عدا،
 فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي فهدده أهل العراق
 وأهل الكوفة أهل الشقاق والحق والإعراف في العتق أهل هذه المدرة السوداء—وأشار
 إلى الكوفة—فوالله ما هي بحرب فأحارها ولا يسلم فأسلمها، ففرق الله بيني وبينها، فخذلوه
 وأسلموه، حتى قُتِلَ. ثم قام من بعده زيد بن علي فهدده أهل الكوفة وعرووه فلما أخرجوه،
 وأطهروه أسلموه، وكان قد أتى محمد بن علي فاشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل
 أهل الكوفة وقال له: إنا نخذ في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصلَّب بالكوفة وأنا أخاف
 أن تكون ذلك المصلوب، فناشده عتي داود بن علي وحذره صدر أهل الكوفة، فلم يقل
 وتم على خروجه فقتل وصلي بالكوفة^(١). ثم وثب عليا بو أمية فاماتوا شرفا وأذلوا
 عزنا، والله ما كانت لهم عداوة يطلونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم
 طلمهم، فمغوا من البلاد مصرا مرةً بالطنائف ومرةً بالشام ومرةً بالشرقة حتى استعتمك الله لنا
 شيعة وأصيارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمع بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا
 وأصار اليما ميراثنا عن نينا صلى الله عليه وسلم، فقتل الحق مقزّه وأظهر مناره وأعز أنصاره
 وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فبنا على قرارها

من فصل الله فيها وحكمه العادل لما وشوا عليها طلبا وحدا منهم لما وميأ لما فصلا الله به عليهم وأكرمنا به من حلالته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلاً على وجباً عن عدوهم . لئست الخلتان الجهل والجهل

إني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت جهالة . بلعى عنهم بعض السقم والتعزم ، وقد دسست لهم رحالا فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان فخذ منك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، نخرجوا حتى أتوهم بالمديسة فهدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا ما بهم بيعة استحلّت بها دماءهم وأموالهم وحلّت لى عدد ذلك بقصصهم بيعتى وطلبهم العتة والتماشهم الخروح حلّ فلا يرون أى أتيت ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المبرهدة الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُصِّلَ لِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ .

ولقد يلاحظ على الخطابة العباسية أسماؤها بطابع العرة الديني لمهااتهم بصلتهم من النبي ، كما يلاحظ عليها اللمة « الأنورانية » التى لا تختلف فى شئ عن له ما اوات رومة فى العصور الوسطى ولعة الملوك الذين يديون سطريرة « حقوق الملك المقدسة » وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه .

خطبة للنصور الخليفة العباسي

خطب فى مكة فقال :

أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وسديده وتأييده ، وحارسه على ماله أعمل به بمشيئته وإرادته وأعطيه إذنه ، فقد حلقى الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ، فارعبوا الى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فصله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أن يوفى للرشاد والصواب ، وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان اليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

خطبة للخليفة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورحى به من خلقه ، أحمده على آلائه وأحمده
للائه ، وأستعيه وأؤمى به وأتوكل عليه توكل راضٍ بقصائه وصابر لسلانه . أوصيكم
عباد الله بتقوى الله فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها بدامة . وأحثكم على إحلال
عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والاتهاء الى ما يقرب من رحمته ، وينجى من محطته ،
ويأل به ما لديه من كريم الثواب ، وجريل المآب . فاحتبوا ما خوفكم الله من شديد
العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على
البار . يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فهم شقي وسعيد . يوم يقر المرء من أحبه وأمه
وبه لكل أمرئ يومئذ شأن يعيه . يوم لا تحزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها
عدلٌ ولا تسمعها شفاعته ولا هم يصرون . يوم لا يحزى والد عن ولده ولا مولودٌ هو جار
عن والده شيئا . إن وعد الله حق فلا تعزكم الحياة الدنيا ولا يفتركم بالله التورور . فإن الدنيا
دارٌ عُرور وبلاءٌ وشورٍ وأحمالٍ وزوالٍ وتقلبٍ وانتقالٍ . قد أفنت من كان قبلكم
وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم . من ركن إليها صرعه ، ومن وثق بها خانتها ، ومن أملها
كذبته . ومن راحها حدته . عرّها دُلٌّ ، وعماها فقرٌ . والسعيد من تركها والشقي من
آثرها . والمعصوم فيها من ماع حطه من دار آخرته بها . قاله الله عباد الله ! والتوبة مقولةٌ
والرحمة مبسوطةٌ : ومادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الحالية قبل أن يوحّد الكعظم
وتسدّموا فلا تآلوا الندم يوم حسره وتأسف ، وكآبة وتلهف . يوم ليس كالأيام وموقف
صلك المقام .

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذي بحمده على معمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ونؤمن به
حقاً وتوكل عليه مُفَوِّضِينَ اليه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكبير
السيئات وتضعيف الحسرات ، وفوزاً بالجنة ونجاةً من النار ، وأحذركم يوماً تشخص فيه

الأبصار وتلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغاين ويوم التلاق ويوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد في حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحابجر كاظمين ، ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ، يعلم حائسة الأعين وما تخفى الصدور .. فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت . حصّسوا إيمانكم بالأمانة وديكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . وإياكم والأمانى فقد غرّت وأردت وأوقت كثيرا حتى أكدتهم ما ياهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فرغب ربكم عن الأمثال والوعد وقدم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعهم بالقرون انحولى حيل حيلًا ، وعهدتم الآاء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم وس بين أظهركم لاتدعون عنهم ولا تحولون دونهم ، رالت عنهم الدنيا واقطعت عنهم الأسباب ، فأسامتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليجزى الذين أساعوا عما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإن نظرة تغلّى الى الحبيب الصعيه التى احتراها لك عن المصور والمهدى والرشد تعطيك مكره صحيفه أنا لم تعد ثلث الصواب فيما ذهبنا اليه من "أبوقراطيتها" و"ناويتها" في طبعه معاهها ، وطلاتها وبلاغتها و مساها .



على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوه التى كانت عليها في صدر تلك الدولة حينا استقرت ورحمت ، اذ فترت عدد ذلك الدواعى وهدأت الدواعى ، وأحدثت حالتها في الاصحاح لاشتداد احتلاط العرب بالأعمام ولأن الشخصيات البارزة في الدولة كانت في الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تعهّد ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من الكفة التى وحّصر العجمة وإن سمّت معلوماتهم وارتقت في البلاغة أساليبهم .

ووبما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابة في العصر العباسى كانت بوجه عام أقل منها في العصر الأموى من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مصّاقم

لا يفلتون عن إخوانهم الأمويين ملاءمة واقتداراً، يدهاها كانت متعددة الأبواب، لتشعب ما يبناه لك من الوجوه والمناحي .

(ج) الكتابة :

حرث الكتابة في العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بني أمية : من حودة اللفظ، ومثابة الأسلوب، وحلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته ، فلم يكن القوم يُعَمِّمُوا في التصوّر والتفكير، أو يظفروا الى السبأ ويستوحوها ، أو الى الطبيعة فيستطيقوها ، أو تستشعوا ما وراء العالم ، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها من حاصر الديبة وعفوي الخاطر، فلم يشاركوا الحكاء في تفكيرهم، ولا الماطقة في محمهم ، اذا استثبنا نفراً قليلاً أمثال أبي المقفع ، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع ، أو مثل سائر، أو حكيه رائعه، أو فكره سامية ، أو معنى يصل الى القلب بلا استئذان، وأوعلوا في ذلك حتى صاروا فصحاء الناس وأمرأة الياد . فكان الأديب منهم يرسل الرسالة أمام مقصده فتعمل في العوس ما لا تعمله الأسنة والراح . وناهيك بما كانت تفعله تلك الرسائل في نفوس القوم ! .

فلما حلت عدداد ، وأقلت الدنيا وأنسج السلطان وأمتدت أطرافه ، وصممت الدولة الى أحصائها ألباء الفرس والشران، وكابوا يعملون ثراث آئتهم وطرف علمائهم ، وأوسع الخلائف رحابهم لكل ذى فضل من رجال الدولة ، وعرفوا للعلم مقامه رفوعه، وللأدب صولته فأكرموه، وقرتوا العلماء والأدباء، وعقدوا مجالس للماطرة والمادمة — كما سبين لك — وأكث الناس على العلم والتأليف والترحمه ، وتكشفت كل ذلك عن علوم ومعون لا عهد للعربية بها ، مقلوا اليها الطب والسياسة والحكمة والعلك والمطلق والتنجيم ، وألف المسلمون في الفقه والحرو والحديث والتفسير — كان لكل ذلك أثره في أخيلة الكُتَّابِ وأسلان الأقلام ووحى القرائح، فتعددت الأغراض، وبعثت الأساليب، وبالم الكُتَّاب الى السهولة في العبارة، والتأني في اللفظ ، والجودة في الرصف ، وأطالوا في المقدمات، وتوعوا البله

والختم والآفات والدعاء، ومالوا إلى الفلو والمالفة، وهاك مثلاً ما كتب أس سيادة إلى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها . «لأَصْبِيحَ الجواد ، الوارِى الزناد، المساحد الأحداد ، الوزير العاصل، الأشم البازل، اللباب الحلّاحل، من المستكين المستعير، الناس الصرير، وإني أحمدُ الله ذا العزة القدير، اليك وإلى الصغر والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة . أما بعد، فاعلم وأسلم وأعلم، إن كنت تعلم، أن من يَرْحَمَ رَحِمَ، ومن يَحْرِمُ يَحْرِمُ، ومن يُحْيِسْ يَنْتَمِ، ومن يَصْبِغَ المعروف لا يَمُتَم، قد سقى إلى مَصْبُك على، وأطراحتك لى، وععلتكَ عتي بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنبه ولا أرقد، فلست بجى صحيح، ولا ببيت مُستريح، فمررتُ بعد الله منك اليك، وتملئت بك عليك . »

أما الإطباط في الكتابة فكان صفةً عاليةً في كل ما شمل بيعةً، أو عهداً، أو احتجاباً أو انتصاراً، أو تقريراً للمذهب أو استهواءً، أو دعماً لشبهة أو طلاء لعمه، أو ما يقوم نصلاً أو ما يدعو نزلاً . ويتحد طرفاً من رسائل القوم في ذلك العصر الراهى الزاهر في باب المشور بالكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وقد بالغوا في بمدح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المصور العباسي والفس الركية، فقد جاء مما كتبه الأوّل قوله : «أما بعد، فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فإذا حلّ حركك بالنساء اتّصل به الجفّاء والعواء ، ولم يجعل الله النساء كالعموم، ولا الآماء كالقصّة والأولياء ، وقد جعل العلم أما وبدأ به على الوالد الأدنى، فقال جل شأوه عن نبيه عليه السلام : «وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَسْقُوبَ» . ولقد عَلِمْتُ أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم وعمومهم أرسنةً، فأجابه اثنان أحدهما أبى، وكَفَّرَ به اثنان أحدهما أولك . فأما ما ذكرت من النساء وقرائتهن فلو أُعْطِينَ على قرب الأنساب وحقّ الأحساب لكان الخير كله لأمّة نبيّ وهب، ولكن الله يختار لديه من يشاء من خلقه . »

عير أن ذلك لم يكن يجمع أن الميل إلى الإيحاء له في نفوس القوم مقامه، وفي قلوب البلغاء عزه وسلطانه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذى حايه وسلطان، فقد رُفِعَ إلى المصور شِكَاةٌ من أهل الكوفة لأعوحاج في عاملهم، فوقع عليها «كيما تكونوا بول عليكم». وكتب جعفر إلى عامل شِكَاةٍ له منه: «قد كثرت شاكوك وقل شاكروك، وإنا أعتدلت وإنا أعتزلت».

وقد أجمع الرواة أن الحال قد بقيت على ذلك من المتأخر وحسن الإشارة ولطف المدخل ومراعاة المعنى وحسن الابتداء، حتى حلف من بعدهم حلف ضمعت فيهم ملكة اللغة وأعوزهم اليأس، فمالوا إلى الألفاظ وصاغت، والأصباح (وزحرفتها)، وبقيت الكتاة تنقلب في أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسها مع رأس العباسيين في القرن السابع الهجري.

(د) مجالس الخلفاء والمناظرة:

للخلفاء العباسيين عظم طيبة دعوتهم السياسية واستعمال أمر المدنية في أمانهم محالٌ حافلة بالأدباء والشعراء والمغنين والماديين قد أزعجت بذكرها كتب الآداب واستنوعت الشيء الكثير منها أو المرح الأصمهاني في أعانيه.

وكانوا يُحَلِّونَ العلماء، كما يينا لك في موقف الرشيد مع أبي معاوية الصريري، ويعتنون بالشعر وللمه، ويحيرُصُونَ على تعليم أولادهم بوساطة نَحْمَةٍ من رجالات عصرهم، فالمصوَرُصَمَ الشرقى بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أحوار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار. والرشيد عَهْدَ تعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي، وعهده بتأديب المأمون إلى اليزيدي وسيبويه وغيرهما. وللرشيد وصية يقال إنه أوصى بها الأحمر حينما عهد إليه بتأديب الأمين، ونحس ثبتهما لتقف بها على نوع التربية التي كان يتطلبها خلفاء ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدل في الوقت نفسه على مبلغ التحول الذي وصلت إليه المدنية العربية في العصر العباسي وكيف استمدت من نظم اليونان والفرس وغيرهم من وقف الصرب على آرائهم ومؤلفاتهم.

أما الوصية فهي : « يا أحرُّ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهمة نفسه وثمرة قلبه ،
 مصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكل له بحيث وصلك أمير المؤمنين . أقرئه
 القرآن وعرفه الأخبار ، وروِّه الأشعار ، وعلمه السنن ، ونصِّره بمواقع الكلام وبذنه ،
 وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع
 مجالس القواد إذا حصروا مجلسه . ولا تمزّنك ساعة إلا وأنت مفتن فائدة تفيده إياها من
 غير أن تحزبه تقيمت دمه ، ولا تمزّن في مسامحته يستحل العراء ويألفه . وقومه ما استطعت
 بالقرب والملاينة فإن أأما عليك بالشدة والنفطة » .



وكانوا يسون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يسون أيما عاية يحفظ
 الأشعار وروايتها ، ويعتبرون عدم حفظها مصيبة وكارثة ، فقد روى الهيثم بن عدي عن
 ابن عباس قال : لما مات جعفر المصور الأكرمشي المصور في جازته من المدينة الى
 مقابر قريش ومشي الناس أجمعون معه حتى دمه ثم أنصرف الى قصره ، ثم أقبل على الربيع
 فقال : يا ربيع أظن من في أهل يثدني :

• أمين المنون وربها تتوَّع •

حتى أتى بها عن مصيبي ، قال الربيع : نخرحت الى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور ،
 سألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها ، فرحمت فأخبرته فقال : والله لمصيبي أهل بني
 ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقله رعبتهم في الأدب ، أعظم وأشد على من مصيبي بابي .
 ثم قال : أنظر هل في القواد والرواة من الجند من يعرفها ، فإني أحب أن أسميها من إنسان
 يثدنها ، فخرجت فاعتصمت الناس فلم أجد أحدا يثدنها إلا شيحا كبيرا مؤدما قد أنصرف
 من موضع تاديبه ، سألته هل تحفظ شيئا من الشعر ؟ فقال : سم شعرا أبي ذؤيب فقلت :
 أنشدني ، فابتدأ هذه القصيدة العينية ، فقلت له : أنت بعبي ، ثم أوصلته الى المصور
 فاستنشدته إياها ، ثم أجازته بمائة درهم .



أما التحول العظيم الذي حصل في ألباء "صالونات" الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديث عه يطول . وحسبك في ذلك ما يدل به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين، فإنه يتحدثك بما سَقَعُ الغلة إذ قد سُئِلَ عن أحوال الأمويين في الشراب واللهو فكلم بإيجاز عن حالتهم، وسُئِلَ عن العباسيين موصَفَ وأحَادَ وصوَرٍ وأفاد قال :

« أما مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانُ وَعَدُ الْمَلِكِ وَالْوَلِيدُ وَسُلَيْمَانُ وَهَشَامٌ وَمَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ فَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الدِّمَاءِ سِتَارٌ، وَكَانَ لَا يَطْهَرُ أَحَدٌ مِنَ الدِّمَاءِ عَلَى مَا يَعْمَلُهُ الْخَلِيفَةُ إِذَا طَرِبَ لِلْفَنَى وَالْتَمَهُ حَتَّى يَقْلِبَ وَيَمْشِي وَيَحْزَنَ كَتَمِيهِ وَيَرْقُصُ وَيَتَجَوَّدُ حَيْثُ لَا يَرَاهُ إِلَّا خَوَاصَّ حَوَارِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ إِذَا ارْتَفَعَ مِنْ خَلْفِ السِّتَارِ صَوْتُ أَوْ نَغِيرٌ طَرِبَ أَوْ رَقَصَ أَوْ حَرَكَةٌ بَزْفِيرٍ تُجَاوِزُ الْمَقْدَارَ قَالَ صَاحِبُ السِّتَارِ : حَسْبُكَ يَا جَارِيَةُ كُفِّي ! اتَّهَى ! أَقْصِرِي ! يَوْمَ الدِّمَاءِ أَنْ الْعَاثِلَ لِذَلِكَ بَعْضُ الْحَوَارِيِّ . فَأَمَّا النَّاظُونَ مِنْ حُلَفَاءِ بَنِي أُمِيَّةٍ، فَلَمْ يَكُونُوا يَتَحَاشَوْنَ أَنْ يَرْقَصُوا وَيَتَجَوَّدُوا وَيَحْزَنُوا عُرَاءَ بِحَصْرَةِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُقْبِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مِثْلِ حَالِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فِي الْمَجُورِ وَالرَّيْثِ بِحَصْرَةِ الدِّمَاءِ وَالتَّجَوُّدِ مَا يَأْلِيَانِ مَا صَعَا .

قلت : معمر بن عبد العزيز^٩ قال : ما طَلِقَ فِي سَمْعِهِ حَرْفٌ عَنَاءٍ مِنْهُ أَفْضَتْ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ إِلَى أَنْتَ فَارَقَ الدُّنْيَا، فَأَمَّا قَلْبُهَا، وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ، فَكَانَ يَسْمَعُ الْغَنَاءَ وَلَا يَطْهَرُ مِنْهُ إِلَّا الْأَمْرَ الْجَلِيلَ . وَكَانَ رُبَّمَا صَقَقَ بِيَدَيْهِ، وَرُبَّمَا تَتَرَعَّعَ عَلَى فَرَّاشِهِ وَضَرَبَ بِرِجْلَيْهِ وَطَرِبَ، فَأَمَّا أَنْ يَخْرُجَ عَنْ مَقْدَارِ السَّرُورِ إِلَى السَّخْفِ فَلَا .

قلت : تخلفاؤنا (حلفاء بني العباس) .

قال : كَانَ أَوْ الْعَبَّاسُ فِي أَوَّلِ أَيَّامِهِ يَطْهَرُ لِلدِّمَاءِ ثُمَّ احْتَجَبَ عَنْهُمْ بَعْدَ سَنَةٍ، أَشَارَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ أَسِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيُّ . وَكَانَ يَطْرِبُ وَيَتَبَجَّجُ وَيَصِيحُ مِنْ وَرَاءِ السِّتَارِ :

« أحسنت والله ! أعز هذا الصوت » فعاد له مراراً ، فيقول في كلها : « أحسنت » . وكانت فيه فصيلةٌ لا تعدّها في أحد ، كان لا يحصره دميمٌ ولا مُغنٌ ولا مُلّهٌ يصرف إلا بصيلةٍ أو كسوةٍ قلت أو كثرت ، وكان لا يؤثّر إحسانٌ نحسٍ لغدٍ ، ويقول : « الصبح من يُفْرِحُ إنساناً فيتعجّل السرورَ ويحمل ثواب من سرّه تسويها وعدّه » فكان في كل يوم وليلة يقعد فيه لشعله لا يصرف أحدٌ من حصره إلا مسروراً ، ولم يكن هذا العربي ولا غمى قبله . غير أنه يُحكى عن بهرامٍ خور ما يُقارب هذا .

« فاما أبو جعفر المصور فلم يكن يظهر لديم قط ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء . وكان يسه وبين الستار عشرون ذراعاً ، وبين الستار والدماء مثلها . فادا عاه المغنى فاطربه حركت الستار بعض الخوازي ، فاطلع اليه الخادمُ صاحبُ الستار فيقول : قل له « أحسنت نارك الله فيك » وربما أراد أن يُصقّق بيديه فيقوم عن محله ويدخل بعض مُجبر سائمه فيكون ذاك هاك . وكان لا يُثيب أحدًا من ندمايه وعيرمه درهمًا فيكون له رتبا في ديوان . ولم يُقطع أحدًا عن كان يضاف الى مُلهيةٍ أو سحكٍ أو هزلٍ موضعٍ قديم من الأرض ، وكان يحفظ كل ما أعطى واحدا منهم عَشْرَ سببي ويحسبه ويذكره له .

« وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الدماء متشبهاً بالمصور نحوًا من سسة ثم طهر لهم ، فأشار عليه أبو عَوفٍ بأن يحتج عنهم فقال : « إلك عني يا جاهل ! إما اللدة في مشاهد السرور وفي الدوّم سرتني ، فأما من وراء وراء فما حيرها ولذتها ! ولو لم يكن في الطهور للدماء والإخوان إلا أني أعطيتهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يُعطونني من موائدهم لجعلت لهم في ذلك خطأ مؤقرا » . وكان كثير المطايا يوارثها ، قل من حصره إلا أعناه ، وكان ليس المربةكة ، سهل الشريعة ، لذية المادامة ، قصير المأومة ، لا يعمل نديما ولا يتركه إلا عن ضرورة ، قطع الخدا ، صبورا على الجلوس ، صاحك السن قليل الأذى والبذاء .

« وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق، صَفَت المرام، قَلِيلَ الإغضاء، سَيَّءَ الظَّنَّ، قَلَّ مَنْ تَوَقَّاه وعرف أخلاقه إلا أعاده، وما كلَّ شَيْءٌ أَمَصَّ اليه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للنبي المال الخطير الحريل فيقول « لا يُعطى منها شيئاً » فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

« ويقال : إنه قال يوماً وعده ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومُعاد بن الطيب — وكان أول يوم دخل عليه مُعاد وكان حادقاً بالأغاني عارفاً بها — : مَنْ أطربنى اليومَ مسكٍ فله حُكْمُهُ فضاء ابن جامع عاء لم يحزّه . وكان إبراهيم قد فهم عرْصَه فضاء
سُلَيْمَى أَحْمَتُ بِنَا . قَائِرَ قَوْلِهَا أَيْتَا

فطرب حتى قام من مجلسه ورمع صوته وقال « أَعِدْ نَافَةَ وَبِحَاتِي ! » فأعاد فقال : « أَنْتِ صَاحِبِي فَاحْتِكِي » . فقال إبراهيم : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَاطْتُ عِنْدَ الْمَلِكِ - مَرْوَانَ وَعِيْهُ الْحَزَاؤَ الْمَلْبَسَةَ ، قَالَ : فَدَارَتْ عِيَاهُ فِي رَأْسِهِ حَتَّى صَارَ مَا كَلَّمَا حَمْرَتَانِ . ثُمَّ قَالَ : « يَا بْنَ الْهَمَاءِ ! أَرَدْتُ أَنْ تَسْمَعَ الْعَامَةُ أَنَّكَ أَطْرَبْتَنِي ، وَأَنْى حُكْمُكَ فَاقْطَعْتُكَ ، أَمَا وَاقْتَهُ لَوْلَا بَادِرُهُ جَهْلُكَ إِلَى عَلْتٍ عَلَى صَحِيحِ عَقْلِكَ وَفِكَرِكَ ، لَصَرْتُ الَّذِي فِيهِ عِيَاكَ ! » ثُمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَرَأَيْتُ مَلِكَ الْمَوْبِ قَائِماً بَيْنِي وَبَيْنِهِ يَنْظُرُ أَمْرَهُ . ثُمَّ دَعَا إِبْرَاهِيمَ الْحَزَاؤِي ، فَقَالَ : « حُدِّ بِيَدِ هَذَا الْحَاحِلِ فَأَدِجِلْهُ بَيْتَ الْمَالِ فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ مَا شَاءَ ! » . فَأَخَذَ الْحَزَاؤِي بِيَدَيْ حَى دَخَلَ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، فَقَالَ كَمْ أَحَدٌ هَلَّتْ مَائَتُهُ بَدْرُهُ ، فَقَالَ : دَعْنِي أَوْامِرُهُ ، قُلْتُ : فَأَخَذْتُ تِسْعِينَ ، قَالَ . حَتَّى أَوْامِرُهُ ، قُلْتُ : فَتَمَائِي ، قَالَ : لَا ، فَأَنْى إِلَّا أَنْ يُؤَامِرَهُ ، فَصَرَفْتُ عَرْصَهُ ، هَلَّتْ لَهُ : أَحْذِ سَعِيرِي لِي وَلَكَ ثَلَاثُونَ ، قَالَ : شَأْنُكَ ؟ قَالَ : فَانْصَرَفْتُ بِسَعِيرِي أَلْعَا وَانْصَرَفْتُ مَلِكُ الْمَوْتِ عَنِ الدَّارِ .

قال : وكان الرشيدُ في أخلاق أُنَى جَمْعُ الْمَصْنُوعِ بِمِثْلِهَا كُلِّهَا إِلَّا فِي الْعَطَايَا وَالصَّلَاتِ وَالْحَلَجِّ . فَابَهُ كَانَ يَعْقُو مَعْلَى أُنَى الْمَنَاسِ وَالْمَهْدَى . وَمَنْ خَرَّكَ أَنَّهُ رَأَاهُ قَطُّ وَهُوَ يَشْرَبُ

إلا المساء فكذبته، وكان لا يحصر شره إلا حاش جواريه، وربما طربت للمساء فتحرك حركة بين الحركتين في القلة والكثرة.

«وهو من بين حلفاء بني العباس من حمل للعين مرات وطبقات، على نحو ما وصمهم أردشير بن مالك وأبو شروان، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلزל مصور الصارب في الطبقة الأولى، وكاب رزل يضرب ويُغنى هُذَانِ عليه. والطبقة الثانية سُلَيم بن سلام "أبو عبيد الله الكوي"، وعمرو العزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصبح والطاير. وعلى قدر ذلك كانت تمحرج جوائزهم وصلاهم. وكان إذا وصل واحد من الطبقة الأولى المال الكثير الخطير جعل لصاحبه اللذين معه في الطبقة بصيا منه، وحمل للطبقتين اللتين تلياه منه أيضا بصيا. وإذا وصل أحد من الطبقتين الأخريين بصلة لم يقبل واحد من الطبقة العليا منه درهما، ولا يحترى أن يعرض ذلك عليه.

«قال فسأل الرشيد هوذا برصوما الرامر، فقال له: يا إصحا! ما تقول في اس جامع لحرك رأسه وقال: تَمَرُّ قَطَرٌ لِي يَغِيْلُ الرَّحْلَ وَيُدْهِبُ الْعَقْلَ. قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: استأد فيه حوح وكثري وتُفَاح وشوك ونربوب. قال: فما تقول في سُلَيم بن سلام؟ فقال: ما أحسن حِصَابِهِ. قال: فما تقول في عمرو العزال؟ قال: ما أحسن بَنَاهُ. قال: وكان مصور زلزله من أحسن وأصدق من رأى الله بالحس. فكان إذا حس العود فلو سمعه الأحف ومن تحالم في دهره كله لم يملك أن يطرب.

«قال إبراهيم: ضيبت يوما على صربه، نخطأني، فقلت لصاحب الستار: هو والله أخطأ. قال: قرع الستار ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأت! لحي رزل وقال: يا إبراهيم تمخطني!. فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه غير لعط إلا عرف عرصه.

(١) قطرب المص ثم السكون ثم فتح الرا. وما موحدة مشددة مصمومة ولام. اسم قرية بين بغداد وحكرا يسب إليها احروما زالت متربها للطالين وحاة همارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها. - أنظر بقوت في صرط.

مكيف أخطأ وهذه حالي ! فأذاها صاحبُ السَّار . فقال الرشيد : قل له صدقت ، أنت كما وصفت نفسك وكذب إبراهيم وأخطأ . قال إبراهيم : فمَنَى ذلك ، فقلت لصاحب السَّار : أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي ، أن فارس رجلا يقال له سَيْدٌ ، لم يخلق الله أصرت منه يعود ولا أحسنَ عَمَّاء ، وإن بعث إليه أمير المؤمنين لعله عرف فصله وتعميتُ على صريه ، فإن زلَّ لا يكابدُ مكابدةَ القُصَّاص والقُرَّادير . قال : فوجه الرشيد إلى العارسيَّ حَمِلَ على البريد فأطلق ذلك زلَّلاً وعمه . فلما قَدِمَ العارسيَّ ، أحصرها وأحداها محالسا وحاموا بالعِبدان قد سُويَتْ ، وكذلك كُتبَ يعمل في مجلس الخلافة ليس يُدْفَعُ إلى أحد عودَه فيحتاج إلى أن يحرَّكه لأنها قد سُويَتْ وُعَلَّتْ مَنَّاها مشاكَّةٌ للزَّيْرَةِ على الدقة والمَلَط . قال . فلما وُصِّعَ عودُ العارسيَّ في يديه ، نظر إليه مصور زلزل ، فأمر وجهه وأشرق لونه ، فصرر وبعى عليه إبراهيم . ثم قال صاحبُ السَّار لزلزل : يا مصور اضرب ! قال . فلما حَسَّ العودَ ما نالكَ العارسيَّ أن وثب من مجلسه صرَّادٍ حتى قبل رأس زلَّلي وأطرافه ، وقال : يَتْلُكَ ، جُمِلْتُ هَداك ! لا يَمْتَنُ وَيُسْتَعْمَلُ ، مثلك يَبْغِدُ . فعجب الرشيد من قوله وعرف فصيلة زلزل على العارسيَّ . فأمر له بصيلة وردة إلى بلده . « وكان مصور زلزل من أغنى الناس وأكرمهم ، نزل بين طَهْرَاقِي قَوْمٍ وقد كان يحلُّ لهم أحد الركاة فما مات حتى وحيث علمهم الركاه .

« وكان اصحابُ رُصُومًا ، في الطبقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لِرُصْمِهِ ، فقال له صاحب السَّار : يا اصحابُ ارْصُرْ على عِواءِ ابنِ حَامِيع . قال : لا أصِلُّ . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ! قال : إن كنت أرصُرُ على الطبقة العليا رُصِعْتُ إليها ، فما أن أكون في الطبقة الثانية وأرصُرَ على الأولى فلا أصِلُّ ! فقال الرشيد لصاحب السَّار . ارصعه إلى الطبقة الأولى ، فإذا قُتُّ فادفع البساطَ الذي في مجلسهم إليه . فَرَفَعَ اصحابُ إلى الطبقة العالية وأحد البساطَ وكان يساوي ألفي دينار . فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وأحواله وكانت أمه تَبْطِئُهُ لكاء فخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته ، (١) كذا صله صاحب القاموس « كمدد » وصلة ابن حلكان « كهدد » .

وجاء نساء جبرانه يَهْتَنُّ أمه بما حُصَّ به دون أصحابه وبدعون لها ، فأحبد سكيما
وجملت تَقَطَّعُ لكل من دخل عليها قطعة من البساط حتى أنت على أكثره . جاء رصوما
فاذا البساط قد تُصَمَّم بالسكاكين . فقال : ويلك ما صنعت . قالت : لم أدر ، طبتُّ
أنه كذا يقسم . فحدث الرشيد بذلك فصحك ووهب له آخر .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلي عن أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير
طربا فاستعاد عاتمة ليله ، وقال : ما رأيت صوتا يجمع السحابة والطرب وحوذه الصبغة
والخفة غير هذا الصوت ، فاقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين ، لو وهب لك إنسان
مائة ألف درهم أو لو وحدت مائة ألف درهم مطروحه ، كنت أسرَّ بها أو هذا الصوت ؟
قال : والله لأنا أسرَّ بهذا الصوت من ألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدت من بيت
مالك مائة ألف كان أشدَّ عليك أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور ؟ قال : بل
ألف ألف وألف ألف أهون علي . قال : فلم لا تهب مائة ألف أو مائتي ألف لمن أتاك بشيء
فقد ألفي ألف أهون عليك منه ! فأمر له بمائتي ألف درهم .



امتاز العصر العباسي بتعمد محال الماطرة وروفا وتنظيمها وقيده المساقشات
فيها . وقد يكون من المعيد إعطاؤك صورة صحيحة للماطرة وعظيمها ، واهتمامهم بترويق
عارتها ، وطلاوة أساليبها ، وملاحظة قوة الفحمة فيها ، أن ننقل اليك مشاورة
المهدي لأهل بيته . وهي إن صحت تعتبر أثرا أدبيا له قيمته وحطره ، وأثرا سياسيا
لمساقشات القوم السياسية ولتصميمها خططًا وصائح لا يزيد عليها إلا تلك الصائح التي
تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأموي لأبيه عبد الله ، وستراه في موضعه من باب
المشور بالكتاب الثالث في المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فتصدها في الكتاب
الثاني من المجلد الثاني .

(٥) الشعر :

لا يُقدَّسُ العرب من علوم الحياة ومونها شيئاً أكثر من تقليدِهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به نغمهم ومسابهم وساقوا به الحيوش والمحافل ، فدكَّتْ عروشاً وأمادت ممالك ، وصمموه من أحلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ما جعله مكان نغمهم ومفزع أمرهم ، فكنت تمد العرق يسمع البيت من الشعر فيترنخ وترنخ الشوان ، ويشور حتى كأنه حل نار وكثيراً ما يمدحوا أمانه ، لمكانه من عوسهم . وقد روى الأصمعي وغيره من ذلك شيئاً كثيراً .

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كلِّ عصوره العربية ، ولم يتبدل منه أن دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس ، وحلُّوا منها مكانَ الصدور والحكام ، فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأمراء والأدباء ، كانوا يحملون فوق أكفهم ربوعاً عربية حفظوا فيها ثراث آباءهم ومفاخر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده ، وكالوا هم أنفسهم يقرضون الشعر . وإليك ما جاء في عيون الأخبار عن المصور قال : " كان عمرو بن عُبيد إذا رأى المنصور يطوف حول الكعبة في قرطيس يقول : إن يُرد الله أمة عهد حيراً يول أمرها هد الشات من سى هاشم . وكان له صديقاً . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكنه وأراد الانصراف قال : يا أما غنات ، سل حاجتك ، قال : حاجي ألا تمتعني إلى حتى آتيك ، وألا تعطيني حتى أسألك . ثم بهس فقال المصور :

* كلهم ماشى رويد . * كلهم حاتل صيد *

* غير عمرو بن عُبيد *

فلما مات عمرو رثاه المصور فقال

صلى الإله عليك من متوسد * قبرا مررت به على حزان

قد تصمى مؤمناً متحماً * صدق الإله ودان بالقصران

وإذا الرجال تازعوا في سنة * فصل الحديث بحكمة وبيان

فلو أن هذا الدهر أتى صالحاً * أتى لنا حياً أما غنات



ولقد أحصروا لأسانهم المؤدسَ يقعونهم على الشعر وأستطهاره، وحلسوا للشعراء محالس
أثابوا فيها وأعطوا، ووهوا من المسح ماوهوا - روى الفصل ٣ الرابع : « أن مروان بن
أبي حفصه دخل على المهدي بعد وفاة من بن زائدة الشيباني في جماعه من الشعراء فبهم
سَلَمُ الخاسر وغيره، فأنشد مديحاً فيه، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرُك يا أمير المؤمنين
وعندك مروان بن أبي حفصه، فقال له المهدي - ألسنت القاتل

ألقا باليمامة صد معني * مُقَامًا لا زِيدُ به زوالا

وقلنا أين رجلُ بعد معني * وقد ذهب الوال فلا يوالا

قد ذهب الوال فيما رعت، فلم حنت تطلب نوالا ! لاشيء لك عدما، حُرُوا رحله
لحزوا رحله حتى أحرَحَ . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء فمثل
بين يديه وأنشد .

طرقك زائرة حتى خيالها - ببصاء تحيط بالجمال دلالها

قادت فؤادك فاستفاد وثلها * قاد القلوب الى الصبا فامالها

قال : فانصت له الناس حتى طع قوله .

هل تطيسون من السماء نحووما * ماكفكم أو تسترون هلالها

أو تجسدون مقالة عن ريمكم * حبريل لفقها الهى فقلها

شهدت من الأفعال آخر آية * مرأشهم فأردنمو إاطالها

قال : فرأيت المهدي قد زحف من صدر مُصَلَّاه حتى صار على البساط إعظاما سمع،

ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالها وقعت لكثير من الأمراء والوزراء الذين عزموا للشعر منزله ،

فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأمويون يستعملون به فيها، وحسبك أن تقول

لك : إنهم استعملوه في المفارقة وفي إثارة العصبية واستحقاق الخلافة ، وفي الهجاء

والتحريض ، فقد دخل سديف على عبد الله بن علي العباسي وصده جماعة من بني أمية
فأنشده قوله :

لَا يَفْرُكُ مَا تَرَى مِنْ أَتَاسٍ * إِنْ تَحْتَ الضَّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَصَحَّ السِّيفُ وَأَرْفَعَ السُّوْطُ حَتَّى * لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُيًّا
فَأَمْرَ عَبْدِ اللَّهِ فَدَهَبَتْ أَرْوَاحَهُمْ هَاءَ .

وكثيرا ما كانوا يستشعرون بالشعر والشمرء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم، ويُقنمونه
أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند النصب، فقد روي أن الرشيد عد رجوعه من حرب
الروم أتاه كتاب، وهو في الطريق، من ملك الروم "نقفور" يفيد قرض الصلح الذي عقد
معه، فهاب القوم إخبار الرشيد وامتنعوا عن مكاشفته، وقدموا لمكائنه من الشعراء
المخاض بن يوسف التيمي وإسماعيل بن القاسم أما الغائبه وعبرهما ، فأنشده المخاض بن
يوسف :

قَضِ الدِّيَ أُعْطِيَتْهُ قَفُورٌ * وَطَلَبَهُ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ
أَبْشَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ * عُنْمُ أَتَاكَ بِهِ الْإِلَهِ كَبِيرُ
فَلَقَدْ تَبَاشَرْتُ الرَّجِيَّةُ أَنْ أَتَى * بِالْقِصَصِ عَنْهُ وَامِدُّ وَبَشِيرُ
وَرَحْتُ يَمِينِكَ أَنْ تُنَحِّلَ عِزَّةً * تَشْفِي الْغُفُوسَ مَكَائِنَهَا مَذْكُورُ
أَعْطَاكَ حَزِينَتَهُ وَطَاطَا حَذَهُ * حَذَى الصَّوَارِمِ وَالرَّدَى مَحْدُورُ
فَاجِرَتِهِ مِنْ وَقْمِهَا وَكَأَنَّهَا * بِأَكْفَا شُعْلِ الصَّرَامِ تَطِيرُ
وَصَرَفَتْ بِالطُّولِ الْعَسَاكَ قَافِلًا * عَنْهُ وَحَارَكَ آمِينَ مَسْرُورُ
نَقُورُ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ أَنْ نَأَى * عَيْكَ الْإِمَامَ لِلْجَاهِلِ مَغْرُورُ
أُظْلِمْتُ حِينَ غَدَرْتَ أَلَيْكَ مُقَلَّتُ * هَلَيْكَ أَلَيْكَ مَا طُنَنْتُ غُرُورُ
أَلْفَاكَ حَيْثُكَ فِي زَوَانِرِ بَحْرِهِ * فَطَلَمْتُ عَلَيْكَ مِنَ الْإِمَامِ بِحُورُ
إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى أَفْتَسَارِكَ قَادِرٌ * قُرْبُتِ دِيَارُكَ أَمْ نَاتِ بِكَ دُورُ

ليس الإمام وإن عملنا عاهلاً • عما سوسم بحمره ويديرُ
ملك تحزّد للجهاد معه • معدّوه أبداً به مقهورُ
يأس يريد رضا الإله بسعيه • والله لا يحى عليه صيرُ
لا تصحّ بيع من يفتش إمامه • والصحّ من نصحاته مشكورُ
نصح الإمام على الأثام فريضة • ولأهلها كعاره وطهورُ

مكرّ الرشيد راحماً وأشدّ معه وأعطى كلمة حتى أراح بيّانه، فلم يرح حتى رمى وطلع
ما أراد • فقال أبو العتاهية :

ألا نادّت هرقلةً بالخراب • من الملك الموفق بالصواب
هذا هارون يُرعدُ بالمبايا • ويرقُّ بالمدكّة القصاب
ورايات يحلّ الصرمها • تنزّكها قطعُ السحاب
أمير المؤمنين طيفرت فاسلم • وأبشر بالقيمة والإياب



وكان الشعراء يلعبون دوراً هاماً في الحياة الحزبية • وحسبك أن تعلم أن لخلعاء شعراء
اختصوا بهم كأبي دلّامة، وحماد محرد، وبشار بن بُرد، ومروان بن أبي حفصة، وسلم
الناصر، وأبي نواس، ومصور الحمري، وغيرهم • وللبرامكة شعراء أمثال أناس عد الجيد،
وأبن منادر والرقاشي وغيرهم • ولسائر الأمراء شعراء • وهالك شعراء لم يكتسوا بالشعر
كهال من عد القندوس، وشعراء للشيعة كالسيد الجعفي وسليمان قتة ودعبل، وشعراء
لم يحصروا كربيعة الرقي وكلثوم بن عمرو العتاني وغيرهم • وإياها يحلّك ها إلى ما أشتناه
لك من منظوم العصر العباسي • في الكتاب الثاني من المجلد الثاني •

وجمّاع المقال أن الشعر العباسي قد تصنّص موماً عديدة، ولكنه لا ينتج به في اللغة
كالأدب • مثلاً، لأن القنّة في الشعر والأدب جعلوا حتمه شأراً ولم يتعدوه بسبب
تغشى الخي واستفحال اختلاط الأعجم بالعرب •

على أن الشعراء العباسيين قد تمسوا في أرواحه أيتما تغن من قول في المهاجاة إلى قول في الأخلاق، إلى مُلح إلى تصرُّع، إلى وصف، إلى هجو الخطاء برضاهم إلى مدحهم . وعلى الجملة فقد استعملوه في كل عرض من أعراض الحياة من مُفارقة ونحرية وزهريات وروثاء، كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره، فآثرى الشعراء وأثروا . وحسبك أن تعلم أن سلماً الخلسر حلف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ٥٠٠,٠٠٠ درهم غير الصباغ . ومثله مروان بن أبي حصصة وغيرهما . وسكن الشعراء الاطام والقصور، وأقنوا الأثف الحسنة من الحدائق وشامقات الدور، واستخدموا الجوارى والغلمان، وأمعوا في شهواتهم ولذاتهم وتنعموا بحطام الدنيا ومرافقها، فسَهَلَتِ العاطفهم، وركت طباعهم، وقل أقتصابهم، وحاولوا الخروج على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمر وساقية من الدار ومايها . وتقدم في ذلك الواسى يجعل علمهم فقال .

صِفَةُ الطُّولِ بِلَاعَةُ الْقُدَمِ * فاجعل صفاتك لأبسة الكرم

وقد بالغ في ذلك حتى سمحه الخليفة وأخذ عليه ألا يذكر الحمرة في شعره، فقال :
أعير شعرك الأطلال والمترل القمرأ * فقد طامأ أزرى به نكت الخمرأ
دعاني إلى مت الطلول مُسلط * تصبى ذراعى أن أرد له أمرأ
سمما أمير المؤمنين وطاعة * وإن كنت قد حشمتى مرجا وعمرأ

وهج كثير من الشعراء نهج أبي نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن .



هذا الترف الذى شمل القوم، يضاف اليه اختلاطهم بالأطام، وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير، جعلهم يفتحون في اللغة العربية قننا جديدا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيدخلونها في أشعارهم وآثارهم، وتمتد أيديهم إلى كثير من اللفظ الأعجمي يصورون ما جاد به النعم وما استلزمته الحضارة . فيقول أبو نواس في ذلك :

وذاث خد مُوزَّد * قُوْهيَّة المتجوِّذ
 تأمَّل العين منها * محاماً ليس تَفَقَّد
 فبعضها قد تهاى * وبعضها يتولَّد
 والحسنُ في كلِّ عَصو * منها مُعَادٌ مُرَدَّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصعوا ماطرَ الطبيعة ورعدَ العيش وبيمه، ومحنة الإخوان
 وغياء القيان، ومصابد الوحش والطير، ومحالِّس الأيس والسرور، وآتسعدوا كثيراً من
 المعاني الجديدة، كقول بشار :

يا قوم أدنى لعص الحى ماشقة * والأذنُ تمشقُّ قل العين أحيانا
 قالوا من لا ترى تهدي فقلت لهم * الأذنُ كالعين توي القلب ماكانا
 وقال أبو تمام .

وإذا أراد الله شرَّ فصيلةٍ * طوبت ألتح لها لسان حَسود
 لولا اشتعالُ السارميا حاورت * ماكان يُعرفُ طيبُ حَرَفِ العود

قيت هالك أمور حديره بالاهتمام، كان يصعح أن يقف عندها قليلا، فقد بالغوا
 في الوصف، وفتحوا باب القصص، ونزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

أفضل الأول
محمد الأمين

توطئة — مولده — شأنه وأحلافه .

(١) توطئة :

في التاريخ الأمويّ مأساة مروّعة، وهي أن حدّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا حليفهم، وحرّوا رأسه، وذهبوا به الى يزيد، فبصه على ربح وطيف به في دمشق^١ . كانت تلك المأساة المروّعة نتيجة دعوى سياسية حادثة، على الخليفة الوليد الذي تُشبه حالته السياسية من حلّ وحوهها حالة الأُمس، فقد كان من ممحايها نظام ولاية العهد الثاني، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعله حليفاً بعده، فاضطر الى توليه أخيه هشام، ثم اباه الصغير الوليد بعد هشام . لحاول هشام أن يوئى اباه مسلمة بدل الوليد، كما حاول يزيد من قبل تولية اباه الوليد، فلم يُفلح هذا ولا ذاك . وكانت النتيجة المعقولة لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما حلّ ولّى العهد والبيع لولده، أن انضم الى كلّ من القوّاد والزعماء والأنصار، تأييداً له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّاد والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاصطهاد من ولّى العهد المصطهد متى ولي الخلافة وصار الأمر

إليه . فإذا ما اصطُهِدَ الخليفةُ هُـمَّ وَحِطَّتْ خُطَّتُهُ كَانَ نَصِيبُ سِرِّهِ مِنَ الرِّوَاةِ نَصِيبُ الوليد بن يزيد ، وهو نصيب محمد الأمين .

ريد أن قول ، إرساءً للعلم والتاريخ والمطلق ، أن الرواة إذا قالوا مثلا : إن الوليد كان كافرا أو كاتب مجموعة قبائح ، أو أنه سلم يوسف النقيّ كلا من محمد وإبراهيم ابي اسماعيل المظروعيّ موثق في عباةين ، وأن يوسف أقامهما للناس وحلدهما وعذبهما وأماتهما ، أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام ، وهوى بين زوج من الوليد وبين امرأته ، أو ذكروا أنه عدّ خالد بن عبد الله القسريّ سيّد اليمن وأنه سلمه للنقيّ فزاع ثيابه وعذبه مرّ العذاب حتى أماته ، أو وصفوا مُبَايَعَةَ يَرِيدَ بالنسك والورع — فإن من واحد المؤرّخ المصنف ، المتحرّج للحقائق التاريخية ، والرابع في الصفة العلية ، والمتشوّق في أمانة ورو وحكمه مع الافتراضات التحليلية ، والخاص لأحكام المطلق والحيدة والتعقل ، أن يطر بصقّ وتحزير كبير ، الى مثل تلك الروايات التي يوصّف بها الخليفة المصطهد والمعلوث على أمره ، وكل من أشلّ عرشه وصاع ملكه ، وَحُتِمَتْ بِالْقَتْلِ أو الحرمان حياته .

على أنه يحذر بما أن نتساءل ، قل أن يقتحم موضوعا في هدوء وسكون : ما هو الروح الذي يعلب على الرواة المعاصرين ، والشعراء المعاصرين ، والكُتّاب المعاصرين ، والمُحدِّثين المعاصرين ؟ وما النهج الذي تسلكه الصحافة المعاصرة ؟ أليس هو الى حدٍّ كبير قليل ، مُبَايَعَةُ الحزب القويّ أو الرعيم القويّ — مُبَايَعَةُ حَاوِةٍ قَوِيَّةٍ حَاوِةٍ ، وقد لا تحلو من مبالغة في تمخّدها بحاسه ، وإعراق في رابيتها على خصمه بقائمه .

فهمة المؤرّخ أداً — حين يعرّض لحياة طبيعة مصطهد انتهت حياته بحمر رأسه : مثل حياة الوليد بن يزيد الأمويّ ، ومحمد الأمين العباسيّ ، وحين يعرض لتحليل حياة طبيعة مستمر : مثل حياة يزيد حشم الوليد في العصر الأمويّ ، وحياة عبد الله المأمون حشم محمد الأمين في العصر العباسيّ — ليست ميسورةً معنّة بل هي جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والصبغة العلمية أن يُعرَض ما يرويه الرواة المعاصرون من مَدَجِّ للغالب وانتقاص للغلوب، على بساط البحث التحليلي . ولسا رمى ذلك الى أن تُرَفِّص مقولاتهم وتُنقَص بلاحي وجاهة رواياتهم ، وإلما وصي الحيلة والاحتراش لا أكثر ولا أقل .



(ب) مولده .

سد هذه التوطئة الوحيدة التي لم تَزِدْ عَاشِئاً في هذا الموضع ، وبدأ كلمتنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليلية لأحلافه . أما ناحية التراجم الذي نمر به وبين أحبه المأمون ، فلها موضعها التاريخي من كتابنا .

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي السنة التي استُخْلِفَ فيها والده الرشيد . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون ستة أشهر . وولِدَ المأمون في الليلة التي استُخْلِفَ فيها والده .

وأُمُّ الأمين أم جعفر بن عبد الله بن جعفر بن المصور ، فهو هاشمي الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق خليفة عباسي غيره .

واذ كان أحواله هاشميين ولم يَلم في الدولة مودَّ قوي وكلمة مسموعة . فقد سَمَّوْا ، فيما تحدثنا التاريخ ، حين مَدَّ جماعة من بني العباس أعناقهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمر الى آبٍ أختهم ، وقد مححوا .

سعى حال الأمين عيسى بن جعفر بن المصور الى الفصل بن يحيى الذي بعثه الرشيد علي رأس جيش الى خراسان ، لمحاربة بعض الخارجين على الخلافة ، وتسكين الاضطراب في تلك الواحي ، وقد كان التوفيق حليفه في ذلك الوجه ، فقال عيسى للفصل . «أَسْأَلُكَ اللهَ لَمَّا عَمِلْتَ في البيعة لان أحى ، فانه ولدك وحلافه لك» ، فوعده الفصل أن يعمل .

فلما كان الفضل بخراسان ، يُدلى بما واثاه فيها من طهور على الخارجين ، وهو مد من آل برمك وزراء الرشيد ، وأصحاب السلطان العظيم في الدولة ، بايع لمحمد الأمين هو ومن معه من القواد والحداد ، بعد أن فرق أموالاً عظيمة ، وأعطى أعطيات كثيرة . وتنفى بذلك شعراء العصر ، أمثال أمان بن عبد الحميد اللاحق ، والهمريّ وسَمَّ الخاليس وغيرهم . وليان وجهه نظيرهم في اليعة فتطلف لك شيئا مما قاله سلم والهمريّ .

قال سلم :

قد وفق الله الخليفة إذ بي * بيت الخليفة للهمان الأزهر
فهو الخليفة من أبيه وحده * شهدا عليه بمطير وبحر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى * لمحمد بن ربيده أسه حمير

وقال الهمريّ :

أست بمرو على التوفيق قد صمقت * على يد المصل أيدي النجم والعرب
بيعة لولي المهد أحكمها * بالصبح مه والإشفاق والحدب
قد وكّد المصل عقدا لا أنتقاص له * لمصطفى من م العباس منتحب
فلما تهاى أمر اليعة إلى الرشيد ، ووجد نفسه أمام «الأمر الواقع» ، إذ قد بايع لمحمد أهل المشرك ، بايع له بولاية العهد ، وكتب إلى الآفاق فبوج له في جميع الأمصار . ومن هذا علم ما يصح أن يعتبر سراً في أن الأمين كان ولي عهد الرشيد ، دون أن يكون أكرولده سا .



(ج) نشأته وأخلاقه :

تقرأ ما سطره أمثال «كارليل» عن «كرومول» و «فردريك الأكبر» وما كتبه «تقليان» عن «ماكول» و «زول» عن «جونسون» و «اللورد مودلي» عن

”جلادستون“، وغيرهم من الكتاب الذين يروصون لكاتبه تاريخ حياته الملوك أو الساسة أو العقريين، فلاحظ، في حل كتبهم، وفي الدقيق المستوى منها على الأخص، أنهم يعملون أيا ما احتضروا، فيبد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلم في طفولته، وكيف كانت ثقافته في تيمية شبابه وطراوة إلهابه، وما هي الأرواد والفرائب أيام كان حدثا صغيرا. وقد لا تدهشك متابعة ”ما كولى“ وقوة مسكه وارتفاعه الى دروة اللاعة في أساليه، ولا يهولك كثرة ما حفظ ووعره ما أطلع، اذا علمت مثلا أنه وهو لم يعد السادسة أو السابعة كانت محفوظاته في طفولته، تنشر بصقريته في رحولته. وكذلك يقال عن ”شارلس دكز“ وسيع الاطلاع في صباه على جل ما سطر وكتب، حتى صار في مقتل حياته وقد ملك ناصية اللاعة، وتسلم الدروة في تعرف العسيات وتحليل روح الطلقات كافة: من ناسين معورين الى أشراف مترفين. وكذلك يقال عن ”سبسر“ الفيلسوف العظيم والمربي الباه الذي كان يحمل في مبدأ فتاته، وهو لم يعد العاشرة مثلا، والدوينات وغريب الهوام التي كانت على شاطئ الهر، فمكف على دراستها، فتولدت في نفسه صفات الحلد والأناة والمواطنة، حتى أصبحنا راء، وهو في شبحوته، يجرح اللاس المعجز المطير في علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حد له ولا حصر. كذلك يقال عن ”حوسون“ في صباه، وكيف كان يعال المرض والمرص بفاله، وكيف كانت أحاديثه في مطامعه، وكيف كان يحضر بابه وتدفقه في محالسه، وكيف كان أيا صيوبا، مترضا أوقا، وفص في شيم وإباء حداثا جديدا اشتراه له من لاحت تحرق حذائه وقصريده عن جديد. الى آخر ما يقيده كتاب المصر عن نشأ أطفالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال في إثبات شيعه ومثيله، مما يعيد في تعرف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيم في طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجده، وحلده أو ترمه، وتعلمه أو تعزمه، وشاطه أو نحوله، ورزانتة أو تبدله، ووقف كذلك

على قائله وفصائله ، وهو حَدَّثُ صَدُّ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْمَمَ بِهِمَا مَحْبِبًا ، حِكْمَةُ تَصَرُّفَاتِهِ
وَيَمْتَلِكُ حَيَاتِهِ ، كَمَا يَفْهَمُ الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ وَالْحَدِيثُ خِدَّتَهُ .

ولتسأل الآن . هل تجل لنا التاريخ شيئًا قيمًا عن نشأة الأُميين وطعوته ؟

أظن أَى لَا أَعْدُو الْحَقُّ كَثِيرًا إِذَا قُلْتَ لَا ، إِذْ قَلْبًا يَعْزُضُ الْمُؤَرِّخُونَ الْقَدَمَاءُ لَشَيْءٍ
مِنْ طُفُولَةِ الْعَقْلِ وَرِحَالِ التَّارِيخِ .

على أَنَّا قَدْ وَقَفْنَا مِنْ طُفُولَةِ الْأُمِيّينَ عَلَى شِدْرَاتٍ لَيْسَتْ بِدَاتِ عَاءٍ كَبِيرٍ ، نَتَبَّهًا
لَكَ وَنَدْرَسُهَا مَعَكَ ، مَرْبَعًا سَاعِدَتَنَا مَعَى الْمُسَاعِدَةِ عَلَى تَعْمِيقِ حَدَاثَةِ الْأُمِيّينَ ، وَاسْتِغْلَاصِ
مَعَى الْحَفَاقِقِ عِوَضًا .

يُحَدِّثُنَا الْبَيْهَقِيُّ فِي «الْمُحَاسِنِ وَالْمَسَاوِي» بِمَا سَلَخْنَاهُ لَكَ حَاصِبًا بِنَشْأَةِ الْأُمِيّينَ التَّعَلُّمِيَّةِ ،
لِتَقِفَ عَلَى الْبَيْئَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْأُمِيّينَ ، وَلِأَنَّ رِوَايَتَهُ ، حَصْرُهَا مَا جَاءَ عَنْ حُلُمِ زَيْبِدَةَ
وَفَزَعِهَا مِنْهُ ، مِمَّا رَوَاهُ الْمُسَوْدِيُّ فِي «مَرْوَجِهِ» أَيْضًا ، قَدْ تَجَلَّيَا سَبُلًا بِحَقِّ أَثَرِ الْوَسْطِ
وَالْوَرَاثَةِ فِي حَلْقٍ مَا كَانَ بِالْأُمِيّينَ مِنْ اسْتِعْدَادٍ لِحُبِّ الاسْتِمْرَارَةِ ، مِمَّا كَانَتْ لَهُ نَتَائِجُهُ السَّيِّئَةُ ،
وَلِأَنَّهُ يَهْمَمُ بِهِمَا بَوَحٍ عَاطِمٍ لَمْ يَكُنِ الْأُمِيّينَ مَحْبِبِينَ ، أَدْبَارًا ، بَلْبًا ، وَلَمْ يَكُنِ عَابِتًا مُسْتَهْزَأًا ، وَلَمْ يَكُنِ
وَادِعًا مُتَبَيِّهًا . الدَّمَاءُ ، وَلِأَنَّهُ يَهْمُرُ شَأْنَهُ فِي تَرْفِ الْخُلَافَةِ وَنَعِيمِهَا ، وَتَرْجِخِ الْحَدَاثَةِ
وَنَهْزِهَا ، وَالْاِسْتِمْتَاعَ بِمَالِ زَيْبِدَةَ وَالْإِدْلَالَ بِهَا شَيْئًا !



أَنْتَ حَدِّثْ عَلَامَ أَنَّ الرَّشِيدَ حَلَلَ الْأُمِيّينَ فِي حِجْرِ الْفَصْلِ بْنِ يَحْيَى ، وَالْمَأْمُونِ فِي حِجْرِ
جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى . وَأَنْتَ حَدِّثْ عَلَامَ أَنَّ الْفَصْلَ بْنَ يَحْيَى قَالَ لِمُشَيْمِ بْنِ نُسْرِ الْوَاسِطِيِّ : «لَيْسَ
أَكْثَرُ مَا تَأْخُذُ بِهِ وَلِيَّ الْمَهْدِ الْأُمِيّينَ تَعْطِيمُ الدَّمَاءِ ، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ يُشْرَبَ اللَّهُ قَلْبَهُ الْمِيهَةَ لَهَا ،
وَالْعَفَافَ عَنْ سَفْكَهَا » . وَأَنْتَ حَدِّثْ عَلَامَ بَوَصِيَةِ الرَّشِيدِ لِلْأَحْمَرِ الْحَوِيِّ تَأْخُذُ الْأُمِيّينَ
بِالشُّعَةِ ، إِنَّ لَمْ تَتَفَعَّ الْمَلَايِكَةُ فِي تَقْوِيهِ . وَقَدْ آتَى لَنَا أَنْ تَتَرَكَ لِلْأَحْمَرِ فُرْصَةَ التَّكَلُّمِ ، فَيُرَوِّى
لَكَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ تَلْمِيْزِهِ الْأُمِيّينَ .

يقول الأحمر : « كنت كثيراً ما أشدد على الأميين في التأديب ، وأسمعه الساعات التي يتفزع فيها للهو واللعب ، فشكا ذلك الى حالصه — ولعلها كانت كبيرة وصيمات أو أميات القصر الزبيدي — فأنتى برسالة من أم حمور تعزم على بالكف عنه ، وأني أجعل له وقفاً أجده فيه لتوديع بدنه ، قلت : الأمير قد عظم قدره وعدّ صوته ، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية المهدي ، لا يحتملان التقصير ، ولا يقل منه الخطأ ، ولا يرضى منه بالزلل في المطلق ، والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة ، قالت : صدقت ، غير أنها والده لا تملك همتها ولا تقدر على كفا إشفاقها ، ومع حديثها أمر إن شئت حدثتك به ، قلت : وما ذاك ؟ قالت : حدثني السيدة أنها رأت في الليلة التي حملت بها به كائن ثلاث نسوة دخلن عليها ، فعددت منهن ثنتان ، واحدة عن يمينها ، وواحدة عن يسارها ، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها ، ثم قالت : ملك رحل ، عظيم البدل ، ثقیل الحمل ، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر ، سليم الصدر ، منهتك السر ! وقالت الثالثة : ملك قصاب ، عظيم الإلتاف ، يسير الخلاف ، قليل الإنصاف ! فامتهت وأما فزعاً فلم أحسن لمن أثار ، حتى كانت الليلة التي وصته بها ، أتيتني في الخلق الذي رأيتهن فيه ، ففعدت عند رأسه ، وأطلعتن جميعاً في وجهه ، ثم قالت واحدة منهن : شجرة نصره ، وريحانة حبيبة ، وروضة زاهرة ، وعين خدقة ، قليل لئسها ، غليل دهابها ! وقالت الثانية : سفیه عارم ، طالب للغارم ، جسور على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشقوا لحده ، وقفروا أكفانه ، وأعدوا جهازه ، فإن موته حير له من حياته ! قالت : فقيت متحيرة ، ومنتت الى المجمعين والمعبرين ومن يرجر الطير ، فكل يشترى طول عمره ، ويعدى قتاه وسعاده ، وقلبي بأبي إلا الحذر عليه ، والتهمة لما رأيته في ماضي . وبكت خالصة وقالت : يا أحرر وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحترق واقع الصدر ، أو يقدر أحد على أن يدفع عن أحبائه الأهل ! . قلت : صدقت ، إن القصاص لا يدفعه شيء . »

ويحدثنا التاريخ أن الرشيد أحمد فمن اتحد لتربية الأُميين وتعليمه ، قطرباً النحوى .
 وكان حمادُ عمرد يتعشق الأُميين ، ويطمح أن يتخذه الرشيد عليه مؤدماً . فلم يتهيأ له ذلك
 لتبتهكه وقبح ذكره في الساس ، وقد كان رام ذلك فلم يُحِبَّ إليه . فلما سمع أن قطرباً
 قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعصاه ، أحد حماداً المقيمُ المقعدُ ، حسداً على
 ما ناله قطرب من ذلك ولمعه من المنزلةِ الرقيقةِ والدرجةِ السنيةِ ، فأخذ رقعةً وكتب فيها
 أبياتاً ، ودفعها الى بعض الخدم ، الذين يقومون على رأس الرشيد ، وجعل له على ذلك
 جُملاً ، وسأله أن يُودِعَ الرقعةَ دواةَ أمير المؤمنين ، فعمل . فما كان بأسرع من أن دعا
 الرشيدُ بالدواء ، فادأ فيها رقعةً فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جراك الله معصية * لا يُجمع الدهر بين السُّحُلِ والذبيب
 السُّحُلُ عِرٌّ وهَمُّ الذبيب عَفْثُهُ * والذبيب يعلم ما بالسُّحُلِ من طيب

فلما قرأ الرشيدُ الرقعةَ قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطياً ! أشوه من الدار ؛
 فأخرجوه من تاديب الأُميين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأُميين حراساً ، واتحد عليه حماداً
 وكان عليه رهاء سمين أو ثمايين ' .

وعا كان من الحق أن نقول : إن هذه الشأه كانت لها آثارها السيئة ، خصوصاً أنا
 نلاحظ ، أن الأُميين تنقصه الثروة السياسية . وأنت تعلم أن الدرجة السياسية هي ماحية
 يؤبهُ لها كثيراً ، في تنمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتطيح ملكات السلطان
 في ولى المهدي ، خصوصاً ذلك العصر الذى لم تكن فيه وسائل الثقافة المملكية متوافرة
 توافرها اليوم : من سياحه لولى العهد الى الممالك المتمدينه ، ووقوف على مبلغ الحضارة
 العالمية ، كما هي حال ولى عهد إنجلترا ونظرائه مثلاً ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية
 في ذلك العصر كانت أشد منها اليوم ، لأن الملك حين دالك كان صاحبة سلطان فعلي
 مطلق ، غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

زيد أن يقول إنه إذا كان مثلاً المهدي الرشيد، حين ولاه قيادة الجند لحرب الروم، قد أوحى الرشيد في مركز القيادة العائنه، وفيها من الشيوخ المحكمين والقادة المدربين والزعماء المظمين، مجموعة صالحة للتقادة السياسية، وحرص تسخ، في البية بعد الفقيه، للراية السياسية ولتحرير طبعه مذبذب في فنون الملك، وإذا كان المأمون قد مذبذب للحكم في خراسان وغير خراسان، حتى نكبت به ظروف الأحوال عن مفسد مال الخلافة وبعمة ابن زبيدة ودلائل الهاشميين — يريد أن يقول إنه إذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هي نتائج الدربة السياسية، فمن الميسور أن نهم معته افتقادها، كما أنه من الميسور أن نستدطق أن عصرنا هاما من عاصير تكون رجال السياسة والحكم كان يقص الأمين الذي لم تستطع عاشيته من الخدم و بطانته من الموالي وأحواله من الهاشميين وأسائيد من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزم في أهوره، وسداد في تصرفه، وقمع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، وبما يحمله رجلا كاملا ! أظن لا . وأظن أنك محق في نفيك هذا عن كان في طروفه وبيئته .

على أنه من العدل والحق، أن تقرر أن الأمين لم يكن طيب الذهن أو ثقیل الظل، بل كان نقیض ذلك على حظ من توقد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والظل . وحسبك أن ترى شيئا مما كان يصح به في مجالس اللهو والمناذمة : من سرعة البديهة، وطرافة الکتنة، وحلاوه التدر، ورقة الدعاية، وصدوبة المكافاة، لتؤمن بما قول .

وكل ما أجمع عليه المؤرخون الميرتجة « كيور » وثبات دائرة المعارف الإسلامية، وانتهقت عليه كلمة المؤرخين العرب جميعا، أنه كان مستمرا، متيقنا، مع خور حلق، وعدم تصير في العواقب، ولا ترو في مهمات الأمور، مما يرجع في الواقع الى عدم العناية بتقافته السياسية، كما أسلفها .

وإنّا نحفون إذا ما قررنا أنّه لو وحدَ الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحياناً فتفلّ من شاةٍ نفسه العائشة المريحة ، وتقوم أعواح حلقه الرحو ، وتقوى بحياهه المحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليصهر لظى أوارها ، ويصقل من جلادها وبها لها ، ويعيد منه من جبره كُناها ، ودربة شيوخها ، وحَدَّع مدبرها ، وحطط مُشيرها ، وتولييه حكم صُقع من الأصقاع ، للزاة فيه على معصلات الحكم ومشكلاته ، والاحتصاك بقادته وقُصاته ، إذا كان للمأمون مه حصم لا يستهان به ولا تثنين قناته لفاخر .

على أنا وإن قلب إن الأمين كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبر الذي رواه الطبري وعيره والذي صر به المصري مثلا على إهمال الأمين وعفلة وحيله ، إلا بشيء من التحفظ كثير . وهاك خلاصه الخبر لكي تقدّر معا ما لهذه الملاحظة من وجاهة وقيمة :

لما اشتدّ الخلاف بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى عايتة ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه حشاشا ، لم ير في سداد قبل ذلك أكثف منه ، قوامه أرمون ألفا وقيل خمسون ، وزوقه بالسلح الكثير والأموال الوافرة ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولة ، حليل القدير ، مهيب الجاسب ، هو على بن عيسى بن ماهان . وقد خرج معه الأمين الى طاهر المدينة مشيا موقتا . وكان في حكم اليقين أن الطغر سيكون حليفه ، لكثرة عدده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره في حدود أربعة آلاف — ثم كانت الفلة طاهر ، وورد الجربعي على بن عيسى الى الأمين وهو يصيد ، قال للذي أخبره بذلك : دعني إياك كوثرا قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدت شيئا ! وكان كوثر هذا حادما من الحصيان ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول - ولعلك توافقنا فيما نذهب إليه - إنما لا نستطيع أن نقبل هذا الخبر وأمثاله ، إلا بشئ من التحفظ كثير . فإن خليفة يسمع مثل هذا الشئ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل في مصير سلطانه ثم لا يابه له ، لا يكتفى أن يوصف بالإهمال والجهل ، بل هو جدير بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسعي الأبله أولى بالمجر عليه منه بأن يكون ذا سلطان مطلق في دولة بعيدة الأطراف والتواحي . ومحال على الرشيد الذي عرف بالحرم ، وجودة الخدس ، والثاني في الأمور ، أن يُسَيِّدَ هذا السلطان العظيم من بعده لسيده أله .

لهذا تميل إلى الاقتراض كثيرا ، بل إلى الترجيح ، بأن هذا الخبر ، والكثير من أمثاله ، ليس إلا أثرًا من آثار الدعوة المأموية التي كان لها من الأثر في تلّ عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقل عن أثر صاكر المأمون وحرم قواده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأسقطوا في أيدي حودها ، لتورهم في الدفاع عن الأمين وعدم استبالمهم في النود عنه . ويمزومؤرعه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا إلى سحاء الأمين وإسراعه فيما كان يُفدق عليهم من الأموال والخسرات .

أما أنه كان سحيا بل مسرفا في السخاء فما لا ريب فيه . ومهما افترصت المبالغة فيما سنزويه لك قلا عن المطان الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورة التي ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعة مقتصدة - وهذا ما موصيك به دائما - كافية للاقتناع بأنه كان سحيا ، بل مسرفا في السخاء .

يقول الأصمعي في أعانيه : عني إبراهيم بن المهدي ليلة محمد الأمين صوتا في شعر أبي نواس :

يا كثيرَ الوج في الدّمن * لا عليها بل على السكي
سنة الشاق واحدة * فلذا أحبت فأمكن

طَنَ فِي مَنْ قَدْ كَفَّتْ بِهِ هُوَ يَحْفَوْنِي عَلَى الْقَلْبِ
رَشًا لَوْلَا مَلَاَحَتُهُ حَلَّتِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَتَى

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، فقال لإبراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أخرجني إلى هذه الغاية شترين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هي إلا خراج حصص الكُور ! . هكذا ذكر إسحاق .

أما محمد بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيم فقال : لما أردت الانصراف قال : أَوْقِرُوا رَوْرَقَ عَمَى دُمَايَرٍ ! فاصرفت بمال حريل .
ثم تسأل ، أَرَشَدَكَ اللَّهُ ، لنظر مِمَّا يرويه أحد المعاصرين ، وهو سعيد بن حميد فإنه يقول .

لما ملك محمد وجهه إلى جميع البلدان في طلب الملهيّن وصمّمهم إليه ، وأجرى عليهم الأذراق ، ونافس في ابتياع قُرْبهِ الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك ، واحتجب عن إحوته وأهل بيته وقواده واستحَفَّ بهم ، وقَسَمَ ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر ، في حصيانِه وحُلسائِه ومحدثيِه ، وَجَمَلَ إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر بنساء محالِس لمتنزهاتِه ومواقع حلوتِه ولطوهِ ولعسِه ، بقصر الخلد والحيزرانية ، وستان موسى ، وقصر عدونه ، وقصر المعل ، ورقة كلوادي ، وماب الأنار ، وتارى والموب ، وأمر بعمل خمس حُرّاقات في دِجْلَةٍ ، على حِقَّة الأسد ، و"مِعل ، والمقاب ، والحبة ، والعرص ، وأفق في عملها مالا عظيما . فقال أبو نواس يمدحه :

تَحَرَّ اللَّهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تُسَحَّرْ لِصَاحِبِ الْمَحَارِبِ
فَلَذَا مَا رَكابُه يَمِرُّ بَرَا سَارَى الْمَاءِ وَابْجَالَيْتَ عَابِ
أَسَدًا مَاسِطًا دِرَاعِيَه يَبْزِي أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالْخِ الْإِنْيَابِ
لَا يَمَانِيَه بِالْحَمَامِ وَلَا السَّو طَ وَلَا عَمَزَ رَحْلَه فِي الرِّكَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو رَةٍ لَيْثٍ تَمُزُّ السَّحَابِ

سَحَّوْا دِ رَأوْكَ سِرْتِ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَصْرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
 دَاتِ رَوِيْرٍ وَمَسْرٍ وَحَاحِيْرٍ تَشْقِ الْعُبَاتِ بَعْدَ الْعَابِ
 تَسْقِ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا أَسْتَحْمَلُوْهَا بِحَيْثِيَّةٍ وَدَهَابِ
 نَارِكَ اللهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَا * وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءُ الشَّابِ
 مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَاشِمِيٌّ مُوقِفٌ لِلصَّوَابِ

على أنه يصح التساؤل : من أين للخلقة ما يكفيه من الأموال الطائلة ، والثروات الوفيرة لسد مطامعه وإلحاحاته الى شئ ماعده ؟ .

وإنا نعلم أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلف مصادر المال : من حراج ربما كان طامسا ، وجايا هائلة مرقوعة ، وموازين عيبة ، وصرائب سالع في فرضها ، الى باب الاستصماء وحده وما يحجم عنه وعن نكدة الوزراء والكبراء . وجبدا لو وُتق لدراسته بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الصحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابنتي الأمير سعيبة عطيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، وأتخذ أخرى على حلقية شئ يكون في الحر يقال له «الدلعين» . فقال في ذلك أبو نواس :

قَدْ رَكِبَ الدَّلْعَيْنُ بَدْرُ الدَّبَجِ . مَقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ بَلَّجَا
 فَأَشْرَقَتْ دِحْلَةُ فِي حَسْبِهِ * وَأَشْرَقَ الشُّكْلُ وَأَسْتَبْهَجَا
 لَمْ تَرَعْنِي مِثْلَهُ مَرْكَبًا * أَحْسَنَ إِنْ سَارَ وَإِنْ أَحْمَجَا
 إِذَا اسْتَحْتَمْتَهُ مَجَادِفُهُ * أَسْبَقَ مَوْقُ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَجَا
 خَصَّ بِهِ اللهُ الْأَمِيرَ الَّذِي * أَحْسَنَى بِتِلَاحِ الْمَلِكِ قَدْ تَوَّجَا

ثم لتندرمي ما يرويه لنا أحد الأمراء قصر الرشيد ، وهو حسين حادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارت الى محمد هنيء له متوكل من مسأله على الشط هريش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ، فقال : ياسيدي ، لم يكن لأبيك فرش يباهي

به الملوك والوفود الذين يردون عليه أحسن من هذا، فأجبت أن أفرسه لك؛ قال :
فأجبت أن يُعرش لي في أول خلافتي المردراج !! وقال . مَرَقوه ! قال : رأيتُ
والله الحدمَ الفَرَّاشين قد صبروه مرقاً وقرقوه .

وهناك مئات من الشواهد التي يرويها المعاصرون، أمثال محارق المعنى ، وأنى عادة
المحتري عن مشيخته، والعاس من الفصل من الربيع، وكوثر وعيرهم ، عن سرف الأمين
وبدحه ووطوه وعثه ، يصح أن ترجع إليها في مطالعها، وكلها تؤيد صدق اللاب والجوهر .
في ذلك ما يرويه لنا حميد بن سعيد، من أن محمداً الأمين لما ملك، وكتابه عند الله
المأمون، وأعطاه بيعة، طلب الخصبان وأتاعهم، وعلى هم، وصبرهم لخلوته، في ليلة
ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، وحرص لهم فرصاً، سماهم الجرادية، وفرضاً
من الحبشان، سماهم العرابية، ورفض النساء الحرائر والإماء، حتى رمى بهم، وحتى قال
في ذلك بعض شعراء العصر، وقد ذكر أسماء بعضهم وحال الأمين معهم .

ألا يا مَرْمَنَ المنشوى طلوس • عَيْرِيَا ما يَفَادَى مالموس
لقد أَقْبَيْتَ الخصبانَ عَالَا • تَحْمَلُ مِنْهُمُ شَوْمَ البَسُوسِ
فأما بوقلُ فالشأنُ فيه • وفي يدِ يالك من حَلِيسِ
وما المصمى نَسَارٌ لديه • إذا ذكروا بدى سهمِ خَسِيسِ
وما حَسُّ الصغِيرِ أَحْسَنَ حالًا • لديه عَدُّ عَتْرِقِ الكُؤُوسِ
لهم من عُمُرِهِ شَطْرٌ وشَطْرٌ • يعاقرُ فيه شَرِبَ الحَنَدْرِيسِ
وما للفانياتِ لديه حَفْظٌ • سوى التَّقْطِيبِ بالوَحَةِ العُوسِ
إذا كانَ الرئِيسُ كذا سَقِيًّا • فكيف صَلاحُها عَدُّ الرئِيسِ
فلو عَلمَ المَقِمْ بدارِ طُوسِ • لَمَزَّ عَلَى المَقِمْ بدارِ طُوسِ



وفي الحق أنت قصف الأمين، وأنهما آكه في لهوه، وعلوه في عبثه، وأستهتاره في صرحه، وأشتغاله بوحه حاص بخدمه، قد جز عليه ومالاً كثيراً، ونشراً مستطيراً، وقرر منه قلوب المقلد، من مشايبه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكره عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بني هاشم، جليلاً وعقلاً، وصديقاً، وكان يتخذ الخدم، كطبيعة حياة المترفين في ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آخر خدمه عنده، يقال له منصور، وجد الخادم عليه فهرب إلى محمد، وأناه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قول، وحطى عنده خطوة عجيبه . فركب الخادم يوماً ، في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيفاء ، فتر بباب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يرى خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها، ولمع ذلك انجبر العباس فخرج إليه ، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس ، وقبض الأمين على العباس ، وهم أن يقتله ، لولا وساطة أم جعفر من ناحيه ، وأشتغاله بمروج الحسين بن علي بن ماهان عليه وأهله إلى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وعاشيته، ذوى السلطان، من المقرئين والزملاء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأسماء، أسوأ أثر في تاريخ المدينه الإسلامية .



وهالك ظاهرة حلقية في أخلاق الأمين ، وهي حبه للاستهارة واحتفاله بالبحث عن أمر طالبيه، وركوته، حتى في آخر لحظة من حياته وهي لحظة التقرير في مصيره أيسلم نفسه إلى طاهر أم إلى هرثمة، إلى سام رآه . ورعا كانت هذه الحلة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا ، أو من روح العصر فيه، وإن كان أن ماهان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يميل في مهام أموره بالاستحارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جل اعتماده على مشورة رجاله وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأُميين لم يكن يستشير ، ولكنه كان في كل شؤونه يظله
 هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير طائته فيه النقيصة السيئة ،
 فكان لا يعمل بما يدل به إليه من نصيح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه
 عمرو بن حفص مولى محمد ، إذ يقول . « دخلت على محمد في خوف الليل ، وكنت من خاصته ،
 أصبل إليه حيث لا يصل أحد ، من مواليه وحشمه ، فوجدته والشمع بين يديه ، وهو
 يفكر ، فسلمت عليه ، فلم يرد عليّ ، فعلمت أنه في تدبر بعض أموره ، فلم أزل واقفا على
 رأسه ، حتى مضى أكثر الليل ، ثم رفع رأسه إلى فقال : أحضرني عبد الله بن حازم ،
 فضيت إلى عبد الله فأحضرته ، فلم يزل في ماظرته ، حتى انقضى الليل . وسمعت عبد الله
 وهو يقول . « أَسَدُكَ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أن تكون أول الخلفاء بكث عهده ، وقص
 ميثاقه ، وأسحق بجميه ، ورد رأى الخليفة قلبه . » فقال : « أسكت الله أبوك ! فعد الله
 كان أفضل منك رأيا وأكمل نظرا ، حيث يقول : لا يجتمع حلال في همه » . ثم جمع
 وجوه القواد ، فكان يمرض عليهم واحداً واحداً ما أعترمه بإبويه ، ورعا ساعده قوم ،
 حتى بلغ إلى حريمه بن حازم ، فشاورة في ذلك ، فقال : « يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لم يصحبك مَنْ
 كَدَبَكَ ، ولم يشك من صدقك ، لا تُحَرِّئِ القواد على الخلع فيعلموك ، ولا تحملهم على مكث
 المهدي فيكثوا عهدك وبيعتك ، وإن العادر مخدول ، والناكث معلول ! » .

ولكن الأُميين — كما قلنا — كان هواه يعمى عليه وجه الصواب من أمره ، وكان واقفا
 تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من طائته ، وهم الذين كان
 رياؤهم سما زافا ، ونفاقهم ماء فتاكاً ، وليس كلامهم حسكا وقناداً ، والذين لم يخلصوا
 للملكهم أو بلادهم ، فيما يدلون به من الآراء ، وما يقدمونه من النصائح ، وإنما يخلصون
 لمحال مصلحتهم ، فزيناؤهم لكث المهدي ، وسهلوا له أمره ، حتى أقدم عليه ، وكان ما كان
 من النزاع على ما سبغفه لك في مابه .

على أنا لا نغنى بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان يسد الذهب ، وإنما صني أنه كان ضيف الإرادة ، عديم الذرية . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا نتوقد دمه ، وفصاحه لسانه ، ومرر أيضا ، إحقاقا للحق وإصافا للتاريخ ، أنه كان بلغا ، متعهدا ، الى حد غير قليل ، قواده الصبح والرأى ، فقد ذكر أحد معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما حار باب حراسان ترجل وأقبل يوصى على بن عيسى بن ماهان : «امع جندك من العت المريعة ، والعار على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتاك النساء ، وول الرى ينجى بن على ، وأسم اليه حدا كثيفا ، ومرة ليدع الى جده أرزاقهم مما ينجى من خراجه . وول كل كورة ترحل عنها رجلا من أصحابك . ومن خرج اليك من حد أهل حراسان ووحوها فاطهر إكرامه ، وأحسن حائزته ، ولا تعاقب أحبا بأخيه ، وضع عن أهل حراسان رح الخراج ، ولا تؤمس أحدا رماك بسهم ، أو طمس من أصحابك برمح» .

ولم تكن هذه الوصية هي الوصية الوحيدة للأمين مفعول : فلتة من عابث ، فإن هناك نائية وثالثة وهلم جرا . وما هوذا أحد بن مزيد أحد قواده يجبر أنه لما أراد الشخصوس في مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصى أكرم الله أمير المؤمنين ؛ فقال : «أوصيك بمحصال عده : إياك والبعى ، فإنه عقال الدهر ، ولا تقدم رجلا إلا باستشارة ، ولا تنهر سيقا إلا بصد إعدار ، ومهما قدرت عليه فاللن ، فلا تتعد الى الخرق والشر ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالنى ماخارك في كل يوم ، ولا تحاطر بنفسك طلب الزلعة عدى ، ولا تستقها فيما تحاف رجوعه على ...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظة من حياته محاولا الانتصار ، باذلا مقدوره في الحرب ، ولكن عبته ولفوه كانا يقعدان به .

وكان طيب القلب ، يدعو حتى عن الخارجين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن على بن ماهان المعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليه أن يدع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين في يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعةَ فيها، وإلا عمل فيهما محكمه وأعد فيهما أمره! فقال له الأمين: « أنت أمراني بحنون، أدعوك الى ولاء أمة العرب والمسلم، وأطعمك حراج كور الجبال الى نهر اسان، وأرفع منزلتك عن بطرائك، من أساء القواد والملوك، وتدعوني الى قتل ولدي، وسفك دماء أهل بيتي! إن هذا لمحرق والتحليل! »

هذا الموقف البيل، دليل على سلامة طويته، وطهر تبحته. ولكن حظه الحالك، وبحمه الآفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وحوار عزيمته، ولطوه وعفته، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحيلة الموجهة اليه، قد صرت يجرأها على سيرته، فادأ بها شواهه مُرديّة، وإذا بها مقنعةٌ سمعه، حتى قيل فيه ما قيل مما يحدربنا ألا نحلى كتابنا من إثبات بعضه .

حاء في الجزء السادس من كتاب معداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور: « قال المأمون لطاهر بن الحسين: يا أبا الطيب! صف لي أخلاق المخلوع، قال: كان يا أمير المؤمنين واسع الطرب، ضيق الأدب، يبيع نفسه ما تمناه هم ذوى الأقدار! قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: كان يجمع الكائنات ويقتضها لسوء التدبير، قال: فكيف كنتم له؟ قال: كنا أسدائنا تيت وفي أشداقها أعناق الباكثين، وتسبح وفي صدورها قلوب المارقين، قال: أما إنه أول من يؤحد بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت راسهم ولا حامسهم، وهم الفضل بن الربيع، وبكر بن المقتدر، والسندى بن شاذك! هم والله ثار أحى وعدم دمه...! » .

وقال المسعودى في التبيين والإشراف: « إن الأمين كان باسطاً يده بالعطاء، فيبيع السيرة، صعيّف الرأي، سعاكاً للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الخطوب على صبره، ويتق بمن لا يصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استر الفصل لما تين من اختلال أمر محمد، ووهى أمره، فقام بوزارته من حدمر من كتابه كاسماعيل بن صبيح، وعاب عليه عتة من الأولياء منهم على بن عيسى، والسندى

ابن شاعك، وسليمان بن أبي جعفر المصور . وقال غيره: « إنه كان كثيرَ اللُّهُو واللُّعِب، منقطعاً الى ذلك مشتغلاً به، عن تدبير مملكته .

ويقول ابن الأثير: « لم يجد للأمن شيئاً من سيرته، فستحسبه مدكره » . وهذا حق في جملته عن الأمير كدّر مملكة وحليفة، وإن قوّ عِراً، لم يُثَقِّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصحح ذا سلطان مُطلق، في ملك كبير يشع ذوى المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشية من الدهاء، ذوى المطامع الواسعة، والأعراض الكبيرة: كالفضل بن الربيع، الذي أفسد ما بينه وبين أخيه، وكرس المؤتمر الذي زبّن له حلمه، ثم هو فوق ذلك، يصرف الى حد كبير، عن معالجه تدبير الملك، الى اللُّهُو، وإلى اللُّهُو بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علي بن إصحاق أحد معاصريه: أنه لما أفصت الخلافة الى محمد، وهذا الناس بعدد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته يوم، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالة واللعب، فقال في ذلك شاعرٌ من أهل بغداد:

يَا أَمِيرُ اللَّهِ مَيْدَانَا • وَصَيَّرَ السَّاحَةَ بُسْتَانَا

وكانت العِزْلَانُ فِيهِ مَأَا • يُهْدَى إِلَيْهِ فِيهِ عِزْلَانَا

نقول إن مثل هذا الفنى الذى يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التى كان يحذر به ومن كان فى مكانه ألا تكون صاحبة الصبيب الأول من صابته واهتمامه، حليق ألا يحدّ المؤرّخ له عملاً صالحاً فى شأن من شؤون الدولة، وقبيل، على ذلك أن يكون موضع استغلال كبير للدعوة المأموية .

وقال غير ابن الأثير: « كان الأمين فصيحاً بليغاً كريماً » . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمر والكسائيّ وقطرب وحامد وغيرهم من حول اللغة وجهادة البيان وأساتذة الأدب من مشور ومظوم فصيحاً بليغاً !

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضاً، أن هذه الصعاب، تكاد تكون من محاييا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة العيسية . ومن أجل هذا، دها الى ما ذهبنا إليه، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البله والسُحف، ومن المحول والبلادة . ومحال أن يكون كذلك، وتصرفاته في مص شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحال أن يكون ليبدأ بفطرته وأستعداده، أو جاهلاً عيياً، لأنه في الدرّة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدار أهتمام الخلفاء الصاسيين، والأمراء الهاشميين، بالثقافة الأدبية، كما ينالك ذلك في كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية والعصر الصاسي . وإنما طرّف حياة الأمين، والبيئة التي أحاطت به، وما إلى ذلك مما فصلناه لك، جعلت صورة الأمين كما أراها التاريخ، ثم هي في الوقت نفسه حنّحت به إلى الاستهتار وإلى العبث والمجانة .

وقد يكون أحسن ما نختم به كلمتنا من تحليل الأمين وسيرته، وأصدق وصيف له، ما ذكره الفصل بن الربيع، وزيره وورير أبيه من قبله، والذي سعرض لشيء من دقيق تصرفاته، وحكم تدبيراته، عند ما عرض لتفصيل النزاع بين الأمين والمأمون، فهذا الوصف ربما كان أقلّ تحاملاً من غيره على الأمين، وربما كان حياً من سواه في تصوير الأمين وتحليل أخلاقه وهسيته .

ذكر الطبري: «أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفصل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، قال: فأنبته، فلما دخلت عليه، وحدثه قاعداً في مص داره، وفي يده رقعة قد قرأها، وأحمرّ عيانه، وأشدت عصبه، وهو يقول: يوم الطيران، لا يهركي زوال سمة، ولا يترقى في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد الماه كأسه، وشحله قدسه، فهو يجرى في طوره، والأيام تسرع في هلاكه، قد شمرّ عبد الله له عن ساقه، وفوق له أضبيب أسهمه، يرميه على بعد الدار بالحلف الباهد والموت القاصد، قد عني له المايا على متون الخليل، واطل له البلاء في أسه الزماح وشعار السيوف، ثم استرجع وتمثل بشعر البيث :

وَتَجِدُولِي حَلِيلِ الصَّانِ خَرِيدَةً * لَهَا شَعْرٌ جَعْدٌ وَوَحْهٌ مَقْسَمٌ
وَتُشْرِقِي اللّوْنِ حَذْبٌ مَذَاقُهُ * تُعَيُّهُ لَهُ الظَّالِمُ سَاعَةً يَتِيمٌ

وَيَذِيانِ كَالْحَقِيقَيْنِ وَالطَّنْ ضَامِرٌ . تَمِيصُ وَحُمْرُ دَاوُدَ تَتَصَرَّمُ
 مَهْوَتْ بِهَا لَيْلُ التَّمَامِ ابْنُ خَالِدٍ عَلَى تَمَرِ وَالرُّودِ عِظًا تَحَرَّمُ
 أَظْلُ أَنْاعِيهَا وَنَحْتِ ابْنِ خَالِدٍ أَمِيَّةَ نَهْدِ الْمَرْكَبَيْنِ عَشَمُ
 طَوَاهَا طِرَادُ الْخَلِيلِ فِي كُلِّ عَارِهِ * مَا عَارِضٌ فِيهِ الْأَسَةُ تُرْزِمُ
 يُقَارِعُ أَتْرَاكَ ابْنِ حَاقَانَ لَيْلَهُ * إِلَى أَنْ يَرَى الْإِصْبَاحَ لَا يَتَلَمَّ
 فَيُصْبِحُ مِنْ طُولِ الطَّرَادِ وَجَسْمُهُ * نَحِيلٌ وَأُحْمِي فِي الْعِيمِ أَصَمُّ
 مَشْتَانٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ خَالِدٍ * أَمِيَّةَ فِي الرِّزِيِّ الدِّيِ اللَّهُ قَائِمُ

م التفت إلى فقال : « يا أبا الحارث ، إما وإياك ليجرى إلى عاتية ، إن قصيرا عنها
 دُجما ، وإن اجتهدنا في بلوعها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قويا ، وإن
 صعب صعبنا ، إن هذا قد ألقى بيده ، إلقاء الأمة الوثقاء ، يشاور النساء ويعترم على
 الرقبا ، وقد أمكن بحسامه ما معه من أهل اللهو والحسرة ، فهم يعدونه الطفر ، ويمدونه
 عقب الأيام ، والمهلك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل . وقد خشيت والله أن
 نهلك بهلاكه ونعطب بعطيه ! » .

الفصل الثماني

المأمون

توطئة - مولده - نشأته وأحلامه .

(١) توطئة :

لنتقل الآن الى حياة المأمون ، ولنتبع في دراستنا له هس الطريقه التي ترسمها حين دراستنا لحياة الأُميين ، متكلم عن مولده ، كما متكلم عن نشأته وأحلامه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخيه في هذا الصدد ، وأن نطرحها نظرة تفهم واستيعاب وإمعان ومقارنه ومواريه بما يقتضيه المقام من إحمال وإيجاز .

(ب) مولده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشره ليله حلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي التي استحل فيها الرشيد ، فلما نُشِرَ بمولده سر به سروراً عظيماً ، وسماه المأمون تيمناً بذلك . وأمه أم ولد بادعشيه تسمى «مرّاحل» ونقال : إنها نمت الى أسر عريقة في العهد من الأسر العارسية .

نشأ المأمون في حجر الخلافة وترباً له من وسائل التربية والتخفيف ما لم يتبأ إلا لأحبه الأُميين . وكانت ظاهرة عليه مخالئ النجابة والدكاء وبعد الهمة والتعالي بنفسه عن سفساف الأمور .

ومع كبر سن المأمون ، وظهور هذه الخلال فيه ، وثقة الرشيد به ، ومحبه له لم يتخ له ما أتيح للأُميين ، من البيعة بولاية العهد ؛ إذ كان لأُم الأُميين من المكانة لدى الرشيد ، وهي زوجه ، ما لم يكن لأُم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، في كلامنا على الأُميين ، ما قام به أخواله من المسعى الموفق ، في أن يكون أمر الدولة من بعد الرشيد ، لأبن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيى في نراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيد أمام الأمر الواقع، فأعلن ولاية العهد للأمين راضياً أو مُكرّهاً .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكل الرشيد كماله المأمون، والنظر في شؤونه، ومراقب أحواله، جعفر بن يحيى وزيره، كما جعل الأمين، في كفالة الفضل أنى جعفر . ويحس نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساساً قد لا يصدو الواقع كثيراً، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفضل، ولاية العهد للأمين في نراسان، صلة .

فلما نما المأمون وترعرع، أحد المؤرخون بدكروا لنا من مظاهر عجايبه وجره، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمس كات أهواؤهم معه أو عليه، ووقوره على ما يجرى حوله من شؤون وأحوال، مما سقّصه عليك، ما ينبغي بما سيكون لهذا العلام من شأن عظيم . ولعل أظهر ما يدل على تحابه المأمون في صباه ما يقصّه عليا التاريخ عن أبي محمد اليزيدى مؤدبه الذى يقول « كنت أؤدب المأمون، وهو في كفالة سعيد الجوهري، بفتت دار الخلافه، وسعيد قادم اليها، وجهت الى المأمون بعض حديمه يعلمه بمكانى، فأطاعنى، ثم وجهت آخر فأطاع، فقلت لسعيد : إن هذا العتي ربما تشاعل بالبطالة وتأنر، فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقتك ^(١) ترم على حديمه، ولقوا منه أذى شديداً، فقومه بالأدب . فلما نرج تاولته ببعض التاديب، فانه ليدلّك عينيه من البكاء، إديقيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل، فأحد متديلاً مسح عينيه وجمع ثيابه، وقام الى فراشه فقعده عليه متربحاً، ثم قال : ليدخل . فقممت عن المجلس، وخنفت أن يشكونى اليه، فالتى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهه وحدته حتى أحسكه، وضحك اليه . فلما هم بالحركة، دعا المأمون بداية جعفر ودعا غلمانَه فسوّوا بين يديه، ثم سال عنى بفتت، فقال : حدّ على بقية حربى ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد خفت أن تشكونى الى جعفر

ان يحيى، ولو فعلت لتَنَكَّرَ لى، هال تَرَأَى يا أبا محمد كست أطلع الرشيد على هذه ! فكيف
بجمعهم س محى حتى أطلعه على أى أحتاج الى أدب ! حد فى أمرك، عافاك الله ! فقد
خطر سالك ما لا تراه أبدا، ولو عدت الى تأدى مائه مره !

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون . وثوب مصره، وأصانته وحصانه، مد نومه
أطعاره، وميتعه صاه، ما يحكى من أب أم حمير عانت الرشيد، فى تعريضه للمأمون ،
دون الأئمين ولدها ، فدعا حادماً وقال له . وَحَه الى الأئمين والمأمون حادماً ، بقول لكل
واحد منهما على الخلو . ما تفعل اذا أفصت الخلافة اليك " فأما الأئمين فقال للهادم :
أُطِيعُكَ وَأُعْطِيكَ ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواه كاس من يديه وقال . أَتَسْأَلُنِي
عما أَفْعَلُ بك يوم يموت أمة المؤمنين رحيله رب العالمين ' إلى لأرحو أن نكون جميعا
هداء له ! فقال الرشيد لأم حمير . كيف رَيتَ " فسكتت عن الحواب .

وأعدل الشواهد على تقدير هذا العلاج لنفسه . كأمير وآسي طيعه ، وشعوره بما له
من منزلة احتياقيه حاصيه ، وبما يسعى أن يكون له ، فى نفوس الناس من إحلال
واحترام ، وما يجب لثله ، فى آداب التحية وحس الخطاب ، ما حبه به الحسن اللؤلؤى ،
وهو الذى اتخذه الرشيد مؤقبا للمأمون ، بعد أبى محمد البردى ، حين كان يطارحه شيقاً من
الفقه ، وأحدث المأمون سبه من اليوم ، فقال له اللؤلؤى : تمت أسما الأئمين " فقال المأمون :
سوقى ورب الكعبة حينما سبه ! خاء العلمان فأقاموه . فلما بلغ الرشيد ماصع قال ممثلاً :

وَهَلْ يُبَيِّتُ الْحَطِيَّ إِلَّا وَشِيحُهُ . وَتُسَرِّسُ إِلَّا فى مَسَاتِهَا الْحُلْ

ويحدثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبياً ، أن الرقاشى هاه حين مدح الأئمين بقوله :

لَمْ تَلِدْهُ أُمُّهُ تَعْرِفُ فى السُّوقِ التَّحَارِ

لَا وَلَا حَذَّ وَلَا حَا « ن وَلَا فى الْحَزَى حَارَا

يعترض بالمأمون ، لأن الرشيد كان قد حذّه فى حارية أو فى خمير .

ومهما يكن من شئ ، فى صبا المأمون ، فقد كانت ظاهرة فيه ، مخايل البجاية والذكاء
والحزم ، وحس التدبير وجودة الخديس ، والطموح الى الكمال . .

وقد محمد الذئب يدهون ، الى أن في تلقيح الأحاس محسباً للوع ، محبة طاهرة
في المأمون لمدهم ، إذ لا تُعزِّزهم الوسيلة في أن يرحموا نخاسته الى أنه من أم فارسية وأب
عربي ، أو معاره أخرى . الى أنه قد جمع بين الدم الآري والدم السامي .

هذه المحافل حبتة الى الرشيد ، وحملته يقدره قدره ، فجعله ولي عهد الخلافة بعد
أبيه الأمين ، وجمعت حوله طائفة من دوى الهمم الشفاء الذين توسموا فيه محققا
لأطماعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التعموا حوله ، لتحقيق مآطعهم ، الفصل من سهل الذي اُبعد
يحيى بن خالد البرمكي وسيلة الى الرشيد ، في أن يكون في خدمه المأمون . وحسبك أن تعلم
من أمر الفصل هذا ، أنه القاتل حين سئل عن السعادة : إنها أمر حائر وظلمة نافذة ! .
وأنه الذي قال له مؤذنب المأمون يوماً في أمام الرشيد : إن المأمون لجميل الرأي فيك ، وإني
لا أستعد أن نحصل لك من حبه . ألف ألف درهم ، فاعاط من ذلك وقال له : ألك
على " حقد " ألى اليك إسماء " قتال المؤذنب . لا والله ماقلت هذا إلا محبة لك " فقال :
أقول لى . إنك تحصل منه ألف ألف درهم " والله ما صحت له لأكتسب ما لا قل أو حله ،
ولكن محبة يمحى حكم حاتمى هذا في الشرق والغرب ! قال . فوالله ما طالت المدة
حتى بلغ ما أمل .

حسبك أن تذكر لك هذا ، من أمر الفصل من سهل . لتعلم ما لهذا الرجل من هميه
وتأنيه ، وعزيمه مرهقيه قصاده ، ومطامع واسعه . وحسبك أن تذكر لك ما وضعه به أحد
معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال

بمضى الأمور على بدته * وزنه صكرته عواقبها

فيطل يضيدرها ويوردها * فتم حاصرها وعائنها

(١) كتب أستاذا للشيخ عبدالوهاب الحارثي هذا ما يسه : « كنت كان الرشيد ، كان يجمع بين الدم الآري
والدم السامي . سهل الحسين يجمع في الطيف الأولى فقط ويسد في الثانية " ومع هذا فان حورثان لومون يخالف
هذا الرأي على إطلاقه ويقول : إن أمة كل أمدادها مولدون لانساس و يمل ذلك تصدرب السحاب والمحال
والعقائد التي يرتها من أويوه واضطرابها في سبه » .

وَإِذَا الْمُنْتِ صَعَةً عَطَمَتْ * فِيهَا الرِّزْيَةُ كَانَ صَاحِبَهَا
 الْمُسْتَقْلُ بِهَا وَقَدْ رَسَبَتْ * وَلَوَتْ عَلَى الْأَيَّامِ جَانِبَهَا
 وَعَدَّتْهَا الْحَقُّ فَاعْتَدَلَتْ * وَوَسَّعَتْ رَاعِيَهَا وَرَاحِبَهَا
 وَإِذَا الْحُرُوبُ بَدَتْ مَعَتْ لَهَا * رَأْيًا تَحْمِلُ بِهِ كَأَنَّهَا
 رَأْيًا إِذَا بَدَتْ السُّيُوفُ مَعِيَ * عَزَمْتُ بِهَا فَشَفَى مَصَارِبَهَا
 وَإِذَا الْخَطُوبُ تَأَلَّتْ وَرَسَتْ * هَدَتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
 وَإِذَا بَرَتْ بِصَهِيرِهِ يَدُهُ * أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَا قَبْلَهَا

يقول المعري قالوا لما رأى رأى المصل بن سهل بحفاة المأمون في صباه، ونظر في طالعها، وكان حبرا علم الحجوم، فدلته الحجوم على أنه سيصير خليفة، لم ناحيته وحدهم ودبراً وره، حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره.

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون، إلى حربه بالحجوم، أم إلى جوده حذسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبي، وكان الحامل له على أن يكون في خدمته تحقيق آمال كبار، رأى بكاسته وحذقه في بحابة المأمون حبر كميل بتحقيقها.

ولقد كان استعداد المأمون المعطرى مند نشأته أن يكون رجل جماعة، وقائد أمة، إذ قد حبته الطبيعة فيما حته من شتى المواهب موهبة الخطابة والتمرير بها. فقد أحبرها محمد بن العباس اليزيدي قال حدثني عمي عبد الله وأخي أحمد قالا: لما بلغ المأمون وصار في حد الرجال، أمرها الرشيد أن يعمل له حطبة يقوم بها يوم الجمعة، فعملها له حطبه المشهورة، وكان جههر الصوت، حسن اللهجة. فلما حطب بها رقت له قلوب الناس، وأنكى من سمعه، فقال أبو محمد اليزيدي يمدح المأمون:

لَتَهْنَأُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَرَامَةً * عَلَيْهِ بِهَا شُكْرُ الْإِلَهِ وَحُوبُ
 أَنْ وَلَّى الْعَهْدَ مَأْمُونٌ هَاشِمٌ * بَدَأَ فَضْلُهُ إِذْ قَامَ وَهُوَ خَطِيبُ
 وَلَمَّا رَمَاهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَايٍ * بِأَنْصَارِهِمُ وَالْعُودُ مِنْهُ صَلِيبُ

رَمَاهُمْ يَقْوَى أَمْسَتْوَا عَمَّالَهُ • وَفِي دُونِهِ لِلسَّامِعِينَ عَجِبُ
وَلَمَّا وَعَتْ آذَانُهُمْ مَا أَتَى بِهِ • أَنَابَتْ وَرَقَتْ عِندَ ذَلِكَ قُلُوبُ
فَأَبْكَى عِبَادَ النَّاسِ أَلْمَعَ وَأَعِظَ • أَعْرَضَ بِطَلْحَى النَّحَارِ تَحِيُّ
مَهِيئٌ عَلَيْهِ لِلوَقَارِ سَكِينٌ • حَرَى حَيَّانٍ لَا أَكْغُ هُبُوبُ
وَلَا وَاجِبٌ مَوَى الْمُسَابِرِ قُلُوبُهُ • إِذَا مَا اعْتَرَى قَلْبَ الْحَبِيبِ وَجِيبُ
إِذَا مَا عَلَا الْمَأْمُونُ أَعْوَادَ مِثْبَرٍ • فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ صَرِيبُ
تَصَدَّعَ عَنْهُ النَّاسُ وَهُوَ حَدِيثُهُمْ • تَحَدَّثَ عَنْهُ بَارِزٌ وَفَرِيبُ
شَيْءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامَةٌ • إِذَا وَرَدَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ خُطُوبُ
إِذَا طَابَ أَصْلُ فِي عُرُوقِ مِثَابِهِ • فَأَعْصَانُهُ مِنْ طِيهِ سَتِيبُ
فَقُلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي لَهُ • يُقَدِّمُ عِنْدَ اللَّهِ فَهُوَ أَدِيبُ
كَأَن لَمْ تَبْ عَ لَدِيَّةٍ كَانَ وَالِيَا • طَلِبَهَا وَلَا التَّدْبِيرُ مَكْ عَيْبُ
تَنْتَعِ مَا يُرْصِيكَ فِي كُلِّ أَمْرِهِ • مَسِيرَتُهُ شَخْصُ الْبِكِ حَيْبُ
وَرِثْتُمْ بِي الْعَاسِ يَارِثُ مُحَمَّدٍ • فَلَيْسَ لِحَيٍّ فِي الثَّرَاثِ نَصِيبُ

فلما وصلت هذه الأبيات إلى الرشيد أمر لأبي محمد بحبس ألف درهم ، ولأبيه محمد
أبي أبي محمد بمثلها .



« وصدق » ، فليس من شك في حماية المأمون وتبرزه . ولعل هذه الحاية الحارقة ،
كانت من الأسباب التي حملت الرشيد ، على أن يستوثق له الأمر في ولاية العهد من أخيه ،
ولأخيه معه ، فجمعتهما في بيت الله الحرام ، حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه كبارُ
رجال الدولة ، وحل الطاهرين من الأسر المالكية ، واستكتب كلهم عهداً بما له وعليه
قَبْلَ الآخر ، وأشهد عليهما جماعة من دوى المكانة والعود ، ثم صَلَّقَ المهدي في الكعبة ،
ليكونا في مكان الاحترام الديني . وقد أثبتنا لك المهديين في باب المنشور من الكتاب الثالث
في مجلدنا الثالث .

نقول : لعل هذه الحجة الحارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يفعل ما فعل ، من استئثار الأمر بين الأخوين ، خوفاً على المأمون ومعه . ولما شكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضه : من أن الرشيد كان يُقدّر فوزه حرباً المأمون والأمين ، وبعبارة أخرى ، حرباً العريس والعريس ، أو العلوية والهاشمية ، أو الشيعة والسنية .

وعن لا يستطيع أن نزع مظاهر العطف المختلفة ، وفي مناسبات كثيرة من الرشيد على المأمون ، إلى الأذى وحدها ، فإن للرشيد أولاداً غير المأمون ، وغير الأمين ، لم يالوا شيئاً من هذه الخطوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأياً — أن هذه الخطوة ، التي يالها المأمون من الرشيد ، في مناسبات كثيرة ، دون إخوته ، ترجع إلى ما امتاز به المأمون ، من حماية حارقه ، وميل إلى حدّ الأذى ، وترفع عن سفسافها ، وسمو عن دنائها ، واصطلاح بما يكلف القيام به من أعماء ومهائم .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون ، ما فعله الرشيد حين وافته ميتة "طلوس" ، من وصيته بجميع ما كان معه ، من جيد سلاح ومالٍ للمأمون ، دون أن يكون لخليفته من بعده ، ليشدّ بذلك من أزر المأمون ، ويقوّى من حاله . وأنت حدّ عالم بما قدماه لك من الكلام في العصر الأموي ، عن أثر المال فتقدّر بها ما كان يرومه الرشيد ، ولست في حاجة لأن أقول لك ، إن أثر المال وسلطانه في معوذ الكلمة ، وقوة الشوكة ، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا صدو الواقع كثيراً ، حين نذهب إلى القول بأن الرشيد كان يحدّر الخلاف بين الأخوين ، ويحاف كليهما على الآخر : يحاف الأمين على المأمون ، لأن الأمين سيُصبح الخليفة الذي بيده قوة الدولة من جيد ومال ، وتصحبه مزاياها من عظم الهيبة وعود الكلمة ، وسيكون مطمئح آمال الآملين وموصح رحاء الراحين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس حذراً ، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفتون حوله ، رغبة أو رهبة . وجدير بما كان هذا شأنه أن يُحتسب ويُتقى .

ويحاف المأمون على الأُميين، لأن ما امتاز به المأمون، من نجابة حارقة، وحدّ وحسنة، وعرفان بشؤون الحياة واصطلاح، واعتداد بنفسه، يحصل منه خطراً شديداً على الأُميين جديراً بأن يحشى ويسقى أيضاً . ويظهر أن كل هذا وقرى نفس الرشيد الذى كان معروفاً الحزم وحذره الحذس، وقوة الصبر بالعواقب، فأراد أن تنقيه، ورأى أن حبر وسيلة لا تقاؤه، أن يستكتبهما العهدين، كما قدما، ويقطع بذلك أسبأ الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دس الدسائس، وسعاية الساعين، ويعلم أنصار الفريقين ما ليليه من الأُميرين من حرمه وتوقير .

غير أن تصرفات الأيام، وآثار الطائفة، ونتاج السعاية، ومعات الرياح والعاى، كانت هى ما كان يقدر الرشيد، موقع الخلاف بين الأخوين أعف ما يكون . ولم يكن ما اتحد الرشيد من وقاية وحيلة ليصد بياره الجارف .

وكان المأمون الشاب حس التوفيق فى اختيار حاشيته ومسيره، فجمع حوله طائفة، من ذوى الدهاء والحسنة، وهؤلاء وإن كانوا من دوى المطامع والأعراض، قد أحصلوا له الصبح، وتقوى التتخيف الذى يكفل له النجاح، فان محقق أطاعهم الواسعة، وقوف على محامه . وإحلاصهم له لإحلاص فى الواقع لأعصم أيضاً . ولما كانت أم المأمون فارسية فرما حار لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا فى أن يحصل له هؤلاء المشيرون إذ كانوا كلهم من العرمس واد كانت له بهم هذه العراة .

وهذا يسر لنا عاطفة من عواطف المأمون، وهى ميله الى حراسان . وبعضه بعض التعمص للحراسانيين، إذ يحدثنا التاريخ أن رجلا من الشام اعرض طريقه مرارا وقال « يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما سطرت لعجم حراسان، فقال له . أ كثر على والله ما أنزلت قيسا عن ظهور حيولها إلا وأما أرى أنه لم يسق فى باب الى درهم واحد، يعنى فته أب العامرى، وأما اليمن والله ما أحبها ولا أحتنى قط، وأما قصاعة فساداتها تنتظر السعياى حتى تكون من أشيائه، وأما ربيعة فساحطة على ربهى

مد بعث الله^(١) به من مصر، ولم يرحل اثنان إلا نخرج أحدهما شاريًا . اعرف ! فعل الله بك ! »

وبانه ليحوز لنا أن نرجع هذا الميل، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر البيئة الفارسية في نفسه، والى مقابلة حسن الصنيع بمثله، فأم المأمون فارسية، والدين كملوه وقاموا بتثقيفه فارسيون، والدين أحاطوا به وبصروه فارسيون . ومن هنا نستطيع أن نفهم الرأي الذي يقول به بعض المؤرخين المرنجيه : إن انتصار المأمون على الأُمس كان أيضًا انتصارًا للعرب على العرب، كما كان انتصارًا للعرب على العرب انتصارًا للعباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضًا ما ذهب اليه بعض الباحثين . من أن المأمون كان شيعيًا وهو عباسي، لأن البيئة الفارسية التي نشأ فيها كانت إلى حد كبير قليلة مهتدة التشيع للعلويين، فيحور أن تكون قد صبغت المأمون بشئ من أروانها، وقد كان لذلك آثاره، لا في السياسة و نظام الملك بحسب، بل في الآراء والمذاهب بما سذكره حين تعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قلناه لك عن نشأة المأمون وصاها، قد رسمنا لك صورة واضحة لهذا الأمير الذي سيكافح كفاحًا شديدًا في سبيل الملك، والذي كان له أكبر أثر في الحضارة الإسلامية .

أما شتى مواهب المأمون وآراؤه، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة، وحنوده الحدىس، وكهانة الطائفة، وشغفه بالمعلم والأدب والجدال، وما كان لهذا الشغف من ثوره علمية وفكرية وكلامية في عصره، فسرجى الكلام فيها الى موضعها من كتابنا، وهو الكلام على الخليفة المأمون، بعد أن استقر له الأمر في بغداد، وحين أصبحت فيه هذه الخلل وآتت كل ما لها من ثمرات .

(١) في اس الأمير (سانتا) وهو غلط، والصحيح ما أنشأه من أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار . والشرارة

الفصل الثالث

الزراع بين الأميين والمأمون

توطئة — بيئة الأميين وحلاته — مبدأ الزراع وكيف تحول — الوجود السياسي — هوذا رأى المأمون واستمرار الوجود السياسي — إعلان الحرب — انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء .
مجهودات الأميين في سبيل المور — الثورة وحطائها — قبل الأميين .

(١) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك في مجمل كلامنا عن الرشيد والأميين أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأميين في سنة ١٧٥ هجرية، وسن الأميين فيما قبل وقتئذ حمس سين، ثم أشرك معه المأمون في ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكليهما من أحبه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : نأب استكتب كلا منهما عهداً بما عليه وله قبل الآخر، وعلق المهديين بالكعبة كما قدما .

ويؤخذ من بصوص المهديين، وما نودل بعد ذلك من الرسائل بين الأميين والمأمون، مما سورد لك بمصه لما تصمته من «الدبلوماسيقيع العاسيه» : وهي نين في حرم، وتيثيس في تأميل طويل الأجل، - ويؤخذ منها أن حراسان وواحبا الى الرى كاست تحت إمرة المأمون، تصترف في جميع شؤونها، من سياسيه وحريه واقتصاديه وقصائيه تصرفاً تاماً، لا ترتبطه محاصره الخلافه إلا رابطه الدعاء للحليعه . وقد صارت اليه إمرة هذه الواحي في عهد الرشيد، وهي من الأمور التي أحد الأميين ماوفاء بها، فيما أحده من عهود ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك في سنة ١٨٨ هجرية ولده القائم مع أخوته في ولاية العهد، وحمل من نصبه العمل على الشام وقنبر والمواصم والتعور .

وكانت الأمور جارية معراها الطبيعي آرايام الرشد، ثم شطراً كبيراً من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كسحاً، دُرْبُهُ منه وسياسة، وحصافة وكياسه، وترتباتاً وتعقلاً، وحرامةً وتمهلاً .

ولم تنقص السنة الأولى من خلافة الأب حتى كاس الدسائس قد فعلت فعلها، وحتى كانت المماسة العيفة بين البطانتين قد بلغت عايتها، وأحد كل من الأخوين يحذر أحاه ويتقيه، وأمتلأت الصدور حفاظ وإحماً، ولم سق إلا أن تُلمَس فتصحر .
وسمفل لك كل ذلك تفصيلاً .



(ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما نرج رافع بن الليث بن صهر بن سيار عراسان، وكنَّف أبعارُهُ، وقوبت شوكتُهُ، وعظم حطرُهُ، رأى الرشيد أن يرحج إليه بنفسه لمحارسته وتسكين حُلِّ الأمن الذي اضطرب في تلك الواحي . فأصابه من « شاق السمر » وتغير الطقس، وشدة التكبر، ما أعلَّ محنته . وبدا له من ظروف الأحوال ما حملهُ على تحديد البيعة للمأمون، الذي كان بمرء، وأوصى بأن يصير ما معه، من قوادٍ وحيدٍ وسلاحٍ ومالٍ إلى حاسه، وأحد المواتق على من معه بأن يؤثروا بهذه الوصية .

ثم أخذت تشتد به العلة، حتى وافقه منيه بطوس سنة ١٩٣ هجرية . وبيع للأمين بالخلافة، في عسكر الرشيد، ووصله من الرشيد في معداد يوم الأربعاء لأربع عشر ليلة، حلت من حمادى الآخرة، وقيل ليلة المصف من هذا الشهر، فكم الخبر قية يومه وليته، ثم أطهره يوم الجمعة .

(١) هو حميد صهر بن سيار آروال لى أبة عراسان اد دالت مد ذلك دولتهم . وسب حرج رافع هذا أنه طمع في رواح امرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائى لشرفها ومالها وكانت مماسة لزوجها، فعملها على أن تمل الكبر لتطلق ثم تزوج بها . فلع أمره الرشيد الذى كلف بامله أن يهزق بينهما وأن يمايق رافعاً ويخلصه الحد ويقيد ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون حطة لغيره . طرأ عه العامل الحد وطاف به ثم سمحه فهرب من الخس طارده عمال الرشيد . وما زال أمره يشتد حتى اضطر الرشيد إلى الذهاب إليه بنفسه .

ويمعشنا التاريخ أن الأميين لما بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث نكرين المعتزرسولا الى مقر الحليفة، ليوافيه بالأخبار كل يوم . وكتب معه كتابا، وحملها في قوائم صناديق مقورة، ألبسها حلد المقر، ليخفي أمرها، وكلفه ألا يظهر أحدا على شيء من أمره، وما توحه فيه ولو قتل . حتى اذا عد أمر الله في الرشيد، دفع الى كل من له كتاب كتابه . فلما وصل رسول الأميين، راب الرشيد قدمه، فسأله عما جاء به، فلما لم يجد في جوابه ما يُزيل ربه، أمر سفيته وحجسه . ولملك تصيب لآب الصواب . أولا نعدوه كثيرا، اذا افترقت أن هذا الرس الذي حاصره من رسول الأميين، كان من العوامل الى حملته على تعديد البيعة للمأمون، وأن يوصى له بما معه من جيد وسلاح ومال .

لست رسول الأميين في الحبس أشهرا، إذ مارح الكس التي يحملها الى من أرسلت لهم شوال سنة ١٩٢ هـ . ووافاه الرشيد كان في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمل نكرا على الإقرار، فكلف العصل س الربيع ذلك، وأن يهتده مالموت اذا لم يقتر . وقد حالت وفاه الرشيد في ذلك اليوم، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وثق الرسول من وفاه الرشيد دفع الى كل كتابه .

وقد أنبتنا لك من هذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون وكتابته الى أخيه صالح في موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لما من حظير في موضوع النزاع، فاسما يدلان على أن الأميين لم يكن ليكت ما عقد من عهود ومواثيق، وإنما طانة السوء هي التي زيت له أن يفعل ما فعل، فراجهما ثمة . وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم المواقف بين الأشقاء، والرعاء، والأمراء، وما نحتز على البلاد من انتثار العقد وتشتيت الشمل، وتشتت الألفة، وفرقة الجماعه، وسريان الفتى وذيوخ الفوضى، وانتشار الاضطرابات، واندلاع بران الثورات، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار، الى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التي سحدثت عنها، وستراها واضحة جليلة في كلمتنا الآتية .



(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الى "، وفكك الله، أن تقف على ما كان تلك الكتب، من أثر في نفوس من أرسلت اليهم، وإني شاف علك، مجيك الى سؤلك، محيلك الى الطبرى في هذا الصدد إذ يقول :

"لما قرأ الدين وردت عليهم كتب محمد بطوس، من الفؤاد والجيد وأولاد هارون، تساوروا في الخلق بمحمد، فقال المصل بن الربيع : لا أَدْعُ مُلْكًا حاصراً لآخر لا يذرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرجل فعملوا ذلك، محبه منهم للفقاهة وأهلهم ومبارهم سعداء، وتركوا اليهود التي كانت أحدث عليهم للمأمون".

أما المأمون - بعد أن انتهى إليه بمرور ثلثي اليوم للمهود التي أحدث عليهم، وقرأهم الى بغداد مما كان الرشيد أوصى أن يكون له، من حديد ومال وسلاح - فقد اجتمعت كلمة الرواه على حسن تقظه وسرعة مصادته لشئ أموره، وأنه شذ لما حيازته، وحسرها عن ساقه . ويحدثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قواد أبيه، وأخبرهم الخبر وشاورهم في الأمر، فأشاروا عليه أن يلحق القوم في ألى فارس، ويحول بينهم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل تمشوده المصل بن سهل، الذي كان يثق به وبكفايته، ويؤم بكفايته وحسن سياسته، ويقنع بثقوب نصره وصدق نظره، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هديةً الى محمد، ولكن الرأى أن تكتب اليهم كتاباً، وتوجه اليهم فتدكرم البيعة، ونسألم الوفاء، ونمهدهم الحث وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فتستبرئ ما عدا القوم . وتوجه سهل ابن صاعد - وكان على قهرته - فانه يأملك، ويرجو أن ينال أمهه، فلن يألوك نصحاء، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين، وكان عاقلاً . فلم ير المأمون، وهو

الحافق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفصل الى القوم لمحقاقهم سبساور، فقال العصل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذراً متمللاً: "إنما أنا واحد منهم"! وقد نال معصم من المأمون وأغلظ لرسوليهِ، ثم رجع الرسولان مانطير.

وكان ممكناً، بعد أن طوى المأمون كشمساً على ما وقع من القوم من نكث للمهود واحتصاب لما أوصى به الرشيد له. من حيد ومال وسلاج، وبعد أن أحد يهيدى الى أخيه حير ما وصلت اليه عساه من تحيف خراسان وهائيتها، أن تسير الأمور في محراها الطبيعي، وأن يستقر الأمر بين الأخوين على ما أراد الرشيد، لولا أن طاعة الأمين أَوْغَرَتْ صدره على أخيه، ولولا أن طاعة المأمون حفزته الى مقابلة العدوان بمثله، وأهضمت قلبه ثمة بالفنلة والظفر وإيمانا بالهوز والصح.

وإن كلمة العصل بن الربيع "لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره" فيها العنية والكفاية في تمهيمها الأساس الذي بُيِّت عليه تصرفاته بين الأخوين، فهو بنظر لمصلحة من بيده الملك اليوم، لا يحفلُ ببيع ولا عهد، ولا يكثر لوحدة قومه ولا يحصل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مصافاة ولا وفاق، وإنما همه الملك الحاضر، والإيمان في إرضاء الملك الحاضر.

كذلك كانت حال العصل بن سهل في موقفه مع عبد الله المأمون! ومهما كانت صورة المأمون التي صورتها لنا التاريخ بأنه المطلوب على أمره، في الزراع الذي نشب بين الأخوين، وأن الأمين هو الباكت القادر. ومهما كانت القلوب الإنسانية تحو على المظلوم وتعطف على المظلوم — مهما كان كل ذلك، مما يجعلنا نستطيع تصرفات العصل ابن سهل مع المأمون، بل مما يدفعنا الى الاتيان بها وعزرو الحصفاة، والأصالة، والكياسة، الى صاحبها، وأن ليس هناك من هو أنهد منه في مثل مواقفه ولا أجرى، ولا أحكم من تديراته ولا أوفى. ولا أرهف غرأراً من عزيماته ولا أمضى، ولا أقدر منه

في حُطْطِهِ وَلَا أَعْيَ، بَيَّدَ أَمَا مَعَ ذَلِكَ، إِذَا جَرَّدَا الْمَسَّ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ بَعْضِ صِفَاتِهَا، وَطَرَا "سُرُودٌ" — عَلَى حَدِّ التَّعْبِيرِ الْإِنْجَلِيَّيَّ — وَبِحَيْدِهِ وَنَصْفِهِ مِنْهُ وَلَهُ، فَمَا تَقَرَّرُ، مِنْ عِبْرَانٍ مَعْدَوِ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ، أَنَّ الْعَصَلَ بِنِ سَهْلٍ لَعَبَ مَعَ الْمَأْمُونِ، ذَلِكَ الدَّوْرَ الْحَظِيرَ بَدَانَهُ الَّذِي لَعَبَهُ الْعَصَلَ بِنِ الرَّبِيعِ مَعَ الْأُمَيَّيْنِ، وَأَنَّ كَلَّا قَدْ تَوَقَّأَ عَلَى أَمْرِهِ لِفَاتِنَتِهِ، وَاسْتَفْلَهُ فِي سَبِيلِ تَنْجِيزِ سِيَاسَتِهِ، وَدَهَعَهُ إِلَى حَيْثُ رَدُّهُ .

أَطْرَأَ إِلَيْهِ، وَهَذَا عَادَتُ وَفُودِ الْمَأْمُونِ مِنْ مَقَابِلَةِ الْعَصَلَ بِنِ الرَّبِيعِ وَمِنْ لَحْقِهِ بِهِ مِنْ حُدُودِ سِلَاحٍ، تَرَاهُ يَصَارِحُ الْمَأْمُونُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : أَعْدَاءُ قَدْ اسْتَرَحَبَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ أَفْهَمَ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ . إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أَعَزَّ مِنْهَا أَلَا بِأَبِي جَعْفَرٍ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ "الْمَقْعُ" وَهُوَ يَدْعَى الرَّبُوبِيَّةَ، وَقَالَ بِمَعْصَمٍ طَلَبَ بَدَمَ أَبِي مُسْلِمٍ، فَصَصَّعَ الْمَعْصَمُ مَحْرُوحَهُ بِخِرَاسَانٍ، فَكَمَى اللَّهُ الْمُؤْتَةَ، ثُمَّ حَرَّجَ عِنْدَهُ يَوْسُفَ الْبَرَمِ، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْمَسَامِينِ كَافِرٌ، فَكَمَى اللَّهُ الْمُؤْتَةَ، ثُمَّ خَرَجَ أَسْتَاذُ سَيْسٍ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، فَسَارَ الْمُهْدِيُّ مِنَ الرِّيِّ إِلَى نَسَاوَرٍ فَكَمَى اللَّهُ الْمُؤْتَةَ . وَلَكِنْ مَا أَصْنَعُ أَكْثَرَ عَلَيْكَ، أَحْرَى كَيْفَ رَأَيْتَ النَّاسَ حِينَ وَرَدَ عَلَيْهِمْ حَبْرٌ رَامِعٌ ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ : "رَأَيْتُهُمْ اصْطَرَبُوا اصْطَرَابًا شَدِيدًا" فَقَالَ لَهُ الْعَصَلَ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ نَازِلٌ فِي أَخْوَالِكَ وَيَعْنُكَ فِي أَعَاقِهِمْ، كَيْفَ يَكُونُ اصْطَرَابُ أَهْلِ بَغْدَادِ ؟ أَصْبِرْ وَأَمَا أَصْبَحَ الْخِلَافَةَ ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ : "قَدْ فَعَلْتُ وَحَمَلْتُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ فَقُمْ بِهِ" .

عَلَى أَنَّهُ إِذَا صَدَّقَ الرِّوَاةُ فَمَا يَرْوُونَهُ لَنَا : مِنْ أَنَّ الْعَصَلَ بِنِ سَهْلٍ قَالَ لِلْمَأْمُونِ فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ : "لَأَصْدُقَنَّكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَالِكٍ، وَيَجِبِي بِنِ مَعَاذٍ، وَمِنْ سَمِينَا مِنْ أَمْرَاءِ الرُّؤَسَاءِ، إِنْ قَامُوا لَكَ بِالْأَمْرِ كَمَا أَضْعَغَ مِنِّي لَكَ، بِرِيَاسَتِهِمْ الْمَشْهُورَةِ، وَلَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْحَرْبِ، هُمْ قَامُوا بِالْأَمْرِ كَسْتُ حَادِمًا لَهُ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَيَّ مَحَبَّتُكَ، وَتَرَى رَأْيَكَ فِي" . وَصَدَّقُوا فِي أَنَّ الْعَصَلَ بِنِ سَهْلٍ لَقِيَ هَؤُلَاءِ الرِّعَاءَ فِي مَسَازِلِمِهِمْ، وَذَكَرَهُمُ الْبَيْعَةَ الَّتِي فِي أَعَاقِهِمْ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَفَاءِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ كَانَتْ نَصِيبَ دَعْوَتِهِ لَمْ يَتَذَكَّرْ لِمَا يَأْمُرُ، وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَمْ تَصِيدْهُ عَنْ قَصِيدِهِ الَّذِي نَهَدَ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَصِيبِهِ قُدَّمًا فِي سَبِيلِ غَايَتِهِ، الَّتِي

نأدى لها بأداته ، وتدرج لها بدرائعه ، وأحد لها عُدته ، وأرهف لها عزيمته . وأنه قال للمأمون
 "لقد قرأت القرآن ، وسمعت الأحاديث ، وتفقهت في الدين ، فالأرى أن تبعث إلى من
 بالحسرة من الفقهاء ، تدعوهم إلى الحق والعمل به ، وإحياء السنة ، وقعد على اللود ، وترد
 المظالم". وصدقوا حقاً في أن المأمون والفصل صلا ذلك ، وأنها من إلى الفقهاء ، وأكرما
 القواد والملوك وأبناء الملوك . وصدقوا في أن الفصل كان قولاً للتمسك . "فِيمَكَ مَقَامَ
 موسى بن كعب ، وللمسمى مقام أي داود خالد بن إبراهيم ، وللمسمى مقام عطسة ومالك
 ابن الهيثم . وصدقوا في أنها كانتا مدعوان كل قبيلة ، إلى قضاء ورؤساء الدولة ، كأسمائهم
 الرؤوس . وصدقوا في أن المأمون والفصل قد حطا عن حراسان ربع الخراج حتى حس
 موقع ذلك من الخراسانيين وسُروا به وقالوا . «اس أخنأ وابن عم سينا صلى الله عليه وسلم»
 وصدقوا في أن المأمون تواترت كُتبه إلى أخيه محمد الأُمي ، بالتعظيم والهدايا إليه من
 طرف خراسان ، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، حتى أوائل سنة أربع
 وتسعين ومائة التي عزل فيها الأُمي أحاه القاسم عما كان أوده ولاه من عمل قيسيرين
 والشام والعواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة بن حازم ، والتي أمر فيها بالدعاء لأبيه
 موسى على المنابر بالإمرة ، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وطهر بينهما العساد — اذا
 صدق الرواة في كل ذلك ، فانا نرى من الصمة العالمة والتاريخية ، أن قرر حينئذ أن
 الفضل بن سهل كان ذليلاً حقاً ، ومما في الديبلوماسية ، وكان موقعه لا يقل عن موقف
 «وارن هاستنج» و «كليف» في الهند ، وعبرهما من حبايه السياسة ، وأقطاب الدهاء .
 ورما كانت مكانته أسمى منهما وأرفع وأخلق بمقارنتها بمن أشار إليه بالناس من ساسة هذا الزمان !

ولنظر معاً ، وهبتا الله وإياك الجلد والأناة ، ووضعا إلى ما نرؤمه من تمحيص
 وتحقيق ، وتعمق وتدقيق ، في حوادث سنة أربع وتسعين ومائة لتكون مُبَيِّنَ بحول التراع
 الذي شجّر بين الأخوين ، ولؤم الإيمان كله أن الطائفة قد لعبت دوراً شنيعاً ، في إشعال
 حذوة الحقد والسحجة بينهما ، وعملت على إصرام أوارها ، وسعت جهدها في توسيع مساهم

الحلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نحمد أن الفصل من الربيع، فيما يرويه لنا المؤرخون، سعى بعد مقدّمه المراق على محمد، مصرفاً عن طوس، وابتكناً للمهود التي كان الرشيد أحدها عليه لأبيه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أوصت إلى المأمون يوماً وهو حتى لم يبق عليه، وكان يقرب في طهره به عطفه - سعى جهده في إعراء محمد به، وأعمل قريحته في حثه على حلعه، وزيّر له، بما في مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده إلى أبيه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عمره. بل كان عمره، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أحد عليه لما وادّه من العهود والشروط. فلم يزل به الفصل من الربيع يصغر في عييه شائب المأمون، وزيّر له حلعه، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أخوك، فإن السعة لك كاسب، بمقدمه قتلها، وإما أدخلا فيها عندك، واحدا بعد واحد". قال ذلك آس الربيع، وصم إلى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسدي وعمرهما من تحصرنه.

ومن المفقول أن تفرص أن الفصل مصى في الإيقاع على هذه النخبة، ثباً بعد ثبى ومرة إثر أخرى. وقدر في ذلك قريحته، وأستخدم شتى وسائل أمثاله وبطرائه، حتى أزال محمداً عن رأيه. وقد ذكر المؤرخون. أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفصل من الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها، بالدعاء لأبيه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللقاسم والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقعت على تصرف محمد وحماة محمد مع المأمون وحماة المأمون، لك أن تستنيط ما يفعله العريق الآخر، إحاطة على تصرف العريق الأول. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبر من يرى أن أحاه يدبر عليه حلعه. ولك أن تنتظر مثل ذلك من حماة المأمون وأبصاره.

وهكذا تندم حوادث السيرة نفسها، إذ ينبئنا الطبري أن فيها قطع الماء عن البريد عن محمد، وفيها أسقط آسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار، لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون، وحس سيرته في أهل عمله، وإحسانه إليهم، فيما يرويه المؤرخون، أوسى المأمون ورجالات المأمون، كهرثمة وطاهر، في إصلاح ما بينه وبين المأمون، وطلب الأمان له ليكون عُدَّةً وطهراً للفرق المأموني، كما تستيفه نحن واستخلصه، وفيها وقى المأمون هرثمة رئاسة الحرس، وهرثمة مكانته وشهرته، وله سيرته ونجدته، ولزاحم بيته وأنصاره، وكثافته وفرسانه، كما أن لطاهر ابن الحسين حرمة وشجاعته وفروسته ومرانه، ولا يسهل ولا يرب حِدْقُهُ في تصرفاته التي يمثلها رُثْدُ الأهواء الشاردة، وتُستصرفُ الأبصار الطامعة. وعلى رأسهم، أو إلى جانبهم إن شئت المأمون، وقد تسربل بالثوب الذي صُبحَ إليه بلبسه، فأصحى محمود السيم مرصقاً للخلل، وهو باستعداده وزعته ذلك الرجل السياسي، المعتدل المراح، الهادئ الأعصاب، السديد التصرف، السمع الأخلاق، اللين العريكة، الكريم المهزة، مع أناة وحلي وعزم وجرم، ونفاذ ومضاء.

ومن المعقول أيضاً أن يكر الأُميين ذلك من ناحيته أيضاً. والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدف عنه قلوبَ رجاله، وأن تنسلل الحلقات، وتستطرد الإجراءات، المحتومة الوقوع، في مثل هذه الحالات^١.

وربما كان على حق، إذا قلنا: إن النزاع أصحى بين المصلين بين سهل وآس الربع. وأعطى عينا أعظم العف فقد كان بين كعائيتين لا يعرفان الوثية والتصحیح. ولهما من الحصافة ونقوب الصيرة، ومن سعة الحيلة وقُدْحُ الخُتْل، ومن وقرة الحُكْمَة وعاء الاحتار، ومن مضاء العزيمة وثروة الذهن. ولهما من ذلك كله، وما إلى ذلك من شتى الصفات السياسية، ما لا قبل لأحدهما به من صاحبه، فكل من صاحبه نواءً وبديد، ومأزَل عَيْدٌ، وكَيِّ صَيْدٌ!

أنظر إلى الأُميين، قد كتب إلى العاص بن عبد الله بن مالك، وهو عامل المأمون على الرى، وأمره بأن يبعث إليه بغرائب عروس الرى، فبعث إليه المسكين بما أمره. به غير

عالم أن المأمون ورحاله عيوبا وأرصادا، ولم، قبل ذلك، يَفْقَهُمُ الى لا تى ولا تفعل .
فإذا كان من المأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله السادح المسكين . فعزله ، ووجه مكانه الحسن س على المأمون ، وأردفه الرُشعي . على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماسية "الريعية" أن تصرف قلبَ عاملٍ كبير عن أمر المأمون . والمقصود المأموسة . نكابة بالديبلوماسية "السبلية" التي آكنتها رافعا وصمت الى حربها دت آبن سيار . وماهيك بهت آبن سيار ! ولتطوق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التي نشبت بين الأخوين ، والتي كانت . بلا ريب ، مقدّمة لوقوع الحرب العامة . وبعاره أدق لتكلم عن الوفود السياسية محاولين ، على قدر استطاعتنا ، وأسنادا الى ما من أدسا من مصادر وثائق ، وصف الكهايات السياسية في ذلك العصر العتي حقا رحالاته ونهاته .



(د) الوفود السياسية :

لنسأل أولاً ماذا حدث في السنة التي نحن في صددنا وهي سنة أربع وتسعين ومائة ، فإنها مليئة . والحق يقال ، سمحات هاتين العقليتين ، العاتيتين حقاً ، الجارتين بلا مبالغه ولا إغراء ، وهى هما عقليتي الفصل بين الربيع ، والفصل بين سهل .

حدث أن وحه الأمين وقدّا سياسياً الى المأمون ، قوّأه العباس س موسى . وصالح صاحب المصل . ومحمد بن عيسى بن هيك ، وطلّوا اليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه "الاطل ملحق ؟" على نفسه . وقد يكون من الطريف المتبع حقا ، أن نوحّج ما كان من أمر هذا الوفد ، وهل وثّق الحزب المأموني فيها حاول من الأحد قلوب رحاله . أو بعضهم على الأقل . فإن في توضيحنا لذلك ما يمدّنا بصورة لا بأس في حملتها . من صور الديبلوماسية في ذلك العصر . وإن في تمهيدنا هذه الصورة ووقوفنا عليها ، نقلاً عظيمًا يعيننا ، بلا ريب ، على فهم العصر وروح مساته .

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأيمن قال للمأمون "وما عليك أيها الأمير من ذلك - أي من تقديم موسى عليه - فهذا حذى عيسى بن موسى قد حلع ، فما صرّه ذلك ؟" ويحدثنا أيضا بأن الفصل بن سهل كان موحودًا ، كما هو المستطر ، في ذلك المؤتمر السياسي . وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : "أسكت بهذا كان في أيديهم أسيرًا وهذا بين أحواله وشيعته ! " .

أنترف ما ذا كان من أمر الوفد .

إنه قد أصرف . ولكن لا الى الأيمن ، بل الى مارل حصصها لم المأمون . حيث أفرد لكل واحد من أعضاء الوفد منزلًا ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسي الذي تتلقى به الحكومات الحاصره الوفود السياسية . فأمل ! .

ثم لسطر مما - متصمين بالأناه والصبر قليلا - في تصرف الهريبي الآخر في السنة عيها ، فزى أن الوفد قد عاد الى الأيمن . وأحبره ماتناج المأمون ، فألح عليه الفصل بن الربيع وعلى بن ماهان ، في البيعه لأبيه موسى " الناطق بالحق " وحلع المأمون . فأجاب الأيمن الى ذلك ، وأحصى اسمه على بن موسى الذي ولّاه العراق . وتصارع مصّ ولّاه الأيمن في آتهار العرصه . للتقرب منه والتحب اليه ، فالمساده بأحد البيعه له قتلهم . وقد كان أول من فعل ذلك شرر السعيد الأردى . وصاحب مكه وصاحب المدينة .

لم يكتف الفصل بهذا ، ولا بالكثير من أمثاله . مما يتظر من مثله في مثل تلك الظروف ، من سبه عن ذكر عداقه المأمون والتاسم بن الرشيد ، وخطر الدعاء لها على نى . من الممار ، بل دس من ذكر المأمون نسوء ، وخط من قدره . ولصق به أقبح القائص والمثالب ، ووصفه بأشع الوصمات والمعاص .

ولم يكتف الفصل بهذا ، بل وحه الى مكة كخاًا مع محمد بن عبد الله . أحد مدية البيت الحرام ، فأنه بالكائن اللدين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأيمن .

وكان حطّهما من الأمن، لما صارا إليه، حطّ عيرهما من اليهودى ذلك العصر، "والمعاهدات" و "قصاصات الورى" فى عصرها الحاضر فرفقهما وأطْلَهما، وأجاز سارقَهما !

ثم نعال معى لسطر معاً، بطرّة إسام وتروى فى مشاوره المأمون لشيعته، حينما حربه الأمر، وصاق به السبيل، فهى، آمعرك، آيه فى الحكمة والمهارة السياسية .

يقول الطبرى . "كان محمد، فيما ذكر، كتب الى المأمون، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يخاص له عن كور من كور حراسان سماها ، وأن يوجه العال اليها من قبل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قبله ، بوليّه البريد عليه ليكتب اليه بجمعه . فلما ورد الى المأمون الكتابُ بذلك، كثر ذلك عليه واشتدّ، فبعث الى العصل بن سهل وإلى أخيه الحسن . فشاورهما فى ذلك، فقال العصل : "الأمر خطير، ولك من شيعتك وأهل بيتك نطاة ولهم تأييس بالمشاورة . وفى قطع الأمل دونهم وحشة وظهور قلة نقة ، مرأى الأميرى ذلك" . وقال الحسن . كان يقال "شاور فى طلب الرأى من تتق بصيغته ، وتألف العدو فيما لا أكتنم له بمشاورته" . فاحصر المأمون الخلاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعاً له . "أيها الأمير! تشاور فى مخطو، فاجعل لبديتها حظاً من الروية" ، فقال المأمون . ذلك هو الحرم، وأجلهم ثلاثاً . فلما اجتمعوا بعد ذلك قال أحدهم : "أيها الأمير قد حملت على كرهين ، ولست أرى خطأ مدافعة منكروه أولها مخافة منكروه آخرهما" . وقال آخر . "كان قال، أيها الأمير أسعدك الله، اذا كان الأمر مخطراً فاعطائك من نازعت طرفاً من بينه أمثل من أن تصير الملع الى مكاشفته" . وقال آخر : "إيه كان يقال : اذا كان علم الأمور مغيّاً عليك، فخذ ما أمكك ، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فساد يومك راحماً بفساد عديك" . وقال آخر ، "لئن خست للبذل عاقبة ، إن أشدّ منها لما يبعث ألا تأمن العرقه" . وقال آخر : "لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلمل أعطى معها العافية" . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأى على مخالفتكم . قال المأمون . فاطرهم ، قال : لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن

عليهم فقال . هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق ؟ قالوا . نعم ، ويحتمل ذلك لما يخاف من ضرر مبعه . قال : تنقون نكمه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها ؟ قالوا لا ، ولعل سلامة تقع من دون ما يخاف وتوقع . قال . فان تجاوز بعدها بالمسألة أها ترويه قد توهى بما بدل منها في نفسه ؟ قالوا : ندع ما يمرض له في عاقبته بمدافعة ما تحزون في عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعاه من قول الحكماء قلنا ، قالوا : أستصلح عاقبه أملك ما احتمال ما عرض من كره يومك ، ولا تتلمس هدية يومك بإحطار أدحتي على نفسك في عدك . قال المأمون للفصل : ما تقول فيما أحفلوا فيه ؟ قال : ” أيها الأمير ! أسعدك الله : هل يؤمن محمد أن يكون طالبك بفصل قوتك ، ليستطهر بها عليك عدا على مخالفتك ! وهل يصير الحارم الى فصيلة من عاجل الدعة ، بحطرت بعرض له في عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرحون به صلاح عواقب أمورهم “ . فقال المأمون : ” بل ما يثار العاحلة صار من صار الى فساد العاقبه ، في أمر دينا وآخرة “ . قال القوم قد فلنا بملح الرأي ، والله يؤبد الأمر بالتوفيق . فقال . اكتب ما فصل اليه **وكتب** .

وباستطرد الطبرى بعد ذلك في القول بأن المأمون أمل على الفصل هذا الكتاب ليبحث به الى أخيه وهو - ” قد لحنى كتاب أمير المؤمنين . سأل التتادى عن مواضع سماها ، مما أثنته الرشيد في العهد ، وحمل أمره الى ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره . وير أن الذى جعل الى الطرف الذى آياه لاطبى في النظر لعامتة ، ولا جاهل بما أسد الى من أمره ، واو لم يكن ذلك . ثبتا بالمهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كست على الحال الى أما عليها : من إشراف علق بحوف الشوكه ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأحاد لا يستمتع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الإصصال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامتة ، وما يجب من لم أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عايته . وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، ووكدته مأخوذه العهد . وإلى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب مما أتته إلى . ثم أما على فقه من القبول بعد البيان إن شاء الله . *

ألا يحذر بها — وقد أطلعا على تلك المشاورة السياسية، التي يحور لك أن تقول عنها، بالنسبة لوقتها وحيلها، وموضوعات وقتها وحيلها، إنها لا تقل في دقتها، وحدقتها، وقوة نتائجها، عما يحرقى حول المسألة الحصرية، من ساسة اليوم — أن تقول: إن المأمون قد حُصِّنَ بساسة عتاه ومشيرين دهاه .^١

ثم أطر الى مئامه المأمون في حدره، أو مئامه حربه في الحَيْطَةِ والحدود، فقد أثبت المؤرخون أهم قد وجهوا حُرَّاسًا من قِيَّامهم على الحدود، حتى لا يتزكوا للأُميين أو لرجالهم فرصة الاتصال رعية المأمون . ومانوا أيما ممانعة في تدميرهم، حتى جاء، كما يقول الرواة، « تديراً مؤيداً، وعقداً مستحصداً متأكداً، فصمموا بذلك ألا تحمل رعيته على منوال خلاف أو مفارقة » .

وهنا لا رى مدوحة، من إثبات ذلك المجهود العظيم، الذي بذله العضلُ بن الربيع أو الأُميين، كيما شئت التعبير، في استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونية؛ فقد كان، والحق يقال، طلقَ اليدين، ندى الكمن، كثيرةً حدواه، وأمره حذياه، عظيمةً عطاياه، ولم يألُ جهداً في إرسال دعائه وأنصاره، لست الدعوة الأميرية في السامه وإطهارهم على رحمانها وحقها وعدلها، وإظهار المحبة المعارضة، والدعاء لأهل القوة الى المحالعة . وكان هؤلاء الدعاة سُدُولُو المسأل . ويصمنون لأنصار معظم الولايات والقطائع . وصموة القول أن تصرف الأُميين وجماعته، من هذه الحاجة، كان قُربَ الشبه بتصرف المأمون وجماعته .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك مموعاً محسوماً، حتى صاروا الى باب المأمون . وهنا يجب أن نقول . إن الحرب الكلامية قد بدأت تُشْتَدُّ بين الأخوين، والحرب الكلامية، أي ذلك الله، هي مَيَّزة هامة من ميراث العصر العباسي . وقد صدف « كشاحم » في قوله شيئاً الى عداوة أصحاب الأَقْلَامِ في تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئاً لأصحاب السيوف نطالاً * تقصّى بها أوقاتهم في التعم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج : لحرب ولم يتهد لقرن مصمم
بروح ويندو عاقداً في نحاده . حساماً سليم الحد لم يتسلم
ولكن ذور الأقاليم في كل ساعة .. سيوفهم ليست تحف من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصى لدقائقه وحلائله ، الواقف على أمرائه
وخفياته وأدابه ومشاوراته ، ليوافق أولئك الذين يذهبون في القول بأن قوام السياسة في هذه
الدولة كان على التحيل والمخادعة ، أكثر مما كان على القوة والشدة .

لنتقل الآن الى ذكر الكتاب الذي صت به الأُميين الى أخيه ، مع رسله الذين بعثهم
للدعوة ، وإثارة رجالات المأمون ، قبل كل اختيار ، مهاكمه . دأماً سعد ، وإن
أمير المؤمنين الرشيد ، وإن كان أوردك بالطرف ، وصم ما صم اليك من كور الجبل ، تأييداً
لأمرك ، وتحصيناً لطرفك ، فإن ذلك لا يوجب لك فصله المال عن كفايتك ، وقد كان
هذا الطرف وحراجه ، كافياً لحدثه ثم يحاور سعد الكفاهه الى ما يحصل من رده . وقد
صم لك الى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال . لا حاحه لك فيها ، فالحق فيها أن تكون
مردودة في أهلها ومواضع حقها . فكتبت اليك أسألك ردة تلك الكور ، الى ما كانت عليه
من حالها ، لتكون مصول ردها مصروفة الى مواضعها ، وأن تأذن لعائهم بالخبر ، يكون محصرتك
يؤدى اليها علم ما معنى به ، من حر طرفك ، فكتبت تلط دون ذلك ، بما إن تم أمرك
عليه ، صبراً الحق الى مطالبتك ، فاش عن همك أش عن مطالبتك ، إن شاء الله .

ورد الكتاب على المأمون ، وقرأه المأمون وجماعته ، فمرعان ما ردة المأمون وحره عليه
بهذا الكتاب . "أما سعد ، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين ، ولم يكتب فيما جعل فاكشف له
عن وجهه . ولم يسأل ما لا يوجه حق فيلزمي المحه ترك إحاسته ، وإما يحاور الماطران
منزلة الصمصه ما صافت الصمصه عن أهلها ، فتى تجاوزها متجاوز . وهى موجوده الوسع ،
لم يكن تجاوزها إلا عن قصصها ، وأحتال ما في تركها ، فلا تعشى يان أى على مخالفتك ،

وأنا مُذْعِرٌ بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إثثار ماتحت من صلتك ، وأرض بما حكم به الحق في أمرك . أكن الملك الذي أنزلني به الحق فيما بآى وبك . والسلام .”

ثم انظر الى معونه المأمون السياسيه — وننقأ أنها ستروقك كثيرا ، وأنت ستشهد بعلمك كتب صاحبها في الفنون السياسيه — فان التاريخ يحثنا أنه أحضر رسل أخيه ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين ، كتب اليه ، في أمر كتب الي جوابه . فابعوه الكتاب ، وأعلموه أنى لا أرال على طاعته ، حتى يصطوى ترك الحق الواجب الى مخالفته » . فأراد أعضاء الوفد الأميى أن يذهبوا في أماس القول ، وأرادوا المحاجه والمدافعه ، وأرادوا المعاوصه والمناقشه ، ولكن المأمون ، السياسى المتيقظ حصار العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ حاسهم بقوله « قِفُوا أَنْفُسَكُمْ حَيْثُ وَقَعَا بِالْقَوْلِ كَمْ وَأَحْسَبُوا تَأْدِيَةً مَا سَمِعْتُمْ . فقد ألعسبوا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأصهم حجه قتل المأمون ، ولم يؤفَّقوا الى حمل جبر يؤدونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعه المأمون ، كما يقول الطبرى ، « حُداً غير مشوب بهزل ، في مع ما لهم من حقهم الواقع رعمهم » .

وصل الخبر الى الأمير فارعى وأربد . وأسفرت الحرب الكلاميه على حداثها بين الأخوس ، بشأن المال الذى ركه الرشيد ، وشأن غير المال ، بما يصح الاطلاع عليه ، وعلى مارواه سهل بن هارون وأصراره وصفاً لذلك في مقلانه .

على أنه محدث ساها أن تشير الى ما كان من نصيحه قدمها للأمين ، أحد رحالات عصره ، المشهود لهم بالحزم ونصوح الرأى ، وهو يحيى بن سليم ، حينما عزم على حلع أخيه ، اعلاقها بما نحن في سبيل القول فيه من ناحيه ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على فهم “الدبلوماسيه العباسيه” في ذلك العصر من ناحيه أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمير والمأمون في تقدير المشورة والأحد بالصيحه .

قال يحيى بن سليم للأميين حين مشاورته له في حلح المأمون : « يا أمير المؤمنين ، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، ووثق بها من عهده ، والأحد للايمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه » فقال له محمد : « إن رأى الرشيد كان فله ، شهبها عليه جعفر بن يحيى بسحره ، وأستأله برفاه وعقده ، صعرس لما عرسا مكروها ، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتنائه والراحة منه » ، فقال : « أما اذا كان رأى أمير المؤمنين حله ، فلا تحايره محاهره ، مستنكرها الناس ، وتستسبعها العامة ، ولكن تستدعى الجمد بعد الجحد ، والفائد بعد العائد ، وتؤدسه بالأطاف والهدايا ، وتمزق في تقاته ومن معه ، ورغبهم بالأموال ، وتستميلهم بالأطاع ، فادا وهت قوته واستمرعت رحاله ، أمرته بالتمردوم عليك ، فان قدم صار الى الذي تريد منه ، وإن أبى كنت قد تاولته ، وقد كَلَّ حذءه ، وهيص حناؤه ، وصعب ركه ، وأقطع عمره » . فقال محمد : « ما أقطع أمرا كصريمه ! أنت مهدار حطيب ، ولست بدى رأيي ، فزل عن هذا الراى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح ، قم فالحق بمدادك وأقلامك ' »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الاستطراد ، أن يشيرنا الى ما رواه الطبري من أن الفصل من سهل ، كان قد دس قوما آحثارهم ممن يثق بهم من القواد والوجوه سعداد ، ليكاثوه بأخبار الأميين وجماعه ، يوما فيوما . وكان التحسس لذلك المهدفا مظهرا متقدما ، فكان للأميين ، وهو ولي عهد ، على والده الرشيد عيون ، وكان لأحبه حين ذاك عيون ، وكان للطيعة على ولاته وعماله وأولاده عيون ، ولولائه وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والرعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ديوغ الجاسوسية وأسفحال أمرها . من المقول اذا شاور الأميين أو الفصل بن الربيع أحدا ، وقال ما فيه مصلحة القصيه المأمونية ، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على حليته الجبر وحقيقة الحال عد حصومهم السياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن
لتقدم من الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم في علته وظهره على أخيه .

ولنتقل الآن الى أحارسه خمس وتسعين ومائة . ولسطر في حوادثها الحسام بطره
تغلى فيما يهاجمها مما يحس في صدره من نحوها هذه . فبعد أن انحصومه السياسي بين الأخوين
حمل الأمير على أبى بكر بأسه بأسقاط ما كان ضرب لأخيه عند الله المأمون من الدماير
والدراهم بجراسان في السلة التي قلها ، وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يثبت بها اسم محمد .
وقال بعض المؤرخين . إن تلك الدماير والدراهم كانت لا تحور في بعض الأحيان وكانت
مدعى الرماحية .

وقد سبق لنا القول إن الأمير أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ،
وإنه أمر بالدعاء لعنه ولطغله الصغير من بعده . وإنه صدر في ذلك كله عن رأى الفصل
اس الرابع وجماعة الفصل بـ الرابع . مما كان من نتائج شوب الحرب الكلايه بين
الأخوين ، وإلحاقها بوقوع شر مستطير بين الأميرين .



(هـ) نفور الرأى العام وآثار الوفود السياسية :

وبريد الآن أن نقف على ملح نفور الرأى العام من فعل الأمير وجماعته ، مما رواه
لنا المؤرخون . وسلخصه لك كطريقتنا ، التي أحدا بها أمسا . والتي لم نخذ عنها ، إلا إذا
دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير امر هام يحتاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد
في تلخيصنا هذا على مصادر عدة ، منها الطبرى وآب الأثير واليعقوبى وغيرهم من الفرجة
الدين كتبوا في التاريخ الاسلامى في العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أبى محمد الأمير عقّد في السلة التي نسرده عليك مجمل أحارها
اعلى بن عيسى بن ما هان على كور الحمل كلها : هآؤذ ، وهمدان ، وشم ، وأصفهان ، حربها
ونخارجها ، وصم اليه جماعة من القواد وأمر له ، بما ذكر بمائى ألف دينار ، ولولده

بمخمين ألف دينار، وأعطى الجسد مالا عطيا، وأمر له بألقى سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب الخلف . وقيل : إن عمدا الأمين أحصر بعد ذلك رجال بيته ومُشيريه، وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المنتظر، لو أن للأمين طَهيَراً من الرأى العام، أن يحد من يمتدح فعلته، أو يحطب في نشر الدعوة له وبأن أنه على حق بما يريد أن يفعل، ولكنا نجد أنه انتهى إلى آخر كلامه فلم يتكلم معه إلا ثلاثة من جماعه الظاهريين، ممن عرفوا مصالحهم في الرُقى إليه والتغزب منه، وهم سَعِيد بن القَصَل الخَطِيط، ومحمد بن عيسى ابن نبيك، والعصل بن الربيع .

على أما يجب أن نقول إن الفصل من الربيع كان ما كرا أعظم ما كر، ولكن مكره كان مفضوحا في هذا الموقف . فقد قال في مَعْرِض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم ما ماعشر أهل حُرَّاسان من صُلَّ ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينهم » .

نقول إن مكره كان مفضوحا . لأما علم أن موسى كان طفلا عِزًّا، لا يفهم هذه الأمور ولا يفعلها، ولكن الفصل أراد أن يُقَرِّعَ الأمين، ولا يمكن أن يكون حاقا في رعبته في إثارة الحراسيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها الطاعة، بأى عليها رباؤها ونفاقها وتزلزلها إلا أن تصور لولى صمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه الساعة والعقوبة، وأن سلطته قد جمع أحداثها مرانة الشيوخ وكعائيتهم، وأصالة المحترمين ودرايتهم، ودكاء الدواع ومواهمهم . وهكذا تستمر الطعنة على صمتها هذه، لاصعه من عداها وعدا حاتميه وحاشته، ما شاء هوى الخليفة، حتى يقع في رُوعه أرب حاشيته لا تطلق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا .

ولسائل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرفات أخيه .

إنه لم يتهاون ألبتة في أموره : صغرها وكبرها، وكان يقابل كل تصرف من أخيه بمثلها ونظيره، مع وضع كل شيء موضعه، وأستقصاء المصلحة والصواب في تصرفه .

وقد ترأس الأخوان بعد ذلك بكتب عدده . وإما ثبت هنا نص كتاب المأمون رداً على كتاب بحث به إليه الأئمة مع وفد سياسي في شأن البيعة لأبيه موسى ، قال : « أما بعد فقد انتهى إلى كتاب أمر المؤمنين منكراً لإثبات مرة تهتمني بها وأرادني على خلاف ما يعلم من الحق فيها . ولعمري أن أورد أمر المؤمنين موارد الصفة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكحة تركها ، لأنسلط بالخبر مطلع مقاتله ، ولكنك محجواً بمعارفة ما يوجب من طاعته . فأتينا وأما مدعى بها ، وهو على ترك أعمالها ، فأولى به أن يدير الحق في أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من عهده . فان صرت إلى الحق هزعت عن قلبي ، وإن أثبت الحق قام بمعدرتي . وأما ما وعد من تطاعته وأوعد من الوطأ لمخالفته ، فهل أحد فارق الحق في فعله ، فأبقى للتيقن موضع ثقة بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب إلى علي بن عيسى ، قائد الحشود الأيمية ، لما بلغه ما عزم عليه .

« أما بعد ، فإنك في ظل دعوه لم رل أنب وسلتك بمكان دث عن حريمها ، وعلى العاية لحفظها ، ورعاية لحقها ، توحون ذلك لأتتكم ، وتعتصمون محل حمايتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يداً على أهل مخالفتكم ، وجرأ وإخواناً لأهل موافقتكم ، تلوثرهم على الآباء والأبناء ، وتصرّفون فيما تصرّفوا فيه من منزلة شديدة . ورواه ، لا ترون شيئاً أبلغ في صلاحكم من الأمر الجامع لأتتكم ، ولا أجرى لواركم مما دعا نشأت كلمتكم ، ترون من رعب عن ذلك حائراً عن القصد ، ومن أمة على مناج الحق . ثم كسم على مباح الحق ، ثم كسم على أولئك سيوفاً من سيوف بقم الله . فكمن أولئك قد صاروا وديعة تسميه وجرراً حامده ، قد سفت الرياح في وجهه ، وتداعت السباع إلى مضرعه ، غير ممهد ولا موسد ، قد صار إلى أمة . وغير عاجل حفظه . فمن كانت الأئمة تترككم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم في أمورهم ، والتفقيمة في آثارهم . وأنتم مستشمرّون كثير من بقاتها وخاصتها ، حتى بلغ الله في ففسلك

أَن كَسْتَ قَرِيعَ أَهْلِ دَعْوَتِكَ ، وَالْعَالَمَ الْقَائِمَ بِمَعْلَمِ أَمْرِ أَمْتِكَ ، إِنْ قُلْتَ ادْعُوا دَعْوَا ، وَإِنْ أَشْرْتَ أَفْلُكُوا أَفْلُكُوا ، وَإِنْ أَمْسَكَتَ وَقَهْوَا وَقَهْوَا ، وَإِنَّمَا لَكَ وَأَسْتَصَاحَا ، وَزِدَادُ مَعْمَةٍ مَعَ الزِيَادَةِ فِي نَفْسِكَ ، وَزِدَادُونَ مَعْمَةٍ مَعَ الزِيَادَةِ لَكَ بِطَاعَتِكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ الْحُلَّ الَّذِي قَرُبْتَ بِهِ مِنْ يَوْمِكَ ، وَأَقْرَضَ فِيهَا دُونَهُ أَكْثَرُ مَدَّتِكَ ، لَا يُتَطَرَّعُ مَعَهَا إِلَّا مَا يَكُونُ حَتَامَ عَمَلِكَ : مَنْ حَرَبَ مَرَصَى بِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ صَالِحِ فِعْلِكَ ، أَوْ حَلَّافٍ فَيَصِلُ لَهُ مَقْدَمُ سَعْيِكَ .

وَقَدْ تَرَى مَا أَمْ يَحْيِي حَالًا عَلَيْهَا حُلُوتَ أَهْلِ نِعْمَتِكَ ، وَالْوَلَاةَ الْقَائِمَةَ بِحَقِّ إِمَامَتِكَ ، مِنْ طَلْعِي فِي عَقْدِهِ كَسَتْ الْقَائِمَ بِشَيْئِهَا ، وَمُتَهَوِّدَ بُولِيَّتِ مَعَاقِدِ أَحَدِهَا ، بُدَأَ فِيهَا بِالْأَحْصَيْنِ ، حَتَّى أَصْعَى الْأَمْرَ إِلَى الْعَامَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، بِالْإِيمَانِ الْمُحَرَّرِ وَالْمَوَائِبِ الْمُؤَكَّدَةِ ، وَمَا طَلَعَ مِمَّا يَدْعُو إِلَى تَشْرِكِهِ ، وَتَغْيِيهِ أَمِيهِ ، وَشَتَّ جَمَاعِيهِ ، وَتَعَرَّضَ بِهِ لِتَنْدِيلِ مَعِيهِ ، وَرَوَالِ مَا وَطَّاتِ الْأَسْلَافُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَمَنْ رَأَتْ مَعْمَةٌ مِنْ وَلَادَةِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلَتْ زَوْهَا إِلَى الْيَكْمِ فِي خَوَاصِّ أَنْفُسِكُمْ . وَلَنْ يَبْعِدَ اللَّهُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَهْلِهِمْ . وَلَنْ يَسَاعَى فِي شَرْهَا دَسَاجَ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ ، دُونَ السَّعْيِ عَلَى تَحْمِيلِهَا الْقَائِمِينَ بِحَرَمَتِهَا ، قَدْ عَرَّضُوا أَنْ يَكُونُوا جَرَرًا لِأَعْدَائِهِمْ ، وَطُعْمَةً لِيَوْمٍ ، تَنْتَفِرُ بِحَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ . وَمَكَائِكَ الْمَكَانَ الَّذِي إِنْ قُلْتَ رُجِعَ إِلَى قَوْلِكَ ، وَإِنْ أَشْرْتَ لَمْ تَنْهَمْ فِي نَصِيحَتِكَ . وَلَكَ مَعَ إِثَارِ الْحَقِّ الْخَطْوَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَلَا سِوَاءَ مَنْ حَاطَى سَاحِلَ مَعَ فِرَاقِ الْحَقِّ فَأَوْبَى نَفْسَهُ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَمَنْ أَعَانَ الْحَقَّ فَأَدْرَكَ بِهِ صِلَاحَ الْعَاقِبَةِ مَعَ وَفُورِ الْخَطِّ فِي عَاحِلِهِ . وَلَيْسَ لَكَ مَا تُسْتَدْعَى ، وَلَا عَلَيْهِ مَا تُسْتَعْطَفُ ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ مِنْ حَقِّ أَحْسَانِكَ يَحِبُّ تَوَانُهُ عَلَى رِيكِ نَمٍّ عَلَى مَنْ قَتَلَ الْحَقَّ فِيهِ مِنْ أَهْلِ إِهَامَتِكَ . فَإِنْ أَعْرَكَ قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ ، فَصَرَّ إِلَى الْبَارِ الَّتِي تَأْمَنُ فِيهَا عَلَى نَفْسِكَ ، وَتَحْكَمَ فِيهَا بِرَأْيِكَ ، وَنَجَازَى إِلَى مَنْ يَحْسَبُ تَبْصُلًا لَصَالِحِ فِعْلِكَ ، وَيَكُونُ مَرَحَمًا إِلَى عَفْدِكَ وَأُمُورِكَ ، وَلَكَ بِذَلِكَ اللَّهُ . وَكَيْفَى مَا اللَّهُ وَكِيلًا . وَإِنْ مَعِدَ ذَلِكَ فَيَقِهِ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا سَاكَ بِبَيْدِكَ وَقَوْلًا بِحَقِّهِ ، مَا لَمْ تَحْتَفِ وَقَوْعُهُ بِكَرْهِكَ ، فَلَعَلَّ مَقْتَدِيًا بِكَ ، وَمَعْتَصِلًا بِسَبِيكَ .

ثُمَّ أَهْلَيْتَنِي رَأْيِكَ ، أَعْرِفُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . »

على أن ما يرى إليه الرواة من تحقير شأن الأميين، لا يتحول بيسك وبين تبيين حقيقة
الأميين وورحاله، لأنك ستلاحظ بلا ريب، في ثنايا سطورهم، وقلت الحوادث
التي يروونها لك، ما قد يتيح لك أن تؤمن أبعد الأميين مع رجاليت أفذاذ،
فان الطبري يمتدح في حوادث سه حسن وتسعين ومائة: أن ابن الربيع أشار على
الأميين، بأن يكتب لأخيه كاتماً، تستطیع به نفسه، وتسكن وحشته، فان ذلك أبلغ
في التدبير، وأحسن في القالة، من مكاترة الخوذة، ومعاقلته بالكيد، وإنه لذلك أحصر
له إسماعيل بن صبيح، للكتابة إلى عبد الله، قال: «يا أمير المؤمنين، إن مسألك الصفع
عما في يديه، توليد للطن، وتقوية للثمة، ومدعاة للهدر، ولكي أكتب إليه فأعلمه
حاتك إليه، وما نحت من قربه والاستعانة برأيه، وسئل التقدم إليك فان ذلك أطلع
وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإحسانه»^(١).

فقال الفضل: القول ما قال يا أمير المؤمنين.

قال: فليكتب بما رأى. قال: فكتب إليه «من عبد الأميين محمد أمير المؤمنين،
إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين».

أما بعد، فإن أمير المؤمنين، رأى في أمريك والموصع الذي أنت فيه من تفرك،
وما يؤمل في فرك من المعاونة والمكانسة على ما حمله الله وقلده من أمور عباده وبلاده،
وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير
إليك منها، فرحاً أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وكف في ديه ولا نكت في يمينه،
إذا كان إشغاله إياك فيما يعود على المسلمون نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله.

(١) يرى أستاذ الشيع عبد الوهاب الحار. «أن هذه المكينة التي دبرها الفصل من الربيع جاءت مصوغة
متهوكة الأسر. وكان أحدرك بكاسة أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعد أن يرد على المأمون ما أوصى به
الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد نكت الخوذة والوزير والأمر، وقد طلب الكور. وبعد طلب
تقديم القائم على المأمون وبعد تلك الوجود السياسية وتمزيق اليهود التي كانت في طرهم مقدمة ومقكرة فأخذها
وعطفتها في حروف الكبة، فان الأمر أقر مد أرائه ولا يخطر منه سوى الخلية والعقل»

وسلم أمير المؤمنين أن مكاتك بالقرب منه أسد للثمور، وأصلح للجنود، وآكد للنفى، وأرد على العامة، من مقاميك ببلاد خراسان مقطوعاً عن أهل بيتك، متعباً عن أمير المؤمنين، وما يحتم الاستماع به من رأيك وتديرك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يولي موسى أب أمير المؤمنين، فيما يقده من حلافتك، ما يحدث إليه من أمرك ونهيك، فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأقبح رجاء، وأحد عاقبة، وأنفد بصيرة، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته ودمته. والسلام“.

ولسفر الى ما يرويه لنا أس حريير الطبري عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول :

لما وصلوا الى عهد الله أدب لهم، فذهبوا اليه كتاب محمد، وما كان بعث به معهم، من الأموال والأطياب، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الأمير ! إن أحلك قد عمل من الخلافة نقلاً عظيماً، ومن الطرق أمور الناس عتاً حليلاً، وقد صدقت بيتك في الخير فاعوزه الوزراء والأعوان والكفاة على العدل، وقليل ما يانس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه، وقد فرغ اليك في أموره، وأتملك للوزار والمكافاة، ولما نستطك في بره إماماً لصرك له، ولا تحصك على طاعته خوفاً لخلافك عليه، وفي قدومك عليه أنس عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجب أيها الأمير دعوة أحبك، وآثر طاعته، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره، فإن في ذلك قضاء الحق، وصلة الرحم، وصلاح الدولة، وعز الخلافة. عزم الله للأمير على الرشد في أموره، وجعل له الخير والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر فقال : إن الإكثار على الأمير، الله ! الله ! في القول ثرق، والاقتصار في مريضه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير، وقد غاب الأمير، أكرم الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستغن عن قربه من شهد عيه من أهل بيته، ولا يحد صده عني، ولا يحد منه حلقاً ولا عوصاً. والأمير أولى من برأه

وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أرفع وأقرب ، من موافقة أمير المؤمنين ومحبة ، فإن القدوم عليه فصلٌ وحط عظيم ، والإبطاء عنه وكفٌ في الدين ، وصرر ومكره على المسلمين .

وتكلم محمد بن عيسى بن نيك فقال : أيها الأمير ! لا تزيدك بالإثثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا تُشعِدْ نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من السطر والصاية بأمور المسلمين . وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والصحاء بمحضته ، وتناولك مرثا إليك في المعونة والتقوية له على أمره . فان تُحِبْ أمير المؤمنين فيما دعاك إليه فحمة عظيمة يتلانى بها رعيته وأهل بيتك ، وإن تقعد يُبَيِّن الله أمير المؤمنين عك ، ولن يرضه ذلك مما هو عليه من الرِّبْكَ ، والاعتدال على طاعتك وبصيرتك .

وتكلم صالح صاحب المصل ، فقال : أيها الأمير ، إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يَكِيد هذه الدولة ويطوى على عشا والمعادنة لأوليائها من أهل الخلال والمعصية كثير . وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ، وصلاح الأمور ومسادها راجع إليك وعليه ، إذ أنت ولي عهده والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتاب ، ووثق بمعاونتك على ما أستماتك عليه من أموره ، وفي إحاسبك إياه إلى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة ، وأنسَّ وسكونٌ لأهل الملَّة والدِّمة ، وفقَّ الله الأمير في أموره ، وقصَّ له مالدى هو أحب إليه وأفزع له .

ثم انظر ، رعاك الله ، إلى مبلغ دهاء الفصل ، ودقة سياسته ، وحُكْم أمره . وما يرويه نفسه عن صبيحه مع أحد أعضاء الوفد ، في إحدى الدَّقَائِتِ التي أُرْسِل فيها إلى المأمون ، لأنها ملاحظ وود الأمين قد أُرْسِلت إلى أخيه المأمون أكثر من مرة — قال : « أعجبي ما رأيْتُ من ذكاء العباس بن موسى ، تخلصت به فقلت : يذهب عليك بقلبك وسنك ، أن تأخذ بحظك من الإمام ! — أى المأمون ، إذ سُمِّي بذلك بسبب خلع الأمين له — فقال له العباس : قد سَمِئُوه بالإمام ! فأحابه الفضل : « قد يكون إمام المسجد والقبيلة !

فان وقَّيْتُم لم يصركم، وإن غدرْتُم فهو ذالِك . ثم وصل الى أن قال للعباس : « لك عدى ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت .. » .
وصل الفصل الى ذلك القول وما يَرِج به حتى أخذ عليه البيعة للأون بالخلافه .
وتحوّل الأمر الى أن أصبح للحزب المأمونى من العباس العَيْن التى تلهمهم الأحبار، والمتفانى فى المأمونية ينهمم بالأفكار ويشير عليهم والآراء، وحتى أحمى منه الشخص الذى يقول لعلى بن يحيى السُّرْحَنِي : إن ذا الرِياستين أكبر مما وصفت، وإنه قد صاغ المأمون الامام، وإياه لذلك يمسح يده على رأس على بن يحيى لتأوله البركة والحير . تأمل ! .

وإياه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يترث فى أمره ترث السافل الحكيم، لما جاءه الوفد الأمينى، ويتصرف تصرف الكيس الحاذق، إذ قال لهم، فيما أثبت الرواء، بعد أن حاجوه وناقشوه فى أمر الأمين : قد عرّضتمونى من حق أمير المؤمنين، أكرمه الله، مالا أنكره، ودعوتكمونى من الموالاة والمعونة الى ما أؤثره ولا أدمعه، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعة الى ما سرّه وواقفه حريص، وفى الروية تنياب الراى، وفى أعمال الراى نصيح الاعترام . والأمر الذى دعانى اليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتناحره تبطاً ومداومة، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وتخلّة، وأنا فى نفر من نمر المسلمين كليب عدوه شديد شوكته، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكره على الجلود والريعية، وإن أملت عليه لم آمن فوت ما أحت من معونة أمير المؤمنين ومؤارثته وإيثار طاعته . فانصروا حتى أنظر فى أمرى ونصح الراى فيما أعترم عليه من ميسرى إن شاء الله، ثم أمر بالنازله وإكرامهم والإحسان اليهم .

ترث المأمون مع الوفد ترث العاقل الحكيم، وإن كان فى الواقع قد هاله الأمر وخشى سوء مقبته . ويذكر لنا أحد المعاصرين، وهو سُقيان بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتاب سَقِطَ فى يده، وتماخذه ما ورد عليه منه، ولم يدر ما يرد عليه، هذا الفصل بن سهل فأقرأه الكتاب، وقال : ما عدك فى هذا الأمر؟ قال : أرى أن تمسك بموصحك، ولا

تجعل علينا سبيلا وأنت محمد من ذلك بُدأ . قال : وكيف يمكنى التمسك بموصى ومحالفة محمد وعظم القواد والجود معه ، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه ، مع ما قد فوق في أهل بغداد من صلّاته وفوائده ، وأما الناس ما ملّون مع الدراهم مفادون لها ، لا يسيطرون اذا وحدوها حفظ بيعة ولا يربعون في وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفصل : اذا وقعت التهمة حق الاحتراس ، وأنا بعذر محمد متحذّر ، ومن شرهه الى ما في يدك مشفق ، ولأن تكون في جُندك وعزك مقيماً بين طُهرائِ أهل ولايتك أخرى ، فان دهمك منه أمرُ حُرِدَتْ له واجرته وكايدته ، فاقا أعطاك الله الطمر عليه وفاتك ويسك ، أو كانت الأخرى لمت محافظاً مكرماً ، غير مُلْتَمِئٍ بيدك ولا يمكنى عدوك من الاحتكام في هسك ودمك . قال . إن هذا الأمر لو كان أثنى ، وأنا في قوّة من أمرى وصلاحي من الأمور ، كان خطه يسيراً والاحتياط في دمه ممكناً ، ولكنه أثنى بعد إفساد نُرَاسان ، واضطراب عامريها وعامرها ، ومعارقة جيمويه الطاعة ، والتواء حاقان صاحب الثبّت ، وتبؤ ملك « كابل » للعارة على ما يليه من بلاد نراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالصيرية التي كان يؤدّيها ، وما لي بواحدة من هذه الأمور . وأنا أعلم أن محمداً لم يطلب قُدُوي إلا لشر يريد ، وما أرى إلا تحية ما أنا فيه والحقاق مخافان ملك الترك والاستعارة به وببلاد ، فما لخرى أن آتَى على مسمى وأمتنع ممّ أراد قهري والغدر بي . فقال له الفصل : أيها الأمير ، إن عاقبة العدي شديدة ، وتبعة الظلم والبنى غير مأمون شرها ، ورُبّ مستنلّ قد عاد عزيزاً ، ومقهور قد عاد قاهراً مستطيلاً ، وليس النصر بالقلّة والكثرة ، وخرج الموت أسلم من حرج الذلّ والصيم ، وما أرى أن تعارق ما أنت فيه ، وتصير الى طاعة محمد ، متحذراً من قوادك وجندك كالرأس المختلّ عن بدنه ، يجرى عليك حكمه ، فتدخل في حملة أهل مملكته ، من غير أن تُثْبِتَ عدواً في جهاد ولا قتال ، ولكن اكتب الى جيمويه وحاقان ، فوّلها بلادهما ، وعدهما التقوية لهما في محاربة الملوك ، وابعث الى ملك كابل بمصّ هدايا نراسان وطرقها وسلّه الموادعة تجده على ذلك . رخصاً ، وسلّم الملك أترابنده صريته في هذه السنة ، وصيرها صلة منك وصلته بها ، ثم اجمع اليك أطرافك ، واسمّم اليك مَنْ شَدَّ من جندك ، ثم

أصرب الخليل بالليل والرحال بالرحال ، فان طفرت ، وإلا كنت على ما تريد من القاع
 بخافان قادرا . معروف عند الله صدق ما قال ، فقال : اعمل في هذا الأمر وغيره من
 أموري بما ترى ! صدبر ، وفك الله ، هذا التكيّر الدقيق ، وهذه السياسة المحكّة
 الأطراف من كليهما .

ثم اطر الى تصرّف المأمون الحكيم ، بعد ما قدماه لك ، فانه أقعد الكتب الى رحاله
 وأبصاره ، وعمل على لَمْ شَعْنِهِ ورَأْبِ صَدْعِهِ ، واستقدم طاهر بن الحسين ، دام له على الرّى ،
 ليعهد اليه في قيادة حنده ، ثم مكث يتر الرأى فيما يجب به أخاه ، واستقر رأيه على محاورة
 أخيه ومنازلته ، بعد أب أعلمه أنّ سهل أن النصر له وأن الحوم تنق ذلك . وانظر
 ما يرويه لنا المؤرّخون من أنه كتب الى الأُميين : « أما صد ، فقد وصل الى كتاب أمير
 المؤمنين ، وإما أنا عامل من عماله وعاون من أعوانه ، أمرني الرشيد ، صلوات الله عليه ،
 بلزوم هذا الثغر ، ومكايده من كايده أهله من عدو أمير المؤمنين . ولعمري إن مقامى به أرد
 على أمير المؤمنين ، وأعظم فناء عن المسلمين من الشخصوس الى أمير المؤمنين ، وإن كنت
 معتبطا بقربه ، مسرورا بمشاهدة عمه الله عده . فان رأى أن يُقرنى على عملى ويعمى
 من الشخصوس اليه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العاص بن موسى ، وعيسى بن
 حمزة ، ومجدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم في حوائجهم ، وحمل الى محمد
 ما تبا له من ألقاف خراسان ، وسألهم أن يحسنوا أمره عده وأن يقوموا بعبده ليديه .



(و) إعلات الحرب :

ولنتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التي تلت هذه الحرب الكلامية ، كما
 هو المنتظر : إن التاريخ يحدثنا أن الأُميين ورجال الأُميين ، بدءوا في تعبئة الحوود ، كما بدأ
 المأمون ورجال المأمون في حشد الكتائب . وإنا لثقات كثيرا ، في صحة ما ذكره الرواة : من
 أن طاهر بن الحسين القائد العام للجيش المأمونية كان في جيش عتته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كانت على بن عيسى بن مَاهَانَ القائد العام للجيش الأُمِيْنِيَّة في زُهَاءِ أَرْبَعِينَ أَلْفًا !
وزيَّجَ كثيرًا أن الرواة قد نقصوا عددَ الجُودِ المأمونية، لِيُظْهِرُوا للناس مبلغَ كفاية طاهرٍ،
وأنه استطاع بحمدِ قليلٍ عددهم أن يُبَاذِلَ جيوشًا حراره ويغلبها على أمرها ، لأنهم
كثيرًا ما يَحْتَمِلُونَ إلى الإغراق والمالفة في مثل هذه المواقف : من مظاهرتهم للأقوياء،
وانتقاصهم للصعفاء كما أسلفنا .

نشك في صحة ذلك كثيرًا . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية
قد عَثَرَتْ في عسكر ابن ماهان على سِمَانَةِ كَيْسٍ ، في كل كيس ألف درهم ، وأنها عثرت
كذلك على صناديق مَدَّةٍ فيها خمر سَوَادِيَّ وَقَائِيَّ مَدَّةٍ !

قد يكون أمر الأموال صحيحًا ، ولكنا نميل إلى الافتراض بأن أمر الصناديق المَدَّةِ،
إن لم يكن مكذوبًا في جملة، بقصد الزَّهَابِ بالجماعة الأُمِيْنِيَّة، فهو مُعَالِيٌّ فيه كثيرًا .

ويذهب ابن الأثير في بيان عرور على بن عيسى بن ماهان إلى أنه، لما قُرب من
الريّ ، طُرِدَ أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونية لا يَثْبُتَ له ، وإن طبا قال :
« ما طاهرٌ إلا شَوْكَةٌ من أغصانٍ وشرارةٌ من نارٍ ، وما مثل طاهرٍ يؤمِّرُ على جيشٍ ،
وما يديه وبين الأُميين إلا أن تقع عينُه على سَوَادِكُمْ ، فإن السَّخَالَ لا تَقْوَى على نِطَاحِ الكَجَاشِ ،
والشَّعَالِ لا تَقْوَى على لقاء الأسد ، وأن على بن عيسى بن ماهان قال لابنه ، لما أشار عليه
أن يبعث طلائعًا ويرتاد موصمًا مسكره : ليس طاهرٌ يُسْتَعَدُّ له بالْمَكَايِدِ والتَّحْقِيقِ ، إن
حال طاهرٍ يُرْقَى إلى أمرين : إما أن يتخصَّصَ بالريّ ، فيثبَّتَ به أهلها ، ويكفُونَا مؤنَّته ،
أو يحلِّيها ويُدِّرُ ! . فقال له ابنه : إن الشرارة ربما صارت صِرَامًا ! » فأجاب به : « إن طاهرًا
ليس قِرْنًا في هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجال من أقرانها ! » .

ونحن نقول : إن من الخائز أن يكون شيء من هذا قد وقع . ومن الخائز أن يكون
على بن ماهان زَهُوً وعرورًا ، وقصُرُ نظريته وسوء تدبيره . وقد يكون تُلَى حين المقارنة والموازنة

أَقْلَ شَأْنًا مِنْ مُنَازِلِهِ وَخَصَمِيهِ طَاهِرٍ سِ الْحَسَنِ . وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ يُحَسَّ إِحْسَاسًا لَا يَمُدُّ
الْوَاقِعَ كَثِيرًا أَنْ هَذَا الْحَدِيثَ الْمَعْرُوفَ إِلَيْهِ مِنْ قِبَلِ الرِّوَايَاتِ الْمَحْوُولَةِ ، وَالْقِصَصِ الْمُخْتَرَعِ ،
الَّتِي كَثِيرًا مَا تُخْتَرَعُ وَتُحْتَلُّ فِي مِثْلِ تِلْكَ الطَّرُوفِ .

عَلَى أَنَا مَعَ ذَلِكَ نَقْضَرُ أَنَّ الْجُيُوشَ الْمَأمُونِيَّةَ كَانَتْ عَلَى أَمِّ تَعِيَةَ ، وَأَكْلِي كَيْفَايَةَ ، وَأَدَقَّ
نِظَامٍ ، وَأَحْسَنَ حَالٍ ، وَأَنْ حُدَيْبَةَ طَاهِرٍ وَقَوَادِ طَاهِرٍ : مِنْ حَمَلِ صُورَةِ الْبَيْعَةِ عَلَى أَسْنَةِ
رِيَاحِهِمْ ^(١) تُبِيدُ إِلَى الْأَدَهَانِ مَا كَانَتْ بَيْنَ حَدِّ مَعَاوِيَةَ وَحَدِّ عَلِيٍّ مِنْ حَمَلِ حَدِّ مَعَاوِيَةَ
الْمَصَاحِفِ عَلَى الرِّمَاحِ .

لِنُنْقِلَ الْآدَ إِلَى مَسْأَلَةٍ أُخْرَى لَهَا عِلَاقَةٌ بِعَلِيِّ بْنِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ مِنْ نَاحِيَةٍ ، كَمَا أَنَّ
لَهَا عِلَاقَاتٍ بِمَا يَقَعُ فِيهِ الْقُصَاصُ وَالْمُؤَرَّحُونَ وَالرَّوَاةُ مِنْ تَنَاقُصٍ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى . تِلْكَ
الْمَسْأَلَةُ هِيَ مَا يُعْزَى إِلَى رُبَيْدَةَ مِنْ نَصَبِهَا لِابْنِ مَاهَانَ مُحَارَمَتِ الْمَأمُونِ وَإِحْلَالِهِ ، وَأَنَّهَا
قَالَتْ لَهُ : « يَا عَلِيُّ ! إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانَ وَلَدِي ، إِلَيْهِ تَاهَتْ شَفَقَتِي ، وَعَلَيْهِ تَكَامَلُ
حَذِرِي ، فَإِنِّي عَلَى عَسَدِ اللَّهِ مُتَعَلِّقَةٌ شُغْفَقَةٌ ، لَمَّا يَحْدُثُ عَلَيْهِ مِنْ مَكْرِهِ وَأَدَى ، وَأَمَّا
أَبِي مُلْكٌ نَافَسَ أَحَادِي سُلْطَانِهِ ، وَغَارَهُ عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَالْكَرِيمُ يَأْكُلُ لَحْمَهُ وَيَمْنَعُهُ فَيْرُهُ ،
فَاعْرِفْ أَحْمَدَ اللَّهِ حَقَّ وَالِدِهِ وَإِخْوَانِهِ ، وَلَا تَجْبِهْهُ بِالْكَلَامِ ، فَانْكَ لَسْتَ ظَلِيمَهُ ، وَلَا تَقْسِرُهُ
اِقْتِسَارَ الْعَمِيدِ ، وَلَا تُرْهِقَهُ بِقَيْدٍ وَلَا عُلٍّ ، وَلَا تَمْنَعُ مِنْهُ حَارِيَةً وَلَا حَادِمًا ، وَلَا تَعَفِّ عَلَيْهِ
فِي السَّيْرِ ، وَلَا تُسَاوِهِ فِي الْمَسِيرِ ، وَلَا تَرُكْ قَلْبَهُ ، وَلَا تَسْتَقِلَّ عَلَى دَائِكَ حَتَّى تَأْخُذَ بِرِكَابِهِ ،
وَأَنْ شَبَقَكَ فَاحْتَمِلْ مِنْهُ ، وَإِنْ سَفِهَ عَلَيْكَ فَلَا تُرَادَّهُ » .

(١) بِحَالِهَا أَسْتَأْذِنُ الشَّيْخَ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْحَارَثِيَّ هَذَا قَوْلُهُ : « لَمْ يَكُنْ كُلُّ الْحَدِّ الْمَأمُونِ حَامِلًا صُورَةَ الْبَيْعَةِ
وَلَا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَلَكِنْ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ هِشَامٍ عُلِقَ الْبَيْعَةُ لِلْمَأمُونِ عَلَى رِجْلِهِ وَكَانَ عَلَى سِرِّ عِيسَى هُوَ الَّذِي أَحْدَثَهَا
لِلْمَأمُونِ عَلَى أَهْلِ حَرَامَاتِهِ أَيَّامَ كَانَ وَالِيًا بِهَا لِيَقِيمَ بِذَلِكَ الْحِجَّةَ عَلَى عَلِيِّ بْنِ عِيسَى فَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ هِشَامٍ هَذَا أَنْ طَلَبَ
الْأَمَانَ وَآمَى عَلَى سِرِّ عِيسَى وَقَالَ لَهُ أَحْمَدُ . الْآنَ نَعْنِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَلَيْسَ هَذِهِ نَسْخَةُ الْبَيْعَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا أَنْتَ حَاصَةً
أَتَى اللَّهَ فَقَدْ نَمَتَ مَاتَ قَبْرُكَ ، فَلَمْ يَأْتِهِ لَهُ عَلَى سِرِّ عِيسَى بَلْ قَالَ : مِنْ أَنَا فِي هَذَا أَلَمْ يَأْتِ دَرَاهِمَ شَهْتِهِ أَصْحَابُ
أَحْمَدُ .. اطَّعْ مِنْ أَسْرِ الْأَنْبِيَاءِ » .

معقول أن يكون ذلك من زينة لابن زوجها الرشيد . ولكن التاريخ يحتمل
عن قيد من الفصة قيل إنها أعدته ليقيد به المأمون ، كما يحتمل أن المأمون نفسه اعترف
بمسألة هذا القيد . بيد أن صص الصبيحة ، وما اشغلت عليه من الأوامر ، وما جُبلت عليه
نفسية السيدة زبيدة ، مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيد فضة أو ذهب ، ليقيد به
المأمون .



(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتبت الله للجيوش المأمونية الفلج والصر على الجيوش الأينية . وتركها
الكلبة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانه يبنى حليفته من ذلك الانتصار بقوله .
«أطال الله قدامك ، وكنت أعداءك ، وحمل من يسؤك فداءك ، كنت إليك ورأس علي»
ابن عيسى بن يدي ، وحائمه في أصصى ، والحمد لله رب العالمين .

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كلب طاهر بخبر على بن عيسى من
ماهان ، وما نالته حيوشه من فوز وانتصار ، وما أوقع الله بمحمد حصمه من قتل وانكسار ،
فعد للساس ، فكانوا يدخلون عليه فيهنوته ويدعون له بدوام العز والبصر ، وأن المأمون ،
في ذلك اليوم ، أعلن صلح محمد ، كما أعلن خلافته في جميع كور خراسان وما يليها ، وسر
بذلك أهل خراسان ، وحطت الخطاء ، وأشدت الشعراء . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصحت الأئمة في عطية * من أمر دنيائها ومن دينها
ادحفظت عهد إمام الهدى * خير بني حواء مأمونها
على شعا كانت ، فلما وقت * تحلصت من سوء تخينها
قامت بحق الله اذ درت * في ولده كتبت دواوينها
ألا تراها كيف مد الردى * وفقها الله لتردينها

وهي أبيات كثيرة .

وذكر على بن صالح الحرثي أن علي بن همام لما قُتل ، أَرْجَفَ الناسَ ببغداد إرحافاً شديداً ، وندم محمد على ما كان من نكته وصنعه ، ومشى القواد بعضهم الى بعض ، وذلك يوم الخميس للصف من شوال سنة ١٩٥ ، فقالوا : ان علياً قد قتل ، ولستنا نشتك أن محمداً يحتاج الى الرجال واصطباع أصحاب الصائح ، وإما يحزك الرجال أنفسهم ، ويرضها بأمنها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جده بالشغب وطلب الأرزاق والجوائز ، فقلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ويصلح جدينا .

جبرئ ، لعمرك ! أليست هذه بوادر الوصى وعلامات الانتقام ! أليست هذه هي هي عينها مادئ الثوره وأمارات زوال الملك وسقوط العروش ، وأقول نعم أصحابها ! أجل ! إنما لكذلك ، وإن في أنقسام كلمة الرعاء ، وإثارتهم العوس بالاضطراب والقلاقل ، وإصرارهم بيران العن ، وتحريكهم الجدد وما الى الحد للشغب والمياع ، تقطيعاً لأوصال البلاد ، وبديراً بالهدم والهاء .

ولسظرمماذا كان من حماقات رجال الأمين ؟

إن التاريخ ليحتش أن رأيهم قد اجتمع على الشغب والاصطياد في الماء العكر ، وأنهم أصبحوا قواداً الى باب الحسر وكروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز ، ولع الخبر عبد الله بن حازم ، فرك اليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قواد الأعراب ، قراموا بالنشاب والمخارطة واقتلوا قتالا شديداً ، وسمع محمد التكير والصحيح ، فأرسل بعض مواله أن يأتيه بالخبر ، فرجع اليه فأعلمه أن الجدد قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم ، قال : فهل يطلبون شيئاً غير الأرزاق ؟ قال لا ، قال : ما أهون ما طلبوا ! ارجع الى عبد الله ابن حازم فسرّه فليصرف عنهم ، ثم أمر لهم أرزاق أربعة أشهر ، ورجع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقواد والخواص بالصلات والجوائز !

ولتسأل الآن ، إزاء إجابة الأمين لسؤل القادة والجدد ، ومادرتهم الى رفدهم ، وإمراهم بمحهم الأعطيات والمهمات ، والجوائز والصلات ، أكان في تصرفه حكماً ، وفي عمله مستدداً ، وفقاً ؟ .

لا تظن ذلك . وكان الحزمُ به أولى، ليقْدَح العتنة ، وليَقْصَحَ حدًا صارما للشهوات
دوى الفايات والمستغنين الذين يكثر وجودهم وتوافر جماعتهم في إمانها وقَرَاتِها .



وقد كان اختيار الأمين لمولى بن عيسى بن ماهر ، خطأً سياسياً ، لأن سابقة
ابن ماهر في خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء ، فهو محمقوت أشد المقت عندهم .
ومقرز هذه المناسبة ، أنه يحيل الباء ، الى حد غير قليل ، احتلاق تلك القصة التي تعزى
الى الفصل بن سهل : من أنه كتب الى الديس الذي كان من يشاورهم الفصل بن الربيع
في أمره : أنه ان أبى جماعه الأمين إلا عرمة في الخلاف ، فالِطِف لأن تجصل أمرهم
لعلى بن عيسى . وقال الطبري : وإنما حصّ دو الرياستين علياً بذلك ، لسوء أثره في أهل
خراسان ، واحتجاج رأيهم على كرهه ، وأن العامة قاتلة بحربه . فشاور الفصل الديس
الذي كان مشاوره ، فقال : على بن عيسى ! وإنه إن فعل لم يَرْمِهِمْ بمثله في بعد صومعة ،
ومحاوة نفسه ، وكان في ملاد خراسان في طول ولايته وكثرة سائعه ، ثم هو شيخ الدعوة
ونقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

يميل الى القول بأن دسة اختيار ابن ماهر الى تدمير اس سهل ، وإسعاد كل فصل
اليه ، من ماب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقربذ كانه وسعة حيلته ، كما أسلفنا . ولكنا
نقرز أيضا أن صلة ابن ماهر بالأمين ، وبدولة الأمين ، وبابن الربيع ، كانت مما يحتم على
الأمين لا محالة تقليده أمر جيوشه وتفضيله على غيره من القادة ، لا أن ديس جماعة
المأمون هو الذي أشار بسدبه واختياره . فلنحترس كثيرا من مالملة المؤرخين والرواة ،
ولنحصل من عقولنا ومطلقنا محكاً وحكاً .

ولتفت النظر هنا الى تناقص وقع فيه الرواة من الحزب المأموني ، فيما نراهم يقزرون
أن جيش المأمون عثر على صاديقي حدة من الحر ، فيما ضمنه من على بن عيسى بن همام ،
إذ بالديس يصفه بقوله : « ليس مثله في بعد صومعة ومحاوة نفسه ! » .

ومهما قيل أن وصفه كذلك من باب التلذذ والحديسة ، وأنه كان في حقيقة الأمر
سكبراً مُمَرَّباً ، فما نرى أثر التأليف القصصى في الروايات طاهراً حلياً .

وسق لنا أن قد قَدَدنا ، حينما كنا بسبيل القول في الأمين ، ما رواه محمد بن يحيى بن
عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نعى الناعى إليه قائده . « ويلك دعنى فإن
كوثراً قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئاً سدا » . وترك الناعى وحبسه ، وأقبل
على الصيد وكوثره ، فلمصم هذه الى تلك .



ويجدر بنا الآن أن نطلعك على سبب مقولات الشعراء في موقف الأخوين ، مع
ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم في تمдахهم للقوى ، وعلوهم في زرايتهم على الصعيف .
قال أحد الشعراء البغداديين :

أصاع الخليفة عيش الوزير . • وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزيرٌ وبكرٌ مشيرٌ • يُريدان ما فيه خف الأمين
وما ذاك إلا طريقُ عُرُورٍ • وشرُّ المسالك طرقُ المرور
لِوَاطِئِ الخليفةِ أَعْوَبَةٌ • وأعجبُ منه حَلَّاقُ الوزير
فهذا يدوسُ وهذا يداشُ • كذاك لعمري اختلافُ الأمور
فلو استبان هذا مذاك • لكنا بَعْرَصَةِ أميرٍ سَتِير
ولكن ذالَج في كوثِرٍ • ولم يَشْفِ هذا دِعاسُ الحَمِير
فَنُحْ قَلَامُهُمَا مِنْهُمَا • وصارا حِلَاقاً كَبُوبَ العَمِير
وأعجبُ من ذَا ودا أنتَا • نايح للطميل فيا الصعير
ومن ليس يُحْمِنُ عسلَ أَسْتِه • ولم يحل مَتْنُه من حَمِيرِ طَبِير
وما ذاك إلا هَضْلٌ وَبَكْرٍ • يريدان نَقْصَ الكَلْبِ المَسِير
وهذان لولا اهْتِلَابُ الزَمَانِ • أَى العِيرِ هَذَانِ أَمْ فِي التَّصِيرِ

ولم يكن لها من كالحال * ترفع فيها الوصيح الحفير
فصراً في الصبر حير جميل * وإن كان قد ضاق صبر الصبور
فيارب فاقضهما عاجلاً * اليك وأورد عذاب السعير
ونكل بفصل وأشياعه * وصلبهم حول هدى الجسور



(ح) عود على بدء ، مجهودات الأمين في سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين
ورحالات الأمين ، يمكننا مع ذلك تبين حقيقة أمره ، مما يلاحظ في شأنا السطور
وفئات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفئات قد نتيج لنا أن نؤمن بأن عهد الأمين
من رحالات أمداد . وزيد الآن أن ثبت لك ذلك . وهذا الطبري يتحدثنا ،
في حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لما قوى طاهر واستعمل أمره ، وهزم
من هزم من قواد محمد وجيوشه ، دخل عهد الملك صالح على محمد — وكان عهد الملك
محسوا في حبس الرشيد ، فلما توفي الرشيد وأوصى الأمر إلى محمد ، أمر بحل سبيله ،
وذلك في ذي القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عهد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوحى به على نفسه
طاعته وصيغته — فقال : " يا أمير المؤمنين ! إنى أرى الناس قد طعموا بك ، وأهل
العسكرين قد اعتمدوا بك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن أتممت على أمرك أمستهم
وأطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والعدل أمحطتهم وأعصبتهم ، وليست تلك الجود
بالإمساك ولا تبقى بيوت الأموال على الإثمان والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعتهم
المزائم ، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات قلوبهم هبة لعدوهم ، وتكولوا عن
لقاتهم وماهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، طلب قليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته
ضعف نصائحهم ونياتهم . وأهل الشام قوم قد خسرستهم الحروب ، وأدبتهم الشدائد ،
وبطهم منقاد إلى مسارع إلى طاعتي ، فإن وحيي أمير المؤمنين ، اتحدت له منهم جدا ،

تعظم نكايتهن في عدوه ويؤبد الله سهم أولياه وأهل طاعته . فقال محمد : فإنِّي مؤيِّدُ أمرهم ، ومُفَوِّدُك بما سألت من مالٍ وعُدُو ، فعصَلِي الشَّحُوصَ إلى ما هالك ، فاعْمَلْ عملاً يظهر أثره ، وتُحْمَدُ بركته ، بأبيك وظرك فيه ، إن شاء الله . فولَّاه الشامَ والجزيرةَ واستحثه بالخروج استحثاً شديداً ، ووجهه معه كَتَمًا من الجحد والأتباء .

حاول الأميين بعد ذلك أن يتصرَّعوا على أخيه بكل ما في مقدوره ، وبعث له الجحد يُلَوِّجُ الجحد . وإنا مع اعترافهما بكفاية قاده ، أمثال جحد الرمح بن جبلة الذي نذب أهل البأس والسجدة والعناء ، مرر أن طريقة الإرجاف وبَّت الدعاة إلى اتباعها القادة المأمونيون كانت حِطْرَةً جَدًّا .

انظر إلى من يقول لأهل حِمص : ” يا أهل حِمص ! المُحَرَّبُ أهون من المُعْطَب ، والموتُ أهون من الدِّل ! إنكم مُعْتَمِدُونَ عن ملاذكم ، ونُحْرِجُكُمْ من أقاليمكم ، تَرْجُونَ الكثرةَ بعد القِلَّةِ ، والعمرةَ بعد الدِّلَّةِ ، أَلَا وَيْ الشَّرِّ وَقَعْتُمْ ، وإلى حومة الموتِ أنْتَحَمْتُمْ . إن المنايا في شوارب المسوَّدةِ وَقَلَّاسِهِمْ ، المِيعَرُ المِيعَرُ ! قبل أن يقطع السبيل ، ويترنَّح الأمرُ الجليل ، ويموت المطلبُ ، ويصير المذهب ، ويعبد العمل ، ويقترب الأجل ! “ ، وقام رجل من كلب في عرْزِ باقته ثم قال .

شُؤْبُوتُ حَرْبٍ حَاتٍ مِنْ يَصَلَّاهَا . قَدْ شَرَعَتْ مِرْسَاتُهَا قَاهَا

فَأَوْرَدَ اللَّهُ لَعْنَى لَطَّاهَا * إِنْ عَمَرَتْ كَلْبٌ بِهَا لَحَاهَا

ثم انظر لمن يقول : ” يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء ، والله ما وُلِّتْ ولا عَدَلَتْ ، ولا دَلَّ نصيرُها ، ولا صَعِبَ وليها ، وإنكم لتعربون مواقعَ سيوفِ أهلِ حُرَّاسَانٍ في رفاكم ، وآثَارِ أَسْتَهْتُمْ في صُدُورِكُمْ ، إِعْتَرَلُوا الشَّرَّ قَبْلَ أَنْ يَعْظُمَ ، وَتَحَطَّوْهُ قَبْلَ أَنْ يَصْطَرِمَ ، شَأْنَكُمْ دَارَكُمْ دَارَكُمْ ! الموتُ الفِلَسْطِينِيُّ حَيْرٌ مِنَ العِيشِ الجَزْرِيِّ ! أَلَا وَإِلَى رَاجِعٍ مِنْ أَرَادَ الاَصْرَافَ فَلْيَصْرِفْ مَعِي ! “ ثم سار وسار معه عامة أهل الشام .

أرايب إلى أي مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟

لقد كان المأمون مؤقفاً بلا ريب، وكانت ظروف الصبر والاقبال تؤاياه من هنا ومن هناك، وتطأه على الجراح من حزنه وحكمته وكماية رجالاته، كما كانت تطأه من جراح حماقة خصومه وقلة عاينهم.

ثم انظر ما كان من أمر المصيبة في حوادث سقن خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة، وما كان من اشتطاط حسد الأميين في طلب المال، وما كان من عدم قدرته على إجابة طلقات القادة الكفاة، أمثال أسد بن يزيد، وما كان من تقلب الحسبي اس على- معه وعليه، وما كان من لبّان الأميين معه بعد أن حسبه؛ فان التاريخ يتحدثنا بأن كل ما فعله الأميين معه، هو أن لآمه على خلافه، وقال له: "ألم أقدم أبالك على الناس! وأولاه أعة الخيل! وأملأ يده من الأموال! وأشرف أقدارك في أهل نراسان! وأرفع مازلّمك على غيركم من القواد!" فقال له: بل! قال: "ما الذي استحققت به منك أن تحمل طاعتي وتؤلب الناس على-، وتدبهم الى قتلى؟" قال: الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظن بصمحه وتصفله. قال: "فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولاك الطلب بشارك ومن قتل من أهل بيتك!" ثم دعا له بجملة نخلها عليه، وحمله على مراكب، وأمره بالمسير الى حلوان. وولاه ما وراءه مائة.

انظر الى ذلك كله، فمالك تستطيع أن تقنع معاً، بأن لسوء التدبير حظاً غير قليل في جدلان الأميين وصياع ملكه.



(ط) مظاهر الثورة وخطبائها:

على أن هناك ظاهرة في الجيش الأميني والأطراف الأمينية، مثل ظاهرة الثورة المرنية من بعض وجوها، يحذر بنا أن نقيدها لك، ولو «على الهامش» كما يقولون. ذلك أن الرواقيل، والاصوص، والتوار، لعبوا دورهم الخطير، كما أن العوضى ضربت

يجرئونها على كل البقاع الأُميية ، ولم يكن ثمة من طاعة ولا نظام ، لا في الجسد الأُميى ولا في قاده الجسد الأُميى !

وقد كان هناك خطأ ، كما كان في الثورة العرسية . وإن الطبرى يحدثنا أن محمد بن أبى خالد قام بباب الشام ، فقال : أيها الناس ! والله ما أدرى ماى سبب يتأمر الحسين بن على ! ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا سناً ، ولا أكرمنا حسَباً ، ولا أعظمنا مفرلة . وإن ميا من لا يرضى بالدنية ولا يُقاد بالمخادعة ! وإنى أولكم قصا لمهده ، وإظهارا للتغير عليه والابتكار لعمله ، من كان رأيهِ رأيي ، طيعتلى معى . وقام أسد الحربى فقال : يامعشر الحربية ! هذا يومٌ له ما سنده ، إنكم قد نتمم وطلال يومكم ، وتأخرتم فقتم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوامٌ يدرك حلق محمد وأسرهِ ، فأدهبوا بذكر فكهِ وإطلاقه . يحدثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدثنا أن شيخا كبيرا ، من أهل الكهافية ، قد أقبل على فريس ، فصاح بالناس : اسكتوا ! مسكتوا ، فقال : أيها الناس ! هل ستدون على محمد قطع مسه لأرزاقكم ؟ قالوا . لا ! قال : فهل قصّر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عزّل أحداً من قوادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما لكم حدّثتموه وأعنتم عدوه على اضطهادهِ وأسرهِ ! أمّا والله ما قتل قومٌ حليفتهم قط إلا سلّط الله عليهم السيفَ القاتلَ والحنفَ الجارف ! إنهمضوا الى حليفتكم وادفعوا عه ، وقاتلوا من أراد حلقه والعتك به ! — .

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب ، ومحريق ونحريب ، وفتنة شعواء ، وقتل ودماء ، فإننا نترك الكلمة في ذلك لشعراء العصر ، مما أثبتناه لك في باب المتطوّم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث ، فلتراجع ثمة .

(ى) قتل الأُميين :

ولقد صيّق طاهرٌ وهرنمة على الأُميين النحاي ، وفكّوا فيمن يتسلم الأُميين ليكون له قَصَبُ السُّبْق . وإنه لمن المؤلم حقاً أن ترى الأُميين وهو يقتل أولاده . ومن المؤلم أن

تسمعه وهو يقول : «وددت أن الله قتل الفريقين جميعا ! . ها منهم إلا جدو من معي ومن على ، أما هؤلاء فيريدون مالي ، وأما أولئك فيريدون عسي ! » وقال :

تفرّقوا ودعّوني * يا معشر الأعوانِ

فكلّكم ذو وجوه * فكثيره الألوانِ

وما أرى غيرك * وتزمت الأمانِ

ولست أملك شيئا * فسائلوا خُرّائي

فالويل لي ما دهاى * من نازل البسابة

وإنه لم يؤلم حقا أن يتعفا على أن يأخذ أحدهم بدهه ، والآخر خاتم الخلافة وشاراتها ! ومن المؤلم حقا أن تمتم حياته بمأساته المروعة .

الفصل الرابع

الخليفة المأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة في المسنة الحراسية — الملة العدادية — ثورة مصر
 ابن شيث، الرط، ثورة مصر، ملك الحرى، مدهاب ومحل، اقراضات — السياسة الخارجية : عزوة
 المأمون للروم — كلمة خاتمة .

(١) توطئة :

من محصيل الحاصل أن نقول ما يقوله المعزى وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل
 الخلفاء وعلمائهم ، وحكامهم وحكمتهم ، أو أنه كان ديناً ، عارفاً بالعلم ، فيه دهاء وسياسة
 أو أنه كان قتيلاً ذكياً ، أو أنه كان كاملاً عالماً حواداً ، عظيم المعو ، ميمون اليقييه ، حسن
 التدبير ، جليل الصانع ، لا تحدّسه الأمانى ، ولا تحور عليه الخلدائع ، علمه بما بعده
 كعلمه بما حصر ، أو أنه كان متصفاً بالعدل والحلم .

من محصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحيه ، ولأن خطنا
 في كتابنا ، ومنهجنا في بحثنا ، أن نترك للحوادث الكلمة العاصلة في تحليل صفاته ، اتباعاً
 للطريقة التحليلية التي اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلمنا لك القول في بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصلنا لك ما كان من أمر
 النزاع بين الأخوين ، ووصلنا لك الى مأساة تلك الحرب الشعواء والفتنة العمياء ، ألا وهي
 قتل محمد الأمين في ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآث نتقدم الى القول بأن
 المأمون بؤج له بالخلافة العامة في ذلك التاريخ ، واستقر كملك الى أن توفى عازياً
 في ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ فتكون خلافته ، قد أمانت على عشرين سنة . أقام منها
 في نراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقر الخلافة العباسية .

فيمكنا إذا أن نقيم كلاً من حكم المأمون إلى مدتين: المدة الخراسانية، والمدة البغدادية. وفي بيان هاتين المديتين، بيان للحالة السياسية الداخلية في عصره، وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن:



(ب) السياسة الداخلية:

١ - ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية

اطلعنا في دور النزاع بين الأخوين على شيء صير قليل من بصرفات الفصل بر سهل وتديراته، ووقعا على أثره العظيم في الدولة؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهرثمه بن أعين، في حروبهما للجيوش الأمينية.

ونسأل الآن، بعد أن سمّ الأمر للمأمون وحربه، وحلا الجؤ إلى حد كبير للفصل بر سهل، أم المقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة، العارسية الميَّت والثرعة، ذات البيت الكبير، والجماء والأصدقاء، والعفاء والأصهار، أن تحتل أم يكون إلى حاشا شخصيات بارزة من العرب كهرثمه بن أعين، وأبطال من ذوي العسل العظيم والدور الأول في النجاح كطاهر بن الحسين.

نحس علم ما كان من أبي مسلم الخراساني مع أمثاله من القادة والجماء، كما علم ما كان نصيبه من الخليفة المصور. علم ذلك، كما علم الكثير من أمثال ذلك. وإنه يلوح لنا، من غير أن يبدو الصواب كثيراً، أنه في مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا، إن المقول، في طبيعه هذه الشخصيات العدة، في تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها، ليكون ذلك لأطاعها متهداً، ونقطتها متهداً.

يلوح لنا أن لا يبدو الصواب إذا قلنا ذلك. إذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلبة في الدولة؛ وإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حربه، يكون متهداً، إذا بقي طاهر وهرثمة في العراق، فاستصدر أمرين

ملوكيين : أولها تنولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح يجهود طاهر ، وقيادته الحكيمة ، وإخلاصه للقضية المأمونية . يثبنا بأنه نَصَبه على كُور الجبال وفارس ، وعلى الأهواز والبصرة ، وصل الكوفة والمجهاز واليمن ، كما يثبنا بأنه ولّى طاهرا الموصّل والجزيرة والشام والمغرب . ولكي يتم الأمر بإبعاده ، كتب اليه أن يسلم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال ، وأن يبادر في الشخصوس الى الرقة لمحاربة نصر بن سُبَـث . وثانيهما الى هَرثمة آس أعين يكلفه به أن يشخص الى نحراسان .

ولتسائل الآن : هل كان من المصلحة السياسية ، هذه الصدمة العيفة لزعميين قويين ، أحسا اللآء في الدولة ، ولما مكانتهما ، ولما حزبهما ؟ وهل كانت من المصلحة السياسية إحلأ العراق ، وهو مصدرُ الشقاق والحقاق والعصيان والسادوان ، من هَرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية ، أن يترك المأمون مسألة ، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هَرثمة وطاهر ، بمز هكدا ، فيستغلها الدعاة على ملكه من بني هاشم ممن لم يكن لهم حظ في دولته ، ومن صير بني هاشم ممن يوقون زوال الملك الهاشمي ، فيقولون عنه — إنه عُلب على أمره ، أو أُنّ العرس ملكوا زيمامه ، أو أُنّ الفضل بن سهل أُنزله قصرا لمححه عن رجالات دولته ، وأن السلطان ومقاليده السلطان ، قد نُزِعت منه ؟ .

يعود تسائل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسي ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طعنا ، لا سيما أنه لم تسكن العتق والثورات عدُ في الاقطار المأمونية . ولكنّا نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرعبا على الوقوع في هذه العلطة السياسية ، وهو ذلك السياسي المحكم والناهية التقدير ، كما رأيت وكما ستري في موضعه ، لأن ظروف الأحوال نصيبها في ذلك التصرف منه ومن غيره ممن يكون في مكانه ، ولأنه ربما تخشى بتصرفه ذلك خَطراً أجسم ، وأوسع نطاقا ، وأبعد مدى ، وهو خطر إصصاب الفضل بن سهل وحاماة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التصرفات التي كانت من الفضل بن سهل، وإقرار المأمون لها، وبقاء المأمون، بعد أن تم له الأمر، في مرو دون مداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة في شعبة المأمون وأنصاره من جهة، وفي أعدائه والزاعمين عن سلطانه من جهة أخرى. ذلك بأن أنصار المأمون وقواده، ونحس بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كسروا قلوبهم وقلى من عزائمهم، أن يكون جرائهم على موزم وحس بلائهم وإحلاصهم، تلك التصرفات السيئة التي كانت نصيبهم من المأمون ومن حاشية المأمون.

هذا كان أثرها في شيعته وخاصة أنصاره. وأما غير هؤلاء، فقد جعلت هذه التصرفات ألسنتهم تطلق بآتهام المأمون بأنه يميل إلى الحراسانيين، وأنه أصبح آلة في أيديهم يمزكونه كما يشاؤون وقد حدثت من خراء هذه الإشاعات وتورثه أنصار المأمون الذين لم يحازوا الجزء الأثوى، أن اضطربت الأمور، وكثرت الفتن، ووجد أعداء المأمون الفرصة سانحة لتحقيق أطماعهم. ومن تلك الفتن ما يحدثنا التاريخ عنه: من حروح محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتسدير أمره رجل من رجالات هرثمة بن أعين وبار أنصاره، وقد نرح لأنه حبس عنه ما كان يُعطاء من رزق: هذا الرجل هو أبو السرايا السري بن منصور، وكان هو الخارج على المأمون في الواقع لا ابن طباطبا وقد بلغ من أمره أن صرب الدراهم ووجد الخوذة، حتى اصطغر الحسب بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويستعيه، ليكفيه شر هذا الخارج القوي.

ويظهر أن موت الرعاء، كان طليئاً من الطلسم، أو سراً من الأسرار، أو صناعة من الصناعات الخفية إما نجد أن محمد بن إبراهيم هذا، الذي سُمِّت منزلته بين أتباعه، وعظمت طاعتهم له، قد مات، بعد أن كُتِبَ الصرُّ للقائم بتسدير أموره على سليمان بن جعفر وإلى الكوفة من قبل المأمون، ثم نرى هذا المتصرف يولّي مكانه غلاماً أمرداً حدثاً، هو محمد بن محمد بن زيد العلوي.

وتَسألُ متى لنظري حوادث سنة تسع وتسعين ومائة ، ههنا ما يكشف
القِباع عن أمورٍ يحسام ، تُعيدنا في تمهّم الروح الحزبية بين العلويين والساسيين وتُعيدنا
أيضا في إمطة اللثام عن سبب هامٍّ من الأسباب التي يرجع إليها تبرُّم بعض الولاة الكُفّاء
بدولة الفِصل بن سهل وأفراده هو وجماعته بمراتب الدولة ووظائفها .

تعالَ نظري حوادث تلك السنة ، فجد فيها أن هرثمة حدّ في طلب أبي السرايا صديقه
بالأمس ومُباريه اليوم ، حتى وصل الى قصر ابن هُيرة ، فكانت بينهما وقعةٌ شديدة ، قُتل
فيها من أصحاب أبي السرايا خلقٌ كثير ، ليس في هذا ما يبعثك أن إيماضه رصا وأَسامة
تشجيع ، لرحل من رحالاب الدولة ، كافيةٌ لأن يُنهض فيحارب زميله ويقاثل حذنه ، ثم تحدد
في تلك السنة هما أن محمد بن محمد وثب ، ومعه الحزب الطالبيّ ، على دُور بني العباس ودُور
مَواليهم وأتباعهم بالكوفة ، فانتهوها وحزبوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، وأستخرجوا الودائع
التي كانت لهم عند الناس فأخذوها ، وعملوا في ذلك عملاً قبيحا . وتحدد كذلك فيها أن
مسرورا الكبير الخادم الرشيدى ، قد فتح تلك السنة في مائتي فارس من أصحابه ، وأنه عي
لحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين ، وأنه قال لعامل مكة داود بن عيسى :
أقيم لي شخصك أو شخص بعض ولدك وأما أكيمك فتألم ! فقال له داود : لا أستحل
القتال في الحرم ، والله لن أدخلوا من هذا الصَّحّ ، لأنرجن من الفج الآثر . فقال له
مسرور : تُسلم ملكك وسلطانك الى عدوك ومن لا تأخذك فيك لومة لائم في دينك
ولا حرمك ولا مالك ! قال له . أئى ملك لى ! والله لقد أقتُ معهم حتى شُغِبُ ، وما
وَلَوْنِي ولاية ، حتى كبرت سنى ، وثني عمرى ، ولَوْنِي من المحازما فيه القوت ، إعا هذا
الملك لك ولاشاهك ! فقاتل إن شئت أو دَع !

هذه حالة نفسية لبعض الولاة العرب ، قد يكون من المَع أن تلاحظ نمرها
ومعطها من سياسة العصر ، أو من الهيمنة الفارسية على شئ أمور الدولة عامة والجسبات
منها خاصة في ذلك العصر . وربما كانت هذه الحالة النفسية تمثل لك حالات كثيرة من
نفسيات العرب لذلك العهد .

ثم لسطرى حوادث سنة مائتين، فجد أن زيد بن موسى الطالبي المعروف "زيد البار" كان بالبصرة، وإما سُمِّي "زيد البار" لكثرة ما حرقه من دُور العباسيين وأتباعهم في البصرة. وكان إذا أُنِيَ برجل من المسوِّدة العباسية، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار. وعهد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبي قد حرق باليمن. ونجد أيضا أن الكوفة ونخراستها وأحمارها الكريمة، لم تسلم من أذى السرايا وأتباعها العلويين، وكما حبس من العباسيين وكما أذى! حتى تَدَّت محمد بن مسلمة الكوفي لتولَّى عذاب العباسيين، فأشرف في ذلك، حتى سُمِّيَت داره "بُدار العذاب". ونجد أيضا أن حارِجًا آخر، وهو حسن ابن حسين. أراد اقتناء ما رَسَمَهُ أبو السرايا، فذهب إلى علوى ودأج محبَّ معروف في مكة والمدينة، وهو محمد بن جعفر، ونَصَبَهُ حليمة اسمًا، وجعل السلطان بيده فعلا. وعهد فيها قاتع وقصائع لحسن بن حسين هدا، مع زوجة قرشية من بني فهر، وروجها من بني محروم، ولها حاملٌ بارعٌ، فاعتصمها من زوجها. ونجد فيها مثل ذلك الصليح المعيب من علي بن محمد الحليفة المصوب، مع ابن القاصي إسحاق بن محمد، وكان حميلا بارعا في الجبال!

نجد ذلك كله، ونجد الكثير من أمثاله، مما أدى إلى إثارة الرأي العام في مكة، فاحتعوا، حتى ردَّ الصبي لأبيه مكرها مرعيا! ونجد فيها أمثلة عدَّة لاستلاب أموال الناس، كما نجد فيها رجلا عاسيا موتورا من العلويين، وهو محمد بن الحكيم، ممن كان الطالبيون قد انتهوا داره وعدَّوه عينا شديدا، عثر على محمد بن جعفر الطالبي الخليفة المصوب، وقد طُرِدَ شرَّ طردة، وكان في مقدوره أن يقتله فلم يفعل. فليقَد هذه الحادثة، فإنها تعمي في تهمة السر الذي كان كثيرا ما يحدو بالمأمون إلى احترام العلويين، وتقدير مكانتهم والعمل على إرضائهم لأن لهم حرمة في نفوس حرب غير قليل من الشعب. ونجد في السه ناتها أن الخلع قد تولاه أكثر من شخص، لتعدد السلطات. فندب المأمونُ أبا إسحاق بن هارون الرشيد. ووجه ابراهيم بن موسى الطالبي، الذي خرج

ياجن ، رجلا من ولد عقيل بن أبي طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما بدل على الفرقة
والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتعزف ذلك جيدا .

ويحذر بها هـا أن نبين نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين ، فقد بلغ أبا اسحاق بن
الرشيد أن الجماعة الطالبية اتى أنت من البس للبح ، قد حرب بها قافلة من الحاج والتجار ،
وفيا كسوة الكعبة وطبيها ، فاستلث أموالهم وطبيهم ، فندت لهم محمد بن عيسى بن يزيد
الخلودي الذي أحذف بهم فاسرا أكثرهم ، وهرب من هرب منهم ، وأحد منهم الطيب
وأموال التجار والحاج ، فوجه به الى مكة - ودعا عن أسير من أصحاب القيسلي العلوي -
فأمر بهم فقتل كل رجل منهم عشرة أسواط ، ثم قال لهم : " أعزُّوا يا كلاب السار !
مواثقه ما قتلكم وعمر ، ولا في أسركم جمال " . وحلّ سيلهم . ولاحظ تسميته لهم "كلاب
السار" !

وإنا نلخص لك الحوادث التي وقعت بعد أن قبح هرثمة ثورة أبي السرايا ، التي انتهت
بقتله عام ٨٢٠٠ هـ . وإنجاد فتته ، معتمدين في ذلك على الطري - والأستاذ «ميور» خاصة :

لما قبح هرثمة ثورة أبي السرايا ، عاد الى نهروان ، دون أن يعزج على والي بغداد ،
وهناك وافاه أمر الخليفة بتوليته حكم سوريا وبلاد العرب ، وكان قد اعتزم الذهاب بعد
ذلك الى « مرو » مباشرة ، ليكشف للبيعة عن حقيقة الموقف وحرجه ، الذي يخفيه عنه
وزيره الفضل ، بسبب بقاء الخليفة في « مرو » وأن الغرب سيتقص عليه سريرا ،
ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العودة الى بغداد . فلما أحسن الفصل عزم هرثمة
على القدوم قتل الى ما يتوهم ، فدمى له عند المأمون ، حتى أوتر صدره عليه ، وكادب
السنة تنتهي قبل أن يذهب هرثمة الى « مرو » . فلما ذهب حتى أن يكتم الفصل
حبر قدومه عن المأمون ، فحق الطول عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفة الموعر الصدر
بقدومه أمر باحصاره ، فلما تملّ من يديه مالم في تحريره وتأييده على توكينه في تسكين
ثورة أبي السرايا ، وفي مخالفة ما أصدره اليه من أمره بالذهاب الى ما ولّاه من أعمال

وما كاد هذا القائد يتم بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى همَّ عليه الحرَّس الذين أسرَّ اليهم الفصلُ أن يُعطوا في تسديده، فاهالوا عليه صرّاً ولَكْماً، على وجهه وجسمه، ثم محبوه بسرعة إلى السجى حيث مات به بعد زمن قصير، متأثراً بجراحه . ولقد اعتقد عاقبة الناس أن الذى أماته هو الفصل .

وهكذا اطوت صحيفة هذا الباسل العظيم الذى ذبَّ عن مُلكِ المأمون، وكأخ في توطيد دعائم الدولة، من أمريقية إلى خراسان، والذى رجع إليه الفصل الأكرى انتصار المأمون على أخيه المخلوع . ومات هذا القائد العظيم محمياً للعبادة وكان الجليل، كما مات أمثاله من قبل من صادد هذه الدولة من حراء العبادة والمناصب، ومن حراء أعمال البطانة ودسائس الخاشية .

ولتسالم ما ذا كانت بتيعة قتل هرثمة ؟

محدثا التاريخ أن هرثمة كان محمواً في الغرب، وأن موته أحدث فتناً وقلقل في بغداد، وثارَت الجُودُ في وجه الحسن بن سهل، إذ علَّوه آلةً في يد أخيه الفصل الذى كانوا يعتونونه بالمجوسى . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، طجأ إلى «المدائن» ثم ارتد إلى « واسط » . واستقرَّت العتق والقلقل بعد ذلك قائمة ببغداد شهوراً عنه، فشطت في حلالها عصابات اللصوص وشراذمة الصماليك، وشتمت عن ساعدها في أعمال النهب والسلب، حتى طغى سيلُ عاراتهم على تلك المدينة المكودة، التى أصبحت تحت رحمتهم . ويحدثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا في ذلك لسرافاً عظيماً، مما فزع له أعيانُ المدينة ووجهائها، فاحموا أمرهم على صد هؤلاء السُّفلة الأشرار ودفع عائلتهم عن المدينة وأهلها . ولما تم لهم ما أرادوا، احتاروا من بينهم رحلين من دوى الفضل والمكانة فيهم، وتوَّهما تدير الحكم، ربما تستقر الحال ويؤد الأمن إلى يصابه . ثم عَرَضُوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدي والبيعة له، فتأبى عليهم، ولكنه عاد وقيل أن يتولى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُوشك هذه السنة أن تنتهى حتى كان قواد الجند في بغداد قد سمعوا القتالَ،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالي صاعد الى بغداد بعد أن أصدر عقوفا عاما ، ووعده بأنه يدفع الجسد رواتبهم عن ستة أشهر ، وبأن يدفع كذلك لدوى العاشات أرواقهم حسبما هو مُدرجٌ قوائمهم .



ولتسائل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهي على هذه الشروط ، حتى عادت الفتنة والاضطراب أشدَّ مما كانا عليه . ذلك بأن المأمون ، لفرض سياسي ، أو لفرقة شيعيه ، أو لتقدير كفاية خاصة ، استدعى واحداً من سلالة سيدها عليّ ، وهو «علي الرضا» رضى الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين ، الى «مرو» ، واختاره ولياً للمهد الخليفة ، مع أنه يكبره بأثنتين وعشرين سنة . ووربما كان المأمون في رأيهِ هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذي رآه له أن هذه الأنجح وسيلة لتسكين ثورة العلويين في الغرب . ووربما كانت تتحَّ هذه الوسيلة في التوفيق بين البيت العلويّ والعباسيّ ، قبل استعمال الخُلف بينهما . أما وقد استطار الشر بينهم ، وقُلت معصمهم بعض ظهر المحجّج ، ولَبَسُوا جِلْدَ التَّيْر ، وتحمَّزوا للقتال ، وتداعوا للحلّاد ، فإن أمر الوفاق بينهم صار حُلدا ، وعاد الإقدام عليه بهما وحماقة مُهلكة ! .

وما ذا ترتب على إفساد ولاية المهدي لعرد من العلويين ؟ .

إن التاريخ يحدثنا أنه ترتب على إفساد ولاية المهدي الرضا أن أمر الخليفة وولائه في جميع أنحاء الدولة بأحد البيعة لولّى عهده . ولكن يجعل المأمون الدولة بصطع بصفة العلويين ، حلق الشعار الأسود ، شعار العباسيين ، وأرتدى الشعار الأحمر ، شعار الشيعة ، وأمر عُمَّالَه بالانقياد به . وفي أواخر هذه السنة تلقّى الحسن بن سهل من أخيه الفضل أمرا بإعلان ذلك وتفيذه ، فكان لذلك الأمر أسوأ أثر في أهل بغداد ، إذ وقع عليهم كالصاعقة ، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة ويمقتونهم ، وكذلك شعَر العباسيون بأن الصرية موجهة للقضاء على خلافتهم ، فشَقُّوا عصا الطاعة ، وهُمُّوا بحمل المأمون واختيار خليفة

سواء ، ولم يعارض زعماء البيت الملكي من العباسيين في ذلك . فلم تأت آنس جمعة من هذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهدي على الماي خليفة بدلاً من المأمون ؛ وسرعان ما أُوعِد له بالخلافة . وكان إبراهيم يارعا في الموسيقى والعناء والشعر ، ولكن كانت تنقصه المؤهلات التي يستطيع بها أن يصطلع بأعناء الملك التي أُلقيت على عاتقه ، والتي ناء عملها مذهبتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نَسِب القتال بين حنود المأمون وحنود إبراهيم المقتصب للخلافة ؛ فاضطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرد الى واسط مرة أخرى ، وخُيِّل إليه أنه اذا جارى أهل الكوفة في ميولهم الشعبية ، يستطيع أن يصمها إليه ، وبدأ ذلك بأن ولى عليها أحد إخوة علي الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عائلتي علي والعباس في مدينة كهذه متقلبة الأهواء ، صرَّب من المستحيل ، فان أهلها كانوا على استعداد ، في أول أمرهم ، للقاء الحسن كقائده من صميم العلويين ، ولكنهم انتقصوا عليه باعتباره الوالي العارضي من قِبَل المأمون ، وعلى ذلك قامت الثورات في هذه المدينة أيضا كما قامت في غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

إن التاريخ يحدثنا أنه بينما كان الغرب عارفا في لحج هذه الفوضى ، حدث في مَرَوْ تغييرٌ حديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تبسه في آنس الأمر ، لخرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن العريب أن أول من نبه الخليفة الى هذا الخطر المُخْدِق به ، وبعرش آبائه وأجداده ، هو علي الرضا نفسه ، حين المأمون أن ولايته للمهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سيء الى أسوأ ، زُهاء عام منذ توليه .

ويحدثنا التاريخ أن عليا الرضا حلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكَايِمُه حقيقة الحال ، ويخفي عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أي الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور ، وأن الخلافة توشك أن تُفْلِت من يده بين إبراهيم والعلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل في القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك القائد الأسفل الذي يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ البجاه مبدؤ في سوريا .

وقد أتت هذه الحقائق للمأمون جماعة من قواد الدولة وزعمائها ، صد أن أقتنهم المأمون من غضب وزره ، ونصحوا اليه بأن حير علاج لسلامة الدولة أن يعمل بالعودة الى بغداد ، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحه هَرَمَة ، التي جاء من أهلها مدُّ سنين لئسرها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أن استسلامه للعصل وإقياده له ، كما سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى سدد ، وما كادوا يَحْلُون سَرَخْس وهم في طريقهم الى سدد ، حتى وحدوا الفصل قتلا في حَمَامِه ، وكان الفصل ، قبل ذلك قد اصطهد حمأة القواد والرماء الذين كسحوا أمره عد الخليفة ، فوجد الخليفة مَكَانًا لم يأتية بالقتلة ، ولما قص عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة ، ولكن لم يثمهم دافعهم شيئا ، وصُربت أعاقهم ، وبعث الخليفة بره وبهم الى الحسن بن سَهْل مشفوعةً بكتاب تعزية منه ، ووعدته فيه بأنه سيستوزره خلفاً من أخيه ، وبلغ من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره ، أن عقد زواجه من ابنته ثورَان ، التي كانت اد داك مما قيل طِفلة في الحول العاشر من عمرها ، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك . وفي الوقت نفسه زوّج إحدى بناته لعلّ الرضا الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ الرامة والحسين من عمره ، كما زوّج بنتا له أخرى من اس على الرضا ، وكذلك ولّى أحد إخوة عليّ الرضا إمرة الخ . وهذه المصاهرة تمت مظاهر حسن العلاقات وتوثيق العرا بينه وبين الحزب العلوي . وكانت هذه المصاهرة في ذاتها تصرفا سياسيا آية في الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك عبر قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه في أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل طُوس في فصل الخريف ، وهناك مات على الرضا بغاة ، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه في أكلة عنب، مدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهترت الدولة لموته الفعائى الذى جاء عقب مقتل العصل، وإيه لمن المعقول في مثل هذه الأحوال أن تنتشر الإشاعات، وتكثر الأراجيف في سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا في مثل هذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دس له السم في العنب، بيد أن الرعاية التي أطهرها المأمون لملّ الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة .

إما لا نتمكن من أن نعرض من جهة أخرى: أن العصل وعليها كما عقمة كأداء في سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتهما، ويجوز لك أن تذهب في التدليل على أن المأمون كان يعد عليا عقمة في سبيل إرضاء أهالي بغداد، إلى أنه في الوقت الذي كتب فيه كتاب تعزية إلى الحسن بن سهل ينتهي فيه موت علي أرسل كتابا آخر إلى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذي أطهروا مخطئهم وتدمهم من إساد ولاية العهد له قد قصي، فلا شيء إذا يجمعهم الآن من العودة إلى طاعته وموالاته .

على أننا لا نحاريك في هذا الافتراض، لما يناه لك من ناحية، ولأن قضية المأمون وحلقه، مما ستقف عليه قريبا، لما يحمل هذا الافتراض وأهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون إلى البغداديين بشأن موت علي الرضا فنقول لك : إنه وإن لم يحدث أثره المطلوب تماما في موس المعداديين، لأنهم احابوا عنه بكتاب جاف فاتر، إلا أنه قد حطاه في سبيل استمالة أهل بغداد، وفي هذا الوقت أخذ أنصار إراهم القلائل يتفصبون من حوله، لضغفه وسوء تديره في إدارة الحكم، وتحمل عنه جوده، ولم يتقدموا لمداخلة جود المأمون، وسقطت المدائن التي كان فيها مقر خلافة، في أيدي جود المأمون، وسامت أحواله، واضطرب نظام ملكه في فصل الشتاء. ولما دنا قواد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قواد المدينة وزعمائها، يظهرون ولائم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تتعصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى إبراهيم كما اختفى غيره ، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون ، وذلك بعد أن عانت ماعانت من ضروب العوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريباً ، وبقى محتفياً فيما يقال ثمانى سنين ثم قبض عليه متنكراً فى زى امرأة ، ثم عفا عنه المأمون وسندكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما نحدث ثورة بغداد ، وفر ابراهيم بن المهدي محتفياً ، واستقر النظام وعاد أهلها الى الطاعة والولاء لخليفتهم ، تقدم اليها المأمون مُتّبداً فى سببه ، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمر بها كي يعيد اليها الأمن ويُقر فيها النظام ، فأقام فى جُرحان شهراً كما أقام فى التَّهْرَوان ثمانية أيام ، فخرج لاستقباله أهل بغداد ، يتقدمهم أهل بيته وقواده ووجوه المدينة احتفاءً بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقة أن يوافيه فى التَّهْرَوان فوافاه بها ، ثم تقدم معه ذلك ودخل بغداد فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م) .

وكان لا يزال الشَّعارُ الأخضر ، شعار العلويين الذى اتخذه المأمون وهو فى صَرْو ، شعار الدولة ، ما زال به كجأر قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشَّعارُ الأسود : شعار العباسيين . ويحدثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرَة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوماً ثم مُرِّقَتْ ، ثم حُلج الخُلجُ السَّيِّئَة على من حصر من القواد والأشراف ورجال الدولة ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، الذى كان اختفى بعد مقتله ، ثم ظهر مساعداً لإبراهيم بن المهدي فى ثورته ، وكذلك عفا عن عيسى وزير إبراهيم ، مع انهما كانا رأسى الفتى والقلاقل التى أثيرت على حكم المأمون ، فكان موقف المأمون معهما غاية فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام في جميع أنحاء الدولة، بدحول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نصر بن سُبَاح حاربا في سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحا للفتن والقتال، وبأنك انخرمى يعظم حطره في شمال فارس، والزلط لا يزالون يعيشون في الأرض مصادا على الخليج الفارسي. وسقصر عليك في موضعه ما وصلت اليه هذه الثورات وكيف أنجست.

ثم ولّى المأمون طاهرا حاكما على بغداد، وأقام ابنه عبد الله واليا على الرقة خلفا من أبيه. عير أن المأمون لم يلبث أن تنكر طاهرا وأظهر له الجفوة. ثم نرى بعد قليل أن طاهرا ولّى حاكما على خراسان.

وقد كان يكون في حيرة من أمر هذا التنكر العجائبي من الخليفة على رحله العظيم من غير سبب طاهرا، ثم ينتهي ذلك بأن يكون حاكما على خراسان، أولا أن أبى طيعور بروى لنا أسباب كل هذا في قصبة متممة ملخصها: أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون فيها قيل في مجلس شراب، فأمر له برطلين من البسند ثم بكى المأمون وتفرعت عياه، فقال له طاهرا: يا أمير المؤمنين لم تبكي لأنك الله عليك! هو الله لقد دانت لك البلاد، وأدعى لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمرك، فقال: أبكي لأمر ذكره ذل، وستره حزن، ولن يحلو أحد من عبيي فتكلم بحاجة إن كانت لك. فما زال طاهرا بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السبب حتى وفق ما مال إلى إعراء ساقى المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب. فلما تمسدى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقي، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لم نكيت حين دخل عليك طاهرا! قال: يا حسين، وكيف عنيبت بهذا حتى ساءتني عنه؟ قال: انشئ بذلك، قال: هو أمر إن خرج من رأسك فتلك، قال: ياسيدي، ومتى أنجرت لك سرا! قال: إني ذكرت مجدا أني، وما ناله من الذلة لخفتني العبرة، فاسترحت إلى الإفاضة. ولن يفوت طاهرا متى ما يكره. قال: فأحبر حسين طاهرا بذلك، فركب طاهرا إلى أحمد

ابن أبي خالد - وهو وزير المأمون - فقال له : إن الثناء متى ليس برخيص، وإن المعروف عسدي ليس بضائع، ففريقي عن عيه . فقال له : سأفعل فبكر^١ على عدا . قال وركب ابن أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة، فقال له : ولم ويمك ! قال : لأنك وليت غسان خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس^(١)، فأحاف أن يخرج عليك حارجة من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه، قال . من ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ؛ قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الصامن له ؛ قال له : فأعذه، قال : فدعا طاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواء، لم يكن مطمئناً، مع صحن وزيره لطاهر، إلى تعيينه حاكماً على خراسان، فان بعض الرواة يقول : أن المأمون أسر إلى خصى له أمين يرافقه طاهر، حتى إذا رأى منه خروجاً دس له السم .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسداد رأى، حتى طهر منه ما كان يشاء المأمون، من خروج وعصيان، فقد أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين، فأنفذ عن المأمون عامل البريد هورا بكتاب إلى المأمون، يحبره فيه بما وقع من طاهر، ثم نرى المأمون يتوقع عن كتاب آخر ويتنظره طارع الصبر في اليوم التالي لورود الكتاب الأول، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا يسي طاهراً الذي وجد ميتاً في فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من الغموض في هذه اللاحية من عصر المأمون، وأن تصرفات المأمون مع طاهر، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نمأش الأستاذ « ميور » الذي يرى أن على هذه الحوادث جميعها عشاء من الغموض كثيراً .

(١) يريد أهم قليل منهم يشتمهم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولى مكانه ابنه طلحة، وأن يستق ابنه عبد الله والياً على الجانب الغربي من الخلافة، ليقع ما فيه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب. ثم أرسل وزيره مع طلحة ليقوى دعائم سلطانه في ولايته، فمحص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بحملة موفقه على بعض العصاة، ثم قفل راجعاً الى بغداد مزوداً — فيما يقول الرواة — بهدية نعيه له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه أخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم.

أما طاهر الذي تولى في فراشه، وربما كان الذي يعلم سر وفاته قبل سواه هو المأمون وطلحاته، فقد قدما لك شيئاً في كلمتا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وحبرته بالحروب، ولا يقل خطره في تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره في الحرب، وكانت مع ذلك مشحوناً بالعلم والأدب، مشجعاً لأربابهما، حاثاً على تعلمهما. وليس أدل على تميزه في العلم والأدب، وحبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذي كنه الى ابنه عبد الله. ولما نرى ما تقدم به اليك هذا العهد، حيراً من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتمائه به، واستنساخه، ثم إرساله الى عماله في الولايات. قال ابن طيمور: لما عهد طاهر بن الحسين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تارعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرئ عليه وقال: ما بقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعي وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدم فيه، وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في واسع الأعمال.

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ومحاربة مصر بن شت لما رآه فيه من حرم وفضيلة وكفاية وحسن بلاه. وكان عهد أبيه اليه قابلاً يطبقه على نفسه أحرم تطبيق، وكان لا يورد شيئاً في شأن من شؤونه أو يصدره إلا على منبهه وفي حدود إرشاداته.

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية أثرنا ذكره، وقد أشتتناه في باب المستور من الكتاب الثالث في المجلد الثالث مراجعته .

٣ - ثورة نصر بن شيث

أما نصر بن شيث ، الذي وحّه عبد الله بن طاهر لمحارسته بعد أن وجه إليه أبوه ، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة ، وكثرت الأراجيف ، وشطت أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لبقاء المأمون في مرو بعيدا عن عاصمة الملك وحاضرة الخلافة . وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصير غيرها من الثورات . التي نهدت بسرعة ، لولا أن طاهرا لم يتعد في محارسته . وقد ذكر أنه قال للحسن بن سهل حينما نذبه للخروج إلى محاربة نصر بن شيث : حاربته حليفة ، وسقت الخلافة إلى حليفة ، وأؤمر بمثل هذا ! وإنما كان ينبغي أن توجه لهذا قائدا من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا ترك المنهزم أمام نصر بعد معارك حامية بين جديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقى في يده من البلاد أن يصير نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهرا في محاربة نصر بن شيث ، يرجع إلى الصدمة التي صدمه بها آل سهل . حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق ، له حظ كبير من الحق ، فإلا لا تسبغ عجز طاهرا عن ما هده نصر ، واحصاه ، مع ما هو معروف عنه من الدهاء ، والبصيرة والحرب ، وحسن سياسته للقبوش ، ووضع أدق الخطط لحملاتها ، ومع أن وراء الدولة ثمة بما يحتاج إليه من حد وسلح وهال .

ومهما يكن من شيء فقد كثف أنصار نصر وعظم خطره ، حتى ذهب إليه من شيعنة الطالبين فقالوا له : قد ورتت في العباس وتلت رحالم . فلو باعت لحنيمة لكأن ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أي الناس ؟ فقالوا : تباع لبعض آل علي بن أبي طالب ،

فقال : أباع بعض أولاد السُّوداوات فيقول إنه خلقتي ورزقني ! قالوا : فتابع لبعض
 بنى أمية ، قال أولئك قوم قد أذبر أسرارهم ، والمُدبر لا يُقيل أبدا ، ولو سلم على رجل
 مدر لأعدائى إدماره ، وإما هواى فى بنى العباس ، وإتما حاربهم بحماة عن العرب ،
 لأنهم يقدّمون عليهم العمى . فآل قوله هذا طويلا ، فهو يُبَيِّط لنا اللثام عن حقائق يجب
 أن نشف عليها .

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر ، الذى نهد لمحاربة بصرى شَبَّث كتب
 الى المأمون يعلمه أنه حصَّره ، وصَبَّق عليه ، وقتل رؤسا من معه ، وأنه قد عاد بالأمان
 وطلَّسه ، فأمره أن يكتب له كتابَ أمانٍ ، فكتب اليه أمانا سحَّته « أما بعد ، فان
 الإمداد خالق محمَّد الله المقرون بها النصر ، والاحتياط بالعدل دعوه الله الموصول بها
 العر . ولا رال المُعِدِّر خالق ، المحمَّخ بالعدل ، فى استفتاح أبواب الأبد ، واستدعاء
 أسباب التمكين ، حتى يفسح الله وهو حر العاصم ، وتمكَّن وهو حر المتكسب .
 ولست بعدو أن تكون فيما لحقت به ، أحد ثلاثة : طالت دين ، أو ملَّيس دسا ،
 أو متورزا بطلب العلَّة طالما ، فان كسب للدين نسي بما يصنع فأوضح ذلك لأمر المؤمنين
 يتعمَّ هولَه إن كان حقا ، فامرئ ما همته الكبرى ولا عايته القصوى إلا الميل مع الحق
 حيث مال ، والروال مع العدل حيث زال . وإن كسَّ للدنيا تقصده ، فاعلم أمة المؤمنين
 عايك فيها . والأمر الذى تسحَّفه به ، فان استحَّفهها وأمكنه ذلك فعليه بك ، فلعمرى
 ما يسحَّير مع حلق . استحَّفه وإن عظم . وإن كسَّ متورزا فسيكفى الله أمير المؤمنين
 مؤنك . وسحل ذلك كما نخل كعائته مؤن قويم سلَّكوا مثل طريقك ، كانوا أقوى يدا .
 وأكثف حدا ، وأكرم سما وعددا وبصرا منك ، فيما أصارهم اليه من صَّارِع الحاسرين ،
 وأزل هم من حواش الطامس . وأمر المؤمنين يحم كتابه شهاده أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وصحائه لك فى دينه وذمته
 الصصح عن سوائف حرائك ، ومتقدِّمات حرائك ، وإزالك ما يستأهل من مابرل العز
 والرهه ، إن أننت وراجعت إن شاء الله ، والسلام . »

وقد ذهب عبد الله بن طاهر الى وجهه في محاربة نصر، ولث في مهادنه، حتى اضطره الى التسليم نحو خمس سنين، وفي أثناء هذه المدّة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فهدد حفص بن محمد العامري، ليؤدّي رسالة منه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والخلّوح الى السّلم.

وقد كاد يتمّ الصلح بين العرييين، وتخصّص الدماء، ويذهب عن الناس في تلك النواحي ما أصابهم من مريج وعلّج، لولا حروانة^(١) في رأس نصر قائلها أخرى، فيما يقول الرواه، في رأس المأمون، حالتا دون هذه الغاية السامية: ذلك أن نصرًا قبيل ما اقترحه المأمون، اكده شرط ألا يبطأ بساطه. فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أحبّه والله الى هذا أبداً ولو أفصيتُ الى بيع قميصي حتى يبطأ ساطي! ثم كتب اليه المأمون بمد ذلك فكانا هذه سعيته:

أما بعد، فإني يا نصر بن شيبث قد عرفت الطاعة وعزها وبرد طلبها وطيب مر بها، وما في خلافها من الدم والخسار. وإن طالبت مدّة الله بك، فإنه إنما ينبغي لمن ملته من مظاهرة الجحيم عليه، لتقع عنقه بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذا كارك وبصيرك، إنما رجوت أن يكون لك أكتب به اليك موقع منك، فإن الصديق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وأهله الدرس يُعْتَوْنَ به، ولم يأمالك من عمال أمير المؤمنين أحد أجمع لك في مالك وديك وميسك، ولا أحرص على استفادتك والانتبش^(٢) لك، من خطائك مني، فأى أقل أو آخر أو سبطه أو أمره إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، بأحد أهواله، وتوتّى دونه ما وآلاه الله، وزيد أن نيت أما أو مطمئنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا، فوعالم السر والظهر، إن لم تكن للطاعة مراحجا، وبها حاجبا، تستؤيلن وخم العاقبه، ثم لا تدان لك قبل كل عمل، فإن قروا الشيطان إذا لم تقطع،

(١) الحروانة، الملك.

(٢) استفادتك من الحكمة.

كانت في الأرض فتنة ومسادا كبيرا، ولأطالَ بن ممي من أنصار الدولة ككواهلٍ رطاجٍ أصحابك، ومن تأثت اليك من أدان السلدان وأقاصيها، وطغامها وأوئاشها، ومن أنصوى إلى حورتك من حُرَّاب الساس، ومن لمطه لدهُ ونفتة عشيره لسوء موضعه فيهم، وقد أهدر من أنذر، والسلام.

ثم أحد عبد الله يَحْد في محارته وحصره حتى صبق عليه، واصطره إلى طلب الأمان، وقد احتسب نصر، وهو داهب إلى بغداد حاصعا لمحليته، احتفاء عظيمًا، بيد أن جماعة من كانوا يأمون على المأمون، لم يرفهم أن ينهض الخلاف بينه وبين نائز قوى، فأرادوا أن يكتدروا صفاء السرور فدرؤوا مؤامره، وهي أن تقطعوا حسر الرواري، عند اقتراب نصر بموكبه الخافل، فمض عايهم، ولأمر ما كان المأمون، على عبر طائفة، قاسيا في عقابهم. فقد جاء رعيهم من طائفة، فيما قال الرواء، وهو من بني الساس، ووسع على باب داره، في أشعه الشمس المحرقة ثلاثة أيام، ثم أمر نصر به بالنسياط ثم أمر نصر عنه مع كثير من كانوا معه.

يقول لأمر ما كان المأمون قاسيا في عقابهم، لأن الرجل الذي يصل به عموه وحلمه إلى أن سعو عن إبراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع وغيرهما، من أصحاب الكجائرومى كادوا له حفا، وسعوا في صياح ملكه، وأستلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له إلى القسوة عقاب هؤلاء الأشخاص حاحه في نفسه غيب عليا. ونحن نترقب بأن المصادر التي بين أيدينا لم تسر لما تسبوا معها، السر في هذا الاشتطاط وهذه المبالغة في العقوبة من المأمون الوديع الحليم.

على أن هذه الحادثة نحتاج إلى تحقيق دقيق ولم يتح لنا المصادر الحاصرة القيام بحرف وجه الحق فيها. ولا يستبعد التته أن يكون المأمون منها برآء. وليت أعضاء المجتمع العلمي العربي وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعملون بتحقيق مثل هذه النقط المهمة في تاريخ أزمى عصورها الإسلامية.

(١) أي احتفظك وأصم اليك. (٢) الطغام. (٣) جمع حارب وهو اللص. وحده الأصمى بإسارقه الأول.

٤ -- الزط

أما الرُّط، فهم المعروفون بالزُّرَّة، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهم قوم من أحلاط الناس علوا على طريق مصره، وعانوا فيها، وأمسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلط هؤلاء الموم في سلك أممات الثورات ، أو الخارجين على الخليعة ، لِحِلِّهِ دِيبِهِ ، أو مذهب سياسيٍّ ، وإنما هم طائفة من هود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي ، قد وُحِدوا به حين اضطراب الأمن في أطراف الدولة ، وضعف سلطان الحكومة ، وانصراف القامئ بتسيير الشؤون العامة . إلى أمر الغتة القائمة بين الأميين والمأمون ، التي انتهزها الزط وأمثال الرط فرصة للسلب والنهب والبيوت في الأرض فسادا ، فجمعوا واسولوا على طريق مصره ، فهم نُقُصَانِ البحر وقطاع الطرق أشبه منهم بالتأثيرين وأممات المبادئ^١ .

ويظهر أنهم ، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الحصري لك ، كانوا إذا أخرجهم الحد ، هزقوا في تلك العَيَّاقِي ، فإسأرى المأمون يكلف عبر مصره أكثر من قائد أمر القضاة عليهم ، ثم نراهم لا يزالون يعيشون في الأرض فسادا ، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم ، الذي كلف أحد قواده : عُثَيْفَ رَ عَتْسَه القضاة عليهم ، فاهتم عُثَيْفَ بحربهم ، وصبقى عليهم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه ، ثم حاربهم وأسر منهم نحو خمسمائة رجل ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة ، وقطع رؤوس الأسرى وبعث بالرؤوس جميعا إلى المعتصم ، وجئت في حربهم حتى اضطروهم إلى التسليم ، فإذا عَدَّتْهُمْ سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأه وصبيٍّ ، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم في السفن

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار : « إن الوجودية من القائلين الأسبوية كالفاحار الذين نسبهم الصر والنازار أو النزر ، وهم يعرفون بالملتص في النصارى والمسايا ، وفي بلاد الانكليز اسمهم حسون ، ويسمى الترك باسم (قبط) ويرفق منهم يسمى سباه وهم سكان تراقيا ، وفي مصر يسون تارة عمرا وتارة حلا » .

الى بغداد، فزوا على المصم بأواقهم وهيئتهم الحربيه، ثم قُبلوا آخر الأمر الى قريه تسمى
عين رربة^(١).

وقد ذكر ابن الأثيرى حوادث سنة ٣٤١ هـ في عهد المتوكل أن الروم أعارت عل
عين رربة هذه، فأحدث من كان فيها أسيرا من الرط مع سائهم ودرارهم ودوهم.

٥ - ثورة مصر

أما مصر، فقد كانت مسرحا لثقل وافتقار، وكان رأس الفتنه وزعيمها عبيد الله
ابن السرى بن الحكم الذى عظم خطره اشغال عبد الله بن طاهر بخاربه نصر بن شيبث
وإحصاءه، ومما رادى اضطراب الطعام في مصر قدوم حماسة من أفاء الأندلس الى
الاسكندريه، يحتشوا عنهم الطبرى بقوله حدثني غير واحد من أهل مصر أن
مراكب أقلت من بحر الروم، من قبل الأندلس، فيها جماعة كثره، أيام شغل الناس قتلهم
عنه البحرى وابن السرى، حتى أرسوا مراكبهم بالاسكندريه، ورتسهم يومئذ بدعى
أناحفص، فلم يرالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر.

ويحدثنا عن العدة التى كانت مصر نقوله - قال لى يونس بن عبد الأعلى : قدم طينا
من قبل المشرق فنى حدثت - يعنى عبد الله بن طاهر - والدنيا عندما معتونة، قد غلب
على كل ناحيه من بلادها عالت، والناس منهم في بلاء، فأصلح الدنيا، وأمس البرى،
وأحاف السقيم، واستوثقت له الرعيه بالطاعة.

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر في مصر، فان التاريخ يحدثنا أنه لما انتهى أمر
نصر بن شيبث، كما قدما، كتب المأمون الى عبد الله يأمره بالتوجه الى مصر لإنقاذ
ما فيها من فتنه، فذهب اليها، وحادث الثائرين القتال، حتى اضطروهم جميعا الى طلب الأمان،
فأحسنهم اليه.

(١) صطها يافوت منع الراى وسكون الراء ولاء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلد الفتر من بواحي

المصبىة ساجا الرشيد سنة ١٨٠ هـ وذب اليها مذب من أهل حراسان وعيرم وأعطهم إياها.

وأما الأندلسيون الذين حصرهم جماعة كبيرة منهم إلى الإسكندرية ، فقد طلبوا الأمان ، على أن يرتحلوا عنها إلى حصن أطراف الروم ، فرحلوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السري ، فإنه طلب الأمان إلى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف ، واهزمه شرهزيمة .

ولما أحييت الفتنة في مصر ، وبلغ المأمون الخبر ، كتب إلى عبد الله بهتة ، وحصل في أسفل كتابه أياتنا من الشعر ، إن تمت صدورهما من المأمون حقاً ، ولم يكن من وضع القصص والروايات ، فإنها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها في علاقه المأمون مع عماله .

وقد كتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون بهتة بهذا الفوز كتاباً بليغ اللفظ ، رشق الأسلوب ، هذه نسخته . طبع ، أعز الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السري إليك . فالحمد لله الماصير لديه ، المعز لدوله حليفته على عاده ، المذل لمن عدَّه وعن حقه ، وزع عن طاعته ، وسأل الله أن يطاعه له العم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما وليك مد ظمعت لوحبك . إنا ومن قبلنا نتداكر سيرتك في حرك وسائلك ، ومكثر الصخب لما وقفت له من الشدة والليالي في مواضعهما ، ولا علم سائس حديد ورعيه عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأصغره عموك ، ولقلنا رأساً إن شرف لم يلق بيده ، يتكلاً على ما قدمت له أوثقه ، ومن أوقى خطاً وكما به وسلطاناً وولاية ، لم ينجده إلى ما عا له حتى يُجبل بمسامه ما أمامه ، ثم لا يعلم سائسا استحق الخج لحس السيرة ، وكف مآزله الأشماع استحقاقك ، وما استحق أحد من قبلنا أن يقدم عليك أحداً نهوى عنه الحاقه والبارلة المعصية ، فلبتكم منه الله ومريده . ويسوعك

(١) عدد من النسخ . ما له ومذل .

(٢) آسفه : أصبه .

الله هذه العمة التي حواها لك ، بالمحافظة على ما به تمت لك ، من نفسك بجبل إمامك ، ومولائك ومولى جميع المسلمين ، ولأنا العيش بقاءه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندما وعد من قبلنا مكرما مقدما مظلما ، وقد زادك الله في أعيان الخاصة والعامة جلالة وتمالة ، فأصبحوا ترخوك لأعصمهم ويثبوك لأحدثهم ونوابهم ، وأرحو أن يوفقك الله لمحابة ، كما وصي لك صفة وتوفيقه ، صد أحسن حوار العمة ، فلم تطفيك ولم ترد إلا مدلا وبواصعا ، فالحمد لله على ما أنالك وأملك وأودع فيك ، والسلام .

وقد نرح المأمون الى مصر في ١٦ المحجة سنة ٣١٦ هجرية ، أثر شخصوه الى دمشق لاره الثانيه . وكان حروحه الى مصر ، بها يقول الرواة ، لإيمان ما قام فيها من فتى واصطرايات ، وذلك أن أهالي الوحه البحرى حرجوا ومعهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته بهم ، ولقبح صيغته بهم .

ويحدثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بدل ما في مقدوره لإحساد الفتنة والفصاء على الثورة . فلم يحالعه الطمر ، وأحرجه النوار أفضح مخرج من البلاد . فقدم القائد التركى المعروف بالأفنين وعمل على قنح الفتنة وإحساد الثورة ، وقتل مقتلة دريعة من الأهلين ، فسكنت الفتنة الى حين .

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيبها ، واستدعت خطورتها قدوم المأمون الى مصر ، هاء اليها ، ونظر في شكاه الأهلين . وعمل على إصنافهم ، وتخطيط على عيسى بن منصور ، ونسب اليه وإلى سبى أعماله كل ما حدث في طول البلاد وعرضها من فتن وثورات .

وبظهر أن الثورة المصرية لم تتجدد تماما ، وأنها تطلبت من المأمون ، الى حاب ما أظهره من رعية في إحقاق الحق وإجراء العدل ، شيئا من الحزم واستعمال القوة ، بهاد التأثير القتال ، حتى أذعوا أحيا : ويقول المؤرخون : إنه لث في مصر أربعين يوما أو يزيد ، إذ قدمها في الخامس من محرم سنة ٣١٧ هـ وبقي بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قصي هذه الملة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالنقل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سُجَّار وُحُلوان وغيرهما) .

ومن أعماله في مصر تعمير مياس النيل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه القسطنطينية . وعاد المأمون أخيراً الى دمشق بعد أن شهد المصريين وحربهم وعدم احتمالهم ظلم الحكام والولاة .

٦ — مآل الخسري

يحبوا المؤرخون أن مآل الخسري، قد ظهر من كوره في شمال بلاد فارس تُسمى «الند»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهب الإسماعيلية سنة ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال في «مرو» قبل أن ينتقل الى عاصمته ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة مآل حنيفة، طوَّال عهد المأمون، وصُدِّروا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعي المروزي، في كتاب الانساب^(١) الخسري: هذه الفتنة الى طائفة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدييه، قوم يديون مما يريدون وشتهون ، وإعما لقوا بذلك لاحتهم الهزومات من الخمر وسائر اللذات وكماح دوات الحارم وفعل مايتلدون به، فلما شابهوا في هذه الاماحة المزدكية من المجوس ، الذين خرجوا في أيام قباد وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات ، الى أن قتلهم أنوشروان سقاز، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدييه كما قيل للزديكية .

وقيل أن نحوهم في تفصيل حوادث هذا الرجل ، وما بدله المأمون ، ثم المعتصم في قتاله ، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأميين فأنه المعتصم التركي سنة ٢٢١ هـ — قبل كل هذا، يحب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم في فهرسته عن مذهب الخرمية الباطنية وما يتعلق به ، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل . وما كان يدعو اليه من تحلة وبذعة .

(١) حاء في القاموس وشرحه «حرمة» كسكة قرية فارس بها مآل الخسري الطائفة التي كاد أن يستولى على المسالك من المعتصم . ثم قال . وتحرز الرجل دان دين الخرمية أصحاب التامخ والخلول والاماحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخزمية صفان . الحريم الأولون ، وبُسمون المحترمة ، وهم مستثرون بواجب الحلال فيما بين أذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وتمدان ، وديسور ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس في الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة ، وصاحبهم مردك القدم ، أمرهم تناول اللذات ، والانمكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساة والاحلاط ، وترك الاستعداد بمصهم على بعض ، ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا معه . ومع هذه الحال وروى أفعال الحر وترك القتل وإدخال الآلام على العوس . ولهم مذهب في الصبيانات ليس هو لأحد من الأمم . إذا أصابها الانسان لم يجمعوه من شيء لشمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مردك الآخر الذي طهر في أمام قاذس ضرور وقتله أبو شروان وقتل أصحابه . وحرره مشهور معروف . وقد استقصى المصنف أخبار الخزمية ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، في شرحهم ولذاتهم وعاداتهم ، في كتاب «عيون المسائل والحوامات» ولا حاجة سألني ذكر ما عد سقيا إليه عرضنا . »

«فأما الخزمية الثانية ، فإن صاحبهم مالك الخزمي . وكان يقول لمن استفواه : إنه إله . وأحدث في مذاهب الخزمية القتل والمصعب والحروب والمثلة . ولم يكن الخزمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب المهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له في بدء أمره حتى صار لإمام هذه الحلة التي تنسب إليه قلا عن واقدس عمرو التميمي الذي عمل أحمار بامك ، فقال . وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهاقا ، زرع إلى شرادر بيجان ، فسكن قرية ندعى «نلال آباد» من رُستاق (ميمد) ، وكان يحمل دهبه في وعاء على ظهره ويطوف في قرى الرستاق ، فهو يأمراه عوراء ، وهي أم مالك ، وكان يعجز بها برهة من دهره ، حينما هي وهو مُتدنان عن القرية ، متوحدان في عَجْضة ، ومعهم شراب يتكفان عليه ، إذ خرج من القرية يسوق يستقي الماء من عين في الفيضة ، فسمعن صوتا يطيا يُترنم به فقصدن إليه ، فهجم عليهما ، فهرب

عبد الله وأحد نسع أم مالك ، وحش بها الى القرية ووصحبها فيها . قال واقد ثم إن ذلك الدهان رعب الى أبيها ، فزوجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج في بعض سقراته الى جبل سيلان واعتصمه من استعماه وجرحه فقتله ، مات بعد مدّة . وأقبلت أم مالك تُرْصِع للناس نأحره ، الى أن صار المالك عشرين ، فيقال : أنها خرجت في يوم من الأيام تلتمس ناكاً ، وكان يرى نأحر لقوم ، فوجدته تحت شجرة قاتلاً وهو عُريان ، وإها رأت تحت كل شجرة من صدره ورأسه دماً ، فأنته من نومه . فاستوى قائماً وحال ما رأت من الدم فلم تمده قالت : معلب أنه سيكون لابي نأ حليل .

«قال واقد وكان أيضا مالك مع الشلح الملق الأردى رستاق سراة ، يعمل في سياسة دوابه ، وتعلم حرب العُشور من علمانه ، ثم صار الى تبرز من عمل أذربيجان ، فاشتغل مع محمد بن الرقاد الأردى نحو سنتين ، ثم رجع الى أمه ، وله ثمان عشرة سنة ، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو . وكان يحمل البد وما يليه من حاله رجلا من العلوج ، متحزبين ولها حدة وثروة ، وكان متشاجرين في التملك على من يحال البد من الخزيمة ليتوحد أحدهما الرئاسة ، يقال لأحدهما « حاويدان بن سهرك » ، والآخر علت عليه الكبة يعرف « بأبي عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب في الصيف ، وتحول بينهما التلوح في الشتاء لانسداد العقاب . فإن حاويدان ، وهو أستاذ مالك ، خرج من مدينته نألف شاه ، يريد بها مذهب رجحان من مذات ثور قروير ، فدخلها وباع صمه وانصرف الى جبل البد ، فأدركه الثلج والليل رستاق محمد ، فعاح الى قرية "لالل أاد" ، فسأل جررها إنزاله . فهي به ، فاستحفا منه بحاويدان ، فأزله على أم مالك وما تستويت من صنك وعُدم ، فقامت الى نار فأجمتها ، ولم تقدر على غيرها ، وقام مالك الى علمانه ودواته فخدمهم وأسقى لهم الماء ، وعت به حاويدان ، فابتاع له طعاما وشرابا وعلفا وأناه به ، وحاطبه وناطقه ، فوجده ، على رداءه حاله وتعتقد لسانه بالأعجمية ، فهذا ، ورأه حينئذ شهما ، فقال لأمه : أيتها المرأة ! أنا رجل من جبل البد ، ولي به حالٌ ويسار . وأما محتاج

الى أبسك هذا . فادعني الى لأصحب به معي ، فأوكله بصياحي وأموالي ، وأبعث بأجرته اليك في كل شهر خمسين درهما ، فقالت له : انك لشبيه بالخير ، وإن آثار السعة طيك ظاهرة . وقد سكن قلبي اليك ، فأنهضه معك اذا نهضت . ثم إن أما عمران نهض من جبله الى حاويدان فخاربه فهزيم ، فقتل حاويدان أما عمران ، ورجع الى حبله . وبه طعنة أحاقه ، فأقام في مرله ثلاثة أيام ثم مات . وكاتب امرأه حاويدان تتعشق ناكبا ، وكان يعجربها ، فلما مات حاويدان ، قالت له : إنك حلد شهيم ! وقد مات ! ولم أرفع بذلك صوتي الى أحد من أصحابه ، فتبأ لعد ، فاني حاميهم اليك ، ومعلمتهم أن حاويدان قال . اني أريد أن أموت في هذه الليلة ، وإن روصي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشارك مع روحه ، وانه سيبلغ بعصه ونكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد ، وانه يملك الأرض ، ويقتل الحسارة ، ويرد المردكية ، ويعبره دليكم ، ويرتفع به وصيكم ، قطع ناكب فبما قالت له ، واستبشر به وتبأ له . فلما أصبحت ، تجمع اليها جيش حاويدان ، فقالوا كيف لم يدعُ سا ويؤص السا ! قالت : ما معه من ذلك إلا أنكم كنتم متمزقين في منارلكم من العرى ، وأنه إن مات وجمعكم انشرحه ، فلم يأمن عليكم سيرة العرب ، فعهد الى بما أنا أؤذبه اليكم ان قيتموه وعلمتم به ، فقالوا لها : قولي ما عهد اليك ، فانه لم تكن ما محالفة لأمره أيام حياته ، وليس ما محالفة له بعد موته ، قالت : قال لي : اني أموت في ايلقي هذه ، وإن روصي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابي ، فادامت فاعلمهم ذلك ، وإنه لا دين لمن خالفني فيه واختار لعصه خلاف احتياري ، قالوا : قد قبلنا عهدك اليك في هذا العلام ! فدعت ببقرة فأمرت تقتلها وتسحقها وتسط جلدتها . وصيرت على الجلد طستاً مملوءاً انمرا وكثرت فيه حُبزا ، فصبرته حوالى الطست ، ثم دعت رجل رجل فقال : طأ الجلد برحلك ، وحذ كسرة واعصمها في الحجر واكلها ، وقل : آمنتُ بك يا روج بابك كما آمنتُ بروح جاويدان ، ثم خد بيد بابك فكفر عليها وقلها ، ففعلوا ذلك الى وقت ما نيا لها فيه طعام ، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقدمته على فراشها وقعدت معه ظاهرة لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذت طاقةً ريحان ، فدفعتها الى ماك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهصوا وكفروا لها رصاً بالترويج ، والمسلمون عريهم ومواليهم .



وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن الديق وغيره ، عن نشأة بانك ومدحه وتعاليمه : إن الباعث الذى دفعه الى الحروح ، غير الواعث التى دعت نصر ابن شَهْت فى الشام ، وابراهيم بن المهدي فى بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا فى الكوفة ، وغيرهم . ممن كانوا مقادين بحركه سياسية أو عامل حسى ، واما كان حارجا على النظم السياسيه والاجتماعيه والاقتصاديه فى ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهه نظر بغداد فى قتاله ومطاردته .

أحل ! لم تكن العايله فى خطر بغداد من قتاله ، إحصاعه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أُتيح لها إحصاعه رصبت عه وكفت القتال دونه ، واما كانت العايله التى ترى إليها القضاء على مدحه وتعاليمه الصائره بِنظم الحياة والاحتجاج .

وربما حاز لنا أن نقول . إن موقفه من الخلافة الاسلاميه فى ذلك العصر أشبه شئ به بموقف البلاشفة من الأئم المتحصرة فى عصرها الحاضر .

وهالك ما فعله الخليفه المأمون مع بانك والبابكيين ، بعد ما عاثوا فى الأرض فسادا وأحافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمون لمحاربهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، بجي ' بن معاد ، فكانت بينهما وقعه ، لم يُتَبَّح الفوزُ فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد ، مولاه أرمينية وأذر بيجان ومحاربة ماك ، فَنُكِسَ وفشل . ثم وجه اليه صدقه بن على المعروف بزريقى ، وتَدَبَّ للقيام بأمره أحمد بن الجعيد الاسكافى ، فأمره ماك . ثم بعث اليه محمد بن عُثَيم الطوسى ، فقتله ماك سنة ٢١٤ هـ بهشتادسر وخص عسكره ، وقتل جمعا كثيرا من كان معه .

وهكذا كان أمر بابك . كتبوا وجهت اليه حملة هزمتها ^١ لمكانه الحصين ، وقوته الكبيرة ، وشده تأثيره في قلوب أتباعه وأتباعه . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانتشاله بماواة الروم . حتى اذا شعر بدق ميته كتب في وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : « والخزمية ما عجزهم ذا حراميه وصرامه وجليده ، واكنفه الأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرحالة ، فان طالت مقتسمهم ، فتحوذ لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدم اليه فيه ، واحيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك ، وكثر الداحلون في مدعاه ، في أول عهد المعتصم (سنة ٢١٨هـ) . وما زال به المعتصم يحوذ اليه الحملات تلوا الحملات ، حتى انتهى أمره في سنة ٢٢١هـ بأسره وقتله « بسر من رأى » ، هو ورهطا من أتباعه ، على يد قائد المعتصم التركي العظيم حيدر بن كلوس الأشرسقى المعروف بالأفشين .



٧ - مساهبات ونحل

ويمس بنا أن نشرها الى أن هذا العصر من العصور الاسلامية ، قد كثرت فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب ، فظهرت في العالم الاسلامي مقالات دينية وفلسفية كثيرة عربية ، أشار اليها مؤرخو الآراء والمذاهب ، نجد طرفا منها في فهرست أبي الدببم ، وطرفا في كتب « الملل والنحل » ، وطرفا في كتاب الأستاذ « برون » الذي وضعه عن « تاريخ الفرس الأدنى » فقيه شي ، عن المسألة ^(١) وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعري عند هذه الآراء والمذاهب في « رسالة الفجران » وقعه ممتعة .

(١) المسألة واتباعها يقال لهم الماوية هي الحلة التي أتى بها من وجود يمين إلى الخير وإلى الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام مدة طويلة . وقد اء - رديقا وعل وسلح وحتى جلده وعلق على أحد أبواب يضاور ويرف باب ما - ولكن عنه م تكن تقدم أصارا بعد موته ، فكانت تظهر ويقعها أناس في ترات مختلفة : ولم لعلام الليل سذك من يد * تحقق أن الماوية يحسب وفلك ردى الأعداء تسمى إليهم * وراك فيه در الدلال المحص

على أنا لأحب أن نعريض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل ، لأننا نحس إحساساً صادقاً ،
وربما نتكلم فيه على حق ، أبـ الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال عامصاً ،
ثقله الصوص وعدم عتاء المصادر وكلماتها . وظن أن الاحتياط في مثل هذا الموقف
أسلم وأبقى . وكل ما نأمله هنا ونزوجه حقاً ، أن نجد لمثل هذا البحث المنع النافع ، بعض
الذين يُعَوّن بتأريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية في الإسلام .



٨ - افتراضات

أما وقد اشتبها من كلمتنا الموجهة عن السياسة الداخلية في عصر المأمون ، فقد حق
عليها أن نسأل : لماذا مكث المأمون شطراً طويلاً من سسـ حركه في حراسان دون
معدادٍ عاصمه الخلافة الإسلامية ؟

أما أن نزم لك أنا سحريك إجابته فمبعضه مضعة ، فهذا ما لا نقله لك ولا لأعسا .
لأن المصادر التي بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب في ذلك .

إذن فسندم لك آراءنا في هذا الصدد ، بحذر بما أن نعتبرها بمثابة افتراضات
لا أكثر ولا أقل .

فنعرض أن الفصل بن سهل وجماعه الفصل بن سهل ، وحوثم حوثم وسلطانهم
سلطانهم ، آثروا نقاء المأمون في "مرو" عاصمة حراسان حيث يحوي أموال الدولة إليه ،
ليكون نصيبُ القناع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر .

ونعرض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساساً ، ربما كان صادقاً ، أن كبار
رحالات الدولة من العرب القاطنين بمعداد ، لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطامع
والميول ، وأهم كانوا لذلك يحشون الروح إلى معداد قبل أن تشعهم وتقوية سلطانهم .

ونعرض أنهم آثروا القرب من الولايات التي تتمتع بمعددها ورحالها ، كما آثروا أن
يكونوا في أوساطهم الفارسية التي من مصلحة نضره المأمون وبوطيد دعائم ملكه ،
والعمل على خذلان منافقيه .

هذه اقتراحات رأينا أن قيدها لك لتأمل فيها . وربما كان بعضها سائفا معقولا ، على أن تكون حذرا كل الحذر ، فلا تتورط في اعتبار كل فرض سائح معقول ، لازم الوقوع في التاريخ . فكثيرا ما يقع في التاريخ غير المعقول من الحوادث !



(ج) السياسة الخارجية :

نعتقد أن الوقت لم يَأْنِ بعد ، لدرس السياسة الخارجية في أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين ، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التي تناقلها المؤرخون ، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التي كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين ، كما كانوا متأثرين بالحرص على دفع شأب الدولة الإسلامية . والتبويه بعدها وسلطانها ، فاصطرها هذا كله إلى القلق حياء ، وإلى التقصير حياء آخر .

ولم يطعم البحث بعد صبوص تاريخيه واصححه معاصره ، كتبت في غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين في تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) حاذون في التدقيق على النصوص والآثار التي تحملو تاريخ هذه الدولة في العرون الوسطى فهم لم يصلوا بعد ، إلى شيء ذي حياء فيما يمتس علاقتها بالدول الإسلامية . فأما الأمم الشرقه الأخر التي كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنا شيئا ، أو لم نطلعهم من آثارها التاريخيه بشيء ذي فقيه . وإذا فنعن مضطرون إلى أن نعتمد اعتيادا مؤقتا ، يملؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العرب .

وعن علم أن الساسه الخارجيه في عصر المأمون كانت تنقسم إلى قسمين متمايزين : الأول سياسته مع دول إسلاميه مستقله عن الخلافة . والثاني سياسته مع دول أجنبية غير إسلاميه .

وليس هناك شك في أن سياسة المأمون، مع الدول الإسلامية المستقلة، كانت واضحة بنة الأسلوب، فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائما أن المسلمين جميعا يجب أن يُدعوا لسلطانها، وإذا لم تعترف، في وقت من الأوقات، استقلال الأمويين في الأندلس، ولا الأدارسة في المغرب الأقصى، وأما اعتبرتهم مُفَاهة، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فضلا أو اسما. فاضطرت الى أن تُنقِهم من ناحية، وتؤلّب عليهم من ناحية أخرى.

على ذلك نستطيع أن نفهم شجيعها دولة بني الأعل في إفريقية وعطوها عليها، فقد كانت هذه الدولة تستمتع بسيرة من الاستقلال غير قليل، وتظهر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامي الذي يرد عن الخلافة عارات هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

نستطيع أن نفهم هذا، وأن نفهم أيضا ما دبره لحا في العصص من اتصال علاقات ودية بين خداد وملوك المرخ الدين كانوا باؤنود جي أمية في الأندلس.

أما القسم الثاني من السياسة الخارجية، فيقسم أيضا الى قسمين: أحدهما سياسته الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يحصوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم. وهذه السياسة واضحة أيضا، على قلة النصوص، فقد كانت سياسته توسع وسيط للسلطان، ولكن في احتياط وتحفيظ ومصاحبه. وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ، تسلك في استغلالها وإبقائها عند الحاحه، طريقا كلها حكمة وفطنة. فبينما نراها تهاجم فتفتح وتأسر، نراها مره أخرى موادعة محالفة مستخدمة. وهي تستعيد في الحالين. ولكنك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة، آخر الأمر، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعبيهم بمظمة الخلافة.

والقسم الثاني هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية ». وهذا القسم هو الذي نستطيع أن نقول، في غير تردد، أنه احتاج حقا الى جهود الخلفاء وكماياتهم. فقد كانت

العلاقة بين «قسططينيه» و«دمشق» أيام الأمويين وبنها وبين «شداد» أبام الباسيين ،
شديدة الاضطراب والتعقيد ، لا تكاد تستقر على حال ، وإنما هي حربٌ حياً وسلمٌ حياً آخر .
ومهما تكن من شيء ، فقد كانت القاعده الأساسية لهذه السياسة ، أن الحرب هي
الحال الطبيعي بين الدولتين ، فأما السلم فحال عارٍ . ولذلك كانت تسمى دائماً هدنة .
وربما كان من المقبول أن نقول : إن أصحاب «قسططينيه» و «شداد» كانوا يصطرون
إليها اضطراباً .

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك في الكلام عن مالك الحزمي أن المأمون أرسل إليه آخر حملة ، بقيادة محمد
ابن حميد الطوسي سنة ٢١٢ هـ ، وأن هذه الحملة ماتت بالهرميه والفشل ، كما مات غيرها ،
مما سبقها من حملات ، وأن المأمون انصرف عن مالك مؤقتاً ، لأشغاله بغزو الروم الذين
يعزل بعضهم سبب تحفّز المأمون إلى عزوهم ، بعد أن طل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء
ست عشرة سنة ، بما تأكده المأمون من مشامهم لماك وإمدادهم إياه بالمعوية .

ويقول الأستاذ «ميور» ، في بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة
والروم ، وعدم انتهاز المسلمين فرصه الثوره ، التي نشبت في بلاد الروم بين «توماس»
و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى : «إنه لا شك أن ريت العرب عن اقتحام بلاد الروم ،
في ذلك الوقت ، يرجع إلى أن بطيريق أطاكية ببلاد سوريا ، كان قد تزوج توماس
امباطورا ، ولونجح في تأميره وسلطانه ، لكفى العرب مؤونة القتال ، ولكان توماس هذا
تأبى للحليمة المأمون» .

عل أن المأمون قد تحفّض سنة ٢١٥ هـ إلى بلاد الروم ليفزوها سالكا إليها طريق
الموصل ، ثم متّيج ، ثم دابق ، ثم أنطاكية ، ثم المصيصة ، ومنها خرج إلى طرسوس ،
وهي الثغر الاسلامي ، ومن طرسوس دخل بلاد الروم ، في منتصف جمادى الأولى
(يوليو سنة ٨٣٠ م) ، ففتح وغنم كثيراً من الحصون ، ثم شخص إلى الشام . وورد عليه

في دمشق الخبر أن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكره الى بلاد الروم، وكان الظفر والتوفيق حليقه في هذه الكزة أيضا .

وفي المدة التي قضاها المأمون من مصر ودمشق، بدأت الماوشات بين عماله وملك الروم، ثم اشتدت حتى أصطُر الى أن يشخص الى بلاد الروم للزهر الثالثه، وهي المرة التي توفى فيها .

وفيا هو سائر إليها . معترفا بتحقيق حظه رسمها لنفسه ، إذ يقول : أوجه الى العرب ، فأقضى بهم من البوادي ، ثم أنزلهم كل مدينة افتتحها ، حتى أصرب الى القسطنطينية ، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليه كتاب مولاه ، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته ، فيما يقول الرواة العرب : ”أما بعد ، فإن اجتماع المحتلمين على حطهما ، أولى بهما في الرأي مما عاد بالصرر عليهما . ولست حرياً أن تدع لحظ يصل الى غيرك حظاً محوزه الى نفسك ، وفي علمك كاف عن إحاراك . وقد كنت كتبت اليك ، داعياً الى المسالمة ، راجئاً في فصيلة المهادنة ، لتصح أوزار الحرب عما ، ويكون كل واحد لكل واحد ولياً وحرباً ، مع اتصال المرافق ، والفسح في المتاجر ، وملك المستأمر ، وأمن الطرق والبيضة . فان أبيت ، فلا أدب لك في الحرم ، ولا أزعرف لك في القول ، فإني لخائض اليك عمارها ، آخذ عليك أسداها ، شأن حيائها ورحاها . وإن أصل معد أن قدمت المعيرة ، وألفت بيني وبينك علم المحبة . والسلام “ .

أما رد المأمون عليه فيقول المؤرخون العرب إن نسخته كانت : ”أما بعد ، فقد بلغني بكلمك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت اليه من المواقعة ، وحلقت فيه من اللين والشدة ، مما استعظفت به من شرح المتاجر ، واتصال المرافق ، وملك الأسارى ، وريح القتل والقتال . فلولاً ما رجعت اليه من أعمال التزودة والأحد بالحظ في تغليب المعركة ، وألا أعتد

الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أورق مُعْتَمِه ، بلعلتْ جِواب كتابك خيلاً نجل
 رجالاً من أهل اللام والحدو والبصره ، سارعوكم عن نُكلكم . وبقضون الى الله بدمائكم ،
 ويستقلون فى ذات الله ، ما لهم من ألم شؤكنكم . ثم أوصل اللهم من الأمداد ، وأبلغ لهم
 كافيًا من العُدَّة والقَنَاد ، هم أظلموا الى موارد المايا سكم الى السلامه من محوف معتزتهم
 عليكم ، موعدهم إحدى الحُسَيْنَيْن : عاجل عله ، أو كريمة مُنْقَلَب . عرأى رأيب أن أتقدم
 اليك بالموعظة الى سُئيت الله بها عليك المحم من الداء لك ولمك الى الوحداينة ،
 والشرعية الحبيعية ، فان أريب ، ههذه بوحدة ، وتثبت يطره . وان ركب ذلك ،
 هى يقين المعاسة لمعوتا ما ينهى عن الإللاج فى القول والإعراب فى الصبغة ، والسلام
 على من اتبع الهدى » .



(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلت الميبة المأمون ، دون تحقيق خطته ، بموضع يقال له « السدندون » من
 « لؤلؤة » و « طرسوس » . وكانت وفاته ثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ
 وسه ثمان وأربعون سه وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولاته ، فيقول اليعقوبى . وكان الغالب عليه فى خلافته
 دو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن
 يوسف . وكان على شُرطته الناس من المسيه بن رهبر ، ثم عزله وولى طاهر بن
 الحسين ، ثم عدّ الله بن طاهر الذى استخاف اصحاب بن ابراهيم سغداد ، فوجه اصحاب
 أخيه خليفة له على شرطته . وكان على حرسه شبيب بن حميد بن حَقَطْبَه ، ثم عزله
 وولاه قومنس ، واستعمل مكانه هرثمة بن أعين ، ثم عدّ الواحد بن سلامة الطحلاوى ،
 قرابة هرثمة ، ثم على بن هشام ، ثم قتله وولى عُجَيف بن عَبَّسة . وكانت رِجَابَتُهُ الى أحمد
 ابن هشام ، وعلى بن صالح صاحب المصلّى . قال : وخلف من الولد المذكور ستة عشر

دكرا، وهم محمد، واسماعيل، وعليّ، والحسن، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى،
واحمد، والعاس، والفصل، والحسين، ويعقوب، وحمهر، ومحمد الأكبر، وهو ابن
معللة وتوفى في حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادى .

أما صاحب « نهاية الأرب » ، فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه : أن حُجَّابه هم
عبد الحميد بن شَبَث ، ثم محمد وعليّ اسما صالح مولى المصور ، ثم اسماعيل بن محمد بن
صالح . وذكر أن قصّاته هم . محمد بن عمر الواقدي ، ثم محمد بن عبد الرحمن المخرومي ، ثم بشر
ابن الوليد . وكان نقش حاتم ، فيما ذكره المسعودي في التبيين والإشراف : « الله معه
عبد الله به ؤمى » .



وقد يكون من المفيد لنا ، من وجهه نظر التاريخ المصرى ، أن نقف على ولاية مصر
وقصصها في عهد المأمون ، وذلك ليسر لنا كتابان مُجمَّعان وإياى في هذا الموضوع ،
وهما كتاب « النجوم الزاهرة » لابن عرى بردى الأتاتكى وكتاب « الولاة والقضاء »
الدين ولوا أمر مصر وقضاءها للكندى . ونحن نذكر لك هؤلاء الولاة والقضاء على
وجه الاختصار .

أما الولاة فهم : مالك بن دلم ، وحاتم بن هرمته ، وحارس الأشعث ، وعبد بن محمد ،
والمطلب بن عبد الله ، والعاس بن موسى . والسرى بن الحكم ، وسليمان بن غالب ، ومحمد
ابن السرى ، وعبيد الله بن السرى ، وعبد الله بن طاهر ، وعيسى بن زيد ، وعمر بن الوليد ،
وعديويه بن حلة .

وأما حدثنا المؤرخون في أيامه عما سعى في معمر المدع المأمونية الأروع : فإليده
الأولى منها هي لبس الخُفَر وتقرُّب العلوية وإعداد بى العاس . والثانية القول بخلق
القرآن . والثالثة ما كتبه المأمون الى ناته سعداد أن أحد الجند بالكبير اذا صلوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون في هذه السنة وهي سنة ٢١٥ هـ «المتعة» فقال الناس :
هذه بدعة راسه ، وبعد ولاية أس حمله هذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن
عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمظفر بن كيدر .

أما قصاة مصر في عهده فهم : عبد الرحمن العمري ، وهاشم بن أبي بكر البكري ،
وأبراهيم بن السكاه ، وطبيعة بن عيسى الحصري ، والفصل بن عاتم ، وأبراهيم بن إسحاق
الغاري ، وعطاف بن عزوان ، وحمله عبد الله بن طاهر على المطالم ، وسدئذ ولي القصاة
من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أما معاصره ، فقد كان يعاصره في الأندلس الحكم بن هشام ، ثالث أمراء بني أمية ،
ثم ابنه عبد الرحمن . وفي عهدهما سمما رأى الأندلس ، في القول بحلق القرآن ، فقد قال
أبو خلف المعافري :

لَا وَالَّذِي رَقَعَ السَّمَاءَ * لَا عَمَادَ لِلطَّرِ
مَا قَالَ حَلَقُ فِي الْقُرْآنِ * بَحْلَفِهِ الْأَسْكَرُ
لَكِنْ كَلَامٌ مَتَرٌ * مِنْ عَدِ حَلَايَ النَّشْرِ

وكان يعاصر المأمون في بلاد المغرب الأقصى : إدريس بن إدريس بن هداقة ، ثم ابنه
محمد بن إدريس . ويعاصره في إفريقية من بني الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ،
ثم ابنه ريادة الله بن إبراهيم ، فاتح صقلية . ويعاصره في فرنسا «شارلمان» صديق أبيه ثم
«لويز الأول» الملقب باللبس . ويعاصره في المملوكية «ليون الأرمني» و «ميخائيل»
الملقب بالتمام ، ثم ابنه «يويل» .

أما صفته فهي ، كما ذكرها صاحب «سهاية الأرب» ، «كان المأمون ربة ، أبيض ،
طويل الخية ، رقيقها قد وحطه الشيب . وقيل : كان أسمر ، تلووه صفرة ، أجنى ، أعين ،
صيق الوجهة ، بحمته حال أسود» وكذلك وصفه الطبري وغيره .

ولما حصرته الرواه أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلى بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس أن الثاني كان متخفيا عنه ساعة وداته .

ولقد أثبتنا لك في باب المنشور من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث وصيته التي أوصى بها حين مماته ، لقيمتها التاريخية ، ولأنها توضح بعض آرائه ، وتمييزه عن السمر في بعض تصرفاته ، فراجعها ثمه .

الفصل النجمي

الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارات الفصل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبي خالد —
وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكثم — وزارات أخرى — الحسن والقواد في عصر المأمون —
القضاة وديوان الخلاء .

(١) توطئة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكاتبها في العصر العباسي ، فقد تمّص
لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «رون» في كتابه تاريخ العرس الأدبي ،
والمؤرخ آس طباطبائي والآداب السلطانية ، وانما قصارى ما رمى اليه ، كتابة فدلحة موحدة
عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى نفث بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ،
عن العصر الذي تصدروا للكتابة عنه ، ومكانة رجاله البارزين فيه ، فنقول :

١ و ٢ — وزارات الفصل بن سهل وأخيه الحسن

نبحثنا التاريخ أن أول وزراء المأمون الفصل بن سهل ، وهو من رجال جعفر البرمكي ،
فلا عرو اذا نزع في سياسة الملك مريح البرامكة ، ولا عرو اذا اتم بهم وتلا تلومهم
في تدبير أمور السلطان ، ولا عرو اذا كانت دولة بني سهل عره في جبين الدهر ، ودرة
على مقرير العصر ، لأنها كانت ، كما يقول المعجزي ، مختصرة الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فان المطاط التاريخية والأدبية تبحثنا أن جعفر البرمكي
لما عزم على استبداده للمأمون ، وصمعه يحيى بن خالد محصرة الرشيد ، فقال له الرشيد :
أوصله الي ، فلما وصل اليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظراً منكراً

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمة المؤمنين ، إن من أعدى الشواهد على قسوة المملوك أن يملك قلبه هبة سيده ، فقال الرشيد . لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام ، فلقد أحسنت ، وإن كان بدبهة لأنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أحابه بما يصدق وصف يحيى له .

ويروى لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مشيخ الأدب والبيان في عصر المأمون ، في كتابه «الحيوان» . أن حمعرا الصبي ، وصف الفضل بن سهل بقوله . أيها الأمير ، أسكتني عن وصعك تساوى أفعالك في السؤدد ، وحيرتي فيها كثرة عددها ، فليس لي ذكر جميعها سبيل ، وإن أردت وصف واحده ، اعتصمت أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولست أصفها إلا ماطهار العهر عن وصفها .

ويقول ابن طاطا . إن الفضل كان محباً كرماء ، يحارى البرامكة في حوده ، شديد العقوبة ، سهل الاسطاف ، حليماً ليلاً . عالم بأداب المملوك ، بصيراً ، جيد الحديث ، محصلاً للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضل بن سهل يتشيع كذهب غالب الفرس ، وكانت له إصابة حسنة ، علم الهجوم كما أسلفنا لك القول في كلمتنا عن المأمون في صباه ، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علي بن أحمد السلمي في تاريخ ولاء حراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين إلى محاربة أخيه محمد الأمين . نظر الفضل بن سهل في مسألته ، ووجد الدليل في وسط السماء ، وكان ذا عيبي . فأحمر المأمون بأن طاهراً يطأقر بالأمير ويلقب بذي العيبي . فتعصب المأمون من إصابة الفضل وثق طاهراً بذلك .

وكان الفضل بن سهل شديداً بأساتذته البرامكة في رقد الشعراء ، وتشجيع الشعراء . وكان متجعج القصائد مهم قبل وراثته ، فان كتب الأدب تحدثاً أن مسلماً بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من ندمائه وسماره :

وقابل ليست له همه * كلا ولكن ليس لي مأل
 وهمه المُقْتَرِ أُمِّيَّة * عَوْنٌ عَلَى الدَّهْرِ وَاعْتِمَالُ
 لِاحِدَةٍ يَنْهَضُ عَنْ مِهَا - وَالسَّاسُ سُؤَالُ وَبُعَالُ
 فَاصْدِرْ عَلَى الدَّهْرِ إِلَى دَوْلَةٍ - يَرْجِعُ فِيهَا حَالُكَ الْحَالُ

ويقول لنا المعري : إن الفصل لما علت حاله وتولى الوراره ، قصده مسلم بن الوليد، فلما رآه سرته، وقال له . هذه الدولة التي يرجع فيها حالك الحال، وأمر له بثلاثين ألف درهم، وولاه ريد خرجان . فاستعاد من ثم مالا طائلا .

ومحدثنا آس حلكان . أن الفصل س سهل ، قال يوما نقامة س الأثر من المتكلم المعروف ما أدرى ما أصعب بطلاب الحاجات، فقد كثروا على وأصحروى ! فقال له : رُلْ عن موضعك ، وعلى ألا يلقاك أحد منهم ! فقال صدقت ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بجرجاسا وأشفى على التلّف ، فلما أصاب العافية، جلس للناس فدخلوا عليه وهشوه بالسلامة وتصرتوا في الكلام، فلما فرغوا من كلامهم أقبل على الناس وقال : إن في الملل ليمّا لا ينسى للعقلاء أن يجهلوا : نعيم الدنوب . والتمرض لشواب الصبر ، والإيقاظ من الغفلة ، والإدكار بالعمّة في حال الصحة ، واستدعاء التوبة، والحرص على الصدقة .

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء . وفيه يقول إبراهيم بن عباس الشبلي .

للفصل س سهل مدّ تقاصر عنها المثَل
 ما تُلها للشيء .. وسَطَوْتُهَا لِلْأَحْلِ
 وما طُنّها للشيء * وظاهرها للقبَل

ويقول آس حلكان : إن ابن الرومي أخذ من قول الصولي هذا يدحّته التي صاعها في الوزر القاسم بن عبيد الله التي فيها :

أصحتُ بين خصاصه وتعمل . والحزب بينهما يموت هربلاً
فامدُّدُ إلى يَدَا نَعُودِ طَنْهَا * بدل السَّوال وطهرها التقبيلاً
وفيه يقول آخر :

لعمرك ما الأشراف في كل طليدٍ وان عظموا للفصل إلا صائغ
ترى عطلة الناس للفصل خُشَعاً اذا ما بدا والفصل لله حاشع
تواضع لما راده الله رُصَعاً * وكلُّ حليل عده متواضع

وحكى الجهمشيارى : أن الفصل بن سهل أصيب ما له يقال له العاص فخرع عليه
أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوي وأنشده .
خير من العاص أحرك مدته والله حرُّمك للعاص

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :
لو طلق الساس أو أقتنوا عليهم * ونبت عن معالي دهرك الكس
لم يلبسوا منك أدنى ما يمت به * اذا تماخرت الأملاك وانتسوا
فأصر له عن كل بيت من هذه القصيدة ألف درهم .

وانه يلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين
كأولوا يتندحون البرامكة — وما أكثرهم — هم أنفسهم الذين امتدحوا آل سهل ، واتحدوا
منهم برامكة آخري . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم في امتداحهم وإظهار قوتهم
واستحقاق سلطانهم ، حص الأثر في نكتهم . لأنه غير معقول آتية أن يمز على المأمون قول
مثل قول القائل :

أهت حلامة وأزلت أخرى * حليل ما أهت وما أزلنا

من غير أن يترك في نفسه بعض ما كانت تنزعه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال في مس
الرشيد ، ومهما قل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعه صدره فإن المس
الإنسانيه هي هي .

وقد مرّت بك فيما أحسّاه لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون، أنه جعل في سنة ٣٠١ هـ على س موسى العلوي ولى عهد المسلمين والتخليفة من بعده، وسماه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر حنّده بطرح السواد ولبس الحُصْره ولبناً ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهدأ إلا بعد أن عاد إلى مقرّ ملكه، وأعلم آلّه وأنصاره بوفاء الرضا، وعاد إلى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ويرد الآن أن نسير هنا إلى ما كان من الفصل س سهل فيما نحن في صدره ، وبعتمد على ما رواه الطبري . قال . إن على س موسى س جعفر س محمد العلوي أحمر المأمون بما فيه لباس من الفتنه والمثال مد قُتل أخوه ، و بما كان الفصل س سهل لستر عه من الإخهار، وإن أهل بيته والباس قد نَقَمُوا عليه أشياء . وإهم يقولون : إنه مسحور محوّل . وإنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعنه ابراهيم س المهدي بالخلافه ، فقال المأمون إهم لم بايعوا له بالخلافه . وإنما صيروه أميراً بموم فأمرهم ، على ما أحبر به الفصل ، فأعلمه أن الفصل قد كذّبه وعشه . وأن الحرب قائمه من ابراهيم والخس اس سهل ، وأن الناس يتفقون عليك مكانه ومكان أخيه . ومكانى ومكان يتنكّل لى من بعدك، فقال ومن علم هذا من أهل عسكرى " فقال له : يحيى بن معّاد، وعد العزيز اس عمران، وعدة من وحوه أهل العسكر، فقال له . أدخلهم على . حتى أسألتهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه . وهم يحيى بن معّاد، وعد العزيز س عمران، وموسى ، وعلى بن أبى سعيد، وهو ابن أحب الفصل، وحآف المصرى . فسألهم عما أحروه ، فأبوا أن يبحروه حتى يحمل لهم الأمان من الفصل بن سهل . ألا يفرص لهم . فصم ذلك لهم ، وكنت لكل رجل منهم مكاناً محطّه ودعاه اليهم . فأحروه بما فيه لباس من الفتن ، ولبّوا ذلك له ، وأحبروه بعصب أهل بيته ومواليه وقواده علمه في أشياء كثيره ، وبما نوّه عليه الفصل ، من أمر هرّمة ، وأن هرّمة اعما جاء ليصحه وليقين له ما يحمل عليه ، وأنه ان لم يتدارك أمره خرجب الخلافه منه ومن أهل بيته ، وان الفصل دس إلى هرّمة من قتله ، وأنه

أراد يصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبل في طاعه ما أبل ، واحتج ما افتح . وقاد إليه الخلافة مزمومة حتى اذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله . وصير في راوية من الأرض بالزقة ، قد حُطرت عليه الأموال حتى صُعِف أمره . فَنَعَبَ عليه حسدُه ، وأنه لو كان على خلافته بعداد اصسط الملك ولم يُجْبراً عليه بمثل ما أُخبرئ به على الحسن بن سهل ، وإن الدنيا قد عتقت من أقطارها ، وإن طاهر بن الحسن قد سوسى في هذه السنين ، مد قتل محمد في الزقة ، لا يستعان به في شيء من هذه الحروب . وقد اسعس من هودوه أصعافا ، وسألوا المأمونَ الخروجَ الى بغداد ، فإن حاشم والموالي والقواد والحسد لو رأوا عرثك سَكُوا الى ذلك ، وجمعوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عند المأمون ، أمر بالرحيل الى بغداد . فلما أمر بذلك علم الفصل بن سهل بعض ذلك من أمرهم ، فعشتم حتى صرب بعضهم بالسيّاط وحبس بعضا وتنفّ حتى بعض ، فعاوده على بن موسى في أمرهم ، وأعلمه ما كان من صفاته لهم ، فأعلمه أنه يُدَارَى ما هو فيه ، ثم ارتحل من قمره ، فلما أتى سرحس ، شدّ قوم على الفصل بن سهل وهو في الحماة فصر يوه بالسيوف حتى مات . وذلك يوم الجمعة لليثس حلتا من شعبان سنة ٢٠٢ . فأجدوا . وكان الذين قتلوا الفصل من حشم المأمون ، وهم أربعة نفر : عاتل المسعودي الأسود ، وقُسْطَظِين الرُومِي - وفرح الديلمي ، وموفق الصبّيل ، وقتلوه وله ستون سنة وهرَبوا . فعث المأمون في طلبهم وحمل لمن جاءهم عشرة آلاف دينار ، فجاءهم العباس بن الهيثم بن بُرْخَمَهَر الدَّسُورِي - فقالوا للمأمون . أنت أمرتنا بقتله ، فأمرهم فصررت أعناقهم ، وقد قيل إن الذين قتلوا الفصل ، لما أُجِدوا سألهم المأمون ، فمنهم من قال : إن علي بن أبي سعيد بن أخب الفضل دسهم ، ومنهم من أنكز ذلك . وأمر بهم فقتلوا ، ثم بعث الى عبد العزيز بن عمار - وعلى وموسى وحلف ، فسألهم فانكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك ، فلم يقبل ذلك منهم ، وأمرهم فقتلوا ، وبعث رءوسهم الى الحسن بن سهل في وأسط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفصل ، وأنه قد صبره مكابه . وترّجح المأمون من ابنته بُوران ، وأظهر الحسن في حملة

رواجها من الكرم الحارق ، والحدود الحاتمي ، مادعا المأمون الى أن تسبه فيه الى السرف ،
ولقد قَدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صِلته وعارفته ، فاشتعل عنه مُدِيْدَةٌ فكُتِبَ اليه :

المال والعقل مما يُسْتَعَانُ به على المُقَامِ ما يُوَابِ السلاطين
وأنت تعلم أنّي مهتما عَطِلُ اذا تأملتني ياب الدّهافين
أما تَدُلُّكَ أُنُوأى على عَدِي والوجهُ أُنَى رُئُوسِ في المحابين
واقه يعلم ما لِلْكَرِّ من رحل * سواكَ يصلح للندب وللدب

هليل : إن الحسن أمر له ، عشرة آلاف درهم ، ووقع في رقعة :

أَعْلَيْتَ ما ناك عاملِ رِثَا قُلًّا ولو أَنْظَرْتَنِي لم يُقْلِلِ
لحد القليل وكُنْ كَأَنَّكَ لم تَلِ * ويكون محس كَأَنَّما لم تُسأل

ويظهر لنا مما قرأناه عن الحسن بن سهل في أمالي أبي علي الفاي وعمره من مظان
الكتب الأدبية ، أن له نصرا بالأدب عظيمًا ، ومكانة و الكفاة سامية ، وحفظًا ما يافين القول
ومناجيه وهيرا .

فقد رُوي عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعَةَ القاصي « أما بعد ، طاني احتججتُ لبعض
أموري الى رجل جامع لحصال الحبير ، دى عمة وزأه طُعْمِيهِ ^(١) ، قد هدّسه الأخلاق ،
وأحككه التحارب ، ليس بطيب في رأيه ، ولا بمطعوب في حسه ، إن أقفص على الأسرار
قام بها ، وإن قُلْدُ مُهِمًا من الأمور أحرأ فيه . له سنُّ مع أدب ولسان ، تُقْعِدُه الرزانة ،
ويسكبه الحلم ، قد فُزِعَ دكاء وفضله ، وعصَّ على قارحه من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده
السكته ، قد أصر حكمة الملوك وأحكها ، وقام في أمورهم حُجْمِدَ فيها ، له أناة الوزراء ،
وصولة الأمراء ، وتواضع العلباء ، وفهم الفقهاء ، وحوار الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه
بجرمان ضده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه

(١) الطعمة صمم الطاء وكسرهما وجه الكتب الغلب أو الحبيث .

لأنه ، وأما راب العلم له شاهده ، مطلقاً عما استثنى ، مستقلاً عما حمل . وقد أثرتك طلبه ، وحبوثك باوتياده ، فقه فصول اختيارك ، ومعرفة محس تأنيك .

وقول اس طباط : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس مرلة عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمعاوصته . فكان اذا حصر عده طاولة في الحديث . وكلما أراد الانصراف معه ، فانقطع رمان الحسن بذلك وثقلت عليه الملامه ، فصار يزانى عن الحضور مجلس المأمون ، ويستحلف أحد ثقاته ، كأحمد بن أى حالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عرّصت له سوداءً كان أصلها جرعته على أحيه . فكان سبب انقطاعه في داره واحتمايه عن الناس . وقد هاه حين ذاك بعض الشعراء فقال :

تولت دوله الحسن بن سهل . ولم أثلل طاي من بداه

فلا تحزغ على ما فات بها . وأبكى الله عيني من مكاه

وقد قرأنا في كتاب الألعاف ما يسندل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوساطة في المعو عن ابراهيم بن المهدي ، وذلك يختلف مع ما رواه بعض من أن نورا ابنته هي التي طلب المعو عنه ، وما رواه بعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . وتمصيل الرواية . أن الحسن بن سهل دخل على المأمون . وهو يشرب فقال له : عياق وبجق عليك يا أما محمد إلا شرت معي قدحاً ، وصب له من بيده قدحاً ، فأحده بيده وقال : من تحب أن يصيبك ؟ فأوما الى ابراهيم بن المهدي ، فقال له المأمون . عنه ناعم . فهاه . . نسمع لعلّي وسواساً اذا انصرفت . يعرّص به ، لما كان لحقه من السوداء أو الاحتلاط . فعصب المأمون حتى طن ابراهيم أنه سيوقع به ، ثم قال له : أيت إلا كُفراً ، يا أكفر حلق الله ليعيه ، والله ما حق دمك غيره ، ولقد أردت قتلك ، فقال لي . ان عموت عنه فقلت فعلا لم يسبقك اليه أحد ، فعفوت والله عنك لقوله ، لحقه أن تُعرّص به ! ولا تدع كيدك ولا دَعْلَكَ ! أو أَيْسَتْ من إيمانه اليك بالعاء ! فوثب ابراهيم قائماً وقال . يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث طبت ولست عائد ، فأعرص عنه .



٣ - وزارة أحمد بن أبي حالد

يظهر أن المأمون كان قد صُدم صدمة عيفة، من وراءه الفصل بن سهل ومن أحبه، لاستنادهما بحلّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكرَ جدًّا في ألا يستورر بعد الفضل أحدًا، ويقال إنه لما دعا إليه أحمد بن أبي حالد - وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبد الله، كاتب المهدي ووريه - قال له: إلى كُنت عرمت ألا أستوزر أحدًا، ثم عرض عليه الوزارة، فتصل أحمد معها، وقال يا أمير المؤمنين: أعفى من التسمي بالوزارة، وطالبني بالواحد فيها، واحمل بي وبس العامة مرله يرجون لها صديقي، ويحافى لها عدوى، فما بعد الغائات إلا الآفات.

وتدل هذه المواقف، وإن كانت قصيرة، على أن أحمد بن أبي حالد قد وجد العهدة في تاريخ الفضل بن سهل - وأمثاله - فرأى أن يكون مقتصدًا في مكانته وسلطانه، وقد انجذب المأمون بكلامه واستورره.

وسترى في كتابنا المحمل التي عمد بها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبية، طرفة من تصرفات أحمد بن أبي حالد، وحسن مخلصه، في حادثته عمرو بن سعدة، وكيف كان شجاعًا وصادقًا، وكيف كان مخلصًا للمأمون، عاملًا على إصلاح ما منه وبس رحالات دولته.

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الإسلامية: إن المأمون لما ولي طاهر ابن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبي حالد، فعزّب أحمد الرأي في بوليّة طاهر، فقال المأمون لأحمد: إني أحاف أن يغيّر ويحلّج ويبارق الطاعة، فقال أحمد: الدرك في ذلك على - - ويجب أن تشير بها إلى ما جاء بكاتب عيون الأخبار عن دقة المأمون في مثل هذا الموقف، فإن المصلّي بن أيوب أحد المعاصرين يحمّشنا عن ذلك بقوله: سمعت المأمون يقول: من مدح لنا رحلا، فقد تضمّن عيّه - فولاه المأمون، فلما كان

صد مده، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب إليه كتابا يتهنئه فيه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد: أنت الذي أشرت بتولية طاهر، وصحمت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطة ومعارقة الطاعة، فواقه لئن لم نتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا صريتُ عققك؛ فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، طِبْ نفسًا، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه. ثم إن أحمد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا، فيها كَوَامِيخُ مسمومة، وكان طاهر يحب الكَاخَ^(١) — فأكل منها مات من ساعته^(٢).

فان صححت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورحاله لم يَكُونُوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع إلى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم.

قال المعري: إن أحمد بن أبي خالد لما تولى طاهر نراسان، حسب هذا الحساب، فوهب له حادما وواوله ستما، وقال له: متى قطع حطبة المأمون فاجعل له هذا السم في بعض ما يحب من المأكول، فلما قطع طاهر حطبه المأمون جعل الحادم له السم في كَاتِخ، فأكل منه مات في ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته إلى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبي خالد. فتأمل طريقة التخلص من الزعماء في ذلك الحين، ولا تحط كيف كانت عدوهم حاتمة الحياه لمن يتربصون لهم من كبار القواد والوزراء. ولنتعلل بعد ذلك لم أقفرت البلاد من قادتها ونجائها، ولم أتحص الكلمة النافذة فيما بعد للفتنة الأمراء وضياعهم من القراما^(٣)!

وكان أحمد بن أبي خالد، إلى جانب كفايته، وصره بالأمور مصابا بالنشوة. وقد

قال أحد المعاصرين — لما ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هذا —: ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤكده وقيل هو حرميل. معرف كاهه بالعارسية ترجمه مصمم بالظلال التي تستعمل لتشهي الطعام.

(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار « بلوح ل أن هذه الحكاية مسموعة فكيف يحترق أحد من أبي خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكاته عند الله من طاهر ومكيدته وأهمه وحسن تأنيبه للأمور. فهل يأمن أن يعتبه عند الله عما يورقه ويصعل هلاكه. وهذه الرواية ناقص الرواية الأثرى. وهي أن صاحب البريد كتب إلى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له وكتب إليه في اليوم الثاني بموته ».

في الدنيا فمسا أنبل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لماذا ؟ قال : لأنه عرف
بعض الرجل - يعني أحمد بن أبي خالد - وشتره فكان اداوجه الى رجل برسالة أوى حاجة ،
قال : أنته بالفداء واحلّ نياك واطمنّ عده ، فان اصرفت وقد هت فاكنت الى
بحواب ما جئت به في رقعته وادعيتها الى فتح يوصلها الى .

ومما ينسب اليه أنه وثى رجلا كوره عطيمة القدر يحوّل قلوذج أهده اليه .
وقيل . إن جماعه من أهل كوره الأهوار شكوا عاملا كل عليهم ، فمير وصار الى مدينة
السلام ، فتكلموا به . فأنهى حزمهم الى المأمون ، فأحصّهم وحضّمهم ، وأمر أحمد بن
أبي خالد بالنظر في أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل . يا أمير المؤمنين ، جعلني الله
فداك . تقدّم الى أحمد ألا يقبل من هذا الماهر هبة حتى يقطع أمرنا ، فواته لن أكل
من طعامه رعبا ومن قلوذجه حاءا ، ليدحصن الله شحتنا على يديه ، وليطلق حقا على
يديه . فكان من حزاء ما قاله منكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهم أن يحضروا اليه يوم
الأرهاء ، ليطرئ شكايتهم بعسه ، وكان من حزاء مثل هذه الشكاوى وما قيل في أس أبي خالد
من أنه « يقتل المعلوم ويبين الظالم بأكله » أن أخرى المأمون عليه في كل يوم ألف
درهم لمائدته ، لتلا يشره الى طعام أحد من بطائنه أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون - وهي تؤيد لما صحه ما يُرى به من هذه الحاجة
وتدل على اقتناع المأمون بإصاحه بها - ما روه لنا ابن طيموري تاريخه ، قال :
« حدثني بعض أصحابي قال قال المأمون يوما لأحمد بن أبي خالد : أغد عليّ باكراً لأخذ
القصص التي عندك ، فانها قد كثرت لقطع أمور أصحابي ، فقد طال انتظارهم إياها .
فبكر . وقعد له المأمون ، فجعل يقرصها عليه ويوقّع عليها ، الى أن مرّ بقصة رجل من
البريدين يقال له فلان البريدي فصحف ، وكان جائئا فقال : التريدي ؟ فضحك
المأمون ، وقال . يا علام ! تريدة محمّة لأبي العباس ، فانه أصبح جائئا ! فنجّل أحمد ،
وقال : ما أمانح يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحق ، وصع نسبته ثلاث

تقط، قال . دَعَّ هذا عك فالجوع أصْرَبَكَ حتى ذكرت الثريد، بلغاموه بصَحْمَةٍ عظيمة، كثيرة العراق^(١) والودك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون : بحياتي عليك ! لَمَّا عَدَلْتُ نحوها، فوضع القصص ومال الى الثريد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه، فلما فرغ دعا بطَلَسْتَ فسل يده ورجع الى القصص، فمزت به قصة فلان الجَيْصِي، فقال : فلان انجَيْصِي ! فصحك المأمون، وقال : يا علام ! حَامًا صَحْمًا فيه خَيْص، فان عَدَّأَ أَبِي العباس كان متوراً، فحجل أحمد، وقال : يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحق ! ففتح الميم فصارت كأنها سِنَان ! قال : دع عك هذا، فلولا حقّه وحق صاحبهِ لمت حوفاً بلغاموه بحام خَيْص، ففعل، فقال له المأمون : بحياتي عليك إِلَّا مِلْتُ إليها ! فانحرف فانتفى عليه، وعسل يده، ثم عاد الى القصص، فما أسقط حرفاً حتى أتى على آخرها .

«وعد»، فاما نستدسط — من هذه الرواية وما جرى من الحديث بينه وبين المأمون في شأن أكلة ابن أبي خالد عدد دينار بن عدائه التي كلفت المأمون ألف ألف — شَرَّ هذا الوزير الجليل . ومحدراً أبى بعيداً ما ملاحظه أخرى، وهي طول احتيال المأمون، وكبير حيلده، وقوة اصطباره . على مطالعته شكاوى الجمهور ومطالبهم، غير مكترِب لآلم الجوع ولا حاج الى الرعد والراحة، في سبيل نظرها وإصاف أصحابها .

على أن هذه القصة في هذا الوزير وإن كانت عائشة للرحل ناقصة من كرامته، فكما بينه مقطوع بها . وليس أدل على عظيم قدره، وسمو مكانته، من حصول المأمون جازته، وصلاته بنفسه عليه، وقوله عه . بعد أن دُلِّيَ في خُفْرته وترَّجَم عليه، أنت والله كما قال القائل :

أخو الحِلْدِ إِنْ حَذَّ الرَّحَالُ وَشَمَّرُوا . ودو باطلٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَوْمِ بَاطِلٌ

(١) العراق . جمع عرق وهو القنطرة من اللحم وهو أحد الجموع الدارة (وقد سَدَّ هذه الجموع من السكيت في لسان العرب مادة عرق فراحها) والودك . الدسم .

(٢) يوع من الخلوى .

(٣) أظن هذه الحكاية في تاريخ صدّاد لاس طبع في ٢٢٢ — ٢٢٤



٤ - وزاره أحمد بن يوسف

وقد استوزر المأمون عبد الله بن أبي خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما تكا ساعد له بحثا خاصا في قسم الآداب والعلوم ، مستحدثة طرقا عن حياته وأثره .



٥ - وزاره يحيى بن أكرم التميمي

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكرم . وهو من أصحاب ثمانية بن أشروس المتكلم المعروف ، ولما المأمون وطبقى الوزاره وقاصى القضاء .

ولم أحد احتلافا قويا ، هو اختلاف القيصين ، كاختلاف القدماء في يحيى بن أكرم . ولما كان له مظهر بارز في النبوة المأمونية من الوجهه العلميه والأدبيه — لأنه كان ، كما يقول أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، متعسا فيها : فكان اذا نظر الى رجل يعطى الفقه سألته عن الحديث ، واذا رآه يعطى الحديث سألته في النحو ، واذا رآه يعلم النحو سألته عن الكلام ، ليقطعه ويخلصه — أثرا أن نلم بجهانه وأقوال الناس فيه من قاذح ومادح ، ونسب قدره على وجه الإجمال لا التفصيل . وسورد كلاما فيه أيضا في قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .



٦ ، ٧ ، ٨ - وزارات أخرى

وقد ذكر أن المأمون استوزر ، بعد من قدماء لك ، أبا جاد ثابت بن يحيى بن يسار ، وأبا عبد الله بن زياد ، وقد آتيا في سيرتهما بمن سبقهما ، كما أنه ذكر أنه استوزر عمرو بن مسعدة وهو صو أحمد بن يوسف نباهة وكفاية وكفاية . ولما لا نرى مدعاة لاثبات ما هو من لون واحد ، هي ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .



(ب) الجند والقواد في عصر المأمون :

لا يزيد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتحولهم ،
مسد المهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أما نحيك مع ذلك الى ما جاء بالجزء
الأول من تاريخ التمدن الاسلامي و هذا الباب . وقصارى ما يزيد قوله الآن أن
راتب الجندى الراحل ، وهو مثل « العر » في النظام العسكرى الحديث ، هو ٢٤٠ درهما
في السنة ، فضلا عن حصته في المائم عد المروءات . ويظهر أن حصه الجند من
المائم كانت قد حُست عنهم ، حتى رُدّها عليهم الأُميين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل
سنة دماير .

ولما قام النزاع بين الأُميين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما
في الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء العتة .
أما القواد العظام في هذا العصر ، فاما مكنتى بما وقفت عليه أثناء النزاع بين الأخوين ،
لأن من التكرار في القول أن يعيد لها ما قلناه هناك .



(ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التي أوردناها لتحليل أحوال المأمون على شئ ، من سلطان القضاء
في ذلك العهد . ونحيك ها الى المحاصرة القيمة التي أقيمت في المجمع العلمى بدمشق عن
تاريخ القضاء في الاسلام ، كما نحيك الى الفصل المُستَب الذى أوردته في هذا الموضوع
صاحب التمدن الاسلامي .

ويكفينا ها أن نقول . إن نظام الحكم أو الفصل في الدعاوى ، في ذلك العهد ، كان
متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان
نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، في هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالظرفية .

على أنه يحوز لك، أن تعرض الى حد ما، أن ديوان المطالم كان يشبه في بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كما تم الاستئناف والتقص والارام، كما يشبه الى حد غير قليل المجالس التأديبية .

وإما يحيلك هنا الى الفصول المتعة التي أفردتها أبو الحسن علي بن محمد بن حميد الماوردي في كتابه القيم "الأحكام السلطانية" فقد عالج فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاية المطالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاية الحسبة وحدود سلطاتهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب في نهاية الخرز السادس جملة صالحه منه فراجعها .

أما راتب القضاة فنقول . إن راتب القاضي ملغ في أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أي حوالي ٢٧٠ ديناراً . وهذا الراتب في ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة في ذلك العصر . وقد كما نود أن نختص الولاية وراتبهم بكلمة لولا أن المصادر في ذلك تنقصنا . وفيما يتأه عن القضاة مقياس لمن كان في مكانهم ولمن كان أرفع منهم أو أقل مرتبة . فعليك أن تفكر وتوازن .

الفصل الثامن

خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

توطئة — حكمة الورداء — الاستصماء — ثروة الخلفاء — رجال الدولة — مدحهم — الخراج في عهد
الأمون — الخراج في عهد المنصور — السعيات والحاسوسية — الدعوة (إلى واحد) — صعوبة مهمة
المؤرخ .

(أ) توطئة :

أما أثر المال في العوس ، وأثر الأحرار السياسية ، وكيف تميرب وجهات النظر
في كثير من الأمور الدينية ، فإليك قد وقعت على شيء من ذلك بما سردناه لك .

على أن نلاحظ أنه قد آن لنا أن ندق من ملاحظاتنا في هذا العصر ، وأن لنا أن
سكلم عن نصيب الورداء والقواد والرعماء في هذه الدولة ، التي كان للوزراء والقواد
والرعماء الأمر الكبير في تدهيم بيانها ، وتقوية أركانها ، وتشديد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حياة الورداء وحياة القواد والرعماء كانت تنتهي ، في الغالب ،
بكيبتهم في حياتهم ، أو استصماء أموالهم .

ومع أن يحيلك إلى بعض المصادر القيمة في هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء
في تاريخ الوزراء ، لأبي الحسن الهلالي بن النخعي بن إبراهيم الصافي الكاتب ، وإلى
ما كتب من الفصول في غيره ، نريد أن نلاحظ أن حُلهم قد نكبه حليفته ، مثل نكبة
المنصور لأبي مسلم ، وعبد الله بن علي ، وأبي سلمة الخليل ، وأبي الجهل ، ونكبة
لأبي أيوب المورياني ، ونكبة الربيع بن يونس الذي سمى الهادي ، ونكبة المهدي يعقوب
ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمامون لمن رأيت .

نلاحظ ذلك . ونلاحظ أن عدد الخلفاء وزرائهم في ذلك العهد قد لاكنه الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ، فقد قال بعضهم حياء قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلب من جرع يطير ، اذا ما قيل قد قُتل الوزيرُ
أمير المؤمنين قتلَ شخصا * عليه رَحَاكُمْ كانت تدور
مهلاً يا بني العباس مهلاً * لقد كُوثَ بعدكم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا سَـلَّ شخصيات عظيمه من قول الوراره في ذلك العهد ، لما عهدوه من وَحْم عواقبها ، وسوء مَعَمَّة الاصطلاح بها . فقد ذكر ابن طيمور أن ثَمَامه اس أُشْرَس المتكلم المعروف ، قال : لما قُتِلَ الفَصْلُ بن سهل بعث الى المأمون وكنت لا أنصرف من عده إلا الوقعة الى منزلي ، ثم ياتيني رسوله في حَوْف الليل فاتيه ، وكان قد أهْلَى لمكان الفصل بن سهل من الوراره ، فلما رأيته هدأ لَحْ علي في ذلك تعالت عليه ، فقال لي : إما أردتك لكدا وكدا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إني لا أقوم بذلك ، وأحسبني أن أصب بموصى من أمير المؤمنين وحالي أن تزول عده ، فاني لم أر أحدا تفرص للخدمة والوزارة ، إلا لم يكن لتَسْلَم حاله ولا تدوم منزلته . ورنح له أحمد بن أبي حنبله الأحوال . ثم انظر الى اعتلاله عليه مره أخرى حينما رنح له يحيى بن أكنم ، فانك توفى معا بفور رجال الدولة من الوزارة ، وهرهم من شَرَكها وسوء عُنْفاها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينمرون من الوزارة ، لأن حاتمة حياتهم كانت الثقيل كما رأيت . ويعمرون منها ، لأن مصير أهوالهم وأموال دويهم كان ، في العال ، الى الاستصفاء والاعتصاب . ولقد عمَّ الاستصفاء سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت ، بتوالى الأيام ، المصدر الأول لتحصيل المال .

فالعامل يستصفي مما للرعيه ، والورير يستصفي مما للعمال ، والحليعه يستصفي مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشئوا للاستصفاء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يُداول بالاستصفاء كما يتداول المتاحرة .

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره في ذلك العصر ، فترك الكلبه في هذا للوزير ابن العرات قريب العهد بالمأمون ، قال : « تأملت ما صار إلى السلطان من مالي ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهرى بن الحصان فكان مثل ذلك . فكانه لم يحسر شيئا ، لأنهم كانوا يقصون بالاستصفاء ويدعمون بالاستصفاء . وإذا استصفي أحدهم من مال لم يكن في وسعه أدائه كله معجلا ، أحلوه بالناق وساعدوه على تحصيله أو جمعه رد حايه وتغيير زيته ، وإزاله في دار كبيره فيها العرش والآله الحسه ، ليستطيع التدخل في جمع الأموال من الناس .

وتعددت أسباب الاستصفاء وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرصه له . وهاك سائلا قبضه ابن العرات من الاستصفاء ، على أيام الراسي بالله ، نشرها لك لتكون أمودحا لأنواع الاستصفاءات ومقاديرها .

ديار

٧٣٠٠ من أحمد بن محمد بن ابراهيم البساطي ، عن الصف مما بقى عليه من استصفااته في سنة ٥٣٠٠ هـ .

١١٠٠٠ من علي بن الحسين البادي الكاتب ، عما تولاه من الموصل .
 ٣٠٠٠٠ « محمد بن عبدالله الشامي ، عما تصرف فيه لعلي بن عيسى .
 ٨٠٠٠٠ « محمد بن علي بن مقله ، عما تصرف فيه .
 ١٠٠٠٠٠ « محمد بن الحسن المعروف بأبي طاهر .
 ١٣٠٠٠ « الحسن بن أبي عيسى الناقد ، عما ذكر أنه وديعه لعلي بن عيسى .
 ٤٠٠٠ ومه أيضا صلحا عن مه .
 ٢٠٠٠٠ من ابراهيم بن أحمد المادرائي .

دينار	ما قبله
٢٦٥٣٠٠	من عبد الواحد بن عبد الله بن عيسى، عن بقيه استصفاء والده .
١٠٠٠٠	» أحمد بن يحيى بن حافى الكاتب عن مصلحه وجبت .
٦٠٠٠	» ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجهيد، عن صلحه .
٤٠٠٠	» محمد بن عبد السلام بن سهل، عما عنده من الوديعه لمحمد بن على و ابراهيم بن أحمد المادرائى .
٤٠٠٠٠	» عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .
١٠٠٠٠	» محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	» محمد بن أحمد بن حماد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	» ابراهيم بن أحمد المادرائى، عن الباقي عليه من جملة خمسين ألفا .
٣٠٠٠	» أبى عمر محمد بن أحمد الصباح الحرجاى، عن صيانة الساقى على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقر .
٧٠٠٠٠٠	» طر بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠	» هارون بن أحمد الحمدانى .
٢٠٥٠	» عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	» عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	» على بن مأمون بن عبد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠٠٠	» يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	» حامد بن العباس، وقتل .
١٥٠٠٠٠	» محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
٣٢١٠٠٠	» أبى الحسن على بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	» ابراهيم بن يوحنا جهيد حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	» أبى محمد الحسن بن أحمد المادرائى .

ديار	
ما قبله	٥٢٩٤٦٨٠
ومه أيضا .	١٠٠٠٠٠٠
من أبى بكر محمد بن على المادرائى .	١٠٠١٠٠٠
ومه أيضا .	١٠٠٠٠
	٧,٣٠٥,٦٨٠
درهم	
من أبى الفصل محمد بن أحمد بن بسطام .	٥٠٠٠٠
» على بن الحسن الناذينى، صلحا عما بصرف فيه الموصول وقتل .	٢٠٠٠٠٠
» أبى عمر محمد بن أحمد بن الصباح الخرحاى ، عن صمان الناق من استصفاه أبى ياسر استصفاه بن أحمد .	١٠٠٠٠٠
» عبيد الله بن أحمد اليعقوبى .	١٠٠٠٠٠
» الحسن بن ابراهيم الخراطى، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .	١٠٠٠٠٠
» الحسن بن على بن بصير أنى بصير بن على .	١٠٠٠٠٠
» على بن محمد بن أحمد بن الشمان، عن ورثة قرق .	٢٥٠٠
» أبى بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرحانى، عن صياح على بن عيسى .	١٠٠٠٠
» الحسين سعد بن القطرلى .	١٣٠٠٠٠
» محمد بن أحمد .	١٥٠٠٠٠٠
» أبى الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .	٣٠٠٠٠٠٠
» أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .	٥٠٠٠٠
» سليمان بن الحسن بن محمد .	١٣٠٠٠٠

ومن المعقول أن يستنبط من ذلك أن الوريير أو العامل ، لابد أن يتجّح الى الرشوة، يعوض المال الذى يستصطفى منه ، والثروة التى ستختصّب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلّل لم تعددت الثورات فى بعض الولايات ، ولم كثرت الشكايات من بعض الولاة فى ذلك العهد . ولأنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بمشكلات شكايات العامة

وأَسباب ثوراتهم، فقد عثرنا بين السطور على المارة الآتية في الجزء الثاني من اليعقوبي، تنبأ لك بصها . « أحد الرشيد المال والثاء^(١) والدعاقين^(٢) وأصحاب الضياع والمتاعين للمللات والمقلين^(٣)، وكان عليهم أموال محتممة، فوئى مطالبتهم عبد الله بن الميثم اس سام، فطالبهم بصوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد في تلك السنة علة شديدة وشنى بها، فدخل إليه الفصيل، فرأى الناس يعدون في الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من عذب النفس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة^(٤) .

ويحوز لنا أن نستدل من هذه المارة وبما ذكره الطبري وسواه : من تخفيض بعض الخلفاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعية أو زيارة ملكية، على أن المال كانوا يحمسون إلى الشدة والعسف وجمع المال بشق الوسائل، وكل ذلك من حزن النظام المتبع معهم كما أسلفنا . فأمل كيف يكون عسف الولاء للرعية بسبب عسف الملوك للولاء والمال .

^(٥) يعبسون ويظلمون، والرعية وحدها هي التي تحتل وتصبر . بيد أن التاريخ يحدثنا دائماً ، في كافة الدول وكافة الأجيال ، أن نهاية هذا الاحتمال وذلك الصبر هي نقطة الأثم وانتهاها ، ونهضة الشعوب ونصوحها ، ورفضها لإباء وشميم وفي عقيدة وإيمان ، وفي شجاعة وحرية، وفي تصميم وقوة إرادته، احتمال أمثال هذه الأثراء والمآثم ، وتلك الإساءات والمظالم، ثم تسلموا مقاليد الرعية : من الحكام ودوى السلطان .

(١) البناء (وراء سكان) جمع تاني، والتاني الدهقان . أسطر الفانوس . (٢) الدعاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسي مبر . (٣) هم ملتمو حاية الخراج للولاء . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب البحار أن عمل الرشيد هذا لم يكن من قبيل الاستصماء وإيما هو من قبيل الإعانات في استيعاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ البحار أيضاً أن كل ما ذكره هذا الباب لا يتناول رس المأمون وإيما كان ذلك بعده . والرشيد لم يجهط عليه إلا استصماء البرامكة حين مكهم وأن المأمون رمت إليه رقعة بها أن علما مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المال يبلغ الملايين من الدراهم فكنت في الرقعة : هذا قليل لمن خلف في دولنا وطالت خدمته لنا فإياك الله لورثته ما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نعيد ملاحظة أخرى، وهي نتيجة لازمة من نتائج الاستصماء والاقتصاد . تلك الملاحظة هي استعمال ثروة الخلفاء طبعاً ، واستعمال ثروة كبار رجالهم والمقرئين من أفراد البيت الملكي من نظامة وحاشية ، واستعمال مدحهم ، واستعمال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدراً مطاً في هذا الموضوع ، وخاصة في العصر المأموني ، فقد عثرنا في كتاب لطائف المعارف للتمالي ، أن « المكفي » وهو قريب الصلة بمصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

ديار

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من العين والورق والأواني المعمولة .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الفرش .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الكراع والسلاح والغلمان .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الضياع والعقار والأملأك .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الجواهر والطيب وما يحرق معها .

ومن المعقول أن نجد من حالة هذا الخليفة العاسي مقياداً لغيره ، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطاناً وأكثر أعواناً ، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنًا ، ليسا بأقل منه بالثروة مكاناً !

أما ثروة كبار رجالهم ، فإننا نذكر لك هنا على سبيل المثال نعباً هاتماً ، يصح أن نخذه أساساً لتقدير ثروة أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرها من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو الص الذي رواه سهل بن هارون أحد المعاصرين خاصاً بثروة البرامكة . وكلامه محجة لا محالة ، لأنه أتى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على ما جرى بالأمور ووطنها في ذلك العهد ، فقد كان يشعل وطيفة خازن دار الحكمة في أيام المأمون . قال . « .. وأمر الرشيد بنهم أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف

التي كانت تبلغ حياتهم ، اثني عشر ألف ألف مكتوبٌ على بَدْرهَا صُكُّوكٌ مَحْتُومَةٌ
تصيرها رقما ، حواشيها ، مما كان منها حياءً على عَرِيضَةٍ أو اسْتَظْرَافٍ مُلَمَّعةٌ بصَدَقٍ به
يحيي ، وأنت ذلك في ديوانها ، على تواريج أمانها ، فكان ديوانٌ إضاق واكتساب فائده ،
وقص من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسعين ألفا ، إلى سائر
صياعهم وعلاهم ودُورهم ورِثَتِهِم والدقيق والخليل من مواعينهم ، فانه لا يصف أقله ،
ولا يعرف أيسره ، إلا مَنْ أَحْصَى الأعمال ، وعرف منتهى الأحوال .

ويحوز لكذلك أن يستخلص مما صرف على رواح نُورَانَ المأمون ، مبلغ ثروته
الحسن بن سهل . كما يحوز لك أن يبين مقدار ثروته عند الله بن طاهر من روايه
صاحب الججوم الزاهره الخاصة بإحدى واقفه في الكرم . ومؤداها . أنه اتحدى الأُسرى
من الترك بمحو ألف درهم . ثم أنظر ما رواه المسعودي في مَرْوَحِهِ حَاصًا بما
عُله إبراهيم بن المهدي . في رِثَتِهِ للرشد له ، إذ أصطع له طَاحِيهِ حِلَّةً أَطْعَمَهُ نَعْمَهُ .
وكان من حملتها حَامُ سَمَكٍ مَقْطَعٌ ، فاستصمر الرشد قِطْعَهُ ، واستصمر منه عن حقيقتهما ،
وأحابه إبراهيم بن المهدي : ما أمير المؤمنين ، هذه أسنهُ السمك . وقدّرت بفقّة ما في ذلك
الجلم ألف درهم !

ثم أنظر بَدَحَهُم في لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما كانوا يلبسونه في المناديه ،
من مختلف الثياب وعاليها . ويريد أن نبين ها ما وقعنا عليه من مَخْلَقَاتٍ بعض المعاصرين
من الخلفاء والقواد ، ليكون مثلا تقر بنا لحالة مَنْ لم يصل إلى علما حَبْرَةٍ . فقد ذكر أن
ما حلّاه المُكْتَنِي من الألبسة هو :

عدد

٤٠٠٠٠٠ من الثياب المقصوره سوى الخيامات .

٦٣٠٠٠ » الأثواب الخراسانية المَرْوِيَّة .

٨٠٠٠ » الملاعات .

١٣٠٠٠	المهائم المروية .	عدد
١٨٠٠	الحُلل الموشاة ايمانية وصيرها مسوحة بالذهب .	
١٨٠٠٠٠	البطائن التي من كُرمان في أنابيب القصب .	
١٨٠٠٠	الابسطة الأرمية .	

وذكروا أن دا اليميين توى وى حراته ألف وثلاثمائة سراويل ديني لم يستعملها . وقيل
لهم وجدوا في كسوة بحتيشوع الطيب ٤٠٠ سراويل ديني .

وقد اطلعنا في الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التبت قدم
على المأمون، ومعه صَنَمٌ من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر، فأسلم الملك،
وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالما فيه أيضا أن ملك الهند أهدى اليه
هدية بعينه، وكتب اليه مَعْدَا أمواله وثروته، مما يدل على بدح العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البدح في ذلك العصر، حتى أصبحوا يرى أبا المَتَّاهيه مثلاً، وهو
المعروف ببغله، يهدى الى الرشيد، في سبيل طلبه لَعْنَه، ثلاث مَرَاوِجَ، وكان العباسيون
قد تَصَوَّأوا بها وى المَدَّاء الى احْتَرَعَتْ في أيامهم، وكتب على كل مروحة بيتاً، قال
في مجموعها :

ولقد تَنَسَّمْتُ الرِّيحَ لَاحِظِي * فادالها من راحتيه شَمِيمُ
أَعْلَقْتُ نَفْسِي من رِحاك ماله * عَقَّ يَحْتُ اليك في ورَسِمُ
ولربما استيأست ثم أقول لا ، * إن الذى ضمن الرياح كَرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُفْنِ الأُميين وبدخه وإسراعه مصافا اليه ماذكرناها وضره،
تؤمن بما نقول من بدح العصر واستفحال ثروته . على أنا قد عثرا على مصدرين، نشرهما
مع الحيلة والحدرد، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيانَ الجَلْبَاية في أيام المأمون،
ويتضمن الثانى حالتها في أيام أخيه المعتصم . مفترضين في كلتا الحالتين حواراً المبالغة

في التقدير ، ذلك لأن دينن المؤرخين القدماء ، أن يحصّوا في الغالب الى المبالغة والفتور .
وإننا مع اقترابنا المبالغ في التقدير في المصدرين ، نرى مع ذلك أن أىّ تقدير متواضع
للخراج ، في ذلك العصر ، لابد أن يكون عطييا ودألاً على الثروة والعنى والدخ .

(٥) الخراج في عهد المأمون :

يتماز عهد المأمون بوحود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع
الأقاليم التي كانت تحت حكم الدولة العباسية ، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون
في تاريخه ، وقد أحببنا ، لما في ذلك الثبت من الفائدة ، أن نقله عنه . وها هو ذا :

الإقليم	الجباية من الدراهم والدينار	الجباية من العروش
السواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	٣٠٠ / حلة بحرانيه
مصر	١١٦٠٠٠٠٠	٣٤٠ / رطلا من طين الحتم
كوردحله ...	٢٠٨٠٠٠٠٠	
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠	
الأهواز	٢٥٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / رطل مسكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / قاروره ماء ورد
مكران	٤٢٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ / رطل زيت أسود
مكران	٤٠٠٠٠٠٠	٥٠٠ / ثوب متاع يمانى
السد وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ / رطل نمر
مخستان	٤٠٠٠٠٠٠	١٥٠ / رطل عود هندى
		٣٠٠ / ثوب معين
		٢٠ / رطل من الفانيد

(تابع) الخراج في عهد المأمون

الإقليم	الحمايه من الدراهم والدنانير درهم	الحمايه من العروش
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠ قرة فضة ٤٠٠٠ ردون ١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠٠٠٠ ثوب متاع ٣٠٠٠٠ رطل إهليلج ١٠٠٠ شقه إبريسم ١٠٠٠ نمره فضة
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ سدیل و ٣٠٠ جام
قومس	١٥٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
طبرستان والريان و دماوند	٦٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رطل رب الزماني ١٢٠٠٠ رطل عسل
الري	١٢٠٠٠٠٠٠	
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	
ماها البصره والكوفة	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠٠	
الجزيره وما يليها من أعمال العراق	٣٤٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق عسل ١٠ بزاه ٢٠ كساء

(تبع) الخراج و عهد المأمون

الإقليم	الحماية من الدراهم والديابير درهم	الحياة من العروض
أرمينية	١٣٠٠٠٠٠	٣٠ قسط عمود ٥٣٠ رطل رقم ١٠٠٠٠ رطل من المساج السراهي ١٠٠٠٠ رطل صوبح ٢٠٠ صل ٣٠ مهرا
برقة	١٠٠٠٠٠	١٢٠ ساط
إفريقية	١٣٠٠٠٠٠	درهم
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠	
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠ حمل ريت
دمشق	٤٢٠٠٠٠	
الأردن	٩٧٠٠٠	
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠	
اليمن	٣٧٠٠٠٠	سوى المتاع (الذي لم يدكر)
الحجاز	٣٠٠٠٠٠	
فيكون المجموع بالدراهم	٤٨١٧٠٠٠	ديار ولساوى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعتار النصار ١٥ درهما وهو تقدره في ذلك العصر
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٧٢٢٥٥٠٠٠	
الجملة	٣١٨٦٠٠٠٠	درهم
	٣٩٠٨٥٥٠٠٠	



(و) الخراج في عهد المتعصم :

أما جباية الدولة في أيام المتعصم فهناك هي تقلا عن قدامه س حمير ، كانت جباية السواد معظمها من الحطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أى وواجه في الشرق والعرب .

اسم الناحية	مقدار الحطة مالكتر	مقدار الشعير مالكتر	الدراهم
طساسيج السواد في الجاهل الغربي :			
الأنار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن . . .	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
» قطريل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
» بادوريا . . .	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سبر	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان . . .	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوكى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
بهر دوقبط . . .	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر حوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
ماروسما ونهر الملك . . .	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزواى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
العلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الحساح في عهد المعتمد

اسم الناحية	مقدار الحساح بالكت	مقدار الشمر بالكت	الدراهم
(تابع) طاسيح السواد في الجانب الغربي			
طسوح النهرين ..	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
» مين القمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
» الحنة والبداه	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا وبرسيا ...	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات ماذقلى .	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوح السيلحين ..	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
رودستان وهرمزجرد . .	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايعارقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠

طاسيح السواد في الجانب الشرقي .

طسوح برر جابور .	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
» الراذابين ..	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
» نهر يوف ..	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهرين ..	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
حازر والمدينه العتيقه ..	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهرود	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجلالتا ..	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الحراج في عهد المعتمد

اسم الناحية	مقدار الحطة بالكتر	مقدار الشعير بالكتر	الدرهم
(تابع) طاسج السواد في الجانب الشرق :			
الذيين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
السدينيين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوح واز الرود	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
الهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا وكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دحلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
هر الصلة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
الهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع حراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع حباية السواد باعبار بواحيه ١١٥٦٠٠ كتر حطه و ١٢٣٩٢١ كتر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامه المذكور بعد أن أورد نراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم . فقد قال في إيراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصر من الحطة ١٧٧٢٠٠ كتر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كتر ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » وقد قال المرحوم بحر بن بك ريدان ولمل سبب هذا الفرق خطأ في قراءه بعض الأعداد ، على أن الفرق على كثرتة لا يعتد به فيما نحن فيه . بقي علينا أن نقول الحطة والشعير إلى دراهم ، وقد مل جمع ذلك لحولها باعتبار ثمن الكترين المقرويين من الحطة والشعير ٦٠ دينار والدينار على صرف ١٥ درهما بدينار مبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة تجمع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فإذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة .

الدراهم المجموعة ورقا	٨٠٩٥٨٠٠
قيمة الحسطة والشعر بالدراهم	١٠٠٣٦١٨٥٠
صدقات البصرة	٦٠٠٠٠٠٠
درهما	١١٤٤٥٧٦٥٠

هذا هو ارتجاع السواد ، فليستهم الى إيراد حانات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب

وهي مع السواد

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠	الري ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوین ورجان وأهر	١٨٢٨٠٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠٠	حرجان	٤٠٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
محمستان	١٠٠٠٠٠٠٠	تكريت والطبرهان	٩٠٠٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامقان	٢٧٥٠٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠٠	قرندى وبندى	٣٢٠٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠٠	أرزن وميافاوقين	٤٢٠٠٠٠٠٠
ماسبدان	١٢٠٠٠٠٠٠	طروند	١٠٠٠٠٠٠٠
مهرجان قنق	١١٠٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠٠
الايقارين	٣١٠٠٠٠٠٠	ديار مصر	٦٠٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠٠	المجموع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل بحده	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دنانير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم ..	٣٦٠٠٠٠	ما قسله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جد حصص .	٢١٨٠٠٠	الحرمين .	١٠٠٠٠٠
» دمشق ..	١١٠٠٠٠	انيس .	٦٠٠٠٠٠
» الأردن	١٠٩٠٠٠	التيامه والحري .	٥١٠٠٠٠
» فلسطين..	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكدرية .	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
كل هذه	٣٥٩٢٠٠٠		

وإذا ما حولنا هذه الدنانير الى دراهم ، باعتبار الدينار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيره ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامه .



(ز) السعايات والحاسوسية :

وهناك ملاحظه أخرى حديره بالقيده . وهى انتشار السامات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مرعوبا . ولعل سبب ذلك حووح العاسيين الى استعمال الحواسيس والرقاء ككثيره هائله . فاطر مثلا ما جاء فى الحشره العشرى من كتاب « نهاية الأرب » عن المأمون إذ يقول إنه كان يحب سماع أخبار الناس حتى حصل برسم الأخبار سعداد ألف عجز وسجائمه عجز . فتأمل حاسوسيه العصر التى لا سعد التة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصه ^١

وبعد ، فهما يكن من افذاصك للمالع والفق فيما رويه لنا صاحب بايه الأرب ، فان اطلارك على كتاب اس طيعور الذى كان معاصرا لكثير من رواته ، والذي كان

قرب العهد للمأمون وعصره ، قطع بكثرة العيون وكثرة الأرصاء ، كثرة قد تهلك حقا وتدهشك صدقا ! ! .

وقد سبق أن قدا إن حل الساسة العاسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار ، ويحسون الرجل الكُتْمَةَ القُفْلَةَ . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . والملك اذا نظرت الى قول المأمون « تحمل الملوك كل شيء إلا ثلاثة . إفساء السر ، والقذح في الملك ، والتعزص للحرم » علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم ، وأنها في المنزلة الأولى من اعتبارهم ، واستطعت أن تعلق لم كانت حططهم غير واضح ولا عليه ، وربما كانت معها مهمة .



(ح) الدعاوة " البروياجندا " :

وهناك مسألة أخرى تحدثت بها ، وهي حديره بالملاحظه قيسه بالحث ، تلك هي عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إنقاذهم لأمرها وعلمهم بأفانيتها ووقوفهم على نقطتها ، نالها ملما عظيما ، إذ كانت في مكنتهم وطوع سانهم ، أن يصوروا الحق باطلا والباطل حقا . وإن فيما رواه الطبري وغير الطبري عن سى حياة المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلق على طهر من يقتل أو يعاقب من رحالات دولته ، السية والكماية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وأنا نسوق اليك مثلي لتأيد ما ذهبا اليه

فقد ذكر الطبري أن المأمون لما قتل على س هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلق على رأسه ليقرأها الناس ، فكتب - وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لماسية أخرى - : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين كان دعا على س هشام فيمن دعا من أهل حراسان ، أيام المخلوع ، الى ماواته والقيام بحقه ، وكان فيمن أحاب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعاونة ، فرعى أمير المؤمنين ذلك له ، واصططحه ، وهو يطل به تقوى الله

وطاعته، والانتهاه الى أمر أمير المؤمنين في عمل إن أسد اليه في حسن السيرة وعفاف الطعنة. وبدأه أمير المؤمنين بالإفصال عليه، فولاه الأعمال السنية، ووصله بالصلوات الجريئة الى أمر أمير المؤمنين بالطريق قدرها، فوحدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فهدية الى الخباية والتصنيع لما استرعاه من الأمانة، فعاذه عنه وأقصاه، ثم استقال أمير المؤمنين عثرته، فأقاله إياها، وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية، ومحاربة أعداء الله الخونة، على ألا يعود لما كان معه، فعاد أكثر ما كان بتقديمه الديار والدهرم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وعسف الرعيه، وسبك الدماء المحترمة، فوجه أمير المؤمنين تخفيف بن عبيسة مباشرة لأمره، وداعيا الى تلاقى ما كان معه، فوثب معجف يريد قتله، فقوى الله عجيما ببيتة الصادقة في طاعه أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه. ولو تم ما أراد معجف لكان في ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستقال، ولكن الله إذا أراد أمرا كان معولا. فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في علي بن هشام، رأى ألا يؤاحد من حلقه بدنه، فأمر أن يحرق لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يحرق عليهم، مثل الذي كان جاريا لهم في حياته. ولولا أن علي بن هشام أراد المظن معجف لكان في عداد من كان في عسكره ممن حالف وحان، كمبسي بن منصور وطرائه والسلام».

فأتت ترى من هذا الى أبة درحة من العاية والاهتمام وصلت الدعاءة «البرواحدة» المأمونية!

ولا عرو فقد أعاد المأمون أيما إفاده. وقد كان المساهون، بسبب نشاط العباسيين في الدعوه لأنفسهم، أطوع لهم مما كانوا لنى أميه، واعتقدوا أن حلامهم تنق أمد الدهر حتى يأتي السيد المسيح. وعبر من في أدهان الناس، تنالى الأردان، أن الخليفة العباسي إذا قُتل احتل نظام العالم واحتضت الشمس وامتنع القطر وحف السات! كل ذلك من أثر عاية العباسيين بالدعاهة لأنفسهم، واهتمامهم أعسا اذتمام بتبرير تصرفاتهم وتركية أعمالهم.

ثم أنظر ماذا حصل لإبراهيم بن المهدي، ترأى الدعوى المأمونية أنت إلا أن تقعد في دار المأمون ليطر اليه سواهشم والقواد والجد ، وصير الدعاء المقتمة الي كان متقنا بها في عنقه ، والملمعة الي كان ملتصقا بها في صدره ، ليراه الناس ويعلموا كيف أحد .

واظهر أحدا — رعاك الله ووفقك — الى ما يتحدثنا به أحمد بن أبي قواد عن كلمة المأمون في هذا الصدد، قال « قال لي المأمون : لا يستطيع الناس أن سضعوا الملوك من وررائهم ، ولا يستطيعون أن يبطروا بالعدل بين الملوك وحقاتهم وكفائتهم ، ومن صائهم وطاسهم ، وذلك أنهم يرون طاهر حرمه وحذمه واحتياذ وصيحه ، ويرون إيقاع الملوك بهم طاهرا ، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رعة في ماله أو رعة في مص مالا يحود العوس به . ولعل الحسد والملافة وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك . وهناك حياتات في صلب الملك أو في مص الحرم ، فلا يستطيع الملك أن يكتف للعامة موضع العورة في الملك . ولا أن يمنح تلك العقوبة مما يستحق ذلك الدس ، ولا يستطيع الملك ترك عقابه ، لما في ذلك من الفساد على علمه أن عذره غير مسوط للعامة ، ولا معروف عند أكثر الخاصة » .



(ط) صعوبة مهمة المؤرخ :

والحق أنها مهمة صعبة أن تستكشف حقيقة الظالم من المظلوم ، والغالب من المعلوم ، والهادى والصالح ، في هذه الدولة التي لعت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيما . ولولا ما ححا الله من الاطلاع على شتى المصادر ، وقصصنا في ذلك تمهيدا طويلا ودرسا مملا متعا ، فطالما أقوال الأحرار المتصارعة ، ووازنا بين كلمه هذا ودفاع ذاك ، لما كنا بالغين مص فطالما من إمطة اللثام عن مص الحقائق التاريخيه . وفي هذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة ، وآل لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية .

الفصل السابع

شخصية المأمون

توطئة — كرمه وبهاؤه — كيف ملك المأمون قلوب طلائفه — مدره لرحال دوله — قدره للشجاعة
الأدبية — عدله وأصاؤه — عزمه — صبره للأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه
الديني — كلفة ختامية .

(١) توطئة :

زيد هذا أن محلل أخلاق المأمون ، ويريد أن يستقصى كل ما قيل عنه وأن يدوس
شئى بواجبه الخلقية بما يستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنستعمل فيما سكتنه على
الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . وروحاً أن يوفق فيما سنعائنه .

(ب) كرمه وبهاؤه :

يقول صاحب الحوم الزاهرة : انه لم يفتقر ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل
ما حققه المأمون يوم وثى ولده العباس على الخزيرة ، اد أمر لكل من المعتصم والعباس
بمئة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من مافلة القول أن تذكر أن المأمون كان من أكثر حامياء العباسيين حدوداً
وأسطعهم ديناً ، وأجملهم مهارة ، صد أن يرى كتبت التاريخ والأدب معمة بما كان له من
حوادث عريته في السجاء والحدود .

والذى يتبع ما ذكره المؤرخون من حوادث حدوده وفيص إسماعله ، يرى أن كرم
المأمون وبهاؤه يرجع الى عاصر محتله في هسه ، فمنها ما يرجع الى ما في فطوته من أريحية
واهتراز للعروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسي يريد أن يظفر ويملك القلوب ، ويؤطد
أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا بطرنا الى الدوحة الهاشمية الى هزاع عنها المأمون، وأنه نشأ في حجر الخلافة في العم والترف. ومن هذا شأنه قتل حرصه على المال، واداء بطرنا أيضا الى أنه حاض معه سياسة وحربية كان المال من أصل آلتها وأعدتها أترا — وقد يتأ لك في العصر الأموي ما كان ثلث من أترقوى في إقامه سلطان حى أميه وبوطيده — لم نزلوا كبيرا فيما أرعت به كتب الأدب والتاريخ من حوادث حود المأمون وكرمه. ولسطر فيما روه لنا اس طيفور في هذا السبيل، فانه قال. « إن المأمون لما فتح « حصن قُزّه » وعِم ما فيه اشترى السنى بستة وحمسين ألف دينار، ثم حَلَّ سبيلهم وأعطاهم ديارا دسارا .

وهاك مثالا لما يصح أن يكون من آثار أرحمة المأمون وإرادته بوطيد سلطانه

نحدثنا اس الأثير والطبرى، أن العنسى صاحب السجستان اراهم قال كسْتُ مع المأمون بدمشق، وكان قد قتل المال عنده حى أصاك وشكا ذلك الى أبى اسحاق المعتصم، فقال له يا أمير المؤمنين، كأنتك المال وقد وافاك صدئتمعه، وكان قد حَلَّ اليه ثلاثين ألف ألف درهم من حراج ما يتولاه له. قال: فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحى س أُنْخَم. أخرج ما سطر الى هذا المال، قال. خرجنا حتى أصبحنا ووهنا يطرانه. وكان قد هُيَّ ما حسن هيشه وحلَّيت أناعرُه وألبست الاحلاس الموشاة والحلال المصعقة وقُلِّدت المِهْر، وجُعِلَت الدَّرَجُ بالحرر الصبى - الأحمر والأحمر والأصفر، وأُنْذِيت رؤوسها، قال. هضر المأمون الى شىء حسن، واستكثر ذلك فعظم في عينه، واستشره الناس يسطرون له ويحسون منه، فقال المأمون ليحى. يا أبا محمد، يصرف أحماسا هؤلاء الذين راهم الساعة حائنين الى ما رلهم، ويصرف هذه الأموال وقد ملكهاها دونهم، إما إذا لاثام ثم دعا محمد بن يزيد، فقال له. وقَّع لآل فلان مآلف ألف، ولآل فلان ممتلكها، ولآل فلان ممتلكها، قال: فوافقه إن زال كذلك حتى فَرَّقَ أرسه وعشرين ألف ألف درهم، ورحلته في الركاب، ثم قال. ادفع الباقي الى المعلق يعطى جيدا. قال المومنى: بلجنت (١) يقول أسادا الشيخ عبدالوهاب السار « أحب أن ألقا رائدة في أرايتهم المقولة لأن حساب ذلك يؤول الى مليارين من الدنانير. وغلة حى العباس في عشر سنوات لا تقي بذلك. فكيف بمصر وحدها » .

حتى قُتُّ نَصَبَ عِيسَى، فلم أرَ طريقَ عِيسَى لا يلحظُ إلا رأى تلك الحال، فقال
يا أبا محمد: وَقَعَ لهذا محسِن ألف درهم من ستة آلاف الألف. قال: فلم يأت على-
لثلاث حتى أحدث المال.»

ومما يدل على كرم نفس المأمون وحسن تنسّطه، ما رواه القاسم بن محمد الطيعورى.
قال: «شكا اليريدى إلى المأمون حالةً أصابته ودسا لحقه، فقال: ما عندنا في هذه الأيام
ما إن أعطيناكه بعتَ به ماتريد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد صاق على-، وإن
عُرِماني قد أرهقوني، قال: «فرمَ لمسك أمرًا سلَّ به معًا، فقال: لك مادمون فيهم
من إن حركته لبُ منه ما أحت، فأطلق لي الخيلةَ فيهم.» قال: هل ما بدا لك، قال:
فإذا حصروا وحصرتُ مُسرَّ فلا مالحادم أن يوصل اليك رقتي. فإذا فرأها فأرسل إلى-
«دحولك في هذا الوقت متعذر. ولكن احتر لمسك من أحدث.» قال: فلما علم أبو محمد
بجلوس المأمون واجتماع ندماؤه إليه وبيقر أنهم قد تملوا من سرهم، أتى الباب فدفع
إلى ذلك الحادم رقعةً قد كتبها، فأوصلها إلى المأمون، فقرأها فإذا فيها:

يا حيرَ إخواني وأصحابي * هذا الطَّعِيلُ لدى البابِ
حُرَّ أبَ العومِ في لَدَهْ يَصْوَ إليها كَلَّ أَوَابِ
فصبروني واحدًا مَعَكُمْ أو أحرحو لي بعضَ أترابي

قال: فقرأها المأمون على من حصره، فقالوا: ما سمى أن يدخل هذا الطعيلُ على مثل
هذه الحالة، فأرسل إليه المأمون. «دحولك في هذا الوقت متعذر، فاحتر لمسك من
أحبت تادمه.» فقال: ما أرى لنفسي اختيارًا غير عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون:
قد وقع اختياره عليك فسرَّ له، قال: يا أمير المؤمنين، فما أكون شرك الطعيل. قال:
ما يمكن ردَّ أي محمد عن أمرس، فإن أحببت أن تحرَّج وإلا فاعتد نفسك. فقال:
يا أمير المؤمنين، له على عشرة آلاف درهم! قال: لا أحسبُ ذلك شُعبه منك ومن
بجالتك، قال: فلم يزل يزيد، عشرة عشرة، والمأمون يقول له: لا أَرْضَى له بذلك،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون . فمحلها له ، قال . فكتب له بها الى وكيله ،
 ووجه معه رسولا . فأرسل اليه المأمون « قَصُّ هذه في هذه الحال أصلح لك من
 مادمته على مثل حاله ، وأنع عاقبه » .

ويتجلى بجهاء المأمون ، مع الوفاء وطيب العس ، في موقعه مع علام سعييد الجوهري
 الذي كان قد لزم المأمون في الكتّاب ، فكان اذا احتاح المأمون الى نحو لوحه مادر اليه
 فأخذ اللوح من يده فحاه وطب على علبان المأمون ومسحّه وحاه به فوصعه على
 المديل في حجره . فلما سار المأمون الى حراسان وكان من أحبه محمد الأُمس ما كان ، خرج
 اليه علام سعييد هذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليربوعي ، فلما راه عرفه ، فدخل
 فأحمر المأمون ، فقال له مستبشرا بقدومه لك النشري ' ثم أدب له فدخل عليه ، فضحك
 اليه حين رآه ، ثم قال . أتذكر وأنت تادر الى عمو لوسي ! قال : سم ما سيدي . فوصله
 بمسائة ألف درهم .

واطرهيا يحدّثنا به الطري عن محمد بن أيوب ، قال . إنه كان البصرة رجل من
 بى يم وكان شاعرا طريفا ، حينما ما كرا ، وكنت أنا والى البصرة آنس به وأستطيعه ،
 فأردت أن أحدهه وأستنرله ، فقلت له . أنت شاعر ، وأب طريف ، والمأمون أجود من
 السحاب الخافل والريح العاصف ، فما يملك منه " قال : ما عدى ما يلقى ، قلت : فاما
 أعطيك نجيا فارها وبقعة ساعة وتخرج اليه وقد امتدحته ، فامك إن حظيت بلفانه ،
 صرت الى أمتك ، قال واقه أيها الأمير ، ما إحالك أمدت ، فاعدتلى ما ذكرت ، قال :
 فدعوت له بحبيب فاره ، فقلت : شأك به فامتطيه . قال : هذه إحدى الحسينين ، فما بال
 الأخرى " فدعوت له بثلاثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسك أيها الأمير قصرت
 في المقة ، قلت : لا ، هي كافيها إن قصرت عن السرف ، قال : ومتى رأيت في أكابر سعد
 سرفا حتى تراه في أصاعرها ! فأخذ الجيب والنفقة ، ثم عمل أرحورة ليست بالطويلة ،
 فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء على ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ، قال :

وكيف؟ قلت: تأتي الخليفة ولا تأتي على أميرك! قال: أيها الأمير أردت أن تعدني فحدثني
 حذافا! أما والله ما لكراحتي حمتني على بحبك ولا حذت لي ممالك الذي ما رame أحد
 قط إلا جعل الله حذاه الأسفل، ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، أهم
 هدا، قلت قد صدقت، فقال: أما ادأدت ما في صميرك، فقد ذكرت وأثبتت
 عليك، قل: فأشدني ماقلت، فأشدسه، فقلت أحسنت، ثم ودعني ونرج، فأتى الشام
 وإذا المامون «سَلْمُوس». قال: فأحرى، قال: «بدا أنا في عراة قُوة، قد ركت نجبي
 داك، ولبست مُقْطَماني وأنا أروم المسكر، فإذا أنا بكهل على حل فار، ما يقَرّ قواره
 ولا تدرك حُطاه، قال: فتلقاى كالحقة ومواحهه وأنا أردد نسيد أريجوزي، فقال: سلام
 عليكم! بكلام خهوزي ولسان بسيط، فقلت وتليكم السلام ورحمة الله وركانه!
 قال: فف إِب شئت، فوقعت. فقصوت. مه رائحة العبر والمسك الأذفر، فقال:
 ما أولك؟ قلت: رجُل من مُصر، قال: ونحس من مصر. ثم قال: ثم ماذا؟ قلت: رحل
 من بني تميم، قال: وما صد تميم؟ قلت: من بني سَعْد، قال هيه! فأتقدمك هذا
 البلد؟ قال: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أبدى رائحة. ولا أوسع راحة،
 ولا أطول باعا، ولا أمد ماعا، قال: فإلى الذي قصدته؟ قلت: شعر طيب يلد
 على الأواء وتفتيه الرواة ويملو آذان المستمعين، قال: فأشدني، فصببت وقلت:
 يارك! أحررتك ألى قصدت الخليفة شعر قلته ومديح خبرته، تقول أشدبيه! قال:
 فتعافى والله عنها وتغافن لها وألغى عن جوابها، قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت:
 إن كان على ما ذكر لي عنه، فألف ديار قال: فأما أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر
 جيذا والكلام هدا، وأصع عك الماء وطول الترداد، ومتى تصل إلى الخليفة وبيك
 وبيده عشرة آلاف رايح وبائل؟ قلت: فلي الله عليك أن تفعل، قال: نعم، لك الله على
 أن أفعل، قلت: ومعك الساعة مال؟ قال: هذا على، وهو خير من ألف دينار. أنزل لك
 عن طهره، قال: فصببت أيضا وعارصي زوى سَعْد وحمه أحلامها، فقلت: ما بساوي

هدا البعل هدا الحبيب، قال - فدع عنك النغل، ولك الله على - أنت أعطيك الساعة ألف دينار، قال . فأشدنه :

مأمونُ يادا المينَ الشَّريفةَ * وصاحبَ المرتبةِ الميعةِ
وقائدَ الكتَّيبِ الكثيفةِ . هلْ لكِ وأُرجوزةِ طريفةِ
أطُرفَ من فقهِ أَى حيفةِ * لا والدى أنتَ له حليفةِ
ما طُلمتِ وأرصا صيفةِ أميرِا مؤنثه خيفةِ
وما أحتى شينا سوى الوطيفةِ * فالدثُ والسحةُ في سيفةِ
واللصُ والتارُ في قِطيفةِ *

قال : فوافقه ماعدا أن أشدته، فادأ زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق، يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته ! قال : فأحدي أُمُكُلَّ، وطرأ إلى بَتْلَكِ الحالة فقال : لا بأس عليك أى أحي، قلب . يا أمير المؤمنين، حملنى الله فداك، أتعرف لغات العرب ؟ قال إى لَعمُرُ الله ! قلت : من حمل الكاف منه مكان القاف ؟ قال : هذه حمير ، قلت . لعنأ الله ولنس من استعمل هذه الله بعد اليوم ! فصحك المأمون وعلم ما أردتُ ، وألصقت إلى حادم إلى حاسه فقال : أعطه مامك، فأنرح إلى كبسا فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال . هاك، ثم قال . السلام عليك ومضى ، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم عهده فإن ابن طيهور يحثنا أن نحارقا قال . كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعريبُ معاً، فقال : عسَّ يا حارق، فقلت . أما محوم، فقال : يا عريب حُسيه، فرمعت يدها إلى عصدي ، فقال لها المأمون . قد اشتبهت، تحب أن أزوجك ؟ قالت . نعم ! فقال من تريدن ؟ قالت : هدا، وأومأت إلى محمد بن حامد ، فقال : اشهدوا أى قد زوجتها مه . ثم انظر ما نستطرد به حارق من أن الممتص لما ولى ، كتب إلى ابحاق ابن إبراهيم : أن مَرَّ محمد بن حامد أن يُطلق عَريباً ، فأمره فأتى ، فكتب إليه : أن

أضرته ، فصر به بالمقارع حتى طلقها . ففى هذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانته واقتفاؤهم أنزه ، وترشيمهم خطواته ، فاق الحديث فى ذلك يطول ، وقصارانا أن نخيل الى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وصيرهما ، فاطل ذلك فى مطاينه .

« وسعد » فانه لم الجليل المتع حقا أن يكون الملك كريما بسجيته ، جوادا برعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء هواصله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور ، واستحثات أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والمقررات ، على التبريز والإحسان ، والإحادة والإتقان ، خدمة لنى الإنسان ، ورمعة للأوطان .



(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانته :

نريد أن نترك الكلمة فى تصور هذه الناحية ، لما يرويه لنا ولادة المأمون أنفسهم ، فقد قال رجل من إخوانه المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أى طالب ، وكذا كان أبوه فعله . فدفع المأمون ذلك وأكرهه ، ثم عاد بمثل هذا القول ، فهدس اليه رجلا ثم قال له : امص فى هيئة القزاة والنسك الى مصر ، فادع جماعة من كبارها الى العاسم بن ابراهيم بن طاطا ، وأذكر مابقه وعلمه ومصائله ، ثم صر بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائنه فادعه ورتبه فى استباحته له ، واثبت عن دفين نيته بحثا شاميا ، وأتبي بما سمع منه . قال : فعزل الرجل ما قال له وأمره به ، حتى اذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، فقد يوما ساب عبد الله بن طاهر ، وقد ركب الى عيد الله س السرى بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فانخرج من كنه رقة فدفنها اليه ، فأخذها بيده ، فها هو إلا أن دخل نخرج الحاجب اليه ، فأدخله عليه ، وهو قاعد على ساطله ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مد رجله وحفاه فيهما ، فقال له : قد فهمت ، وفى رقتك

من جملة كلامك، فهات ما عندك؛ قال: ولي أمانك وذمة الله معك؛ قال: لك ذلك. قال: فأظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأخبره فضائله وعلمه وزهده، فقال له عبد الله: أتصنفي؟ قال سم، قال: هل يحب شكر الله على العاد؟ قال سم، قال: فهل يحب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل؟ قال سم، قال: فتحيء الى وأما في هذه الحال التي ترى: لي حاتم والمشرق جائز والمغرب كذلك، وفيما بينهما أمرى مطاع وقول مقبول، ثم ما التفت يميني ولا شمالي وورائي وقدامي، إلا رأيت بعمّة لرحل أعمها على ومنه حتم بها رقبتي ويداً لائحته بيضاء ابتدأتني بها معضلاً وكريماً، فندعوني الى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان! وتقول اعدرب من كان أولاً لهذا وآتراً! واسع في إزالة حيط عقده وسفك دمه! راءك لو دعوني الى الجسه عيماً من حيث أعلم أكان الله يحث أن أعدرب به وأكفر إحسانه ومنه، وأنتك بيعته! سكك الرجل، فقال له عبد الله: أماناً إنه قد بلغني أمرك، وتالله ما أحاف عليك إلا بسك، فارحل عن هذا البلد، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك، وما آمن ذلك عليك، كنت الجاني على نفسك وبعس عيرك. فلما أيس الرجل مما عده حاء الى المأمون فأخبره الخبر، فاستنشر وقال: ذلك عرس بدى، وإلف أدبى، وترت تقيحي، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وانظر الى تلك النصيحة الى تقسم بها عبد الله بن طاهر لمصور بن طلحة، يهاه عن الكلام والإمامة اذ يقول: "إمّا ننت شعرنا على رعبوسا بنى العباس". ثم انظر الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المدكور:

أخي أب ومولاي • ومن أشكر نعماء
فا أحببت من أمري • فإني النهر أهواء
وما تكره من شيء • فإني لست أرضاء
لك الله على ذاك • لك الله لك الله

واطر الى ما رواه الطبري عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مُحَاصِرُ بِمَصْرِ عُبَيْدَ اللَّهِ
ابن السرى إذ قال :

بَكَرْتُ تُسِيلُ دَمْعًا * أَنْ رَأْتُ وَشَكَ بَرَّاحِي
وَتَذَلْتُ صَعِيلًا * يَمِيًا يَوْشَاحِي
وَتَمَادَيْتُ بِسِيرٍ * لَهُ - لَمَقٌ وَرَوَاح
زَعَمْتُ حَهْلًا مَانِي * يَبْتُ عَيْرُ مُرَاح
أَقْصِرِي عَنِّي زَانِي * سَالِكُ قَصْدِ فَلَاحِي
أَنَا لِلْأُمُونِ عَبْدٌ * مَهْ وَ طَلَّ حَنَاج
إِنْ يُعَافِ اللَّهُ يَوْمًا * فَعَرِيبٌ مُسْتَرَاخ
أَوْ يَكِي هُكَّ قُفُولِي * مَعْوِيلٌ وَصِيَاخ
حَلَّ وَ مَصَرَقِيْلُ * وَدَعَى عَكَ الثَّلَاحِي

ألا محوز لنا أن نستخلص مما قدمناه لك أن المأمون كان محبوا عد بطائنه ! ولسنا
نسى بذلك أن الأُميين لم يكن محبوباً ، وأن موته ألم أهل سداد وجددها ، ولا ننكر أن بعضاً
من جند طاهر بن الحسين انضم إلى الأُميين طمعاً في ماله وجبا في سبائه مما يبتاع
لك في موضعه ، ولكننا الآن بموقف الدس يحللون أخلاق المأمون ، وفي عفتنا ألا نترك
ناحية من نواحيه من غير أن نقيها حقها من البحث ، ونعطيا نصيبها من الاستقراء .

« وسعد » فانه مما لا مدوحة لئلك عه أن يكون وادعا محبا الى بطائنه وحاشيته ،
باحسانه اليهم ، وتمهده لإياهم عطفه ورطائنه ، وأن يحذب عليهم ويرعاهم بحاية تشملهم
الطافها وتقلد أعاقهم منها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقهم من شخصه الخليل ،
إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتباين مراتبها ، وهو عظيم النعمة أمام الله
والتاريخ عن تملك عليهم وتولي أمر ديارهم وأحزمتهم .



(د) تقديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقاً من أخيه الأمين ، وكفاية طائفة ، وقُدرة قادته ، وحريم مشيريه ، ونَصير أولاته . وكان ، مع طميره بالاصحاح من خاصته ، كثير التأمل لما يحرى في ملكه من مظاهر الصعف والقوة ، حريصاً على تدبر ما يترتب من مختلف الشؤون ، في تعرف الشخصيات القوية التي رجو أن يستند اليها الملك ويتأدبها النظام .

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق في قلبي أمرٌ أنا مكره فيه مدته طويلة ، وإنما استطكت في هذا الوقت لأُشيء اليك ، فقلت : قل يا سيدي ما أمر المؤمنين ، فأما أنا عبدك وابن عبدك ، قال : بطرت إلى أني المأمون وقد اصطحب أربعة أعصا ، واصططعت أنا أرسه لم يُفليح أحدٌ منهم ، قلت : ومن الذين اصططعهم أحوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدُ الله اس طاهر ، فهو الرجل الذي لم يَرْمِشْهُ ، وأت ، فأت وافته الذي لا يتناض السلطان ملك أبداً ، وأحوك محمد بن إبراهيم ، وابن مثل محمد ! وأنا فاصططعتُ الأُميين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وإشساس ففُيَسِّل رأيه ، وإيتاح فلا شيء ، ووصيفا فلا مُعني فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين . حلفتُ الله فذاك ، أُجيب عن أمان من غصبك ؟ قال : قل ؛ قلت : ما أمر المؤمنين . أعرك الله ، نظر أحوك إلى الأصول فاستعملها فأحب فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تُحب ، إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحاق ، لمقاساة ما مرّ في طول هذه المدة أسهل على من هذا الحواب .

ولقد كان المأمون ، إلى جانب هذه النظرة بما يحتاج إليه من صفوة الرجال ، بصيراً بما في مملكته من ألوان المكر وصوف الرياء . فقد حدثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدي ، قال : قال المأمون يوماً ، في مجلسه جماعة ، هاتوا من عسكرنا مَنْ يطلب ما عدنا بالرياء ؟ قال : فقال كل واحد بما عدده : إما أن يقول في عدوِّه بما يقدِّح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه بسرّ خليفته، فلما قالوا ذلك، قال : « أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يتحدث عن أهل عسكره أهل الرياء، حتى وافقه لو كان قد أقام في رجل كل واحد منهم حولا محرما ما زاد على معرفته . قال . فكان مما حصلت عنه في تلّيب أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس . تسبيح حميد الطوسي، وصلاة فحطه، وصيام الوشحاني، ووصوء المريسي، وباء مالك بن شاهي المساعد، ونكاه إبراهيم بن ربيعة على المبر، وجمع الحسن بن قرقش اليتامى، وقصص معاذ، وصدقه عليّ بن الحبيد، وحملاي إسماعيل بن إبراهيم في السبيل، وصلاة أبي رحاء الصبحي، وجمع عليّ بن همام القصاص، قال : حتى عددا جماعه كثيرة، فعال لي رجل من عطاه العسكر، حين خرجنا من الدار، بالله هل رأيت أو سمعت بملك قطّ أعلم برعيته ولا أشدّ تقيرا من هذا » قلت : اللهم لا ! تحدث بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأحرار والعلم، فقال : وما يصعب بهذا، قد شهدت رسالته إلى إسماعيل بن إبراهيم في العقهاء، يجبر بما يهيم رجلا رجلا، حتى طوبها أعلم منهم بما في منازلهم . وإن في ذبوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عابته بشر دعوه الملك الموطد الذي يئس المحاملون من التكرار والخروج عليه، فان طهور الملوك بالفاذ إلى سرائر الرعية، زبدهم قوّة إلى قوّة، وسلطانا إلى سلطان .

وإنا اذا نظرنا إلى من استورره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رحالات دولته وقواد ملكه، لم ترتد في الحكم للمأمون، وأنه كاتب الموفق المستند في اختيار أهل الكفايات والنبوع .

وقد كان، إلى جانب هذا، نقدر الكفاية في خصومه . ونظرة فيما رواه ابن طيعور عن الحسن بن عبيد الخالق خاصا رأى المأمون في الفصل بن الربيع، وهو الذي تعلم مقدار إساته إليه، تلك على هذا، فقد قال المأمون في معرض الحديث عن الفصل : « كان يدبر الخطأ فيقع صوابا، ويبعث بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبر أنا فيقع بضير ذلك . فلما وقعت على البصيرة من أمرى، وفكرت في نفسي، وعملت بالأحرز

في ذلك، مِلت الى الحرم فوردتُ العراقَ . وإن الفصلَ من الربيع بقية الموالي . فلا تخفوه بذلك عني، فاني أكره أن يبلغه عني ما يسره .

ويؤيد صحة هذه الرواية ما ذكره بشر الساماني من المعاصرين اذ يقول: «سمعت أحمد بن أبي خالد يقول: كان المأمون اذا أمرًا بأمر فظهر من أحدا فيه تقصير، يقول: «أترون أني لا أعرف رجلاً يبالي، لو قلدهُ أموري كلها لعام بها!» فقال بشر: فقلت لأحمد بن أبي خالد: يا أبا العباس، من يعنى؟ قال: الفصل من الربيع .

ويظهر أن خطه المأمون في تقدير الكفايات أتى وحْدَتْ، قد اتبعها قادة المأمون معه . فان ابن طيعور يحدثنا أنه لما وُلِّي طاهر بن الحسين على شرطه المأمون سه أرح ومائين، وكان عليها من قُلِّ العباس بن المسيب بن رهير، كس طاهر الى الفصل من الربيع . «إن في رأيك الركة، وفي شورتك الصواب، فان رأيت أن تختار لي رجلي للحسرة» فكتب اليه ابن الزبير: «قد وحدتهما لك، وهما خيار السدي س يمي وعجاش ابن القاسم» . فوَلَّاهما طاهر الحسرين .

«وبعد» فاما بطي أن في هذا القدر الكفاية لاثاب ما كان من تقدير المأمون ورحاله، لأهل الكفاية والافتدار، وحرصهم على استعمال أصحاب المواهب، والاستعانة بهم وبكفاياتهم، في خدمة الدولة .



(هـ) قدره للتجاعة الأدبية :

كان المأمون يرصيه أن يكون الرجل بقى السريرة، راطع الجأش، يُقيم على كلمة الحق غير هَيَّاب . وقد حدثنا ابن أبي طاهر طيعور عن روى عنه قال: «حدثني أحمد بن أبي خالد الأحول بحراسان . فيما كان يحبرني به عن كرم المأمون وفصله واحتجاله وحسب معاشرته، أنه سمع المأمون يوماً، وعنده علي بن هشام وأخواه أحمد والحسين، ذكّر عمرو بن مسعدة فاستبطاء، وقال: أيجسبُ عمرو أني لا أعرف أخباره

وما يُجئى إليه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم نثنه ألا يسقط علىّ منه شيء ! ونهض
 واصررنا فقصصدت عمرا من ساعتى . فخرته بما حرى . وأنسبت أن أستحلّه من حكايته
 عنى . فراح عمرو الى المأمون ، فظل المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم . لموقعه من الرسائل
 والمظالم والوزارة ، فآذن له . فحبرنى عمرو أنه لما دخل عليه وضع سيمه بين يديه ،
 وقال يا أمير المؤمنين ، أنا عائد بالله من سخطه . ثم عائد بك من سخطك يا أمير المؤمنين . أنا
 أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين الى أحد أو يُسرّ علىّ شيئا ببغضه بعض الكلام على
 إظهاره ما يظهره . فقال لى وما ذاك ؟ فخرته بما تلقى ولم أسم له بخبرى ، فقال لى : لم يكن
 الأمر كما ظنك ، وإنما كآب حمله من تصويل كئت على أن أحركه به ، وإبما أخرج منى
 ما أخرج معنى تخاريتاه . وليس لك عدى إلا ما نحت ، فليفرح روعك وليحسن طوك ،
 فأعدت الكلام . ما زال بسكنى منى ويطيب منى ، حتى تحلل بعض ما كان
 فى قلبى ، ثم بدأ فصتنى الى نفسه ، وقلت بدّه ، فأهوى ليعاقبنى فشكره ، وتبئت فى وجهه
 الحياء والمحل مما تآذى اتى . قال أحمد . فلما غدوت على المأمون ، قال لى : يا أحمد أما لمجلسى
 حرة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحرّم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترصون
 بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت . وأبّه معامله ما أمير المؤمنين . هذا كلام لا أعرفه ، قال : بلى ،
 أأ سمعت ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بعض من حصر من بنى هاشم فخره به ،
 فراح الى عمرو فظهر ما ما وجب عليه أن يظهره . فدمعت منه ما أمكن دمعته ، وجعلت
 أعتذر اليه منه بعد قد تين فى المجل منى ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلم
 به إلا كذلك بينين فى عيبه وشعته ووجهه . ولقد أعطيته ما كان يقع منى أقل منه ،
 وما حدانى عليه إلا ما دخلنى من الحساسه ، وإبما كان تطلق به اللسان عن غير روية
 ولا احتمال مكروه به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أحبرت عمرا به لا أحد من ولد هاشم ،
 فقال : أنت ! قلت أنا ! فقال : ما حلك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك والصبح والمجبة
 لأن تمّ نعمتك على أوليائك وحملتك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء

والبعدهاء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو في ديوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطال الله قياه، سمعت أمير المؤمنين أنكره شينا، فخرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه، ويتلاقى ما قرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الماء فيه، وإنما كان يكون ما علمت عينا، لو أشعث سراً فيه قدح في السلطان، أو قص يدبير قد استتب، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنبا على، فظفر إلى ملياً ثم قال: كيف قلب ما عدت عليه، ثم قال: أعدت الثالثة، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لما حترى به أحث إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف، وعقد خصره ونصره وأوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فليكن عني سوء العلى وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فليصدقك إياي عن نفسك، وأطلق النسر، وأما ألف ألف فليحسن حوارك، وأطلق الحصر، وأمر لي بمال.

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان فيه من الاستعداد لتقدير كرائم الحلال. فلو أنه كان معروفا بالاستعداد لما أمكن هذه العوس أن تلغ ما كانت تطمح إليه من السل والكرامة. وفي استماعه لاحتجاج حليسه حرص على استبقائه واستكناه ما في نفسه، فصلا عما يتوقعه من عواقب هذا التشجيع المقصود، من التعاف حول شخصه، وتفاني في الوفاء له، وإيمان في خدمته وخدمه بلاده، خدمة الحر للحر باعث وحناني، لخدمة العبد للسيد معاملة الإرهاب والإكراه. ولي تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولي تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع السيف والإعنات، وأما يكون ذلك جميعه بحس الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء العوس من عوامل البغضاء والغفل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماخ، قال: "قال لي المأمون وعنده الزيدى والثقفى مولى الخيزران، وإسماعيل بن نوحمت، وتذاكروا الشعراء، فقالوا: النافعة، وقالوا: الأغنى، وخاضوا فيهم، فقال: لا أشتمهم إلا واحداً كان خليفا: الحسن بن هاني، فقالوا:

صدق أمير المؤمنين ، قال : الصدوق على الماظرة أحسن من الصدوق على الهبة ، فقالوا :
فيم قدمته ؟ قال بقوله .

يا شقيق النفس من حَكِّم * بَعَثَ عَنِ لَيْلٍ وَلَمْ أُنِمِ
ثم لم يسقه الى هذا البت أحد
ثم دَتَّ في عروقتهم * كَدَيْبِ الرُّءُى السَّقِيمِ

ووي عاره «الصدوق على الماظرة أحسن من الصدوق على الهبة» دلالة على رغبه
في إحياء العرائز الأدبية التي تُبَيِّتُهَا المصاحبة ، وَيَقْرُءُهَا الرِّبَاءُ . ولا يفوسا أن نسر الى أن
تقدمه ابن هاني ، لتجوده في وصف الراح ، له دلالة وله مزاء ، فهو يدل ، الى حد
غير قليل ، الى جانب ما علمناه عن المأمون ، أصيدَ الهمة ، مستحصدة العزم ، على أنه كان
في أوقات أسسه ومرحه الرجل المرح الطروب ، الذي يتدقق المعاني المرحه ، وما لها من
محاملات وأغانيس .

« وسعد » فإن ربسه الشعوب على قدر كرامتها الخاصه ورفعة شأنها بين الأمم ،
لتنطلب بعدها خاصا ممن يتولى أمرها في هذا السبيل ، فيعمل على أن يُجَسِّسَ الافراءُ
والحكّامُ ، ممن هم في عهده وتحت هيمنته ، ما لهم من مكايه ومبرلة ، وما لآرائهم وتصرفاتهم
من احترام وقدر ، أحدا لهم الشجاعة في المخاهره بمعتقداتهم ، وتبعية للروح الذي تعيده
هذه الألفاظ : « حرية . إياه . مساواه » في نفوسهم . وإن في آرائهم هذا السبيل
لأجل خدمة لمالكهم وشعوبهم وعروشهم .



(و) عدله وإنصافه :

كان المأمون عدلا منصفا الى حد بعيد . وقد عَرَفَ فيه الناس هذه الخلقة ، فكانوا
يظلمون في أنصاره والمقترين اليه ، ويجهرون بالشكوى من كل مَنْ يسوءهم طعمه أو يفتد
اليهم عُدوانته .

حدث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب الشَّامِيَّة وخلف طوره
أحمد بن هشام - فصاح به رجل من أهل فارس : الله الله يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن
هشام ظلمني واعتدى عليّ ! فقال : كن نالاب حتى أرجع ، ثم مضى ، فلما جاز الموضع
عُدوة التمت الى أحمد ، فقال : ما أقبح بنا ولك أن تقعك وصاحك هذا رهوس هذه
الجماعة ، ويقعد في مجلس خصمك ، ويُسمع منه كما تُسمع منك ، ثم تكون محققاً ، ثم تكون
مبطلا ، فكيف إن كُنتَ في صفته لك ، فوجهُ اليك من يحوله من بابا الى رحلك ، وأنصفه
من نفسك وأعطه ما أنفق في طريقه اليها ، ولا تحمل لسا دريسه الى ما تكره من لا تُمكنك ،
فوالله لو طلعت العباس ابى كُنتُ أقلُّ كبراً عنك من أن تظلم صميغاً لا يحدى في كل
وقت ، ولا تخلو له وجهي ، وسبياً من تحتم السور العبد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة » .
قال المحدث المعاصر : فوجه اليه أحمد بجاء به وكتب الى عامله رد عليه ما أحد منه ،
ويشتمه ويعصمه ، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من برمه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كوقوفه مع موسى بن الحسن ، وإصابته أن أحد حقه
من محمد بن أبي الماس الطوسي ، وموقفه مع البصري الذي من أهل كَشْكِرَ .^(١)

ثم اطر موقفه المشرف له وللقصاء في أيامه ، فقد قالوا : إن رجلاً دخل على المأمون ،
وفي يده رقعة فيها مطليّة من أمير المؤمنين ، فقال : أمطليّة مني ؟ فقال الرجل : أفأخاطبُ
يا أمير المؤمنين سواك ؟ قال : وما هي طلامتك ؟ قال : إن سعيداً وكلك اشتري مني جواهر
بثلاثين ألف دينار ، قال : ماذا اشتري سعيدٌ منك الجواهر تشكو الطلامة مني ! قال نعم ،
إذا كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال . لعل سعيداً قد اشتري منك الجواهر وحمل اليك
المال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يرمني لك حق ولا أعرف لك طلامة ، فقال له (بعد
كلام طويل) : إن في وصيه عمر بن الخطاب لقضاتكم "الينة" على من آذنى ، وإبجئ على
من أنكر " قال المأمون : إياك قد عيّنت الينة ، فما يحبُّ لك إلا خلفه ، ولئن حلفتها لأنا

صادق اذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمي . قال : فإذا أدعوك الى القاصي الذي نصبت له ريعيتك ، قال : سم ! يا اعلام ، على يحيى س أكنتم ، فإذا هو قد مثل من يده ، فقال له المأمون . اقص بيدي ! قال : في حكم وفصية ! قال سم ، قال إنك لم تحمل ذلك مجلس قضاء ، قال : قد فعلت ، قال . فإني أبدأ بالعامة أولاً ليصلح المجلس للقضاء ، قال . اعمل ، ففتح الباب وقعد في ناحية من الباب وأذن للعامة ، ثم دعى بالرجل المتظلم ، فقال له يحيى ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بمحصى أمير المؤمنين المأمون ، فإدى المأدي ، فإذا المأمون قد حرح ، ومعه علامٌ يحمل مصلياً حتى وقف على يحيى وهو حالس ، فقال له : احلّس ، وطرح المصلي ليقعد عليها ، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، فطرح له مصلياً آخر . ثم نظروا دعوى الرجل ، وطالب المأمون باليمين خلف ، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من بيمه فقام على رجليه . فقال له المأمون . ما أقامك ؟ فقال : إني كنت في حق الله حل وعمر حتى أحدثته مسك ، ولنس الآن من حتى أن أصدّر عليك ، ثم أمر المأمون أن يحصره . أذعى الرجل من المال ، فقال له . حله الك ، والله ما كنت أحلف على بخرة ثم أسمع لك فأفسد دى ودنياى ، والله يعلم ما دومت اليك هذا المال إلا حقاً من هذه الرعية ، ألعها ترى أنى تناولتُك من وحه القدره ، وإها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمع لك باليمين والمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء في تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من تمت الى الخلفاء لشعاره وأحكامه . ولا يستعد الله صحه تلك الرواية ، لأن تصرفات المأمون العاسي تجعلها هزواً وثمن بصدقها من جهة ، ولأن قرأنا شبهاتها من جهة أخرى ، فقد قيل . إن إبراهيم بن المهدي تازع وآب بختيشوع الطيب ، بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقار ساحية السواد . فأرى عليه إراهم وأعطى ، فأحفظ ذلك آس إبراهيم دؤاد ، فقال : يا إبراهيم إذا مازعت في مجلس الحكم محصرتنا امرأ فلا أعلم أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمماً وريحك ساكنة ، وكلامك

معتدلاً، ووفّ مجالس الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير ؛ والاستكانة والتوجه الى الواجب ، فان ذلك أشكلُ لك وأشمل لمذهبك في محنتك وعظيم خطره ، ولا تسجلن فربَّ عَجَلَةٍ تَهْتَبُ رِيثًا ، والله يصيبك من خطل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليك كما أتمها على أُمويك من قبل إن ربك حكيم عليم ، فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرت بسداد وحصصت على رشاد ، ولست عائدا لما ينلم مروءتي عندك وتُسقطني من عينك ويُخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار ، فهذا معتذر اليك من هذه البادرة اعتذاراً مقررٌ بذنبه معترفٌ بخبره ، ولا يزال العصب يستعرق بمواده فيردني مثلك بجله وتلك عادة الله عندك وعدنا منك ، وقد جعلتُ حقِّي من هذا المقار لأبى بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأرشي الجاهية عليه ، ولم يتف مألُ أُماد موعظه ، وحسبنا الله ومع الوكيل !

فترى مما قد ساء لك مبلغ سلطان القضاء وحرمة عد البيت المسالك .

وقد يكون أحمل من هذا كله - فيما لو صح - ذلك الموقف الروائي الذي تخدمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم أبه العاس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسعه إلا أن يمدّها بالإصاف بأبيات رقيقة على الوزن والقافية، وكانت تلك الأبيات في خفتها وجوده الخاطر بها في ساعتها رداً وسلاماً على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الثباني : جلس المأمون يوماً للظالم ، فكان آخر من تقدم اليه ، وقد هم بالقيام ، امرأة عليها هيئة السمر ، وعليها ثياب رثة ، موقفت بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أُنْثَم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك ، فقالت :

يا حيرَ متصنِفٍ يُهْدِي له الرُّشْدُ * ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو اليك عَمِيدُ القُومِ أَرْمَلُهُ * مدا عليها فلم يُترك لها سَبْدُ
وَأَبْتَرُ مَنَى زَيْبَاعِي بَدْءُ مَتْعَتِهَا * ظَلَمًا وَفُوقَ مَنَى الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ

فاطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دونه ما قلت زال الصبرُ والجلدُ * عني وأقرح مني القلبُ والعكبدُ
هذا أذنُ صلاةِ المعصر فانصرف * وأخضري الخصرَ في اليوم الذي أعُدُ
والمجلسُ السهتُ إن يُقصَ الخلوسُ لنا * تُنصفك منه والا المجلسُ الأحدُ

فلما كان اليومُ الأحدُ جلس ، فكان أولُ من تقدم اليه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : وطيبك السلام ، أين الخصر ؟ قالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومات الى العباس ابنة ، فقال لأحمد بن أبي طالب : حذ بيده فأحلبه معها مجلس الخصر ، بفعل كلامها يملؤ كلام العباس ، فقال لها أحمد ابن أبي طالب : يا أمة الله ، إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فأخفي من صوتك ، فقال المأمون : دعه يا أحمد ، فإن الحق أطلقها وأخرسه ! ثم قصى لها برد صبيعتها إليها ، وطمع العباس نطمه لها ، وأمر بالكتاب لها الى العامل ببلدها ، أن يوقرها صبيعتها ويحسن معاومتها وأمر لها بعقبة .

ومد فان المؤرخ المصنف ، لجدر به أن يقف أمام هذه المثل العليا وقفة احترام واحلال ، وعطيه واعتبار ، وأن يرعب رعبه صادقه في إدائه هذه المثل ونشرها ، والعمل على تداولها ودكرها ، لأنها قدوة صالحة لحمة التبحان ، في انصاف زميلهم الانسان . وإن قدس العدالة لواجب احترامه ، وأحق الناس باحترامه هم الولاء وحملة التبحان ، وإن في شعور الرعية وعامة الناس منهم وحكامهم سواسية ، لمدعاة للرصا والاعتباط ، والإيمان في خدمة الأوطان ، والذت بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .



(ز) عفوہ :

كان المأمون مصُرب المثل في العفو ، حتى لقد كان يَحْشَى أن لا يُؤَجِر عليه ، اذ صار فطره فيه ، وأظرف أنواع عفوہ تماضيه عما كان يحدث في قصره .

قالت سُكْرُ مَوْلَاةٍ أُمِّ جَعْفَرٍ بنت جَعْفَرِ بْنِ الْمَصُورِ، سمعت المأمون أُمَرَ الْمُؤْمِنِينَ :
 وَكَانَ عِنْدَهُ أُمُّ جَعْفَرٍ، فَعَدَا بِمَقَارِضٍ^(١)، فَقَالَ الْغَلَامُ : قَدْ دُهِبَ بِالْمَقَارِضِ إِلَى الشَّامِ، ثُمَّ
 قَالَ يَا غَلَامُ : كُلُّ لَنَا خَلِيشٌ قَوِيٌّ، فَقَالَ الْغَلَامُ : لَا، قَالَ : يُسَلِّ، فَقَالَتْ أُمُّ جَعْفَرٍ : سَحَابُ اللَّهِ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !، مَا هَذَا ! وَأَنْكَرْتُ أَنْ يَكُونَ سَأَلَ عَنْ شَيْئَيْنِ فَلَمْ يَعْمَلَا، فَقَالَ الْمَأْمُونُ :
 « هُنَّ قَدَرْتُ عَلَى عَقُوبَتِهِ ، لَسَوْهُ فَعَلَهُ ، وَهَبِجْ جُرْمَهُ ، فَقَدَرْتُكَ عَلَيْهِ كَأَفَيْتُكَ نَصْرًا لَكَ مِنْهُ ،
 وَلَا مَعِيَ لِعُقُوبَةٍ عِنْدَ قَدَرِهِ ، الْحَلْمُ عَنِ الذَّنْبِ أَلْحَمُّ مِنَ الْأَحَدِ بِهِ .

وهو هنا يطلِّ العفو تعليلًا مقبولًا حديرًا أَنْ يَكُونَ دَرَسًا فِي الْأَخْلَاقِ .

ثم انظر ملغ عهده وحلمه وسماحه به، فيما يرويه أبو الفصّل أحمد بن أبي طاهر
 طيفور في كتابه، قال : « كَانَ لِلْمَأْمُونِ خَادِمٌ تَوَلَّى وَصُودَهُ، فَكَانَ يَسْرِى طِبَاسَهُ، فَلَمَّ
 ذَلِكَ الْمَأْمُونُ بِمَا سَهَ . ثُمَّ قَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُوَ يَوْصُهُ . وَيَتَحَكَّمُ ! لِمَ تَسْرِى هَذِهِ الطِّبَاسَ،
 أَوْ كُنْتَ إِذَا سَرَقَهَا أَسْتَنِي بِهَا اشْتَرَيْتُهَا مِنْكَ، قَالَ : فَأَشْتَرِ هَذَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، قَالَ : بِكَمْ؟
 قَالَ بِدِيَارَيْنِ، قَالَ الْمَأْمُونُ : أَعْطُوهُ دِيَارَيْنِ، قَالَ . هَذَا الْآنَ إِلَى الْإِمَامِ .

ومهما يكنُ على هذه الرواية من مَسْحَةِ الْمُبَالَغَةِ، أَوْ أَنَّهَا أَقْصُوصَةٌ أَكْثَرُ مِنْهَا حَقِيقَةٌ،
 فَإِنَّ طَبِيعَةَ الْمَأْمُونِ وَصَبِيحَتَهُ، وَجُودَهُ إِلَى الْعَمَلِ، وَأَحَدَهُ بِالْحَلْمِ، لِمَا يُؤَدُّ لِنَاسِهَا وَعُصَاوِنَهَا،
 وَيَقَرُّرُ حَوَاسِرَهَا وَحُلَاصَتَهَا، وَلَمَّا يَصْدُقُ فِيهِ قَوْلُ مَنْ قَالَ لَهُ .

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَصَوْتُ حَتَّى * كَأَنَّ النَّاسَ لَيْسَ لَهُمْ دُبُوتٌ

أَمَّا حَدِيثُ حَلْمِهِ مَعَ عَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَدِّيِّ فَمَتَعَارِفٌ مَشْهُورٌ، وَمُذَاعٌ مَذْكُورٌ، فَقَدْ
 أَبِي إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَبَايَعَهُ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الرَّيِّ، وَادَّعَى فِيهَا الْخِلَافَةَ لِنَفْسِهِ، وَأَقَامَ مَالِكَهَا سَهْ
 وَأَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَائِثِي عَشَرَ يَوْمًا، وَالْمَأْمُونُ بَتَوَقُّعٍ مِنْهُ الْإِقْتِيَادَ إِلَى الطَّاعَةِ، وَالْإِنْتَظَامِ

(١) جمع مقراض وهو ما ينطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالقميص .

(٢) العادة كانت حارية في البراق أو يوصع الحشيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس
 واقعًا عليه دون السقف وهكذا كانت تعمل ملوك فارس . فلي كان رسل المأمون يحمل بطانة للسيف استعمل بها
 عن الحشيش وطه وهي ما سببه (ببدائل) وفي بعض النسخ اللاديسى المأمون .

فى سلك الجماعة ، حتى ينس من عَوْدِهِ ، فركب بِحَيْلِهِ وَرَجَلَهُ ، وَهَبَ إِلَى الرِّىِّ وَحَاصِرِ
الْمَدِينَةِ وَافْتَتَحَهَا ، فَهَرَبَ إِبْرَاهِيمُ وَتَكَرَّمُ أَحَدٌ مَعْدُ لَأَيِّ ، وَقَدِمَ إِلَى الْمَأْمُونِ فِى زِيِّ امْرَأَةٍ .
فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخُلَافَةِ ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ : لَأَسَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا حَيَّاكَ وَلَا رَعَاكَ !
فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنْ وَلَّى الثَّأْرَ مَحْكَمٌ فِى الْقِصَاصِ ، وَلَكِنْ الْعَفْوُ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَى ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ الْاِغْتِرَارُ بِمَا مَدَّ لَهُ مِنْ أَسَابِ الشَّقَاءِ ، أَمَكَ عَادِيَّةَ الدَّهْرِ مِنْ نَفْسِهِ ،
وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ مَوْ كَلَّ ذِى ذَنْبٍ ، كَمَا جَعَلَ كُلَّ ذِى ذَنْبٍ دُونَكَ ، فَإِنْ أَحْدَثَ مُحَقِّقٌ ،
وَإِنْ عَفَوْتَ فَقَضَيْتَكَ ، ثُمَّ أَتَشُدُّ .

دَتَى الْبِكَ عَظِيمٌ * وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَقُذُ بِحَقِّكَ أَوَّلًا * فَاصْبِرْ بِمَصْلَحَتِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِى مَعَالِي * مِنَ الْكَرَامِ مِثْلَهُ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : شَاوَرْتُ أَمَّا إِسْحَاقَ وَالْعَاسَى فِى قَتْلِكَ ، فَأَشَارَا بِهِ ، فَقَالَ : مَا قُلْتَ لَهَا
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ . قُلْتَ لَهَا : بِيَدِهِ مَحْصَنٌ ، وَتَسْتَأْذِنُهُ بِهِ ، فَإِنْ عَيَّرَ فَاللهُ
يُفْشِرُ مَا بِهِ . قَالَ : أَنَا أَنْ يَكُونَا قَدْ نَصَحَا فِى عَظِيمٍ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ فَقَدْ فَعَلَا ، وَلَمَّا
مَا يُلْزِمُهُمَا ، وَهُوَ الرَّأْيُ السَّدِيدُ ، وَلَكِنَّكَ أَبَيْتَ أَنْ نَسْتَحْلِلَ الْمَصْرَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ عَوْدُكَ
إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَعْرَ مَا يَكُنَّا ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ : مَا يُنْكِيكَ ؟ قَالَ : حَدَلًا إِنْ كَانَ دِىُّ إِلَى مِنْ هَدَى
صَمْتِهِ فِى الْإِنْعَامِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ جَرْمِ اسْتِحْلَالِ دِمَى ، فَلَمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَفَضْلُهُ بَلْغَانِى عَمَّوْهُ ، وَلِىَ مَعْدُهُمَا شِمَاعَةُ الْاِقْرَارِ بِالذَّنْبِ ، وَحَقُّ الْأَبْوَةِ مَعْدُ الْأَبِ ،
فَقَالَ الْمَأْمُونُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَقَدْ حَسَبْتُ إِلَى الْعَفْوِ حَتَّى خِفْتُ الْآثُورَ عَلَيْهِ . أَمَّا لَوْ لَمْ
الْبَاسَ مَا لَنَا فِى الْعَفْوِ مِنَ اللَّهِ ، لَتَقَرَّبُوا إِلَيَّا بِالْحَيَاةِ ! لَا تَقْرِبُ^(١) عَلَيْكَ ، يَسُرُّ اللَّهَ لَكَ .
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِى حَقِّ سَبِّكَ ، مَا يَبْلُغُ الصَّحْحَ عَنْ جَرْمِكَ ، لَلَّغْتُكَ مَا أَتَمَّتْ حَسَنُ تَهْمُضِكَ
وَلَطْفُ تَوْصَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ رَدَّ صِبَاغِهِ وَأَمْوَالِهِ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ :

رددت ما لي ولم تجفل علي به * وقل رذك ما لي قد حقت دمي
 وقام ملكي بي فاحتج عدك لي * مقام شاهد عدل غير منهم
 ولو بذلت دمي أبني رساك به * والمال حتى أسل النمل من قدمي
 ما كان ذاك سوى غارية سلفت * لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

« وبعد » فقد ما يحتاج الولاء والقاده والزعماء، الى خلة العفو والاحسان، في حزم
 وحس مواناة، ليستلوا من القلوب عداوتها، وليستاصلوا من النفوس سحيمتها، وليضمنوا
 من الرعية والاتباع الاحلام المحصن والود الصحيح .



(ح) احتماله :

ومن الدلائل على صلاحية المأمون لما أعدته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذي
 لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خلق يراه البعض سماسحه ، وزاه من
 المأمون سياسته ، هي من الصميم في آداب الملوك ، وإبه ليحتمل ، حتى لتجسبه من الغافلين ،
 ولكن الرجل كان يعرف أن للملك مصاعب ومتاع ، أقلها مداراه الناس ، والتزول لهم
 من بعض ما يشتهون .

روى عنهم عن قثم بن جعفر أنه قال : قال المأمون في يوم الخميس ، وقد حضر
 الناس الدار لعل بن صالح ادع اسماعيل قال : فخرج ابن صالح ، فدخل اسماعيل بن جعفر ،
 وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما نصر به من سيد ، وكان أشد الناس له بصا ، رجع
 يديه ماذهما الى السماء ، ثم قال : اللهم أنديني من ابن صالح مطيعا فانه لصداقته لهذا أثر هواه
 على هواي ، قال : فلما دعا اسماعيل بن جعفر ، سلم ورد عليه ثم دعا قتل يده ، فقال : هات
 حوائجك ، قال : صيغتي بالمعينة ، غصبتُها وقهرتُ عليها ، قال : نأمر ردها عليك ، ثم قال :
 حاجتك ، قال : يادني أمير المؤمنين في الخ ، قال : قد أدنا لك ، ثم قال : حاجتك ، قال : وقف
 أبي أنحرج من يدي وصار الى قثم والقاسم أبني جعفر ، قال : فزبد ماذا ؟ قال : يرتد الى ، قال :

أما ما كان يُمكننا من أمرِك فقد حُدنا لك به، وأما وقفُ أبيك فذاك الى ورثته ومواليه، فان رَضُوا بك واليا عليهم وقتياً لم رَدَدْنَاهُ اليك، وإلا أقرناه في يد من هو في يده، ثم نخرج، فقال المأمون لعل بن صالح: مالي ولك عافاك الله، متى رأيتني كَسِطْتُ لاسماعيل بن جعفر وصُنيت به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة! قال: ذهب عن فكري ما أمير المؤمنين، قال: صدقت، لعمري ذهب عن فكرك ما كان يحب عليك حفظه، وحفظ فكرك ما كان يحب عليك ألا يخطر به، فاما اذْ أَخْطَأْتَ فلا تُعَلِّمِ اسماعيل ما دار بيني وبينك في أمره. فظن على أنه عنى بقوله هذا اسماعيل بن موسى، فاحبر اسماعيل بن جعفر القصة حراً حرّاً، فاذا عاها، وبلغ الخبر المأمون فقال: الحمد لله الذي وهب لي هذه الأخلاق، التي أصبحت أحتمل بها على بن صالح وابن عمران وابن الطوسي ومحمد بن عبد الحميد ومصور ابن النعمان ورعاش.

«وسعد» فالاختلال حلة محبة الى العوس، تدعو الى الوفاق والوفاق، وهي المملوك أولى واجدر لمكانهم من الرعامه والقيادة، ولتزلزلهم من الرياسة والسلطان. ولأنهم أحق الناس بكل محبة تجلبهم الى الناس، وتكون قدوة يرتسمها من عداهم من يتصرفون في شؤون البلاد ومستقبل البلاد.



(ط) بصوره بالأدب:

سترى فيما نعرض له، في القسم الأدبي، من آثار المأمون وكتابه، مبلغ تبريزه في الفنون الأدبية، وتملكه أعة البلاغة، وحسن تصريفه لكل آفانين الثقافة العربية، الى جانب حسن تصريفه، لشتى أمور ملكه.

والآن — وسبيلنا تحليل شخصية المأمون، نرى من الواجب لتوفية البحث حقّه من مختلف وجوهه، أن نشير الى كلفه بالأدب، مفترصين على كل حال، ما قد يكون بمثابة، من تشيع المغالين من الولاء له، وما قد يضاف اليه من الآثار.

ولكن ذلك كله، لى يؤثرى اللب والجوهر، وهو أب المأمون كان أدبياً، عالماً
بأفانيس القول ومباحيه، وليس ذلك ببعيد، على من نلنا على شيوخ الأدب العربى،
كسيويه واليريدى ويحيى بن المارك بن الميرة، الذى أحد العربية عن أمثال أبى عمرو
ابن العلاء واس أبى اسحاق الحصرى، وأحد اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذى
ألف كتاباً فى النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أجاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أتباً لإعادة .
قال عمار بن مقييل . أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت ، فاستدى بصدر البيت ،
فبادرنى الى قايته كما فقيته ، فقلت . والله يا أمير المؤمنين ، ما سمعها منى أحد قط ! فقال
هكذا يسى أن يكون ، ثم قال لى أما ملك أن عمرس أبى ربيعة أنشد عبد الله بن عباس
قصيدته التى يقول فيها « تَشَطُّ عَدَا دَارُ حِرَاسَا » فقال ابن عباس « ولأنا بعد غد أبعدُ »
حتى أنشدته القصيدة يقيمها ابن عباس ثم قال أما أبى دك . ورووا أن المأمون قال :
معتك مُرْتَادَا فمَرَّتْ سَطْرُهُ وَأَغْفَانِي حَتَّى اسَاتُكَ الطَّا
مَاجِيَتْ مِنْ أَهْوَى وَكُنْتُ مَاعِدَا . مَالَيْتُ شِعْرِي عَنْ دَوْلِكَ مَا أَغْنَى
أَرَى أَثَرَا مِنْهُ بَعِيدُكَ نَبَاً * أهد أحدث عيناك من عيه حسبا
ومهما قيل إن المأمون أحد هذا المعنى من العباس بن الأخف الذى يقول .
إِنْ تَشَقَّقْ عَيْنِي بِهَا فَقَدْ سَعِدْتُ . عِبُّ رَسُولِي وَمَرْتُ بِالْحَبْرِ
وَكُنَّا حَاءَ نِي الرِّسُولِ لَهَا * رَدَدْتُ عَهْدَا فِي عِيهِ نَظَرِي
حَد مَقْلَتِي يَا رَسُولَ عَارِيَّةٍ فَأَطْرَهَا وَأَحْتَكَمْتُ عَلَى نَصْرِي
فان شعر المأمون يدل فى حمله . على تدوقه الحسى ، بالشعر الحسى ، والخيال الحسى .
ثم لننظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السَّمُطِ وعمار بن مقييل ، فان
أولها يقول لعمار : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر ؟ فقال عمار : ومن يكون أعلم منه ؟
فوافقه إنا لنشده أول البيت يسبقنا الى آخره ، قال عبد الله : إني أنشدته بيتا أجدت
فيه فلم يتحرك له ، فقال عمار : وما هو ؟ قال :

أصحى إمام الهدى المأمونُ مشغلاً * بالدين والسُّ بالدينِ مَشاعِلاً
فقال عماره : والله ما صنعتَ شيئاً^١ هل ردتَ على أن حطته عخوراً في محرابها ، فإذا مَيَّ
الدى يقوم ناصر الدنيا إذا تنازل عنها ، وهو المَطْوَى بها * ألا قلتَ كما قال حتى جرير
في عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مصيغٌ نصيبه ولا عَرَضُ الدنا عن الدنا شاعله
فقال عبد الله : الآن علمتُ أَى قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفاً أتم وقوفاً وأكله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع
حسن نصر ، وأتم حدى ، وأدق فهم ، بذلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الصيرفي الشاعر قال :
قال لي عليّ بن حنّلة قلت لحبّيد بن عبد الحميد . يا أبا عاتم ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين
بمدح لا يُحس مثله أحد من أهل الأرض ، فأذكرني له ، فقال : أنشديه ، فأنشدته ، فقال :
أشهد أنك صادق ، فأحمد المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا عاتم ، الخواص في هذا واضح ،
إن شاء عفوا عنه ، وحلنا ذلك ثواباً لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دلف
القاسم بن عيسى ، فإن كان الذي قال فيك وفيه أجود من الذي مدحاً به ، صرنا ظهروه
وأطلقنا حبسه ، وإن كان الذي قال فيما أجود أعطيته بكل بيت من مديحه ألف درهم ،
وإن شاء ألقاه ، فقلت : يا سيدي ، ومن أبو دلف ومن أبا حتى يمدحنا بأجود من مديحك !
فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء ، فاعرض ذلك على الرجل . قال
علي بن جبلة : فقال لي حميد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحبّ إليّ ، فأحمر المأمون ، فقال :
هو أعلم ، قال حميد ، فقلت لعليّ بن جبلة : إلى أي شيء ذهب في مدحك أبا دلف
بوصي مدحك لي ؟ قال : إلى قولي في أبي دلف :

إنما الدنيا أبو دلف * بين مُسَداه ومُختَصِرَه

فإذا ولي أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

والى قولى فيك :

لولا حميد لم يكن * حسبت يحد ولا نسب

يا واحد العرب الذى * عزت بعزته العرب

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قرابة دُعبل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هما المأمون بقوله :

أيسؤنى المأمون خطبة عاجر * أو ما رأى بالأسر رأس محمد

يؤوى على هام الخلائف مثل ما * توفى الجبال على رموس القرد^(١)

ويجمل أى أخاف كل ممع * حتى يدل شافعا لم يصعد

إن الثرات مسهد طلابها * فاكفف لعاك عن لعاب الأسود

فلم يتقدم المأمون بإبداء دعبل، وكل ما فعل أن قال: هو يهجو أبا عبّاد، ولا يهجونى . يريد حدة أبى عبّاد .

وكان بصيرا بأحار العرب ، واقفا على تاريخ محايدهم وعطارهم . فقد ذكر حمّاره ابن حَقِيل قال : « قال لى المأمون يوما ، وأنا أشرب عسده ، ما أحبك يا أعراى » ، قال قلت : وماذا يا أمير المؤمنين ، وهمنى نفسى ، قال كيف قلت :

قالت مُقَدَّة لما أن رأت أرقى * والهـم يعنـاه من طبعه لم

نَهت مالك فى الأدنين أصرة * وفى الأبعاد حتى حَفَكَ المدم

فاطـل بهم ترى ما كنت من حسـ * تُسدى إليهم فقد بات لهم صرم^(٢)

فقلتَ عَذْلِك قد أكثرتِ لائتى * ولم يمت حاتمُ هزل ولا هيرم

فقال لى المأمون : أين رميتَ بمسك الى هيرم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائي . فعلا كذا وفعل كذا وأقبل يتنأل^(٣) على فضلها ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين : أنا خير منهما ، أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القرد : ما ارتفع وعطش من الأرض . (٢) المرم : جمع صرة وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثي .

(٣) يتنأل محاسنها ويدكرها .

ثم انظر بلاعته ومثانة عبارته ، في مشافهاته ومبادعاته . فقد روى ابراهيم بن عيسى قال : لما أراد المأمون الشحوص الى دمشق هيأت له كلاما ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلت بين يديه ، قلت : اطلال الله لقاء أمير المؤمنين في أدموم العز وأسنخ الكرامة ، وحطلي من كل سوء فداء ، إنا من أمسي وأصبح يتعزف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسي تأنيسه له ، حقيق بأن يستديم هذه النعمة ، ويلتمس الزيادة فيها ، شكر الله . وشكر أمير المؤمنين — مد الله في عمره — عليها . وقد أحب أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله ، أني لا أرغب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشئ من الخلفيض والدعة ، إذ كان هو أيده الله ، يتجشم خشونة السفر ، وتعب الطعن ، وأولى الناس بمواساته في ذلك ، وبذل نفسه فيه أنا ، لما عرفني الله من رأيه ، وجعل عسدى من طاعته ، ومعه ما أوح الله من حقه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى لمزوم خدمته ، والكيثونة معه هل . فقال لى المأمون مسدنا من عبر زروية : لم يعرف أمير المؤمنين في ذلك على شئ . وإن استصحب أحدا من أهل بيتك ، بدأ بك وكنت المقدم عنه في ذلك ، ولا سما إدا أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه ، وإن ترك ذلك من غير قتل لمكالك ، ولكني بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداءه أكثر من ترويحى .

قال أوالعناحية : وحه الى المأمون يوما ، فصرت اليه ، فالتفته مطروفا مفكرا ، فاجمعت عن الدتومة في تلك الحال ، فرمى رأسه ، فظفر الى ، وأشار سده أن أدن ، فدنوت . ثم أطرق مليا ، ورفع رأسه ، فقال : يا أبا اصحاق . شأن النفس الملل ، وحب الاستطراف ، تانس الوحدة كما تانس بالأنفة . قلت : أحل يا أمير المؤمنين . ولى في هذا بيت قال : ما هو ؟ قلت .

لا يصليح النفس إدا كانت مدبره . إلا التتلى من حال الى حال

ثم انظر الى ملافة المأمون ، التي كانت سليقة فقه ، وإد رلت بساحته الموموم والفوادح ، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب مائة له ، كان يجتد طيبا وجبدا شديدا . فجلس وأمر أن

يؤد لمن بالباب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك مزمزين، ولكن أننا لك مقبدين . ثم قال : يا أمير المؤمنين، إن لسانى يطلق مدحك عائدا . وأحت أن تريد عك حاصرا . أتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فإني أقول فتحنس، وتنهذ فترس، وتعب فتؤتى، فقال العباس له، وصدق فيما يقول : يا أمير المؤمنين ما أقول بعد هذا ! لقد بلغت من مدحى ما لا أعلمه من مدحك .

وانظر الى حلاوته في بلاعته، ودرأته في طلاوته، ومناشئته في عارته، حين يصيح لاسه العباس فقال له : مدحى يا حى من أشع الله عليه بعمه، وشبركه في ملكه وسلطانه، وسط له في القدره، أن يباس في الخبر، بما يبق ذكره، ويحب أحوه، ويرضى نوانه . وأن يحصل همته في عدل يشره، أو حور يذوقه، وسبه صالحه بجيبها أو بدعه يميها . أو مكرمة يعتمدها، أو صدعه تسديها، أو يد يودعها ويوليها، أو أثر محمود يتبعه .

ويقول لنا الملاحظ في الباب والتبليس . كان سهل بن هارون شديد الإطباب في وصف المأمون، باللاع والجاهد، وبالخلاوة والعمامة، ووجوده للهيبة والطلاوة . ويقول ثمانية من أشهر النحويين ما رأيت رجلا أبلغ من حمير بن يحيى والمأمون . وإن فيما ذكره آس الخورى والعالمى وغيرهما في طرب المأمون للطرف واللغة، لما يثبت بصره بالأدب وحذقه للغة، وعمكه في النحو . وإنا نحتم كتمان هذه مما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكرم فلما في السكك بلاعة وذقه معنى وحلاوة أسلوب وسهولة محاسن وحسن تدبير وبصوح ذروة، ولا بقولها إلا من كان الى جانب ما وصفاه حمال أعاء، نهائيا برلاء، قصيا مرمى همته، ربما مآط عرسته، وهى مع كل ذلك من عفو الخلاطر، وتناج المدينة .

قال : « اعتبروا وعلوا الهمة من ترون من وزرائى وحاصنى، اسم والله ما تلفوا مراتهم عدى إلا بأسمهم . إنه من تع مكم صغار الأمور، سمع النصيبر والتعديبر وكان

قليل ما يفتقد من كارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار ، فترفعوا عن داءة الهمة ،
وتفزعوا لحلائل الأمور والندى ، واستكفوا التفات ، وكونوا مثل كرام السباع التي
لا تستغل بصغار الطير والوحش بل يحلبها ويكأها . واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم ،
إن فائدكم لا يقدمكم ولا يعي الولي عكم شيئا ما لم يعطوه حقه . وأشدّه

نحن الذين اذا تحمط غصبة من معشر كالم أنكالا
ونرى القروم محالة لقروما قل اللقاء تحطّر الأتوالا
ريد المسبة لا نحاف ورودها بحب الصاحبه والعيون تالالا
نعلى الحر بل فلا تم عطاء قل السؤال وبحل الإنقالا
وإذا اللاد على الأمام ترللت كما لرلة السلالا

« وبعد » شد ما يروى الرعيه تبرزولاتها في البلاعه والبيان ، وشد ما يتلج الأئدة
ويقر العيوب تملكهم لأعه القول ، واطلاهم على العرر والمّلع وتسحيمهم لدوى
الاحسان .

وجيل حدا أن تشر الكهايات ، وأن تفقد الولاء من كلمة المأمون . « إن وزرائي
واقفه ما ملفوا مراتهم عدى إلا بأصهم » سه يرسموها ، وقاعده يتعنونها ، وحكة
مديعوها لترفع العوس وسمو الرعاب وليال الاحسان أهل الاحسان .

(ى) علم المأمون :

كان المأمون وافر العلم ، عرير الاطلاع وليس ذلك بعزير على حايقة ملأ عصره
أنواع المعارف الانسانية ، وضح فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يسمه
بسميته ، وأن يرجع فضل الحصاره العباسية اليه .

ولكن المأمون في علمه وثقافته لم يقف عند حدّ الثقافه الذاتية ، وإنما وجه حرصه
الى أن يشرى نفوس أصحابه كوامن الرعة الى التعمق في الدرس ، والشوق الى إدراك
حقائق الأشياء ، وكانت له في ذلك طريقة معروفة ، هي توجيه السمر والحديث الى فنون

العلم، وصرّوب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المائدة فتفتح جلسائه أنواراً من القول ما كانت تعطر لهم سال .

قال جعفر بن محمد الأنماطى . إن المأمون لما دخل بغداد، وقرّبها قراره، وأمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة، يختارهم لمجالسته ومحدثه، وكان يقعد في صدر بهاره على لُؤْدِي الشتاء وتلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد لأطالم في كل جمعة مائة، لا يمنع منه أحد، قال : واحتير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، فما زال يختارهم، طرفة بعد طرفة، حتى حصل منهم عشرة، كان أحمد بن أبي دُوَادٍ أحدهم، وبُشَيْرُ المَرْبُوعِي . قال جعفر بن محمد الأنماطى : وكنتُ أحدهم، قال فتعدّياً يوماً عنده، فطست أنه وضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلنا وضع لون، نظر المأمون إليه، فقال هذا يصلح لكذا، وهذا باع لكذا، من كان معكم صاحب بلم ورطوبه، فليحتب هذا، ومن كان صاحب صقراء فليأكل من هذا، ومن علبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحبّ الزيادة في لجه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة العداء فليقتصر على هذا، قال : فو الله إن زالت تلك حاله في كل لون يقدم، حتى رُصِيت الموائد . قال فقال له يحيى بن أكرم : يا أمير المؤمنين، إن خضاً في الطب كنت حاليوس في معرفته، أو في الهجوم كنت ممرّس في حسابه، أو الفقه كنت على بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه، أو ذكرنا السجاء فأنت فوق حاتم في جوده، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أما تَزِي في صدق طبعه، أو الكرم كنت كعب بن مامة في إثارة على نفسه، قال : فسرّ بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الإنسان إنما قُصِّل على غيره من الهوائم عمله وعقله وتغييره، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم . وامت اذا قلت : إن يحيى بن أكرم، قد بالغ في تحليل المأمون، وعلا في صفته، فأنا معك في ذلك، ولكني ألاحظ أن هذا الغلو لا يخلو من آثاره من حق وصدق .

ولتنظر ممي نظرة مُستقيص لاطلاع المأمون ، وتدقق المعاني اليه ، ومواتاة الأفكار له حياء ارتدت رجل من أهل حراسان ، وأمر المأمون بجملة الى مديسه السلام ، فلما أُدخل عليه أقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أخرى . ما الذي أوحشك مما كنت به آنسا من دينا ، والله لألأ أستحيك بحق أحب الى من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وَّحدت عندنا دواء دائم ، تعالجت به اد كان المريض يحتاج الى مُشاورة الأطباء . فان أخطأك الشفاء وبسا عى دائك الدواء ، كنت قد أعدرت ولم رجع على نفسك ملائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت وى نفسك الى الاستنصار والثقة ، وتعلم أنك لم تُقصر وى احتداد ، ولم تدع الأحد بالحرم » . فقال المرتد : « أوحشى ما رأيت من كثرة الاختلاف وى دينكم » فقال المأمون : « فإن لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف وى الأدان وتكبير الحماثر ، والاختلاف وى التشهد وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وحوه الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تحيير وتوسعة وتخفيف من المحم ، من أذن متى وأقام مُرادى لم يؤثم من أذن متى وأقام متى ، لايتعايرون ولا يتعايسون ، أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليه باننا ، والاختلاف الآخر كبحو الاختلاف وى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبيا صلى الله عليه وسلم ، مع إجماعنا على أصل التبريل واتفاقنا على عين الحمر ، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكزت كتابنا ، فقد يدعى أن يكون اللفظ بجميع ما وى التواره والإنجيل متعقا على تأويله ، كالاتفاق على تبريله ، ولا يكون بين المسلمين من اليهود والنصارى اختلاف وى نبي ، من التأويلات ، وينبى لك ألا ترجع إلا الى لغة لا اختلاف وى ألفاظها ، ولو شاء الله أن يزل كُتبه ويحعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا محتاح الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئا من الذين والدنا دُفع البيا على الكفاية ، واو كان الأمر كذلك اسقطت التلوى والمحمه ، ودعبت المسابقة

والمناصفة ولم يكن تعاضل ، وليس على هذا سوى الله حل وعز الدنيا» فقال المرتد : «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقاً» قال : فانحرف المأمون نحو الصلة فخر ساجداً ، ثم أقبل على أصحابه فقال : «وقروا عليه عرشه ، ولا ترووه في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوه إنه سلم رعة ، ولا ناسوا نصيبكم من ربه وبصرته وتأنسه والعائده عليه» .

وهذا المحي الذي نحاه المأمون ، في إصناع ذلك المرتد يدل على ناحيتين من واحة تكبيره :

الأولى : نصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وبديقه في فهم أنواع الخلاف بين المساميين ، ويكاد هذا التقسيم يقضى على كل شبهة ، عدم من يربهم هذا النزاع الذي طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية : تعمقه في درس المعانيات ، وأساقصاء حلحات القلب ، وهنسات الصمير ، وذلك ظاهراً في صحاحته لحياه الرجل الروحية ، وتأمله لما ألفتته نفسه وسكنى إليه وجدانه قبل إسلامه ، فقد بى على هذه الساقط طريقه التآف والتسامح التي قصى بها على مأمئى به الرجل من الكفر بعد الإيمان .

« وسعد » فان المأمون في علمه وعرفانه أهل للاحتذاء والارتسام من أقرانه ، فبين بالتقتل به والافتقاء من أصدقائه ، ليكون ردهانهم عثره في جبين الدهر كزمانه ، وليكون نصيبهم نصيبه في مهاتمه ورفعة شأنه ، ورسوخ عرشه وقوة بنيانه .



(ك) احترامه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانةً لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يتسخط في ذلك ، فيعاقب على هفوة مرتب عليها عشرات السنين ، وسقط طليك حادثه ، هي دلالة على هذا الإسراف ، وهي أيضاً عنوان على ذوقه في نقد

الشعر، وإما لنرتج أن للظرف الذي وقعت فيه هذه الحادثة تعليلاً آخرح فيها ،
فلولا مجلس الماء ولعبة الماء، لما عُزِلَ قاضٍ لحقوه لفظية، طال على عهدها الزمان،
واليك الحديث .

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال . كما قدام
أمير المؤمنين المأمون بدمشق، فغنى علوياً :

رَبِّتُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ . أَتَاكَ مِنَ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا
وَلَكِنَّمْ لَمْ رَأَوْكَ سَرِيعَةً * إِلَى تَوَاصَوْا بِالنِّيمَةِ وَأَحْتَالُوا

فقال : يا علوياً، لمن هذا الشعر؟ فقال : للقاضي، قال : أي قاضٍ ويحك؟ قال : قاضٍ
دمشق . فقال . يا أماه، اعزله، اعزله، قال قد عزَّزْتُهُ . قال فيحضر الساعة ،
قال : فاحصر شيع محصوبٌ قصيرٌ، فقال له المأمون مَن تكون؟ قال : فلان بن
فلان الفلاني . قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنتُ أقوله، فقال . يا علوياً، أنشد الشعر
فأنشده، فقال . هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، وسأؤه طوائى وكل ما يملك
في سبيل الله، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا في رُعد، أو معاتبه صديق، فقال :
يا أماه، اعزله، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ في هَرْبِهِ بالبراءة من الإسلام
ثم قال . يا علوياً، لا تغفل ربَّت من الإسلام، ولكن قل .

حُرِّمْتُ سَائِىَ مِثْلِكَ إِنْ كَانَ ذَلِكَ . أَتَاكَ مِنَ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا

وهذا الموقف من المأمون شيء كل السه عوقصه مع يحيى بن أكثم وريده وقاصيه،
حيث قال له المأمون : «لا أترك قاصياً شرب البید» .

ثم لسنظر ما يروى عن سعيد بن زياد أحد المعاصرين، فانه يذكرك على تقدس المأمون
لآثار النبي واحترامه لها، وتتمه بها، مع ورع وحشوع، فقد قبل . انه لما دخل المأمون
دمشق قال له : «أرني الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم، فأراه سعيد إمها،
فقال له : «إني لأشتهى أن أدري أى شيء هذا العشاء على هذا الخاتم» فقال له أبو اسحاق :

حُلُّ المُقَدِّدِ حَتَّى تَرَى مَا هُوَ فَقَالَ المأمون : مَا أَشْكُ أَنْ الْبَيْتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَدَ هَذَا التَّقْدِ ، وَمَا كُنْتُ لِأَحْلَ عَقْدًا عَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ لِلوَاتِقِ : حَذِّهِ فَضَعَهُ عَلَى صَدْرِكَ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيكَ ، وَجَعَلَ المأمون يَصْعَهُ عَلَى عَيْنِهِ وَيَبْكِي .

عَلَى أَنَا نَرَى مِنَ الْوَفَاءِ لِلتَّقْدِ الْعَلَمِيِّ أَنْ يَحِلَّ الْقَارِئُ هَذَا إِلَى كَلِمَتِنَا عَنْ سِيَاسَةِ المأمون ، وَإِلَى مَدْعَاهِ الدِّينِيِّ وَالْإِعْتِرَالِ ، كَمَا يَحِلُّهُ إِلَى مَبْحَثِنَا فِي الْحَيَاةِ الْعَالَمِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ فِي عَصْرِهِ ، وَنَقُولُ أَنَّهُ سَيَلَّحَظَ مَعَا أَنْ هَذِهِ السَّدَاحَةُ الطَّيِّبَةُ ، وَدَلَّكَ الْإِيمَانُ الْحَمِيلُ فِي تَقْدِيرِ المأمون لِلْأَنْتَارِ الْبُيُوتِ لَا تَتَقَى فِي حَقِيقَتِهِ حَوْهَرَهَا مَعَ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُؤَرِّحُونَ فِي سِيَاسَتِهِ ، وَلَا مَعَ اعْتِرَالِهِ أَوْ تَوَقُّعِهِ مِمَّا تَرَكَ الْفَلَاسِفَةُ الْأَوَّلُونَ . وَلَا مَعَ مَا أَحَدَهُ المأمون مَعَ مَعَاصِرِهِ مِنَ الْأَوَانِ التَّقْدِ فِي شُؤُونِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ .

وَالْمَأْمُونُ عَدَّ مَعَهُ هَذِهِ الزَّوَايَا بَيْنَ اثْنَتَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قُوَى الْعَاطِفَةِ الدِّينِيَّةِ ، رَقِيقِ الْحَسَنِ ، يَجْمَعُ لِوَحْدَانِهِ وَإِيمَانِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَخْوَالِ رَحْلُ سِيَاسَةٍ وَدَهَائِ ، يَحْتَسِبُ أَلْفَ حَسَابٍ لِمَوَاطِفِ الْحَمَاهِيرِ وَيَحْتَرِّمُ مُيُولَ الْجَمَاعَاتِ الدِّينِيَّةِ .

« وَبَعْدَ » فَالَّذِينَ لِلدِّيَانِ حَلَّ حَلَالِهِ ، وَأَنْتِمْ مَالُؤَلَاءِ الَّذِينَ يَحْتَرِّمُونَ مَا لِلْمُحَادَثَاتِ مِنَ آرَاءٍ وَمَعْتَقَدَاتٍ وَدِيَانَاتٍ .



(ل) سِيَاسَتُهُ :

وَلَقَدْ كَانَ المأمون سِيَاسِيًّا فِدَاً ، وَلَيْسَ أَدْلَى عَلَى « دِيْبُولِمَاطِيْقِيَّتِهِ » ، مِنْ خُطَّتِهِ الَّتِي لَا يَحْدُهَا فِي عَصْرِهِ مَا هُوَ أَحْكَمُ مِنْهَا وَلَا أَسَدُّ ، مَعَ رُكُونِهِ إِلَى مُشَاوَرَةِ شَيْبَتِهِ وَأَنْصَارِهِ إِذَا حَرَّبَهُ أَمْرٌ . وَلَا أَدْلَى عَلَى كِبَاسَتِهِ وَكَبِيرِ مَهَارَتِهِ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ مَعَ سَعْرَاءِ أَخِيهِ الْأَمِينِ مِمَّا وَقَفْتُكَ عَلَى طَرَفِ مَعَهُ ، فِي فِصْلِ التَّرَاجُعِ بَيْنَ الْأَخْوِيَيْنِ .

(١) يَقُولُ الْأَسَاتِذُ الشَّيْخُ عَدُّ الْوَهَابِ الْحَارِ : « الْإِعْتِرَالُ مَذْهَبٌ مِنْ مَذَاهِبِ التَّوْحِيدِ أَرَادَ الْقَائِمُونَ بِهِ تَبَرُّهُنَّ اللَّهُ عَنْ الْأَشْيَاءِ مَعَا أَنْ يَكُونَ لَهُ صِفَاتٌ لِمِثْلِ سَلْبِ الْقَدَمَاءِ ، ثُمَّ انْتَقَلُوا إِلَى الْأَصَالِ مَعَا أَنْ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ عَلَى الشَّرِّ فَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ مَرَّةً مِنَ الشَّرِّ وَإِنْ الْإِنْسَانُ يَخْلُقُ أَصَالًا مَعَهُ الْإِحْيَايَةُ قُدْرَةُ أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِيهِ الْخَلْقَ مَا قَالُوا . وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ الْمَأْمُونِ لِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . »

وكان سياسياً فذاً ، في تزوجه من بُورَان بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسي ، وفي تزويجه علي بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن علي بن موسى ابنته أم العصل ليكتسب الحزب العلوي ، راما بذلك كله اني صمان تأييد الأحراب له ، عارفاً لفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسياً فذاً ، مصيباً ثبات الصواب في قوله لأحمد بن أبي دؤاد عن أهل بغداد : « الناس على طمقات ثلاث في هذه المدينة ، طالم ، ومطلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع ألا عمّوا وإمساكاً ، وأما المطلوم فليس يتوقع أن يُنصف إلا بنياً ، ومن كان لا طالم ولا مطلوماً فيته بئسه » .

وكان سياسياً فذاً ، في إداراته عمّاله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرفه مع إبراهيم بن السدي صاحب الأخبار ، وقد رَفَعَ إليه حراً عن حادثة عصر ، فكذّبه جداً بالله بن طاهر ، فعفّ المأمون السديّ آلم التعفّف ، أمام ابن طاهر ثم سث إليه ، وقال له : « إني أمر وأداري عمّال وعمالهم ، مداراة الخائف ، والله ما أحد الى حملهم على المحّة البيضاء سيلاً ، فاعمل لي على حسب ما نراي أعمل ، وإن لم تسلم لك أيامك ، ويَقْصُ ديتك » .

وكان سياسياً فذاً . حينما رَفَعَ اليه صاحب خبره « إنا أصبها يا أمير المؤمنين رِقاقاً ، فيها كلامُ السهفاء والسفلة ، وفيها تهديدٌ ووعيد ، وصعبها عندما محموط ، الى أنت يا أمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بحظه : « هذا أمر إن أ كبراه كثر عمامه ، واتسع طيباً نحره ، فمر أصحاب أخبارك ، متى وحدوا من هذه الرِقاق رُقعة أن يُزقوها ، قبل أن ينطروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يَرُها أثرولا عين » ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعلّأ سطر بطره تحليليه قصيره ، فيما برويه لما زبد بن علي بن الحسين ، قال : « لما كان في العيد ، بعد قدوم المأمون سه أربع ومائتين والمأمون يتغدى ، وحل مائتته طاهر بن الحسين وسعيد بن سَلَم ومُحمّد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقوطة ، ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجلسه . اذ أنهملت عينا المأمون بالدموع ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال ، حتى اذا كَفَّ ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين، وهل تُسبغ طعاما أو شرابا وسدنا هذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكرهه هَمَمْتُ به أحد، ولكنه حسن من أحاسن الشكر لله اعظمته ، ودكر بعنته التي أتمها علّ، كما أتمها على آتوي من قبلي، أما تزور ذلك الدى فى حصن الدار، يعنى الفصل ر الربيع - قال وكانت الستور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم ، وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس - وكان فى أيام الرشيد وحالُه حاله يراى بوجهه أعرف منه المصاء والشآب ، وكان له عسدى كالدى لى عده، ولكنى كنت أداريه حوا من يسعاه وحدرا من أكاديه، فكنت اذا سألته عليه، فردّ على أطلّ لذلك فريحا، وبه متبها، وكان صغوه الى الخلوغ، فعمله على أن أعراه فى، ودعاه الى قتل، وحزك الآخر ما يحزك القراءة والرحم المسألة، فقال : أما القتل فلا أقتله، ولكنى أحمله بحيث اذا قال لم يُطع، وادادعا لم يُحب، فكان أحسن حالا فى عده، أن وحه مع على بن عيسى قيد قصبة، بعد ما تنازعا فى المصبة والحديد ليقيدى به، وذهب عنه قول الله حل وعز : ﴿لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ عَلَى النَّاسِ مَوْجِبًا لِّأَعْيُنِهِمْ فَاصْبِرْ إِنَّ عَذَابَ النَّاسِ شَدِيدٌ﴾ فذلك موضعه من الدار ما خسن مجالسها، وأدى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسى، وكان بالأهمل من يعف على هذا المبر، الذى بلزائى مرة، وعلى المبر الغربى أخرى، فيزعم أوى المأمون ولست بالمأمون، ثم هو الساعة يقتطنى تقربطه المسيح ومحمد عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين : يا سيدنا، فما صدنا فيما وقد أباحك الله إراقة دمائنا، فحسنتهما بالمعروف والحلم ! قال . فعلت ذلك لموضع المعوم من الله . ثم قال المأمون : مُدُوا أيديكم الى طعامكم، فأكلوا وأكلوا .

ألا يسوع لنا أن نستسط مما قدمناه لك أن المأمون كاتب سياسيا ذهنا، حادقا فى تصرفه مع الفصل * ألم يكن للفصل مكانة عند الرشيد، وفقد بعيد المدى فى الدولة ؟ ألا يجوز أن سعادته بالمأمون وأكاديه عليه، إن لم يداره، تحد أدانا مُصعبية . وأنها قد منحز عليه من الشرور ما ليس فى حاجة اليه ؟

ألم يكن خير سبيل لاتقاء شائته أن يداريه، عملا بقول أبى الدرداء «إنا لننبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم» ؟

فهل ترى سياسة أحكم ، ونصرا بالأمور أتم ، من تصرف المأمون ومداراه ، ثم انظر ما كان من مداراه للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لوليّ عهده على بن موسى الرضا ، ومداراه لطاهر بن الحسب قاتل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأيبية ، تؤمن معا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لأطلاعه على ما ترجم من المؤلفات اليونانية والفارسية ، مع استعداده الخاص وبروعه الى البحوث الكلامية عاقبة ، وحده لشاووره واكتشافه بالرؤوس المعركة الناجمة ، أمل لهذا وأمثاله العصل في تكوير المأمون على مآرايت ، وتحريره على مشاهدت .

« وبعد » إلى الخياه تقاليدها . وإن لسياسة الشعوب أسرارها . كما أن للصراحة محامدنا ، وللدراة ضرورتها ، وأهم من صبح الأمور مواضعها ، ويرن المواقف يميزها ، وبطت لكل حاحه دواءها وعلاجها .



(م) مذهب المأمون الديني :

أما مذهب المأمون الديني أو السياسي إن شئت ، وهل كان يميل للفنس حقا ويؤثرهم على خيرهم من العرب في خدمة الدولة ، وهل كان شيعيا علويا ، أو معتدلا في التشيع ، أو معتزليا ، فهذا ما يستفيض القول في شئ واحد ، وردح معانيه ، لاختلاف وجهات الطرفية . ولعلك تبيّن مما كتبناه عن المأمون السياسي ، بعض ما يساعدك على تفهم مذهب الديني .

ولما كنا قد أرحنا الكلام في موضوع المحبة والقول غلى القرآن الى قسم العلوم والآداب ، فحين قلّفت الطرها الى ذلك .

بيد أنا نرى من واجبا أن نشيرها ، الى أن المأمون كان محوطا بسيوخ الاعتزال والكلام ، أمثال ثمامه بن أثرس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه ، فان ياقوتا الرومي قد ذكر

عه ، في الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتهم بالميل إلى الاعتزال ، فلا يستبعد إذاً ، وصلته بالمأمون صلة الأستاذ بـتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصاً ، أنه اتصل به منذ صباه في أيام الرشيد . وكذلك كان محوطاً لنسبوح آخرين ، لم آثارهم ومكاتبتهم في الدولة ، مثل يحيى بن أكرم وعبريحي بن أكرم .

وكان على ذلك ، متأثراً بما تُرحم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وموسم . كما كان . إلى حدٍ غير قليل ، تحت سلطان الفرس وورائهم أمثال الفصّل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا عرو إذاً أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل في تكييف مراحه الديني . وقد يفتقر بعض هذه العوامل حياً وقد يستند حياً آخر ، طبقاً للأحوال .

هذا هو رأيي في مذهبه الديني أو السياسي على وجه عام . على أن هذا لا يمنع ، وقد اتحدنا لأنفسنا خطّة الحيدة في بدويز التاريخ ، من أن تُثبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طرّفاً مما جاء منها في هذا الصدد .

قال ابن الأثير في كامله : « قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميل إلى العلويين ، والإحسان إليهم ، وحمده مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طمعاً لا تنكفاً ، من ذلك أنه توفّى في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلويّ ، فحصر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولدًا لرئيس بنت سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عباس . وهي ابنة عم المصور توفّى بعده ، فأرسل له المأمون كفاً ، وسير أخاه صالحاً ليصلّ عليه ويعزّي أمه ، فإبى كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فأتى إليها وعزّاها عنه واعتذر عن تحلقه عن الصلاة عليه ، فظهر غصها وقالت لابن ابنها : قدّم صلّاً على أبيك ، وتمثلت :

بَكَاهُ وَنَحَسَّهُ الْجُنَيْتَا * فَأَبْدَى الْكَيْرُضَ خَبَثَ الْحَدِيدِ

ثم قالت لصالح : قل له يا بن سراجيل ، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لو صحت ذيلك على فيك ، وعدوت حلف جازته .

ثم تمّال معي نتدبر ما يرويه لنا التعليق أحد المعاصرين ، قال : سمعت يحيى بن أكنم يقول : أمرى المأمون عدد دحوه بعداد ، أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وحلّس لهم المأمون مسائل عن مسائل ، وأفاض في فروع الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المأمون : يا أما محمد ، كره هذا المجلس الذى جعلناه للطرائف من الناس ، بتعديل أهوائهم وتركيز آرائهم ، طائفة عابوا علينا ما نقول فى تفصيل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وطلّوا أنه لا يجوز تفصيل على إلا ما تنقاص غيره من السلف ! والله ما استعير أن أنتقص المحامح فكيف السلف الطيب ! وإن الرجل ليأتينى بالقطيعة من العود أو بالحشبه أو بالشئ الذى لعدل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه ، فيقول : إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو منه ، وما هو عدى بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أتى بفراط البية والحمة أقل ذلك ما شتر به بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أصمعه على وجهى وعينى ، وأتبرك بالطرائف وبته ، فاستشيتى به عند المرض يصيبى أو يصيب من أهم به ، فأصوبه كصباى صمى ، وإنما هو عود لم يفعل شيئا ، ولا فضيلة له يستوجب المحبة ، إلا ما دكر من من رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرتعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات السرة ، وعادى العشائر والعائز والأقارب ، وفارق الأهل والأولاد ، وأقرب عن داره ليُمزّ الله دينه ويُطهر دعوته ، يا سحاح الله ! والله لو لم يكن هذا فى الدين معروفا ، لكان فى الأخلاق جميلا ! وإن من المشركين لمن يرتعى فى دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا . معاذ الله ممّا نطق به الجاهلون . ثم لم ترّض هذه الطائفة بالمعيب لمن حالها ، حتى تسميته إلى البدعة فى تفصيله رجلا على أحبيه ونظيره ومن

(١) هذه القطعة مقولة كما هي عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

بقاربه في الفضل، وقد قال الله حل من قائل : (وَلَقَدْ فَصَّلْنَا مَعْشَرَ الْكَاذِبِينَ عَلَى بَعْضٍ) ثم وسع لنا في جهل العاقل من الموصول، فما فرض علينا ذلك ولا تنبأ إليه، إذ شهدنا لجماعتهم بالبؤة، هي دون اليقين من ذلك معد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمرؤ لوجهله جاهل رجونا ألا يكون احتج إثما . وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال قول واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآثروا احتج في كسره وإسالة من الأحكام في الفروع والدماء والأموال التي الطرُفها أوحش من النظر في التفصيل . فيغلط في مثل هذا أحد يعرب شيئا ، أوله رومة أو حسن بطر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط^(١) ، أو متبع لهواء ، ذات عن رياسة اعتقدها . وطائفة قد اتحد كل رجل منهم مجلسا ، اعتقد به رياسة ، لعله بدعوة إلى صرب من البدعة ، ثم لعل كل رجل منهم يُعَادِي مَنْ حاله في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة ، ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فيه ، فسأله عليه وأمسك عنه ، صد ذكر محالته إياه فيه ، فاذا خولف في نخلته ، ولعلها تم وسع الله في جهله بها ، أو فيما احتلف السلف في مثله ، فلم يُعَادِ مَعْشَرَهُمْ بعضا ، ولم يَرَوْا في ذلك إثما ، ولعله يُكْفِر محالته ، أو يُبَدِّعه أو يرميه بالأموال التي حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين ، نفيًا عليهم ، وهم المترقون الفتن ، والراحمون فيها ، لينهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة ، وقد حال المدك بينهم وبين ما يُريدون ، يَزَارُونَ على الفتنة زفير الأسد على فرائسها . وإلى لأرجوان يكون مجلسا هذا — بتوقيع الله وتأييده ، وموعنته على إتمامه — سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين ، إنا شاك فيتين ويتثبت فينقاد طوعًا ، وإما مُعَانِد فيرد المدك كَرْهًا . »

ولقد هم في سبيل عَاقِبَتِهِ هذه أن يَلَس معاوية ، وأن يكتب بذلك كتابا ، يُقرأ يوم الدار ، وَحَقْل الناس ، فنهاه عن ذلك يحيى بن أكرم ، وقد يكون من المنع الطريف حقا أن يذكر لك ما قاله يحيى وعيره ، لتتبين نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

(٢) يشيط بدمه : يهده .

(١) الإلطاط . الاشتداد في الأمر والحسومة .

قال يحيى بن أئثم : يا أمير المؤمنين ، إن العاقبة لا تحتل هذا ، ولا سيما أهل
 ثُرَاسَانَ ، ولا تأمن أن تكون لهم نقرة وإن كانت لم تدبر ما عاقبتها ، والرائى أن تدع الناس
 على ما هم عليه ، ولا تُظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ،
 وأحرى في التدبير . فركب المأمون الى رأيه ، ثم دخل عليه ثُمَامَةُ أحد المعاصرين ، فقال له
 المأمون : يا ثُمَامَةُ ، قد علمت ما كا دبراه في معاوية ، وقد عارصا رأى هو أصلح في تدبير
 المملكة ، وأبقى ذكرًا في العاقبة ، ثم أحره أن ابن أئثم حوَّفه إياها ، وأحبره بعورها عن
 هذا الرأي ، فقال ثُمَامَةُ . يا أمير المؤمنين ، والعامة في هذا الموضع الذي وصفها به
 يحيى ! والله لو وجهت إسماء على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساك اليك بعصاه عشرة آلاف
 منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله حل ثاؤه أن سواها بالأنعام ، حتى جعلها أضل
 منها سبيلا ، فقال تارك وتعالى . **فَإِنْ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ**
إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا . والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررت مُذْ أيام في شارع
 الخلد ، وأنا أريد الدار ، فادا إنسان قد سطر كسائه ، وألقى طيه أدوية ، وهو قائم ينادى
 عليها : هذا الدواء لبياس العين والعشا والظلمة وضعف البصر ، وإن إحدى
 عييه لمطموسة ، وفي الأخرى مؤتى له ، والناس قد اسألوا عليه وأجفلوا اليه يستوصفونه ،
 فزلت عن دأقي أحية ودخلت في عُمار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عيكَ أحوج
 هذه العين الى الملاح وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلم
 لا تستعمله ؟ فقال : أنا في هذا الموضع مد عشر سنين ما مر في شيخ أجهل منك ،
 فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أير اشتكت عيني ؟ قلت : لا أدري . قال :
 بمصر ، فأقبلت على تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، وهُمُوا بي ، فقلت :
 لا والله ، ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، ها تحلصت منهم إلا بهذه الجمحة .

زبد حد ما قدماء لك أن تقول لك : إن مذهب المأمون الديني كان متمشيا تماما
 مع مذهب السياسي ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التروج من هذا

الحزب وذلك، ومن إرضاء هذا الطرف وذلك، أن يظهر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدى ذلك أن يكون من العلويين طليعة، ثم من العباسيين طليعة ما دامت بغيته متحققة من استئجاب الأمن، وامتناع الأحزاب، وتوحيد القوى، فكانك كان يريد أن يخذل من مذهبه الديني مدحها وسعطا. ويحيل اليأس من النتائج التي وقعا عليها من دراسته هذا العصر أن المأمون لم يطرع معاينته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياته الرضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية .

وسعد، فقد قلنا لك : إن الدين للديان حل حلاله، وأكبرا وأكبرت معا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماهير من آراء ومعتقدات وديانات، و يظهر أن المأمون لم يكن فيها رامة في هذا السبيل موقفا توفيقه فيما عداه، وأن له رلة كان يحدُر ألا يقع مثله في مثلها، وسترى ذلك موضحا في الفصل الذي عقدهاه عن « محم القرآن » .

(ن) كلمة ختامية عن المأمون :

وإنا بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوصيح، رى من المستصوب أن نهم الى آراء المؤرخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمديحهم مصائله، رأى مؤرخ مشرق عكف على دراسته عصر المأمون وهو السير ولیم مور، وربما أجاد كثيرا من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الفرنجة من المؤرخين، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا نخدم بمثل ما يخدمها تباین الآراء وأختلاف المصادر وتناقض الروايات . وليس من مهمتنا أن نعرض للرد على « السير مور » وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا .

قال الأستاذ مور في كتاب الخلافة في عتق مجته عن المأمون ما ترجمه لك بنصه :
« لما لا راع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفا بالعدل والحلم، وإنما يؤحد بأنه كان متقلبا في آرائه وشعوره، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب في ذلك الى نزعه العارسية التي ورثها عن أمه ، والبيئة التي رُئِيَ منها من جهة ، وإلى عَريزته حله للاستسلام متأثر من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أسا مع اعترافا بصله ، لا يستطيع أن يبرّره عن الحواح في بعض الأحيان الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوّع ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجبارة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المكرات ما سؤدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشية عربية ، ذلك أن أبا دُاف — وكان طلا من أشرف العرب وزعيما لإمارة همدان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسعا بين عشائرها ودوى البيوتات فيها — كان من الذين انصبوا الى نصرته الأمين وشايعوه ، فلما قُتل واستقل المأمون بالخلافة ، أبى أبو داف أن يدخل في طاعته ، وآثر العودة الى مسقط رأسه في فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وعالَى في مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدم عليهم ، فاحتاط المأمون من الشاعر عيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصد إهانته ، فأمر بتعديسه وقتله شرّ قتلة ، ولكن لم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو داف في طاعة المأمون فاحتفل به وقربه اليه ، فان كان تجاوزته عن أى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صدره ، فهذا التماز لا ينبغي حكما عليه بالقسوة الوحشية في قتل ذلك الشاعر الأعمى ، ولو أعضيا عن الشبهات التي حامت حول مقتل العصل وموت عليّ الرضا عدراً وعيلةً ، فاننا لا نستطيع أن نمضى عن معاملته الجائرة لاس عائشة ، وما لقيه هُرْثمة وطاهر مع تمانيهما في نصرته وتوطيد حكمه ، واصطهاده لكثير من أحلاء المفكرين ، وأصحاب الآراء المخالفة لرايه في بعض مسائل الدين ، في مجلس المناظرة ، مما يدل على قسوته ، إلا أسا اذا راعينا طول مدته حكمه وموقعه البيل في عموه عن الخارجين عليه في بغداد ، نرى كفة عدله وحلمه أرحم من كفة جورهِ وقسوته ؛

وقصارى القول أن عصر حلاته كان بوجه الإجمال من أزهى عصور التاريخ
الإسلامي « اهـ .



وبعد ، فلقد حللنا شخصية المأمون العدة البارزة بما استحقته من الاستقصاء
والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعقبا كل كلمة عن مجاياه ما نعتبره موضع العظة
والاعتبار من دراسة هذا المصير المترع بالمثل العليا . ونأمل أن يكون قد وفّقنا فيما
رُمناه من إصابة شاكلة الحق ولُأب الصواب .

افضل الثمن

الحياة العلمية في عصر المأمون

توطئة — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار البعثة المأمونية — القول بحق القرآن .

(١) توطئة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولى الهيمة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية في بغداد، وكانت تعرف بيت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم خزانة المأمون .
وقيل : إن بيت الحكمة هذا أنشئ في العال أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكة من الكتب ما وقَّعوا إليه، هدية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيل : إن يحيى بن أبي منصور الموصل المتعمَّ المعروف وأحد أصحاب الأرصاء في العصر المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج وصوره الأرض، كما من خزنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدُّ أحمد الطيبي المعروف بالصَّوْبَرِيّ الحلبي والفضل ابن تَوْبَحْت وأولاد شاكر وعبرهم من رجال بيت الحكمة في العصر المأموني ، أو ممن كان يتردد على هذه الدار للعمل فيها بصعة رسمية أو للطالعة أو السح أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسابة المعروف علان الشَّعْوِيّ العارميّ الأصل، كان ممن ينسح في بيت الحكمة ، أو في أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لها أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيل : إن المأمون بعث إلى حاكم صِقْلِيَّة المسيحي أن يبادر بأن يرسل إليه مكتبة صِقْلِيَّة الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردَّد في إرسالها، وكان بين الضَّنِّ بها والحَرَص عليها والخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجال الدولة وأهل اليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها إليه ، فوافقه ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها » فأدعى الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علي : إن المأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه ، ودُخِيت الصورة المأمونية ، صوّروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وطره وبحره وعاصره وعاصره ومسكني الأثمن والمدن إلى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمتها من حمرانية ظلمبيوس ، وحفرانية ماريوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض - وقال الرهري : إنهم كانوا سبعين رجلاً من فلاسفة العراق - كانوا في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرّف إلى البلاد والأهمل ، التي أطلتها الراية العباسية ، هذا إلى عاينته بالملك ، وفلكيّه الصّزاريّ أوّل من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعيّن بالطبيعة والرياضيات فوق عاينته بالطب ومعرفة العقاقير والسمات والحيوان ، إلى ما شاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وتفتح به المأمون باب العقل على مصراعيه في كل مطلب وشأن .

فيل هذا ، وقيل أكثر من هذا ، مما بذلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب في العهد المأموني ، وما يشير إلى عدم قتلها في أيام من سبقه من الخلفاء العباسيين . والان يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هي الحركة العملية المأمونية ، ومن هم رجالها وما هي مؤلفاتها ؟^١ يحق لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نعترض لهذه البحوث ، وأن نوضح بعض ما كان أجلاء في كتبنا عن الحياة العلمية في العصر العباسي .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرهما ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبيته فيما وصفناه لك عند تعرضنا لتحليل شخصية المأمون ، ونحن تكلمنا عنه تليداً ، وولي عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وعالماً ، وسياسياً ، وباحثاً دينياً .

وأما أن المأمون أعاد عصره مؤلفاته الخاصة ، فهذا ما لا ريب فيه أيضا ، وهاك ابن الـديم يحدّثنا في فهرسته أن المأمون من الكتب كتاب جواب ملك الرغـر فيما سألـه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسائله في إعلان النشوة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورحالاتها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدّثنا ابن أبي أصيبعة في طبقاته عن أوكد الأسباب عد المأمون لاستخراج الكتب فيقول : قال يحيى بن عدي : قال المأمون : رأيت فيما يرى السائم . كأن رجلا على كرميـ حالسا في المجلس الذي أجلس فيه فتعاطفته وتهايتته وسألتـه ، فقيل لي هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شيء ، هاتئه . فقلت : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسسه الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب . فان المأمون ، كان يده وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الختاج بن مطر ، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وعيرهم فأخذوا مما وحدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أمرهم بقله فقل ، وقد قيل . إن يوحنا بن ماسويه من غدا الى بلد الروم . وأحصر المأمون أيضا حنين بن إسحاق وكان قتي السن وأمره بقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى الرقي وإصلاح ما يقله غيره . فامتثل أمره .

وعما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب رنة ما يقله من الكتب الى العربي مثلا مثل . وقال أبو سليمان المظني : إن بني شاذكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن ، كانوا يزفون جماعة من الثقلة . منهم حنين بن إسحاق ، وحنين بن الحسن ، وثابت ابن قرة وعيرهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

ويقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي : إن العرب في صدر الإسلام لم تكن بشيء من العلوم، إلا لثنيها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غير مكررة عند جاهليهم، لحاجة الناس طرأ اليها . فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية . فلما أَدَّاهُ اللهُ تعالى للهاشمية، وصرف الملك اليهم ثابت المم من عملتها، وهت القطر من موتها، فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المصور، وكان مع راعته في الفقه، كَلِمًا بالفلسفة وعلم الحجوم . ثم لَمَّا أَفْضَتْ الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون س هارون الرشيد، تم ما بدأ به جده المصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، وداحل ملوك الروم وسالم صلته بما ليسم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه بما حصرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وحاليبوس وأوقليدس وطلميوس وغيرهم من الفلاسفة، فاستعاد لما مهرة الترجمة وكلفهم لإحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حصَّ الناس على قراءتها ورتبهم في تعليمها . وكان يحلو للحكماء ويأتس بمناظرتهم، ويتذ بمداكراتهم، علما منه أن أهل العلم هم صعوة الله من خلقه، وتحتبه من عاده، وأنهم صرموا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ورهدها فيما يرب فيه الصبين والترك ومن نزع مفرعهم من التافس في دقة الصاعدة العمليّة، والتلهم أحلاق النفس والتعاهر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضّلهم في كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العلم مصايح الدجى، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لقدمهم .

فهذا الحلم الذي قيل إنه دفع بالمأمون الى الاستهامة أرسطو ومؤلفات أرسطو، أو عبارة علمية أدق، هذا الميل الى الفلسفة والمطلق عند المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف صيغة قوية . ويحيل اليها أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورعته في القياس العقلي، وتأثره بمدب الاعتزال كما سترى في كلمنا التي عقدناها لك في القول بخلق القرآن،

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل في انتشار حركة الترجمة والتأليف . وخاصة في مؤلفات أرسطو ، وكان من نتائج إقبال العرب وعيهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «ستلانه» في مفتتح محاضراته في تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأول من خلافة أبي جعفر المنصور الى وفاه هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن الطريقى مترجم المجسطى و أيام المنصور . وجورجيس بن حريز الطيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المطبقة لأرسطوطاليس . ويوحنا ماسويه ، وكان في أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكل ، واعتنى في الأغلب بالكتب الطبية . وسلام الأبرش ، وكان في أيام البرامكة . وماسيل المطران .

والدور الثانى ، من ولاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠ ، وهى الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يوحنا بن الطريق . والفتح بن مطر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا اللبكي وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ماعية الجصى وعاش سنة ٢٢٠ . وحنين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حنين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قرة الصابي المتوفى سنة ٢٨٨ . وحنين بن الحسن ، ويدعى حنن الأعمى ابن أخت حنين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، ومما ترجم في هذا العصر أغلب كتب أفراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشيء من كتب أفلاطون ومن التماسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حيش ، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مترجمي هذه الطبقة ، متى بن يونس ، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

مذكر عنه أنه كان سعداد من سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠ . ومنهم سنان بن ثابت بن قزعة ،
المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عدي وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو علي بن زرعة ، من سنة ٣٣١
إلى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحمصي . وعيسى بن سهرنخت ، وكان أكثر اشتغالهم
بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو ، والمفسرين كالاسكندر الأفروديسي ويحيى
النحوي وغيرهما اه .

ومعد ، فقد سبق لنا أن بينا لك طرقات من الحياة العلمية في العصر الأموي وفي صدر
العصر العباسي ، وأن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت
في علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ، ترجمة وتأليفا في العصر المأموني ، معتمدين في ذلك على
الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأقطاب لابن أبي أصيبعة ، وكتاب أحبار الحكماء للقفطي .
وهاك جملة منهم وهم . أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني - أحد معلمي المأمون ، وبختيشوع
حورحيس ، وحراثيل بن بختيشوع ، وحراثيل الكمال المأموني ، والحارث المتعم صاحب
الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن نوح ، وركيا الطيفوري ، وسهل بن مساور
ابن سهل المعروف بالكوتج الذي كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه وحورحيس بن بختيشوع
وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوري ، ثم سنده بن علي - المنجم المأموني ، وسلمويه بن سنان
صاحب المتعم ، وصالح بن هبة الهندي - صاحب " رشيد ، والناس بن سعيد الجوهري
المنجم صاحب المأمون ، وعد الله بن سهل بن نوح المتعم المأموني ، وأبو حصص عمر
ابن الفرخان الطبري - أحد رؤساء الترجمة والمحققين لعلم النجوم ، وموسى بن شاكر وبنوه
محمد وأحمد والحسن من معلمي المأمون ، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطي من أخصر
الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وموسى بن إسرائيل صاحب أبي اسحاق بن إبراهيم بن المهدي ،
وما شاء الله المتعم اليهودي ، وميخائيل بن ماسويه ، ويحيى بن أبي منصور المتعم المأموني ،
ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسويه ونعطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب ،
ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ،

وأبو قريش المعروف ببني الصيدلاني وغيرهم كآل ثات وماسرجويه ، وآل الكنتي ، وابن دهن الهندي مدير بیمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم يقل من الهندية الى العربية ، ومكة طيب الرشيد الهندي ، وكان يقل من الهندية (المسكينية) وعشرات غيرهم من لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العظيمة لخرجنا عن وضع كتاب في العصر المأموني ، الى وضع موسوعة أو معجم ، وإذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعيب ولم نصور العصر بما ينبغي أن يصوره ، لذلك آثرا أن نكتب كلمة عن سبرائيل بن حننئيل بن يحيى ، وقدره في العصر الفني حقاً ، والعنى بحالاته صدقاً ، وستقف على هذه الكلمة في موضعها من المصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

وإما نقل لك هنا طرّفاً من أسماء الكتب التي تُرجمت في ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، والبطية ، معتمدين في ذلك على البحث الطريف الذي كتبه صاحب التقدن الاسلامي ، ولخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، مؤهين بجهده أمانة للعلم واعترافاً بالفصل .

أولاً - الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

- (١) كتاب السياسة نقله حنين بن إسحاق
- (٢) » الماسبات . . . » يحيى بن عدي
- (٣) » النواميس . . . » حنين ويحيى
- (٤) » طيماوس . . » ابن البطريق وأصلحه حنين

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن عدي

(٦) » التوحيد . . . » » » » »

(٧) » الحس واللذة ... » » » » »

(٨) » أصول الهندسة .. » قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) قاطيغورياس (المقولات) .. نقله حين بن إسحاق

(٢) كتاب العبارة . . . » » الى السريانية وإسحاق الى العربية

(٣) تحليل القياس » ثيادورس وأصلحه حين

(٤) كتاب البرهان . . . » إسحاق الى السريانية ومتى الى العربي

(٥) » الجدل » » » » » ويحيى » »

(٦) » المفالطات أو الحكمة المموجة » ابن ناعمة أو بشر الى السريانية ويحيى الى العربي

(٧) » الخطابة » إسحاق وإبراهيم بن عبد الله

(٨) » الشعر » أبو بشر من السريانية الى العربي

(٩) » السماع الطبيعي » أبو روح الصابي وحين ويحيى وقسطا وابن ناعمة

(١٠) » السماء والعالم ... » ابن البطريق وأصلحه حين

(١١) » الكون والفساد » حين الى السريانية وإسحاق والدمشقي الى العربي

(١٢) » الآثار العلوية » أبو بشر ويحيى

(١٣) » النفس » حين الى السريانية وإسحاق الى العربي

(١٤) » الحس والمحسوس » أبو بشر متى بن يونس

(١٥) » الحيوانات » ابن البطريق

(١٦) » الحروف أو الإلهيات ... » إسحاق ويحيى وحين ومتى

(١٧) » الأخلاق » إسحاق

(١٨) كتاب المرأة نقله الخجاح بن مطر

(١٩) » أثولوجيا » » » » »

ولكتب أرسطو شروح وتعليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، كأورسطس،
وإدنيوخس بركلس، والاسكندر الأفروديسي، وفرفوريوس، وأمونيوس، وتامسطيوس
ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى السجوى وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة،
وكلها في الفلسفة وفروعها، وقد نقل كثير منها إلى العربية ولم يعلم ناقلها، فأعصينا عن
ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا جالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بصحة كتب في الفلسفة والأدب،
وهي كتاب ما يعتقد رأياً، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوبه، نقله توما
وأصلحه حين، وكتاب الأخلاق نقله حيش، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم، نقله
حيش، والمحزك الأول لا ينحزك، نقله حيش وعيسى، وغير ذلك .

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط :

(١) كتاب عهد أبقراط نقله حنين إلى السريانية وحيش وعيسى إلى العربية

(٢) » المصول » حين لمحمد بن موسى

(٣) » العكس » » » » »

(٤) » مقدمة المعرفة » وعيسى بن يحيى

(٥) » الأمراض الخائفة » عيسى بن يحيى

(٦) » أيديميا » » » » »

(٧) » الأخلاط » » » » » لأحمد بن موسى

(٨) » قاطيوليون » حين لمحمد بن موسى

(٩) » الماء والهواء » » وحيش

(١٠) » طبيعة الإنسان » » وعيسى

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر وهي : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب
النفس، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج، القوى
الطبيعية، العلل والأمراض، تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النص الكبير،
كتاب الحمايات، البُحْران، أيام المعِزان، تدبير الأمعاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها
حنين بن إسحاق إلى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النص الكبير، وكتاب
تدبير الأمعاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حيش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية،
فإليك أسماءها مع أسماء ناقلها :

(١) التشريح الكبير	حيش الأعمى	(١٧) الحث على بعلم الطب حيش الأعمى
(٢) اختلاف التشريح	» »	(١٨) قوى النفس ومزاج البدن » »
(٣) تشريح الحيوان الحى	» »	(١٩) حركات الصدر { نقله أصفهان وأصلحه حيش
(٤) » » الميت	» »	(٢٠) علل النفس أصفهان وأصلحه حيش
(٥) علم أبقراط بالتشريح	» »	(٢١) حركة المصل » » »
(٦) الحاجة إلى البض	» »	(٢٢) الحاجة إلى النفس » » »
(٧) علوم أرسطو	» »	(٢٣) الامتلاء » » »
(٨) تشريح الرحم	» »	(٢٤) المزة والسوداء » » »
(٩) آراء أبقراط وأفلاطون	» »	(٢٥) علل الصوت حيش
(١٠) العادات	» »	(٢٦) الحركات المجهولة »
(١١) خصب البدن	» »	(٢٧) أصل الهيئات »
(١٢) المني	» »	(٢٨) سوء المزاج المختلف »
(١٣) مسافع الأعضاء	» »	(٢٩) الأدوية المفردة »
(١٤) تركيب الأدوية	» »	(٣٠) المولود لسبعة أشهر »
(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة	» »	(٣١) رداءة النفس »
(١٦) » » الكبيرة	» »	

(٤١) أعلامون في طيأوس حين واصلح	حين	(٣٢) الدول
(٤٢) مقدمة المعرفة عيسى	»	(٣٣) قوى الأعدبة
(٤٣) الفصد عيسى وأصطفان	»	(٣٤) التدبير الملقف
(٤٤) صفات لصي يصرح ابن الصلت	»	(٣٥) مداواة الأمراض
(٤٥) الأورام » »	»	(٣٦) أنقراط في الأمراض الحادة
(٤٦) الكيوس ثابت وحيش	»	(٣٧) الى تراسبولوس
(٤٧) الأدوية والأدواء عيسى	»	(٣٨) الطبيب والميلسوف
(٤٨) الرماق ابن الطريق	»	(٣٩) كتب أنقراط الصحية
	»	(٤٠) محه الطبيب

وهناك كتب في الطب وتواصه ذكرها صاحب المهرست ولم يذكر ناقلها .
وأما مؤلفوها فيها نضعه وعشرون كانا لروفس من أهل أفسس كان قتل هاليوس ،
ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه نضعه كتب لأورياسابوس ، وهي كتاب الأدوية
المستعملة ، نقله أصطفان س ناسيل . وكتاب السعين مقالة نقله حين وعيسى بن يحيى الى
السريانية ، وكتاب الى اسه أسطاط نقله حين ، وكتاب الى أبيه أوافيس نقله حين .
ولديسقوريدس العيس ررى ، ويقال له السائح في السداد اسياحته في طلب العقاقير
والحشائش ، كتّأ في الحشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن
الطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ - كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويستعمل الطريق ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكات ،
وهناك خلاصة الكلام فيها .

(١) كتب أفليدس ، منها أصول الهندسة ، نقله المحاج بن مطر قلين الهاروني
والمأمون . ونقله اصمخا بن حين ، وأصلحه ثابت بن قره ، ونقله أبو عثمان الدمشقي ،
ولا يزال هذا الكتاب ناظيا الى الآن . ومن كتب أفليدس التي لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات، وكلاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والحجم .

(٢) كتب أرخيدس، وهى عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) الموليوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط، والمسبة المحدودة، والدوائر الخمسة، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) مالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسة، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلودى، صاحب كتاب المحسطن الشهير، وقد تقدم جبر نقله وتفسيره على يد يحيى اليرمكى . ولطليموس أيضا كتاب الأربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصنع الأرض ، نقله ثابت الى العربى قلا جيدا، ولطليموس ١٥ كتابا أخرى الجغرافيا وغيرها، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرحس ، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود ، وكتاب قسمه الأعداد لم يعرف ناقلها .

(٧) ديومطس ، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديدة فى الرياضيات والمهنية والأزياج ومحوها ذكرها ابن الديق ولم يذكر ناقلها ، منها : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون الطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس ، وكتاب العمل بدات الحلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكلها لتاون الاسكندري .

أصف الى ذلك كتب الرياضة التى تقدم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رعه فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للسلمين من كتب الموسيقى عن اليومايه كتاب الموسيقى الكبير ليقوم احسن الجهراسيى ، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس، وقد تقدم ذكره،

ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريحوس، وكتاب الإيقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصنوعة المسماة بالأرض البوقية، والأرض الزمرية، لمورطس .
وقل لم من كتب الميكانيكيات فيما جاء في كتب أرحميدس ، كتاب الحيل الرومانية ، وكتاب رفع الأثقال لأيرد، وكتاب استخراج المياه لبادرووعيا ، وكتاب الآلات المصنوعة على سبيل ميلامورطس .



ثانياً - الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبل الآداب والأخبار والسير والأشعار ومعها في العجوم مما نقله آل تونحت وعلّس رباد التيمى وغيرهم .
أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع أسماء ناقلها .

(١) كتاب رستم وأسفنديار حيلة بن سالم

(٢) » بهرام شوس »

(٣) » حدياباه في السير عداقه بن المقفع

(٤) » آيين نامه »

(٥) » كليلة ودمنة »

(٦) » مزدك »

(٧) » التاج في سيره أنوسروان »

(٨) » الأدب الكبير »

(٩) » الأدب الصغير »

(١٠) » اليتيمة »

(١١) » هزارأسمانه لم يذكر ناقله

(١٢) » شهرزاد مع أبرويز »

- (١٣) كتاب الكارماج أوشروان . لم يذكر ناقله
 (١٤) » دارا والصم الذهب . »
 (١٥) » بهرام وريى »
 (١٦) » هرا دستان »
 (١٧) » الذهب والتعلب . .. »
 (١٨) سير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ، ترجم أحدها محمد بن حنبل الرمكى ، وآخر
 رحمه رادويه بن شاهويه الأصمهاى ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصمهاى .
 ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس - وإن كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التقدم
 الاسلامى - كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنة ٣٨٤ هـ
 فى نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلباده هومروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم ،
 نقلها الى العربية الفتح بن على السدائى الأصمهاى ثرا لملك المعظم عيسى الأيوبنى . أم
 ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية
 وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .



ثالثاً - الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السانسكريت) كثيراً من كتب الطب والحجوم
 والرياضيات والحساب والأشجار والوارىخ . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وإن لم
 يصل اليها من أخبارها إلا القليل ، لأن أعداد كتاب فى إمان رهو العاسى ، كنه العلماء
 والأطباء والتجار والسياح من كل الملل . وكان للرامكة عناية باستقدام أطباء الهند إليها .
 وقد بحث يحيى بن خالد فاستقدم بصحة صالحه منهم : « ككه » و « نازيك » و « قليرل »
 و « سيدماز » وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المأمون بعد العصر العباسى - فى الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير
 أنهم اعتمدوا فى جملة مصادريهم على كتب هندية الأصل ، فأنك إذا راجعت مثلاً قانون ابن سينا

أو الملكي للراى أو غيرها من كتب الطب الكبرى ، رأينهم يدكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن اليهود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يحالونها كذا وكذا . واذا قرأت العهد الفريد لاس عدد ربه أو سراح الملوك للطرطوشى أو غيرها من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأحلاق أو نحوها قالوا : « وفي كتاب المسد كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا علم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسى جماعة من علماء الهدى فى الطب والحجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كسكة الهدى ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصا فى علم الحجوم فصلا عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها . كتاب الهمودارى الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القراءات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب محرى محرى الكاش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العالم والدور فى القرآن ، ومنهم أيضا مسجهل وما كهر ، وعبرها .

وقد مل كثير من مؤلفاتهم فى الحجوم والطب الى الله العربية ، إما رأسا أو بوساطة الله الفارسية ، فأن يقل الكتاب من الهدى الى الفارسي ، ثم يقل من الفارسي الى العربى ، منها كتاب سيرك الهدى ، وقد نقله من الفارسي الى العربى عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدوية ومعرفه علاجها ، أمر يحيى بن خالد الرمكى بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الزوم والهدى فى الحار والبارد ، وقوى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشهورهم مسكة الهدى المتقدم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بعداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجه الرشيد مشفاة فأجرى عليه الرشيد رقعا واسما . وكان مسكة يعرف الفارسية أيضا ، فكان ينقل من الهدى الى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهدى ، جاء العراق فى أيام الرشيد أيضا ، وبال شهرة واسعة

وحاطط أطعائها يومئذ واحتلطوا به ، فان لم يكونوا يفلوا شيئا من كنهه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شئنا من آراء الهدية .

ومن مشهورهم أيضا شائق ، وله كتاب في السموم خمس مقالات ، نقله من اللسان الهندي إلى الفارسي مكة الهندي ، وأوعر بجي بن خالد إلى رجل يعرف بأبي حاتم اللحي سقله إلى العربي ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاة . ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل إلى العربي أيضا .

ومن الكتب الطيبة التي نقلت من الهندية إلى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره .

- (١) كتاب سرمد في الطب نقله مكة .
- (٢) « أسماء عقاقير الهدية نقله مكة لاصحق بن سليمان .
- (٣) « استانكر الجامع » ابن دهر .
- (٤) « صعوة الصح » »
- (٥) « مختصر الهدى في العقاقير لم يذكرنا نقله .
- (٦) « علاجات الحمالى للهدى » »
- (٧) كتاب روسا الهندية في علاجات النساء لم يذكرنا نقله
- (٨) « السكر للهدى » »
- (٩) « التروم في الأمراض والطل » »
- (١٠) « رأى الهدى أحاس الحيات وسمومها » »

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فلهذه شأن كبير فيه ، وقد ذكرنا حبر السددهد فيما تقدم ، وكان لقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب ، وقد قلده وألوه على مذهبه . فمن ألف على هذا المذهب محمد بن إبراهيم الفزاري ، وحش بن عبد الله البغدادي ،

ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم . والفزاري أول من عمل إسطرلابا في الاسلام . وما من فلكي من فلكي المسلمين أراد التوسع في علم الحجوم إلا طالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عاية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم ، أبو ريمحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاب بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ، ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند إما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله . وعملت في السد هند كانا سميت حوامع الموجود لحواطر الهند في حساب التعجب جاء ماتم منه ٥٥٠ ورقة . وهدت زيج الأركند وحملته بألفاظي اذ كانت الترجمة الموحودة منه غير معهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كانا في المداريس المتحدتين والمتساويين ، وسميته بحيال الكسوف عند الهند ، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يعلمونه زيج من أزياجهم ولوس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السد والهند في ٣٠ ورقة وكتبه رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في أب رأى العرب في مرانف العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفي راسكالت الهند وترجمة ما في ابرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآد من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوانات على المسائل الواردة من محمي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب ماره ، وهي مقالة للهند في الأمراض التي تمرى بحررى المعوية وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهند أهل علم ورأى في الحجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما نقل الى العربية منها : كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والأسماء والخرافات :
(١) كتاب كليلة ودمنة ، وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظم العرس من قلمهم . وممن نظم في العرس أناس من عبد الحميد
ابن لاحق بن عمير الرقاشي وعلى بن داود . (٢) كتاب سداد الكبير (٣) كتاب سداد
الصغير (٤) كتاب السد (٥) كتاب يوداسف (٦) يوداسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند
والصين (٨) كتاب هامل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصه هبوط آدم (١٠) كتاب طرق
(١١) كتاب ديك الهندى في الرجل والمرأه (١٢) كتاب حدود مطلق الهند (١٣) كتاب
ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسلاح (١٥) كتاب بيدبا في الحكمة .

ومما نقله العرب عن اليهود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية « يامور » ومعناه ثمار
الحكمة ، وفيه أصول الألحان وحوامع تأليف العم .



رابعاً - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت مما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليوناني إلى العربي بواسطة
اللغة السريانية أحب السطيه أو هي عنها فلا نتعرض لذكرها ، وإنما يريد هنا الكتب
التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو السطيه ، ونقلت إلى العربية رأساً ، ولولا نقلها
إصاحت . وأهم تلك الكتب . (١) كتاب الفلاحه السطيه ، فانه مفرد في نابه ، وقد نقله
إلى العربية أحمد بن علي بن المختار السطى ، المعروف بآس وحشية سنة ٢٩١ هـ وطل معتمد
أهل الرراعه إلى أريد عبر بعيد ، وقد يُقل إلى اللغات الفرنجية ، وأولا نقله إلى العربية
لصاع وخسر العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال آس وحشيه ، وهو يمل الكتاب
على علي بن محمد بن الريات سنة ٣١٨ هـ « أعلم يا بني أي وجدت هذا الكتاب في كتب
الكسديين (الكلدان أو السط) ترجم معناه في العرسه كتاب فلاحه الأرض وإصلاح
الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها ، وكان هؤلاء الكسديون أشد عبء عليها ، لئلا
يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يحرقونه بمجهودهم ، وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بهم
ولسانهم ، فوصلت إلى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

مميز ، فأخى عنى علمه ، فلما اطلعت عليه لمته و إحصاء الكتاب عى ، وقلت له : إنك إن أحيت هذا العلم دُرِّره صى ولا يبقى لأسلافك ذكر ، وما يصنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها ، فهى عنه بمنزلة المحار والمدر ، فصنفتى فى ذلك وأخرج المت الكتب ، فجلت أقل كتابا بعد كتاب ، فكان أول كتاب نقلته كتاب دوانى الباطى فى معرفه أسرار الملك والأحكام على حوادث المحوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، وقلت كتاب العلاحة هذا تمامه » الخ .. (٢) كتاب طرد الشياطين ، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب السط (٦) كتاب مذهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب العلاحة الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصنام (١٣) كتاب القرائن (١٤) كتاب الطيعة (١٥) كتاب الأسماء ، وأكثرها من نقل أس وحشيه ، غير ما لا بد من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء .



خامسا - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تماثيل اليهود وآدابهم المدونة فى التلمود وغيره من كتبهم قد نُقل الى العربيه ، وإن كان لا يرى شيئا منها مدقونا على أنه مترجم ، لأنهم كانوا يقولونها شفاهاً للصحة وعيهم على ما تقدم ، وربما دقوا بها شيئا وصاع ، وأما ما وصل اليها حبره من المقول عن العبرانية ، فترجمه أسفار التوراة ، نقلها سعيد العموى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ ، وهو أقدم من نقل التوراة الى العربيه ، مما وصل اليها حبره ، وله أيضا شروح وتفسير عليها .

ولا بعد أن يكون قد نقل الى العربيه بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تنوى كثيرا من العلوم الفلسفيه والتاريخيه والشرعة وغيرها ، وربما فات نقله الأخبار ذكر ما نقل عنها ، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن الطريق لا يصرِف غير اللغة اللاتينية ، وأنه ترجم علة كتب ، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية .

وأما القبطية فاذا لم يقل العرب عنها رأساً . فلا شك في أنهم نقلوا كثيراً من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية ، وخصوصاً صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي^١ واليوناني^٢ معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هذه هي بعض كتب العصر وكانت لها آثارها ونتائجها في العقلية العربية أولاً ، وفي المدينة العربية ثانياً ، حتى أصبحوا يرى المأمون يُصر به المثل في عظم الحركة العلمية ، وحتى يرى « بولدكا » ومحررى دائرة المعارف البريطانية وصيرهم ، يمثلون المأمون بأبشروا وعيره من خدمة الإنسانية ورُسل الثقافة العاتقة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقنمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية في ذلك الحين ، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا . ويقول الدكتور « طوطح » في رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : « إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكافئاً على مطالعته رسائله مع أتباعه في مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أخصيائها هناك في بغداد » . ويقول في مكان آخر من رسالته القيمة : « إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة الى بلاد اليونان ليقبل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى الله العربية » . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية ، وهي لا تحرج عما قدمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف في عصر المأمون .

مكنفى بما قدمناه عن التبسط في القول في هذه الناحية الهامة حقاً .

على أن لهذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضاً في زيادة الثروة اللفظية في اللغة العربية ، وقد بينا لك طرفاً منه في كلمتنا عن حالتها في الصدر العاصي^٣ ، فلا حاجة إذاً بنا الى تكراره ها ، وقصارى ما نقوله أنا نحيلك الى بعض المصادر القيمة فيما نحن في صددده من بيان تأثير اللغة بهذه النهضة التي تشه في كل وجوهها حركة التجديد « رينسانس » في أوروبا ، وهي : كتاب خطي^٤ منسوب للمحافظ عن الألفاظ الفارسية في اللغة العربية ، وبحوث العلامة

أستانس الكرملي البغدادي في السة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية في اللغة العربية ، كما أحيلك الى بحوث « مجلة المجمع العلمي » في شأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة في كتاب « نشوار المحاصرة » .

أما في التاريخ والجغرافيا ، فلم تبدأ العناية الحسنية بهما إلا منذ أيام يعقوب ، وابن خرداذية في نهاية القرن الثاني .

وأما العلوم القرائية وما تفرع عنها ، فقد سبق أن أشرنا إليها في بابها من العصر العباسي . ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عايته بالفلسفة اليونانية ، وما إليها ، اللهم اذا كانت موجهة الى الساحة الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره في الحياة العلمية والعقلية في عصر المأمون .

(٥) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير في تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الخعد بن درهم قد أظهر مقالاته بخلق القرآن أيام هشام ، فأحده وأرسله الى خالد القسري ، وهو أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ، فبلغ الخبر هشاماً فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه ، فلما صلى العيد يوم الأحمى ، قال في آخر خطبته : انصرفوا وصحبوا يقبل الله منكم ، فإنى أريد أن أحمى اليوم بالجمع بن درهم ، فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتحد ابراهيم خليلاً . تعالى الله عما يقول الجعد عاؤا كبيرا ، ثم نزل وذبحه . ويقول ابن الأثير في حياة مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجمعدي ، دهابه مذهب الجمع بن درهم في القول بخلق القرآن ، والقدر ، وغير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن ، بدعه ننت في العصر الأموي ، ثم لم نجد الحق الذي تمويه وتزعزع ، حتى كان عصر المأمون فوحدت من شخصيته العالم ومن هوذة العظيم ونفوذ علمائه ، ختمته لثافتها ، حريص على نصرتها ، شديد اليد بالطلش على محالفيها .

(١) أطر القاموس وشرحه في مادة « يوم » فانه ضبطه بالياء المشاة بعد الهمزة وبهاء الهاء .

ولعلك تسأل لم يجد القول بحل القرآن من المأمون الصدر الرحب والعامل على نصرته^٩، وهل كان موقفاً فيما أحده على عاتقه أو قد اشتد به العلو وتأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد^{١٠}.

ونحن قبل أن نحيطك عن هذه الأسئلة، وقبل أن نعرض للوصوع من وجهاته المحتملة، نريد أن ننقل لك كلمه للأستاذ «ميور» في هذا الصدد، وهي وإن لم تكن تتفق مع وجهة نظرنا في هذا المحث، تين لنا وجهة نظر مثبته كبرها نحن بصدده.

يقول الأستاذ «ميور» في الفصل الذي عقده عن المأمون في كتابه المتع «الخلافة»:
«وفي الحق أن المأمون كان متمسكاً لعارس مسقط رأس أمه وزوجه، شديد الميل إلى العلويين، ونشأ عن ذلك في السوات الأخيرة من حكمه، مزيج من حرية الأفكار والتعصب. وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحزبية حقاً لدرجة مذهبه. وقد ألقى من يصع سوات مصت، الأمر الذي كان أسلافه قد أصدروه، يمزجون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بحبر، وأباح للبحيين حزبه الماقتشه في أي الدين أفصل: الإسلام أم المسيحية. غير أن ميوله العارسية التي كان يجمع إليها دائماً، دهمته أخيراً أن يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير. ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة، وأباح لهم الماقتشه في حصرته ونظريات كان الحث مموعاً فيها، كعلاقة الإنسان بحالته، وطبيعته الألوهية وغير ذلك. وأخيراً أعلن تحوله إلى عقائد تحالف تماثيل الدين الصحيحة، من ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالحبر، وأن القرآن وإن كان وحياً إلا أنه مخلوق، بدلاً من العقيدة التي كانت لا تنزع وهي أن القرآن أزل»

(١) يقول أستاذ الشيع عبد الوهاب الحار « ما كان عند المسلمين عقيدة هذا الوصف ولكن القول بحل القرآن. كما لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول يراه أو يوافقه هذا أعزم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء حلوا إلى كتاب الله يطرون فيه حكم المقالة التي لا عهد لهم بها لم يحدوا. فطروا إلى السنة لم يحدوا. والقوم في ذلك العهد يردون كل شيء إلى الكتاب والسنة. فلما لم يحدوا فيها حكما توفقوا في هذا القول أحياء لا دينهم أن يقولوا على الله ما لا يملون. لم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرون بهذا الاعتقاد أن مع الله قدما سواء وأنه يوجد موجود ولا أثر لله في إيجادهم ولغ في إصابتهم وتنازلهم بالحسن والإيذاء».

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليا أشرف الخلق بعد النبي ، وعلى هذه النظرية بُنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزمامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو إلى آخر من بيت علي . وبدأ في تلقين الناس أنه يوحد مصادر أخرى من القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين ، وفسر القرآن تفسيراً من غير تقييد بلفظه ، وبذلك دُلَّتْ صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو تقف عثرة في تقدم العموم ، كما حاشى شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة . وعلى مآثر السنين تحولت فكرة المأمون في حل القرآن من مجرد رأى إلى إعلاؤه المشعور الذي حَمَلَ فيه رعاياه بالاصطهاد والعقوبات على اتخاذ عقيدته لهم . وقد أرسل إلى وإلى بغداد ، وهو في حملته الأخيرة إلى الروم ، أمراً بأن يجمع كبار العلماء والعقلاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل إليه إجابهم ، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس الماطرة الذي كان أشبه بمحكمة التعيين ، حتى أظهروا القول بحل القرآن ، إلا أن البعض بقى ثابتاً على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق ، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلية ، الذي حملوه مبعجلاً بالحديد إلى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُذِمَا بالقتل ، وأُرْسِلَ عشرون منهم تحت حِمَارِهِ حُرَّاسٍ لِيَتَطَرَّوْا في "حَرْسُوس" عوده الخليفة من حروبه ، ولكن جاعتهم الأثناء في أثناء سبهم في الطريق بموت المأمون . ولقد سُوِّدَتْ أمثال هذه المظالم شُمتها المأمون في سنوات كثيرة « اهـ .

ذلك هو رأى المتشرف « ميور » . ولرجع الآن إلى معالجة الإحاطة عما نساءلت عنه ، فنقول : إنك حَظُّ عَالِمٍ بأن المأمون كان تلميذاً ليحيى بن المبارك الرِّيْدِيّ المتهم بالاعتزال . حَظُّ عَالِمٍ بصلته بجماعة بن أمّرس ، زعيم المذهب النجاشي والاعتزال ، وإعجابه به . حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحارث : « قد رجع المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحد من وداد الخليفة عليه في ذلك ما يلزمه . أن روعة المتعة ليست الروعة التي يجب حقها وترث ويشتت نسب الولد بها كما هو شأن الروعة الشرعية فهي ليست روعة وليست ملك بين واثقة تعالى يقول (والذين هم لفروجهم حاصطون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم غير ملومين في شيء وراء ذلك ما أولئك هم الفادون) فهي بما وراء ذلك ويكون وراثة المتعة روا — ورامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الزائفة » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلمنا لك القول في باب الوزارة . جِدْ عَالِمٌ بَانَ المأمون كان يعقد مجالس للكلام في مختلف البَحُوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قَرَّبَ اليه كل متكلم حافظ، أو مُفَكِّرَ بصير بمداخل القول ومخارجة، مثال أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم اس سيار وصيرهم . وأنت جِدْ عَالِمٌ بَانَ ثَمَّةً والعلاف وإبراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال . أنت جِدْ عَالِمٌ بهذا كله، فلا عروا أن حَبَّ هؤلاء القوم إلى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التلميد المتأثر بمذهب أستاذه آس المبارك .

كل هذه العوامل كانت في الواقع ماحية واحدة، ولها أثرها القوي في تسمية الرعة، الاعتزالية في نفس المأمون . بيد أن هنالك ماحية قوية أخرى لها أثرها القوي أيضا، تلك الماحية هي حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التي حبت إلى المأمون الفلسفة وما إلى الفلسفة، ووجهت عنايته إلى المطلق وما إلى المنطق، وبعثت في صه حُبَّ أرسططاليس، حتى أصبح موضع تفكيره يقطعه ويومه . وصعوه القول أن الماحية الثانية لم تكن لتقل عن الأولى أثرا، فقد هيأت له ذلك التسامح الذي يسع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى في أحده القول بحلق القرآن إلى أيّ مَسْدَى دعت به حرية التفكير حتى وصلت به إلى ما ياقص حرية التفكير، لأنه ليس من حرية التفكير في شيء تلك الطريقة الشاذة في إلزام العلماء وحلّة الفقهاء الأحاد بمذهبه . وليس من حرية التفكير في شيء تلك النتائج السيئة التي انتهت إليها مأساة القول بحلق القرآن، في أيام المعتصم وأمام غير المعتصم . وقد أشتنا لك في باب المنثور في الكتاب الثالث من مجلدها الثالث مثلا مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأحاد بمذهبه في القول بحلق القرآن، وهو كتابه إلى إصحاق بن إبراهيم، كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبري مما حصل وقتئذ . فراجعهما تَمَّةً .

الفصل الرابع

الحياة الأدبية في عصر المأمون

توطئة : المحادة أولمة الصحاب، الخطابة، الكتابة، محال الماطرة وأنهاء الأدب، الشعر .

(١) توطئة :

لكتاب الخلافة «السير وليام ميور» ، مكانة رفيعة في التاريخ العربي ، ولا سيما عصرنا المأموني ، ساحتيه العلمية والأدبية . ذلك لأن الرجل ، الى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبتحوت المؤرخين العرب ، لم يترك مصدرا من مصادر المتشرفين أمثال : « تولدكه » و « كريم » و « هرزلد » و « أمرر » و « برياد » و « ميارد » و « جوج » وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسي ، وهو كما علم ، شديد الصلة بعصرنا المأموني ، من غير أن يدرسه حتى دراسته ويعلمه حق فهمه ، فطالع فيما طالع في ذلك الباب ، آثار « ماكولم » و « هرار » و « برون » و « سيكس » و « جوجيس » وغيرهم .

من أجل هذا ومن أحد ذلك المؤرخ البهامة بالدقة في كل ما تصدّر له ، جاءت حلّ بحوته أفضل من سواء وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستطيع لأنفسنا أن نقل اليك ما ذكره في هذا الباب . قال : « كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والصون والفلسفة ، وكان أدبيا مؤلما بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرة أن شاعرا كان يشد بين يديه قصيدته من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، إذ كان يقربهم اليه ويجزل لهم العطاء ، وكما كان عصره عامرا بالعلماء والأدباء والنحاة ، فإنه كان كذلك حافلا بمجامع المحدثين والمؤرخين والعلماء

(١) كالحارثي، والواقدي، الذي يحس مَليسون له بأوثق السَّير عن حياة النبي، والشافعي وابن حنبل. وكان المأمون يُحِلُّ علماء اليهود والنصارى، ويحتج بهم في مجلسه، لا لمعلمهم بحسب، بل لثقافتهم في لغة العرب وحديثهم في معرفته لعمق اليونان وآدابها. ولقد أُخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين، كتنا حطيه في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم، ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية عظيمة. وبهذه الوسيلة انتقلت علوم العرب إلى العالم الإسلامي. ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهادية على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية، بل توسعوا وأصافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعتهم. وأقاموا مرصدا في «سهل تدمر» مُجهَّزا بجميع الآلات التي تمكنهم من المساح في دراسة علمي الملك والهندسة والتوسع فيهما. وقد صنفوا كتباً في الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعُيِّنوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهه، إلا أنها كانت أكثر ديوغا وانتشاراً، كالنجوم والكيمياء. وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت عارقه في بحار الجهالة في العصور الوسطى، حيث أبْقَطَهُم من عملتهم وأبارت لهم سبل علومهم التي كانوا أَعْمَلوها، وهي علوم اليونان وفلسفتها» اهـ.

ويقول الأستاذ السَّحَّان «كرد على» في بحث طريف له. إن عصر المأمون قد ازداد بكثير من حملة الشريعة والأدب، مهم: يحيى بن أكرم، وأبو محمد البريدي، والحسن ابن زياد، وأبو داود الطيالسي، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وابن الأعرابي، والنصر ابن شميل، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن عمر الواقدي، وأبو عبيدة، والفراء، والأخفش، والأصمعي، والصفاني، والصبي، والشافعي، وأبو سعد، وأبو داود، وابن أبي داود، وابن حرب، وابن حنبل، والجاحظ، والقواريري، وقُتَيْبَة، وسعدويه الواسطي، وابن الجعد، وابن عُلَيْة الأكبر، وأبو نصر التمار، وأبو مَعْمَر القَطَيْبِي، وأبو السَّوَّام البَرَّاز، وابن شُجاع، وإِسْرَافِيل المَرْيَسي، وإِسْرَافِيل الوليد، ومُحَمَّد بن بُوخ، وأبو هارون

ابن البكاء، والمهذيل محمد بن المهذيل، وأبو زكريا المُرِّي ومحمد بن ميسر، إلى مئات صبرهم، كانوا غرّ الدولة وعوّن نبوغ الأمة. أما الشعراء والكتاب فكانوا طبقة عالية، كثيرة العدد كالخصى، جيّدة المتحى والأسلوب، غلب الرقة والجرالة على أهل هاتين الصاعتين. تأثروا كلهم بالحضارة الجديده، حتى غدا الشعر المدينى الدج طاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلى، بعيدا عن وصف الأطلال والدّمن والركاب، وطلب الثّار، والمفانرات الفارعة. هدا، وكان الجمهور يُشارك الأداء فى فهم الشعر، وقدّر الخطب والرسائل قدّرها، فلم يكن الشعراء فى وادٍ والأمة فى آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، اذا قرّض شعرا أو خبر خطابا، يُناقله الأيدى فى الحال، وتُعاوره الرواة فيفشو فى الأمصار. وهذا ما كان يزيد فى طلاوة أدب الأديب وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحثه على تجويد مقاله. ١٥

ومعد، فقد يتنا فى كلتا عن الحياة الأدبية فى صدر العصر العباسى ما أحدث نقول إليه الآداب العربية عامة فى الألفاظ والأساليب والمعانى والأعراض، ويتنا لك الأسباب التى كانت تبعث على هدا التحول، من شدة الامتراج بين المعاصر المختلفة التى حصمت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هدا الامتراج من إصافة ثقافات ومذنيات جديدة، الى ما كان للعرب من ثقافة ومذنية، ومن اتساع السلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرايمهم لرجال الأدب، ومن انصراف همم أولى المصل الى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوعها، حتى اضطرت اللغة أمام هده العوامل وضيها، مما سبق أن يتناه لك، أن تفرج جوانبها، لتسع هذه الأعراض، ولتقوم بحاجات الناس، طبقاً لمقتضىات العصر، وخصوصا لسنة التحول.

يتنا لك كلّ هدا. وقد يكون من التسف أن تترض لتحول الآداب فى أيام المأمون خاصة؛ فانه اذا افترضنا أن الآداب تحولت تحولا خاصا فى أيام المأمون، فقد يكون من الصير تبين هدا التحول وتحديد مداه، ذلك بأن تحول الآداب على، ولا يمكن

تنبه إلا بعد ظهور آثاره طهوراً لا سبيل إلى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن تؤقت الحوادث السياسية بالنسبة إلى الشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك في الآداب إلا بعشرات السنين .

إذا رأينا في الآداب لعصر المأمون هو رأينا في الآداب لصدر العصر العباسي . وإما الذي حدث أن السبيل التي سلكتها الآداب في صدر العصر العباسي قد بلغت عايتها في أيام المأمون ، فعصر المأمون إذاً هو الثمرة الناضجة لتغير الآداب في العصر العباسي ، أو صارها أخرى . يعتبر عصر المأمون العصر الذي بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقدور لها .

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلاً على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار في المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تتحدر مدارجاً عن المصحى منذ الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بغير العرب ، ثم دان لسلطانهم وانتظم في ملكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعنا في الطبري وفي غير الطبري في الفترة المأمونية ، أن بعض جُند خراسان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلاً (يُسرَ زبيده) (ومكى) وغيرها من الألفاظ الفارسية التي أنتمت إلى المؤرخين .

وقد يكون من الممتع حقاً أن يُخصص باحث ممن لم اطلاع على لغات البلدان التي فتحها العرب كتاباً لدراسة مبلغ تأثير اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب في الأجزاء المختلفة . وقصارى ما نقرره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقاً من أثر الفتوح سواء أكانت حوَجَ سيف أم فتوحَ ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغة اللسان ومثانة اللفظ بقدر ما أعنت من ثروة ذهنية عظيمه .

ولمّا اذا ذكرت ما كتبناه في الفصل السادس وفي نظيره من كتابنا عن الصدر العباسي في شأن ما زيد في الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة في ذلك العصر، وذُكرت أن الموالى الفرس وضيهم، هم الذين قد عهد إليهم بالترجمة والقل والتحرير، انا ذكرت هذا، الى جانب ما قدّمناه لك، فانك تسوّع مما ما نذهب اليه من القول بتأثر اللغة في ذلك العصر.

وفي هذا القدر الكفاية، ولنتدرج الى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق : إن عصر المأمون كان الثروة السامحة للاداب العربية في العصر العباسي، فهل كان الأمر كذلك في الخطابة أيضا ؟

أنت تعلم أن قوة الشيء ترجع الى قوة عوامله وأسبابه . ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثمّ لم تُماش الخطابة سائر أنواع الآداب في سبيلها الى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع الى صيق مجالها وصف الحاحها اليها، فبعد أن كان زاهيا في العصر الأموي، الوسيلة الى قمع العتس وردّ البدع، ولسان الخليفة ورجيته، والقائد في جنده، والزعيم في أتباعه، وبعد أن كان نرى حظها في عصر الانتقال وصدر العصر العباسي لا يقل عن حظها في العصر الأموي، لحاح الدعاية والزعامة اليها، أصبحنا نرى مجالها في عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقصر على التهنة والتعزية والتخطب الدينية كالجمعة والعديد . وصيّق مجالها يرجع الى استفتاء الخلفاء العباسيين ومُعالمهم وقوادهم عنها بالمشورات العامة، حيث يتسلطون فيها ويضمونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على من يُراد أن تُتل عليهم. ولعل ذلك لاصطباع الخلافة العباسية بالصفة الفارسية، واحتجاب الخلفاء من مخالطة الجماهير، ولأن جُلّ عمّال بني العباس في ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حطاً عظيماً من تلاوة القول وحسي البيان ، فقد كانت لا تزال بالسبتهم ثلثة من السجدة ، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفعها .

لعل لكل هذا أو بعضه أثراً ما في تضيق مجال الخطابة والاستفتاء عنها بالرسائل والمنشورات العامة . ومهما يكن من شيء ، فقد أُلقيت في عصر المأمون خُطبٌ قليلة القدر والقيمة ، نشر لك منها على سبيل المثال خطبتين . إحداهما للمأمون في عيد الفطر ، والأخرى تهنئة بمقدم المأمون الى سداد .

خطبة المأمون :

ألا وإن يومكم هذا يوم عيدٍ وسه وأتاهل وورعية ، يوم حتم به الله صيام شهر رمضان ، والتتح به تحّ يشه الحرام ، بفعله أول أيام شهور الحج ، وجعله ممكناً لمفروض صيامكم ومتمكلاً قيامكم ، فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم ، فانه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار ، ولا قليل مع تمادٍ وإصرار . اتقوا الله عباد الله ، وادبروا الأمر الذي لم يحضر الشك فيه أحداً منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا يستقال سده عثرة ، ولا تحطّر قبله توبة . واعلموا أنه لا شيء بعده الا فوقه ، ولا يُصير على جرعه وعَلّزِه وكُربِه ، وعلى القسر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة ملكيّته ، إلا الصلّ الصالح الذي أمر الله به ، من زالت عنه الموت قدّمه ، فقد ظهرت بذاتُه وفاته استقائقُه ، ودعا من الرجعة مالا يُباح اليه ، وبذل من الفدية مالا يُقبل منه ، فانه الله عباد الله ، كونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها إذ مُيّمها الذين طلبوها ، فانه ليس يمتنى المتقشرون قبلكم ، إلا هذا الأمل المبسوط لكم . فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم . فلينظر عبداً ما يَضَعُ في ميزانه مما يتكل به ، ومما يُنقى في صحيفته الحافظة لما عليه . ولست أنهاكم عن الدنيا بما أكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كل ما بها يُحذر منها وينهى عنها ، وكل ما فيها يدهو الى عيرها . وأعظم ما رآته أعينكم من بئاستها وزوالها ذم الله لها والنهى عنها ، فانه يقول تبارك

وتعالى : ﴿ فَلَا تَفْرَحُوا بِهَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا يَبْقَىٰ فِيهَا لَبَدٌ بَالِغٌ فِي السُّعُورِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمِزٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَنَافِعُ يَتَذَكَّرُونَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ . فانتفعوا بمعرفتك بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمة الله ، لحِدروا بمصارعها ، وحانبوا حداثتها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبة التهئة :

قال أبو طاهر : دخل المأمون سداد فلقاه وحوهاها ، فقال له رجل مهم : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مَقْدَمِكَ ، وزاد في نعمتك ، وشركك عن رعينك ، تقدمت من قبلك ، وأتمت من بعدك ، وأياست أن يُعَايَنَ مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما بقي فلا نرجوه ، نحن جميعا ندعوك ونُثْنِي عليك . خَصَبَ لنا حمارك ، وعذب ثوابك ، وحسنت نظرتك ، وكُرمَت مقدوتك ، حبرت الفقير ، وفككت الأسير ، وانخبر ضائك ، والشرب ساحة أعدائك ، والبصر موطئ بلوائك ، والخذلان مع ألوية حُسادك ، والبرص ملك ، قد طَحَطَحَ عدوك غصبك ، وهزم معاينهم مشهدك ، وسار في الناس عدلك ، وشسع بالصر ذكرك ، وسجى قوارع الأعداء ظفرك ، الذهب عطاؤك ، والدواة رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .



(د) الكتابة :

قلنا في كلمتنا عن الكتابة في صدر العصر العباسي : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتابة فتعددت أغراضها ، وتنوعت أساليبها ، ومال الكتاب الى السهولة في العبارة ، والتأنق في اللفظ ، والجودة في الرصف ، وأطالوا في المقدمات ، وتوسعوا المدا والختام ، والألقاب والدعاء ، ومالوا الى التلو والمبالغة . ثم قلنا صد كلام : أما الإطباب في الكتابة فكان صفة غالبية في كل ما شِئِلَ بَيْعَةً ، أو عهدا ، أو احتجاجا ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمذهب ، أو استهواء أودعنا لشبهة ، أو طلبا لجملة ... الخ . وقد أشتنا لك جملة صالحة

من آثار العصر المأموني مما يقوم حجة على ما ذهبنا إليه . ونحملك الى رسالة أبي الربيع محمد بن الليث، الى قُسْطَطين ملك الروم ، والى رساله يحيى بن زياد الحارثي في تقرير أمير المؤمنين الرشيد؛ وقد أثبتاهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — في باب المنثور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني، كما أثبتنا لك في الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالة قُبَّةَ للمأمون تسمى رسالة الحميس، كان بحث بها الى أهل نُحْرَاسان كمشور من الخليفة . ورسالة مُنْتَمِعَة لسهل بن هارون حازن بيت الحكمة في عهده، فراجع ذلك مُتَمَّ .

ولو قد ذهبنا بورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لَعَدَوْنَا القصد وأملنا، حسبنا ما أحسناك الى مراجعته الآن ، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا إليه . وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن نَعْرِضَ لها تحليل أو بيان . فهي في وصوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .



(هـ) مجالس المناظرة و"أبهاء" الأدب والغناء والمنادمة :

أما مجالس الماطرة ومكانتها السامية في العصر المأموني، فقد وقفت على طرف عظيم منه في الفصول التي عقدناها لك عن المأمون وعلمه، وأدبه، ودينه، وسياسته . هي مافلة القول وتكراره أن نقلها لك ها . وقصاراتنا أن نقول : إن المناقشات الخاطبة بين سيويه واليكساني في شأن مسألة نحوية، وبين الشعراء والأدباء في تمهصيل شاعر على شاعر، وبين السُنيين والمعتزلة في القول بخلق القرآن ، وأبهاء الأدب عبد الأمين والمأمون وأنصارهما ، وأمرء العرب كابن دُثَّاق وعبد الله بن طاهر وعيرهما ، لتدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة في هذا العصر من مكانة ، حتى أصبحت من أهم مميزات وكُبريات آثاره .

وأما المنادمة والغناء، فقد سبق أن قلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادمة في الصدر العباسي . وقد آن لنا أن نُمَتِّمَ لك القول في حالتها في العصر المأموني ،

ونجلىك في الوقت نفسه الى كتاب حَلَبَةُ الكَيْت، والأعاني، ونهاية الأرب، وغيرها من كتب الأدب، فهي مُترعة بأخبار السماء والمادة، عينةٌ أحار الماديين والمعس .

سئل إصحاق بن ابراهيم الموصلى عن رايه في حال المادمة في تلك الأيام . فقال عن الأمين: ما كان أعجب أمره كله، فاما تبدله فما كان يُلى أين قعد ومع من قعد، وكان لو كان بيه وبين ندمائه مائه يحجب حرقها كلها وألقاها عن وجهه، حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخلقٍ لدعيب وقصة، وأسبهم للأموال اذا طرب أو لمّا، وقد رأيتُه وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلة يوقر زورق ذهاباً فاصرف به، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحُملت أمانى. ولقد عآه ابراهيم بن المهدي عآء لم أرتضه، فقام عن مجلسه فأكت طيه فقبل رأسه، فقام ابراهيم فقل ما وطئت رحلاه من بساطه فأمر له بما تى ألف دينار . ولقد رأيتُه يوماً وعلى رأسه مص غنما به مطر اليه، فقال: ويلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، إنطلق نقد ثلاثين بَذره فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثني علويه الأعسر، وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف عه قال . لمّا أُحيط به ولفنت حجارة المسجيق بساطه، كما عده، ففتته حارية له بعاء تركت فيه شيئاً لم يُحمد حكايته، فصاح: يارانية، تُفنيّ الخطأ! حدوها لحملت، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المادمة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهراً، لم يسمع حرفاً من الغناء، ثم سمعه من وراء حجاب متشبهاً بالرشيد، فكان كذلك سبع حجج، ثم طهر للنسباء والمفتين . قال: وكان حين أحبّ المماع ظاهراً بعينه، أكبر ذاك أهل بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إصحاق بن ابراهيم الموصلى، فغمزه بعض من حصر وقالوا: ما يفادر تيباً وبأوأ، فأمسك عن ذكره . قال بقاءه زُر زُر يوماً، فقال له: يا إصحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إصحاق: ففتته بهذا الشعر:

بِاسْرَاحَةِ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ * أَمَّا إِلَيْكَ طَرِيقٌ غَيْرُ مَسْدُودٍ
لِحَالَتِهِ حَامٍ حَتَّى لَا حَرَكَهَ بِهِ * مُخَلِّجٌ عَنِ سَبِيلِ الْمَاءِ مَطْرُودٍ

فلما عتاه به زُرْزُرُ أطربه و بهجه ، وحرك له جوارحه ؛ وقال : ويلك ! من هذا ؟ قال :
عدك المحفوق المَطْرَح . ياسيدي إسحاق ! قال يحصر الساعة ! بجاءه رسوله ، وإسحاق مستعد ،
قد علم أنه إن سمع الماء من بُجيد مُؤد أنه سيبحث إليه ، بجاءه الرسول ، فحدث أنه لما دخل
عليه ، ودأبه ، مديده إليه ، ثم قال : أذن منى فأتى عليه ، واحتصه المأمون وأداه ،
وأقبل عليه بوجهه مُضِعياً إليه ، مسروراً به .

وحسبنا هذا القدر . وإن أردت زيادة وإفاضة فانا نُحيلك الى بعض أخبارها في الجزء
السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع .



(و) الشعر :

أشرنا في كتابنا عن حالة الشعر ومونه في صدر العصر العباسي ، الى ما أخذ يحصل هو
إليه أيضاً ، تما لمقتضيات العصر وطروف الزمان ، ومسيرة للحياه الاجتماعية والاقتصادية ،
ولما حد على أحوال الناس ومعايشهم من العنى والترف ، وما يستلزمه الفنى والترف من
الاستمتاع بالوان اللهو واللذات ، والاتقان فى ساء القصور والسمن وإنشاء الحدائق
والمتنزهات . ولقد كان فى مرحونا أن نورد لك فصلاً خاصاً نصنمه ما كان من الحلفاء
فى إقامة مباه وقصور وحدائق ودور ، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقة عهد ، وإنما
ألبانهم إليها المدنية والبذخ ، وما أصابوه فيها من رفاهة عيش ، وسعة يد ، ووفرة عنى .
سيد أن ذلك يطول ، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القصص والإيجاز ، مع الإسلام
بكافة النواحي لهذا العصر .

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ما وصل إليه الخلفاء العباسيون وأمراء الكليث
الممالك ورحلات الدولة من الثروة والبذخ، بما أوتينا إليه في كلنا عن نجاج الدولة،
وما كان فيها من استصعافٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادثة عيمة، فقد اشتدت الملاحاة بين
شيعة العلويين والعباسيين، وبلغ التراع غايته بين أصحاب المداهب وزعماء الآراء، ولا تنس
أن تضيف الى ما تقدم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد في أفكار
الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة في تمييزاتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حد ما، مرآة صادقة لأحواله وما كان
يحرى فيه من شؤون .

أسرف الناس في شرب الخمر فاقن الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتغير
الناس السقاء من الغلمان ومن زوى الغلمان، فوصف الشعراء السقاء وتفزلوا في الغلمان .
وولع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يحرى في مجال الصيد . وأقن الناس
كما قلنا في بهاء القصور وعير القصور، ففتحوا المجال واسما لخيال الشعراء في شتى الأبواب .
واشتدت المناقصة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأحد شعراء كل فريق ينضحون
عن رأيهم ويؤيدون مذهبهم . وألف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء
يماجون نظم الفقه والأخلاق والكلام . وهكذا تعددت أغراض الشعر وتنوعت ألوانه .

وتحصّر الناس في بغداد وغير بغداد من الحواصر الإسلامية، فرق طباغهم، ولانت
أخلاقهم، ونبت عن الحوشية أذوائهم، فرق شر أهل الحواضر، وسلبت ألفاظه، وصدت
من الحوشية . وترجمت العلوم اليونانية وغير اليونانية، من فلسفة ومطلق وأخلاق، فكان
لهذه العلوم أثرها في تنظيم أفكار الشعراء ودقة خيالهم .

ولو ذهبنا نورد لك شواهد على كل هذا وغيره، لأطلنا وأملنا . وإنما نحيك على آثار
شعراء هذا العصر، كأبي نوّاس في الخمر وكؤوسها، وأوقات شربها وسقاتها، والفزل

بالعلماء، والصيّد، والطرد، ووصف مظاهر الحَصَاة العباسية. وكِدْعِل الخُرَاعِي والسيد الجُمَيْرِي في التّزاع السّياسِي بين العلَوِيّين والعباسيّين . وكأى التّأَمِّيّة في الأخلاق، وأمان ابن عبد الحميد في علم العلوم كالْفقه وغير الفقه . وهذه الإحالة لا تمعنا أن يورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا تعرض لنا ملاحظة نرى إيرادها حتّى علينا ، وهذه الملاحظة هي أن الشعر في عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجري فيها من شؤون الى حدّ ما .

نقول «الى حتما» . ويدفعنا الى هذا القول مُتَقَدِّمُ القويّ الذي تكوّن لنا من دراستنا لروح هذا العصر . ذلك ما نرى كثيرا من شعراء الحاصرة المُحْدِثِ في هذا العصر وفي العصر الذي قبله ، يتحلّون بتأخّ أنكارهم وما تحوّد به فرائضهم ، شعراء الجاهلية وأعراب البادية . ورى أيضا أن يكار الأرواء وأهل الأدب ، يُشَدُّون الشعر الجليد مُحَدَّث ، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرانيّ ، حتّى اذا تبين لهم أنه مُحَدَّث أنكروه وأزوروا عنه .

هذا يدلنا على أن جماعة قويّة يُتَدَبَّها في هذا العصر ، كانت تميل الى إثارة الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد . واذا كان هذا حقا كان من الطبيعي أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية في غير عصرهم ، وأن يكونوا بأخيلتهم في غير حاضرتهم ، لكن يتلقوا الرّوح العاليه ويَطْفَرُوا برضا العلماء . وقد يكون هؤلاء العلماء والرّواة خطّ كبير في صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المُحْدِثِ لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم ، بل على القيص كانت له منزلة رفيعة في النفوس .

لذلك نحن نميل الى القول بأن حير من يمثل هذا العصر أولئك المُحَدِّثون الذين لم يتقبلوا بكاء الأطلال ، والحين الى الرسوم ، كأبي نواس وأضراب أبي نواس .

على أنه يحذر بنا أن يورد لك مثلي مما كانوا يتذوّقونه في هذا العصر من شعر المُحْدِثِ ، وما قاله أبو دُلْف ناعيا منهج التّعمر ، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر في شقّي الاتّهام .

وقد نشرنا لك في باب المظلوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا المصركما نشرنا لك تلك القصيدة التي أنشدتها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدي حين طفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أُنْفِتُهُ به بل أعفو عنه . واطرأ الى مطلع القصيدة ، تر الفلسفة اليونانية حاضرة فيه :

ألم تر أن الشيءَ للشيءِ علَّةٌ * يكون له كالدار تُقَدَح بالزَّيد

وكان للمأمون حارية تسمى عَرِيب ، كانت تعشق جعفر بن حامد ، وكان يتعشقها ، فلما وجدت من المأمون غيلةً ، وصعت على فراشها مثال راحم ، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعدت الى السطح ونزلت في زَيْبِيل ، فلما قصي نَهْمَتَه منها قعدت في الرنيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون فلم يجدها ، فلم يرجع الى فراشها فلم يجدها ، فلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَرِيبًا * فقلت فعلا عجيبًا

ركب والليل دليج * مر بها صعباً مريباً

فارتقت متصلاً بالجم أومد قريباً

صبرت حتى اذا ما * أقصد النوم الرقيباً

مئت بين حشايا * ها لكى لا يستريباً

خلفاً منها اذا نوى * دى لم يلف مجيباً

ومصت يملها الخو * ف قصيباً وكثيباً

مخبة لو حركت خفت عليها أن تدوما

فشدت الهب * فلقاها حبيباً

جذلاً قد نال باله * نيا من الدنيا رغباً

أيها الظلي الذي تسحر عيناه القلوباً

والذي يأكل بعضاً * بعضه حسناً وطيباً

كُتِبَتْ ههنا لَدُنَّابِ * فَلَقَدْ أَطْمَعَتْ دِيْنًا
وَصَكَّدَا النَّائِيَّةَ اَدَامَ * يَكُ رَاعِيهَا لَيْسًا
لَا يِيَالِي وَبَأَ الْمَرْءِ * عَمَى اِذَا كَانَ حَصِيْدًا
وَلَقَدْ أَصْحَحَ عُدَّ * اَللهُ كَشَفَانَا^(١) حَرِيْبًا
قَدْ لَمْ نَمْرِي لَعَلَّ الْحَدَّ * وَقَدْ شَقَّ الْجِيُوْنَا
وَحَرَثَ مِنْهُ دُمُوْعٌ * بَلَّيْتُ الذَّقْنَ الْخَضِيْدَا

ومما يهتم من المعاني السياسية قصيدته محشوية الشاعر في يحيى بن أكنم قاضي المأمون
بالبصرة، إذ فيه أيضًا هجولال العباس وحلاقتهم . قال :

أَطْلَقْنِي الدَّهْرُ بَعْدَ اِنْحِرَاسِ * بِمَعَادِنَاتٍ أَطْلَقَتْ وَسَوَاسِي
يَا بُوْسَ الدَّهْرِ لَا يَزَالُ كَمَا * يَرِيقُ نَاسًا يُحِطُّ مِنْ نَاسِ
لَا أَطْلَعْتُ أُمَّةً وَحَقَّ لَهَا * طُولُ لَعْنٍ وَطُولُ اِنْعَاسِ
تَرْضَى بِمِجْيِ يَكُونُ سَائِمَهَا * وَلَيْسَ يَحْيِي لَهَا بَسْوَاسِ
قَاضٍ يَرَى الْحَدَّ فِي الرِّمَاءِ وَلَا * يَرَى عَلَى مَنْ يُلَوِّطُ مِنْ نَاسِ
يَحْكُمُ لِلْأَمْرِ دِ الْفَرِيفِ عَلَى * مِثْلِ جُوعِيٍّ وَمِثْلِ عُدَّاسِ^(٢)
فَالْحَدِّ قَدْ ذَهَبَ التَّجُودُ وَقَلَّ الْوَفَاءُ فِي النَّاسِ
أَمِيرُنَا جَائِرٌ وَقَاضِيُنَا * يُلَوِّطُ وَالرَّأْسُ شَرُّ مَا رَاسِ
لَوْ قَصِدَ الرَّأْسَ وَاسْتَقَامَ لَقَدْ * قَامَ عَلَى الْعَصْدِ كُلِّ مُرْتَاسِ
مَا أَحْسَبَ الْجَوْرَ يَنْقُصِي وَعَلَى النَّاسِ أَمِيرٌ مِنْ آلِ عَاسِ

وقد أثبتنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث مثلاً آخر من
المعاني قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكنم ، فراجعته ثمة .

(١) الكشف عن معاني الكاف وبكر : الديوث .

(٢) كذا في تاريخ بغداد وفي ابن حنبل ح ٢ ص ٣٢٦ : « مثل حرير ومثل عاس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل وهو الى حد ما يعتبر من الشعر السياسي . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوليد في هجاء قريش والافتحار بالانصار، ورد ابن قتيبة عليه . ولنا نحيك على موضع ذلك من مجلدنا الثاني للاطلاع عليه، لصيق المقام من إرادته هنا .

وفي هذه القصة الآتية طَرَافَة من الفِرَاسة في العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهي :

قال أبو السَّراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين الى مصر ، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة وِدْمَشْق ، ادَّخَسَ أَعْرَاضِي قَدْ اعْتَرَضَ ، فاذا شيخٌ فيه بَقِيَّةٌ ، على بَعِيرٍ له أَوْرَقٌ ، فسَلَّمَ علينا فرددا عليه السلام . قال أبو السَّراء : وأما وإسحاق بن إبراهيم الرَّافِقي ، وإسحاق بن أبي رَجَبٍ ، ونحن مُسَافِرُ الأَمِيرِ ، وكنا يومئذ أَقْرَبَ من الأمير دَوَابَّ ، وأجود منه كُفًى . قال : جعل الأعرابي يظفر وجوها ، قال : فقلت : يا شيخ ، قد أَلَحَّتْ في البَطَر ! أعْرِفْتَ شَيْئاً أَمْ أَكْرَهْتَ ؟ قال : لا والله ما عرفتمكم قبل يومى هذا ، ولا أَكْرَهُكُمْ لِسَوْءِ أَرَأَاهُمْ ، ولكنى رجل حَسْبُ الفِرَاسةِ في الناس جيد المعرفة بهم ؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبي رَجَبٍ ، فقلت : ما تقول في هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً دَاهِي الكُتَابَةِ يَنْ * عليه وتَدَيْبُ العِراقِ مَيِّدُ
له حَرَكَاتٌ قَدْ يَشَاهِدُنْ أَنَّهُ * عَلِيمٌ بِتَقْصِيطِ الخِرَاحِ بِصِيْرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرَّافِقي فقال :

ومظهر نَسِيكِ ما عليه صَمِيرُهُ * يَحِبُّ الهَدَايَا بِالرِّجَالِ مَكُورُ
أَحَالُ بِهِ جُبْنًا وَبَحْلًا وَشِجَّةً * تَحْبِرُ عَنْهُ إِنَّهُ لَوْزِيرُ

ثم نظر الى أَنفُسِهِ يقول :

وهذا نَدِيمُ للأَمِيرِ وَمُؤَنِّسُ * يَكُونُ لَهُ مَا قَرُبَ مِنْهُ سَرُورُ
وأَحْسِبُهُ للشَّعْرِ والعِلْمِ رَاوِيًا * فَبَعْضُ نَدِيمٍ مَرَّةً وَسَمِيرُ

ثم نظر إلى الأمير وأتانا يقول :

وهذا الأمير المرتضى سبَّ كفه ، فما إن له فمين رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبه * ووجه يادراك الجاح بشير
لقد عصم الإسلام منه بذائد * به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبدُ الله بن طاهر ، لنا والدٌ برُّ بنا وأمير

قال : موقع ذلك من عند الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بمحملة
دينار وأمره أن يصحبه .

هنا ، وقد حدث بعضهم قال : احتج أصحاب المأمون عده يوما ، فأفصوا في ذكر
الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسلم بن الوليد حيث يقول ،
قال : ماذا قال ؟ قال : حيث يقول ورثي رجلا :

أرادوا ليُحموا قبره عن عدوه * فطيبُ تراب القبر دلَّ على القبر
وهما رجلا ببيع الوجه والأخلاق فقال :
قُبِّحَتْ مَاطَرُهُ لَعْنِ حَبْرَتِهِ * حُسَّتْ مَاطَرُهُ انْبِيعِ الْحَبْرِ
ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يحمود بالنفس إن صَنَّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أُنْقِصَ غاية الجود
وتنزَّل فقال :

هوَى يَمْدٌ وَحَيْبٌ يَلْبُ . أنت لقيَ بينهما مُعَذَّبٌ ^(١)

ومما كان يستحسه المأمون من دُعيل الخزازي هَجَاءُ المأمون المعروف قوله :

ألم يَأْنِ لِلسَّفَرِ الَّذِينَ تَحْمَلُوا * إلى وطني قبل المات رجوعُ
فقلتُ ولم أملك سِوَا بَقِيَّةِ عَثْرَةٍ * فَطَفَسَ بِمَا حَمَّتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُ

تَبَيَّنَ فَمَكٌ دَارٍ تَفْزُقُ شَمْلُهَا * وَشَمْلُ شَتِيتٍ عَادٍ وَهُوَ جَمِيعُ
طَوَالِ اللَّيَالِي صَرَفُهَا كَمَا تَرَى * لِكُلِّ أَمَاسٍ جَدْبَةٌ وَرَبِيعُ

وقد حدث ابن طيمور عن مشيخته أن مصورا القيرى، والحسن بن هاني، وأبا العتاهية^(١)
وأما زعبة احتتمعوا فتذاكروا أسيانا على وزن واحد، ففُصِّلَ أبو العتاهية عليهم. فقال القيرى:

أَعْمِرُ كَيْفَ بِحَاجِيهِ * طُلَيْتُ إِلَى صُفْمِ الصَّحُورِ
فَهْ دَرَّ عُدَاتُكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْغُرُورِ
وَلَقَدْ تَبَيَّنَ أَمَامِي .. يَحْيَى رُمَانِ السُّحُورِ

وقال أبو العتاهية :

فَتَبَيَّنَ عَلَى الرِّمْسِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْخَوَرَقِيِّ وَالسَّيْدِ
إِدْنُ نَحْسٍ وَغُرْفِ الْجَاهِ * نِ تَعُومُ فِي بَحْرِ الْمُرُورِ

وقال الحسن بن هاني .

وَعَظْمُكَ وَاعْظَمُ الْقَتِيرِ^(٢) * وَعَظْمُكَ أَهْمُ الْعَكْرِ
وَرَدَدْتُ مَا كُنْتُ أَسْتَعْرِ . تَ مِنْ الشَّابِّ إِلَى الْمَعِيرِ
وَلَقَدْ تَحَلَّ سَقْوَهُ السَّالِبَابِ مِنْ قَرَارِ الْقُصُورِ^(٣)
صُورُ إِلَيْكَ مَوْنَا * تَ الْبَلَّ فِي زَيْ الدُّكُورِ
أُرْهِقَنَّ لِرَهَافِ الْأَعْيَشِ وَالْحَمَائِلِ وَالشُّبُورِ
أَصْدَاعُهُنَّ مَعْقَرَا * تَ وَالشُّوَارِبِ مِنْ عَيْرِ

قال المحدث : ولا أحفظ ما قال أبو زعبة ، ففصلوا أما العتاهية ، وأبو نؤاس عدى

أشعرهم .

(١) كذا في تاريخ بغداد ، وعلق عليه مباشرة أنه في ديوانه « ابن ربيع » .

(٢) القتير : الشيب .

(٣) القوة : ساحة الدار .

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دلف قد قصّر في أمره ، فبحث إليه من عزله
وقيّده وحسبه ، فكتب الى أبي دلف من السجن كتاباً شطّح فيه وقعر وطول ، فكتب
إليه أبو دلف :

يا صاحبّ الطويل في كُتَيْبِهِ * وصاحبّ القصير في معلِهِ
وراكبّ الغامض من جهله * وتارك الواضع من عقله
لم يُحِطْ مَنْ أَلْزَمَهُ قَيْدُهُ * بل صير القيد إلى أهله
قيداً للهِيس تقعيْرُهُ * فالقيد لن يخرج من رِجله
والله لا فارقه قَيْدُهُ * أو يقطعّ التقعير من أصله

وفي الختام نرى لزماً في صفحا ، أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفاً لثورة بغداد
وحريقها ، وصل رثائهم للأئمين ونماذج أخرى لمختلف مقولاتهم في مختلف المباحي .
وقد شمرنا لك من هذا جملة صالحة في باب المظلوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث ،
فإنها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشرف في ذلك العصر ، فراجعهُ ثمة .

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أئثم القاصي — اسحاق بن ابراهيم .

(١) توطئة :

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أحتار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من الناهة والكفاية بمكان، وقد كان يحلّو حقا ويسرق أيمًا سرور لو أنسعت رسالي للكثافة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقصاة وشعراء وكتاب وأطباء ومعينين ونُدماء، بيد أن ذلك يتطلب سعة لا يحتملها هذا المقام .

عل أما قد رأيت أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر، وعن « الجاحظ » من ملوك الكتاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أبان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كَلْبَلَة وَدَمَة ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأموني ومدبج رسالاته ، وعن « يحيى بن أئثم » قاصي قصباته وأحيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

وعترف لك بأن في كتابنا شيئا من التقصير نحسه، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة في الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قَلَّ لرسالتنا به .
« وعد » فليبدأ بهذه النماذج فقول :

(ب) جبرائيل بن بختيشوع الطبيب النسطوري :

لنا نريد أن نستلطف في الحديث عن بختيشوع الطبيب الشهير وإنما نريد أن نلمّ السّامة به يتعزف منها القارئ ما كان للرحل من أثر في عصره فقول : إن هذه

الأُسرة هي الأسرة الوحيدة التَّسْطُورِيَّة، التي استقام دور عِزِّها ثلاثة قرون، كان لها خلاها حفظ وجاه، وكانت لأفرادها حُطُوه، فاستعملهم الخلفاء العباسيون، فاستفَعوا من الخلفاء، وفعوا الطب وغير الطب من العلوم آثارهم ومُتَمَنَعات عقولهم .

أما هذه التسمية فسرنا به، وهي مرصكه من لفظتين سريائيتين، بُحِثَ ومعه العبد، ويُنسُوع ومعه يسوع أى عد يسوع، وكانت هذه الأسرة من مدينه حُدَيْسَاوَر، وأوَّل من عرفه التاريخ منها هو ديورحس بن حبرائيل بن يحيىشوع وكان يزاول مهنة الطب قَرَعَ فيها، وَتَه دَكره، وأقم رئيساً لمستشفى مدينه حتى إن أبا جعفر المصور قد أرسل وهذا من قَبْلَه الى حديساوور يستدعيه إليه إذ كان قد اتابه مرض فنجرت عن شعائه يُطْكَس الأطباء فتأى بِحُتَيْشُوع نادى الرأى حتى اعقله العامل، ولكن أعيان بلده من مَطَارِيَّة وَقَسَاوَسَه وغير هؤلاء بصحوا له بأن يمثل للامر، فافقاد لصبيحهم ووتى وجهه شَطَر دار السلام، ثم كانت له حُطُوه عبد المصور . وما كما ليستطرد في الحديث عن هذه الأسرة، وإنما سقا هذه الكلمة لما تى على شئ من أحوار أسرة حبرائيل، لُظْهَر ما لهذا الرجل من المكانة في عالم الطب، وأنه من سُلَّالَه كانت تنوارت أحوالها عن أسلافها هذه الصاعقة .

يقول : إن حبرائيل هذا، قد سيع على مثال دَوِيَه، وطهرت فيه عوامل الوراثة، مورث عن آبائه الصمعات الأدبية، وَوَرَعَ في صِباعه الطب، وكان الى جانب هذا وديع الخلق، لطيف المَحْصَر، كريم السَّحَايا، عُرف في حق الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن بَرَمَك، بعد أن أُنْثِلَ من مرضه ناعتاه بِحُتَيْشُوع، رعب اليه أن يبق معه طبيباً له، فاعتذر وأجاب عه ابه حبرائيل هذا، فلفى منه كل رعاية . وكاشعه جعفر بداء خفى كان قد أصابه، فعالجه حبرائيل في ثلاثة أيام، وشفى جعفر فرادت مكانة حبرائيل عنده، وقربه منه فكان حليسه، وكان نديمه، وكان لا يفارقه ساعه واحده . وَحَدَّثَ أن حارِية من جوارى هارون الرشيد قد يَبَسَتْ ذراعُها، فأبراها جبرائيل بِحِيلَةٍ لطيفه بعد أن

أخفق الأطباء في معالجتها، فعاه بمحسب ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له إلى حاحه فليحاطب بها حبرائيل لأنى أقبل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، وكان في محبة الرشيد أبجا حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه إلى الرقة وصار معه إلى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرص حبرائيل على الخليفة أن يكون له حاداه، فقبله ورتب به، ولم يكن يأكل شيئا إلا مادته، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل حبرائيل ولم يُطلق سراحه حتى شَقَعَ فيه الحَسَّ برِسهل . وفي سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٦ م مرض المأمون مرضا أعجز أطباءه وكان في مقدمتهم ميخائيل صهر حبرائيل، فأحد حبرائيل على صسه شفاء المأمون، وكان مُوقفا، فلم تنص أيام حتى شفى المأمون، فصره سمائه واتخذة أنيسا ونديما، ولم يقب احترام المأمون لحبرائيل وإكرامه له عده هذا الحد بل قد عدّاه إلى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره إلى الموطعين والعمال والقواد، بأن يوقروا حبرائيل ويُجلّوه، وكان الرجل يتدخل في شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنسية، وبتأثيره انْتُخِبَ الطريق جيوارجيس المعروف بأن الصباغ فتولى الرئاسة الديبية في طائفته وهو في سن الشيخوخة . ولما كانت سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م . مرض حبرائيل، واتفق أن الخليفة المأمون كان في ذلك العهد قد سافر إلى بلاد الروم، فأقدم المرض حبرائيل عن ملازمته، ولكنه أناب عنه ابنه نختيشوع، ولم يرجع المأمون ونختيشوع من رحلتهما حتى كان حبرائيل قد توفى . فأنقِم له . أنتم حافل، قلما كان مثله في ذلك العصر . ودعى في مديس القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيرا، وملكا واسعا، فكانت له صياح مُخَنَّدَسَاوَر والسوس والبصرة والسواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة في المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة في المطعم والمشرب قدمها إلى المأمون، وكتاب المدخل إلى صاعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب وهي مختصر تأليف ديروكوريدس وحاليوس وبولس الايميني، وله أيضا كتاب في صاعة البحور وقد نسب إليه السمعاني في مكتبته الشرقية معجما سريانيا على أن هذا مشكوك في روايته .



(ج) الجاحظ :

«الكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً، وظَرْفٌ حُشِي طَرْفاً، وبستانٌ يُقْبَلُ في رُؤْدَى، وروضةٌ تَقْلَبُ في شَجَرٍ، يَنتَهِقُ عن الموتى، ويترحمُ كَلَامَ الأحياء، ولا أعلمُ حاراً أبز، ولا خَلِيطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معاتباً أخضع . ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، وأقلَّ جنابةً ، ولا أقلَّ إمتلاءً وإزماً، ولا أقلَّ حلاها وإجراماً، ولا أقلَّ غيبةً ، ولا أهدى من عَظِيمةً ^(١)، ولا أكثرَ أعْجوبةً وتصرفاً . ولا أقلَّ صلفاً وتكلفاً، ولا أهدى من مِرَاءٍ، ولا أَتْرَكَ لَشْفٍ، ولا أزهى في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ من كتاب . ولا أعلمُ قريباً أحسنَ مواناةً، ولا أعلمُ مكافأةً، ولا أحصرَ مَعُونَةً، ولا أقلَّ مؤونةً ، ولا شجرةً أطولَ عمرها، ولا أجمعَ أمراً ، ولا أطيبَ نعمةً، ولا أقربَ مُخْتَقً، ولا أسرعَ إدراكاً في كلِّ أوانٍ، ولا أَوْحَدَ في غيرِ إِيَّانٍ من كتاب . ولا أعلمُ تنجافاً حَدَاثةً سه، وقرَّبَ ميلاده، ورخصَ ثَمه، وإمكانَ جوده، يجمعُ من التدايرِ الحسنة ، والعلومِ الفريسة ، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة ، ومحمودِ الأخبارِ اللطيفة، ومن الحكمِ الزقيقة، ومن المداهبِ القويمة، والتجاربِ الحكيمة، والاختارِ عن القرونِ الماضية، والبلادِ المتراخية، والأمثالِ السائرة، والأهمِ النائدة ما يجمعُ الكتاب .»

هذا الأسلوب الحسن في مَنَاحه ، الناصع البياض في مَنَابه، الداني القُطوف، السيد في منبهِه، العذب في مورده : يحاطبنا شيخُ الكتابِ غيرَ مدافع، والمتن في الرسائل غيرَ مازع، أو عُثْمانُ عمرو س يبحر الجاحظُ عبارات تُستَساع في غير مؤونة ولا كَدَ ذهن ، وتُستوعب بلا إرهافٍ حاطر ولا إعات روية . والجاحظُ أيَّدك الله ليس وراءَ كتاباته — كما تعلم — مذهبٌ لمستفيد، ولا مَرَادُ لراغبٍ قَرَّها متناسبة مَرَاصِفُه ، وألماظها متنخلة متحبرة . وعاراتُها مُطَرَّدة منسجمة ، وجلُّها مما يُوطأ له مِهَادُ الطبع ، ويرتفع له حجاب السمع، وهي — وأنتَ حِدٌ عليم — من ذلك النوع الذي يدخل الأذان لا استئذان، لمكانها

من الألباب، وهو من أهل ذلك يتطلب ما درسا تحليليا مطقولا، وليس هذا في مقدورها لتمتد الموضوعات التي بها، ولأنها تستلزم عناية بعثها، والاشارة إليها، تقدر ما يتطلبه المحافظ من عاية ودرس، فلنكتفي بالأساعة موجهة عن حياه هذا الباعه العذ الذي تسم ذروة الكمال، وطلع عاية النصع في الأدب العربي وفنونه، وكان الى حاب هذا صاحب مذهب في الاعتزال، هو المذهب المحافظي، معتمدين فيها على ما كتبه ابن حنكآن وصاحب معجم الأدياء ومؤلفات المحافظ عنه .

نشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب المحافظ . ولم تكن أسرته برفعة القدر ولا سامية المكانة، بل على القيص كانت حذما وتحوّلا لمولاهم أبي القلمس عمرو بن قلع الجاني ثم القيمي النساب . وقد قيل : إن فرارا حدّ المحافظ كان حمالا، وإن المحافظ نفسه كان يبيع الخبز والسكك بسيعان .

قال المحافظ : أما أسس من أبي نواس بسة، ولدت في أوّل سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها . وانكّ المحافظ على العلم مد طفولته ابكبا عطيا، وشغف بالمطالعة والقراءة . وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هقان أحد معاصريه : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من المحافظ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كالنا ما كان، حتى إنه كان يتكرّري دكاكين الوراقين ويبيت للظرفها، ثم تقي أبو هقان الفتح بن حاقان، وذكر عنه اسماعيل بن إسحاق القاضي .

سمع المحافظ من أبي عبيده، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري . وأحد الجوع صديقه أبي الحسن الأحمسن . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والسرّي بن عبيدويه، وأبي يوسف القاضي، والجباج بن محمد بن حماد بن سلمة . والكلام عن أبي إسحاق ابراهيم بن سيار النظام المعترى النابه الذكر، وبه تأثر، وعليه نخزع في مذهبه في الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا ، وكان قُصَّارى همه ، في معداته ومراحته ونُكُوره وآصاله ، أن يجمع كتاباً أو يفهم باباً ، وكان العصر الذي فيه دَرَجَ وما على ما علمت من عزارة المسادة ، وتمتد التأليف ، وازدهام المعارف ، ووفرة مختلف الثقافات ، فلا غرو إذا أحزننا الجاحظ عن نفسه بقوله : «لقد نسيْتُ كُتَيْبِي» لقد نسيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم : رَمَّ أَكْثَنِي فقالوا : بأبي عثمان . ولا غرو إذا كان الجاحظ قد اتصل بكثير من علماء وبواع عصره ، وشيخه الكلاب والمترجمين من فارس وسُريان ، فتأثر ملارب دَكاؤُه بهذا الاحتلاط ، وطالَعَ حِجَاجَ ما تُرجم في أزمان المصور والرشد والمأمون ، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوى قراءته كأنها كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوزاقيين ويسيت فيها للظُر — كما قلنا آنفاً — فكان لذلك من بواع العالم .

وعلى عليه أمران اثنان : الكلام على طريقة المصنعة ، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة . ولقد قصي عاتة عمره بالصرة موهور الكرامة ، تحموا من حلائق الله ، سيما رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعباسية المعطايا والمنح ، لما كان يصنفه لهم من الرسائل التي كان يعتمد في كتابها التشيع لمذهبهم ومعاصده مزاعمهم وقصص أحوال محالقيهم . وكأب له مهاره في اللالع بمقولهم واثراز أموالهم . واقتصدارُ على التعسر في كل ما يعالجه وفي كل موقف . وكان ينجح كثيرا الى معداد في أواخر عصر المأمون وعمره ، فكان المأمون يُرفقه . ثم انقطع الى الاجتماع الى محمد بن الريات طَوَالَ وزاراته الثلاث ، ثم أقام بعد موت ابن الريات بالبصرة حتى أُصيب بالمالح ، فبقى معلوما حتى أسلم الروح .

ذكاؤه وخلقه :

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة . وله في ذلك نوادر هي من حوارق الطبيعة . وكان غريب الأطوار ، به شنود في أحواله وأطواره . ذلك لأنه كان يجمع بين الخلد والمكاهة ، حاصر الكتبة ، حاصر البلدية ، سريع

الناظر . وكانت به دُعابة وتُظَرَف وتَمَاجُن . وكان لا يَحْتَمِل لِمَا يَأْخُذُ النَّاسُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وما يتَوَاصَعُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَادَاتِ وَالرُّسُومِ وَأَنْوَاعِ الْمَصِيبَةِ وَالْمُدْهِيَةِ وَالْجَنَسِيَةِ . وكان كَرِيمَ الْأَحْلَاقِ ، كَرِيمَ الْيَدِ ، سَخِيحاً سَمِيحاً ، وَلَطِيفَ الْمُخَصَّرِ ، حَافِيفَ الرُّوحِ ، وكان عَلَى مَا بِهِ مِنْ دَمَامَةٍ ، طَائِفَةً إِلَى الطَّرْفِ وَحَلَاوَةِ اللَّعْطِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الصَّدِّيقَيْنِ .

اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تخرج على أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النُّظَام رِيعَ الْعِرْقَةِ الَّتِي تَنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الْمُعْتَرِلةِ ، وكان يُلَازِمُ أَسَاتِذَهُ هَذَا وَيَتَوَقَّرُ عَلَى دُرُوسِهِ . هُوَ أَهْلُ ذَلِكَ كَانَ الْجَاهِظُ مُعْتَرِلاً ، وَزَعِيمَ الْفِرْقَةِ الْجَاهِظِيَّةِ فِي الْإِعْتِرَالِ . وَقَدْ اسْتَفْعَ مَوَاهِنَهُ وَمَا حَبَاهُ اللَّهُ مِنْ فَصَاحَةِ الْكَلَامِ وَطَلَاقَةِ اللِّسَانِ وَحَسَنِ الْبَيَانِ ، فِي تَرْوِيحِ مَذْهَبِهِ وَالْمُجَادَلَةِ لَهُ ، فَكَانَ لِسَانَهُ الْمُعْتَرِلةَ الْبَاطِقَ ، وَسِلَاحَهُمُ الْقَاطِعَ . وَبَرَعَ فِي الْكَلَامِ ، وَحَلَطَهُ بِالْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ . وَبَرَمِيهِ كَثِيرُونَ بِالضَّلَالَةِ ، وَأَنَّهُ مَآخِذٌ مِهْدَارٌ ، مُتَنَاقِصٌ نَقَالٌ ، يَتَلَاَعِبُ بِالسَّاسِ ، وَيَبْهَسُ الْيَوْمَ مَا بَاهُ أَمْسٍ . وَقَدْ دَافَعَ عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ الْخِطَّابُ فِي كِتَابِهِ "الْإِنْتِقَادُ" عَلَى انْتِقَادَاتِ ابْنِ الرَّائِدِيِّ الْعَبِيفَةِ الْمُرَّةِ الَّتِي نَاقَلَ فِيهَا عَقِيدَةَ الْجَاهِظِ بِالتَّجْرِيعِ الشَّدِيدِ .

وَمَا قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْخِطَّابُ فِيمَا يَهْتَدِي بِهِ هِمَاتُ ابْنِ الرَّائِدِيِّ : « وَأَمَّا رَدُّكَ لِلْجَاهِظِ بِبَغْضِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرٍ لَا يَعْرِفُ الْحَبِيبُ مِنَ الْمُبْغِضِ ، وَلَا الْوَلِيُّ مِنَ الْمَدْعُورِ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَحَدًا مِنْهُمْ نَصْرَ الرِّسَالَةِ وَأَحْتِجَ لِلنُّصْرَةِ ، بَلْ فِي ذَلِكَ مَا يُلْفِيهِ الْجَاهِظُ ، وَلَا يَعْرِفُ ثَنًا فِي الْإِحْتِجَاحِ لِعَطْمِ الْقُرْآنِ وَغَيْبِ تَأْلِيفِهِ ، وَأَنَّهُ سَخِيحٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نُفُوتِهِ عِزَّاتُ الْجَاهِظِ . وَهَذِهِ كُنْتُهُ فِي إِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ ، وَكُتِبَتْ فِي تَصْحِيحِ عَجَى الْأَحْمَارِ مَشْهُورَةٌ . وَهَلْ يُسْتَدَلُّ عَلَى حُبِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ بِشَيْءٍ أَوْكَدَ مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى حُبِّ الْجَاهِظِ الرَّسُولَ وَتَصْدِيقِهِ إِيَّاهُ ! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهري ، والمسعودي ،
والبديع الهمداني ، وأبي العباس أحمد بن يحيى ، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ،
والمتح بن حافان ، والرئيس أبي الفصّل بن العميد وغيرهم شخصية الجاحظ بما تستحقه
من الصاية والدرس ومن النقد والتقريط ، مما لا تنتج لك هنا محاماة الإطالة والملل ،
فلتراجع في مطالعتها ومواضعها .

علمه :

يقول صاحب المعجم . « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الحاطر والحفظ بحيث
شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستعنى عن الوصف » . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بعلوم
الكلام ، كثير التحريه ، شديد الصبغ لحدوده ، ومن أعلم الناس به وفيه من علوم
الدين والدنيا . ولا عروفاً مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقاً ، غزير
المادة ، يَخَصُّصُ الدهن ، كثير المصنوع العقل ، وقد أكثر التصنيف في الأدب واللغات
والمكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار الشُّمار .

ويقول الفتح بن حافان في كتاب له إلى الجاحظ : « إن أمير المؤمنين يَحْدُثُ بك ، ويَهْشُ
عد دكرك ، ولولا عَظَمَتُكَ في نفسه ، لأمك ومعرفك ، لحال يدك وبين بؤدك عن
محله ، ولَعَصَبُكَ رأيك وتديرك فما أنت مشغول به ومتوقِّف عليه . ولقد كان ألقى إلى
مِنْ هذا عوانه ، فزدتك في نفسه ريادة كفها عن تحشيمك ، فاعرف في هذه الحال
واعتد هذه المنة على كتاب « الرد على البصاري » وافرح منه وعجل به إلى ، وكُنْ مِنْ
حدا به على نفسه ، وتال مشاهرتك . قد استطلقت له معنى ، واستسلت لك لسة
كاملة مستقلة ، وهذا مما لم تحتمك به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غام » ،
ولولا أني أزيد في تحريكك لعزفتك ما يعترقني عند قراءتها ، والسلام . »

رسائله :

الجاحظ كثير من قصار الرسائل وطولها ، منها : أنه كتب إلى عبد الله بن حافان في يوم
عيد : « أنترق العلة عن الوزر ، أعزّه الله ، فحصرت بالدهاء في كتابي ليوب عنى ،

وَيَعْمُرُ مَا أَخْلَقْتَ الْمَوَاتِي مَنِي، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَكْبَرُ الْأَعْيَادِ السَّامِعَةِ
بِرَكَةً عَلَى الْوَزِيرِ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْبَلَةِ فِيَا يُحِبُّ وَنَحْتُ لَهُ، وَيَعْمَلُ مَا مَا تَوْسِلُ بِهِ إِلَى
مَرْضَاتِهِ، وَيَصَافِي الْأَحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْأَحْسَانِ مِنْهُ، وَبِتَعَمُّهُ بِصِحَّةِ الْعَمَةِ وَلِئْسَ الْعَافِيَةُ،
وَلَا يُرِيهِ فِي مَسَرَّةٍ نَقْصًا، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا، وَبِجَعْلِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ هَدَاءً، فَيَصْرِفُ عَيْنِي
الْفِتْرَةَ عَنْ حَقْلِي مِنْهُ .

وَكُتِبَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزُّيَّاتِ سِتْعَطَعَهُ - «أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ سُوءِ الْعَصَبِ، وَعَصَمَكَ
مِنْ سَرَفِ الْمَوِي، وَصَرَفَ مَا أَعَارَكَ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى حُبِّ الْإِنْسَافِ، وَرَبَّحَ فِي قَلْبِكَ لِإِثَارِ
الْإِنَاءَةِ، فَقَدْ حُمْتُ، أَيْدِكَ اللَّهُ، أَنْ أَكُونَ عَدْلَكَ مِنَ الْمُسَوِّينَ إِلَى تَرْقِي السَّمَاءِ، وَبِحَانَةِ
الْحِكْمَاءِ . وَبَعْدَ، فَقَدْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ :

وَأِنْ أَمْرًا أَمْسَى وَأَصَحَّ سَالِمًا * مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لِسَعِيدٍ

وَقَالَ الْآخَرُ :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّةٍ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَالسَّاطِلِ

فَإِنْ كُنْتُ احْتَرَأْتُ عَلَيْكَ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ، صَلِّمْ احْتَرَأْتُ إِلَّا لِأَنْ دَوَّامَ تَنَافُلِكَ عَنِي
شَيْئُهُ بِالْإِهْمَالِ الَّذِي يُورِثُ الْإِعْمَالِ، وَالْعَوَى الْمُنْتَاعِ بِؤْيُسٍ مِنَ الْمَكَاافَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ عُيَيْنَةُ
ابْنُ حُصَيْنٍ مِنْ حُدُودِ لَحْيَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ : عَمْرُكَ كَانَ حَرًّا لِي مِنْكَ ! أَرْهَنِي فَأَتَّقَانِي، وَأَعْطَانِي
فَأَغَانِي . فَإِنْ كُنْتُ لَا تَهْبُ عَمَانِي، أَيْدِكَ اللَّهُ، لِحُدُودِ مَلَقْتُ لِي عَدْلَكَ، فَهَنَّهُ لِأَيْدِيكَ
عَنْدِي، فَاتِّبِ الْعَمَةَ تَشْعُرُ فِي الْقَمَةِ . وَإِلَّا تَفْعَلْ ذَلِكَ لَدُنْكَ، فَتُعْذِرُ إِلَى حَسَنِ الْعَادَةِ،
وَلَا فَاقْعَلْ ذَلِكَ لِحَسَنِ الْأَحْدُودَةِ، وَإِلَّا قَاتَلْتُ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْعَمُودُونَ مَا أَمَا أَهْلُهُ
مِنَ الْعُقُوبَةِ . فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَكَ تَعَمُّوعِ الْمُنْتَعِمِدِ، وَتَجَبَّأَتِي عَنْ عِقَابِ الْمُصْرَمِ، حَتَّى إِذَا
صَرَفْتَ إِلَى مِنْ هَفْوَتِهِ ذِكْرًا، وَذَنْهُ نَسْيَانٍ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشُّكْرَ إِلَّا لَكَ، وَالْإِنْعَامَ إِلَّا مِنْكَ،
هَجَمَتْ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ . وَاعْلَمْ، أَيْدِكَ اللَّهُ، أَنْ شَيْنَ عَصَبِكَ عَلَيَّ، كَرِّينَ صَفْحِكَ عَلَيَّ،
وَأَنْ مَوْتَ ذِكْرِي مَعَ اقْتِطَاعِ سَبِيٍّ مِنْكَ، لِحَاةِ ذِكْرِي مَعَ اتِّصَالِ سَبِيٍّ بِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ
فِعْلَةً عَلِيمًا، وَفِعْلَةً كَرِيمًا . وَالسَّلَامُ .

وللحافظ رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان آية في السلاعة أشتهاها في المجلد الثالث من هذا الكتاب .

وقد قال فيه مدح الزمان الممداني في المقامه الحاحطية . « إن الحاحط في أحد شقي البلاغة يَقْطِفُ ، والآحريقف ، والبلع من لم يَقْصُرْ نَطْمُهُ عن ثره ، ولم يُزِرْ كلامُهُ بشعره ، فهل تَرَوُونُ للباحط شعراً رائقاً قذا لا . قال : فَهَلُّوْا الى كلامه ، فهو سيدُ الاشارات ، قريبُ العبارات ، قليلُ الاستعارات ، مفادُ لُغْرِيانِ الكلام يستعملُهُ ، فَوَرُّهُ من مُتَعاصِه يُبْهِمُهُ ، فهل سمعتم له لفظاً مصبوعاً أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

شعره :

قيل : إن للحافظ شعراً ، ولكننا نظراً فيما يسسه له يموت بن المزدح وأبو العيَّاه وأبو الحسن البرمكي وغيرهم موحداًه أقل طقة من ملاغته . فما يُنسب اليه قوله .
يَطْبُيُ العيش أن تَلْقَى حِكْمِيَا * عداه العلمُ والعهمُ المصْبِيُ
يَكْشِفُ عك حَيْرَةَ كلِّ جهل * وفصلُ العلم يعرفه الليثُ
سَقَامُ الجِرْصِ ليس له شِعَاءُ * وداءُ الجهل ليس له طيبُ
مصنفاته :

صف الحاحط أكثر من مائ كتاب . قال المسعودي : وَكُنْتُ الجاحط مع انحراره مخلوَصَداً الأذهان ، وتكشِفَ واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورَصَفَها أحسن رَصَفٍ ، وكساها من كلامه أحسن وأجزل لفظ . وكان اذا تخوَّفَ مَلَلُ الفارئ وسامة السامع ، خرج من حِدِّ إلى هَزَلٍ ، ومن كلمة ليغته الى مادرة طرفة . وله كتبٌ حسان : منها « البيان والتبيين » وهو أشهرها ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنطوم ، وعرر الأشعار ومستحسن الأبحار وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقتصر لا كفى ، « وكتاب الحيوان » و « كتاب الطعيلين » و « كتاب الحلا » . وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها الى تصعيب ولا الى دفع حق . ولا يُعَلِّمُ من سَلَفٍ وحَلَفٍ أَصْحُ منه .
وقال ابن العميد : كتب الجاحط تعلِّمُ العقلَ أولاً والأدبَ ثانياً .

أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبد الله الخولي المتطلب قال : دخلنا يوما «بُسْرَمَنْ رَأَى» ، على عمرو بن بَحر الجاحظ سوده وقد فُلِجَ ، فلما أخذنا مجالسا ، أتى رسول المتوكل فيه ؛ فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بِشَى مائل ، ولُعَابِ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو عُرِرَ بالمسأل ما أحسّ ، والشق الآخر يمزّه الدباب فيُعَوِّث ، وأكثر ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتا من قصيدة عوف بن محمّل الخزاعي . قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفا دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتحل هذه القصيدة ارتحالا .

يا بى الذى دَانَ له المشرقان * طرأ وقد دان له المغربان
إِنَّ الثمانينَ وُلِّمَتْهَا * قد أحوجتُ سُمى الى تَرْجَمَانِ
وبَدَلْتَنِي بالشُّطَطِ المَحْنَا * وكَسْتُ كَالصُّمْدَةِ تَحْتَ السَّانِ
وبَدَلْتَنِي مِنْ زَمَاعِ العَقَى * وهَمَّتْ هَمَّ الجَبَانِ الهِدَانِ
وقَارَسْتُ مَنَى خُطَا لم تَكُنْ * مُقَارِبَاتٍ وَتَنَتْ مِنْ عِنَانِ
وَأَنشَأْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَرَى * عَانَةً مِنْ عَيْرِ نَسَجِ الْعَنَانِ
ولم تَدْعُ فِى الْمُسْتَمِيعِ * إِلَّا لِسَانِي ، وَبِحَسْبِي لِسَانِ
أَدْعُو بِهِ اللَّهَ وَآثِي بِهِ * عَلَى الْأَمِيرِ الْمُصْطَفَى الْحِجَانِ
فَقَرَّأَنِي ، فَاى أَنْعَمَ ، * مِنْ وَطَنِي قَبْلَ أَصْفَرَارِ الْبَنَانِ
وقَبْلَ مَنَامَى إِلَى نَسْوَةٍ * أَوْطَانُهَا حَرَّانُ وَالزُّقَاتَانِ

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبارى الحذل والتناظر ، ومثانة الأسلوب وتدفقه ، وسمو المنحى وبلاغته ، وقوة اللفظ ونفاخته ، حوسا عظيما الى الدعاية والطلائف والتندر والطرائف ، والمُلَحِّ والنَّحْبِ ، والكت مع الأدب ، مع خفة ظل ، وظَرْفِ روح حُبَّاه الى النفوس ، ومع نباعة وعبقرية جعلناه فوق الهام والرموس ، وصدوبة عبارة ، وماثية أسلوب ، كأنهما الراح فى الكؤوس !

ومن حملة أحباره أنه قال . ذكرت للتسوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظرى، فأمر لى عشرة آلاف درهم وصرفنى، فخرحت من عنده، فلقيتُ محمد بن ابراهيم، وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فمرص على الخروج معه والاعتماد فى حركاته، وكنا نُسَرِّ مَنْ رَأَى، فركنا فى الحزاقه، فلما اتبها الى م نهر القاطول، صر سناراً وأمرنا بالغناء، فاندعت عَوَادَةٌ فغنت :

كَلَّ يَوْمَ قَطِيعَةٌ وَعِثَابُ * سَقِضَى دَهْرُهَا وَمِنْ عِصَابُ
لَيْتَ شَعْرَى أَنَا خُصِصْتُ بِهَا * دُونَ ذَا الْحَلَقِ أَمْ كَذَا الْأَحَابُ
وَسَكَنْتُ، فَأَمَرَ الطُّشُورِيَّةَ فَغَنَّتْ :

وَأَرْحَمَتَا لِلْعَاشِقِيَا * مَا إِنْ أَرَى لَهُمُ مُعِيَا
كَمْ يُهَيَّجُونَ وَيُضَرِّمُونَ * نَوْفٌ يَطْمُونُ فَيُصْبِرُونَ

قال : فقالت لما العَوَادَةُ : فيصمون ماذا؟ قالت : هكذا يصمون، وصربت بيدها الى السار هتكته، و رزنت كأنها فُلُقَّةُ قُر، فألفت نَسَبَهَا فى الماء، وعلى رأس محمد علامٌ يصاهيها فى الجمال وببده مِذْبَةٌ، فأتى الموصع وطر البها وهى بين الماء وأنشد :

أَيُّ الَّتِى عَرَفْتِى * عَدَّ الْقَصَا لَوْ تَعَالَمِيَا

والتي نَمَسَهُ وِ أَنْرَهَا، فأدار الملاحُ الحزاقَةَ، فاذا بهما متعاقبان، ثم عاصا فلم يُرَيَا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما، ثم قال : يا عمرو لتُحَدِّثْنِ حَدِيثًا يُسَلِّى عَنِ هَذَيْنِ وَإِلَّا أَهْلَقْتُكُ بِهِمَا، قال : فحصرنى حديثُ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوماً، وغيرت عليه القصص، فمزت به قصةً فيها . « إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُخْرِجَ إِلَى جَارِيَتِهِ فَلَانَةً حَتَّى تَعْتَنِي ثَلَاثَةَ أَصْوَاتٍ فَفُلٌ » فاعتاط يزيد من ذلك وأمر مَنْ يَجرَحُ اليه ويأتيه برأسه، ثم أُنْجِ الرَسُولُ رَسُولًا آخَرَ، يأمره أَنْ يُدْخَلَ اليه الرَّجُلُ فَأَدْحِلْهُ، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بحملك والانتكال على عموك؛ فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا نرح، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعهما عودها، فقال لها
الفتى عني :

أفأعلم مهلاً بمص هذا التذلل * وإن كنت قد أذمت صرعى فأجمل
ففتته، فقال له يزيد : قل، فقال : عني :

تألق البرق محدياً قلت له * يا أيها البرى إلى عك مشغول

ففتته، فقال له يزيد : قل ، فقال : يا مولاي ، تأمر لي برطل شراب ! فأمر له به ،
فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليريد رمي صه على دماغه فمات ، فقال
يزيد : (إنا لله وانا إليه راجعون) أترأه الأحق الجاهل طن أنى أرحح إليه حارثي وأردّها
إلى ملكي ! يا علماني ، حدوها بيدها وأحملوها إلى أهلها إن كان له أهل وإلا فيعوها
وتصدقوا بجنّها ، فاطلقوها إلى أهلها ، فلما بوسطت الدار نظرت إلى حميرة في وسط دار
يزيد قد أعتت للطرف، فحدثت نفسها من أيديهم وأشدت :

من مات عشقاً فليمت هكذا * لا حير في عشق بلا موت

فألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت ، فسرّى عن محمد وأجرل صلي .

«وبعد» فإن رسالتنا لاتسع التيسط في القول، ولا سيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ،
التي نطلب كما قلنا رسالة منسوبة، لمكانة الرجل، فيما قدمناه لك عه العبه والكفاية. ورى
واجبا علينا قبل أن نحم كلمتنا أن نحيلك ههنا على رسالة خطية مرسوة إليه صرنا عليها
مدار الكتب المصرية . قيل إنه كتبها عن سي أمية : وسبق أن أشرنا إليها في كلمتنا عن
المصر الأموي . وهى وحدها تنطق بوحدة نظر الرجل ومدىه في الاعتزال، وتشهد بطول
باضه في التيسط والإسهاب، مع نخامة اللفظ وحلاوته، وفراغة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان
ومكانته، وقد أشتناها لك في باب المنثور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث . فراجعنا نمة .

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

هو أبان بن عبد الحميد بن لايح بن عفر مولى سي رقاش . كان بالصرة، ثم رحل
إلى البرامكة ببغداد ، فاتصل بهم ومدحهم وبال جوائزهم ؛ ثم قويت الصلة بينهم

وبينته حتى اتخدوه لهم معلماً ونصيحاً، يستشيرونه في مهام أمورهم وتدير شؤونهم .
 وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن حملوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون
 من الجوائز والصلوات لكن هذا المصعب . جعله عَرَضاً لِحُجُو الشعراء وذقهم ، لأنه
 ليس في مقدوره أن يرصيه جميعاً من جهة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حَكماً
 من جهة أخرى .

وكان أبو نواس من أشد هؤلاء الشعراء رِقْمَةً على أبان ، فان أما المرح الأصبهاني
 يحدثنا أن أما نواس لم يرض المرة التي حمله فيها أبان ، فقال يهجو بهذه الأبيات :

حَالِسْتُ يَوْمًا أَمَامًا * لَا فَزْ تَرُ أَمَانِ

ومح حَصْرُ رَوَايَ إِلَى : أَمِيرِ الْهَرَوَاتِ

حتى إِذَا مَا صَلَاةُ إِلَى أَوْلَى دَنَتْ لِأَوَانِ

فَقَامَ مُنْذَرُ رِي * مَالِغٍ وَالْإِحْسَانِ

فَكَلِمَا قَالَ فَلَا * إِلَى أَنْقِصَاءِ الْأَذَانِ

فَقَالَ كَيْفَ شَهِدْتُمْ * بِنَا هَبِيرِ عِيَانِ

لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى * تُعَارِنَ الْعِيَانِ

فَقُلْتُ سَبَحَاتُ رَبِّي * فَقَالَ سَمَحَاتُ مَانِي^(١)

وقيه القصيدة في ديوان أبي نواس .

فقال أبان يحميه : —

أَنْ يَكُنِي هَذَا السَّوَا * يَمِي لَا ذَنْبَ هَمَا

فَلَقَدْ ... حِينَا * وَصَفَّعَاءَ زَمَانَا

هَانِي الْجَوْنُ أَبْوَه * زَادَهُ اللَّهُ هَوَا

سَائِلِ الْعَبَّاسَ وَأَسْمَعِ * فِيهِ مِنْ أَمَلِكْ شَانَا

عَجَّنُوا مِنْ حُلَايَ * لِيَكِيدُوكَ عَجَانَا

وحلّار هذه هي أم أي نؤاس، كاب قد تزوّجها العباس بعد أبيه . ورتما كان
لباعت هذه الممّاترة بين أي نؤاس وأمان أثر كبير فيما كان بين أي نؤاس والبرامكة من
كراهيه وفضاء ، فان أمان نؤاس كان معروفاً بسمو المكااة في الشعر ، فلا يستطيع مثل
أمان أن يُبرّله عن مرليه التي هو حديرها ، إلا اذا كان في ذلك هوّى للبرامكة ، وقد يكون
نوحى مهم . لكن أمان نؤاس لم يجد مَصْدَرًا للحكم غير أمان قهّاه ، ولم يكن قهوه أمان ليشفى
عليه وإنما يشفى عليه لو استطاع أن يبال المصحو من راهم حليقين بهجوه ، وهم البرامكة
ولكنه لا يستطيع أن يبالغ بالهجو ، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أمان شدد الإعجاب بعبه ، مُدلاً عليه وأدبه . والقصيده التي قتمها للبرامكة ،
حين حاول أن يتصل بهم ، على زعم أن يكون له شيع من تربعهم فيه ، تُعطيا صورة
واضحه عه . وهذه هي القصيده -

أنا مِنْ نُبّة الأمير وكُنْتُ * مِنْ كُوز الأمير دوازيح
كانت حاسب حطيت أدب * صاح زائد على الصّاح
شاعر مُفلق أخف من الرّيشه مما يكون تحت الحاح
لى الحو فطنة واتّقاد * أنا فيه قِلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم نقوب سؤر الإنصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعر وقول السّيب والأمداح
وطريف الحديث في كل فن * ونصرتُ رُغبات الملاح
كم وقد حانت عدى حديثاً * هو عد الملك كالفتح
فيمنى تحلوا الملك وتلهو * وتناجى في المشكل الصّباح
أيمّن الساس طائراً يوم صيد * لمدوّ دُعيّت أو لزواح
أصّر الساس بالجوهر والخيال وبالخرد الحسان الصّباح
كلّ ذا قد جمعت والحمد لله على أنى طريق المّزاح

لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الما جن الخليج الوقاح
 لودى فى الأمير أصلحه الله رباحا تملت حد الرماح
 ما أنا واهى ولا مستكن * لسوى أمر سيدى ذى السباح
 لست بالصخم يا أميرى ولا القز * م ولا المحدث الدخاح
 طية جفده ووجه صبيح * واتقاد كشملة المصباح
 إن دعانى الأمير عابن منى : شمرياً كاللؤلئى الصباح

هل أن أن ، مع إعجابه نفسه ، وإدلاله عليه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يسار
 بكار معاصريه من الشعراء ، كأبى نؤاس وأضرابه ، فى قوة الشعر واختلاف صوبه ،
 وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعل ذلك رجع الى أنه كان ينقصه حب النفس ، وقوة الحس ، والخيال
 المدع للصور الشعرية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فان هذه القوى جميعا لا بد منها
 للشاعر ، لكن يחס وترع ويصور . وهذا يعنى بنا الى إحدى نتيجتين : إما أن نشك
 فيما وصف به نفسه : من جمال الظرف ، وجملة الروح ، واتقاد الذهى ، نشك فى أنصافه
 حقاً بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعوراً بما فى الحياة من صور للشعر ، وإما أنه
 كان قصير الباع فى تصوير ما تحسه نفسه . وكلا الأمرين يبعد التوفيق بين أبى نؤاس
 وأضراب أبى نؤاس . ولئن تقصته القوى التى تمتد بالصور الشعرية ، فقد وفق إلى
 فن حديد تحسب أنه لم يسبق إليه ، وهذا الفن لا يصطوره الى كد الفريجه وإعمال الفكر
 فى تصيد المعانى الخيلة ، وإرارها فى أنواب راهية حذابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من
 أن تكون لديه ملكة التنظيم ووزن الكلام ، اذ المعانى بين يديه ، لا يتكلف فى سبيلها
 سعيًا ، أو كد قريحه . وهذا الفن الحديد هو العلم التعليمى ، وهو أن يعتمد الشاعر
 الى كتاب معروف مشهور قبيطه ، أو الى قواعد عامة فى الشريعة أو فى اللغة أو فى فرع
 من فروعها ، فيظلمها أيضاً ، ليستهل حفظها ويقرت تناولها . وهذا ما فعله أبان ،

وما جعلنا نُؤثِّره بالكلام، فإن هذا النوع من النظم، يُمثِّل ناحية طَريقة من نواحي الأدب الجديدة في عصرنا المأموني. فقد يكون مُقَصِّرُين كلَّ التَّقصير، إذا أغفلنا ذكر مُتَدَمِّه ومُبْتَكِرِه. نقول « وهذا ما فعله أَنَا » فإن الصُّوليَّ وأما الفرح الأصمهُانيَّ يحدِّثاننا بأن أَنَا نَظَّم للبرامكة كتابَ كَلِيلَةٍ ودِمْنَةٍ، لِيَسْتَهْلَ عليهم حفظه، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفصل بن يحيى خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئا، وقال له: يكفيك أن أحفظه فأكونَ رَاوِيَتَكَ. وقد قلَّ الأصمهُانيَّ من هذا الكتاب يَتَيْنِ هـ :

هذا كتاب أدبٍ ومِحنة * وهو الذي يُدْعَى كَلِيلَةَ دِمْنَةٍ
فيه أَحْيَاءُ لَاتٌ وفيه رُشْدٌ * وهو كتاب وضعته المِنْدُ

وقد أبادت الأيام هذا الكتاب، كما أبادت كثيرا غيره من الكتب العربية القيمة، حتى يَلْسَ الأدباء والمؤرِّخون في العصر الحديث، من العثور على شيء منه. وقد يكون من حسن الحظ أن نلن سروروا أَنَا قد وُقِّفَا إلى جزء كبير من هذا الكتاب، في جزء أو أوراق من جزء من كتاب الأوراق المندوب للصُّولي، إذ عثرا عليه بدار الكتب المصرية مسدأ مد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وصَّه العرب من الموسوعات والمعانيات. وسنذكر في المجلد الثاني ما وحدهاه فيه.

ويحدِّثنا أبو العرج أَنه عمل أيضا القصيدة التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق، وسمَّاهَا دَاتِ الحُلُل، ومن اللباس من يَسُبُّهَا إلى أَبِي العَنَاهِيَّة، والصحيح أنها لَأَمَانَ. وسياق أبي العرج هذا، لا يدع سبيلا إلى الشك في وجود هذه القصيدة، ومع الأسف لم يقل إلينا منها شيئا.

ويحدِّثنا الصُّولي بسنده أن أَنَا، لما عمل كتابَ كَلِيلَةٍ ودِمْنَةٍ شعرا، في قصيدته المَزْدُوحة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما، فقيل له بعد ذلك: ألا تعمل شعرا في الزهد؟ فعمل قصيدة مَزْدُوحة في الصيام والزكاة، وقد وحدت هذه القصيدة،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أمان من م الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله في موضعه من المجلد الثاني .



(هـ) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو حمزة أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بني عجل . كان مذهب الرسائل والإنشاء ، وزره المأمون بعد أحمد بن أبي خالد ، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة في العلم والأدب ، والكفاة والشعر . حكى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وطلى بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابه :

أما مكانته في الكتابة فرسائله وتوقيعاته التي نحت بها صدور الأدب ، وزينت بها كتب التاريخ ، تحملها في مقدمة الكتاب ومن أئمتهم ، وهي بما فيها من حودة وإحكام ، وتبحر للألفاظ ، وسلاسة في المعاني ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخطاير ، وطلى أنه مالك أعة المعاني ومواصي الكلام . ولقد شهد له السق في الكتابة والرسائل بكار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولي : لما مات أحمد بن أبي خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فبمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه أحمد بن يوسف ، وأبى عباد ثابت بن يحيى الرازي ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرصيه ، فقال له : احترلى أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لذته قليلا ، فهو أحبهما إلى ، لأنه أعرف في الكتابة وأحسهما بلافة ، وأكثر علما ! فاستكنه المأمون .

وروى الصولي بسنده : أن الكتاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل ، فذكروا الماصين من الكتاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان في دولة بني العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس، وأن أشعر كتّاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الديات ، فابراهيم أجودهما شعرا، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب ، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى - أعزك الله - أن هؤلاء الكتّاب لم يقدموا أحدا من كتّاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكفاة . وإن قدموا عليه في الشعر . والحق أن نبوغه في الكفاة هو الذي كان سببا إلى ظهوره ورعته ، فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ' فوصف له أحمد بن يوسف فأحصاه لذلك ، فكتب :

«أما بعد، فإن المخلوع ، وإن كان قسيم أمير المؤمنين في السب والفتنة ، فقد فوق حُكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحُرمة ، لمعارفته عصمه الدين ، وحروجه عن إجماع المسلمين ؛ قال الله عز وجل لوح عليه السلام في آية (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَأَسَفٌ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعه ما كانت في ذات الله ؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بكافها أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبع شيء لمشيئته ، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين مالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالأخرة وهي الرُدة والقصيب ، والحمد لله الأحمد لأمر المؤمنين بحقه ، والكائد له من حان عهده وبكت عقده ، حتى رد الأئمة ، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرسى طاهر ذلك وأهذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه .

وقيل : إن المأمون لما جُل رأس المخلوع إليه ، وهو يجرؤ ، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين ، ليقرأ على الناس فكتبت عدة كتب لم يرصها المأمون ولا الفصل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عُرضت السعة على ذى الرياستين ، رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أصعبك ، ودعا بقهرمانه ، وأخذ القلم والقرطاس ،

وأقبل يكتب بما يقرع له من المازل، ويسدّ له فيها من القُرُش، والآلات، والكسوة، والكُرَاع، وغير ذلك، ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له: اذا كان في عد، فاقعد في الديوان، وليقعد جميع الكُتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق.

قيل: وما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلوات سابه: «داعي نذاك يا أمير المؤمنين، ومُبادي جنودك، جمعا الوفود بياك يرجون نائلك المعهود، فهم من يمت بحُرمة، ومنهم من يُبدل بمجدة، وقد أبجحف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعمهم بسببه، ويحقق حُسن ظنهم بطوّله، فقل إن شاء الله تعالى». فوقع المأمون: «الخير مُتّع، وأبواب الملوك معاني لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر:

يَسْقُطُ الطيرُ حيث يلتقط الحَبَّ وتُثْقَى منارِلُ الصُكْرَاءِ

فاكتب أسماء من يبأبأ منهم، وأحك مرآتهم، ليصل الى كل رجل قدر استحقاقه، ولا تتكدّر معروفا عدهم بطول المجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طرداً لحسْر • كإلصاق به طَرْفِ الهوان»

وقال ابراهيم بن العباس: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرني المأمون، أن أكتب الى السواحى في الاستكثار من القناديل في المساجد، فيت لا أدري كيف أفتتح الكلام، ولا كيف أآخده، فأتى آت في مامى، فقال: قل: فإن في ذلك أنساً للسائلة، وإصابة للتهجد، ونفياً لمكاس الرّيب، وتقريباً لبيوت الله عن وحشة القُلَم، فابتبت وقد أتممت الى ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه.

ومن رسائله أيضاً: "لقد أحلك الله في الشرف أعلى ذروتة، وطعك من الفضل أبعد عايتة، فالأمالُ اليك مصروفة، والأصاق اليك معطوفة، عندك تنتهى الهيَم السامية، وعليك تَقف الظنون الحسنة، وبك تُتَمّى الخناصر، وتُستمتع أغلاق المطالب، ولا يُستترت الشُّج من رحالك، ولا تمرّوه النوايب في دارك" وإنا نحيلك على ما أُنشئناه لك في المجلد الثالث من آثاره الممتعة.

شعره :

كان أحمد بن يوسف شاعرا مُعَرِّقا في الشعر كما كان مُعَرِّقا في الكتابة ، إلا أن حطه من الشعر كان دون حطه من الكتابة ، فإن تُقَاد عصره لم يقدِّموا عليه أحدا في الكتابة من ثُلاث بنى الماس ووزرائهم ، وقد قدِّموا عليه كثيرا في الشعر . وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الثُلاث على سبقه في الكتابة دون الشعر . وقد روى الصولى بسنده أن قَعْبَسَ مُحَمَّدُ بْنُ عُزْزْرِ الْبَاهِلِيّ قال : كما يقول لم يَلِ الوَرارةَ أشعر من أحمد بن يوسف ، حتى وَلِيَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فكان أشعرَ منه !

ولم يكن المدح كثيرا في شعر أحمد بن يوسف ، فإنه كان يحكم مركزه كودير للمأمون ورئيس ديوان رسالته ، غير محتاج إلى أن يتكسب بشعره ، أو بمدح الناس ، ولذلك لازى في شعره مدحا لغير المأمون ولغيره . وكذلك كان هجاءه قليلا ، فإن مروءته ، وأدبه ، ومركزه ، واعتداده بنفسه ، كل ذلك كان يرصه على أن يكون هجاء مُقَدِّما ، وإنما كان يُصْطَرُّ أحيانا إلى ذم أعدائه ومناصبه ، في غير إقْداع ولا هُش . فمن ذلك قوله في سعيد بن سالم الباهلي وولده - وقد كانت بينهم وبينه عداوة - فذكرهم يوما فقال : "لولا أن الله عز وجل ختم رسالته محمد صلى الله عليه وسلم ، وكُنَّته بالقرآن ، لبعت فيكم حتى نَقَمَ ، وأزل عليكم قرآنَ فَذْرٍ ، وما عَيبْتُ أن أقول في قوم ، محاسنهم مساوي السَّفل ، ومساوئهم فصائح الأمم " . وقال بهجوم :

أَبْنَى سَعِيدٍ إِنَّكُمْ مِنْ مَعْشَرٍ * لَا تُحْسِنُونَ كَرَامَةَ الْأَصْيَابِ
قَوْمٌ لِبَاهِلَةِ بْنِ أَصْغَرٍ إِنْ هُمُو * تَقَرُّوا حَسْبَهُمْ لَمَسْدِ مَنْزَفٍ
مَطْلُؤُوا الْعَدَاءَ إِلَى الْعِشَاءِ وَقَرُّوا * زَادًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ نَكَافٍ
بَيْنَا أَنْتَاكَ أَتَاهُمْ كِبَاؤُهُمْ * يَلْتَحُونَ فِي التَّبْدِيرِ وَالْإِسْرَافِ
وَكَأَنِّي لَمَّا حَطَلْتُ الْيَهُمُو * رَحَلْتُ حَطَلْتُ بِأَبْرِقِ الْعِزَافِ

أخلاقه وسيرته :

كان أحمد بن يوسف قبطاً ، نصيراً مأمونات الملك وآداب السلاطين ، دنيئاً سريع الخطا طردا مروءة وكرم ، وكان مع ذلك يصرب في المحبون واللهو بهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد الى حراسان لأبنته محمد ، وما وقع بين محمد وهذا وبينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه . إن عاشرت أحداً بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب وإن له مروءة . فما عرح محمد حين أنصرف من توديع أبيه على شيء حتى هم على أحمد بن يوسف في داره ، فأطال عده ، ففطن له أحمد فقال : يا جارية عدينا ، فأحصرت طبفاً وأربعة نقيّة وقدست ألوانا يسيرة وحلاوه وأعقب ذلك بأبواع من الأشرية في زجاج فاتحرواية حسنة وقال : يناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يشرف عبده ويحيته في عِدَ نعيمٍ بذلك . فبهض وهو متعجب من وصف أبيه له ، وأراد مصيحته ، فلم يترك قائداً حليلاً ولا رجلاً مدكوراً من أصحابه إلا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالندف معه ، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهله وأطهر مروءته ، فرأى محمد من الصائد والقرش والستور والفلجان والوصائف ما أدهشه ، ونصب ثلثمائة مائدة وقد حُفَّت ثلثمائة وصيعة ، ونقل الى كل مائدة ثلثمائة لون في صحاف الذهب والعصا ومئارد الصبي ، فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل من الباب ؟ فطروا ، فإذا جميع من الباب قد نصبت لهم الموائد فأكلوا ، فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن ! (كما في هذه الرواية كتبه أبي الحسن) فقال : أيها الأمير ، ذاك قوتي وهذه مروءتي .

أما اللهو والمجون فقد كان يحظه مهما عير قليل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل ، حين شاوره المأمون فيمن يختاره ، بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف وأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي ، فقال له . احترى أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد وجفا لذته قليلاً فهو أحبهما إليّ .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه، من الكئاب والشعراء والادباء، من ميل الى الغلبان .. ! لذلك لم يكن عزله بريئا، ولم يعالجه على أنه فنٌّ من فنون الشعر، وإنما كان عزله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه؛ فإفك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحمّله بأنه اصطحب النزل فأما من فنون الشعر؛ فقد كان موسى هذا في ناحيته، وهو الذي قدّمه وجرّحه، وكان يرى بما كان يُرى به مما عسك عن ذكره.

حدث موسى نفسه، فقال : وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم في مرّات .

وقد لامة محمد بن الحُهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه ، فكتب اليه أحمد اس يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكفّ عن عدله . وقد أسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من محو .

ومن عزله ما قاله في محمد بن سعيد بن حماد الكاتب، وكان يميل اليه، وقيل عنه إنه كان صبيّا مليحاً :

صَدَّ عَنِّي مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ * أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ ثَانِي حَيْدٍ

صَدَّ عَنِّي لَنْبِرُ جُرْمٍ إِلَيْهِ * لَيْسَ إِلَّا حُسْنُهُ فِي الصَّدُودِ

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه ، فنظر الى عارصه قد أحتط في حدّه ، فأخذ رقعة وكتب فيها :

حَالِكُ اللَّهِ مِنْ شَعْرٍ وَزَادَا * كَمَا أَلَسْتَ تَارِصَهُ الْخُدَادَا

أَعْمَرْتَ عَلَى تَوْزُدٍ وَجَنَّتِي * فَصَبِرْتَ أَحْمَرَاهَا سَوَادَا

ورى بها الى محمد بن سعيد ، فكتب مجيّا : عَظُمَ اللَّهُ أَجْرُكَ وَتَاسِدِي وَأَحْسَنُ لَكَ الْعَوْصُ مَيَّ ! !

وكان لظرفه وقطته وصره بالأمر موصلا لرضا المأمون وعطفه عليه . ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منه جعلته لا يتحرّز في كلامه كثيرا ، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أنف نفسه في بعض سقطاته ؛ فقد حكي : أن المأمون كان اذا تجرّ

طُرح له العود والمبر، فاذا بجرّ أمر بإخراج الجَمْرَةِ ووَضِعَها تحت الرجل من جلسائه إكراما له . وحصر أحمد بن يوسف وتجنّر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع الجمرة تحت أحمد بن يوسف، فقال : هاوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألأ يقال هذا ؟ ونحن نَصِلُ رجلا واحدا من حمدا بستة آلاف دينار ! إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسما بحورا واحدا، يُحصَرُ عَبراً ! فأحصر مَهْ شَيْء في الغاية من الجودة، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تُطرح القطعة في المحمرة يتحرّبها أحمد بن يوسف، ويُدْخِلُ رأسه في ريقه حتى يَمُدَّ بحورها، وقُصِّلَ به ذلك قطعة ثانية وثالثة، وهو يستميت ويصيح ، واصرف الى منزله وقد احترق دماغه، وأعل ومات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نسيم، لما من قلبه مكان حطير، فقالت ترثيه :
ولو أن ميتاً هَابَهُ الموتُ قَسَلَهُ * لما حاءه المقدار وهو هَيَّوْتُ
ولو أن حياً قَسَلَهُ هابه الردى * إذا لم يكن للأرض فيه نصيبُ
وقالت أيضا ترثيه :

نَقِيصِي فِدَاؤُكَ لَوْ بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ * مَا بِي عَلَيْكَ تَمَنُّوا أَهْمَ مَا تَوَا
وَلِلْوَرَى مَوْتُهُ فِي الدَّهْرِ وَاحِدُهُ * وَلِي مِنَ الْمَمِّ وَالْأَحْرَانِ مَوَاتُ

(و) يحيى بن أكرم القاضي :

هو أبو محمد يحيى بن أكرم بن محمد بن قُطَيْبٍ ينتمي نسبه الى أكرم بن صَبْنِي التميمي
حكيم العرب المعروف .

عرف التاريخ يحيى بن أكرم حَدَّثَنَا في مجلس سفيان بن عُيَيْة ، المعروف بابنه
وَوَرَّعَهُ ونعوده ، اذ يقول ابن جَلْكَا في كتابه ”وفيات الأعيان“ : ورأيت في بعض
الجماميع أن سفيان خرج يوما الى من حاءه يسمع منه وهو صَحِيرٌ، فقال : أليس من الشقاء
أن أكون حالستُ صَخْرَةَ بن سعيد وحالس هو أنا سعيد الخدري، وجالست عمرو
ابن دينار ، وحالس هو عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزهري وجالست

هو أنس بن مالك، حتى عد جماعة، ثم أنا أحاسنكم! فقال له حدث في المجلس : استصف يا أماه محمد، قال : إن شاء الله تعالى، فقال : والله لتتقاء أصحاب أصحاب رسول الله بك أحد من شقائق با! فأطرق سفيان وأنتد قول أبي مؤاس :

حَلِّ جَنِّيكِ لِرَامٍ • وَأَمِيسْ عَهْ بِسِلَامٍ

مُتْ بَدَاءُ الصَّمْتِ حَيْرٌ * لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُونَ النُّجُومُ فَسَاءُ لَطَامُ

يفتقر الناس وهم يهذنون راحة الحداث، وكان ذلك الحدث يعني بأكتم القيمي،
 فقال سفيان : هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء، يعني السلاطين . اهـ

هذا كل ما علمه من حادثة يحيى س أكرم . وهي حادثة تبشر بما سيكون لهذا
الإنسان من مكانة وفود حديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر ، وقوة قلب وسلاطة
لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه ، وقد جعلته حديث حاضري مجلس سفبان ، وحملت
سفبان على أن يقول عنه . هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاية الأحكام) !
لقد صتقت الأيام حدس سفبان فيه ، فقد انحرفت يحيى في سلك القصة صعيرا
لحاشته ، ثم درج في مناصب القضاء حتى تنوّأ أسمى مناصب الدولة ، تنوّأ منصب قاضي
القضاة ، ومنصب الوزارة للأموال ، مطورا إليه في كل ما تولّاه من المناصب بالجدّة
والإكثار من الخاصّة والعامة .

ونحن ذا كرون لك حياته وما تولاه من ماصب، ومكانته العلمية والأدبية، وما كمال متصفاته من الحزم وحسن السياسة، وأقوال الباس فيه وفي أخلاقه، ووجهة نظركل فريق من الباس فيه، معتمدين في ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية، ممنهين على ما يمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل.

أول عمل قولاه :

أ.أ. أول عمل تولاه فيحكتناعه ابن طيفور عقوله : « قال حذفي أحمد بن صالح الأصبهم ، قال : هل تدري ما كلب سبب يحيى بن أكرم ؟ قلت : لا وإني أحب أن أعرفه .

قال : يحيى بن حاقان هو وصّله بالحسن سهل وقربه من قلبه وكثره في صدره ، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استورده المأمون فصلب عليه . وحدثني عبد الله بن أبي مروان الفارسي ، قال : كان ثَمَامَة سب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين وسبب تحلّصه من الخادم الذي أمر سكّشيعه بالبصرة ، ويقال إنه قطع حُصيّته في تعليمه بالقصب اه .

ويقول ابن حلكان في سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يؤلّي رجلا القضاء ، فوصّف له يحيى بن أكرم فاستحصره ، فلما حصر دخل عليه ، وكان دميم الخلق فاستحقره المأمون لذلك ، فلم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين سألني إن كان القصد علمي لا خلق ، فسأله المأمون المسألة المعروفة في الميراث والمسئلة المأمونية ، وهي أوان وبتان لم تُقسم التركة حتى مات إحدى البنين وحلّت من في المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الميت الأول رحل أم امرأه * عرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن حلكان بعد ذلك فضلا عن تاريخ بغداد للحطّيب . أن يحيى بن أكرم وُلّي قضاء البصرة وسه عشرون سنة أو نحوها ، فاستصره أهل البصرة فقالوا : كم سن القاضي ، فعلم أنه قد استصر فقال : أما أكبر من عتّاب بن أسيد الذي وّحه به النبي صلى الله عليه وسلم قاصيا على مكة يوم الفتح ، وأما أكبر من مُعَاذ بن حنّال الذي وّحه به النبي صلى الله عليه وسلم قاصيا على اليمن ، وأما أكبر من كعب بن سور الذي وّحه به عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قاصيا على أهل البصرة ، فجعل جوابه آحتاحا .

قد عرّفت مما ذكرناه عن ابن طيعور المعاصريجي وعن ابن حلكان أن بين روايتي المؤرخين في سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافا ، فابن طيعور يروي لنا أنه اتصل أولا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون في بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن حلكان يروي لنا أنه اتصل بالمأمون وبعد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يُخْتَلِ اليَنا أن كلتا الروايتين صحيحة، خصوصاً إذا ذكرنا ما رواه ابن طيفور من أن ثمانية كان سبب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة في المرة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته في المرة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن حلكان في تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجابه عليهم بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضي الله عنه كان في المرة الأولى .

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب حادم بالقصب بعد اكتشافه حتى قطعت حصىته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتا من الشعر تغزلا في ابنة مسعدة، وكأما على نهاية الجمال .

ومهما يكن من شيء، فمن نرجح أنه تولى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عُزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا قطع به، والثانية عن طريق المأمون .

بقي شيء آخر مما يرويه ابن حلكان نريد أن نلفت النظر إليه، فقد يكون فيه شيء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروي لنا أن يحيى حين وُلى قضاء البصرة كانت سنه نحو عشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبي وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهي لا تبدو أوائل القرن الثالث الهجري، ثم يذكر بعد ذلك أنه تولى بالربذة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة . إذ مهما بالغنا في سبه متمشين مع رواية ابن حلكان نقلا عن تاريخ بغداد من أنه تولى قضاء البصرة وسنه نحو العشرين فلن يعدوه الستين إلا قليلا، فكيف يمكن التوفيق بين هذين ما يقوله ابن حلكان من أنه تولى وعمره ثلاث وثمانون سنة ! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن حلكان في عمره حين الوفاة، وفرضنا أيضا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولى قضاء البصرة وسنه نحو

العشرين لكانت توليته قضاء البصرة في الصف الأول من عهد الرشيد لا في عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليه وحلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم رى يحيى بعد أن عزل من قضاء البصرة في فناد ثاوييا في دار شادها له صديقه الحميم ثمامة بن أشرس بمحضرة ، وكان ثمامة بن أشرس هذا عالم متكلمًا سليط اللسان قوى اللمحة ذا آراء في الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبا اليه ، موثوقا به به ، فكان حير وسيلة لاتصال صديقه يحيى بالخليفة المأمون ، ثم عرف المأمون ما في يحيى من علم وذكاء وكرم فأدماه اليه وتقرب به منه وحصنه برعايته وعطفه حتى طلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكرم قال للمأمون : أطهر لكل قايص ما تريد أن توليه إياه وأمره بكتباته ، ثم أطر أيضا لم لا ، وصنع عليهم أصحاب أحرار ، فقال له المأمون : أولئك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يوليه ، فشاع ذلك كله إلا حبر يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قصائنها ، فدقهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السمن الى البصرة * قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتاب شيء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ، قال : صدقت وحمده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكرم كان قاضي القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزَّرَ له لم يذكره الفهرى في وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيها نقله عنه أن المأمون استوزره ، فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول في آحروصفه لفضل يحيى بن أكرم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن برع في العلوم فعرف من حال ابن أكرم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتبديل أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكرم» . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على أأ قد عندناه من وزراء المأمون فى كلتنا المجملّة عن وزرائه .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان يحيى بن أكرم قاصى القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر البافى فى الدولة ، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكى تقدّر خطوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكرم نفسه . قال :

«بِت ليلة عبد المأمون فانتبه فى بعض الليل فلقن أبى فاهم ، معطش ولم يدعّ السلام لئلا أنتبه ، وقام منسللاً حائماً هادئاً وحطاه حتى أتى البرّادة ، فشرب ثم رجع وهو يحنّ صوته كأنه لصّ حتى اصططع ، وأحده سُعال فرأيتّه يجمع كفه فى فمه كي لا أسمع سُعاله ، وطلع العجرج فأراد القيام وقد تناومت فصعبر إلى أن كادت تموت الصلاة ، فتحرّكت ، فقال : الله أكبر ، يا إعلام تنبّه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت ببنى جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عيداً وجعلكم لنا أرباباً » .

وهاك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُفوة يحيى لديه ، وهى مَرْوِيَةٌ عن ثُمّامة ابن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون . قال ثُمّامة : « كان يحيى بن أكرم يماشى المأمون يوماً فى سِتان موسى والشمس عن يسار يحيى والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدّثان حتى طلع حيث أراد ، ثم كرّ راجعاً فى الطريق التى بدأ فيها ، فقال ليحيى : كانت الشمس عليك لأنك كستَ عن يسارى وقد مالت منك ، فكى الآن حيث كستُ وأتحول أنا إلى حيث كستُ ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أقيك هَوُلَ المطلع بنمى لمعلت ، فقال المأمون : لا والله ما بدُّ من أن تأخذ الشمس منى مثل ما أخذت منك ، فتحول يحيى وأحد من الظل مثل الذى أخذ منه المأمون » اهـ .

ولم يزل فى هذه الرعاية من المأمون والحفوة لديه ، يفوّض إليه المأمون جليل الأعمال ويرسله فى مهمات الأمور ، حتى كانت سنة ٢١٦هـ إذ نرى المأمون بمصر يستعطف على يحيى بن أكرم الذى كان فى حاشيته ويرسله مفصوباً عليه إلى العراق ، ثم يبلغ من حنقه عليه أن يكتب

في وصيته الى وليّ عهده المعتصم محمدا إياه من اصطلاح الوزراء والركون اليهم ضارما يحيى ابن أكرم مثلاً في سوء السيرة وقبيح العمال . ونحى تلقى على مسامعتك ما كنسه في وصيته متعلقا يحيى : « ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى اليه شيئا ، فقد علمت ما نكني به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وخست سيرته ، حتى أمان الله ذلك منه في محبة مني ، فصرت الى مفارقتة قالبا له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقائه ، لا حراه الله عن الاسلام حيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكرم بعد ذلك ، وتتقلب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي دؤاد مؤوض ولاية القضاء الى القاضي يحيى وحل عليه خمس حلج ، ثم عصب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وألزم مدله . ثم حجّ بعد ذلك وأحدمه أخته واعتزم أن يحاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، هذا له في المحاوره ورحح يريد العراق ، فلما كان بالريّة في طريقه الى العراق وافته المية يوم الجمعة متصف ذي المحبة سه أربعين ومائتين ، وقيل عرّة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قلّما لك ما ذكره ابن خلّكان في عمره حين الوفاة وشفعاه بما يمكن أن يكون في كلامه من تناقص أو سهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكرم قريبا عالما بالفقه ، نصيرا بالأحكام ، وقد عدّه الدارقطني في أصحاب الشافعي رضي الله عنه ، راويا للحديث ، أحدا بحظ كبير من كل فن ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويروى عنه الترمذى وغيره من رجال السّنة وحفظة الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . وبما رفع منزلته لدى الناس جميعا موقعه المشهور ، مع المأمون مما يدلّ على سعة علمه وقوّة حجّته وعظيم جلاله . ذلك بأن المأمون رأى وهو في طريقه الى الشام جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفا أكسه حمداً أئمة الدين وشاههم عليه . ونحن نرجى اليك هذا الحديث نقلًا عن ابن خلّكان . قال : « حثت محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فودى بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكرم لي ولأبي العباس : بكراً غدا اليه فإن رأيتنا للقول

يحيى بن أكثم القاصي

وجها فقولا وإلا فأمسكا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك و

متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضي

أنهى عنها! ومن أنت يا حمل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله

رضي الله عنه! فأوما أبو العبياء إلى محمد بن منصور وقال رجل عطاء

ما يقوله بكلمة نحن! فأمسكا. فجاء يحيى بن أكثم مجلس وحلسا. يحيى: مالى

أراك متعبا فقال: هو عم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام. وما حدث

فيه قال: الباء بتحليل الربا، قال: الرأى! قال: نعم، المتعة ربا، قال: ومن أين قلت

هذا قال: من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال

الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُعْرَضُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ آتَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

يا أمير المؤمنين، راحة المتعة ملك يميني قال: لا، قال: فهي الروحة التي عد الله ترث

وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هدي من العاديين،

هذا الزهرى يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن أبي محمد بن الحنفية عن أبيهما

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

أباعد بالنهي عن المتعة وعبريها سد أن كان قد أمر بها، فالتفت إليها المأمون فقال:

أحفظ هذا من حديث الزهرى قلنا: نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك

رضي الله عنه، فقال: استغفر الله! نادوا بتعريم المتعة فادوا بها. " اهـ

أما آراء يحيى الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام، ويحتاج إذا أراد

أن يسدى رأيا فيها إلى شيء غير قليل من الأناة والروية. ذلك بأن يحيى كان يقف موقفا

قريبا من الفتنة العيفة التي كانت مصططمة في وقته، فهو قاصي قصاه المأمون، ومنزلة منه

منزلة يُغبط عليها، والمأمون زعيم القائلين بتحقيق القرآن، وهي مدعة اعتزالية، ثم هو في الوقت

نفسه مرصع به من الجماعة وأهل السنة، ثم نراه جينا يقف موقف المعارضة من صديقه

شرس المعتبرى وزعيم الطائفة الثمانية، معارضة تشتت في بعض الأحيان
 رة . وأنت تعلم من هو ثمانية وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم
 ما كانت نفسه وكم له من يد عليه . أصف الى كل هذا ما يرويه ابن خلكان
 من أنه كلام الله، فمن قال : إنه مخلوق يستتاب، فإن تاب وإلا
 صرمت عليه . ن المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن - إبداء رأى في عقيدة يحيى الكلامية؟ وهل يمكن أن تكون كل
 هذه الروايات - نتج مع ما يبدو عليها من شبه تناقض ؟

نظن أنه باستعمال نبيء من التحليل يمكن إبداء الرأى، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك
 بأن يحيى بن أكرم كان كنيسا حازما ، حفيف الروح حلو اللسان ، فاستطاع بذلك أن
 يدارى الناس جميعا، خاصتهم وعامتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حوِّرَ وحُوِّدَلْ
 فاشتدَّ أحياءا فإنما يكون ذلك الى الحد الذى لا يمس مكانته ونعوده، فبقى في خطوة
 لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل خطوة ، وكان في الوقت نفسه بموضع الكرامة
 والرصا من أهل السنة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن ندى شيئا في رأيه . وكل ما يمكن أن يستنتج مما تقدم أنه كان
 حسن التقية، بارعا في المداواة والمصانعة والرِّياء . وكانت هذه الخلقة من أظهر تمييزات العصر،
 فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن
 عهده استعبرها كانت إجابته : « قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا »، ثم هو مدُّ يوصى صاحب
 أخباره بالرِّياء، ويعتد لنا أهل الرِّياء وعصره، وهالك مثلا قاصى قصاته كاترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن يستسيغ مشادته السبعة أحياءا في محاولة صديقه ومصططعه
 ثمانية بن أشرس ، مع ما في هذه المشادة من نُكْزَانٍ للحميل ومن تعريض نفوده للصبياع ،
 نون أن يكون على خُلفٍ معه في الرأى، ودون أن يعيل الى محبة ما يرويه المؤرخون من أنه
 كان سليما من البدعة، يتحمل مذهب أهل السنة ؟

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبي ثؤاد ويحيى بن أكرم في أخلاقهما وآرائهما وفؤدهما لدى الملوك يقال : إن كليهما علب على سلطانه في عصره . ووصفهما بعض اللغاة وقد سئل عن أيهما أنبل فقال : كان أحمد يحمى مع جاريته وآبنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر حلا في مركزه الديني والاجتماعي - حامت حوله الرتب والإشاعات مثل ما حامت حول هذا القاضي ، ومع هذه الرتب والإشاعات فقد كان مرعى الجانب ، موهور الكرامة . ويظهر أن حل الناس حتى أحصى أصدقائه به ، كانوا يفتحون إلى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يتكبرونه ويسكرون أن يكون لهذه الاشاعات ظل من الحق ، فقد سئل أحمد س حبل عن هذه الإشاعات فأكرها إنكارا .

ولعل الذي يصير موقف رجال الدين من هذا الموقف ، وإكثارهم ما ينسب إليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المنعة) وعير يوم المنعة ، مما جعله في نظرهم بطلا من أبطال الدين ، وحليفا ممثله أن يكون سخوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدثنا ابن خلكان فلا عن ابن الأنباري أنه قال لرحل كان يأنس به ويمارجه : ما تسمع الناس يقولون في . قال : ما اسمع إلا حياء . قال : ما أسألك لتزكيني . قال : اسمعهم يرمون القاضي . قال : فصحك وقال : اللهم عفرًا المشهور عما غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأحلى له مجلسا وأستدعاه ، وكان قد أسر إلى علام حرري أن يكون في خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضي ، فلما استقر بهم المقام وخرج المأمون ، أحد العلام يعاتب القاضي ، فسمع المأمون - وكان يستمع حديثهما - القاضي يقول : " لولا أنتم لكانا مؤمنين " فدخل عليهما مفشدا قول أبي حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وَكَا تُرَجَّى أَنْ نَرَى الْعَدْلَ ظَاهِرًا • فَأَعْقَبَا مَدَّ الرِّهَاءِ قُتُوطُ
مَنْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا • وَقَاضَى قُصَاةَ الْمَسَامِينِ يَلُوطُ

وقد قلنا : إنَّ أَحَصَّ أصدقائه به كان يمنع الى تصديق هذه الإشاعات ، فقد قيل :
 إن صديقه أما عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد اشتى بعد أن مات يحيى أن يراه
 في المنام ليعلم ما فعل الله به ! فأوحى اليه الأحلام أن الله عفر له بعد أن وبَّحه على
 تحليطه ، وأن يحيى حاج ربه بالحديث المشهور : "إني لأستحي أن أعذب ذا شبيهة بالنار"
 فهل يستوى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه من يعتقد براءته ! .

تأليفه :

يحتسب المؤرخون أن يحيى بن أكرم ألف كتباً في الفقه ، وأخرى في الأصول ، وله
 كتاب أورده على المراقبين أصحاب أى حيفة سماه : « كتاب التبيه » . وهذا يؤيد
 ما قاله الدارقطني من أنه كان من أصحاب الشافعي .



(ز) إسماعيل بن إبراهيم الموصلي :

قد يكون حظ المصنف وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرخين في العصور
 الإسلامية أكثر من حظ ميرهم ، وقد عُني المؤرخون بتسجيل حوادثهم وأخبارهم
 وإيقاعاتهم ، وما كان يقع بينهم من خلاف مشؤم المفاصلة والحسد ، أو التقرب الى ذوى
 السلطان ، وما كان يتفق لهم من ممالك لطيفة ، وبكات طريفة . وهذه العناية ظاهرة
 من الكتب الكثيرة التي أُرصدت لهذه الحاجة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد عثت
 الدهر بحمل هذه الكتب ، ولم يبق منها إلا القليل ، وعلى رأس هذا القليل الباقي ، وهو
 المحمّد في هذا الموضوع « كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني » .

وقبل أن نعرض للكلام على إسماعيل ونفصيل حياته ، نقرأ أساء عاجزون كل العجز
 عن أن نحملو الحاجة العنية من شخصيته ، فإن حلاء هذه الحاجة وكشفها لا يتسق إلا
 لرحل أوتي حظاً كبيراً من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدّر مواهب أهل الفن وما وفّقوا اليه
 من إعادته ، ونرجو أن يتاح لإسحاق من يتوارثه هذا الخط ، يمحّلونا شخصيته العنية ، ومبلغ

المدى الذى قطعته في سبيل الكمال الموسيقى ، كما أُتيح "لبتهون" وعبر "تهون" من أصحاب المواهب الكريمة في الموسيقى ، من أبرز شخصياتهم العنية للناس ، وأمان ما لعقباتهم من آيات حاللات في الفن .

ولن يستطيع أحد مهما أوتي من مواهب ، واتخذ من أسباب أن يحلّو شخصية إسحاق العيبه ، ما بقيت مصطلحات الموسيقى العريضة مُغلقة لم تفتح ، وما بقيت تعاليمها أعازا لم تحل .

وإذا كان هذا هو موقفا من اللاحية العيبه إزاء شخصية إسحاق ، فلكن مؤرخين ليس غير . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرخون ، مع تحليل ما نُوفق الى تحليله من أحلاقه وأعماله ، فنقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن تميم بن تميم بن نسيك . ووالده إبراهيم وهو ماهان ، وسبب نسبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فعونه : من إبراهيم بن ماهان فقال بعض إخوانه من بنيان الكوفة : أما تستحي من هذا الاسم ؟ قال : هو اسم أبي قال : فسمّيه ، قال : فكيف أسمّيه ، فأخذ القى الكوفى الكتاب فجا ماهان ، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أسرة إسحاق من فارس ، من بيت شريف في العلم ، كان حرب حذّه ماهان من حور بعض عمّال بى أمية فخرّاح طُوب بأدائه ، فزل الكوفة . وأم إبراهيم والد إسحاق من سات الدهاقين الذين هربوا كما هرب ماهان ، وتزوجها ماهان بالكوفة ، فولدت له إبراهيم ثم مات ومن إبراهيم ستان أو ثلاث فكمّل إبراهيم آل حريمة بن حازم ، ومن هذا صار ولأله الى تميم .

وقد سأل الرشيد إبراهيم عن السبب بينه وبين تميم فقال له : رتونا يا أمير المؤمنين ، فأحسوا تربتنا ، ونشأت فيهم وكان بيننا وبينهم رصاع فتولونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفخر بأصله وببته وكافل أبيه :

إذا كانت الأشراف أصلي ومبصى * ودافع صمى حازم وأبْنُ حازم
عَطَسْتُ مايف شامح وتاولت : يَدَاىِ الثَّرَيَا قَاعِدَا عَيْرَ قَائِمِ

وسب قولم الموصل أنه لما اشتد إبراهيم وأدرك سحَبِ العَيْنَانِ واشتهى العِثَاءَ
وطلبه، فاشتد أحواله عليه في ذلك، وطلعوا منه، وهَرَبَ الى المَوْصِلِ، وأقام بها سةً، فلما
رجع الى الكوفة قال له إخوانه من العَيْنَانِ : مَرَحْنَا مالقى الموصل، فغلبت عليه .

ثم ما زال ابراهيم يأخذ بأساب الماء حتى حَدَقَهُ، وَأَتَصَلَ ماحد عُثَالِ المهدي، ثم
بلغ المهدي أمره، فطلبه اليه، وبقي بعد ذلك متصلاً بالخطاء ورحلات الدولة حتى تُوُفِّيَ
في عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنه إسحاق الذي عَقَدَا هذا الفصل لتحليل شخصيته ، وللكشف عن مواهبه
وأخلاقه، فُوُلِدَ سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنه، وتمَّ منرائته إلا في أيام الرشيد، ثم أحد تجمه
يتألق في سماء الخلافة العباسية أيام الرشيد والأُميين والمأمون والمعتصم والواثق ، ثم تُوُفِّيَ
سنة ٢٣٥ هـ في صدر أيام المتوكل . وكان يحُلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعاً بموضع العطف
والرحمة، وسند كرشيتا من صلته بكل حليفة، وما كان يُغْدِقُهُ عليه كل حليفة من
عطف ومال .

نشأته :

كان حظ إسحاق من وسائل التهذيب والتشريف حيرا من حظ والده إبراهيم ، فإن
والده نشأ يتيما فكمله غير أبيه حتى إذا شَتَّ وترعرع، وطهر ميله الى نوع خاص من
العلوم ، لم يجد من الثمايين بأمره وس لم ساطعاً عليه مَن يَقْدِرُ استعداده الفطري ،
وَنَزَاعِيَه العسية، حتى أصطر من إلحاح صعط أحواله عليه، ومطالبتهم إياه أن يترك الغناء،
والأ يأخذ في شيء من أسباب الموسيقى أن يهيم على وجهه في الأرض ، في سبيل تحقيق
ما يميل اليه نفسه، ويهيئه له استعداده .

أما إسحاق فقد نشأ في بيت أبيه، وشب وترعرع فيه،^(١) وقد وحد من أبيه الذي فهم الحياة ولدعته الأمها، من يهتم بتثقيفه، ويحترم نزاهة الفطرية، وميوله العسية . وإسحاق يعد ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقَدَّم لدى رجالات الدولة، وفي وقرة من الثراء، وحظ عظيم من الترف، مما يوصله به الخلفاء وفير الخلفاء، فاستطاع إسحاق لجاء أبيه وماله أن يختلف إلى حلة العلماء، ويكرار رجال الفقه، وأن يرثى حيرة البيئات والأوساط التي لا يقل أثرها في تهذيب العوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظ الموسيقى والآداب أن تنبأ الأسباب وتستوى الوسائل لرحلها العدة وامتعتها العظيم .

وبحثنا إسحاق عن شيء من تربيته وتثقيفه، فيقول : « ألفت دهرًا أغلَسَ كلَّ يوم إلى هشيم ، فسمع منه ثم أصبح إلى الكسائي أو إلى الفراء فأقرأ عليه جرما من القرآن، ثم أتى منصور زلزل، فصار بي طريقتين أو ثلاثا، ثم أتى عاتكة بنت شهدة، فأخذ منها صوتا أو صوتين، ثم أتى الأصمعي وأناشدهما وأحادهما وأستعيد منهما، ثم أصبح إلى أبي، فأعلمه بما صنعت وأحدث، وأتقذى معه وأروح معه عشاء إلى أمير المؤمنين » .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف كل يوم إلى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والحو، ثم أهل الفن الضاربين على الآلات والمُلمَّحين، ثم يذهب بعد ذلك إلى أهل الأدب والرواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم، ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كله يخبره بما صبح وأخذ، حتى إذا جاء المساء ذهب مع أبيه إلى دار الخلافة، وهي — أي ذلك الله — خير مُتَدَى لرجال العلم والأدب والسياسة في الدولة .

هذه التربية المنظمة، والبيئات الراقية، أخرجت من طفل إبراهيم الموصلي : ذلك الطفل الذكي النشيط، رجلا يصفه صاحب الأغاني بقوله : « موصعه من العلم، ومكانه

من الأدب، وعلمه من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومنزلته في سائر المحاسن، أشهر من أن يُدُلَّ عليها بوصف، وسرى في مَطْلَوبٍ ما نورده عليك من أحاديثه، ونوادره أنه ما طالع حلما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا رَجَّح فيه وبرَّز .

فأما الغناء، فحدثنا أبو الفرج صاحب الأعالي أنه كان أصغر علومه، وأدنى ما يؤسِّم به، وإن كان العالم عليه وعلى ما كان يُحسِّسه، فإنه كان له في سائر أدواته، نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا طير لحق من مَصَى فيه، وسوى من قد بقي، وسهل طريق الغناء وأناها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقدوثهم ورأسهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد له المؤاقر والمُعارِق، على أنه كان أكره الناس للغناء، وأشدَّهم بُغضا له، لئلا يُدعى عليه ويُسمَّى به .

وهذه الجملة الأخيرة، وهي أنه كان من أكره الناس للغناء الخ، تدلنا بوضوح على نفسية إسحاق ومطامحه من جهة، وعلى ما كان للفنَّين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى، كما تدلنا على أن النفس وأهل الموسيقى، كانت منزلتهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرِّوَاة وأهل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان عالي النفس، بعيد الهمة، يكره أن يتصل بهنَّ يقعد به دون ما هو حليق به من منزلة ومكانة، وماذا يصنع إسحاق وقد أُوتِيَ موهبه لم يؤتِها أحدٌ غيره، وهي موهبة تأتي إلا أن تُعلن نفسها، كما يعلن الزهر نفسه بأريجِه، والقُمرى بهديله، وماذا يُجِدِّي عليه كرهه للغناء ونفضه له، وقد يطالبه به من لا يرى سبيلا إلى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق في كراهيته للغناء صادق الشعور، صادق الحس، فإنه لم يتخل بين المأمون وبين أن يُؤَيِّسه اسمي المصائب إلا شهرته بالغناء، إذ يقول المأمون : « لولا ما سبق لإسحاق على أليسه الناس وشهرته عندهم بالغناء، لوليتُ القصاء بمحصرى، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القصاة » . وقد يكون من حق إسحاق أن يكره الغناء، ويألم لانهياله به، إذ يرى المصائب السامية في الدولة، يتوقَّظها قوم

هم دونهم فيما وصلوا إليها به، وهم وصلوا إليها بالعلم، وقد كان هو عالماً بالفقه والحديث وعلم الكلام، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس، وكانت لا يدع فرصة دون أن يُعلم يُحفظه وما ناله من ظلم، فقد حشأ ابن حلكان أن محمد بن عطية المَعطوي الشاعر قال: كنت في مجلس القاصي يحيى بن أكنم، فوالى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأحد يباطر أهل الكلام، حتى انتصف منهم ثم تكلم في الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة فهاق من حصر، ثم أقبل على القاصي يحيى فقال: أعر الله القاصي، أي شيء مما طرب فيه وحكيته نقص أو مطنش، قال: لا، قال: فما بالي أقومُ بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنتسب إلى فن واحد، قد اقتصر الناس عليه، يعني الفناء، قال المَعطوي: فالتفت إلى القاصي يحيى، وقال لي: الجواب في هذا عليك، وكان المَعطوي من أهل الحدل، فقال للقاصي يحيى: نعم—أعر الله القاصي—الجواب على، ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أماه، أنت كالغزاة والأخمش في النحو، فقال: لا، قال: أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأضحية، وأي عبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت في علم الكلام كأبي المديّل العلاف والطام البليح، قال: لا، قال: فأنت في الفقه كالقاصي، وأشار إلى القاصي يحيى— فقال: لا، قال: فأنت في قول الشعر كأبي التّأهية وأبي نُوّاس، قال: لا، قال: فمن هاهنا تُسبِت إلى ما تُسبِت إليه، لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله، فصيحك وقام وانصرف، فقال القاصي يحيى للمَعطوي: لقد وقبت المحبة حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وإنه ممن يَقل في الزمان نظيره. اهـ.

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إسحاق بالفناء دون غيره، مما كان يُحسنه من سائر العلوم، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه، وعلو نفسه، ومُعد همته، مهياً كريماً، سمّ الأدب، عفيف اللسان. أما عن كرمه فيروى لنا صاحب الأغانى، أنه كان يُخزى على أبي عبد الله الأهرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار، وأن ابن الأهرابي هذا وقف على

المداثني يوما، فقال له المداثني : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمضي الى رحل هو كما قال الشاعر :

نزي أشباحنا الى ملك * نأخذ من ماله ومن أدبه

قال : ومن ذلك ؟ قال : إسحاق بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصة أخرى وهي مع دلالتها على شَفَفِ إسحاق العالم، ولِخِرَصِ على استنباطه، تدل أيضا على سخاءه وكرمه .

قال إسحاق : جئت يوما الى أبي معاوية الصيرري، ومعى مائة حديث، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا صيريا، فقال لي : إن أبا معاوية قد ولاني حِجَابَه ليضعني، فقلت له : معى مائة حديث، وقد جعلتُ لك مائة درهم اذا قرأتها، فاستأذن لي، فدخلتُ على أبي معاوية فلما عرّفني دعاه، فقال له : أخطأت، إنما جعلتُ لك ذلك على الصمغاء من أصحاب الحديث، فأنا أبو محمد وأمثاله فلا، ثم أقل على يُرْصِنِي في الإحسان اليه، ويذكر صمغه، وعسايت به، فقلت له : احبكم في أمره، فقال : مائة دينار، فأمرتُ الغلام بإحضارها، وقرأتُ عليه ما أردتُ وأصرفت . وهذه القصة تدل على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الحثيم : كنتُ يوما حالسا «بُسرَمَ رَأَى» عند إخوان لي، وكان طريق إسحاق في مضيه الى دار الخليفة، ورجوعه علينا، بغافى العلام يوما، وعدى أصدقائي، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلي بالباب، فقلتُ : يدخل، أوفى الأرض من يُستأذن عليه لإسحاق، فذهب الغلام يأذنه، وبأدرتُ الى تلقيه، فدخل وحلس مُبسطا أنسا، فعرّصا عليه ماعدنا، فأجاب الى الشراب، فأحضرا بيذا مُشمسا، فشرب منه، ثم قال : أتحبون أن أغنيكم؟ قلنا : إى والله ! أطال الله قاطك، إنا نحب ذلك، قال : فلم لا تسألونني ؟ قلنا : هيناك، قال : فلا تفعلوا، ثم دعا مُود، فأحضراه فاندفع يُفْنِي، فشربنا وطربنا، فلما فرغ قال : أحسنتُ أم لا ؟ قلنا : بلى والله ! جعلنا فداك، لقد أحسنت، قال : فلا

منكم أن تقولوا لي أحسنت^١ قلنا : الحسنة والإجلال لك ، قال : فلا تعملوا هذا فيما تستأنفون ، فإن المفتي يحب أن يقال له : أحسنت ، ثم غنى :

حليلى هُباً تصطبيح بسواد • وتزويقلونا هائمات صَوَادِي

وقولا لساقيا زياد يرقها • فقد هذَّ مص القوم سقى زياد

فقلت : يا أبا محمد ، من هو زياد ؟ قال : علامى الواقف على الباب ، أذعه ياعلام ، فدخل فإذا هو غلامٌ حلاسى^(١) ، قيمته عشرون ديناراً أو نحوها ، فقال : أتساوونى معه ، فأعزقكم إياه ، وأدخلكم اليكم ، ويخرج كما دخل ! وقد سمعتم شعري فيه وصاني ! أشهدكم أنه حرٌ لوجه الله تعالى ، وقد زوجته أختي فلانة ، فأعياه على أمره ، قال : فلم يخرج حتى أوصلنا إليه عشرين ألف درهم . ولعل في هذه القصة المتقدمة أيضا ، مقصداً لك بما كان لإسحاق في نفوس الناس من هبة وكرامة .

منزلة إسحاق في الغناء :

قدما لك أنا نعترف بالبحر عن أن محلو الناحية الصيبة من حياة إسحاق ، وأن ذلك لا يتسق إلا لرحل أوتي من المواهب الفنية حظاً عظيماً ، وقدما لك أن إسحاق كان يحسن كثيراً من العلوم إحساناً ، قل أن يتسقى لغيره ، وأنه كان مع إحاداته الغناء وتبريزه فيه ، وسبقه أقرانه ، يتكبر أن ينتسب إليه أو يُستسى به ، لأنه كان عالى النفس ، بعيد مرأى المهمة ، ويرى أن انتسابه إلى الغناء يقصر به عن ملوع مرأى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديد الفطنة على الغناء ، كثير الدب عنه ، وله العذر ، فإن صاحب الفن أيا كان الفن ، لا يبعد إلى الصبر سبيلاً ، إذا عيبت به العاشر أو تهجم عليه المتهمجون .

وإذا كنا نعترف بالعجز عن أن نجلو الناحية الفنية لإسحاق ، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننقل إليك شيئاً مما رواه المؤرخون ، لتعلم ما كان يحيط به من إكبار وإعجاب من العلماء ، ورجال الدولة ، وأصحاب الفن ، لبوعه في فنه ، وتبريزه فيه ، ولعلم — أيضا مما كان

(١) الحلاسى : الولد بين أيوين أسود وأبيض .

يُديه من ملاحظات — ملع ما كان له من دقة حس ، وقوة ذوق ، وجدة شعور ، وسلامة فطرة .

ويعود بنا الكلام عن القصد ، لو أطلقنا لأنفسا المتان ، في إيراد كل ما رآه حسا وطريما من أحاديث إصحاق ومخالسه ، وما كان يتفق له من مفاكهات وواد ، لذلك نكتفي بإيراد بعض حوادثه ، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشهم ، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدما لك أن إصحاق طهر في عهد الرشيد ، وتوفى في صدر أيام المتوكل ، فلذلك كركت شيئا من تاريخه ، ووادره مع كل خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسي .

أما الرشيد فقد كان يُلقب من إسماع به ، بأبي صفوان ، ولقبه «إصحاق أبو محمد» كما رأيت ، وقد ملع من إسماع به أن استأثر به لصبه ، ونهاه عن أن يغني أحدا غيره ، ويحتسب إصحاق عن هذا بقوله : نهاني الرشيد أن أغني أحدا غيره ، ثم استوحى حميرس يحيى ، وسأله أن يأخذ له في أن أعيه فعل ، واتمقا يوما صد حمير وعده أخوه الفضل ، والرشيد يومئذ عقيب حلة قد عوفى منها ، وليس يشرب ، فقال لي الفضل : انصرف الليلة ، حتى أهب لك مائة ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهاني أن أغني إلا له ولا أخيك ، وليس يعني عه خرى ، وأنا متهم بالميل إليكم ، ولست أتعرض له ولا أعرضك ، فلما تكلم الرشيد ، وقال : إياه يا إصحاق تركني بالرقعة ، وحلست بغداد تنفي الفضل من يحيى ، خلقت بجاته إنني ما جالسته قط إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعني قط إلا عند أخيه وحلقته تربة المهدي أن يسأل عن هذا في دارهم من نسائم ، فسأل عنه فحدثت مثل ما ذكرته وعرف خبر المائة ألف درهم التي بذلها لي وردتها ، فلما دخلت عليه ضحك ، ثم قال : سألت عن أمرك فمررت مثل ما عرفتني ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، عوضا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعي : دخلت أما وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما على الرشيد، فرأياه لقس^(١)
الشمس فأنشده إسحاق :

وأمره بالبحل قلت لها أقصرى * فذلك شيء ما إليه سبيل
أرى الناس حُلَّانَ الكرام ولا أرى * بجيلا له حتى المات حليل
وإني رأيتُ البحل يُرى بأهله * فأكرمْتُ نفسي أن يُقالَ بجيل
ومن حير حالات القى لو علمته * إذا مال حيرا أن يكون يُبيل
فعالي مَسَالُ المُكْثِرِينَ ثَمَلًا * ومالي كما قد تَعْلِيَرٌ فليل
وكيف أخاف المقرَّ أو أترم الغنى * ورأى أمير المؤمنين حَمِيل

قال فقال الرشيد : لا تخف إن شاء الله، ثم قال : لله درُّ أبيات تأتيها بها، ما أشدَّ
أصولها، وأحسنَ فصولها، وأقلَّ فصولها، وأمر له بحسين ألف درهم، فقال له إسحاق :
وَصَفَّقَ والله يا أمير المؤمنين أحسنُ منه ، فَعَلَّامُ أَخْدِ الْجَاهِزَةَ ؟ فصحك الرشيد،
وقال : أجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعي : فعامت يومئذ أن إسحاق أهدى بصيد
الدرهم مني ! .

وكان من أشد ما مضى لإسحاق في الصياء إبراهيم بن المهدي أحوال الرشيد الذي كان يستتر
عليه بجماعه، وبإله من حفظ في المن كبير، ومن أشد الملاحاة التي حدثت بينهما، ما كانت
في مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده نداماؤه وحاصته، ومهمهم
إبراهيم بن المهدي، فقال الرشيد عني :

أعادل قد نُهِيتُ فما انتهيتُ * وقد طال العتاب فما أروعيتُ
أعادل ما كُتِبْتُ وفي مَلَهَى * ولو أدركت غايَتَكَ أَتَنَهَيْتُ
شَرِيتُ مُدَامَةً وَسُقِيتُ أُخْرَى * وراحَ المُتَشَوُّونَ وما أَتَنَشَيْتُ

فغيبته، فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي : ما أصبت يا إصحاق ولا أحسنت، قلت له : ليس هذا بما تمره ولا تحسه، وإن شئت فقل، وإن لم أجذك أنك مخطئ فيه مد ابتداءك الى إيهائك، فدى حلال ! ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين، هذه صاعتي، وصاعة أوى، وهى التى قرئنا منك، وأوطأنا بساطك، فإذا نازعا أحد بلا علم، لم نجد بدا من الإيصاح والدب، فقال : لا لوم عليك، وقام الرشيد ليول فأقبل إبراهيم بن المهدي على وقال لي : ويلك يا إصحاق، ألتجترى على وتقول ماقلت يابن الزانية ! فداخلى ما لم أملك منى معه، قلت له : أنت تشحنى، ولا أقدر على إجابتك وأنت أبن الخليفة، وأخو الخليفة، ولو لا ذلك لقلت لك : يابن الزانية، كما قلت لي يابن الزانية، أو ترانى لا أحسن أن أقول لك يابن الزانية، ولكن أقول لك ذلك يصرف الى حالك، ولو لا ذلك لذكرت صاعته ومدبه، قال : وكان يطارا، ثم سكنت، وعلمت أن ابراهيم سيكونى الى الرشيد، وسوف يسأل من حصر عما حرى، فيخبرونه فتلايت ذلك بأن قلت : أنت تظن أن الخلافة لك، فلا تزال تهتدى بذلك، وتعادى كما تعادى سائر أولياء وغلمان أخيك حسدا له ولولده على الأمر، وأنت تصعب عنه وعهم وتستخف بأوليائهم تشفيا، وأرجو ألا يخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتلك دوما، فإن صارت إليك — والعياذ بالله تعالى — هرام على العيش حينئذ ! والموت أطيب من الحياة معك، فأصعب حينئذ ما بذاك ! فلما نرج الرشيد وثب ابراهيم مجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، شئتى وذكرى وأستخفنى ! فغضب الرشيد، وقال لي : ويلك ما تقول " قلت : لا أعلم، فسل من حضر، فأقبل على مسرور وحسين، سألهما عن القصة، فجعلا يخبرانه ووجهه يتردد الى أن انتهى الى ذكر الخلافة، فسرى عنه ورجع لونه، وقال : لا ذنب له، شتته فمؤذك أنه لا يقدر على جوابك، ارجع الى موضعك، وأمسك عن هذا ! فلما اتقى المجلس وانصرف الناس، أمر بالآبرج، وخرج كل من حصر حتى لم يبق غيرى، فساء ظفى وأوهنتى نفسى، فأقبل على

وقال : يا إسحاق أتاني لم أفهم قولك ومرادك ! وقد زبته ثلاث مررات ، أتاني لأعرف وقامتك وإقدامك وأين ذهبت ! ويليك لا تمد ! حدثني عنك : لو ضربك إبراهيم أكنث أضربه وهو أنى يا جاهل ! أتراه لو أمر غلماناه فقتلوك أكنث أقتله بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، تقتلني بهذا الكلام وإن بلغه ليقتنى ، ها أشك في أن بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال : على إبراهيم ، فأحصر فقال لي : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لي نجياً ، وإلى ما تلا ، وإلى مطيعا — : أحبروني عما يجرى ، فأحبروني من غدا ، أنه لما دخل عليه وبجه وجهه وقال له : أنت ستحف بمجادي وصنيعي ، وابن خادمي وصنيعي ، وصليعة أبي في مجلسي ! وتقدم علي وتستحف بمجلسي وحصرقي ! هاه هاه ! وتقدم علي هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للفتاة ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أحذرك به وطارحك إياه حتى تنوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذي قُدِّي به وعُلمه ، وهو من صاعته ؟ ثم تظن أنك تُحطِّطه فيما لا تدريه ويدعوك إلى إقامة المحبة عليه ، فلا تثبت لذلك ، وتمتصم بشتمه ، هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل ، وسوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وعلبة لذتك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارك إياه ولم تحكه ، وإدعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة للخطأ والرد القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلا فإنا برىء من المهدى إن أصابه أحد بمكروه ، أو سقط عليه حجر من السماء أو وقع من دابته ، أو سقطت عليه سقيفة ، أو مات بقاءة ، لا تقتلنك به ، والله والله وأنت أعلم . ثم الآن فأنرج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلت عليه وإبراهيم عنده ، فجعل ينظر إليه مرة ، وإلى مرة ، ويضحك ، ثم قال له : إني لأعلم شئتك لإسحاق وميلك إليه ، وإلى الأخذ به ، وإن هذا لا يبيحك من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحسن إليه وأكرمه ، وأعيرف حقه وصله ، فلذا فعلت ذلك ، وخالف ما تنواه ، غافقته بيد

مستطيلة ولسان مطّيق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبّل رأسه، فقامت اليه، وقام الى واصططححا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورة واضحة ، عما كان لإسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حذپ عليه وبرّ به .

أما مكانة إسحاق عند الأمين وبطانته، فإها لا تقل، أيدك الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى حيرا في الدلالة على هذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : استدنانى الأمين يوما ، وهو مُسْتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركنى على العراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابي، فعلتُ معلان كذا ففعل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدت جماعة من خواصه، فقلت له . أس يا سيدى تنفصل عني ونحس رأيك في! طست أنى من يُساور في مثل هذا الحديث، نجلوزت في حدى ومقدارى، وهذا رأى يحل ولا يلعنه قدرى، فقال : ولم ؟ أنت عدى عالم عاقل ماصح . قلت : هذه المنزلة عد سيدى ! علمتني ألا أقول إلّا ما أعرف، ولا أطلب إلّا ما أأل، فصحك وقال : بلننى أنك عملت في هذه الأيام لحما في شعر الراعى ، فلم أسمعك منك، فقلت : يا سيدى ما سمعه أحد إلا حواري، ولا حضرتُ عندك مدّ صعتّه . فقال : عنه فقلت : الهبة والصحو يمعانى من أن أؤديه كما أريد، فلو أنس أمير المؤمنين عدّه بشئ يطربه ويُقوى طبعه كان أحوذ . قال : صدقت، ثم أمر بالفداء فتغلبنا، وأمر بالستائر ففتت، وحنى من وراءها وشربنا أفداحا، فقال : يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت ؟ فقلت : بل يا سيدى، وعيت في شعر الراعى :

ألم نسأل بمارمة الديار * عن الحى-المفارق أين سارا
بل سالتُها فأبث جوابا * وكيف تسائل الدمن القفار

فاستحسنه وطرب عليه ، وقال : يا إسحاق ، لا تطلب بعد الخفية ووجود المنية، وما أشرب بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلع على من ثيابه .

ومما حدث بين الأُميين وإسحاق أن الأُميين اصططح ذات يوم ، وأمر بالتوجيه الى إسحاق ، موَّخه اليه عتده رُسل كلهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، بهاء مُنثَبِياً ومحمد مُقَضَّب ، فقال له : أسكت ! ويلك ! قال . أصححتُ يا أمير المؤمنين شيطاً ، فكُرتُ الى بعض المنزهات ، فاستطعتُ المؤصع فأقت فيه ، وسقاي رِياد فد كُرتُ أبياناً للأحطل وهو يسقيني ، فدارك فيها لحى حس ، فصعته وقد حُثَّتْ به ، فتبسم وقال : هاته ، ها ترال تأتي بما يرضى عنك عند الشُّحط ، معناه .

إذا ما رِيادُ علِّي ثم علي * ثلاث زحاحات لمن هديرُ
حرحتُ آخر الدبل حتى كأيي * عليك أمة المؤمنين أمبرُ

فقال : بل على أيك قبح الله مَلَك ! ها رال إحسانك في عاتك وحو إساءتك في فعلك ، وأمر له بالف ديار . وأصل قول الأحطل :

* إذا ما نديعي على *

ورباد هذا علام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعقه وزوجه من أخته بدافع من أريجته وأثر الشراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدثنا إسحاق عن راحية من شخصيته ، وهي موقفه من الماء وسماحه ، وقد ألما اليها حين عرصا للكلام عن المادية و عصره ، ثم سوق اليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق . أقام المأمون بعد قدومه بعداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الأغاني ، ثم كان أول من تعنى بمحصرته أبو عيسى س الرشيد ، ثم واطب على السماع مُستترا ، منسبها في أول أمره بالرشيد ، فأقام على ذلك أربع حجج ، ثم طهر للدماء والمعين . وكان حين أحب السماع سأل عنى ، فخرجت بمحصرته ، وقال الطاعس على : ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلقة ، وما أتى من التيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمون عن ذكري ، وجعاني من كان يصلي لسوء رأيه في ، فأصر ذلك بي ، حتى جاءني علوي يوما فقال لي :

أناذني في ذكرك عند المأمون^١ فإنما قد دُعِيا اليوم، فقلت : لا ولكن عنه بهذا الشعر، فإنه سيعينه على أن يسألك من هذا الشعر، فإذا سألك فتح لك ما تُريد ، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء، فقال : هاب ، فألقيت عليه لحي في شعري :

يأسرحة الماء قد سُدت موارده ۞ أما البيك طريق عيرُ مسدود

لحاتم حام حتى لا حراك به ۞ مُحَلَّي من طريق الماء مطرود

ومضى علويته ، فلما استقر به المجلس عآه ، ۞ عدا المأمون أن يسمع الفناء حتى قال . ويحك يا علويته ! لمن هذا الشعر ؟ قلت : ناسبدي اهد من عبيدك حفته وأطرحته بغير جرم ، فقال : إسحاق تمي ؟ فقلت : نعم ، فقال . يحضر الساعة ، فآدى رسوله ، فخصرت فلما دخلت ، قال : أدن قدوت ، ورفع يديه ماذها إلى ، فأكبته عليه فاحتصني يديه ، وأظهر من ربي ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لسره^(١) .

ثم ما زالت تعلم مكانته صد المأمون ، حتى سأله يوما أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والزواة مع المفسر ، فإذا أراد العساء عآه ، فأحابه إلى ذلك . ثم سأله بعد مدته طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له ، فدخل يوما مع يحيى بن أكثم ممسكين ، وعلويته ومخاري في محبرة لها خالسين يتطران جلوس المأمون ، فراهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدي المأمون ، فكاد علويته أن يُجن ، وقال . يا قوم سمعتم بأعجب من هذا ! يدخل قاضي القضاء ويده في يد من حتى يجلسا بين يدي الخليفة ! ثم مصت مدته سال إسحاق المأمون في لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المصورة ، فضحك المأمون وقال : ولا كل هذا يا إسحاق ! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم ، وأمر له بها . وهذا الخبر يؤيد ما ذكرناه في أول كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمح إلى أن يكون في مرتبة غير مرتبة المفسر .

(١) أنظر كتاب إسداد (ح ٦ ص ٢٢٨) وقد سئ أن ذكرنا هذه القصة في فصل المادة صبة أخرى

وانظر الى دقة إحساس إسحاق وقوة دوقه في تبيه الخطأ في وتر واحد بين ثمانين وترًا، وكان ذلك في مجلس المأمون، قال إسحاق : دعاى المأمون يوما، وعنده إبراهيم بن المهدي، وفي مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عشرا عن اليمين وعشرا عن يساره، فلما دخلت، سمعت من الناحية اليسرى خطأ فأنكره، فقال المأمون . أسمعت خطأ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمع خطأ؟ قال لا، فأعاد على السؤال فقلت : بل يا أمير المؤمنين . فإنه لى الجانب الأيسر، فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليسرى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين ماى هذه الناحية خطأ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين مَرُّ الجوارى الآتى على ايمين يُمكن، فأمرهن فأمسكن، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمع ثم قال : ماهاها خطأ، فقلت : يا أمير المؤمنين، يُمكن ويصير التامه، فأمسكن وصرت التامه، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال نعم يا أمير المؤمنين هاها خطأ، فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم اس المهدي : لا تُمارِ إسحاق بعدها، فان رحلا عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حلما لحذر الأُمارة قال : صدقت يا أمير المؤمنين، وكان في الأوتار كلها مثنى فاسد التسوية، فطرب المأمون وقال . لله درك يا أبا محمد ! فكان يومئذ .

وحبر آرييل على حذق إسحاق به في مجلس آخر للمأمون ، قال إسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعقيد يُعيه مَرَّتحلا وعيره بصرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُعِينًا هذا؟ فقلت . هل سأل أمير المؤمنين عيري عن هذا؟ فقال . نعم، سألت عمى إبراهيم فقرطه، واستحسسه، فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا في أمري، حتى نستقي رِقَّة الى الريد في علمي، قال : فلا يملك ذلك من قول الحق اذا لمك، فقاب لعقيد :أردد الصوت الذى عيته، فردّه وتحقق فيه وصرب عليه صاربه، فقلت لإبراهيم بن المهدي . كيف رأيته؟ فقال : ما رأيْتُ شيئًا أنكره، مما سمعته، فأقبلت على عقيد، وقلت له لما استواه : في أى طريقه عيت؟ فقال : في الرمل، فقلت للضارب : في أى طريقه صربت؟ فقال : في المزج الثقيل، فقلت : يا أمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

في صوت يُعَيِّه مُعَيِّهِ رَمَلًا ، ويصره صاربه هَرَحًا ثَقِيلًا ، وليس هو صحيحًا في إيقاعه
الذي صُيرب عليه . قال وتَقَهَّمه إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهَدِّيِّ ، فقال : صَدَّقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْأَمْرُ
فِيهِ يَسْ ! فَصَحِبَ الْمَأْمُونُ مِنْ ذَلِكَ كَيْفَ حَقِيَ عَلَى كُلِّ مَنْ حَصَرَ .

أَمَّا مَرِئُتُهُ عَدُ الْوَائِقِ ، فيقول ابن خلدون : سمعت الوائقي يقول : مَا عَايَ إِسْحَاقُ قَطُّ
إِلَّا طَلَبْتُ أَنَّهُ قَدِ رِيَدَ فِي مَلَكِي ، وَلَا سَمِعْتُهُ قَطُّ يُعْنِي عِمَاءَ أَنْ سُرِّجَ إِلَّا طَلَبْتُ أَنْ
سُرِّجَ قَدْ بُشِّرَ ، وَأَنِّي لَيَحْصُرُنِي عِيَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِرًا فَيَتَقَدَّمُهُ عَسَدِي يَطْبِقُ الصَّوْتُ ،
حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ عَسَدِي رَأَيْتُ إِسْحَاقَ يَلْعُو وَرَأَيْتُ مِنْ طَلَبْتُ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُهُ يَنْقُصُ ، وَإِنْ
إِسْحَاقُ لَعِمَهُ مِنْ مِمِّ الْمُلُوكِ الَّتِي لَمْ تَحْطَ أَحَدٌ بِمِثْلِهَا ، وَلَوْ أَنَّ الْعُمَرَ وَالشَّابَّ وَالشَّاطِطَ
مِمَّا يَشْتَرَى لِاشْتَرِيَتْ لَهُ نَشْطَرُ مَلِكِي .

أَمَّا الْمُتَوَكَّلُ الَّذِي تَوَقَّى إِسْحَاقَ فِي أَوَّلِ عَصْرِهِ ، فيحدثنا ابن خلدون أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ إِسْحَاقَ ،
مَعْرُوفٍ أَنَّهُ كُتِفَ وَأَنَّهُ بَنَزَلَهُ بِعِدَادٍ ، فَكُتِبَ فِي إِحْصَارِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رَقَعَهُ حَتَّى
أَحْلَسَهُ قُدَّامَ السَّرِيرِ ، وَأَعْطَاهُ مِحْنَةً . وَقَالَ : طَعْنِي أَنْ الْمَعْتَمِدَ دَعَا إِلَيْكَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ حَلَسْتَ
بِإِنْ يَدِيهِ مِحْنَةً ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَسْتَحِيلُ مَا عَدَّ حُرْمَتُهُ لِإِكْرَامِهِ . ثُمَّ سَأَلَهُ : هَلْ أَكَلَّ ؟ فَقَالَ :
نَعَمْ ، فَأَمَرَ أَنْ يُسْقَى ، فَلَمَّا شَرِبَ أَفْدَاحًا قَالَ : هَاتُوا لَأَنِّي مُحَمَّدٌ عُودًا ، بِحَيٍّ . بِهِ فَاذْفَعُ بِغْنَى
شَعْرِهِ :

إِنَّا عِلَّةُ الشَّيْخِ عِيَاهُ نَارُهُ . تَعَرَّوْقَانِ بِدَمْعٍ ثُمَّ تَنَسَّيْكَ

قال ابن خلدون . هَذَا بَقِيَّ عِلَامٍ مِنَ الْعِلَامِينَ الْوُقُوفِ إِلَّا وَحْدَتُهُ يَرْقُصُ طَرَاً ، وَهُوَ
لَا يَلْعَلُ بِمَا يَفْعَلُ ، فَأَمَرَ لَهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . ثُمَّ ابْتَدَعَ الْمُتَوَكَّلُ إِلَى الرِّقَّةِ ، وَكَانَ يَسْتَطِيعُهَا
لِكَثْرَةِ تَعْرِيدِ الطَّيْرِ فِيهَا ، فَفَنَاءَ إِسْحَاقُ :

أَنْ هُنْتُ وَرَقَاءُ فِي رَوَقِ الصُّحَى عَلَى فَنَى عَصِ النَّبَاتِ مِنَ الرَّبْدِ

بَكَيْتَ كَمَا يَتَسَكَّى الْوَلِيدُ فَلَمْ تَكُنْ * جَلِينَا وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يُبْدَى

فَصَحَحْتَ الْمُتَوَكَّلَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْحَاقُ ، هَذِهِ أَحَدُ مَلِكِكَ الْوَائِقِ لَمَّا عَيَّنَتْهُ بِالْعَالِيَةِ :

طَلَبْتُ إِلَى أَصْبِيَّةٍ صَبَارٍ * وَدَخَرْنِي الْهَوَى قُرْبَ الْمَوَارِ

فكم أعطاك لما أئد لك في الانصراف قال . مائة ألف دينار؛ فأمر له بائة ألف دينار وأئد له بالانصراف .

وأما أودها نذكر لك من أخبار إسحاق . وما كان له من نوادر في مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رحلات الدولة لمدونا حد القصص، وإتعا حيل من ريد التريد من أمر إسحاق على كتاب الأغانى . ونحتم هذا الفصل من أخبار إسحاق بما قاله محمد بن عمران الجرجاني ، حين ذكر عهده . قال . كان والله إسحاق عُرّة في زمانه ، وواحدا في عصره ، علما وفهما ، وأدما ووقارا ، وحوّده رأى ، وصحّه موده ، وكان والله بُعرس الباطن إذا طلق ، ويُعبر السامع إذا تحدث ، لا تمل حليسه في مجلسه ، ولا تمنع الآذان حديثه ، ولا تنو النفس عن مطاوعته ، إن حدثتك الهالك ، وإن طارك أهداك ، وإن عمّاك أطرك ، وما كانت حصلة من الأدب ولا حنس من العلم ، يتكلم فيه إسحاق فيقيم أحد على مساحلته أو مساوئته فيه !

قال إسحاق بن إبراهيم . رأيت في ماضي حبرا حالسا يشد وأنا أسمع . فلما فرغ أحد كبة من شعري فلقاها في في فابتلعها . فأقول ذلك شخص من ذكرته له أنه وزّني الشعر . قال زيد بن محمد المهلب . وكذلك كان ، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو العرج الأصمعي . وكان إسحاق حيد الشعر ، كان يقول ويثنيه للعرب ، من ذلك قوله :

لَعَطَ الْحَدُورُ عَلَيْكَ حُورًا عِيَا * أَتَسَيَّ مَا مَعَ الْكَأْسِ قَطِيبَا
فَإِذَا بَسَنَ مَنْ كَبَلَ عَمَامِهِ * أَوْ أَغْشَوَانِ الزَّمْلَ مَاتَ مِجِيَا
وَأَمَّعَ مَا رَأَتْ الْعَيُونُ عَاحِرَا * وَلَقَدْ أَمْرُصُ مَا رَأَتْ عِيَوَا
مَكَانَمَا تِلْكَ الْوَحْشَةُ أَهْلَةً * أَقْرَنَ بَيْنَ الْعَنِيرِ وَالْعِشِيرِيَا
وَكَانَتْ إِذَا نَهَضَتْ لِحَاحِيَه * يَهْصُ بِالْعَقْدَاتِ مِنْ يَبْرِيَا

وأشعاره في هذا النوع كثيرة. وأهل الذي كان مدح أولئك الشعراء إلى أن يسبوا خير ما تحود به قرائحهم إلى العرب الحنطين أو أعراب الصحراء، رُوح ذلك العصر، وأنها كانت رُوحاً تميل إلى القدم، ولا سيما إذا رُت هذا التمدد، إيطار من خيال الرواة والمقاصدين ويظهر أن ما كانوا يظفرون به رواءً للشعر العربي أكثر مما كانوا يظفرون به شعراء محيدين، وإلا فهل تصوّر أن نسب المرء شاح فريخته إلى غيره، ما لم يكن ممن ذلك عطياً * .

ومن شعر إصحاح ما اعتد به إلى الواثق حين عنت عليه في تأخره عنه، وهو قوله :
أشكو إلى الله بعدى عن حلته * ودا أعالج من سقم ومن يكر
لا أستطيع رجلاً إن هممت به * إليه يوم، ولا أقوى على السير
أنوى إليه رجلاً ثم بمعنى * ما أحدث الدهر والأمان في نصري
ومن شعره أيضاً عند علوسه .

سَلَامٌ عَلَى سَرِّ الْقَلَاصِ مَعَ الزَّكِي * وَوَصِلَ الْعَوَايِ وَالْمُدَائِمِ وَالشَّرِيبِ
سَلَامٌ أَمْرِي لَمْ يَنْقُ مَسَّهُ نَقْبُهُ * سِوَى نَظَرِ الْعَيْنِ أَوْ شَهْوَةِ الْقَلْبِ

ومن جيد شعر إصحاح ما كان يستحسبه ابن الأعرابي و يعجب به أيما إعجاب، وهو قوله .

هَلْ إِلَى أَنْ سَامَ عَنِّي سَبِيلُ * إِنْ عَهْدِي بِالنُّومِ عَهْدٌ طَوِيلُ
عَابَ عَنِّي مَنْ لَا أَنْتَهَى مَعِي * كُلُّ يَوْمٍ وَحْدًا عَلَيْهِ تَسِيلُ
إِنْ مَا قَلَّ مَسَكَ يَكْثُرُ عِيْدِي * وَكَثِيرُ مَنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ

وكان إصحاح إذا عني هذه الأبيات يفيض عيشه . ولما سُئِلَ عن مكانه أجاب :
تَعَشَّقْتُ حَارِيَةً فَهَلَّتْ لَهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ ، ثُمَّ مَلَكْتُهَا ، فَكُنتُ مَشْغُوفًا بِهَا ، حَتَّى كَثُرَتْ
واعتَلَّ عيني ، فإذا غيبت هذا الشعر ذكرت أنني المتقدمة ، وأنا أنكى على دهرى
الذي كنت فيه .

وقال إسحاق: أُنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة، فجعل يصحب بها ويرددها، فقلت له: إنما بُتُّ ليلتها، فقال: لا حَرَمَ أنْ أُثَرَّ الوليدُ بها طاهر. فقال إسحاق: ولا حَرَمَ أنْ أُثَرَّ الحسدُ فيكَ طاهر! ولعلَّ هذا هو سبب الحقّوه إلى كاتِبِ بين إسحاق والأصمعيّ. فإنَّ ابنَ مطوّر يروى لنا في مختصره أن إسحاق كان مآخذ عن الأصمعيّ، ويذكر عنه الروايات، ثمَّ قد ما بينهما، فهما إسحاق وثله، وذكر عبد الرشيد أنه قليل الشكر، نحيل، ساقط النفس، لا زكو الصنعة عنده، وذكر له أن أُعيّده مَمَرٌ من المُنَى بالمعة والصدوق والسباحة، واشتماله على جميع علوم العرب، وفعل مثل ذلك عند الفعل من الرّبيع، ولم يرلهما حتى وصع مبرلة الأصمعيّ عندهما، ثمَّ أُنقدا إلى أَى عُنَيْده مالا حايلا واستقدّما. فكان إسحاق سبب ذلك.

وكان إسحاق قليل المتحو، وإذا شا رأيت في هُؤُوه عنه اللسان، وبجمل التعريض. وزيد أبٌ يذكر لك من هذا الباب قولَه في أحمد بن هشام: وكان إسحاق يآلف أحمد هذا وأحاه علّا وسائر أهله إلغا شديدا، فوقعَت منهم نبوةٌ ووَحْشَةٌ فهماهم. وهذا مما قاله في أحمد:

وصَابِيَةٌ تُعْشِي العُيُونَ رِقِيْقَهُ . رهييه عام في الدَّائِبِ وعَامِ
أدْرِبَاها الكَأْسُ الرُّوْتَةَ مَوْهًا . من اللّيل حتى انْحَبَّتْ كُلُّ ظِلَامِ
فما دَرَقَرُّ الشَّمْسِ حَتَّى كَأَنَّا . من اليَمِّ يحكى أحمد بن هشام

ويمال أن أحمد سأله ما دعى * فقال: لأني قعدت على طريق القافية..!

وكان إسحاق يسأل الله ألا يتخلّيه بالقولنج، لما رأى من صُحُوبته على أبيه، فرأى في مامه كأن قاتلا يقول: قد أُحييتْ دعوئكَ، ولسب موتِ القُولنج، ولكلّك تموت بصدّه، ثمَّ أصابه دَرَبٌ في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدق في كل يوم بمكة صومه بمائة درهم، ثمَّ ضمَّف عن الصوم فلم يطقه ومات في الشهر.

ولما نُيى إلى المتوكل عمّه وحرِبَ عليه، وقال: ذهب صدر عظم من حمال الملك وبهاته وزينته!

مؤلفاته :

علمت مما أوردناه لك في الكلام على إحصاء أنه كان يحس كل ما كان طابجه من العلوم إحساناً قل أن يستوى لعمره ، ولكنه قصر تأليفه على ما قصرته عليه طبيعته ، وعمله ، فآلف في الأغاني ، والإيقاع ، والنغم ، وآداب الشراب ، والدماء . والمدايم ، وأحجار الشعراء ، وأهل الفن من المعينين والمعينات . في مؤلفاته . كتاب الأغاني الكبير ، وكتاب الخط والإشارات ، وكتاب الرقص والرق ، وكتاب النغم والإيقاع ، وكتاب النداء والمدايم . وله مؤلفات عن سمه من أهل الفن رجالاً ونساء ، أمثال : عقيد ، وابن مسحح ، وعزّه الميلاء ، وعمرهم . وله أيضاً كتاب الهدى ، وكتاب تفصيل الشعر . وكتاب أحجار ذي الرمة ، وكتاب حواهر الكلام . وله كتاب مناده الإخوان . وتسامر الخلائ ، وكتاب القيان ، وغير ذلك مما يطبق على كتبه في شتى العيون ، ونشهد أنه دائرة معارف طاقه .

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بني أمية

صفحة	باب المشهور :
١	رسالة أي مكر على
١٢	كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها
١٤	كلمة أم الخير بنت الحريش
١٧	كلمة الرقاء بنت مدي
١٨	كلمة عكرمة بنت الأطلش
٢٠	رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لعص من ولاء
٥٣	رسالة ذية لعبد الحميد الكاتب أوصى بها الكتاب
٥٧	رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب في الشطرنج ..
٦٠	رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب وصف بها الصيد

باب المعلوم :

٦٣	أنواع العزل وجميع كل نوع
٦٤	العزل الإباحي — عمر بن أي دبعة
١٠٣	العزل العددي — جميل
١٢٤	العزل الصاعدي — كثير
١٣٨	العزل القصصي — تيسر بن الملقح (المحمود)
١٥٢	تيسر بن دويج
١٦٤	لشعر السامي — العباد بن شير

ملحق الكتاب الثاني — عصر بني العباس

باب المشهور :

١٦٩	مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان
١٨٨	رسالة أي الربيع محمد بن الليث التي كتبها لفرشيد إلى قسطنطين ملك الروم

٢٣٧	رسالة يحيى بن زياد في تغريب الرشيد
٢٤٤	كتب الرشيد
٢٤٤	كتاب عهد الية
٢٤٧	سحة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين خط يده في الكفة
٢٤٩	سحة كتاب الرشيد الى المال
	باب المطبوع .
٢٥٢	نثار بن يد
٢٧٧	حد محمد
٢٨٧	مروان بن أبي حفصة
٣٠٠	يو دلامة . . .
٣١٧	أمان بن عبد الحيد الاحق
٣٢٦	حدار حدان بن .
٣٣٣	مصور البكري
٣٣٩	السيد الحيري
٣٤٩	سلم بن عمرو الطاسر . . .
٣٥٤	ربمة الرق
٣٥٩	الرقاشي
٣٦١	أبو العتاهية
٣٧٤	سلم بن الوليد
٣٩٣	الساس بن الأحف
٤٠٠	أب ماسر ..
٤٠٣	صالح بن عبد القوس
٤٠٧	سميد بن وه
٤١١	المس بن وه
٤١٩	أنصح السلي
٤٢٣	علي بن الجهم . .
٤٣١	علي بن حنيفة . . .

مُلْحَقُهُمُ

الكتاب الأول

باب المشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعينا عناية خاصة الى جانب ذلك ذكر جملة صالحة من آثار كاتب حاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن بُرد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مسمدة وأبي نُوَاس نموذجاً لتصوير الحياة الكتابية وللشعرية في عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من التماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلا تفسير بعض ألقائها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهي في وصوحها ودلالاتها على ما أوردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناكم به .

١ — رسالتنا أبي بكر وعلى

قال أبو حيان على بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرًا لَيْسَ عَدِ الْقَاصِى أَبِى حَامِدِ أَحْمَدِ بْنِ إِشْرَ الْمُرُورُ ذِى بَغْدَادِ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ ، وَكَانَ غَزِيرَ الرِّوَايَةِ ،

لطيف الدّراية، بغرى حديث السّقيفة، فركب كلّ مركبا، وقال قولا، وعرض بشيء،
ونزع الى فنّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصّدّيق^(١)، رضى الله عنه، الى
على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وحواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ؟
فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هي والله من بنات الحقائق، ونجبات الصادق، ومذ
حفظتها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلبى في وزارته ، فكتبها عني بيده . وقال : لا أعرف
رسالة أعقل منها ولا أئين، وإنما لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وعد غور، وشدة
عوص . فقال له العبادانى : أيها القاصى، هل أتممت المسّة عليها بروايتها ! أسمعناها ،
مصح أوعى لك من المهلبى، وأوجب ذمّا عليك، فاندفع وقال :

حدثنا الخزازى بمكة عن أبى ميسرة ، قال حدثنا محمد بن أبى قُليح عن ميسر بن
دوّاب بن النّاسخ ، قال سمعت مولاى أبا عبيدة يقول : لما استقامت الخلافة لأبى بكر
وصى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنة كاد الشيطان بها، فدفّع الله شرّها ويسر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عيّاه بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول
الله وأول خليفة له في الإسلام وحظيب يوم السقيفة .

ويجتمع معه مع سب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة من كعب . وله عد موكد رسول الله صلى الله عليه وسلم
ستين وصية أشهر . وشأ من أكرم فريش خلفاء وأرهمهم حلما، وأماهم بدا، وأشدهم صفة . وكان أعطيهم بالأسباب
وأيام العرب ومعارها . صحب رسول الله قبل البوّة . وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدقه في كل ما جاء به ،
ولذلك سمى الصّدّيق ، وأحق أمواله في تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا مصحة على كل أهله وولده ، وشهد معه
أكثر العروات . وما زال يبق ماله وقوته في معاصرة رسول الله حتى احتل عليه وسلم الى الزمى الأعل .
واحتلت العرب ، وارتدت عن الإسلام ، وسمت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وتحقوب بالطائف ، فخرّده عليهم
المبورش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم قوا الى صنع ممالك كسرى وقيسر . وما مات إلا وحيوشه
نهر حيوش العرس والزوم وتسنول على مداتهم وحصولهم . وكان رحمه الله صيحيا يلما ، حلييا معقوا ، حاصر
الدية ، قوى الخلف ، شديد التأثير ، يشهد بذلك حطه يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله احتلت الصحابة
بمس يابوشه حيلة لهم عليهم ، فابت الأصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأن المهاجرين من فريش إلا أن يكون
مهم . واشتد الراغ حتى كادت تقع الفتنة ، فخطب حطلة لم يلبث الجميع بعدها أن يابوشه حيلة . وكانت وفاته
سنة ١٣ هـ ومدة خلافته ستين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ ^(١) تلکؤ وشماس ، وتهم ونفاس ، فکره أن يتأدى الحال جدو العورة ، وقشعل الجرة ، وتنفرق ذات البين ، فدعا في محصرته في سلة ، وكان عنده عمر ابن الخطّاب رضى الله عنه وحده ، فقال : يا أبا عبيدة ، ما أئمن بأصبتك ، وأئمن الحيرين عينك ، وطالب أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يدك ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحبوط ، والمحلّ المقبوط ، ولقد قال فيك في يوم مشهود : " لكل أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة " ، ولم تزل للدين ملتصقا ، وللؤمنين مُرتجى ، ولأهلك ركا ، ولإخوانك ردما . قد أردتُك لأمرٍ خطره مخوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يتدمل جرحه بيسارك ، ويفتك ، ولم تحب حيتته برقتك ، وقع اليأس ، وأعصل الأس ، وأحتج بعد ذلك الى ما هو أمره وأعلق ، وأعصرمه وأغلق ، والله أسأل تامة بك ، وظامه على يدك . فتأت له أبا عبيدة وتطلف فيه ، وأنصح لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا المصابة حير آل جهنم ، ولا قال حمدا ، والله كاللثك وناصرك ، وهاديك ومبصرك ، ان شاء الله . امص الى عليّ وأخمس له جاسك ، وأغضض عده صوتك ، واعلم أنه سلة أبي طالب ، ومكانه ممن قدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانه ، وقل له : البحر مفرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أعطف ، ^(٦) ^(٧) والسما حلواء ، والأرض صلواء ، ^(٨) والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطف رعو ، والباطل عوف صوف ، والعجب قذاحة الشر ، والضغى رائد البوار ، والتعريض شجار الفشة ، والقيحة تقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكى على شماله ، متجبل بيمينه ، مافح حصينه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحواء والعداوة ، عاددا لله عز وجل

(١) الناس : المادة والمادة . (٢) تهم الشيء . طله وتحسه . (٣) داس في الشيء . ماسة : رصه على وجه الماراة والمالعة . (٤) تحب : قطع . (٥) تأتي ملان للأمر : تها له وأتاه من وجهه .

(٦) الجوا أكلف : أسود تلوه حرة . (٧) الليل أعطف : مرج سدولة مطم . (٨) السما حلواء : مصعية . (٩) خالية لا مخرجها . (١٠) أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أولاً، ولآدمَ ثانياً، ولإيه — صلى الله عليه وسلم — وديهِ ثالثاً، يوسوس بالفُجُور، ويُدبِلُ
 بالفُرُور، ويمَيِّ أهلَ الشرور . يُوحِي إلى أوليائه زُخْرُفَ القولِ غُرُوراً بالباطل، دُباباً له
 مُدٌّ كان على عهد أبينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وطادَهُ له مسدُّ أهانه الله تعالى في مالف
 الدهر، لا مَنجى منه إلا مصى اللاحد على الحق، وعَصَّ الطُّرْفَ عن الباطل، ووطَّه هَامَةَ
 عِدو الله بالأشدَّ فالأشدَّ، والآكِدَ فالأكَدَ، وإسلام النفس لله عز وجل في آتِفاء رضاه .
 ولا بدَّ الآن من قول يسمع إذا صرَّ السكوت ويخيف غِيْهُ، ولقد أرشدك من آهَاء ضلالتك،
 وصافاك من أحيا مودته بيتاك، وأراد لك الخير من أثر البقاء مملك، ما هذا الذي تُسَوِّلُ
 لك فسُك، ويدبِّي به قُلُوبُك، ويتوَّى عليه رأيُك، ويخاوضُ دونه طرُفُك، ويسرى فيه
 طعنُك، ويرأدُ معه فسُك، وتكثر عبده صُعباًؤُك، ولا يفيصُ به لسانُك . أُنْعِمُهُ بسد
 إفصاح ! أنليس بسد إصباح ! أدين غير دين الله ! أخلق غير خلق القرآن ! أهدى غير
 هدي الهى صلى الله عليه وسلم ! أمثلي "تمثلي" له الصَّراء وتذبُّ له الحمز ! أم مثلك
 يتقبض عليه الفصاء، ويكتشف في عيه القمر ! ما هذه القعقة باللسان ! وما هذه الوعوعة
 باللسان ! إنك والله جند عارب باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،
 وبحروجا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبنا ، هجرة إلى الله عز وجل، ونصرة لدينه
 في زمان أنت فيه في كِنِّ الصَّبا ، وحذر الرِّارة ، وعُصْوَان الشَّيْبَةِ ، عاقل عما يُشيب
 ويريب، لا تبي ما يراد ويُبتاد، ولا تحصل ما يُساق ويُقاد، سوى ما أنت جار عليه إلى
 عاتيك التي إليها عدلُك، وعددها حطَّ رحلُك، غير مجهول القدر ولا مجهود الفصل ،
 ونحن في أشاء ذلك تُعاني أحوالاً تُزيل الرِّوْاسِي ، وتُفاسي أحوالاً تُشيب الوَّاسِي ،
 حائضين عمارها ، راكبين تيارها ، تنزع صابها ، وتُشرج عيابها ، وتُحكِم أساسها ، وبيرم

(١) آه : أزعج . (٢) يخاوض : يعض من صره . (٣) الصراء : الانسجام . والحرز :
 ما وراك من شجر، وهو مثل يصرب لمن يمدح صاحبه . (٤) الشان جمع ش وهو القرعة الخلق
 الصميرة . والقعقة : الصوت، يريد أنه لا يحرف مثل هذا . (٥) شرح عيابها : نمدها وشم مصها
 إلى مص . والياب : جمع صبة ، هي رجيل من آدم تجعل فيه الثياب .

أَمْرَانِهَا ، وَالْعَيُونُ تَحْدِجُ بِالْحَسَدِ ، وَالْأَنْوُفُ تَغْطِيسُ بِالْكِبَرِ ، وَالصُّدُورُ تَسْتَعِيرُ بِالْبَيْطِ ،
وَالْأَعْيُنُ تَنْتَاطِلُ بِالْفَجْرِ ، وَالشَّفَافُ تَنْتَعِذُ بِالْمَكْرِ ، وَالْأَرْضُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ ، لَا نَنْظُرُ عِنْدَ
الْمَسَاءِ صَبَاحًا ، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءً ، وَلَا نَدْفَعُ فِي غَيْرِ أَمْرٍ إِلَّا عِنْدَ أَنْ نَحْشُوَ الْمَوْتَ
دُونَهُ ، وَلَا نُلْغِ مُرَادًا إِلَّا عِنْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ ، فَادِينِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَيْبِ وَالْأَمِّ ، وَالْحَمَالِ وَالْعَمِّ ، وَالْمَالِ وَالنَّشَبِ ، وَالسُّدِّ وَاللَّدِّ ،
وَالْهَلَّةِ وَالْيَلَّةِ ، يَغْلِبُ أَنْفُسُ ، وَقُرَّةُ أَعْيُنٍ ، وَرَحْبُ أَعْطَانِ ، وَثَابِتِ عِزَّتِهِ ، وَصَحَّةِ عَقُولِ ،
وَوَلَّاهُ أَوْحُهُ ، وَوَلَّاهُ أَنْفُسُ ، هَذَا مَعَ خَفِيَّاتِ أَسْرَارِ ، وَمَكْنُونَاتِ أَحْجَارِ ، كَتَبَتْهَا
عَافِلًا ، وَلَوْلَا سَيْكُ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا ، كَيْفَ وَهَوَاؤُكَ مَشْهُومٌ ، وَعُودُكَ مَمْنُومٌ (١) .
وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ ، وَحَمَلَ مَرَادَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ عِلْمِ أَقُولُ
مَا تَسْمَعُ ، فَارْتَقِ زَمَانَكَ ، وَقَلِّصْ أَرْذَانَكَ ، وَدَجِّ التَّقْطِيسِ وَالتَّحْشُوسِ لِمَنْ لَا يَطْلُعُ لَكَ إِذَا
حِطًّا ، وَلَا يَتَرَجَّحُ عَنْكَ إِذَا عَطَاً (٢) ، فَالْأَمْرُ عَصَ ، وَالْفُؤُوسُ فِيهَا مَصَ ، وَإِنَّكَ أَدِيمُ هَذِهِ
الْأُمَّةِ فَلَا تَحْمَلْ جَلْحًا ، وَسِبْغَهَا الْعَصَبُ ، فَلَا تَنْتَبُ أَغْوِجَاحًا ، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحْمَلْ أَحَا حَا .
وَأَقَّةً لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَقَالَ لِي : « يَا أَمَا نَكَرَ
هُوَ لِي يَرِيعُ عَهْ لَا لِي يُجَاحِشُ عَلَيْهِ ، وَلِي يَتَضَاعِلَ عَهْ لَا لِي يَنْتَفِعَ إِلَيْهِ » (٣) ، هُوَ لِمَنْ يُقَالُ
هُوَ لَكَ لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي » .

وَلَقَدْ شَاوَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّبْرِ ، فَذَكَرْتُ حَيَاتًا مِنْ قَرِيبٍ ،
فَقُلْتُ : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي أَكْرَهُ لِعَاطِمَةَ بَيْعَةَ شَبَابِهِ ،
وَحَدَاثَةَ سَنَةِ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كَفَفْتَهُ بِذُكِّكَ ، وَرَعْنَتَهُ عَيْكَ ، حَفَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ ، وَأُسِفَتْ عَلَيْهِمَا
الْبِعْمَةُ ، مَعَ كَلَامٍ كَثِيرٍ حَاطَتْهُ بِهِ رَغْبَةً فَيْكَ ، وَمَا كُنْتُ عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوْصًا (٤) .

(١) جمع مرس كتكتف وهو الحبل . (٢) السد الشمر - والده : الصوف . (٣) يقال حادوا
فلان فلم يأتوا به ولا به أي لم يأتوا بشيء . فالهبة من العرج والاحتلال ، والهة من الليل والخير . (٤) مشهور
(بالشيخ المصنف) : دكت سولف . (٥) علة : مذالك عقه وأقل محوك . (٦) حلم الخلد
(من ناب مروح) . هـ وتفت . (٧) أي يطله ويذاع به . (٨) يتطلع إليه ويحتربه .
(٩) أي ما كنت عرفت منك شيئاً .

ولا لَوْحَاء، فقلتُ ما قلتُ وأما أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سيّوك، وكستُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فلم يكن مُعرضاً عن غيرك: وإن كان قال فيك فما سكت عن سيّوك؛ وإن تَلَجَّجَ في نفسك شيءُ فهُلِّمْ، فالْحِكمْ مرضى، والصوابُ مسموع، والحقُّ مُطَاع . ولقد يُقَلِّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راضٍ، وعليها حذرٌ، يسره ما سرّها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْصيه ما أَرْصاها، ويُسِيْطُهُ ما أَسِيْطُها، أمّا تعلم أنه لم يَدْعُ أحداً من أصحابه وأقاربه وشجرائه، إلا أَنَّهُ بِفَضِيلَةٍ، وَخَصَّةٍ بِمِزِيَةٍ، وَأَفْرَدَهُ بِحَالَةٍ ! أَتُنْظَنُ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم ترك الأُمَّةَ سُدًى بَدْءاً، عِبَاهِلَ مَبَاهِلَ، طَلَّاحِي مَفْتُونَةٍ بِالْأَطْلِ، مَفْيُونَةٌ عَنِ الْحَقِّ، لَا رَائِدَ وَلَا دَائِدَ، وَلَا صَابِطَ وَلَا حَاطِطَ، وَلَا سَاقِي وَلَا وَاقِي، وَلَا هَادِي وَلَا حَادِي ! كَلَّا ! وأقْبَهُ ما أَشْتَقُّ إلى ربه تعالى وَلَا سَالَهُ الْمَصِيرُ إلى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ، إِلَّا مَعْدَأُنْ صَرَبَ اللَّذَى، وَأَوْحَى الْهَدَى، وَأَمَانَ الصُّوَى، وَأَمْنِ الْمَسَالِكِ وَالْمَطَارِحِ، وَسَهْلَ الْمَبَارِكِ وَالْمَهَاجِ، ^(١) وَإِلَّا مَعْدَأُنْ شَدَحَ يَفُوحُ الشَّرْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَتَرَمَّ وَحَةَ الْعَاقِ لَوْحَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَجَدَّعَ أَنْفَ الْعَتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَتَغَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ عَيْنَ اللَّهِ، وَصَدَّعَ بِلَاءٍ فِيهِ وَيَدُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَمَعْدَ، فَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ وَمَعَكَ فِي بَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَدَارِ جَامِعَةٍ، إِنْ اسْتَقَالُونِي لَكَ وَأَشَارُوا عَسَدِي بِكَ، فَأَمَّا وَاضِعُ يَدِي فِي يَدِكَ، وَصَاثِرُ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ . وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَادْحَلْ فِيمَا فِيهِ الْمَسَامُونُ، وَكُنِ الْعَوْنُ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، وَالْعَاجِجَ لِمَعَالِفِهِمْ، وَالْمُرْشَدَ لِمَصَالِحِهِمْ، وَالرَّادِعَ لِقَوَائِمِهِمْ . فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالتَّأَصُّرِ عَلَى الْحَقِّ . وَدَعَا بَقِيَّةَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِصُدُورِ بَرِيَّةٍ مِنَ الْفَلِّ، وَتَلَقَّى اللَّهُ تَعَالَى بِقُلُوبِ سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ .

(١) صحرائه أصدقاؤه . (٢) صاهل ماعل (بالا. الموحدة في الكتبتين) : مهلة . (٣) الصوى :

الأعلام . (٤) المهاج : الطرق . (٥) الياوح (يهو ولا يهر) : حر. الرأس الذي يطرق في الطفل .

(٦) في صح الأثنى : « هذه » .

وبعد ، فالناس ثَمَامَةٌ فارتق بهم وأحن عليهم ولين لهم ، ولا تُثْقِي هَسَكُ با حاصة فيهم ، وأترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيح ، والله على ما نقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو حنيفة : فلما تأقبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الْبَابِ هُنَيْهَةً عَلَى مَعَكَ دَوْرٌ مِنَ الْقَوْلِ ، فَوَقَعْتُ وَمَا أُدْرِي مَا كَانَ بَعْدِي ، إِلَّا أَنَّهُ لِحَفْنِي بَوَاجِهَ يَسْدَى تَهْلًا ، وَقَالَ لِي : قُلْ لِعَمَلٍ : الرِّقَادُ مَحَلَّةٌ ، وَالْهَوَى مَقْصَمَةٌ ، وَمَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مَشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ، وَبِأُطْلَاهُ أَوْ مَكْتُومٌ ، وَإِنْ أَكْبَسَ الْكَئِيسَ مِنْ مَسَحِ الشَّارِدِ نَأْلًا ، وَقَارَبَ الْبَعِيدَ تَلَطُّعًا ، وَوَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ بَيْرَانَهُ ، وَلَمْ يَحِلْطُ حَبْرَهُ بَيَانَهُ ، وَلَمْ يَحْمِلْ فِتْرَهُ مَكَانَ شِسْبَرِهِ ، دِيًّا كَانَ أَوْ دُنْيَا ، صَلَاحًا كَانَ أَوْ هُدًى . وَلَا حَيْرَى عِلْمِ مُسْتَعْمِلٍ فِي جَهْلٍ ، وَلَا حَيْرَى مَعْرِفَةِ مَشْوِيَةٍ بِكُرٍّ . وَلَسَا تَحْلُطُ رُفْعُ الْعَبِيرِ بَيْنَ الْعِجَانِ وَالذَّنْبِ . وَكُلُّ صَالٍ فَبِنَارِهِ ، وَكُلُّ سِيلٍ فَوَلَّى قَرَارِهِ . وَمَا كَانَ سَكُوتُ هَذِهِ الْعَصَابَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ لَيْمَى وَشَى ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لَفَرَقَى أَوْ رَفَقَى . وَقَدْ حَدَّعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَعَمَ طَهْرُ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ لِسَانَ كُلِّ كَذَّابٍ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ . مَا هَذِهِ الْخُفْرَانَةُ الَّتِي فِي قَرَارِشِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا الشَّعْبُ الْمَعْتَرِضُ فِي مَدَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقَدَادَةُ الَّتِي تَغَشَّتْ مَاظِرَكَ ! وَمَا هَذِهِ الْوَحْرَةُ الَّتِي أَكَلَتْ شَرَّاسِيْفَكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَيْسَتْ بِسَبَبِهِ جِلْدُ الْبَحْرِ ، وَأَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مَالِ الشَّعْنَاءِ وَالْكَرُّ ! وَلَسَا فِي كِسْرِيَّةٍ كِسْرَى ، وَلَا فِي قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرٌ ! تَأْمَلُ لِإِخْوَانِ فَارَسٍ وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَرَرًا لِسُيُوفَا ، وَدَرِيَّةً لِرِمَاحَا ، وَمَرْمَى لِبَعَانَنَا ، وَتَبَعًا لِسُلْطَانِنَا ، بَلْ نَحْنُ فِي نُورِ نُبُوَّةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثَمَرَةِ حِكْمَةٍ ، وَأَثَرَةِ رَحْمَةٍ ، وَعُصْوَانِ بَعْمَةٍ ،

(١) الزرع : أصل الصعد من ماطل . والعجان : الاست . يريد أن مرلهم بين الأحياء والعنائير ليست حقيرة مهينة . (٢) الشئ بالكسر إتباع لى . (٣) الحوراة . الكر . (٤) الوحرة (بالتحريك) : والحقد البدائة والشراسيف : جمع شرسوف ، والشرسوف مقط الصلح .

وطُلَّ عَصْمَةٌ ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرُّقْبِ والعَتَقِ ، لها من الله قلبٌ
أَبَى ، وساعِدٌ قَوِيٌّ ، وَيَدٌ ناصره ، وعَيْنٌ باصرة . أَتَقْنِ طُلَا يَعْلَى أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَتَبَّ عَلَى هَذَا
الْأَمْرِ مُعْتَنَاتًا عَلَى الْأُمَّةِ حَادِثًا لَهَا أَوْ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهَا ! أَتُرَاهُ حَلَّ عَقُوبِهَا وَأَحَالَ حَقُوقَهَا ! أَتُرَاهُ
حَلَّ نَهَارِهَا لَيْلًا ، وَوَزَنَهَا كَيْلًا ، وَيَقْطَعُهَا رُقَادًا ، وَصَلَاحَهَا فُسَادًا ! لَا وَاللَّهِ ! سَلَا عَنْهَا فَوَلَّيْتُمْ
لَهُ ، وَتَطَاسَسَ لَهَا فَلَصِقَتْ بِهِ ، وَمَالَ عَنْهَا فَالَتْ إِلَيْهِ ، وَأَشْيَازَ دُونَهَا فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ، حَنُوءٌ
حَبَّاهُ اللَّهُ بِهَا ، وَعَاقِبَةٌ لَطَعَ اللَّهُ إِلَيْهَا ، وَنِعْمَةٌ سَرَّ لَهَا بِجَاهِهَا ، وَيَدٌ أَوْحَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ شُكْرَهَا ،
وَأُتْمَةٌ نَظَرَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِّقِهِ ، وَأَرَأَيْتُمْ بَعَادَهُ ، يَخْتَارُ مَا كَانَ لَمْ خَلِيقَةٍ . وَإِنْكَ
بِمَحِثٍ لَا يَحْجُلُ مَوْصِعُكَ مِنْ بَيْتِ السُّوءِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَلَا يُحْصَدُ حَقُّكَ فَمَا أَتَاكَ اللَّهُ ،
وَلَكِنْ لَكَ مَنْ يَزَا حُكَّ بِمَنْكِبِ أَحْمَمٍ مِنْ مَسْجِدِكَ ، وَقُرْبٍ أَمْسٍ مِنْ قَرَابَتِكَ ، وَمَنْ أَعْلَى مِنْ
سُكِّ ، وَشَيْبَةٍ أَرُوعَ مِنْ شَيْبَتِكَ ، وَسَيَادَةٍ لَهَا أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَةِ وَفَرِغٌ فِي الْإِسْلَامِ ،
وَمُوَافَقٌ لَيْسَ لَكَ فِيهَا حُلٌّ وَلَا نَاقَهُ ، وَلَا تُذَكِّرُ مِنْهَا فِي مَقْدَمَةٍ وَلَا سَاقَةٍ ، وَلَا تُصِرُّ فِيهَا
بِذِرَاعٍ وَلَا إِبْصَعٍ ، وَلَا تَحْرُجُ مِنْهَا بِيَاظٍ وَلَا هَمٌّ . وَلَمْ يَزَلْ أَوْ مَكْرَجَةً قَلْبَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِلَاقَةً نَفْسِهِ ، وَعِيَّةَ سِرِّهِ ، وَمَقْنَزَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ، وَرَاحَةَ كَفِّهِ ،
وَمَرْمَقَ طَرَفِهِ . وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْصَرِّ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، شَهْرُهُ مَغْنِيَةٌ
عَنِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ . وَلَعَمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ
أَقْرَبُ مِنْكَ قَرَبَةً ، وَالْقَرَابَةُ لَمْ يَدَمْ ، وَالْقُرْبَةُ هِيَ وَرُوحٌ . وَهَذَا فَرْقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ،
وَلِذَلِكَ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ . وَمَهْمَا شَكَّكَتَ فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَسْكُ أَنْ يَدَّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ،
وَرِضْوَانَهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ . فَادْخُلْ فِيهَا هُوَ حَيْرُكَ الْيَوْمَ وَأَسْعُ لَكَ غَدًا ، وَأَلْفِظْ مِنْ فَيْكِ
مَا يَتَلَقَّى بِلَهَائِكَ ، وَأَنْفِثْ تَحِيمةَ صَدْرِكَ عَنِ تَحَاكُكَ ، فَإِنَّ يَكُ فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ ، وَفِي الْأَجَلِ
قُسْطٌ ، فَسْتَأْكُلُهُ مَرِيثًا أَوْ حَيْرَ مَرِيٍّ ، وَسَتَشْرِيهِ هَيْثَا أَوْ غَيْرَ هَيْثَا ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا
مَنْ كَانَ آيِسًا مِنْكَ ، وَلَا تَأْتِجُ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا بِكَ ، يَخْضَعُ إِيَّاكَ ، وَيَعْرِضُ أَدِيمَكَ ،
(١) الْإِزَالُ الْخَلْعُ الْقَوِيُّ الَّذِي دَخَلَ فِي سِتْرِ الْإِسْمَةِ وَالْهَيْجُ : الْفَصِيلُ الَّذِي يَنْخَلُ فِي الصَّبِغِ يَكُونُ ضَعِيفًا .

ويزرى على هديك . هالك تفرع السى من ندم ، وتجرع المساء ممزوجا بدم ، وحينئذ تأسى
على ما مضى من عرك ودارج قوتك ، فتود أن لو سقيت بالكأس التى أبتها ، ورئدت
إلى حالتك التى استغويتها . وفيه تعالى فيها وفيك أمر هو الفقه ، وعيب هو شاهدته ، وعاقبة
هو المرجو لسرأتها وضراتها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مزملا أنوء كاتما أخطو على رأسى ، قرآنا من القرعة ، وشمقا
على الأئمة ، حتى وصلت إلى على^(١) رضى الله عنه فى خلاه ، فانتبته حتى كلفه ، وبرئت إليه منه ،
ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت فى مفاصله حياها ، قال : "حلت معلومة^(٢) ،
وولت محرومة^(٣)" ، وأنشأ يقول :

أحدى لباليك فهيبى هيبى * لا تنعى الليلة بالعريس^(٤)

ثم يا أبا عبيدة ، أكل هذا فى أنفس القوم ، ويحسون به ، ويضطربون على^(٥) ! قال
أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عدى ، إنما أنا قاص حق الدين ، ورائق حق المسلب ،
وساد ثلثة الأئمة ، يعلم الله ذلك من جلال قلبي ، وقرارة نغصى .

(١) هو أمير المؤمنين أو الحسن على ر أى طالب . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروح
الله . وراح الخلفاء الراشدين . وإمام الخطاء من المسلمين
وله روحه الله بعد موته إلى صلى الله عليه وسلم فائين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من العيان . وكان
شجاعا لا يشق له عار . أبدا حليدا . شهد المرات كلها مع النبى إلا عرفة توك . وأول فى بصرة رسول الله صلى
الله عليه وسلم مالم يله أحد . ولما قتل عثمان ما به الناس بالخيار وانتع عن يمينه معاوية وأهل الشام شيعة
فى أمة عصا بهم لقتل عثمان وقلة عايته الحث عن الفتنة على حسب اعتقادهم ، لحدث من حراء ذلك
المنة العظمى بين المسلمين واضرائهم إلى طائفتين متحاربتين مدة من غير أن يستتب الأمر لى أو معاوية حتى قتل
أحد الخوارج عليا عليه محمد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أصبح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علما وهدا
وشدة فى الحق : وهو إمام الخطاء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلومة . مفتوحة من غير روية . (٣) محرومة : مسرعة . (٤) هيبى : سبى أى سبى كان .
(٥) أى يطرون على الصبي وهو الخندق . (٦) جلال قلبي ، أى حسه .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قُودِي في كِنِ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زِرياًةً على مسلم ، بل لما قد قَدَّرَني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من مِرَاقه ، وأودعي من الحزن لفقده . وذلك أحي لم أشهد بعده مشهداً إلا جئتُ على حزن ، وذُكُرى شجاً . وإن الشوق إلى المَلْحاق به كَافٍ عس الطمع في غيره . وقد عكمتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تهزى ، رحاء نواب مُعَدَّة لمن أحلص الله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشِيئته ، وأمره ونبيه . على أي ما علمت أن التطاهر على واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع . وإذ قد أُفِيمَ الوادي بي ، وحُشِدَ اللادي من أهل ، فلا مرحباً بما ساء أحدًا من المسلمين وسرتي . وفي المس كلاً لولا سابق عقد وسالف عهد ، لَشَقِيتُ غِيظِي بِخَصْرِي وَيَصْرِي ، وَحُضْتُ بَلَّتُهُ نَاتِمِي وَمَغْرِي ، ولكنني مُلْجَمٌ إلى أن ألقى الله ربي ، وصده أختب ما رل بي . وإني عايد إلى جماعتكم ، فبائعُ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرتكم ، لِيَقْبِي الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبَيْدَة : فعدتُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فَصَصْتُ عليه القول على عَرِهِ ، ولم أختل شيئا من حُلوه ومُرمه ، وَكَرَّتْ عُدُوهُ إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا عليٌّ غُتِرَ الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف حميلا ، وجلس زَمِيئًا ، ^(٢) وأستاذن للقيام فصلى وتبعه عمر مُكرِّمًا له ، مستأثرا لما عده .

فقال علي رضي الله عنه : ما قعدتُ عس صاحبكم كارهاً ، ولا أَيْتُهُ قِرَاقاً ، ولا أقول ما أقول قَلَةً . وإني لأعرف منتهى طَرُوقِي ، وَعِطَّ قَدَمِي ، وَمَتَرَجَ قَوْمِي ، وموقع سهمي ، ولكن قد أَرَمْتُ على قَائِي ثِقَّةٌ ^(٣) بَرِي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضي الله عنه : كَفَيْكَ غَرَمَكَ ، وَأَسْتَوْقِفَ سِرِّكَ ، وَدَعِ الْعِيَّ بِلِحَاتِهَا ، والدَّلَاءَ على رِشَاتِهَا . فلما من حَلَفِهَا ووراثتها ، إن قَدَحًا أَوْرِيًا ، وإن مَتَعًا أَوْرِيًا ،

(١) على مره ، أي كما هو كائن على . (٢) ربيتا : حليا وغورا . (٣) يقال : أرم العرس على مأس الحمام إذا صبا وقص عليها . ومأس الحمام . الحديدة الممرسة مسه في الحنك . يريد أنه ألقى منه نقة الخ .

وإن قَرَحَتْ أَدْمِيَّتَا . ولقد سمعتُ أُمَاتِيكَ الَّتِي لَعَزَّتْ بِهَا عَنْ صَدْرِ أُكُلٍ بِالْحَوَى ، ولو شئتُ
لقلتُ على مَقَاتِلِكَ مَا إِنْ سَمِعْتَهُ يَدِمْتَ عَلَى مَا قُلْتَ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَعَدْتَ فِي كَيْفٍ بِرَيْكَ
لِمَا وَقَفَكَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبْدِهِ ، فَهُوَ وَقَدَكَ وَلَمْ يَقْدُ غَيْرَكَ ! بَلْ
مُصَابُهُ أَعْظَمُ وَأَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ حَقِّ مُصَابِهِ أَلَّا تَصْدُعَ شَمْلَ الْجَمَاعَةِ بَفَرْقَةٍ لَا عَصَامَ
لَهَا ، وَلَا يُؤْمِنُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ فِي فَاتِنَا . هَذِهِ الْعَرَبُ حَوْلَنَا ، وَاللَّهُ لَوْ تَدَاعَتْ عَلَيْنَا فِي صَبْحِ
نَهَارٍ لَمْ تَنْتَقِ فِي مَسَانِهِ . وَزَعَمْتَ أَنَّ الشُّوقَ إِلَى الْخَالِقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ ! فَمِنْ
عَلَامَةِ الشُّوقِ إِلَيْهِ بَصَرُهُ دِينَهُ ، وَمَوَازِرُهُ أَوْلِيَائِهِ وَمَعَاوِنَتِهِمْ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ عَكَمْتَ عَلَى
عَهْدِ اللَّهِ تَجْمَعُ مَا تَمَرَّقُ مِنْهُ ، مِنَ الْمَكْرُوفِ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ الصَّبِيحَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ ، وَالرَّافَةِ عَلَى خَلْقِ
اللَّهِ ، وَبَدَلَ مَا يَصْلُحُونَ بِهِ ، وَيَرْتُدُّونَ عَلَيْهِ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الظَّاهِرَ وَأَمْعُ عَلَيْكَ ،
وَأَيُّ حَقٍّ لَطُ دَوْلِكَ ! . قَدْ سَمِعْتَ وَعَلِمْتَ مَا قَالَ الْأَنْصَارُ بِالْأَمْسِ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَتَقَبَّلْتَ
عَلَيْهِ بَطْنًا وَطَهْرًا ، فَهَلْ ذَكَرْتُ أَوْ أَشَارْتُ بِكَ ، أَوْ وَجَدْتُ رِضَاهُمْ عَكَ ؟ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ
بِلِسَانِهِ إِنَّكَ تَصْلُحُ لِهَذَا الْأَمْرِ ؟ أَوْ أَوْمَأَ بَيْنَهُ أَوْ هَمَّ فِي نَفْسِهِ ؟ أَنْظِرْنِي أَنْ لَاسَ ضَلُوءًا مِنْ
أَجْلِكَ ، وَعَادُوا كَفَارًا زَهْدًا بِكَ ، وَاعُوا اللَّهَ تَحَامُلًا عَلَيْكَ . لَا وَاللَّهِ ! لَقَدْ جَاءَنِي حَقِيلُ
ابْنُ زِيَادٍ الْخَزَرَجِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمَعَهُمْ شُرَحْبِيلُ بْنُ يَعْقُوبٍ الْخَزَرَجِيُّ وَقَالُوا : إِنْ
عَلَيْنَا يَنْظُرُ الْإِمَامَةُ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَوَّلِي بِهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَيُنْكِرُ عَلَيَّ مِنْ يَتَّقِدُ الْخِلَافَةَ ، فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ ،
وَرَدَدْتُ الْقَوْلَ فِي تَحَرُّمِهِمْ حَيْثُ قَالُوا : إِنَّهُ يَنْظُرُ الْوَحْيَ وَيَتَوَكَّفُ^(٢) مَسَاحَةَ الْمَلِكِ ، قُلْتُ :
ذَاكَ أَمْرُ طَوَاهِ اللَّهِ بَعْدَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَانَ الْأَمْرُ مَعْقُودًا بِأَنْشُوطَةٍ^(٣) ،
أَوْ مَشْدُودًا بِأَطْرَافِ لِيْلَةٍ^(٤) ؟ كَلَّا ! وَاللَّهِ لَا عِجَابَ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَّا أَفْصَحْتُ ، وَلَا شُكَّاءَ إِلَّا وَقَدْ
تَفَتَّحْتُ . وَمَنْ أَعْجَبَ شَأْنُكَ قَوْلُكَ : «وَلَوْلَا سَالِفُ عَهْدٍ وَسَاقٍ عَقْدٍ ، لَشَفِيتُ غِيظِي»
وَهَلْ تَرَكَ الدِّينَ لِأَهْلِهِ أَنْ يَسْفُحُوا عِظَظَهُمْ بِيَدٍ أَوْ بِلِسَانٍ ؟ تِلْكَ حَاحِلِيَّةٌ وَقَدْ اسْتَصَالَ اللَّهُ شَاقَتَهَا
وَأَقْلَعَ بِحُرْمَتِهَا ، وَهَوَّزَ لِيْلَهَا ، وَغَوَّزَ سَيْلَهَا ، وَأَبْدَلَ مِنْهَا الرُّوحَ وَالرِّيحَانَ ، وَالْهَدْيَ وَالْبَرَهَانَ .

(١) لَط : يَهْد . (٢) يَتَوَكَّف : يَحْطَر . (٣) الْأَنْشُوطَةُ : عَقْدَةٌ يَهْبِلُ بِهَا إِحْلَافُهَا ،
إِذَا أَحَدٌ أَحَدَ طَرَفَيْهَا امْتَحَنَ . (٤) الْبَيْتَةُ قَشْرَةُ الْقِصَّةِ الَّتِي تَلِيظُ بِهَا أَيُّ تَلَرَقُ .

وزعمت أنك مُلغمٌ، ولعمري إن من أنقى الله، وأثر رصاه، وطلب ما عده، أمسك لسانه وأطلق فاه، وحمل معيه لما وراءه .

فقال على رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد كنهته، ولا أقمَرْتُ ما أقمَرْتُ وأنا ابنى حوَلًا عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من أثر الشقاق، وأحتصن الشقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارحح يا أبا حفص الى تحليك نافع القلب، مبرود الغليل، فسيح اللسان، فيصبح اللسان طيبس وراء ما سممت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحطّ الورر، ويصح الإصر، ويجمع الألهه بمشيلة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فأنصرف على وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ على هـد رسول الله صلى الله عليه وسلم .



٢ - ومن كلام عائشة رضى الله عنها في الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يساولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت الى أرفلة^(١) من الناس، فلما حصروا، أسدلت أستارها، وعلت يسادها، ثم قالت : أبى، وما أبىة ! إني والله لا تقطوه^(٢) الأيدي، ذاك طود مئيف، وفرع مئيد، هيات، كدبت العننون ! أنجح إدا أكديتم، وسبق إدا وثيتم، مسق الجواد إذا استولى على الأمد . ففى

(١) المان . الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق من أبى خاتمة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من الهجرة، وأماها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعائة درهم، وكانت أحسانه إليه، وكبتها أم عبد الله، كبت باسم أحبها أسماء، ولما حطب ووقع . وكانت من أكرم العائلات فى وقعة الجمل المشهورة فى الإسلام مصبة الزبير ومطلحة . وكانت أصح أهل زمانها وأبينهم منطلقاً وأحفظهم للحديث وأفهمهم . توفيت سنة سبع وخمسين ودعت ليلاً بالقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طقات ابن سعد (ج ٨ ص ٢٩) .

(٣) الأرفلة . الحاماة . (٤) لا تقطوه : لا تاله .

قريش ناشئا، وكهفها كهلا، يَكُ عايبها، ويريش ثملقها، ويرآب شعبها، ويلم شعبها، حتى
 حَلَيْتَه قلوبها، ثم استغرى في دين الله ما يريحت شكيته في ذات الله عز وجل حتى اتحد
 بهائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبتلون . وكان رحمه الله عزير السمعة، وقيد الجوانح،
 شجي الشج، فانصت اليه يسوان مكة وللدانها يسفرون منه ويستهنون به (الله يستهزي
 يوم ويدهم في طعناتهم يعمهون) ما كبرت ذلك رجالات من قريش لحنت قسيها، وفوقت
 سهامها، وادخلوه عرصا، فما قلوا له صعاة، ولا قصموا له قاة، ومر على سياسته^(١)، حتى
 اذا صرب الدين بحراجه، ورست أوتأده، ودخل الناس فيه أهواجا، ومن كل فرقة أرسالا
 وأشتاتا، احثار الله لبيته ما عده، فلما قبض الله بنيه صلى الله عليه وسلم صرب الشيطان
 رواقه، ومد طسه، ونصب حائله، وأحلب تحيله ورحله، وأصطرب حلل الإسلام،
 ومرج عهده وواج أهله، ونسي الموائل، وطلت رجال أن قد أكثنت أطاعهم نهزها،
 ولأت حين الذي يرحون، وأنى والصديق بين أنظهم ! فقام حاسرا مشتمرا، بلجم
 حاشيته ورمع قطريه، فرد رسن الإسلام على عثره، ولم شعثه يبطه، وأتاش الدين
 فعضه، فلما أراح الحق على أهله، وقزر الرموس على كواهلها، وحقق السماء وأهلبها،
 أنه مبيته، فسدت ثلثته بظيره والرحمة، وشقيقه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب،
 لله دتر أم حلت به ودترت عليه ! لقد أوحدت به، ففسخ الكفرة وديجها، وشرذد الشرك
 شذر مذر، وتبع الأرض وتبعها، فقامت أكلها، ولقظت خباها، تزامه ويصيف عنها،
 وتصدى له ويأماها . ثم وزع فيها فيثها ووذعها كما صحبها . فاروى ماذا ترتنون، وأى
 يوعى أبى تقيمون : أيوم إقامته اذ عئل ميك، أم يوم ظلمه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هذا
 واستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت : أنشدكم الله هل أنكرتم مما
 قلت شيئا ؟ قالوا : اللهم لا .

(١) على سياسته، أى على ذاته وعادته . (٢) مع : علب وفهر . (٣) حاسا :



٣ - كلمة أم الخير بنت الحريش^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحريش البارقية يوم صيى في الانتصار لعلّ رضى الله عنه :
 يروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش البارقية
 برسلها، وأعلمه أنه تجازيه قولها فيه بالخير حيرا والشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب
 اليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أنا أأفقر زائمة عن طاعة ولا معتلة بكنب ! ولقد كنت
 أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تحتلج في صدرى . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها :
 يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب اليّ أنه يجازي بقولك في بالخير حيرا والشر شرا ،
 فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يُطعمك يركب في أن أسرك باطل ، ولا يؤنسك معرفتي بك
 أن أقول فيك غير الحق . فسارت حير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع حريمه ثلاثا ،
 ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
 ورحمة الله وبركاته ، قال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، والرحم منك دعوتى بهذا الاسم ؛
 قالت : مه يا أمير المؤمنين ! فإن يديها السلطان منحصنة لما يحب علمه ولكل أجل كتاب ،
 قال : صدقت ، فكيف حالك يا حالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافية
 وسلامة حتى صرت إليك فانا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ، قال معاوية : بحسن نبى
 طفرت بك ، قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحس المقال وما تردى عاقبته ،
 قال : لويس هذا أردنا ، أحيرى كيف كان كلامك يوم قبيل عمار بن ياسر ؟ قالت :
 لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد^(٢) ، وإنما كانت كلمات تفتن لسانى حين الصدمة ،
 فان شئت أنت أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ، قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى
 أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
 كعظمى سورة الحمد ؛ قال : هاتيه ، قال : نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم طليا

(١) مقولة من صح الأضخى ح ١ ص ٢٤٨ (٢) رقر الكلام في منه : مياه .

برء زَيْدِي كَتِيف الحاشية، وهي على جمل أَرْمَكْ وقد أَحِيطَ حَوْلَهَا، وبَيْدَهَا سَوَاطِ مَنَشَرِ الصَّعْر، وهي كَالْمَحَلِّ يَهْدِرُ فِي شِقَاقِهِ تَقُولُ :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ! إِنْ أَنَا قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ، وَأَنَا مِنَ الدَّلِيلِ، وَتَوَرَّعَ السَّبِيلَ، وَرَفَعَ الْعَلَمَ، فَلَمْ يَدْعِكُمْ فِي عَمِيَاءٍ مُنْهَمَةٍ ! وَلَا سُودَاءَ مُنْهَمَةٍ، فَالَى أَيْنَ تَرِيدُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ! أَفِرَارًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْ فِرَارًا مِنَ الرَّخْفِ، أَمْ رَغْبَةً مِنَ الْإِسْلَامِ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنِ الْحَقِّ ! أَمَّا سَمِعْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : (وَلَبَّيْكُمْ حَتَّى تَسْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَسْلُوا أَخْبَارَكُمْ) .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول :

قَدْ عَيَّلَ الصَّبْرَ، وَصَغَّفَ الْيَقِينَ، وَانْتَشَرَ الرَّعْبَ، وَبَيَّدَكَ يَا رَبُّ أَرِمَةَ الْقُلُوبِ، فَاجْمَعْ الْكَلِمَةَ عَلَى التَّقْوَى، وَأَلْفَ الْقُلُوبَ عَلَى الْمَهْدَى . هَلُمُّوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِمَامِ السَّادِقِ، وَالْوَصِيِّ الْوَلِيِّ، وَالصَّدِّيقِ الْأَكْبَرِ ! إِنَّمَا أَحَقُّ بِدَرْيَةِ، وَأَحْقَادِ سَاهِلِيَّةٍ، وَصَفَائِنِ أُحُدِيَّةٍ، وَتَبَّ بِهَا مَعَاوِيَةَ حِينَ الْغَفْلَةِ يُذِيرُكَ بِهَا ثَارَاتُ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ .

ثم قالت : فَأَتَيْلُوا أَيْمَنَةَ الْكُفْرِ إِنَّمَا لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَشْعُرُونَ . صَدْرًا مَعَشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، قَاتِلُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَثَبَاتٍ مِنْ دِينِكُمْ، وَكَأَنِّي بَكُمْ عَدَاً قَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ كَحُمُرٍ مُسْتَفِيرَةٍ، قَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ، لَا تَدْرِي أَيْنَ يُسَلَّكُ بِهَا مِنْ بَحَاجِ الْأَرْضِ، بَاعُوا الْآخِرَةَ بِالْأُولَى، وَاشْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَى، وَبَاعُوا الْبَصِيرَةَ بِالْعَمَى، وَعَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَقَنَّ الْمَدِينُ، حِينَ تَحْتَلُّ بِهِمُ الدَّمَامَةُ، يَطْلُبُونَ الْإِقَالََةَ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَنْ ضَلَّ عَنْ الْحَقِّ وَقَعَ فِي الْبَاطِلِ، وَمَنْ لَمْ يَسْكُنِ الْجَسَةَ نَزَلَ فِي الْبَارِ . إِنَّمَا يَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْأَيْكَاسُ اسْتَقْصَرُوا عَمَرَ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا وَاسْتَطَعُوا مَدَّةَ الْآخِرَةِ فَسَعَوْا لَهَا . وَاللَّهِ أَيُّهَا النَّاسُ لَوْلَا أَنْ تَبْطُلَ الْحَقُوقُ، وَتُعْطَلَ الْحُدُودُ، وَيُظْهَرَ الظَّالِمُونَ، وَتَقْوَى كَلِمَةُ الشَّيْطَانِ، لَمَا احْتَرْنَا وَرُودَ الْمَايَا عَلَى خَفْصِ الْعَيْشِ وَطِيهِهِ، فَالَى أَيْنَ تَرِيدُونَ — رَحِمَكُمُ اللَّهُ — عَنْ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وزوج ابنته وأبى أبنيه^١ خلق من طيبته، وتفرع عن نعتة، وخصه ببره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحسه المسلمين، وأمان بغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمص على سنن استقامته، لا يترح لراحة اللذات. وهو مُلقى الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والاس مُشركون، وأطاع والاس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مُبارزى بدر، وأفى أهل أحد، وفوق جمع هوازن، فإله وقائع زرعت في قلوب قوم فافا، وردة وشفاقا. وقد أجهت في القول، والمالت في الصبيحة، والله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتل! والله لو قتلتيك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءني يا ابن هذ أن يُخبري الله ذلك على يدي من يُسعدني الله بشقائه؛ قال: هيأت يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الـباس وهم كارهون، وقتلوه وهم راصون؛ فقال: إياها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذي تدنين عليه، قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردت عثمان نقصا، ولقد كان ساقا إلى الخيرات، وإنه لرفع الدرجة. قال: ما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، إغليل من مأمته، وأتى من حيث لم يتحدر، وقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجعة. قال: ما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيغ يُعرك في المركب^(١)؛ قال: حقا لتقولين ذلك وقد عزمْتُ عليك؛ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان ساقا إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني

(١) المركب: الإحالة وهي إياه تصل به الثياب. ويرك: يحك. والرجيع المردود. أي لا تغطي كالثوب المصروع يحك في الإحالة مرة بعد أخرى لإحراج صممه: تشبه محاورة معاوية إياها وسؤالها مرة بعد مرة لاستخراج ما في صممه عما يصل من الثياب المصوعة لاستخراج صممه منها.

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قرشنا تحدثت أنك من أحلبها، أن تَسْعِيَ بفضل حبلك، وأن تُغْنِيَنِي من هذه المسائل، وأميص لما شئت من غيرها، قال: نعم وكرامة، قد أعصيتك، وردعنا مكرمة إلى ملدها.



٣ - كلمة الزرقاء بنت عدى

ومن كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الحمدانية ما قالته يوم صعب أيضا :
 يروى أنها دُرِكت عند معاوية يوما، فقال لجلسائه - أيكم يحفظ كلامها؟ قال معصم:
 نحن نحفظه يا أمير المؤمنين، قال : فأشيروا على في أمرها، فأشار معصم بقتلها، فقال :
 شس الرأي ! أَيْحُسُنُ بِمَثَلِ أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه
 مع ثقة من ذوى تحرّمها وعنده من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء لبا، ويسدّ ثرتها دِستر
 خفيف، ويؤتسّع لها في العفة . فلما دخلت على معاوية، قال: مرحبا بك وأهلا ! قَدِمْتِ
 حَيْرَ مُقَدَّمِ قَدِيمِهِ واعد، كيف حالكِ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك العمة !
 قال : كيف كنتِ في مَسِيرِكِ؟ قالت : ريدة بيت أو طعلا مهّدا، قال : بذلك أمرناهم .
 أتدريين فيم بعثتُ إليك؟ قالت : وأنى لي علم ما لم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل؛
 قال : أليسَ الراكبة الجمل الأحمر، والواقفة بين الصّفيّين بصفيّين تحصين الناس على القتال،
 وتوقد في الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ قالت : يا أمير المؤمنين، مات الرأس، ومُردّ الدّيب،
 ولن يمود ما ذهب؛ والدهر ذو غير، ومن تمكّر أبصر، والأمرُ يُحْتَثُ بسدّه الأمر؛ قال

(١) هي الزرقاء بنت عدى بن قيس الحمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فاقته،
 وبلاهة نادرة، شهدت مع قومه واقعة صعبين، وطاعة حلت تحرض الناس بها على القتال ضد معاوية . وبعد
 أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باسمائها، فأحسرت إليه، وبعد محاورته به وجبا سألها حاجتها،
 فقالت : « يا أمير المؤمنين، آليت على مني ألا أسأل أميرا أحسّ عليه أبدا » ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها
 معاوية حاترة . (٢) حبيب : عيط .

لها معاوية: اتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت: لا والله، ولقد أنسيته؛ قال: لكني أحفظه،
 لله أولئك حين تقولين:

أيها الناس، إرعووا وأرجعوا! إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم، وحارت
 كم عن قصد المحمة. فإلها فتنة عمياء، صماء بكاء، لا تسمع لناقمها، ولا تسلس لناقدها.
 إن المصاح لا يضيء في الشمس، والكواكب لا تشرع القمر، ولا يقطع الحديد
 إلا الحديد. ألا من أسترشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبراً يامعاشر المهاجرين والأنصار
 على الفصص، فكان قد أدمل شعب الشتات، وآثمت كلمة التقوى، ودفع الحق باطله!
 فلا يجهلن أحد يقول: كيف العدل وأنى! ليقضى الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب
 النساء الحياء، وخضاب الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في عواقب
 الأمور. إنيها إلى الحرب قدماً غيرنا كهين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: يا زرقاء، لقد شيركت علياً في كل دم سفكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
 وأدام سلامتك، مثلك من بشر بحير وستر جليسه؛ قال: ويترك ذلك؟ قالت: نعم سرت
 بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل! فصحك معاوية وقال: لو فاكم له بعد موته أعجب عدى
 من حبكم له في حياته! أذكرى حاجتك، قالت: يا أمير المؤمنين، أليت على نفسي ألا
 أسأل أميراً أعنت عليه أبداً، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلب؛ قال:
 صدقت، وأمر لها وللذين حادوا معها بمحارز وكسا.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صفين أيضاً:
 يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسلمت عليه بالخلقة ثم جلست؛
 فقال لها معاوية: الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا ملحق! قال:

السِّتِ الثَّقَلَةُ حَامِلُ السَّيْفِ بِصَيٍّ وَأَنْتَ وَاقِعَةٌ بَيْنَ الصَّيِّينِ تَقُولِينَ : أَيُّهَا السَّاسُ ،
عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ . إِنْ الْجَمْعُ لَا يَحْزَنُ مِنْ قَطْعِهَا ، وَلَا يَهْرَمُ مِنْ
سُكْنِهَا ، وَلَا يَمُوتُ مِنْ دَحْلِهَا ، فَاثْبَاوْهَا بِدَارٍ لَا يَدُومُ سَيْمُهَا ، وَلَا تَصْرِمُ هُمُومُهَا . وَكُوبُوا
قَوْمًا مُسْتَبْصِرِينَ فِي دِينِهِمْ ، مُسْتَظْهِرِينَ عَلَى حَقِّهِمْ ، إِنْ مَعَاوِيَةُ دَلَّفَ إِلَيْكُمْ مَعَهُمُ الْعَرَبُ ،
لَا يَفْقَهُونَ الْإِيمَانَ ، وَلَا يَدْرُونَ مَا الْحِكْمَةُ . دَعَاهُمْ إِلَى الْبَاطِلِ فَأَحَابَوْهُ ، وَاسْتَدْعَاهُمْ إِلَى
الدُّنْيَا فَلَبَّوْهُ . فَالْقَالَ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فِي دِينِ اللَّهِ ! وَإِيَّاكُمْ وَالتَّوَكُّلَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْصُرُ عُرَى
الْإِسْلَامِ ، وَيُطْفِئُ نَوْرَ الْحَقِّ . هَذِهِ بَدْرُ الصَّغْرَى ، وَالْعَقَسَةُ الْأُخْرَى . يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ ، أَمْضُوا عَلَى بَصِيرَتِكُمْ ، وَأَصْبِرُوا عَلَى عِزِّتِكُمْ ، فَكَأَنِّي بِكُمْ غَدًا وَقَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ
الشَّامِ كَأَلْمَرِّ الْهَامَةِ تَقْصَعُ قَصْعَ الْبَعِيرِ .

ثم قال : فَكَأَنِّي أُرَاكَ عَلَى عَصَاكَ هَذِهِ قَدْ انْكَمَأَ عَلَيْكَ الْعَسْكَانُ يَقُولُونَ هَذِهِ عِكْرَتُهُ
بَنْتُ الْأَطْرَشِ ، فَإِنْ كَدَيْتَ لَتَمْلِكِينَ أَهْلَ الشَّامِ لَوْلَا قَدْرُ اللَّهِ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ، هَا
حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا
عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ) الْآيَةُ ، وَإِنَّ اللَّيْبَ إِذَا كَرِهَ أَمْرًا لَا يَحْتَإِ عَادَتُهُ ، قَالَ :
صَدَقَتْ ، فَادْكَرِي حَاجَتَكَ ، قَالَتْ : كَانَتْ صَدَقَاتُنَا تَوْحِذُ مِنْ أَغْيَاسِنَا فَتَرَدَّدَتْ عَلَى مَقَرَّائِنَا ، وَقَدْ
فَقَدْنَا ذَلِكَ ، هَا يُخْبِرُنَا لَنَا كَبِيرٌ ، وَلَا يُنْعَشُ لَنَا فَقِيرٌ ، فَإِنْ كَانَ عَنْ رَأْيِكَ فَتُشْلِكُ مِنْ آتِنَبِهِ مِنْ
الْعَمَلَةِ وَرَاجِعِ التَّوْبَةِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ خَيْرِ رَأْيِكَ هَا مِثْلُكَ مِنْ أَسْتِمَانٍ بَانْخَوْنَةٍ ، وَلَا
أَسْتَمْعَلِ الظُّلْمَةَ ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ ، إِنَّهُ يَنْوَبُنَا مِنْ أُمُورٍ رَعِيْنَا ثَوْرُ نَعْتَقٍ ، وَبَحُورُ
نُتْدَقٍ ، قَالَتْ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَاللَّهِ مَا عَرَضَ اللَّهُ لَنَا حَقًّا لَجْعَلُ فِيهِ صَرْرًا لَفَيْرِنَا وَهُوَ عَلَامُ
النُّيُوبِ ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : هِيَاتَ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، نَبْهَكُمْ عَلَى فَنٍّ تُطَاقُوا . ثُمَّ أَمَرَ بِرَدِّ صَدَقَاتِهِمْ
فِيهِمْ وَلِإِنْصَافِهِمْ .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لعص من ولده^(٢) :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين - عبد ما أعزّم عليه من يوحىك الى عدوّ الله الحلف الجاني الأعرابي ، المسكح في حيرة الجهالة ، وطلم العتية ، ومهاوى الملكة ، ورعاعه الدين عاثوا في أرض الله فساداً ، وآتھكوا حرمة الإسلام استحقاقاً ، وبذلوا نعمة الله كفراً ، وأستحلّوا دماء أهل سبله جهلاً - أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك ، وعوامّ شؤونك ، ودعائل أحوالك ، ومضطرب ثقلك عهداً يملك فيه أدبه ، ويسرع لك به

(١) هذه الرسالة مقولة عن صاحب الأعتى ح ١٠ ص ١٩٥ (٢) وعد عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامريّ ولده الشامي داراً ، شيخ الكتاب الأرائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بني عامر ، وتفرّج في اللذة والكفاة كل حبه أن السلاء سالم . دول هشام بن عبد الملك وكانت دوله وأحد طماء العالم والقفلة من اليوماية . وكان عبد الحميد في أوّل أمره معلم صبيان ينقل في البلدان حتى طلى له مروان بن محمد أيام توليه أرمينية واستاده تشكيك شتياً ، مكث له مدّة ولايته ، حتى إذا طعمه ما يمة أهل الشام له بالخلافة محمد مروان قد شكراً ومحمد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسعد ؟ فقال ولم أحمد ؟ أظن أن كنت مما طرقت عا ! قال : إذا ظنير معي ؟ قال : الآن طاب لي السجود ومحمد ، فاتخذ مروان كاتب دوله ، فصدره من الرسائل ما صار بمودعا يحاكمه من بعده من العلماء .

ولما دهم مروان سيوش حسان أصار الدعوة العاصية وتوالى عليه الهراثم كان عبد الحميد يلازمه في كل هذه الشدة ؟ فقال له مروان : قد احتجت أن تصير مع عفتي وتطهر المدري ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطلعت أن تسمى في حياتي وإلا لم تصر عن سبط حرمي عبد وفاق ، فقال له : إن الهدي أشرت به على أفع الأحرار لك وأقمهما في ، وما عدي إلا الصريح حتى يفتح الله عليك أو أقتل ملك . وأشد :

أمر وفاء ثم أطهر عسيرة x قبل منور يوسع الناس طاهره

وفى به حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ هرواحناً عبد حديقه ابن المذيع هاشم الطل وهو في يده ، فقال الذين دخلوا عليها أيكاع عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، حوفا على صاحبه ، وحاف عبد الحميد أن يصرعوا إلى ابن المذيع فقال : ترقوا ما طرقت كلاماً له علامات ، هوكلوا ما يصحكم ويمسى منكم كرويد ذكر تلك العلامات لم يوحىكم فعلوا وأحد عبد الحميد إلى السماح فقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته في ابن حلكان (ح ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الصفاك بن قيس الشيباني الحارثي .

عِظَتُهُ ، وَإِنْ كُنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَجَلَالَتِهِ بِحَيْثُ أَصْطَلَعَكَ اللَّهُ لَوْلَايَةِ الْمَهْدِ مُحْتَصِماً
لَكَ بِذَلِكَ دُونَ مُحْتَكٍ وَتَنِي أَيْبِكَ . وَلَوْلَا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دَالاً عَلَيْهِ ، وَتَقَدَّسَتْ فِيهِ
الْحِكْمَةُ أَمِيرِينَ بِهِ : مِنْ تَقْدِيمِ الْعِظَةِ ، وَالتَّذْكِيرِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنْ كَانُوا أَوَّلِي سَاقِهِ
فِي الْفَصْلِ وَحِصِّيَاءِ فِي الْعِلْمِ ، لِأَعْتَمَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَصْطِلَاعِ اللَّهِ إِيَّاكَ وَتَمَصُّبِهِ لَكَ
بِمَا رَأَى أَهْلُهُ فِي مُحْتَكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَقَىكَ إِلَى رَعَائِبِ أَحْلَاقِهِ ، وَأَتَرَاكَ مَجْهُودَ شَيْخِهِ ،
وَأَسْتَبْلَاكَ عَلَى مَشَاهِيرِ تَدْبِيرِهِ . وَلَوْ كَانَ الْمُؤَدِّبُونَ أَحْدُوا الْعِلْمَ مِنْ عِدِّ أَهْلِهِمْ ، أَوْ لَقَوْهُ
إِلْهَاماً مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَلَمْ يُصِيبْهُمْ تَعَلُّمُوا شَيْئاً مِنْ عِزِّهِمْ ، أَحْلَاهُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ ، وَوَصَّاهُمْ بِمَعْرِفَةِ
قَصْرِهَا عَنْهُمْ حَالِقُهُمُ الْمُسْتَأَثَرِ عِلْمُ الْغَيْبِ عَنْهُمْ بَوَحْدَانِيَّتِهِ وَفِرْدَانِيَّتِهِ وَسَابِقِ لَاهُوتِيَّتِهِ ،
أَحْتِجَاناً مِنْهُمْ لَتَعْقُيبِ فِي حِكْمِهِ ، وَنَثْبِتِ فِي سُلْطَانِهِ وَتَفْقِيزِ إِرَادَتِهِ ، عَلَى سَابِقِ مَشِيئَتِهِ .
وَلَكِنْ الْعَالَمُ الْمَوْفِقُ لِلْخَيْرِ ، الْمُحْصُوصُ بِالْفَضْلِ ، الْمُحَوَّلُ بِمِزْيَةِ الْعِلْمِ وَصَوْنِهِ ، أَدْرَكَهُ مُعَاً عَلَيْهِ
لَطْفَ بَحْتِهِ ، وَإِذْلالَ كَمَعِهِ ، وَحِصَّةَ فَهْمِهِ ، وَتَجَمُّرَ سَامَتِهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، أَحْلَماً بِالْمَحْتَمَةِ عَلَيْكَ ، مُؤَدِّياً حَقَّ اللَّهِ الْوَاحِدَ عَلَيْهِ
فِي إِرْشَادِكَ وَقَصَاءَ حَقِّكَ ، وَمَا يَنْظُرُ بِهِ الْوَالِدُ الْمُتَعَبِّ الشَّقِيقُ لَوْلَدِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَحُو أَنْ
يَتَزَهَّكَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ سَهَّشَ لَهُ طَمَعٌ ، وَأَنْ يَتَصَصَّكَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ حَاقَ مَا حُدِّ ، وَأَنْ
يَحْصُصَّكَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ آتَوْتُكَ عَلَى أَمْرِي فِي دِينٍ أَوْ حُلُقٍ ، وَأَنْ يَأْتِيَهُ فَيْكَ أَحْسَنُ مَا لَمْ يَزَلْ
يَعُودُهُ وَيُرِيهِ مِنْ آثَارِ صِمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ، سَامِيَةً لَكَ إِلَى ذِرْوَةِ الشَّرَفِ ، مُتَبَجِّحَةً لَكَ بِسُطَّةِ
الْكَرَمِ ، لِأُثْمَةِ لَكَ فِي أَزْهَرِ مَعَالِي الْأَدَبِ ، مُورِثَةً لَكَ أَهْسَ ذَخَائِرِ الْعِزِّ ، وَاللَّهُ يَسْتَحْلِبُ
عَلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْأَلُ جِبَابَتَكَ ، وَأَنْ يَعْصِيكَ مِنْ زَيْجِ الْهَوَى ، وَتُحْصِرَكَ دَائِعِي
التَّوْفِيقِ ، مُعَاً عَلَى الْإِرْشَادِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُبَيِّنُ عَلَى الْخَيْرِ وَلَا يُوَفِّقُ لَهُ إِلَّا هُوَ .

إِعْلَمْ أَنَّ لِحْكَةَ مَسَالِكِ تَحْيِيٍّ مَضَائِقُ أَوَائِلِهَا بِحَسَنِ سَالِكِهَا ، وَرَكِبَ أَحْطَارَهَا
قَاصِداً ، إِلَى سَعَةِ عَاقِبَتِهَا ، وَأَمْنٍ سَرَحِهَا ، وَشَرَفِ عِزِّهَا . وَأَنَّهَا لَا تُفَارِغُ بَسْطَ الْحَقِيقَةِ ،
وَلَا تُنْشَأُ بِتَفْرِيطِ النَّمْلَةِ ، وَلَا يُتَعَدَّى فِيهَا بِأَمْرِي حُدُّهُ . وَبِمَا أَطْهَرْتُ بِسُطَّةِ النَّفْسِ

مستور العيب . وقد تلقّيتك أخلاق الحكمة من كل جهة بمصلها ، من غير نصب البحث في طلبها ، ولا متناول لمساولة ذروتها ، بل تأملت منها أكرم نبتاتها ، واستخلصت منها اعتق حوايرها ، ثم سموت الى لباب مصاصها ، وأحرزت متيسر ذائرها ، فأقتصد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وأعلم أن احتوائك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً لها ، وإصمَار طاعته منطوياً عليها ، وإعطام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه لليريد بحس الحياطة له والذب عنه من أن تدسلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع ، أو سبه تهاون ، أو جهالة معرفة ، فإن ذلك أحق ما يبدى به وطريقه ، معتمداً عليه بالقوة والآلة والعدة والأفراد به من الإصحاب والحفاة . فتمسك به لاجئاً إليه ، وأخمد عليه مؤثراً له ، وألجئ إلى كفه متحيراً إليه : فإنه ألح ما طُلب به رضا الله وأنجحه مسألة ، وأحرله نوماً ، وأعوذه صما ، وأعنه صلاحاً ، أرشدك الله لحظك ، وفهمك سداده ، وأخذ قلبك إلى محموده . ثم أجعل فقه في كل صباح يُسم عليك ببلوعه ، ويُظهر ملك السلامة في إشرافه ، من نفسك نصيباً تجعله له شكراً على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن ، وسبوع بسم ، وظهور كرامة ، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — حرياً تُرقد رأيك في آيه ، وترتل لفظك بقراءته ، وتُحصِر عقلك ناظراً في مُحكمه ، وتُفهمه معكراً في مُتشابهه : فإن في القرآن شماء الصدور من أحرصها ، وحلاء وسويس الشيطان وصعاصيه ،^(٢) وضياء معالم السور ، تدينا لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ثم تهتد نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مِفْلاق الحسَنات ، ومِفْتاح السيئات ، وخَصم العقل .

وأعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويعترض غفلتك ، لأنها خُدع إبليس ، وخَوائيل مكره ، ومصائد ميكيدته ، فأحذرهما مجانباً لها ، وتوقها عترياً منها ، وأستعِد

(١) المصاحف - حاشي كل شيء .

(٢) كذا في صح الأعمش وفي مفتح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وزير » . (٣) الصامع :

جمع مصمع وهو طائر أذهب صيد الحنابذ ، شبه وسوسة الشيطان به . وفي بعض المؤلفات « وسماقة » .

بالله عز وجل من شرها، وحادثها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا وثية فيه، وحرّم
 نافذ لا مشورية لأربك بعد إصداره، وصديق غالب لا مطمع في تكديسه، ومصاعيد صارية
 لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلبة شك فيها: فإن ذلك طهرى صديق لك على ردعها
 عنك، وقمعها دون ما تنتطح إليه منك، فهي واقية لك من خطئة ربك، داعية إليك رضا
 العاقبة عنك، سارة عليك عيب من دولك؛ فازدند بها متعلّياً، وأصيب بأحلاقيك مواضعها
 الحديدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصرك دون شأوها: فإن
 المؤونة إنما آشتنت مستصعبة، وقدّحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المستعيلين
 سمو القدر. بجهالة مواضع ذم الأخلاق ومجودها، حتى فزط أهل التقصير في مص
 أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أسيوها، فليسوا إلى التفریط، ورصوا بذل
 المتزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عييين عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة
 أهل النجا. فغايول بلوغ غايتها تحريزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصفا
 أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول العواية، ومقاد الملكة، حارساً
 أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي الألقاب وذمها، من حيث أنت الغفلة،
 وانتشر الضبايع، ودخل الوهن. فوق غلوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق
 ستظهر بأماراتها تصديق أرائك عند دوى الحما حال الرأي وتقيص الطر. احتلب
 لنفسك محمود الذكر وما في لسان الصديق المالحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين،
 متحرّزا من دخول الآفات عليك من حيث أسك وقلة تفهتك تحكّمها. من ذلك أن تملك
 أمورك بالقصد، وتدارى جندك بالإحسان، وتصور سرك. بالكيان، وتداوى حقدك
 بالإنصاف، وتذلّ نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أدبك، وتمنع عقلك من دخول
 الآفات عليه بالعجب المؤدى. وأنتك فوقها الملال وفوت العمل، ومصاعك قدرعها
 روية النظر وأكثفها بأناة الحليم. وخطوتك فأحرمها من الفعلة وأعتاد الراحة، ومحتك

فأنف عنه عيِّ اللفظ ، وخَفَّ سوء القالة ؛ وأستماعَكَ فأزيعه حُسْن التفهيم ، وقوّه براشهاد
العكر ، وعطائك فأهد له بيوتات الشرف وذوى الحسب ، وتحزّز فيه من السرف وأستطالة
البذخ وأمنان الصبيحة ؛ وحياتِكَ فأتمه من انجمل وبلاده الحصر ، وحياتِكَ فزعه عن
التهاون وأحصره قوة الشيكمة ، وعقوبتِكَ فقصّر بها عن الإفراط ، وتعمّد بها أهل
الاستحقاق ، وعفوك فلا تُدخِله تعطيل الحقوق ، وحذّ به واجب المفترض ، وأقيم به أود
اللين ، وأستئناسك فأمع منه النداء وسوء المأفئة ^(١) . وتعهّدك أموركَ فحُدّه أوقاتا ، وقنّره
ساعات لا تستفرغ قوتك ، ولا تستدعي سآمتك ، وعزّ مآيتك فأفب عنها محسلة الرأى ،
ولجاجة الإقدام ، وعرحاتك فأشكّها عن الطر ، وقبّدها عن الرهو ، وروعاتك فخطها من
دعش الرأى وأستسلام الخضوع ، وحدراتك فأمعها من الجنب ، وأعيد بها الحزم ،
ورحاتك فقيده بخوف الفات ، وأسمعه من أمي الطلب .

هذه جوامع حلال ، دحّال القيص منها واصل إلى العقل لطائف أبنه ، وتصاريف ^(٢)
حويله ، فأحكها عارفا بها ، وتقدّم في الحفظ لها ، معتزما على الأخذ براشدها والانتهاى منها
إلى حيث بلغت لك عطة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله .

ثم اتكى طائنتك وحلساؤك في حلواتك ودحلاؤك في سرك ، أهل الفقه والورع من
خاصة أهل بيتك ، وعامة قوادك من قد حكته السن بتصارييف الأمور ، وحطته فصالحا
بين فرائس الثبرل منها ، وقبّته الأمور في مونها ، وركب أطوارها ، عارفا بحاسن الأمور ^(٣)
ومواضع الرأى وعين المشورة ، مأمون الصبيحة ، مطوي الصمير على الطاعة . ثم أخصرهم
من نفسك وقاراً يستدعي لك مهم الهية ، وأستئناسا يعطف إليك منهم المودة ، وإنصاتا
يقل إفاصتهم له عندك بما تكرة أن ينشر عنك من صحابه الرأى وصياح الحزم . ولا يتلين
عليك هواك فيصرفك عن الرأى ويقتطعك دون العكر . وتسلم أمك وإن خلوت بيسر

(١) يقال : مات فلا بالكلام . آداه (٢) الحويل : الخدق والقدرة على الصرف .

(٣) الفراس : واحداً فرس وهو طرف من المعير .

فَالْقِيَتَ دُونَهُ سُتُورَكَ ، وَأَطْلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَكَ ، فَذَلِكَ لَا عَالَةَ مَكشُوفٌ لِلْعَانَةِ ، ظَاهِرٌ
عِنْدَكَ وَإِنْ أَسْتَرْتَ بَرْتِمًا وَلَعَلَّ وَمَا أَرَى إِذَاعَةَ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ ، بِمَا يَرُونَ مِنْ حَالَاتٍ مِنْ
يَنْقَطِعُ بِهِ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ . فَتَقَدَّمْ فِي إِحْكَامِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَسَدِّدْ حَلْلَهُ عِنْدَكَ : فَإِنَّهُ
لَيْسَ أَحَدٌ أَسْرِعُ إِلَيْهِ سِوَهُ الْقَالَةِ وَلَعَطُ الْعَانَةِ مَحِيرٌ أَوْ شَرٌّ مِنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِكَ وَمَكَائِكَ
الَّذِي أَصْحَحْتَ بِهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ الْمُنْتَظَرِ فِيكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ يَغِيْزَ فِيكَ أَحَدٌ
مِنْ حَاقَتِكَ وَيَطْلُبَ حَدِيثَكَ ضَمْعَةً يَحْدِثُهَا مَسَاعَا إِلَى الطُّلُقِ عِنْدَكَ بِمَا لَا يَنْتَرِكَ عِنْدَهُ ،
وَلَا تَحْمِلُ مِنْ لَأْمِنِيهِ ، وَلَا تَأْمَنُ سِوَهُ الْأَحْدُوثَةِ فِيهِ ، وَلَا بِرُخْصِ سِوَهُ الْقَالَةِ لَهُ إِنْ نَحْمَ طَاهِرًا
أَوْ عَلَنَ بَادِيًا ، وَلَنْ يَحْتَرِثُوا عَلَى تِلْكَ صَدِّكَ إِلَّا أَنْتَ بَرَوًا مِنْكَ إِصْفَاءً إِلَيْهَا وَقَبُولًا لَهَا
وَتَرْخِيصًا لَهَا فِي الْإِفَاحِ بِهَا . ثُمَّ إِيَّاكَ وَأَنْ يُفَاصَّ عِنْدَكَ بَشِيءٌ مِنَ الْمَكَاهَاتِ وَالْحِكَايَاتِ
وَالْمِرَاحِ وَالْمَصَاحِكِ الَّتِي يَسْتَحِبُّ بِهَا أَهْلُ الْيَطَالَةِ ، وَيَتَسَرَّعُ بِحُجُوعِهَا دُونَ الْجَهَالَةِ ، وَيَحْدِثُهَا
أَهْلُ الْحَسَدِ مَقَالًا لِيُغَيِّبَ يَدَيْهِمْ ، وَطَعْنًا فِي حَقِّ يَصْحَدُونَهُ ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ الرَّأْيِ ،
وَدَرْبِ الْعِرْضِ ، وَهَذَا الشَّرَفِ ، وَتَأْنِيلِ الْعَمَلَةِ ، وَقَوَّةِ طِلَاجِ السُّوءِ الْكَامِيَةِ فِي بَنِي آدَمَ
كَكُؤُنِ السَّارِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ ، فَاذَا قُدِّحَ لَاحُ شَرُّهُ ، وَتَلَهَّبَ وَمِصْصُهُ ، وَوَقَدَ تَصْرِمُهُ .
وَلَيْسَتْ فِي أَحَدٍ أَقْوَى سَطْوَةً ، وَأَطْهَرُ تَوْقُدًا ، وَأَعْلَى كُؤُومًا ، وَأَسْرَعُ إِلَيْهِ بِالْعِيْبِ وَتَطَرُّقِ
النَّشِيءِ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِي مِثْلِ سَيْتِكَ : مِنْ أَعْفَالِ الرِّحَالِ وَدَوَى الْعُمُؤَانِ فِي الْحِدَاثَةِ الَّذِينَ
لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِمْ سَيِّمَاتُ الْأُمُورِ ، مَاطِقًا عَلَيْهِمْ لِأَيْحُهَا ، طَاهِرًا فِيهِمْ وَثُمَّهَا ، وَلَمْ تَحْمَصْهُمْ شَهَامَتَهَا ،
مُظْهِرَةً لِلْعَامَةِ فِعْلَهُمْ ، مُبْدِيَةً حَسَنَ الدِّكْرِ عَنْهُمْ ، وَلَمْ يُلْغِ فِيهِمُ الصَّبِيْتُ فِي الْحُكْمَةِ مُسْتَمْعًا
يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بَوَاطِقَ أَلْسُنِ أَهْلِ النَّعْيِ ، وَمَوَادَّ أَصْبَارِ أَهْلِ الْحَسَدِ .

ثُمَّ تَهْتَدُ مِنْ هَسِكَ لَطِيفٍ عِيبٍ لَارِمٍ لِكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّلْطَانِ وَالْقُدْرَةِ : مِنْ
إِطَارِ الدَّرْعِ وَنَحْوَةِ الشَّرَفِ وَالتَّيِّهِ وَعِجِبِ الصَّلَافِ ١ : فَإِذَا تُسْرِعَ بِهِمْ إِلَى فُسَادٍ وَتَهْجِينِ

(١) الْأَعْمَالُ حَقٌّ وَعَمَلٌ وَهِيَ لَمْ يَحْرَبِ الْأُمُورُ . (٢) يُقَالُ : أَطْرَهْ دَرْعَهُ إِذَا حَلَّهِ فِرَقٌ
مَا يَطْلِقُونَ . وَفِي صَحِيحِ الْأَعْيُنِ (ح ١٠ ص ٢٠١) « أَطَالُ الدَّرْعِ » . وَقَدْ تَوَقَّفَ فِيهَا مَصْحُوحَةٌ .

عقولهم في مواطنَ بَحة، وأنحاءَ مُضْطَرِّفة، منها قِلَّةٌ آتِدَارهم على ضُطِّ أنفُسهم في مواكِهم ومسايرتهم العاتية: هي مُقْلِلٌ شحصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تَزْدِيهِهِ انْحِلَافُ، وَيُطِيرُهُ إجلابُ الرِّحالِ حوله، ومن مُقْلِلٌ في موكبه على مداعبة مُسَايرِهِ المفاكهة له والتضاحُكُ إليه، والإيحاءُ في السيرِ مَرَحًا، وتحريك الجوارح متسرعا يحالُ أبَ ذلك أَسْرَعُ له وأحْثُ لِمَطيته. فلتُحَسَّ في ذلك هَيْئَتُكَ، وتُجَمَّلَ فيه دَعَتُكَ، وليَقْلُ على مُسَايرِكَ إقبالُك إلا وأتَ مطرُ الطر، غيرُ ملتفتٍ إلى محدث، ولا مُقبلٍ عليه بوجهك في موكِّك لمحدثه، ولا مُوجِعٍ في السيرِ مُقْلِلٌ لجوارحك بالتحريك والاستنباض، فإن حَسَنَ مسَايرةِ الوالى وأتَداعه في تلك الحالة دَلِيلٌ على كثيرٍ من عُيوبِ أمره ومستترِ أحواله.

وأعلم أن أقواما يتسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك على وجه الصبيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعوك بالإعراء والشبه، ويوطئوك عُشْوَه الخيرة: ليحملوك لهم ذريعة إلى استئكال العاتية بموصيهم منك في القول منهم والتصديق لهم على من قروهم بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى القلب؛ فلا يصل^(١) إلى مشاهنتك ساع بشبهة، ولا معرووف بتهمة، ولا منسوب إلى يدعة فيعرصك لإبتاع^(٢) ذك، ويملك على رعتك بما لاحقيقة له عندك، ويُلمحك أعراص قوم لا علم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعيا وأطهر لك منهم مُتَصَحِّحًا. وليكن صاحبُ شُرْطَتِكَ المتولَّى لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقوالهم، والمالحص عن مصانحهم، ثم ليئه ذلك إليك على ما يُرِيعُ إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتَقِعه على رأيك من غير أن يطهر ذلك للعاتية: فإن كان صواما مالت حيرته، وإن كان خطأ أقدم به عليك حاهل، أو قرطه سعى بها كاذب، مالت الساعى منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر من وأليك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب^(٣) ذلك الخطأ بك ولم تُنْسَبَ إلى تعريض، وحلوت من موضع الدم فيه مُحْضَرًا إليه ذِهْكَ وصوابَ رأيك.

(١) أوقع فيه بالإثم أصده . (٢) ألهه عن صلات : أنكه به يشبهه . (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر) يته ومدعه . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّم الى من تُؤلّ ذلك الأمر وتتميد عليه فيه ألا يُقدّم على شيء مطلقاً فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقاله ، ولا يُعاقب أحداً مُكلاً به ، ولا يُجلى سبيلاً أحد صريحاً عه لإخضرار^(١) براهته وصحة طريقته ، حتى يرجع إليك أمره ، ويُنهي إليك قِصَبته على جهة الصّدق ، ومتّعى الحق ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيت عليه سبيلاً لمُحسّ أو مجازاً لعقوبة ، أمرته بتؤلّ ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشاهة لك مه ؛ فكان المتؤلّ لذلك ولم يجر على يديك مكروه رأى ولا غلظة عقوبة . وإن وحدت إلى العفو عنه سبيلاً ، أو كان مما قُرف به خيلاً ، كت أنت المتؤلّ للإسام عليه بخفية سبيله ، والصفح عه بإطلاق أسرّه ؛ فتولّيت أجزلك واستحققت دُخره ، وأنظقت لسانه بشركك ، وطوّقت قومه حمّلك ، وأوجبت عليهم حقك ، فقرّنت بين حصّلتين ، وأحرزت حطوتين : ثواب الله في الآخرة ، ومحمود الذكر في الدنيا .

ثم إياك أن يصلّ إليك أحد من جدك وجلسائك وحاصتك ويطائيك بمسالة يكتشفها لك ، أو حاجة يسلّك بطلبها ، حتى يرصّها قسلك ذلك إلى كانتك الذي أهدفته لذلك وصبته له ، فيعرّصها عليك مُنْها لها على جهة الصّدق عنها ، وتكون على مصرفة من قدرها : فإن أردت إسماعه بها ونجاح ما سأل منها ، أدنّت له في طلبها ، بأسطاً له كنفك ، مُقبلاً عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بما سالك ، ومُسحة رأى وبسطة دُخر ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت ردّه عن طلبته ، ونقل عليك إجابته إليها وإسماعه بها ، أمرت كانتك فصصحه عنها ، ومعه من مواجعتك بها ؛ فخفّت عليك في ذلك المؤونة ، وحسّن لك الذكر ، ولم يشرّكك تمهم الردّ ، ويتلك سوء القالة في المع ، ومجل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها يرى الساحة .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأماك من الرسل ، فلا يصلّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدّم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك

(١) أي لوصوح رايته ، هي حديث على . ما صرح له ذلك ، أي من أمره على أمر واضح .

(٢) صصحه عنها ، ردّه عنها .

به، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك، فأصدرت رأيك في حوائجه، وأحلّت فكرك في أمره، واخترت معترفا على إرادتك في حوابه، وأصدت مصدور رويّتك في مَرَجوع مسائله قبل دخوله عليك، وعليه موصول حاله إليك، فرميت عنك مؤونة البدية، وأرخيت عن هسك خياي الروية، وأقنمت على ردّ حوابه بعد النظر وإحالة الفكر به . فإن دخل إليك أحدُ منهم فكلّك بخلاف ما أنهى إلى كائيك وطوى عنه حاجته قَلْك، دفتته عنك دفعا جميلا، ومعتّه جواك معا وديعا، ثم أمرت حاجبك بإطهار الجموعة له والمِلطة عليه، ومنعه من الوصول إليك، فإن صَنَطَك لذلك مما يُحْكَم لك تلك الأسباب، صاروا عنك مؤونتها، ومسهلا عليك مُستصمها .

إحدرت تصييع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك، فلا يَزْدَهِيكَ إغراط غُب تستجفك روائعه، ويستهيوك مَطَرُهُ، ولا تُسَدِّرَن مَك ذلك خطأ وتزق خِصّة لمكروه إن حلّ لك، أو حادّث إن طرأ عليك . وليكن لك من هسك طهرى ملحا تفحز به من آفات الردى، وتستصيده في مهمّ نازل، ونستعقب به أمورك في التدبير . فإن أحصت إلى مادة من عقلك، وروية من فكرك، أو أيسايط من مطلقك، كان أنحيازك إلى طهرىك مُزدادا مما أحببت الأمتياح مسه والامتيار، وإن استدرت من أمورك بواذر جهل أو مصى زلل أو معاند حق أو غطل تدبير، كان ما أحصت إليه من رأيك عدرا لك عند نفسك، وطهرىا قويا على ردّ ما كرهت، وتحفيقا لمؤونة الباخين عليك في القالة وانتشار الذكر، وحصنا من علوب الآفات عليك، وأستعلاها على أحلافك .

وأمع أهل طانتك وحاصة حديمك من استلغام أعراض الساس عندك بالغبية، والتغزب اليك بالسماية، والإغراء من بعض ببعض، أو النيمة اليك بشيء من أحوالهم

(١) في صبح الأعشى . « وتستعبد في موسم النازل » . وفي رسائل البلاء . « وتستعبد في مهم نازل » .

وأخترنا من الباريين ما يابح المقام (٢) كذا في صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلاء . ولله وإن اندرت ... إلخ .

المستترية عك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه الصبيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أطلع بك سموا الى مآلة الشرف ، وأعوُبُ لك على محمود الذكر ، وأطلق لسان الفضل في جراحة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

وأملك نفسك عن الانسباط في الصحك والأيهاى ، وعن القطوب بإظهار الغضب ونخله . فإن ذلك صَعَفَ عِ مِلْك سَوْرَةِ الجهل ، ونحروُحُ من أفعال آسِم الفصل . وليكن صَحِّكَ تَشْمًا أو كَثْرًا في أحاييس ذلك وأوقاته ، وعد كل رافع مستحِفَّ مُطْرِب ، وقطوبك إطرارقا في مواضع ذلك وأحواله . بلا عَجَلَه الى السطوة ، ولا إسراج الى الطيرة ، دون أن تكسبها روية الحلم ، وتملك عليها بإيدى الجهل .

إذا كَسَتْ في مجلس مَلَك ، وحيث حضور العانة محلسك ، وإياك والزمى بطرك الى حاض من قوادك ، أودى أثره عندك من حشمك . وليكن نظرك مقسوماً في الجميع ، وإراعتك سمعتك دا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تصجر بالمحدث . ثم لا يرح وحشك الى مص حرسك وقوادك متوحها بنظر ركين ، وتعقيد محص . وإن وجه اليك أحد مهم نظره محققا ، أو رماك بعصره مُلِحًا ، فاحصص عه إطرارقا جيلًا بالتداع وسكور . وإياك وانتسرع في الإطراق ، والحقه في نصريف الطر ، والإلحاح على من قصد اليك في محاطته إياك رامقًا بنظره .

واعلم ان تصفحك وجوه حلساتك وتعقدك محاليس قوادك من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، ودكاء العظمة ، وأنباه السه . فتعقد ذلك عارفا بمن حصرك وعاب عك ، عالما بمواضعهم من مجلسك ، ثم آخذ بهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التي منعهم من حضور مجلسك ، وعاقبتهم بالتلطف عك .

إن كان أحد من حشمك وأعوابك يتق من غيب صميم ، وتعريف منه لين طاعة ، وتُشير منه على صحة رأى ، وتأمسه على مشورتك ، وإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظر عد طوارق ذلك ، وأن تُريه أو احدا من أهل مجلسك أن

لك حاجة إليه موحشة ، أو أن ليس لك عني في التدبير ، أو أنك لا تضيي دونه رأيا ،
إشراكا منك له في رويتك ، وإدخالا منك له في مشورتك ، وأصطارا منك إلى رأيه
في الأمر يعرّوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينشربها سوء القالة عن نظرائك ، فاضها
عن نفسك حائفا لا عتلافا ذكرك ، وأحجبها عن رويتك قاطعا لأطماع أوليائك عن مثلها
بندك ، أو غلوهم عليها منك .

وأعلم أن للشورة موضع الخلوة وأفراد الطر ، ولكل أمر غاية تحيط بمحدوده ، وتجمع
حاله . فاضها مخيرا لها ، ورمها طالبا ليلها ، وإياك والقصور عن عايتها أو العجز عن
تركها ، أو التمريط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إياك والإصرام عن حديث ما أعملك ، أو أمرا ما أزدعالك بكثرة السؤال ، أو القطع
لحديث من أزدأك بحديثه حتى تنقصه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس به : فإن
لك عند العامة منسوب إلى سوء المهم وقصر الأدب عن تأول محاسن الأمور والمعرفة
بساوئها ، ولكن أنصت لمحدثك وأزعه سمعك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت
معرفة بقوله ، فإن أردت إجابته فمن معرفة بحاجة وبعد علم بطلته ، وإلا كست عند
نقضه كلامه كالمتمجب من حديثه بالثبتم والإعصاء ، فأجرى عليك الجواب ، وقطع عنك
لسن العتب .

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تصحّر ممّ حصرك ، وعليك بالثبنت
سدّ سوره النصيب ، وحمية الأنف ، وبلال الصبر . في الأمر نستعمل به والعمل تأمر
إنفاذه ، فإن ذلك مخفف شائن ، وخفة مرديّة ، وجهالة نادية . عليك بثبوت المنطق ،
وقار المجلس ، وسكون الريح ، والزقيص لحشو الكلام ، والتترك لفصوله والإغرام
لزيادات في منطقك ، والترديد للمفلك : من نحو أسمع ، وأفهم عني ، وبها هاه ، وألا ترى ،
رما يلقح به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الخفا في المنطق ،
لنسوبة إليهم بالي ، المرديّة لهم بالذكر . وخصال من معايب الملوك ، والسوقة عنها غيبة

غير إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلنا حامل لما ، مضطلع بها ، صابر على ثقلها ،
 ضد نفسه بجوامعها ، فأفها عن نفسك بالتحفظ منها ، وأملك عليها اعتيادك إياها متعينا
 ، منها حكمة التسم ، والتبصق ، والتشمع ، والثواء ، والتمطى ، والجشأ ، وتحريك
 قدم ، وتقيص الأصابع ، والعبث بالوجه والحية أو الشارب أو المحصرة أو ذؤابة السيف ،
 والإيماض بالطر ، أو الإشارة بالطرף إلى بعض خدمك بأمر إن أردته ، أو السرار
 ، مجلسك ، أو الاستعمال في طعمك أو شربك . وليكن طعمك متدعا ، وشربك أغاسا ،
 بحررك مصا . وإياك والتسرع إلى الإيمان فيما صغر أو كثر من الأمور ، والشئمة بقول :
 ابن الهاء ، أو الغيبة لأحد من حاصتك بتسويفهم مقارفة الفسوق بحيث محصر
 ودارك وماؤك : فان ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، وتحمل عليك
 بما يبسه ، ويالك شئبه ، ويتشتر عليك سوء البلاء به . فأعرف ذلك متوقيا له ، وأحذر
 بجانبا لسوء عاقبته .

استكثر من فوائد الخير : فانها تنشر المجد ، وتهيل العزة ، وأصير على كظم الغيظ :
 فانه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العاقبة بمعرفة دحلهم ، وتطئن أحوالهم ،
 وأستثارة دقاتهم ، حتى تكون منها على رأي عين ، ويقى خبره ، تنميش عديهم ، وتخب
 كيبرهم ، وتقيم أودهم ، وتعلم حائلهم ، وتستصلح فاسدهم : فان ذلك من فعلك بهم
 يورثك العزة ، ويقدمك في الفصل ، ويؤتي لك لسان الصدق في العاقبة ، ويجريز لك ثواب
 الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستثيرة منك ، وقلوبهم المتحيرة عنك .

فيس بين منازل أهل الفصل في الدين والحق والرأي والعقل والتدبير والصب
 في العاقبة ، وبين منازل أهل القس في طبقات الفصل وأحواله ، والتمول عند مباحة
 النسب ، وأنظر نصيحة أيهم تال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العاقبة على
 التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك . فاعتمد عليهم مذكلا لهم
 في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتصييعهم مفترطا ، وإهمالهم مضيقا .

(١) يقال . أقص أصاحه . صوتها وليس في كتب اللغة قص بالصيف . (٢) العيرة : الخلس .

هذه جوامع خصال قد لحصها لك أمير المؤمنين معسراً ، وجمع لك شواذها مؤلفاً ،
وأهداها إليك مُرَشِّداً ، قَفَّ عند أواميرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت في مجاميعها ،
وحُدَّ بوثائق حُرَّامها ، تَسَلَّم من معاطب الرَّدَى ، وتَسَلَّ أنفَسَ المحطوط ورغبت الشرف ،
وأعلى دَرَجَ الذِّكْرِ ، وتَأَثَّلَ سَطْرَ العَزِّ . والله يسأل لك أمير المؤمنين حُسْنَ الإرشاد ،
وتَنَاضُحَ المَزِيد ، وبلوغَ الأمل ، وأن يحصل عاقبة ذلك لك الى عِطَّة يُسَوِّطُك إياها ، وعافية
يُحِلُّكَ أَكْثَافُهَا ، ونعمة يُلْهِمُكَ شُكْرُهَا : إنه الموفق للخير ، والمعين على الإرشاد ، مه تَمَامُ
الصالحات ، وهو مؤَيَّد الحسات ، عده معاتيجُ الخير ، ويسده المُلْك وهو على كُلِّ شيء
قدير .

فاذا أَصْبَحْتَ نحو عُنُوك ، وأَعْرَمْتَ على لقائهم ، وأَحْدَبْ أَهْبَةَ قَتَالهم ، فاجعل دِعَاءَكَ
التي تلحأ إليها ، وَيَقْتَكِ التي تأمل الحَاجَةَ بها ، ورُكَّتَكَ الذي تَرْجِي مَالَةَ الطَّعْرِ به وتَكْتَفِي به ^(٢)
لعالى الحدرد ، تقوى الله مستشيراً لها بمراقبته ، والاعتصام طاعته متبعاً لأمره ، مجتنباً
لُسُخْطه ، محتذياً سُنَّتَه ، والتوقى لمعاصيه في تعطيل حدوده ، أو تَصَدَّى شرائعه ، متوَكِّلاً عليه
فيما تَمَدَّدَتْ له ، وانثما بصره فيما تَوَجَّهَتْ نحوه ، متبرئاً من الحول والقوة فيما نالكَ من طَعَسٍ
وتَفَلَّكَ من عِزٍّ ، راجعاً فيما أَهَابَ لك أمير المؤمنين إليه من فصل الجهاد ، ورمى بك اليه ^(٣)
بحمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين ، أَكْثَبَهُمْ عليه وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه
يَقْتِلاً لعائتهم ، وآسَدَهُ بِرَقِيهِمْ ، وأعلاه عليهم تَعْيَاً ، وأظهره عليهم فِسْقا وجورا ، وأشدَّهُ
على قِيَتِهِم الذي أَسَارَهُ اللهُ لهم وقتحه عليهم مؤونةً ^(٤) وَكَلًا . والله المستعانُ عليهم ، والمستنصر
على جماعتهم ، عليه يتوَكَّل أمير المؤمنين ، وإياه يستصريح عليهم ، وإليه يفوض أمره ، وكفى
بالله ولياً وناصرًا ومُعِيَاً ، وهو القوى العزيز .

ثم حُدَّ من مَعَك من تَبَاعُكَ وجنلك بكف معرَّتِهِمْ ، وردَّ مشتعل جهلهم ، وإحكام
صِيَاعِ عملهم ، وصمَّ مَنَشِيرَ قَوَائِصِهِمْ ، ولمَّ شَعَثَ أطرافهم ، وتضييدهم عن مَرَا به من

(١) تأثَّلَ تَسَلَّمَ . (٢) اكْتَفَى الكَفْ دَحَلَه . (٣) أَهَابَكَ : دَعَاكَ .

(٤) من قولهم كَلَبَ الدَّمْعُ عَلَى أَهْلِهِ إِذَا اسْتَدْرَأَهُ . (٥) الكَلَل : الغُلل .

أهل ذِمَّتِكَ ومِلَّتِكَ بِحُسْنِ السَّيْرِ، وَعِفَافِ الطَّعْمَةِ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ، وَهَذِي الدَّعَةِ، وَحِمَامِ
 الْمُسْتَحْجِمِ، مُحْكَا ذَلِكَ مِنْهُمْ، مَتَّقِدًا لَهُمْ تَعَقُّدَكَ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ . ثم أَحْمَدُ لِمَدْرُوكِ الْمُسْتَعْمَى
 بِالإِسْلَامِ، الْخَارِجِ مِنْ جَمَاعَةِ أَهْلِهِ، الْمُنْتَحِلِ وَلَايَةَ الدِّينِ مُسْتَعْلًا لِمَدَامِ أَوْلِيَائِهِ، طَاعِنًا
 عَلَيْهِمْ، رَاغِبًا عَنْ سُلُوكِهِمْ، مُعَارِفًا لِمُشَارِكِهِمْ، يَتَفَهَّمُ الْفَوَائِلَ، وَيُنَاصِبُ لَهُمُ الْمَكَائِدَ، أَصْرَمَ
 حَقْدًا عَلَيْهِمْ، وَأَرْصَدَ عِدَاوَةً لَهُمْ، وَأَطْلَبَ لِفِرَاقِ قُرُصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ وَأُمِّ الشَّرِّكِ وَمَطْوَاعِي
 الْمَلِلِ، يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْعُرْقَةِ، وَالْمُرُوقِ مِنْ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتَنِ، عَمَرًا بِهَوَاهُ لِلْأَدْيَانِ
 الْمُنْتَحَلَةِ وَالْبِدْعِ الْمُنْفَرَقَةِ خَسَارًا وَتَحْصِيرًا، وَضَلَالًا وَتَضَلُّلًا، بِغَيْرِ هَدًى مِنْ اللَّهِ وَلَا بَيَانٍ .
 سَاءَ مَا كَسَبَتْ لَهُ يَدَاهُ وَمَا اللَّهُ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ،
 وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِ بِالرِّصَادِ : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصَّنَ جَنْدَكَ، وَأَشْكَمَ نَفْسَكَ طَاعَةَ اللَّهِ فِي عَاهِدِهِ أَعْدَائِهِ، وَأَرْجَحُ نَصْرَهُ، وَتَجَبَّرْ
 مَوْعِدَهُ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلَبِ نَوَائِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ، مُعْتَرِمًا فِي اتِّبَاعِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى لِقَائِهِمْ :
 فَإِنْ طَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ، وَمَرَّاقَبَتِكَ لَهُ وَرِعَاكَ تَصَرُّهُ مَسْهَلٌ لَكَ وَهُوَرُهُ، وَعَاطِيَتُكَ مِنْ كُلِّ
 سُبَّةٍ، وَمُضْجِكُكَ مِنْ كُلِّ هُوَةٍ، وَبَاعِثُكَ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ، وَمُقْبِلُكَ مِنْ كُلِّ كِبْرَةٍ، وَدَارِيٌّ
 عَنْكَ كُلَّ شَبْهَةٍ، وَمُذْهِبٌ عَنْكَ لَطْفَهُ كُلَّ شَكٍّ، وَمُقَوِّكٌ بِكُلِّ أَيْدٍ وَمِكِيدَةٍ، وَمُمَرِّكٌ
 فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ قِتَالٍ، وَمُوَيْدُكَ فِي كُلِّ تَجَمُّعٍ لِقَاءٍ، وَكَائِلُكَ عَسَدَ كُلِّ حَيَّةٍ مُعْشِيَةٍ، وَحَاطِطُكَ
 مِنْ كُلِّ شَبْهَةٍ مُرِيدِيَةٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّكَ وَوَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ، وَالْمُسْتَحْتَفُّ عَلَى جَسَدِكَ
 وَمِنْ مَعَكَ .

إِعلمُ أَنَّ الظُّفَرَ ظَفَرَانِ: أَحَدُهُمَا — وَهُوَ أَحْمَرُ مُنْفَعَةٌ، وَابْلَغُ فِي حَسَنِ الذِّكْرِ قَالَةً، وَأَحْوِطُهُ
 سَلَامَةٌ، وَأَتَمُّهُ عَافِيَةٌ، وَأَحْسَنُهُ فِي الْأُمُورِ وَأَمَلَاءُ فِي الْفَضْلِ شَرَفًا، وَأَحْسَنُهُ فِي الرِّوَايَةِ حَرَمًا،
 وَأَسْلَمُهُ عِنْدَ الْعَاقَةِ مُصَدِّرًا — مَا نَبِيلُ بِسَلَامَةِ الْخُنُودِ، وَحُسْنِ الْحِيلَةِ، وَلُطْفِ الْمِكِيدَةِ
 وَمِنْ النَّقِيبَةِ، وَأَسْتَنْزَالِ طَاعَةِ ذَوِي الصُّدُوفِ غَيْرِ إِخْطَارِ الْجِيُوشِ فِي وَقْدَةِ بَحْرَةِ الْحَرْبِ،

(١) الْأَيْدِ الْقُوَّةُ . (٢) أَي مَدْحَةٌ سَوْدَاءٌ، مِنْ قَرْنِهِمُ أَعْنَى الْبَيْلِ إِذَا طَلَمَ .

ومبارزة الفرسان في معترك الموت؛ وإن ساعدتك طُلُوقُ الظفر، ونالك مزيدُ السعادة في الشرف، ففي مُحاطرة التلّف مكروه المصائب، وعِضاضُ السيوف وآلم الجراح، وقِصاصُ الحروب ومِحَالُهَا بُمُغَاوَرَةٌ^(١) أظالمًا . على أنك لا تدري لأيّ يكون الظفر في البدية ، وبني المعلوم بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص . فحاول إصابة أبلغيهما في سلامة جندك ورعيّتك، واشتهرهما صيتًا في بُدُوْكَ تديرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليّك وعدوك، وأعوّنهما على صلاح رعيّتك وأهل يثك، وأقوّهما شكيمة في حرمك، وأبعدهما من وسم عزمك، وأعلّقهما بزمام السجاء في آحزمتك، وأجرهما ثوابا عند ربك .

وأبدأ بالإعداد إلى عدوك ، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعزّ الألفة، أحدًا ملحة عليهم ، متقدمًا بالإنداء لهم ، باسطًا أمانك لمن جلا إليك منهم ، داهيًا لهم إليه مألّف لمطك وألطف حيّلك ، متعطفًا برأيتك عليهم ، مترفقا بهم في دُعائك ، مشفقًا عليهم من علة القواية لهم وإحاطة الهلكة بهم ، متعذرًا رُسُلَك إليهم بعد الإنذار : تعذّرهم إعطاء كلّ رعية يهش إليها طمّهم في موافقة الحق ، وبسط كل أمان سألوه لأنصبتهم ومن مهمهم ومن يعمهم ، موطنًا فسك فيما تنسط لهم من ذلك على الوفاء بهمدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ فأبلا توبة بازعهم عن الضلالة، ومراجعة مُسيبتهم إلى الطاعة، مُرصيدًا للتحاز إلى فئة المسامحين وجماعتهم إجابةً إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حقك وطاعتك ، بهصل المثرة، وإكرام المثوى، وتشريف الجاه . وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرع في مثله الصادق عنك ، المُصر على حلاطك ومعصيتك ؛ ويدعو إلى اعتلاق حبْل العجاة وما هو أملك به في الاعتصام عاجلا، وأنجي له من العقاب^(٢) آجلا، وأحوطه على دينه ومهجته بداءً وعاقبةً؛ وإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويعتصم به في تقديمه المحجة إليهم، مُعذّرًا أو مُنذّرًا، إن شاء الله .

(١) المغارة : القاعة . (٢) كما في صبح الأمل و يظهر أن السياق يقتضي معنًى لهذا العمل

أما صميرا أو اسما طاهرا .

ثم أذكَّ حيوتك على عدوك متعلماً لعل أحوالهم التي يتقبلون فيها، وما يزال لهم التي هم بها، ومطالعهم التي قد مدُّوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور ادعى لهم إلى الصلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية، وأسهلها لاستئصال طاعتهم، ومن أى الوجوه مأتاهم : أَمِنَ قِبَلَ الشَّدَّةِ والمُنافَرَةِ والمَكِيدَةِ والمُبَاغِدَةِ والإرهاب والإيحاد، أَمْ التَّغْيِيبَ والإطْلاع، مُتَبَيِّناً أَمْركَ، متحيراً في رويتك، مستميكاً من رأيك، مستشيراً لدوى الصبيحة الذين قد حكمتهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب، مُتَشَرِّباً في حرك، آخِذاً بالحزم في سوء الظن، مُعَيِّداً للخطر، حَمَرِيساً من الغرة، كَانَتْ في مَسِيرِكَ كَلَّةٌ وتزويك أجمع مُواقِفَ لعدوك رأى عين تنظر حملاتهم، وتقفز كراتهم، مُعَيِّداً أقوى مكائيدك، وأرهب عتادك، وأتكا حذك، وأحد تسميرك، مَقْطَعاً أَمْرَ عدوك لأعظم مما يملك، حَتَرَا يكاد يُعْرِط : لُتَيْدَ له من الاحتراس عظيمًا، ومن المكيده قويًا، من غير أن يَشَّاكَ^(١) ذلك عن إحكام أمورك، وتدير رأيك، وإصدار رويتك، والتأهب لما يَحْزُوكَ، مصغراً له مد استئثار الحذر، وأصطبار الحزم، وإعمال الزوية، وإعداد الأُبهة . فإن أَلْفَيْتَ عدوك كليل الحذر، وقَمَ الحزم، يَضِيصُ^(٢) الوفر، لم يَضُرْكَ ما اعتدته له من قوة وأخذت له من حرم، ولم يَزِدْكَ ذلك إلا جُرْأَةً عليه، وتسمرًا إلى لقائه . وإن أَلْفَيْتَهُ متوقِّدَ الحرب، مُسْتَكْنِفَ الجمع، قَوِيَّ التَّبِعِ، مُسْتَعْلِي سَوْرَةِ الجَهلِ، معه من أحوالِ الفتنَةِ وتَبِعِ ليليس من يُوقِدَ لَهَبَ العتَةِ مُسْعِراً، ويتقدَّم إلى لقاء أبطالها متسمرًا، كنت لأخذك بالحزم، واستعدادك بالقوة، غير مهيئ الجهد، ولا مفرط في الرأي، ولا متلهف على إضاعة تدبير، ولا محتاج إلى الإعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك، وحقوقاً يُفْلِكُكَ . ومتى تَقَرَّبَ بَرَقِيقِ المَرْقُوقِينَ ، وتأخذ بالهويَا في أمر عدوك لتصغير المصغرَيْن ، ينشُرَ عليك رأيك، ويكون فيه انتقاصُ أَمْرِكَ ووهنُ تدبيرك، وإعمالُ الحزم في جسدك،

(١) تَشَرَّدَ لِأَمْرٍ : استندَ له .

(٢) يَشَّاكَ (بالهمزة والتاء المثلثة) أى يكرسك ويؤثرك . (٣) كذا في صح الأُصْحَى - ولعلها

موقوم الحزم أى مقهورة أو لعلها محرومة عن كلمة أخرى معنى الصف أو القلة . (٤) ضييص : قليل .

والوفر : المال .

وتصيح له وهو مُمَكِّي الإحصار، رَحْب المَطْلَب، قِوَى العِصْمَةِ، فسيح المضطرب، مع ما يدخل رعيته من الاعتذار والفغلة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكرهم، لما يرون فيه من استيانتك إلى العِزَّة، ورغبتك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير، فيعود ذلك عليك في انتشار الأطراف، وصياح الأحكام، ودخول الوهن مما لا يستغال محذوره، ولا يُدْفَع محسوفه.

احفظ من عيوبك وحواسيسك ما أتوك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاقة أحد مهم على حَبْرٍ أناك به أتهمته فيه أو سُوت به ظناً وأناك غيره بجلاعه، أو أن تكذبه فيه فردّه عليه، ولعله أن يكون قد تحصن بالصيحة وصدقك الحرّ وكذبتك الأول، أو نرح حاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عد عدوك، وقد أبرموا لك أسراً، وحاولوا لك ميكده وأرادوا منك عِزَّةً وأزْدَلُّوا إليك في الأُفْه، ثم استقص بهم رأيهم وأختلف عنه حاضهم، فأرادوا رأياً، وأخذوا ميكدة، وأطهروا قوة، وصرخوا موعداً، وأثروا سلكاً لمدد أنام، أو قوة حدثت لهم، أو صبرية في صلالة شغلهم، فالأحوال بهم متقلبة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألتهم جميعاً على الانتصاح، وأرفع لهم بالمطامع، وإنك لن تستعينهم بمثلها. وصدّهم جرّالة المتأوِّب، في غير ما استيدامية مسك إلى تزيقهم أمرَ عدوك، والاعتذار إلى ما يأتوك به دون أن تُعَمِّل رويتك في الأحذ بالحزم، والاستكثار من العُدَّة. وأحصلهم أوتق من تقدر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يُبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك، فتقص عليهم برأيك وتديرك ما أبرموا، وتأتيهم من حيث أمتوا، وتأخذ لهم أهة ما عليه أقدموا، وتستعد لهم بمثل ما حذروا.

وأعلم أن حواسيسك وعيوبك ربما صدقوك وربما غشوك، وربما كانوا لك وطيك: مصححوك وعشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيراً ما يصدّقونك ويصدّقون. فلا تبذرن منك قرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تسجل بسوء العلل إلى من أتهمته على

ذلك ؛ وأستنزِلُ بصانعتهم ^(١) بالمِياحة والمآلة ، وأَسْطُ من آمالمك منك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أخذتَ من قوله أخذَ العامل به والمتَّبِع له ، أو عَمِلْتَ على رأيه فَعَمَلَ الصادر عنه ، أو رَدَدْتَهُ عليه ردَّ المكذَّب به ، المتهم له ، المستَحَقُّ بما أتاكَ منه ، فُتِئِدَ بذلك نصيحتَه ، وتُسْتَدْعَى غِيْثُه ، وتَعْتَرَّ عداوتُه . وأحذِرُ أن يُفَرِّقُوا في عسرك أو يُسَارِ إليهم بالأصابع . ولكن مَتَرِطْمْ على كاتبِ رسائلك وأمينِ سِرِّكَ ، ويكون هو الموحِّه لهم ، والمُدْخِلُ عليك من أردتَ مشافهتَه منهم .

وأعلمُ أن لعدوك في عسرك عُيُونًا راصدة ، وحواسيس متجسِّسة ^(٢) ، وأنه لن يقع رأيه ^(٣) عن ميكدتك مثل ما تكايد به ، وسيحتال لك كآخيتالك له ، ويُعدُّ لك كعاديدك فيما تراوله منه ، ويُحاوِلُك كحاولتك إياه فيما تقارعه عنه ، فأحذِرُ أن يُذْهَبَ رجلٌ من جواسيسك في عسرك فيبلغُ ذلك عدوك ويعرف موضعه ، فيُعدُّ له المراسد ، ويحتال له بالمكايد . فإن طَفر به فأظهر عقوبته ، كسر ذلك ثقاتِ عيوك ، وخدلم عن تطلب الأخبار من معادينا ، واستقصائنا من عيوننا ، واستعداد أجتائنا من يابيعنا ، حتى يصيروا إلى أحدها مما عَرَضَ من غير الثقة ولا المُعَايَنَةِ ، لَقَطًا لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرْجفة . وأحذِرُ أن يعرف سعى عيونك معضا : فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، ومُمالأتهم عدوك ، وأجتاعهم على غِيْثِكَ ، وتطائفتهم على كذبتك ، وإصفاقتهم ^(٤) على خيانتك ، وأن يورط بعضهم بعضا صد عدوك . فأحْكِمْ أمرهم فإنهم رأسُ ميكدتك ، وقوامُ تدبيرك ، وعليهم مدار حركك ، وهو أول ظمرك . فاقتمل على حَسَبِ ذلك وحيث رحاؤك به ، تَسَلَّ أملك من عدوك ، وقوتك على قتاله ، وأخيتالك لإصابة غيْرته وأتهازِ فرصه ، إن شاء الله .

فإذا أحكمتَ ذلك وتهدمتَ في إقامته ، وأستظهرت بالله وعونه ، فولَّ شُرطتك وأمرَ عسكريك أوثقَ قوادك عندك ، وأظهرهم بصيحةً لك ، وأنفذهم بصيرةً في طاعتك ، وأقوامهم

(١) المياحة الإطلا .

(٢) في معناه الأكار ورسائل اللما : « كاسمة » . (٣) في رسائل اللما : « وأن رايه

في ميكدتك مثل ما تكايد به » . (٤) إصفاقتهم : اجتاعهم .

شكيفة في أمرك، وأمضاهم صريعة، وأصدقهم عفا، وأجرهم غناء، وأكفاهم أمانة، وأحصهم صميرا، وأرضاهم في العانة ديبا، وأحدهم عد الجماعة خلقا، وأعطفهم على كائهم رامة، وأحسنهم لهم نظرا، وأشدتهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوض إليه مقويا له، وأبسط من أملة مظهره عه الرضا، حامدا منه الابتلاء. وليكن عالما بمراكز الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، محرما، ذا رأى وحرم في المكيمة؛ له نباهة في الذكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتصلهم إليه في ضبط معسكره، وإذكاه أحراسه في آناه ليله ونهاره؛ ثم حذره أن يكون منه إندج لجنوده في الإبتشار والاصطراب، والتقتم لطلاتك، فطصاب لهم غرة يحترى بها عدوك طليك، ويُسرع إقداما إليك، ويكسر من إباد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدهم مُطيعٌ لهم فيك، مُقوٌ لهم على تقهّد اتباعهم طليك وتصغيرهم أمرَك، وتوحيهم تديريك. فحذره ذلك وتقدّم إليه فيه، ولا يكون منه إفراط في التصديق عليهم، والحصر لهم، يبعثهم أزلهُ، ويشملهم ضنكهُ، وتسوء عليهم حالهُ، وتشتد به المؤونة عليهم، وتحبث له ظونهم. وليكن موضع إزاله إياهم صامما لجماعتهم، مستديرا بهم جامعا لهم؛ ولا يكون مبسوطا منتشرًا متندا، فيشقق ذلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيه النهضة للعدو، والمُد من المسادة إن طرّق طارقٌ في بقاء الليل وفتاته. وأوعز إليه في أحراسه، وتقدّم إليه فيهم كأشدّ التقدّم وألغ الإيماز. وصره فليؤلّ عليهم رجلا ريكيا مجربا حري. الإقدام، ذاكّي الصرامة، حلد الجوارح، بصيرا بمواضع أحراسه، غير مصّاع ولا مشفع للناس في التحي إلى الزاهية والسعة، وتقدّم العسكر والتأثرعته، فإن ذلك مما يضعف الولي ويوهيه لاستنامته إلى من ولّاه ذلك وأمه به على جيشه.

وأعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانتها من جسدك، بحيث النساء عنهم والرد عليهم، والحفظ لهم، والكيلاة لمن بعنهم طاريفا، أو أرادهم خاتلا، وصراصدها المنسل

(١) الصرية : العرية . (٢) في مفتاح الأملار وغيره : «أصدة» . ولإياد كل شيء . ما يقوى به من حايه ومنه إبادا العسكر وما يميته ويهتره . (٣) الصوت . كالصيت والصات : الذكر والشهرة . (٤) الأزل . الصيق والثقة . (٥) المادة . كل مدد تسمى به في حرب أو غيره .

منها والآتي من أرقامهم وأجوبهم، وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم، وأحذر أن تضرب على يديه أو تشكك من الصرامة بمؤامراتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام : فإنك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأسئلتك على حصول صميمه في طاعتك ، وأجهد نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانته ، وكان تحتك ورددك وقوتك ودعامتك ، وتمزجت أنت لمكابدة عدوك ، مريحا لنفسك من هم ذلك والعناية به ، ملقيا عنك مؤونة باهظة وكلمة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا يمثل محله أحد من الولاة : لما يجرى على يديه من مفايلظ الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من توليه القضاء في حركك [من ذوى] الخير والقناعة والعفاف والنزاهة والمهم والوقار والصحة والورع ، والبصير بوجوه القضايا ومواضعها ، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمه الأمور ، ممن لا يتصعق للولاية ويستعد للتهزئة ، ويحتري على المحاباة في الحكم ، والمنداهية في القضاء ، عدل الأمانة ، عفيف الطعمة ، حسن الإصناف ، فهم القلب ، ورع الصمير ، متحشع السم ، بادى الوقار ، محسبا للخير . ثم أجر عليه ما يكفيه ويسمه وبصلحه ، ووفره لما حلت له ، وأعه على ما وليته : فإنك قد عزضته لهلكة الدنيا وتوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت يته ، وصدقت رويته ، وصحت سريره ، وسلط حكم الله على رعيته ، مطلقا عنه ، متعذرا قضاء الله في حلقه ، عاملا بسنته في شرائمه ، آخذاً بمحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك^(١) ، الجارية أحكامه عليهم ، البائدة أقصيته بهم ، فأعرف من توليه ذلك وثنيته إليه . ثم تقدم في طلائعك فإنها أول ميكيدتك ، ورأس حرك ، ودعامة أمرك ، فأقتب لها من كل قادة وصحابة رجالا دوى تحدة وبأس ، وصرامة وحيرة ، حمة كفاة ، قد صلوا بالحرب وذاقوا بحملها ، وشربوا جرار كؤوسها ، وتمزجوا

(١) ازيادة عن متناح الأفكار (ص ٢٥٠) وعبره . (٢) الطعمة الصم والكسر وه الكسب

الطيب أوالحيث . (٣) في متناح الأفكار وعبره : « بحيث ولايتك وه الموضع الحادية » الخ .

عَصَصَ دِيْتَهَا ؛ وَزَبَّتْهُم بِتَكَارٍ عَوَاطِفُهَا ، وَحَمَلَتْهُم عَلَى أَصْعَابٍ مَرَاكِبَهَا ، وَذَلَّلَتْهُمْ بِثَقَافٍ
 أَوْدَهَا . ثُمَّ أَتَتْهُمْ عَلَى عَيْبِكَ ، وَآخِرُ صُكْرَاهُمْ بِنَعْسِكَ ، وَتَوَخَّ فِي أَنْتَقَاكِ ظُهُورَ الْحَدِيدِ ،
 وَشَهَامَةَ الْخُلُقِ ، وَكَيْالَ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِمَاتَ مِنَ الْخَيْلِ الْمُتَهَلُّوَةِ ،
 فَلَنْتِ أَسْرَعُ طَلَا ، وَأَنْحَى مَهْرًا ، وَاللَّيْنُ مَقْطَعًا ، وَأَسَدٌ فِي الْخُوقِ غَايَةً ، وَأَصْبَرُ فِي مَقَرِّكَ
 الْأَطْطَالِ إِقْدَامًا . وَحُدُّهُمْ مِنَ السِّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ ، مَائِذِيَةِ الْحَدِيدِ ، شَاكَّةِ النَّسْجِ ، مُتَقَارِبَةِ
 الْحَلِاقِ ، مُتَلَاحِجَةِ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوَقِ الْحَدِيدِ ، مُمَوَّهَةِ الرِّكَبِ ، مُحْكَمَةِ الطَّبْعِ خَفِيفَةِ الصَّوْغِ ،
 وَسَوَاعِدِ طَبْعُهَا هِنْدِيٍّ ، وَصَوْنُهَا فَارِسِيٍّ ، رَقَائِ الْمَاعِطِيفِ نَاكِفٍ وَاقِيَةٍ وَعَمَلٍ بِحَكْمٍ .
 وَيَأْتِي الْبَيْضُ مُدْعَبَةً وَمَحْزَرَةً ، فَارِسِيَّةَ الصَّوْغِ ، حَالِصَةَ الْجَوْهَرِ ، سَائِفَةَ الْمَلْهَسِ ، وَاقِيَةَ
 الْجَنْحِ ، مُسْتَدِيرَةَ الطَّبْعِ ، مُبْهَمَةَ السَّرْدِ ، وَاقِيَةَ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ الْعَامِ فِي الصَّعَةِ وَأَسْتَنْدَارَهُ
 الْقَتِيبِ ، وَأَسْتَوَاءِ الصَّوْغِ ، مُعَلَّمَةً بِأَصْنَافِ الْحَرِيرِ وَالْوَلَانِ الصَّبِغِ ، فَإِنَّمَا أَغْيَبُ لِعَدْوِهِمْ ،
 وَأَمْتُ لَأَعْصَادِ مَنْ لَقِيَهُمْ ، وَلَمْلَمْتُ مَحْشَى مَحْدُورٍ ، لَهُ بَلِيَّةٌ رَادِعَةٌ ، وَهِيَّةٌ هَائِلَةٌ ، مَعَهُمْ
 السِّيُوفُ الْهِنْدِيَّةُ ، وَذُكُورُ الْبَيْضِ الْبِمَايَةِ ، رِقَاقُ الشُّفَرَاتِ ، مَسُونَةُ الشُّعَدِ ، مَشْطَبَةُ
 الصَّرَائِبِ . مُعْتَدِلَةُ الْجَوَاهِرِ ، صَابِيَةِ الصَّعَاعِجِ ، لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ
 الصَّوْغِ ، وَلَا شَانَهَا حِفَّةُ الْوِزْنِ ، وَلَا قَدَحُ حَامِلِهَا هَوْرُ الثَّقَلِ ، قَدْ أَشْرَعُوا لَدُنَّ الْقَبَا ،
 طَوَالَ الْمَوَادِي ، مُقَوِّمَاتِ الْأَوْدِ ، زُرْقُ الْأَيْسَنَةِ ، مُسْتَوِيَةُ الثَّمَالِبِ ، وَمِيصْبُهَا مُتَوَقِّدٌ ،
 وَسِنْحُهَا مُتَلَهَّبٌ ، مَعَاقِصُ عَقْدِهَا مَحْوَتَةٌ ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقْوَمَةٌ ، وَأَجَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ ،
 وَكُومُهَا جَمْعَةٌ ، وَعُقْدُهَا حِكْمَةٌ ، شَطْبَةُ الْأَسَانِ ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ ، مُسْتَحِدَّةُ الْجَنَابَاتِ ،
 دِقَاقُ الْأَطْرَافِ ، لَيْسَ فِيهَا آتِيَاءُ أَوْدٍ ، وَلَا أَمْتُ وَصَمٍ ، وَلَا نَبَا مَسْقَطُ عَيْبٍ ، وَلَا عَنَّا

- (١) المهلولة : المعطوفة الملب ، وهو شعر الذهب أو الشعر كله . (٢) أي حاملة وحيدة .
 (٣) البلق : القاء المحض . (٤) التريك : بيضة العام حادة ، ومنه قوله :
 * وتلقى بها بيض العام تراككا *
 (٥) سيف شطب : دوشط وهي طراجه التي في شته . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .
 (٧) الثلب : طرف الرع الداخل في حة الدنان . (٨) في مفتاح الأفكار بعيره : « وهدهدها منته »
 وسح الصل : الحديدية التي تدخل في رأس السهم . (٩) المعاقص : السهام المرحوة .

وقوع أُمية، مُتَحَيِّي كَثَائِنِ اللَّيْلِ وَبِقِي الشَّوْطِ^(١) والبَيْع، أُمْرِيَّة التعقيب، رُومِيَّة النُّصُول، مَسْمُومَةُ الصَّرْع، وَلَتَكُنْ يَسَامُهَا عَلَى حَمِيسِ قَبَسَاتِ سِوَى النُّصُول، فإنَّهَا أُلْبِغُ فِي الْغَايَةِ، وَأَنْفَذْ فِي الدَّرْع، وَأَشَكْ فِي الْحَدِيد، سَامِعِينَ حَقَائِبَهُمْ عَلَى مَتُونِ خِيُولِهِمْ، مُسْتَحْفِينَ مِنَ الْآلَةِ وَالْأَمْرِ وَالزَّاد، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وَأَحْذَرُ أَنْ تَكِلَ مَبَاشِرَةَ عَرَضِهِمْ وَأَتَقَطِّبِهِمْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ أَعْوَانِكَ وَتَحَابِكَ : فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَهُ إِلَيْهِمْ أَصَبْتَ وَاصْبَحَ الْحَرَمُ ، وَفُزْتَ حَيْثُ الزَّأَى ، وَوَقَفْتَ دُونَ عَزَمِ الرُّومَةِ ، وَدَخَلَ عَمَلُكَ صَيَاحُ الْوَهْنِ ، وَخَلَصَ إِلَيْكَ عَيْبُ الْحَمَاءَةِ ، وَفَالَهُ فَسَادُ الْمُدَاهَةِ ، وَعَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ طَلِيعَةً لِلْمَسْلُومِينَ وَلَا عُذَّةً وَلَا حِصْنًا يَدْرِلُونَ بِهِ ، وَيَكْتَهِنُونَ بِمَوْضِعِهِ . وَالطَّلَائِعُ حَصُونُ الْمَسْلُومِينَ وَعِيُونُهُمْ ، وَهِيَ أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَهَرُوءُ أَمْرِكَ ، وَزِمَامُ حَرْبِكَ . فَلَئِنْ أَعْتَاؤُكَ بِهِمْ ، وَأَتَقَاؤُكَ إِيَّاهُمْ حَيْثُ هُمْ مِنْ مُهْمٍ عَمَلِكَ ، وَمَكِيدَةِ حَرْبِكَ ، ثُمَّ أَتَقَبَّبَ لِلْوِلَايَةِ عَلَيْهِمْ رَحْلًا بَعِيدَ الصَّوْتِ ، مَشْهُورَ الْإِسْمِ ، طَاهِرَ الْفَصْلِ ، نَبِيَّ الذِّكْرِ ، لَهُ فِي الْعَدُوِّ وَقَعَاتُ مَعْرِفَاتٍ ، وَأَيَّامُ طَوْلِ وَصُولَاتٍ مُتَقَدِّمَاتٍ ، قَدْ عَرِطَتْ نِكَائِيهِ ، وَحُدِرَتْ شَوْكَتُهُ ، وَهَبَّتْ صَوْتُهُ ، وَتَنَكَّبَ لِقَاؤُهُ ، أَمِيرَ السَّرِيَّةِ ، نَاصِحَ الْجَيْشِ ، قَدْ بَلَوْتَ مِنْهُ مَا يُسَكِّتُكَ إِلَى مَا حَيْثُ : مِنْ لَيْسِ الطَّاعَةِ ، وَخَالِصِ الْمَوَدَّةِ ، وَرَكَائَةِ الصَّرَامَةِ ، وَغُلُوبِ الشَّمَامَةِ ، وَاسْتِجَابِ الْقُوَّةِ ، وَحَصَاةِ التَّدِيرِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ فِي حَسَنِ سِيَاسَتِهِمْ ، وَاسْتِزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَاجْتِلَابِ مَوَدَّتِهِمْ وَاسْتِعْدَادِ صَمَائِرِهِمْ ، وَأَجْرِ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِ أَرْزَاقًا تَسْمُهُمْ ، وَتُعَدُّ مِنْ أَطْعَامِهِمْ سِوَى أَرْزَاقِهِمْ فِي الْعَامَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ لَكَ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِسْتِنَامَةِ إِلَى مَا قَبْلَهُمْ .

وَأَعْلَمْ أَنَّهُمْ فِي أَمْرِ الْأَمَاكِنِ لَكَ ، وَأَعْظَمُهَا غَنَاءَ عَنْكَ وَعَمَّنْ مَعَكَ ، وَأَقْبَحُهَا كِبَارُ مُهَادَتِكَ ، وَأَشْيَاهَا غِيظًا لِعَدُوِّكَ : وَمَنْ يَكُنْ فِي الثَّقَةِ ، وَالْجَلَدِ ، وَالْبَاسِ ، وَالطَّاعَةِ ، وَالْقُوَّةِ ، وَالنَّصِيحَةِ ، وَالْعُدَّةِ ، وَالتَّجَدُّدِ حَيْثُ وَصَفَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرَكَ بِهِ ، يَقْبَضُ عَلَيْكَ مَوْثِقَةَ الْهَمِّ ، وَيُرْبِخُ

(١) الشَّوْطُ : شَحْرُطُهُ مِمَّا تَسْقَى . (٢) الرِّيَادَةُ عَنْ مَشَاغِبِ الْأُمُكَارِ (ص ٢٥١) .

(٣) يُقَالُ : فُلَانٌ نَاصِحٌ الْحَبِيبَ يَرَادُ ذَلِكَ قَلْبُهُ وَصِدْقُهُ أَيْ أَمِينٌ .

من حِاقك رَوْع الخوف ، وتنجي إلى أمرٍ مبيع ، وطهر قوى ، ورأي حازم ، تأمن به
 بجات صدوك ، وعرايت بقاتهم ، وطوارق أحداثهم ؛ وبصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدّمات
 خيولهم ، فأتقيهم رأي عين ، وقوم بما يصلحهم من المآلات والأطباع والأرزاق ، وأجعلهم
 ملك بالمنزل الذي هم به من محارز علاقتك ، وحصاية كهوفتك ، وقوة سياره عسكرك .
 وإياك أن تدحل فيهم أحدا بشفاة ، أو تحتمله على هواده ، أو تقدّمه لأثرة ؛ أو أن يكون
 مع أحد منهم قتل قتل ، أو فصل من الطهر ، أو قتل فادح ، فتشتد عليهم مؤونة أعينهم ،
 ويدخلهم كلال السامة فيما يمالحون من أنغالهم ، ويستملّون به عن عدوهم إن دهمهم منه
 راع ، أو يلقاهم منه طليعة . فتعدّد ذلك محكما له ، وتقدم فيه أحدا بالخزم وإمصائه ،
 أرشدك الله لإصابة الخط ، ووفّقك ليّن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأي وأعوذ به نفعا
 في العادل والآجل ، وأكتبه لمدوك وأشخاصهم ، وأردعه لعاديتهم .

ولّ دراجة عسكرك وإخراج أهله إلى مصافهم ومرايرهم رجلا من أهل بيوتات
 الشرف ، محمود الخبرة ، معروفا بالخدمة ، داس وعزيمة ، آين الطاعة ، قديم البصيرة ،
 مأمون السرية ، له بصيرة بالحق ناعده تقدّمه ، وثبة صادقة عن الإدهان تحجزه . وأصمّم
 إليه عدة نفر من ثقات جنك ودوى أسانهم يكونون شرطة معه ، ثم تقدّم إليه في إخراج
 المصاف ، وإقامة الأكراس وإدكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشده الحذر ، ومرة
 فليصبح القواد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم ، كل قائد بإزاء مكانه ، وحيث منزله ،
 قد سدا بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة ، والترسة موضونة ، والرحال راصدة ، ذاكية
 الأكراس ، وحلة الرّوع ، حائمة طوارق العدو وبياته . ثم مره فليخرج كلّ ليلة قائدا
 في أصحابه أو عدة منهم إن كانوا كثيرا ، على غلوة أو اثنتين من عسكرك ، متيدا على محيطا
 بمنزلك ، ذاكية أكراسه ، قلفة التردد ، مقرطة الحذر ، مئة للزوع ، متاهبة للقتال ، آخذة
 على أطراف المعسكر ونواحيه ، متمزقين في اختلاطهم كدوسا كدوسا ؛ يستقبل بعضهم بعضا

(١) المل محركة : البصيرة والهة . (٢) القل : ناع المسار . (٣) الإدهان : المداهمة وهي أن يظهر

الاسان خلاف ما يطل . (٤) الترة موضوعة ، أى مسوعة حلقين حلقين . (٥) أى كنية كنية .

[في الاختلاف] ^(١) وَيَكْتَسِبُ تَالِي مُتَقَدِّمًا فِي التَّرَدُّدِ ، وَأَجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُوَادِكَ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نَوْبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَقْرُوضَةً ، لَا تُعْرِ مِنْهَا مُزْدَلِفًا مَكَ بَمُودَّةً ، وَلَا تُحَاطِلْ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمُوجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوْضَ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْدَادِكَ وَقُوَادِ خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخْذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةً مَكَ لَمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَانِهِمْ ، وَالْإِتِّبَاعَ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ نَهْيِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْدَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ بِهَا ، وَالْأَعْمَالَ الَّتِي أَسْتَجَدَّتْهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةَ وَالْكُرَاعَ الَّتِي كَتَبَتْهَا عَلَيْهِمْ ، وَأَحْذَرِ أَهْلَ أَحَدٍ مِنْ قُوَادِكَ عَلَيْكَ بِمَا يُحَوِّلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جَدِّكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَمْعِهِمْ عَنِ الْإِحْلَالِ بِمَا كَرِهَ لَشَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّوَابَهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُفْسِدَةٌ لِلْجِدِّ ، مَقْتَدَةٌ لِلْقَوَادِ ^(٢) عَنِ الْحَدِّ وَالْإِثَارِ لِلنَّاحَةِ ، وَالتَّقَدُّمِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ قُوَادِهِمْ وَتَضْيِيقِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتُمُّونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْثِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقَوَادِ أَلَّا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةً تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَنْقِيفِ أَوْدٍ ، أَمَّا عَقُوبَةٌ تَبْلُغُ تَلْفَ الْمُتَهَمَةِ ، وَإِقَامَةً حَدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٍ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَحَدُ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةٌ فِي شَرٍّ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جَدِّكَ أَحَدٌ عَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنِ رَأْيِكَ وَإِدْنِكَ ، وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجِدَّ لِقَوَادِهِمْ ، وَتَضْيِيقَهُمْ لِأَمْرَانِهِمْ ، تُوجِبْ لَمْ عَلَيْكَ الْحَمَّةَ بِتَضْيِيقِ — إِنْ كَانَ مِنْهُمْ — لِأَمْرِكَ ، أَوْ حَلِّ — إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ — مِنْ حَمْلِكَ ، أَوْ عَجْزِ — إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ — فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلَّتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسْنَدَتْهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللُّومِ وَعَصِّ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ جَزَاءًا تَصِلُ بِهِ إِلَى تَنْقِيفِهِمْ ، بِتَعْرِيطِكَ فِي تَذْلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَمْ ، وَإِسَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمَ

(١) الزيادة عن مصاح الأماكار (ص ٢٥٢) - (٢) أى يقدّمهم عن الحد الخ -

فيه برضك تتقدما بلعا، وإياك أن يدخل حرمك وهن، أو يشوب عزمك إيثار، أو يخلط
رأيك صياح، والله يستودع أمير المؤمنين نفسك وديك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وستن لقاء بجعفر، وكان من عسرك مقترباً قد
شامت طلائعك مقدمات صلته ومحاة خفته، فأنه أمة المأجور، وحذ اعتداد الحذر،
وكتب^(١) خيولك، وعث جندك . وإياك والمسير إلا في مقدمة وتيممة وميسرة وساقه، قد
شهبوا الأسلحة، ونشروا السود والأعلام . وعرف جندك مراكرهم سائرين تحت ألويتهم
قد أخذوا أمة القتال، واستعدوا للقاء، ملتجئين إلى مواقعهم، طوفين مواضعهم في مسيرهم
ومعسكرهم . وليكن ترحلهم وتزلم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكرهم، قد عرف كل قائد
منهم أصحابه مواقعهم : من الميمة والميسرة والقلب والساقة والقليلة، لازمين لها، غير
مُحِلِّين بما استُبحوا له، ولا مُتَهاونين فيما أُهيب بهم إليه، حتى تكون عساكرك في متبلى
تصل إليه، ومسافة تخارها، كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو، وأحدها بالخزم،
ومسيرها على راياتها، وزولها في مراكرها، ومعريقها مواضعها : إن صلت دابة من
موصيها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله
منها، فُرِدت إليه، هداية معروفة نسّمت قيادتها، فإن تهذمت في ذلك وإحكامك
له طارح عن جندك مؤونة الطلب، وعناية المعرفة، وأتقاء الضالة .

ثم أجمع على سافتك أوتق أهل عسرك في نفسك صرامة وتقاً ورضا في العامة،
وإنصافاً من نفسه للرعية، وأخذاً بالحق في المعدلة، مستشعراً تقوى الله وطاعته، أخذاً
بهديك وأدبك، واقفاً عهد أمرك ونبيك، معتزماً على مناصحتك وتزيبك، نظيراً لك في الحال،
وشبيها بك في الشرف، وعديلاً في الموضع، ومقارباً في القسب، ثم أكتف مع الجمع،
وأيدته بالقوة، وقوه بالظهور، وأعنته بالأموال، وأعمده بالصلاح، وضره بالتعطف على ذوي
الضعف من جندك ومن أزحفت له دابته وأصابته نكبة : من مريض أو رجلاً أو أمة^(٢)،

(١) لتب الجيش أو الخيل . حلها بكتاب . (٢) في مفتاح الأفكار وميره : « في الصيت » .

(٣) الرحلة الصم : أن يشكو رحله وقد وحل كعرج أصابه في رحله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحد منهم في التمتع عن عسكره، أو التحلف بعد ترحله، إلا لليهود سقماً، أو لمطروق آفة حائجه . ثم تقدم إليه محذراً، وحره زاجراً، وأنه مغلظاً في الشدة على من مرّ به مصيراً عن معسكره من جسدك مير جوازك، شاداً لم أسراً، وموقراًهم حديداً، ومعاقبهم موجهاً، وموجههم إليك ذنوبهم عقوبة، وتجملهم لغيرهم من جسدك عظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه وانقأ بنصيبه قد بلوت منه أمانة تسكتك إليه، وصراة تؤمك مهنته، وساداً في أمرك يربى عك يخناق الخوف في إصاعته — لم يأت أمير المؤمنين تسأل الجسد عك لوإذا^(١)، ورقتهم مراكرهم، وإحلامهم بجواصمهم، وتحلفهم عن أعمالهم، آمين تغيير ذلك عليهم، والشدة على من آجتره منهم، فأوشك ذلك في وهك، وحذل من قوتك، وقفل من كثرتك .

أجعل حلف سابقك رحلاً من وحوه قوادك، حليداً، ماضياً، عفيماً، صارماً، شهماً الرأي، شديد الحذر، شكيم القوة، صير مداهن في عقوبة، ولا مهي في قوة، في نحسين فارسا يحشر إليك جسدك، ويلحق بك من تحلف عنك بعد الإللاع في عقوبتهم، والنهك لهم، والتسكيل بهم . ولكن مقولك في المنزل الذي رحل عنه، والمنهل الذي تنقوض منه، مفراطاً في القص له، والتنبع لمن تحلف عنك به، مشتداً في أهل المنزل وساكبه بالتقدم، موعزاً إليهم في إزجاج الجسد عن مازلم، وإخراجهم عن مكائهم؛ وإبعاد العقوبة الموجعة والكال الميسل في الأشعار والأبشار، وأستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والهااة لدى قرابة، والاحتصاص بذلك لدى أثره وهوادة . ولتكن فرسانه متحفين في القوة، معروفين بالحدة، عليهم سوايح الدروع دونها شعار الحشو وجب الاستيجان، متقلدين سيوفهم، سامطين كائنهم^(٢)، مستعدين لطيج إن بدهم [أو كين إن يظهر لهم^(٣)] . وإياك

(١) لوإذا : مراودة أى مستحقين يستترعهم بعض . (٢) القوة : ماحول النار أو ساحة .

(٣) سامطين : مطلقين . (٤) الريادة عن مباح الأفكار وغيره .

أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرسا قويا أو يردوا^(١) ويحيا : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظهري على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبانا واحدا ، ووقت معلوما : ليحف المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أن رحيلهم ، فيقدموا فيها يردون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي الى إبان الرحيل . ومتى يكن رحيلك غنما ، تظم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السعة [والرق] يترحلون بالإرحاف ويتزلون بالتوهم ، حتى لا يتفزع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك أن تظهر استطلاعا ، أو تبادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب قسيتك بالوقوف بأصحابه على مسرك أخذًا يجتنب فوخته ، بأسلحتهم مدة لأمر إن حصر أو مفاجأة من طليعة العدو إن رأت منك نهزة ، أو لحقت عدك غيرة . ثم مري الناس بالرحيل وخيلك واقعة ، وأهنتك معدة ، وجنتك واقعة ، حتى إذا استقلتم من مسركم ، وتوجهتم من منزلكم ، يترجم على قسيتكم بسكون ريح ، وهدف حمله ، وحسن دعة . فإذا انتهيت الى منزل أردت نزوله أو همت بالمسرك به ، فأياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقبه ، ومري صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستبشرك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتاله لمسرك ، وكيف ماؤه وأغلافه وموضع مسرك مه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة بدوك أو مكابدة فيه — قوة تحملك ومدد يأتيه ، فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه صيق مكانه ، وقلة مياهه ، وأقطاع مآذيه ، إن أردت بدوك مكيدة ، أو أحتجت من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كست غرضا لعدوك ، ولم تجد الى المحاربة والإخطار سبيلا ، وإن آلت به أقت على شقة وحفير وفي أزيل

(١) ردوا ونجا : كثير المم .

(٢) كذا في صح الأمشى (ح ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفا صوابه : قوة تصاك وبلد بانك .

وصيقي ، فأعيرف ذلك وتقدم فيه . فإن أردتَ نزولاً أمرتَ صاحبَ الخيل التي وُكِّلتَ
بالناس فوقفتَ خيلهُ متنعيةً من معسكرك ، عُدَّةً لأمرٍ إنْ غلَاك ، ومَقَرَّةً لبيدِيةٍ إنْ راعَكَ ،
فقد أيسَتَ بحمد الله وقوته بقاءَ عدوك ، وعرفتَ موقعها من جِزرك ، حتى يأخذ الناس
سمازلكم ، وتوصِّعَ الأتقَالُ مواصِمها ، ويأتِيكَ خبر طلائعك ، ويُخْرِجُ دَبَابتك من معسكرك
دِرَاجَةً ودنًا ما يُحِيطُ بِنِيسَرك ، وعُدَّةً إنْ أَحْتَجَّتْ إليها . ولكن دَبَابات جِديكَ أَهْلَ جَلِيدٍ
وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثةً بأصحابهم ، في كل ليلةٍ ويومٍ يوماً بينهم . فإذا عَرَبَتِ الشمس
وَوَجِبَتْ^(١) نورُها ، أخرجَ إليهم صاحبُ تميمتِكَ أبدالهم ، عَسَسَا بالليل في أقرب من مواضع
دَبَابِي النهار ، يتماوَرُ ذلك فِؤادُكَ جميعاً بلا محايةٍ لأحيدٍ فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكونَ منك إلا في خندقٍ ويَحْصَنُ ثامن به بياتَ عدوك وتستليمُ فيه
إلى الحزم من مكيدتك . إذا وُصِعتَ الأتقَالُ وحطَّتْ أبنيةُ أهلِ المعسكر ، لم يُجِدْذُ
طُغْيٌ ، ولم يُرَفَّعْ جِباءٌ ، ولم يُنْصَبْ بَهاءٌ حتى يقطعَ لكل قائدٍ دَرْعاً مملوئاً من الأرض بقدر
أصحابه ، ويحمرُّوه طيِّبٍ خندقا يطيعونه سد ذلك عِبادِيك الحَسَكُ^(٢) ، طارحين لها دون
أشجار الرياح ، ونصبَ الرِّسَمَةِ ، لها بابان قد وُكِّلتَ بمحيط كل ماب منهما رجلاً من فِؤادك
في مائة رجلٍ من أصحابه ، وإذا فُرع من الخندق كان ذاك الرحلانِ القائدانِ بمن معهما من
أصحابهما أَهْلَ ذلك المركز ، وموصِّعَ تلك الخيل ، وكانوا هم البَوَّابِينَ والأحراسَ لذِيكَ
الموصعين ، قد كَفَّوْهُمَا وصطوهُمَا وأَعْمَوْا من أعمالِ المعسكر ومكرهه عيرهما .

وأعلمُ ألك إذا كنتَ في خندق ، أيسَتَ يادن الله وقوته طوارِقَ عدوك وقتَاتِهِمْ ، فإن
راموا تلكَ منك ، كَسَتْ قد أَحْكَمْتَ ذلك وأحدثَ بالحرمِ فيه ، وتقدَّمتَ في الإمدادِ له ،
ورَفَّتْ مخوفُ الفتقِ منه ؛ وإن تكي العافيةُ استحققتَ حمدَ الله عليها ، وأرتبطتْ شكره
بها ، ولم يَفْضُرْكَ أَخْذُكَ بالحزم : لأن كلَّ كُفْسةٍ ونَصِبٍ ومؤونةٍ إنفاقٍ ومشقةٍ عملٍ مع

(١) أي ذهب وعاب . (٢) الحسك : أسلاك كالشوك تدل من الحديد تلقى حول المعسكر لتشتت

في رجل من يدومها من الخيل والناس الطارئين له ، وهي المروية الآن : « بالأسلاك الشائكة » .

السلامة غُثِّمَ وغير خَطَرٍ بالعاقبة، إن شاء الله . فإن أُبْتُلِتْ بِيَدَاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَفَكَ رَأَيْمًا فِي لَيْلِكَ، فَلْيَلْفِكَ حِذْرًا مَشْمُرًا عَنْ سَاقِكَ، حَاسِرًا عَنِ دِرَاعِكَ، مُتَشَرِّفًا لِحَرْبِكَ، قَدْ تَقَدَّمْتُ ذِرَاجَتُكَ إِلَى مَوَاصِعِهَا عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَبَّابَتُكَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرَ لَكَ، وَطَلَامُكَ حَيْثُ أَحْرَكَ، وَجَدُّكَ عَلَى مَا عَمَّا لَكَ، قَدْ خَطَرَتْ عَلَيْهِمْ بِفَسْكَ، وَتَقَدَّمْتُ إِلَى جَنْدِكَ، لِبِطَ طَرَفِهِمْ طَارِقٌ أَوْ فَاجَأُهُمْ عَدُوٌّ، أَلَا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَأْمًا صَوْتُهُ بِالْكَبِيرِ مُفْرَقًا فِي الْإِجْلَابِ، مُعَلِّيًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ الْحَاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا، وَلِيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ نَاشِئِينَ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ، وَيُرْشِقُوهُمْ بِالْبَلْبَلِ مَكْتُمِينَ بِرِسْمِهِمْ، لِأَزْمِنٍ لِمُرَاكَمِهِمْ، غَيْرَ مُزِيلٍ قَدَمٍ عَنْ مَوْصِعِهَا، وَلَا مُتَحَاوِزٍ إِلَى عِيرِ مَرْكَبِهِمْ، وَلِيَكْبُرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَائِرُ الْجَسَدِ هَادُونَ، لَتَعْرِفَ مَوْصِعَ عَدُوِّكَ مِنْ مَعْسَرِكَ، ثُمَّ أَهْلُ تِلْكَ الْحَاحِيَةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَعْوَالِكَ وَشَرَطَتِكَ، وَمَنْ آتَحَسَّتْ قُلُوبُ ذَلِكَ عَدُوًّا لِلشَّدَائِدِ بِمَصْرَتِكَ، وَتَدَسَّ إِلَيْهِمُ النَّشَابُ وَالرَّمَاحُ .

وإياك وأن يشهروا سيقًا بجهاليدون به، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرفهم إلا بالرمح مسندين لها إلى صدورهم، والنشأ راشقين به وحوهم، قد ألبدوا بالآترسة، وأستجوا باليئس، وألقوا عليهم سوايح الدروع وحباب الخشو. فإن صد العدو عنهم حاملين على حية أخرى، كبر أهل تلك الحاحية التي يقع فيها كفضل الحاحية الأولى، وبقية العسكر سكوت والحاحية التي صد عنها العدو لارمة مراكمهم مستطغه العدو ساكنة الريح، ثم حلت في قوتهم وإمدادهم بمثل صبيك في إخوانهم .

وإياك أن تخذل رءواك، وإذا وقع العدو في معسكر فأجهم ساعراً لها وأوقدنا حطباً جراً يعرف به أهل العسكر مكانك وموضع رواقك، ويسكن نافر قلوبهم، ويقوى واهي قوتهم، ويشد مخيل ظهورهم، ولا يرجعون بك الظنون، ويعلمون لك آراء

يَعْتِ واحد، كأن مُعَدًّا لم تَحْتَجِ إلى اتِّفَاقِهِمْ في سَاعَتِكَ تِلْكَ، فَتَقَطَّعَ البَعَثَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرْتَقُّكَ . وَإِنْ أَحْتَجْتَ إِلَى أَتْنِىٍّ أَوْ ثَلَاثَةٍ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ لِرَادَّتِكَ أَوْ مَا تَرَى قُوَّتَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُلُّ بِحْرَانِكَ وَدَوَاوَيْسِكَ رَجُلًا نَاصِحًا أَمِيًّا، دَاوَرَجَ حَاجِرًا، وَدِيْبِي فَاصِلًا، وَطَاعَةً حَالِصِيَّةً، وَأَمَانِيَّةً صَادِقَةً، وَأَحْمَلُ مَعَهُ حَبِلًا يَكُونُ مَسِيرَهَا وَمَنْزِلَهَا وَمَرْحَلَهَا مَعَ حِرَانَتِكَ وَحَوْلَهَا . وَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا، وَالتَّوَقُّعِ عَلَيْهَا، وَأَتْنَاهُم كُلًّا مِنْ تَسْيِدِ إِلَيْهِ شَيْئًا مِمَّا عَلَى إِصَاعَتِهِ وَالتَّهَاقُوتِ بِهِ، وَالشَّدَّةِ عَلَى مَنْ دَا مِنْهَا فِي مَسِيرٍ، أَوْ صَامَتِهَا فِي مَنْزِلٍ، أَوْ حَالَطَهَا فِي مَنَظِلٍ . وَلِيَكُنْ عَاقِبَةُ الْجِدِّ وَالْحَيْشِ — إِلَّا مَنْ اسْتَحْلَصَتْ لِلْسَّيْرِ مَعَهَا — مُنْجِيَةً عَنْهَا، عَاجِيزِينَ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ، فَإِنَّهُ رَجُلًا كَانَتْ الْجَوْلَةُ وَحَدَّثَتِ الْقَرْعَةَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْحِرَانِ مِمَّنْ يُؤَكِّلُهَا أَهْلٌ حَفِظُوا لَهَا وَدَبَّ عَنْهَا، وَجِيَاطِلُهُ دُونَهَا، وَقُوَّةٌ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَتْنَاهَا، أَسْرَعَ الْجِدُّ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا نَحْوَهَا، حَتَّى يَكَادُ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتْنَابِ الْمَسْكَرِ وَأَصْطِرَابِ الْعَتَمَةِ، فَإِنْ أَهْلُ الْفَيْتِ وَسُوءُ السَّيْرِ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا هِمَّتْهُمْ الشَّرُّ، فَإِنَّكَ أَنْتَ يَكُونُ لِأَحَدٍ فِي حِرَانِكَ وَدَوَاوَيْسِكَ وَبُيُوتِ أَمْوَالِكَ مَطْمَعٌ، أَوْ يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى أَغْيَاثِهَا وَمَرْزَاقِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَامَةِ، وَأَحَدَهَا صِبْنًا فِي حَسَنِ الْقَالَةِ، مَا لَبِثَ الظُّفْرَ فِيهِ بِحَزْمِ الرُّوِيَّةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، وَلَطْفِ الْحَبِيلَةِ . فَتَكُنْ رَوِيَّتُكَ فِي ذَلِكَ وَجَرُّكَ عَلَى إِصَابَتِهِ بِالْجَلِيلِ لَا بِالْقِتَالِ وَأَحْطَارِ الثَّنَابِ، وَأَدُسُّنْ إِلَى عَدُوِّكَ، وَكَاتِبْ رُؤْسَاحَهُمْ وَقَادَتَهُمْ وَصِدْهُمْ الْمَمَالَاتِ، وَمَنْبِهِمُ الْوِلَايَاتِ، وَسَوْعَتُهُمُ الثَّرَاثُ، وَصَنَعْ عَنْهُمْ الْإِحْنَ، وَأَقْطَعْ أَعَاقِبَهُمُ بِالْمَطَامِعِ، وَأَسْتَدِيعَهُمُ بِالْمُتْلَاوِبِ، وَأَمْلَأْ قُلُوبَهُمْ بِالْتَرَجِيبِ إِنْ أَمَكَّتْكَ مِنْهُمْ الدَّوَاوِيرُ، وَأَصَارَتَهُمْ إِلَيْكَ الرُّوَايَجِ، وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ اعْتَرَالِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْوُثُوبُ عَلَيْهِ طَاقَةً، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى مَعْصِهِمْ كِتَابًا كَانَتْهَا جَوَابُ كِتَابِ لَمْ إِلَيْكَ، وَتَكْتُبْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كِتَابًا إِلَيْكَ تَدْعُهُمْ إِلَيْهِمْ وَتَقِيلُ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتُزِيلُهُمْ عَنْهُ بِمَقَرَّةِ الثُّمَّةِ وَعَمَلِ

الْفَلَّةُ ، فَلَمَلْ مَكِيدَتَكَ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِثْلُهَا أَقْرَأُ كَلِمَتِهِمْ ، وَتَشَيْتُ جَمَاعِيهِمْ ، وَاحْنُ قُلُوبِهِمْ ، وَسَوْءُ الظَّنِّ مِنَ وَالِيهِمْ بِهِمْ ، فَيُوحِشُهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَيْقَنُوا بِأَتَمَامِهِ إِيَّاهُمْ ، فَإِنْ بَسَطَ يَدَهُ فَعَتَلَهُمْ ، وَأَوَّلَعَ سَبِيحَهُ فِي دِمَائِهِمْ ، وَأَسْرَعَ الْوُثْبَ بِهِمْ ، أَشْعَرَهُمْ جَمِيعًا الْخُوفَ ، وَشَمِلَهُمُ الرُّعْبُ ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْكَ الْهَرَبَ ، فَتَهَاقَتُوا نَحْوَكَ بِالصَّبِيحَةِ وَأُمُوكَ بِالطَّلَبِ . وَإِنْ كَانَ مَتَانِيًا مُحْتِمِلًا رَجَوْتَ أَنْ يَسْتَمِيلَ إِلَيْكَ مَعَهُمْ ، وَاسْتَدْعَى الطَّمْعَ دَوَى الشَّرِّ مِنْهُمْ ، وَتَالَ بِذَلِكَ مَا تُحِبُّ مِنْ أَحْبَابِهِمْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

إِذَا تَدَانَى الصَّفَانِ ، وَتَوَاقَفَ الْحَمْعَانِ ، وَاحْتَصَرَّتْ الْحَرْبُ ، وَعَبَّاتِ أَصْحَابِكَ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ ، مَا كَثُرَ مِنْ قَوْلٍ : لِأَحُولٍ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّمْوِينِ إِلَيْهِ ، وَمَسَائِلِهِ تَوْفِيقَكَ وَإِرْشَادَكَ ، وَأَنْ يَعْزِمَ لَكَ عَلَى الرَّشْدِ الْمُنْجِي ، وَالْعِصْمَةِ الْكَائِلَةِ ، وَالْجِلْيَانَةِ الشَّامِلَةِ . وَمُرَّ حَدِّكَ الْقَصَمَتِ وَقَلَّةِ التَّلَفِ عَدَّ الْمُصَاوَلَةِ ، وَكَثْرَةِ التَّكْبِيرِ فِي أَمْسِهِمْ وَالتَّسْبِيحِ بِصَبَائِرِهِمْ ، وَلَا يُظْهِرُوا تَكْبِيرًا إِلَّا فِي الْكِرَاتِ وَالْحَمَلَاتِ ، وَعَسَدَ كُلِّ زُلْفَةٍ يَزْدَلِفُونَهَا ، فَأَمَّا وَهُمْ وَقُوفٌ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْجُبْنِ ، وَلَيْدَ كَرُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَسْأَلُوهُ بِصَرِّهِمْ وَإِعْزَازِهِمْ ، وَلْيُكْثِرُوا مِنْ قَوْلٍ : «لَا أَحُولُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، حَسْبَا اللَّهُ وَهَمَّ الْوَيْلُ ، اللَّهُمَّ أَنْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّ الْبَاغِي ، وَأَكْهَبَا شُوكَتَهُ الْمُسْتَحِذَةَ ، وَأَيَّدَا بِمَلَائِكَتِكَ الْغَالِيينَ ، وَأَعْصِمَا بِعَمَلِكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْعِجْزِ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

وَلْيَكُنْ فِي مَعْسَرِكَ الْمَجْبُورُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَبْلَ الْمُوَاقِعَةِ ، وَقَوْمٌ مَوْقُوفُونَ يُحْمَصُونَ عَلَى الْقِتَالِ وَيَحْرُصُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَيَصِفُونَ لَهُمْ مَازِلَ الشَّهَادَةِ وَثَوَائِبَهُمْ ، وَيَذَكِّرُونَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَدَرَجاتِهَا ، وَبِعَمِّ أَهْلِهَا وَسُكَّانِهَا ، وَيَقُولُونَ : أَذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ ، وَأَسْتَنْصِرُوهُ يَنْصُرْكُمْ ، وَأَلْتَجِنُّوا إِلَيْهِ بِمَحْكَمٍ . وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَمْتُ الْمُبَاشَرَةِ تَعْمِيَةِ جَنْدِكَ وَوَصِيمِهِمْ مُوَاضِعَهُمْ مِنْ رَأْيِكَ ، وَمَعَكَ رَحَالٌ مِنْ ثِقَاتٍ فَرَسَاتُكَ تَدُوُّ سَنًّا وَتَحْرِيبَةً وَتَجْمِدَةً عَلَى التَّعْمِيَةِ الَّتِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَصْغُهَا لَكَ فِي آخِرِ كِتَابِكَ فَافْعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَبْنَيْكَ اللَّهُ بِالْبَصْرِ، وَعَلَيْكَ عَلَى الْقِسْوَةِ، وَأَعَانِكَ عَلَى الرَّشْدِ، وَعَصَمَكَ مِنَ الزَّيْغِ،
وَأَوْجِبَ لِمَنْ أَسْتَشْهَدَ مَعَكَ ثَوَابَ الشَّهَدَاءِ وَمَآزِلَ الْأَصْفِيَاءِ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكَ وَرَحِمَهُ اللَّهُ
وَبَرَكَاتِهِ .

وَكُتِبَ سِتَّةَ عَشَرَ وَعِشْرِينَ وَمِائَةً .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد، فَحَفِظْكَ اللَّهُ يَا هَلْ صِنَاعَةُ الْكَاتِبَةِ، وَحَاطَكَمُ وَوَقَّعَكَ وَأَرْشَدَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ جَمَلَ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ تَدْرِجِ الْمُلُوكِ
الْمُكْرَمِينَ أَصَافًا، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً، وَصَرَّفَهُمْ فِي صُوفِ الصَّاعَاتِ، وَصُرُوبِ
الْمَحَاوِلَاتِ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَايِشِهِمْ، وَأَبْوَابِ أَرْوَاقِهِمْ، بِجَهْلِكَ مَعَشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ
الْحَمَاهُ، أَهْلُ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَاتِ وَالْعِلْمِ وَالرَّيَاسَةِ، كَمْ تَحْتَلِمُ لِمَخْلَافَةِ مَحَاسِنِهَا، وَتُسْتَقِيمُ
أُمُورِهَا، وَبِنَصَائِحِكَ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ، وَتَعْمُرُ لِبَنَائِهِمْ، لَا يَسْتَفْنِي الْمَلِكُ عَنْكَ،
وَلَا يُؤَدُّكَ كَافٍ إِلَّا مِنْكَ، فَمَوْقِعُكَ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَشْيَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ، وَأَنْصَارِهِمُ
الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ، وَالسُّنْتَمُ الَّتِي بِهَا يَطْفِقُونَ، وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَطْبِقُونَ، فَاثْمَرُكَ اللَّهُ مَا حَصَرَكَ
مِنْ فَضْلِ صِبَاغَتِكَ، وَلَا نَزَعَ عَنْكَ مَا أَصْفَاهُ مِنَ النِّعَةِ عَلَيْكَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
الصِّبَاغَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى أَجْتِمَاعِ حِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ، وَحَصَالِ الْعَمَلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ
مَعَكَ . أَيُّهَا الْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكَ، فَإِنَّ الْكِتَابَ يَحْتَاجُ
فِي نَفْسِهِ، وَيَحْتَاجُ مَعَهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ
الْحُلْمِ، فَهَيِّمَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، مِقْدَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِفْدَامِ، مَحَامَا فِي مَوْضِعِ الْإِنْخَامِ، مُؤَنِّرًا

للعماف والمعدل والإنصاف، كَتُومًا للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالمًا بما يأتي من الوازل؛
يَصَحُّ الأمور مواضعها، والطوارى في أمأكلها، قد تَظَرُّ في كلِّ من مُون العلم فأحْكَمَ،
وإن لم يُحْكَمْ أَحَدٌ مَهْ بِمَقْدَارِ مَا يُكْتَمَى بِهِ، يَعْرِفُ بِعَرِيَّةِ عَقْلِهِ، وَحُسْنِ أَدَبِهِ، وَفَصْلِ
تَحْرِتِهِ، مَا يَرِدُ عَلَيْهِ قَلِيلٌ وَرُودُهُ، وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ، فَيَعُدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ
وَحَسَادَهُ، وَيُنْهِي لِكُلِّ وَحْهٍ هَيْتَهُ وَعَادَتَهُ. فَتَنَاسُؤُا بِمَا مَعَشَرَ الْكَلْبِ فِي صُوفِ الْآدَابِ،
وَتَعْمَهُوا فِي الدِّينِ، وَأَبْدُوا بِعِلْمِ تَخْلِيقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِصِ، ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّمَا تَقَافُ
أَلْسِنَتَكُمْ، ثُمَّ أَجِيدُوا الْخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُنُتِكُمْ، وَأَزُورُوا الْأَشْعَارَ وَأَعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا،
وَأَيَّامَ الْقَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ عَلَى مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَمُكُمْ،
وَلَا تُصَيِّمُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ، فَإِنَّهُ قَوَامُ كُتَابِ الْحَرَجِ، وَأَرْعُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيهَا
وَدَنِيهَا، وَسَتَسَافِ الْأُمُورَ وَتَعَاقِرَهَا، فَإِنَّهَا مَثَلَةٌ لِلرَّقَابِ، مَفْسَدَةٌ لِلْكُتَابِ، وَزُرْهَوا صِبَاحَكُمْ
عَنِ الدَّعَاةِ، وَأَزْنَتُوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ وَالْجَيْمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْحَهَالَاتِ .

وَأَيَّامَ الْكَرِّ وَالشَّخْفِ وَالْمَقْظَةِ، فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ مُجْتَلِيَةٌ مِنْ عِبَرِ إِحْسَانَةٍ، وَتَحَاوُلًا فِي اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ فِي صِبَاحَتِكُمْ، وَتَوَاصَوْا عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقٌ لِأَهْلِ الْعَصْلِ وَالنَّبْلِ مِنْ
سَلَمَتِكُمْ، وَإِنْ نَأَى الزَّمَانُ رَحُلٌ مِنْكُمْ، فَاغْطَفُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالُهُ، وَيَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ
أَمْرُهُ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكَرَّ عَنْ مَكْنَسِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ، فَزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوُرُوهُ؛
وَأَسْتَظْهِرُوا فَضْلَ تَحْرِتِهِ، وَقَدِيمَ مَعْرِفَتِهِ، وَلَيْسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ أَصْطَفَعَهُ وَأَسْتَظْهِرَ
بِهِ لَيُومٍ حَاجَتُهُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ، فَإِنْ عَرَّصَتْ فِي الشُّغْلِ تَحَدُّدٌ فَلَا يَصْرِفُهَا
إِلَّا إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ عَرَّصَتْ مَدَّةً فَلْيَحْمِلْنَهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ؛ وَلْيَحْتَدِرِ السُّفْطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلِ
عِنْدَ تَغْيِيرِ الْحَالِ، فَإِنَّ الْعَيْبَ إِلَيْكُمْ مَعَشَرَ الْكَلْبِ أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى الْفِرَاءِ، وَهُوَ لَكُمْ أَفْسَدُ مِنْهُ
لَهَا، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ إِذَا حَبَبَهُ مَنْ يَتَدَلُّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، مَا يَحِبُّ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ؛
مُوَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَتَقَدَّرَ لَهُ مِنْ وَفَائِهِ وَشُكْرِهِ، وَأَحْتِمَالِهِ وَنَصِيحَتِهِ، وَكَيْفَانِ سِرِّهِ وَتَكْدِيرِ أَمْرِهِ،

ما هو جراً لحقه، ويصتق ذلك فعله عند الحاجة إليه، والأكصطرار إلى ما لديه، فاستشعروا ذلك - وفقكم الله - من أنفسكم في حالة الرّحاء، والثّقة والحرمان والمؤاماة والإحسان والسّراء والعسراء؛ فعمّت الشّيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصّاعقة الشّريفة، وإذا ولى الرجل منكم أو صبر إليه من أمرٍ خلق الله وعيّا، أمرٌ، فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته؛ وليكن على الصّيف رفيقاً، وللظّلم مُنصفاً، فإنّ الخلق عيال الله، وأحبّهم إليه أرفقهم بعياله؛ ثم ليكنّ العُدل حاكماً، وللأشراف مُكرماً، وللقوّى مُوقراً، وللبلاد حامراً، وللرّعيّة مُتألّفاً، وعن أدامهم متعلّفاً، وليكن في مجلسه متواصلاً حليماً، وفي مجلات نراحه واستقضاء حقوقه دقيقاً، وإذا صحّ أحدكم رجلاً فليحتدر حلالقه، فإذا عرّف حسّنها وقيّحها أحابه على ما يوافق من الحسّن، وأحتال على صرّفه عمّا يتوّاه من القبيح بالطف حيلة وأجل وسيلة.

وقد علمت أن سانس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التّمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهيجها إذا ركبها، وإن كانت شوما أتهاها من بين يديها، وإن حاف منها شرودا توّقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرّوا قع يرفق هواها في طرّفها، فإن استمرت عطفاً يسيراً، فيسلس له قيادها، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجرّهم وداحلهم.

والكاتب لفصل أدبه وشرّيف صغته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويطايره، ويهّمهم عنه أو يحاف سطلوته، أو يلقى بالرفق لصاحبه ومُداراته وتقويم أوده، من سانس البهيمة التي لا تحير جواناً، ولا تعرف صواناً، ولا تفهم خطانا، إلا تقدر ما يُصبرها إليه صاحبها الرّاكب عليها؛ ألا فاروقوا رحمكم الله في الطر، وأعملوا ما أمكنكم فيه من الرّوية والفكر، تأمّنوا بإذن الله من محبّتهم النّبوة والاستئصال والحقوة، ويصير منكم إلى المواقفة، وتصيروا من إلى المؤاخاة والشّقة، إن شاء الله، ولا يُجاورن الرجل منكم في هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه وحذمه، وغير ذلك من فنون أمره قدر حقّه، فإنكم مع ما فصلكم الله به من شرف صنعكم، حذمة لا تُعملون في خدمتكم على التّقصير، وحفظة

لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّصْبِيحِ وَالتَّيْدِيرِ، وَاسْتَعْبُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُمْ لَكُمْ، وَقَصَصْنُهُ عَلَيْكُمْ، وَأَحَدُوا مَنَافِ التَّوْبِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِّ، فَإِنَّمَا يُعْقَبَانِ الْفَقْرَ، وَيُذَلَّانِ الرِّقَابَ وَيَقْصَحَانِ أَهْلَهُمَا، وَلَا سِيَّما الْكُتُبَ وَأَرْبابَ الْأَدَابِ . وللأمور أشباه ومعضها دليل على معص ، فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم ، بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم أسلكوا من مسالك التديير أوجهها خمسة ، وأصدقها حجة ، وأحمدنا عاقبه .

وأعلموا أن للتديير أمة متلعة ، وهو الوصف الشامل لصاحبه ، عن إنفاذ علمه ورويته ، فليقصد الرجل مكسب في عمله ، قصد الكفاي في مسقطه ، وليؤخر في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بجماع حجه ، فإن ذلك مصلحة لعمله ، ومدققة للشاغل من إكثاره ، وليصرع إلى الله في صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المصير ببدنه ، وعقوله وأدبه ، فإنه إن ظنَّ مكسباً ظاناً أو قال قائل : إن الذي برز من حيل صنته وقوة حركته ، إنما هو فصل حيلته وحسن تدييره ، فقد تعرض محسن ظله أو مقاتله إلى أن يكلفه الله عز وجل إلى معسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك كل من تأمله مير حاف ، ولا يقل أحد منكم إنه أنصر بالأمور ، وأحمل لأعباء التديير ، من مرافقه في صناعته ، ومُصاحبه في خدمته ، فإن أعقل الرُّحُلِ عند دوى الألباب من رمى الفتح وراء ظهره ، ورأى أن أصحابه أعقل منه وأحمل في طريقته ، وكل كل واحد من الفريقين أن يعرف فصل ثم الله جل شأوه من غير أعتار رأي به ، ولا تركية لفسه ، ولا يكابر على أحبيه أو نظيره ، وصاحبه وعتيره ، وحمد الله واجب على الجميع .

وذلك بالتواضع لمعلمته ، والتدلل لمرزبه ، والتحدث بمعتمته ، وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل : " من تَلَزَمَ المصيبة يَلَزَمَ العمل " وهو جوهر هذا الكتاب وعرة كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره وتذنت به . نولنا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه ويده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٨ - رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشطرنج :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سُبله ، وإيضاح مَعَالِهِ بإظهار فرائضه ، وبعث
رسله إلى خلقه دلالةً لهم على ربهيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومعدناً إليهم بإنذاره
ووعيده ، ليَهْلِكَ من هَلَكَ عن دينه ، ويعيا من حَيَّ عن دينه ، ثم حتم سبيله صلى الله عليه
وسلم وحبه ، وقفى به رسله ، وأبتعته لإحياء دينه الدارس مرتصباً له على حين
انطمست الأعلامُ محفنةً ، وتشتت السبل متفرقةً ، وعَفَّت آثارُ الدين دارسةً ، وسَطَعَ
رَهِجُ الفتن ، وأعلى قتَامُ الظلم ، وأستهد الشُّركُ ، وأسدف الكفرُ ، وظَهَر أولياءُ الشيطان
لطموس الأعلام ، وعلق زعيمُ الباطل بسككته الحق ، وأستطرق الحور وأستنكح
الشُّدوف عن الحق ، وأقَطُر سَهْبُ الفتن ، وأستضرم إِقَاحُهَا ، وطَبَقَت الأرض ظلمةً
كفروغياًةً صداد ، فصَدَعَ بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالةَ معصوماً ، ونصح الإسلامَ
وأهله ، دالاً لهم على المرآشد ، وقائداً لهم إلى الهداية ، وميراً لهم أعلامَ الحق صاحبةً ،
مرشداً لهم إلى استعتاب باب الرحمة وإعلاق عُروَةِ النُّجاة ، مُوحِّهاً لهم سُلَّ الفَوَايِد ،
زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم المهلكة ، مُوعِزاً إليهم في التقدمة ، صارماً لهم
الحدود على ما يتقون من الأمور ويمحشون ، وما إليه يسارعون ويطلون ، صارماً بنفسه
على الأدنى والتكذيب ، داعياً لهم بالترعيب والترهيب ، حريصاً عليهم ، متحسناً على كافئهم ،

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المطوم والمنثور » لأبي طهيرة المصنوع دار الكتب المصرية تحت

رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى من مخطوطة رقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة في رسائل اللغاة هكذا « على حين انطمست له الأعلام » زيادة « له »

وليس لها محل من السياق طبعها من زيادات الساج .

(٣) أسدف الكفر أظلم وعم الواحى والأرجاء كالليل . (٤) اقطر اشدة .

(٥) البياية ، ما أطل الانسان من فوق كالنخابة والسرعة ومحوها .

(٦) في رسائل اللغاة وإعلاق النون بدل القاف ، وهو محرف .

عزيرًا عليه عَثَمٌ ، رءوفًا بهم رحيمًا ، تقدمه شفقتهم عليهم وعنايته برشدكم الى تحريد
الطلب الى ربه فيما فيه بقاءُ العمة عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتحيُّفُ آصارِ الأوزار^(١) عنهم ،
حتى قبضه الله اليه - صلى الله عليه وسلم - بالحسنة منتصحا ، أميًّا مأمومًا ، قد نلَّع الرسالة ، وأدَّى
النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمودَ الدين ، حتى اعتدل ميله ، وأذلَّ الشرَكَ وأهله ، وأنجز
الله له وعدّه ، وأراه صدقَ أنبائه^(٢) في إكمالهِ للمسلمين دينه ، واستقامة سنته فيهم ، وطهور
شرائعهم عليهم . قد أبان لهم موقفات الأعمال ، ومفطحات الذنوب ، ومهيطات الأوزار ،
وطلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به النوايات ، وأومع لهم أعلام
الحق ، وما زلَّ المُرَاشِد ، وطَرَّقَ الهدى ، وأبوابَ الحاة ، ومعالقِ العصمة ، عيْدَ مَدْحِرٍ لهم
نصحا ولا مَبِيتٍ في إرشادهم عُنًا . فكان مما قدَّم اليهم فيه نبيّه ، وأعلمهم سوءَ عاقبته ،
وحذرهم إصره ، وأوعز اليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا ، الاعتكافُ على هذه التماثيل من
الشُّطْرُنَجِ والمواصلةُ عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، ومُوقِيقِ الْوَرْدِ ، مع مُشْعِطِهَا
عن طلبِ الْمَعَاشِ ، وإصرارها بالعقول ، ومَتَمِّهَا من حصور الصلوات في مَوَاقِبِهَا مع جميع
المسلمين .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناسًا ، ممن قَبَّلَ من أهل الإسلام ، قد ألحَقهم الشيطان
بها ، وجمعهم عليها . وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لَدُنْ صُجْعِهِمْ الى
مُتَسَامٍ ، مُلْهِيةٌ لهم عن الصلوات ، شاعلةٌ لهم عما أُمِرُوا به من القيام بسُنَنِ دينهم ،
وأَقْرَضَ عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها . وإن ذلك من
دعائهم طاهرٌ في الأندية والمجالس ، غير مُكْرٍ ولا مَعِيبٍ ولا مُسْتَظْلَعٍ عند أهل الفقه ،
وذوى الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكبره

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفي رسائل النعمان : واختيار المعلوم والمنقول لاس طيمور «أراصر» هذا
آماره ، وهو نحر جب . (٢) وفي رسائل النعمان : واختيار المعلوم والمنقول لاس طيمور «أسابه» وهو نحر جب .

وأستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يؤس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل ،
 عصم المسلمين وجمعهم صراحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، ورى لهم ورطة
 موفقة ، وعزمهم بمكيمة حيلة ، إرادته لاستهوانهم بالخذع ، واحتياهم بالشبه والمراسد
 الخفية المشكلة . وكل مقيم على معصية الله ، صغرت أو كبرت ، مستعلاً لها مُشيداً بها ،
 مظهرًا لأرتكابه إياها ، غير حدير من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا حائِف مكرهاً فيها ،
 ولا راعٍ من حلول سخطوته عليها ، حتى تلحقه الميبة ، فتحتلعه وهو يُصر عليها ، غير
 تائب الى الله منها ، ولا مستغفر من آرتكابه إياها ، فك من أقام على موفقات الآثام
 وكبار الديوب ، حتى مذهبه ومحرم أيامه .

وقد أحب أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم ، فيما لطفه تنهم ، وأن يُدرهم ويوعز اليهم ،
 ويُعلمهم ما في أعاقهم عليها ، وما لهم في قول ذلك من الخط ، وعليهم في تركه من الور ،
 فأذن بذلك فيهم ، وأشده في أسواقهم وجميع أديبتهم ، وأوعز اليهم فيه . وتقدم الى عامل
 شُرطتك في إنناك العقوبة لمن رُفع اليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ،
 وإطالة حبسه في ضيق وضنك ، وطُرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأفطمهم عما
 يهجوأ به من ذلك . وألتمس شدتك عليهم فيه وإنناكك بالعقوبة عليه ، ثواب الله
 وجراه ، وآتاع أمير المؤمنين ورأيه . ولا يحدك أحد عدك هودة في التقصير في حق الله
 عز وجل ، والتمتدئ لأحكامه ، فتُحل بنفسك ما يسوءك عاقبة معبته ، وتعرض به
 لعير الله عز وجل وبكاله . وأكتب الى أمير المؤمنين ما يكون منك ، إن شاء الله
 والسلام .

(١) اجتالم . حوّلهم عن طريق تقدم ويحتمل أن يكون : راحتهم ، والاحتال : الاصطاد .

(٢) آده الأمر به : أطله .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد ^(١) :
 أطال الله لقاء أمير المؤمنين مؤيداً بالعر، محصوا بالكرامة، ممثلاً بالعمة، إنه لم يبق ^(٢)
 أحد من المقتصين، ولا مئح منظر من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من
 اليمن والبركة، وممنا من الطفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص،
 وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القُدرة ^(٣)، إلا ما كان من محاولة
 الطلب، وشدة التنبص، لاهر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعاً في الطلب لها، وأعجزنا
 البهر عن الحاق بها، لتفاوت سبقها، ومقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى
 حسن الظفر، وتوالي الأرب، ونهاية الطرب .

ولما أخبر أمير المؤمنين أننا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأتقن الصواري،
 أكرمها أحناساً، وأعظمها أحساماً، وأحسنها ألواناً، وأحدثها أطرافاً، وأطولها أعضاء،
 قد تفتت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وحبرت المحام،
 مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المغبورة القراحة ^(٤)،
 من الشهيرة الموصوفة بالنعابة، والجرى والصلابة . فلم نزل ما خفض سير، وأتقن طلب،
 وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً، فربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القنم من مزار ^(٥)
 السابك، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرتنا علويات، ثم برزت الشمس طالعة،
 وأكتشفت [من] السحاب مسفرة، فتلاأت الأشجار، وصحك الوار، وأتجلت الأبصار،
 فلم نرمظراً أحسن حسناً، ولا مرموقاً أشبه شكلاً، من أبتسام نور الشمس عن أخضرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المظم والمشور » لأبي طيعر .

(٢) في الأصل : " ينف " . (٣) في الأصل : " الهاء " . (٤) كذا في الأصل ولعلها
 محرة عن الحالة . (٥) القُدرة القُدرة، وفي الأصل : " المقدرة " . (٦) الغرامة .
 النشاط في السير . (٧) الشهيرة . الراعي . (٨) في الأصل : هكذا " ساء " .
 (٩) في الأصل : " منمات " .

زهرة الرياض . وانليل ترحب بنا نشاطا ، وتجنّبنا اعتبّا أنيسا ، ثم لم نلبث أن علّنا ضبابه^(١) تقصّر طرف الساطر ، وتُخفي سبيل السلام ، نشانا تارة وتكشف أخرى ، وعن أرض دميّة التراب ، أشبه الأطراف ، مُدقّة العجاج ، مملوءة صيدا من الطباء والعالب والأرانس ، فأدانا المسير إلى غايّة دوبا مألّف الصيد ، وجمتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد حاوزناها ونحن على سبيل الطلب محصون ، وبكلّ حرة جونة متفرّقون ، فرجع بنا المؤد على الده ، وقد انحلت الضباب ، وأمنّد البصر ، وأمكن النظر ، فأدنا نحن برحلة^(٢) من طباء ، وحلقة آرام يرتعن أنسات ، قد أحاتهن الضباب عن شخصسا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسّسا ، فلم نعج إلا والضواري لأمنّة^(٣) لمن من بُعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدّت الجوارح اجنحتها ، واجتذبت الضواري مقايدها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحصيرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فزت تخفّ حفيف الريح عدها هبوبا ، تُسِف الأرض سقاء كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة لأطعارها ، قد مرّقتها تزيق الريح الجراد ، هن صالح بها واعر ، وهاتيف بها واعر ، يدعو الكلّ باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ، وراكص تحت مُعيره ، وحافق يطله الريح ، وطامح يمه ، وصالح قد عارصه مارح ، قد حيرنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى آمنتأت أيدينا من صوف الصيد ، وإفقه المسم الوهاب .

ثم ملّا يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكّته التجارب ، وحبر أعلام المنداب ، إلى عدير أنيق ، وروضة خيضة ، مستاحية بتلاوين الشجر ، ملّعة بصوف الحر^(٤) ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يدع من صائد ، ولا اقتنص من قانص ، تخفّق لها طبول ، وصفر بغير الخنف ، فتار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وزاعت الجوارح حَقَقَاتُ اجنحتها ، ثم أنبرت البراة

(١) في الأصل : "تقتصر" . (٢) في الأصل . "ويجي" .

(٣) الأشبه الملمعة الشجر . وفي الأصل «آسه» . (٤) الحرّة . أرض ذات هجارة حمرة سود ،

وفي الأصل «حر» . (٥) الحرّة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حوة» . (٦) رحلة . حافة

معركة . (٧) في الأصل . «هيج» . (٨) الحر : النمر .

لها صائكة، والصقور كسرة، والشواهيئ صارية، يرض الطلب لها، ويغضن الظفر بها، حتى سثما من الدخ، وأملأنا من الصبح^(١)، كأننا كتيبة ظفرت ببعيتها، وبسيرة^(٢) يصرمت على عدوها، وألحقت صبيحها بقويها، وعلبت محبتها بمحبها، لا نملك أنفسنا مرحا، ولا نستعيق من الجدل بها فرحا، بقية يوما، وافقه المنعم الوهاب .

ثم عدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالزهوة، فزلّ واصبها عن الطريقة، وأعتمد سا على غير الحقيقة، فأتيناها فلم نصيدا ولا حشبا، ولا زهرة ولا حسا، بهلنا نسلك منها حروما ووعورا، وحُدوما وقفرا، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النَّصَب . مينا نحن كذلك، إذ بدا لنا حاب قد أوفى بنا على حائل دلّ على عابة من ورائها خمير وحيش كثيره، فأتمناها، فلما تطرأ مشيا ونهريا^(٣) الى عاتقه، توالى نبيقه، وكثر شبيهه، فالتصت اليه، فمرقن بأعيننا ما ما استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى اذا سخطا بمرأى ومسمع اتحدبن موليّات، وهربن مسبات، فأجهدا الركض و طلبن، نزع آثارهن، واستشفت للاء بين أحجار ودكاك^(٤) وخنازيد^(٥)، حتى أشقى بب الطلب لها على واد هائل مائل، بحسنيه عابئة أشنة قد سقن اليها، واستحفين فيها، مطمئناها بالليل نظم الحرير، ثم أوعلت عتده فرسان في نصبا ومعمره أحوالها، والطبول حافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

(١) الصبح المرق .

(٢) في الأصل : "نفس" . (٣) الخاب . اللطيف من حر الوحش . (٤) في الأصل :

"مسبا" . (٥) التقريب ضرب من العدو . (٦) العانة . للقطع من حر الوحش .

(٧) الأحجار جمع حر وهو التراب المخرج من المعور . (٨) الكادك جمع ذلك ذلك وهو أرس منها

عط . (٩) الحاديد . جمع حديد وهو رأس الحسل المشرف ، والذي يتفق والياق "أحاديد" ،

وهي جمع أحديد المعرة المستطيلة في الأرس .

باب المنظوم

الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة مانعده فيه من أنواع الحب ولقعاته، وشكائيات الصب وأناته، وزقزقات العاشق وعبراته . وبدأ أنواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام :

(١) غزل إباحي : ويصح لنا أن نقصد من عمر بن أبي ربيعة زعياً لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني السمت والاستمتاع باللذات المادية مما يميز منه الأدب الجاهلي، وما حظّره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمنته . وقد كانت مكة والمدية مسرحاً لهذا النوع في العصر الأموي . وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعهُ ثمة .

(ب) غزل عُذريّ : وهو غزل الحب الصادق، والمواطف المتأججة، والنفس المتألمة المحبّة، تلك النفس التي تعدّ لدهائها الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في العناء في حبها، حياءً يملك عليه ليه ويعدب روحه ويُقي حسمه، كعزل جميل زعيم هذا النوع . وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن سخاب الأعاني اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاشه في ذلك أجهل مُحاجة، فكان من جميل ما كان مما تحده مفضلاً في هذا الباب .

(ج) غزل صناعي : بين هذا وذاك، همّه الإجادة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثيرٍ عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصيّ : حلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى النثر والى حياة القصف وما ينبع حياة القصف، فظلموا قصائد نحلّوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تيمة

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسوها لهم وأصافوها إلى شعرهم . وزعيا هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه ، وقيس بن دريح ونسائه .

ولإفاء عما وعدناك به ذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحي

عمر بن أبي ربيعة^(١)

« راق عمرُ أي ربيعة السَّاسَ وفاءً لظَّراءه ورَّعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر ، وحُسْن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستطاع الرِّق ، وإطّاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي ، أشهر قريش وأرق أصحاب العزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب وصوان الله عليه ، وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاجرا مومرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والخطاء الثلاثة من بعده ، فشب في صمم وزحف ، وقال الشعر صغيرا ، وسلك فيه طريق العزل ، ووصف أحوال النساء وتراودهن ومداعسة نضبي لخص ، وما يصدن قوله من الكلام ، مما يتوقر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يجعلوا شعره وعقدوه من هدايا حلما المدينة ، فما زال يخالج الشعر والشعر يفاذله ، حتى ملك صاحبه ، وقص على دمامه ، ورّ الشعراء ، وقال رائته المشهورة على طريقته المتكزة وهي التي أرفها

أمن آل حم أنت عاذ فكري + حداة عد أم داغ فمحمري

والتي قال فيها حريجين سمحها . ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ثم استطاز شره في التشبيل بالنساء . من يهرمها ومن لا يهرمها ، وتعرض للحصان المتصعدات من ساء قومه ومن عيرهم ، وقص منه في ملاه عظيم وصرن يحسن الخروج إلى الحب لأه كان يتلقاها بمكة ، ويترقب حروجهن للطلواف والسبي وبضعهن وهن محرمات . وحملت عليه رسائلات قريش لمكانة منه منهم ولترقب توبه وإقلاقه ، فلما تمادى في أمره وشب نبات السادات والخطاء ، حبس عليه عمر بن عبد العزيز وبعاه إلى ذلك : (وهي حرية أمام مدينة مصرع) ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن ميثاقه بالثورة والجهاد هرا في الحرما تزلت السعيرة التي كان فيها واحترق هو أيضا سنة ٩٣ هـ وقد اختصا تصدير بحثنا عنه عن أبي الفرج الأصبهاني ونجد ترجمته معقولة في الأغاني ح ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ واس حلطان (ح ١ ص ٢٧٨) والدميري (ح ١ ص ٣٢٦) والنفذ الفريد (ح ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع في ليرج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومه مسحتان حلطان دار الكتب المصرية .

القلب ، وحسن العزاء ، وغاطبه النساء ، وعمة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات المحنة ، وترجيح الشك في موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج الطل . وعطف المساءة على المدال ، وحسن التصحح ، ومحل المازل ، واحتصار الخبر ، وصدق الصفاء ، إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرأ ، وإن تسكى أنحى ، وأقدم عن حبه ، ولم تعتذر بعزه ، وأسر اليوم ، وعمم الطير ، وأعد السير ، وسير ماء الشباب ، وسهل وقول ، وقاس الموى فأرى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسميه وطرفه ، وأبرم صب الرسل وحذر ، وأعلن الحب وأسر ، ووطن به وأطهر ، وألح وأسف ، وأكبح اليوم ، وجنى الحديث وصرب طهرة لبطيه ، وأدل صمعه ، وقبح بالرحاء من الوفاء ، وأعل قاتله ، وأسنكى عادله ، ونصص اليوم ، وأعلق رهن منى وأهدر قتلاه ، وكان سد هذا كله فصيحاً .

من سهولة شعره وشدة أسرته قوله ^(١) :

فلما تواقفنا وسلمتُ أشرقَتْ : وجوهُ زَهاها الحسنُ أنْ تُنقِما
تبَّلمنَّ بالعرفانِ لما رأيتُني * وقُلَّ أمرؤُا باجَ أكلٍ وأوصفاً ^(٢)

ومن حسن وصفه قوله :

لها من الرِّيمِ عيناه ولَفَتَتْهُ * ونحوهُ السابقُ المختالِ إِدْ صَهلَا ^(٣)

ومن دقة معناه وصواب مَصْدَرِهِ قوله :

عَوْحاً تُحَيِّ الطَّلَلُ المَحْوِلَاً ^(٤) * والرَّعَمِ مِنْ أَسْمَاءَ والمَدَلَا
بَسَائِجِ الْيُوبَاةِ لَمْ يَصُدْهُ * تَقَادُمِ الْعَهْدِ بَأَن يُؤْهَلَا ^(٥)

(١) المراد من شدة الأسرها إحكام السج ومثابة التركيب . (٢) أكل . أعبا وأرضع أسرع

في السير . (٣) الرِّيم . الطي . (٤) عرجا : قعا . (٥) المحول والمحيل : الذي آت

عليه أحوال كثيرة معبره . (٦) البرياة : الصلاة واسم لصحراء بأرض تهامة إذا حُرِجت من أهل

وادي النعلة إنما ينهوى بلاد بني سعد من بكرى هوار . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قصيدته للحاجة قوله :

أيها المكيح الثريا ^(١) سبيلا • عَمَرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هي شامية إذا ما استقلت • وسهيل إذا استقلَّ يَمَآي

ومن استنطاقه الرع قوله :

سائلا الرع بالبلى ^(٢) وقولا • هَجَّتْ شَوْقًا لَى الْعِنَاءِ طَوِيلًا
أين حتى حلوك إذا أنت عفو • فُ بِهِمْ أَهْلُ أَرَاكَ جَمِيلًا
قال ساروا فامضوا واستقلوا ^(٣) • وَبَرَّعْنِي وَلَوْ وَجَدْتُ سَبِيلًا
سَمِّئُوا وَمَا سَمِّئًا جَوَارًا • وَاحْشُوا دَمَانَهُ ^(٤) وَسُهُولًا

قال إسحاق : أُنْشِدَ حُرَيْرُهُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا الَّذِي كُنَّا نَدُورُ عَلَيْهِ فَأَخْطَانَاهُ .

ومن إسطاقه القلب قوله :

قال لي فيها عتيق ^(١) مقالا • بَحَرْتُ مِمَّا يَقُولُ الدَّمُوعُ
قال لي ودّع ^(٢) سُلَيْمَى وَدَّعَهَا • فَأَجَابَ الْقَلْبُ : لَا أَسْتَطِيعُ

ومن حسن عزائه قوله :

أالحق إن دار الرباب تباعدت • أَوْ أَتَيْتُ حُلًّا أَنْ قَلَبَكَ طَائِرُ
أفنى قد أفاق العاشقون وفارقوا ^(١) ال • هَوَى وَأَسْتَمَرَّتْ بِالرَّسَالِ الْمَرَاثِرُ
زَجَّ الْمَسِّ وَاسْتَنَقَى الْحَيَاءُ فَإِنَّمَا ^(٢) • تُبَاعِدُ أَوْ تُدْنِي الرِّبَابَ الْمَقَادِرُ
أَيْتُ حُبَّهَا وَأَجْعَلَ قَدِيمَ وَصَالِهَا • وَعِشْرَتَهَا كَنْشِلٍ مَن لَا تُعَاشِرُ

- (١) هي الثريا أمة عبد الله بن الحارث بن أمية الأحمري عدشمس بن عبد ساب الأموية . تزوجها سبيل
ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري رضى الله عنه وفضلها إلى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلى — بصم
وضوح وباء ، مشددة — تل قصير أسفل حادة بينا وبين ذات عرق (بافوت) . (٣) استقلوا . واصلوا
السبوح وحذروا في الأرجال . (٤) يقال : دمت الأرض دمانة . سبيلت ولات . (٥) ائت :
اقتطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عراهمهم وهو يريد أن يسلو سلمهم .
(٧) روح النفس ، أى أروحها وكفها عن هواها .

وَقَبْهَا كَشَىءٍ لَمْ يَكُنْ أَوْ كَأَزْجٍ * بِهِ الدَّارُ أَوْ مِنْ غَيْبَتِهِ الْمَقَابِرُ
وَكَالْنَّاسِ عُلِقَتْ الرِّمَاتُ فَلَا تَكُنْ * أَحَادِيثَ مِنْ يَدُوْمٍ هُوَ حَاصِرٌ^(١)

وهذه الأبيات يروها بعض أهل الحجاز لكثير، ويروها الكوفيون للكبيت بن معروف الأسدي، وذكر مصها الزبير بن نكار عن أبي عبيدة لكثير في أخاره.

ومن حسن عزله في محاطبة النساء — قال مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيِّ: وقد أجمع أهل بلدنا ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أعزل ما سَمِعُوا — قوله:

تَقُولُ عَدَاةَ أَتَقِيَا الرِّمَاتُ أَيْذَا أَقَلْتُ أَسْوََلَ السَّيَاكِ
وَكَفْتُ سَوَاقِي مِنْ عَثَرِهِ * كَمَا أَرْقَصُ بَطْنُ صَعِيفِ السَّلَاكِ
فَقُلْتُ لِمَا مَنْ يُطْعُ فِي الصَّدِيْقِ أَعْدَاءَهُ يَحْتَبِئُهُ كَدَاكِ
أَصْرُكِ أَتَى عَصَبْتُ الْمَلَا * مَ فَيْكِ وَأَنْتِ هَوَا مَا هَوَاكِ
وَأَنْتِ لَا أَرَى لَكُنَّ فِي الْحَيَاةِ * تَقْرُبُهَا الْعَيْنُ حَتَّى أَرَاكِ
مَكَانَ مِنَ الدُّنْيَا لِي عَدَمُ * مُكَارَمَتِي وَأَتَسَاعَى رِصَاكِ
فَلَيْتَ الَّذِي لَا مَ فِي حُبِّكَ * وَفِي أَنْ تُرَاوِي بَقْرِيَّ وَقَاكِ^(٢)
هَمُومَ الْحَيَاةِ وَأَسْقَامَهَا . وَإِنْ كَانَ حَتْفٌ جَهِيْزٌ فَذَاكِ^(٣)

ومن عفة مقالهِ قوله:

طَالَ لَيْلِي وَأَعْتَادَنِي الْيَوْمَ سَقَمٌ - وَأَصَابَتْ مَقَاتِلَ الْقَلْبِ نَعَمٌ
حُرَّةُ الْوَحْدَةِ وَالشَّمَائِلِ وَالْجَوُ * هِرَ تَكْلِيمُهَا لِمَنْ نَالَ عُمُ
وَحْدِيَتْ بِمَنْلِهِ تُنْزَلُ الْعَصْدُ^(١) * سَمَ رَحِيمٌ يَتُوبُ ذَلِكَ حِلْمٌ
هَكَذَا وَصَفَ مَا بَدَأَ لِي مِنْهَا * لَيْسَ لِي بِالَّذِي تَقِيْبُ عِلْمٌ
إِنْ تَحُوْدِي أَوْ تَخْلِي مَحْمِدُ * لَسْتُ يَا نَعَمُ فِيمَا مِنْ يَدَمُ

(١) أي من يقم في الصدر والمصر.

(٢) المراد به قرن المارل، وكثيرا ما يذكره في شعره.

(٣) حمير - مرجح - (٤) العصم: جمع أصم وهو من الطلاء والوعول ما في دواعيه ياص.

وهي تتمم حالها من الحال.

ومن قلة آتتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أمسيك الصبح وأقل عياني
وأحبتني وأعانني أن سقمي * ونحير لك طول أجناتي
إن تقل نصحا من طهر عشي * دائم الممر بيدي النعاب
ليس في عي بما قلت إني * عالم ألقه رجع الحواب
إما قرره عني هواها * مدح اللوم وكفي ليابي
لا تلقي في الزايب وأنت * عدت للنفس برد الشراب
هي والله الذي هو ربّي * صادقا أحلف غير الكتاب
أكرم الأحياء طرا عينا * عدو قرب مهم وأجنب
حاطقتني ساعة وهي تبكي * ثم عزت حلفت في الخطاب
وكفي في يذرها لخصوم * لسواها عدو حد تباني

ومن إشارات المحمة قوله :

خليلى بعض اللوم لا ترحلا به * رفيقا حتى تقولاً على علم
خليلى من ينف آخر كالدي * كلفت به يذمل فؤادا على سقيم
خليلى ما كانت تُصاب مقاتلي * ولا عرري حتى وقعت على عيم
خليلى حتى لف خليلى بجادج * موقى إذا برى صبور إذا برى
خليلى لو يرق خليلى من الهوى * رقيت بما يدي النوار من العقيم
خليلى إن باعدت لانت وإن آل * تباعد فلم أبل بحرب ولا سلم

(١) العمر (تكرس العين) : الحقد والدل . والعمر (فتح العين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحمله البيت

(٢) عدت ساءت . (٣) أى علقى صدقتى في الخطاب قال تعالى : (وعرني في الخطاب)

(٤) يريد حتى عانا لكل حصم سواها الى حد هلاكى . (٥) يقال : رجل فلان فلانا عما يكر

والمراد أنه يتفلسف ماسماعه لهما . (٦) يذمل : يعلو . قال في اللسان : ويقال : أذمل القوم

أى أطولهم عل ما مهم . (٧) يكنى هذا عن الزورج في شركها . (٨) الواد : الامة من الطاء

(٩) لم أبل : لم أصب ، أو لم أحسن الى .

ومن ترجيعه الشك في موضع اليقين قوله :

طُرتُ إليها بِمُحْصَبٍ مِ يَمِي * ولى طُرتُ لولا التَحْرِجُ عَايِمُ^(١)
 مِلتُ . أَشْمُسُ أَمْ مَصَابِيحُ بَعِي * بَدَتْ لَكَ حَلَقُ السَّجَفِ أَمْ أَنْبَ حَالِمُ^(٢)
 بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إِنْ لَوْ فِل * أَسُوها وَإِذَا عَجْدُ ثَمِينٍ وَهَاتِمُ^(٣)
 وَدَّ عَلَيْهَا السُّحَفُ يَوْمَ لَقِيْتَهَا * عَلَى عَجَلٍ تَنَاعَهَا وَالْحَوَادِمُ^(٤)
 فَلَمْ أَسْطَعْمَهَا عِزَّ أَرْبٍ قَدْ بَدَأَ لَهَا * عَشِيَّةَ رَاحَتٍ وَجْهَهَا وَالْمَعَاصِمُ^(٥)
 مَعَاصِمُ لَمْ تَضْرِبْ عَلَى الْهَيْمِ بِالْصُّحَى * عَصَاهَا وَوَحْهٌ لَمْ تَلْعَهُ السَّائِمُ^(٦)
 نُصَارُ تَرَى فِيهِ أَسَارِيْعَ مَائِهِ * صَبِيحُ تَفَادِيهِ الْأَكْفُفِ السَّوَاعِمُ^(٧)
 إِذَا مَا دَعَتْ أَرْزَاقَهَا فَأَكْتَفَتْهَا * تَمَازِيْلُ أَوْ مَالَتْ هَنْتَ الْمَآكِمُ^(٨)
 طَلَبَ الصَّبَا خِى إِذَا مَا أَصْبَنَتْ . رَعَنَ وَهْنُ الْمَسَلَاتِ الطَّوَالِمُ^(٩)

ومن مُلَاوَه أَعْتَادَرَه قوله :

عَاوَدَ الْقَلْبَ مَعْصُ مَا قَدْ شَخَّاه * مِنْ حَبِيبِ أَمْسَى هَوَا مَا هَوَاهُ^(١)
 يَا لَقَوْمِي فَكَيْفَ أَصْرُ عَمَّنْ * لَا تَرَى الْفَسْ طَبَعَ عَيْشِ سَوَاهُ^(٢)
 أَرْسَلْتُ إِذَا رَأَتْ رِمَادِي أَلَا * يَقْتُلُنِي عَمْرُ شَأْنِ أُنَاهُ^(٣)
 دُونَ أَنْ يَسْمَعَ الْمُقَالَةَ مَنَّا * وَلِيُطْعِمَنِي فَإِنْ عَسَى رِصَاهُ^(٤)
 لَا يُطْعِمُ بِنِي قَدْتُكَ هَسِي عَدُوًّا * لِحَدِيثِ عَلَى هَوَاهُ أَفْهَرَاهُ^(٥)
 لَا يُطْعِمُ بِنِي مَنْ لَوْ رَأَى وَإِيَّا * لَكَ أَسِيرِي صُرُورِي مَا عَاهُ^(٦)
 مَا صِرَارِي هَسِي يَهْجُرِي مَنْ لَيْد * مَسْ مُسِيئًا وَلَا بَعِيدًا ثَرَاهُ^(٧)
 وَأَحْتَابِي يَتَّحِيِبُ وَمَا خَلَّدُ * لَدُنْ نَاشِئِي إِلَى مَنْ أَنْ أَرَاهُ^(٨)

(١) عادِم : حاذق . (٢) السَّجَف : السَّر . (٣) كناية عن طول النقص ، وبه مصر في المثل
 السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) الهم جمع همة ، وهي الصبية من أولاد الصاه والمهر والمهر
 (٥) لم تلعه . لم تتهره . (٦) أسارح الماء . طرائقه . والمراد أنه يترقق منه ماء الشاة
 (٧) المآكِم . جمع مائة وهي الصحيرة . (٨) المحرش الحري ، من التحريش وهو الاعترا . والاعداد .
 (٩) التري . الحير .

ومن نَهَجِه الْعِلَّالَ قَوْلُهُ :

وآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي * إِذَا جِئْتُكُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ
فُرْحَنَا سِرَاعًا وَرَاحَ الْهَوَى * دَلِيلًا إِلَيْهَا بِنَا يَقْصِدُ
فَلَمَّا دَسُّوهُ بِالْحَرَسِ^(١) النَّاسَا * ح وَالصَّوْتِ، وَالْحَيُّ لَمْ يَرْقُدُوا
عِشًا لَهَا غَايَا نَاشِدًا * وَوِ الْحَيَّ نَغِيَّةً مِنْ يَنْشُدُ

ومن قَتَعَه الْفَزْلَ قَوْلُهُ .

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشَقِّقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى * فَكُنْ حَمْرًا مِنْ يَاسِ الصَّخْرِ حَامِلَنَا
وَمِنْ عَطَلِيهِ الْمَسَاءَةَ عَلَى الْعُدَّالِ قَوْلُهُ :

لَا تَلْبُئِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي * إِنْ بِي بِاعْتِيقُ مَا قَدْ كَمَّابِي
لَا تَلْبُئِي وَأَنْتَ زَيْنَتُنَا لِي * أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِسْلَامِ

ومن حُسِّنَ تَهْجُومَهُ قَوْلُهُ :

هَجَرْتَ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ عَيْرٍ مَا أَحْتَرَمَ * وَقَطَعْتَ مِنْ ذِي وَدَّكَ الْحَبْلَ فَاصْرَمَ
أَطَعْتَ الْوُشَاةَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطْلَعُ * مَقَالَةً وَأَيْشَ يَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمَ
أَتَانِي رَسُولٌ كَتَبْتُ أَحِبُّهُ * شَمِيقُ عَلِيٍّ مَاحُ كَالَّذِي زَعَمَ
فَلَمَّا تَنَاشَأَ الْحَدِيثَ وَصَرَحَتْ * سَرَّارَتُهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمَ^(٢)
تَنَبَّأَ لِي أَنَّ الْخَرَسَ^(٣) كَادَتْ * فَصَدَى لَكَ الْعُنْجَى عَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمِ
مِثْلَ أَنْ لَمْ تُفَسِّمْ مَعْدَ الَّذِي مَقَى * وَمَعْدَ الَّذِي آلَتْ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمِ
طَلَمْتَ وَلَمْ تُعْنَبْ وَكَانَ رَسُولُهَا * إِلَيْكَ سَرِيًّا بِالرَّصَالِ لَكَ إِذْ ظَلَمَ

(١) الحرس الصوت . (٢) مث الحديث . إيشازه . (٣) الخرس : العمى ، يقال :

خرس من القوم . أفسد بهم .

ومن تحفيله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلالَ والمترعاً * يَطْرُنْ حُلَيَّاتِ دَوَارِسَ لَقَعَا
إلى السَّرحِ من وادي المغبسِ بَذَلَتْ * معالِها وَمَلَا وَصْنَاءَ زَعْرَا^(١)
فَيَسْخُلُ أَوْ يُخَيِّرَنَّ بالعلمِ مَدَمَا * نَكَانَ فَوَادَا كَانَ قِنْدَمَا مَحْمَا^(٢)

ومن اختصاره الخبر قوله :

أَمِ آلِ نَعِيمٍ أَنْتَ عَايِدٌ مُسَكَّرٌ * عَدَاةَ عِدَامٍ رَائِحٌ مُهَجَّرٌ
بِحَاجَةٍ نَعِيمٍ لَمْ تَقُلْ فِي جَوَابِهَا * فَتُبْلِعَ عَذْرًا وَالْمَقَالَةَ تُعَذِّرُ
أَشَارَتْ بِمَنْدَرَاهَا وَقَالَتْ لَتَرِيهَا * أَهْدَا الْمُغَيِّرُ الَّذِي كَانَ يَذْكُرُ
لَنْ كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حَالَ مَدَنَا * عَنِ الْعَهْدِ وَالْإِنْسَانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ

قال الرُّبَيْدِيُّ إِسْحَاقُ الْمُؤَصِّلُ - قَالَ : قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ : مَا مَعْنَى قَوْلِ أَمٍّ أَيْ رُبَيْعَةٍ :
بِحَاجَةٍ هِيَ لَمْ تَقُلْ فِي جَوَابِهَا^(٣) * فَتُبْلِعَ عَذْرًا وَالْمَقَالَةَ تُعَذِّرُ
فَقَالَ : قَامَ كَمَا جَلَسَ .

ومن صيدقه الصماء قوله :

كُلُّ وَصِيلٍ أَمْسَى لَدَيْكَ لِأَنْفَى * غَيْرِهَا وَصَلُهَا إِلَيْهَا أَدَا
كُلُّ أَنْفَى وَإِنْ دَتَّ لِوَصَالٍ * أَوْ نَأَتْ قَهْوَى لِلرَّأَبِ الْعِدَا

- (١) حيات (بسم الحاء المهملة وضع اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره الكزى وياقوت ولم يبياه ، ولعله موضع قرب مكة قرية ذكره مع الممسس الوارد في البيت بعده . (٢) السرح موضع . (٣) الممسس (تشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وصله الكزى في صححه بكسر الميم وتشديدها) . موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أوردطال وقره برسم لأنه كان دليل أرفة صاحب الميل . (٤) الكاء : الريح التي تكب من مهاب الرياح . (٥) يقال : دبح وصرع ، أى شديدة ، وكذلك وصرع وصرع . (٦) يقال : نكا الحرج : قشره قبل أن يفتح . (٧) المدي والمدراة : حديدة يحك بها الرأس . (٨) أى هي في غاية من السر لا يحاط عليها إذا سئل عنها ، والإعذار : هي العذر .

وقوله :

أَحِبُّ حَبِيبِكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ • صَبِيًّا لَعْنَى وَلَا صَاحِبًا
وَأَبْذُلُ مَالِي لِمَرْضَايَكُم • وَأُحِبُّ^(١) مَنْ حَاءَكُمْ عَاتَا
وَأُرْعَى فِي وَدْعٍ لَمْ أَكُنْ • إِلَى وَدْعِهِ قَلْعَكُمْ رَاعَا
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي حَافٍ • مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَلْتُ حَانَا
لَجَمْتُ طِبْنَهَا^(٢) إَتَى • أَرَى قُرْبَهَا الْعَهَبَ الْعَاجَا

ومما قَدَحَ فِيهِ فَأَوْرَى قَوْلُهُ .

طَالَ لَيْلِي وَتَمَانِي^(٣) الْعَارِبُ • وَأَعْتَرَانِي طَوْلٌ مِمَّ وَوَصَّتْ^(٤)
أَرْسَلْتُ أَسْمَاءُ فِي مَقْتَةٍ • عَنَّتْهَا وَهِيَ أَحْلَى مَنْ سَتَبَتْ
أَنْ أَتَى مَهَا رَسُولٌ مُوَهَّجًا • وَحَدَّ الْحَى نَيْسَامَا فَأَقْلَتْ
صَرَبَ السَّابِ لَمْ يَسْعُرْ بِهِ • أَحَدٌ يَنْتَحِ مَا إِدَّ صَرَفَتْ
قَالَ : أَبْقَاظُ ، وَلَكِنْ حَاحَةٌ • عَرَصَتْ تُكْنِمُ مَا فَاحِجَتْ
وَلَعَمْرُكَ رَدِّي ، فَاحْتَدَتْ • بَيْنَ حَلَقَةٍ عَسَدِ الْفَضْطِ
يَسْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْمَعَا • سَقَفٌ يَلِي رَحْمًا مَدْرَجَتْ
قُلْتُ جَلًّا فَأَقْبَلِي مَعْدِيرِي • مَا كَدَا يَجْرِي يُحِبُّ مَنْ أَحْبَتْ
إِنْ كُنْتُ لَكَ رَهْنًا بِالرَّصَا • فَأَقْبَلِي يَا هَدَى ، قَالَتْ قَدُوحَتْ

قالوا ومن شعره الذي آخِذَ فِيهِ فَأَرَأَى قَوْلُهُ :

فَأَتَقْبِيَا مَرْحَحَتْ حِينَ سَلَدَ • سَتٌ وَكَفَّتْ دَمْعًا مِنَ الْعَيْنِ مَارَا^(٥)
ثُمَّ قَالَتْ عَدَّ الْعِتَابِ رَأَيْبَا • مَسَكَ عَنَّا تَحْلُدًا وَأَزْوَارَا^(٦)

(١) يقال • أحبه إذا أعطاه العنى وأرضاه • (٢) طينها • ناحيتها وقصدتها • (٣) تمناني •
أوتقنى في الماء • (٤) الطرب • حجة تترى الإنسان عند شدة الفرح أو الحزن والهم • (٥) الخوص •
بحر من صنف الليل • (٦) حار • حرى ومال • (٧) الأزوار : الإعراس •

قُلْتُ كَلَّا لِأَنَّهُ أَرُغِمَكَ بِرُحْفٍ * مَا أُمُورًا كَمَا هِيَ أَعْمَارًا^(١)
 بَعْلُهَا الصَّدُودَ لَمَّا حَثِينَا * قَالَةَ السَّائِسُ لِلْهَوَى أَسْتَارَا
 لَيْسَ كَالْمُهْدِ إِذْ عَمِيَّتْ وَلَكِنْ * أَوْقَدَ السَّائِسُ بِالنِّمِصِ مَاوَا
 فَلَبَاكَ الْإِعْرَاضُ عَلَيْكَ وَمَا آ * تَرَقَّلِي عَلَيْكَ أُخْرَى أَخْيَارَا
 مَا أُنَالِي إِذَا الْوَى قَرَبَتْكُمْ * فِدْوَتُمْ مَن حَلَّ أَوْ مَن سَارَا
 فَالْيَالِي إِذَا تَابَتْ طَوَالَ * وَأَرَاهَا إِذَا قُرْبَتْ قِصَارَا
 وَمَنْ تَشَكَّيْهِ الدِّي أَتَجَبَى بِهِ قَوْلُهُ .

لَعَمْرُكَ مَا حَاوَرْتُ عُمْدَانِ طَائِفًا * وَقَصَرَ شَعُوبُ^(٥) أَنْ أَكُونَ بِهِ صَبَا
 وَلَكِنْ حَتَّى أَصْرَعْتَنِي ثَلَاثَةً * مَحْصَرَمُهُ ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ بِهَا عِيَا^(٨)
 وَحَتَّى لَوْ أَنَّ الْخُلْدَ يَغْرِضُ إِنْ مَشَتْ * إِلَى الْبَابِ رَحَلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا إِرْبَا^(٩)
 فَبَاكٍ لَوْ أَهْصَرْتُ يَوْمَ سَوْفَةٍ^(١٠) * مُنَاخِي وَحَبِيئِي الْعَيْسُ دَائِمِيهِ حَدَا^(١١)
 وَمَضَرَخَ إِخْوَانٍ كَأَنَّ أَبْنِيَهُمْ * أَيْنُ مَكَاكِي فَارَقْتُ لَهَا خِصْمَا^(١٢)
 إِذَا لَقِيتُ شَرَّ الْخُلْدِ مَيْكَ صَبَاةً * وَلَا سَفَرَعْتُ عِيَاكَ مِنْ عِيَةِ سَكَا^(١٣)

وَمَنْ إِقْدَامِيهِ عِنْ حِزْبِهِ وَلَمْ يَتَذَكَّرْ بِعَوْرِهِ قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَرَوُ * تَأْتِي الْمَصَادِرُ وَالْمَوَارِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ دَاكِ حَتَّى عَرَوُ * تَأْتِي أَنْوَقِي وَمَا أَحْمَدُ

(١) لاه بمعنى فقه . (٢) العدر (هم الذين وصفوها مع سكون الميم ، وحتي ، وفتح فكسر)

المرء الحاحل الذي لم يحزب الأمور . (٣) أي ليس الأمر كما تعهد من قبل .

(٤) عمدان قصر يائس ياء « ينحسر يصب » . (٥) قصر شعوب قصر عال مرتفع يائس

(٦) أضرعتني . أصعبتني وأدلتني . (٧) محزمة كسطة . نامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .

(٨) الف من الحى ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أي ما حركت له مصرا . (١٠) سويقة .

موضع . (١١) حدا جمع حداة ، وأصل الحدا ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أحياها السير هي دامية

منقومة الطهور هزالا . (١٢) المكاكى : جمع مكاء ، وهو طير يشبه الفة إلا أن في جناحه لقا ، وهو حسن

الصوت في تمريده .

ومن أسره اليوم قوله .

نام حبي ويات بومي أسيرا * أرقب الجَمَ موها أن يغورا

ومن عمه الطير قوله :

فَرَحًا وَقَلًا لِلْفَلَامِ أَقْبَضَ حَاحَةً .. لَأَنْتُمْ أَدْرِكُنَا وَلَا نَنْتَفِرُ

سِرَافًا نَعْمُ الطَّيْرَ إِنْ سَحَتْ لَأَ . وَإِنْ تَقَفَا الرُّجَانُ لَا تَنْتَفِرُ^(٢)

نتغير من قولهم : غير فلان ، أى لَيْث .

ومن إعداده السير قوله :

قُلْتُ سِيرًا وَلَا تُقِيَا سُرَى * وَحَفِيرٍ وَأَحِبَّ حَفِيرًا^(٥)

وإذا ما مررتما بمغاب * فاقبلا به الثواء ويسيرا^(٦)

إنما قصيرا إذا حصر السب : رُمِيَا أَب تَسْتَحِدُّ بَعِيرًا^(٧)

ومن تحبيرة ماء الشباب قوله :

أَبْرَرُوهَا مِثْلَ الْمَاهِيَةِ تَهَادَى * مِنْ تَحْمِيسِ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ

ثم قالوا تحبها قلتُ تهرا * عدد القطر والحصى والأتراب

وهي مكنونة تحبها منها * فى أديم الخدين ماء الشباب

ومن تقويله وتنبيله قوله :

قَالَتْ عَلَى رِقْبَةٍ يَوْمًا لِحَارَتِهَا * مَا تَأْمُرِينَ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ تَبَيَّلَا^(٩)

وهل لي اليوم من أختٍ مواجيه * مكن أشكو إليها بعض ما فعلا

(١) لعله يريد . محبها بالنسبة ، أو مبرها وعلها ، من قولهم . حم القمر الحوم : مبرها وكاد يستمرصوها .

(٢) النصر : السؤال عن الخبر . (٣) أعد السير وأعد فيه . أسرع . (٤) حصرى : طرد الشأم .

(٥) حصر : مبر بالآردن بلاد الشأم . (٦) معان : مدينة فى طرف ناحية الشأم تلقاء الحار من مواسى

اليلقا . (٧) فصرنا ، أى قصارنا وما يتنا . (٨) حصر السير بعيرا . أحدهه وأحياه .

(٩) المتبول : من أسقمه الهوى وعلها الحب على أمره .

فراجعتها حصاناً غيرَ ماحِشِيَةٍ • رَجَّعَ قَوْلَ وَلَبَّ لَمْ يَكُنْ خَطِئاً^(٢)
 لَا تَذْكُرِي حَبَّةَ حَبِّهِ حَتَّى أُرَاجِعَهُ • إِنْ سَأَلْتَهُ بِكَ إِنْ لَمْ أُمْتُ عَمِلًا
 فَاقْبَلِي حَيَاكَ فِي سِتْرٍ وَفِي كَرَمٍ • طَسِيتُ أَزَلَ أَيْ عُلَّقْتُ رَحْلاً
 وَأَمَّا مَا قَاسَ فِيهِ الْهَوَى فَقَوْلُهُ :

وَقَرَّبْتَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِسَمِّ
 وَمِنْ عَصِيَانِهِ وَإِحْلَانِهِ قَوْلُهُ :

وَأَنْصُ الْمَطِيَّ يَنْبَغُ بِالرُّكْدِ • حَبِّ سِرَاعًا بَوَاحِمِ الْأَطْعَانِ^(٤)
 مَقْصِدُ الْغَرِيرِ مِنْ قَرَالُوحٍ • شَوْ وَلَهُوَ لَدَّةُ الْفِتْيَانِ^(٥)
 فِي زَمَانٍ لَوْ كَسَيْتَ فِيهِ صَحِيحِي • غَيْرَ شَكٍّ عَرَفَتْ لِي عَصِيَانِي
 وَتَقَلَّيْتُ فِي الْعِرَاشِ وَلَا تَذْ • رَيْنَ إِلَّا الطُّوْنُ أَيْنَ مَكَانِي
 وَمِنْ مَحَافَلَتِهِ بِسَمْعِهِ وَطَرَفِهِ قَوْلُهُ :

تَمَيُّي وَطَرَفِي حَلِيفَايَا عَلَى جَسَدِي • فَكَيْفَ أَصْبِرُ مِنْ سَمِيٍّ وَعَنْ تَصَرِّي
 لَوْ طَاوَعَانِي عَلَى إِلَّا أَكَلْتَهَا • إِذَا لَقِصْتُ مِنْ أَوْطَارِهَا وَطَرِي
 وَمِنْ إِرَامِهِ حَتَّى الرِّسْلِ قَوْلُهُ :

فَبَعَثْتُ كَاتِمَةَ الْحَدِيدِ • حَيْثُ رَقِيقَةٌ بِمَحْوَاهَا
 وَحَشِيَّةَ إِنْسِيَّةٍ • نَحْرَاجَةً مِنْ دَائِيَا
 فَرَقَّتْ مَسْهَلَتِ الْمَعَا • رَصٌّ مِنْ سَبِيلِ قَقَاهَا
 وَمِنْ تَعْذِيرِهِ قَوْلُهُ :

لَقَدْ أَرْسَلْتُ حَارِيقِي • وَقُلْتُ لَهَا حُذِي حَذْرَكَ
 وَقُولِي فِي مُلَا طَلْقِيَةِ • لَرَيْبَ تَوَلَّى عَمْرَكَ

(١) حصان • هيمة • (٢) الخطل : العاصد المضطرب • (٣) اتقى حياك : الزميه •

(٤) نص المطبوع : استعراج أقصى ما عدها من السير • (٥) الغرير العادل •

إِنْ دَاوَيْتَ ذَا سَقَمٍ * فَاحْرِىْ أَفْهٌ مِنْ كَمَرِكَ

مَهَزَّتْ رَأْسَهَا عَجَبًا * وَقَالَتْ مَنْ بَدَأَ أَمْرَكَ

أَهَذَا يَحْمِرُكَ الشُّوَا * نَ، قَدْ حَرَّيْتُ حَرَّكَ

وَقُلْتُ إِذَا قَصَى وَطَرًا * وَأَذْرَكَ حَامَةً هَجْرَكَ

ومن إعلانه الحب وإسرايه قوله :

شَكُوْتُ إِلَيْهَا الْحُبُّ أَعْلَى سَعَةِ * وَأَخْمَيْتُ مَعَهُ فِي الْعَوَادِ عَيْلًا

وما أظن فيه وأظهر قوله :

حُكِّمَ يَا آلَ لَيْلَى قَانِي * طَهَرَ الْحُبُّ يَجْسَى وَبَقَى

لَيْسَ حُبُّ هَوًى مَا أَحْبَبَكُمْ * عَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أُحَيِّ

وما ألح فيه وأسف قوله :

لَيْبَ حَظِّي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا * وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْقَلِيلُ الْمُهَيَّا

أَوْ حَدِيثٌ عَلَى خَلَاةٍ يُسَلَّى * مَا يُجِشُّ الْعَوَادُ مِنْهَا وَمَيَّا

كَبُرَتْ رَبِّ نِعْمَةٌ مِنْكَ يَوْمًا * أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ الْمَيِّاتِ وَمَيَّا

ومن إنكاحه اليوم قوله :

حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ طَلَامُهُ * وَطَرْتُ عَفْلَهُ كَأَنَّمَا أَنْ يَقْلَا

وَاسْتَمَجَّ الدُّوْمُ الدِّينَ تَحَامُهُمْ * وَسَقَى الْكَرَى وَوَابَهُمْ فَاسْتَقْلَا^(١)

نَحَرْتُ تَأَطَّرُ فِي الثِّيَابِ كَأَنَّهَا * أَيْمٌ يَسِيْبُ عَلَى كَيْتِيْبِ أَهْيَلَا^(٢)

ومن جبه الحديث قوله :

وَجَوَارِ مُسَاعِمَاتٍ عَلَى اللَّهِ * وَوُسْرَاتٍ مَطْلِي الْأَصْفَا

صَيْدٍ لِلرَّجَالِ يَرْشُقْنَ بِالطَّرِ * فِي حِسَانٍ كَحُلْدٍ الْفِرْلَانِ^(٣)

(١) يقال : أفتقه اليوم فهو مستقل صيغة المفعول . (٢) تأطراؤه تأطرها حدث إحدى تامة ومعناه

نشى . والأيم : الأهى . ويسب : يمشى . والكيتب الأهل . الرمل المبال . (٣) الحلد : جمع حادل وهي الطيبة تلحف عن صواحيبها أو أولادها .

قد دَعَايَ وقد دَعَاهُنَّ لِلَّهِ * وَتَجَرُّنَّ مُهْمَةً الْأَشْحَانِ
فَاجْتَنَيْنَا مِنَ الْحَدِيثِ ثِمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرُكَ حَايَ
وَمِنْ صَرِيهِ الْحَدِيثِ طَهَرَهُ لَطْفُهُ قَوْلُهُ :

وِي حَلَاةٍ مِنَ الْأَيْبِ وَأَمْسٍ * قَبْنًا هَلِيلًا وَأَشَقَّيْنَا
وَصَرَبًا الْحَدِيثِ طَهَرًا بَطُلَ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَهَيْنَا
وَكَشَا بِدَاكَ عَشْرَ لِيَالٍ * فَهَصِيهَا دِيُوسًا وَأَقْتَصَيْنَا

وَمِنْ إِذْلَالِهِ صَعَبَ الْحَدِيثِ قَوْلُهُ :

هَلَا أَقْصَا فِي الْهَوَى نَسِيئُهُ * وَعَادَ لَنَا صَعَبُ الْحَدِيثِ ذُلُولًا
شَكُوبُ إِلَيْهَا الْحُبُّ أَظْهَرُ بَعْضِهِ * وَأَخْفِيَتْ مِنْهُ فِي الْفُؤَادِ غُلِيلًا
وَمِنْ قَبَاصِهِ الرَّحَاءُ مِنَ الْوَفَاءِ قَوْلُهُ :

فَعِدَى نَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُبَيِّلْ * إِنَّهُ يَفْغِ الْحُبَّ الرَّحَاءُ

قَالَ الرَّبِيرُ : هَذَا أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ كَثِيرٍ :

وَلَسْتُ بِرَاصٍ مِنْ حَلِيلٍ سَائِلٍ * قَلِيلٍ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ

وَمِنْ إِعْلَانِهِ قَاتَلَهُ قَوْلُهُ .

بَعَثْتُ جَارِيِي وَقُلْتُ لَهَا أَدْعِي * فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتَ وَسَائِي
قُولِي يَقُولُ تَحْصِرِي فِي عَاشِي * كَلِّفْ بِكُمْ حَقَّ الْمَنَاتِ مُنِي
وَيَقُولُ إِلَيْكَ قَدْ عَلِمْتَ بِأَكْمُ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشَرُ أَوْجَهَ ذِي دِمِ
فَكُنِّي رَيْهِنَتَهُ وَإِنْ لَمْ تَقْعَلْ * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ أَبِي عَمَّكَ وَأَسْلَيْ
تَضَاهَكَتْ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَا يَسْلَمُنَا بِمَا لَمْ تَسْلَمْ

علمي به والله يفرّ ذنبه • فيما بدا لي ذوهوى متقيم
طرف^(١) يازعه الى الأدنى الهوى • ويثّ خلة ذى الوصال^(٢) الأقدم

ومن تغيّبه اليوم قوله :

فلما فقدت الصوت منهم وأطعنت • مصابيح شئت باليساء وأنور
وعاب^(٣) لم أكسرت أرجو عيونه • وروح رجايب^(٤) ونوم سمر
وهضت عني اليوم أفلت شية ال • حجاب ورثني حشية القوم أنور^(٥)

ومن إعلانه رهن يتي وإهداره قتلاه قوله :

هكم من قتييل ما يئاه^(٦) به دم • ومن عليّ رها إذا لقه مني
ومن مالي عيبه من شيء غيره • اذا راح يحواجره اليص كالدمي^(٧)
وكان بعد هذا كله مصيحا شاعرا مقولا^(٨) :

ومن شعره المشهور قوله :

أمن آل نعم أنت عاد فبكر • صداق عيد أم رائح فهو جحر
لحاجة نفس لم تقل في جواها • تليح عذرا والمقالة تُعذر
أشارت بمذراها وقالت لأحتها • أهدا المعيرى الذى كان يدكر
وقالت نعم لا شك غير لونه • سرى الليل يطوى^(٩) نفسه والتهجر
رأت رجلا أنا إذا الشمس عارضت • فيضحي وأما بالعنى فيخصر

(١) الطرف من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) دوح من الراح وهو وقت العشي . والرياح :

جمع راح كالزاعة والراء والراء . وقوم الرجل توجا . مالة فى نام . (٣) الحباب : الحبة . وأورور

كاحس . ماثل من دوريرور إذا مال . (٤) يقال : أناه القاتل بالقتيل . فله ، والمرادها : فكم

من قتيل يطل دمه ولا يؤذله ثار . (٥) يقال : علق الرهن فى يد المرتب يلقى طقا . لم يقدر

الراهن على أحكامه فى الوقت المشروط . يريد : وكمن قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على أحكامها .

(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المقتسة من الملاح ومحوه . (٧) المقول : الحسن القول المصحح المين .

(٨) من السرى . إسرعه . وأصله حث الدابة واستعراح أقصى ما عدها من السير .

أحاسف جَوَابَ أَرْضٍ تَهَافُثُ • به قَلَوْتُ فَهَوَّ أَشْعَثُ أَغْبُرُ
 قَلِيلًا عَلَى ظَهْرِ الْمَطْبَةِ ظِلُّهُ • سَوَى مَا قَى عَهْ الرِّدَاءِ الْمُحِبِّ^(١)
 وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا طُلُّ عُرْفِيَةِ • وَرَبَّانٍ مُتَنَّفِ الْحَدَاتِي أَخْصُرُ
 وَوَالِي كَفَّاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَحْمُهَا • فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ
 وَلَيْلَةُ دِي دَوْرَانَ جَشْمَنِ السَّرَى^(٢) • وَقَدْ يَحْتَمُّ الْهَوَلُ الْحُبُّ الْمَعْرُورُ^(٣)
 وَمِنْ شَعْرِهِ قَوْلُهُ فِي فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَشْعَثِ الْكَلْبِيَّةِ :

تَنْطِطُ غَدَا دَارُ حَيْرَانَا • وَلَلدَّارُ سَدَّ عَدِ أَمَدُ^(٤)
 إِذَا سَلَكْتُ عَمْرَ ذِي كِنْدَةِ^(٥) • مَعَ الرُّكْبِ قَصْدُهَا الْفَرْقَدُ^(٦)
 وَحَثَّ الْحُدَاةُ بِهَا حَيْرَهَا • سِرَاعًا إِذَا مَا وَنَتْ تُطْرَدُ^(٧)
 هَالِكًا إِنَّمَا تَمْرُزِي الْعَوَادَ • وَإِنَّمَا عَلَى إِتْرِهَا تَحْكُمُ^(٨)
 وَلَيْسَتْ يَسْدُجُ إِذَا دَارُهَا • مَاتَ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ
 صَرِمْتُ وَوَاصَلْتُ حَتَّى عَلِمَ • تُتْ أَيْنِ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرِفَ • تُتْ مَا أَنْوَقَ وَمَا أَحْمَدُ
 فَلَبِ دَتُونَا بِجَسْرِ الْبَا^(٩) • جِ وَالضُّمُورِ وَالْحَى لَمْ يَرْقُدُوا
 نَائِبًا عَنِ الْحَى حَتَّى إِذَا • تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ^(١٠)
 وَامُوا مَسْتَنًا لَهَا مَاشِدًا • وَفِي الْحَى يَبْعِيَةُ مِنْ يَشْدُ

- (١) المحرر : المرير المحسوس . (٢) دودوران — هتق أَوَّلُهُ وَعَدَ الْوَاوِ رَاءَ مَهْمَلَةٍ وَآخِرِهِ
 بَوْنٌ — : مَوْصِعٌ بَيْنَ قَدِيدٍ وَالْحَمَّةِ (يَا قَوْتُ) . (٣) أَيْ كَلَفَتِي السِّيرَ لَيْلًا .
 (٤) تَنْطِطُ تَعْدُ . (٥) عَمْرُ ذِي كِنْدَةٍ : مَوْصِعٌ وَرَاءَ وَحَرَةٍ بِهِ وَبَيْنَ مَكَّةَ سَبِيلَةٍ يَوْمِيَّةٍ .
 (٦) كَذَا فِي دِيوَانِهِ ، وَفِي الْأَخْلَافِ « الصَّبْحِ » . (٧) الْفَرْقَدُ : بَحْأَنٌ فِي الْبِلَادِ مِنْ مَحُومِ الدَّبِّ الْأَصْعَرِ
 وَهُوَ فِي الشِّبَالِ ، وَيُقَالُ لَهَا : الْفَرْقَدُ بِالْإِمْرَادِ ، وَالْفَرْقَدَانِ الثَّقِيَّةُ . وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ أَنَّهَا تَسِيرُ جَمْعَهُ ، لِأَنَّ الْعِرَاقَ الَّتِي
 تَقْصِدُهُ فِي الشِّبَالِ الشَّرْقِيِّ مِنْ مَكَّةَ . (٨) الْحُدَاةُ : جَمْعُ حَادٍ وَأَصْلُهُ الْحَسُّ لِأَنَّهَا تَنْطِطُ فِي السِّبْرِ ، وَقَدْ بَرَّادَهُ
 الزَّاهِرُ وَالسَّاقِي . وَالْعَبْرُ : الْإِبِلُ ، وَلَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ . وَبَوْتُ : صَعِطَتْ وَتَوَطَّأَتْ . وَتَطْرَدُ : تَسَاقَى .
 (٩) الْجَبْرِسُ : الصَّوْتُ . (١٠) تَوَدَّعَ : سَكَتَ نَارُهُ وَأَطْفَأَتْ .

أَنْفًا تَهَادَى عَلَى رِقَبَةٍ ^(٢) * من الخوف أحشاؤها تُرْمَدُ
تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَحْدَا ^(٣) * وَوَحْدَى وَإِنْ أَطْهَرْتَ أَوْحَدُ
لَمَّا شَقَائِي تَمْلُقُكُمْ ^(٤) * وَقَدْ كَانَ لِي عَمَّ مَقْعَدُ
وَكَفْتُ سَوَائِقَ مِنْ عَثَرِهِ ^(٥) * عَلَى الْحَدِّ حَالُهَا الْإِمْعَدُ
وَإِنْ أَلَى تَبِعْتَنَا الْفَدَاهَ ^(٦) * مَعَ الْفَجْرِ قُلِي هَا مُقْصَدُ

وَشَبَّ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَيْبَةَ بَزِيْبَ بَيْتِ مُوسَى الْجَحْجَحِيَّةِ وَفَصِيدَتُهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا حَلِيلِي مِنْ مَلَامٍ دَعَايَ * وَأَلْيَا الصَّدَاةَ بِالْأَطْمَائِي
لَا تَلُومَا فِي آلِي زَيْنَبَ إِنَّهَا * قَلَّتْ وَهَرُتْ مَالِي زَيْبَتٌ عَلَيَّ
مَا أَرَى مَا يَقْبُ أَنْ أَذْكُرَ الْمَوَ * قَفَّ مِنْهَا الْخَلِيبُ ^(٧) إِلَّا شَخَائِي
لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عَمِيدِي حَفْطًا * عَبْرَ مَا قَلْتُ مَا زِمْنَا بِلِسَانِي
هِيَ أَهْلُ الصَّمَاءِ وَالْوُدَّ مَنَى * وَإِلَيْهَا الْمَوَى فَلَا تَعْدُلَايَ
حِينَ قَالَتْ لِأَحْتَبُهَا وَلَا أُخْرَى * مِنْ قَطْعَيْنِ مُؤَلَّدٍ ^(٨) : حَدَّثَانِي
كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عُمَرَ أَلْمَرَّ * يَسْلُ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يُلْقَانِي
فَاتَنَا : بَقِي رَسُولًا إِلَيْهِ * وَنُمِيتُ الْحَلِيبَ بِالْعِكْمَانِ
إِنْ قَلْبِي بَعْدَ الَّذِي يَلْتُ مَهَا * كَالْمَعْنَى ^(٩) عَنْ سَائِرِ النَّسَوَائِي

- (١) تَهَادَى : تَمَشَّى فِي تَهَامِلٍ وَكَوْنٍ . (٢) الرِّقَّةُ : الْحَبْطُ وَالْعِرْقُ . (٣) الْوَحْدُ : الشَّعْبُ وَالشُّوْقُ الشَّدِيدُ . (٤) الْمَرَادُ : قَدْ كَانَ لِي عَمٍّ عَنِ حَكَمٍ . (٥) الْإِمْعَدُ : حَمْلٌ لِلْكَمَلِ وَأَحْوَدُهُ مَأْصِهَانُ . (٦) الْقَصْدُ : رَمَاهُ بِسَهْمٍ فَقَطَعَهُ . (٧) الْخَلِيبُ : مَا أَوْتَعَ مِنْ عَجْرِ السَّيْلِ وَاتَّخَذَ مِنْ طَلْعِ الْحَبْلِ . قَالَ أَرْسِيْدَةُ : وَجِيفَ مَكَّةُ مَوْصَحٌ فِيهَا عَدَمِي ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ عَادَهُ مِنَ الطَّلْعِ وَأَرْتَمَاهُ عَنِ السَّيْلِ . (٨) الْقَطْعَيْنِ : الْحَدَمُ وَالْأَتْبَاعُ وَالْحَتَمُ ، وَالْمَوْلِدُ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَامَةُ . مِنْ وَدَّ بَيْنَ الْعَرَبِ وَشَاءَ مَعَ أَوْلَادِهِمْ . (٩) كَذَا فِي الْأَخَى . وَهُوَ دِيْرَاهِمٌ "كَالْمَعْنَى" أَيْ الْمَأْسُورُ الْمَحْبُوسُ عَنْ عَرَبِهِ .

وكان سبب ذكره لما أتى أبى عتيق ذكرها عنده يوما فأطراها ووصف من حفلها وأدبها وبما لها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك أبى عتيق ، فلامه فيه وقال له : أنتطق الشعر فى آسية عمى ؟ فقال عمر :

لا تملنى عتيق حسبي الذى بى * إن بى يا عتيق ما قد كتمانى
لا تملنى وأنت زبنتها بى * أنت مثل الشيطان للإنسان
إن بى داحلاً من الحت قد أُر * على عظامي مكوئه وبرأى
لو مبيدك يا عتيق نطرننا * ليلة السمع قوت العياب
إدبدا الكشح والوشاح من الد * وفصل فيه من المرجان^(١)
وقل قلبى النساء سواها * بعد ما كان مُغرماً بالنوانى
لم تدع للنساء عدى نصيباً * غير ما قلت ما زحاً لمسانى

وأشد أبى عتيق قول عمر :

من لستهم يكتم الساس ما به * لربن تجوى صدره والوساوس^(٢)
أقول لمن يتيغى السماء متى تيجى * بزنب تدرك بعض ما أنت لا مىس
فإلك إن لم تشف من سقى بها * فإنى من طئ الأطباء آيس
ولست بناس ليلة الدار مجلسا * لربن حتى يعلو الرأس رَامِس^(٣)
حلاء بدت قراؤه وتكشفت * دحشته وعب من هو حارس^(٤)
وما قلت منها تحوما غير أسا * كلالا من الثوب المسود لا يس^(٥)
تجيز قصى الاهوى غير مأم * وإن رعمت الكاشحين المماطس

(١) الكشح . ما بين الحبة — وهى رأس الورك الذى يشرف على الحاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شه فلادة يمسح من آدم عريض يرمع الحواش تشده المرأة بين طامتها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الحرم وهو حذف الماء من صول . (٣) الرامس : الدامن فى الرمس وهو القتر .

(٤) الموزد . الذى صبغ على لون اللوز .

قال : فقال أربُّ أبي عتيق : أينما يسحر ابن أبي ربيعة ؟ فأبى محرم يقي ! ثم أتى عمر فقال له : يا عمر ، ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني عن قولك :

« كَلَّانا من النَّوْبِ المورِدِ لا بُسْ »

ما معناه ؟ قال : والله لأخبرك : نرحمتُ أريد المسجدَ ونرحمتُ زينبُ تريد ، فالتقينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسعنا الشعب أخذتنا السماء ، فكريحتُ أن أرى بياها بللُ المطر ، فيقال لها : ألا استترتِ بسقائف المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلماناً فسترونا بكساء نركن على ، فذلك حين أقول :

« كَلَّانا من أُنُوبِ المَطَارِيفِ لا بُسْ »

فقال له : أَسْ أبي عتيق : يا عاهر ! هذا البيت يحتاج الى حاصة !

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يا مَنْ لقلبٍ مُتَمِّجٍ كَكَلِيفٍ * يَهْدِي بِجُودٍ مَرِيضَةٍ النَّظِيرِ^(١)
تَمْشِي الهَوْبَيْنَا إِذَا مَشَتْ مُصَلًّا * وَهِيَ كَيِّنِلِ السُّلُوجِ فِي الشَّجَرِ^(٢)
ما زال طَرْفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزْتَ * حَتَّى رَأَيْتُ النِّقْصَانَ فِي بَصَرِي
أَصْرَتْهَا لَيْلَةٌ وَنِسْوَتُهَا * يَمْشِينَ مِنَ الْمَقَامِ وَالْجَمْرِ
ما إِنْ طَلَعَتْ بِهَا وَلَا طَلَعَتْ * حَتَّى أَلْتَقَيْنَا لَيْلًا عَلَى قَدَرِ^(٣)
يَضُّا حِسَابًا تَرَامِدًا قُطُفًا * يَمْشِينَ هَوْنًا كَمَشْيَةِ الْبَقْرِ^(٤)
قَدْ فُزْنَ بِالْحُسَى وَالْجَمَالَ مَعًا * وَفُزْنَ رِصْلًا بِاللَّيْلِ وَالْخَفْرِ^(٥)

(١) الحدود . العنازة الحسة الحق الشاة الم تصر صفا ، والصف : المرأة بين الحدة والمسة .

(٢) الفعل صنتين . المختالة التي تحصل من دليها . ويرى : « قطعا » والمراد به تخارب الخطوط .

(٣) السلوج : العصى التي الأحصر . (٤) على قدر : على غير موطء . والوجه فيه أن التناهما كأنه مقدور الأول لا علم له ولا سعى إليه كاقيل :

حاء الحلافة أو كانت له قدرا * كذا أتى به موسى على قدر

(٥) جمع قطوف وهي العطية في السير . (٦) الرسل والكسر : الرق والتزودة . والحمر : شدة الانحناء .

بُيِّصَتْ يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ * كَنِيًّا يُشْرِقُهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَالَتْ لِيَرْبٍ لَهَا تُحْمِلُهَا * لَتُمِدَّكَ الطَّوَافُ فِي عُمَرِ
 قَوْمِي تَصَدَّى لَهُ لِيَعْرِفَا * ثُمَّ أَعْمِزِهِ يَا أُخْتَ فِي خَصْرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ عَمَزْتُهُ فَأَبَى * ثُمَّ أَسْبَطْتُ^(١) تَسَى عَلَى آثَرِي
 مِنْ يُسْقَ بِعَدِ الْمَامِ رِيْقَتَهَا * يُسْقَ بِمَسِكَ وَارِدِ خَيْرِ^(٢)
 وَقَوْلُهُ فِيهَا أَيْضًا :

أَلَيْمَ بَزِيْبٍ إِنْ الْبَيْتِ قَدْ أَفْدَا^(٣) * قَلَّ النَّوَاءُ لَيْنَ كَانَ الرَّجِيلُ قَدَا
 قَدْ حَقَّقَتْ لَيْلَةَ الصَّوْرَيْنِ جَاهِدَةً^(٤) * وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْخِلْفُ عَمِيدَا
 لِأَخْتِهَا وَلَا تَعْرِى مِنْ مَنَاصِيهَا^(٥) * لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَحَدَا
 لَوْ جُمِعَ السَّاسُ ثُمَّ آخِثِرَ صَفْوُهُمْ * شَخَصًا مِنَ السَّاسِ لَمْ أَعِدْ لَهُ أَحَدَا

وَمِنْ شِعْرِ عَمْرِى تَشْوِيقُهُ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ حَرَجَ مِنْهَا إِلَى إِيمَنِ قَوْلُهُ :

مِهَابَاتٍ مِنْ أَمَةِ الْوَهَابِ مَزَلَا^(٦) * إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنِ
 وَأَحْصَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا^(٧) وَلَيْسَ لَنَا * إِلَّا التَّدَكُّرُ أَوْ حَظٌّ مِنَ الْحَزَنِ
 لَوْ أَنَّهَا أَنْصَرَتْ بِالْحَرَجِ عَبْرَتَهُ * مِنْ أَنْ يُقَرَّدَ قُرْبَى عَلَى فَتَى
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَلَّتْ بِصَاحِبِهَا * وَأَيُّقَتُ أَنْ تَحْتَا لَيْسَ مِنْ وَطَى
 مَا أَسَّسَ لَا أَسَّسَ يَوْمَ الْخَلِيفِ مَوْقِفَهَا^(٨) * وَمَوْقِفَى وَكَلَانَا ثُمَّ دَوْشَنَى
 وَقَوْلُهَا لِلثُّرَيَّا هِيَ بَاكِئَةٌ * وَالِدَمْعُ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذَوْسُنَى^(٩)

- (١) اسطرت : أسرعت . (٢) الحصر . البارد . (٣) أهد كمرح : عمل وأسرع .
 (٤) الصوراب : موضع بالمدينة بالقيع ، وقد ذكره ياقوت وأسنجد البيت . (٥) المصغ كمر
 ومقعد : الحادى ، والأخى الهاء ، جمع ماصف .
 (٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أحياد : موضع بمكة ، سمي بذلك لأن تما لها قدم مكة وسط
 حبله فيه سمي بذلك ، وهما موضعان : أحياد الكبير وأحياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمكة
 سمي بسعد الخيف . (٩) دوسى : دوطراقى .

بأنه قولى له في غير معتبة * ماذا أردت بطول المكث في الي
إن كنت حاولت دنيا أو طعرت بها * ها أخذت ترك الخ من ثني
وقال أيضا :

حلي ما بأل المطل يا كائما * نراها على الأدبار بالقوم تيكس^(١)
وقد قطعت أعافهن صباة * فانسا عما يلاقين شخص
وقد أتمب الحادي سرائن وأنقى * بين ها يالو عول مقلص^(٢)
يزدن با قرما فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد يقص
ومن شعره قوله :

جرى ناصح بالود بيني وبينها * فقرني يوم الحصاب إلى قسلي
فطارت بحد من فؤادي وقارث * قرينها جبل الصفاء إلى جبلي
فلما توافعا عرفت الذي بها * كمثل الذي في حدوك العلى والنعل
فقلن لها هذا عشاء وأهلا * قريب ألسألى مراكب البعل
فقلت ما شئت قل لما أنزلى * فلأرض خير من وقوف على رجل
نحوم^(٣) درارى تكس صورة * من الدر وامتضيه هوج ولا تحل^(٤)
فسلت وأسألت حيفة أن يرى * عدو مقامى أو يرى كاشف فسل
فقلت وأرحت جانب السرايا * معي حكلم غيردى رقية أهلي
فقلت لها ما بي لم من رقيب * ولكن سرى ليس يميله مثل
فلما أقصروا دونن حديثنا * وهن طيبات بحاجة ذى الشكلي
عرفن الذى تهوى قلن أئذني لما * تطف ساعة في برد ليل وفي سهل

(١) تكس - ترع وتول وتحم - (٢) مقلص : مشرحة في السير - (٣) الحصاب

كالخصب - موضع دى الحار - (٤) درارى جموعة من الصرف وثقت لصورة الشعر - (٥) هوج :
جمع هوجا، وهي المتسلطة في السير كأنها هوجا وحفا .

فَقَالَتْ فَلَا تَلَيْثَنَّ قُلْنَ تَحْدِثِي * أَتَيْنَاكَ ، وَأَنْسَبِينَ أَسْيَابَ مَهَا الرِّمْلِ
فَقَمَسَ وَقَدْ أَهْمَعْنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * أَتَيْنَ الَّذِي بَاتَيْنَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
وقد كان عمر حين أسَّ حلف ألا يقول بيت شعر إلا اعتق رقعة ، فاهصرف عمر
إلى منزله يحدث نفسه ، بطلت حارية له تكلمه فلا يرد عليها جوابا ، فقالت له : إن لك
لأمرأ ، وأراك تريد أن تقول شعرا ، فقال :

تَقُولُ وَلَيْدِي لِمَا رَأَيْتِي * طَرِئْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَفْصَرْتُ حَيَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا * وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءَ دَفِينَا
وَكُنْتُ زَعَمْتُ أَنَّكَ ذُو عَزَاء * إِذَا مَا شَلَّتْ فَارَقْتُ الْقَرِيبَا
بِرَّكَ هَلْ أَتَاكَ لِمَا رَسُولُ * مَشَاكَ أَمْ لَقِيتَ لِمَا حَدِيثَا^(١)
فَقُلْتُ شَكَا إِلَى أَحْ عَيْ * كَبِضَ زَمَانِي إِذْ تَعَلَّيَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْد * مَدَّكَ بَعْضُ مَا دَا نَسِيَا
وَدُو النَّوْقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَمَزَّى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِيَا
وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَعْرَضَتْ عَنْهَا * لَغِيرِ قَلِي وَكُنْتُ مَهَا ضَيْيَا
أَرَدْتُ بِمَادَهَا فَصَدَّدْتُ عَنْهَا * وَلَوْ جُنَّ الْعَسَاؤُادُ بِهَا جَسَا
ثم دعا تسعة من رقيقه فأعنتهم بكل بيت واحدا .

وله :

يَقُولُونَ : إِنِّي لَسْتُ أَصْدُقُكَ الْهَوَى * وَإِنِّي لَا أُرَاكَ حِينَ أَعْبُ
وَمَا بِالْطَّرْفِ عَفَّ عَمَّا تَسَاقَطَتْ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ
عَشِيَّةٌ لَا يَسْتَكِفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَقَاهُ أَمْرِي مِمَّنْ يُقَالُ لَيْبُ

(١) الحدين : الصديق الذي يحادثك فيكون معك في كل أمر ظاهر واطم ، ومنه حدد الحارثية محدثها ،
وكان العرب في الحاضرة لا يمتنعون من حدد يحدث الحارثية حاء الاسلام ههنا . وفي الريل المرير : (اليوم أحل
لكم الطيبات) الى قوله . (والحصصات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أوتيتهم أحواصهم يحصبون غير مباهين
ولا متعدي أحدا) الآية . (٢) الحلة : الحليلة .

ولا فتنة من ناسك أو مصت له * عين الصائم كئيل القيام لمصوب
 تروح يرجو أن تحط ذنوبه * فأت وقد زيدت عليه ذنوب
 وما النك أسلاي ولكن للهوى * على العين متى والمؤاد رقيب
 وله :

ألم تسأل المتزل المتفيرا . بيانا فيكم أو تحيرا
 ذكرت به مص ما قد شجأك * وحق لدى الشجو أن يذكرا
 ميت الحيين قد ظاهرا ^(١) * كساء وريدن أن يمتطرا
 ومضى الثلاث به موها * خرجن الى زائر زورا
 الى مجلس من وراء القيا * ب سهل الرثى طيب أعفرا ^(٢)
 عفلن عن الليل حتى بدت * تبشير من واهج أنفرا
 فقمس بعين آثارا * ماكبة الخزان فقرا ^(٣)
 مهاتين شبتا جودرا ^(٤) * أسبلا مقلده أخورا
 وفن وفن لوانت النها * رمده له الليل فاستأخرا
 قضينا به مص أنجنا * وكان الحديث به أحذرا

وله :

أى رسم دار دمك المرقق ^(٥) * سقاها وما استنطاق ما ليس ينطق !
 بحيث أتى "جمع" وأقصى "مخير" ^(٦) * ممايله كانت على العهد تخليق
 ذكرت به ما قد معنى من زمانا * وذكرك رسم الدار مما يسوق

(١) أومصت له : سارقه الطر .

(٢) يقال : طاهر يرب التوبى إذا لمس أحدهما على الآخر . (٣) أعمر : دى ويل أحمر .

(٤) يقال : قصر الأثر قصر : انقضاء وتبته . (٥) الخوذ (بضم أزه وسم الدال وفتحها) : وله البقرة .

والزرب : القطيع من قهر الوحش وقيل من الطاء ، ولا واحده من لطفه . (٦) الخلد : موضع القلادة

وبراده الحيد . (٧) تفرق اللهع : سال . (٨) جمع ، هي المردلة . (٩) عصر : موضع

من مى والمردلة .

لبالى من دهرٍ إذ الحى جيرة * وإذ هو مأهول الخيلة مؤثق
مقاماً لا عد العشاء وجلسا * به لم يكدره عليا معوق^(١)
ومتمى قفاةً بالكساء تكثا * به تحت عَيْنٍ برقها يتألق^(٢)
يُلْ أعالى الشوب قطر وتحمه * شماعٌ بدا يعشى العيون ويشرق
فاحسنُ شئ به أول لبنا * وآثره حزنٌ إذا تنفّز

وروى أن ليلى كانت جالسةً فى المسجد الحرام، فرأت عمرَ س أبى ربيعة فوجهت
إليه مولى لها بهاها به، فقالت له : يابن أبى ربيعة، حتى متى لا تزال سادراً فى حرم الله
تُسبَّب بالنساء وتُشيد بذكرهن ! أما تخاف الله ! قال : دعيني من دالك وأسمي ما قلت ،
قالت : وما قلت ؟ فأنشدها الأبيات المذكورة، فقالت له القول الذى تقدم أنها أحاسنه به .
قال : وقال لها : اسمي أيضا ما قلت فيك، ثم أنشدها قوله :

أمن الرسم وأطلال الدمن * عادلى وجدي وعادى الحزن
إن حى آل لبلى قاتلى * ظهر الحث يمسى ويطن
يا أما الحارث قلبى طائر * فأتمر أمر رشيد مؤتمن^(٣)
التمس للقلب وصلاً عدا * إن خير الوصل ما ليس بين
علق القلب، وقد كان محمداً، * من بى بكرى غزالاً قد شدد^(٤)
أحور المقلبة كالبدر، إذا * قلل الدر فقلبي ممتحن^(٥)
ليس حب فوق ما أحبتكم * غير أن أقتل نفسى أو أجن
حلفت للقلب منى قننة * هكنا يخلق معروض الفتن^(٦)

(١) مؤثق : مائق ومانع . (٢) العين : السحاب .

(٣) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صح .

(٤) كذا فى الديوان ، ومساء ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : (وإن لك لأخرا غير موعود) .

(٥) شدد : شد وترمرع . (٦) محض : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إِنَّ لَيْسَىَ قَدْ بَلَغَتْ الْمَشْيَا * لَمْ تَدْعُ لِلنِّسَاءِ عَمْدَى بَهِيًّا
هَاجِرٌ يَتَبَّهَا لِأَسْفَى عَنِهَا * قَوْلَ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ عِيَا

وله في الوار وقد شغلت قلبه :

عَلَى السَّوَارِ فَوَّادُهُ جَهْلًا * وَصَبًا فَلَمْ تَرَكَ لَهُ عَقْلًا
وَتَمَرَّصَتْ لِي فِي الْمَسِيرِ يَا * أَمْسَى الْفَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلًا
مَا مَعَهُ مِنْ وَحْشٍ دِي قَهْرٍ * تَعْدُو لِسَقَطِ صَرِيمَةٍ طِفْلًا^(٢)
بَالِدٌ مِنْهَا إِذَا تَقُولُ لَهَا * وَأَرَدْتُ كَشَفَ قِمَاعِهَا مَهْلًا
دَعَا فَاكِهَ لَا مُكَارِمَةً * تَحْزِي وَلَسْتُ مُوَاصِلَ حَبْلًا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَّ الْفَوَادُ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُغْلًا
فَاجِبُهَا إِنْ الْحُبَّ مَكْلَفٌ^(٣) * فَدَعَى الْعَنَابَ وَأَحْدِثَ بَدْلًا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وطرفه وحسن حديثه فنشوقن إليه وتميَّنه ، فقالت سَكْبَةُ بنت الحُسَيْنِ عليهما السلام :
أنا لكن به ، فأرسلت إليه رسولاً وواعده بالصَّوَرَيْنِ ، وسمت له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها ، فوافاهن عمر على راحلته ، فحدثن حتى أضاء الفجر وراحن أنصرامهن ، فقال لمن :
واقه إلى محتاج إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن لا أحيط بزيارته شيئا ، ثم أنصرف إلى مكة وقال :

(١) دو مقر . موضع . (٢) سقط الصريمة . متبها . والصريمة . الزملة المنصرفة من الرمال ذات الشعر . (٣) مكاف : طبع الخب ، يقال : كاف بالشئ كافا ، أى طبع به فهو كاف ومكلف ، والآيات من الكامل الأحد ، وهو ما حذف من عروضه وصره الوند المجموع «على» من «متماطل» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الآيات ، وظاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض علم ، واللمة إذا لحقت بعروض أو صرف لم استعملها في سائر الآيات ولو قال : * فاحتبا إلى نكم كلف * لحلت القصيدة من هذا العيب .

قالت سُكْبَةُ والدموعُ دَوَارِفُ ■ منها على الخلدَيْنِ والجلابِ^(١)
 ليت المُنْبِرِيُّ الذي لم أجْزِهِ * فيما أطالَ تَصْبِيْهُدى وَطَلابِ
 كانت تَرُدُّ لَنَا المُنَى أيامَا * إذ لَا مَلَأَمُ على هَوَى وَتَصَابِي
 حُبْرْتُ مَا قَالَتْ فَبِتْ كَأَنَّمَا * رُئِيَ الحَشَا بِوَافِدِ النَّشَابِ^(٢)
 أَمْسَكَيْنِ مَا مَاءُ العَرَايِ وَطَبِيْهُ * مَنَى عَلَى ظَمِيٍّ وَفَقْدَ شَرَابِ
 نَالَهُ مَكَ وَإِنَّ نَايْتَ وَقَلَمَا * تَرعى السَّاءُ أَمَانَةَ العِيَابِ

وقال فيها :

أَحِبُّ لِحَسَكِ مَنْ لَمْ يَكُنْ * صَعْبًا لِنَفْسِي وَلَا صَاحَا
 وَأَبْدَلُ نَفْسِي لِمَرْصَاتِكُمْ * وَأُعْتَبُ^(٣) مِنْ حَاءِكُمْ عَاتِبَا
 وَأَرْغَبُ فِي وُدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وَدِّهِ قَنَاصُكُمْ رَاغِبَا
 وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي حَانِبِ * مِنْ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَّتْ جَانِبَا
 لِيَحْمَتُ طَبِئَهَا ، إَسْنَى * أَرَى قَرْمَهَا الْعَجَبُ الْعَاجِبَا
 مَا ظَلِيْتُ مِنْ طِبَاءِ الْأَرَا * لَكَ تَقَرُّوْصِمِيْتُ^(٤) الرُّبَى عَاشِبَا^(٥)
 مَاحَسَى مَعَهَا عِدَاةَ النَّفِيمِ * وَقَدْ أَمَدَّتْ الْخَذَّ وَالْحَاحَا^(٦)
 عِدَاةُ تَقُولُ عَلَى رِقَّةِ * نَلْجَدُهَا : يَا أَحْبَبِي الرَّاكِبَا^(٧)
 فَقَالَتْ لَهَا : فِيمَ هَذَا الْكَلَامُ * وَأَمَدَّتْ لَهَا طَائِفًا قَاطِبَا^(٨)
 فَقَالَتْ كَرِيمٌ أَنَّى رَاثِرَا * يُؤَسِّرُ بِكُمْ هَكَذَا جَانِبَا
 شَرِيفٌ أَنَّى رَسَا رَاثِرَا * مَا كَرُّهُ وَجَمْعَتَهُ حَاشَا

(١) الجلاب - القميص أو هو الحمار، وهو ما تطلى به المرأة رأسها . (٢) الشاب - الب .

(٣) أحب : أزال سب العيب ، طاهرة للقلب . والمعنى أهدر . (٤) غراه يقروه : تتبعه .

(٥) دبت الربي : سهلها ولجها . (٦) العميم كأمير . موضع بين مكة والندية . (٧) الخادم :

واحد الخدم ملاما كان أرحامية . (٨) قاطبا من القطوب - وهو تروى ما بين العيين من الموس .

وقال في حارثه بنوم :

صرمت حبك الغوم وصدت * عك في غير رية أسماء
والقواني اذا رايتك كهلًا * كان فيهن عن هواك أنوَاهُ
حذا أت يا موم وأسما * وعيُص يكنا وخلاهُ
ولقد قلت ليلة الجزل لما * أخضلت ويطقى على السماء^(١)
ليت شعري وهل يردن لي * هل لهذا عد الرباب جراهُ
كل وصل أمتى لدى لأنى * غيرها وصلها إليها أداءُ
كل خلق وإن دما لوصال * أو ماى فهو للرباب الفداءُ
فيعدى نائلا وإن لم تُنل * إنما يسمع الحب الرجاءُ

وكان يهوى حميدة حارثة ابن نفاحة، وفيها يقول :

حمل القلب من حميدة ثقلًا * إن في ذاك للفرود لشغلًا
إن فعلت الذى سألت فقولى * حمد حيرا وأتبعى القول فملا
وصيلنى وأشهد الله أنى * لست أصنى سواك ما عشت وصالًا

وفيها يقول :

يا قلب هل لك من حميدة زاهر * أم أت مدكر الحياء فصار
فالقلب من دجوى حميدة موح * والدمع متعذر وعظمى فائر
قد كنت أحب أنى قل الذى * فعلت على ما عد حمدة قادر
حتى بدالى من حميدة خلقى * بين وكنت من الصراق أحاذر

(١) الجزل . موضع قرب مكة . وأحصل . مل . والريطة : ملاءة كلها مسح واحد والعلمة

وله في هـ :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَبَّتْ مَرَّةً * لَهَا إِذَا تَوَاقَعَا بَرْعُ الْمُقَطَّعِ
يَتَرَمَّحُ يَوْمَ أَوْ لِيَتَعَرِّسَ لَيْلَةً * عَلَيْهَا يَجْمَعُ الشَّمْلُ قَبْلَ التَّصَدُّعِ
قُلْنَ لَهَا لَوْلَا أَرْقَابُ مَحَابَةِ * لَأَحْلَقْنَا عَنْهَا وَلَمْ نَتَوَرَّعِ
فَقَالَتْ فَتَاهُ كَسْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا * مُخْضَلَةٌ فِي مَثَرٍ لَمْ تُدْرِعِ
لَهْنٌ - وَمَا شَاوَرْتَهَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِمُحْسِنٍ جَرَاءٍ لِلْمُحِبِّبِ الْمُوَدِّعِ
فَقُلْنَ لَهَا لَا شَيْءَ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لَنَا بَابَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ تَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب تكذا : كلفه ، وأرب إلى كذا : احتاح إليه . ولعل المراد : دفاع الشوق اليه .
(٢) التعريس : قبل هو رول القدم في السر أو الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصح . وقيل : هو العزل أول الليل . وقيل : العزل في أى وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .
(٣) لم تدع : لم تفسد الذرع ، يقال : دزعت الصبية إذا ألت الذرع ، والذرع : حة مشقوقة المقدم .
(٤) قال الأصمعي : يقال أشبه الله وأشب الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدماء له ما يشبه ويكره) ، والقرن زيادة في الكلام .هـ . والقرن : الصغيرة . والمراد التصب من حديثها كما يقال في هذا المقام : قاتلك الله .
(٥) المائة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

في عامر ما تأمرون مشامر * تخبر مائة الكتاب ههنا

أى تخبر ههنا من وجوه الكتاب ، كما صرح صاحب اللسان . ولقاة مائة أخرى لا بأس من إيرادها وهي : القليل والبرق - كما قال الحافظ في «كتاب الحيوان» ح ٢ ص ٤٥ : «طيس الديك من مائة الكلب لأنه إن سارده قتله قتلا ذريما» وقال أيضا في ح ٧ ص ٤٣ . «وقد أيضا أهما لينا من مائة» . وقال في «كتاب السلاء» ص ٤٥ ، ٤٣ : «أنت من دى المائة .. وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه المائة» . ومثل ذلك في هج الطيب ح ١ ص ٥٥٩ طبع ليد ، ح ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاصي محمد بن شير الأندلسي :

إما أدرى بقدرى أمى * لست من مائة أهل البلد

وإذا قال الناس «من مائة» فماده من الوجه الذي أريد به ويصلح لـ .

والشرط - ومثله ما في «تاج العروس» . هذا مائة أى شرطه .

والغاية - ويستعمل ذلك في الحساب والحدود . وفي «شفاء العليل» أهم يقولون لعب حيال الطفل مائة فيقولون : مائة حيال الطفل ، وعلى ذلك قول أس بن سفيان الموصلي : فكأنوا مثل مائة حيال الطفل شئ . وفي «ديوان» (ديوان الزهري وقائع الدهور ح ١ ص ٣٤٧) .

ويحوز أن يسمى به كل فصل من أصول التمثيل المبنية الآن أصول الرواية . (انظر كتاب التاج للحافظ ص ٣٨

وله :

لَيْتَ هَذَا الْجُرْتَا مَا تَعِدُ * وَشَقْتُ أَنْفَسَا مِمَّا تَعِدُ^(١)
وَأَسْتَبَدْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً * إِنَّمَا الْعَاجِرُ مَنْ لَا يَسْتَعِدُ
وَلَقَدْ قَالَتْ لِبَارَاتٍ لَهَا * ذَاتَ يَوْمٍ وَقَعْتُ تَسْقِدُ^(٢)
أَكْبَا يَنْتَعِي تَبْصِرَتِي * عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ^(٣)
فَتَاهَنَ وَفَسَدَ قُلٌّ لَهَا * حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدُّ^(٤)
حَسَدًا حُمْلَةً مِنْ أَجْلِهَا * وَقَدْ يَمَّا كَانَ فِي الْبَاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَأْمَنُ لِقَلْبٍ ذَنِيفٍ مُفَرِّمٍ * هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَظْلِمِ^(١)
هَامٌ إِلَى رِيمٍ هَيْصِمٍ الْحَتَّى * عَذِبَ النَّبَا طَيْبِ الْمُهَيِّمِ^(٢)
لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسَ مَلِيلَةً * قَبْلِي لَدَى حَمٍّ وَلَا دَى دِمِ^(٣)

- (١) وحده بمجد وحده : أحده حاشيذا ، ووحده عليه يوحده وحدها حرد . (٢) تنزده .
تقتل الماء البارد . (٣) كذا في الكامل للرد طبع ليبرح ص ٩٤ هـ وهي رواية حيدة . والتابع كالاهاف
والمهافة صحك فيه مورده صحك المستهزئ . وفي الأغانى والديوان : « تصاحكن » . وقد رجع الزرابة الأولى
لأنها توكى تمام المعنى المراد . (٤) هام تنمى بالماء وقد سميت هام معنى صبا ولمسا تمدت مالى .
(٥) كذا في الأغانى ، وفي ديوانه « دهم » بالهمز . والزم : الطلى الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الطلى ،
يهر ولا يهر . (٦) كذا في الأغانى ، وفي هذا البيت والذي قلته في ديوانه

كالشمس بالأسد إذ أشرقت * في يوم دحم دود مقسم

يريد بالأسد ها سرد الحوم ، وهي عشرة : أربعة منها في روح الخلد والذو يرها القمر وهي سد الدامح وسط
طع وسد الأحية وسد السمود وهو كوكب معرود يهر . وأما البسة التي ليست من المارل فسد باخرة وسد الملك
وسد الباه وسد الهام وسد البارح وسد مطر . وكل سد من هذه البسة كوكبان من كل كوكبين في رأى العين قدر
دراع وهي متناصفة . وأما سد الأحية فثلاثة أهم كأنها أفاق ورايح تحت واحد ميق . أطر المرقص والمقاد
الحيوية في شرح شواهد الألفية للاحام المسمى المطبوع بها من الحرارة ج ١ ص ٨ هـ في الكلام على البيت
إذا دران مسك يوما لقيه * أو قل أن ألقاك عدوا لأسعد

وقال في اللسان في مادة « سد » سد أن ذكر هذه السمود . فأحسن ما تكون الشمس والقمر والحوم في أيامها
لأنك لا ترى فيها مرة ، وقد ذكرها الباعة الديان قال :

قامت تراسى بين صحى كة * كالشمس يوم طلوعها بالأسد

وقد سبط خطأ في اللسان فتح العين . وقال :

بصا . كالشمس رامت يوم أسدها * لم تود أهلا ولم تحض على حار

قالت ألا إنك ذو مَلَّةٍ • يصيرُك الأدنى عى الأقدم
قلت لها بل أنتِ معتلةٌ • فى الوصل ياهدلكى تصيرى

يسا عمرو بن أبى ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،
وكانت من أجمل أهل دهرها ، وهى تريد الركن تستلمه ، فبوت لما رآها ورأته ، وعلت
أها قد وقعت فى نفسه ، فبعثت إليه بجارية لها وقالت : قولى له : أتق الله ولا تغفل هجرًا ،
إن هذا مقام لا بد فيه مما رأت ، فقال للجارية : أقرئها السلام وقولى لها : ابن عمك
لا يقول إلا حياء ، وقال فيها :

لعائشة أمة التيمى عدى • حيمى فى القلب ، لا يرعى حياها
يدكرى أبنه التيمى طوى • يرود برؤوسه سهل رؤاها
قلت له وكاد يرأع قلى • علم أرقط كاليوم أشداها
سوى حميش إساقك مسنبي • وأن شواك لم يشبه شواها
وأنت عاطل عارٍ وليست • صارية ولا عطيل يداها
وأنت غير أفرع وهى تدلى • على المتبين أعمم قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف نود • سوى ما قد كلفت به كفاها
أطل إذا أكملها كائى • أكلم حية غلت رقها
تبيت إلى بعد اليوم تبرى • وقد أسيت لا أخشى سراها

وله :

إنى وأول ما كلفت بحبها • تحب وهل فى الحب من متجيب
نعت النساء فقلت لست ببصير • شها لها أبدا ولا بمقرب

(١) الحش : دقة الساقين • (٢) الشوى : الأطراف • (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس •

(٤) الأعمم : الأسود ، يريد به الشعر •

فَكُنْتُ حِينَئِذٍ قُلٌّ تَوْحَّهَتْ * لِلْحَجِّ ، مَوْعِدًا لِقَاءَ الْأَخْشَبِ^(١)
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلَّنَ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ
 فَلَقِيْتُهَا تَمَيُّشِي بِهَا بَقْلَانِهَا * تَزِي الْجَمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوَكِبِ
 عَرَاءَ يُعَيِّنِي السَّاطِرِينَ بِيَاصُهَا * حَوْرَاءَ فِي قُلُوءٍ عَيْشٍ مُسْجِبِ^(٢)
 إِنَّ الَّتِي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَانِهَا * جُلِبَتْ لِحُسْنِكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجْلِبِ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَلَّمَ بَتَّ سَعْدِ الْخَزْرُمِيَّةَ ، فَرَسَلَهَا إِلَيْهَا رَسُولًا فَصَرَبَتْهَا
 وَحَلَقَتْهَا وَأَحْلَقَتْهَا أَلَا تُعَاوِدُ ، ثُمَّ أَعَادَهَا ثَانِيَةً فَهَعَلَتْ بِهَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَصَامَا مَا رُسُلُهُ ، فَابْتَاعَ
 أُمَةً سَوْدَاءَ لَطِيفَةً رَقِيقَةً وَأَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَكَسَاهَا وَأَسَنَاهَا وَعَرَّفَهَا حِرَّهُ وَقَالَ لَهَا :
 إِنْ أَوْصَلْتُ لِي رُقْعَةً إِلَى كَلَّمَ فَهَرَأْتُهَا فَأَبَتْ حِرَّةٌ وَلَكِ مَمِيشَتُكَ مَا بَقِيَتْ ، فَقَالَتْ : أَكْتُبُ لِي
 مَكْتُبَةً^(٣) وَأَكْتُفِ سَاحَتَكَ فِي آخِرِهَا ، فَهَعَلَ ذَلِكَ ، فَاحْتَنَبَهَا وَمَصَّتْ بِهَا إِلَى بَابِ كَلَّمَ
 فَاسْتَاذَنْتْ فَخَرَجَتْ إِلَيْهَا أُمُّهُ لَهَا صَالَتَهَا عَنْ أَمْرِهَا ، فَقَالَتْ : مَكْتُبَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِ مَوْلَانِكَ
 جِئْتُ أَنْسَعِبَهَا فِي مَكَاتِنِي ، وَحَادِثَهَا وَاشْطَلْتُهَا حَتَّى مَلَأْتُ قَلْبَهَا ، فَدَخَلْتُ إِلَى كَلَّمَ وَقَالَتْ :
 إِنْ مَالِيبَ مَكْتُبَةٍ لَمْ أَرَقُطْ أَجْمَلُ مِنْهَا وَلَا أَكُلُّ وَلَا آدَبُ ، فَقَالَتْ : إِنْ دَنَيْتُ لَهَا ، فَدَخَلْتُ ،
 فَقَالَتْ : مَنْ كَاتِبُكَ ؟ قَالَتْ : عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْفَاسِقُ ! فَافَرَقُوا مَكَاتِنِي ، فَذَنَّتْ يَدَهَا
 لَتَاخُذَهَا فَقَالَتْ لَهَا : لِي عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَقْرَبِيهَا ، إِنْ كَانَ مِنْكَ إِلَيَّ شَيْءٌ ، فَمَا أَحِبُّهُ وَإِلَّا
 لَمْ يَلْعَنَنِي مِنْكَ مَكْرُوهٌ ، فَعَاهَدَتْهَا وَقَطَعَتْ وَأَعْطَتْهَا الْكِتَابَ ، إِذَا أَوَّلُهُ :

مِنْ عَاشِقِي صَبَّ بُيُورُ الْهَوَى . قَدْ شَمَّهَ الْوَجْدُ إِلَى كَلَّمَ
 وَأَتَيْكَ عَيْتِي فِدَايِي الْهَوَى * إِلَيْكَ الْخَيْرُ وَلَمْ أَعْلَمْ

(١) الأخشب : مفرد الأخشين وهما حلالان مكة أحدهما أوقيس والآخر قبيدان ، ويقال : هما أوقيس
 والحل الأخر المخرى هالك ، وقد تحمد هذه الشبهة فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤبة .

ومقامهس إذا حسس عارم * صبق ألف وصدح الأخشب

(٢) في ملوا ، عيش : في أصره وأرطه . (٣) المكاتبه : أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منها
 (مقسطاً) إذا أذاه سارحراً ، وسيت كذلك لأنه يكتب على هبة لمولاه منه ، ومولاه يكتب له عليه هبة .

قَتَلْنَا ، يَا حَبْذَا أَنْتُمْ ۖ وَ عِيرَ مَا جُرِّمَ وَلَا مَأْتَمَ
 وَاقَهُ قَدْ أُنْزِلَ وَ وَحِيهِ * مُيَّبًا فِي آيَةِ الْفُحْصَمِ
 مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَمَا ظَلَمَ ۖ وَلَمْ يُقْنِهَا نَفْسَهُ يَظْلِمُ
 وَأَنْتَ تَأْرِي قَتْلَاقَ دَمِي * ثُمَّ أَجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
 وَحَكِّي عَذْلًا يَكُنْ بَيْنَا * أَوْ أَيْتَ فِيمَا بَيْنَنَا فَأَحْكِي
 وَجَالِسِي بَجِلًا وَاحِدًا * مِنْ عِيرِ مَا عَارٍ وَلَا مَحْرَمَ
 وَحَبْرِي مَا الَّذِي عَدَّكُمْ * مَا قِهِ فِي قَتْلِ أَمْرِي مُسْلَمَ

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداعٌ مليقٌ وليس لما شكاه أصلٌ، قالت : يا مولاي،
 فما عليك من أمتاعه؟ قالت : قد أذنتُ له وما زال حتى ظمِرَ بُغْيَتُهُ! فقولي له : إذا كان
 المساءُ فليجلس في موضع كذا وكذا حتى ياتيهِ رسولي، فأصرفت الجاريةُ فأخبرته فأتاهُ لها،
 فلما جاءه رسولُها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجمل هيئة، وزينت نفسها وجلسها
 وجلست له من وراء ستر، فسلم وجلس، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عك
 يا فاسق! أَلَسْتَ الْقَاتِلُ :

هَلَا أَرْغَوَيْتَ قَرَّتِي صَبَا * صَدْيَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبَا
 جَسَمَ الزَّيَارَةِ فِي مَوْذَنِكُمْ * وَأَرَادَ آلَا تُرْهِقُنِي دَنْبَا
 وَرَجَا مُصَالَحَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَلَمًا وَكَيْتَ تَرْتِنُهُ حَرْبَا
 يَا أَيُّهَا الْمُصْنِفِي مَوْذَنَهُ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبَا^(١)
 لَا تَجْعَلُنْ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَمَا
 وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شُفِقتَ بِهِ * وَأَطِيعِ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غِيَا
 فَلَذَّاكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَئَةٍ * لَيْسَتْ تَرِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبَا
 لَا لِي يَمْلِكَكَ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * فَيَقُولُ هَاهُ وَطَلَمَا لِي^(٢)

(١) الخطب : الخطاب . (٢) وهاه : كلمة رعيد، وحرك لصورة الشعر وقد روى البيت في ديوانه :

لا لِي يَمْلِكَكَ ثُمَّ تَدْعُو نَاسِيَهُ * يَقُولُ هَاهُ وَطَلَمَا لِي

ورأى عمرُ لُبَابَةَ بنتِ عبد الله بن العباس أمراءَ الوليد بن حُبَابَةَ بن أبي سفيان تَطْلُوف
ماليت فرأى احسنَ خلقِ الله ، فكاد عقله يذهب ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسب بها
وقال فيها :

وَدَّعْ لُبَابَةَ قَبْلَ أَنْ تَرْحَلَا * وَأَسْأَلُ فَإِنْ قَلَّ لَهُ أَنْ تُسْأَلَا
إِلْتِ بِعَمْرِكَ سَاعَةً وَتَأْتِيهَا * فَعَلَّ مَا بَحَلَتْ بِهِ أَنْ يُبَدَّلَا
قَالَ أَتَحْتَرِّمَانِ شَيْئًا مِنْ عَمَلِي * فَمَا هُوَ يَا ابْنَ لَبَنٍ مَعْلَا
لَسْنَا نُنَالِي حِينَ تَقْصِي حَاجَةً * مَا مَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمَطَى مُعْقَلَا
حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ طَلَامُهُ * وَرَقَّتْ عَمَلَةٌ كَأَنَّهَا أَنْ يَحْلَا
نَرَجَتْ تَأْطُرُ فِي الثَّيَابِ كَأَنَّهَا * أَيْمُ يُسَيِّبُ عَلَى كَيْتِيبٍ أَهْبَلَا
رَجَبْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا حَبَسْتِ * لَصَحْبِي لَمَّا رَأَيْتِي مُقْبِلَا
وَجَلَّ الْقِيَاعُ مَحَابَةً مَشْهُورَةً * عَرَاءُ تَعْيِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
فَلَبِثْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلٌ * يَرْقِي بِهِ مَا أَسْطَاعَ إِلَّا يَفْرَلَا

وَحَجَّتْ رَمْلَةً بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلْفٍ الْخَزَاعِيَّةُ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْجِبَالِ رَهِيًا * مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الطَّاعِيَا
نَحَلْتُ حُمَةَ الْمِرَاقِ عَلِيَا * بِرَحِيلٍ وَلَمْ نَحْفِ أَبْ تَبِيَا
لَمْ يَرْغَبْنِي إِلَّا الْفَتَاةُ وَالْأَيُّ * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ نَحْوًا سَبِيَا
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشَيْكَ مِنْ بَيْنِكُمْ بَوِيَا
أَنْتِ أَهْوَى الْعَصَادِ قُرْمًا وَدَلًّا * لَوْ تَبْلِيْبُ طَاشِقًا مَحْزُونَا
قَادَهُ الطَّرْفُ يَوْمَ مَرٍّ إِلَى الْحِيَا * بِنِ جِهَارًا وَلَمْ يَحْفِ أَنْ يَحْيَا

(١) القفال كمراب وحياب : القليل . (٢) اتجر ما شئت : اهل ما شئت لما لا معنى لك أمرا .

(٣) تأطر : محبوبة إحدى تائيه ، أى تثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الولد

يعقل عقولا . استع في الحد ، به منى الولد غافلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إما هو ككارج

الأوى قنلا ما يرى » . والأوى : جمع أروية وهى نيرس الجبل البرية

فادا نعمةً تراعى نياماً * ومهاً بهج الماطر عي
 قلتُ من أتم قصدت وقالت * أسيد^(١) سؤالك العاليت
 قلتُ بالله ذى الحلالة لما * أن تلت العواد أن تصدقيا
 أئى من تمحع المواسم قولى * وأبني لا ولا تكتيبيا
 نحن من ساكني العراق وكما * قبله قاطين مكة حيا
 قد صدقناك إذ سألت من أن * ست عمى أن يحرق شأ شؤنا
 وزى أنتا عرفتاك بالعد * يت ظن وما قتلنا بقيت
 مسوود الشيتين ونيت * قد رآه لاطير سنييا
 وقال في الزما وقد صرته .

من رسولى إلى الثريا فائق * صفت ذرعا بهجها والكاتب
 سلنى محامه المسك عقلى * فسلوها ماذا أحل اعتصامى
 وهى مكنونة تحير منها * فى أديم الخدين ماء الشاي
 أبرزوها مثل المهاء نهادى * بين خميس كواكب أنزاب
 ثم قالوا نحبها قلت بهراً * عدد القطر والحصى والزاي
 أزهدت أم وهل إذ دعتها * مهنى ، ما لقائى من متاي
 حين قالت لما أحيى فقالت * من دعاى قالت أو الخطاي
 فاستجاب عد الدماء كما لى * رحل يرحون حسن الثواب

(١) قال فى اللسان مادة بدد هـ أن أورد هذا الشعر : «معناه أقمسأت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تصبهم» . من البداد وهو أن يد المال القوم فيقسم بينهم ، وأدبهم المال والبطاء . مره معهم ، والمراد لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! - أو معناه : «أأت ملزم سؤالك الناس» من قولهم : مالك منه بد» ، والمراد : أأت ملزما الإجابة من سؤالك ! إنما لا تخييك . (٢) محاجة المسك ، يريد بذلك وصفها طيب ريقها وأنه كالسك . (٣) نهادى ، يريد عدى مصبا مصا فى ميثها (الكامل للرد طبع ليرج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للرد طبع ليرج ص ٣٧٩ . أرهدت : أطلت وأدهت قال الله عز وجل : (فبدسه فإذا هو داهق) اه . يريد : أدهت أم وهل معنى إذ دعت انشرا لوصالى لم تحما .

ومن شعره :

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ لَدَى كَتَبَ مُؤَلَّهٌ تَكْمِيدَ
 كَيْفٍ وَأَكَيْفَ الْعَيْدِ ^(١) مِنْ الْحَمَرَاتِ مَسْرُودِ
 يُؤَرِّقُهُ لَيْبُ الْشَوِّ ^(٢) فِي بَيْنِ السَّحْرِ وَالْكَدِ
 يُمَيِّكُ قَلْبَهُ بِيَدِ وَتَمَسَّحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

لما تزوج سُبَيْلُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الثُّرَايَا ونقلها الى الشام، بلغ عمرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الخبرُ، فأتى للمنزل الذي كانت الثريا تنزله، فوجدها قد رحلت منه يومئذ، فخرج في أثرها طيحتها على مَرَحَلَتَيْنِ، وكانت قبل ذلك مهاجرة لأمرٍ أنكرته عليه، فلما أدركهم نزل عن فرسه ودفعه الى علامه ومثنى مُتَنَكِّراً حتى مرَّ بالنخيلة، ففرقه الثريا وأثنت حركته ومشيته، فقالت لحاصتها : كُتِبَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وسأله عن حاله وعائنه على ما بلغ الثريا عنه، فاعتدروا وبكى، فكثرت الثريا، فقالت ليس هذا وقت العتاب مع وثك الرحيل، لحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودعها وتبكا طويلاً، وقام فرك فرسه ووقف يطرأ اليهم وهم يرحلون ^(٣)، ثم أتبعهم بصره حتى طابوا، وأشأ يقول :

يا صاحِبِي قَفَا تَسْتَحِيرُ الطَّلَا .. عَنِ حَالِ مَنْ حَلَّهَ بِالْأَيْمِسِ مَا فَعَلَا
 فَقَالَ لِي الرَّبُّعُ لِمَا أَبَاقَ وَقَعْتُ بِهِ ^(٤) إِنَّ الْخَلِيلَ أَجَدَ التَّيْنِ فَاحْتَمَلَا ^(٥)
 وَخَادَعَتْكَ الْوَى حَتَّى رَأَيْتَهُمْ * فِي الْقَعْرِ يَحْتَثُّ حَادِي غَيْبِهِمْ رَحِلَا ^(٦)

(١) يقال : وكفتم العين : سالت دموعها . (٢) الحر الرقة .

(٣) أى مرهمها من المعرفة . (٤) لحاصتها لمريتها . (٥) يرحلون يشدون على المهرم الرجال . (٦) أجد البر : اعتره . (٧) احتل . ارتحل . (٨) الوى : العراق والحد . ويحث : يسوق . وزحلا : راحا صوته في حذاء الإبل لقسرع في السير، وأصل الرجل الخلبة وروى الصوت وحسن به التطريفة، وأشأ سبويه في وصف حمار وحش :

له رجل كأنه صوت حاد * إذا طلب الوسيقة أو زبر

ودكره في باب ما يحتمل الشمر من استباحة الضرورة، وهي ما حذف الواو الملية لحركة الهاء في قوله : كاهه .

والوسيقة : أثناء التي يصدها ويجمعها، من وسقت الشيء : جمعه .

لما وقفنا نحيمهم وقد صرخت هوائف البين وأستوت بهم أصلاً^(١)
صنت يداً وقالت لاتي معها ، والله لومييه في ميس الذي فعلاً
وحديثيه بما حدثت وأسمعي * ما ذا يقول ولا تعي به جَدلاً^(٢)
حتى يرى أت ما قال الوشاه له ، فينا لَدَيْهِ إلبا كله قُصلاً
وعمره به كالحزل وأحتفلي في ميس معتبزي أن تُعصبي الرحلا
فإن عهدي به والله يحفظه ، وإن أتى الذنب من بكره القَدلاً
لو عندنا أغنيب أو نيك قيصته ، ما آت مُقتاه من عندنا حدلاً
قلت أسمعي فلقد ألفت في لطف^(٣) وليس يتعي على دى اللب من هزلاً
هذا أردت به تحلاً لأغيرها ، وقد أرى أنها لن تَمدم الللاً
ما مئى القلب إلا من تقلسه ، ولا العواد فؤاداً عبر أن عقلاً^(٤)
أما الحديث الذى قالت أثبت به ، ما عباتُ به إدا حافى حولا
ما إن أظعتُ بها القلب قد عليت ، مقالة الكاشع الواشى إذا عحلاً
إني لأرجعه فيها بسخطه * وقد يرى أنه قد غرئ زلاً
وهي قصيدة طويلة مذكورة في شعره .

(١) في ديوانه

لما وقفنا يحيمهم وقد شحطت * صامة البين فاستوت بهم أصلاً
وشحطت صامة البين : ارتبطوا وجزتهم البين ، وفي اللسان مادة هم وشال يقال للقوم إذا ارتبطوا من مزلم
أو تحزقوا : قد حمت صامتهم وشالت صامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو المئى وقيل هو مردد ، أشد تمل :
وتعدت هي لك ولم أرل * بدلا هارى كله حتى الأصل
بقوله : بدلا هارى ، يدل على أن الأصل هاما واحد . (٢) لا تعي به جدلا ، لا تسمى في محادثة .
(٣) الطلب لسة في اللط ، (٤) قال في اللسان : والعود . التوقد ، والعود : القلب ثموده
وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والعود . التحرق والوقد ، ومه العواد القلب ، لأن عقل المواد العلومات
قيمة اشتماله وتوقده وتحركه وحولته بها حتى يحصها ، ويميز الصحيح من العائد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدُّمَى • زِدْتَ السَّوَادَ عَلَى عِلَاتِهِ حَرْنَا
 دَارٌ لَأَسْمَاءَ قَدْ كَانَتْ تُحَلُّ بِهَا • وَأَيْتَ إِذْ ذَاكَ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ وَطْنَا
 لَمْ يُغَيِّبِ الْقَلْبُ شَيْئًا مِثْلَ حُكْمِ • وَلَمْ يَرَّ الْعَيْنُ شَيْئًا مَعْدَمٌ حَسَا
 مَا لَيْبَ أُمِّ أَدَامَ اللَّهُ قُرْبَكُمْ • مِنْ كُلِّ شَطَطٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ أَوْ طَعْمَا
 وَإِنْ تَأَيَّمْتُ أَصَابَ الْقَلْبَ تَأْيِيكُمْ • وَإِنْ دَنْتُ دَارَكُمْ كُنْتُ لَنَا سَكْنَا
 إِنْ تَحَلَّى لَا يُسَلِّ الْقَلْبَ مَحَلَّكُمْ • وَإِنْ تَحَوَّدَى فَقَدْ عَيَّنَنِي زَمَا
 أَمْسَى السَّوَادُ نَكَمَ يَأْبُدُ مَرْهَهَا • وَأَيْتَ كُنْتُ الْهَوَى وَالْهَمَّ وَالْوَسَا
 إِذْ تَسْتَبِيكَ تَمَضُّقُولِ عَوَارِصِهِ • وَمُقَلَّتْ حُؤْدَيْرٍ لَمْ يَسُدَّ أَنْ شَدَا

وقال :

أَعْبَدْتُ مَا يَتَّبِعِي مَوَدَّتِكَ الْقَلْبُ • وَلَا هُوَ يُسْلِيهِ رَحَاءٌ وَلَا كَرْتُ
 وَلَا قَوْلٌ وَاشِ كَأَنَّ دَى عِدَاوَةٍ • وَلَا أُعَدُّ دَارٍ إِنْ تَأَيَّتَ وَلَا قُرْبُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ نَعْمَى لَدَيْكَ أَصَابَهَا • وَلَكِنْ حُسَا مَا يُقَارِبُهُ حُسَا
 فَلَنْ مَقْبَلِي يَأْبُدُ تَوْبَةً تَأْيِبَ • يَنْتُمْ لَمْ لَا يُوحِدْ لَهُ أَلَدَا دَنْتُ
 أَدِلُّ لَكُمْ يَأْبُدُ فِيمَا هَوَيْتُمْ • وَإِنِّي إِذَا مَا رَامَنِي غَيْرُكُمْ صَعْتُ
 وَأَعْدَلُ نَعْمَى فِي الْهَوَى تَعَوُّفِي • وَيَأْبُرُنِي قَلْبُ بِكُمْ كَيْفَ صَبْتُ
 وَفِي الصَّرْعِ لَا يُؤَاتِيكَ رَاحَةٌ • وَلَكِنَّهُ لَا صَبْرَ عَدَى وَلَا لُتْ
 وَعَبْدَةٌ يَبْهَاءُ الْمَحَارِ طِفْلَةٌ • مُنْعَمَةٌ تُصْبِي الْحَلِيمَ وَمَا تَصْبُو
 قَطُوفُ مَنْ الْخُورِ الْأَوَانِ وَالصَّحَى • مَتَى تَمِشَ قَيْسَ الْبَاغِ مِنْ جُيْرَهَا تَرُو
 فَلَسْتُ بِسَائِسٍ يَوْمَ قَالَتْ لِأَرْجِ • نَوَائِمَ غُرٍّ كَلْهَنَ لَهَا زَرْبُ
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي فِيمَ كَانَ صُدُودِهِ • أَهْلَقْتُ أَنْعَى ! أَمْ عَلَّ بِهِ عَتَبُ

وقال :

إِنَّ طَيْفَ الْخَيْالِ حِينَ أَلَمَّا هَاجَ لِي ذُكْرَةٌ وَأَخَذَتْ مَهْمَا
جَدَّدِي الْوَصْلَ بِاسْكَيْنَ وَجُودِي لَيْتَ رَيْحِيلُهُ قَدْ أَحْمَا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْتَ يَرُدُّوْا بِحَالِهِمْ فَقُرْمَا
وَلَقَدْ قُلْتُ مُخْفِيًا لَعَرِيصِ هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحْمَا
هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ النَّاسِ شَخْصًا أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَهُ وَأَحْمَا
إِنْ تُبْسِلِي أَعِشْ بِبَحْرِ وَإِنْ لَمْ تَتَلُ الْوَدَّ مَتَّ مَا لَمْ عَمَّا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَلَبَ لِي نَعْرًا وَتَمَعَا وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْ نَعْيِي وَتَمَعَا
وَعَمَّنْ حِينَ تَذْكُرُهُ فَوَادِي يَمِيسُ كَمَا يَمِيسُ الْعَرْبُ دَمِي
يَقُولُ الْعَادِلُونَ مَا تَقْدَعُهَا * وَدَلَّكَ حِينَ تَهْيَايَ وَوَلِي
أَأَهْجُرُهَا مَا قُمَدَ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطِي
وَأَضْرِبُ حَنَلَهَا لَمَقَالٍ وَاشِ * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ مَعَجِي
وَأَقْسِمُ لَوْ حَلَوْتُ بِبَحْرِ هِنْدٍ * لَصَاقَ بِبَحْرِهَا فِي الْيَوْمِ دَرِي

وهو القائل :

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرَفَتُكُمْ أَنَّ الْمَصَاحِعَ تَمِيسُ تَيْتُ الْإِبْرَا
لَقَدْ شَقِيتُ وَكَانَ الْحَيْنُ لِي سَبَا * أَنْ عُلِقَ الْقَلْبُ قَلْبًا يُشِهُ الْمَحْرَا
قَدْ لُمْتُ قَلْبِي فَأَعْيَايَ وَاحِدَةً * وَقَالَ لِي لَا تَلْبِي وَأَدْفَعِ الْقَدْرَا
إِنْ أَكْرَهَ الْعَارِفُ يَحْسَرُونَ عَيْرَكُمْ * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا تَحْوَلُكَ النُّظْرَا
قَالُوا صَوْتٌ لَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ وَلَيْسَ يَتَنَى الْعَمَّا إِنْ وَالِهِ كَبْرَا

وقال أيضا :

الْأَلَيْتَ قَبْرِي يَوْمَ تُقْفَى مَيِّقَى • بَنَتِكَ الَّتِي مِنْ يَدَيْ عَيْنَيْكَ وَالْعَمِيمِ
وَلَيْتَ طَهُورِي كَانَ رِيْقِكَ كُلُّهُ • وَلَيْتَ حَوْطِي مِنْ مُشَاشِكَ وَالْدَمِ
الْأَلَيْتَ أُمُّ الْعَصَلِ كَانَتْ قَرِيْبِي • هُنَا أَوْ هَسَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ

نظر عمرُ س أبي ربيعة في الطَّوْافِ الى امرأةٍ شريفةٍ فرأى أحسنَ خلقِ الله صورةً،
فذهب عقله عليها وكأَنَّها لم تُجِبْهُ، فقال فيها :

الرَّيْحُ نَسَحَ أَذْيَالًا وَنَشَرَهَا • يَا لَبْنِي كُنْتُ مِنْ نَسَحِ الرِّيحِ
كَيْفَا تَجْمُرُ سَا ذَيْلًا فَطَرَحَهَا • عَلِىَ الدُّنْيَا مُقَرَّرَةٌ سَوَحٌ
أَيُّ بُقْرِيكُمْ أَمْ كَيْفَ لِي بِكُمْ • هَيْهَاتَ ذَلِكَ مَا أَهْتُ لِمَا رُوِحُ
هَلِيتَ صِغَفَ الَّذِى أَلْقَى يَكُونُ هَا • لَيْتَ صِغَفَ الَّذِى أَلْقَى تَبَارِيْعُ
إِنْ حُدِيَ بَيَّاتٍ عَمَى دُونَ مِنْهَا • أَرْضُ قَبَائِمَاتِ الْقَيْصُومِ وَالشَّيْخِ

فلما شعره بجزعت منه، فقبل لها : ادكر به لزوجهك ، فإنه سيذكر عليه قوله ، فقالت :
كلَّا والله لا أشكوه إلا الى الله . ثم قالت : اللهم إن كان نوء ماخبي ظالمًا فاحمله طعامةً
للريح ، فصرت الدهر من صريره ؛ ثم إنه عدا يوماً على فرس فهبت ريحٌ فزحل فاستتر
بسائمة ، فصصفت الريحُ لحدشه عُصْنٌ منها ، فدمى وورم به ومات من ذلك .

(١) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع صدكياً الريح على أن ما كافته لها من الميل ، والصعب على أن
ما رائدة وكى عاملة فيما صدعا ، وقد روى الوجهين .

إذا أتت لم تصع صرّاً فأما . يرحى العنق كذا يصرّ ويصع

(٢) معبرة ، يريد بها الغلاة المحدثه . (٣) سوح . جمع ساحة وهي العصاة . (٤) تباريح
الشوق : توهجه ، قال السيد محمد مرتضى : قال شجاع وهو من الجموع التي لا مفرد لها وقيل : مفردة ترجع
وآستعمله المحدثون وليس شئت . (٥) قال في اللسان : القيصوم : ما طال من العشب ، ثم قال :
والقيصوم من سات السهل قال أبو حنيفة . القيصوم من الدكودوم الأمر وهو طيب الرائحة من رياض البر
ورده هذب وله بودة صمراء وهي تهوى على ساق وتطول .

(ب) الغزل العذري

جميل^(١)

قال مُصَيَّب مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المَدِينَةَ فَسَأَلْتُ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِهَا بِالشَّعْرِ، فَقِيلَ لِي: الْوَلِيدُ بْنُ سَعِيدِ الْأَنْصَحِيِّ، فَوَحَّدَنِي بِشَيْءٍ سَلَّعَ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانٍ وَعَدَدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَزْهَرٍ، فَإِنَّا بِلُجُوسٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ طَوِيلٌ بَيْنَ الْمُنْكِهَيْنِ يَقُودُ رَاحِلَةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر بن عدرة، وكان شاعرا صليبا مقدما حاملا للشعر والرواية. اشتهر بحبه شبة اسة عمه، ولذلك عرف بحميل شبة، وكما بقيان في وادي القرى، وكان أول عهده بها وهي صميرة. ومن أوائل علمه فيها قوله:

وأول ما قاد الحوذة ينسا * يرادى بعيس يا بنين ساس

وقلت لما قولاً غامت منظره * لكل كلام يا بنين حواص

ولم يكن يراها حتى صارت شاة، فأحد يطم القصاص فيها حتى اشتهر أمره. وأتفق مرة أن توة بن الحميز صاحب ليل بن بني عدرة مرأته شبة حملت تطرأ إليه وحميل حاصر فثارت العيرة في قلب جميل، فقال لتوة: من أنت؟ قال: أما توة بن الحميز، قال: هل لك في الصراع؟ قال: دلت إليك، فأعطته شبة ملامه حراما فأترها. ثم صار به صهره جميل. ثم قال: هل لك في المال؟ قال: نعم، فاصله مصله جميل. ثم قال: هل لك في الساق؟ قال: نعم. فضاغه صفه جميل. فقال له توة: يا هذا، إما تعمل ذلك ربح الخالسة، ولكن اهبط يا الوادي، فهبط، فصرعه توة وصله وسقه.

وكان عند شبة مثل ما عند جميل، ولما رأت ما صلت عنها رادت شعاعه، واكتهما لم يكونا يجتمعا إلا لحنة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقاب، لكنهم لم يستطيعوا ربه ربه. وأحاره معها كثيرة لا يسها هذا المقام. ولم يزل يجمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكرى منه إلى العامل، هز إلى ابن حتى عزل العامل. وانزع أهل شبة الشام، فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، صعه أهله وهددوه، فاقطع عنها، وأجرا لها إلى مصر. وعاملها عبد البرير بن مروان، فأحس وباده، ومرض هناك ومات. وكان طويلا القامة عريض بين المنكين جميل الخلقة حسن البرة، توفي سنة ٨٢ هـ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورا في أيام ابن حنكلا ولم يقف على حبه، ولكن به أشعارا مجموعة في كتاب به نسخة حلية في مكتبة باريس.

أظهر الكلام على جميل في الأناضول ح ٧ ص ٧٧ وح ١ ص ٨٠ وابن حنكلا ح ١ ص ١١٥ ورواية الأدب ح ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها ربة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهري : يا أماه حَبْرَتُ، هذا جميل فادعُ له لعله يُشَدُّنا، فصاح به عبد الرحمن : هَيَّا جَمِيلُ، ما كُنْتُ فقال : من هذا ؟ فقال : أما عبد الرحمن بن أزهري، فقال : قد علمتُ أنه لا يَحْتَرَى على - إلا مثلك، فأناه، فقال له : أَسَدُنا، فأنشدني :

وَمِنْ مَنَعَا يَوْمَ أَوَّلِ نِسَاءَنَا * وَيَوْمَ أَقْبَى وَالْأَمْسَةِ تَرَعَفُ^(١)
يُحِثُّ الْعَوَايِ الْبَيْضُ طَلَّ لَوَائِنا * اِذَا مَا أَنَا الصَّارِحُ الْمُتَلَهِّفُ
نَسِيرُ أَمَامِ النَّاسِ وَالنَّاسُ حَلَمْنَا * فَإِنْ نَحْنُ أَوْأَمَّا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
فَأَمَى مَعَدَّ كَأَنَّ قَدْ رَمَاهُ * سَكَا قَدْ أَفَانَا وَالْمَعَاخِرُ يُصَفُ
وَصَكَا اِذَا مَا مَعَشَرُ نَصَبُوا لَنَا * وَمَرَّتْ حَوَارِي طَبَرِهِمْ وَتَعَيَّوْا^(٢)
وَصَعَمَا لَمْ صَاعَ الْفِصَاصُ رَهِيَّةً * عَمَا سَوْفَ تُوفِيهَا اِذَا النَّاسُ طَلَعُوا^(٣)
اِذَا اسْتَقَى الْأَقْوَامُ مَجْدًا وَحَدَّثَا * لَأَ مَعْرَفًا مَعْدٍ وَلِلنَّاسِ مَعْرَفُ

ثم قال له : أَسَدُنا هَزَجًا، قال : وما المرح ؟ لعله القصيرا قال : نعم، فأنشده :

رَسْمُ دَارٍ وَقَفْتُ فِي طَلَلِهِ * يَكْدُ أَقْصَى الْحَيَاةِ مِنْ حَلَلِهِ^(٤)
وَحَشًّا مَا تَرَى بِهِ أَحَدًا * نَسَجَ الرِّيحُ تَرْبَ مَعْتَدِلِهِ
وَصَرِيحًا بَيْنَ الثَّمَامِ تَرَقَّى * عَازَفَاتُ الْمَدَبِّ فِي أَسَلِهِ
بَيْنَ عِلْيَاءِ رَائِثِ فُلَى * فَالْعِمِيمِ الَّذِي إِلَى حَلَلِهِ
وَأَقْصَى دِيَارِ أُمِّ حُسَيْرٍ * مِنْ مَحْضَى يَوْمِهِ إِلَى أَصْلِهِ
يَا حَلِيلِي إِنِّ أُمُّ حُسَيْرٍ * حِينَ يَدُورُ الصَّحْبُ مِنْ غَلَلِهِ^(٥)
رَوْصَةٌ دَائَتْ حَنَوَةً وَتُرَاوَى * حَادٍ فِيهَا الرِّبْعُ مِنْ سَلَلِهِ^(٦)
بَيْنَا مَحْنٌ بِالْأَرَاكِ مَعَا * اِذَا بَدَأَ رَاكِبٌ عَلَى بَحَلِهِ

(١) ترعف : قطردما . (٢) تعيوا : من العيافة، وهي رحل الطير والاعتزاز بأسمائها ومساكنها وأصواتها، فيستعد أو يقشاشم . . (٣) التطعم : قصر الكيل . (٤) من أحله . (٥) اللال : جمع علة، وهي ما يتوارى فيه أو شمار تحت الثوب . (٦) السبل : الحلو .

فَتَأْمُرْتُ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا • أَكْرِمِيهِ حَيْثُ فِي نَزْلِهِ
فَطَلَبْنَا بِعَمِيهِ وَأَتَمَكْنَا • وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةِهِ
قَدْ أَصَوْنُ الْحَسِيَّتْ دُونَ أَيْج • لَا أَخَافُ الْأَذْدَاءَ مِنْ قَبْلِهِ
غَيْرَ نَيْصٍ لَهُ وَلَا مَلَقِي • غَيْرَ أَنِّي أَتَمَحْتُ^(١) مِنْ وَحْلِهِ
وَحَلِيلٌ صَاحِبْتُ مَرْتَبِي • وَحَلِيلٌ فَارَقْتُ مِنْ مَلَكِهِ

ثم افتاد راحته موليا ، فقال ابن الأزهري • هذا أشعر أهل الإسلام ، فقال ابن حسان :
سم والله وأشعر أهل الجاهلية ، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيه ، فقال عبد الرحمن
ابن الأزهري : صدقت •

قال محمد بن سَلَام : كَانَ لَكُنْثَرٍ فِي السَّيْبِ حَطٌّ وَافِرٌ ، وَجَمِيلٌ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ وَعَلَى
أَصْحَابِ السَّيْبِ فِي السَّيْبِ ، وَكَانَ جَمِيلٌ صَادِقُ الصَّبَابَةِ وَالْمَشَقِّ ، وَلَمْ يَكُنْ كُنْثَرٌ مَاشِقٌ
وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَقَوَّلُ ، وَكَانَ الْبَاسُ يَسْتَحْسِنُونَ بَيْتَ كُنْثَرٍ فِي السَّيْبِ ، وَهُوَ :

أُرِيدُ لِأَنِّي دَكَّرَهَا مَكَامًا • تَمَثَّلُ لِي لَيْسَ بِكُلِّ سَبِيلٍ

وَرَأَيْتُ مِنْ يَعْصِلُ عَلَيْهِ بَيْتَ جَمِيلٍ :

حَلِيلِي - فَمَا عَشْتَاهُ لِي رَأَيْتُهَا • قَتِيلًا بِكِي مِنْ حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلُ

قِيلَ إِنَّ بَنِيَّةً وَاعِدَتْ جَمِيلًا أَنْ يَلْقِيَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ، فَأَتَى لَوْعَدَهَا ، وَهَاءَ أَعْرَابِي
يَسْتَصِيفُ الْقَوْمَ ، فَأُتِزَوْهُ وَقَرَّوْهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ رَأَيْتُ فِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي ثَلَاثَةَ مَرْتَعَاتٍ
مُتَوَارِينَ فِي الشَّجَرِ وَأَمَّا حَائِفٌ عَلَيْكُمْ أَنْ يَسْلُبُوا مَعْصَ الْبَكَمِ ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ جَمِيلٌ وَصَاحِبَاهُ ،
فَحَرَسُوا بَنِيَّةً وَمَعَهَا مِنَ الْوَفَاءِ بَوْعُهُ ، فَلَمَّا أَصْفَرَ لَهُ الصَّبْحُ انْصَرَفَ كَثِيرًا سِوَى الْفُلْهِ بِهَا
وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهَا ، فَبَعَثَ نِسَاءَ الْحَيِّ يَقْرَعْنَهُ بِذَلِكَ وَيَقْلُنَّ لَهُ : أَمَّا حَصَاتُ مِنْهَا عَلَى الْبَاطِلِ
وَالْكَتَبِ وَالْفَنَدْرِ ، وَغَيْرُهَا أَوْلَى بِوَصْلِكَ مِنْهَا ، كَمَا أَنَّ عِيْرَكَ يَحْكِي بِهَا • فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

فاجبُها بالمولد مدسئد * حبي بُيِّنَة عى وصالك شاعل
 أبشيك إلك قد ملكيت فاصحى ^(١) * وخذى بجطك من كريم واصل
 طرت عارصه علبا وصلها * بالحسد تحلظه بقول المارل
 لو كان فى صدرى كقذير قلامية * فضلا وصلتك أو أنتك رسائل
 ويقل إلك قد رصيت بباطل * منها مهل لك و اجناب الباطل
 ليُرلَى علك هواى ثم يصلنى * وادا هويت ها هواى بزال
 صادت فزادى ماثنى حالكم * يوم المحمون وأخطائك حبال
 مئتنى فلويت ما مئتنى * وجعلت عاحل ما وعدت كاحل
 وتناقلت لما رأت كلى ها * أحبب الى مذك من متناقل
 وأطعت فى عوادلا مهجرتي * وعصيت بك وقد جهدت عوادلى
 حاولتى لأبت حل وصالكم * متى ولست وإن جهدت بفاعل
 فرددتهم وقد سعت بهجركم * لما سعين له بأفوق باصيل ^(٢)
 يعصص من عيط على أمانلا * ووددت لو يعصصن صم جاديل
 ويقلن إلك يا بُشِين بحيلة * نفسى فداؤك من ضيق باحل

وقال حميل فى وعد شيبه بالطلاق وتأثرها قصيدة أولها :

يا صاح عى بعض الملامة أقصير * إلب المئنى لىماء أم المسور

ومها :

وكان طارقها على علل الكرى * والنجم وهما قد دنا لتعور
 ينساف ربح مدامه معجونة ^(٣) * بدكى مسك أو يحيق المسبر

(١) أحصى . أحسن العو . (٢) الأفوق . السهم الذى كبر فرفه ، وهو مشق رأس السهم حيث

يقع الوزر . واصل . لا صل فيه . (٣) ينساف - يشم .

ومنها :

إِنِّي لَأَحْفَظُ عَيْتَكُمْ وَيُسْرَتِي * اذْ تَذَكَّرِينَ بِصَالِحٍ أَنْ تَذَكَّرِي
وَيَكُونُ يَوْمٌ لَا أَرَى لَكَ مُرْسَلًا * أَوْ تَلْتَقِي بِهِ عَلَى حَكَايَاهِ
يَا لَيْتَنِي أَلْقَى الْمَيَّةَ مَتَّةً * إِنْ كَانَ يَوْمُ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقَدَّرِ
أَوْ اسْتَطِيعَ تَجَلُّدًا عَنْ ذِكْرِكُمْ * فَيُعْقِبُ بِمَنْ صَبَّاحِي وَتَعَكَّرِي

وفيه يقول :

لَوْ قَدْ تُخِّنُ كَمَا أُجِنُ مِنَ الْهَوَى * لَعَذَرْتَ أَوْ لَطَلَمْتَ إِنْ لَمْ تَعْنِرِ
وَأَقْبَهُ مَا لِلْقَلْبِ مِنْ عِلْمِهَا * عَيْرُ الطُّبُونِ وَعَيْرُ قَوْلِ الْخَسِرِ
لَا تَحْسَبِي أَنِّي هَمْرُكَ طَائِعًا * حَدَّثْتُ لَعَمْرُكَ رَائِعٌ أَنْ تُهَجَّرِي
فَلْتَكِينِ الْبَايَكُتَ وَإِبْ أَعْجُ * يَوْمًا سَرَكْتُ مُعَلِّيًا لَمْ أَصْدِرِ
يَهْوَاكَ مَا عَشْتُ الْعَوَادُ إِنْ أَمْتُ * بَنَعَ صَدَائِي صَدَاكَ بَيْنَ الْأَقْبَرِ
إِنِّي إِلَيْكَ بِمَا وَعَدْتِ لِنَظَرِي * نَظَرْتُ الْعَقِيرَ إِلَى الْعَنَى الْمُعْكَرِ
يَعْدُ الدِّيُونَ وَلَيْسَ يُجْزَى مَوْعِدًا * هَذَا الْغَرِيمُ لَنَا وَلَيْسَ بِمُعِيرِ
مَا أَمِيتَ وَالْوَعْدَ الَّذِي تَعِيدِينِي * إِلَّا كَبِيرِي سَحَابَةٍ لَمْ تُمَطِّرِ
قَلْبِي صَحَّتْ لَهُ فَسَرْدَةٌ نَصِيحَتِي * فَتَنِي هَمْرَتِيهِ فَمَهْ تَعَكَّرِي

وقال في إحلافها إِيَّاهُ هَذَا الْمَوْعِدُ :

أَلَا لَيْتَ رِيحَانَ الشَّبَابِ جَدِيدُ * وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُتَيْنِ يَمُودُ
فَتَنَنِي كَمَا كَانَا نَكُوبُ وَأَنْتُمْ * قَرِيبٌ وَادِ مَا تَذَكَّرِينَ زَهِيدُ
وَمَا أَنْسَ مِلْأَشْيَاءَ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا * وَقَدْ قَرَبْتُ نِصْوِي أَمْرَ رِيدِ
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعِيُونُ الَّتِي تَرَى * أَتَيْتُكَ فَاعْذِرْنِي فَدَتَكَ جَدُودُ
حَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ ظَاهِرُ * وَدَمِي بِمَا قُلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ

ألا قد أرى والله أن ربَّ عبْرٍ = إذا الدار شطَّطت بيننا سترِيد
 إذا قلتُ ما بي يا شَيْسَةً قاتِلٍ * من الحبِّ قالتُ ثابتٌ ويزيد
 وإن قلتُ رُدَّتْ عَضُّ عَقْلِي أَعِشْ به * مع الناس قالتُ ذاك ملك بعيد
 فلا أنا مردودٌ عما حثُّ طالًا * ولا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ
 جرتك الجوازي يا بَينَ ملامَةٍ * إذا ما حليلٌ بَانَ وهو حميد
 وقلتُ لها بَني وبيدك فاعلمي * من الله ميثاقٌ له وعهود
 وقد كابر حُبِّكم طريقًا وتالذا * وما الحبُّ إلا طارِفٌ وتليد
 وإن عَرَوْضَ الوَصْلِ بَني وبينها * وإن سَهَّته المني لَتَصْعود
 فأميتُ عيشي بانتطاري بوالها * وأبليتُ ذاك الدهرَ وهو جديد
 طبت وُشاةُ الناس بي وبينا * يدوِّفُ لهم سُمًّا طاطمٌ سُود^(٢)
 وليت لهم في كلِّ مُتَمَتَّى وشارِقٍ * تصاعفُ أكبالٌ لهم وقبود
 ويحسب سوانٌ من الجهل أني * إذا جثُّ لِيَأْهَنَ كَتُّ أُرِيد
 فأقيم طَرْفِي بينهم فيستوي * وفي الصدر بَوْتُ بينهم بعيد
 ألا ليت شِعْري هل أبيتَ لَيْلَةً * وادى القَرْىَ إلى إذا لسعيد^(٣)
 وهل أهيطنُ أرضًا تَطْلُ رِيأُهَا * لها بالثايا القوايات وثيد^(٤)
 وهل ألقين سَعْدِي من الدهر مرة * وما رَثَ من حل الصعاء جديد
 وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسِهِ * وقد تُطَلَّبُ الحاحاتُ وهي بعيد^(٥)
 وهل أزحَنُ حَرْفًا عَلَاهَ شَيْئَلَةٌ * بحرق ثَبَرِهَا سَوَاهُمُ قُودُ^(٦)
 على طهر مرهوبٍ كان شَوْزَه * إذا جاز هُلَاكُ الطريق رُقود

(١) العروض الطريق في حرص الحل في مصق - يريد الطريق إلى وعلها . (٢) يدوِّف :
 يمحط . وطاطم . جمع ططم وهو من لسانه محبة ، وأراد بالطاطم ها : الموال . (٣) القاريات :
 الحاليات . (٤) الويد . الصوت العالي الشديد . (٥) الحرف : الناقة الصامرة الصلبة . واللالة .
 المشرفة الصلبة . والشملة : الرميعة . والحرق : الأرض الواسعة . والسامحة . الناقة الصامرة .

سَهْنِي مَعِي جُوْدِرَ وَسَطَ رَبِّبِ * وَصَدِرَ كَعَاتُورِ الْأَجْبِي وَجِيدِ^(١)
 تَرِيْفٌ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سِلْعَاتِهَا * مُهَابِيَةٌ طَلَا الْوُشَاحَ مَيْسُودِ^(٢)
 إِذَا حَتُّهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَائِرًا * تَمَرُّضُ مَقْوُضِ الْيَدَيْنِ صُدُودِ
 يَصُدُّ وَيُنْفِضِي عَنْ هَوَايَ وَيَمْنِي * دُونَهَا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَعُودِ
 فَاصْرِفْهَا حَوْفًا كَمَا نِيَّ مُجَانِبُ * وَيَسْأَلُ عَا مَرَّةً مَعُودِ
 فَنَ يُنْعَطُ فِي الدُّنْيَا قَرِيْبًا كَتَلَهَا * فَدَلِكُ فِي عَيْشِ الْحَيَاةِ رَشِيدِ
 يَمُوتُ الْمَهْزُومُ مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَهَا فَيَعُودِ
 يَقُولُونَ حَاحِدًا يَا جَمِيلُ مَفْزُودِ * وَأَيُّ حِمَاةٍ عِبْرَةٍ أُرِيدِ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ يَنْهَنُ بِنَاشَةٍ * وَكُلِّ قَتِيلٍ يَبْهَرُ شَهِيدِ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَيٍّ بُنْيَئَةٍ يَمْتَرِي * فَيَرْقَأُ دِي صَالٍ عَلَى شَهِيدِ
 أَلَمْ تَعْلَمْ يَا أُمُّ دِي الْوَدْعِ أُنَى * أَصَاحِكُ دَكَرَاكُمُ وَأَيُّ صَلُودِ

بعثت أمةً لثيمة إلى أيها وأحبها وقالت لها: إن حيلة عددا الليلة، فأتيناها مشتعلين
 على سيمين، فرأى به جالساً منها محمراً يحذرنا ويشكو لها بشه، ثم قال لها: يا ثيمة، أرايت ودي
 إياك وشقي لك ألا تجزيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحايين، فقالت له:
 يا جميل، أهدا تبعي! والله لقد كنت عدى سيذاً مه، ولئن عاودت تمرضاً بريئة لا رأيت
 وجهي أبداً! فصحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمتُ
 أنك تجيبيني لعلمتُ أنك تجيبين غيري، ولو رأيتُ منك مساعدةً لصرتُك بسبي هذا
 ما استمسك في يدي، ولو أطلعني همي لهجرتُك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُنْيَئَةٍ مَالَذَى * لَوْ أَسْهَرَ الْوَاشِي لَقَسَرْتُ بَلَاءَهُ
 بَلَا وَمَالَا أَسْتَطِيعُ وَبِالْمُنَى * وَالْأَمِيلُ الْمَرْحُوقُ قَدْ حَابَ أَمَلُهُ
 وَبِالنَّظَرَةِ الْعَبْلُ وَالْحَوْلُ يَقْصِي * أَوَانُهُ لَا تَنْتَقِي وَأَوَانُهُ

(١) الفاتور: الحوان من رطام أروسة أودع. (٢) في البيت إقراء، وهو اختلاف حركة الروي

فقال أوهها لأخيها : قم بنا ، فإني لست نرى لك بعد اليوم أن نرى هذا الرجل من لفتها
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إن المازل هيَّجت أطراي * وأنسجت آياتها بحواي
فقرأ تلوح بذى اللحن كأنها * أنصاء رسم أوسطور كتاب
لما وقفت بها القلوب تادرت * منى الدموع لفرقة الأحباب
ودكرت عصرا يا بشية شاقى * ودكرت أباي وشرح شبابي

لما ندر أهل بشية دم جميل وأهدره لهم السلطان صاقت الدنيا بجميل ، فكان يسه
بالليل على قوز رمل يتنمَّ الریح من نحو حى بشية ويقول :

أيا ریح الشمال أما ترينى * أهيم وأى يادى الحويل
هى لي تسمه من ریح ثنى * ومنى الملبوب الى جميل
وقولى يا بشية حسب نفسى * قليلك أو اقل من القليل

ومن قوله :

بيك جميل كل سوء أما له * لديك حديث أو اليك رسول
وقد قلتى حى لكم وصباي * عاصن شعرد كرم يطلو
فان لم يكن قولى رصاك فعلمى * هبوب الصبا ياشن كيف أقول
فما غاب عن عيني خيالك لحظة * ولا زال عنها والخيال يزول

ومنه :

حليلي عوحا اليوم حتى تسلمنا * على عدبة الأنبياء طيبة النثر
أليها ثم اشفعنا لى وسلمنا * عليها سقاها الله من سائم القطر

إذا مادنتِ زِدْتِ اشتياقاً وإن نأتِ * حرِعتُ لآي الدار منها وللبعد
أبي القلب إلا حبّ بشة لم يرد * سواها وحبّ القلب شدة لا يحصى

وفيها يقول :

سلى الركب هل غمّا لغمّاك مرة * صُدور المطاما وهي موقرة تحدى^(١)
وهل فاضت العينُ الشروقُ بمائها * مِن أحلكِ حتى أحصل من دمها ردى
وإني لأستحري لكِ الطبرَ ساهداً * لتحري ثمنى من لقاءك أو سغد
وإني لأستكي إذا الركبُ غردوا * بذكرالك أن يحيا لك الركب إذ يحدى
قهل تحزيتي أم عمرو وودعا * فان الذي أضحى بها فوق ما أبدى
وكل عت لم يرد فوق عهد * وقد ردتها في الحب مي على العهد

ومن قوله فيها :

لها في سواد القلب حب ومعة * هي الموت أو كادت على الموت تُعرف
وما دكرتك العصى يا بنت مره * من الدهر إلا كادت العصى تلف
وإلا اعترى زفرة واستكانة * وحاد لها تحمل من العين يذرف
وما استطرفت نهي حديثاً حللة * أسر به إلا حديثك أطرو

وأقول هذه القصيدة .

أين منيل فقير تعفت رسومه * شمائلُ تُعاديه وبكاء حَرْحَف^(٢)
فأصبح قمرًا بعد ما كان أهلاً * وبُحُلُ المني تشوبه ونصيف
ظليلٌ ومُسْتَق من الدمع هاملٌ * من العين لما عثت بالدار نيف
أُنصِفي جمل قصيدَ بيننا * إذا حكيت والحاكم العدل يُصِف
تعلقُها والجسم مني مصعع * ها زال بيتي حب جيل وأصعِف

(١) موقرة . محلة الوقوف وهو الجمل . وحدى العير يحدى . أسرع وروح فوائمه .

(٢) الحَرْحَف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُئِلَ حَسْبِي وَشَفَعِي * وَأَمَرْتُ مَنْ نَعَسَى الَّذِي كَتَّ أَعْرَفَ
 قَسَاةً مِنَ الْمُرَاتِ مَا مَوَى حَقَّوْهَا ^(١) * وَمَا تَحَنَّنَ مِنْهَا نَفَا يَتَقَصَّفُ ^(٢)
 لَهَا مُقَلَّتَا رِيمٍ وَجِيدٌ جَدَايَا ^(٣) * وَكَشَحُ كَطَلَى السَّابِرَةِ أَهْيَفُ
 وَلَسْتُ بِبَاسٍ أَهْلَهَا حِينَ أَقْبَلُوا * وَجَالُوا عَلَيَا بِالسِّيَوفِ وَطَوَّفُوا
 وَقَالُوا جَمِيلٌ مَا تَرَى الْحَيَّ عَدَا * وَقَدْ حَارَدُوا أَسْيَافَهُمْ ثُمَّ وَقَفُوا
 وَفِي الْبَيْتِ لَيْثٌ الْعَابِ لَوْلَا غَفَاةٌ * عَلَى هَمٍّ حَمَلٍ وَالْإِلَهِ لَأُرْعِهَوُا
 هَمَّتْ وَقَدْ كَانَتْ مَرَارًا تَطْلَعُ * إِلَى حَرْبِهِمْ نَفْسِي وَفِي الْكَفِّ مَرْهَفُ
 وَمَا سَرَّتْنِي غَيْرُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ * وَفَنِي وَقَدْ حَامُوا إِلَيَّ وَأَوْجَعُوا
 فَمَكِّ مَرْجَحٍ أَمْرًا أَتَيْجُ لَهُ الرَّدَى * وَمَنْ حَائِفٌ لَمْ يَتَقَصَّصْ التَّخَوُّفَ
 وَمِنْهَا :

أَلَمْ تَمُتْ وَرَقَاءُ طَلَّتْ سَفَاهَةً * تُسَكِّي عَلَى حَمَلٍ لُورِقَاءَ تَتَبَّعُ
 فَلَوْ كَانَتْ لِي بِالْمَرْمِ بِاصْبَاحِ طَاقَةٌ * صَرَمْتُ وَلَكِنِّي عَنِ الصَّرْمِ أَصْعَفُ

قيل : إن مروان طلب إلى جميل أن ينزل بهرجر به ، وهو يريد أن يمدحه ، ففرل
 جميل فقال .

أَمَا جَمِيلٌ فِي السَّامِ الْأَعْظَمِ * الْفَارِغِ النَّاسِ الْأَعَزِّ الْأَكْرَمِ
 أَجْمَعِي ذِمَّارِي وَوَجِدْتُ أَقْرَمِي ^(٤) * كَانُوا عَلَى عَارِبٍ طَوْدٍ حَصْرَمِ ^(٥)
 * أَعْيَا عَلَى النَّاسِ فَلَمْ يُهَيِّمُ *

فقال : عَدَّ عَنْ هَذَا ، فَقَالَ جَمِيلُ :

لَهَا عَلَى الْبَيْتِ الْمَعْدَى لَهَا * مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ قَدْ اسْتَكْفَا
 وَلَوْ دَعَا اللَّهُ وَمَدَّ الْعَصَا * لَرَجَعْتَ مِنْهُ الْبِلَادُ رَجَفَا

(١) الحقير : الحصر . (٢) يتقصص : يتبيل ويتقطع صخر من صخر . (٣) الحداية :
 المראה . والسابرة : ثوب من أحرد الثياب منسوب إلى سابور على غير قياس . (٤) يبرحه : يشده
 أرسوزة . (٥) أقرم : جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) حصرم : طليم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميلٌ في السَّامِ من مَعَدٍّ * في الذروة العلياء والركن الأشدَّ
والبيت من سعد بن زيد والعَدَدُ * ما يتخى الأعداءُ منى ، ولقد
أُصِرِّي بالشَّيْءِ لاني وعرَدَ * أقودُ من شئتُ وصَغِبْتُ لم أقدُ
فقال له الوليد : اركبْ لاحتلك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مُرَاجِرَةِ جَوَاسِ رِ قُطَّةَ ، وكان ذلك بوادي القُرى .

يا أُمَ عبدِ المَلِكِ آمِيرِني * فَبَنِي صَرِيٍّ أَوْ صِلِني
أُنْكِ وما يُدْرِيكَ ما يُكْبِي * أبْكِ حِذَارَ أُنْ تُقَارِقِني
وتَحْمِلِ أَعْدَى مَنِي دُونِي * إِنْ بِي عَمَّكَ أَوْعِدُونِي
أَنْ يَظْلَمُوا رَأْسِي إِذَا لَقُونِي * وَيَقْتُلُونِي ثُمَّ لَا يَدُونِي^(١)
كَلَّا وَرَبُّ الْبَيْتِ لَوْ لَقُونِي * شَفَعًا وَوَرَثًا لَتَوَاكَلُونِي^(٢)
قَدْ عَلِمَ الْأَعْدَاءُ أَنَّ دُونِي * صَرِيًّا كَأَيَّامِ الْخَصَاصِ الْجُونِ^(٣)
أَلَا أَسْتَظْهِمُ إِذْ سُوِي * نَلَّ وَمَا مَرَّ عَلَى دُهَيْنِ
وَسَابِحَاتٍ يَلْوِي الْخُحُوبِ * قَدْ جَزَوْنِي ثُمَّ جَزَوْنِي
حَتَّى إِذَا شَاوُوا وَشَيَّوِي * أَنْهَارُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَحْزُونِي
أَشْبَاهُ أَصْيَارٍ عَلَى مَعِينِ * أَحْسَنَ حَسَنِ أَسَدٍ حَرُونِ
مَهْنٌ يَضْرِبُنَ مِنَ الْبَقْرِ * أَنَا جَمِيلٌ فَتَعْرِفُونِي
وَمَا تَقَعْتُ فَتُكْرُونِي * وَمَا أُعْجِبُكُمْ لَتَسْأَلُونِي

(١) يدوني : من الغيبة وهي ما يعلى لولي القاتل من المال بذل العس . (٢) تواكلوني . تركوني .

(٣) أوردت الياقة سولها . دمت به دعة دعة . ومه الطمة تورع باللهم أى ترمى به كذلك .

أُمِّي إِلَى مَادِيَّةٍ طَحُونُ * يَنْشَقُّ عَنْهَا السَّيْلُ ذُو الشُّوْنِ
عَمْرِي زَفَّ رُجْحُ السَّعِينِ * ذُو حَدَبٍ إِذَا بَرَى جَمُونُ^(٢)
* تَحَلَّلَ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *^(٣)

ومن قوله يمدح أخواله من جذام :

حُدَامُ سَيُوفِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * إِذَا أَرِيتُ يَوْمَ الْإِقَاءِ أَزَامُ^(٤)
هُمْ مَعَا مَا بَيْنَ مِصْرَ هَدَى الْقَرْيَ * إِلَى النَّامِ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامِ
بَضْرِبِ بُزَيْلِ الْهَامِ عَنْ سَكَاتِهِ * وَطَعْنِ كَيْزَاعِ الْخَفَاضِ تُؤَامُ
إِذَا قَصُرَتْ يَوْمَا أَكُفِّ قَبِيلَةٍ * عَنْ الْحَبْدِ ثَالِثُهُ أَكُفِّ جُدَامِ

اجتمع جميل وعمرس أبي ربيعة بالأطح، فأنشده جميل قصيدته :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأَشُونُ أَنْ صَرَمْتَ حَلِي * بُثِينَةُ أَوْ أَبَدْتُ لَنَا جَانِبَ الْخُلِ
يَقُولُونَ مَهْلًا يَا جَمِيلَ وَإِنِّي * لِأَقْسِمُ مَا بِي مِنْ بُثِينَةٍ مِنْ مَهْلِ
أَحْبَبْنَا فَقَبِلَ الْيَوْمَ كَانَ أَوَاهُ * أَمِ أَخْتِي فَقَبِلَ الْيَوْمَ أَوْعَدْتُ بِالْقَتْلِ
لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي نُبَيْهَا طَلِيمَةً * لَطِيمَةً طَى الْبَطْنِ ذَاتَ شَوَى جَرَلِ
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا سَاعِيًا بِجِمَّةٍ * لِأَخْرَلِمَ يَعْمِدُ نَكْفٍ وَلَا رَجَلِ
إِذَا مَا تَرَجَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَيْتَةً بِالْكُمْلِ
كَلَامًا بَنَى أَوْ كَادَ يَنْبِكِي سَبَابَةً * إِلَى الْإِلَهِ وَأَسْتَجَلَّتْ مَبْرَةً قَبْلِ
هَلْوِ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَسْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَّابِهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِ
قِيَاوَتِي نَفْسِي حَبْنِ نَفْسِي الَّذِي بَهَا * وَيَاوِيحِ أَهْلِي مَا أُصِيبَ بِهِ أَهْلِي
وَقَالَتْ لَا تَرَابٍ لَهَا لَا زَمَافٍ * قِصَارُ وَلَا كُفْسُ الثَّنَائِيَا وَلَا تُعْلِلُ^(٥)

(١) يرف يصلها تسرع . (٢) دوحذب دوح . (٣) هوت : سوح .

(٤) أريت : اشقت . (٥) الكس حركة : قصر الأسنان أو صعرها أو لصوقها بسورها .

نعلت سه ولته هي نعلها : تراكت أسانها .

ادا حَيْثُ شَمْسُ الْهَارِ أَتَتْهَا * مَأْكِسَةَ الدِّسَاجِ وَالْخَزْدَى انْخَلِيل
 تَدَاعَيْنِ فَأَسْتَجِمْ مَشْيًا بِدَى الْمَقَى * دَرِبَ الْقَطَا الْكُذْرَى فِي الدَّمْتِ الْبَهْل
 ادا آرْتَمَنَ أَوْ فَرَّغَنَ فَنَ حَوَالَهَا * قِيَامَ سَاتِ الْمَاءِ فِي حَانِبِ الصُّعْل^(١)
 أَجْدَكَ لَا أَلْقَى ثُنَيْنَةً مَرَّةً * مِنْ التَّهَرُّ إِلَّا حَانِيفًا أَوْ عَلَى رِجْلِ
 حَلْبَلَى فَيَا عَشْتًا هَلْ رَأَيْتَا * قَتِيلًا بَكَى مِنْ حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلُ
 أَيْتُ مَعَ الْمَلَأْكَ صَيْفًا لِأَهْلُهَا * وَأَهْلٍ قَرِيبٍ مُوسِعُونَ دَوُوَ فَفَصَل
 أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي حِيلَ دُونَهُ * يَا أَتَ مِنْ بَيْتِي وَأَهْلُكَ مِنْ أَهْلِي
 ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ فَبَيْتُ أَحَبَّهُ * وَيَتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي
 وَقَالَ فِي هِجْرِهِ هِجْرَتُهُ لِإِيَّاهَا بَشِيَّةً :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّعْجَ الْقَوَاءَ فَيَسْطِقُ * وَهَلْ تُحِزُّنُكَ الْيَوْمَ بَيْتِدَاهُ سَمِيقُ^(٢)
 وَقَعْتُ هَهَا حَتَّى تَحُلَّتْ عَمَائِي * وَمَلَّ الْوُقُوفُ الْأَرْحَى الْمُسَوِّقُ^(٣)
 تَمَزَّ وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ * لَعَلَّكَ مِنْ رِقَى لَبَنَةٍ تَمْتَقُ
 لَعَمْرُكَ إِنْ الْبِعَادَ لَشَانِي * وَسَعَى سَادِ الْبَيْنِ وَالْبَايَ أَشُوقُ
 لَعَلَّكَ عَزُوزٌ وَمُنْدٍ صَابَهُ * وَمُظْهِرٌ شَكْوَى مِنْ أَنْاسٍ تَفْزُقُوا
 وَبِيضٌ غَيْرِ رِيَاتٍ تُنْقَى خُصُورُهَا * إِذَا فَنَ أَعْبَارُ تَقَالٍ وَأَسْوَاقُ
 عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنِ رُؤْسَ مَعِيْشَةٍ * يُحَيِّ بِهِنَّ السَّائِلُ الْمَتَوَقُ
 وَغُلْفَتُ مَنْ وَجَدَ إِلَيْهِنَّ مَدَامَا * سَرَيْتُ وَأَحْشَانِي مِنَ الْخُوفِ تَحْمُقُ
 مَعِي صَارُمٌ قَدْ أَحْلَصَ الْقَيْئَ صَقْلَهُ * لَهُ حِينَ أُعْشِيهِ الصَّرِيَّةَ رَوْنِي
 فَلَوْلَا أَحْتِيَائِي صِقْنِ دَرْعًا بَزَائِرٍ * بِهِ مِنْ صَبَابَاتِ الْبَيْنِ أَوْلَقِي^(٤)

(١) سَاتِ الْمَاءِ . مَا يَأْتِي الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ وَالطَّيْرِ وَالْمَعَادِعِ (أَطْرَافِ الْمَصَافِ وَالْمَصَافِ إِلَيْهِ) .

(٢) الصُّعْلُ . الْمَاءُ الْقَلِيلُ عَلَى الْأَرْضِ لَا يَمْتَلِئُ لَهُ . (٣) الْمَلَأْكَ : الصَّالِكُ . (٤) السَمِيقُ :

الْقَاعُ الصَّغِيرُ . (٥) الْأَرْحَى : الْعَجَلُ الْحَبِيبُ دَسَّةً إِلَى أَرْحَبٍ وَهِيَ قَبِيلَةٌ مِنْ هَمْدَانَ تَسَبَّ

إِلَيْهَا الْعَائِلُ الْأَرْحَى . وَالْمَتَوَقُ : الْمَحْسُ الْمَرْبُ . (٦) أَوْلَقِي : حَوَدُ .

تُسَوِّكُ مُقَضَّبَانِ الْأَرَاكَ مُقْلَعًا * يُشَعِّعُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرَوَّقَ
إِبْنَةُ لِلْوَصْلُ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * هَذَا مِثْلُ مَا يَنْصُو الْخِلَاصُ فَيَحْلُقُ
أَشْهَ مَا تَنَابَرَ إِلَّا كَأَنِّي * بِجِجَمِ الثَّرِيَا مَا نَايَتْ مُعَلَّقُ

قال الرشيد لإصحاق الموصلي : أنشدني أحسن ما يُحِبُّ في عتابٍ نُحِبُّ وهو طالم

مَتَعَّبٌ ، فأنشده قول جميل :

رَدِ الْمَاءَ مَا حَادَتْ بَصْفُودَاتُهُ * وَدَعَهُ إِذَا خِيَصَتْ طَرُقُ مَشَارُهُ
اعَابُ مَنْ يَحْلُو لَدَى عَتَابِهِ * وَأَتْرَكَ مَنْ لَا أَشْتَبِي وَأَحَابِهِ
وَمِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَسَتْ طَالِمًا * عَاقَكَ مَظْلُومًا وَأَتَتْ تَعَابِيَهُ

ومن قوله في زيارة له :

زُورًا بِشِمَةِ فَالْحَيْبُ مَزُورٌ * إِنْ الزَّيَارَةُ لِلْحَبِّ يَسِيرُ
إِنْ التَّرَحُّلُ أَنْ تَلْبَسَ أَمْرًا * وَأَعَانَا قَدَرُ أَحْمُ مَكُورُ
إِلَى عَشِيَةِ رُحْتُ وَهِيَ حَرِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَابَةِ لَهْصُورُ
وَقَوْلِيَتْ عَدَى هَدْيِكَ لَيْلَةً * أَشْكُو إِلَيْكَ إِنْ دَاكُ يَسِيرُ
عَرَاءُ مِهْسَامٍ كَأَنَّ حَدِيثَهَا * دُرٌّ تَحْدَرُ نَفْطُمُهُ مَشُورُ
مَحْطُوطَةُ الْمَتْنِ مَعْصَرَةُ الْحَقِّ * رِيَا الرَّاوِفِ حَلَقُهَا تَمْكُورُ
لَا حُسْنَهَا حُسْنٌ وَلَا كَدَلَامَا * دَلٌّ وَلَا كَوَقَارَهَا تَوْقِيرُ
إِنَّ السَّانَ ذَكَرَهَا لَمْ يَكُلْ * وَالْقَلْبُ صَادٍ وَالْخَوَاطِرُ صُورُ
وَلَنْ حَرِيَتْ الْوَدَّ مَنَى مِثْلَهُ * إِنْ بَدَلَكَ يَا سُبَيْنَ جَدِيرُ

وعَلَّهُ فِيهَا أَبْنُ عَمِّهِ رَوَّقٌ ، فَقَالَ :

لَقَدْ لَامَنِي فِيهَا أَحُّ ذَوْ قَرَابَةٍ * حَيْبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
وَقَالَ أَيْقُ حَتَّى مَنَى أَنْتَ هَائِمٌ * بِشِمَةِ فِيهَا قَدْ تُمِيدُ وَقَدْ تُشْدِي

(١) الطُّرُقُ الْمَاءُ الَّذِي حَرَمَهُ الْأَبْلُ وَفُتِلَ فِيهِ وَصُرَتْ .

(٢) مَحْطُوطَةُ الْمَتْنِ مَعْدُودَتُهُمَا . وَالْمَكُورَةُ : الْمَطْوِيَةُ الْحَقُّ .

قلتُ له فيها قصي الله ما ترى * على وهل بما قصي الله من رد
 فإن يك رُشدًا حبها أو عوابة * همد حشيه، ما كان متى على عمد
 لقد لجّ ميثاقُ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِ الله من عهد
 فلا وأبها الحير ما خست عهدا * ولا لي علمٌ مآلدي فعلت مدي
 وما رادها الواشون إلا كرامة * على وما زالت مودتها عدى
 أو الماس أمثالى أحب لحالم * كحلى أم أحببت من بينهم وحدى
 وهل هكذا يلقى المحنون مثل ما * لقيتُ بها أم لم يجد أحدٌ وحدى

وقال فيها :

حليلٌ عوفا اليوم حتى تُسَلِّما * على عذبة الأنبياء طيبة النشر
 أليما بها ثم أنفعا لي وسَلِّما * عليها سقاها الله من سائح القطر
 وئوبا بذكرى عذبة وأنظرا * أرتاح يوما أم تهش إلى ذكرى
 فإن تك لم تقطع قوى الود بيننا * ولم تس ما أسلفت في ألف الدهر
 فكيف يرى منها أشتياق ولوعة^(١) * بيني وعزبت من مدامعها يحرى
 وإن تك قد حالت عن المهد مدنا * وأصعبت إلى القول المؤنب والمزرى
 وسوف يرى منها صمودٌ ولم تكن * - بنفسى - من أهل الحياة والدر
 أعوذ بك اللهم أن تشحط ألوى * بشة في أدنى حياي ولا حشري
 وجاور إذا ما مث بني وبينها * يا حندا موتى ادا حاورت قمرى
 عديمك من حب أمّا منك راحة * وما لك عني من توائ ولا قتر
 ألا أيها الحب المبرج هل ترى * أحا كليل يُفري بحث كما أغبرى
 أجندك لا يتلى وقد بلى الهوى * ولا ينتهى حتى شبة للزحر

(١) هكذا وردت «مكيب» ولها صوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

قَفِي تَسْلُ عَمَكِ الْفُسُ بِالْخَطَةِ الْتَى * تُطِيلُ نَحْوِي بِهَا وَوَعْدِي
فَقَدْ طَالَ مَسِيرُ شَكْوَى قَيْحَةٍ * رَصَبًا بِحَكِّ مَكِّ غَيْرِ سَدِيدِ

ومنه :

شَيْتَ سَلْبِي مَصَّ مَالِي إِيَّامَا * يُبَيِّنُ عَدَّ الْمَالِ كُلِّ بِحِيلِ
إِنِّي وَتَكَرَّرَ الرِّيَاةُ بِحُوكَمِ * لَكِنَّ مَدَى هَجْرِ شَيْتَ طَوِيلِ
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَقُولِينَ مَدَا * إِذَا نَحْنُ أَزْمَعَا عَدًّا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَّامَا مَضَيْنِ رَوَاجِعُ * وَلَيْتَ الْوَيْ قَدْ سَاعَدَتِ بِحِيلِ

ومنه :

أَتَمَحَبُّ أَنْ طَرِبْتُ لَصَوْتِ حَادٍ * حَادًا بَزْلًا يَسْرُنُ سِطِي وَادٍ
فَلَا تَحْثُ فَإِنْ أَلَحْتَ أَمْسِي * لَشَمَةِ فِي السَّوَادِ مِنَ الْعَوَادِ

ومنه :

حَلِيلَ عَوْصًا بِالْخَلَّةِ مِنْ جُنُلِ * وَأَتَرَابَهَا مِنَ الْأَصْبَفِرِ وَالْخُلُبِ
نَقِفْ عَمَّا قَدْ عَمَّا رَسَمَهَا إِلَيَّ * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالْزَيْجِ وَالْوَبْلِ
فَلَوْ دَرَحَ الْخَلُّ الصِّغَارُ بِحِلْدِهَا * لِأَتَدَبَّ أَعْلَى جِلْدِهَا ، لَمَرَحُ الْخَلِّ
وَأَحْسَنُ حَلَقِي أَفْهَ حَيْدًا وَمُقَلَّةً * تُثْنِي فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِ الْفُطْلِ^(١)

ومن قوله :

أَيْمُكَ سَرَى يَا شَرَّ طَيْفٍ تَأَوَّمَا * هُدُّوا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا
عَيْتُ لَهُ أَنْ زَارَ الْبُؤْسَ مَصْجَبِي * وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِفًا كَانَتْ أَعْجَابَا

لما قديم جميل من الشام بلغ بشينة حبرة ، فرأسله مع بعض نساء الحى تذكر شوقها
إليه ووجهها به ، وطلبها لليلة في لقائه ، وواعده لموضع يتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها

(١) الطلل : الرمح اللامع من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بصددها ، وقد كان أهلها رصدها ، فلما قدوها تيمها أبوها وأحواها
 حتى هجا عليهما ، فوثب جميل فأتى سيقه وشد عليهما ، فألقىاه بالحرب ، وشدته بنية
 الله إلا أنصرف ، وقالت له : إن أقت فصحتي ، ولعل الحى يُلحقوك ، فأبى وقال :
 أنا مقيم وأمضى أنت وليصنعوا ما أحوا ، فلم تزل تنأشه حتى أنصرف وقال في ذلك ،
 وقد هجرته وأقطع التلاق بينهما مدة :

هي الدر حُسنًا والنساء كواكب * وشَتان ما بين الكواكب والدر
 لقد فُصلت حسنًا على الناس مثل ما * على ألف شهر فُضلت ليلة القدر

وقال :

لقد خفت أن يفتال الموت عتوة * وفي النفس حاجات اليك كما هيأ
 وإنى لثني الحفيظة كلما * لقيتك يوما أب أبك ما يب
 ألم تعلمي يا عذبة الرقيق أني * أظلل إذا لم أسق ريقك صايدا
 ورحل إلى مصر فادركته بها منيته ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صدع البئ وما كفى بجميل * وتوى بمصر تواء غير قُعود
 ولقد أجر الذيل في وادي القرى * تشوان بين مزارع ومحيل
 قومي بنية فأندبني بـويل * وأبكى حيلك دون كل حيل
 ولما أنشئت بنية قول جميل قالت :

وإن سئوى عن جميل لساعة * من القهر ما حانت ولا حان جِها
 سؤاء طينا يا جميل بن معمر * إذا مت بأساء الحياة وإنها

وقال :

رَحَلَ الخليلط جِمالهم بسواد * وحدًا على أثر البخيلة حادى
 ما إن شمرت ولا تيمعت بيتهم * حتى سمعت به الغراب ينادى

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْتَ قُلْتُ لِصَاحِبِي * صَدَعَتْ مُصَدَّعَةُ الْقُلُوبِ فَوَادِي
نَانُوا وَعُودِرَ فِي الدِّيارِ مُتَسِمٌ * كَلِّفَ بِذِكْرِكَ يَا بُنَيَّةُ صَادِي

وقال أيضا :

حَلِيلٌ هَلْ فِي نَظْرَةِ صَدِّ تَوْبَةٍ * أَدَاوَى بِهَا قَلْبِي عَلَى بَحُورِ
الْدُرُجِ الْأَكْمَالِ هَيْبُ حُصُورِهَا * عَذَابِ النَّسَايَا رِيقُهُنَّ طُهورِ
تَذَكَّرْتُ مَنْ أَصَحَّتْ قُرَى اللَّذْدُونَةِ * وَهَضَبُ لَيْثِيَا وَالْمِضَابُ وَعُورِ
عَطَلْتُ لِمَيْتِكَ الْجُوحَيْنِ عِبْرَةً * يَجِيجُهَا بَرْجُ الْهَوَى تَمُورِ
عَلَى أُنَى الْمَبْرُوقِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قَصُرَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ بَصِيرِ
وَإِنِّي إِذَا مَا الرِّيحُ يَوْمًا تَسَمَّتْ * شَامِيَّةٌ عَادَ الْعِطَامُ قُنُورِ
إِلَّا بِأَعْرَابِ الْبَيْتِ تَوْنُكَ شَاحِئٌ * وَأَتَتْ بَرَوَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرِ
إِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَأَصْبَحْتُ * هُمُوكَ شَتَّى وَالْجَسَاحُ كَبِيرِ
وَذُرْتُ مَاعِدَاءَ حَبِيكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَانِي مَالِحِبِ أَدُورِ
وَكَيْفَ مَاعِدَاءَ كَأَنَّ عِيونَهُمْ * إِذَا حَابَ لِإِثْنَانِي بُنَيَّةُ عُورِ
فَإِنِّي وَإِنْ أَصَحَّتْ مَالِحِبُ عَالِمَا * عَلَى مَا يَغِيْبِي مِنْ قَدَى تَلْبِيرِ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا شَيْئَةً تَنْتَفِي * يَمْنِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَى يَمْنِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا حَاءَ سَتَى رَسُولُهَا * وَقُلْتُ لَهَا صَدِّ الْبُهْمِ سَلِيلِي
سَلْبِي مَالِي يَا بُنَيَّةُ فَمَاعَا * يُبَيِّنُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَبْنِي
لَمَّا لَكَ لَمَّا حَبَّرَ النَّاسُ أُنَى * أَسَاؤُ طَهْرُ الْغَيْبِ لَمْ تَسْلُبْنِي
فَأُثْلِي عُذْرًا أَوْ أَجْبَأَ بِشَاهِدِ * مِنْ النَّاسِ عَذْلٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونِي
وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَى قَائِلِ * لَهَا بَعْدَ صَرِيحِ يَابُنَيَّةِ سَلْبِي

وَبُنِيتُ قَوْمًا بِكَ قَدْ نَدَرُوا دِي * فَلَيْتَ الرِّجَالِ الْمُؤَصِّدِينَ لِقَوِي
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا عَنِ حَابِي * يَقُولُونَ مَنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ * وَقَدْ تَرَكَوا هَؤُلَاءِكَ صَرَصَاحِ
فِيَالِكَ مَنْظَرًا وَمَسِيرَ رَكِبِ * تَتَحَايَ حِينَ أَمَعَنَ وَالْعِيَّاحِ
وِيَالِكَ حُلَّةً طَفِرَتْ بِمَقِلِ * كَمَا طَعَرَ الْمُقَامِرُ بِالْفِدَاحِ
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي * فَتَنَى بَيْنَ قَتْلِي وَالصِّلَاحِ
لَعَمْرُ أَيْبِكَ لَا تَجِدِينَ عَهْدِي * تَكْهِنُكَ وَالمُودَّةُ وَالسَّمَّاحِ
وَلَوْ أُرْسَلَتْ تَسْهَدِينَ مَعِي * أَنَاكَ بِهَا رَسُولُكَ وَالسَّرَّاحِ

وله أيضا :

إِن يَكْ جُنَّائِي مَارِصَ سِوَاكُمْ * فَإِن تَوَادَى عَلَيْكَ النَّعْمَ أَجْمَعُ
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَحْتَرِي * عَلَى صِرْمِهَا ظَلَّتْ لَهَا النَّفْسُ تَسْمَعُ
وَإِن رُمْتُ مَعِيَ كَيْفَ آتَى لَصْرْمِهَا * وَرُمْتُ صَدُودًا ظَلَّتْ الْعَيْنُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَذْبَةَ الْمَاءِ أُنْحَى * أَطُلُّ إِذَا لَمْ أُسْقَ مَاءُكَ صَادِيَا
وَمَا زِلْتُ بِي يَأْتِي حَتَّى لَوْ آخَى * مِنَ الْوَحْدِ أَسْتَشْكِي الْحَمَامَ بَنِي لِيَا
وَدِدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاءِ لَوْ أَنَهَا * يُزَادُ لَهَا فِي عَمَرِهَا مِنْ حَيَاتِيَا

وله أيضا :

وَقُلْتُ لَهَا أَعْتَلَّتْ سِيرْدَن * وَشَرُّ النَّاسِ ذُو أَلْعُلِّ الْبَحِيلِ
فَعَايِنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِي * وَأَهْلِكَ لَا يَجِيفُ وَلَا يَمِيلُ
فَقَالَتْ أَبْتَنِي حَكَمًا مِنْ أَهْلِي * وَلَا يَذْرَى بَنَى الْوَأَشَى الْهَوْلِ
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا مُجْهَرٍ * أَحَا دُنْيَا لَهُ طَرَفٌ صَكِيلِ

نقلنا ما قصبت به رصبا * وأنت بما قصبت به كفيل
 قصارك امد فأحك عليا * بما تهوى ورأيت لا يعيل
 فقلت له قُلتُ خير جرم * وعِيبُ الظلم مرثته ويزيل
 قَسَلُ هِنَى مَن قَصَى دُيُونِي * وهل يقصيك ذو الملل المعول
 فقلت إن ذاك كِبٌ وُطْلٌ * وشَرٌّ منْ خُصومتِه طويل
 أَأَقْلَهُ ومالٍ من سلاح * وما بي لو أَقَاتِلُهُ حَوِيل
 ولم أَخذْ له مالا قِيلَى * له دَيْنٌ عَلى كَمَا يَقُول
 وعند أميرنا حُكْمٌ وُصْلٌ * ورأى بعد ذلكُ أَمِيل
 فقال أميرنا هاتوا شهودا * فقلت شهيدنا الملك الجليل
 فقال يَمِينُها ومالك أَقْصَى * وكلُّ قصائه حَسٌّ جميل
 فَبَيَّنْتُ حَلْفَهُ الى لَئِيهَا * يَقِرُّ أَدْعِيهِ وَلَا يَقِيل
 فقلت لها وقد طَلَبَ التَّعْزَى * أَمَا يَقْصِي لَهَا بِئْسَ سُؤْلُ
 فقالت ثم رَجَعْتُ حَاجِبِهَا * أَطَلْتُ وَلَسْتُ فِي شَيْءٍ يُطِيل
 فلا يَحْدِثُكَ الْأَعْدَاءُ عَدَى * تَتَشَكَّى وَيَأْيَاكَ التَّكْوِيل

وله أيضا :

حَلَفْتُ يَمِينًا يَا بَيْتِيَّةُ صَادِقًا * وَإِنْ كُنتُ فِيهَا كَاذِبًا فَعَمِيْتُ
 إِذَا كَانَ يَلْدُ عَيْرِ حَلِيكَ مَسْنَى * وَاشْرَى دُونَ الشَّعَارِ ثَرِيْتُ^(٧)
 ولو أن راقى الموت يَرِيقُ حَازَتِي * بِمَنْطِقِهَا فِي النَّاطِقِينَ حَوِيْتُ

وقال أيضا :

فقد لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لَمْ يَكَدْ * مِنْ الدَّهْرِ شَيْءٌ بَسْمَحٍ يَلِينُ
 ظِلْمَاتِنِ مَا فِي قُرْبَيْنٍ لَذَى هَوَى * مِنْ الْبَاسِ إِلَّا شِقْوَةٌ وَفُتُونُ

(١) الحويل . القوة والخلق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شري عليه : حرج عليه الشرى ،

وهو شور صغار حمر حكاكة مكرمة تحدث دعة واحدة غالبا وتستند لإلحاح حاز شور في اليد دعة .

وواكَلَهُ وَالْهَمُّ ثُمَّ تَرْكُهُ * وفي القلب من وَحْدِهِم رَهْمِين
 فَوَاحِشَرْنَا إِنْ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * وَيَا حَيْثُ نَمْسَى كَيْفَ فَيْكِ تَيْسِ
 فَتَيْبَ رَوْعَاتُ الْعِرَاقِ مَفَارِقُ * وَأَنْتَ زَنْ نَمْسَى فَوْقَ حَيْثُ تَكُونُ
 شَهْنَتْ بَانِي لَمْ تَقِيرْ مَوَدَّتِي * وَأَنْي نَكَمَ حَقِّي الْمَاهِ صَيِينُ
 وَأَنْ فَوَادِي لَا يَلِيں إِلَى هَوَى * سِوَاكَ وَإِنْ قَالُوا مَلَى سَيَلِينُ
 وَإِنِّي لَا أُسْتَعْنَى وَمَا بِي نَمْسَةُ * لَعَلَّ لِقَاءَ فِي الْمَسَامِ يَكُونُ
 وَلَمَّا عَلَوْتُ الْأَلْبَتِينَ تَسْوَقْتُ * قُلُوبَ إِلَى وَادِي الْقَرَى وَصِيُونُ
 كَأَنْ دَمُوعَ الْمَيِّنِ يَوْمَ تَحَلَّتْ * بِشَيْءٍ يَسْقِيهَا الرِّشَاشُ مَعِينُ
 وَرُحْنٌ وَقَدْ وَدَّعَى عَدَى لُبَانَهُ * لَيْثَمَةُ يَسْرُ فِي الصَّوَادِكِينِ
 كَيْسَرُ التَّرَى لَمْ يَسْلِمِ الْبَاسُ أَنَّهُ * تَوَى فِي فِرَارِ الْأَرْضِ وَغَوْدَفِينِ
 فَإِنْ دَامَ هَذَا الْعَصْرُ مِنْكَ فَوَائِي * لِأَعْبَرُ هَارِي الْجَانِينِ رَهْمِينُ
 لَكِيْمَا يَقُولُ الْبَاسُ مَاتَ وَلَمْ أَهْرُ * عَلَيْكَ وَلَمْ تَنْهَتْ مِنْكَ قُرُونُ

(ج) الغزل الصناعي

كثير^(١)

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدة ولا نعت الملوك مثل كثير.
وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة أو رُقي بها محوّن لأفاق، وكان
بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه
ويحدثهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع
شعره. وكان أن أبي عبيدة يمل شعره ثلاثين ديبارا. وسئل مُصَنَّب: من أشعر الناس؟
فقال: كثير بن أبي جُمعة، وقال: هو أشعر من حرر والفرزدق والزّاعى وعائشهم، يعني الشعراء.
ولم يدرك أحد في مديح الملوك ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعر أهل
الجزاز، وهو شاعر حلّ ولكنه مقوّمٌ حفظه بالعراق. وقال يونس الجعفي: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن حراة، ويعرف بكثير مزنة، قصة إلى عشيقته التي كان يشب بها. وكان يدخل
على عبد الملك ويشده، وكان راضيا بشديد النصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا يكرهه،
فإذا أراد أن يصفه شيء حلفه على. وكان له صديق اسمه حنق الأسد، شديد التبع مثله، وطلع من حراة حديق
هذا أمه وقب مرة في الموسم والناس مردحون وقال «أيها الناس، إنكم على عير حق، قد تركتم بيت بيتكم والحق
لم ولم الأئمة» فوثب عليه الناس، فصر يوه ورموه حتى قتلوه، ودعى حنق قسوبا، فقال إذا ذلك كثير يرثيه.

أصادرة سخاخ كعب ومالك * على كل عمل صامر العلى محق

بربيعة فيها شاء محبر * لأرهم من أولاد مرة عفرق

والقصيدة طويلة. أما مشهوره مرة فهي بنت حميد بن وقاص من صغرة، وكانت من أحمل النساء وأدهن
وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها رجلا وحيا إلا أنه استهم بها فله لما ذكر له عنها. وناث بعض أهلها فقالوا. «قد شربت
هك وشربت صاحبا فأكعب هك» قال «إني لا أدكرها بما تذكرون»

وأحق حروجهم إلى مصر في عام الخلا. فجمعهم على راحته فحروجه فإني لا أن يلحقهم، فترس له مصمم
في مصر الطريق وقصوا عليه وحلوه في حجة حار ووطوا عليه فتره صديقه حنق فأطلقه وألحقه ببلاد. وكان
كثير دميّا قليلا أجرا فيشر عظيم الهامة فيجدا. وأكثر أشعاره في مرة هذه. توفي سنة ١٠٥ هـ، وأحاده كثيرة
محمد بن أبي الأمان (ح ١١٠ و ٤٦) و (ح ٨ و ٢٧) و (ح ٧ و ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) و ابن
حنك (ح ١ ص ٤٣٣) والقد العريد (ح ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وحراة الأدب (ح ٢ ص ٣٨١) وله ديوان
شرحه أبو عبد الله الرشيد من نسخة حطية في الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان أبى أبى حفصة يسجبه مذهبه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره حُطْلٌ وعُجْب. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضَرَّ مَنْ يروى شعر كثير وبجميل ألا تكون عنده معنيتان مطريتان .

وكان قصيرا، قال الواقسي: رأيت كثيرا يطوف البيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذب. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول: طأطئ رأسك لا يعضه السقف . وقال كثير: في أي شيء أعطى هؤلاء الأخوص عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم :

وما كان مالي طارفاً من تحارة * وما كان يبرأنا من المال مثلاً
ولكن عطايا من إمام مبارك * ملأ الأرض معروفاً وجوداً وسودداً
فقال كثير: إنه لصريح قبحه الله! ألا قال كما قلت :

دع عنك سئتي إدفات مطلبها * وأذكر حليتك من سي الحكم
ما أعطاني ولا سأتبها * ألا وإني لحاتجى صكرى
إلى متى لا يَكُنْ وألها * عدى بما قد فعلت أحتم
مُدى الرضا عهما ومصير * عن بعض ما لو فعلت لم أَلَمْ
لا أزر^(١) المائل الخليل إذا * ما أعزلت زرد الظؤود لم ترم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أوصاله يقال لها: غُرْب، وقدم بين يدي طلبه تلك الآيات :

جرتك الجوازي عن صديقك نصره * وأدامك ربّي في الرقيق المقرب
إليك لا يُعطى عليك ظلامه * عدو ولا تنأى عن المقرب
وانك ما تمنع وإنك ما يع * بحق وما أعطيت لم تنقب

فقال له: أترعب غرماً؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أكتبوها له، ففعلوا .

(١) يقول: لا أخلطه بالسألة، يقال: برزته أزره إذا ألحت عليه . والظؤور: العاطة على أولاد

عيرها . ولم ترم . ولم ترم .

وُسِّيتَ كَثِيرٌ لَكثَرَةِ نَسَبِهِ حَرَّةَ الصَّمْرِيَّةِ إِلَيْهَا، وَعُرِفَ بِهَا قَبِيلٌ : كَثِيرَ عِزَّةٍ، وَهِيَ عِزَّةُ ابْنَةِ حَمِيدِ بْنِ وَقَاصٍ. وَكَانَ أَبْنَاءُ عَشَقَهُ إِذَاهَا أَنَّهُ مَرَّةً بِسُوءٍ مِنْ بَنِي شَمْرَةَ وَمَعَهُ جَلَبٌ عَمٌّ، فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ عِزَّةٌ وَهِيَ صَغِيرَةٌ، فَقَالَتْ : يَقْلُنْ لَكَ السُّوءُ : يَمَّا كَبَشْنَا مِنْ هَذِهِ الْغَنَمِ وَأَتَيْتُنَا بِجَمْعِهِ إِلَى أَنْ تَرْجِعَ، فَأَعْطَاهَا كَبِشًا، وَأَعْمَتَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ حَامَتُهُ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ بِدِرَاهِمِهِ، فَقَالَ : وَأَيْنَ الصَّبِيَّةِ الَّتِي أَحَدْتُ مِنْى الْكَبِشِ ؟ قَالَتْ : وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَهَدَّ دِرَاهِمُكَ ؟ قَالَ : لَا أَخْذُ دِرَاهِمِي إِلَّا مِنْ دَمْعَتِ الْكَبِشِ إِلَيْهَا، وَنَرَجُ وَهُوَ يَقُولُ :

قَصَى كُلُّ ذِي دِينَ هَوَى عَرِيَّتِهِ • وَعِزَّةٌ مَمْلُوءٌ مَعْنَى غَرِيْمَتِهَا
مَكَانَ أَوَّلِ لِقَائِهِ إِذَاهَا • ثُمَّ قَالَ فِيهَا :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاتِقٌ • عَلَى حِينٍ أَنْ شَبَّتْ وَإِنْ هُوْدُهَا
وَقَدْ دَرَعُوْهَا وَهِيَ دَاتٌ مُؤَصِّدٌ • ^(١)مُحَوِّبٌ وَلَمَّا يَلِيسَ الدَّرْعَ رِيْدُهَا
مِنْ الْخَيْمَرَاتِ الْبَيْضِ وَذَ حَلِيْسُهَا • إِذَا مَا أَقْصَيْتُ أَخْذُوْتُهُ لَوْ تَيْسِلُهَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا بَطْرَةً مَا يَسْرَى • بِهَا مُمْرَأَتَانِ الْبِلَادِ وَسُودَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا حُتُّ سَعْدَى بَارِصَا • أَرَى الْأَرْضَ تُطَوِّى وَيَذْنُو بِعِيْدَا
ثُمَّ أَحْبَبْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ عِزَّةً أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ إِذَاهَا •

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْأَسْلَمِيِّ : دَخَلَتْ عِزَّةٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَقَدْ عَجَزَتْ ؛ فَقَالَ لَهَا : أَأَتِ عِزَّةٌ كَثِيرٌ ؟ فَقَالَتْ : أَمَا عِزَّةُ بِنْتُ حَمِيدٍ ؟ قَالَ : أَنْتِ الَّتِي يَقُولُ لَكَ كَثِيرٌ :
لَمَسَزَةُ بَارٌّ مَا تَبُوحُ كَأَنَّهَُا • ^(٢)إِذَا مَا رَمَقْتَاهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوَكُوبُ
فَمَا الَّذِي أَعْجَبَهُ مِنْكَ ؟ قَالَتْ : كَلَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي عَهْدِهِ أَحْسَنَ مِنَ
الْبَارِ فِي اللَّيْلَةِ الْقَوَّةِ • وَيُرَوَّى أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : أَعْجَبَنِي مِنْى مَا أَعْجَبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ حِينَ
صَبَرْتُكَ حَلِيقَةً، وَكَانَتْ لَهُ سِنَّ سَوْدَاءَ يَحْمِيهَا، فَصَحَّكَ حَتَّى بَدَتْ، فَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي
أَرَدْتُ أَنْ أَبْدِيَهُ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ تَرَوْنِ قَوْلَهُ :

(١) مؤصّد • أنس الأمددة (بالهم) وهي قبض صير يليس تحت الشوب • والمحجوب : القميص ذو الجلب •

والرند (يهرولاهير) : الترب • (٢) تبوح : يمدح •

وقد زَعَمْتُ أُنَى تَنْبَرْتِ سَعْدَا * ومن ذا الذى يا عَزْرَ لا يَتَعَبَّرُ
تَعَبَّرَ جَسْمِي وَالْخَلِيقَةُ كَالنَّي * عَهْدَتِ وَلَمْ يُحَرِّمْ سِرْكَ عُجْرَ

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كَأَنى أَنَادَى صَحْرَةً حِينَ أَعْرَضْتُ * من العُصْمِ لو تَمْشَى بِهَا الْعُصْمُ زَلْتُ
صَفُوحًا مَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ * هُنَّ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلُ مَلْتُ

فأمر بها، فأدخلت على مَائِكَةَ بَنَاتٍ يَزِيدُ، فقالت لها : أرايت قول كثير :
قَصَى كُلِّ دِيْدِيْنَ مَوْقَى عَرِيْمَةٍ * وَعَزْرَةٌ تَمْطُولُ مُعْتَى عَرِيْمُهَا
ما هذا الذى ذكره ؟ قالت : قُبْلَةٌ وَعِدْتُهُ لِإِذَاهَا، قالت : أجزئها وعلى إثمها .

وبما قال فيها :

حَلِيْلِيْ هَذَا رَسَمٌ عَزْرَةٌ فَأَعْيَلَا * قَلُوصِيْكَأَ ثُمَّ أَكِيَا حَيْثُ حَلْتُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزْرَةٍ مَا الْبُكََا * وَلَا مُوجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتْ
فَقَدْ حَلَقْتُ جَهْدًا بِمَا تَحَرَّثَ لَهُ * قَرِيْشٌ حِدَاةَ الْمَأْزَمِيْنَ ^(١) وَصَلَتْ
أُنَادِيكَ مَا تَحْمُجُ الْحَجِيْجُ وَكَبَّرَتْ * صَبِيْعًا عَزَالٍ رُقْفَةً وَأَهَلَّتْ ^(٢)
وَكَانَتْ لِقَطْعِ الْجَبَلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * كَكَائِدَةٍ نَذْرًا وَفَتْ مَا حَلَّتْ
فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزْرُ كُلِّ مَصِيْبَةٍ * إِذَا وَطِئْتُ يَوْمًا لَهَا الْعُصْمُ ذَلْتُ
وَلَمْ يَلْقَ إِنْسَانٌ مِنَ الْحَبِّ مَتِيْعَةً * تَمُّ وَلَا عَمَاءَ إِلَّا تَجَلَّتْ
كَأَنى أَنَادَى صَحْرَةً حِينَ أَعْرَضْتُ * من العُصْمِ لو تَمْشَى بِهَا الْعُصْمُ زَلْتُ
صَفُوحًا مَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ * هُنَّ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلُ مَلْتُ ^(٣)
أَبَاخْتُ حِجْمِي لَمْ يَرَعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا * وَحَلَّتْ يَلَاحًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حَلَّتْ

(١) الأزمان : بين عزمة والمردفة . (٢) وما عزال . مكة حيث يرل الناس فيها

الى الأسطح . وأناديك : أحالك ، ما أعز من التنى والنادى حرمها ومها المجلس .

(٣) الصفوح . الحرة .

قَلَبَتْ قُلُوبِي عِدَّةَ عَزَّةٍ قَبِلَتْ * بحل صغيف عُرٍّ منها فَتَبَلَتْ
 وَغُوْدِرَ فِي الْحَيِّ الْمُقِيمِينَ رَحْلُهَا * وكان لها باج سِوَايَ قَبْلَتْ^(١)
 وَكُنْتُ كَدَى رَحْلَيْنِ رَحْلٍ صَحِيحَةٍ * ورَحْلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتْ
 وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلَمِ لَهَا حَامَلَتْ * على طَلْمِهَا عِدَّةَ الْبَارِئِ اسْتَقَلَّتْ
 أُرِيدُ الشَّوَاءَ عِدَّهَا وَأَطْنَهَا * ادا ما أَطْلَمْنَا عِدَّهَا الْمَكْتُ مَلَتْ
 مَا أَنْصَقْتُ، إِنَّمَا النِّسَاءُ فَمَعَصَتْ * الْحَيِّ وَأَنَا بِالْأَوَالِ فَصَأْتُ
 يُكَلِّمُهَا السَّيْرَانُ شَقِيٍّ وَمَا سَا * هَوَانِي وَلِكُنِّي لِيكَ أَنْتَذَاتِ
 هَيْبَتَا مَرِيضًا عِبْرَدَاءَ عُمَامِي * لِعَزَةٍ مِنْ أَعْرَاصِهَا مَا اسْتَعَلَّتْ
 مَوَالِيهِ مَا قَارَنْتُ إِلَّا تَنَاعَدْتُ * نُفْرَمُ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ
 إِنْ تَكُنِ الْعَتَى فَاهْلًا وَمَرْحَا * وَحَقَّتْ لَهَا الْعَتَى لَدَيْنَا وَقَلَّتْ
 وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى إِيَّاهُ وَرَا * مَنَادِحَ لَوْ سَارَتْ بِهَا الْعَيْسُ كَلَّتْ^(٢)
 حَبْلِي إِنْ الْحَاجِيَّةُ طَلَعَتْ * قُلُوبُنَا وَنَاقَى تَمَدُّ أَسْكَتْ^(٣)
 فَلَا يَمْنَعُنْ وَصْلٌ لِعَزَةٍ أَصْحَتْ * عَاقِبَةُ أَسْمَاءُ قَدْ تَوَلَّتْ
 أَسِيقِي بَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٍ * لَدِيَا وَلَا مَقِيلَةٍ إِنْ تَقَلَّتْ
 وَلَكِنْ أَيْبَلِي وَأَذْكَرِي مِنْ مَوَدَّةٍ * لَأُخَلَّةٌ كَانَتْ لَدَيْكُمْ فَطَلَّتْ^(٤)
 فَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لُتْفِي وَصَادَقُ * عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيَّا أَزَلْتُ^(٥)
 مَا أَمَا مَالِدَاعِي لِعَزَةٍ بِالْجَوَى * وَلَا شَامِتٌ إِنْ نَعَلَ عَزَّةَ زَلْتُ
 فَلَا يَحْسِبُ الْوَاشُونَ أَنْ صَاحِبِي * بِعَزَةٍ كَانَتْ غَمْرَةً هَدَجْتُ
 فَأَصْحْتُ قَدْ أَتَلَّاتُ مِنْ دَفِيفِهَا * كَمَا أَذْهَبَتْ هَيَاءً ثُمَّ اسْتَبَلْتُ^(٦)

(١) طبت . دعت . (٢) العتي . الإعتاب ، يقال : طابت فلان فأدبته إذا رعت عما تملك عليه ،
 والعتي الاسم والإعتاب المصدر (٣) المادح المأوز . (٤) الطليح المني الذي سقط من الأحياء .
 (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطلمت . (٧) يقال : طل من مرضه وأمل واستبل إذا
 رأى والهباء : التي أصابها داء الهبام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستقفا منهم في الأرض لترعى .

فوالله ثم الله ما حَلَّ قَلْبُهَا * ولا بعدها من حُلَّةٍ حيث حَلَّتْ
وما مَرَّ من يومٍ على كِيومِها * وإن عَظُمَتْ أَيَّامُ أُخْرَى وَطَتْ
وأصَحَّتْ بأَعْلَى شَاهِقٍ من فُؤادِها * فلا القَلْبُ يَسْلَاها ولا العَيْنُ مَلَتْ
فِيَاغَمًا لِلْقَلْبِ كَيْفَ أَعْتَرَاهُ^(١) * وللنَّفْسِ لِمَا وَطَنْتْ كَيْفَ ذَلَّتْ
وإلى وَتَهَيَّأِي مَرَّةً بعد ما * نَحَلْتِ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَحَلَّتْ
لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ طُلَّ الْعَامَةُ كُلُّهَا * تَنَزَّوْا مِنْهَا لِلْقِيلِ أَصْحَمَلَتْ
كَأَنِّي وَإِيَّاهَا تَحَابَةٌ مُتَحِلَّةٌ * رَجَاهَا فَلَمَّا حَاوَزْتَهُ أَسْتَهَلَّتْ
فَإِنْ سَأَلَ الْوَأَشُونَ فِيمَ هَجَرْتَهَا * قُلْتُ نَفْسٌ مَرُّ سُلَيْتٍ قَسَلَتْ
قَالَ ابْنُ سَلَامٍ : كَانَ كَثِيرَ مَدْعِيَا وَلَمْ يَكُنْ عَاشِقًا ، وَكَانَ جَبِيلٌ صَادِقُ الصَّبَابَةِ وَالْمَشَقِّ .
وَأَخْتَبَرْتَهُ عِزَّةً دَانَتْ مَرَّةً فَوَحَّدَتْ عِلَامَةَ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَةً فَاسْعُرَتْ ، فَالْمَسُّ وَلَمْ يَنْطَلِقْ
وَبُهِتَ ، فَلَمَّا مَضَتْ أَشَأُ يَقُولُ :

أَلَا لَيْتَنِي قُلْتُ لِمَا قَلْتُ شَيْئًا لِي * مِنَ السَّمِّ خَصْخَصَاضٍ بِمَاءِ الذَّرَارِجِ^(٢)
هَتَّ وَلَمْ تَعْلَمْ عَلَى خِيَانَةٍ * وَكَمْ طَالِبٌ لِلرَّيْحِ لَيْسَ بِرَاحٍ
أَبُوءُ بِذَنْيَ ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُهَا * وَإِلَى بِيَانِ سَرِّهَا غَيْرَ بَاحٍ
وَمِنْ قَوْلِهِ يَمْدَحُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ :

وَلَيْتَ لَمْ تَنْسَمُ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ * بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مُحَرِّمٍ
وَقَلَّتْ فَصَدَّقْتُ الَّذِي قُلْتُ نَالِي * فَعَلْتُ فَاصْحَى رَاصِيًّا كُلُّ مُسْلِمٍ
أَلَا إِنَّمَا يَكْفِي الْفَتَى عِدَّ زَيْفِهِ * مِنَ الْأَوْدِ الْبَاقِي يُقَافُ الْمَقُومُ
لَقَدْ لَيْسَتْ لَيْسَ الْهَلُوكُ بِبَابِهَا * تَرَأَى لَكَ الدُّنْيَا يَكْفُفُ وَمِعْصَمُ
وَتَوْمَعُصُ أَحْيَانًا بَعِيٍّ مَرِيضَةٍ * وَتَتِمُّ عَنْ مِثْلِ الْجَمَانِ الْمُظْلَمِ

(١) أَعْتَرَاهُ : أَصْطَبَرَاهُ ، يُقَالُ . رَلْتُ بِهِ مَصِيَّةً مُوحِدَةً مَرُوفًا ، أَيْ صَوْرًا .

(٢) الْمَسُّ . الْكُسُورُ . (٣) الذَّرَارِجُ : دَوِيَّةٌ حَرَاءٌ مُسَقَطَةٌ مُوَادِّ طَلْعٍ ، وَهِيَ مِنَ السَّوْمِ

الْقَائِلَةِ ، وَالذَّرَارِجُ جَمْعُ . وَالْمَحْصَصُ . عَطَا أَسْوَدًا لَا حُورَةَ فِيهَا ، هَذَا الْإِثْلُ الْحَرُّ .

فاعترضت عنها مشمترا كأنما * سقتك مدوفا من سيماء وعلقم
 وقد كنت من أحبالها في تسمع * ومن بحرهما في مزيد الجود مقيم
 وما زلت ساقا إلى كل عايه * صعدت بها أهل البناء المقدم
 فلما أهلك الملك عفووا ولم يكن * لطلب دنيا بعده من تكلم
 تركت الذي يعني وإن كان موقفا * وآثرت ما يتقى برأى مصم
 فاصبرت للعاق وشمرت للذي * أمامك في يوم من الهول مظلم
 وما لك أن كنت الخليفة ماع * سوى الله من مال رعيب ولانم
 سيما لك هم في الفؤاد مؤرق * صعدت به أعلى المعالي بسلم
 فابن شر الأرص والعرب كلها * مادي يادي من مصيح وأعم
 يقول أمير المؤمنين طمسي * مأخذ لديار وأخذ لدرهم
 ولا بسط كف لأمرى طالم له * ولا السك منه طالم له نعم
 فلو يستطيع المسلمون تقسموا * لك الشطر من أعمارهم غير ندم
 ميتت به ما فتح الله راحك * مفيد مطيف بالمقام وزنم
 فأنزع بها من صفقة لباع * وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم
 ومن نسيبه عزه لما أخرجت إلى مصر:

لمرة من أيام دى الفص شاقى * يصاحي قرار الروصتين رؤوم
 هي الدار وخشا غير أن قد يحلها * ويغني بها شخص على كرم
 فإيرسوم الدار لو كنت علما * ولا بالتلاع المقويات أعم^(٣)
 سألت حكما أين شطت بها الوى * نخبى ما لا أحب حكيم
 أحدثوا فاما آل عرة عذوة * مباوا وأما واسط فقيم
 لعمرى لئن كان العواد من الهوى * متى سقما إلى إذا لقيم

(١) مدوفا . مملوفا ، داف الدوا . والزعران يدوه . حطه . (٢) مدو . مسرع .

(٣) أنفوت الدار . حطت من ساكنها (٤) هو أو السالف ر حليم .

ومنها :

ولستُ بِرَأْيٍ مَحْصِرٍ مَحَابَةِ * وَإِنْ تُدَلَّتْ إِلَّا قَعْدَتُ أَشِيمِ
مَقْدُ يَقْعُدُ الْكُفْسُ الَّذِي عَنِ الْهَوَى * عَزُّوَمَا وَيَصْبُو الْمَرْءُ وَهُوَ كَرِيمِ
وَقَالَ حَلِيلِي مَا لَهَا إِذَا لَقِيتَهَا * عِدَاةَ السَّامِيَا عَلَيْكَ وَجُومِ^(١)
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الْمَوْقِدَةَ بَيْتَا * عَلَى غَيْرِ حُشِيِّ وَالصَّمَاءُ قَدِيمِ
وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْهَا تَجَلَّدَا * عَلَى الْعَهْدِ فَمَا بَيْنَنَا لِمَقِيمِ
وَإِنْ زَمَانَا فُزِقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا * وَبَيْنَكُمْ فِي صَرْفِهِ لَشُومِ
أَفَى الْحَقِّ هَذَا أَنْ قُلْتُكَ سَالِمِ * صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكِ سَقِيمِ
وَأَنْ بِحَسْمِي مَكَدَاءٌ تُحَامِرَا * وَجَسْمُكَ مَوْجُورٌ عَلَيْكَ سَلِيمِ
لَتَمُرَّكَ مَا أَصْبَعْتَنِي فِي مَوْقِدِي * وَلَعَكِي يَا عَزَّ عَكَ حَلِيمِ
فَمَا تَرَبَّى الْيَوْمَ أَبْدَى خِلَادَةٍ * إِنِّي لَعَمْرِي تَحْتَ دَاكِ كَلِيمِ
وَلَسْتُ أَمَّةَ الصَّمْرِ مَكَدَاءُ سَالِمِ * دُوبَ الْعَدَى إِنِّي إِذَا لَطَلُومِ
وَإِنِّي لَدُوٌّ وَجِدٌ إِذَا عَادَ وَصَلُّهَا * وَإِنِّي عَلَى رَبِّي إِذَا لَكْرِيمِ

ومن سيبه بها :

لَعَرَّةٌ أَطْلَلْتُ أَبْتَ ابْنَ تَكَلَّمَا * تَبِيعَ مَغَانِيهَا الْعَوَاذَ الْمَكَلَّمَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا حُتُّ أَجَلَّلَ مَجْلِسِي * وَأَطْهَرَنِي مِنْ هَيْئَةٍ لَا تَجْهَمَا
يُحَادِثُنِي مِنْ عَايَةِ قَدْ عَرَفْنَاهَا * قَدِيمًا مَا يَضْحَكُنْ إِلَّا تَبْهَمَا

ومنه :

خَلِيلٌ عَوَجًا مِنْكَ سَاعَةً مَعِي * عَلَى الرَّحَى نَقِصَ سَاعَةً وَبُودِجِ
وَلَا تُجِلاَنِي أَنْ أَلِمْتُ بِمَنْتَةِ * لَمَزَةٍ لَاحَتْ لِي بِبِدَاءِ بَلَقِ
وَقَوْلَا قَلْبِي قَدْ سَلَا رَاجِعُ الْهَوَى * وَلِلْعَيْنِ أَذْرَى مِنْ دُمُوعِكَ أَوْدَعِي
فَلَا عَيْشَ إِلَّا مِثْلَ عَيْشِ مَعِي لَنَا * مَصِيفًا أَقْنَا فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَرَجِ

ومنه :

بيلى وحارات الليل كأنها * نَمَاحُ الفِلا تُحْدَى بين الأماضرِ
أَمَقَطِعُ ياعزّ ما كارب سيبا * وشأحرى ياعزّ فيك الشواجر
إذا قبل هذا بيتُ عَزّة قادی * إليه الهوى وأستعجلتنى البوادر
أَصْدَوِى مثل الجمون لكى يرى * رُؤَاةَ الحَمَا أَى لَيْتِكَ هاجر
ألا ليت حَفَظَى مَسْكَ ياعزّ أنى * إذا بَنَتْ باع الصبرِ لى عك تاجر

ومنه :

وما زلتُ من ليل لَدُنْ طَرّ شارى * الى اليوم أحى حَبَا وأداجُ
وأحمل ولىلى صغائنَ مَعَشَر * ونَحْمَلُ فى لَيْلى عَن الضغائنِ

ومنه :

وإلى لأرعى قومَهَا من حلالها * وإن أظهر وأعشانَصَحْتُ لم جَهْدَى
ولو حاربوا قومى لكُتْ لقومها * صديقًا ولم أحمل على حربها حَقْدَى

ومنه :

هَلَا سَأَلْتَ مَعَالِمَ الأطلال * فالجزع من حُرْصٍ ^(١) وعن نَوَالٍ
سَقِيًا لَمِزَةً حُلَّةً سَقِيًا لَهَا * اذ عن المَهْصَاتِ من أَمَلَالٍ ^(٢)
إدلا تكلما وكان كلامها * نَفَلًا قَوْمِلَه من الأنفال

ومنه :

ألا حَيًّا لَيْلى أَجَدَّ رَجِلي * وأدبَ أصحابى عَدَا بَقُولٍ ^(٣)
تَبَنَّتْ لى لَيْلى لَتَنِيبِ عَقْلَه * وشَأَقْتُك أُمُ الصَّلْتِ بعد دُهُولِ
أُرِيدُ لَأَسَى ذِكْرَهَا مَكَانَا * نَمَثُلُ لى لَيْلى بَكل سِيلِ
إِذَا دُرِكَتْ لَيْلى نَعَشْتُكَ عَبْرَةً * نُعَلِّ بِهَا العِيَابَ بعد دُهُولِ

(١) حرص : واد من وادى قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملل ، وهو سِرل على طريق المدينة من مكة . (٣) يقول . رجوع .

وكم من حليل قال لي هل سألتها * فقلت له ليس أصرت حليل
وأعده نيلًا وأوشكه قتل^(١) * وإن سئلت عرقًا فشرّ مُسَوَّل
حلفت رب الرافضات إلى مبي^(٢) * حلال الملا يمتدّد كلّ حديل
تراها رفاقًا بينهم تصاو^(٣) * ويمدّدن بالإهلال كلّ أصيل^(٤)
تواهنن بالمخاح من ملن تحلة^(٥) * ومن عزّوّر والحيت خبت طليل^(٦)
بكل حرام خاشع متّوّه * إلى الله يدعوه بكلّ نقيل^(٧)
على كلّ يدعائ الروح معيده^(٨) * ونخشيّة ألاّ تُعيد هزيل
شوايد قد ارتجى دوس أجنة^(٩) * وهوّج تبارى في الأزقة حول
يمين أمريّ مستغليظ من أليّة^(١٠) * ليكذب قبال قد ألح يقيل
لقد كذب الواشون ما بحث عدم * بليل ولا أرسلتهم رسول^(١١)
إن حاك الواشون عي بكذبة * قروها ولم يأتوا لها يحويل^(١٢)
فلا تحلى ياليل أن تنهني * سصح أتى الواشون أم يحبول^(١٣)
إن طبنت بها بالعطاء فأجرى * وحير العطا ياليل كلّ جريل
ولا واجبال إلى ماسي * أحت من الأخلاق كلّ حميل
وإن تنل لي منك يوما مودة * فقدما تحبّلت القرص عد مدول
وإن تبضلى ياليل عي ماسي * توكلّني ماسي مكلّ بميل
ولست براض من حليل بائيل * قليل ولا راض له قليل

(١) أوشكه أسرع . والقل . المص . (٢) الرافضات الابل ، والملا العساء ، والحديل

رغام محدول أي مضمود . (٣) الأصيل : المني . (٤) تواهنن . تبارى ، وطلن تحلة .

ستان عي عامر ، وعزّوّر . ثنية الخفعة . والحيت ، الحطش من الأرض وطليل . موضع .

(٥) النقيط : الطريق . (٦) المدعان : المدلة . ومعيدة : قد طردت السم . (٧) الشوايد .

انشاتلات الأدماء ، وارتجى . أعلق أرحامهم على أولادهم . والحول . جمع حائل وهي التي لا تفتح .

(٨) الأليّة اليبس . (٩) مروها من الممرية ، يقال مري مري . والحويل . المحاولة

(١٠) الطيرول : الدواهي .

وليس حليل مألول ولا الذي * اذا عنت عنه ماغى بحليل
 ولكن حليل من يُديم وصالته * ويحفظ سرى عند كل دجيل^(١)
 ولم أر من ليل بوالا أعدته * ألا ربما طالبت غير مُبيل
 يلومك في ليل وعقلك عددا * رجالٌ ولم تتعب لهم مقول
 يقولون ودع عك ليل ولا تهم * قاطمة الأقارب ذات حليل
 ما نعت نصبي بما امروا به * ولا نعت من أهواهم بقيل^(٢)
 تدسكرت أترابا لمزة كلمها * حين يلبط ناعم وقبول
 وكنت اذا لا قيتن كافي * محالطه على سلاف شمول
 تاطرن حتى قلت لسن بوارسا * رجا الأمانى أن يقفن مقيل^(٣)
 ما بدتن لي من ينين تحهما * وأهلن ظنى إذ طبت وقيل
 فلا يلاي يلاي ما قصبت لامة * من الدار واستقل بعد طويل^(٤)
 فلما رأى واستيق البين صاحي * دعا دعوة يا حنترت سلول
 فقلت وأسرت الندامة لفتي * وكنت أمراً أعتش كل عدول
 سلكت سبل الرائحات عنبة * محارم نضع أو سلكن سهيل^(٥)
 فأسعدت فسا ما دوى قبل أن أرى * عوادى تأي بينا وشغول^(٦)
 بدنت على ما غافى يوم بتم * يا حسرتا ألا يرب عويل
 كأن دموع العين وإهية الكلى^(٧) * وعنت ما غرب يوم ذاك تحيل

(١) الدجيل : الذي ينسب الى قوم وليس مهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقارب . والمليط : اللون وهو الحله أيضا . (٤) تاطرن : تلحن ، وأصل التاطر : الصطف . (٥) الاي : البطء . والمالة : الجلحة .

(٦) المحارم : جمع محرم وهو مقطع أه الجلل . وضع : حل أسود بين الصغراء . وبيع : (٧) العوادى : الصوارب . (٨) الكلى : جمع كلية وهي الزمعة تكون في أصل عمدة المراد . والعرب : الدنر النطية .
 رجبيل : نظم .

تَكْتُمُهَا تُرْقَى تَوَاطَلْنَ حَزَّهَا • فَاَتَجَلَّهَ وَالسَّيْرُ عَيْرُ بَجِيلٍ ^(١)
 أَقْبَعِي دِلَابَ الْفَوْرَ يَاعَزْ عَدَمُ • أَلَى إِذَا مَا بَيْتٌ عَيْرُ بَجِيلٍ
 كَفَى حَرًّا لِلْمَيْنِ أَنْ رَدَّ طَرَفَهَا • لَمَزَهُ عَيْرُ أَذْنَتْ بِرَجِلٍ
 وَقَالُوا نَأَتْ فَاخْتَرَمَ الصَّبْرَ وَالْبَكَاءَ • فَعَلَتْ الْكَأَ أَشْفَى إِذَا لَفْلِيلٍ
 تَوَلَّيْتُ عَزُونَا وَقُلْتُ لِمَصَاحِي • أَفَاتَلِقِي لَيْلَ مَعِيرٍ قَتِيلٍ
 لَمَزَةٌ أَذْ بَجَلَتْ بِالْحَيِّفِ أَهْلُهَا • فَأَوْحَشَ مِمَّا الْخَيْفُ عَدَّ حُلُولٍ
 وَبَدَّلَ مِنْهَا عَدَّ طُولَ إِقَامَةِ • تَبَعْتُ نَكْبَاءَ الْعَيْشِ جَفُولٍ ^(٢)
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِيَا وَبِكُمْ • وَهَالِ سَا الْوَاشُونَ كُلَّ يَمِيلٍ
 وَمَا زَلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَدُنْ طَرَّ شَارَى • إِلَى الْيَوْمِ كَأُلْمَقَى كُلَّ سَبِيلٍ ^(٣)

وله :

إِذَا مَا أَرَادَ الْعَرَوَ لَمْ تَقَى هَمَّهُ • حَصَانٌ عَلَيْهَا تَلَمُّ دُرَّ زَيْبِهَا
 تَهْتَهُ فَلَبَّا لَمْ تَرَ الْهَيَّ عَاقَهُ • نَكْتُ فَكَيَّ مِمَّا تَحْمَاهَا قَطِيبُهَا ^(١)
 وَلَمْ يَنْقِهِ يَوْمَ الصَّابَةِ بَيْتُهَا • عَدَاةً أَسْتَهَلْتُ مَالِدَمُوعَ شَوْوَبِهَا
 وَلَكِنْ مَعَى ذُو مِرٍّ مُتَبَّتٌ • بُسْبُةً حَقٌّ وَاصِحٌ مُسْتَبِيبُهَا
 وَلَهُ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مِرْوَانَ .

أَحَاطَتْ بِدَاهٍ مَالِخَلَاةٍ عَدَّ مَا • أَرَادَ رَحَالٌ آخِرُونَ أَغْيَالَهَا
 هَا أَسْلَمُوهَا عَوَّةً عَنِ مَوْدَةٍ • وَلَكِنْ يَحْدُ الْمَشْرِفُ اسْتَقْلَامَهَا
 وَكَسَتْ إِذَا مَاتَكَ يَوْمًا مُبَيَّةً • نَقَلْتُ لَهَا أَنَا الْوَلِيدَ نَبَالَهَا ^(٢)
 سَمَوْتُ فَاذْرَكْتَ الْعَلَاءَ وَإِنَّمَا • يُلَقُّ حَلِيَّاتِ الْعَلَا مِنْ سَمَا لَهَا
 وَصَلَتْ فَالَتْ كَعَمَلِكَ الْمَحْدَكَلَهُ • وَلَمْ تَلْجِ الْأَيْدَى السَّوَامِيَّ مَصَالَهَا

(١) حرق جمع حرقاء وهي التي لا تحبس الحمل . وأصله أوسه . والجمل العليط . يريد أوس
 أعطى الإشي رادقير الس . (٢) الكاء ، الرمح . فته بين مهري ريمين . والجعلول ، التي تذهب التراب
 (٣) طرد العارِب : نهاته . (٤) القطعي : الخدم . (٥) نهلت : أمدته .

وله أيضا :

أَهَاجَكَ رَقٌّ أَمَرَ اللَّيْلِ وَاصِبٌ • تَقَسَّمَهُ قَوْشُ الْجَبَا وَالْمَسَارِبُ
 نَحْرٌ وَيَسْتَأْنِي تَشَاصًا كَأَنَّهُ • بِفَيْقَةٍ حَادٍ حَلَجَلُ الصَّوْتِ جَالِبٌ
 تَأَلَّقَ وَأَحْمَقَوِي وَخَيِّمَ بِالرُّمَا • أَحْمُ الدَّرَى ذُو هَيْبَتٍ مُتْرَاكِبٌ
 إِذَا حَرَّكَتَهُ الرِّيحُ أَرْدَمَ حَانَتْ • بَلَا هَرَقٍ مِثْلَهُ وَأَوْمَصَ حَانَتْ
 كَمَا أَوْمَصْتُ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَسَمَّتْ • حَرِيْعٌ بَدَا مِثْلُهَا حَيْسٌ وَحَاجِبٌ
 يَمِجُّ السَّدى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ • وَلَا يَرْجِعُ الْمَانِي بِهِ وَهُوَ حَالِدٌ

وله أيضا :

سَيِّئَكَ فِي الدُّنْيَا تَسْعِيْقٌ عَلَيْكُمْ • إِذَا عَلَا مِنْ حَادِثٍ أَلْهَمَ غَالَهُ
 وَيُخَيِّنِي لَكُمْ حَمًا شَدِيدًا وَرَفَةً • وَلِلَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُبٌّ شَاعِلُهُ
 وَحُبٌّ يُبَيِّنِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي • وَيُلْهِئُنِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزْوَائِلُهُ
 كَرِيمٌ يُبَيِّنُ السَّرَّ حَتَّى كَانَهُ • إِذَا اسْتَبَحُّنَاهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
 يَوْذُ دَابٍّ يُبَيِّنُ سَقِيمًا لَهَا • إِذَا سَمِعَتْ مِنْهُ بِشَكْوَى رَأْسَلُهُ
 وَيَرْتَاحُ لِلْعُرُوفِ فِي طَلَبِ الْعِلَا • يُتَحَمَدُ يَوْمًا عَدَّ لَيْلَى شِمَائِلُهُ
 فَلَوْ كُنْتُ فِي كَيْلٍ وَجُئْتُ لَوُحِي • إِلَيْهِ لَأَنْتَ رَحْمَةً لِي سَلَامِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَمِنْ لَعْلُهُ • بِمَا لَا يَرَى مِنْ غَائِبِ الْوَحْدِ يَنْهَدُ
 فَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا • عَدَاةُ الشَّبَابِ مِنْ لَاحِجِ الْوَجْدِ تَجْمُدُ
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْعَيْنِ ضَلَّتْ بِمَآثِهَا • عَلَى وَلَا مِثْلِي عَلَى الدَّمْعِ يُجَسَّدُ

(١) الشَّاصُ : السَّحَابُ الْمُرْتَمِعُ بِهِمْ مَوْقِعُ مَعْنَى • (٢) أَرْدَمَ : صَفَتْ • (٣) الْهَرَقُ :
 شِدَّةُ صَوْتِ الرَّمْلِ • (٤) خَرِجَ : امْرَأَةٌ حَسَنَاءُ • (٥) كَيْلٌ : نَهْدٌ شَدِيدٌ •

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرِّعْدَ فِي الْحَيْلَةِ مِنْهَا . مِثْلَ هَزَمَ الْقُرُومَ فِي الْأَشْوَالِ ^(١)
 وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيرًا . مَرَحَ الْبُلْبُلِ حُلْنَ فِي الْأَحْلَالِ ^(٢)
 أَوْ مَهَابِيحَ رَاهِبٍ فِي يَمَاجٍ . سَمِعَ الرِّيتَ سَاطِعَاتِ الدُّمَالِ

وله أيضا :

يَا عَزَّ إِنِّي وَائِشٌ وَتَشَى بِي عَدَمُ . فَلَا تُكْرِمِيهِ أَوْ تَقُولِي لَهُ أَهْلًا
 كَمَا لَوْ وَتَشَى وَائِشٌ بِعَرَّةٍ عَدَمًا . لَقَلْنَا تَزَحَّحَ لَا قَرِيبًا وَلَا سَهْلًا

(١) القُروم : المحوّل التي أصابت من الحبل عليها وركبت للعملة .

(٢) الأشوال . الإبل التي معنى على حللها أو وصمها سمة أشهر فارتفع صرعا وحف لها .

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملقح (المجنون)

قال الأصفهاني عن محدثيه عن ابن داب قال : قلتُ لرجل من بني عامر : أتعرف المجنونَ وتُروى من شعره شيئاً ؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نَروى أشعار المجانين ! إهم لكثير ! قلتُ : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنونَ بني عامر الشاعر الذي قتله العشيقُ ، فقال : هيات ! بو عامر أعلظُّ أبكاداً من ذاك ، إنما يكون هذا في هذه اليمنَية الصَّحافِ قلوبها ، السَّحيفةِ عقولها ، الصَّلَلةِ^(١) رموسها ، فأما نزارُ فلا .

وقال الرِّياشيُّ سمعتُ الأصمعيَّ يقول : رحلان ما عُرِفَا في الدنيا قطُّ إلا بالاسم : مجنونُ بني عامر ، وابنُ القُرَيْيةِ^(٢) ، وإنما وصَّهما الرُّواةُ .

وقال المدائني : المجنونُ المشهورُ بالشعر عند الناس صاحبُ ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عُقيل ، أحد بني مُيمس عامر بن عُقيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مهديُّ بن الملقح من بني حَمْدَةَ بنِ كعب بنِ ربيعة بنِ عامر من صَمْعَةَ .

وقال ابن الكلبي : حَدَّثْتُ أن حديثَ المجنونِ وشعره وضعه فقي من بني أمية كان يهوى أمةً مع له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعار التي يروها الناسُ للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملقح ، ويقال - أن معاذ من مراحم من بني عامر من صَمْعَةَ ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة إلى ليلى التي كان يشفقها وهو مشهور ، ولكن بعض أهل القدم من علماء الشعريين أن قصته موضوعة ، وصعها رجل من بني أمية كان يحب أمةً مع له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعار التي يطلعها الناسُ للمجنون ، وقد راد الناس فيه شكك . ويؤيد ذلك أن كثيراً مما ينسب إليه من الأشعار رويت لغيره ، فصحت إذا من قبيل الشعر التمثيل (درام) الذي يراد به تمثيل بعض المصائل . وهي تمثل الشق مع الصمغ ، أو لعل لها أصلاً قبلها ويراد فيه المرأة كما فعلوا قصة عذرة التي تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فإن من الأشعار المسبوبة إلى المجنون طائفة تمثل شاعر الميمس كما هي على طبعها . وأحاديثُ المجنون في الألفاظ (ح ١ ص ١٦٧) والشعر والشعر (ص ٣٥٥) ورواية الأدب (ح ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصللة : صم الرأس . (٣) هو أبو هريرة ابن زيد بن قيس والقُرَيْية أنه قومه الجاهلي لاتباعه بالليل لأن الأسماء .

وعن حماد بن طالوت بن عَاد : أنه سأل الأصمعيَّ عنه، فقال : لم يكن محمونا، بل كانت به لؤنةٌ أحدثها العشق فيه، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليل، واسمه قيسُ ابن مُعاذ .

ودكر عمرو بن أبي عمرو الشَّيبانيّ عن أبيه أن اسمه قيسُ بن مُعاذ .
وذكر شُعَيْبُ بن السَّكْن عن يونسَ الْحَوِيّ أن اسمه قيسُ بن الملوّح، قال أبو عمرو الشَّيبانيّ : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقبه وسأله عن اسمه ونسبه، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

ودكر هشام بن محمد الكلبيّ أنه قيسُ بن الملوّح، وحدث أن أمه مات قبل احتلاطه،
مقبراً على قبره باقته وقال في ذلك :

عسرتُ على قبر الملوّح فاقى * بذى السَّرح لما أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لها كُفِّي عَنِّي عَظِيماً * عدّاً راحلُ أمشي والأيّسُ راکُ
فلا يُبعدنك الله يا بنَ مُراحيم * فكلُّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعيّ : سألتُ أمراةً من بني عامر بن صعصعة عن الجبون العامريّ فقال :
عن أيّهم تسألني ؟ فقد كان فيا جماعةً رمّوا بالجون، فمن أيّهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي
كان يُشبّه بليلى، فقال : كلُّهم كان يُشبّه بليلى، قلتُ : فأنشدني لعصم، فأنشدني
لمزاحم بن الحارث المهنون :

ألا أيّها القلبُ الذي بَلَغَ هائمًا * بليلى وليدًا لم تَقْطَعْ تَمايُمُهُ
أَفَقَّ قد أفاق الماشقون وقد أُنِيَ * لك اليوم أن تلقى طيباً تَلايُمُهُ
أَجِدْكَ لا تُنْسِيكَ بَليلى مُلِمَةً * تُلِمُّ ولا عهدٌ يطولُ تَقَادُمُهُ

(١) يقال احتلط عقله إذا تميز وفهد . (٢) ذو السرح . وادأرض حد .
(٣) عقيراً، أي معقورة، وأصل المقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى الحر . قال ابن الأثير : كانوا يسمون الإبل على ظهورها أي يحمونها ويقولون إن صاحب القر كان يقر للأضياع أيام حياته فكانه بمنزل صبيعه بعد وفاته . وأما أطلق المقر على الحر لأنهم كانوا إذا أرادوا بحر النعم عقره فلا يشرد عنه
النعماء من الصناديق عقر . (٤) أي : حان وقرب .

قلت : فأنشدني لغيره منهم ، فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالبا لا عبتُ لئلي وقاذني إلى اللهو قلتُ للسان تبوع
وطال أمراء الشوق عني كلما * زفت دموعا تستجد دموع
قد طال إمساكي على الكيد التي * بها من هوى لئلي العناء صدوع

قلت : فأنشدني لغير هذين من دكرت ، فأنشدني لمهدي بن الملوّح :

لو أن لك الدنيا وما عداها * سواها وليس مائت حكا بينها^(١)
لكت إلى ليس فقيرا وإنما * يقود إليها ود فيك حينها

قلت له : فأنشدني لمن يقي من هؤلاء ، فقال : حبك ! فوافقه إن في واحد من هؤلاء
من يؤزن بعقلكم اليوم .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في لئلي إلا نسوه إلى المجنون ،
ولا شعرا هذه سبيله قيل في لئلي إلا نسوه إلى قيس بن ذريح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر ما وقع إلى من أخاره جملا مستحسنة ، مترنا من العهدة
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخاره يسيبها معص الرواة إلى غيره وبيسها من
حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعي ومتقي للعبوب .

أخبرني بحره في شفعه بلبلى جماعة من الرواة ، ونسحت ما لم أسمعه من الروايات
وجمعت ذلك في سباجة خمره ما أنسق ولم يختلف ، فاذا اختلفت نسبت كل رواية
إلى راويها .

فمن أخبرني بحره أحمد بن عبد العزيز الجوهرى وحيب بن نصر المهلبى ، قالوا :
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من
رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وأبن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإصحاق بن
الحصّاص وغيرهم من الرواة .

(١) الامتراء : الاستدراء . (٢) فيها ما سناه وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الرسل والمراف .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة : كان المجنون يهوى ليل بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحارث بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلى كل واحد منهما صاحبه وهما يرفعان مواشي أهلها ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحُجبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قوله :

تَلَقَّتْ لَيْلَى وَهِيَ ذَاتُ دَوَّالَةٍ * وَلَمْ يَدُ لِلْأَثَرِابِ مِنْ تَحْتِهَا حِمٌّ
صَغِيرِينَ نَزَعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَا * إِلَى الْيَوْمِ لَمْ تَكْبَرِ وَلَمْ تَكْبِرِ الْبَهْمُ

وقال أبو الكلي : كان سبب عشق المحبون ليل ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمية وعليه حلتان من حُلل الملوكة ، فتر بأمرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن ، فبين ليل ، فأعجبته جماله وكأله ، فدعونه إلى الرول والحديث ، فزل وجعل يتحدثن وأمر عبداً له كان معه فقصرهن ناقته ، وطّل يتحدثن بقية يومه ، فيما هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه بُردَةٌ مِنْ بَرْدِ الْأَعْرَابِ يقال له : "مُزَايِلُ" يسوق يقرى له ، فلما رأيته أقبل عليه وتركن المحبون ، فمضب وحرج من عدهن وأنشأ يقول :

أَغْصِرُ مِنْ جَرِّ كَرِيمَةٍ مَاقِي * وَوَصَلِي مَفْرُوشٌ لَوْصَلِ مُزَايِلُ
إِذَا حَاءَ قَعْقَعِ الْحُلِيِّ وَلَمْ أَكُنْ * إِذَا جُنْتُ أَرْحَى صَوْتَ تِلْكَ الْخَلَايِلِ

مَنْ مَا أَتَتْضَلُّ بِالسَّهَامِ فَصَلُّهُ * وَإِنْ رَمِ رَشَقًا عِندَهَا فَهُوَ بَاصِلُ
قال : فلما أصبح ليس حلتته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرّضا لمن ، فالتى ليلي قاعدة يضاء ببيتها وقد علق حبلها وحيوتها ، وعندها جويريات يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك في مُحَادَثَةٍ مِنْ لَا يَسْعَلُهُ عِلْكُ مُزَايِلٍ وَلَا عِيْرُهُ ؟ فقال :

(١) الدَّوَّالَةُ : شمر الناصية .

(٢) أى من أهل ، يقال . صلت ذلك من حراك أى من أحلك وما أشدّ على هذا .

أمر حراً من أسد عصمت * ولو شتم لكأن لكم حوار

(٣) أى تراميا بالسهم ، وصلته : علة . (٤) الرشق . رى أهل الحال ما معهم من السهام

إلى لَعْمَرِي ، فزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عدو مثل ما له
عدها ، جعلت تُرِصُ عَ حِدِيثِهِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ وَتُحَدِّثُ عِيَرَهُ ، وَقَدْ كَانَ عَلَوَ بَقْلِيهِ
مِثْلُ حَبِّهَا إِيَّاهُ وَشَمَعَتْهُ وَأَسْتَلَحَهَا ، فَبِنَا هِيَ مُحَدِّثُهُ ، إِذْ أَقْبَلَ قَتَّى مِنَ الْحَيِّ هَدَعَتْهُ وَسَارَتْهُ
سَرَارًا طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ . انصرف . وطرقت إلى وجه المحبون قد تَغَيَّرَ وَأَنْتَفَعَ لَوْبُهُ
وَشَقَّ عَلَيْهِ مَعْلَاهُ ، فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

كَلَانَا مُطَهَّرُ اللَّسَانِ نَعَصَا * وَكُلُّ عَدُوِّ صَاحِبِهِ مَكِيدُ

تُبَلِّغُ الْعَبِيدُ بِمَا أَرَدْنَا * وَفِي الْقَلِيلِ ثُمَّ هَوَى دَفِينُ

فلما سمع البيت شَقَّ شَقَّةً شَدِيدَةً وَأُعْمِيَ عَلَيْهِ ، فَكَثَّ عَلَى ذَلِكَ سَاعَةً ، وَبَصَحُوا
الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَطَاقَ وَتَمَكَّنَ حَتَّى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ
كُلَّ مَلْعٍ .

وعن أبي الهيثم العقيلي قال . لما شِيرَ أُمُّ الْمُحْصُونَ وَلَبْلَى وَتَاشَدَ النَّاسُ شَعْرَهُ فِيهَا ،
حَقَّبَهَا وَبَدَّلَ لَهَا حَمِينَ رَاقَةَ حِمْرَاءَ ، وَحَطَّهَا وَرَدَّ مِنْ عَمْدِ الْعُقَيْلِ . وَبَدَّلَ لَهَا عَشْرًا مِنَ الْإِمْلِ
وَرَاغِبًا ، فَقَالَ أَهْلُهَا . نَحْنُ نَخْبِرُوهَا بِسَكَا ، هِيَ أَخْتَارَتْ تَزْوِجَتْهُ ، وَدَحَلُوا إِلَيْهَا فَقَالُوا :
وَاللَّهِ لَنْ لَمْ تَخْتَارِي وَرَدَّا لَتَمَنَّائِ بِكَ ، فَقَالَ الْمُجَنُّونُ :

أَلَا يَا بَلَّالَ إِنْ مَلَكْتَ فَبَا * حَيَارَكَ فَاَنْظُرِي لِمَيِ الْخَبَارِ

وَلَا تَسْتَبْدِلِي مَتَى دَنِيَا * وَلَا بَرْمَا إِذَا حُثَّ الْقَتَارُ

يُهْرَوِلُ فِي الصَّعِيرِ إِذَا رَأَاهُ * وَتُسَجِّزُهُ مُلْبَأَتُ بَكَارِ

فَنَلَّ نَائِمٍ مِنْهُ يَكَاخُ * وَمِثْلُ تَمُوتٍ مِنْهُ أَفْقَارُ

فَاخْتَارَتْ وَرَدَّا فَتَزَوَّجَتْهُ عَلَى كَرْوَةِهَا .

وقال :

أَيَاوَجُ مِنْ أَمْسَى تَحْلُسُ عَقْلُهُ * فَاصْبَحَ مَدْهُومًا فِي كُلِّ مَذْهَبِ

حَلِيًّا مِنَ الْخِلَالِ إِلَّا مُعْذَرًا * بِضَاحِكِي مَنْ كَانَ يَهْوَى تَجَنُّبِي

(١) الرَّم . التَّقِيل . (٢) القَتَار . رَجَّحَ الْحَمَّ الشَّوْى . (٣) تَحْلُسُ : سَلَبَ .

(٤) هُوَ الْمُقْصَرُ الَّذِي لَا عَدْرَ لَهُ وَلَكِنَّهُ يَتَكَلَّفُ الْمَدْرَ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَمَانِي . (وَجَاءَ الْمُعْذَرُونَ مِنَ الْأَهْرَابِ لِيُؤَدُّوا لِمِ)

إذا دُكرت ليل عقلتُ وراجعتُ * روائع عقل من هوى مُنشعب
 وقالوا صحیح ما به طیف حیه * ولا ألم إلا ما استراء التکذیب
 وشاهد وحیدی دمع منی وحبها * برى ألم من أحباء عظمی ومکی
 تحببت لیل أن یلج بک الموی - وهیات کأن الحث قل التجب
 ألا إنما عذرت یا أم مالک * صدی أیما تذهب به الريح یذهب
 فلم أر لیل مد موقیف ساعة * بخیف منی ترى حمار الحصب
 ویبدي الحقی منها إذا قدمت به * من البؤد أطراف البان المقصب
 فأصبحت من لیل الغداة کخاطر * مع الصبح و أعقاب نجم مغرب

قال أبو الفرج : أنشدنی الأخفش من أبي سعيد السکری من محمد بن حبيب

للجبون :

فوالله ثم الله إني لدائن * أفکر ما دبی إليها وأعنت
 ووالله ما أدري علام فتلیفی * وأی أموری فیک یالیل أركب
 أقطع حبل الوصل فالموت دونه * أم أشرب رنقا مکه لم یس شرب
 أم أهرب حتى لا أری لی مجاورا * أم أصنع ماذا أم أوج فأعلت
 فأیها یالیل ما ترصینه * فإنی لمظلوم وإنی لمحب

وقال :

عرضت علی قلبی العزاة فقال لی * من الآن فایأس لا أعزک من صبر
 إذا بان من تهوی وأصبح نائیا * فلا شیء أجدی من حلولک فی القبر

(١) الروائع . جمع رائحة ، أى مرثاة . (٢) الأحباء : جمع حو وهو کل شیء . فیه أعوجاج کعلم
 الجراح (العلم الذى یست علیه الحاجب) والحق والصلى . (٣) الصدى الجسد من الآدی صد موته ،
 ویطلق علی الرجل الحویف الجسد ، كما أنه یطلق علی الصوت الذى یسمیه المصوت عقب سباحه راحا الیه من
 بحر الجبل والساء المرحم .

وداع دعا إذ نحس بالقيف من منى * فهيج أطراب الفؤاد وما يدري
دعا ماسم ليل عيرها فكأنما * أطار بلي طائرا كان في صدرى
دعا ماسم ليل صل الله سعيه * وليلى بأريض عه نازحه قعر

وقال :

أيا حلى تملأ بالله حليا * سبيل الصبا يخلص إلى تسميها
أخذ بردها أو تشيف من حرارة * على كبد لم يبق إلا صميمها^(٢)
فان الصبا ريح إذا ما تنسمت * على نفس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حررات الحى حيث تمقلوا * يدى سلم لا جادكن ربيع
وحياتك اللاتي مخرج اللوى * لين بل لم تبهن رؤس
نيمت على ما كان منى ندامة * كما ستم المغبوط حين يبع^(٣)
فقدت من نفس شجاع فأتى * نبيك عن هذا وأنت جيع
فتزيت على عير القرب وأشرقت * إليك نأيا ما لحن طلوع^(٤)

وله :

يا صاحبي أيا في بمرلة * قد مر حين عليها إيتا حين
إني أرى رجعات الحب تخلى * وكان في نشأ ما كان يخفي
لا حير في الحب ليست فيه قارعة * كأن صاحبها في نزع موتون

-
- (١) الأطراب جمع طرب وهو حفة تدهى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحررات جمع حرمة وهي البعوضة ، وصيحت بذلك لصيقها ، وقيل . الشحر الملتصق ، وهي أيضا الشجرة
تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة وهي ما دعى من المال . (٤) دوسم : موضع بالهجاز .
(٥) يقال : هم شجاع إذا اختار رأيا لم يظن أنه لأمر محرم . (٦) الميع : صلة المتزوج .
(٧) أشرقت : طهرت وأرتمعت . (٨) النأيا : جمع نية وهي الطريقة في الحب ، وقيل : هي العفة ،
وقيل . هي الطريق العالي فيه ، يريد أن الوصول إلى أعلى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المصروب على
الوتين ، وهو عرق معلق بباط القلب .

إِنْ قَالَ عُدَّاهُ مَهْلًا فَلَانَ لَهُمْ : قَالَ الْمَوَى عِرْهُدَا الْقَوْلِ يَمِينِي
أَلْتَنِي مِنَ الْيَاسِ تَارَاتٍ فَتَقُتُنِي * وَلِلرَّحَاءِ بِنَاشَاتٌ فَتُجِينِي

وله :

أُمُتَّقِبِلِ نَفْعِ الصَّامِ شَانِقِي بَرْدِ شَايَا أُمِّ حَسَّانَ شَانِقِي
كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا الْخَرَجَ شَهْمًا^(١) بَاءَ الدِّيِّ مِنْ أَنْبَرِ اللَّيْلِ عَانِقِي^(٢)
وَمَا يَمِثُّهُ إِلَّا عَيْنِي تَمَرُّسًا * كَمَا يَشِيمُ فِي أَعْلَى السَّعَابَةِ نَارِقُ

وروى الأصمعي له قوله :

أَحَدْتُ عَاسَ كُلِّ مَا * صَدْتُ عَاسَهُ بِحُسْنِيَّةِ
كَادَ الْفَزَالُ يَكُونُهَا * لَوْلَا الشَّوَى وَشُورُ قَرْيَةٍ

قال : وهو الغائل :

وَلَمْ أَرِ لَيْلَى عَدَّ مَوْقِفِ سَاعِهِ * بِحَيْفٍ مَيِّ رِيْمِ وَجَارِ الْمُحْصَبِ
وَيُبْدِي الْخَصِي مِنْهَا إِذَا قَدَّعَتْ بِهِ * مِنَ الْبُرْدِ أَطْرَافَ السَّيِّ الْمَحْصَبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَظَايِرِ * مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْقَابِ عَجَمِ مُغْرَبِ
أَلَا إِنَّمَا عَادَرْتِ يَا أُمَّ الْكَلْبِ * صَدَيْ أَيَّمَا تَدْعُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ

وقال :

يَقُولُ أَنَا سَ عَلَى عَنُوبِ عَاصِي * يَرُومُ سُكُوكَا قُلْتُ أَيُّ لِيَا يَا
وَقَدْ لَامَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى أَقَارِي * أَحَى وَأَبْرُ عَمِي وَأَبْرُ حَالِي وَحَالِيَا
يَقُولُونَ لَيْلَى أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوِهِ * بِعَمَى لَيْلَى مِنْ عَدُوِّ وَمَالِيَا^(٣)
لَوْ كَانَتْ لِي لَيْلَى شَدَا مِنْ خُصُومَةٍ * لَلَّوَيْتُ أَصَاقَ الْمَلَاوِيَا

(١) شهما : مزحها . (٢) العائق : الكراشي لم يبي عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة

هاوأن كلمة «عائق» محذوفة عن «ساق» وهو الساق في البوق أي المتني .

(٣) الملاوي : جمع ملوى وهو مصدر ميمى من لوى بمعنى حلف .

وقال :

ألا ما ليلى لا ترى عد مصجى • ليل ولا تحرى بذلك طائر
 سلى إن غم الطير تحرى إذا حرت • ليل ولكن ليس للطير زاجر
 أزالنا عن العهد الذى كان بيننا • بذى الأثيل أم قد عيرتها المقادر
 هو الله ما فى القربى منى راحة • ولا البعد يسلىنى ولا أنا صابر
 ووالله ما أدرى بأية حيلة • وأى مرام أو خطر^(١) أحاطر
 وثاقه إن الدهر فى ذات بيما • مل لها وكل حاب لجائر
 ملوكيت إذا رمعت هجرى تركيتى • جميع القوى والعقل منى واصر^(٢)
 ولكن أياي يحفل عيرة • وبالرغم أيام جهاها التناور
 وقد أصح الود الذى كان يسا • أماي منى والمؤمل حائر
 لعمري لقد رقت^(٣) يا أم مالك • حياي وسأقتنى إليك المقادر^(٤)

وقال :

يا للرحال لهم بات يعروى • مستطرف وقديم كان يقينى
 على عريم ملي عيردى عديم • يابى فيمطلى دني ويلويني^(٥)
 لا يدكر البعض من دني فيكره • ولا يحذني أن سوف يقصيني
 وما كسكرى شكر لو يواهي • ولا منى كماء إذ يحيني^(٦)

(١) الخطار - مصدر من حاطر بمعنى راهى .

(٢) جميع - مجتمع . (٣) الحفل - المرة . ويطلق على الموضع البكر الذى لم يروح فيه قط .

وعيرة : موضع بين الصرة ومكة . والارصم : موضع على ستة أميال من رةالة ، ورالة : جبل معروف بطريق مكة من الكوفة . (٤) رقت : كدرت ، والترقيق كما يخلق على التكثير يخلق على صده الذى هو الصمة .

(٥) مل - مله أى نقة عى . قال صاحب اللسان : وقد أولع به الناس بترك الهجر وتشديد البلاء .

(٦) عديم أى فقر ومثله العدم صم العين وسكون الهاء . قال صاحب اللسان : إذا ضمت أوله حمت فقلت :

العدم وإذا حجت أوله قلت العدم . (٧) يلوى : يملأ ، يقال : لواه دبه وبديه . مظه .

أطعته وَعَصَيْتُ السَّاسَ كُلَّهُمْ . في أمره ثم يَأْتِي فهو يَعِصِنِي
حَيْرِي لم يَخْنِي حَيْرِي وَيَأْمُلُهُ * من دون شَرَى وشَرَى غيرُ مَأْمُونٍ
وما أَشَارُكَ في رأيي أَمَا صَعِيفٌ ^(١) * ولا أَقُولُ أَنِي مَن لَّا يَوَافِينِي ^(٢)

وله :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أَزُودُهُ * وَإِنِ حَلَّةٌ شَخَّصَتْ إِلَى حَيْثُ
هَجَرْتُكَ إِشْعَاقًا وَزَرْتُكَ حَائِمًا * وَفِيكَ عَلَى الدَّهْرِ مَلَكٌ رَقِيبٌ
سَأَسْتَعِثُ الْآيَامَ فِيكَ لَعَلَّهَا * بِيَوْمِ شُرُودِي الرَّمَاثِ تَقُوتُ

وطلع المجهول أن أهل ليل يريدون قتلها إلى التَّقْنِيَةِ فقال :

كَانَ الْقَلْبُ لَيْلَةً قَبْلَ يُعَدَى * بَلَيْلِ الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطْعُهُ عَزَّهَا شَرُّكَ مَاتَتْ * مُحَادِدُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَمَاحُ

فلما قُلتُ لَيْلٍ إِلَى التَّقْنِيَةِ قَالَ :

طَرِبْتَ وَشَاقَتَكَ الْجُمُودُ ^(٣) الدَّوَامُ * عَدَاهُ دَعَا مَالَيْنِ أَسْفَعُ ^(٤) مَارِعُ
شَخَا فَأَهْ نَعْمًا مَالِرَاقٍ كَأَنَّهُ ^(٥) * حَرِيبٌ سَلِيبٌ مَازَحُ الدَّارِ حَايِزُ
فَقُلْتُ أَلَا قَدْ بَيْنَ الْأُمُرِ فَأَنْصِرِفُ ^(٦) * فَقَدْ رَأَعَا مَالَيْنِ قَبْلَكَ رَائِعُ
سُقِيتَ سُمُومًا مِمَّنْ عَرَابٍ فَوَاقِي * تَبَيَّنْتُ مَا خَبَّرْتَ مَدَّ أَنْتَ وَأَقَامُ

(١) الصعف هكذا بالتحريك - لغة في الصعف المفتح والكود - ويستعمل في صنف الرأي والفضل ،
وأشد عليه أن الأهراف هذا البيت - ويستعمل في صنف الجسم وأشد عليه :

ومن يلقى حيرا يمر الدهر عليه * على صنف من حاله وتصور

(٢) يوافيني : يساعدني .

(٣) الجلود في الأصل : الموادح واحدها جل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل في الإبل التي عليها الموادح .
والموادم : المدة في السير . (٤) كذا في أغلب النسخ وترجيح الأسواق . وفي ب ، ص .
«أجسم» والأسفع والأجسم معانها واحد وهو الأسود . والدارج المرسع . والمراد بالأسفع الدارح «العرا» .
(٥) شخا يشعوه ويشعاه . صحه . (٦) صا . صياحا وتصويتا . (٧) الحريب من
سلب حريته وهي ماله الذي يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبيين ، ومنه المثل «قد بين الصبح لدى عيين» .

ألم تَرَ أَنِّي لَا حُبَّ الْوُثْمَةِ ۖ وَلَا سِدِيلَ مَسْدَمٍ أَنَا قَانِعٌ
 أَلَمْ تَرِدَارِ الْخَيْ فِي رَوْقِ الصَّحَى ۖ حَيْثُ أَلْحَتُ لِلْمَهْجَيْنِ الْأَجَارُغُ
 وَقَدْ يَتَنَاهَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أُلْفَةٍ ۖ وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيلَيْنِ صَادِعُ
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جِيرَةٍ قَدْ أَلْفَهُمْ ۖ زَمَانًا فَلَمْ يَمْنَحْهُمْ الْبَيْنَ مَانِعُ
 كَأَنِّي عِدَاةَ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوِيَّةٌ ۖ أَحْوِطُهَا سُنَّتٌ عَلَيْهِ الْمَشَارِعُ
 تَحْلُسُ مِنْ أَوْشَالٍ مَاءٍ صُبَاةً ۖ فَلَا الثَّرْبُ مَبْدُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ
 وَبِصَى تَطَلَّى بِالْعَمِيرِ كَأَنَّهَا ۖ يَحْأُ الْمَلَأُ جِيَّتَ عَلَيْهَا الْبَرَاغُ
 تَحْتَلِّي مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ وَأَوْصَعَتْ ۖ لَحْنُ مَا طَرَفَ الصُّبُورِ الْمَدَائِعُ
 هَا يَرِيقُ رِيحَ الْبَارِدِ حَتَّى تَشَابَهَتْ ۖ هَاهُنَا وَالْخُورُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ
 وَحَى حِلْمَ الْخُورِ مِنْ كُلِّ حَابٍ ۖ وَحَاصَتْ سُدُولُ الرِّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ

(١) المصنوع . متى هصة وهي الزاوية أو الحمل المسط على الأرض أو الحمل المخلوق من صخرة واحدة ، والأحارع : جمع أحرع ، والأخرع كالخرما . الأرض ذات الخضرة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المنسوبة أو القطعة من الرمل لا تمت شتاء (انظر الساب في ما قبله ص ١٠٠) . (٢) الهوى بمعنى المهوى وهو المهبوب ، ومنه قول الشاعر

هَوَىٰ مَعَ الرِّكَبِ الْيَتَامَىٰ مُصِيَّةً ۖ حَيْثُ وَشْنَىٰ بِمَكَّةَ مُوقِفُ

(٣) الحسوة : مصاء أجلس سهل من أرضين . (٤) تحلس الشيء : انتهه وأخذ حلسة . (٥) الأوشال جمع وشل وهو الماء التليل . والصابة : قبة الماء تنقي في الماء . والسقا . (٦) هو من قبح معنى روى . (٧) الملا . الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو راد قرب مكة . (١٠) مصاء ما ريس . يقال ما رام المكان أى ما رسه . (١١) المطاش . الابل البيضاء الكريمة واحداها هاش . والخور جمع حور هتج الحميم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود الجموى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأعداد . (١٢) الخوامع الابل وإما يقال لها حوامع لأنها تحمص أفاضها حين يحدها السير ، قال جرير .

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْخَيْ حَوَاصٍ ۖ وَكَأَنَّ قَلَا قَلَاةً مَعْمَلُ

(١٣) الخور . جمع حوراء وهي البهاء أو من في عنها حور وهو شدة سواد الفم في شدة بياضها . (١٤) السدول جمع سدبل وهو ما يحل به المودح من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيهوي جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : ما دون الركبة إلى الكعب ، ومن الدابة قراعها مطلقا .

فلما استوت تحت الخلدور وقد جرى * عَبِيرٌ وَمَسْكٌ بِالْعَرَابِيسِ رَادِعٌ^(١)
 أَشْرَنُ بَانَ حُثُوا الْجَمَالَ فَقَدْ بَدَا * من الصيف يوم لايحُ الحَرَّ مَاتِعٌ^(٢)
 فلما لَحِقًا بِالْمَحْضُولِ تَبَاثَرَتْ * نَا مُقْصِرَاتٌ عَابَ عَمَّا الْمَطَايِعُ^(٣)
 يُعْرِضُ بِاللَّذْلِ الْمَلِيحِ وَإِبْ يَزْدُ * حَاهُنَّ مَشْعُوفٌ مَهْمٌ مَوَانِعُ
 هَلَّتْ لَأَمْحَابِي وَذِمِّي مُسْبِلٌ * وَقَدْ صَدَعَ الشَّمْلُ الْمَشْتَتَ صَادِعُ
 أَلْبِي نَابَوَاتِ الْخُدُورِ تَعَرَّضَتْ * لِعَيْنِي أَمْ قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
 وروى أن أبا المجهول سَمَّيَ بِهِ لِيَدْعُو اللَّهَ عَمْرٍ وَحَلَّ فِي الْمَوْقِفِ أَنْ يُعَايِنَهُ ، سَارَ وَمَعَهُ أُنْ
 عَمَهُ رِبَادُ بَرْ كُفَّ بَرِّ مَرْأَتِهِ ، فَتَرَى بِجَمَامَةٍ تَدْعُو عَلَى أَيْتَكِ مَوْقِفَ يَسْكِي ، فَقَالَ لَهُ زِيَادُ :
 أَيْ شَيْءٌ هَذَا ؟ مَا يَنْبَغُكَ أَيْضًا ؟ سَرَّ مَا مَلَحَقِي الرَّفْقَةَ ، فَقَالَ :

أَلْبَ هَتَفَتْ يَوْمَا بَوَادٍ حَمَامَةٌ * نَكَيْتَ وَلَمْ يَسْزِرْكَ مَالِجُ الْغَايِرُ
 دَعَتْ سَاقَ حَرْ سَدَ مَا عَلَتْ الصُّحَى * مَهَاحَ لَكَ الْأَحْرَارُ أَنْ مَاحَ طَائِرُ^(٤)
 تُنْقِي الصُّحَى وَالصُّحَى وَفِي مَرْجَمَةٍ * يَخَافُ الْأَعَالِي تَحْتَهَا الْمَاءُ حَاطِرُ^(٥)
 كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِالْقَلْبِ أَوْ طَلِي أَيْكَةً * أَوْ الْخَزِجِ مِنْ تَوَلَّى الْأَشَاءِ حَاصِرُ^(٦)

(١) المراد بالزادع هاء المزدوج به الحسد أو الثوب وهو العير والمسك . وأصل الزدع الطلع بالطيب
 والزعفران ، يقال - قَبِضَ زَادِعٌ وَمَرْدُوعٌ أَيْ فِيهِ أَثَرُ الطَّيِّبِ وَالزَّعْفَرَانِ ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
 « لَمْ يَعْشِ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ إِلَّا فِي الْمَرْفَعَةِ الَّتِي تَزْدَعُ الْخَلْدَ » أَيْ تَقْصُصُ صَحْفَهَا عَلَيْهِ . (٢) الماتِع
 الطويل . (٣) مقصرات . جمع مقصرة أي داخلة في القصر وهو العنق ، يقال - أَقْبَنَتْ أَقْبَنَةً
 أَيْ عَشِيًا ، وَأَقْصَرَا أَيْ دَخَلَا فِي قَصْرِ الْعُنَى ، كَمَا تَقُولُ أَسْبَابًا مِنَ الْمَسَاءِ مِنْ أَصْعَرَتْ الْحَارِيَّةُ إِذَا لَفَتْ عَصْرَ شَاهَا ،
 أَوْ مِنْ أَصْعَرَتْ أَيْ دَخَلَتْ فِي الْعَصْرِ (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو . تصوت وتوحد . (٥) ساق حَرْ - أصله صوت الفهاري و يطلق على الذكر من
 الفهاري نسبة له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر لسان مادني سوق وجر) . (٦) المرحلة المهتزة
 المتألمة . (٧) حائر متروك . (٨) الغيل : اسم لعدة مواضع والظاهر أن المراد هنا واد
 لى حدة وهم قوم المصور . (٩) الأيكة العيصة الملتمة الأشجار ولم يجد في الكتب التي بأيدينا
 « أَيْكَةً » وَلَا « طَلِي أَيْكَةً » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) المريع . معطف الوادي
 ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون جريح من حمار وهو واد بالجمامة . (١١) الأشاءة . موضع بالجمامة
 فيه خيل . ولعل كلمة « تَوَلَّى » محذوفة عن « تَال » والثالث : صغار النحل وحادثة تالة .

يقول زيادٌ إِدْ رَأَى الْحَيَّ هَجَرُوا^(١) * أَرَى الْحَيَّ قَد سَارُوا فَهَلْ أَنْتَ سَائِرٌ
وَإِنِّي وَإِنْ عَالَ التَّفَادُّمُ حَاجَتِي مُلِمٌّ عَلَى أَوَّلَابٍ لَيْسَ فَنَاطِرُ

كَانَ الْمَجْبُورُ وَلِيْلَى وَهُمَا صَبِيَّانِ يَرْعِيَانِ عَمَّا لِأَهْلِهِمَا عَسَدٌ جَبِلَ فِي بِلَادِهِمَا يُقَالُ لَهُ
التَّوَادُ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَقْلُهُ وَتَوَحَّشَ، كَانَ يَحْيَى إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ يَقِيْمُهُ، إِذَا تَذَكَّرَ أَيَّامَ
كَانَ يُطِيفُ هُوَ وَلِيْلَى بِهِ حِرْعٌ جَرَعًا شَدِيدًا وَاسْتَوْحَشَ فَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى يَأْتِيَ نَوَاحِي
الشَّامِ، إِذَا تَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ رَأَى لَهَا لَا يَمُرُّهُ فَيَقُولُ لِلنَّاسِ الَّذِينَ يَلْقَاهُمْ : أَبَى أَنْتُمْ، أَيْ
التَّوَادُ مِنْ أَرْضِ بِي عَامِرٍ * يُقَالُ لَهُ : وَأَيْ أَنْتَ مِنْ أَرْضِ بِي عَامِرٍ ! أَنْتَ بِالشَّامِ
عَلَيْكَ بِحِمٍّ كَذَا قَائِمٌ، فَيَمْصِي عَلَى وَجْهِهِ نَحْوَ ذَلِكَ الْحِمِّ حَتَّى يَقَعَ تَارِصُ ابْنَيْنِ، فَبَرَى بِلَادًا
يُنْكِرُهَا وَقَوْمًا لَا يَمُرُّهُمْ فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ التَّوَادِ وَأَرْضِ بِي عَامِرٍ، فَيَقُولُونَ : وَأَيْ أَنْتَ مِنْ
أَرْضِ بِي عَامِرٍ ! عَلَيْكَ بِحِمٍّ كَذَا وَكَذَا، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَقَعَ عَلَى التَّوَادِ، إِذَا رَأَاهُ
قَالَ فِي ذَلِكَ :

وَأَحْشَشْتُ لِلتَّوَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ * وَكَبَّرْتُ لِلرَّحِمِ حِينَ رَأَيْتِي
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا عَرَفْتُهُ * وَبَادَى نَاعْلَى صَوْتُهُ فِدَاعِي
فَقُلْتُ لَهُ قَدْ كَانَ حَوْلَكَ حَيْرَةٌ * وَعَهْدِي بِذَلِكَ الْقَرْمِ مَدَّ زَمَانٍ
فَقَالَ مَصَوًّا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ * وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْخَدَاتَيْنِ
وَإِنِّي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذَرِي عَدَا * فِرَاقَكَ وَالْحَيَّائِبِ مُخْتَمَعَانِ
يَحَاَلَا وَتَهْتَانَا وَوَلَا وَدِمَّةً * وَبَحَا وَتَسْحَابًا إِلَى هَمَلَابِ^(٢)

-
- (١) هَجَرُوا : سَارُوا وَفِي الْمَخَارِجَةِ . (٢) عَالَ النَّيَّةَ : ذَهَبَ بِهِ . (٣) التَّوَادُ (بَالِدَالِ)
الْمَهْلَةُ وَهِيَ الْمَوَاقِفُ لَمَّا فِي سَمْعٍ مَا اسْتَمَعَ لِلْكُرَى إِذَا قَالَ فِي مَسْطَرَّةٍ هُوَ حَتَّى أَتَوَّلَهُ وَهِيَ مَصْحَفَةٌ وَاحِدَةٌ وَدَالِ
مِهْلَةً وَأَمْسَدَ عَلَيْهِ : * وَأَحْشَشْتُ لِلتَّوَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ * . الْهَيْتُ .
وَمَصْبُطُهُ يَفُوتُ بَالِدَالِ الْمَصْحَفَةِ فَقَالَ فِي مَصْحَفِهِ « تَوَادُ » بِالْفَتْحِ ثُمَّ الْكُوفُ وَاللَّامُ، مُوحِدَةٌ وَآخِرُهُ ذَالُ مَصْحَفَةٍ :
حَلَّ بِمَدٍّ . (٤) أَحْشَشْتُ : تَهَيَّأْتُ لِلْكَفَا . (٥) يُقَالُ : هَمْتُ السَّيَاءَ تَهْتُنْ هَتْنًا وَتَهْتَانَا أَيْ صَمْتُ .
(٦) يُقَالُ : سَمِعْتُ السَّحَابَةَ مَطَرًا تَسْحَابًا وَتَسْحَابًا إِذَا صَوَّتَ . (٧) الْهَيْلَانُ : فَيْصُ الْعَيْنِ بِالْمَدِّ مَوْجٍ .

وكان المحبون يسير مع أصحابه فسمع صاحبها يصيح : يا ليلي في ليلة ظلمات أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئاً ، قال .
لى ، والله هاتف يهتف بليلي ، ثم أنشأ يقول :

أقول لأدنى صاحبي كلمة . أشرت من الأقصى أجتد المدايا
إذا سرت في الأرض المضياء رأيتني * أصابع رخي أن يميل حاليبا
يمينا إذا كانت يمينا وإن تكن * شمالا يبارغي الهوى عن شماليا

خطب ليلي صاحبة المحبون جماعة من قومها فكبرهتهم ، فخطبها رسل من تقيف مؤسر فرصيته ، وكان جميلا فترجوها ونرح بها ، فقال المحبون في ذلك :

ألا إن ليلي كالمسحاة أصبحت * تقطع إلا من تقيف حالما
فقد حبسوها بحبس الدن وأبتنى . بها الرمح أقوام تباحث ماها
حائل هل من حيلة تملأها * يدني لنا تكلم ليل آحبالها
إن أنما لم تملأها فلسما * ماؤل باع حاجة لا ينالها
كان مع الرك الذي اعتدوا بها * عمامة صيف زعن عنها شمالمها
نظرت تغمص سبل جوشن إذ عدوا * تحب أطراب الخارم ألمها^(١)
بشافية الأحرار هيج شوقها * تحامقة الألاب ثم زيالها
إذا ألتعنت من حلقها وهي تنكلى . بها العيس حل عبرة العين حالما

(١) الرجل ما يوضع على الحرب للركوب ثم يصير به عن الحرب .

(٢) المسحاة في الأصل . الشاة أو اللقاة يسلطها صاحبها وحلا يشرب لها ثم يردّها إذا انقطع اللبن ، ثم كثر استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال أصحت ماله . استأخذه وأضده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأصحت تجارت . حفت وجرمت ، ولم يحده في كتب اللغة « تساحت » على وزن تعامل من هذه المادة

(٤) لم يحده في بلاد العرب ما يسمى -وشن الا حلا في عرب حلب . (٥) المحارم (بالزاء المهملة)

جمع محرم وهو الطريق في الحبل أو الرمل .

وَأَحْسِنُ عَيْكَ الْعَسَّ وَالْعَسَّ صَبَّةٌ * يَذْكُرُكَ وَالْمَتَى إِلَيْكَ قَرِيبٌ
مَحَاهِ أَنْ تَسَى الْوُشَاءَ طَلَبَةً * وَأَحْرُسُكَ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبٌ
فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي - وَأَنْبِ أَحَرَّتِي * وَكَتَبْتُ أَعْرَ الْبَاسِ - عَلَيْكَ تَطْلُبُ
مَلُوشْتِ لَمْ أَغْضَبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّعَرُ مَتَى مَا حَيْثُ نَصِيبُ
أَمَّا وَالِدِي تَلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَبِعَلَّمَ مَا تُسَيِّدُ بِهِ وَتَفِيثُ
لَقَدْ كَتَبْتُ مِنْ تَصْطَفِي الْمُسْ حُلَّةً * لَهَا دُونَ حُلَّانِ الصَّبَاءِ مَحْوُثُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس .

يَقُولُونَ لَنُفِيْ فِتْنَةً كُتِبَ لَهَا * بِحَيْرٍ فَلَا تَدْمُ عَلَيْهَا وَطَلَّقِ
طَاوَعْتُ أَعْدَائِي وَعَاصَيْتُ نَاصِي * وَأَقْدَرْتُ عَيْنَ الثَّامِتِ الْمُتَعَلِّقِ
وَوَدِدْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنِّي عَصَيْتُهُمْ * وَحُمِلْتُ فِي رِصْوَانِهَا كُلِّ مُوْبِقِ
وَكُلَّمْتُ خَوْضَ الْحَرِّ وَالْحَرُّ رَاحِرٌ * أَيُّبْتُ عَلَى أَشْلَحَ مَوْحٍ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح النكفي من لبث بن مكر كان من قومه طاهر المدينة . من لمص حاحته بحمام
في كعب بن حراة مرأى لى فت الحباب الكعبة ، وكانت حاة حيلة ، طلقها ، طلبها من أليه فتنة إياها لمكانه من
الزوة ، وكان يريد أن يرقوه من مات بمحمة حتى يحيط ترائه في أهله ، طاربت قيس وتقسمت همه وذهب ،
فاستمتع بأحبه من الرضاع ، الحبيب بن علي ، فوجد ما أحب وتروحها ومكنازما ولم يبقا ، وشمل قيسا حبلى
عن مواساة أمه فاضطعت على رومته وسمت بها حد أليه متحدة عدم الولد سلبا ترقى به ال شرها ، طلب إليه أموه
أن يطلقها فأبى ، فما زال به فالوعد والوعيد حتى أحابه ال طلته ، وكان في ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ
وعقل في هذه الحياة ولم يتصع تر وبعه غيرها ، وطارت همه شعاعا وذهب على وجهه ينتم أحبارلى ويرجع حده
في آثارها ، وعن طول حياته يساقط من همه على شعره غير ماني شقا ، بذه وإهدار دمه حتى لفظ العس الأخير .
وأحار قيس كثرية في الأمان (ح ٨ ص ١١٢) والشعر والشراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومه نسخة
في مكتبة الاسكوديال وجبرها في ولبس .

كَأَنِّي أَرَى النَّاسَ الْحَيِّينَ سَدَهَا * عُصَارَةَ مَاءِ الْحَمَلِ الْمَتَمَلِّقِ
تُشْكِرُ عَيْنِي سَدَهَا كُلَّ مَظْهِرٍ . وَيَكْزُهُ سَمِي سَدَهَا كُلَّ مِطْقٍ

ونخرج قيس في فتيه من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لثني ، فجعل يتوقع
أن يراها أو يرى من بُرْسِلِ البها ، فأشتمل العتيان بالصيد ، فلما قصوا وطرحهم رجعوا إليه
وهو واقف ، فقالوا له : قد عرقنا ما أردت بإخراجنا معك وأهلك لم تُرد الصيد وإنما أردت
لقاء لثني وقد تعدت عليك ، فاصرف الآذ ، فقال :

وَمَا حَائِمَاتُ حُمَى يَوْمًا وَلَيْسَلَةٌ عَلَى الْمَاءِ يَنْشِيءُ الْيَعْيَى حَوَانِي
عَوَاقِي لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ لَوْحِيهِ * وَلَا هُنَّ مِنْ بَرْدِ الْخِيَاضِ دَوَانِي
يَرْتَنُ حَبَابُ الْمَاءِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ مَهْرٌ لِأَصْوَاتِ السُّفَاهِ رَوَانِي
مُأَهَّمْدِي حَرَّ شَوْقٍ وَلَوْعِهِ * عَلَيْكَ وَلَكِنَّ الْمَدْقَ عَدَانِي
حَلِيلَتِي لَمْ يَتَّ أَوْ مَعَكُمْ * لُبَيْتِي سُرِّي فَأَمِصْبَا وَذَرَانِي
أَبْلُ حَاقِي وَحَدِي وَبَارَتْ حَاجِي * قَضَتْ عَلَى هَوْلٍ وَخَوْبِ حَانِ
وَأَنْتِي أَحَقُّ النَّاسِ إِلَّا تُحَاوِرَا * وَتَطْرَحَا مِنْ لَوْيْنَاءِ شِفَانِي
وَمَنْ قَادَنِي لَوْتُ حَتَّى إِذَا صَفْتُ مَشَارِبَهُ السُّمِّ الدُّعَافِ سَقَانِي
فَأَقَامُوا مَعَهُ حَتَّى لَمِبَا .

لما ألح ذريح على أسه قيس في طلاق لثني فأتى ذلك قيس ، طرَحَ ذريح حسه
في الرَّمْصَاءِ وقال : لا والله لا أُرْمُ هذا الموصع حتى أموت أو يُحْلِيهَا ، بغناه قومه من كل
ناحية فمظَّموا عليه الأمر ودَّخَرُوهُ بالله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأهلك ! إن مات شيخك
على هذه الحال كنت مُعِيَا عليه وشريكا في قتله ، هارق لثني على رغم أنه وقلة صبره
وبكاه معه حتى بكى لها من حضرها ، وأنشأ يقول :

أَقُولُ لِحُلِيِّ فِي عَيْرِ حُرْمٍ * أَلَا بَيْنِي ، بِنَفْسِي أَنْتِ ، بَيْنِي
وَوَالَهُ الْعَظِيمِ لَتَزْنَعُ نَفْسِي * وَقَطَّعُ الرَّحْلَ مِنْهُ وَالْيَمِينِ

أحب إلى يائسنى مرقا * فبكى للفراق وأسعدى

ظلمتك بالطلاق سير جريم * فقد أذهبت آخرى ودينى

قال : فلما سمعت بذلك لبى نكت بكاء شديدا ، وأنشأت تقول :

رحلت إليه من بلدى وأهلى * بخازانى جزاء انكاسها

فمن رأى فلا يغتر بعدى * بحلوى القول أو يئلو الدعا

فلما آقصت عفتها وأرادت الشحوص الى أهلها أتيت برحلة لتحمل عليها ، فلما

رأى ذلك قيس داحله أمر عظيم واشتد لهعه ، وأنشأ يقول :

مانت لبنى فانت اليوم متول * وإنك اليوم بعد الحزم غسول

فأصبحت عك لنى اليوم راحة * ودل لنى - لها الخيرات - معسول

هل ترخص نوى لى ساقية * كما عهدت لىالى العشق مقول

وقد أراى بلبنى حق متعج * والشمل مجتمع والجل موصول

فصرت من حلى حين أذكها * القلب مرتين والعقل مدحول

أصحت من حب لنى بل تذكها * فى ثرية فعوادى اليوم مشعول

والجسم متى مهوك لفرقتها * بترية طول سقام فهو منحول

كأنى يوم ولت ما تكلمنى * أحو هيام مصاب القلب مسلول

استودع الله لنى أدنقارقى * عى غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم أرتحلت لنى ، فجعل قيس يقبل موضع رحلها من الأرض وحول خاتما ، فلما

رأى ذلك قومه أفلوا على أبيه العذل واللوم ، فقال دريح لما رأى حاله تلك : قد جنيت

عليك يا بنى ، فقال له قيس : قد كنت أحبرك أنى مجنون بها فلم ترض إلا بقتلى ، فافقه

حسبك وحسب أمى . وأهل قومه يعدلونه فى تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

ما حوى لطيف تراب أرض * ولكنى حب من وطئ الترابا

بهذا فعل شجعا جميعا * أراى الى اللية والعذابا

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها :

فَوَاكِدِي وَعَاوِدِي رُدَّاعِي * وَكَانَ رَأَى لَنِي كَأَلْحَدَاعِ^(٢)
تَكْتَفِي الْوُشَاءُ فَازْجَعُونِي * فَيَأْتِيَهُ لِلْوَأَشِيِّ الْمُطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْفَدَاءَ أَلَوْمُ نَعْمِي * عَلَّ شَيْءٍ وَلَيْسَ عَسْطَاعِ
كَغَبُورٍ يَمُصُّ عَلَى يَدِيهِ * تَبَيَّنَ عَبَّهَ بَعْدَ الْيَاعِ
بَدَارَ مَصِيعَةٍ تَرَكْتُكَ لُبْنِي * كَذَاكَ الْحَيْنَ يُهْدَى لِلصَّاعِ
وَقَدْ عَشَا نَلَذَّ الْعَيْشَ حَيًّا . لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ لِلْإِنْسَانِ وَاعِي
وَلَكِنِّي الْجَمِيعَ إِلَى آفَرَاقِي * وَأَسَابَ الْخُتُوفَ لَهَا دَوَاعِي

واجتمع إليه نسوة فأظْلَنَ الخُلُوسَ عنده وحادثته وهو ساء عنهم، ثم نادى : يا لبني،
فقل له : مالك ويحك ؟ فقال : حَدِثْ رَحْلِي « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبَّ
الناس إليه يُذهب حَذَرَ الرجل، ماديتها لذلك . وقال :

إِذَا حَدِثْتُ رَجُلِي تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * مَا دَيْتُ لُبْنِي بِأَسْمِهَا وَدَعَوْتُ
دَعَوْتُ الَّتِي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي * لِفَارَقَتُهَا مِنْ حُبِّهَا وَقَصَيْتُ
بَرَّتْ نَبَلَهَا لِلصَّيْدِ لُبْنِي وَرَيْسْتُ * وَرَيْسْتُ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرَيْتُ
فَلَمَّا رَمَتْنِي أَقْصَدْتَنِي بِسَهْمِهَا * وَأَحْطَأْتُهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيْتُ
وَفَارَقْتُ لُبْنِي صَلَاةً فَكَأَنِّي * قُرْبْتُ إِلَى الْعَيُوقِ ثُمَّ هَوَيْتُ^(٣)
فِيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَلَّ فِرَاقُهَا * وَهَلْ تَرِجَعُ قُوَّةَ الْقَصِيَةِ لَيْتُ
فَصَرْتُ وَشِيعُنِي كَالَّذِي عَزَّرْتُ بِهِ * عُدَاةَ الْوَعَى بَيْنَ الْعُدَاةِ كُنَيْتُ
فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرْهُنَّ إِلَّا سَوِيَّةً * وَفَارَسُهَا تَحْتَ السَّابِكِ مَيْتُ
فَإِنْ يَكُ تَبَيَّأَ لُبْنِي غَوَايَةً * فَقَدْ يَأْذُرُجُحُ سَاحَابَ غَوَيْتُ

(١) الرذاع . الكس، وهو روح المرص . (٢) الحذاع الموت (٣) هو نحم أهرمسي

في طرف الحرة الأيمن بطولها لا يتقدمها .

فلا أت ما أملت في رأيته * ولا أنا لنى والحياء حوبت
 موطن ملكى منك هماً لى * كأك بي قد يا دريخ قصدت
 ومرص قيس، سأل أوه قيات الحى أن يعذنه ويحلقه أو يملق صهن، فعزل
 ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما احتشم عده حمل بجاشه وأطلن
 السؤال ع سبب علته، فقال :

تلق روى روجها قبل حلقها * ومن بعد ما كنا بطاماً وى المهيد
 فراد كما ردا فأصبح نامياً * وليس اذا منا ثمصيرم العهد
 ولكه ناى على كل حديث * وزايراً فى طامة القبر والحمد
 فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تذكر ما فيها من المساوى والمعائب ،
 فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويحف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أنه أن يزوجه أمراه جميلة فطلعه دلسوها
 من لنى، فدهاه الى ذلك فاما وقال :

لقد حيت ألا تقع العس بعدها * بشىء من الدنيا وإن كان مقصاً
 وأزجر صا العس اد حيل دونها * وتأتى اليها العس إلا تطلعا
 ولما تزوجت ابنى آخر أتى موضع خاتما فزل عن راحته وحمل يتملك موضعها^(١)
 ويزع حذه على تراها ويكى آخر مكاء ثم قال .

الى الله أشكو فقد لنى كما شكا * الى الله فقد الوالدين يتيم
 يتيم جفاه الأقربون جسمه * يحيل وعهد الوالدين قديم
 بكت دارهم من مايم فتلفت * دموى فأتى الجازعين ألوم
 أمستريكى من الشوى والهوى * أم أنرى بى شجوه وبهم
 تبيض من حى لبنى علائق * وأصاف حى هوطن عظيم

ومن ينمِّقُ حَتَّى فُؤَادِهِ * يَتَّ أَوْ يَشْ مَاعِشَ وَهُوَ كَلْمٌ
 طَائِيٌّ وَإِنْ أَتَمَعْتُ عَكَ مَحَلًّا * عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا سَمَا لِمَقِيمٍ
 وَإِنْ زَمَا شَقَّتْ الشَّمْلَ بَيْنَا * وَبَيْنَكُمْ فِيهِ الْعَدَا لِمَشُومٍ
 أَوْ الْحَقُّ هَذَا أَنَّ قَلْبَكَ فَارِعٌ * صَحِيحٌ وَقَلِي وَهُوَ لِكَ سَقِيمٌ

وقال في رحيل لُئِي عَسَ وَطَنًا وَأَنْتَقَالُهَا إِلَى رُوحِهَا بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ مُقِيمٌ فِي حَيَّيَا :
 مَاتَ لُئِي فَهَاجَ الْقَلْبَ مِنْ مَامَا * وَكَأَنَّ مَا وَعَدْتُ مَطْلًا وَلِيَانَا^(١)
 وَأَحْلَفْتُكَ مَتَى قَدْ كُنْتَ تَأْمَلُهَا * فَأَصْبَحَ الْقَلْبُ عَدَا لِي حَيْرَانَا
 اللَّهُ يَدْرِي وَمَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ : مَاذَا أَتَمِّجُ مِنْ دِكْرَاكِ أَحْيَا
 يَا أَكْلَ النَّاسِ مِنْ قَرِينٍ إِلَى قَدِيمٍ * وَأَحْسَنَ النَّاسِ دَاثُوبٍ وَعُزْرِيَانَا
 نَعَمْ الصَّبْحُ يَسِيدُ الْيَوْمَ نَحْلِيهِ * إِلَيْكَ مَمْتَلِكْنَا فَوَمَا يَقْضِيَانَا
 لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيمَنْ كَانَ يَحْسَبُكُمْ * إِلَّا عَلَى الْعَهْدِ حَتَّى كَانَ مَا كَانَا
 حَتَّى اسْتَفْتَقْتُ أَجْرًا مَدَامُ كُنْتُ * فَتَ لِلشَّوَى أَدْرِي الدَّمْعَ تَهْتَانَا
 إِنْ تَصِيرُي الْحَلَّ أَوْ تَمْسِي مَفَارِقَةً * فَالْدَهْرُ يُحَدِّثُ لِلنَّاسِ أَلْوَانَا
 وَمَا أَرَى مِثْلَكُمْ فِي النَّاسِ مِنْ آخِرٍ : فَقَدْ رَأَيْتُ بِهِ حَيًّا وَفِيَوَانَا

وشكا أبو لى لمعاوية تَعَرَّضَ قَيْسَ لَأَسْنَتِهِ عَدَا طَلَاغِيهَا، فَكُتِبَ مَعَاوِيَةَ إِلَى الْأَمِيرِ
 يُهْدِرُ دَمَهُ إِنْ أَلَمَ بِهَا، وَأَنْ يَشْتَدَّ فِي ذَلِكَ، فَكُتِبَ مَرْوَانَ فِي ذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ الْمَاءِ الَّذِي
 يَرِلُّهُ أَبُو لَيْثِي نَكَا وَكَيْدًا، وَوَحَّهْتُ لِي رَسُولًا إِلَى قَيْسٍ تُعَلِّمُهُ مَا جَرَى وَتَحْدَرُهُ، وَطَعَّ أَمَامَهُ
 الْحَبْرَ، فَصَاتَبَهُ وَتَحَمَّهَ، وَقَالَ لَهُ : أَسْهَى مَكَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يَهْدِرَ السُّلْطَانُ دَمَكَ ؟ فَقَالَ :
 هَلْ يَجْبُوهُمَا أَوْ يَحْتَلُّ دُونَ وَصَلْهَا * مَقَالَةً وَأَيْشَ أَوْ وَعِيدُ أَمِيرٍ
 هَلْ نَسَمِعُوا عَنِّي مِنْ دَائِمِ الْبَكَ * وَلَنْ يُنْهَبُوا مَا قَدْ أَجَزَّ صَمِيرِي
 إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مَا أَلَاقِي مِنَ الْهَوَى * وَمَنْ حَرَّقَ تَعَادُنِي وَزَعِيرِ

(١) اللَّيَا : اللَّيَّ وَالطَّلَّ، قَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ لَمْ يَخُذْ مِنَ الْمَصَادِرِ عَلَى صَلَاحٍ إِلَّا لِيَانِ .

ومن حرقٍ للحبِّ في باطن الحشى * وليلى طويل الحزن غير قصير
 سأبكي على نفسى عيني عزيرة * مكاء حزين في الوثاق أسير
 وكما جيعاً قتل أن يظهر الهوى * ما عم حالي غبطة وسرور
 فما يريح الواشون حتى مدت لهم * بطون الهوى مقلوبة لظهور
 لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا * ولكنا الدنيا متاع غرور
 وقال في إهدار معاوية دمه إن هو رارها :

إن تك لنى قد أتى دون قربها * حجاب مبع ما إليه سبيل
 فإن لسم الحو جمع بيها * وتصر قرن الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل في الحى تلتقى * وسلم أيا بالهار قبيل
 وتجمعا الأرض القرار وفوقنا * سماء نرى فيها النجوم تجول
 إلى أن يعود الدهر سلباً وتقصى * تراث ماها عندنا ودحول^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديداً فلم يأته رسولها عائداً، فقال :

ألبنى لقد حلت عليك مصيبتى * عداة عيد إذ حل ما أتوقع
 ثمبني نيتاً وتلويني قيل * معصى شوقاً كل يوم تقطع
 وقلبك قطع لا يلي لما يرى * هوا كبدى قد طال هذا التصرع
 ألومك في شأني وأنت مليمة * لممرى وأجنى للحب وأقطع
 أخبرت أنى بك ميت حسرى * ما فاض من عينيك للوحده مدع
 ولكن لعمري قد نكتك جاهدا * وإن كان داني كله منك أجمع
 صبيحة جاء المائدات بمدى * فطلت على المائدات تفجع
 فقاتله جثا إليه وقد قضى * وقائله لا مل تركاه يزع
 ما عشت عليك من ذاك عبرة * وصنى على ما بى بذكرائك تدمع
 انا أنت لم تبكى على جازة * لديك فلا تبكى غدا حين أرفع

ومن شعره قوله :

أُنْبِكِي عَلَى لُئِي وَأَنْتِ تَرْكَمْتَهَا * وَكَتَ طَلِيهَا بِالْمَلَأَاتِ أَقْدَرُ
إِنْ نَكِي الدُّنْيَا مَلُونِي تَهَلَّتْ * عَلَى فَلَدُنْيَا طُوبَى وَأَطْهَرُ
أَقْدَرُ كَانَ مَعَهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْصِعٌ * وَلِلْكَفِّ مُرْتَادٌ وَلِلْعَيْنِ مَطَرُ
وَلِلْهَاسِ الْمَطْشَانِ رِيْقَهَا * وَلِلرَّيحِ الْخَفْتَالِ نَحْرٌ وَمُسْكِرُ
كَأَنِّي لَهَا أَرْجُوهُ بَيْنَ أَحْيَلٍ * إِذَا دُرُكَةٌ مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَحْطَرُ

وقوله :

لَقَدْ عَذَّبْتَنِي بِأَحَبِّ لِي * فَقَعَّ إِذَا بَمَوْتِ أَوْ حَيَاةِ
مَا نَ الْمَوْتَ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةِ * تَكُومُ عَلَى التَّاعُدِ وَالشَّتَاتِ
وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ تَعَزَّ عَنْهَا * هَلَّتْ لَمْ إِذَا حَانَتْ وَقَاتِ

وقالت له لئى : أُنشدنى ما قلت فى علك، فأنشدها قوله :

أُعَاجِلُ مَنْ نَعَسَى بِقَايَا حُشَّاشَةٍ * عَلَى رَمَقِي وَالْعَائِدَاتُ تَعُودُ
هَانَ دُرُكْتُ لِي هَشَّتْ لَدَكْرَهَا * كَمَا هَشَّ لِلشَّدَى الدَّرُورُ وَلِيَدُ
أَجِيبْ بِلِي مِنْ دَعَايَ تَحُلُّدًا * وَفِي زَفَرَاتٍ يَجْعَلُ وَتَعُودُ
تُعِيدُ إِلَى رُوحِ الْحَيَاةِ وَإِنِى * بِنَفْسِي لَوْ عَايَيْتَنِى لِأَجُودُ

وفيها يقول :

أَلَا لَيْتَ أَيَّامًا مَضَيْنَ تَعُودُ * فَإِنْ عُنْتُ يَوْمًا إِنِّى لَسَعِيدُ
سَقَى دَارَ لَبْنِي حَيْثُ حَلَّتْ وَخِيَمَتْ * مِنْ الْأَرْضِ مُنْهَلُ الْغَامِ رَعِيدُ
عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْ دَنَتْ أَوْ تَبَاعَدَتْ * فَإِنْ تَدُنْتُ مَا طَالَتْ قَوْ مَزِيدُ
فَلَا يَأْسُ يُسْلِنُنِي وَلَا الْقُرْبُ نَافِعِى * وَلِئِي مَسُوحٌ مَا تَكَلَّدَ تَجْمُودُ
كَأَنِّى مِنْ لَبْنِي سَلِيمٌ مَسْبُودُ * يَظَلُّ عَلَى أَيْدَى الرِّجَالِ يَمِيدُ
رَمَتْنِي لُبْنَى فِى الْفَرَادِ بِسَهْمَا * وَسَهْمُ لَبْنِي لِلْفَرَادِ صَبِيدُ

سلا كل ذي شعير علمت مكانه * وقلبي للنبي ما حيث ودود
وقائله قد مات أو هو ميت * وللنفس مي أد تقيص رصيد

وعانتته على روجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر على ما عاقني * على قلبي من هوائك قديم
يبقى على حديث الزمان ورثته * وعلى حفاك إنه لكريم
فصرته وصرته وهو مدائه * شتار بين مصحح وسقيم
وأرثته زماً معاد محله * إن المحب عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يحثها ويشكو إليها حتى أمسى، فانصرفت ووعده الرجوع إليه من غد
فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا، فكتب هدير البيت :

بمسي من قلبي له الدهر ذاكر * ومن هو غنى معرض القلب صار
ومن حبه يزداد عدى حده * وحي لديه محلق المهدي دائر

وقال اس أي عتيق لقيس يوما : أنشدني أحزما قلت في لني، فأنشده :

وإني لأهوى اليوم في صبر حبه * لعل لقاء في الميام يكون
تحدثني الأحلام أني أراكم * ياليت أحلام الميام يقين
شهدت نأى لم أحل عن وقته * وإنى بكم لو تعلمين صبر
وأن فؤادي لا يلبس إلى هوى * سواك وإب قالوا لي سليل

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومي قول قيس :

أحبك أصافاً من الحن لم أحد * لها مثلاً في سائر الناس يوصف
فمن حب الحبيب ورحمة * بمصرفي مه بما يتكلف
ومنهن ألا يمرض الدهر ذكرها * على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحب بدا بالجسم واللون طاهر * وحب لدى نفسي من الروح الطيف

وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ فُسْرَاوُعُ * جَنَّبَا أَرِيكَ فَاتَّسَلَعُ الدَّوَابِعُ^(٢)
 قَنِيْقَةُ فَاَلْأَخْيَافُ أَخْيَافٌ طَبِيْبَةٌ * هَا مِنْ لَبْنِي تَحَرَّفُ وَصَرَاعُ^(٣)
 لَعِلَّ لُبْنَى أَبِ يَحْمَ لَقَاؤَهَا * يَبْعُضُ السَّلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَاقِعُ^(٤)
 يَجْزَعُ مِنَ الْوَادِى حَلَاءُ أَنْيُسِهِ * عَفَا وَقَطَعْتُهُ الْعَيُوبُ الْخَوَادِعُ^(٥)
 وَلَمَّا بَدَأَ مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَأَ * مَطَهَّرَ الصَّعَا الصَّلْدُ الشَّقُوقُ الشَّوَالِعُ^(٦)
 تَمَيَّتْ أَنْ تَلْقَى لِبَهَائِكَ ، وَالْمُنَى * تُعَاصِيكَ أَحْيَانًا وَحَيًّا تُطَاوِعُ
 وَمَا مِنْ حَبِيْبٍ وَامِقٍ لَحِيْبِهِ * وَلَا ذَى هَوًى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
 وَطَارَ عَرَابُ الْبَيْنِ وَأَنْشَقَّتْ الْعَصَا^(٧) * بَيَّيْنِ كَمَا شَقَى الْأَدِيمُ الصَّوَابُ
 أَلَا يَاهِرَ ابُّ الْبَيْنِ قَدْ طَرَتْ بِالْدَى * أَحَازِدُ مِنْ لَبْنِي فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ
 وَلِمَكَ لَوْ أَبْلَعْتَهَا يَمِيْلُكَ اسْمِي * طَوْتُ حَرًّا وَأَرْفَضَ مِنْهَا الْمَدَامُ^(٨)
 أَنْبَكِي عَلَى لَبْنِي وَأَنْتِ تَرْكَبْتَهَا * وَهَكَّتْ كَاتِبَ عَيْبِهِ وَهُوَ طَائِعُ
 فَلَا تَبْكِيْنَ فِى لَأَثَرِيْ عُدَامَةً * إِذَا تَرَفَّتْ مِنْ يَدِيْكَ النِّوَازِعُ
 فَلَيْسَ لَأَمْرِى حَاقِلٌ اللَّهُ جَمَعَهُ * مُشِتٌ وَلَا مَا مَرَّقَ اللَّهُ جَامِعُ^(٩)
 كَأَنَّكَ لَمْ تَفْنَ إِذَا لَمْ تُلَاقِهَا * وَإِنْ تَلَقَّهَا فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَاعُ

- (١) وردت هذه القصيدة برمتها فى كتاب الأملأى لأبى على الفسالى (ح ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) .
 (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحداثها تلة وهى ميل ما ارتفع من الأرض الى طفن الوادى . والخوابع جمع دابة وهى التى تجمع الماء .
 (٣) أخياف طية : موضع . والمحرور : المنزل الذى يقام فيه فى الحرب . والمراج : جمع مرجع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الرجع .
 (٤) حم : قدر .
 (٥) جرع الوادى : مططه . وعفا : درس . والخوادم واحداها حادة وهى التى لا تنبام ، يقال : جدعت فيه محمد بنى إذا لم تم ، وأتيهم بمسد ما جدعت العين .
 (٦) الصعا : الصخر . والصلد : الصلب الذى إذا أصابه شئ صلد أى صوّت . والشوابع : جمع شائعة وهى الطاهرة .
 (٧) أى تمرقت الجماعة .
 (٨) ارضى : سألولا يكون إلا سبالا مع تحزق .
 (٩) مشت : مرقق .

فياقُطُ حَتَرِي، اِذَا شَطَطَ الْوَي ^(١) * لُبْنَى وَصَدَّتْ عَكَ، مَا أَنْتَ صَامِعُ
 أَنْصَرُ لِلْبَيْنِ الْمِثْتَ مَعَ الْحَوَى * أَمْ أَنْتَ أَمْرُؤُ نَائِسِي الْحَيَاءِ بِفَازَعُ
 هَا أَمَا إِنْ مَاتَ لُبْنَى سَاجِعُ * إِذَا مَا أَسْقَلْتَ نَالِيَّامَ الْمَضَاجِعُ
 وَكَيْفَ يَبَامُ الْمَرْءُ مُسْتَشِيرَ الْجَوَى * صَحِيجُ الْأَنْسَى فِيهِ نِكَاسٌ رَوَادِعُ ^(٢)
 وَلَا حَيْرَى الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُؤَايَا * لُبْنَى وَلَمْ يَجْعَ لَهَا الشَّمْلُ جَامِعُ
 أَلَيْسَ لِبْنَى نَحْتُ سَقِيفٍ يُكْتَبَا * وَإِيَّاهِ هَذَا إِنْ نَاتَ لِي نَافِعُ
 وَيَلْبَسُ اللَّيْلُ الْبَهْمُ إِذَا دَجَا ^(٣) * وَتُصْرُؤُ الصَّحْحِ وَالْعَجْرُ سَاطِعُ
 تَطْلَأُ نَحْتُ رَجْلَيْهَا بِسَاطَا ^(٤) وَبَعْصُهُ * أَطَاهُ بِرَجْلِي لَيْسَ يَطْوِيهِ مَابِعُ ^(٥)
 وَأَمْرَحُ إِنْ تُمْسَى بِحَيْرٍ وَإِنْ يَكُنْ * هَا الْحَدَثُ الْعَادِي تَرْغَى الرَوَائِعُ
 كَأَيْكَ يَذْعُ لَمْ تَرَالِئُ قَلْبَهَا * وَلَمْ يَطْلُعْكَ النَّهْرُ فِيمَا بَطَالِمُ
 فَقَدْ كَتَّ أَبْيَى وَالْوَي مُطْمَثَةٌ * بِنَا وَكَمْ مِنْ عِلْمٍ مَا الْبَيْنُ صَامِعُ
 وَأَهْرُكُمُ هَجَرَ الْبَيْضِ وَجْهَكُمْ * عَلَى كَبْدِي مِنْهُ كَلُومٌ صَوَادِعُ
 وَأَعْمَلُ لِلْإِشْفَاقِ حَتَّى يُشْفَى * غُخَافَةُ شَحِيطِ الدَّارِ وَالشَّمْلُ جَامِعُ
 وَأَعِيدُ لِلْأَرْضِ الَّتِي مِنْ وَرَائِكُمْ * لِيَرْجِعَنِي يَوْمًا عَلَيْكَ الرَوَائِعُ
 يَا قَلْبُ صَبْرًا وَاعْتِرَافًا لِمَا تَرَى ^(٦) * وَيَا حُبَّاهُ قَهْ بِالَّذِي أَنْتَ وَاقِعُ
 لَعَمْرِي لَمَنْ أَسْمَى وَأَنْتَ صَحِيجُهُ * مِنَ النَّاسِ مَا اخْتِيرَتْ عَلَيْهِ الْمَضَاجِعُ
 أَلَّا تَلَكَ لُسْنِي قَدْ تَرَانِي مَزَارَهَا * وَلِلْبَيْنِ عَمُّ مَا يَزَالُ يَسَازَعُ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْجَوَى فَكَفَى بِهِ * حَوَى حُرْقٍ قَدْ مُجْمِنَتَهَا الْأَضَالُ
 أَنَاثَةُ لِبْنَى وَلَمْ تَقْطَعْ الْمَدَى * وَوَصِلَ وَلَا صَرِيحَ فَيَأْسَ طَامِعُ

(١) شَطَطَتْ صَدَّتْ . (٢) الْمُسْتَشِيرُ : الَّذِي لَيْسَ الشَّارِحُ وَهُوَ التَّوْبُ الَّذِي عَلَى الْحَسَدِ . وَالْحَوَى :
 الْحَوَى الْبَاطِلُ . وَالْأَمْسَى : الْخُرُوجُ . وَنِكَاسٌ : جَمْعُ نَكَسٍ هَالِكٌ . وَرَوَادِعُ : جَمْعُ رَوَادِعٍ وَهِيَ الَّتِي تَرْتَدُّ عَنِ الْحَرَكَةِ
 وَالتَّصَرُّفِ . (٣) دَجَا : أَلْسَ سَلَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ . (٤) السَّاطَا : مَا سَطَّ مِنَ الْفَرْشِ .
 (٥) تَرْغَى : تَمْرَحُ . (٦) اعْتَرَفَ : دَلَّ وَاعْتَادَ .

يَطْلُ نَهَارَ الْوَاهِينَ نَهَارُهُ * وَتَهْدِيهِ^(١) فِي الْبَائِسِ الْمَصَاحُ
 سَوَايَ قَلْبِي مِنْ نَهَارِي وَإِنَّمَا * تُقَسِّمُ بَيْنَ الْمَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
 وَلَوْلَا رَحْمَةُ الْقَلْبِ أَنْ تَعْطِفَ الْوَى * لَمَا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُنَّ الْأَضْغَالُ
 لَهُ وَجَعَتْ^(٢) إِثْرُ لَيْسَى كَأَنهَا * شَقَائِقُ بَرْقِي فِي السَّحَابِ لَوَامِعُ
 نَهَارِي نَهَارُ الْبَاسِ حَتَّى إِذَا دُمَا * لِي اللَّيْلُ هَزَنَتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
 أَقْعَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَالْمَنَى * وَيَحْمِنِي بِالْبَلِّ وَالْمَهْمِ طَامِعُ
 وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مَيْكَ مَوْدُهُ * كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَضَاعُ
 أَبِي اللَّهِ أَبَ يَلْقَى الرِّشَادَ مَنِمْ * أَلَّا كُلُّ أَمْرٍ حُمٌ لَا يَدُ وَاقِعُ
 هُمَا بَرَحَا فِي مُعْوَلَيْنِ كَلَامُهُمَا * فَوَاضَى وَصِيْبٌ مَا قَهَرَا الدَّهْرَ دَامِعُ
 إِذَا عَنِ أَنْفُسَا الْبِكَاءِ عَشِيَّةُ * فَوَعْدُنَا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
 وَلِلْهَبِ آيَاتٌ تَنِيْبُ بِالْعَنَى * تُخَوِّبُ وَتَعْرِى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشْجَاعُ^(٣)
 وَمَا كُلُّ مَا مَتَكَ نَفْسُكَ حَالِيَا * تَلَاقُ وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ
 تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْرَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * حَقٌّ كَمَا حَرَبَ الْغُلُوَارُ السَّوَابِعُ^(٤)
 وَجَانِبَ قُرْبِ السَّاسِ يَحْلُو هِمَّةُ * وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيَامٌ مُرَاجِعُ
 أَرَاكَ اجْتَنِبْتَ الْحَيَّ مِنْ مِيرِيقَةِ * وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَحْجِ إِلَيْكَ الْأَصَابِعُ
 كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا * وَإِنْ كَانَ فِيهَا الْخَلْقُ قَفَرٌ بِلَاقِعُ
 أَلَا إِنَّمَا أَبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعُ * وَهَلْ جَرَّعَ مِنْ وَشَكِ بَيْنِكَ نَامِعُ
 أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الصَّوَابِعِ
 مَنْ كَانَ عَمَزُوا عَدَا لِعِزَاقَا * فَمَلَأَتْ طَلِيكِي لِمَا هُوَ وَاقِعُ

(١) تَهْد . فسكه . (٢) وحاح . حقائق . (٣) المأق من البين . الحاح الذي يلي

الأهب . (٤) الأشجاع عروق طاهر الكف . (٥) الطوار : جمع طاء وهي التي عطلت على

ولد غيرها . والسراج : جمع ساجدة وهي التي تمد حينها على جهة واحدة .

الشعر السيامي

أوصفا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية وأستحداث العرّات وإنهاض الحمم في الاقلابات الاجتماعية، وبينا ميّزة استعمال الشعر في الأعراس السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عنه أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعداك بذكر قصيدة المهان بن بشير في هذا الباب . وها هي دى :

النَّعْثَانُ بْنُ بَشِيرٍ^(١)

قال أبو القرح الأصمعي :

لما كثرت المعجاة بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتماخضا، كتب معاوية إلى سعيد بن القاصي، وهو طائفه على المدينة، أن يجلّد كلّ واحد منهما مائة سوط، وكان ابن حسان صديقا لسعيد وما مدّح أحدا غيره قط، فكبره أن يضربه أو يضرب أس عمة، فأمسك عنهما، ثم ولي من أن، فلما قُدم أحد ابن حسان فصره مائة سوط ولم يضرب أحاه، فكتب أن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيرا أثيرا ميكيا عند معاوية، قال

(١) هو المهان بن بشير بن سعد الأصاري، من المخرج أهل يثرب، لكنه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين . ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأصهار سواء . وقد احتدبه سبانه ودعاهه وكان يراعى حاشه، وكثيرا ما سمع توسطه للأصهار عسده . وعاش المهان المدكور إلى حلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حصص، فلما أصعبت الحلافة إلى مروان دعا إلى ابن الزبير وحالف على مروان من قتل الصحاك، فلم يجبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم تنوعه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسابرة من أمة شديد التعصب للأصهار، ولذلك عدا ما علم بقصيدة الأحطل في العطن عليهم رد عليه . والمهان بن بشير من الرقيقين في الشعر خلفا عن سلف فان حده وأناه وعنه وأولاده وأحاده كلهم شمراء . وهو أول مولود ولد في الاسلام من الأصهار، وآخر من ولّى الكوفة لمعاوية من أبي سفيان . وله ديوان مطبوع في الهند . توفي سنة ٦٥ هـ . وترى أحوال النعمان بن بشير في الأغاني (ج ١٤ ص ١١٩) وأعلى القائل (ج ٣ ص ٨) والعقد المريد (ج ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن حنبل وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيرا : مكرها .

لَبِثَ شِعْرَىٰ عَائِبٌ أُنْتِ بِالنَّاسِ • مَحَلِّلٌ أَمْ رَاقِدٌ نَعْمَانُ
 أَيْةٌ مَا يَكُنْ فَقَدْ يَرِجَعُ الْفَا • نُبُّ يَوْمًا وَيُوقَطُ الْوَسَانُ
 إِنِّ عَمْرًا وَعَامِرًا أَوْيَا • وَحَرَامًا قَدَمًا عَلَى الْعَهْدِ كَاوَا
 أَفْهَمُ مَا يُعْوَكُ أَمْ قَلَّةُ الْكُنْ • ابْتِغَاءُ أَمِّ أَنْتِ عَاتِبُ عَصَانِ
 أَمْ جَهَّاءُ أَمْ أَعُوذُكَ الْقَرَاطِيضُ • أَمْ أَمْرِي • عَلَيْكَ هَوَانُ
 يَوْمَ أَتَيْتَ أَنْ سَاقِي رُصَّتْ • وَاتَّصَحَّ بِكَ الرُّكَّانُ
 ثُمَّ قَالُوا إِنِّ ابْنُ عَمِّكَ فِي مَلَسَى أُمُورٍ أَتَى بِهَا الْحَدَثَانُ
 فَسَيَتُ الْأَرْحَامَ وَالْوُدَّ وَالصُّحُفَةَ • فَمَا أَنْتِ مِنَ الْأَرْحَامِ
 إِنَّمَا الرِّيحُ فَاعْلَمِي قَنَاءَ • أَوْ كَعَصِ الْعِيدَانِ لَوْلَا السَّنَانُ

قال أبو العرج الأصماني :

دخل النعمان شِيشِيرَ عَلَى مُعَاوِيَةَ لَمَّا هَا الْأَخْطَلُ الْأَنْصَارَ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ
 أَنَسْنَا يَقُولُ :

مُعَاوِيَةَ إِلَّا تُعْطِيَ الْحَقَّ تَعْتَرِفُ • لِحَى الْأَزْدِ مَشْدُودًا عَلَيْهِمَا الْعَامَمُ
 ابْتِغَاءُ عَبْدُ الْأَرْحَامِ صَلََّةٌ • وَمَاذَا الَّذِي تُجْعِدِي عَلَيْكَ الْأَرْحَامُ
 مَا لِي بِأَنْ تَأْرُدُونِ قَطْعَ لِسَانِهِ • فِدْوَيْكَ مِنْ يُرْضِيهِ عَيْكَ الدَّرَاهِمُ
 وَرَاجِعُ رُويْدَا لَا تُسْمِنَا دَنِيَّةً • لَعَلَّكَ فِي عَيْتِ الْحَوَادِثِ نَادِمُ
 مَتَى تَلْقَى مَا عُصْبَةٌ تَحْرَجِيَّةً • أَوْ الْأَوْسُ يَوْمًا تَحْتَرِمُكَ الْحَارِمُ
 وَتَقْلَاقُ خَيْلٌ كَالْقَطَا مُسْتَطِيرَةٌ • تَمَّا طَيْطُ أَرْسَالٍ عَلَيْهَا الشُّكَاثُ (٣)
 يُسَوِّمُهَا الْعَمْرَانُ • عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ • وَعِزْرَانُ حَتَّى تُسَنِّحَ الْحَارِمُ
 وَيَسُدُّ مِنْ الْخُلُودِ الْعَزِيزَةَ يَحْلُلُهَا • وَتَنْقِصُ مِنْ هَوْلِ السُّيُوفِ الْمَقَادِمُ
 قَطَلَتْ شَعْبَ الصَّدْعِ بَعْدَ الْبِتَامَةِ • قَتْنَرِيَّةٌ فَالْآثُ وَالْأَمْرُ سَالِمُ

(١) الأرقام • حتى من بن علف • (٢) شاطيط • متعرة • (٣) الشكائم جمع
 شائمة وهي الحديدة المعترسة في فم الفرس •

وَأَلَا فَتَوْبَى لَأَمَّةٍ تُبْعِيهِ • تَوَارِيثُ آثَانِي وَأَبْيُصُ صَارِم
وَأَسْمُرُ خَطِيئًا كَأَنَّهُ كُتُوبُهُ • نَوَى الْقَسْبَ فِيهَا لَهْدِي خُتَامِي
فَإِنْ كَسَتْ لَمْ تَشْهَدْ بَيْدِي وَبِقِعْمَةٍ • أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَسُوفَ رَوَائِغِي
فَسَائِلُ يَا حَيُّ لَوْيَ بْنَ عَلِيٍّ • وَأَنْتَ عَمَّا يَحْتَفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِمُ
أَلَمْ تَقْدِرْ يَوْمَ بَدْرٍ سَيُوفًا • وَلَيْلِكَ عَمَّا نَابَ قَوْمُكَ قَاتِمُ
صَرَائِكُمْ حَتَّى تَمَزَّقَ جَمْعُكُمْ • وَطَارَتْ أَكْصَفُكُمْ وَجَاهُكُمْ
وَعَادَتْ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَرَائِسُ • وَأَنْتَ عَلَى حَرْبٍ عَلَيْكَ التَّمَائِمُ
وَعَصَتْ قُرَيْشٌ بِالْأَمَلِ بَغْصَةً • وَمِنْ قَتْلٍ مَاعَصَتْ عَلَيْكَ الْأَدَامُ
فَكَلَّهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ تَكِيدُهُ • مَكَانَ الشَّعَا وَالْأَمْرِ بِهِ تَحَاقُمُ
فَمَا إِنْ رَمَى رَايِمٌ فَاوَقَى صَفَاتَنَا • وَلَا صَامَنَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ صَائِمُ
وَأَنَّى لِأَقْصَى عَنِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ • سَرَّ قِيَّهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامُ
أَصَابِعُ فِيهَا عَدَّ شَمْسٍ وَأَتَى • لَيْلُكَ الْبَقَى فِي الْعَسْرِ مَنَى أَكْثَمُ
فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ • وَلَكِنْ وَلَّى الْحَقُّ وَالْأَمْرُ هَائِمُ
إِلَيْهِمْ بِصِيرِ الْأَمْرِ عَدَّ شَتَاتِهِ • قَبْلَ لَكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ لَا يَزِمُ
بِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ الْهَدَى فَاهْتَدَى بِهِمْ • وَمِنْهُمْ لَهُ هَادٍ إِمَامٌ وَحَاتِمُ

فلما بلغت القصيدة معاوية أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه ، فاستجار يزيد

ابن معاوية ، فبعه منه ، وأرصى العنان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه : لما صر مروان بن الحكم عبد الرحمن

ابن حسان الحداد ، ولم يصير أحاه حين تهاجبا وتقادفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان

ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأتسأ يقول :

يَا بْنَ أَبِي سُفْيَانَ مَا مِثْلُ • حَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِيرُ

أَذْكَرُ بَأْ مُقَدَّمِ أَفْرَاسِيَا • خَالِئُو إِذْ أَنْتَ إِلَيَّا قَعِيرُ

واذا كَرَّ غَدَاةَ السَّاعِدَى الَّذِي * آتَوْكُم بِالْأَمْرِ فِيهَا بَيِّنٌ
 فَاحْذَرُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ بَذْرِ وَقَدْ * مَرَّ بِكُمْ يَوْمٌ بِسَدْرِ عَمِيرٍ
 إِنْ أَبَى حَسَنٌ لَهُ نَائِرٌ * فَأَعْطَاهُ الْحَقُّ تَصِيحَ الصُّدُورِ
 وَمِثْلَ أَيَّامٍ لَا شَتَّتَتْ * مُلُكًا لَكُمْ أَمْرُكُ فِيهَا صَغِيرٌ
 أَمَا تَرَى الْأَزْدَ وَأَشْيَاعَهَا * تَجُولُ نُحْرًا كَالِطَلَّاتِ تَزِيرُ
 بِصُورٍ حَوْلِي مِنْهُمْ مَعَشَرٌ * إِنْ صَلَّتْ صَالُوا وَهُمْ لِي نَصِيرُ
 يَا لَنَا الضَّمِيمَ فَلَا يُقْتَلُ * عِزٌّ مَبِيعٌ وَعَدِيدٌ كَثِيرُ
 وَنُصْرٌ فِي عِزِّ حُرُومَةٍ * عَادِيَةٌ تَقْلُ عَنْهَا الصَّحُورُ

مُلْحَقٌ الكتاب الثاني

باب المنشور

شرحا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العاسيين من حَوْدَة اللفظ، ومثانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووصوح القصد ولساطته . ووعداك بذكر طُرْف من رسائل القوم في ذلك العصر الراهى الزاهر، وإليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهديّ لأهل بيته في حرب خراسان

قال أبى عبد ربه في المقَدِّ العريد :

هذا ما تراجَعَ فيه المهديّ ووزرائه وما دار بينهم من تدبير الرأى في حرب خُراسان أيامَ تحامَلَتْ عليهم العِمالُ وأعصتْ، حُملتْهم الدَّالَّةُ وما تقدّم لهم من المكابدة على أن يَكْثُوا بِيَعْتَهُمْ، ونقصوا مَوْتَهُمْ، وطردوا العِمالَ، وأَتَوْوا بما عليهم من الخِراج؛ وحلَّ المهديّ ما يُحِبُّ من مصلحتهم ويكره من عَنَتِهِمْ على أن أقال عَثَرَتَهُمْ، وأعتمر رُلَّتَهُمْ، وأحتمل دالَّتَهُمْ، تَطَوُّلاً بالفصل وأتساعاً بالعفو، وأُحْدِثاً بالحقّة وبقفا بالسياسة، ولذلك لم يزل مُدَحِّمُهُ اللهُ أعباءَ الخِلافةِ وقلده أُمُورَ الرعيّةِ رَفيقا بمَدَارِ سُلْطَانِهِ، بصيرا بأهل زمانه، ماسطاً لِلْعَيْلَةِ في رِعِيَّتِهِ، تسكى الى كَمَعِهِ وتأنّس بعموه وتثقّ بِحِجَابِهِ، فإذا وقعتِ الإقْضِيَةُ اللارمَهُ والحقوقُ الواجبةُ، فليس عنده

هَوَادَة وَلَا إِعْصَاء وَلَا مُدَاهَنَة ، أَثَرَةً لَقِيَ وَقِيَامًا بِالْعَدْلِ وَأَحَدًا بِالْحَزْمِ ، فَمَا أَهْلَ خِرَاسَانَ
الْأَقْفَارُ عَمَلُهُ وَالثَّقَّةُ مَعَهُ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَمَالَ وَسَلَّوْا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
ثُمَّ حَلَطُوا أَحْتِمَاحًا بِاعْتِدَارٍ ، وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَصَلُّيًا بِاعْتِلَالٍ ، فَلَمَّا أَتَى ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ
خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ حَلَّائِهِ وَبَعَثَ إِلَى نَقِيرٍ مِنْ خُجَّتِهِ وَوُزَرَائِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالَ وَأَمْتَنَصَحَهُمُ
لِلرَّحِيَةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْإِسْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيُّ عَمٍّ ! تَعَقَّبْ قَوْلًا وَكُنْ حَكَمًا
يَبْنِي ، وَأَرْسِلْ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْصِرْهُمَا الْأَمْرَ وَشَارِكُهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ
مُحَمَّدَ بْنَ أَلَيْثٍ بِمَحْطَطٍ مَرَّاجِعْتِهِمْ ، وَإِثْنَاتِ مَقَاتِلِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمَظَالِمِ ^(٣) :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِبَاغَةً ، اسْتَمْرَعَتْ رَأْيَهُمْ ، وَاسْتَفْرَقَتْ
أَشْعَالَهُمْ ، وَاسْتَمَدَعَتْ أَعْمَارَهُمْ ، وَدَهَوَا بِهَا وَدَعَبَتْ بِهِمْ ، وَغُرِّفُوا بِهَا وَغُرِّفَتْ بِهِمْ ، وَلِهَذَا
الْأُمُورُ الَّتِي جَعَلْنَا فِيهَا عَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أَسْبَابِ الْحَرْبِ وَسَائِسَةِ الْأُمُورِ
وَقَادَةِ الْجُودِ وَفُرْسَانِ الْمَزَاهِرِ ^(٤) وَإِخْوَانِ التَّحَارِبِ ، وَأَسْطَالِ الْوَقَائِعِ ، الَّذِينَ رَمَحْتَهُمْ بِصَهْلَاهَا ،
وَقَبَّاتِهِمْ بِطَلَاهَا ، وَعَصَبَتِهِمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَمَتِهِمْ نَوَاجِدُهَا ، فَلَوْ تَعَمَّقْتَ مَا قَلْبُهُمْ ، وَكَشَفْتَ
مَا عِنْدَهُمْ ، لَوَحَدْتَ بَطَائِرَ تَوْحِيدِ أَمْرِكَ ، وَتَحَارَبْتَ تَوَاقِي بَطَرِكَ ، وَأَحَادِيثَ تَقْوَى قَلْبِكَ ،
فَأَمَّا عَيْنُ مَعَاشِرِ عَمَلِكَ ، وَأَصْحَابُ دَوَاوِينِكَ ، حَسَنُ بِنَا وَكَثِيرٌ مِمَّا أَنْ تَقُومَ بِثِقَلِ مَا حَمَلْنَا
مِنْ عَمَلِكَ ، وَاسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَقَقْنَا بِهِ مِنْ إِمْصَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِعَاذَ حُكْمِكَ ،
وإظهار حَقِّكَ .

فَأَحَابُهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا
يَسْطُلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَمَنْ أَعْلَمَ زَمَانًا وَتَدْبِيرَ سُلْطَانًا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيَّ كَسَرُوا عِزَّهُ
(٢) هُوَ ابْنُ أَلَيْثٍ بْنِ بَصْرِ بْنِ سِيَّارٍ . وَكَانَ أَرْسَلَ
المَهْدِيَّ إِذَا مَا أَلَيْثُ تَحَارَبَ الْمَقْعَ فَلَمْ يَتَّكِفِ مِنْهُ . وَكَانَ آوَاهُ مُحَمَّدٌ هَذَا مِنْ تَخَلُّبِ الْمَهْدِيِّ وَلَمْ تَعْرِفْ سِتْرَ دَعَايِهِ .
(٣) هُوَ سَلَامٌ مِنَ الْأَرْضِ ، اسْتَمْلَهُ الْمَصُورُ ثُمَّ تَوَلَّى الْقُوَّاتِ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ .
(٤) الْمَزَاهِرُ :
بِحَرِّكَ اللَّيْلَا وَالْحُرُوبِ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ ، أنت مُتَّعَ الرأى ، وَثَبُّقُ المُقَدَّة ، قَوَى المُنَّة^(١) ، بِلِغِ العِطَّة ، معصوم التَّيَّة ، مُحْضُورُ الرويَّة ، مَوْيَّدُ الدَّيَّة ، مَوْقُ العَزِيَّة ، مُعَانُ بِالطَّعَر ، مَهْدِيّ الى انْخِر ، إن هَمَمْتَ فَي عَزْمِكَ مَوَاقِعَ الظَّن ، وإن أَحْتَمَعْتَ صَدَعَ صَعْلِكَ مُتَّيَسَ الشَّك ، فَأَعِزِّمْ يَهْدِ الله الى الصَّوَابِ قَلْبِكَ ، وَقُلْ يُنْطَلِقُ اللهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ ، فَإِنَّ حَنُودَكَ بِحَمَّة ، وَخَرَاتِكَ عَامِرَةٌ ، وَبِعَسْكَ سَحِيَّةٌ ، وَأَمْرُكَ مُبَاد .

فأجابهُ المهديّ : إِنْ المُشَاوَرَةُ وَالْمُنَاطَرَةُ بِنَا رَحِمَهُ ، وَمِفْتَاحُا بَرَكَةٌ ، لَا يَهْلِكُ طَيْبُهُمَا رَأْيٌ ، وَلَا يَتَنَبَّلُ مَعَهُمَا حَرَمٌ ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ ، وَقُولُوا بِمَا يَحْصُرُكُمْ ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَتَوْفِيقُ اللهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قال الرِّبِيع :

أيها المهديّ ، إِنْ تَصَارِيفُ وَجْهِهِ الرَأْيُ كَثِيرَةٌ ، وَإِنْ الإِشَارَةُ بِبَعْضِ مَعَارِصِ^(٢) الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ ، وَلَكِنْ خَرَّاسَانُ أَرْضُ مِيدَةِ الْمَسَافَةِ ، مُتَرَاوِجَةُ الشُّقَّة ، مُتَعَاوِيَةُ السَّبِيلِ ؛ فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدِيرِ ، وَمُبَرَّمِ التَّقْدِيرِ ، وَلُبَّابِ الصَّوَابِ ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ ، وَقَلْبُهُ تَدِيرُكَ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ ، وَلَا دُونُهُ مَعْلَقٌ لَخْصُومَةٍ حَائِلٍ ، ثُمَّ أَجَبَتْ الْبُرْدُ بِهِ ، وَأَطْلُوثُ الرُّسُلِ عَلَيْهِ ، كَانَ بِالْخَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُصُهُ ؛ فَمَا أَقْبَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرُّسُلَ ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبُ بِمَحْفَاقِ أَحْصَارِهِمْ ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ ، فَتَحْلُثَ رَأْيَا عَيْرَهُ وَتَتَدَبَّعَ تَدْبِيرًا سِوَاهُ ؛ وَقَدْ أَهْرَجْتَ الْحَقَّ ، وَتَحَلَّلْتَ الْعُقْدَ ، وَاسْتَرْخَيْتَ الْحِقَابَ^(٣) ، وَأَمَدْتَ الزَّمَانَ ، ثُمَّ لَعَلَّنا مَوْقِعَ الْآخِرَةِ تَكْصِدُ الْأَوَّلُ ؛ وَلَكِنْ الرَأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ — وَفَقَّ اللهُ — أَنْ تَصْرِفَ إِحَالَةَ النَّظَرِ ، وَتَقْلِبَ الْعِكْرَ ، فِيمَا جَمَعْتَنَا لَهُ ، وَاسْتَشْرَفْتَنَا فِيهِ مِنَ التَّدِيرِ لِحَرْبِهِمْ ، وَالْحِلِّ فِي أَمْرِهِمْ ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَحِيلِ دِي دِيرِ

(١) المنة - الفتحة . (٢) لا يتنبل لا يصعب (٣) معاريس الكلام ما عرّض يد ولم يصرح وهي النورية فالتى عن الشئ . (٤) الحقاب - شئ يحدّه المرأة تعلق به مبالغ الحبل تشدّه على وسطها .

فاصل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا مثبها في أثره عليك، ولا ظناً على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا مسوا إلى بدعه محذورة، قَفَدَحَ في مُلْكِكَ، وَيُرْضَى^(١) الأمور لعبرك، ثم تُسَدِّد إليه أمورهم، وتعرض إليه حُرْبهم، وأمره في عهدك ووصيتك إياه ملوم أمرك ما لزمه الحرم، وحلاف نبيك إذا حالقه الرأي عند استحالة الأمور، واشتداد الأحوال التي سَقَصَ أمر الغائب عنها، ويثبتُ رأى الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فوات أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة وقويت المكيدة، ونقد العمل وأُحْدِ النظر، إن شاء الله .

قال الفصل بن العباس

أيها المهديّ، إن وليّ الأمور وسائن الحروب ربما نَحَى حوده، وهوى أمواله في غير ما يصيبُ أمرَ حربِه، ولا صَعَطَ^(٢) حال أصطرته، فيقعدُ عند الحاحه إليها، وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقدًا لها، لا يبقى نقوه، ولا بصول نُعمته، ولا يفرج إلى ثقه، فالرأى لك أيها المهديّ — وفعلك الله — أن تُعْثِي حراثتك من الإيفاق للاموال، وجنودك من مكابده الأسعار، ومقارعة الأخطار، وتحرير القتال، ولا تُسْرِعَ للقوم في الإحالة إلى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدهمهم، وتُخْرِى من رعيّتك غيرهم، ولكن أغرهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللبن، وخاتلهم بالرقق، وأبرق لهم بالقول^(٣)، وأرعد نحوهم بالفعل، وآبست البعث^(٤)، وحدد الخود، وكتب الكاث، وأعقد الألوية، وأصب الزايات، وأطهر أنك موحه اليهم الحيوش مع أحق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم، ثم آدمس الرُسل، وأبثت الكتب، وصنع معصهم على طمع من وعدك، ومصاصاً على خوف

(١) ظها : منها . ودخلة مكروهة : أى عية سيئة . (٢) دعه أى أنه .

(٣) أرق وأرعد معاً تهديد ووعود . (٤) البعث : الجمع .

من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشاحه نيران التحاسد بهم ، وأغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتطوى الصدور على الغصة ، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبة ، فإن مرام الطفر الغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناصبة الكتب ، والمكايده بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل فى العلوب ، القوى الموقع من العوس ، المعقود بالخبج ، الموصول بالحيل ، المبني على القين الذى يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعى المواتاة ، أنهض من القتال طبقات السيوف وأسنه الزماح ، كما أن الوالى الذى يتسترل طاعة رعيه بالحيل ، ويفرق كلمة مدوه بالمكايده ، أحكم عملاً وألطف مغزراً وأحسن سياسة من الذى لا يسال ذلك إلا بالقتال ، والإنلاي للأموال والتفجير والخطار^(١) .

وليعلم المهدي أنه إن وحده لقتالهم رحلا لم يسر لقتالهم إلا بمجود كثيفة ، تخرج من حال شديدة ، وتقسيم على أسعار صتيه ، وأموال متفرقة ، وقواد عشته ، إن آمنتهم استغفوا ماله ، وإن استعجه بهم كانوا عليه لا له .

قال المهدي : هذا رأى قد أسفر بوره ، وأرق صوره ، وتمثل صوابه للعيون ، وبجد حقه فى القلوب ، ولكن فوق كل دى علم عليم ، ثم نظر الى آسه على فقال : ما تقول^(٢) .

قال على :

أيها المهدي ، إن أهل حراسان لم يحلوا عن طاعتك ، ولم يتصبوا من دوك أحداً يقدر فى تفسير مملكك ، ويرعى الأمور لاساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر ، والشأن أصغر والحال أدل ، لأن الله مع حقه الذى لا يتخذله ، وعده وعده الذى لا يخلفه ، ولكنهم قوم من رعيك ، وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم ولياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أحسنت الى دعوتهم ونفست عنهم^(٣) .

(١) الخطار . الاشراف على ملكة .

(٢) هست بهم فرحت بهم .

قبل أن يتلاطم منهم حال، أو يحدث من عديم قتي، أطلعت أسر الرب، وأطفأت نائرة الحرب، ووقرت حرائن المال، وطرحت نغزير القتال، وحمل الناس تحمل ذلك على طبيعة جودك، وصحبة حملك، وإستباح^(٢) حليقتك، ومقتلة بطرك، فامت أن تنسب الى صنف، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرّة، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تُجيبهم الى ما سألوا، أعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطأ، ها أرتب المهدي أن يبعد الى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يجرحون أنفسهم من قدرته، ولا يثرونها من عبوديته، فيملّكهم أنفسهم ويحلّحّسّهم عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يحازيهم السوء في حد المازعة ويصغار المحاطرة، أريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمري لا ياله ولا يطعربها إلا بإفاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأصعاف ما يدعى قبلهم، ولو بالما حُملت اليه، أو وُصعت بحراطلها بين يديه، ثم تجأى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما اليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طعمه الله عليه، وجعل قُرة عينه ونعمة نفسه فيه، إن قال المهدي: هذا رأى مستقيم سديد في أهل الحراح الذين شكوا ظلم عمالنا، وتعامل ولاحبا، أما الخوّد الذين نقصوا موافيق اليهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وقصّوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أني بهم مغلولين في الحديد، مقرّين في الأصفاة، ثم أتسع لحقن دماهم حقو، وإقالة عثرتهم صفّعه، وأستقاهم لما هم فيه من حربه، أولم يلازمهم من عدوّه، لما كان يدعا من رأيه، ولا مُستكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عموا، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاطمه عدوّ،

(١) نائرة الحرب . ما اشتعل واتقد بها .

(٢) الإستباح . مصدر أصبح للوال . اذا أحسن العور .

(٣) الحريقة : وءاء من آدم وغيره .

(٤) الارحاف . مصدر أرحف القوم اذا حاصوا وأحارقت على أن يرقصوا في الناس الاضطراب من عيران

وَلَا يَنْكَادُهُ صَبْحٌ ، وَإِنْ عَظُمَ الدَّنْبُ وَحَلَّ الْخَطْبُ ، فَالرَّأْيُ لِلْمُهْدِيِّ — وَقَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى —
 أَنْ يَحُلَّ عُقْدَةُ الْفَيْظِ بِالرَّجَاءِ لِحَسَنِ ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ ، وَأَنْ يَذْكَرَ أَوَّلَى حَالَاتِهِمْ وَضِيعَةَ
 عِيَالَتِهِمْ ، يَرَأِيهِمْ وَتَوْسَعًا لَهُمْ ، وَإِسْهَامَ إِحْوَانِ دَوْلَتِهِ ، وَأَرْكَانَ دَعْوَتِهِ ، وَأَسَاسَ حَقِّهِ الدِّينِ
 عَزَّتْهُمْ بِصَوْلِهِ ، وَبِحُجَّتِهِمْ يَقُولُ ؛ وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ فِيهَا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ مَسَاحِطِهِ ، وَتَعَرَّضُوا لَهُ مِنْ
 مَعَاصِيهِ ، وَأَطْلَعُوا فِيهِ عَنْ إِحَابَتِهِ ، وَمَثَلُهُ فِي قَلَّةٍ مَا عَيَّرَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِهِ بِهِمْ ، أَوْ قِلَّ مِنْ
 حَالِهِ لَهُمْ ، أَوْ تَعَيَّرَ مِنْ بَعْمَتِهِ بِهِمْ ، تَكْتَلِفُ رَجُلَيْنِ أَحْوَيْنَ مُتَابِعِينَ مَتَابِعِينَ ، أَصَابَ
 أَحَدُهُمَا حَتْلٌ عَارِضٌ ، وَفُتُوْ حَدَثٌ ، فَهَصَّ إِلَى أَحِبِّهِ بِالْأَدَى ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ بِالْمَكْرُوهِ ،
 فَلَمْ يَرُدَّ أَخُوهُ إِلَّا رِقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ ، وَاحْتِبَالًا لِمُدَاوَاهِ مَرَضِهِ وَمَرَاجَعَةِ حَالِهِ ، عَطْفًا عَلَيْهِ
 وَرَأً بِهِ وَمَرْحَمَةً لَهُ .

فَقَالَ الْمُهْدِيُّ : أَمَا عَلَى فَقْدِ كَوْنِي تَمَّتِ اللَّتَاءُ ، وَفَصَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ نَحْرَاسَانِ ،
 وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ ، ثُمَّ دَالَ : مَا تَرَى يَا أَا مُحَمَّدٍ ؟ يَعْنِي مُوسَى أَبَاهُ .

فَقَالَ مُوسَى :

أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ ، لَا تَسْكُنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَحْرَى مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ
 تَسِيلَ مِنْ حَلَلِ فَعْلِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمُضْمَرَةٍ شَرٍّ ، وَحَقِيَّةٍ حَقْدٍ ، قَدْ جَعَلُوا الْمَعَاذِيرَ
 عَلَيْهَا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلْلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَحَاهُ أَنْ يُدَايِعُوا الْأَيَّامَ بِالتَّأْخِيرِ ، وَالْأُمُورَ
 بِالتَّطْوِيلِ ، فَيَكْسِرُوا حَبْلَ الْمُهْدِيِّ بِهِمْ ، وَيُقِمُّوا جُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَتَلَاخَمَ أَمْرُهُمْ ،
 وَتَتَلَاخَقَ مَادَتُهُمْ ، وَتَسْتَعْمَلَ حَرْبُهُمْ ، وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ ، وَالْمُهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ
 عِزِّهِ وَلِدَاسِ أَسْنِيَّةٍ ، قَدْ قَتَرْنَا وَأَيْسَ بِهَا وَسَكَنَ إِلَيْهَا ، وَلَوْلَا مَا أَجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ،
 وَبَرَدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالْقِتَالِ ، وَالْإِصْحَارِ لِلْقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ
 فُسَادٍ ، لَرَبَّهَوَا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَعَبَّ سَكُونِ الْأُمُورِ ، فَيَشْتَدُّ الْمُهْدِيُّ — وَقَعَهُ اللَّهُ —

أُزِّره لم ويَكْتَبْ كِتَابَهُ نَحْوَهُمْ ، وَلِصَّحِ الْأَمْرِ عَلَى أَشَدِّ مَا يَحْصُرُهُ فِيهِمْ ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ لَا يَعْطِيهِمْ خُطَّةً يَرِيدُ بِهَا صَلَاحَهُمْ إِلَّا كَانَتْ دُرَّةً إِلَى سَادِهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ ، وَدَايِعَةً إِلَى عَوْدَتِهِمْ ، وَسَبْأًا لِمَسَادٍ مِنْ يَحْصُرَتُهُ مِنَ الْجَبُودِ ، وَمِنْ سَابِغٍ مِنَ الْوُفُودِ ، الَّذِينَ إِنْ أَقْرَهُمْ تِلْكَ الْعَادَةُ ، وَأَخْرَأَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَرْبِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ فِي فَتْنٍ حَادِثٍ وَحِلَافٍ حَاصِرٍ ، لَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ دِينَ ، وَلَا تَسْتَقِيمُ بِهِ دُنْيَا ، وَإِنْ طَلَبَ تَعْيِيرَهُ بَعْدَ اسْتِحْكَامِ الْعَادَةِ ، وَاسْتِمْرَارِ الدُّرَّةِ ، لَمْ يَصِلْ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالْمَقْوَبَةِ الْمَقْرِطَةِ ، وَالْمُؤَوَّنَةِ الشَّدِيدَةِ ، وَالرَّأْيِ الْمَهْدِيِّ وَقَعَهُ اللَّهُ — أَلَا يُقْبَلُ عَثَرَتُهُمْ ، وَلَا يَقْبَلُ مَعْدِرَتُهُمْ ، حَتَّى تَعْلَاهُمُ الْجَبُودُ ، وَتَأْخُذَهُمُ السُّيُوفُ ، وَيُسْتَحِيرَهُمُ الْقَتْلُ ، وَيُخَدِّقَهُمُ الْمَوْتُ ، وَيُحِيطُ بِهِمُ السَّلَافُ ، وَيُعْطِيهِمْ الْمَدْلَ ، إِنْ هَلَّ الْمَهْدِيُّ بِهِمْ ذَلِكَ ، كَأَنَّ مَقْطَعَةً لِكُلِّ عَادَةٍ سُوِّءَ فِيهِمْ ، وَهَزِيمَةً لِكُلِّ مَادَرَةٍ شَرُّهُمْ ، وَأَحْتِمَالُ الْمَهْدِيِّ مَوْوَدَّةَ عَزَائِهِمْ هَذِهِ بَصْعَةٌ مِنْ عَرَوَاتِ كَثِيرَةٍ ، وَنَقَطَاتٍ عَظِيمَةٍ .

قال المهدي : قد قال القوم فأحكم يا أما العصل .

فقال العباس بن محمد :

أما المهدي :

أما الموالى فأخذوا مُسْرِعَ الرَأْيِ ، وَسَلَكُوا جَنَاتِ الصَّوَابِ ، وَتَعَدَّوْا أُمُورًا قَصُرَ بَظَرُهُمْ عَنْهَا أَنَّهُ لَمْ تَأْتِ تَحَارُّبُهُمْ عَلَيْهَا .

وأما العصل فأشار بالأموال أَلَّا تُنْفَقَ ، وَالْجَسُودَ أَلَّا تُهْرَقَ ، وَبِالْأَيْدِي الْقِسْمَ مَا طَلِبُوا ، وَلَا يَنْتَظِرَ لِمَا سَأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرِ يَقِيَنَّ ذَلِكَ امْتِنَاعًا لِأَسْرِهِمْ وَأَسْتِهَانَةً بِمَجْرِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَبِيعُ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ صَغَارُهَا .

وأما عليّ فأشار بالذين وإمراط الرّمق، وإذا جرد الوالى لمن عظم أمره وسفه حقه،
الذين بحثا والخير محصّا، لم يخلطهما بشدة تطغى القلوب عن إيسه، ولا يشرّ يحبسهم إلى
حيره، فقد ملكهم الخلق لمُدِّهِمْ^(٢) وسّع لهم الفرحة لثنى أعاقهم، وإن أحابوا دعوته وقيلوا
إليه من غير خوف أصطهرهم ولا شدّة، فتروا في رهوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم،
ويستصرخون بها رأى المهديّ فيهم، وإن لم يقتلوا دعوته ويُسرعوا لإحابتها بالذين المحصّين
والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم،
لأن الله تعالى خلق الحنة وجعل فيها من العيم المقيم والملك الكبير ما لا يحطّر على قلب
بشر ولا تدركه العيّر ولا تملكه نفس، ثم دعا الناس إليها ورعّبهم فيها، فلولا أنه خلق مارا
جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أحابوا ولا قيلوا .

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا^(٣) شدة لا لين فيها، وأن يرموا بشرّ لا خير معه، وإذا
أصمّر الوالى لمن فارق طاعته، وحالف جماعته، الخوف مفردا، والشرّ محزّدا، ليس معهما
طمع ولا لين يندبهم، أشدّت الأمور بهم، وأقطعت الحال فيهم إلى أحد أمرين : إما أن
تدخلهم الحية من الشدة، والآفة من الذلة، والاعتراض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى
التحدى في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للوت، وإما أن يقادوا بالكوه،
ويُدعوا بالقهر على نصّيه لازمة، وعداوة باقية، تورث الشقاق وتُغيب الشقاق، فإذا
أمكنهم فرصة، أو ثابت لهم قدره، أو قويّت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأعطى
وأشدّ مما كان .

(١) عظم الأمر . اردراه . وسفه حقه . اسفه وحسه .

(٢) المدر جمع عدار .

(٣) البروة الوثوب إلى الشرّ .

(٤) عصب الشئ . : لواه وشده .

وقال في قول الفصل :

أيها المهدي، اكتمى دليل، وأوجع رهان، وأبين حيران، قد أجمع رأيهُ وحُرم نظره
على الإرشاد بعتة الحيوش اليهم، وتوجيه العُوت محوهم، مع إعطائهم مأسألوهم من الحق،
وإحاثهم الى ما سألوهم من العدل .
قال المهدي . ذلك رأي .

قال هارون :

ما حُطِطُ الشدة أيها المهدي نالين، وآتظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدة أمرًا
طيارًا لما تكوه، وعاد اللين أهدى قائد الى ما نُحِب . ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدي :

أفد قلت قولاً مديعاً ، حالت في أهل بيتك جميعاً، والمرء مؤتمن بما قال، وطَّين^(٢)
بما أذعى حتى يأتي سببه عادلة، ونحوه طاهره، فأخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهدي، إن الحرب حُدِّعه، والأعاصم قومُ مكَّوه، ورعاً اعتدلت الحسائل بهم،
وأخفق الأهواء منهم . فكان ماطر ما يُسرون على طاهر ما يُعلون ، ورعاً أفرقت
الحالان، وحالت القلب اللسان ، فأطوى القلب على تحجوبة بطن ، وأسَّسَ بمُدْخُولَةٍ
لأُتَمِّلَ، والطبيبُ الرقيقُ بطنه، الصبرُ أمره، العالمُ بمقدم يده وموضع ميسمه، لا يتعمَّل^(٣)
بالدواء ، حتى يقع على معرفه الداء ، فالرأيُ للمهدي — وفقه الله — أن يقرَّ ماطرُ أمرهم
فَرَّ الميسَّة، ويخصَّ طاهر حاتم محصَّ السماء بمناعه الكتب، ومطاهره الرسل، ومُؤالاه

(١) العظام ها - القطع والاستئصال .

(٢) طين عما ادعى منهم بدعواه

(٣) الميسم . المكواة يومها الحيران .

(٤) فَرَّ الدابة . فتحها وكشف عن أسانها بطر ما سب . والمسن من الدواب ما دخل في الثامة .

العيون ، حتى مُتَّكَ حُجَّ عيونهم ، وَتُكْتَفَ أُعْطِيَة أمورهم ، فإِذَا أَهْرَحَتِ الحال ، وَأَفْضَتِ الأمور به الى تَغير حال أوداعِيَّة ضلال ، أَشْتَمَلَتِ الأَهْوَاءُ عليه ، وَأَقَادَ الرِّحال اليه ، وَأَمْتَدَّتِ الأعْصَافُ نحوه بدين يمتدونه ، وَإِثْمُ يَسْتَحِلُّونَهُ ، عَصَبَهُمْ بِشَدَّةٍ لَا لِيْنَ مِثْلَها ، وَرِمَاهُمْ بِمَقْبُورَةٍ لَا عَفْوَ مِثْلَها ، وَإِنْ أَفْرَجَتِ العيون ، وَأَحْصَرَتِ السُّتُور ، وَرُفِعَتِ الحُجُب ، وَالْحَالُ فِيهِمْ صَرِيحٌ ، وَالْأُمُورُ فِيهِمْ مَعْتَلَةٌ فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وَأَعْمَالٌ يُكْرِهُونَهَا ، وَطُلَامَاتٌ يَدْعُونَهَا ، وَحَقُوقٌ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَسْأَلَةٍ سَابِقَتِهِمْ ، وَدَالَّةٌ مُأْخِذَتِهِمْ . هَالِكُ الرأى لِلْهَدْيِ — وَقَدْ أَفْهَمَ اللهُ — أَنْ يَتَسَعَّ لِمِمْ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَبَّأَ لِمِمْ عَمَّا كَرِهُوا ، وَيَتَسَبَّعَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَيَرْتَقِ مِنْ تَقِيهِمْ مَا قَطَعُوا ، وَيَوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْتَوَى ، وَبَدَاوَى بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ ، فَمَا عَاثَ الْمَهْدِيُّ وَأَمْتَهُ ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرَفِيقِ ، وَالْوَالِدِ الشَّقِيقِ ، وَالرَّاعِي الْمَجْتَزِ الَّذِي يَحْتَالُ لِمَرَاضِ عَمِهِ ، وَصَوَّالٍ رَعِيَّتِهِ ، حَتَّى يُبْرِئَ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا ، وَيَرُدَّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أَسْ جَمَاعَتِهَا ، ثُمَّ إِنْ حَرَّاسَانِ بِحَاصِهِ الدِّينِ لِمِمْ دَالَّةٌ مَحْمُولَةٌ ، وَمَانَةٌ مَقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ، لِأَنْهُمْ أَيْدَى دَوْلَتِهِ ، وَسُيُوفُ دَعْوَتِهِ ، وَأَنْصَارُ حَقِّهِ ، وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَهْدِيِّ الْأَصْطِطَاعُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا الْمُوَاخَذَةُ لَهُمْ ، وَلَا التَّوَعِيرُ بِهِمْ ، وَلَا الْمَكَاافَةُ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مَبَادِرَهُ حَسَمَ الْأُمُورَ صَعِيمَةً قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمَحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأَصُولِ صَبِيلَةٌ قَبْلَ أَنْ تَغْلُظَ ، أَحْرَمُ فِي الرَّأْيِ ، وَأَصَحُّ فِي التَّدْيِيرِ مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا ، وَالتَّهَانُؤِ بِهَا ، حَتَّى يَتَّكَمَّ قَلِيلُهَا كَثِيرُهَا ، وَتَحْتَمِعَ أَطْرَافُهَا إِلَى جُمْهُورِهَا .

قال المهدي : ما زال هَارُونُ يَقَعُ وَقَعَ الْحَيَا حَتَّى نَجَرَ خُرُوجَ الْقِنْدَحِ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَسْأَلَ أَنْسِلَالَ السِّيفِ فِيمَا أَدْعَى ، قَدَعُوا مَا سَقَى مُوسَى فِيهِ أَنَّهُ هُوَ الرَّأْيُ ، وَفَتَى عِده هَارُونُ ، وَلَكِنْ مِنْ لَأَعِيَةِ الْخَلِيلِ وَسِيَاسَةِ الْحَرْبِ وَقَادَةِ السَّاسِ إِنْ أَمِنَ بِهِمُ الْقُلُجُ ، وَأَعْرَطَتْ بِهِمُ الدَّالَّةُ .

(١) الماسة . الحرمة والوسيلة

(٢) التوعير بهم . التشديد عليهم .

قال صالح :

لسا نبُلُغُ أيها المهديّ بدوام الحث وطول الفكر أدنى مِرَاسَةٍ رأيك ، ومَعَصَ لَحَظَاتِ
نظرك ، وليس يَنْقُصَ عِلك من سيّوات العرب ورجال العمّ ذوي فاصل ، ورأى
كامل ، وتدير قوًى ، فقلّده حرّك ، وتَسْتَوِدُّه حِندك ، ممّن يَحْتَمِلُ الأمانةَ العظيمةَ ،
ويَصْطَلِحُ بالأعْماء الثقيلةَ ، وأنت محمد الله ميمونُ النّقيةِ ، مباركُ العزيمِ ، محبُّورُ التجاربِ ،
محمودُ العواقبِ ، معصومُ العرمِ ، فليس يقع اختيارُك ، ولا يقف نظركُ على أحدٍ تولّيه
أمرَك . وتُسَدِّدُ اليه نَفْرَكَ ، إلّا أراك الله ما تحبّ ، وجمع لك منه ما يريد .

قال المهديّ : إني لأرجو ذلك لعديديّ طادِه الله فيه ، وحسبي معونته عليه ، ولكي
أُحِبَّ المواظفةَ على الرأى ، والأختار للشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن النّيث :

أهل حراسان أيها المهديّ ، قوم ذوو عِزّة ومَعّة ، وشياطين حَدّة ، زُرُوع الحية فيهم
مانسه ، وملابس الأثمة عليهم طاهره ، فالروية عنهم عارِبة ، والهلّاه فيهم حاصره ، تسبق
سيوئهم مطرهم ، وسيوئهم عدوهم ، لأنهم بين سِيفلة لا يعدو مَلُح عَقولهم مَطَر عيوسهم ،
وبين رؤساء لا يُلْحَمُونَ إلا نِسْدة ، ولا يَعْطَمُونَ إلا بالتر ، وإن ولّى المهديّ عليهم وصيها
لم تَقْدِرْ له العطاء ، وإن ولّى أمرهم شريفاً تحامل على الصعفاء ، وإن أحرّ المهديّ أمرهم ،
ودافع حربهم ، حتى يُصِيبَ لنفسه من حَشَمه ومواليه ، أو تى عمه أو بى أبيه ، يا محبا
يتفق عليه أمرهم ، وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أئمة تَلْزَمهم . ولا حية تدلّهم ، ولا مصيبة
تقرهم ، تنقست الأيام بهم ، وتراحت الحلال بأمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير ،
والضياح العظيم ، ما لا يتلاهوا صايحُ هذه الصفة وإن حدّ ، ولا يستصلحه وإن جَهد ،

(١) ميمون النقية : أى مارك النفس يجمع بما يحاول . ومحور التجارب : حيرها .

(٢) العارب . العاتب .

(٣) العدل : اسم مضارع من العدل بمعنى القوم ومعه الخلل "سقى السيف العدل" يصرّب لما قد فات .

إلا بعد دهر طويل وشركير، وليس المهدي - وفقه الله - فاعلاً عاداتهم، ولا قارِعاً صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عدلٌ في ذلك بهما :

أحدهما لسانٌ ناطقٌ موصولٌ بسمعك، ويدٌ ممثلةٌ لعينك، ومضرةٌ لا تُزعزع، وبُهجة لا يُتقى، ونازلٌ لا يُفزعُه صوتُ الجحش، بقيّ العرض، نزيه النفس، جليل الحُطر، قد اتَّصفت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمة، بفعل الغرض الأقهى لميهِ نُصّاً، والغرض الأدنى لقدمه مؤطّاً؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً، وهو رأس مَواليك، وأصبح بنى أليك؛ رجل قد عدّى لطيف كرامتك، ونَتَ في ظل دولتك، ونَشَأَ على قوائم أدبك، وإن قلَّته أسرهم، وحلته ثقلهم، وأسَدَت إليه نعرهم، كان قفلاً قَتَمَه أمرُك، وباباً أطلقه نبيك؛ بفعل العدل عليه وعليم أميرا، والإصاف بهه وبينهم حاكماً، وإذا حَكَمَ النصفة وسلَّك المَعْدلة، فأعطاهم ما لهم وأحد منهم ما عليهم، عَرَسَ في الدى لك بين صدورهم، وأسكنك لك في السوِداء داخل قلوبهم، طاعةً راجحة العروق، باسقة العروق، متقابلةً في حواشي عوامهم، محمَّكة من قلوب حواصمهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نقوه، ولا يلزمهم حقٌ إلا أدَّوه، وهذا أحدهما .

والآخر عودٌ من عِيَضَتِكَ، ونبقة من أرومتك، في السن كهل الحِلْم راجعُ العقل، محمود الصرامة مأمونُ الخلاف، يجرّد فيهم سيقه، ويُسْطُ عليهم خيره بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجِبُون، وهو فلان أيها المهدي، فسَلطَه - أعزك الله - عليهم، ووجَّهه بالجيش البهم، ولا تمك صرّاعة^(١) سه، وحدائة مولده، فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإعما أحدائكم أهل البيت فيما طمَّح الله عليه، وأخصَّصكم به من مكارم الأخلاق، وعامد العمال، وعحاس الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأُفْس، كعراج عتاق الطير^(٢) المُحَكِّمة لأحد الصيد بلا تدبير، والعارفة

(١) صرّاعة سه : شاه وحدائة سه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوحوه أسمع ملا تاديب، فالعلم والعزم والحزم والحد والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم. مستحکم لكم، متكامل عدكم، طائع لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله .

إقواء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عز على ما وُصف، ولكن إن ولّى المهدي عليهم رحلا ليس بقديم الذكر في الجود، ولا بنبيه الصّوت في الحروب، ولا طويل التجربة للأموور، ولا بمعروف السياسة للجیوش والهيبة في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان وخطران مهولان، أحدهما . أن الأعداء يفتخرونها منه ويتقرونها فيه، ويحترون بها عليه في النهوض والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختار لأمره، والتكشّف لحاله والعلم بطاعه . والأمر الآخر : أن الجود التي يقود والجيوش التي يسوس إذا لم تحثروا منه الأس والحدة، ولم يعرفوه بالصّلة والهيبة، أكسرت شجاعته، وماتت محنتهم، وأساحت طاعتهم الى حين اختارهم، ووقع معرفتهم، وربما وقع الوارقل الاختار، وباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حين صيبت، له نسب رالك وصوت عاب، قد قاد الجيوش وساس الحروب، وتألف أهل خراسان، واجتمعوا عليه بالحقّة، وثقوا به كل الثقة، ولو ولّاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : حانت قصد الرمية، وأبنت إلا عصية، إذ رأى الحداث من أهل بينا، كراى عشرة حلماء من غيرنا، ولكن أين تركتم ولّى العهد .

قالوا :

لم يمتنا من ذكره إلا كونه شبيه جده، ونسبح وحده، ومن الدين وأهله، بحيث يقصر القول عن أدنى فضله، ولكن وحدنا الله عز وجل تحب عن حلقه، وستر من دون عبادته علم ما يختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير، من حوادث الأمور ورهب المتنون

الْمُحْتَرِمَةُ لِحَوَالِ الْقُرُونِ وَمَوَاضِى الْمُلُوكِ ، فَكَّرَ هُنَا سُجُوعَهُ عَنْ حَمَلَةِ الْمُلْكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِ
الإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوْجِيعِ الْمَدَائِنِ وَالْخُرَاقَانِ ، وَمُسْتَقَرِّ الْجُودِ وَمَعْدِنِ الْحُودِ ، وَتَجَمُّعِ الْأَمْوَالِ
الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْعًا لِدَارِ الْمُلْكِ وَمَصِيدَةً لِقُلُوبِ الْبَاسِ وَتَابَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتَوَارِ الْعَشِ ،
وَدَوَاعِى الدِّعِّ وَفِرْسَانِ الضَّلَالِ وَأَبَاءِ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيَّ عَهْدِهِ لِحَدَثِ
فِي جَبُوشِهِ وَجُودِهِ مَا قَدْ حَدَثَ بِجُودِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعْقِبَهُمْ
غَيْرِهِ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ الْيَوْمَ بَعْضَهُ ، وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَقَسَّتِ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،
وَأَسْتَدَارَتْ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عَوْضٌ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثَ أَمْرٌ لَا نَدَّ مِنْهُ ،
صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلٌ حَطَرًا لَهُ تَبَعًا وَهُوَ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْحَطَبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَهْجُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى عَيْرٍ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ عَنِ أَهْلِ الْبَيْتِ
تَحْرِيرٌ مِنْ أَسَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ سِ الْعِلْمِ وَمَحْتَوِمِ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ
أُنْبِئْتُ بِهِ الْكَتَبَ ، وَنَبَأْتُ عَلَيْهِ الرُّسُلَ ، وَقَدْ تَنَاضَى ذَلِكَ أَجْمَعُ الْبِنَاءَ ، وَتَكَامَلُ بِحُدَايِرِهِ
عَبْدًا ، فَهُوَ تُدَبَّرُ وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلُ . إِنَّهُ لَا نَدَّ لَوْلَى عَهْدِي وَلَوْلَى عَهْدِ عَقِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ
إِلَى خِرَاسَانِ الْبُعُوثِ ، وَيَتَوَسَّعَ نَحْوَهَا بِالْخُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمِلُ مِثْلَ حِيلِهِ ؛ ثُمَّ يَمُوجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَيْثُ
عَلَيْهِمْ ، يَرِيدُ أَلَّا يَدْعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِى الدِّعِّ وَفِرْسَانِ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّاهُ
يَحْتَرِ الْقَتْلَ ، وَالْبَسَهُ قِنَاعَ الْقَهْرِ ، وَقَلَّبَهُ طُوقَ الذِّلِّ ، وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قَصِّ
حَاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِنْ خَادَ نَارَ الدَّمَةِ ، وَنُصْرَةَ وَلَايَةِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَحَدَاوِلَ
نَهْلِهِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ مُجْتَمِعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حِيلُهُ ،
وَكَدَحَتْ كُنْهَهُ وَنَقَلَتْ مَكَائِدَهُ ؛ فَهَدَأَتْ بَافِرَةَ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَاحْتَمَعَ

(١) سُجُوعُهُ : اِسْتِغَاثَةُ .

(٢) سَمَتْ وَدَابَّتْ حَتَّى أَتَرَتْ .

(٣) وَفَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ : تَحَدَّ صَاحِبُهَا وَسَكَنَ رَوْحَهَا .

عليه المختلِفون بالرِضا ، فيميل نكرا لهم ، ويرأ بهم ، وتعطفأ عليهم ، الى عند قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومع مُجَاهَم بيت الله الحرام ، وسَلب تُحَارَم رِزْق الله الحلال .

وأما الآخر فانه يؤخه اليهم ، ثم تُعْتَقَد له الخِطَّة عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبدل ما يسألون ، فادا سمحت العرق بقرآناها له ، وجَّح أهل الواحى بأعناقهم نحوه ، فأصفت اليه الأئمدة ، واجتمعت له الكلمة ، وقَدِمَت عليه الوفودُ قَصْدَ لأوّل ناحية سمعت طاعنها وألقت أَرْزَمَتها ، فآلَها حَاح سمته ، وأزَلما طُل كرامته ، وخَصَصا سِطيم حَبَانه ، ثم عَم الجماعة بالمعللة ، وتعطفأ عليهم بالرحمة ، فلا تَنَقَّ فيهم ناحية دَابِية ولا فِرقة قاصِية ، إلا دَحَلت عليها بركته ، ووصلت اليها سمعته ، فأعنى فقيرها ، وحبر كبيرها ، ورضع وضيعها ، وزاد ريمها ماحلا ناحيتين ، ناحية يفلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستحِف بدعوته ، وتطلى عن إحابته ، وتتناقل عن حقّه ، فتكون آخر من سَعَتْ وأطأ من يؤخه ، فيضطل عليها موجد ويطى لها حِلّة ، لا يَلْت أن يَمُدَّ نحو يلزمهم وأمر يحب عليهم ، فتستلعمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، وتستحزهم القتل ، ويعبط بهم الأسر ، ويُفَنِّمهم التنبع ، حتى يحرب اللاد ، ويؤتم الأولاد ، وناحية لا يسط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يحصل لهم نعمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتذرع حِلاب الفتنة ، ورض في شقّ المصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ، ويطلب هُرَّابهم في لجج البحار ، وقُتِل الجبال ، وتعمل الأودية ، ويطون الأرض ، تقتيلا وتقليلا وتسيلا ، حتى يدع الديار خرابا ، والنساء أياحى ، وهذا أمر لا عرف له في كُتُبنا وقتنا ، ولا نصصح منه غير ما قلنا تفسيرا .

وأما موسى ولّى عهدى فهذا أوّان توجهه الى خراسان ، وحلوله بِحُرْجَان ؛ وما قصى الله له من الشحوص اليها ، والمقام فيها ، خيرٌ للسلمين مَنّة ، وله بإذن الله قاعةٌ من المقام ، بحيث يُعَمَّر في بُلُج بحورنا ، ومدافِع سيولنا ، وعمامع أمواجنا ، فيتصاغَرُ عظيم فضله ،

وَيَتَدَأَبُ^(١) مَشْرِقَ نَوْرِهِ ، وَيَتَقَلَّلُ كَثِيرَ مَا هُوَ كَائِنُ مِنْهُ ، هِيَ يَصْصَحِبُهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَيُحْتَارِلُهُ مِنَ النَّاسِ .

قال محمد بن الليث :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنْ وَلِيَ عَهْدَكَ أَصْحَحَ لِأَتَمِّكَ وَأَهْلَ مَلِكِكَ عَلَمًا ، قَدْ تَنَتَّ نَحْوُهُ أَعْنَاقُهَا ، وَمَدَّتْ سَمْتَهُ أَبْصَارُهَا ، وَقَدْ كَانَ لِقَرَبِ دَارِهِ مَسْكٌ ، وَمَحَلُّ جَوَارِهِ لَكَ ، عُطِّلَ الْحَالُ غُفْلَ الْأَمْرِ وَاسِعَ الْعُدْرِ ، فَمَا إِذَا أَضْرَدَ سَمْسُهُ وَحَلَا بِنَظَرِهِ وَصَارَ إِلَى تَدْبِيرِهِ ، فَإِنْ مِنْ شَأْنِ الْعَامَةِ أَنْ تَتَقَدَّ مَخَارِجُ رَأْيِهِ ، وَتَسْتَنْصِبَ لِمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، وَتَسْأَلَ عَنِ حَوَادِثِ أَحْوَالِهِ فِي رِيَّةِ وَصَرَحَتِهِ وَإِقْسَاطِهِ وَمَعْدَلَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَوُورَرَانِهِ وَأَصْحَابِهِ ، ثُمَّ يَكُونُ مَا يَسْبِقُ الْيَمِّ أَغْلَبَ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ وَأَمْلَكَ الْأُمُورَ بِهِمْ وَالرِّمَاهُ لِقُلُوبِهِمْ ، وَاشْتَدَّ اسْتِمَالَتُهُ لِرَأْيِهِمْ وَعُطِفَ لَأَهْوَائِهِمْ ، فَلَا يَنْتَ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ — نَاطِرًا لَهُ فِيمَا يَقْوَى عُقْدَ مَمْلَكَتِهِ ، وَيُسَدِّدُ أَرْكَانَ وَلايَتِهِ ، وَيَسْتَجِيعُ رِضَا أَمْنِهِ هُوَ أَزِينَ لِحَالِهِ وَأَظْهَرُ لِمَجْلَاهِ ، وَأَفْصَلَ مَقَرَّةَ لَأَمْرِهِ ، وَأَحَلَّ مَوْقِعًا فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِهِ ، وَاحِدًا حَالًا فِي نَفُوسِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَلَا أَدْعَى مَعَ ذَلِكَ مَسْتَجَاعَ الْأَهْوَاءِ لَهُ ، وَأَلَمَّ فِي اسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، مِنْ مَرَحِمَةٍ تَطْهَرُ مِنْ ضَعْفِهِ ، وَمَعْدَلَةٍ تَنْشُرُ عَنْ أَثَرِهِ وَحَبْنَةٍ لِيخِرَ وَأَهْلُهُ ، وَأَنْ يَخْتَارَ الْمَهْدِيُّ — وَفَقَهُ اللَّهُ — مِنْ خِيَارِ أَهْلِ كُلِّ نَلْدَةٍ ، وَفُقَهَاءِ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَقْوَامًا تَسْكُنِي الْبَيْمَ الْعَامَّةَ إِذَا ذُكِرُوا ، وَتَنَاسِ الرِّعْيَةَ بِهِمْ إِذَا وُصِفُوا ، ثُمَّ تُسَهِّلُ لَهُمْ عِمَارَةَ سُئْلِ الْإِحْسَانِ وَقَتْعَ بَابِ الْمَعْرُوفِ ، كَمَا قَدْ كَانَ تُفْتَحُ لَهُ وَسُهِّلَ عَلَيْهِ .

قال المهدي : صدقت ونصحت ، ثم بحث في أبيه مومى فقال :

أَيُّ بُنَى ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لَيْسَتْ وَحَوْه الْعَامَةِ نُصًّا ، وَلَيْتَنِي أُعْطِيفَ الرِّعْيَةَ عَابَةً ، لِحَسْبَتِكَ شَامِلَةً ، وَإِسَاءَتِكَ ثَابِتَةً ، وَأَمْرِكَ ظَاهِرًا ، فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، فَاحْتَمِلْ

(١) يَتَدَأَبُ : يَبْحَثُ . (٢) تَتَقَدَّ مَخَارِجُ رَأْيِهِ : أَي تَخْصُصُ عَنْ رَأْيِهِ وَتَدْبِيرِهِ . (٣) أَمْلَكَ

الْأُمُورَ : أَسْطَلَهَا . (٤) السَمْتُ : الْمَذْهَبُ وَالْقَصْدُ . (٥) الْأَصْلَافُ : جَمْعُ عَطْفٍ وَهُوَ الْجَانِبُ .

تُحفظ الناس فيها، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عز وجل كافيك من أن يحطه عليك إيثارك رضا من سواه . ثم أعلم أن الله تعالى في كل زمانٍ فترة من رُسُلِهِ ، وبقياء من صَفْوَةِ حَقِّهِ وخبايا لثُغْرِهِ حَقِّهِ ، يحدّد حمل الإسلام بدعواهم ، ويُسَيِّد أركان الدين بصبرتهم ، ويتخذ لأوليائه دية أنصارا ، وعلى إقامة عدله أعوانا ، يَسُدُّونَ الحُلُلَ وَيُحْيِمُونَ المَيِّلَ ، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإن أهل خراسان أصحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونستعير زول العظام مُصاحبتهم ، وتُدافِع رَيْبَ الزمان جزائهم ، ونُرَاحِم ركن الدهر سائرهم ؛ بهم عماد الأرض إذا أُرْحِقَتْ كُتُفُهَا^(١) ، وخوفُ الأعداء إذا رزت صَفْحَتُهَا ، وحصولُ الرعية إذا تصايقت الحال بها ، قد مَغْنَتْ لهم وقايِعُ صادقات ، ومواطِنُ صالحات ؛ أُنحِثَ بدران الفتى ، وقَسَمَت دوايى البدع ، وأذلت رقاب الجحّارين ولم يعفوكوا كذلك ما حرّوا مع ربح دولتنا ، وأقاموا في طَلِّ دعوتنا ، واعتصموا بجبل طاعتنا ، التى أعز الله بها دلتهم ورفع بها صَنَّتَهُمْ ، وحملهم بها أربابا في أقطار الأرض ، وملوكا على رقاب العالمين بعد لِيَّاسِ الدُّلِّ ، وقبّاع الخوف ، وإطّاعى البلاء ومحالفة الأُمى ، وحَظَّ الناس والصرى ، فظاهر عليهم لاس كرامتك ، وأزلم في حدائق صمتك ، ثم أعيرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دألتهم ، ومائة ساعيتهم ، وحرمة مصاحبتهم ، بالإحسان اليهم . والتوسعة عليهم ، والإثابة لِحُسْنِهِمْ ، والإقالة لِمُسِيئِهِمْ .

أى توى ، ثم عليك العاتة فاستدع رضاهما بالعدل عليها ، واستجلب موثقها بالإينصاف لها ، وتَحَسَّنَ بذلك لرك ، وتوثق به في عين رعيتك ، وأجعل عمال المذدر وولاية الحجج مقدمة بين عملك ، ونَصَفَةٌ منك لرعيّتك ، وذلك أن تأمر قاضي كلّ بلد ، وجيار أهل كل يضر ، أن يختاروا لأهمهم رجلا تولّيه أمرهم ، وتحمل العدل حاكما بينه وبينهم ؛ فإن أحسن مُحمّد ، وإن أساء عُذِرَت . هؤلاء عمال المذدر وولاية الحجج ، فلا يسقطن عليك

(١) الكلف : جمع كف وهو الجلاب . وأرجحت : يؤثرت .

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الأسماك ، من أنفقاد أليسة المُرْحَفِيّين ، وَكَبَتْ
 قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب - وسلامة عواقب الأمور ، ولا يَتَعَنَّ في ظِلِّ
 كرامتك نازلا ، ومِرْمَرًا جبلك متعلقًا رَحْلان : أحدهما كَرِيْمَةٌ^(١) من كرائم رَحَالَات العرب ،
 وأعلام بيوتات الشرف ، له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير
 مغموز ، وموضع غير مدحول ، يصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأتقاء العرب ووضع
 الكتب ، عالم محالات الحروب وتصاريف الخطوب - يصعب آداما نافعة وآثارا نافية ، من
 محاسنك وتحسين أمرك وتحليلة ذكرك ؛ فتستشيرهُ في حرك ، وتُدْخِلُهُ في أمرك ؛ فَرَجُلٌ
 أصبته كذلك فهو يَأْوِي الى محلتى ، ويرعى في خُصْرِهِ جِئَانِي ، ولا تَدْعُ أن تختار لك من
 فقهاء البُلْدَان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وُثْمَانِكَ ، وأهل مُشَاوَرَتِكَ فَمَا
 تُؤِيدُ ، وَأَحْصَاءَ مَاطَرَتِكَ فَمَا تُصِيدُ . فَيَسِرْ عَلَى رَكَّةِ اللَّهِ ، أَحْصَيْكَ اللَّهُ من عونه وتوفيقه
 دليلا يَهْدِي الى الصواب قلِّك ، وهاديا يُطِيقُ بالخير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر
 سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة . صاحب الكرم . وكرائم الرجال . أحابر رجال العرب وأحاسيم . (٢) غير معمور

غير مطعون . وغير مدحول . لا يداخله فساد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشد الى قسطنطين ملك الروم

من عداقة هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم : سلامٌ على من أتبع الهدى ،
فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه
المخلوقين بعظمته ، وأحصى دون المخلوقين عزته ، فليست الأبصار بمذكّرة له ، ولا
الأوهام موافقة عليه ، أهرادًا عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالى أن يشبهه شيء منها ، وهو
الواحد القهار ، الذي أجمع عن مبالغ صفات القائلين ، ومداها لفات المبالغين ، وفكر
الملائكة المقربين ، فليس كمثل شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعد ، فإن الله حلّ شأوه وتاركت أسماؤه ، قال لبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
من آيات الوحي إليه : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَادِثُهُمْ بِالنَّبِيِّ
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّاهُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . فرأى
أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله ، أن يكون الى سبيل ربه داعيًا ، ورسوله
صلى الله عليه وسلم متأسيًا ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقًا . وكنت من كتب الله المنزلة ، وآياته المعصرة ، وحقيقه الكثير
بحيث رحا أمير المؤمنين أسماؤك لموعظته ، وانتفاعك لمعادليه استماعًا بشير كثير وحلق
عظيم قد نُوت فأوزارهم مع وزيرك ، وأحتملت من آثامهم الى إثمك ، فأحب أن يدعوك
ومن رحا أن يتنفع بدعوته ملك ، الى كلمة سواء بيننا وبينك ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به
شيئًا ولا يتخذ معًا معًا آرمًا من دون الله ؛ فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ،
أو تركتموه رهادة فيه ، فأشهدوا أنا مسلمون . وأستمعوا ما أمير المؤمنين واصلكم لكم ،
ومحتاج به إن شاء الله عليكم ، قلوب شاهدة وآذان واعية ، ثم أقيموا أحسن ما تستمعون .
ولا قوة إلا بالله .

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأقتص على عاده : ﴿ فَسَرِّعَايَا الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله تارك أسمه وسألى حده ، وصنف فيما أنزل من آياته ، وشرح من بيانه ، الأتم المصاسبة ، والقرووب الخالية ، والمثل المتعزفة ، الذين يحصلون مع الله ألفة أخرى لا بُرهان لهم بها ، ولا حجة لهم فيها ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَذَّبْتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا حَيْثَا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا أَنْ يُنْصِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يصدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقاؤون ثالث ثلاثية بأنهم آية ما عُدَّ تريم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول ، وتؤمِّن بها القلوب ، وتعرفها الألباب ، فلا يستطيع لها ردا ، ولا تطيق لها تحمدا ، ذكر فيها اتصال خلقه وأتفاق صُغته ، ليؤمِّن الخاهلون من العرب ، والصائلون من أهل الكتاب ، أن الله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق ، واحد لا شريك له ، والحق لا شيء معه ، فقال : ﴿ زَيَّا فِي حَقِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعَالَمِ إِلَى تَحْرِى فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَمُتُّ النَّاسُ ﴾ . فتعكَّر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل ، وما أوضح فيها من بيان الخلق ، فإنه ما بين معكَّر يطر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك بعض ، مثل ما رأى في تديره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ، فيما بين ذوائب شؤون رأسه الى أطراف أنامل قدميه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة ، على أن الذي خلقه وصمعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء أبدعه ، ولا على مثال صمعه . قد تزوون بعبودكم وتعلمون عقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض ، وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يذبحوها إلا لهم ، ولا يُدبِّعها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا

بالتب، لا يقوم إلا به، ولا يصلح إلا عليه . وجعل ذلك التبت الذى جعله متاعاً لكم ومعاشاً لأمامكم، متصلاً بالماء الذى ينزل من السماء بقدر معلوم، لمعاش مقسوم، فليس يحجم التبت إلا به ولا يجيا إلا عه . وحمل السحاب الذى يسطه كيف يشاء متصلاً بالريح المسحرة فى حق السماء تثيره من حيث لا تعلمون، وتُسوقه وأتم تنظرون، كما قال عمر وحل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَاهُ إِلَى يَدِ مَيِّتٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْفُشُورُ﴾ ووصل الرياح التى يصرفها فى حق السماء بما يؤثر فى خلق الهواء من الأزمة التى لا تثبت الحواضر إلا بثباتها، ولا يزول عه برء إلا بزوالها، ولولا ذلك لطل راكداً بالحز الميئ، أو ماتوا بالبرد القاتل . ووصل الأزمنة التى جعلها متصرفه متقو به بغير الشمس والقمر الدائرين لكم المخلعين بالليل والنهار عليكم . وحمل مسيرهما الذى لا تعرفون عدد السنين إلا به . ولا مواقع الحساب إلا من قبله ، متصلاً بدوران الفلك الذى فيه يشبهان ، وبه يافلان ، ووصل مسير الفلك بالسماء للباطرين سواء . فهذا خلق الله عز وجل ، ما فيه سائر ولا ترأى ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ . ولو كان لله شريك أو معه ظهير عليه ، يمينك منه ما يرسل، ويرسل منه ما يمسك ، أو يؤثر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه، أو يعمله قل يحى إياه، لتفاوت الخلق، ولتباين الصنع، ولعسد السموات والأرض، ولذهب كل إله مما خلق، كما قال عز وجل — وكذب المبطلين — . ﴿زُلْ أُنْتِهَاهُمْ خَلْقٌ وَأُنْمُ لِكَادِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُدْحَانِ اللَّهُ عَمَّا يصْهُونَ﴾ .

والمتب: كيف يصف مخلوق ربه، أو يحمل معه إلها غيره، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صفة ظاهرة، وحكمة بالغة، وأليها متفقا، وتديرا متصلاً، من السماء والأرض، لا يقوم عهه إلا ببعض . متجلياً بين يديه، ماثلاً نصب عييه، ياديه الى صانعه، ويله على خالقه، ويشهد له على وحدانيته، ويهديه الى ربيته، ﴿قَسَمَ عَلَى اللَّهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَشِيرُكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَ هؤُلاءِ الجاهلون
بربهم الصَّالِحِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَ خَلَقَ اللهُ الطُّرَّ ، وَلَا رَجْعُوا كَمَا قَالَ اللهُ عَنْ وَحَلِ
الْعِزِّ . وَلَوْ أَنْعَمُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا بَطَرَهُمْ ، فَمَا تَسْمَعُ آدَانُهُمْ وَتَرَى أَنْصَارُهُمْ ، مِنْ
حَوَادِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ ، وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصُّعْ ، لَوَحَدُوا فِي أَغْرَبِ مَا يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ :
مِنْ التَّالِيفِ لِتَرْكِيبِ حَقِيقَتِهِمْ ، وَالْإِثْرِ فِي التَّنْذِيرِ نَصْنَعِهِمْ ، مَا يَدْلُهُمْ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ،
وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى انْهَرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ . فَانْهَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَحْدِدُونَ بِقُلُوبِهِمْ ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ
صَنْعَةً بَعْدَ صَنْعَةٍ ، وَهَوْلَةً طَبَقَةً عَنْ طَبَقَةٍ ، وَمَقُولَةً حَالًا إِلَى حَالٍ : سُلَالَةٌ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ
نُطْعَةٌ مِنْ مَاءٍ مَيْهِ ، ثُمَّ حَلَقَةٌ ، ثُمَّ مُصْنَعَةٌ ، ثُمَّ عَظْمٌ ، كَمَا قَالَ اللهُ عَنْ وَحَلِ لَحْمًا ، وَبَعَثَ فِيهِ رُوحًا ،
وَإِذَا هُوَ حَيٌّ آخَرٌ ، فَتَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، الَّذِي خَلَقَ فِي قَرَارِ مَكِينٍ ، مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ
صَعِيبٍ دَلِيلٍ ، خَلَقًا صَوْرَهُ بِخَطِيطٍ ، وَقَدَّرَهُ تَرْكِيبًا ، وَأَلْهَمَهُ أَحْرَاءَ مُتَمَقَّةٍ ، وَأَعْصَاءَ
مُتَصِلَةٍ ، مِنْ قَدِيمٍ إِلَى سَاقٍ إِلَى نَعْدٍ إِلَى مَا هُوَ ذَلِكَ : مِنْ مَقَاصِلِ مَا يُعْلَى أَوْ عَجَائِبِ
مَا يُنْظَرُ ، لِيَعْلَمَ الْجَاهِلُونَ وَيُوقِنَ الْجَاهِدُونَ ، أَنَّ الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ وَحَلَقَهُ وَدَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ
وَهَيَّاهُ طَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَلَا يَذْهَبُ دُكْرُ هَذَا صَعْمًا عَنْكُمْ ، وَلَا تَنْسُقُطُ
حُكْمُهُ جَهْلًا بِهِ عَلَيْكُمْ ، وَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ الرِّسَالِ وَبَيِّنَاتِ الدُّرِّ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ فِكْرًا لِلنَّصِيرِينَ ،
وَنَصْرًا لِلْمُتَّيِّبِينَ ، وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَصْفُ لَكُمْ ، وَمُقْتَضٍ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، مَا فِيهِ شَهَادَاتُ
وَأَصْحَابَاتُ ، وَعَلَامَاتُ بَيِّنَاتُ ، وَمُسْتَدَيُّ بِذِكْرِ آيَاتِ بَيِّنَاتِ صَلَواتِ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا أَنْزَلَ اللهُ
مِنْهَا فِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا أَحَدٌ يَقْرَعُ آيَاتِ الْبَيِّنَةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصِي بَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا
قَادَتْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَحْدُ إِلَى إِنْكَارٍ مَا حَاجَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلًا .
فَارْدَتْ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ وَثِقَةٍ مِنْ أَمْرِ عَدِ صَلَواتِ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ،
وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَنْ وَحَلِ . فَاتَّخِصِرْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَهْمَكَ . وَأَلْقِ إِلَى مَا هُوَ وَأَصْفُ
إِنْ شَاءَ اللهُ سَمْعَكَ . إِنْ شَاءَ اللهُ عَنْ وَحَلِ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَأَخْتَارَ لَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ،
وَأَبْتَعَتْ كُلَّ رَسُولٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ ، وَبَعَثَهُمْ مَا يَتَّبِعُونَ : مِنْ تَوْحِيدِ

الرب وشرائع الحق (لَلَّئَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ مَعَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) .
 فلم تزل رسل الله قائمة أمره ، متوالية على حقه ، في مَوَاصِي الدهور ، وخَوَالِي القرون ،
 وطقات الزمان . يصدق آخرهم ببقوة أقولهم ، ويصدق أولهم قول آخرهم ، ومقايض دعوتهم
 واحدة لا تختلف ، ومجاميع ملتهم ملتزمة لا تفرق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بنى
 عيسى عليه السلام عليها وبشرها ، الى النبي الأُمِّي الذي انتخبه الله لوجه ، وأختاره عامه ؛
 فلم يرل ينقله بالآباء الأَخَارِ ، والأُمَمَاتِ الطَّوَاهِرِ ، أُمَّةً قَائِمَةً ، وقَرَأَ فقرءا ، حتى استخرج به
 الله في حيرِ أوان ، وأفضل زمان ، من أثبت تحادث أرومات البرية أصلا ، وأعلى دواب نبغات^(١)
 العرب قروا ، وأطيب مآب أعياص قريش مفرسا ، وأرفع دُرى عهد بني هاشم سَمَكَا :
 محمد صلى الله عليه وسلم حيرها عبد الله وحلقه نَسَا ، على حين أوحشت الأرض من أهل
 الإسلام والإيمان ، وأمتلات الآفاق من عِدَةِ الأصنام والأوثان ، وأشتعلت البدع في الدين ،
 وأطقت الظلم على الناس أجمعين ، وصار الحق رَشْمًا عَائِيًا ، حَلَقًا مَالِيًا ، ميتا وسط أموات ،
 ما إن يُحْسِنُون للهدى صوتا يسمعون ، ولا للدين أثرا يتبعونه . فلم يزل صل الله عليه وسلم
 قائما أمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويحذرهم عقوبات
 الشرك ، ويحادلهم ببور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابرا على الأذى ،
 محتملا للكره ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مطهر دينه ، ومِعْزُ تمكيه ، وعاصمه ومستحلفه
 في الأرض ، فليس تنبيه رتيب ، ولا يُلَوِّيه قَبِيب ، ولا يَبْقِيه أُنْدَى ؛ حتى اذا قهرت اليثبات
 ألباسهم ، وبهرت الآيات أنصارهم ، وحصم نور الحق مُحْتَمَم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة
 بدوب صدقه ، ولم يحد العقول سبيلا الى دمع حقه . وهم على ذلك مكذبون بأفواههم ،
 وحاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل الْعَلِيمُ بِمَا يُسْرُونَ ، الخابِر بما يُبْلُغُونَ : ﴿لَا تَكْذُوبُوا وَلَا يَكْذُوبُكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فَيَا وعداوة ، وحسدا ولجاجة ، اقترض

(١) محادث . جمع عهد ، وهو الأصل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٣) ساعات . أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمة بن عبد شمس الأكبر ، وهم . الماص

وأبو الماص والميص وأبو الميص والمويص . (٥) في الأصل . "فلا" .

الله عليه قاتلهم ، وأمره أن يجرّد السيف لهم ، وهم في عصاة يسيرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستذنين ، يخافون أن يقطّعهم العرب ، وتدأى عليهم الأمم ، وتستعملهم^(١) الحروب ، فأوهم في كنفه ، وأيدم بنصره ، وأنذرهم مقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزّم كثيرا من المشركين بقتلهم ، وطلب قوة الجنود ضمههم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿ وَإِنَّ جُذْدًا لَّهُمُ الْغَالِيُونَ ﴾ فأحس النظر وقلب الفكر في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريف نظرك ، مضطربا واسعا ، ومعتمدا فاعها ، وشعوا ماجة ، كلّها حير يدعوك الى نفسه ، وبيان يكشف لك عن مخبئه . وأحيز أمير المؤمنين ما كنت قاتلا لو لم تكن البعثة للنبي - صلى الله عليه وسلم - بلفتك ، ولم تكن الأنباء بأموره تهزرت قبلك ، ثم قامت الهمة بالاجتماع عدك ، وقالت الجماعة المخططة لك : إنه نجم بين ظهراى مثل هذه الضلالات المستاصلة ، والجماعات المستأسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجاهير الأمم ، وصدايد الملوك ، ناجم قد نصب لها وغرى بها ، يجهل أحلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق الأقفا ، ويلعن آباءها ، ويضلّ أديانها ، وينادى بشباب الحق بينها ، ويجهز بكلمة الإخلاص الى من تراعى عنها ، حتى تحيت العرب ، وأنفيت العجم ، وعصبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يتخيل بهم عسبا ، ولا يرهت عتّا ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَبْصِمُكَ مِنَ الْبَاسِ ﴾ أكتّ تقول فنيا تجرى الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعنى عما يقول ، وقد دعا الخلف الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، طيست الأيام باءة ولا الحسأل ثابتة له إلا ريتما تستطعمه^(٢) أسبابهم ، وينهض به حباؤهم ، غضبا لربهم ، وأناة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تدأى فخلعت إحدى تأديه ، وماء يجمعون عليهم ويتألون بالعداوة .

(٢) تستطعمهم : تلقى عليهم حلما وصاعا . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستطعمه .

تلقى به وتغش .

صَبْرٌ بِمَوْجِ قَدَمِهِ وَمَرَمَى نَبْلِهِ ، قَدْ تَكْفَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِفْظِهِ ، وَحَصِيهِ بِعِزِّهِ ، وَجَمَلِهِ فِي حِرْزِهِ ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْخَلْقِ ، فَلَيْسَتْ الْوَحْشَةُ بِوَاصِلَةٍ مَعَ حَبِيبَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ ، وَلَا الْهَيْبَةُ بِدَاخِلَةٍ مَعَ عَصَمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَا سِيُوفُ الْأَعْدَاءِ بِمَادُونٍ لَهَا فِيهِ . ثُمَّ إِنَّ آيَتَكُمْ يَا أَهْلَ الْكُتَابِ لَوْ قِيلَ لَكُمْ : إِنَّ الرَّحْلَ الَّذِي يَدْعَى الْعِصْمَةَ وَيَتَحَلَّى الْمَنَّةَ ، قَدْ نَجَحَتْ الْأُمُورُ بِهِ عَلَى مَا قَالَ ، وَسَلِمَتِ الْحَالُ لَهُ فِيمَا آذَعَى ، حَتَّى نَصَبَ لِمَارَاتِ الْعَرَبِ ، وَجَمَاعَاتِ الْأُمَمِ ، يُقَاتِلُ عَنْ طَاوِعِهِ مَنْ خَالَفَهُ ، وَبِمَنْ تَابَعَهُ مِنْ عَائِدِهِ ، جَاذًا مُشْعَرًا ، غَنِيًّا وَاقِفًا بِمَوْجِدِ اللَّهِ وَبَصِيرَةً ، لَا تَأْخُذُهُ لَوْمَةٌ لَأَمٍّ فِي رُبِّهِ ، وَلَا يُوَحِدُ لَدَيْهِ عِمْرَةٌ فِي دِينِهِ ، وَلَا يُلْقِيهِ حِدْلَانِ حَائِلٍ عَنِ حَقِّهِ ، حَتَّى أَهْرَأَ اللَّهُ دَيْسَهُ ، وَأَظْهَرَ تَعَكُّبَهُ ، وَأَنْقَادَتْ الْأَهْوَاءُ لَهُ ، وَاجْتَمَعَتْ الْفِرَقُ عَلَيْهِ ، أَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ يَزِيدُ حَقَّهُ يَقِينًا عَدَكُمْ ، وَدَعْوَتَهُ ثَبُوتًا فِيكُمْ ، حَتَّى تَقُولَ الْجَمَاعَةُ مِنْ حُلَمَانِكُمْ وَأَهْلِ الْحُسْنَةِ مِنْ دَوَى آرَائِكُمْ : مَا كَانَ الرَّحْلُ ، إِنْ كَانَ وَحِيدًا فَرِيدًا قَلِيلًا صَعِيفًا دَلِيلًا مَعْرُوفًا بِالْعَقْلِ مَنْسُوبًا إِلَى الْعَصْلِ ، لِيَجْتَرَى أَنْ يَقُولَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَيْهِ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْكُتَابِ عَلَيْهِ أَنْ يَقْعِصَهُ مِنَ الْعَرَبِ جَمِيعًا وَيَعْتَمِدَ مِنَ الْأُمَمِ طَرًّا ، حَتَّى يَلْبِغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، وَيُطْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَيَدْخُلَ النَّاسُ أَنْوَاجًا فِي دِينِهِ ، إِلَّا وَهُوَ عَلَى تَقَى مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَقِينٍ مِنْ حَالِهِ .

مُسَبِّحَانِ اللَّهُ ! يَا أَهْلَ الْكُتَابِ مَا أَتَيْنَ حَقَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ طَلَبَهُ ، وَأَسْأَلُهُ لِمَنْ قَصَدَ لَهُ . وَاسْتَعْمِلُوا فِي طَلَبِهِ أَلْبَابَكُمْ ، وَأَرْضُوا ... أَبْصَارَكُمْ ، تَنْظُرُوا بِمَوْنِ اللَّهِ إِلَيْهِ ، وَتَقِفُوا أَنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَإِنْ عِلَامَاتُ نُبُوَّتِهِ وَأَيَّاتُ رِسَالَتِهِ ، ظَاهِرَةٌ لَا تَمْنَحُنِي عَلَى مَنْ طَلَبَهَا ، جَمَّةٌ لَا يُحْصَى عَدُّهَا ، مِنْهَا خَوَاصُّ تَعْرِفِهَا الْعَرَبُ ، وَعَوَامُّ لَا تَدْنُهَا الْأُمَمُ ؛ فَأَمَّا الْخَوَاصُّ الْمَعْرُوفَةُ لِنَبِيٍّ الْمَعْلُومَةُ عَدَدَانَا ، الَّتِي أَحَدَثْنَا الْأَنْبَاءَ عَنِ الْآبَاءِ ، وَقِيلَهَا الْإِتْبَاعُ عَنِ الْأَسْلَافِ ، فَأُمُورٌ قَدْ كَثُرَتْ الْيَبَاطُ فِيهَا ، وَتَدَاوَلَتِ الشَّهَادَاتُ طَلِبًا ، وَثَبَّتَ الْجَمْعُ بِهَا ، وَتَرَخَتْ الْأَيَّامُ بِيَعَصِهَا ، حَتَّى رَأَيْاهُ عِيَانًا ، وَقِيلَناهُ إِيقَانًا ؛ فَهِيَ أَظْهَرَ فِيمَا مِنَ الشَّمْسِ ،

(١) كذا في الأصل . (٢) عمارات العرب . أحيانها العلية . (٣) حميرة : مطس .

(٤) يابس في الأصل بتقدار كلمة .

وأين لدينا من النهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم يقلق الآباء اليكم علمها، وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الجبهة عن العقل، فليس أمير المؤمنين بحاجة لكم، ولا قاصد اليكم من قبيلها. وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، القاطمة لمجيج المبطلين، التي لا تترك عقول الأمم وجوب حقها، ولا تدفع أبواب الأعداء صفة أمرها، فسبيلها أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويبيد بها حجة الله في أحنافكم، من وجوه حجة وأواب كثيرة، إن شاء الله. منها أنه لم تزل الشياطين، فيما حلا من فترات الرسل وتدرجات النذر، تصعد إلى سماء الدنيا، وتُنصت للآلئ الأعلى فسترق السمع وتحفظ العلم، وتنزل به إلى كل أفكك أثيم، يتنوّن أكاديهم على واضح صدقته، ويُفَقِّون أماطيلهم بحسب حقه، حطاً للباطل فيه، وسوياً للمعاد عليه. فلما بعث الله هذا صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حرّست السماء بالجوم، ورُميت الشياطين بالشهب، وأنقطعت الأباطيل، وأصمعت الأكاذيب، وحلّص الوحي، فبطلت الكُفَّاه، وصلّت الشعار، وكذبت الأحلام، وصيرت الشياطين، فكانت آية بيّنة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، تبهّر قرائح العقول، وتمحق تحج العيوب، فلا يقوم مع صيانتها طُلْمة، ولا يثبت عد مُحْكَمها شُبْهة، ولا يُقيم معها في عهد صلى الله عليه وسلم شك، لا من أصحابه حاصة ولا ممن حاء بعده عامة. وإما جعلها الله عز وجل آية نافية في العارفين، وحراسة ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل فيها صلى الله عليه وسلم آية البين، فليس باعثاً بعده نياً يكذب أفاويل الكهنة، ويقطع أحاديث الجحّة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل مملكتك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بيّنة قائمة، مستعيلة لأمرها، مستعينة بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يتشكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البيئة على ما تدعى، بل؛ ثم تقول: وأنى لك البينة، ولستأ تفرّ مكّامك، ولا تؤمن برسولك،

ولا يقبل قولك فيما قد سبقا وإياك زمانه، وحجبت القيوت عنا وعنك عليه؛ فارجع اليكم إن قلتم ذلك، وإن وُحِدَانِ القصاة قبل طلب البينات.

وليس يحل أمير المؤمنين فيما يَنَازِعُكَ ويُحَاجُّكَ فيه حاكما غير عقلك، ولا قاصيا سوى نفسك، ولكنه يذكر الله الذي اليه معادك وعليه حسابك، لما حلت التفهم لمساته من بالك، وركبت حدودها في جوابك، عادلا بالقسط، قاصيا بالحق، قائلا بالصدق ولو على نفسك، ناظرا بالآخرة لديك؛ فلقد وفق الله لك آية، وأهدى اليك بينة، لا تستطيع دفعها فحجبا عن عقلك، ولا حجما لنورها دون بصرك، فلا تدفع الآية بقولك، والبيعة لسالك، تحدا تقطع وصول الحق اليك، ويد تخلق أبواب الفهم عنك، فإن اللسان لك مداول حيث شئت، ومقادير تُصرِّفه فيما هويت، ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد، وأريد الحق وقسوله فيما تريد. فاذا تصوَّرت البيات مجسده في قلبك، وتبينت الحق ممثلة لنظرك، قد أضاء صوابها لك وقرع حقا قلبك، فاحل القول بها شعارا للسان به متصلا. وأفهم المسئلة فهما الله الحق، وحسنك الجملة، ما تقول أنت ومن قلبك في رجل كان يتبنا ضيقا أحياء لاهايا عائلا خاملا، لم يتل كتابا، ولم يتعلم خطا، ولم يك في تحلة علم، ولا إرث ملك، ولا معدن أدب، ولا بيت نبوة، وتراقبت الأيام به، واتصلت الحال بأمره، حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة، وجيدا طريدا شريدا، محسولا مجهولا، مجفوا مرعبا بالعقوق لأفئتهم، مقدنوا بالكذب على أصبايهم، مسوبا الى الهجر لأدياسهم، وهم يجمعون على دعوة العصية، وحمية الجاهلية، متعاندون متناغون، مختلفه أهواؤهم، متفرقة أملاؤهم، يتساقطون الدماء، وينساوون النساء، ويستحلون الحرم، لا تمنعهم ألفة، ولا تعصمهم دعوة، [ولا] ينجحزهم رء، فألف قلوبها، وجمع شيعتها، حتى تناصرت القلوب، وتواصلت النفوس، وتراقت الأيدي، ثم اجتمعت الكلمة، واتفقت الافئدة، حتى صار غاية الملقى رحالم، ونهاية المقتصع

أسفاريهم، وصاروا له حِزًّا متعصبين، وحتدًا مُطيعين، بلا دُنْيَا قَسَطها لهم، ولا أَمْوَالٍ أَفَاضها بينهم، ولا سُلْطَانٍ لَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا مُلْكٍ سَلَفَ لَأَمَانِهِ فِيهِمْ، وَلَا نَبَاهِيَّ كَانَتْ لَهُ بَيْنَ ظَهْرَانِيَّتِهِمْ. أَتَقُولُ إِنَّهُ [مَا] قَالَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا نَوْحِي عَظِيمٌ، وَنَزِيلُ كَرِيمٍ، وَحِكْمَةٌ مَالِفَةٌ إِنْ كَانَ قُلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ أَقْرَرْتُ أَنَّ عَهْدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ، وَتَرَكْتُ مَا كُنْتُ تَقُولُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ وَلَمْ يَلْفِهِ إِلَّا بِعَقْلِ سَيِّدٍ، وَظَرْعِ عِيدٍ، وَرَفْقٍ لَطِيفٍ، وَرَأْيٍ وَثِيقٍ، اسْتَنَى بِهِ عَقُولَ الرِّحَالِ، وَأَسْأَلُ عَلَيْهِ أَفْعَدَةَ الْعَوَامِ. فَإِنْ قُلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا سَالِكٌ بِالْحُكْمِ الَّذِي تَعْمَدُونَ، وَدِيكُمُ الَّذِي تَتَحَلَّوْنَ، لَمَّا صَدَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَجَنَّبْتُمْ الْمَهْوَى عَنْكُمْ: أَتُؤْمِنُ قُلُوبُكُمْ، وَتُحَرِّزُ عَقُولُكُمْ، وَيَحْتَمِلُ نَظَرُكُمْ، أَنَّ عَهْدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي وَصَفْتُمُوهُ بِكُلِّ الْعُقُلِ، وَسَانَ الْمُضِلِّ، وَرَفْقِ التَّنْذِيرِ، كَانَ يَقُولُ لِحَالَاتِ الْعَرَبِ، وَجَمَاعَاتِ الْأُمَمِ، [و] دُعَاهِ قَرِيشٍ: إِنْ مِنْ آيَاتِ نَبَوًى، وَدَلَالَاتِ رِسَالَتِي، وَعَلَامَاتِ زَمَانِي، أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُرْمَى بِجُحُومِ السَّمَاءِ، وَلَمْ تَكُنْ تُرْمَى بِهَا فَيَا سَلَا، ثُمَّ يَحْتَلِ ذَلِكَ كَيْفًا يُقْرَأُ، وَقَرَأْنَا يُتْلَى، وَهُوَ كَاذِبٌ فَيَا تَلَا، وَتُطِيلُ فَيَا أَذَى، إِطْلَا لَا تَدْرِكُهُ عْيُونُ الْبَاطِلِينَ، وَكَلِمَا يَطْهَرُ بِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ! سَعَدَانَ اللَّهُ! أَرَأَيْتُمْ أَنْ لَوْ كَانَ فَيَا قَالَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، وَعَلَى مَا أَدْعَى مِنَ الْآتَمِينَ، ثُمَّ حَاوَلَ إِعَادَةَ الْقُلُوبِ، وَاتَّقَالَ الصُّدُورَ، وَإِفْهَارَ الصَّوْمِ، وَتَفْرِيقَ الْجُحُودِ، أَكَانَ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ!

فَيَا أَهْلَ الْكُتَابِ لَا يَحِلُّ لَكُمْ الْإِثْلُ لَدِينِكُمْ عَلَى اللَّعِبِ تَوْحِيدِكُمْ! فَلَعَنَ اللَّهُ لَشَّ تَدَارَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَنَاصَحْتُمْ نَظَرَكُمْ تَعْدَلُونَ أَنَّ عَهْدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ حَاوَلَ الْكَتَبَ أَوْ رَامَ الْإِفْكَ، لَمَا كَانَ يَتْرُكُ جَمِيعَ الْأَرْضِ، وَمَا يَنْبَغِي مِنْ مَعْصِ الْخَلْقِ وَيُظْهِرُ لِمَعْنَى وَيَقْصِدُ لِلسَّمَاءِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْأَرْضِ، الْبَارِزَةِ لِلْظُّرْ، الَّتِي لَا تَمُحَى عَلَى بَشَرٍ، وَلَا تَغِيْبُ عَنْ أَحَدٍ، فَيَدْعِي فِيهَا كَذِبًا ظَاهِرًا، وَإِفْكًَا بَارِزًا مَكْشُوفًا، لَا يَبْقَى صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، إِلَّا عَرَفَ أَنَّهُ إِفْكٌَ وَزُورٌ، وَكَذِبٌ وَعُرُورٌ، وَلَا سِيَّأَ إِذَا كَانَ يُنْقَى ذَلِكَ إِلَى أَقْوَامٍ أَكْثَرُهُمْ أَهْرَابٌ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ حِجَابٌ، إِنَّمَا يُرَاعُونَ الْكُوكَبَ وَيَتَعَقَّدُونَ الْغَيُومَ، فَاجْتَدُ عَهْدَ اتِّحَرِمَ بِهَا تَفْقُدهَا وَنَظَرُهَا إِلَيْهَا، سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ، أَوْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ.

لَعَمْرُ اللَّهِ لو عَثَرَتِ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كَذِبٍ لَكَانَ أَوَّلُ مَنْ يُؤْتِيهِ بِهِ وَيُجَادِلُهُ فِيهِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ قُرَيْشٍ عَامَةً ، وَحُسَادُهُ مِنْ حَبْرَتِهِ خَاصَةً ، وَنَظَرَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ دِينِيَّةَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعِيرُونَهُ لِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَيَقْعُدُونَ لَهُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ ، وَيَنْسَآطُونَ مِنْ أَمْرِهِ عَنْ كُلِّ دَيِّ حَادِثٍ ، فَيَتَعَلَّقُونَ بِالْحُرُوفِ الْمُشْكِلَةِ ، وَالْآيَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ ، جَدَلًا وَخُصُومَةً بِهَا ، وَطَعْمًا وَإِلْهَادًا وَمَازَعَةً فِيهَا ، حَتَّى لَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِفَعْلِهِمْ ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَقُولَ ذَلِكَ وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا عَنْ حُصُومَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَازَعَةٍ بَلِغَةٍ ، وَمُحَادَلَةٍ مَعْرُوفَةٍ . فَأَحْسَى الْعَرَبُ لِنَفْسِكَ ، وَلَا تَهْلِكِي شَفَقَةً عَلَى مُلْكِكَ ، فَأَيُّمُ اللَّهُ لَنْ قُلْتَ إِنْ الْجُحُومُ شَيْءٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تَرَاهُ سَيُوهَا وَتَعْرِفُهُ بِقُلُوبِهَا ، فَمَا كَانَ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ عَارِفٌ بِهَا عَيْرَ جَاهِلٍ لَهَا ، لِيَقُولَ فِيهَا إِلَّا حَقًّا ، وَيَتَحَلَّ فِيهَا إِلَّا صِدْقًا ، لَقَدْ ثَبَتَ مَرْوَعُ كَلَامِكَ فِيهَا عَلَى أُنْثَى ، وَوَصَلَتْ آتَرُ قَوْلِكَ لَهُ نَاقُولُهُ ، ثُبُوتًا عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَقِيدِهِ ، وَلَزُومًا لِمَا قَوَّلْتَ مِنْ نَظَرِهِ ، وَلِكَ لَكَ لَا تَحْدُثُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِذَلِكَ نُدَا مِنْ التَّصْدِيقِ بِرِسَالَتِهِ ، وَلَا مَذْهَبًا عَنِ الْإِيمَانِ بِبَيِّنَتِهِ .

وَلَنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ أَدْعَى أَمْرَ الْجُحُومِ كَدَمًا وَأَنْصَلَهَا بِاطْلَا ، عَارِفًا كَانَ بِهَا أَمْ حَاسِلًا ، لَقَدْ نَسَبْتَهُ مِنَ الْخَطَا الَّذِي لَا يَتَعَمَّى عَنْ نَصَرِهِ إِلَى مَا يَحْطِئُ فِيهِ بِشَرًّا ، فَأَكْذَبْتَ نَفْسَكَ ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّأْلِيفُ لِقُلُوبِ الْعَرَبِ وَالْجَمْعُ لثَبَاتِ الْقَبَائِلِ ، إِلَّا بِرَأْيٍ سَدِيدٍ ، وَعَقْلٍ أَصِيلٍ ، وَرَفْقٍ مَالِحٍ ، إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ لَا تَحْدُثُ لِكَلَامِكَ وَجْهًا تَذْهَبُ إِلَيْهِ عَيْرُهُمَا ، وَلَا تَحْتَلِمُ تَصْعُغُهُ عَلَيْهِ سَوَاهُمَا : إِمَّا أَنْ تَقُولَ : إِنَّهُ أَلْفُ قُلُوبِ الْعَرَبِ ، وَفَوْقَ جُمُوعِ الْأُمَمِ بِتَرْبِيلِ الْوَحْيِ ، فَتُؤَنُّ أَنَّهُ نَجَى ؟ وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ : فَعَلَّ ذَلِكَ بِجَهْلٍ ، وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَقْبَلُ . كَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ الْمَكْتَنِّينَ لَهُ بِقُبُلِهِ ، أَوْ يَرْمُونَهُ بِجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَحْزُونُونَ بِهِ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَرْفَعُونَهُ فَوْقَ أُمُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَيَتَخَفُّونَ بِهِ مَرَاتِبَ الْحِكَمَاءِ ، وَمَازِلِ الْبَاسِ

تكثر علمه، وتسديداً لعقله، وثبوتاً لفضله، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن إليه؛ حتى لقد تحملوه فذلَّ الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمّة: من ذلك أنه اذا قالت القيا من أمّنا: كان عهد صلى الله عليه وسلم يُجبراً بالأيّوب قبل ظهورها، ويصفُ الأمور قبل حلّوها، ويقاوم [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيباً أطلمه الله عز وجل عليه، أضاعوا ذلك علماً إليه، فقالوا: كان أعلم الناس بمواقع الحجوم، وأبصرهم بمسائل البروج، وأنظرهم في دقائق الحساب. كيف ولم يكن المحراز دار نجوم ولا محلّ حساب ولا معدن أدب! بل كيف والمجتمّ يقيس ويحطن، ويشك فيما يدعى، وهو أخو صواب لا شك فيه، ومارس صدق لا قياس معه.

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين: كان نبيا صلى الله عليه وسلم [عليه] باطن أخبار البين، وخفيّ قصص القرون الأولى، قالوا: كان أحياء الساس قلباً، وأوسعهم سراً، وأسرعهم أخذاً، ينتج ذلك ويحبه، وقد رواه وعلمه. سبحانه الله! أولاً يعلمون أن المتعلم معروف المعلم، متعاضت الحالات، متقلّ الطبقات، وأنه ما أحد يُؤدّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً، إلا وله درحات في علمه، وتارات في أحذه، ومارل في تعلّمه، تارة تليذ، وتارة مقارب، وأخرى حاذق، وبكل ذلك موصوف من أهله، معروف عد قومه، ظاهر لحيثه، مستفيض في عشرينه، لا يحتمل أمره، ولا يحفى ذكره، ولا ينسى عد مواضع الحاجة إليه، وتارات الاحتجاج به عليه. ولو كان ذلك معروفاً فيهم، أو موجوداً لديهم، أو ظاهراً عندهم، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم: لقد لثت فيكم عمراً من قلّه، لا أتلقوا، ولا أدعى وحياً، أفلا تعقلون!

وآيم الله! لو كانوا يعقلون أو ينظرون، لعلموا أن معلّمه على غير الملة التي يعرفون، لأنه لم من المخالفين، وعليهم من الطاعنين، يذكر فصائح قولهم، ومعايب أمرهم، ومخايز أسلافهم، وعوار أديانهم، وأنه لو كان معلّمه نصرانياً لدماه الى النصرانية، أو يهودياً

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يحسن له معلم لما وقع على الحقيقة هداية من تنقاء نفسه ومعرفة بقوة عقله . ولو كان معامه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ، كيف [و] كان الشيطان يصد الناس عن سبيله ، ويُرْهِمهم في ديبه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مساخطة ، ويمهلهم على معاصيه ! إنه إذا رحيم بهم ، فأنظر لهم ، شفيق عليهم ، كأنه هو المبعوث إليهم ، كلا ! ما كان ليُقيدهم من حباله ، ويُخلصهم من مصايده ، ويُخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخدعه وقتته وحربه ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناحوا حرمهم ، ويؤذوا دُرَيْتهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون نَحْبَتَ الحجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتَدْرُونَ عبادة الرب الذي خلقكم أطوارا ! هيات ! لقد ذهبت بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، قتلتم قولا شكره المقول ، وتدعوه القلوب ، وتستوحش منه النعوس . ألا تسمعون إلى قول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴾ ها كان الشيطان ليرصى للعرب باللعنة والسك والعمى والصمم ، فأتى الله ولا تكن من الخاطئين .

ومنها أنه اذا قالت الفقهاء والحكماء : أئانا عهد - صلى الله عليه وسلم - بكلام لم تسمع الآداب بمثله . ولم تقع القلوب على لفته ، له رَوْقٌ حَبَابِ الماء ، وريزجٌ يعلو ولا يُقَلِّ وعجائب لا تتلى ولا تنفى ، وجملة لا تتغير ، [قالوا] : كان عهد - صلى الله عليه وسلم - بأنهم قولا ، وأحسنهم وصفا . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد لما أنفرت الأعداء من بفصله ، ولا تجزئت القبائل طرأ عن مثله ، وهو ياديهم في الكتاب ويغشاهم في الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : ها تَؤَا سَورَةَ مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاة ، وأبناء الخُطْب ، وأهل عداوة له وسنى

عليه ، فستحسر الأنصار ، وتثقل الأسماع ، وتنعقد الأنس ، وتقرس الخطباء ، وتبجز البلاء ، وتحر الشمره ، وتستسلم الكهان . ثم لقد قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - وما حاه به من كلام الرعي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبه له ولا مداد ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يرى ما ضى أسلامنا وصلح آبائنا من المعائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو حديد عندنا ، بين قلائم ينف أثره ، ولم يدرس خبره ، ولم يتقادم عهد : من خبره ناداهم فأقبلت ثم أمرها فرحمت ، ومن نحو مير تظلم ، وذئب تكلم ، وأشباه ذلك كثيرة ، وتفاثر له عجيبة ، قالوا : كان محمد - صلى الله عليه وسلم - كماها حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يشبه بالخيال ، ويأخذ بالأصوار . كيف والجموع الكثيرة تصدر عن الأطمية البسيرة والمياه القليلة ، شامعا رواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ! والأحد باليون لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويصفون من أعينهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إيط وعُرور ، وأن لمحمد - صلى الله عليه وسلم - آثارا قائمة ، ومافع دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحر يلفان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب ، وعلامات الرسل ، ولعلت الشبهة ، وسقطت المحمة ، وكذبت السوء ، ولبطل ما كان [يفعله] عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى . فلا يكون التقليد للرجال مبلغ عليك ، ولا القول لدعواهم بلا يئة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بمتنا : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أميا لا يحس الكتاب وحافظا لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخط الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان يكتب بالتهار ، ويدرس بالليل .

ولعمري الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا أكتسبت الدراسة عليه ، ولما كان يُطلى سترها عن أهله ، ولا حجابها دون قومه . وصعب تؤم القلوب وتقر العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحججا جئا : من آيات متشابهه ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حبيب دائمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا أن الله عز وجل كفاه أن يُحرك به لسانه ، وصين له حمته وقرأته ، فقال عز وجل : ﴿ سَقَرْتُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ فلم يكن يسقط واوا ولا ألعا ، ولا ينسى كلمة ولا حرفا . ما أين هذا وأعجمه ! وأعجب منه المكره .

وأما قولهم في الخلط وإختارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أميا ليثبت حجته ، ويصدق مقالته ، ولئلا يشك المطلوب في أمره ، ويقولون : تعلمه من غيره ، فإنه قد قال ذلك طائفتان من مآفة العرب وطوائف من كفرة المعجم ، سقطت [به] الأعداء من حيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين لفظوا [مالمفوا] من مجادلة حقه ، ومحاصرة ربه ، كفاه لمن قرُب ، ووكلاء لمن بُعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم حبره ، وحفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجا ، ومن سوامهم مكتنبا . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من شر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عما (٥) ولسقط علينا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبير ، لآرف ذلك أثره المختلفون معه ورفاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من حيرته نصرة ، ولا من معه من أهل بيته دينة ، الدين عليهم يورد ومن قبلهم يُصير ، ولكان شامعا عد حشم معلمه وجيرة موصعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأذب بين طهراتهم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أوفيه من أمره شاكين ، ثم تعلمهم وتقر قلوبهم أنه يقول : إن الله عز وجل وحى أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُ بِمِثْلِكَ إِذَا لَاكَرَاتِ الْمُبِطُونَ ﴾ لخاصمه منهم من تكفر ، (١) في الأصل . « متراحه » . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ » . (٣) زيادة يخلطها الكلام . (٤) في الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) في الأصل « ولا سقط » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، ويحتله وحيا * أما كان يهَبُ أن ينتشر في الآخرين ، ويخرج إلى الأبعد ، فتطَّل حثَّته ، وتنفض دعوته ، وتسقط نبوته ، ويُتفَرَّ أصحابه الذين لم يصبروا معه في المجاهدة أصمَّهم ، ويبدلوا عند الشدائد مَهْجهم ، ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مُناصِبين لأهل الشرق والعرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضععون عائلون جائعون ، لا طُلأً لدنيا ولا طَمَعًا في مال ، إلا لما تمَقَّبوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه . ولولا أنه أحرمهم ووعدهم أن ينل كسرى وقصرهم ، فصَدَّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَوِيَت البصائر ، وصَرُمَت العزائم ، وقَوِيَت البيات ، فَنَشِطَت النفوس ، وَتَجَبَّت القلوب ، وحملت الأبدان ، لَمَّا وَقَعَ لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهْلُ^(٢) إليه . فكُنْ مِنْ ذَلِكَ على يقين لا يحلِّجه شك ، ومعرفة لا يحلِّطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من قَمَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف ، ولا خالق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد أَتَبَّ الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأُزِلَّه في الكتاب إليه ، فكان يَأْمُرُ بالمكارم ، ويحْصِي على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مَدْخَلُ لشبهة طاعني ، ولا مَعَالَقُ لمحبة قائل ، ولا مَفْزَعُ لبصرة عائب ، ولا مَوْصِعُ لخسومة بشر ، في وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حَمَلَتْ عليها بَهِيسَه ، ودعاه إليها عَقْلُه ، وصَبَرَ عليها ، لِمَا أَتَلَّ ورجا فيها . سبحان الله ! وما أَتَلَّ بها وآرَتِجِي منها * إن قالوا : الدنيا ، فلقد أَكْذَبْهم إدارُهُ عنها ، حيث أَمَكَّتْهُ القُدْرَةُ منها ، وآعَرَتْهُ الحال عليها . وإن قالوا : حَتَّ الأَثَرُ ، فقد جعل فَسْهَ السَّالِينَ أُسْوَةً : في سِيَّأَمِهِمْ وقِصَاصِهِمْ ، وحُدُودِهِمْ وحَقُوقِهِمْ ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْكُ ، فلقد كَانَ أَشَدَّ الناس لربه تواضُعًا ، وأعْظَمَهُمْ في جَبْهَةِ تصاغُرًا ، ما إن أَكَلَ متكا قَطْ إلا مرة ، ثم قَعَدَ كَهَيْثَةِ الفَرِيعِ لها النَادِمُ عليها ، فقال :

(١) صرَّهه : حسبها

(٢) وهْل : فرح

”اللهم إني عبدك ورسولك“ . وإن قالوا : النعم ، هي كان أيس منه مآشاً ، وأخشن رياشاً ، وأغلظ ما كلا ! وكيف يدوق العيش أو يجحد لذيق النعم ، من حرم السكر والخمر ، ومهى عن الديباج والقرّ ، وكان أكثر دهره صائماً ، وأطول ليله قائماً ! إن قالوا : طلب الصوت ورعب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت والتماس الحمد لما صبر مناصب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد المعجم ، وأستهزاء قریش ؛ يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويهتونه بالسحر ، وليس يدري ما يجهّم به الأمر .

أم يقولون طلب تائب الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ! أم كيف يطلب لم عز الملك وقد أوطأهم النذل ثم القتل . لعمري أنه لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لو كد لم عقناً لا يحل ، ولا نرم لم أمراً لا يُقصد ، ولا ثل لم في حقن أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أدناً فيهم ، امتثالاً لصليكم وأخذاء على مثالكم ، مع أقاويل جمّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لم منها أن يقولوا إن عدا صلي الله عليه وسلم طلب العرب وقهر المعجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكتب .

فإن قلتم إن عدا صلي الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكاء وأخطأت الثلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من المالمين — أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرّحا ، لست العلماء بمطعة إلا المزة والتنين ، كما لا تخطئ الرّحا إلا الحبة والحنتين . ومثل الذي نسبت إلى النبي صلي الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنتمكم ، كثير لا يُحصيه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين وأصف عصمه لكم ، ومورد ما يحضر كتابه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا عدا صلي الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الجملة في الأصل وهي مصطربة .

(٣) في الأصل : ”ولا يروح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك محادثته ورفض منازحته، وكيف لم تقل العلماء من إفائه والحكام من حكائهم، توجيهاً منهم له، وتعييلاً لمن آمن معه : هذا أمر من أوصع الأكاذيب وأطل الأباطيل؛ فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف أنا صدقت العرب ببؤته، ولم تكفر القبائل برسائه، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقُ كان قبله، واطلاً لا يعيهم معه حقٌ حثت بعده . وإن قلت : أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما نال القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما ملهم آسوا وصدّقوا، وصبروا وصابروا، وجثوا وحاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتنهى نصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهروا عن توحيدهم ! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتول أو محلول . فأحس النظر فيما تمهّب الأهواء برأيك إليه من آيات التي صلى الله عليه وسلم . وإن سمحت الدعوى بكم، فقاتل : قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في مصحفها بيئت الحكماء منها ذكراً في كتبتها، جعلت المقص من الكواكب بين الأهمام،^(٢) دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاحتلاق يلط به البهايل للساق . ما إن وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا لبلى ملكت السماء من الشهب . وبالله لو أدعيتم غير ذلك فكان حقاً، وكانت القالة منكم صدقا، لما كانت الدعوى باقضية لآية الجيوم حجة، ولا مدخلة على أحدٍ منها شبهة؛ لأن رميا يقع قرط السنين من الكواكب، لا يُبطل رجماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن^(٣) الجيوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة ماهرة، وأمانة طاهرة، وشهادة قاطعة، وبيعة عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أطانين المشركين، وتردع أقاويل المناققين، لما كان النهي صلى الله عليه وسلم يُعظم أمرها، ولا ليكرر في أي القرآن ذكرها، رهبة

(١) كما في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة ..."

لما هصه احياء العرب، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب، الذين لو وجدوا فيما كتب به إليك أمير المؤمنين من أمر الجوم وأحتج [به] عليك من ذكر الرجوم، موقلاً لظن أو ممكماً بطعن أو مغمزاً لقول، لاصبوه اذا بالمجادلة، وكاشفوه المنازعة، وحاهره بالقول الذى لا يستطيع له رداً، ولا يطيق له بحثاً، ولكها آية ملأت الأقطار كثرة، وحسرت الأبصار قوة، قد وجلت العقول، وطمعت القلوب، وملأت العوس جرحاً ووجعاً، وقرعاً شغلهم عن الأولاد، وأذهلهم عن السداد، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل، لما ملأ السماء حرماً، وأحدث لها رصداً، وخلق فيها شهباً، ذكرت العقلاء من المرب، وقعات الله عز وجل فى الكتب، يقوم نوح وطار ونمود، وأشبايهم من مؤلى تلك الجود، الذين كانوا أشد بطشاً، وأكثر جماً، فانقرجت أيديهم عن كرائم أموالهم، وأرسلت أنفسهم متائنين عقدهم. وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم، وأجمعوا فيه الخروج الى قرايهم، قام فيهم رجل منهم ذوسن وعقل فقال :

يا معشر العرب، لا تهلِكوا أنفسكم قبل أن تهلِكوا، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا، تفقدوا مواقع نجوم السماء، وكواكب بدور الدجى، فإن كانت الجوم التي حدث الرمي بها والجوم التي أحليت الأموال لها، هى لبروج الشمس والقمر ومسالى الحيوان والشجر، فهى جوائع الاستئصال، المتلطفة الأفيس والأموال، وإن كانت الجوم التي حدث القذف بها، إنما هى نجوم خلقت اليوم، وليست المعرفة واقعية على مبتدأها، ولا الأبصار ملاحقة متهاها، فامسكوا العقد عليكم والأموال، فإنه أمر يحدث فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور فى هذا الرجل كاليان، وصارت المقالة منه كوني الآذان، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية العقه من المسلمين، الذين حملوا اليأس سن الدين، هم

أَدُوا ذَلِكَ الْيَبَا، وَأَقْوَهُ نَحْوًا^(١) .. عليا، هَا إِنْ يَتَّفَكَ مِنْهُمْ مُتَخَرِّقُونَ . أَوْبَا الَّذِي حَسَسَ عَلَى الْعَرَبِ الْأَمْوَالَ وَالْعَقْدَ، هَا إِنْ يَدْفَعُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ . هِيَاهُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ لِيُتَقَرَّ عِنْدَ الْغَارِ ، إِلَّا لَطَوِيلٌ هُوَ آتِيٌّ فِيهَا مِنْ صَوِّهِ النَّهَارِ . فَاهَهُمْ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا إِلَيْكَ ، وَلَا يَكُنْ التَّعَلُّلُ فِيهَا بِالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ مَا لَدَيْكَ ، فَإِنَّهُ قَلَّ حُجَّةٌ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهَا شَبْهَةٌ تَحْبِلُ لِلْمَقُولِ ، وَتَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ ، وَتَحْتَمِلُ فِي الصَّدُورِ ، فَلَا يَثْبُتُ مَعَ تَحْبِيلِهَا ، وَلَا يُقِيمُ لِنَعْرِضِهَا بَشَرًا إِلَّا مِنْ وَزَنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِمِزَانٍ طَائِلٍ ، لَا يَمِيلُ إِلَى تَقْصِيرٍ ، وَلَا يَحْصُلُ فِي تَقْصِيرٍ . وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَقُولَ مُوَازِينَ لِلْأُمُورِ ، فَرَبُّوْا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ حَمِيجِ كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَتَّقُونَ بِهِ الشُّبُهَةَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا تَمِيلُوا لِلْسَّانِ ، فَتَحَسَّرُوا الْمِيرَانَ .

وَسَيُعَلِّمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَا جَاءَ عَنَّا دَكْرًا مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ الْجُورِ وَالرُّجُومِ وَالشُّبُهَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّوَاةِ وَالْكُتُبِ ، فَالْطُّمُوءُ الطَّرِيقِ فِي صَحَّةِ مَعَايِهِ ، وَنَحْوُ الْهَوَى عَنْ شَبْهِهِ مَا وَقَعَتْ فِيهِ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (٢) وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ حَمَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاطِرِينَ وَحِفْظًا هَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَاجِمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وَإِنْ شَطَبَ عَنِ الْحَقِّ شَاطِبٌ ، أَوْ دَهَبَ إِلَى الْبَاطِلِ ذَاهِبٌ ، لَا يَعْرِفُ مَذَاهِبَ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا وَجْهَ مَعَانِي الْكُتُبِ ، وَلَا تَفْسِيرَ آيِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا جُعِلَتْ الْكَوَاكِبُ وَالْمَصَابِيحُ حِفْظًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدينِ .

فَإِنْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَيَانٌ بِمَا يُبْطِلُ دَعْوَاهُ الَّتِي لَا يَمُنُّ عَلَيْهَا ، وَبِكُتُبِ مَقَاتِلِهِ الَّتِي لَا شُهُودَ لَهَا ، فَقَالَتِ الْجَنُّ — بِحَمَلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهَا وَحْيًا — وَبِهِ مِنْهَا صِدْقًا : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهَا كَانَتْ الْجَنُّ لَمَسَتْ السَّمَاءَ فَلَمْ تَجِدْهَا مِثْلَتْ حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَقَعَلَتْ الشَّيَاطِينُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسُّمْعِ

(١) يَأْسُ بِالْأَصْلِ بِمَقْدَارِ كَلِمَةٍ . (٢) فِي الْأَصْلِ « عَرِشَةٌ إِنَّمَا أَخْ » .

فلم تجد شهباً ولا رصداً، ^(١) أولاً يسمعون الى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدفه ويشهد له من قول الله تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَقَرَّلُ الشَّيَاطِينُ تَقَرَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَقُولُونَ السَّمْعُ وَأَكْفَرُهُمْ كَاذِبُونَ) مع قول الجن أيام حُرست السماء ورُميت الشياطين : (وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَوِيدَ يَمِنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ يَوْمَ رَهْمُ رَشَدًا) . فاذا أصحتم في ذلك فكركم ، وقلبتُم فيه نظركم ، فكنتم على رهاقَيْن ، ونور مستبين ، من استطاعةِ الجسِّ للاسقاع ، وقدرَةِ الشياطين على الاستدراج ، وإمكان السماء للعمود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق ، ومنعت الشياطين أن تتزل بصدق ، وأمنت السماء أن يصدد إليها شيطان ، فقال الله عز وجل : (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَكْبِرُونَ أَنَّهُمْ مَعَ السَّمْعِ لَمَعُزُولُونَ) . قَالَتِ الْجِنُّ : (وَأَنَا كُنَّا قَعْدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ قَسَنَ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شَهَابًا وَرَصْدًا) إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان . وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عز وجل حين جعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد ، أنهم (لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ قَذَابٌ وَاصِبٌ) مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتولون على ملكِ سليمان ، فكان لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجموعها ، وتداعت القادة من صناديد الكفر بأتباعها حذراً على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رعائب أموال عظام ، فكانت العير والغير طائفتين : طائفة ذات عُدّة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رخيصة ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعدته ومن معه من المسلمين إحداهما ، فكَرِهَ المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيّد بذلك أركان الدين ، فلما تراميت الفئتان ، وتناوشت الفُرسان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(١) كما وردت هذه اللمحة في الأصل وهي مبروحة .

(سَبَّيْزَمُ الْجَمْعُ وَيَوْلُونَ الدَّبْرَ) قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم يناه دون مناخرهم وعيونهم ، فاصرفوا منهزمين ملا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب ، ما يُنْجِي آيةَ أعظم حجة وأوضح بينة وأقهر غلبةً من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لامصت الجموع من المسلمين كفاراً بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نكير المشركين . التي نحت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم إليها . أم قبضة من تراب يسير ، ما ملا المناخر من عدد كثير .

فلن قلتم : إن هذه آيات نبأت ، وعلامات وأسمات ، ولكل [لا] نقتل لكم بها ولا فمن يقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يخلقها كما من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها حياً من عند ربه ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، يظهر كدبه ، ويرقص تبعه . وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، يساطاً جُدهاء ، فكان على معرفه بقوتهم ويقين من عطيتهم ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَكَايَهُونَ يَمَادِلُوكَ فِي الْحَقِّ صَدَّ مَاتِينَ كَاثِبًا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أعضهم ، ثم يدعي ذلك تبريراً من ربه . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تُقر به الحكاء ، ولا يحمد النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم بشارته لهم وإحارته ما أخبرهم من هزيمة الله مدوهم ، أن يشجع جُبتهم ويُقوى صممهم ، فكيف اذا لم يبق لها كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وصعب المسلمين وقتهم ، بظهور الأنبياء على خلاف قوله ، وأن محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجتة ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمر الى نفسه ويحصى الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أئتمه في تخاب

(١) في الأصل « ويرم أن أصحابه .. » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورق مشور . فصل لعمر الله يدل على النبوّة التي كان بها واتقا، ويهدي الى الوحي الذي كان اليه سالكا .

وان عَرَضَ لَطَرْكَ، أو وقع في حَلَدِكَ، أن الله عز وجل حوّد محمدًا صلى الله عليه وسلم الغلّة وأحراه على المتعة ، فكان يجرى على عادة قد عَرَفَهَا، ويسلُكُ حَادَّةً قد خَرَهَا، فلقد كانت الهزيمة في أوّل وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللهُ، ثم لقد دالت الحربُ فَيَا سُدَّ سَحَالًا فَيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ: نَارَةٌ عَلَيْهِ لَهْمٌ، وأخرى له عليهم . فاحِصُوا اللهَ عز وجل في نَطَرِكُمْ، وقلّبُوا فَيَا يَقُولُ أمير المؤمنين فكرّم . فلعنَّ الله ما كان الذي صلى الله عليه وسلم يقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمَكُمْ بِرَبِّيَّةٍ من راب وهو يعلم أنه عنده من الكاديين . فأحصر كتابي هذا فهَمَكْتُ، وأصِرُّ له وإن حَصَمَكُ، فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبينة عجيبة، في علّة العرب .

وأعجب من هذه وألطف، وأكثر منها وأعظم، الآية في علّة العجم . وأسْتَفِجْ: أَمَرَ اللهُ نَبِيَهُ - صلى الله عليه وسلم - أن يقول للمؤمنين - وكألو كما قال الله عز وجل قليلا مستصفيين - : إن قاتل العرب ستَحْرَبَ عليكم، وإن الله سيَهْزِمُهُمْ لَكُمْ، وحيّا أنزله في الكتاب، فقال : ﴿ جُنْدُ مَا هَآلِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴾ ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخسوف وخندق القهر وذل الحصر، سوادهم الأحم وحلّهم الأعظم حُصَاهُ عُرَاءُ عَالَةٍ، لإخوان دير، وأصحاب وَبَرٍّ، لا قُوَّةَ بِهِمْ، ولا مَنَّةَ لَهُمْ، ولا أسلحةَ عندهم، ولا عُدَّةَ معهم، قد أحْدَقَتِ العربُ بَسْكَرَهُمْ وأحاطت القبايل بَجَنْدَقِهِمْ، وسالت الأحرابُ تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامهم وتُهْرِيقَ دماهم، فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال، وضيق المال، وشدة الْيَقْظَاظِ، فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم، ولم يكن الذي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون، ولا ليدكرهم من أمره ما لا يعرفون، حِدَارًا أن تنكسر

عن انهم وتغير بصائرهم ، فنهزم أعدائهم وتموت نجدتهم ، وتختلف كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ حَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَسِيرَ وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الطُّوْمَا . هَآئِكَ آتَتِلِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيضُونَ بِهَا فِرَآءًا ﴾ . فبهاجم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفرقهم في الحال ، وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينهتهم به من طم القلوب ، وينشرهم به من أمر الفتوح : " إن الله سيصرمكم على جمع الروم ويقلب لكم جود فارس فيهزم لكم حودهم ويورثكم قصورهم ويستعطفكم في الأرض من بعدهم ويبدلكم من صد حوفكم أمنا " . وقد صدقه الكاتب ، وإشارة بطل بها الوحي ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوام وأناس أرتاوا حين تصايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا عُرُورًا أَيْبَدْنَا هَزِيمَةً جُمُوعِ الْأَحْرَابِ ، وَتَمَّعَ قُصُورِ الشَّامِ ، وَعَلَسَ جُودِ كِسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْفَسَائِلُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ حَاثٍ ، وَأَحْدَقَ الْمَوْتُ بِنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَبَقِيَ فِي مَسْجِدٍ مِنَ الْجُلُوعِ ، وَتَجَهَّدِي مِنَ الْخُوفِ ، وَصَلَيْكَ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ . وقالت الحاصصة من المؤمنين حين عايسوا الجموع من المشركين ، ودكروا ما حبرهم الله من تحزيبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فبها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مصابيح تلك الحال ، وشدة ذلك انحصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور العادحة ، التي قد أخذ بأعاسهم عمها ، وطلع

مجهودهم كرمها ، رافعين الى الله عز وجل أيديهم ، يقابلون في السماء أعيانهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجويع المظيعة والأحزاب المقتدرة ، ريحاً من الأرض وحوداً من السماء ، قطعيت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون ، وقذفت الرعب في القلوب ، فولوا مذبرين ، وخرجوا منهزمين ، لا يلوي والد على ولد ، ولا مولود على أحد . أمر صلي الله عليه وآله وسلم في قوله ، وأنجز به وقده ، وهزم الأحزاب وحده ، وذكر المؤمنين بعنته فيهم ، وعرفهم منته بهم ، فقال : ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ حَامَاكُمْ جُنُودًا فَرَسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ حَامَاكُمْ مِنْ لَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنْصَارُ وَطَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَاوِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَيْطِهِمْ لَمْ يَأْلُوا حَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ . ما كان الله عز وجل ليقصص على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا يذكرك عقلك ولا يدغمه بطرك ، لما حادتك بالكتاب ، ولا ازعجتك بالثبيل . وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح . ولكن ليس لي أن أحاطك من آيات القرآن ، إلا بما عليه شاهد من برهان ، ومحرر من بيان . لا يستطيع عقلك رداله ولا قلبك بحجده له . وكيف ينسبط لسائق أو يحترق قلبك أن يقول : إن هذا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقصص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون ! لا ! ما يسوع لك ولا يتحمل لك ، ولا يقبل منك أن هذا صلى الله عليه وسلم يقول من تلقاه منه ، كيف ! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتنقل أحواله ، وتقصص أموره ! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بمصل ولا ينسب إلى عقل ، لما كان سائفاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف نصف به من يرفع عن الناس قدره ، ويعضل عليهم عقله ! ويُقرئك لم ترى الدنيا أحدًا صنع [ما صنع] وطلع ما يلع ! فأيتنا آية فيما اقتصص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بية أعجب : أما كان يتل على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بمجود عظمة قبل اجتماعهم بسين

كثيرة ، أم ما كَانَ يَنَادِي به القرآن من الهزيمة لهم ويسلق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ” إِنْ أَلِهَ مِنْ جُلُوسِ حَوْكَمٍ وَبُعِزَ صَرْكَمٍ عَلَى الْأُمَمِ ” وهو على تلك الحال ثم نَحَمَتِ الْأُمُورُ عَلَى مَا قَالَ ، أم عسكران مطافان وحيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في عافية وعَمَلَةٍ حتى أصبحوا ؟ فاحسن الطر في أمرك ، وألْتَبَّتْ في دِيكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ وَأَبْنِ الدَّلَالَاتِ ، عَلَى نَوْءِ عَهْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ، وَأَنْ لَيْسَ يَتَوَلَّى شَيْئًا مِنْ تَلَاءِ بَعْضِهِ ، أَنَّهُ قَالَ فِي عُصْوَانِ أَمْرِهِ : ” إِنْ أَلِهَ مِنْ جُلُوسِ حَوْكَمٍ وَبُعِزَ صَرْكَمٍ عَلَى الْأُمَمِ ” وجاء مع ذلك بآثَرَةٍ عَنْ رَبِّهِ ، فِي كِتَابٍ مَحْطُوطٍ وَتَنْزِيلٍ مَحْفُوظٍ . فَأَيُّ أَمْرٍ بِهِ لَكَ أَدَلُّ ، أَوْ أَيُّهُمَا عِنْدَكَ أَغْبَى ، إِذْ كُنْتَ بِنُؤْتِهِ مُصَدِّقًا ، وَلِرِسَالَتِهِ مُحَقِّقًا : انْظُرْ الَّذِي أَجْبَرَهُ ، أَمْ الْعَمَلُ الَّذِي صَدَّقَهُ ؟ لَمْ تَطْرُقْ بِعَقْلِكَ وَقُلْتَ فِي بَعْضِكَ : كَيْفَ تَرَقَّتْ إِلَى هَذَا نَتَهٍ وَأَرْتَمَعْتَ بِعَوَى هِمَّتِهِ ، أَمْ كَيْفَ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ طَلَبَتُهُ وَقَوِيَّتْ عَلَيْهِ رَوِيَّتُهُ ؟ بَلْ كَيْفَ دَعَتْهُ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ ، وَخَفَعَتْ عَلَيْهِ قَلْبَهُ ، وَدَحَلَتْ فِيهِ طَلَمَعَهُ ، وَطَاوَعَتْ فِيهِ لِسَانَهُ ، وَهُوَ يَذْكُرُ حُدُودَ كَسْرِي ، وَجُمُوعَ الرُّومِ ، وَمُلُوكَ الْبَرْكِ ، وَمُلُوكَ الشَّرْكِ ، وَقَبُولَ الْيَمَنِ ، وَصَادِيذَ الْأُمَمِ ؟ إِنْ هَذَا لَتَحَبُّ ، وَلَا سِيَّامَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إِرْثِ مُلْكٍ قَاهِرٍ ، وَلَا كَيْفَ عَنْ غَالِبٍ ، وَلَا مُعِيدٍ عِلْمٍ سَائِفٍ .

وَلَمَّا أَعَدَّتِ الطَّرَ وَكَرَّرَتْ ، فَقُلْتَ : كَيْفَ وَافَقَ حَبْرُهُ أَثَرَهُ ، وَكَيْفَ صَدَّقَ صَلَوةُ قَوْلَهُ ، حَتَّى غَلَبَ الشَّرْقُ وَالْفَرَقُ ! إِنْ هَذَا لِعَجَبٌ ! وَأَعْبَى مِنْ هَذَا أَمْرٌ بِذَلِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ، وَيَهْدِيكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَيْهِ : لَوْ قُلْتَ لِأَهْلِ مَمْلَكَتِكَ وَمَنْ قَلْبِكَ مِنْ أَمْتِكَ : هَلْ لَكُمْ أَوْ تَغْزِرُ قَلْبَكُمْ ، أَنَّهُ كَانَ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، وَالْعَصْرِ الْخَالِي ، أَحَدٌ مِثْلَ عَهْدِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِدَايَةِ الْأُمُورِ بِهِ مِثْلَ حَالِهِ مِنَ الْوَحْدَةِ وَالضَّعْفِ وَالذَّلَّةِ وَالْقَلَّةِ ، وَصَدَرَتْ الْحُلُومُ بِهِ كَعَمَالِهِ فِي الْغَلَّةِ وَالْمَسْمَةِ ، وَالْقَهْرِ وَالظُّهْرِ ، وَعَبَرْدَلِكُمْ ؟ لَقَالُوا لَا .

(١) فِي الْأَصْلِ « أَمَا كَانَ » . (٢) تَحُوسُ أَحَدُهُمَا نَشَاءً وَتَبِيهًا . وَفِي الْأَصْلِ « تَحُوشُ ... » فَالْثَنَاءُ الْمَحْمُودَةُ وَهِيَ تَحْرِيفٌ . (٣) فِي الْأَصْلِ : « فَأَيُّ أَمْرٍ بِهِ لَكَ » .

ثم أنت لا تؤمن ببقائه، ولا تحتر برسالته، إلفاً لذبك، وضاً بملكك، وطعماً في قليل من الدنيا قد نساء الله اليك، ورغبة في ضاية عيش غير نافية في يدك، فهذا عجب . وأعجب من هذا أمر يقفك أمير المؤمنين على بورهقه، ويومع لك إن شاء الله بيان أمره : أصبحت العرب طراً والأمم جميعاً في مجد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابع لهم ولا تحرج للحق من بينهم : رجل مصدق به من المؤمنين، ورجل مكذب به من الكافرين، ورجل شاك فيه من المنافقين .

فاما الشاك فلما قيل له : أنحرت نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأفورت عليها بالخطأ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب، ولست على واحد منهما، اعترل عنها .

وأما المكذب فلما قيل له : أنت مبكر والمكر ليس بمدح، ومن لم يدع لم يلزمه بينة ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك، لو سئل هذا المدعى عن بيئته وكشيف محنته، فقبل له : من أين عرفت ذلك، وأبقت هكك إيقاناً لا بحالجه شك، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا يبازعها شبهة، أن مجدا صلى الله عليه وسلم ليس برسول، لما درى ما يقول، لأنه لا يستطيع أن يقول على الرسل، ولا أن يتكذب على الكتب، فيقول : قد أبحر الله فيما أنه لا يمت نبياً، ولا يُنزل وحياً في كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيل والربور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخاير كتبتهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتاباً حديداً أو كلاماً حديداً، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم يُنزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدق بحمد صلى الله عليه وسلم فقبل له . أما أنت فقد أدعيت، والمدعى يُسأل عن الحجة ويُقفل منه البينة، فما بينتك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيدينا، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فآية بيته أحق وأعدل، وأي شهود أركى وأفصل من شهادتك بسقوط صاحبي وشبوت

الحق من مدهما في يَدَيَّ* قالوا : إن الأمرَ لَكَا نقول ، ولكنَّ البينةَ أشقى للصُدور ، فأقام بيّنةً من الكتاب ، وشهودًا من الوحى ، وآياتٍ سوى ذلك عظامًا ، وبيّاتٍ عوامًا ، من كلام لا يُقدّر عليه الخلق ، وصِدْقٍ لا يكون إلّا من قِبَلِ الرب ، شبيهًا بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتبَ به في صدر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهدُ له قلوبُ الأمم ، ويُزَكِّيهِ مجالُ العرب .

فلما أقام بيّنته ، وثبتت حجّته ، ووجبَ حقّه ، وقضىَ به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاعت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيًا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا يعزل غير القرآن ، فأطلت الكتب المهدّمة ، وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجز للصارى أن تقول : لا نبيَ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتابَ حلف الإنجيل ، وعن ذلك من أواخر الكتب ما قلنا كل متبني^(١) بعد نبيا كذاب ، فشاعت وحازت المحنة ، ووصح الصدر . وأما الصارى فيحدون في أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل ، يبعث نبيًا حديثًا ، ويترّل كتابًا حديدًا ، فليس لهم أن يكذبوا نبيا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابًا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط ، وأما المنكر فطل ، وأما المصدّق فثبت شوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لجة ، ولا معلق لمازعة . وذلك أن المكر لو حوت حقه ، والشاك في ثبوت صدقه ، لا يجد بدا من أن يُنفي الصدق عن الخلق ، ويحل الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين برّهم ، الشاكين في مشهم ، فأحس النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه ، إن شاء الله .

ومن آيينِ آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أحبرت النصارى واليهودُ أنهم لم يجدوا عهدًا — صلى الله عليه وسلم — في التوراة والإنجيل موصوفًا مكتوبًا ، تجمّعت العلماءُ منهم ، وتدارست الكتبُ فيما بينهم ، فلما نظروا

(١) في هذه الحقة عروس لم يوفق الى كشف سمه وان كان المراد منها واحدا .

الى اسمه وعائنه بنّته ، وكأوا يعرفونه كما يعرفون آبائهم . ويستفتحون بذكره على من
سوامهم ، [كفرت] طائفة حسّدا من عد أنفسهم ، وجمّدا من عد ما تبن لها ، وأمنت
طائفة ، تصدّقا بكلمها ، وخوقا من ربّها .

فلعمراً لله لو [لا] أن الدين أسوأ بحقه وصنّفوا مأمره ، رأوا صفته عياناً ، وقبّلوا بعته
إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا حادّوا إخوانهم ، حتى وقفهم على اسمه ونسبه ، وصفته
وعلامته ، وهم علماء في إسرائيل ، وحملّة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتجّ الله
عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل . (قُلْ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ بِلَهُمْ عَلَمٌ
يَبَيِّنُ إِسْرَائِيلَ) . ولعمراً لله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وحملها
على العرب من بيانه ، فقال لهم : (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ
إِذَا بَيَّنَّا عَلَيْهِمْ يَحْمِرُونَ لِلْآدَقَابِ مُخَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنا إِنْ كُنَّا وَعَدَّ رَبُّنا لَمَعْمُولاً) .
يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتجّ
الذي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتجّ
في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن يقول للصّاري واليهود ، فيما ذكر الله من صدق
الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ،
وبور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويتقول عليهم الباطل ،
مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إيمان أحياء العرب . أمّا كان يعلم أنه
إذا قال لهم : إنه موجود في متّاي كنهم ، وسُمّي على أفواه وسلهم ، فلم يحدوا حرمه يقينا ،
ولا وصفه مستبيا ، أنهم سيُذبّرون عنه إدباراً ، تردّد به العرب فخارا ، إلا أن يقولوا
خطأ من علمه ، وهواه من حرمه ، فكيف لم يحط إذا في كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها
شيئا سواه ، سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بهم ، فأتهم إن
تكر ما يقولون لكم ، مما ليس لدى لب أن يادّن له أن يؤمن به ، ولا أنب يبدي اليه

(١١) سمعه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلقه ، لطفن النوة منهم ، ووقعت الأخبار المتتلة عليهم ، على صفائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، فهي مكروة في مثاني كتبهم ، ويطون سمعهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النأ العظيم ، والأمر الكبير ، والد ر الحكيم ، الذي ملك آفاق الأرضين ، وأستفاض على جميع العالمين ، لم يذكره محير يأمرون به ، ولا بشر يشنون عه ، كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهدا وصف تبارك وتعالى نفسه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رحمت الى قلبك ، لتقولن في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس ، وأمتد أمتداد النهار فلح مشارق الأرض ومفاريها ، وسهول الآفاق وحرونها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتبات الرسل عليه ، ودعت الدُّر اليه ، تربيا له وترعيا فيه ، وأمرها به . ولو كان صلالة وجهالة وعماية ، لتقدموا في التحدير منه ، والترهيد فيه ، والتثييط عه ، فيدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فأيُّ الله لئن طلعت لتحدن ، ولئن أحتدت لتتوقن . وما الصواب بمسوع ، ولا الخير بطور . ولقد كانت العلماء بالكتب والنصراء بالتأويل تحده ، ولكنها كانت تكتمه تحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم ونفياً صد ما تبين لهم . ثم لقد أقتديتم بهم وحرمت معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الإقتداء بالأداء والامتثال للآثار . فأتى الله في نفسك ، وأتسم الرجال على دينك ، ولا تحمل النظر الى ميرك من دوى الشك في القلوب ، والعصع في . والثهم في التعطيل ، الذين لهم يمرض لأرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرع لكم من حجج الوحي شيء ريد

(١) حكاه في الأصل . (٢) في الأصل «أد يطرأ ...» . باء الغيبة . (٣) كذا في الأصل . وظاهر أن كلمة «د» سقطت من النسخ سبوا .

في المصاحف عند النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ،
وذلك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من لبدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ،
ليس يدعهم الى ما شهدوا ديناً ، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه ديناً ، لا يستقيم له أن يؤمن^(١)
بما لم تدركه حوارجه وتحيط به حواسه ، لإسقاطه حجة الإجماع وإطالة شهادة العوام .
وأنفاق المختلس دلالة واضحة . فهو سائلكم عن الحق في الإنجيل واليه على التوراة ، شكاً
في الرب وتكدياً بالرب ، فما كنت قائلة له أو تحية به في كتابكم ، فاحنه مثله في كتابنا وإن
كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تستدل حالاهما ،
ويتفق أمرهما ، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشاهد المسيح به
أصحابه باللسان ، إنما كان معاً أثبت من عنده ، ولم يكن الفعال موصوعاً عنه^(٢) . وليس
يكتب أمير المؤمنين بهذا اليك شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مربية نه .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظه ، وأن تحفه محرونة ، لا يزداد
مها على تقادم عهد ، ولا ينقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من
عند عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن أجمع اليه من الحواريين : " بالوحى أكلهمكم ،
والأمثال أصرت لكم " . فأمثاله المصروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما نال الشك
يُنقى عن كتابكم ، بحجة الاحتجاج عليه عندكم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ،
وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قرأنا من عهده ومعابه وحيه^(٣)
واحتجاج على حمظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي
تعرفون وموها بطبقات الرجال الذين يهتمون^(٤) .

إن قالوا : أما طبقات الرجال الثامنين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك
ما لا يسوع الأفاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لا يشار القرآن وامتداد الزمان ،

(١) في الأصل : « لا يستقيم له أن يؤمن له ما » . زيادة " له " . وهي قلقة في موضعها طلبها
ريدت من الناح . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم ، ولحظة لسانه منهم ، ولكن الدين الذي نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف وقوع تهمة أو دخول شبهة ، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم ، حتى حملوه في صدورهم ، وحيطوه في قلوبهم ، وكرروا آذانهم مسموعا ، وأمره على أبصارهم مكتوما ، وحرى على ألسنتهم متلوا ، وجمعه كثير منهم محووظا ، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدوه الياء ، وأوهوا به عددا ، من مواضع متعاقبة ، وأصناف وأحناص متباينة ، على كلمة واحدة ! .

إن قالوا : اتعمقت الرجال على الريادة فيه وأمكنت الحلال من الجهل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الريادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على محالمة الجمع من المؤمنين ، بعد ما حَفِظَتْهُ قلوبهم ، ووعته أسماعهم ، ثم تُكْتَمُ القدرة لهم وتُسْتَرِ الريادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق ، ولا يطيقه مُشْرِك ولا فاسق . وأيم الله أن لو قَدَرَتِ اليهود على الريادة في الإنجيل ، لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الريادة في كتابه قادرين ، لبدلوا ديننا وغيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُقَرَّنِينَ وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذي كُتِبَ به أمير المؤمنين اليكم ، وأورده من حجج الله عليكم ، أولى ما تلقون ، ورأس ما تقرنون . فلا تُظْفِقِ إلى ما قاله [المصل] سمعك ، ولا تُبْصِرِ الدهرَ اليه دهمك ، فإنه أحمد الشك في كتابنا ذريعة إلى الإحلال بكتابك ، وسُلْماً إلى الشك في دينك وعلّة في الطعن على مِلَّتِكَ ، ولكن قل يا وليّ الشيطان : أتى وقع لك إيمان بآلِكَ من ولد فلان ؟ أقول : شهدت الحيرة ، واجتمعت العشيرة ، وآتق المختطفون ، فذهب الشك ، وزال الريب ، ووقع الإيقان ، من غير البيان . صدقت . فما بال الشك فيما اجتمعت العاطية على القول به ، وآتقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل ! وإن ذهب هذا عن أمره ، وباعده

عن شبهه ، فتؤمن أنه من طغمة خلق ، ومن رَجِمَ تَجَرَجَ ، فإن مجدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، قل : أرايت لو كنت سمياً أعمى ، أكنت تؤمن بشئ مما في الدنيا : من سماه أو هواء ، أو بحر أو سم ، أو أرض أو حل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه البياض ولم يقله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، قل : فهل لك إلا بالاجتماع الكمر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فأتى الله إدا كنت إماماً وقائماً لأهل ملكك ، لا تعدمهم إلى السار فاحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيات الوحي ، وأدلى علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع عن الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور من مدي ربه . والله أظهر بما أمر من الكتاب أموراً كان يحبسها صلى الله عليه وسلم مستوره ، فقال تأدياً له ، وإحاراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَنُحْيِي فِي هَيْكِكَ مَا اللَّهُ مُنْذِرٌ وَيَخْفَى السَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْفَ حَامِهِ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزْكِي أَوْ يَدْرُكُ فَتُنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا بَرُّكَ وَأَمَّا مَنْ حَاكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ شَبَّانَكَ لَقَدْ يَكُدَّتْ رُكْنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذَا لَذُفْقَاكَ فِيصَافٍ الْحَيَاءِ وَصِصَفَ السَّمَاتِ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا بِصِيراً ﴾ . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها ، وأبست النعوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ حَتَّى الَذِي حَاكَ مِنْ إِلِيمٍ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا بَصِيرٍ ﴾ . وكانت القصة التي صرفه الله إليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كيرة إلا على الدين هدى الله من المؤمنين ، فإسهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان واختلفت الجاهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها . وكيف تختلف الطاعة من رجلين حتى بأمر الله عن رجل ثم هدم يوحى الله .

(١) كذا في الأصل (٢) في الأصل - "لم آمن من بعده إذ يقول" وظاهر أن كلمة "إذ يقول" غير مبدية ها . طهلا ويدت سهوا من النسخ . (٣) في الأصل "كثيرة..." .

فإن قلت : إن الله حوله عن أفضل القلتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل
اليتين والخير السر : قبله سأل الله عليها الكافرين ولم يمنحها من الظالمين ، وقبله منعها عنود
من صده ، وعصمها بغير ما حوّل من حلقه ولا حريمه يذبحها أحد من فيها ، فأرسل طيراً
أما بيل ترمى الأعداء محاربه من بجيل ، يجعلهم كعصف ما كول . فإن نقل : هذا خبر
سكروه ، وقول لا يعرفه ، فبأى حديث بعد هذا يؤمن ، وتشهد الله عز وجل أنه من قبله ،
وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة الصيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم حبرهم بما عاينوه وأدركوا حلاله ، نقل :
إله أراد أن يرقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقدموه بالحق ،
ويصمونه بالحنون ، ويظنون به الظنون . كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليحاهد أقواماً بخلاف
ما رأت أنصارهم وشاهدت آثامهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذب ما عاينوا . فلا
تكون في هذا من المتزين ، ولا مأمّر العدل من المكذبين .

فلعمرك الله لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تُعِدُّ أنت وقومك إليه
لما قام معه رحلان ولا أختلف فيه سيمان . وإن فيما صَحَّ الله عز وجل بالصيل
وأتباعه ، دلالة على مصلحة الله وأنيابته . فأنق الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي
صلى الله عليه وسلم وكشَفَ الأعطية لك عن الثور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواء
بك ، وعَلَّتْ الأساقفة عليك ، وحصركَ الرؤساء الذين يمحلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة
عندهم ، ولا سلطانٍ أناهم فقل : أبؤى عما آخمت على التصارية ودهست إليه بهم
المعاني من تشقيق الكلام وتعريف الكتب : أحرف تتعسهنها ، أم لغة تعرفونها ؟
فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذا قوم يلصون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون
بلغة معروفة ومعاني معلومة ، فقل : أحبروني عن قولكم : أب وأن ، أما ما تستعرف
المقول من المنطق ويقع في الصلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذي

تذهب أوهام العباد إليه، ولا والذي تجمع الحقائق في الآء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل: "بكرى" لا يعني ولادة الرحم، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: "أنتم إحقى" لا يعني أحوة الدم. فذلك قولٌ لا يحدون معه بدءاً من أن يسبوا عيسى عليه السلام عدواً. وإن قالوا: بل هو ما تجرى به ألس العباد، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأئوه المعلومه، فليحبروا متى كان الأب والدا، والأبْنُ مولودا: أفضل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قلها، رجعوا عن القول الأول بثبت الأئوه. إلا أن ذلك ليس بالشيء الذي تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأمام.

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وظلت الأئوه الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والابن آسمان عُلِّقا على غير معنى، وتَسَانُ أُصِيبَا إلى غير حق، فيقرّون أن عيسى عليه السلام حُلِقَ مثلهم، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم.

وإن قالوا: إنما كان الأب مولودا والأب والدا بعد الولادة، فقد أقروا بأن الابن حَدَثَ مخلوق وعبد مروب، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِدَ، ولم يُولد حتى حُلِقَ. وقيل لمن يقول الزور العظيم، ويقْدِفُ بالإمك المين: أليس الأبُ أمّا على حياله ولم يزل، والابن أبّا نُحِلَ، وروح القدس كذلك؟ فإن قالوا: سم، فقد أقروا بأنهم ثلاثة متباينة، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متعاقبة، وتركوا قولهم. إهم ثلاثة أصلهم واحد.

وإن قالوا: الأب والابن وروح القدس واحد، ولكن معصه أب وبمعصه ابن ومعصه روح القدس، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم، وقالوا في التبعض بما هو كفرٌ قبلهم. وإن قالوا: ليس مُعَصّاً، ولا جِزّاً، ولا محدوداً، ولا ثلاثة متباينين، فإذا هم قوم يلعبون: الأبُ ابنٌ، والابن أبٌ، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل. وهذا من أين الخيال وأخلف المقال. وليس من المنطق مالا يوحد في لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمة من الأمم. وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبي لسان قومه لين لم، فيُضِلَّ الله العالمين . ولولا ذلك لَمَّا قِيمَت الأممُ بمذاهبِ أقاويل الرسل ولا معاني أحاديث الكتب . فلا تُطِيع الذين يلعنون بأنفسهم، ويتكلمون بمسير لفتهم، ويقولون . الثلاثةُ واحدٌ، والواحد ثلاثة؛ وهذا محالٌ في تجارى المقال، ومعاني العمال .

لعمرك لئن أُنْهِيَتْ عقولُ الأساقفة على دينك، وأهتَمَّتْ بالظرفى توحيدك، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثة وأن الثلاثة لا تكون واحداً، إلا على وجه ماله شأن يقول به، ولا منه مخرجٌ تستريح إليه . فإني محوهُ سَمْعَكَ، وَأَصْبَتْ اليه فهمك؛ فإن أمير المؤمنين وأصمُّه لك، وليس واقعاً إلا على المخلوقين، ولا لارماً غير المحدودين، ولا داخلاً على رب العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصله واحد وأجزاؤه كثيرة، من نحو الانسان، وهو أصل يجمع اسم، وله أجزاء تلمزها أسماء؛ فليس الجزءُ بالأصل، ولا الأصلُ بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزء، قلت يد الانسان وسمع الانسان . ولولا أنه محدود مخلوق محزاً مبعض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه؛ وكذلك الشمس : الأصل واحد، وهى شمس، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وصوهُ الشمس وشُعاع الشمس ودقيقها وعليلها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فإن قلت : سَمِيَتْ كُلُّ جِزءٍ من الأجزاء على حياله إنساناً، وكلُّ جِزءٍ من الشمس دون أصله شمساً، وسَمِيَتْ كُلُّ الأجزاء على بعض أجزائه، وتركت أن تُسَبَّ الأَصْلُ فاعلاً ببعض الأجزاء، كما تقول : بَسَطَ الانسانُ يديه، ومَتْنَى رجله، ونَظَرَ عينه، ثم صرَبَتْ ذلك الله عز وجل مثلاً وجعلتَ الله له قِاساً، فقلت : الأصلُ واحد، وهو الله عز وجل، والأجزاء كثيرة وهى أب وأبن وروح القدس، وكل جِزءٍ منها إلهٌ على حياله وربُّ دون غيره، لم تَجِدْ بُدْأً أن تُلْحِقَ اليَدَ والعَيْنَ واليَمْسَ بالأب والأبن وروح القدس، فَكثُرَ آهَتُكَ، وتحدَّدَ رَتَكَ، وتترك قولك : إن الله ليس محدوداً ولا مجزأً ولا مبعضاً إلا أن يكون إما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد، وهو الله عز وجل، والأسماءُ أب وأبن وروح القدس .

إن صكّنت تقول هذا وكنت إمّا تعبد أسماء ، إمّا تعبد بدأ من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسم أرحمى ، وبثاني أضمر لى . فاتقوا الله يا أهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس بأب ولا أب ولا أُم ، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يُلحدون فى أسمائه سيجزّون ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفة الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسان بكّال . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالما ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التى تقع أبصاركم عليها وتفسير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء وشمسا وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يُلغى الإحصاء . ولو قصدت الإحاطة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت الحجج الماحضة وانقطعت الأقاويل المتناقضة . وسل من قِلك من أساقف أثنت وتقمّيسة أهل مِلتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عبداً : على أى شئ وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح لله دون غيره ، فقد أقرّوا بأن الهَمَّ يا كل ويشرب ، ويمشى ويركب ، لأهمَّ يمدون ذلك من فعل عيسى مهياً قِلتهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسمُ المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذا دون غيره ، والمسيح إذا مخلوق عندهم ، والإله إنساناً إذا مثلهم ، فلم يمدّون المخلوق ويدعون من خلقه ورآه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً ، هل يمدّون محرّجا ولا بدأ ولا حيصاً ، إذا أوقموا الاسم عليهما ، من أن يُصيغوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح انطاقة قد ماتت قِلتهم ، وذلك لما يمدّون من ذكر موت عيسى عليه السلام فى الكُتب عندهم وفى الإنجيل الذى قِلتهم . وسل من قِلك عن الأب والأبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ، فإن قالوا : الأب أعظم والأبن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الأبن ،

ولا الأبن بأصغر من الأب، فقد قُصَّ حينئذ جوابهم، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم، حيث يقول: «لو كنتم تحبوننى لفرحتم حيثُ أذهب الى اِلمنى وإن اِلمنى أعظم منى» فلم يقل أعظم منى. إلا وهو مقرُّانه أصغرُ منه. وسلّم عن قول المسيح: «أنا أذهب الى اِلمنى وإلّكم»، فقل: مَنْ هذا الإله الذى ذهب عيسى الىه صلى الله عليه وسلم: إلهٌ فى السماء متباين منه مقطوعٌ عنه؟ وهما اذا اثنان متباينان، أم إلهٌ كان به متصلاً وكما جميعاً واحداً؟ فكيف اذاً يجوز له أن يقول اذاً أذهبُ اليه! إلا أن يقولوا: إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا بما لا يحور صلحهم فى صفه الرّت عزّ وجلّ.

وسَلَّ مَنْ قَبْلَكَ. أخرج المسيحُ من طلي أمه مريم بكاله حتى كان الطلي منه فارغاً وكان هو منه بكاله حارحاً. فإن قالوا: نعم. فقد أنكسر قولهم: إن الله بكل مكان. وإن قالوا: لم يخرج المسيح ولم يحمل الطن، فقد كذبوا اذاً فى قولهم: إنه قد نزع، وأقروا أنه قد وُلِدَ. تعالى الله عما يصنعون، ونره عما يُشركون. وسلّمهم لم يهبط عيسى الى طلي مريم، وتخصد بالطم والدم، وإن قالوا: يمتحن الحطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق، فقل: كيف اذاً لم يرهطه عن نفسه؟ وكيف حلاياه من اليهود صلّه! ولم سَلَطَ على أهل ديبه يتبعون فى كل شُعب ويُقتلون بكل وادٍ!

وقل للذين يقولون: إن الخالق فى كل مكانٍ من السماء والأرض وعبر ذلك: أيهما أعظم: الصيغُ المشتبِلُ، أم المُخاطُ المشتبِلُ عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون. وإن قالوا: إنما ألتحم بعضه دون بعض، فقد حدّثوا وتقصّوا واتقصّوا، وإنّا قالوا لمن يحدّثون بداً من أن يقولوا. إن بعض المسيح الذى جعلوه رهبم، وهو إلهٌ عدّه، مَيّتَ بمصه جيعة، وإن مصه حتى طيب، لأنهم زعموا أنه ألتحم بمجد حتى فيه

(١) الوارد فى إنجيل يوحنا (صل ١٤ آية ٢٨ ح ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعه بيروت سنة ١٨٨٢م)

«لو كنتم تحبوننى لكنتم تهرسون باى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم منى».

(٢) الوارد فى إنجيل يوحنا (صل ٢٠ آية ١٧ ح ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس) «بى ماعدل

أنى وأبكم وإلّكم». (٣) كذا بالأصل

رُوح، فلا بدّ أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والعلش وأشياء ذلك، وهو عديم كبر عظيم وإكّ ميب . فأتى عقوبة الله ربك، ولا تميش مُبْجاً على وجهك، ولكن أطلّ وأتمس وأتمت، فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل :
 «مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَحَدَّ وَمَنْ اسْتَمْتَحَ قُتِحَ لَهُ» .

اجتمع العلماء والصّراء [الدين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قبلك، قل : لأى شىء تسمّى المسيح إلهاً وحملته رماً؟ ومحمد الله سمّاه فى الكتاب أباً، وقد تجدونه قال :
 «إنى أذهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم أيضاً» . وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهاً وهو الرُبوبية . أم كيف ينظرون إلى كلامه : «أذهب إلى أبى وأبيكم» . فتُردوها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره !

فاتق الله وكفى من التائبين بالحق، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد صرّب لك أمثالا حمة، وصرف اليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات التى صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلاً من كثير، واضحاً من تفسير، لا تمنع القول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيد كرك أمير المؤمنين من علامات التى صلى الله عليه وسلم فى التوراه والإنجيل، ما يكتفى به، إن شاء الله، وباليسر منه، لأن كتب الله عز وجل معطوبة، ومُحجّبه محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدت فيها كلمةً بذلك على حق وتهديك إلى رشد، فليست واحداً أخرى تصنّفك معه وتشكّكك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكن صلت اليهود والنصارى بتعريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العِصمة والتوفيق .

(١) الواردة فى إنجيل متى (مصل ٥ آية ٤٢ ح ٣ من الكتاب المقدس) - «من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقرص منك فلاتمسه» . والوارد فى إنجيل لوقا (مصل ١١ آية ١٠ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له»

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم ، إذ قال للحواريين : ^(١) «أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يُقال له ، وهو يشهد عليّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شيء أعد الله لكم يحرككم به » . وترجمة البارقليط : أحمد . هذا ما لا شك ولا مريبة فيه ، وهو الذي يُجبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الحواريين في القرآن ، ولستم تحدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا ^(٢) النبى عليه السلام : «قيل لى : اقم بطارا ما ترى بحبرى ^(٣) قال : أرى راكبين سيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت مابل وأصامها المحوثة ^(٤) » . ولسا يعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا . ومن ذلك قول داود عليه السلام : ^(٥) «اللهم ابعث جاعل السَّنة كى يعلم الناس أنهم بشر» يقول : كى يتبين الناس أب عيسى عليه السلام إنسان . ولسا يعلم نبيا وضع سنة تُنسب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصب سَنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبَقُوق ^(٦) النبي في زمان دانيال : ^(٧) «حاه الله من السماء والقديس من حبال فاران ، وأمتلأت السماء من تجميد أحد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، ومَلَك رقات الأُمم » . وقال أيضا : ^(٨) «نصى لوره الأرض ، وتحمّل خيله في البحر» . فالى من

(١) راجع إنجيل يوحنا (صل ١٤ آية ٢٦ وصل ١٥ آية ٢٦ وصل ١٦ آية ١٣ ح ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدس) .

(٢) راجع سورة أشعيا (صل ٢١ آية ٩ ح ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كما بالأصل ، ولم يوفق الى تصحيحه . (٤) في الأصل : «الحرّة» وقد استأصا في اثبات ما أثناه الكتاب المقدس

(٥) راجع سفر الزامير (صل ٩ آية ٢١ ح ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع سورة حبقوق (صل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) في الأصل «من السماء» .

(٨) راجع نبوة حبقوق (صل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

يقول هذا القول، وإلى أين يذهب هذا المعنى؟ لئن نُعِتَ به إلى غير الذي [يحمل] حبله في البحر، وبدأ من حال فاران أمره، رعلت على الأرض ومسحها، ومَلَك رقات الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزُّنُور: ^(٣) "صَدَّقُوا وَسَّحُوا الرُّبَّ نَسِيحًا حَدِيثًا سَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ . لِيَفْرَحَ إِسْرَائِيلُ بِمُحَاقِقِهِ وَيَتَوَّصَّيُونَ مِنْ أَهْلِ أَنْ اللَّهُ اصْطَلَى لَهُ أُمَّتَهُ ، وَأَعْطَاهُ الْبَصَرَ وَتَدَدَ الصَّالِحِينَ الْكَرَامَةِ ، نَسَّحُوهُ عَلَى مَصَاحِمِهِمْ ، وَيَكْتُمُونَ اللَّهَ مَصُوبٍ عَلَيْهِ ، بِأَيْدِيهِمْ سِيُوفُ دَاتُ شَعْرَتَيْهِ ، لِيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ لَا يَعْدُونَهُ . ثُمَّ يَقْبِذُ مَلُوكَهُمْ بِالْقِيُودِ وَأَسْرَافَهُمْ بِالْأَعْلَالِ" . فَأَيْتِمَا أُمَّةٌ يَكْبُرُونَ اللَّهَ مَصُوبَاتٍ وَأَذَانُ الصَّلَوَاتِ الدَّائِمَةِ وَعَلَى كُلِّ شَرَفٍ وَعَدَّ كُلَّ حَرْبٍ ، وَأَيْتِمَا أُمَّةٌ كَانَتْ سِيُوفُهَا دَاتُ شَعْرَتَيْهِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !

ومن ذلك قول أشعيا: ^(٤) "سَّحُوا الرُّبَّ نَسِيحًا حَدِيثًا ، وَيَسْتَحِهِ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ مَرِحٌ يَكُونُ فِي عِيَارٍ" . وبو يار قريش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن . وأَيْتِمَا أُمَّةٌ تَسْبِحُ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . عَدَى أَكْدَى .

ومن ذلك قول أشعيا: ^(٥) "عَدَى الَّذِي وَحَدَّ بِهِ حَيِّ الَّذِي بَشَّرَتْ بِهِ نَفْسِي أَهْيَصَ عَلَيْهِ رُوحِي ، يُوصِي الْأُمَمَ بِالْوَصَايَا ، لَا يَصْحَكَ وَلَا يُسْمَعُ صَوْتُهُ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَيَهْتَجُ الْعِيُونَ الْبُورُ ، وَيُسْمِعُ الْآدَانَ الشَّمَّ ، وَيُنْجِي الْقُلُوبَ الْمُلْفَ ، وَمَا أَعْطِيَهُ لَا أُعْطِي عِيَرَهُ ، أَحْمَدُ يَجْمَدُ اللَّهَ حَدِيثًا ، تَهْلِيلُهُ يَأْتِي مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ ، يَحُوزُ الْمَاءَ شَدَهُ أَمْوَاحِهِ ، وَيَفْرَحُ وَكُورَهَا ، سَكَتُهَا يَجْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ ، وَيَكْبُرُونَهُ عَلَى كُلِّ رَابِيَةٍ" .

(١) زيادة يذللها ما قبلها . (٢) في الأصل "ومسحها" . (٣) راجع سفر المزمور (ص ١٤٩ آية ١ - ٩ ح ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس) . (٤) في الأصل "هلكة الصالحين.." . (٥) راجع سورة أشعيا (مصل ٤٢ آية ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كذا في الأصل، وله خرف من "مرح" . والمخرج . الحماة من الناس . (٧) كذا بالأصل، ولم يدرهانيين التكنين ولا له كرماسي . (٨) راجع سورة أشعيا (مصل ٤٢ آية ١ - ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٩) كذا بالأصل .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين^(٢) ، يقول الله عز وجل لمحمد في الرؤيا : " انصبت رحتي على شفتيك من أجل ذلك ما سكنتك الدهر^(٣) ، تقلد السيف على الأرم ، أيها الجار على الأرم ما قتل والأسر والبقاء هناك وحمدك أحمد ملك اليرمك كلمة الحق ودلت لك الأشياء سيفك بحصنه يمينك وسالك مسمومة وسقط عد الأرم " . فأى نى كان على الأرم حارا ولم ياد الله قتالا إلا سينا صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك في آخر التوراة^(٤) . " جاء الله تارك وتعالى من سبها وأشرف من ساعير واستعان واستعلن من جبال قاران ، وجاء من يمينه روات القديسين " . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام في جبل ساعير وهو جبل الشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبل قاران وهي بلاد مكة . وأنتم تمدون ذلك في كتبكم مكررا وتعمونه حيا بلتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام «أقيم لهم من إخوانهم مثلك أجمل^(٥) تلاهى على فهمه ولا يتكلم إلا بما أمره به» . فمن إخوة بنى إسرائيل إلا بنو إسماعيل ! أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعنى أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نيا منكم !

فإن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهب أمير المؤمنين قيل هذا الخلف منكم ووسع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة . "مثل موسى في بنى إسرائيل لا يقوم" فهل يمدون من هذا محررا ، ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ .

(١) راجع سفر المزامير (صل ٤٤ « وفي عصر السح ٤٥ » آية ٣ — ٨ ح ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس) . (٢) في الأصل « في حمة وأربعين مرورا » . (٣) في الأصل « من أجل ذلك ما ركل الدهر » . وأستأ في تصحيحها بالكتاب المقدس الذي وردت فيه الحلة هكذا : « وقد استكت الصمة على شفتيك فذلك ما ركل الله إلى الأبد » . أما الباقي فلم يوفق إلى تصحيحه فأشبهه كما وردت بالأصل .

(٤) راجع سفر تثية الاشتراع (صل ٣٣ آية ٢ ح ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .

(٥) راجع سفر تثية الاشتراع (صل ١٨ آية ١٥ ح ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أَحْمِلْ كَلَامِي عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ، أَمْ تَرَىٰ أَنَّكَ لَا يَفْقَهُ " .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّهٖ أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ : « يَا أَمَانَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقْدُسُ أَسْمَاكَ » . كيف صار عيسى دونهم أباً ، وصار له دونهم أُمٌّ ، وهم يقولون : أَمَانَا ! أم كيف لم يُحْمَلْ سَلْبَانُ بْنُ دَاوُدَ لَهَا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ : " يُؤَدِّعُ لَكَ عَلَامٌ مِّمَّنِّي لِي وَأُسَمِّيَ لَهُ " ! ولم لا يحملون إِسْرَائِيلَ لَهَا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : " أَتَ يَكْزِي " ! ولم لا يُسَمُّونَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَالْحَوَارِيَّينَ حَاصِبَةً [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أنتم حوتى ، وقد قال في الإنجيل : " أَعْطِ كُلَّ مَنْ آمَنَ فِي سُلْطَانًا يُدْعَىٰ لَهُ " . وإن كان هؤلاء لهم للمسيح إخوانه أفلا تحملوهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول مواضع حمة وأما كي كثيرة إنه ابن الإنسان ! فكيف يكون ابن الإنسان ابن الله ؟ ومتى إن ذلك ؟ اتى قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإنسان ، لقد حصلوا مع الله إسماعاً قديماً حصلوا الله إسماعاً حديثاً ، وحصلوا المسيح ابن الله لم يزل ، وابن الإنسان فيما حدث . وهذه وَرْدٌ مُسَاقَصَةٌ ، وَجَمِيعٌ دَاحِصَةٌ ، وَأَقْوَابِلٌ فَاحِشَةٌ .

إن قالوا : إنما عبد المسيح لأنه رُجِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فليمدوا الملائكة فإنهم في السماء قبله ، إدريس فقد رفعه الله وعبره . وإن كانوا يمدنون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ مِنْ دَكْرٍ ، قَادِمٌ حَوَاءَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، ولم يَقَعْ مِنْ عَمِّ الرَّحْمِ وَصِيقِ الْعَطَنِ وَحَالِ الصَّنَا [وقم] فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما عبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حرقيل أكثر ، وما كان من سَعِ تَلِيدِ إِبْلِيسَ أَعْبَى ، لأنه أحيا الموتى بعد مئتين من السنين . وإن طلبتم ذلك سِرَّ الْمُلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْبَيْعِ أَصْبَحْتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) راجع إنجيل متى (ص ٦ آية ٩ ح ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) في الأصل : «وصار له أُمٌّ» . (٣) لم يجد دواي الإنجيل . (٤) حرقيل من مئة الله تعالى إلى امرأته ، والذي أحيا الله . القوم الذين حرقوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، بأحجام الله تعالى بعد موتهم بموته . وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين حرقوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسماء التي أرا^١ والمعالي التي أرى ،
 معجائب موسى أعجب وآياته أعظم . أس ما ذكرت لك من [معجائب] عيسى من عجائب
 موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوك الجيش معه ! أم أبى ذلك من حجر يصهره فيفتخر
 بعيون الماء ، ويعمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس
 يُوَسَّعُ^(١) الشمس ثلاث ساعات ! وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره
 وقصائده . فأتى الله وكنى من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم
 يَقُلْ ، فإنكم لا تحمدونه قال لكم في شيء من كنتم : اعدوني فإني ركن . تعالى الله عما يقول
 الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن يصح لك ، في أول داريك بك وأهم شأنيك لك ،
 فعداك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتخرج من النار . فإن قلت
 حَقَّقْتُ أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للسالمين ، عليك ما عليهم . وإن رددت
 صريحة أمير المؤمنين فيما فيه الخطأ و آخرتك ، فإن أمير المؤمنين يصح لك فيما فيه الصلاح
 في عائلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها ساءكم ، ويعملها قواماً
 لمعاشكم ، وصلاًحاً للبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأماناً لجانكم ، وسعةً ليرتكم^(٢) ، وبركةً على
 نفرائكم ، ويحیی لأهل الحاجة والعاقة والمسكنة مكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ،
 واستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا
 روى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك العدية التي كان الله أجرى سمعها لكم على يده ،
 وقص بركتها عليكم من قبله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على
 حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة إلى قصة يوشع بن نون في موسى عليهما السلام واستيقاظ الشمس ، فقد روى أن يوشع قاتل
 الحارثين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للحروب حاف أن تميت قلب فراده ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ،
 فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم . (٢) السرب : الطريدة .

وصنّف من أصابعكم، تلك الفدية، أموراً عظيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة حدودكم ومساكن حركم، كانوا صد وقوع أمرها وأستحكام عقدها، مراعاة لمحاربة أعدائكم ومناصحه من أوأكم، بين أن يستعموهم في بلادهم ويعزلوا عليهم في ديارهم، ولا يرهون تنقّت بشر إن ساروا في أرضهم، ولا يتفقون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في حصن ودعه، وأمن وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال، وهم اليوم يترقون الحيوش من كل شغب ويحتمون الخنوف في كل وقت، لا يبدأ لهم حاش، ولا يسكن لهم قرع، ولا ينام لهم ليل، ولا نام فيهم حال، قد قطعت الموم ديارهم، وأصمرت الماؤف جوبهم، وأستأصلت الحدود أموالهم .

ومها : أن أهل الحراثة وإخوان المارة، في بلادك وأطراف أرضك، كانوا يرسوا إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا معاشهم إلا به، ولا قاء لديهم إلا معه، قد أموا الجيوش ومعزتها، والحدود وادرتها، وأنشروا للمارة، وأشكروا في الزراعة، طارقوا رموس الحال وإلقام العياص، وراحوا في أوساط أوطانهم وطلال تحالهم، يشققون الأنهار، ويعرسون الأشجار، ويهجررون العيون، حتى تمت الأموال، وأحصرت الحلال، وأحصب الجلب، وأصحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، والحراثة تاركين، وضيها مشغلين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورم القلاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد أقتلوا عن مابت البر وكرائم الأرض، وعارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار العياص، وطلون الأودية؛ طيس يلمون من عمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يلمون، ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة، قريباً مما كانوا يالون .

ومنها : أن إخوان التحارات ، وأصحاب الأُمُوال وأهل الطُلُف والحافر ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فيسْقُونَ تحاراتهم ويُغْلَوْنَ نصائعهم ، فتعظم الأرباح وتصفى الأثمان . وكانت الماعة من تحار المساكين وغيرهم من الدميمين ، يتناولونها للبيع لهم ويتناولونها للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المفعة ، حتى نالت الرعاء في حبالها وأمانها ، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فصلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من دوى العبادة والرهادة والتأله والسك واليات ، كتم على طافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامة من أوزار الحصص على قتال الخوف ، قد تحوَّتُم من معصية المسيح في الدنيا التي ساء لهم بها ، والأمور التي أمرهم بها ، من نحو قوله : ” مَنْ لَطَمَ حَقْلَكَ الْإِيمِينَ فَأَمِكْنَهُ مِنَ الْإَيْسَرِ ، وَمَنْ أَتَرَخَ قَبِيصَكَ فَأَعِطَهُ كَسَاءَكَ ، وَمَنْ لَطَمَكَ فَاعْمُرْ لَهُ ، وَمَنْ شَقَّكَ فَأَمِيرُضْ عَه “ .

ومنها : أن من بأقاصي بلادك ونواحي حوزتك ، قد داقوا تلك الأيام من لذة الخفص ، ودعة الخال ، وحلاوة الأُمس ، ورَفَاقَةِ العيش ، وسَعَةِ العافية من سيّء أزواحهم ، وهَيِّض أولادهم ، وحطَمَ معاشهم ، وأسررحالهم ، وعيمة نقرهم وعصمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإحلاه عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأيٌ يبرهه ، ولا طُلٌّ يُلْعَهُ ، ولا طَمَعٌ يُقَارِبُهُ ، ولا أَمَلٌ يذهب إليه . وما قد عرفت الخاصة من نظارتكم ، والعامه من أهل ملككم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشَفَقَتِكُمْ عليهم ، وأَثَرَتِكُمْ إياهم ، وبركة ولايتكم ملكهم ، ومضعة سياستكم أمرهم ، ما قد أزدادوا لكم به حمة ، وفي فائتكم رغبة ، ولا أمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما ناكم بصيحة ، مع ما قد أردتُم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأئمة ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفصل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق البية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل . ” من بلادهم ... “ . (٢) كذا في الأصل . (٣) راجع لمجمل في (ص ٣٩ ح ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وحل رأيكم فيها ، على أنكم طرتم لضعفائكم حتى قُوتوا ، ولنفقائكم حتى استفتنوا ، ولقرائكم حتى بدوا وحيو وهوى المسلمين من أيام الحروب وأورار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأعديين وحيوتكم الأخرين ، حتى كتم من مراغمتكم لهم ، واشتعالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر سحر القتل ، وذل الأسر وعلة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، واستوتقتم منهم بالرهن .

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في العدية ، فاعلموا أن أمثاله وأصغافه مقيم معكم في الحرية ، فلا يكون لك رأيٌ غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين السحب من أمركم ، وأطال تغليب الفكرة في مصمكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كتم فيه إلى خلافه مما أصبحت عليه من آنتظار وقعات الحروب ، وصولات الجود وأكل الخلود ، وتوقع الحلاء والساء والقتل والأسر والحصار ، شيئا آخذتكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيداً استدرككم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجب عذركم وأفظمه كان عند أمير المؤمنين إذ ظنه جرائتكم على الله عز وجل في نقص عهده ، واستحقاقكم بحقه في خسر دمه ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتم تعلمون أن موافق العهد وبدور الأيمان الذي وصحه الله عز وجل حرماً بين ظهراني خلقه ، وأماناً أفاضه في عادته ، لتسكن إليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليعاملوا به فيما بينهم ، ويقبضوا به من دنياهم وديهم ، فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حتى الله عز وجل ، لهاوا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأزل عليهم عذاباً من السماء . وقد رحا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نعمته مكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان أعقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالإيمان المخلفة ، واليهود الموكدة ، التي قد اعتقدوا في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها طارقتكم وأسافقتكم . فلا الله أنقيتم ، ولا من الناس استحيتم ، نجاً للعهد ، وبغضاً للمسلمين ،

وَحَرًّا بِالْأَمَاةِ ، وَإِذَا لَعْنِي . فتوقعوا العقوبة ، واستطروا الميـب ، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حَالٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزعج أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله في قلبه : من الإرادة والنية والرغبة في إعطاء الجيوش بلادكم ، واستثناء المقاتلة أرضكم ، والتصرُّع لكم من كل شغل ، والإيثار لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤسوا بالله وأنتم طامعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الحرية عن يـدِ وأنتم صاعرون . فكفوا على عنة من الجزية ، ويقين من الاتجاع الذي لاطاقة لكم إِنْ شَاءَ اللهُ به ، ولا صبر لكم بإذن الله عليه ، فان جود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، ونرائنه عامرة وافره ، ونفسه بحجة بالإفاق ، ويده مطلقة بالعدل ، والمسلمون يَسْطِطُ اليكم ، مقلوبون عليكم ، قد عودهم الله في لقاءكم عاده يرجون آنتظار مثلها ، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثلها ، إِنْ شَاءَ اللهُ .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي حوده ، ومُقدِّمه إِنْ شَاءَ اللهُ من حيوشه ، إلا أن يؤدُّوا الجزية عن التي دهاك أمير المؤمنين إليها ، وحداك ومن قَلَّك عليها ، رحمة للصمغاء الذين لا ترحمهم ، وتوجعا للمساكين مما لا تَوَجَّع منه لهم من الحلاء والساء والقتل والأسر والقهر ، وقساوه من قلوبكم ، وأثرة لأفئسكم ، وأعتصاما بمحواصكم ، وإجلاء لمواصكم الصمغاء الفقراء المساكين الذين لا تمحومهم قوة ، ولا تدصمون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدب المسح إياكم ، وقوله في الكتاب لكم : ” طوبى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصمياء الله وورثى آدم “ .

وأيـم الله لو يعلم من قَلَّك من المساكين والراعيـن والفقراء والضمعاء والعَمَلَة بأيديهم ، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحذروا عليه وأقبلوا إليه ، من إيوائهم ، وإراهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تباغفه أنت ولا تقاربه ، رفقاهم ونظروا لهم وإحسانا إليهم ، مع تحليته إياهم وأديانهم ، لا يُكرههم على خلاها ولا يحرمهم على

غيرها ، لأختاروا قرب أمير المؤمنين على قرنتك ، وجواره على جوارك ، ولأقدوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواحهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فأتى الله وأقبل ما عُرِض عليك من الخزية ، ولا يمنعك ما فيه الحفظ لك ولأهل مملكك . وعسى على رضاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكف والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية إليهم حية ولا قتيصة ولا عار ، والدين يحسون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بحاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإسقاط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، بطراً لبيه وحوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأئمة ، والصالحين في السر والعلانية ، وما عوّده الله على نصب له في محادثة ورماء بمكابدة ، وعراه بمجيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المين . فأنزل من الخزية ما شئت ، وسم منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إما كان قول المهدي — رحمه الله — القدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فاما اليوم اد استأنف له عندكم وتقصصكم وتكثفكم واستخفافكم بديكم وجرانكم على ركنكم ، ليس بين أمير المؤمنين وبينكم . إلا الاسلام أو الحرب المجلية ، ان شاء الله . ولا حول وأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكل وبه يتق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع المهدي .

(١) في الأصل . "ولأبتدوا ... " . (٢) كما في الأصل وهو مبرح راجع لملل أهل الحلة "ولا يمنعك اشتغالنا بما ... الخ" صفت هذا أمر محرو سبوا من الناح . (٣) كما في الأصل .

٣ - رسالة يحيى بن زياد في تقرير الرشيد

أما بعد، فإنني أسألك الله لأمر المؤمنين في طائر أموره، أحسن ما عوده في سألها من السلامة التي حرّسه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والبصر الذي مكّن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدركه به الخلف، والاستصلاح الذي آتت له به الرحمة، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مُستقبل به منه، أبعد حلقاته في الخير ذكراً، وأبقاهم في المدل أثراً، وأطوّلهم في العمر مدّة، وأحسنهم في المعاد مسقلاً.

ثم بحمد الله الذي جعل بعثته على أمير المؤمنين شواهد من على منزلته من مكانه عنده، لا يحتاج معها إلى شهادات المؤمنين، ولا صفات المقرّطين، ثم جعل ذكر بعثته على أمير المؤمنين ومناجعتها والمجاهدة من كادها فريضة أوجبها على العباد، وحمّة أمتحتهم بها، وموقفاً يترّ به بينهم، من أصبح من رعيته أكثر شغل له أن يستعمل لسانه في صيغته، ويذكر بحاسه ومصائله، ووجوب حقه وطاعته، فقد أصبح آثراً أولى الأمور وأحسنها معبّة في دياره ودينه، ومن بدّل ذلك عن قدرته عليه، ودفعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن حذلان حاق به، أو بدّعه آسمانه، كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنّته. وقد كان علماء الناس وجّهاتهم يسوون في عام المعرفة معصّل أمير المؤمنين، فأما الخاص فلاهل الفصل فيه فصلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسد تحب الحسد بصره عن مواقع الصواب أن يراه، والعمى أن يشكرها. والحق أن يؤدّبه، وكانت معرفته عليه وآلا، وحسنه إلى الصرّبه قائداً. أو ذو هوى قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الصلابة من الجماعة، فهو عُرضة لسوء الأدب أو سيف النكال، لم يوحش الله أحداً ببقده، ولم يعزّر أحداً بموالاته. وموقّف معصوم استفده [فله]

مؤالاة أمير المؤمنين من على الحسد ويدع الآراء ويجهل على صحة الهوى ، فهو إن نظر فبعينه ينظر، وإن قال بلسانه يقول ، لا يأمس حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوثقاً مهاد الخفض ، ولا يزال له طليعة رأي توى على خطه حرم وعامس فطة ، تنقل الى لطيف مفتحته و [تكون] سهم مكيدة محو عروة ، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن صدّه غده ، فهو وإن تموض لأداء الحق في مصيحته بنظر لنفسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالقرابة التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفت من حقه ، والعظيم الذي حملته من معروبه ، ألا يكون أحد ينظر اليه عين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، فإن أبلغ الذي أردت فتوفيق الله ، وإن أقصر من مثل ما حاولت قصر المجتهد .

فأقول ما أنا ذا كره من فصله : أن الله قدم له الصبح في سابق علمه ، فجعل تحته حير المحاد عصراً ، ثم أختار له أباً فأن لا يقبله من أب الى أب إلا قل معه وإليه فضيلة المصير الذي هو منه حتى صيره بعد فصائل آبائه الى أفصل بذته ، فكان حير حليف من حير سليف ، وأفصل ولد من أفصل أئمة ، وأوصى إمام من أئمة ، ثم أختار له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا علم نحن ولا آماؤنا حليمة أحد في حلمه من ذل ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدته من عفف ، ولا في لينة من وهن ، ولا في أناته من عتلة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بئله من إضاعة ، ولا أرق وجهها عند لقاء ، ولا أحسن بشراً عند تحية ، ولا أعز دمعاً عند موعظة ، ولا ألين قياداً عند تذكير بالله منه .

(٢) ثم أفصت اليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلة ، وفي الناس ما بهم من الإحراج ، فما دفع عن مال يطليه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ، ثم استنزل الخلف برفقه ، فكلما نزل له منه ثوب فوقع طائفة من جسده حتى سقام بعد التفويق ريباً ، وبعد التهل

(١) في الأصل "عمرة" . (٢) الإحراج . الصيق وفي الأصل . "الاستراح" .

(٣) الشجب (بالضم) : مارج من تحت يد الخالب عند كل عمرة وعصرة للمصرع . (٤) هوته الشيء : أعطاه إياه قبلاً قليلاً .

عَلَّا؛ ثم ساس رعيته بالين السياسة ففعا عن مذهبها ولو شاء لعاقب، وآمن خائفها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كافا لقتل، فإِ رَحَّ صُغَّ اللهُ لَهُ يَفْصُ جُمُوعُ الصَّلَاةِ بِلَا قِتَالٍ، وَيُعْزِلُهُ النَّصْرَ بِلَا مَكَاثِرَةٍ، حَتَّى فَرَعَ بِشْغَلِهِ مِنْ كَانَ لَا يَفْرُغُ مِنَ الْوُزَرَاءِ، وَيَامُ بِسْهَرِهِ مِنْ كَانَ لَا يَنَامُ مِنَ الْعَامَّةِ، وَأَطْمَأْنَنْتَ مِمَّا آتَتْهُ لِلْأَسْعَارِ دَارٌ مِنْ كَانَ لَا يَنَالُ الْخَفَقَ مِنَ الْخُودِ حَتَّى اسْتَوْتُوا مَرْكَبَ الْأَمْنِ فَكَلَّمَهُمْ صَبِيٌّ بِمَعَارِفَتِهِ. أَمَا ذُو الْيَةِ فَوَسَّكَ إِلَى الْقَضِ. وَأَمَا مِنْ لَا يَبْدِلُهُ فَعَمَلٌ مَا كَانَ يُؤَحِّدُ بِهِ مِنَ الْاسْتِكْرَاهِ. وَأَمَا الْحَشْرُ مِنَ الْحَدِّ وَالرَّعَاةِ فَهَلَّتْ عَلَيْهِمْ عَادَةُ الْمُتَوْبَا، حَتَّى لَوْ رَأَيْاهُ يَجِدُهُ الْأَمْرُ مَا يَجِدُ لَهُ الْأَمْرُ عَاءَ عَدِهِ وَلَا نَشَاطًا وَلَا حِدَا إِنْ وَكَلَهُ إِلَى قُوَّتِهِ، وَقَوَاهُ بِمَالِهِ. ^(١)

فلما رأى ما رأى من تحادلات العامة، وتواكل الحود، وزور المي، ومحمود الخلب، واستكلاب التمال على الحيانة، وبجراة الرعية على مع الحق، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد، وتحركت الأهواء، واستعرت يراؤ العصبية، وحاشت صدور الحسد وأشياءهم بالأمان، وطنوا أن لا شدة معه، وأن عفو لا تكبر بعده، وأمبر المؤمنين برؤمهم عين بصيرية، وأذن مصيحة، وقلب يقطان، وقد وقر الخلم أن يحف لأول بواد السعفاء، فهو ينتظر المذبر أن يهل، والمائد أن يتدل، والمفلوب على رأيه أن يتدكر فيصير، تنمر في إثرهم تشمير من قدم الروية قس الصلحة، والعوقل العقوبة، والتثبت قس الإقدام، فاتخذ روابط أقبها على الجسد والنشاط، ليست لهم سواي تدعوهم إلى الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه، إنما همهم أن يتعاضلوا في المحنة، ويستوجوا بالداء، ثم حرقهم على خواص حدمه، فإذا أراد أن يداول بهم فرصة ممكنة، أو عدوا طاع، أو رائق تنقي قبل الساعة، يعمس يديه إلى أيهم أراده، فيعد لأمره ولم يتركه فيه متبر. ولم يصرح به بوقع، ولم يحص فيه عاقبة، ولم يطلع مه على مكيدة، فلم يعلم أنا رأيا جندا

(١) في الأصل « مما آتته » . (٢) في الأصل « إن وكه إلى قوته ولا نشاطا ولا حدا وقواه

بماله » . (٣) طاع . دخل .

أسرع نَهْصَةً إِذَا مَرُّوا ، وأحسن إجابةً إِذَا دُعُوا ، وأفضل غَنَاءً إِذَا اسْتَكْمُوا مِنْ جُنْدِهِ .
ثم قَصَدَ سَعْسَه حَتَّى مَثَلَ بَيْنَ الْوَاوِ إِلَى اهْتِمَالِهَا لَهْ سَادَا فِي الْبَيْصَةِ ، وَأَتَقَاصًا مِنْ
الْأَطْرَافِ ، فَاتَى مَاحِيَةَ الشَّامِ فَوَطَّئَهَا وَطْأَةً جَمَعَ اللَّهُ بِهَا لَمْ تَنَاتِ الْعُرْقَةُ ، وَأَتَّخَذَ بِهَا بَيْنَهُمْ
مَارَ الْعِنْتَةِ .

وأما الْجَزِيرَةُ فَإِنَّهَا أَلْهَاهَا وَهِيَ كَالْجُرُحِ الْخَيْلِ ، فَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ بِهِ مِنْهَا شَاقَّةَ الدَّاءِ ، وَأَطْفَأَ بِهِ
عُيَا تَوَائِدِ السَّهْمَاءِ ، وَحَضَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَرَلِهِ الَّذِي هُوَ بِهِ مَزَلًا جَمَعَ مِنْ بَسْطَتِهِ
فِي الْمَوْصِعِ ، وَرَفَاهِيَتِهِ فِي الْمَعَاشِ ، أَنَّهُ حَامِلٌ لِلْخُصُودِ ، حَامِيٌّ لِلرَّافِقِ ، مُاشِرٌ أَمْرَهُ أَمْرًا أَمْرًا ،
حَتَّى إِذَا اسْتَنْدَرْتَهُ مِنْهَا مُبَرِّمٌ ، اسْتَقْبَلَ سَدَهُ حُسَامٌ مُتَقِصٌّ ، وَإِذَا انْخَسَ مِنْ نُعُورِهِ نَعْرًا
لَمْ يَرِمْ حَتَّى يَهْتَجَّ مِنْ حِصُونِ أَسَدَانِهِ حِصَا ، وَإِذَا قَصَى اللَّهُ عَنْهُ حِجَّةً ، وَصَلَ خَطْوَهُ
مِنْهَا عِزًّا ، ثُمَّ رَأَى مَا عَزَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ الصَّوَانِفِ مُرَاقِبًا لِلَّذِي كَانَ مِنْ عُحُوطِ
أَهْلِ الشَّامِ لِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعُمَةِ ، فَلَمْ تَنْشَكْكَ وَ أَنَّهُ تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ وَأَقْبَى مُخْطَأً
عَلَيْهِمْ حَتَّى اسْتَجَاوَا الْحُرَمَ ، وَتَسَافَكُوا الْمَسَاءَ ، وَنَقَصُوا مَا بَيْنَهُمْ مِنْ مُبَرِّمِ حَبْلِ الْإِسْلَامِ .

ومن ذلك أَنَّ أَرْمِينِيَّةً كَانَتْ فِيهَا جُودٌ مُخْرَجٌ عَلَيْهِمْ أَطْمَاعٌ تَحْمِلُ الْبِهَا ، بَعْدَ آعْرَافِهِمْ
بِإِخْرَاجِهِمُ الْأَمْوَالَ مِنْ كُورِ الشَّامِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا ، فَلَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِ
مُوكَلَّهِ إِلَى مَعْسِهِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِهِ فِي حِفْظِ طَرَفٍ أَوْ قَاصِيَةِ تَغْيِرٍ إِلَّا كَعَاهُ مَوْثِقَةً ، وَعَلِمَ أَنَّ
إِذَا رَحَلَ مِنْ أَصْعَافِ الْعَاقِفَةِ مِنْ حَوَارِصِ اللَّيْلِ ، إِنَّمَا هُوَ مُتَقَدِّرٌ مِنَ اللَّهِ لَا يَمْتَنِعُ بِعُذْرٍ ،
وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ بِجَهْلَةٍ . يَصِيبُ فِيهِ أَقْوَامًا بِالْبَلَايَا وَالْتِمَحِيصِ ، وَيَقْسِمُ فِيهِ لِأَقْوَامٍ الْأَجْرَ
وَالْجِهَادَ وَالسَّعَادَةَ ، فَرَأَى أُنْثَى وَ عَاطِلٌ مَا يَرْفَعُ عَنْ أَهْلِ أَرْمِينِيَّةٍ مِنْ صَرَرِ مَوْثِقَتِهِمْ
وَعَمِيْقِهِمْ مَعًا لِلرَّعْبَةِ ، وَإِحْمَالًا لِلْقِيَمَةِ ، وَرِقْقًا بِالْعَاقَةِ مَعَ اقْتِنَاعِهِ فِي الْأَبْوَابِ عَلَى الْكُفَّافِ
بِحَبِيَّتِهَا ، وَفِي سَائِرِ أَرْمِينِيَّةٍ عَلَى الْمُقَاتِلَةِ مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ مَدَّ أَرَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ ، يَكْفِيهِ مَوْثِقَةٌ
ذَلِكَ التَّغْيِرُ ، وَيَكْتَفِي عَنْ تَوَاقِيْعِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ فِي هُدُوءِ الْأَحْدَاثِ عَنْهُ ، وَسُكُونِ الْأَفْعَالِ مِنْ

رَوَعَاتِهِ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَاسِطُ الْحَلَّةِ مَأْمُونُ النَّائِرَةِ . فَلَمَّا أَغْثَمَ خَاقَانُ مَا أَغْثَمَ ، وَاتَّهَزَ الْفُرْسَةُ مُبَادِرًا ، لِمَا قَدْ أَقْبَضَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِسِينَ إِيَّاهُ ، فَكَانَتْ حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْطَامِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَذْنِهِ ، وَأَشْهَرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ ، وَأَنْفَسَ فِيهِ مِنْ هَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتِنَاوِهِ فِي الْأُرْمِيَةِ الْمَاصِيَةِ قَسْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ يُلْجَأُ عَالِمٌ ، فَيُرَى أَنَّ حَيَاتِهِ لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ وَاتِّصَافُهُ مِنْ أَنْ يُتَنَاوَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قُدْرًا فِي الْعِظَمِ ، وَتَعَالَمًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكَلَ الْعَثَّ مَا كَثُرَ الْعُدَدُ ، وَأَكَلِيَ الْعُدَّةَ ، وَأَسْتَقْبَلَ أَهْلَ الْكُؤَرِ وَالْأَمْصَارِ ، وَبَذَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرَكَ عِندَهُ نَهَائِيَّةً فِي التَّحْيِيرِ ، وَكَانَ قَدْ صَرَفَ بِاللَّهِ إِلَى هَذَيْنِ التَّعَرُّيْنِ مِنَ الْخُرُورِ وَالرُّومِ ، وَالِى هَذَيْنِ الصَّدُوقَيْنِ الْمَحَارِبَيْنِ لَهُ مِنَ الْمَارِيقَةِ الْمُتَمَصِّصَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَعْنِ عَنِ إِعَادَةِ الظُّرْفِ فِي أَمْرٍ غَيْرِهِمَا مِنْ نَوَاحِيهِ لِيَسْتَبْرَأَ بِهِ ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُلُومَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَعَلِمَ غَيْرُهُمَا أَنَّ مَا سَمِعَ مِنْ بَمْدِيَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْفَرَاحِ نَتِيجَةُ مَكْرُومَةٍ ، فَشَخَّصَ عَمَّا لَتَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤَرِّبًا لِأَبْعَاضِ وَطَنِيهِ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْشِيَهُ عَلَى أَلْيَنِهِمَا ، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامَ ذِي الْمِحْمَةِ ، لَمْ يَرْمِثْهَا نَارًا خَسَتْ ، وَصَحَابَةً أَفْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَرَفًا ، وَلَمْ يَنْتَهِكْ فِيهَا حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ إِمَامَةٍ .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطَ مَنْ يُرِيدُ الْأَسْتِصْلَاحَ لَا مَنْ يُرِيدُ الْإِسْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِمُ أَنْ رَجَعَ عَنْ طَلْعِهِ ، وَالْبَاطِلُ أَنْ صَحَّتْ عَنْ بَذْنِهِ ، وَالْبَاكِتُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَازْدَادَ الْبَرَى عَلَى الْبَرَاءَةِ فَرَحًا ، وَالسَّالِمُ بِالسَّلَامَةِ اعْتِبَاطًا ، وَلَمْ تَزَمْثَلْهُ فِيمَا أَفْصَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ سَلَافَتِهِ ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ، أَمَا لَيْلُهُ بِمُتَنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَاسْتِمَاتَةِ إِيَّاهُ عَلَيْهَا فَسَاهِرٌ ؛ وَأَمَا نَهَارُهُ فِي حَلَبِ قَيْثِهَا وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا فَتَعَبٌ ؛ وَأَمَا صَدَقَاتُهُ عَلَى هَرَاتِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ بِغَارِيَّتِهِ ، وَأَمَا مَحَلُّسُهُ مِنْ قُدَّهَاتِهَا وَصُلَحَائِهَا فَنَقَاصٌ ، وَأَمَا عِلْقَتُهُ عَلَى طَالِمِهَا فَتَعَبٌ ، وَأَمَا أَفْضَالُهُ لِمَظْلُومِهَا فَبَسُوطَةٌ ؛ وَلَتَنْ كَانَتْ الْحَقُّ أَلَزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فَأَنْقَسَمَ أُمُورُهُمْ ،

إنا لنعلم أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطء على أقوام لمجل الواحد منهم مثل الذى حمله للصبح ، ولكنه رضى بالعمو ، ومحا حساً عن الاستقصاء ، فأوجب أن يسطر بداً بعلظة ويتبعها أخرى يليى ؛ فكان من ذلك نظره فى هذه القايا التى هى فى المسلمين ومأل الله ، غير أن الله جعله قيمة فيه ، وى أحده وصرفه و وحوه ، فلما رأى ضراوة الحال بها ومصائبهم دونها ، وأن قد صارت كالتسعة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورعاً ، ولا شريفهم تنزهاً ، أحب مع توفيره للمسلمين فيتهم ، أن يحدث لهم أدناً يقطع به عنهم أهل الضراوة ، ويعرف به دور الاستحفاف بالأمانة ، والأمر للتسعة ؛ أن عليهم من تفقده وأديه عيباً ترمق ، ويداً تقيض ، ولو آتته حين هم بأحد تلك القايا حمل على المؤبر قدر يساره ، وأحد المقصر طاعته ، كان قد أنصف ، كلاً ! ولكنه أحب أن يستقى قوة ، ولا يبلغ من المكثير جهداً ، وأقصر بهم على العشر من ذلك ، كرمًا فى القدره حين رأى موضع الرق ، وتحاى عن العلة حين عرف مكان القدر ، فأى نعمة أعظم ، وأى بلاء أحسن من هذه القايا ! كانت فى أيديهم جُماناً ، فلما أطلع طئنها ، وأخذ ما أخذ ، وترك ما ترك ، محلاً مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات] المقصر من الحال المؤذية التى لم تكن تغسل أوقافهم ، فليس منهم أحد إلا وكان مه له واعط ألا يكبر شيئاً من الخراج تضييماً ، أو يأخذ عكولاً أو يفيقه إسرائيلاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما نزع من علاج الداء الخوف وأستأصله ، ومن النى المنفرد بجمعه ، ومن الأمور المعطلة فاحتكمها ، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدد ، ولا يستعمل الأ كف عن نقض ما أبرم ، ولا مزاولة ما أحكم ، ولا قنع ما أخلق ، ولا إغلاق ما قنع ، فلان حيرة أبويه ، ومخ بيضته ، وجوهر أروسته ، الفائت سبقاً ، البين عدواً ، الراضح عرقاً ، المتعجر بحرراً ، المحمود أمراً ، القائل فصلاً ،

(١) الصراوة : الهيج بالنوى والإمراء . (٢) فى الأصل : «لم» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضنا هذه الكلمة لأنها تحقق والسياق ، ومكانها فى الأصل يأس . (٤) الطول : الطعام أو الشراب

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما أفاضه الله من الأجر إلى جنته الذي كان مده على من خلف من الأهل والأموال والزوايا والجنود، فلان سيلة صلبه، وثمره قلبه، الملتصق مع قتاه سبه عقلاً، والمأمون مع شدة شكيمته حملاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أشراً، الشبه بأمير المؤمنين إن تطلق تطلقاً، وإن نظر لحظاً، وإن سئل جوداً، وإن انتصر عوداً، وإن ساس رفقاً، وإن غصب حلقاً، وإن وصف حلقاً، وإن كلم فهماً، وإن قدر صفواً، وإن لقي بشرّاً، وإن نازع قلباً، وإن قارع ظمراً، فكان عد ظنه به، راية لفرمة، وحرماً في المكيدة، وحلباً للفيء، وحيطة للغائب، ومباشرة للشاهد، هذا قليل من كثير. مما جعلك الله أهله، وإنما أقصرت عليه لأنى رأيت المتكلمين من الخطاء تركوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببت أن يعلم أمير المؤمنين أن له في كل أمر عمل به في رعيته حجة واضحة، وعذراً معروفاً، إن قام به متكلم في خاصية حس موقمه، وإن قرئ به كتاب في عاتق، قويت به حجته.

والحمد لله الذي جعله وفديته أولياء هذه السمر، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُيقية وإياهم للذين سدد بهم عورته، والحق الذي أقر بهم جادته، والعدل الذي أوضح بهم أعلامه، حتى يكونوا ورثة هذه الأمة وحكامها في عابر الدهر، وواقيات الأيام، مستقلين بالعدل، موقنين للسداد، معصومين من الشبهات، مستوحين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المآد. والسلام.

(١) هذه الرسالة رسالة أبي الريح محمد بن القيث السابعة من تلخ أحيار المطوم والمثور لابن طيغور.

كتب الرشيد

١ - كتاب عهد البيعة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين
 في صحة من عقله ، وحواز من أمره ، طائفاً غير مكره ، إن أمير المؤمنين ولأني العهد
 من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولي عبد الله بن هارون
 أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين عدى ، برضا مني وسلم ، طائفاً غير
 مكره . ولأني نراسان وثقورها ، وكورها وحربها ، وجنتها وحراحتها ، وطرزها وبريحتها ،
 وبيوت أموالها وصداقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ، وشرطت
 لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا مني وطيب نفس ، أن لأني عبد الله بن هارون على
 الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعاً
 بعدى ، وتسليم ذلك له وما حيل له من ولاية نراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين
 من قطعة ، أو جعل له من عقده أو صبة من صياعه ، أو أبتاع من الصباغ والعقد ،
 وما أعطاه في حياته وصحته من مال ، أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منبر
 أو دواب ، أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقراً عليه مسلماً له .
 وقد عرفت ذلك كله شيئاً شديداً ، فإن حدثت بأمير المؤمنين حدث الموت ، وأقضت
 الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين ، فعل محمد إن شاء ما أمره به هارون أمير المؤمنين ،
 في توليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين نراسان وثقورها ، ومن ضم إليه من أهل
 بيت أمير المؤمنين بقرامسين^(٢) ، وأن يمضي عبد الله بن أمير المؤمنين إلى نراسان والرّي ، والكور

(١) هذا العهد ورد في تاريخ الطبري (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعه ليد) وجيه جارات تحالف ما انشاءها

عن الطبري . (٢) قرامسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وعيره ،
من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع مَنْ صَمَّ إليه أمير المؤمنين حيث أحبَّ من لَدُن الرِّيّ
الى أقصى عمل نُرسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوِّل عه قائداً ولا مَقُولاً
ولا رجلاً واحداً مَنْ صَمَّ إليه من أصحابه الذين صمَّهم اليه أمير المؤمنين ، ولا يحوِّل
عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولَّاه لهاها هارون أمير المؤمنين : من ثَمور نُرسان
وأعمالها كلها ، ما بين عمل الرِّيّ مما يلي قَمْدَان الى أقصى نُرسان ، وثمورها وبلادها ،
وما هو منسوب اليها ولا تخصه اليه ؛ ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عه ، ولا يُؤتَى
عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وُؤَلَّاه أموره بُنْدَاراً ولا عَاسِياً ولا عاملاً ،
ولا يُدخِل عليه في صغير من أمره ولا كبير صرراً ، ولا يحوِّل بينه وبين العمل في ذلك كله
برأيه وتديره ، ولا يعرض لأحد ممن صَمَّ اليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحَّابته ، وقصَّاته
وعَمَّاله ، وكُتَّابه وقواده ، وحَدَمه ومَوَالِيه وجنده ، بما يلتبس إدخال السرور والمكره عليهم
في أنفسهم ، ولا قَرَّانهم ولا مَوَالِيهم ، ولا أحد يتَنَسَّل منهم ، ولا في دماثهم ولا في أموالهم ،
ولا في صباغهم ودُورهم ، وِرِباعهم وأمتهم ، ورَقِيقهم ودوابهم ، شيئاً من ذلك صغيراً
ولا كبيراً ؛ ولا أحد من الناس أمره ورأيه وهواه . وبترجيص له في ذلك ، وإدخاله منه
فيه لأحد من وَلَد آدم ، ولا يحكُّ في أمرهم ، ولا أحد من قَصَّاته ومن عَمَّاله ، ومن كان
بسبب منه ، فخير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قَصَّاته ، وإن تَزَع اليه أحدٌ
مَنْ صَمَّ أمير المؤمنين الى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بنت أمير المؤمنين وصحَّابته ،
وقواده وعمَّاله وكُتَّابه وحَدَمه ، ومواليه وجنده ، ورقص أسمه ومكثته ومكانته مع عبد الله
ابن أمير المؤمنين ، عاصياً له ، أو مخالفاً عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رَدُّه الى عبد الله
ابن أمير المؤمنين ، بصِّقْله وقَمَّاء^(٢) ، حتى يَفْقَد فيه رأيه وأمره ، فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين
حَلَقَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عَزَلَ عبد الله ابن أمير المؤمنين

عن ولاية خراسان ، ونموها وأعمالها ، والدى من حد عملها مما بلى هذان ، والشُّكْرَ الى
سمّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صرّف أحد من قواده الذين صمّمهم أمير المؤمنين
اليه ، ممن قدّم قريّايس ، أو أن يتّقصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه
من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صغرّت أو كبرت ، فليبد الله بن هارون أمير المؤمنين
الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقتدّم على محمد بن أحمد بن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر من بعد
أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء ،
وجميع المسلمين وجميع الأجداد والأصهار لمد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه ، والمجاهدة
لمن خالفه ، والنصر له والوثق عه ، ما كانت الحياء في أمانهم ، وليس لأحد منهم جميعا
من كانوا أو حيث كانوا أن يحالفه ولا يتصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد بن
أمير المؤمنين وخلق عد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصرّف العهد عنه من بعده إلى غيره ،
أو تنقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصحته ، واشترط في كتابه
الذي كتبه عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ، وعبد الله بن أمير المؤمنين المصدق
في قوله ، وأتم في حل من الشيعة التي في أعناقكم محمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نقص
شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وظل محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله
ابن أمير المؤمنين هارون ، ويسلم له الخلافة ، وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا
لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يحلّقوا القاسم بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدّموا عليه أحدا
من أولادهما وقربائهما ، ولا غيرهم من جميع البرية ، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله بن
أمير المؤمنين ، فالأمر إلى الله في إصلا ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ،
أو صرّف ذلك عه إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ،
وتصيير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحب ورأى ،
فليكم معشر المسلمين إن شاء ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ،
وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ،

وعهدُ الله وذمته وذمةُ رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المُقرَّين والنبئين والمرسلين ، ووَكَّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لتَقْنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سَمِيَ ، ولمحمد وعبد الله والقاسم نبي أمير المؤمنين بما سَمِيَ ، وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم ، وأقرتم به على أنفسكم ، فإن أتم بطلتم من ذلك شيئا ، أو غيرتم أو نكحتم ، أو حالقتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم في كتابه هذا ، فَبَرِثْتُمْ مِنْكُمْ ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يُسْتَعِيدُهُ إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المثنى إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة ، نذرا واجبا ، لا يقلل الله منه إلا الوفاء بذلك ؛ وكل مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقْبَل إلى خمسين سنة حر ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثا التة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كميلٌ وراج . وكفى بالله حسيبا .

٢ - نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحفة من عقله ، وجوار من أمره ، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفصل والصالح له ولأهل بيته وجماعه المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولّاه العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين في سلطانه ، مد أنى محمد بن هارون ، ولّاه في حياته ثغور خراسان وقورها وجميع أعمالها ، وشترط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة ، وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعت أمير المؤمنين ، وأتباع لي من الضبايع والمقد والرّباع ، وأبتعت منه من ذلك ، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال ، والجواهر والكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ، ولا يعرض لي ولا لأحد من

عَمَالِي وَتُكَلِّفِي سَبَبَ عَاسَةِ، وَلَا يَتَّبِعْ لِي فِي ذَلِكَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا، وَلَا يُبْذِلْ عَلَيَّ وَلَا عَلَيْهِمْ، وَلَا عَلَيَّ مِنْ كَالٍ مِثْلِي، وَمَنْ أَسْتَعْتُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ مَكْرُوهًا وَفَسًّا وَلَا دَرَمَ وَلَا شَعِيرَ وَلَا بَشِيرَ وَلَا مَالٍ، وَلَا صَغِيرَ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا كَبِيرَ، فَأُجَابُهُ إِلَى فَلَكَ وَأَقْرَبِهِ، وَكُتِبَ لَهُ كِتَابًا أَتَمُّدَ فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ، وَقَبِلَهُ وَعَرَفَ صِدْقَ نَيْتِهِ فِيهِ؛ فَشَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلْتُ لَهُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَسْمَعَ لِمُحَمَّدٍ، وَأَطِيعَ وَلَا أُغَيِّبِهِ؛ وَأَنْصَحَهُ وَلَا أُعْشِقَهُ، وَأُؤَيِّ بِبَيْتِهِ وَوَلَايَتِهِ، وَلَا أَعْدِرُ وَلَا أُكَلِّتُ، وَأَتَمُّدُ كُتْبَهُ وَأُمُورَهُ، وَأُحْيِي مُؤَازَرَتَهُ وَجِهَادَ عَدُوِّهِ فِي الْحَقِيقَةِ، مَا وَفَّقَ لِي بِمَا شَرَطُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِي، وَتَمَّيَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كُتِبَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَضِيَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَقْبَلْنِي بَشِيءَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقْصُرْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي شَرَطَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِي عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْتَاجَ مُحَمَّدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى جُنْدٍ، وَكُتِبَ إِلَيَّ بِأَمْرِي بِإِصْحَاحِهِ إِلَيْهِ، أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّوَاسِي، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَائِهِ حَالَةً، أَوْ أَرَادَ تَقْصِيرَ شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ أَوْ سُلْطَانِي الَّذِي أَسْتَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ، وَوَلَا يَأْخُذُ بِهِ، فَعَلْتُ أَنْ أَتَمُّدَ أَمْرَهُ، وَلَا أَحَالَهُ وَلَا أَقْصِرُ شَيْءَ كُتِبَ بِهِ إِلَيَّ؛ وَإِنْ أَرَادَ مُحَمَّدُ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِهِ الْمَهْدِ وَالْخَلَافَةِ مِنْ بَعْدِي، فَذَلِكَ لَهُ مَا وَفَّقَ لِي بِمَا جَعَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ، وَأَشْرَطَ لِي عَلَيْهِ، وَشَرَطَ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَمْرِي، وَعَلَى إِصْحَاحِ ذَلِكَ وَالْوَفَاءُ لَهُ بِهِ لَا أَقْصُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُغَيِّرُهُ وَلَا أَتَقَلَّبُهُ وَلَا أَقْدِمُ قَدًّا أَحَدًا مِنْ وَلَدِي وَلَا قَرِيبًا وَلَا صَيْدًا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ الْمَهْدِ مِنْ بَعْدِي، فَيُؤَيِّ بِبَيْتِهِ وَمُحَمَّدًا الْوَفَاءُ لَهُ، وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا شَرَطْتُ وَتَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا، مَا وَفَّقَ لِي بِمُحَمَّدٍ بِجَمِيعِ مَا اشْتَرَطْتُ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَمَاءَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كُتِبَ لِي؛ وَعَلَى عَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ، وَفَقْدَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَقْدِي، وَذِمِّ أَمَانِي وَذِمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتَمُّدُ مَا أَحَدَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ حَقِّهِ أَجْمَعِينَ، مِنْ عَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَالْإِيمَانُ الْمُؤَكَّدَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا، وَنَهَى عَنْ تَقْصِيرِهَا وَتَبْدِيلِهَا؛ فَإِنْ أَنَا تَقَضَّيْتُ شَيْئًا بِمَا شَرَطْتُ

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بذلت أو نكثت أو عدت، هربت من الله عز وجل، ومن ولايته ودينه، وعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافرا مشركا؛ وكل أمرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة، طلاق الحرج؛ وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، ندرا واجبا علىّ في عني، حافيا واجلا لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لأزمت لي، لا أصير غيره، ولا أنوي غيره . وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان . وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

٣ - نسخة كتاب الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله وليّ أمير المؤمنين ووليّ ما ولّاه، والحافظ لما استرعاه، وأكرمته به من حالته وسلطانه، والصاح له فيما قدم وأتّر من أموره، والمنعم عليه بالصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكألى والحافظ والكأى من جميع خلقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المستول تمام حسن ما أمسى من فضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده، والمهام ما يرعى به ويوح له عليه أحسن المزيّد من فضله، وقد كان من نعمة الله عز وجل عبد أمير المؤمنين وعدك وعد عوام المسلمين ما تولى الله من عهد وعبد الله أبى أمير المؤمنين من تليعه بهما أحسن ما أملت الأمة ومثت إليه أعاقها، وقدف الله لها في قلوب العاتية من المحبة والمودة والسكون اليهما والثقة بهما لإياد ديهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دهمانهم ودفع المحدثور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى أقوا اليهما أزمتمهم، وأعطوها بيعتهم، وصمقات إيمانهم بالعهود والمواثيق وركيد الأيمان المخلقة عليهم؛ أراد الله فلم يكن له مرد، وأنصاه فلم يقدر أحد من العباد على قصبه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيبته، وما سبق في علمه منه؛ وأمر المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وعليهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لا عاقبَ لأمر الله ولا رادَ لقضائه ولا معقبَ لحكمه، ولم يزل أمير المؤمنين مدد أجمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يُعْمَلُ فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاحُ لها وجميع الرعية، والجمعُ للكلمة، والألم للشتت، والدفع للشتات والفرقة، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق، والميل والشقاق، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وأنبأها، منها بانتقاص حَقِّهما، ويستشير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرَ لها، وجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأتلاف أهوائها، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، ورد حَسَدِهم ومكرهم وتعيهم وسعيهم بالفساد بينهما، فصرم الله لأمر المؤمنين على الشُّحُوصِ بهما إلى بيت الله وأحد البيعه منهما لأمر المؤمنين بالسَّمع والطاعة والإفصاح لأمره، واكتتاب الشُّرْطِ على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولها ناشد الموائيق والعهود، وأغلظ الإيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما ألتبس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتها وموقتها وتواصلها ومؤازرتها ومكائمتها على حسن الطر لأسمسها، ولرعية أمير المؤمنين التي أسترعاهما، والجماعة لدى الله عز وجل وكتابه وسُنَّ بيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعنوا المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طَمَع كل عدوٍّ مُطْهِرٍ للعداوة ومُفْرِسٍ لها، وكل منافق ومارق، وأهل الأهواء الصالة المصلحة من فرقة تكييد بكيد توقعه بينهما، ويدحس يدحس به لها، وما يتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء ديسه من القرب بين الأئمة والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والصلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورجته، وأمية نية محمد صلى الله عليه وسلم، وما صحته لله وجميع المسلمين، وقدنا عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حمَّله إياه، والاجتهاد في كل ما فيه قُرْبَةٌ إلى الله، وما يُنَالُ به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أَظْهَرَ مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا نَظَرَ فِيهِ لَهَا، فَقِيلَ كُلُّ مَا دَامَا
إِلَيْهِ مِنَ التَّوَكُّيدِ عَلَى أَنْصَحِمَا بِقَوْلِهِ، وَكُتِبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَلَنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمُخْطُوطِ
أَيْدِيهِمَا بِمَحْضَرِ مَنْ شَهِدَ الْمَوْسِمَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَّادِهِ، وَصَحَابَتِهِ وَقُصَّائِهِ، وَحُجَّةِ
الْكُتُبَةِ وَشَهَادَاتِهِمْ عَلَيْهِمَا، كَتَبَيْنِ أَسْتَوْدَعُهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحِبَّةَ، وَأَمْرًا بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ
الْكُتُبَةِ؛ فَلَمَّا فَرَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي دَاخِلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَطْنِ الْكُتُبَةِ،
أَمَرَ قُصَّائِهِ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمَا وَحَضَرُوا كِتَابَهُمَا أَنْ يُعْلِمُوا بِمَجْمَعٍ مَنْ حَصَرَ الْمَوْسِمَ مِنَ الْحَاجِّ
وَالْعُمْرَةِ وَفُودِ الْأَمْصَارِ، مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ شَرَطِهِمَا وَكِتَابِهِمَا وَقِرَاءَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، لِيُقَهِّمُوهُ
وَيَعُوهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤَدُّوهُ إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَهْلِ بِلَادِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ، فَعَمَلُوا ذَلِكَ،
وَقُرِئَ عَلَيْهِمُ الشَّرْطَانِ جَمِيعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَأَنْصَرَفُوا وَقَدْ أَشْتَهَرَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَأُنْتَوَى
الشَّهَادَةُ عَلَيْهِ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَنَائَتَهُ بِصَلَاحِهِمْ، وَحَقَّنَ دِمَائِهِمْ وَلَمْ شَعْنِهِمْ،
وَإِطْفَأَ جَمْرُهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَأَعْدَاءُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، وَأُظْهِرُوا الدُّعَاءُ
لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالشُّكْرُ لِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ تَسَخَّرَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذِيكَ الشَّرْطَيْنِ
الَّذِينَ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ آبَاءُ مُحَمَّدٍ وَعَدَدُ اللَّهِ فِي بَطْنِ الْكُتُبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا؛
فَأَحْمَدُ اللَّهِ مَنْزِلَ وَجَلَّ عَلَى مَا صَبَحَ مُحَمَّدٌ وَعَسَدُ اللَّهِ وَلِيُّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ
بِبِلَانِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَسَدُ اللَّهِ وَلِيُّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعَدَدُ حَمَاعَةِ أُمَّةِ عَهْدِ صَلَى اللَّهِ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا، وَأَقْرَأُ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمِيهِمْ إِيَّاهُ،
وَقُمْ بِهِ بِهِمْ وَأَمْتُهُ فِي الدِّيَّانِ قَبْلَكَ، وَقِيلَ قَوَّادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَعِيَّتُهُ قَبْلَكَ، وَأَكْتُبُ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَحَسْبُكَ اللَّهُ وَعَمَّ الْوَكِيلُ، وَبِهِ الْحَوَّلُ
وَالْقُوَّةُ وَالطَّوْلُ. كَتَبَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَعِ لِيَالِ نَقِيٍّ مِنَ الْمُهْزَمِ سَمَةِ
سِتِّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ.

باب المنظوم

صوّروا لك بالجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك بحلة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعداك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَسَّارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِ^(١)

سأله المهدى لما دخل عليه فقال له . **فِيمَنْ تُتَنَدُّ بِإِشَارَةٍ** فقال : **أَمَّا اللِّسَانُ وَالرِّئْيُ**
فَعَرَبِيَّانِ ، وَأَمَّا الْأَصْلُ فَعَجَمِيٌّ ، كَمَا قُلْتُ فِي شِعْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ :
وَنَتَنَّتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ يَقُولُونَ مَنْ دَا وَكَتُّ الْعَلَمِ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ حَاضِرًا لِيَعْرِفَنِي أَمَا أَنْفُ الْعُكْرَمِ

(١) هو أبو عماد بن المرحوم بن برد ، أشهر محصري الدوليين ، ورأس الشعراء المحدثين ، وعمه طريق الاحتراع ، والديع للصين ، وأحد العلماء المكهوفين . وأصله من فارس طحارسان من سبي المهلب بن أبي صفرة . ووقع ملك أرمينية على عقيل بن كعب ، فمناشاهم وترى في سائرهم ، واحتلف إلى الأعراب الصادقين بالصرّة حتى خرج بائسة ومناه في المعصاة والشعر . وكان أكله محذور الوجه ، قبح المنظر ، مفرط الطول ، صمم الحية ، متوقد اللدكاه ، صادق الحس ، لطيف الدواية ، شديد المهورب والاستعفاف بالناس ، كثير الاستبصار بالدين ، قليل المالاة للرفق فيهم ، متبها بالبدقة شعوبيا ، متحصلا على العرب ، شديد التزم بالناس ، بائسا لأعراسهم ، لا يسلم من لسانه حليلة ولا سوقة ، وكان من صعادة الرجل من أهل الصرة ألا يعرف مناشرا ولا مناشر يهره ، فانه إن لم يصبه في عرصه أصابه في ماله . وقد مناش الشعر ولم يبلغ عشرين ، وما طع الحلم إلا وهو محشئ بمزة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر وقدرته على أن مناشا هو رأس المحدثين وأصفهم إلى معاطاة الديع ، وطرق أبواب المهورب والحلافة والفرل الرقيق الحصري واللعاه المقتدع .

وأما أول من جمع في شعره بين حالة العرب وروعة المحدثين ، وفقى عن المعاني الدقيقة ، والأحيلة اللطيفة ، حتى عد شعره رمزا بين الشعر القديم والحديث ، وبخاريا يبر عليه الشعر من مراعي الدواية إلى مقاصير الحصاره . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرفت قبله وأرى عليها ، وطلب عليه المعاه والتشبيب بالنساء والمهورب به عن الحد المألوف عند أهل زمانه ، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره في شأن الصرة . وقد ساء المهدى عن التشبيب ، فكان اذا مالت له همه يذكره ما يشاء ، ويقول : إن الحليلة معه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وممن ذلك حصن فساند ملح بها الحليلة ، فلم يرد على أن سره الجائرة ، وغشبه على ذلك وديره يعقوب بن داود ، وكان نورما . فجماعهما ، فكان ذلك إلى ريدته سبقتة . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد تيب على التشبيب . وتعد ترجمته في الأمان (ج ٣ ص ١٩ مر ج ٦ ص ٧) وابن حليكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والعهود (ص ١٥٩) .

نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنِي عَامِرٍ * فَرُوغِي وَأَصْلِي قَرِيْشُ الْعَجَمِ
فَنَافِي الْأَغْنَى مَقَامُ الْفَتَى * وَأَصْنَبِي الْفَتَاةُ مَا تَعْتَمِمُ

وكان أبو ذؤلمة حاضراً ، فقال : كَلَّا ! لَوْجُوهُكَ أَفْحَمُ ذَلِكَ ، وَحَمَى مَعَ وَجْهِكَ ،
فَقَالَ بَشَارُ : كَلَّا ! وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَحْلاً أَصْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَكْدَبَ عَلَى جِلْهِسِهِ مِنْكَ ، وَاللَّهِ
إِنِّي لَطَوِيلُ الْقَامَةِ ، عَظِيمُ الْهَامَةِ ، تَأَمُّ الْأُلُوحِ ، أَفْجَحُ الْخَلْدِيِّ ، وَلَرَبُّ مُسْتَرْغَى الْمَزُورِينَ
لِلْعَيْنِ فِيهِ مُرَادٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : مِنْ أَىِّ الْعَمِّ أَصْلُكَ ؟ فَقَالَ : مِنْ أَكْثَرِهَا
وَالْفُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْإِقْرَامِ ، أَهْلُ طَعَارِشْتَانِ ؛ فَقَالَ مَعْصُ الْقَوْمِ : أَوْلَيْتُكَ الصُّفْدَ ،
فَقَالَ : لَا ! الصُّفْدُ نَحَارٌ ، فَلَمْ يَرُدَّ ذَلِكَ الْمَهْدِيُّ .

وكان بشار كثير التلون في ولّائه ، شديد التشيع والتعصب للمعجم ، مرة يقول يفترخ
بولائه في قيس :

أَمِيتُ مَصْرَةَ الْفُحْشَاءِ إِنِّي * أَرَى قَيْسًا كُنْتُ وَلَا تُضَارُ
كَانَ الْإِسْ حِينَ قَيْمٍ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاءُ الْفِطَارِ
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدَمَّرُ خَيْلُ قَيْسٍ * فَكَانَ لَتَدْمِي فِيهَا دِمَارُ
بِحِيٍّ مِنْ بَنِي عَيْلَانَ شُورِسٍ * يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا
وَمَا تَلْقَاهُمْ إِلَّا صَدْرَنَا * يَرَى مِنْهُمْ وَهْمَ حِرَارِ

ومرة يتبرأ من ولّاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَمَعْصَمٍ * مَوْلَى الرَّيْبِ بِجُدِّ بَفَضْلِكَ فَانْقَرِ
مَوْلَاكَ أَكْرَمُ مِنْ تَيْمٍ كُلِّهَا * أَهْلُ الْفِعَالِ وَمِنْ قُرَيْشِ الْمَشْعَرِ
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرُ مُنَاقِعٍ * سَبْحَانَ مَوْلَاكَ الْأَجَلِّ الْأَكْمَرِ

وقال يفترخ بولاء بني عقيل :

إِنِّي مِنْ بَنِي عَقِيلِ بْنِ كَعْبٍ * مَوْضِعُ السِّيفِ مِنْ كُلِّ الْأَعْيَانِ

وَوُلِدَ بَشَارُ أَعْمَى، مَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا قَطُّ، وَكَانَ يُشَبِّهُ الْأَشْيَاءَ بِعَصَا بِيَعُضُ فِي شَعْرِهِ،
فَيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ الْبَصَرُ أَنْ يَأْتِيَ مِثْلَهُ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ أَتَشَدُّ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ مُتَارَ النَّعَمِ مَوَى رَعُوسًا * وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ، مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا قَطُّ وَلَا شَيْئًا فِيهَا ؟
فَقَالَ : إِنْ عَدِمَ النَّظَرُ يَقْوَى دُكَاةُ الْقَلْبِ وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّغْلُ بِمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ،
فَيَتَوَقَّرُ حُسْنُهُ وَتَذَكُّرُ قُرْبِيَّتُهُ؛ ثُمَّ أَتَشَدُّمُ قَوْلُهُ :

عَجِثْتُ حَبِيبًا وَالِدُكَاةِ مِنَ الْعَمَى * بَحِثْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْتِلًا
وَعَاضُ ضِيَاءِ الْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَامِدًا * بَقَلْبٍ إِذَا مَا صَبَحَ النَّاسُ حَصَلًا
وَشَعْرِ كَوْنِ الرُّوحِ لَأَمْتُ بَيْنَهُ * بِقَوْلٍ إِذَا مَا أَحْرَنَ الشَّعْرُ أَسْهَلًا

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَجَرُّمًا بِالنَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِبَصَرِي .
فَقِيلَ لَهُ : وَلَمْ يَأْبَا مُعَاذُ؟ قَالَ : لَعَلَّ أَرَى مَا أَفْنُسُ .

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : بَشَارُ حَاتِمَةُ الشَّعْرَاءِ، وَاقِعَهُ لَوْلَا أَنَّ أَيَّامَهُ تَأَخَّرَتْ لَفَضَّلَتْهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ .
وَقِيلَ لِأَبِي عُبَيْدَةَ : أَمْرَوَانُ أَشْعَرُ أَمْ بَشَارُ؟ فَقَالَ : حَكَمَ بَشَارٌ لِنَفْسِهِ بِالْإِسْتِظْهَارِ،
إِنَّهُ قَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ جَيِّدٍ، وَلَا يَكُونُ عَدَدُ الْجَيِّدِ مِنْ شَعْرِ شَعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ هَذَا الْعَدَدَ، وَمَا أَحْسَبُهُمْ بَرَّزُوا فِي مِثْلِهَا، وَمَرْوَانُ أَمْدَحُ لِلْوَلَدِ .

وَسُئِلَ الْأَصْمَعِيُّ عَنْ بَشَارٍ وَمَرْوَانَ أَيُّهُمَا أَشْعَرُ؟ فَقَالَ : بَشَارُ؛ فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ لِذَلِكَ؛
فَقَالَ : لِأَنَّ مَرْوَانَ سَلَكَ طَرِيقًا كَثُرَ مِنْ يَسْلُكِهِ، فَلَمْ يَلْحَقْ بِمَنْ تَقَدَّمَ وَتَتَرَكَّ فِيهِ مَنْ كَانَ
فِي عَصَرِهِ، وَبَشَارُ سَلَكَ طَرِيقًا لَمْ يُسَلِّكْ وَأَحْسَنَ فِيهِ وَتَفَوَّذَ بِهِ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَصَرُّفًا وَفَنُونَ
شَعْرًا، وَأَغْزَرُ وَأَوْسَعُ يَدِيًّا، وَمَرْوَانُ لَمْ يَتَّحِزْ مَذْهَبَ الْأَوَائِلِ .

وَقِيلَ لِبَشَارٍ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ شَعْرَاءِ الْعَرَبِ شَعْرٌ إِلَّا وَقَدْ قَالَ فِيهِ شَيْئًا اسْتَكْرَهَ الْعَرَبُ
مِنْ أَلْفَاظِهِمْ وَشُكِّ فِيهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شَعْرِكَ مَا يُشَكُّ فِيهِ؛ قَالَ : وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِنِي الْخَطَأُ ؟
وَوُلِدْتُ هَاهُنَا، وَنَشَأْتُ فِي مَجْرُورَ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ قُصَّصَاءِ بَنِي عُقَيْلٍ مَا فِيهِمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً

من الخطأ، وإن دخلت إلى مساكنهم فساؤهم أفصح منهم، وأبغضت فأبغضت^(١) إلى أن أدركت،
هن أين يأتي الخطأ ؟ .

كان جرير بن المتدر السدوسي يفاخر بشارا، فقال فيه بشار :

أمثل بي مُصير وإئيل * فقدتُك من فاجر ما أحق
أى اليوم هذا أبا منذر * طيرا رأيت وخيرا يُمكن
رأيتك والعمرى مثلها * كما حجة غير ما تطعن

كان بشاريوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوعده بذلك ثم
أخلفته، وجعل يتطرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل إليها ليعاتبها فأعتدت بمريض
أصابها، فكتب إليها بهذه الأبيات :

يا ليلتى تردادُ مُفكرا * من حُب من أحببت يَكرا
حوراء اب نظرتُ إليه * لك سَقَتُك بالعيس نَمرا
وكانت رَجَعَ حَسَدِثها * قَطَعَ الرِياض كُيسَ زهرا
وكانت تحت لسانها * هاروتَ يَنْفُث فيه يَمرا
وتحالُ ما بُجِمتُ عليه * ه ثيابها ذَهَباً وعِطرا
وكانت تَرُدُّ الشرا * ب صفا وصادق مكِ عِطرا
جَنِيَّةُ إلهِيَّة * أوبى ذاك أحل أمرا
وصكماك أنى لم أُحط * بَشَاة من أحببت حُبرا
إلا مقالة زائِر * تَوَثَّ لى الأحرار نَبرا
متخسعا تحت الهوى * عَشرا ونعت الموت عَشرا

وكان إصحاق الموصلى لا يعتد بشار ويقول : هو كثير التخليط في نثره، وأشعاره مختلفة

لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أدبت أى أترحت إلى البادية .

إِنَّمَا عَظُمُ سُيُومِي حُبِّي * قَصَبُ السُّكَّرِ لَا عَظَمَ الْجَلْدِ
وَإِذَا أُدْنِيتَ مِنْهَا نَهَلًا * غَلَبَ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصَلِ

لو قال : كل شيء حيد ثم أضيف إليه هذا لرفقه . وكان يُقَدَّم عليه مراداً ويقول : هو
أشدُّ استواءً شعره ، وكلامه ومدحه أشبه بكلام العرب ومداحها ، وكان لا يبدؤ أبانواس
البَّنة ولا يرى فيه سيرا .

قال الجاحظ . كان بشار خطيباً صاحب منشور ومزدوج وتجمع رسائل ، وهو من
المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتعنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه
وضروبه . وقال الشعرى حياة حرير وتموض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ حريراً فأعرض
عني ، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس ، وكاتب يدين بالرجعة ، ويكثر جميع الأئمة ،
ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين ، وذَكَرَ مثل ذلك في شعره فقال :

الْأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ * وَالنَّارُ مَحْبُودَةٌ مُدَّ كَانَتْ النَّارُ

وقال بعض الرواة لأبي عمرو : مَنْ أبداع الناس بيتاً ؟ قال الذي يقول :

لَمْ يَطْلُ لَيْسَ وَلَكِنْ لَمْ أَمْ * وَحَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ الْآثَمِ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا * خَرَجْتُ بِالصَّمْتِ عَنْ لَا وَتَمَّ

رَوْحِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَأَعْلَى * أَيْ يَا عَبْدَ مَنْ لَمْ وَتَمَّ

إِنِّ فِي بُرْدَى جَسْمَا نَاحِلَا * لَوْ تَوَكَّاتُ عَلَيْهِ لَأَتَهَدَمَ

وهذه الأبيات لِبشار .

قال : من أمدح الناس ؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بِكَتْفِي حَكْفَهُ أَبْنَى الْعَيْنِ * وَلَمْ أَذِرْ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُمْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ تَوَرُّ الْفَنَى * أَفْنَيْتُ وَأَعْدَانِي فَأَتَلَفْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لِبشار .

ودخل بشارُ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأشده قصيدةً يهجو فيها المصورَ
ويُشير عليه برأى يستعمله في أمره، فلما قُتل إبراهيم خاف بشار، فقلَّب الكُنية وأظهر أنه
كان قاطماً في أوى مُسلم، وحذف منها أبياتاً، وأقولنا :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشِ بدائم * ولا سألُ عمَّ قليلٍ بسالم
قلَّب هذا البيت فقال : أما مسلم :

على الملك الجبار يقيم الردى * ويصرعه في المأزق التلاحيم
كأنك لم تسمع بقتل مُتوح * عظيم ولم تسمع فتك الأعاجم
تحم كسرى رهطه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلام تائم

يعني الوليد بن يزيد

وقد كان لا يحشى انقلاب مكيدِهِ * عليه ولا جرى النحوس الأثام
مقيماً على اللدات حتى بدت له * وجوه المسايا حاسرات النام
وقد ترد الأيام غمراً وربما * وردت ثكولاً بأديات النكاثم
ومروان قد دارت على رأسه الرما * وكان لما أجمت زرز الجراثم
فاصحت بجري سادراى طريقهم * ولا تنق أشاء تلك القفانم
تحدت للإسلام تغفو سيله * وتغرى مقله^(١) ليوث الصرام
فازلت حتى استصر الدين أهله * عليك فعدوا بالسيوف الصوام
مزم وزدا يُخَيِّك يا بن سلامة * فلت يساج من مصيم وصائم

حمل موضع "يا بن سلامة" "يا بن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لما الله قوما رأوك عليهم * وما زلت مرهوسا حيث المطاعيم
أقول لِسَامٍ عليه جلالة * عدا أزيحاً طاشقا للكارم
من العاطمين الدعوة إلى الهدى * جهارا ومن يديك مثل أبر فاطم

هذا البيت حذفه بشار من الأبيات :

سِرَاجٌ لَمِينٌ الْمُسْتَعْيَى وَنَارَةٌ * يَكُونُ طَلَامًا لِلْعَدُوِّ الْمُرَاحِمِ
إِذَا لَمَعَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاتَّعَيْنَ * رَأَى يَصْبِيحُ أَوْ يَصْبِيحُهُ حَازِمِ
وَلَا تَحْمِلِ الشُّورَى عَلَيْكَ عَضَاضَةً^(١) * إِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ
وَمَا حَيْرُكَفٍ أَمْسَكَ الْقُلَّ أَحْتَا^(٢) * وَمَا حَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ نَقَاتِمِ
وَحَلَّ الْهُوَيْنَا لِلصَّعِيفِ وَلَا تَكُ * وَوَمَا هَلَبُ الْحَزَمِ لَيْسَ بِنَاتِمِ
وَحَارِبٌ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا طَلَامَةٌ * شَأْنُ الْحَرْبِ حَيْرٌ مِنْ قَوْلِ الْمَغَالِمِ
وَأَذِي عِلِّ الْقُرْبَى الْمُقَرَّبَ بِهِ^(٣) * وَلَا تُنْهَدِ الشُّورَى أَمْرًا عَيْرَ كَامِ
هَانِكَ لَا تَسْتَطِرِدُ أَلَمٌ بِالْمُسْنَى * وَلَا تُلْعُ الْعَلِيَا سَيْرَ الْمَكَارِمِ
إِذَا كَسَتْ قُرْدًا هَرَكَ الْقَوْمُ مُقْبِلًا * وَإِنْ كَسَتْ أَذَى لَمْ تَهْرُ بِالْمَزَائِمِ
وَمَا قَرَعَ الْأَقْسَامَ مِثْلُ مُشَيْعٍ^(٤) * أَرِيْبٌ وَلَا جَلَّ الْعَمَى مِثْلُ طَلَمِ

قال أبو عبيدة : ميمية بشار هذه أحب إلى من ميمية جرير وانفرزدق . وقال الأحمسي
لبشار : يا أما معاذ ، إن الناس يُعْجَوْنَ من أبياتك في المشورة ؛ فقال له : يا أما سعيد ، إن
المُشَاوِرَ بين صوابٍ يهوى بخرته ، أو خطأ يُشَارِكُ في مكروهه ، فقال له : أنت في قولك هذا
أشعر منك في شعرك .

وَوَقَّى أَبْنُ لِبْشَارٍ لِحَزَنٍ عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَهَرَقَدَسَتْ ، وَقَرَطَ أَمْرَطَتَهُ ، وَدُنْخَرُ حَرْزَتِهِ ؛
فَقَالَ : وَلَدٌ دَهَنَتْهُ ، وَكُلُّ تَحَلَّتْهُ ، وَعَيْنٌ وَعِدْنُهُ فَاتَّطَرَّتْهُ ، وَإِنَّهُ لَتَرَبَّ لَمْ أَجْرِعَ لِلنَّفْصِ
لَا أَفْرِحَ لِلزِّيَادَةِ . وَقَالَ يَرْثِيهِ :

(١) العصاة : المقصة . (٢) الخوافي : الریشات الصعيرات التي وحاح الطائر إذا منها حيث ،
واحدها حافة مدة القوادم . (٣) العِلُّ بالعَمِّ : الحديدة التي تجمع بين يد الأسير وعقه وتسمى : العِلَّة .
(٤) الشا بالفتح جمع شاة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أَحَارَتْنَا لَا مَجْزِي وَأَيْبَى * أَنَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطْلَقِ يَصْبِي
 بُخًى عَلَى رَغْمِي وَصُطَى رُزْنُهُ * وَبُدْلُ أَجَارَا وَجَالٌ قَلْبِي
 وَكَانَ كَرِيمًا المَرُوسَ تَحَالُهُ * دَوَى هَدِ إِشْرَاقِ يَسْرٍ وَطِيبِ
 أَصْبَتْ بِهِ فِي حِينِ أَوْرَقِ عَصَاهُ * وَأَلْقَى عَلَى الْهَمِّ كُلِّ قَرِيبِ
 عَيْتُ لِإِسْرَاعِ الْمَيِّتَةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مَلَيْتُهُ مَجِيبِ

قيل لبشار : إنك لتجىء بالشيء المحيين المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قيل : بينما تقول
 شعرا يُبَيِّرُ القَعَّ وتُجَلِّعُ به القلوب مثل قولك .

إِذَا مَا غَضِبَهَا غَضَبَةً مُصَرِّيَةً * هَتَكَ حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ يُظْهِرَ الدَّمَ
 إِذَا مَا أَعْرَبَهَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ * ذُرَى مَبْرُصَتِي عَلَيْنَا وَسَلَامًا
 تقول :

رَبَابَةٌ رَتَّةُ الْيَتِّ * تَصُبُّ الْحَلَّ فِي الرِّتِّ
 لَهَا عَشْرُ دَجَاحَاتٍ * وَدِيكَ حَسُّ الصَّوْتِ

فقال : لكل واحد ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في ربابة جارحي ، وأنا لا أأكل البيض من
 السوق ، و ربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهي تجمع لي البيض ، وهذا عدها أحسن من
 « فَعَاتَبِيكَ » عذك . وسألته حارية مغنية لبعض ولد سليمان بن علي ، وكانت محسنة بارعة
 الظرف ، أن يذكروا في قصيده ولا يذكروا اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها اليها ، فأصرف
 وكتب اليها :

وَدَايَ دَلِّ كَأَنَّ الْبَدْرَ صَوْرَتُهَا * بَاتَتْ تَفْقِي عَمِيدَ الْقَلْبِ مَكْرَانَا
 « إِنْ الْعَيُونُ الَّتِي فِي ظَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا »
 فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سُوْلَى وَيَا أَمْلَى * فَاسْمِعِي جَسْرَاكَ اللَّهُ إِحْسَامَا
 « يَا حَبْدَا حَبْلَ الرِّيَاسِ مِنْ جَبَلٍ * وَحَبْدَا سَاكِنُ الرِّيَاسِ مَنْ كَانَا »
 قَالَتْ مَهْلًا مَدَّتْكَ النَّفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

« يا قوم أذني لبص الحى عاشقة » والأذن تمسق قبل العين أحياء »
 « فقلت أحسبت أنت الشمس طالعة » أضربت في القلب والأحشاء نيرانا
 « فسمعني صوتاً مطرباً هزجاً » يزيد صبا محافيك أنحنانا
 « يا ليتني كنت ناعماً مفلحة » أوكت من قصب الریحان ريحانا
 « حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها » ونحن في حلقه مثلت إسمانا
 « هزكت عودها ثم أشئت طرباً » تشدو به ثم لا تحميه كتماننا
 « أصبحت أطوع حلق الله كلهم » لأكثر الخلق لى في الحب عضيانا »
 « فقلت أطرقتنا يارب علسا » فهات إلك بالإحساب أولانا
 « لو كنت أعلم أن الحب يقتلني » أعددت لى قتل أن أفاك أكمانا
 « فمت الشررت صوتاً موقفاً رملاً » يذكى السرور ويبيى العين ألوانا
 « لا يقتل الله من دامت مودته » والله يقتل أهل العذر أحيانا »

كان الزوار يسّمون في قديم الدهر الى أيام خالد بن برمك السؤال، فقال خالد : هذا والله أسم استنقله لطلال الخبر، وأرفع قدر الكرم عن أن يسمّى به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأشراف والأحرار وأباء العجم، ومن لعلّه خير ممن يقصد وأفضل أداً، ولكنا نستقيم الزوار، فقال بشار يمدحه بذلك :

حدا خالد في فعله حدو برمك * فحده له مستطرف وأصيل
 وكان ذوو الآمال يدعون قبله * لقطع على الإعدام فيه دليل
 يسّمون بالسؤال في كل موطن * وإن كان فيهم نابه وحليل
 فسماهم الزوار سنا عليهم * فاستأره في المهتدين مدلول

وقال بشار هذا الشعر في مجلس خالد في الساعة التي تكلم خالد بهذا في أمر الزوار، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشار على عُبَيْة بن سَلَم فأنشده سَمّاً مدائح فيه ، وعنده عُبَيْة بن رُوْبَة يشده
 رَجْراً يمدحُه به ، فسمِعَه بشار وحمل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار
 فقال : هذا طراز لا تُحْسِنُه أنت ما أبا معاذ ، فقال بشار : ألي يقال هذا ! أما والله أرجو منك
 ومن أبيك وحدك ، فقال له : عُبَيْةُ أما وأبي قَتَحَا للناس ماب العريب وماب الرَجْر ، وإني
 نلِيقُ أن أسدّه عليهم ، فقال بشار : أرجوهم رجلك الله ، ولما كان من عِدِ عدا على عفة
 أبر سلم وعنده عفة بن رُوْبَة ، فأنشده أرجوزته التي مدحه فيها :

يا طَلَلُ الحَيِّ بذات الصميد * بالله حَبْرُكَيْفَ كَتَبَ بَعْدِي
 أَوْحَشْتُ مِنْ دَمْدَمٍ وَتَرَبُّدٍ * سَقِيًّا لِأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ
 قَامَتْ تَرَامَى إِذْ رَأَيْتُ رَأَيْتُ وَحْدِي * كَالشَّمْسِ تَحْتَ الرِّيحِ الْمَقْدِّ^(١)
 صَدْتُ بِحَدِّ وَحَلَّتْ مِنْ حَدِّ * ثُمَّ اثْنْتُ كَالنَّفْسِ الْمُتَرَدِّ
 عَهْدِي بِهَا سَقِيًّا لَهُ مِنْ عَهْدٍ * تُخْلِفُ وَعْدًا وَتَنْفِي بِوَعْدٍ
 وَحَى مِنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدٍ * وَزَاهِرٍ مِنْ سَيْطٍ وَحَفْدٍ
 أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ * أَوْفَاقَ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمُجْتَهْدِ
 يَلْقَى الصَّحَى رِيحَانَهُ بِسَحْدٍ * بُدِّلْتُ مِنْ ذَلِكَ نَكْبِي لَا يُجْعَدِي
 وَاقِفٌ حَقْلًا مِنْ سَعَى بِحَدِّ * مَا ضَرَّ أَهْلَ الْوَلَكِ صَعْفُ الْخَدِّ
 الْحُزْنُ يُنَلِّحِي وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ * وَلَيْسَ لِلْخَفِّ مِثْلُ الرَّدِّ
 وَالنَّصْفُ يَكْمِيكَ مِنَ التَّحْدِي * وَصَاحِبِ كَالنَّمْلِ الْمُجْتَهْدِ
 حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ حِلْدِي * أَرْقُبُ مَهْ مِثْلُ يَوْمِ الْوَرْدِ
 حَتَّى مَضَى عَيْرَ فَيْدِ الْعَقْدِ * وَمَا دَرَى مَا رَعَى مِنْ زُهْدٍ
 إِسْلَمَ وَحَيَّتْ أَبَا الْمُلْدِ * مِفْتَاحُ بَابِ الْحَدَثِ الْمُفْتَدِ
 مُشْرَكَ النَّيْلِ وَرَى الزَّيْدِ * أَعْرَ لَأَمِنْ ثِيَابِ الْحَمْدِ

ما كان مني لك غير الود * ثم شاء مثل ربح الود
 نَسَجْتُهُ فِي مُحْكَمَاتِ اللَّذِّ * فالهَسَ طِرَازِي غير مُسْتَرَدِّ
 لله أيامك في مَعَدِّ * وفي بَيِّ حَقَّانٍ عِيرَ مَعَدِّ
 يوماً مَدَى طِلْحَةِ عَدِّ الْحَدِّ * ومثله أودَعَتِ أرض الهد
 بِالْمُرْهَقَاتِ وَالْحَدِيدِ السَّرْدِ * وَالْمُقَرَّمَاتِ الْمَعْدَاتِ الْجُرْدِ
 إِذَا الْحَيَا أَتَكَدَى بِهَا لَا تُتَكَدَى * تَلَحَّمْ أَمْرًا وَأُمُورًا تُشْدَى
 وَأَنْ حَكِيمٌ إِنْ أَمَّاكَ يَرْدَى * أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ الرَّقْدِ
 حَيْثُ تَحْمِلُهِ الْمَيْدِ * فَانْهَدْ مِثْلَ الْحُلِّ الْمُنْهَدْ
 كُلَّ أَمْرٍ رَهْءٌ بِمَا يُؤْدَى * وَرَبُّ دِي تَاجِ كَرِيمِ الْجَدِّ
 كَالْكَسْرَى وَكَأَلْ بُرْدِ * أَنْكَ حَافٍ عَنِ سَبِيلِ الْقَصْدِ
 * فَصَلِّتَهُ عَنِ مَالِهِ وَالْوُلْدِ *

فطرب عفتة سلم وأجرل صلتته، وقام عفتة بن رؤية نخرج عن المجلس يحري وهرب
 من تحت ليلته فلم يعد إليه .

قال الحافظ : فانظر الى سوء أدب عفتة بن رؤية وقد أجمل بشارً بحصره وعشرته،
 فقال له بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلم حلق الله به، لأنه قال له وقد فأنره بشعره :
 أنت يا بني دهان الشعر، إذا ميت مات شعرك معك، فلم يؤحد من يرويه بعدك، فكان
 كما قال له، ما يُعرف له بيتٌ واحد ولا خبرٌ غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدال على
 تخلفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشاري هوَ له كانت بالبصرة، ثم خرجت مع زوجها الى عُمان :
 هوى صاحبي ربح الشمال إذا جَرَتْ * وَأَشْفَى لِقَابِي أَنْ تَهَبَّ جُحُوبُ
 وما دالك إلا أنها حين تنتهي * تَأْخَى وَفِيهَا مِنْ عِيْدَةِ طِيبِ

(١) طحمة موضع صد الساج ومد إمرة في طريق لصرة الى مكة، ومنه يوم طحمة لنزير يروع على قانوس
 ابن المدر بن ماء البهاء . (٢) المقررات الخليل التي يقرب مرسلها، سطرها للكرامتها .

عَظِيرِي مِنَ الْغَدَالِ إِذْ يَسْأَلُونِي * سَقَاهَا وَمَا فِي الْمَازِلِينَ لَيْبِ
 يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَوَى * فَعَلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
 إِذَا نَطَقَ الْقَوْمُ الْحُلُوسُ فَإِنِّي * مُكِبٌّ كَأَنِّي فِي الْجَمِيعِ عَرِيبُ
 حَاءُ أَوْ الشَّمْعَمَقَى إِلَى بَشَارٍ يَشْكُو إِلَيْهِ الضَّيْقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ
 بَشَارُ : وَاللَّهِ مَا عَدَى مَا يَضِيقُكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَقَامَ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ
 أَنَا الشَّمْعَمَقَى وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَشَاءَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِجْمَاةٍ دَرَاهِمَ ، فَقَالَ لَهُ بَشَارُ :
 يَا وَاحِدَ الْعَرِيبِ الَّذِي * أُمِمِّي وَلَيْسَ لَهُ بَطْنٌ
 لَوْ كَانَ مِثْلُكَ آخِرًا * مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا هَهِيرُ
 فَأَمَرَ لِبَشَارٍ بِأَلْفِي دَرَاهِمَ ، فَقَالَ أَوْ الشَّمْعَمَقَى : نَفَعْتَنَا وَمَعْنَاكَ يَا أَمَا مَعَاذُ ، فَجَعَلَ
 بَشَارٌ يَضْحَكُ .

دَحَلُ يَزِيدُ بْنُ مَسْصُورٍ الْخَمِيرِيِّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَبَشَارِيْنَ يَدِيهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحُهُ
 بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَزِيدُ ، وَكَانَتْ فِيهِ عَقْلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، مَا صَنَعْتُكَ ؟ فَقَالَ .
 أَتَقْبُّ اللُّؤْلُؤَ ، فَصَحَّحْتَ الْمَهْدِيَّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَارٍ : أَصْرُبُ وَيْلَكَ ! أَتَتَّكَدِرُ عَلَى خَالِي ؟
 فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْبَحَ هُ . يرى شيئا أعمى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صَاعَتِهِ .
 وَقَفَّ عَلَى بَشَارٍ مَعْصِ الْجُبَانِ ، وَهُوَ يَنْشِدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : أَمْتَرْتُ شِعْرَكَ هَذَا كَمَا تَسْتَرُ
 عَوْرَتَكَ ، فَصَحَّحْتُ شَارَ سَدِيهِ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَتُ ؟ وَيْلَكَ ! قَالَ : أَنَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
 رَحِلْ مِنْ بَاهِلَةِ ، وَأَخَوَالِي سَلُولُ ، وَأَصْهَارِي عُكْلُ ، وَأَسْمَى كَلْبُ ، وَمَوْلَدِي بَأْصَاخُ^(١) ،
 وَمَتَرَلِي ظُفْرُ لَبَلٍ ، فَضَحَّكَ بَشَارُ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبُ وَيْلَكَ ! فَأَنْتَ عَتِيقُ لَوْمِكَ ، قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
 أَنَّكَ أَسْتَرْتَنِي بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَحَّمَتْهُ بَغْلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَارُ اسْتَرَدَّكَ يَزِيدُكَ .
 وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَحْمِلُونَ جَنَازَةً وَهُمْ يُسْرِعُونَ الْمَشَى بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَمْ يَسْرِعِينَ ؟ أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ
 فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ .

رمع علّامُ بشارٍ إليه في حساب نفقته حِلَاءٌ مِثْرَاهُ عشرة دراهم، فصاح به بشار وقال :
والله ما في الدنيا أعجب من حِلَاءِ مِثْرَاهُ أعمى عشرة دراهم، والله لو صَدِثْتُ عَيْنُ الشمس
حتى يبقى العالَمُ في ظُلْمَةٍ ما ملئتُ أجرةً من يحلوها عشرة دراهم .

قال قُذَامَةُ بنُ نُوحٍ : كان بشارٌ يحشو شعره إذا أَعُوْزَتْهُ القافية والمعنى بالأشياء التي
لا حقيقة لها، من ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه : « عني للغريص يا بن قان »
ف قيل له : من ابن قان هذا ؟ لسا يعرفه من مُعَيِّ البصرة، قال : وما عليكم منه ؟ أَلَمْ كُنْ قَلْبُهُ
دَيْنٌ فَنُطْلُوهُ به ، أو تَأْتُرْ تَرِيدُونَ أَنْ تُذَكِّرُوهُ ، أو كَفَلْتُ لَكُمْ به ، فإنا عاب طالبتعموني
بإحضاره ، قالوا : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإما أردنا أن نعرفه ، فقال : هو رجل
يعتلى ولا يجرح من يتي ، فقالوا له : إلى متى ؟ فقال : مد يوم وليلة وإلى أن يموت ، وذَكَرَ
أيضا في هذه القصيدة « البردان » ف قيل له : يا أبا معاذ ، أين البردان هذا ؟ لسا نعرفه
بالصرة ، فقال : هو بنت في بنتي تسميته بالبردان ، أمليكم من تسميتي داري وبوتها شيء
فَسأَلُوهُ عَه .

قالت امرأةٌ لبشار : أئى رجل أنت لو كُتِّتَ أسود الحية والرأس ، قال : أما علمتِ
أن بيص المرأة أشهر من سود العِرامان ؟ فقالت له : أما قولك حس في السمع ، ومن لك
أن يحسن شيك في العين كما حسن قولك في السمع ؟ فكان بشار يقول : ما ألحمني قط غير
هذه المرأة .

دعاه رجل إلى مرله فأكل وشرب ، ولما أراد الانصراف قامت حارية للرجل وأخذت
بيده ، فلما صار بالصحن أومأ إليها ليقبلها ، فأرسلت يدها من يده ، فجعل يحول في العُرْصَةِ
وحرج مؤلى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ ؟ فقال : أذنتُ ذنباً ولا أبرح أو أقول شعراً ،
فقال :

أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنَ السَّيِّئَاتِ * وَاسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَعْلَتِي
تَناولتُ ما لم أَرِدْ تَيْسَلُهُ * عَلَى جَهْلِ أَمْرِي وَوَسْكَرَتِي

ووالله والله ما حنته * لعمري ولا كان من هنتي
 وإلا قيت إذا ضائعا * وعذبي الله في ميني
 من نال خيرا على قبلي * فلا مارك الله في قلتي

لما كثر استنار نساء الصرة وشبانها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أَدعى لأهل هذه المدينة إلى العشق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يعطانه وكان وأصل بن عطاء يقول: إن من أهدع حائل الشيطان وأعواها لكلمات هذا الأعمى المُنهد، فلما كثر ذلك وأنهى خبره إلى المهديّ ساءه عن ذكر النساء وقول التشيب، وكان المهديّ من أشد الناس عيئه، فقال في ذلك:

يا مَظْطَرًّا حَما رأيتُه * في وجه جارية قَدَّيتُه
 سَعَتْ إلى تُسُومِي * ثَوَّبَ الشاب وقد طويته
 والله رَبِّ محمدٍ * ما إن عَدَرْتُ ولا نَوَيْتُه
 أَمْسَكَتْ عِيكَ وربما * عَرَضَ اللّاءُ وما آتَيْتُه
 ابن الخليفة قد أبى * وإذا أبى شيئا أبىته
 ومُحَمَّدٍ رَحِيصَ النَّسا * فَبَكَى عَلَيَّ وما بَكَيتُه
 وَيُسْوَقي بَيْتُ الحَمدِ * بِأِذا أَذْكَرْتُ وأبى بَيْتُه
 قام الخليفة دَوَّقه * فَصَبَرْتُ عَهْ وما قَلَّيتُه
 وَنَهَيْتِ المَلِكُ المَهما * مُنْ عَنِ النِّساءِ وما عَصَيْتُه
 لا بل وَفَيْتُ فلم أُصِغْ * عَهدا ولا رَأيا رَأَيْتُه
 وأنا المُطَّلَّ على العِدا * وإذا غلا الحَمدُ أَشْتَرَيْتُه
 أَصْنِي الخَلِيلَ إذا دَما * وإذا نَوى عَنِّي ما بَيْتُه
 وأَمِيلُ في أَنَسِ التَّديي * مِمنْ مِنَ الحَياءِ وما أَشْتَيْتُه
 وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويصح بها .

وكان لبشار حمة نداء، هات مهم أربعة وفق واحد يقال له : البراء، فركب في زورق
يُرِيد عبور دجلة الموراء ففرق، فكان بشار يقول : ما حير في الدنيا بعد الأصدقاء؛ ثم رنى
أصدقاءه قوله :

يا بى موسى ماذا يقول الإمام * في قاة بالقلب منها أوام
تُ من حبا أوقر الكا * س ويهو على فؤادى الميام
لم يكن بينها وبينى آلا * كُتُبُ العاشقين والأحلام
يا بى موسى أسقنى ودع عك سنى * اب سلسى حى وفي آحشام
رب كاس كالسبيل تعلد * ت بها والعيون عنى نيام
حُبست للشراء في بيت رأس * عتقت عائسا عليها الختام
نفعت نفعة قهزت ندى * بنسب وأنشق عنها الركام
وكان المقلول منها إذا را * ح شج في لسانه يرمام^(٢)
صلمته الشمول حتى بعيد * ه أنكار وفي المفاصل خام
وهو فاق الأطراف حيث به الكا^(٣) * س ومات أوصاله والكلام
وفى يشرب الندامة الما * ل ويمشى يروم ما لا يرام
أهدت كاسه الدمانير حتى * دعب العين وأسقر السوام
تركته الصباء يرو عين * نام إنسانها وليست تام
جن من شربة تملأ أخرى * وبكى حين سار فيه المدام
كان لى صاحباً فأودى به الدهر * سر وفارقته عليه السلام
بنى السس بعد هلك ندما * نى وقوعا لم يشعروا ما الكلام
تخزور الأيسار لا كيد^(٤) فيه * لا يباغ ولا عليها سنام

(١) بيت رأس : قرية بالشام من قرى حلب يربط إليها البحر . (٢) البرام : لغة يندى بها وهو
ورم حار يمرض للحجاب الذى بين الكبد والأعضاء ثم يتصل الى الدماغ . (٣) حبت بالإدغام لغة في حى
كرسى . (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يَا مَوْسَى فَقَدْ أَحْبَبَ عَلَى الْعِيَةِ * سَ قَدَاءُ وَى الْفُؤَادَ سَقَامَ
 كَجِفْ يَصْفُو لَى الْعَيْمُ وَحِيدًا * وَالْأَحْلَاءُ فِى الْمَقَابِرِ هَامَ
 نَفْسَتَهُمْ عَلَى أُمِّ الْمَسَايَا * فَأَمَاتَهُمْ بَعْنِفٍ فَمَا مَوَا
 لَا يَبْعِضُ أَنْجَامُ عَيْنِي طَلِيمِ * إِنَّمَا عَايَةُ الْحَرِيرِ السَّحَامُ
 وَقَالَ فِى نَهْيِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ .

وَالله لَوْلَا رِصَا الْخَلِيفَةِ مَا * أُعْطِيتُ صَنِيعًا عَلَى فِى نَحْنِ
 وَرَبَّمَا حَبِيرَ لَّابْنِ آدَمَ وَى الْإِ * كَرُّهُ وَشَقَّ الْمَوَى عَلَى الْبَدَنِ
 فَاشْرَبَ عَلَى أُنْبِيَةِ الرَّمَانِ مَا * تَلَقَى رَمَانًا صَمًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
 اللَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ هَوَاصِلِهِ * وَالْمَرْءُ يُعْنِى عَيْنًا عَلَى الْكُفْرِ (٢١)
 قَدْ عَشْتُ بَيْنَ الرِّيحَانِ وَالزَّوَارِ * هَرَى طِلَّ مَحَلِّسِ حَسَرِ
 وَقَدْ مَلَأْتُ الْبِلَادَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ * حُورَ إِلَى الْقَيَّرَانِ فَالْمِ
 شِعْرًا تُصَلِّى لَهُ السَّوَاتِقُ وَالشَّ * يَبُ صَلَاةَ الْفُؤَادِ لِلْوَرَى
 ثُمَّ نَهَانِ الْمَهْدَى فَلَا صَرْفَتْ * عَصَى صَنِيعَ الْمَوْفِقِ الْقَيْنِ
 فَالْحَمْدُ لله لَا شَرِيكَ لَهُ * لَيْسَ سَاقِي شَيْءٍ عَلَى الزَّمَنِ

وَأَفْشَدُ الْمَهْدَى قَصِيدَتُهُ الَّتِي أَوَّلَهَا :

تَحَالَلْتُ مِنْ مَهْرٍ وَعِى حَارَتِي مَهْرَ * وَوَدَّعْتُ نَمًا بِالسَّلَامِ وَالْبَشْرِ
 وَقَالَتْ سُلَيْمَى فَيْكَ عَا حَلَاةَ * مَحَلَّكَ دَائِي وَالزِّيَارَةَ عَنْ عَمْرِى (٢٢)
 أُنْحَى فِى الْمَوَى مَالَى أَرَاكَ جَفَوْتَا * وَقَدْ كَسَتْ تَقَعُونَا عَلَى الشُّرِّ وَالْبَشْرِ
 تَنَافَلْتُ إِلَّا عَنْ يَدِ اسْتَفِيدُهَا * وَزَوْرُهُ أَمْلَاكَ أَشَدَّهَا أَزْرَى
 وَأَخْرَجْنِي مِنْ وَزْرِ نَحْسِينَ حَمَّةَ * فَقَى هَاشِمِي يَقْشَعِرُ مِنَ الْوِزْرِ

(١) عَيْمٌ : حَسَدُهُمْ . (٢) الْكُنَى وَاحِدَهَا كُنَّةٌ وَهِيَ حُرْبٌ وَحَجَرَةٌ تَنْقُى فِى الْبَيْتِ مِنْ رَمَدٍ يَسَاءُ عِلَاحُهُ .

(٣) الْعَمْرُ : قُبَّةُ الرِّيَازَةِ ، يُقَالُ : مَا تَأْتِيهَا إِلَّا عَنْ عَمْرَأَى بِعَدْلَةٍ رِيَاةٍ وَطُولِ عَهْدٍ .

دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ * سَلِمِي وَلَا صَفْرَاءَ مَا قَرَّ قَرُّ الْقَمَرِ
وَمُضْغَرَّةَ مَالِ زَعْرَابٍ حُلُودُهَا * إِذَا أَجْتَلَيْتُ مِثْلَ الْمَفْرُطَةِ الْعَصْرِ
مَرَّتْ تَقَالِ الزُّنُفُ حَبَّتْ تَلُومِي * وَلَوْ شَهِدْتُ قَبْرِي لَقَسَلْتُ عَلَى قَبْرِي
تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَلَامِ وَصَالَهَا * وَرَأَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ مَانَحَرُ
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * لَقَسَلْتُ فَاهَا أَوْ لَكَانَ بِهَا هِطْرِي
لَمَرَى لَقَدْ أَوْقَرْتُ نَعْسِي خَطِيئَةً * وَأَنَا الْمَلْزُودُ وَقُرَا عَلَى وَقَرِ
تَسَلَّى عَنِ الْأَحْصَابِ صَرَامُ حُلَّةٍ * وَوَصَالَ أُخْرَى مَا يُقْسِمُ عَلَى أَمْرِ
وَرَكَّاضِ أَمْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى * حَرَّتْ جَمْعًا ثُمَّ اسْتَفْزَوْتُ فَلَا تَحْزَى
فَأَصْبَحَ مَا يُرَكَّبُنِ إِلَّا إِلَى الْوَعَى * وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْدَى عَلَيَّ وَلَا أُرَى
فَهَذَا وَإِنِّي قَدْ شَرَعْتُ مَعَ الثَّنَى * وَمَاتَ هَمُومِي الطَّارِقَاتِ مَا تَسْرَى

ثم قال يصف السفينة :

وَعِدْرَاهُ لَا تَجْزَى بِلَحْمٍ وَلَا دَمٍ * قَلِيلَةُ شَكْوَى الْأَيْنِ مُلْجَمَةُ الدُّبْرِ
إِذَا طَلَعَتْ فِيهَا الْقُلُوبُ تَشَخَّصَتْ * تُرْسَانَهَا لَا فِي وَعُوثٍ وَلَا وَغْرِ
وَإِنْ قَصَدْتُ رَلَّتْ عَلَى مَتَصَبٍ * ذَلِيلَ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَقْرَى كَمَا تَحْمَى
تُتَلَّحِبُ تَيَّارُ الْحُورِ وَرَبْمَا * رَأَيْتُ قُفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَحْمَى
إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَائِمٍ فِي بُبُوقَةٍ * وَمِنْ حَيْثُ فِي الْمُلْكِ وَالْعَدَدِ الدُّرِّ
مِنَ الْمُشْتَرَيْنِ الْحَدَّ تَنْدَى مِنَ الدَّيْ * يَدَاهُ وَيَتَنَدَّى عَارِصَاهُ مِنَ الْعِطْرِ
فَالزَّمْتُ حَبْلِي حَسْلٍ مَنِ لَا تَنْبَهَ * عُمَاءُ النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرِي وَلَا يَدْرِي
بِي لَكَ عَبْدُ اللَّهِ بَيْتَ حِلَافَةٍ * نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالذُّسْرِ
وَصَدَّكَ عَهْدٌ مِنْ وَصَاةِ مُحَمَّدٍ * فَوَعَّتْ بِهِ الْأَمْلَاقُ مَنْ وَلَدَ النَّصْرِ

(١) كان قد قال : تيار الحور، صاه بذلك سيويه، حله تيار الحور .

(٢) الدرر، الكتبخ .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السَّاقِيانِ صَبَا شَرَابِي * وَأَسْقِيَانِي مِنْ رِيْقِي بِبِصَاءِ رُودِ
إِنْ دَأَى الظَّلَاوَانُ دَوَانِي * شَرَبُهُ مِنْ رُصَابِ تَمْرِ بَرُودِ
ولما مَضَحَكَ كَفَّرَ الْأَقَاحِي * وَحَدِيثُ كَالْوَشِيِّ وَشِيِّ الْبُرُودِ
نَزَلَتْ فِي السَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ الْفَلَا * بِهَا وَتَأَلَّتْ زِيَادَةُ الْمُسْتَرِيدِ
ثم قالت نلفاك بعد ليالي * والليالي يُثْلِينِ كُلَّ حَدِيدِ
عندها الصَّرعُ عَنْ لِقَائِي وَعَدِي * زَهْرَاتُ بَاكُلْنَ قَلْبَ الْحَدِيدِ

طَرِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ : مَنْ لِي عَمَزَ كَأْسِي هَذِهِ مِنْ رِيْقِي سَلَمِي ، هَيَّوِي طَمِي ، وَتَطْلَعَا عَلَيَّ ،
ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إِنْ فَاتَنَا ذَلِكَ فَهَذَا .

مدح بشار خالد بن برمك فقال فيه :

لعمري لقد أبجدي على أبنِ برمك * وما كُلُّ مَنْ كَانَ الْعَنَى عِنْدَهُ يُحْدَى
حَلَبْتُ شِعْرِي رَاحَتِهِ فَتَرْتَا * سَمَاحًا كَمَا دَرَسَ السَّحَابُ مَعَ الرِّعْدِ
إِذَا جَبَّتْهُ لِحْمَدُ أَشْرَقَ وَجْهُهُ * إِلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْعِصْرَامَةَ بِالْحَمْدِ
لَهُ نِصْمٌ فِي الْقَوْمِ لَا يَسْتَنْبِيهَا * حَرَاءٌ وَكَيْلُ النَّاجِرِ الْمُتَذِ بِالْمُتَذِ
مُعِيدٌ وَمِثْلَافٌ سَبِيلُ ثَرَانِهِ * إِذَا مَا غَدَا أَوْ رَاحَ كَالْجَهْرِ وَالْمُتَذِ
أَحَالِدُ إِنْ الْحَمْدَ يَبْقَى لِأَهْلِهِ * حَمَالًا وَلَا تَنْقُ الْكُورُ عَلَى الْكَذِّ
فَاعْلَمِمْ وَكُلُّ مَنْ عَارَى مُسْتَدِيرٌ * وَلَا تُنْقِهَا إِبِ الْعَوَارِي لِلرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم ،
وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه ، وقال أبوه يحيى
ابن خالد : آنسُ ما أوصاني به أبي العملُ بهذين البيتين .

وكان إصحاك الموصلي يطمس على شعر بشار ويصع منه ، ويدكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا ، فقل له : أقول هذا لمن يقول :

إذا كست في كل الأمور مُعَاتِبًا ■ صديقك لم تلق الندي لا تعاتبه
فَمَشَّ واحدًا أو وصل أحاك فإنه ■ مُقَارِفٌ ذيب مره ومُجَانِبَةٌ
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القَدَى ^(٢) . ظلمت وأى الناس تصوم مشاربه

وهي من عَرَر قصائده ، مدح بها عمر بن هُبَيْرَة ، ومها قوله :

يحاف المسايا إن ترطت صاحبي ■ كأن المسايا في المقام تُنَاسِبُه
فقلت له إن العراق مُقَامُه ■ ويخيم إذا هتت عليك جِئَانُه
لألقى بي عيلا إن قما لهم ■ تريد على كل العمال مراتبه
أولئك الألى شقوا العنى سيوفهم ■ عن العين حتى أصر الحق طالبه
وحين بكح الليل يزحف بالحصى ■ والنشوك والخطى حمرًا تغالبه
صلونا له والشمس في جذر أمها ■ سلالما والطلل لم يفر ذائبه
نصرب يذوق الموت من داق طعمه ■ وتترك من نجي المرار مثالبه
كأن مثار البقع فوق رهوسا ■ وأسيافنا ليسل تهاوى كواكبُه
بعثا لهم موت العجاة إننا ■ ببو الموت حقا طيبا سبائبُه ^(٣)
فراحوا فريق في الإسار ومثله ■ قبيلا ومثل لآد بالبحر هاربُه

ومنها :

إذا الملك الجبار صرَّ خدَّه ■ مشيا إليه بالسيف نعاتبه
رؤيدا تصاهل العراق حياذنا ■ كألك بالصحاك قد قام نادية
وسام لمروان ومن دونه الشحا ■ وهول كلج البحر جاشت غواربه

(١) مغارف دب محالطه ومرتكبه من قارف الخطيئة إذا حالها . (٢) القدي . ما يسقط

في الشراب من داب أو غيره . (٣) السبات جمع سبية ، وهي شقة من النكاح رفيقة يريد بها الأولية .

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْمُنَايَا بَنَاتَهَا * بِأَسَافِنَا إِنَّا وَدَى مَن نَحَارُهُ
وَكَمَا إِذَا دَبَّ الْمَدْلُ لِسُخْطَا * وَرَأَقِبَا فِي طَاهِرٍ لَا زِرَاقُهُ
رَكِبَا لَهُ جَهَنَّمَا بِكُلِّ مُتَّقِفٍ * وَأَبْيَسَ قَسْنَسَقِ الدَّمَاءِ مَصَارِيَهُ
وَمِنْهَا :

فَلَمَّا تَوَلَّى الْحَيَّ وَأَضْعَرَ الثَّرَى * لَعَلَّى الصَّيْفَ مِنْ تَجَمُّعٍ تَوَقَّدَ لِأَهْنُ
وَطَارَتْ عَصَافِيرُ الشَّقَاقِ وَأَكْتَسَى * مِنَ الْآلِ أَمْثَالُ الْمَجْرَّةِ نَاصِبُهُ
عَدَّتْ طَائِفَةُ شُكُوها مَصَارِهَا الْعُدَى * إِلَى الْجَلَابِ إِلَّا أَبَا لَا تَحَاطِبُهُ
وَمِنْ حَسَنِ شِعْرِهِ :

لَوْ كُنتَ تَلْقَيْنَ مَا تَلَقَى قَسَمْتُ لَهَا * يَوْمًا عَيْشَ بِهِ مَعَكُمْ وَتَشِيخُ
لَا حَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِنْ كُنَّا كَذَا أَبَدًا * مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي الْقُبْلَةِ حَرَجُ
مَنْ رَأَقَبَ النَّاسَ لَمْ يَطْمَرْ بِحَاجَتِهِ * وَفَارَ بِالطَّيِّاتِ الْعَايِكُ الْأَلْهَجُ
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ هُمَا مَا يَفَارِقُنِي * وَشُرْعًا فِي فَوَادِي الدَّهْرِ تَعْتَلِحُ
وَقَالَ يَهْجُو عِيْدَ اللَّهِ بِرُقُوعَةٍ :

حَلِيلٌ مِنْ كَتَبِ أَعْيُنَا أَحَاكِمًا * عَلَى دَهْرِهِ إِذَا الْكَرِيمَ مُعِينُ
كَأَنَّ عِيْدَ اللَّهِ لَمْ يَلْقَ مَاحِدًا * مَحَافَةَ أَنْ يَرْجُو نَدَاءَ حَرِيرِ
وَلَا تَجْتَزِلَا بِمَحَلِّ ابْنِ قُرْعَةٍ لِه * وَلَمْ يَدَّرْ أَنْ الْمَكْرَمَاتُ تَكُونُ
فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تُذَرِّكِ الْعَلَا * وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ
إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ * فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَيِينُ

وَقَدْ عَلَى خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ فَأَنْشَدَهُ :

أَخَالِدُ لَمْ أَخِطِ إِلَيْكَ بِقَعَةٍ * سِوَى أَنْفِي عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْجِدِّ حَاجَتِي * فَأَيُّهُمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ

(١) اللاتة : القطعة من الخبز - والحلأب : دكرها ، ومعنى شكواها الصدى ، فأصارها أن السلطان قد تبين وأحداقها
صارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحار والأتس - (٢) أي لم اطلب معروضا موسلا اليك عهد أو قرابة -

فإن تُعطى أفرع عليك مداعى • وإن تاب لم يضرب على سِداد
ركابى على حَرَفٍ وقلَى مشيخ • ومالى مَرض الباخلين بلاد
إذا أُنكرتى بلدة أو يكرهها • نَحَرَجَت مع البازى على سَواد

فدعا خالد مَرمه آلاف ديارى أرساة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
وآخرين يديه، وآخر حلمه، وقال: يا أبا معاذ، هل استقل العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال:
استقل والله أيها الأمير.

قال أناس بعد الحميد: نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس بن خيلان،
وكان معهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتهم ويشدهم أشعاره التى يمدح بها قيسا، فيحلونه
لذلك ويعطونهم، وكان نساؤهم يجلس معه ويتحدثن إليه ويشدهن أشعاره فى الغزل،
وكن كثير ما آتى فى ذلك الموضع فاسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما فاذا هم أرتحلوا، ففقت
الى بشار فقلت: يا أبا معاذ: أعلمت أن القوم قد أرتحلوا؟ قال: لا، فقلت: فاعلم، قال:
قد علمت لا أعلمت، ومصبت، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس يشدون:

دعا هراق من تهوى أنا • هاض الدمع وأحرق الحنان
كان شرارة وقعت قلبي • لها فى مقلتي ودمى أسنان
إذا أنشئت أو نسمت عليها • رياح الصيف هاج لها دحان

فعلمت أنها لبشار، فأتيتها فقلت: يا أبا معاذ، ما دعى اليك؟ قال: دنب عراب الين،
فقلت: هل ذكرنى سير هذا؟ قال: لا، فقلت: أنشدك الله ألا تزيد، فقال: لمص
لشأنك فقد تركك.

مدح بشار المهدي فلم يعطه شيئا، فقيل له: لم يستجد شعرك، فقال: والله لقد
قلت فيه شعرا لو قيل فى الدهر لم يُحش صرْفُه على أحد، ولكنا نكذب فى القول فيكتب
فى الأمل.

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقبلاً بجزان ونرح اليه ، فأنشده قوله فيه :

أَتَيْتُ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْبُ * وما شعرتُ أن التَّوَى سَوْفَ تَشَعْبُ
 يرى النَّاسُ مَا تَلْقَى بِزَيْبِ إِدْمَاتِ * عجيباً وما تُخْفِي بِزَيْبِ أَعْتَبِ
 وقائلة لى حِينَ حَدَّ رَحِيلَا * وأجفانُ عَيْدِهَا تَجَسُّدُ وَتَسْكُبُ
 أَغَادِي إِلَى حَرَانِ فِي عَيْرِ شَيْعَةٍ * وذلك شَأْنٌ عَنْ هَوَاهَا مُغْتَرِبِ
 وَقُلْتُ لَهَا كَلَّفَتْنِي طَلَبَ الْعَنَى * وليس وراءَ آيِنِ الْخَلِيفَةِ مَذْهَبِ
 سِيكُنِي قَتَى مِنْ سَعْبِهِ حَدَّ سَيْفِهِ * وَحُكُورُ جِلَاقٍ^(١) وَوَجْنَاهُ^(٢) دِغْلِبِ
 إِذَا اسْتَوَحَّرْتَ دَارَ عَلَيْهِ رَمَى بِهَا * بَاتَ الصَّوَى مِنْهَا رَكُوبٌ وَمُضْعَبِ
 فَسَدَيْ إِلَى يَوْمِ أَرْتَحِلْتَ وَمَا لِي * زَوْرَكَ وَالرَّحَالَ مِنْ جَاءِ يَصْرِبِ
 لَمَلِكٍ أَنْ تَسْتَيْفِي أَنْ رَوْرَقِي * سُلَيْمَانَ مِنْ سِرِّهِ الْهَوَا جَرْتُعَبِ
 أَغْرَى هَشَامِي الْقَهَاءِ إِذَا أَتَيْتِي * نَمَتْهُ بَدُورٌ لَيْسَ فِيهِ كَوَكَبِ
 وَمَا قَصَدْتُ يَوْمًا خَلِيلِينَ حِيلَهُ * فَتَصْرَفُ إِلَّا عَنْ دِمَاءِ تَصَبُّ

فوصله سليمان بحمسة آلاف درهم ، وكان بجفل ، فلم يرَها وأصرف عنه مضطرباً ، فقال :

إِنْ أَمْسَ مَقْصِدُ الْيَدَيْنِ عَنِ الْيَدَى * وَعَنِ الْعَدُوِّ مَحْجِسِ الشَّيْطَانِ
 مَقْدُ أَرْوَحِ عَلَى الْكَلَامِ مَسْلُكًا * تَلْجُ الْمَقِيلُ مَتَمَّ التَّدَامِ
 وَظِلُّ عَيْشٍ عَشِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ * تَشْدَى يَدَى وَيُحَافُ قِرْطُ لَسَانِ
 أَزْمَانِ حَيْثَى الشَّيْبَابُ مَطَاوِعِ * وَإِذَا الْأَمِيرُ عَلَى مِنْ حَرَانِ
 رِيمٍ بِأَحْوِيَّةِ الْعِرَاقِ إِذَا بَدَا * بَرَقَتْ عَلَيْهِ أَصْكَالُ الْمَرْجَانِ
 مَا تَحْكُلُ بِيَمِينِهِ مَقْتَلِكِ مِنَ الْقَدَى * وَبِوَشْكَ رَوِيَّتِهَا مِنَ الْهَمَلَانِ
 فَلَقَرْتُ مِنْ تَهْوَى وَأَنْتِ مَتِيمٌ * أَشَقَى لَدَاكَ مِنْ بِي حِرْوَانِ

(١) اللقاي : الرجل العظيم . (٢) وحاء دغاب أى ناقة شديدة مريية .

قديم بشار على المهديّ بالرضاة فحمل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشييب
حسن، فنهاه عن التشييب لِعبرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما حُتُّهُ أبْسُرُهُ * ولم أجدْ راجبا ومُحتَاجا

يزير المبر الأشمَ بَعْلَتي * به وأقواله إذا خطا

نُتِمَ علاه في السديّ كما * يُنَمِّمُ ماءَ الريحانِ مُتَبَا

قال : وقد طلب منه أن يُشده شيئا من عزله :

وقائل هات شوقًا فقلتُ له * أناثمُ أنتَ يا عمرو بن سَمْعان

أما سَمِعْتَ بما قد شاع في مُصر * وفي الحليقيين من بكرٍ وقَطَّان

قال الخليفة لا تَنسُ بِجارية * إياك إياك أن تَنسُقَ بمصيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تُطل، وأجعل الحُب قاصيا بين الحبين

لا تُنَمِّمُ أحدا، فقال :

أجعل الحبَّ بين حبيّ وبني * قاصيا لاني به اليوم راص

واجتمعا فقلت يا حُبّ فسي * إن عيني قليلةُ الإعراض

أنت عَذْبَتِي وأعلت حُسي * فأرحم اليوم دائمَ الأمراض

قال لي لا يَحِلُّ حكي عليها * أنت أولى بالسقم والإعراض

قلتُ لما أحابى بهواها * تَمِيلُ الجودُ في الهوى كل قاض

معث اليه المهديّ : حكّت عليا ووافقا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السَّعج :

يا قومُ أَدْنِ لبعص الحى عاشقَةً * والأذنُ تمشق قبل العين أحيانا

قالوا بئز لا ترى تهديّ فقلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفِّي القلبَ ما كانا

هل من دواء لمشغوفٍ بِجارية * يَلْقَى بُلقيانها رَوْحًا وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلقها * قلبي فاصحى به من حمأ أثر
أنى ولم ترها تهدي فقلت لم * إن المسؤد يرى مالا يرى البصر
أصبحت كالحاتم الحيران مجتناً * لم يقض ورذا ولا يرجى له صدر

وقال :

يزهقني في حث عنة معشر * قلوبهم فيها مخالصة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما أختار وأرتعى * فبالقلب لا بالعين يُصردو الحث
فما تنصر العيان في موصع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حس دعا الصبا * وألف بين العشق والعاشق الصب

وقال :

يا قلب مالي أراك لا تحمر * إياك أعي وعندك الخمر
أدعت بعد الألى مصوا حرقا * ما صاع ما أستودعوك إذ نكروا

وقال :

إس سَلِمَى والله يكلؤها - كالسكر يزداد حل السكر
بلغت عنها شكلا فاعننى * والسَّمْعُ يَكْمِكُ عَيْبَةَ الصَّعْر

وقال وقد مدح المهدي حرمة :

حليلي إن العسر سوف يُفِيق * وإن يسارا في عهد تَخْلِيْق
وما كسْتُ إلا كالزمان إذا حصا * صحوْتُ وإن ماق الزمان أموق^(١)
أأدما لا أسطيع في قلة الثرا * تُحروزا ووَشيا والقليل محيق
خدى من يدي ما قل إن زماننا * شُموس ومعرُوف الرجال رقيق
لقد كسْتُ لأرعى نادى معيشة * ولا يشتكى بجملاً على رفيق

حليّ - إن المال ليس بباع * إذا لم يَسَلْ منه أَحٌ وصديق
 وكنت إذا صافت على محلة^(١) * تيممتُ أخرى ما على تصديق
 وما حاب بين الله والناس عايل - له في التقى أوى المحامد موى
 ولا صاق فصلُ الله عن متعفف * ولكن أخلاق الرجال تضيّق

ها نثار يعقوب بن داود وزير المهديّ فقال :

بى أميّة هبوا طال بومكم * إن الحليّة يعقوب بن داود^(٢)
 صاعّت حلائكم يا قوم فالتسوا * حليّة الله بين السّاء والعود

فاتهجه عبد المهديّ بالزندقة وقال : إنه قد هجا المهديّ ، فأمر ، فحُضِرَ بالسياط حتى مات .

(١) المحلة : منزل القوم . (٢) أصله من الموالى ، وقد استوزره الحليّة المهديّ وسلبه الأمور كلها
 رأشتل هو نالهور .

٢ - حماد بن عمار^(١)

«ولو أني أحببت أن أخص حمادا لوصفته قل كل شيء بحجة الطبع، وسوء الخلق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملاءمة بينه وبين العمل، ويكره العاق والانصراف عنه، لا يغييه أرحى الناس عنه أم يحطوا عليه، ثم بحجة اللسان وبصية وإفدائه وكلفه باحش القول وبجته عن أسوئه وأفعجه، ثم بالسحرية من الناس وأردرائهم، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفة وأصلا من أصول الحياة كالوكيد ومطيع وأبي نواس، بل على أنه يتخذ ذلك وسيلة من وسائل الشعراء يتخلص بها كلنا صاقت عليه المدايب وأحدث عليه، أو دعت إلى ذلك حاسة. لم يكن حماد يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء والانصراف عن التناقض، وإنما كان صديقا مخلصا حتى تبدوله حاجة أو تسخ له فرصة أو تصطره ضرورة، فإذا صداقته قد استعالت إلى عداه، وإذا هو ليس أقل صدقا وإخلاصا في العداه منه في المودة والحُب: فقد مدح يحيى بن رباد وأتممه صديقا وقال جوازته، ثم كان الحلاف فهاهنا. وصادق بسارا وصافاه، ثم أختصا فلم يعرفوا في الخصومة رحمة ولا رقا. وصاق مطيعا وأحبته ومدسه وأكثر في الشاء عليه، ثم أختصا في أمره مرة وفي علام مرة أخرى، فهاهنا وأقذع في ههنا. وكان على هذا كله يؤثر شعره وصوراته على البر الناس في معاملتهم: لها ذات يوم رجلا يقال له حشيش وجعل اسمه قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمّه فشبهه بحشيش، وكان يحشيش هذا رجلا من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن مصصة. نشأ في الكوفة ثم واسط. وعاصر الدواوين، لكنه مع في القولة العاصية بعد أن تادم الوليد بن يزيد الأموي. وعاش صدأ أيام المهدي ومعه مطيع بن إلياس ويحيى بن رباد، وكلهم من التميمي في دهم. وحماد من الشعراء المهديين، وكان باحاطة بها خليقا متبها في ديه مرميا بالردة. وأدرك شار بن رذوله مع أحاح فاشنة، ولم يكن حيات كبيرا ولا صميرا، عالما كان أو حليمة. توفي سنة ١٦١ هـ. ومحمد رحمة في الأمان (ج ١٣ ص ٧٣) وابن حنكاه (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والهمبرت (ص ٩١). (٢) من محو صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالحاممة المصرية.

وإدعاً لا يعرف حماداً ولا يعرفه حمادٌ، فلما قرأ الرجل هذا الشعر جرع له وسافر من البصرة حتى طلع الكوفة فمات حماداً، فقال له حماد صاحبه معتذراً: لا بأس عليك فإن هذا من آثار القافية ولن أعود إليه .

وكان السبب في مهاجمة حماد وبشار أن حماداً كان نديماً لبائع بن علفة، فسأله بشار تهيئة حاجة له من نافع فأبطل عنها، فقال بشار فيه :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ تَمَاءُ حِمْلَةٌ * تَكْشُفُ عَنْ رَعْدٍ وَلَكِنْ سَبْرُ
إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى عَيْدٍ : كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ
وَفِي نَافِعٍ عَنِّي حَقَاءُ وَإِنِّي * لِأَطْرُقُ أَحْيَانًا وَذُو اللَّبِّ يُطْرِقُ
وَلِلْقُرَى قَوْمٌ مَلُوكَتْ مَهْمٌ * دُعِيتُ وَلَكِنْ دُوبِي اللَّابُ مُغْلَقُ
وَمَا زِلْتُ أَسْتَأْنِيكَ حَتَّى حَسَرْتَنِي * بَعْدَ بَحَارَى الْأَلِّ يَخْفَى وَيَحْفَى

فغضب حمادٌ وأشد ناهماً الشعر فبع بشاراً، فقال بشار :

أَمَا عَمَّرَ مَا يَطْلُبُكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الَّذِي مَتِينًا شَمَّ أَحْمَرُ
وَعَدْتُ فَلَمْ تَصْدُقْ وَقُلْتَ عَدَا عَدَا * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ شَرِبًا مَوْخَرُ

فكان ذلك سبب التهاجي بين بشار وحماد . وكان بشار يرى حماداً بالزندقة ، وفي ذلك يقول :

إِبْرُ نَهَى رَأْسٌ عَلَى تَقِيلُ * وَأَحْتَمَلُ الرُّمُوسَ خَطْلُ جَلِيلُ
أُدْعُ عَيْرِي إِلَى عِبَادِهِ الْآثِيَةِ * مِنْ فَنَى وَاحِدٍ مَشْغُولُ
يَا بَنَ نَهَى بَرْتُكَ مَكَانَ إِلَى اللَّهِ جِهَارًا وَذَلِكَ مَنَى قَلِيلُ

فاشاع حمادٌ هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان : « فَنَى وَاحِدٍ مَشْغُولُ » « فَنَى مِنْ وَاحِدٍ مَشْغُولُ » . فما زالت الأبيات تدور في الناس واحد مشغول « ليصح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبيات تدور في الناس حتى انتهت إلى بشار ، فأضطرب منها وجرع وقال : أشاط ابن الفاعلية يدي، والله ما قلت إلا « فَنَى وَاحِدٍ مَشْغُولُ » ففيها حتى شهرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على اتفاقٍ منهما وِرْعًا بأن ينقل
إلى كل واحد منهما وعه الشعر، فدخل يوماً إلى بشار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال آس
الفاعلة ؟ فأنشده :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد . أمكنتُ بشاراً من التيه
فقال بشار : أى شئٍ ويحك ؟ فقال :

وذاك إذ سميتُه باسمه * ولم يكن حراً سُميَه
قال : صحَّحتُ عينه ، فبأى شئٍ كنتُ أعرف ! إيه ، فقال :
فصار إنساناً يدكرى له * ما يتنى من بعد دكرِيه !
فقال : ما صَحَّ شيئاً ، إيه ويحك ! فقال :

لم أُنحِ بشاراً ولكنى * هَوْتُ نفسى سِجانيه
فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتأمَّ الأبيات :
لم آتِ شيئاً قطّ فيما معى - ولستُ فيما عشتُ آتيه
أسوأ لى الناس أخذوثه : من خطأ أخطأته فيه
فأصبح اليومَ لِسَى له * أعظمَ شأناً من مَواليه
وقال بشارٌ لراوية حماد : ما هجاني به اليومَ حماد ؟ فأنشده :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنى الـ * لذى والدّه نُردُّ
فقال : صدق أنُ الفاعلة لما يكون ؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ الناسُ * فلا قُلْ ولا تَعُدْ
فقال : كَذَب ، أين هذه الرِّصَاتُ من عُقْبِل ! فما يكون ؟ فقال :
وأعمى قَطَطَابٌ^(١) ما * على قاذِفِه حَدُّ

فقال : كذب ، بل عليه ثمانونَ حَلْدَةً ، فيه ، فقال :

وأعنى يُسَبِّحُهُ الْقِرْدُ * إذا ما عَمِيَ الْقِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين سبَّحتُ قِرْدَ ، حَسْبُكَ حَبُك ! ثم صمَّقَ بيديه وقال .
ما حِيلَتِي ! رَأَيْتُ فَيْسَبَّحُنِي وَلَا أَرَاهُ مُأَشَّهَ . وتأمَّ الأبيات :

دَنِي لَمْ يَرْجُ يَوْمًا * أَلِ تَجِدُ وَلَمْ يَتَدُ

وَلَمْ يَخْصُرْ مَعَ الْخَصَا * رِي خَيْرٌ وَلَمْ يَبْدُ

وَلَمْ يُحْشَ لَهُ دَمٌ * وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حُدُ

جَرَى بِالنَّحْسِ مُدْكَانٌ * وَلَمْ يُعْمَرْ لَهُ سَعْدُ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ * فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ فَقْدُ

وقال علي بن مهدي : أحص علماء البصرة أنه ليس في ههنا حمادٌ يجرد لبشار إلا أرمون
بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من المماء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هو الذي
هناك صاحبه لا زندقه وأظهرها عليه ، وكأنا محتممان طلبها ، فسقط حمادٌ وهناك بفضل بلاغة
بشار وجودة معانيه ، وتبي بشار على حاله لم يسقط ، حتى عُرِفَ مدبهه في الزندقه فقتل به .
ومن أعلط ما عجا به حمادٌ بشاراً :

هَآرُهُ أَحْبَبْتُ مِنْ لَيْلِهِ * وَيَوْمُهُ أَحَبُّ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقْلِعِ عَنْ غَيْهِ * حَتَّى يُوَارِدَ وَ تَرَى رَمِيهِ

كان حمادٌ صديقاً ليحيى بن زياد ، فأنظر يحيى تورعاً وقرأةً وزُوطاً ههنا كان فيه وهجر
حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكِرَ عنده ثلَبَه وذكَّرَتْهُ ثَكَّهُ ومُجُونَه ، فلَمَعَ ذلك حماداً فكتب إليه :

هَلْ تَذْكُرُنْ دَجَلِي إِلَيْ * لِكِ عَلَى الْمُسَمَّرَةِ الْقِلَاصِ

أَيَّامُ تُعْطِيَنِي وَتَا * حُدُّنْ أَبَارِيقَ الرِّصَاصِ

إِنْ كَانَ تُسْكُكُ لَا يَدَ * سَمٌ غَيْرُ شَتَّى وَأَنْتَقَاصِي

أَوْ كَتَّ لَسْتُ بِغِيرِدا * لِكِ تَسَالِ مَقَرَّةَ الْخِلَاصِ

فعليك فاشتم آيتا * كل الأمان من القصاص
وأقعد وطم بى ما بدا * لك فى الأذى والأقاصى
فلطالما زكيتي * وأنا المقسم على المعاصي
أيام أنت اذا ذكر * ت متاصل معنى مناصي^(١)
وأنا وأنت على أرتكا * بالمؤيات من الحراس
وينا مواطن ما بنا * فى البر أهلة العراس

فاتصل هذا الشعر بيجي س زياد، فسب حمادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام،
فقال حماد فيه :

لا مؤمن يعرف إيمانه * وليس يمي بالحق الكافر
مافى طاهره بايك * محالف الباطل للظاهر

كان حماد صديقا لحريث س أبى الصلت الثقفى، وكان يسيه بالجل، وفيه يقول :
حريث أو الفضل ذو خيرة * بما يصلح الممد العاسده
تخوف ثمة أصابه * مودهم أكلة واحده
ومن قوله :

ألا قل لبد الله لك واحد * ومثلك فى هذا الزمان كثير
قطعت إحائى طالبا وهزنى * وليس أنى من فى الإحاء يحمود
أديم لأهل الود ودى وأنى * لمن رام هجرى طالبا لمجور
ولو أن يعنى رابى لقطعه * وإنى يقطع الراشيد جدير
فلا تحسبن منى لك الود حالها * ليمز ولا أنى إليك فقير
ودونك حفى منك لست أريده * طوال الليالى ما أقام تير^(٢)

(١) ماص : مدام، من قولم مامد ماماسة : أهدكل مامسة صاحبه . (٢) تير : اسم حمل .

كان حماد صديقاً لحفص بن أبي بزة ، وكان حفص أعمش أنفاس أعصب مُقَبِّح
الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدثون ، فأخذ حفص يطمس على
مُرَقَش ويبيب شعره ويلحّه ، فقال له حماد :

لقد كان في عيذك ما حصّ شاعِلٌ * وأنيب كَيْبِلُ العودِ عما تَنَعُّ
تَتَبَّعُ لَحْماً في كلام مُرَقَّشٍ . ووجهك منيُّ على الهن أجمع
فأذناك إقواء وأثفك مُكَمَّأً * وعيالك إبطاء فانت المُرَقَّعُ
ومن قوله :

إني أحبك فاعلمي * إن لم تكوني تعالِياً
حباً أفل قلبه كجميع حبِّ العالمِيا

وأُشِيدَ شَارُفُ قَوْلِ حماد عجرد :

أني كُفٌّ عى لوى فإلك لا تدرى * بما فعل الحبُّ المريح في صدرى
أنى أنت تلحاني وقلبك فارِعٌ * وقلبي مشغولُ الجوايح بالمعكر
دوائى ودائى عدى من لو رأيتَه * بقلُّ عَيْلِهِ لا قَصْرَتْ عى زَحْرى
فأقسم لو أصحّت في لوعه الموى * لا قَصْرَتْ عى لوى وأطهتْ ومُذرى
ولكى لَمَلَى مَكَ أَلَمَ فاصِحٌ * وأنت لا تدرى بأنك لا تدرى

فطَيرَ بِشَارُفِهِم قال : وَيَلِكُم أَحْسَ والله ! من هذا ؟ قالوا : حماد عجرد . قال : أَوَّه وَكَلَّمُونِي
واقه قَيْسَةَ يَوْمِي لَمْ طَوِيل ، والله لا أظلم قَيْسَةَ يَوْمِي طَمَاماً ، وَلَأُصَوِّمَنَّ عَمَّا بِمَا يَقُولُ
السَّطِئُ مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السُّلُوي : لَقِيتُ حماد عجرد يوايسط وهو يمشي وأنا راكِبٌ ، فقلتُ
له : أُنْطَلِقُ بِمَا إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَإِنِ السَّاعَةَ فَارِعٌ لِنَحْنُثِ ، وَحَبَسْتُ عَلَيْهِ الدَّابَّةَ ، فَفَطَعَ شُفْلُ
عَرَضٍ لِي لَمْ أَقْدِرْ عَلَى تَرْكِهِ ، فَصَبْتُ وَأُسَبَّتُهُ ، فَلَمَّا بَلَغْتُ الْمَنْزِلَ يَخْفُتُ شَرُّهُ فَكَبَيْتُ إِلَيْهِ :

أَبَا عُمَرَ أَغْفِرُهَا هُدَيْتَ لِإِنِّي * قَدْ أَذْنْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا غَبَرَ عَامِدِ
فَلَا تَحْمِلْنِي فِيهِ عَلَى مَا نِي * أَقْرُ مَا جَرَامِي وَلَسْتُ بِعَائِدِ
وَهَيْسَ لِمَا تَفْدِيكَ نَفْسِي مَا نِي * أَرَى يَمَّةً أَنْ كَتَّ لَسْتُ بِوَاحِدِ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * لِمَا كَ دُو فَصْلٍ طَرِيفٍ وَتَالِدِ

فأجابني عن الأبيات :

مُحَمَّدُ يَا بِالْفَضْلِ إِذَا التَّحَامِدِ * وَيَا بَهْجَةَ النَّادِي وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقِّكَ مَا أَذْنْتُ مَدَّ عِرْقَتِي : عَلَى حَطَا يَوْمًا وَلَا تَعْمِدْ عَامِدِ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْقَيْتُ مُتَسَرِّعًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرَعُ وَاحِدِ^(٢١)
وَلَوْ كَانَتْ دُو فَضْلٍ يُسْتَى لِفَصْلِهِ * سِيرَ اسْمُهُ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَانِدِ

فبينما رقعته في يدي وأنا أقرأها إذ جاءني رسوله رقعته فيها :

قَدْ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَرَ الـ * فَفَصِّلِ وَالذَّنْبُ عَظِيمُ
وَمُسِيءٌ أَنْتَ يَا بَرَ الـ * فَفَصِّلِ فِي دَاكِ مُلِيمُ
حِينَ تَحْشَى عَلَى الذَّنْبِ * بِكَمَا يُحْشَى الذَّنْبُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا حَقَّ * بَتَّ مِنْ الْأَمْرِ حَرِيمُ
أَنَا وَاقِعٌ وَلَا أَوْ * حَرُّ لَلْفَيْطِ كَظْلُومِ
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِي * سَةَ بَرٍّ وَرَحِيمِ
وَبِمَا يُرِضُهُمْ عَدَّ * يَ وَيُرِضُنِي عَلِيمِ

كان عثمان بن شيبة مُبْجَلًا وكان حماد يهجوهُ ، فجاء رجل كان يقول الشعرَ الى حماد

فقال له :

أَعِنِّي مِنْ غَاثِكَ بَهْتِ شِعْرِ * عَلَى قَعْرِ لَعْمَانِ بْنِ شَيْبَةَ

فقال :

إِنَّكَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ حَلِيلًا * مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ قَعْرِ وَخْبَةِ

(١) أي لو كان لك دم ما صادفني مسرعا إليك بالمكافأة .

فقال له الرجل : جَزَاكَ اللهُ حَيْرًا فَقَدْ عَرَفْتَنِي مِنْ أَخْلَاقِهِ مَا قَطَعَنِي عَنْ دِينِهِ وَصَلَتْ وَحِيلَى عَنْهُ .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حمادًا عمود لما كان يقول في أخيه زبيب من الشعر، فعلم أنه لا مقام له معه بالصره، فاستحار بقبر أبيه سليمان بن علي وقال فيه :

مِنْ مَقَرِّ الذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ الدَّ . * لَهُ عَلَيْهِ بَسِيٌّ إِنْ رَارَا
لَيْسَ إِلَّا مُفْضِلٌ حَامِلُ يَدٍ . * تَدَّ سَلَاءٌ وَمَا يُعَدُّ آعْتَارَا
يَا ابْنَ بَيْتِ النَّبِيِّ أَحَدًا لَا أَحَدٍ . * حُلَّ إِلَّا إِلَيْكَ مَسْكُ الْفِرَارَا
عَبْرَ آتَى حَمَلْتُ قَبْرَ أَبِي أَيُّو . * تَلَّى مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارَا
وَحَرِيٌّ مِنْ آسْتَحَارَ بِذَلِكَ الْ . * قَعِرَ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِثَارَا
لَمْ أَحِدِلْ مِنَ الْمَادِّ مُجْبِرَا . * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْمَارَا
لَسْتُ أَسْتَأْضِءُ مَكَ فِي نُفْيَةِ الْمَرْزَةِ لِحَقَاتِنِ كُلِّهَا أَوْ بَزَارَا
فَأَمَّا الْيَوْمَ جَارٌ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ . * ضِيقُ مُجْبِرٍ أَعْرَضَ عَنْهُ جَوَارَا
يَا ابْنَ بَيْتِ النَّبِيِّ بَاخِرٍ مِنْ حَقْدٍ . * نَتْ إِلَيْهِ الْقَوَارِثُ الْأَصْكَوَارَا
إِنْ أَكْبَى مَذْنِبًا فَانْتَ أَبْنُ مِنْ كَا . * نَ لِمَنْ كَانَ مَذْنِبًا عَفَّارَا
فَأَعَفَّ عَنِّي فَقَدْ قَدَّرْتَ وَحَيْرَالِ . * حَفُو مَا قُلْتَ : كُنْ ، فَكَانَ آفْتِدَارَا
لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارٌ لَمْزُ . * كَانَتْ حَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَا

فقال : والله لا نلتق قبراً من دمه، فهرب حماد إلى بغداد، فعاد بمحمد بن المصور فأجاره، وقال : لا أرضى أوتيهجو محمد بن سليمان، فقال يهجو :

قُلْ لَوَجَّهَ الْخَلْقُ ذِي الْعَارِإِ . * سَوْفَ أَهْدِي لَزِينِ الْأَشْمَارَا
قَدْ لَعَمْرِي فَرَدْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْ . * فِ وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارَا
وَطَلَبْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارَا . * فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْمَارَا

كُتِّعَ عَدَّ اسْتَجَارَى مَأْبَى آيَةٍ • حُوبَ أَخَى صَلَاحَةٍ وَحَسَارَا
 لَمْ يُجَرِّئْ وَلَمْ أُجِدْ فِيهِ حَقًّا • أَمْسَرَمَ اللَّهُ ذَلِكَ الْقَبْرَ آرَا
 فَبَلَغَ هَاجَاؤُهُ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ هَالَا : وَانَّهُ لَا يُعْلِنِي أَبَدًا ، وَإِنَّمَا يَزِدُّ حَقًّا بِلِسَانِهِ ! وَلَا وَانَّهُ
 لَا أَعْفُو عَنْهُ وَلَا أُنْفَعِلُ أَبَدًا •

ومس قوله :

إِنَ الْكَرِيمِ لِيُخْفِي عَنكَ صُورَتَهُ • حَتَّى تَرَاهُ عَيًّا وَهُوَ تَجْهَدُ
 وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلًّا • زُرْقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْحُهُ سُودُ
 إِذَا تَكَلَّمْتَ أَنْ تُعْطَى الْقَلِيلُ وَلَمْ • تَقْدِرْ عَلَى سَمْعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
 أَتَرَى بِحَيْرٍ تُرَبِّحُ لِلْوَالِ مَا • تُرَبِّحُ الثَّارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْمُودُ
 بُتُّ السَّوَالِ وَلَا تَمْسُكُ قِلَّتَهُ • فَكُلُّ مَا سَدَّ هَرَاؤُهُ عُمُودُ

وقال أيضا :

كَمْ مِنْ أَمْرٍ لَكَ لَسْتُ تُشِيرُهُ • مَا دَمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي يَسْرِ
 مُتَصَنِّعٌ لَكَ فِي مَوَدَّةِ • يُلْقَاكَ بِالْتَّرَحُّيبِ وَالْيُسْرِ
 يُطَرِّى الْوَفَاءَ وَذَا الْوَفَاءَ وَيَذُ • حَتَّى الْغَدْرُ مَجْتَهِدًا وَذَا الْغَدْرُ
 فَإِذَا عَدَا ، وَالْقَدَرُ ذُو عَيْبٍ ، • دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ
 فَارْقُصْ بِإِحْمَالٍ مَوْدَةً مِنْ • يَقْلِي الْمَقِيلُ وَيَشْقُ الْمُنْثَرَى
 وَعَلَيْكَ مِنْ حَالِهِ وَاحِدُهُ • فِي السُّرْرِ إِذَا كُنْتَ وَالْيُسْرِ
 لَا تَحْمِلُطْنَهُمْ فِيهِمْ • مِنْ يَحْمِلُطُ الْعِقَابُ بِالْصُّفْرِ !

وهو القائل في محمد بن طلحة :

زَرْتُ أَمْرًا فِي بَيْتِهِ مَرَّةً • لَهُ حَيَاءٌ وَلَهُ حَيْرُ
 يَكْرَهُ أَنْ يُنْفِخَ إِخْوَانَهُ • إِنْ أَذَى التُّخْمَةِ عَذُورُ
 وَيَسْتَهْيِ أَنْ يُؤْجِرَ وَاعْدَهُ • بِالصَّوْمِ وَالصَّائِمِ مَا جُورُ
 يَا ابْنَ أَبِي شُهَدَا أَنْتَ أَمْرٌ • بِصَحَّةِ الْإِبْدَانِ مَسْرُورُ

وهو القائل في محمد بن أبي المباس السفاح :

أرجوك مد أي الماس إدا ما * يا أكرم الناس أعراقا وأغصانا
لوخ عود على قوم عصارته * لمج عودك فيا المسك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مستترا ، وطلع محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلعه حتى طهره فقتله عيلة . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بشيراز في طريقه ، فمرض بها ، فأضطروا الى المقام بسبب عته ، فأشتد مرضه فأت هالك ودفين على تلقية . وكان بشار بلغه أن حمادا عليل ، ثم نبي إليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لمؤا به * لكان صار الى النار

فبلغ هذا البيت حمادا قبل أن يموت وهو في السبا^(١) ، فقال رث عليه :

يئت بشارا نمانى ولد * حوت برانى الخالق البارى
يا ليتى يث ولم أنجه * ثم ولو صرت الى النار
وأى نيمى هو أخرى من أد * يقال لى يأس بشار^(٢)

فلما قتل المهدي بشارا بالعليه أتفق أن يحمل الى منزله ميتا ، فدفن مع حماد على تلك التلقية ، فتر بها أبو هشام الباهلي الشاعر المصري الذي كان يباحي بشارا ، فوقف على قبريهما فقال :

قد تبسب الأعمى قفا مجرد * فأصبعا جاريتن في دار
قالت فقاغ الأرض لا مرجبا * فحزب حماد وبشار
تحاورا بعد تنائهما * ما أبفض الجار الى الجار
صارا جميعا في يدى مالك * في البار والكافر في النار

٣ - مَرَوَانُ بْنُ أَبِي خَفْصَةَ^(١)

« لم يكن مَرَوَانُ متصرفاً في عيون الشعر، ولعله لم يتعد منها فناً أوفى، فلما عرف له عزلاً إلا هذا العزل الذي تعود الشعراء أن يبدعوا به مدائحهم ، ولما عرف له هجاء إلا هذا الجحّ من الهجاء الذي يصطر إليه الشعراء السياسيون حين يدافعون عن ملابهم ويهاجمون خصومهم . على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً ، فهو لم يكن ينصّر على العباس على أبي أمية فيبلغ منهم ما يريد ، ويهجوم في حرّية ، وإنما كان السيف هو الذي انتصر للعباسيين من أبي أمية ، وكان العباسيون في حاجة إلى من يصرحم على العلويين وأتباعهم من أبي هاشم ، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً ! كان الذين ياباه في ذلك الوقت ، وكانت كرامة الخلافة العباسية ههنا تأباه أيضاً ، فالعلويون من أبي هاشم وهما هم هجاء للعباسيين ، ومن ههنا سلك مَرَوَانُ وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناضلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف ، فكان دفاعهم أبلغ ، وكانت مناظراتهم أحسنَ وقفاً من هجاء أولئك الشتاميين المسرفين في الشتم ، ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموالى أصل حده من أبي اسطر ، وكان علامة اشتراء عيّن من عباد ورجله لمروان من الحكم ، وأقام مدبّرًا بالجماعة ، وقد احتفظوا في حقيقة منه . شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى أبي أمية وقد حارب معهم ، وكان شجاعاً مجزاً ، فلما سح في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد ، وكان يتقرب إليه بهاء العلويين ، وهو من الصحول المقتدئين ، أقل من شهره وقوة من أبي رائدة الحوادر المشهور بقصيدة موية مدحه بها ، مظهرها .

من أبي رائدة الذي وردت به في شرف موشيات

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها مظهرها

سوطي يوم القاء كاهم في أسود لم في طلي حنا أشل

فأحاره عليها بحال كثير ، فكاتب كلما رآه من عطاء رآه مروان مدحا . توفي سنة ١٨١ هـ . ونجد أحاده في الأغاني (ج ٩ ص ٣٦) وأبو حنبل (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وحرارة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والهمزة لأبي الليث (ص ١٦٠) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لمروان مجونا ولا مَبْنًا، فلم يكن كما قلنا ماجا ولا عابثا وإنما كان بجيلا، والبعل والعبث
 شيطان لا يتفغان، ومن ضنَّ على نفسه بالهم وطبَّات الطعام لم يستنج لنفسه حمرا ولا
 ما تستبجه الخمر . ثم لا يعرف لمروان نفرا وما تحسب أنه فاسر أو مال الى الفخر، فقد
 كان رجلا عمليا يتنبه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضنُّ بوقته وجهده على الفخر الذي
 لا يفيد . لم يعرض إذن إلا لفتين آتيتين : المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء
 وهذا طبعي، فهو راضع حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمقولُّ أن
 يُجيد وأن يبلغ من الإحادة حفظا عاليا، أما في الرثاء فهو لا يرف ولا يطلب مالا وإنما
 يفي بههد ويشكر صديقه . ومقولُّ أن موقفه هذا لا يدعه الى الإحادة إلا أن يكون
 حاسما دقيق الشعور راقى النفس، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء، وإنما كان
 كما قلت لك رجلا عمليا يريد المال . على أن رثاء لمعن ليس بالردى وكذلك رثاؤه
 للهدى، وهل نستطيع أن نعد رثاءه للهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء لخليفة الجديد، فعليه
 ذكر لخليفة الراحل، والثناء على وراثته، وفيه المثوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى
 الرثاء .

أما مدح مروان في آيات المدح العربي، ونحن لا نحيط منه إلا بمتفرقات قليلة
 ولكنها تكفي لحكم أن مروان كان قد أثنى المدح وبرَّع فيه ، بل نحسب أنه برز
 في هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم الى قسمين متباينين :
 أحدهما المدح الملقى الشائع المعروف، وهو موجه لمص بن زائدة، فهو يفتن في وصف
 من بالجوهر والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيان الذين يحتمي اليهم معن،
 وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سمة الشعراء من قله، ولكنه جيد المأني متقاهما، حسن
 الألفاظ صافيا .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يشده الخلفاء من بني العباس،
 وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا المضال السياسي

الذى كان يحتاج الى مهارة ويطعة ودقة وخفة ، والذى كان يصطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن يصير العباسيين دون أن يزدري خصوصهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أعضب العلويين لا لأنه أذاهم أو ههام فيها فنقد ، بل لأنه كان خصما قويا عبدا ماهرا في الحصام .

ثم هناك شيان لا بد من الإشارة اليهما ليكمل رأياى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صح هذا التعبير .

الأول : أت مروان لم يكن عراقيا ولم يرص الإقامة في العراق ولم يطل عشرة العراقيين من أهل الجبون والسنث ، وإنما كان من أهل البصرة أقام فيها لا يرحها إلا واهدا على أمير أو وزير أو حليفة ، فإنا أنشد قصيدته ونظير مجازته عاد الى البصرة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الجاهليين والإسلاميين منه الى شعر المحدثين من شعراء الحصاره العباسيه ، نقرؤه فتجد عليه هذه المنسجه التي تحلو أو تكاد تحلو من الدعابة والخفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يمثل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رعى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أنا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إثارة على تشار وأبي نواس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكي أتى لهم ذلك ! وقد سَلَطَ الله عليهم لسان شار وأبي نواس فاضطروا الى أن يحاؤوا هذين الشاعرين ويقلقوها ، وأجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديم شار وإثارة على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يُعنى بها علماء اللغة وهي وجهة النانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يقاس الى مروان في هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرّقها الشاعر ، وقُرِبَ المأخذ ، والدور من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى شار ولا الى أبي نواس نوع خاص ، على أق من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريفا في قنّه لا يحاف .

ولا يهاب فصْلَقَ نَفْسَهُ وَصَدَقَ النَّاسَ، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي حتم الشعر بمروان وأبى أن يدقن لأحد من المحدثين بعده، والذي كان يُشَدُّ مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الحليَّة من شعر مروان، وهي:

بَسُو مَطِيرَ يَوْمِ الْفَاءِ كَأَنَّهُمْ / أَسْوَدُ لَهَا فِي طَلْحٍ خَفَّاءٍ أَشْبَلُ
هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا / لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاءِ مَنَزَلُ
لَمَّا مِمْ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ / كَأَقْلَمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمْ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَلِنْ دُعُوا / أَحَاؤُا وَإِنْ أُعْطُوا أَطَاؤُا وَأَجْرُؤَا
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَاوِلُونَ مَعَالِمَ / وَإِنْ أَحْسَوْا وَالنَّاسُ وَأَجْلَوْا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن معاً أعطى مروان كل ما يملك هذه الأبيات لما طع حقه.

الثاني: أن مروان لم يكن سرياً في الشعر ولا متعجلاً ولا مسترسلاً مع الطبع وإنما كان بطيئاً متمهلاً. كان يبعد الشعر لأنه كان يهودي. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أن زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحلويات، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهرها في إصلاحها وأشهرها في مَرَصَها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته بمدح حليفة كان أو وريثاً أو أميراً، وليس عجيباً مع هذه الأناة أن يحلو شعره مما يُستنكر وأن يرا من الصنف والوحشية معاً. ولقد يُحدثنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن يُنشد الخلقاء. ولستُ أشير إلا إلى سيرته مع بشار فلها معناها. كان مروان يمرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيدة أو بأنها رديئة، بل يُقدر له قيمة القصيدة مائلاً، فيقول: سيمعلوك عليها كذا وكذا.. وقد صدق بشار مرتين فأظهره مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن تحزّل
حظّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تناقض مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، مكان
يشكّ في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنحاة، ولكنه كان مع ذلك معجبا بنفسه لا يقدم
عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والصرزدي وجريز . وأسمع رأيهم
في نفسه، فقد عقده شعرا ليثبت كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْعَارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَسْرِ يَضِي وَصْرُهُ بِحَرِيرِ
وَلَقَدْ هَمَّ فَا مَضَى أَخْطَلُ تَقْلِبَ - وَحَوَى اللَّهُ بَيَانَهُ الْمَشْهُورِ
كُلَّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ مَدْحُهُ * وَهَاجُوهُ قَدْ سَارَ كُلُّ مَسِيرِ
وَلَقَدْ جَرَيْتُ فَتًى حَيْرَ مَهْلَلٍ .. بِجِزْرِ لَا قَرِيفٍ وَلَا مَبْهُورِ
إِنِّي لَأَنْفُ أَنْزُ أَحْمَرُ مَدْحِهِ * أَبَدًا لَفْسِيرِ حَلِيفَةِ وَوَزِيرِ
مَا صَرَفْتِي حَسَدُ اللَّثَامِ وَلَمْ يَزَلْ * دُو الْفَصْلِ يَحْسُدُهُ ذُو الْتَقْصِيرِ

أما رأي مروان في القد فبديع، كان يُنشد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ
الاس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الاس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو
أشعر الاس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرأهم جميعا أشعر الناس، قال
صاحكا : الناس أشعر الاس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأي يمثل الشك في نقد الناقدين
المعاصرين والسخرية بهذا القدر .

وننتقل من ذلك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبي حَفْصَة على المهدي بعد وفاة معن، فأنشده مديحا فيه، فقال
له المهدي : ألسنت القاتل :

أَقْنَأَ بِالْإِمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ * مُقَامًا لَا تُزِيدُ بِهِ زَوَالًا
وَقَلْنَا أَيْنَ تَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ ذَهَبَ النُّوَالُ فَلَا نَوَالًا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب والنا^١ لا شيء لك عدا . فلما كان من
العام المقبل تظلف حتى دخل مع الشعراء . وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام
مرة، فمثل بين يديه، وأنشد - بعد رابع أو خامس من الشعراء - :

طَرَقَتْ زَائِرَةٌ عَلَى حَيَاتِهَا * بَصَاءٌ مَحِلِّطٌ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا
قَادَتْ فَوَادِكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالِهَا
فَكَأَنَّمَا طَرَقَتْ سَمْعَةَ رُؤُوسِهِ * تَحْتَ بِهَا دِيمُ الرَّبِيعِ طِلَالِهَا
نَاتَتْ نَسَائِلَ فِي الْمَنَامِ مُعَرَّسًا * بِالْيَدِ أَنْشَعَتْ لَا يَمَلُّ سَوَالِهَا
وَفِي حَيْثُ هَجَّوْا عِرَارًا عَدَا مَا * سَمَّوْا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالِهَا
فَكَانَ حَشْوُ ثِيَابِهِمْ حِسْدِيَّةً * حَلَّتْ وَأَعْلَتْ الْقَبِيُونَ صِفَالِهَا
وَصَعَّوْا الْخُدُودَ لَدَى سَوَاهِمِ جُحِّ * تَسْكُو كَلُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَالِهَا
طَلَبَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ * حَسَدَ السُّرَى يَفْخُدُهَا أَصَالِهَا
زَعَتْ الْبِكْ صَوَادِيًا فَتَقَادَعَتْ * تَطْوِي الْعِلَادَةَ حُرُوتَهَا وَرِمَالِهَا
يَتَمَنَّ حَاجِبَةً يَهْزُ مِرَاحُهَا * حَسَدَ الْحَوْلِ تَلِيلُهَا وَقَذَالِهَا^(١)
هَوَاهُ تَكْرِجُ الرُّبَا وَتُنْشِقُهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تَرَاعَ حِلَالِهَا
تَجْوُو إِذَا نَفَعَ الْقَطِيعُ كَمَا نَحَتْ^(٢) * نَحْرَاهُ^(٣) نَادَرَتِ الظَّلَامَ رِثَالِهَا^(٤)
كَالْقَوْسِ سَاهِمَةِ أُنْتُكَ وَقَدْتَرَى * كَالْبَرْجِ تَمَلَّأَ رَحْلُهَا وَجِبَالِهَا
ومنها .

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * مُسَى النَّبِيِّ حَرَامُهَا وَحِلَالُهَا
مَلِكٌ تَقْتَرِعُ نَبْعَةً مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ الْإِلَٰهَ عَلَى الْأَمَامِ ظِلَالُهَا
جَبَلٌ لِأَمْتِهِ تَلُوذُ بِرُكْنِهِ * رَادَى جِبَالٍ عَدُوَّهَا فَازَالِهَا

(١) التليل : التلى . (٢) نحو : أسرع . (٣) انخرعاه : العامة . (٤) الرئال : رواج

العبادة واحدها رآل .

لم يَفْتَحْهَا مَا يَخَافُ عَظِيمَةً * إِلَّا أَحَالَ لَهَا الْأُمُورَ مُجَالَةً
 حَتَّى يُفَرِّحَهَا أَمْرٌ مَهْدَبٌ * أَلْقَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أَمْتَالَهَا
 نَتَتْ عَلَى زَلَلِ الْخَوَادِثِ رَاكِبٌ * مِنْ صَرَفِهِنَّ لِكُلِّ حَالٍ حَالَهَا
 كَلَّتْ يَدَاكَ جَعَلْتَ فَصَلَ نَوَالِهَا * لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسَدِّقِ وَبَالَهَا
 وَقَعْتَ مَوَاقِعَهَا بِمَعْرُوكِ أَهْسُ * أَذْهَبَتْ بَعْدَ عَافَةِ أَوْحَالَهَا
 وَنَصَبْتَ هَسَكَ حَيْرَ هَسِ دُونَهَا * وَحَلَّتْ مَالِكٌ وَاقِيًا أُمُومَالَهَا
 هَلْ تَعْلَمُونَ حَلِيفَةً مِنْ قَلْبِهِ * أَجْرَى لِنَايَتِهِ اتَّقِ أَجْرَى لَهَا
 طَلَعَ الدُّرُوبُ مُشْمَرًا عَنِ سَاقِهِ * بِالْحَبْلِ مُنْصَلِتًا يُعْجِدُ سَالَهَا
 قُوْدٌ تَرِيعُ إِلَى أَمْرِ لَوْحِهِ * يُوْرِي عَيْنَ أَمَامِهَا وَجِلَالَهَا
 قَصُرَتْ حَمَائِلُهُ عَلَيْهِ فَتَقَلَّصَتْ * وَلَقَدْ حَقَّقَتْ قَيْبَهَا فَاطْلَالَهَا
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ حَيْلِهِ * حَيَّجَانَتْ عَلَى الْمَدْوَرِ عَالَمَهَا^(١)
 أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ * وَأَمَّا سَهْلٌ مَلَدَهُمْ وَجِبَالَهَا
 أَدَمَتْ دَوَارَ حَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا * عَارَاتُهَا^(٢) وَالْحَقَّتْ أَطْلَالَهَا
 لَمْ يَبْقَ بَعْدَ مُعَارَاها وَطَرَادِهَا * إِلَّا تَحَاوَرَا^(٣) وَإِلَّا آلَهَا
 رَفَعَ الْخَلِيفَةُ بَاطِرِيَّ وَرَاشِي * بِيَدِ مَارَكَةٍ شَكَرَتْ نَوَالَهَا
 وَحُيِّدَتْ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ بَاعِيَا * فِي الْمَشِيِّ مُتَوَفٍّ شَيْئِهِ مُتَحَالَهَا
 وَلَقَدْ حُدُوتَ لِي أَطَاعِعُ وَمِنْ عَصَى * مَلَا وَرِثَتْ عَنِ النَّهْيِ مِثَالَهَا

فزَحَفَ الْمَهْدِيَّ مِنْ صَدْرِ مُصَلَّاهُ حَتَّى صَارَ عَلَى الْإِسَاطِ إِعْجَابًا بِمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ :
 كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةٌ بَيْتَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعْطِيَهَا
 شَاعِرٌ فِي أَيَّامِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَهَكَذَا مَعْلُومٌ مَعَهُ الرَّشِيدُ لَمَّا أُنْشِدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أُنْسَى عِدَاةَ الْمُخَضَّبِ * إِشَارَةَ سَلَمَى مَالِ بِلَانِ الْمُخَضَّبِ
 وَقَدْ صَدَرَ الْمُخَاحُ إِلَّا أَقْلَهُمْ * مَصَادِرَ شَقَى مُوَرِّجًا بَعْدَ مُوَرِّكِ

(١) الرِّعَالُ : الْقَطْعُ مِنَ الْحَبْلِ وَاحِدًا رِطْلًا . (٢) الْحَاوَرُ : الْإِسَاعُ .

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام ، فلما سلمت عليه وذلك يعقوب
تخطه على يعقوب بن داود ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن يعقوب رجل رافضى ، وإنه
سمعى أقول في الوراثه :

أنى يكونُ وليس داك نكاثي * لى الساتِ وراثته الأعمام
مدلك الذى حمله على عداوتى ، ثم أشدته .

كانت أمير المؤمنين محمدا * لأخيه بالاس للاس والد
فقال له المهدي : والله ما أعطيك إلا من صُلب مالى ، فاعيدنى ، وأمرنى بثلاثين ألف درهم
وكسائى جبة ومطرقا ، وفرص لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .
لما قديم معنى من إيمى دخل عليه مروان والمجلس عاصُ أهله ، فأخذ يضادنى الباب
وأشأ يقول :

أرى القلب أسى بالأواس مولعا * وإن كان من عهد الصّافد تمتعا
ويقول فيها :

ولما سرى المم الفريب قريثه * فرى من أزال الشك عنه وأزمعا
عريتُ فعملتُ الرجل ولم أكن * كذى لؤثة لا يطلع المم مطالعا
فامت ركابى أرض مقي ولم تزل * الى أرض مقي حيثما كان نزعنا
نخافت لولا أنها تحجرت لنا : أمت عيزة من جهلها أن توزعا
كسوبا رجال الميس^(١) مها عواربا * تدارك فيها^(٢) التى صيفا ومرعا
فما طمعت ضعاء حتى قواصعت * دُراها وزال الجهل عنها وأقلعا
الى أن قال :

وما البيت اذ هم البلاد صوبه * على لاس من معروف معنى بأوسما
تدارك معنى قبة الدين بعدما * خشيما على أولادها أن تُنزعنا

(١) الميس شهر عظيم يقدسه الرجال . (٢) التى الشم .

أقام على التَّشْرِيعِ الخوفَ وهاشمٌ * تُسَاقُ حِمَامًا بِالْأَسْتَةِ مُثَقَّعًا
 مُقَامٌ آمَرِيٌّ يَأْبَى سِوَى الْخَطَّةِ الَّتِي * تَكُونُ لَدَى عِيبِ الْأَحَادِيثِ أَهْمًا
 وَمَا أَجْمَمَ الْأَعْدَاءُ عَلَيْكَ حَقِيَّةً * عَلَيْكَ وَلَكِنْ لَمْ يَرَوْا فِيكَ مَطْعَمًا
 رَأَوْا مُخْذِرًا قَدْ حَرَّوهُ وَعَاسُوا * لَدَى عِيْلِهِ مِنْهُمْ بَحْرًا وَمَصْرًا
 وَلَيْسَ بِنَائِيهِ إِذَا شِئْتَ أَنْ يَرَى * لَدَى نَحْرِهِ زُرْقُ الْأَسْتَةِ شُرْعًا
 لَهُ رَاحَتَانِ الْعَيْثُ وَالْحَتْفُ فِيهِمَا * أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْتَ نَصْرًا وَتَنْفَعًا
 لَقَدْ دَوَّجَ الْأَعْدَاءُ مَعْنُ فَاصْحُوا * وَأَسْمُهُمْ لَا يَدْفَعُ الذَّلَّ مَدْفَعًا
 نَحِيبُ مَسَاجِيِبٍ وَسَيْدُ سَادَةٍ * دُرَى الْمَجْدِ مِنْ قَرَعَى زِيَارٍ تَفْرَعًا
 لِبَانَتْ يَخْصَالُ الْخَيْرِ فِيهِ وَأَكَلَتْ * وَمَا كَلَّتْ نَحْمَا سِوَهُ وَأَرِيعًا
 لَقَدْ أَصْحَحْتَ فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ * بِسَيْفِكَ أَصَافِقُ الْمُرِيَّيْنِ خُصْمًا
 وَطَلَّتْ حُدُودُ الْحَصَرِيِّينَ وَطَاءَةً * لَهَا هَذَا رَكْنٌ مِنْهُمْ قَصَصُفًا
 فَأَقْبَعُوا عَلَى الْأَذْنَابِ إِقْمَاءَ مَعْشِرٍ * يَرُونَ لِرُومِ السَّلْمِ أَيْقَى وَأَوْدَعَا
 فَلَوْ مُنَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الْحَرْبِ كُلِّهَا * لَكَفَّوْا وَمَا مَدَّوْا إِلَى الْحَرْبِ أَصْبَحَا

فَقَالَ لَهُ مَعْنُ . احْكَمْ ، قَالَ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ مَعْنُ : رَجِيحًا عَلَيْكَ تِسْعِينَ أَلْفًا ،
 قَالَ . أَقْنِي ، قَالَ : لَا أَقَالَ اللَّهُ مِنْ يُحْيِيكَ .

لَمَّا مَاتَ الْمَهْدِيُّ وَقَدَّتِ الْعُرْبُ عَلَى مُوسَى الْهَادِي يُهَيِّئُوهُ بِالْحِلْمَةِ وَيُزَوِّنُوهُ عَنِ
 الْمَهْدِيِّ ، فَدَحَلَ مَرْوَانَ فَاحِدَ بَعْضَادِي الْبَابِ وَقَالَ :

لَقَدْ أَصْحَحْتَ تَحْتَالًا فِي كُلِّ بَلَدٍ * فَهَبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَقَابِرُ
 وَلَوْ لَمْ تُسْكِنِ بَابَهُ فِي مَكَانِهِ * لَمَّا بَرَحْتَ تَبْكِي عَلَيْهِ الْمَابِرُ

مَرَضَ عَمْرُو بْنُ مُسْعِدَةَ فَدَحَلَ عَلَيْهِ مَرْوَانَ وَقَدْ أَلَّ مِنْ مَرَضِهِ ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :

مَعَ الْجَسَمِ يَا عَمْرُو * لَكَ التَّمَحِيصُ وَالْأَجْرُ
 وَفَقَّ عَلَيَا الْحَمْدُ * دُ وَالْمِئَةُ وَالشُّكْرُ
 فَقَدْ كَانَ شَكَا شَوْقًا * إِلَيْكَ إِلَهِي وَالْأَمْرُ

قال موسى بن يحيى : أوصلا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف ونمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد، فيها عن عبد يحيى بن خالد الإدحل يزيد بن مزيد، وكانت فيه دُعاة، قال : يا أبا على، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم، وهو يشتري النبل من البقال، فنصب يحيى ثم قال : على مروان، فألقى به، فقال له : قد أحبرنى أبو خالد بما أودعته من المال وما تتناعه من البقال، والله لمأثرى من أثر البخل عليك أصرت من الفقر لو كان لك . ويروى أنه قال له : والله لتحل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صرت اليه فلا يحمل . وقال عمر بن شنة قال مروان : ما فرحت شئ قط فرسى بمائة ألف وهبها لى أمير المؤمنين المهدي، فوزتها فزادت درهما، واشترت به لحما . وقال جهم بن حلف : أتينا اليمامة فركنا على مروان بن أبى حفصة فاطعمنا تمرا وأرسل علامه طلس وسكره ليشتري زيتا، فلما جاء الزيت قال لعلامه : حننى؛ قال : من طلس ! كيف أخوك ؟ قال : أحدث الفلّس لمسك وأستوهت الزيت . وقال التوزي : مر مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد متنى امرأة من العرب، فأضافته، فقال : لله على إن وهب لى الأمير مائة ألف أن أهب لك درهمها، فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاها أربعة دواقي . وقال أبو دلامة : أشتري مروان لحما نصف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينصج دعاه صديق له، فردّه على القصاب بنقشان داني، فشكاه القصاب وجعل ينادى هذا لحم مروان، وطق أنه يأنف لذلك، فبلغ الرشيد ذلك فقال . ويلك ! ما هذا ؟ فقال أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادي فأشده قوله فيه .

تَشَابَهَ يَوْمًا بِأَسِهَ وَنَوَالِهِ . مَا أَحَدٌ يَدْرِى لِأَيُّهَا الْمَصْلُ

فقال له الهادي : أيما أحب اليك ؟ أثلثون ألفا معجّلة، أم مائة ألف تدوّن فى الدواوين ؟ فقال له . يا أمير المؤمنين، أنت تحبس ما هو خير من هذا، ولكك أنسيته، أفتأذن لى أن أذكرك ؟ قال : نعم، قال : تُعْجَلُ لى الثلاثين ألفا وتُدَوَّنُ المائة ألف فى الدواوين، فصحك وقال : بل يُسْجَلان جميعا، فحُمِلَ اليه المال أجمع .

قال محمد القوي : احتاز مروان برجل من بَاهِلَة من أهل البجامة ، وهو يُشَدُّ قوماً كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتِلَ قبل أن يلقاه ويُشَدَّ لِيامه ، أوله :
مروانُ يا بن محمد أنت الذي * زيدت به شرفا بسو مروان

فأعجبته القصيدة ، فأهل الباهل حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبني ، ومروان قد مضى ومضى أهله ، وفاتك ما قدرتَ عده . أفتبغني القصيدة حتى أتعلها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ؟ قال : نعم ، قال : لكم ؟ قال : بثلاثة درهم ، قال : قد آبتعتها ، فأعطاه الدرهم وحلقه بالطلاق ثلاثا وبالإيمان المحرمة ألا يتصلها أبدا ، ولا يَسُها إلى هسه ولا يُشَدَّها ، وأصرف بها إلى منزله فقير منها أبياتا وزاد فيها وحملها في مَن ، وقال في ذلك البيت :

مَنْ بِن زائدة الذي زيدت به * شرفا على شرف بو شيبان

ووجد بها إلى من حتى أثرى وأسمت حاله ، فكان من أول من رجع ذكره وتوه به . وله فيه مدائحُ بعد ذلك شريفة ومراث حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب من بن زائدة طلعا شديدا وجمل فيه مالا ، فحدثني من باليمن أنه أصطر لشدة الطلب إلى أن قام في الشمس حتى لوحَّت وجهه ، وحقق عارضيه ولحيته ، وليس جُبَّة صوف طليظة ، وركب جملا من الجمال الثقالة يمشي إلى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبل في حرب يزيد ابن عمر بن هُبيرة بلاء حسنا عاظ المنصور وحَدَّ في طلبه ، قال من : فلما خرجتُ من باب حرب تبغى أسود متقلدا سيفا حتى إذا غبَّت عن الحرس قصص على حِطَّام جملي فأتاخه وقبص على ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طيلة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى بطلني أمير المؤمنين ؟ قال : من ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، أتى الله ، وأبى أنا من من ؟ قال : دع هذا عك ، فإنا والله أعرف بك منك ، فقلت له : إن كانت القصة كما تقول ، فهذا جوهر حمت معي بقي أصعاف ما بذله المنصور لمي حاه بي ، فغذه ولا تسبك دمي ، قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر إليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولستُ قابله حتى أسالك

عن شيء ، وإن صدقتني أطلتكت ، فقلت : قل ، قال : إن الساس قد وصّوك بالجلود
 فأحمرني ، هل وهبت قُطْ مالك كآه ؟ قلت : لا ، قال : فنصمه * قلت : لا ، قال : فثلثه *
 قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت ، فقلت . أظن أني قد صلت هذا ، فقال : ما أراك
 فعلته ، أنا والله راحل ورزق من أبي جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير
 وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور منك بين الناس ، ولتعلم أن في الدنيا
 أحوادُ منك فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر بعد هذا كل شيء تصعله ولا تتوقف عن مكرمة ،
 ثم رمى بالعقد في بحري وحلّ حطام العير وأصرف ، فقلت : ياهدا ، قد والله فضحتني
 ولسمك دمي أهون عليّ مما فعلت ، فقد ما دعته إليك إلى عني عه ، فصيحك وقال :
 أردت أن تكذبني في مقامى هذا ، والله لا أحده ولا أحد بمعروف ثما أبدا ومهي ، هو الله
 لقد طلته بعد أن أميت وبذلت لمن شاء في به ما شاء ، فما عرفت له حبرا وكأن الأرض
 ابتلعتة ، وكان سبب رصا المنصور عن من أنه لم يزل مستترا حتى كانت يوم ^(١) الحاشية ،
 فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب من وهو متمم فأنصه سبه وأاتل فأبى
 بلاء حسنا ودب القوم عنه حتى نجوا وهم يحاربونه بعد . ثم جاء والمنصور راكب على بعة
 ولجامها بيد الربيع فقال له . تبع فإني أحق بالتمام منك في هذا الوقت وأعظم فيه عاء ،
 فقال له المنصور : صدق فادفعه إليه ، فأحده ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ،
 فقال له المنصور : من أنت * فله أموك ' قال : أنا طليتك يا أمير المؤمنين مع من زائده ،
 قال : قد أتمك الله على نفسك ومالك ومثلك بضطع ، ثم أحده معه وحلح عليه وجباه
 وزيه ، ثم دعا به يوما فقال له : إني قد أتمتك لأمر فكيف تكون فيه * قال : كما يحب
 أمير المؤمنين ، قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى يقتص حلف ربيعة واليمن ،
 وأبلغ من ذلك ما يجب أمير المؤمنين ، هؤلاء اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة ساما السامح المكونة وذلك أنه لما دلى الخلافة رل قصر آس هيرة واستقم ساه وحله مدينة
 وسماها الحاشية ، فكان الناس يسمونها إلى ان هيرة هل المادة ، فقال : ما أرى ذكر آس هيرة يسقط عنها ،
 رمصها رى سياهها مدينة ساما الحاشية ورها .

أسرف . قال مروان : وقدم من عقب ذلك فدخل على المنصور ، فقال له بعد كلام طويل :
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء ، لولا مكأئك عنده ورأيه فيك لقصص عليك ؛ قال :
وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معنُ بنُ زائدة الذي زيدت به . شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عُدَّ أيام العمال فإيها * يوماء يومُ ندى ويومُ طلعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيت ما بَلَغَكَ لهذا الشعر ، وإنما أعطيت لقوله :

ما زِلْتَ يومَ الهاشمية مُعلِّماً * بالسيف دونَ حليلةِ الرحم
سعت حورته وكنت وقيماً * من وقع كلِّ مهتدٍ ويسان

فأستحيا المنصور وقال : إنما أعطيت ما أعطيت لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛
والله لولا محامه الشئمة لأمكنته من معاتيج بيوت الأموال وأبجته إياها ؛ فقال له المنصور :
لله ذرّك من أعرافى ! ما أهون عليك ما يبرّر على الرجال وأهل الحزم !

وأحتم هذه الترجمة بموت مروان يقصّه قائله . روى صاحب الأعاني من رجل
يقال له صالح بن عطية الأحمم أنه قال :

لما قال مروان :

أنى يكونُ وليس ذاكُ بكاتبٍ - لبي السات ورائه الأعصام

لزمته وعاهدت الله أن أعتاله فأقتله أى - وقت أمكنى ، وما زلت أُلطّعه وأُرّهُ ، وأكتب
أشماره حتى خُصِصْتُ به فإيس بى جدا ، وعرفت ذلك بو حفصة جميعا فأنسوا بى ،
ولم أزل أطلب غيرة حتى مريض من حمى أصابته ، فلم أزل أظهر له الجزع عليه وألأزمه
والأطّفه حتى حلا لى البيت يوما ، فوثق عليه فأخذت بحلقه فما فارقه حتى مات ، فخرجت
وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وأرتمت الصبيحة ، فحسرت وتباكيت
وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما قطن لما صلت أحد ولا أتحنى به .

٤ - أبو دَلَامَة^(١)

كَانَ أَوَّلُ مَا حُصِفَ مِنْ شَعْرِهِ وَأُسْدِيَتْ الْجَوَائِزُ لَهُ بِهِ ، قَصِيدَةً مَدَحَ بِهَا أبا جعفر المصور
وَذَكَرَ قَتْلَهُ أَمَا مُسْلِمٌ يَقُولُ فِيهَا :

أَمَا مُسْلِمٌ حَوْضَنِي الْقَتْلَ فَأَسْتَحْيَ * عَلَيْكَ بِمَا حَوْضَنِي الْأَسَدَ الْوَرْدَ

أَمَا مُسْلِمٌ مَا عَرَّاهُ نَمَمَةً * عَلَى عَصَاهُ حَتَّى يُعِيرَهَا الْعَصَدَ

أَشْدَّهَا الْمَصُورَ فِي تَحْمِيلٍ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ : أَحْذَرِكْ ، فَطَلَبَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمًا ،
فَأَمَرَ لَهُ بِهَا ، فَلَمَّا حَلَا قَالَ لَهُ : إِيهَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ تَعَدَّيْتَهَا لَقَتَلْتُكَ .

أَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَصْحَابَهُ نُلْبَسَ السَّوَادَ وَقِلَائِسَ طَوِيلَاتٍ تُدْعَمُ مِيدَانٍ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَأَنْ يُعْلَقُوا
السُّيُوفَ فِي الْمَنَاطِقِ وَيَكْتَبُوا عَلَى طُهُورِهِمْ : (يَا قَسِيكُمُيْكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ :

وَكَمَا رُحِّي مِنْ إِيَّامٍ رِيَادَةٍ * فَهَذَا طُغْيَانُ زَادَهُ فِي الْقِلَائِسِ

تَرَاهَا عَلَى هَامٍ الرِّجَالِ كَأَهَا * دِمَانٌ يَسُودُ حُلَّتْ بِالْبَرَّاسِ

وَدَخَلَ إِلَى الْمَصُورِ مَرَّةً فَأَشْدَّه .

إِنْ انْخَلِطَ أَحَدُ الْبَيْنِ فَاتَّصَحُوا * وَزَوَّدُوكَ حَالًا ، بَلَسْنَا صَحَا

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ كَادَتْ لِيَفْنِيَهُمْ * يَوْمَ الْفِرَاقِ حَصَاهُ الْقَلْبُ تَصَدِّعُ

نَحِيتُ مِنْ صِبْيَتِي يَوْمًا وَأُمِّيهِمْ * أُمُّ الدَّلَامَةِ لَمَّا هَاجَهَا الْخَسَرُ

(١) هو عبد الرحمن الحوي ، وسمى أبا دَلَامَةَ مَسَةً إِلَى اسْمِهِ دَلَامَةُ ، وَهُوَ كَوْنُ الْمُنَا أَسَدَ الْقَوْمِ مَوْلَى لُبِّي أَسَدَ ،
وَكَانَ أَبُوهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ مِنْهُمْ فَأَعْتَقَهُ . أَدْرَكَ أَبُو دَلَامَةَ أَوَّلَ أَرْبَاعِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ مِنَ الدَّوْلَةِ الصَّامِيَّةِ ، وَأَضْطَرَّ
إِلَى أُنَى النَّاسِ السَّاعِجِ وَالْمَصُورِ وَالْمُهْدِيِّ ، وَكَانُوا يَفْتَنُونَهُ وَيَصْلُحُونَهُ وَيَسْتَلْبِطُونَ بِمَحَاسِنِهِ وَوَادِعِهِ ، وَبِهِ دَعَاةُ
وَطَرَفٍ ، لَا يَجْلُو حَدِيثَهُ مِنْ نَكْتَةٍ أَوْ مَلْعَةٍ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدُودًا فِي حَلَقَةِ الْمُتَمَيِّزِينَ بِالرَّبَقَةِ وَفَسَادِ الدِّينِ ،
وَكَانَ يَشْرِبُ الْخَمْرَ وَلَا يَحْصِرُ صَلَاةً وَلَا هَرَمًا . تَوَفَّى سَنَةَ ١٦١ هـ . وَأَحَارَهُ فِي الْأَعْيَانِ (ح ٩ ص ١٢٠) وَابْنُ
حُلْكَنْ طَبَعَ بِإِلَاقِ (ح ١ ص ٢٦٧) وَالشَّعْرَ وَالشَّمْرَاءَ (ص ٤٨٧) وَالِدِ الْمُرِي (ح ١ ص ١٣٢) وَالْمُسْتَطَرَفِ
(ح ٢ ص ٤٣) . (٢) فِي الشَّعْرِ وَالشَّمْرَاءِ . "أَمَا مَحْرَمٌ" . (٣) فِي الطَّبَرِيِّ ح ٢ ص ٣٧١ طَبَعَ أَبُو دَلَامَةَ
"فَرَادَ الْإِمَامَ الْمُصْطَفَى" .

لا مارك الله فيها من مُبَيَّة : هَبَّتْ تَلُومَ عِيَالِي سَدَّ مَا مَعْمُوا
 ونَحْنُ مُشْتَبِهُوا الْأَلْوَابِ أَوْحُهَا * سُودٌ قِسْاحٌ وَفِي أَسْمَانَا شَع
 إِذَا تَشَنَّتْ إِلَى الْجُوعِ قُلْتُ لَهَا * مَا هَاجَ حَوْعَكَ إِلَّا الرَّيُّ وَالشَّع
 لَا وَالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَصَى * لَكَ الْخِلَافَةَ فِي أَسَاسِهَا الرُّقْع
 مَا زِلْتُ أُحْلِسُهَا كُنْى فَنَا كَلُّهُ دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَصْطَلِجُ
 شَوْهَاءَ مَشَاةٍ فِي بَطْنِهَا عَمْرُ^(١) وَفِي الْمَفَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا قَدَعَ
 دَعَكْرَتُهَا بِكَلْبِ اللَّهِ حُرْمَتَا * وَلَمْ تَكُنْ بِكَلْبِ اللَّهِ تَنْفِيعُ
 فَأَتَرْتُ^(٢) نَطَمْتُ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُعَصَّةٌ - أَلْتَ نَتْلُوكَاتَ اللَّهِ يَا لَكُمُ
 أَرْجُحُ لَتَنْجِ لَنَا مَالًا وَمَرْزَعَةً - كَمَا لِحِيرَاسِ مَالٍ وَمُزْدَرَعُ
 وَأَحْدَعُ حُلَيْفَتَا عَا بِمَسَالَةِ : إِنْ الْخَلِيفَةُ لِلشُّوَالِ يَخْدَعُ
 فَصَحَّكَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَتَبَ لَهُ بَصِيحَهُ .

كَانَ واقِعًا بَيْنَ يَدَيِ السَّمَّاحِ فَقَالَ لَهُ : سَلَى حَاجَتَكَ ، قَالَ : كَلْبُ أَنْصِيدَ بِهِ ، قَالَ :
 أَعْطُوهُ إِيَّاهُ ، قَالَ . وَدَابَّةٌ أَنْصِيدَ عَلَيْهَا ، قَالَ : أَعْطُوهُ دَابَّةً ، قَالَ : وَغُلَامٌ يَعْصِدُ بِالْكَلْبِ
 وَيَقُوْدُهُ ، قَالَ : أَعْطُوهُ غُلَامًا ، قَالَ : وَحَارِيَّةٌ تُصَلِّحُ لَنَا الصَّبْدَ وَتُطْعِمُنَا مِنْهُ . قَالَ :
 أَعْطُوهُ حَارِيَّةً ، قَالَ : هَؤُلَاءِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْدُكَ ، فَلَا يَدَّ لِمَنْ مِنْ دَارٍ يَسْكُونُهَا ، قَالَ :
 أَعْطُوهُمْ دَارًا تَحْمِيهِمْ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ صَبِيحُهُ مِنْ أَيْنَ يَعِيشُونَ ؟ قَالَ : قَدْ أَعْطَيْتَكَ مَائَةَ
 جَرِيرِبٍ عَامِرَةٍ ، وَمَائَةَ جَرِيرِبٍ عَامِرَةٍ ، قَالَ . وَمَا الْغَامِرَةُ ؟ قَالَ : مَا لَا نَبَاتَ فِيهِ ، فَقَالَ : قَدْ
 أَقْطَعْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَسْبَاءَ أَلْبِ جَرِيرِبٍ عَامِرَةٍ مِنْ مِيَايِ سَيِّ أَسَدٍ ، فَصَحَّكَ وَقَالَ :
 اجْعَلُوها عَامِرَةً ، قَالَ : فَأَدْنِ لِي أَنْ أَقْبَلَ بِذَلِكَ ، قَالَ : أَمَا هَذِهِ قَدَعُهَا ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا مَعَتَ
 عِيَالِي شَيْئًا أَقْبَلَ صَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، قَالَ الْجَاهِظُ : فَأَنْظِرْ إِلَى حِدْقِهِ بِالْمَسَالَةِ وَكُلْفِهِ فِيهَا ، ابْتَدَأَ

(١) الحر خروجه السرة وتبوتها وعطأ أهلها . والهدع . كأمواج في الزرع من اليد أو الرجل حتى يقلب

(٢) أى صعدت .

الكف والقدم إلى إسما .

بكلب فسَهَّلَ القصة له وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى ثال ما لو سأله بذيبة لما وصل اليه .

قال علي بن سلام : كنت أسقى أبا دلامة والسَّندى إذ خرجت بنتُ لأبي دلامة ، فقال فيها أبو دلامة :

فا وَلَدْتُكَ مَرِيْمُ أُمِّ عِيسَى • وَلَا رَأَيْكَ لِقَامَ الْحَكِيمِ
أَحْزَى يَا أَبَا عَطَاءٍ ، فَقَالَ :

ولكن قد تَصَنَّفْتُ أُمِّ سَوْءٍ • أَلَى لَكُمَا وَائِثُ لَيْسِمِ
فصيحك لذلك ، ثم خذا أبو دلامة إلى المنصور فألماه في الرَّحْمَةِ يُصْلِحُ فيها شيئا بريدته ، فأجابه بقصة ابنته وأنشده البيتين ، ثم أمدفغ فأنشده بعدهما .

لو كان يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرِيمٍ قَوْمٌ لَقِيلَ أَفْعَدُوا يَا آلَ عِبَّاسٍ
ثم أَرْتَهَوْا فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ كُلُّكُمْ • أَلَى السَّمَاءِ فَاتِمٌ أَطْهَرُ السَّاسِ
وقدَّمَوا الْفَاتِمَ الْمَنْصُورَ رَأْسَكُمْ • فَالْعَيْنُ وَالْأَنْفُ وَالْأُذُنَانِ فِي الرَّاسِ
فاستحسنها وقال : ما شيء تحبُّ أَنْ أُعِيكَ عَلَى قُبْحِ أَبْنَتِكَ هَذِهِ ؟ فَأَخْرَجَ خَرِيطَةً كَانَ
قد حاطها من الليل ، فقال : تملأُ لى هذه دراهم ، فقلتُ فَوَيْسَتْ أَرْمَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ •
لما تَوَقَّى أَبُو الْعَاصِ السَّقَاقِ دَحَلَ أَبُو دُلَامَةَ عَلَى الْمَنْصُورِ وَالنَّاسُ عِدهُ يَمْرُونَهُ ، فَأَنشَأَ
أبو دلامة يقول :

أَسَيْتَ بِالْأَنْبَارِ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ • لَمْ أَسْتَطِيعْ عَنْ عُقْرِهَا نَحْوِيلا
وَبَلَى عَلَيْكَ وَوَيْلَ أَهْلِ كُلِّهِمْ • وَيْلًا وَوَعَوْلًا فِي الْحَيَاةِ طَوِيلَا
فَتَجَبَّيْنِ لَكَ النِّسَاءَ بَعْبَرِيَّةً • وَلَيْدٍ كَيِّنٍ لَكَ الرِّجَالُ عَوِيلَا
مَاتَ النَّدَى إِذْ مِتَّ يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ • بَجَلْتَهُ لَكَ فِي التُّرَابِ عَدِيلَا
إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بِعَدِكَ كُلِّهِمْ • فَوَحَدْتُ أَسْمَعَ مِنْ سَأَلْتُ بَجِيلَا
الْيَشْفَوْنِي أَنْتَ بَعْدَكَ لَتَنِي • تَدْعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرِّجَالِ ذَلِيلَا
فَلَاخِلْفَنَ يَمِينٍ حَقِّي بَرَّةً • بِالْقَهْرِ مَا أُعْطِيتُ بِعَدِكَ سُؤْلَا

فأبكى الناس قوله ، فغضب المصور عصا شديدا وقال : لئن سمعتك تُشيد هذه القصيدة لأقطعن لسانك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرما ، وهو الذي جاء بي من الدؤ كما جاء الله بإحوة يوسف اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فسرى عن المصور وقال : قد أقتناك يا أبا دلامة ، فل حاجتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بـ عشرة آلاف درهم وبـ خمسين نوما وهو مريض ، ولم أقصها . فقال المصور . ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار إلى جماعة ممن حصر ، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك ، فقال المصور لأبي أيوب الخمار وهو معيط : يا سليمان ، ادفعها إليه وسبره إلى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن علي » وقد كان خرج ساحية الشام وأطهر الخلاف ، فوثب أبو دلامة فقال : يا أمير المؤمنين إني أعبدك بالله أن أخرج معهم ، فوالله إني لمشوم ، فقال المصور : امض ، فإن يئني يَغْلِبَ ثَوْمُكَ فَأُتْرَحَ ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك مني على مثل هذا العسكر ، إني لا أدري أيهما يغلب ، أئمنك أم ثؤمي ، إلا أني بنصبي أوثق وأعرف وأطول تحيرة ، قال : دعني من هذا فإني من الخروج بد ، فقال : إني أصدقك الآن ، شهدت والله تسعة عشر عسكرا كلها هُيرت وكُتُ سبها ، فإن شئت الآن على نصيره أن يكون عسكرك العشرين فافعل ، فاستغفرت أبو جعفر محمدا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى الكوفة .

قال أبو دلامة : أتني بن المنصور أو المهدي أو أبا سكران ، خلف لي جرحتي في عت حرب ، فأخرجني مع رُوح بن حاتم المهدي لقتال الشراء ، فلما التقى الحمان قلت لِرُوح . أما والله لو أن تخني فمستك ومعى سلاحك لأثرت في غدوك اليوم أثرا ترقصيه ، فصحك وقال : والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولأخذتك بالوفاء بشرطك ، وزل عن فرسه ورج سلاحه ودفعهما إلى ودعا ضيرهما فاستبدل بهما ، فلما حصل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع قلت له . أيها الأمير هذا مقام المائذ بك ، وقد قلت أباينا فاسمهما ، قال : هات ، فأنشدته :

إلى أستجرك أن أقدم في الوعى * تَطْلُعُنِ وتَسْأَلِ وَحِرَابُ^(١)
 فهَبِ السُّيُوفَ رَأْيُهَا مشهورة * فتركها ومصبت في المِزَابِ
 ماذا تقول لما يئى وما يرى * من واردات الموت في الثَّشَابِ

فقال دَعَّ عك هذا وسَتَعَلَّمْ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : اخرج
 إليه يا أمدلامة، قلت : أَسْأَلُكَ الله أيها الأمير في دِئِي، قال : والله لتُخْرِجُنِي، فقلت :
 أيها الأمير فإنه أوَّلَ يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا وأما والله جامع ما شِئْتَ
 متى جارية من الجوع، قُرئ لي بنى آكله ثم أخرج، فأمر لي برعفين ودجاجة، فأخذتُ
 ذلك وبرزت عن الصف، فلما رأى الشَّارِى أقبل نحوى وعليه قُرُوق قد أصابه المطر فابتل
 وأصابته الشمس فأعمل وعيائه تَقْدَانِ^(٢)، فأسرع إلى، فقلت له : على رِسْلِكَ يا هذا، كما أنت،
 موقوف، قلت : أقتل من لا يقاقلك * قال : لا، قلت : أقتل رجلا على دينك * قال :
 لا، قلت : أقتل ذلك قبل أن تدعو من يقاتله إلى دينك * قال : لا، فاذهب عني
 إلى لمة الله، قلت : لا أفعل أو تسمع منى، قال : قُلْ، قلت : هل كانت بيننا فقط عداوة
 أو تِرَّة أو تعرفني بحال مُخْفِظُكَ على أو تعلم بيني وبين أهلِكَ وتِرًا، قال : لا والله، قلت :
 ولا أما والله أُصير لك إلا حبل الرأى، وإنى لأهواك وأنتحل مدحك، وأدين دينك، وأريد
 السوء لمن أرادَه لك، قال : يا هذا حراك الله حيرا فأصيرف، قلت : إن معى رادًا أحب
 أن آكله منك وأحب مواكلك لتأكد المودة بيننا ويرى أهلُ العسكر هَوَاتِمَ علينا، قال :
 فأقبل، فتقدمت إليه حتى احتلفت أعناق دوابنا، وجمعا أرُحُلنا على مَعَارِفها والباس قد غلبوا
 سَحِيحًا، فلما استوفينا وذعنى، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أقمت على طلب المبارزة
 ندبى إليك تَتَبِعْنِي وتسم هك، وإن رأيت ألا تَبْرُز اليوم فأقبل، قال : قد فعلت،
 ثم أنصرف وأنصرفت فقلت لروح : أما أنا فقد كعبتُكَ قِرْنِي، فقل لغيري أن يكفيك قرنه
 كما كفيتك، فأمسك، وخرج آخر يدعو إلى البراز، فقال لي : اخرج إليه، فقلت :

(١) الحراب بمعنى الخاربة وفي الأغانى « حراب » . (٢) هكذا الأصل ولها : أفعل، من
 قولهم ألقطت يده : تقيمت .

إِنِّي أَعُودُ بِرَفْجٍ أَنْ يَقْدَمَنِي إِلَى الْبِرَازِ فَتَحْزَنِي فِي بَوِّ أَسَدٍ
 إِنَّ الْبِرَازَ إِلَى الْأَقْرَانِ أَعْلَهُ * مما يَهْوَى بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
 قَدْ خَالَفْتُكَ الْمَايَا إِنْ صَمَدَتْ لَهَا * وَأَصْحَبْتُ لِمَجْمَعِ الْخَلْقِ بِالرَّصَدِ
 إِنْ الْمُهْلَكُ حَبَّ الْمَوْتِ أَوْ رَتَبِكُمْ * وَمَا وَرِثْتُ أَحْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدٍ
 لَوْ أَنَّ لِي مُنْهَجَةٌ أُخْرَى لَخَدْتُ بِهَا * لِكَيْتُمْ حُلِقْتُ فَرَدَا فَلَمْ أَحْدِ
 فصحك وأعماى .

قال أبو أيوب المورياني لأبي حمزة وكان يشأ أنا دلامه : إن أنا دلامه مُتَكَيِّفٌ عَلَى
 الْخَمْرِ، مَا يَتَخَصَّرُ صَلَاةً وَلَا مَسْحَدًا وَقَدْ أَصْدَقِيَانِ الْعَسْكَرَ، فَلَوْ أَمَرْتَهُ بِالصَّلَاةِ مَعَكَ لَأُجِرْتُ
 فِيهِ وَفِي عَيْرِهِ مِنْ حِيَانِ عَسْكَرِكَ قَطْعِيهِ عَنْهُمْ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَوْ دَلَامَةً قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْمُجُوبُ
 الَّذِي يَلْعَنِي عَنْكَ * فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا وَالْمُجُوبُ وَقَدْ شَارَفْتُ مَاتَ قَبْرِي !، قَالَ .
 دَعْنِي مِنْ أَسْتِكَاتِكَ وَتَصَرُّعِكَ، وَإِنَّا لَأَنْ تَقُوْتُكَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ * سَحَدِي، طَلَسَ فَاتَّكَ
 لِأَحْسَنَتِي أَدْنِكَ وَلِأَطْلِقَ حَبْسَكَ، مَوْقِعٌ فِي شَرِّ وَلَرَمِ الْمَسْحَدِ أَيَّامًا، ثُمَّ كَتَبَ قِصَصَهُ وَدَعَمَهَا
 إِلَى الْمَهْدِيِّ فَأَوْصَلَهَا إِلَى أَبِيهِ وَكَانَ فِيهَا :

أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْخَلِيعَةَ لَزْنِي * بِمَسْجِدِهِ وَالْقَصِيرَ، مَالِي وَالْقَصِيرَ
 أَصْلَى بِهِ الْأَوَّلَى جَمِيعًا وَعَصْرَهَا * هَوِيلٌ مِنَ الْأَوَّلَى وَهَوِيلٌ مِنَ الْعَصْرِ
 أَصْلِيهَا بِالْكُرْهِ فِي عَيْرِ مَسْحَدِي * هَالِي فِي الْأَوَّلَى وَلَا الْعَصْرِ مِنْ آخِرِ
 لَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِي مَسَاجِدُ جَمَّةٌ * وَلَمْ يَبْشُرْ حَبِيبًا لِقِشْيَاهَا صَدْرِي
 يَكْفَنُ مِنْ مَعْدَا سَبَبْتُ حُطَّةً * يُحْطَى بِهَا عَنَى الثَّقِيلُ مِنَ الْوِزْرِ
 وَمَا صَرَّهُ وَاللَّهُ يَعْرِ ذَنْبَهُ * لَوْ أَنَّ دُوبَ الْعَالَمِينَ عَلَى طَهْرِي
 فَقَالَ : صَدَقَ، مَا تَصَرُّتَنِي ذَلِكَ، وَاللَّهُ لَا يَصِلُ هَذَا أَدْنًا، فَعَدَّوهُ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ .

وقال المقيم في حَرَه : قد أعيالك من هذا الحال، ولكن على ألا تدعَ القيامَ معنا في ليالي شهر رمضان فقد أَطْلُ، فقال . أفعل، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله لئن فعلت لأُحَدِّثَكَ، فقال أبو دلامه : اللَّيَّة في شهر أخفَ منها في طول الدهر، سمًّا وطاعةً، فلما حصر شهرُ رمضان لرم المسجد، وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حَرَسِيًّا يحمي به، فسُقِ ذلك عليه وقرع إلى الخيَّزان وإلى أبي عبيد الله وكلِّ من ملوَّذ بالمهديّ ليشعروا له في الإعفاء من القيام، فلم يحبهم، فقال له أبو عبد الله : الدَّالُّ على الخير كفاعله، فكيف شُكْرُكَ؟ قال : إنَّمْ شكر، قال . عليك رِيطَةٌ فإنه لا يحالها، قال : صدقت، ثم رفع إليها رُقعة يقول فيها :

أبِلما رِيطَةٌ آتَى * كَت عبدًا لأَيها
مضى رَحِمه الد * ه وأوصى في اليها
وأراها تَسِيَّتِي * مثل سَيِّئِ أَخِيها
حاء شهر الصوم يَمْنَى * مِثْبَةً ما أَشْتَبِيها
فائدًا لى لَيْلَةُ القَد * ر كَأَنى أَتَبِيها
تَطَلَّح القِبْلَةُ شَهِرا * جَبِيَّتى لا تَأْمَلِيها
ولقد عَشْتُ زَمانا * في قِياقٍ وحيها
في لِيالٍ من شِئاء : كَت شَيْخًا أَصْطَلَبِها
قاعداً أَوْقَدَ مارا * لِصِبابِ أَشْتَوِيها
وَصَبُوحٍ وَجَبُوى * في عِلابِ أَحْسِيا
ما أبالى لَيْلَةُ القَد * ر ولا تُسْمِعِيها
فأَطْلَبى لى قَرَحًا م * مَها وَأَجْرى لَكَ مِها

فلما قرأ الرُقعة صَحَّكَ وأرسلت إليه : أَصْطِرِحْ حَتى نَمضى لَيْلَةُ القَدَر، وكتب اليها :
إنى لم أسألك أن تكلِّمَنى في إعماى عامًا قايلاً، وإذا مصت لَيْلَةُ القَدَر فقد قَتى الشَهِر،
وكتب تحتها أَيْبانا :

حاي الملك في عرس قد أحتُصرت قامت قيامتها بين المصليا
 ما ليلة القدر من همى فاطلها . إلى أحاف المايا قل عشرينا
 ياليلة القدر قد كثرت أرحلنا . ياليلة القدر حقا ما تمينا
 لا مارك الله في حير أؤتله . في ليلة سعد ما ما تلاميها

فلما قرأت الرقعة صحت ودخلت إلى المهدي فشعت له إليه وأشدته الأبيات ،
 فضحك حتى استلقى ودعا به وريلة معه في الجملة ، فدخل ، فأرح رأسه إليه وقال : قد
 شفعنا ريلة فيك وأمرنا لك بسمه آلاف درهم ، فقال : أما شعاعة سيدتي في حتى أعينتي
 فاعاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف ما أعنى ما فعلته إما أن تنمها ثلاثة آلاف
 فتصير عشرة أو تقصى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإن لا أحسن حساب السعة ،
 فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال : أعينك بالله أن نختار أدنى الحالين وأنت أب ، صيت
 به المهدي ساعة ، ثم تكلمت فيه ريلة ، فأتتها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلالة في عرس الحامات مسكر وأنصرف وهو يميل ، فليقه العسس ، فأحدوه
 وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال .

ديني على دين بني العساس ما ختم الطين على القروطاس
 أي أصطبحت أرسا مالنكاس . فقد أدار شربها براسي
 . فهل عما قلت لكم من ماس .

فأحدوه ومصروا وحرقوا ثيابه وسأله ، وأنى به أبو جعفر ، وكان يؤتى بكل من أحداه
 العسس ، فلبسه مع الدحاح في بيت ، فلما أفاق جعل يادى علامه مرة وحاربه مرة .
 فلم يحنه أحد ، وبما هو في ذلك إذ سمع صوت الدحاح وزقاء الدبوك ، فلما أكثر قال له
 السحاب . ما شاك ؟ قال ويك من أنت ؟ وأير أنا ؟ قال في الحبس وأنا فلان

السَّحَابُ، قَالَ : مَن حَبَسَنِي ؟ قَالَ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ : وَمَن تَرَقَّى طَيْلَسَانِي ؟ قَالَ :
الْحَرَّاسُ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِدَوَاةٍ وَقِرْطَاسٍ، فَفَعَلَ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ :
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِكَ هِيَ . • عَلَامَ حَبَسْتَنِي وَتَرَقَّتْ سَاجِي
أَمِنْ صَعْرَاءَ صَافِيَةِ الْمِرَاجِ . • كَأَنَّ شُعَاعَهَا لَهْتُ السَّرَاجِ
وَقَدْ طَلَحَتْ سَارِئَةً حَتَّى . • لَقَدْ صَارَتْ مِنَ الطُّفْلِ النَّصَاحِ
تَهْتَشُّ لَهَا الْقُلُوبُ وَتَسْتَهْجِئُ . • إِذَا بَرَزَتْ تَرَقُّقُ فِي الرِّجَاجِ
أُقَادُ إِلَى السَّجُودِ مَغْرُورٌ كَأَنَّ مَعْشَرَ عُمَّالِ الْخَرَاجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حُبْسَتْ لَكَانَ سَهْلًا . • وَلَكِنِّي حُبْسْتُ مَعَ الدَّبَاجِ

فَدَعَا بِهِ وَقَالَ : أَيْنَ حُبْسْتَ يَا أَمَا دِلَامَةَ ؟ قَالَ : مَعَ الدَّبَاجِ، قَالَ : فَكَأَيْتَ تَصْعَقُ ؟
قَالَ : أَتُوقِ مَعَهُ حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَصَحَّكَ وَحَلَّى سَبِيلَهُ وَأَمَرَ لَهُ بِمَآثِرَةٍ، فَلَمَّا حَرَجَ قَالَ لَهُ
الرَّبِيعُ : إِنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ : وَقَدْ طَلَحَتْ بَارِئَةً، يَعْنِي
الْشَّمْسَ ؟ فَأَمَرَ بِرَدِّهِ، ثُمَّ قَالَ : يَا حَبِيبُ، شَرِبْتَ الْخَمْرَ ؟ قَالَ : لَا، قَالَ : أَفَلَمْ تَقُلْ : طَلَحَتْ
سَارِئَةً تَعْنِي الشَّمْسَ ؟ قَالَ : لَا وَإِنَّهُ مَا عَيَّبْتُ إِلَّا بَارِئَةً الْمُؤَقَّدَةَ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى فَوَادِ
الرَّبِيعِ، فَصَحَّكَ وَقَالَ : خُذْهَا يَا رَبِيعُ وَلَا تُعَاوِدْ .

صَامَ النَّاسُ فِي سَةِ شَدِيدَةٍ الْخَرَّ عَلَى عَهْدِ الْمُهَدِيِّ، وَكَانَ أَوْ دِلَامَةَ يَنْحَزُّ حَاطَّةً أَمَرَ
لَهُ الْمُهَدِيُّ بِهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَوْ دِلَامَةَ رَقْعَةً يَشْكُو فِيهَا أَدَى الْخَرِّ وَالصَّوْمِ، وَهِيَ :
أَدْعُوكَ يَا رَحِيمَ إِلَى قَدْ تَحَمَّمتُ . • فِي الْقَرْبِ مِنْ قَرْيِنَا وَالْأَنْقَدِ
إِلَّا سَمِعْتَ وَأَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ مَتْنِي . • مِنْ مُنْشِدٍ يَرْجُو بَرَءَ الْمُنْشِدِ
حَاءَ الصَّبَإِ فَصُمْتُهُ مُتَعَبِدًا . • أَرْجُو رَجَاءَ الصَّائِمِ الْمُتَعَبِّدِ
وَلَقِيتُ مِنْ أَمْرِ الْعَبَايِمِ وَحَرًّا . • أَمْرَيْنِ قَيْسًا بِالْعَذَابِ الْمُؤَصِّدِ
وَصَحَّيْتُ حَتَّى جَنَّبَنِي مَشْجُوجَةً . • مِمَّا يَنَاطُحُنِي الْخَصَا فِي الْمَسْجِدِ
فَأَمْنٌ بِسَرِيحِي بِمَظْلُكِ الْبَدَى . • أَسْلَفْتَنِي مِنَ الْبَلَاءِ الْمُرْصِدِ

فلما قرأ المهدي رُفَعَتْه غصْب وقال : أَيْ قَرَابَةِ بَنِي وَبِكَ* قال : رَحِمَ آدَمَ وَحَوَّاءَ ،
أَنْسَيْتَهُمَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَصَحَّكَ وقال : لَا وَاللَّهِ مَا سَيِّئُهُمَا ، وَأَمْرٌ سَتَعْجِيلُ مَا أَحَارَهُ بِهِ
وَزَادَ فِيهِ ، وَأَشَدَّهُ أَيْضًا فِي دَمِ الصَّوْمِ :

هَلْ فِي السَّلَادِ لِرِزْقِ اللَّهِ مُفَقَّرٌ * أَمْ لَا هِيَ جِلْدِيهِ مِنْ خُشْبِهِ بَرَشٌ^(١)
أَصْحَى الصِّيَامُ مَيْمًا وَسَطَ عَرَصَتَنَا * لَيْبُ الصِّيَامِ بِأَرْضِ دُونِهَا حُرَشٌ
إِنْ صَمْتُ أَوْحَى طَلْفِي وَأَقْلَفَنِي * بَيْنَ الْجَوَانِحِ مَسَّ الْجُوعِ وَالْعَطَشُ
وَأِنْ حَرَجْتُ بَلِيلَ مَحْوِ مَسْجِدِهِمْ * أَصْرَنِي نَصْرٌ قَدْ حَانَ الْعَمَشُ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بني تميم فقال :

إِذَا حَثَّ الْأَمِيرُ فَقُلْ سَلَامٌ * عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَمَلَى عَرِيمٌ * مِنَ الْأَعْرَابِ قُبُحٌ مِنْ عَرِيمِ
عَرِيمٍ لَا زِمٌ بِسَاءِ بَنِي * لَزُومِ الْكَلْبِ أَحْمَابَ الرَّقِيمِ
لَهُ مَائَةٌ عَلَى وَنِصْفٍ أُخْرَى * وَنِصْفُ النِّصْفِ فِي صَلَتٍ قَدِيمِ
دِرَاهِمٌ مَا انْتَفَعْتُ بِهَا وَلَكِنْ * وَصَلْتُ بِهَا شَبُوحَ بَنِي تَمِيمِ
أَتَوْنِي بِالْعَشِيرَةِ يَسْأَلُونِي * وَلَمْ أَلِكْ فِي الْعَشِيرَةِ مَالَتَمِ

فأمر له بمائتين ونمسة وسبعين درهما وقال : مَا أَسَاءَ مَنْ أَصَفَ ، وَقَدْ كَافَأْتُكَ عَنْ
قَوْمِكَ وَزِدْتُكَ مَائَةً .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في سَلْتَةِ المشهورة :

أَنَافِي ، بِمَلَّةٍ يَسْتَامُ مَنِي * عَرِيقٌ فِي الْخَسَارَةِ وَالصَّلَالِ
فَقَالَ تَبِعْمَا قُلْتُ أَرْتَبَطُهَا * بِمُحْكَمِكَ لَنْ يَبِيْعِي عِرْ مَالِ
فَأَقْبَلَ صَاحِكًا نَحْوِي سُرُورًا * وَقَالَ أَرَاكَ سَمْعًا دَا حَمَالِ
هَلُمَّ إِلَى يَحْلُوِي حِدَاغًا * وَمَا يَدْرِي الشَّقَى لِمَنْ يُحَالِ

(١) البرش : قط يص في الحلق .

فقلتُ مَرسِي، فقال أَحْسَنُ * إلى فُلانٍ مثلكَ ذُو جِلالٍ

فأتركُ حَمَمَهُ سِبا لعلِي * مما يَهِ يَصْبِرُ من النّحالِ

فقال المهدي : لقد أَقَلْتُ من مِلاءٍ عَظيمٍ ، قال . والله يا أَمير المؤمنين لقد مكثتُ شهرا أتوقّع صاحبها أن يردّها ، ثم أَشْبَدَهُ :

فأبدلني بها يا رَبِّ طَرَقًا * يكونُ حَمالَ مَرَكَبِهِ جِمالِي

فقال لصاحب دوابّه : حَيَّرَهُ من الإِصطِلالِ بين مَرَكَبَيْنِ ، قال : يا أَمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لي وقَعْتُ في شَرٍّ من الخِلةِ ، ولكن مُرَّهُ أن يَحْتارَ لي ، فاحتارَ له .

حاصم رَحِلَ أبا دِلاَمَةَ في دارِهِ فارْتَمَعَا إلى عَافِيَةِ القَاصِي ، فأنشأ أبو دِلاَمَةَ يقول :

لقد خَاصَمْتَنِي ثُهاةُ الرِحالِ ، وَخَاصَمْتُها سَنةٌ وَافِيه

وَأَ أدخَصَ اللهُ لي حِجْمَةً * وَلا خَيْبَ اللهُ لي قَافِيه

وَمِنْ حِفَّتِ من جَوْرِهِ في القِضاءِ * طَلَسْتُ أَحافَكَ يا عَافِيه

فقال له عافية : والله لأشكوّكَ إلى أَمير المؤمنين ، ولأُعلِمَهُ أَنَّكَ هَجَوْتَنِي ، قال : إنّا يَعرِفُكَ ، قال : وَلِئِلهُ قال : لأَنَّكَ لا تَعرِفُ المَدِيحَ من المِجْهَاءِ ، فبِعلَمِ ذَلِكَ المَصورِ فَصَحَحْتُ وَأَمَرَ لأبي دِلاَمَةَ بِجائِزَةٍ .

دخَلَ أبو دِلاَمَةَ على المَهدِي وعَدَهُ إِسماعيلُ بنُ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى بنُ مُوسَى والبَساسِ ابنُ مُحَمَّدٍ ومُحَمَّدُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ إِبْراهيمِ الإِمامِ وَجِماعَةُ من بَنِي هاشِمٍ فقالَ لَهُ : أنا أَعْطَى اللهُ عَهْدًا لَئِنْ لَمْ تَهْجُ واحِدًا مِنِّي في البَيتِ لَأَقْطَعَنَّ لِسانَكَ ، فَطَرَّ اليه القَومُ ، فَكَلَمُوا نَظَرَ إلى واحِدٍ مِهمَ غَمَزَهُ بأنَ عَلَيهِ رِصاهُ . قال أبو دِلاَمَةَ : صَلمَتِ أُنَى قَدِ وقَعَتْ وَأَها عَزَمَتُهُ من عِزَمَاتِهِ لا يَدُ مِنْها ، فَلَمْ أَرِ أَحَدًا أَحَقَّ بالمِجْهَاءِ مِنِّي ، وَلا أَدْعَى إلى السَلامَةِ من هِجاءِ نَفْسِي ، قُلْتُ :

أَلا أُنَبِّغُ لَدَيْكَ أبا دِلاَمَةَ * فَلَيسَ مِنَ الكِرامِ وَلا كِرامِ

إِذا لَيسَ العَامةُ كانَ قِسرًا * وَيُخْزِيها إِذا نَزَعَ العَلامَةَ

جَمَعَتْ دَمَامَةً وَجَمَعَتْ لَوْمًا * كَذَاكَ اللُّؤْمُ تَسْعُهُ الدَّمَامَةُ
 وَإِنْ تَكْ قَدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دَنَا * فَلَا هَرَجَ فَقَدْ دَنَيْتَ الْقِيَامَةَ
 فَصَحَّكَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَحَارُهُ .

حرج المهديّ وعليّ بن سليمان الى الصيد، فَسَحَّ لَهَا قَطِيعَ مِنَ الْعِطَاءِ، فَأَرْسَلَتْ
 الْكِلَابَ وَأَحْرَيْتَ الْخَلِيلَ، فَرَمَى الْمَهْدِيُّ طَبِيًا سَهْمَ فَصْرَعَهُ، وَرَمَى عَلِيٌّ سَ سُلَيْمَانَ، فَأَصَابَ
 بَعْضَ الْكِلَابِ فَقَتَلَهُ، قَالَ أَبُو دَلَامَةَ :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ طَبِيًا * شَكَّ مَالَهُمُ مَوَادَّهُ
 وَعَلَى سُلَيْمَانَ * نَ رَمَى كَلْبًا فَصَادَهُ
 مَهْدِيًّا لَهَا * كُلُّ أَمْرِي يَأْكُلُ زَادَهُ

فَضَحَكَ الْمَهْدِيُّ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ سَرْحِهِ وَقَالَ . صَدَقَ وَاللَّهِ أَبُو دَلَامَةَ، وَأَمْرُهُ لَمْ يَجَازُهُ
 سَيِّئَةً، فَلَقَّبَ عَلِيٌّ بَنَ سُلَيْمَانَ صَانِدَ الْكَلْبِ، وَعَلِيَ بِهِ .

أَشَدُّ أَبُو دَلَامَةَ الْمَصُورَ يَوْمًا :

هَاتِكُ وَالذِّي عَمُوزُ هِمَّةٌ ^(١) * مِثْلُ الْبَلْبَةِ دِرْعَهَا فِي الْمَشْجَبِ
 مَهْرُولَةٌ الْفَتَيِّينَ مِنْ يَرَاهَا يُقْلُ * أَنْصَرْتُ عُولًا وَأَوْحِيََالَ الْقَطَارِبِ ^(٢)
 مَا إِنْ تَرَكْتُ لَهَا وَلَا لَآئِي لَهَا * مَالًا يُؤْمَلُ عَيْرَ تَكْرُ أَحْرَبِ
 وَدَحَانْحَا نَحْمَا يَرْخُ الْيَهْمُ * لَمَّا يَبْصَرُ وَعَيْرَ عَرَّ مُفْرَبِ ^(٣)
 كَتَبُوا إِلَى صَحِيصَةٍ مَطْبُوعَةٍ * حَمَلُوا عَلَيْهَا طَبِيسَةً كَالْمَقْرَبِ
 فَعَلِمَتْ أَنَّ الشَّرَّ عَدِيَّ فَكَأَمَّا * فَكَكْتُهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْحَوَرَبِ
 وَإِذَا شَبِيهِ بِالْأَمَاعِي رُقُشَتْ * يُؤَدِّدُنِي تَلْمِظٌ وَتَتَوَبِ
 يَشْكُونَ أَنَّ الْجُلُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * كَرَبًا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَالِ كُرَبِ

(١) همة : همة . (٢) المشجب : حشبات مومنة مصوبة توضع عليها الثياب وتشر .

(٣) القطرب : ذكر الفيلان . (٤) العرب : الأبخس من كل شيء .

لا يسألوك عيرَ حَلَّ تَحَايَةٍ ■ تَفْشَاهُمْ مِنْ مَيْلِكَ التَّحَلُّفِ
 يَا بِإِذْلِ الْخِيَرَاتِ يَا بِنَ بَذُولِهَا ■ وَأَنَّ الْكِرَامَ وَكُلَّ قَرْمٍ مُنْجِبِ
 أَنْتُمْ سَوِ الْعَاسِ يُعَلِّمُ أَنْكُمْ ■ قَدَمًا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
 أَحْلَاسِ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُعِيرَةٌ ١٠ يَخْرُجْنَ مِنْ حَلِّ الْقُبَارِ الْأَشْهَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودرهم، وكانت الدار قريبة من قصره، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك الحاجة دعتة إليها، فدخل عليه أبو دلامة فأشده قوله :

يَا بَنَ عَمِّ السَّبِيِّ دَعْوَةَ شَيْخِ ■ قَدْ دَمَا هَنْمُ دَارِهِ وَدَمَارُهُ
 هُوَ كَالْمَا حَصَّ إِلَى اعْتَادِهَا الطَّلُ ■ قِيْ قَصْرَتْ وَمَا يَقْتَرِ قَرَارُهُ
 إِنْ تُحْمَزُ عُسْرَةٌ بِكَفَيْكَ يَوْمًا ■ بِكَفَيْكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
 أَوْ تَدْفَعُهُ فَلِلَّوَارِ وَأَيُّ ■ وَلَمَادَا وَانْتَ حَيَّ تَوَارُهُ
 هَلْ يَخَافُ الْمَلَاكُ شَاعِرَ قَرْمٍ ■ قُدِّمْتُ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
 لَكُمْ الْأَرْضُ كُلُّهَا فَأَعِيرُوا ■ شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ جِدَارُهُ
 فَكَأَنَّ قَدْ مَعَى وَخَلْفَ فَيْكُم ■ مَا أَحْرَمْتُمْ وَأَقْرَبْتُمْ مِنْهُ دَارُهُ
 فَاسْتَعْرِ الْمَصُورَ وَأَمْرَ تَعْوِيصِهِ دَارًا حَبِيبًا مِنْهَا وَوَصَلَهُ .

دخل على المهديّ يوما وعنده عُجْرٌ وَمُقَاتِلٌ أَنَا ذُوَالْ يَعَانِيَانِهِ عَلَى تَقْرِيسِهِ أَمَا دَلَامَةُ وَيَعْيَانُهُ عِنْدَهُ فَقَالَ .

أَلَا أَيُّهَا الْمُهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ عُجْرِي ■ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْمَلْ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
 أَلَمْ تَرْحَمْ الْعَلِيِّينَ مِنْ لَيْلَتَيْهِمَا ■ وَكُلْتَهُمَا فِي طَوْلِهَا عَيْرَ طَائِلِي
 وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْمَلْ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِمِي ■ بِحَقِّهِمَا مِنْ عُجْرِي وَمُقَاتِلِي
 فَإِنْ يَأْذَنُ الْمُهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقْلُ ■ مَقَالًا كَوَقْعِ السِّيفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ
 وَإِلَّا تَكْتَنِي وَالْمَسُومُ تَوْبِي ■ وَقَلْبِي مِنَ الْعَلِيِّينَ جَمُّ الْبَلَالِ

(١) يقال : حلّ من أحلاس الخيل ، أي من راحتها وماساتها والملازمين لغيرها .

فقال : أوأحد لك منهما عشرة آلاف درهم يقديان بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأحدها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيد حاصصة موسى وهارون ، فدفع اليها رُقعة قد كتبها الى الخيّران فيها

أبلغني سيدتي مآلا * به يا أم عبيده

أنها أرشدها الله * لوإن كانت رشيدة

وصدتي قل أن تح * مرج للحج وليده

فأنيت وارسل * ست عشرين قصيده

كلما أحلق أخله * ست لها نوى حديده

ليس في بنى لثمي * يد فراشي من قصيده

مير عجماء عجز * ساقها مثل القديده

وحبها أفع من حو * ست طري في عبيده

ما حياة مع أني * مثل عرسى سعيده

فلما قرئت عليها الأبيات صهكت وأستعادت منها لقوله : « حوت طري في عبيده »

وحملت تصحك ووهت له حارية .

دخل يوما على المهديّ بحادثه ساعة وهو يصحك وقال له : هل بقي أحد من أهل لم
يصحك ؟ قال : إن أمتني أحبتك وإن أعيتني فهو أحب إليّ ، قال : بل لخيرى وأنت
آمن ، قال : كلهم قد وصلنى إلا حاتم بنى العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس
ابن محمد ، فالتفت الى حادم على رأسه وقال : حأ عقه ، فلما دنا منه صاح به أو دلامة :
تبع يا عبد السوء لا تفتن مولاك وتبيكنه عهد وأمانه ، فصحك المهديّ وأمر الخادم
فتنحى عنه ، ثم قال لأبى دلامة : ويلك ! واقع عمي أحمل الناس ، فقال أو دلامة : بل
هو أمتي العباس ، فقال له المهديّ : واقع لويمت ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أما أبتنه

فأحارنى " قال لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فاصرف أو دلالة خبر للعباس
قصيدة ، ثم عدّ بها عليه وأفسده :

قِفْ بالديار وأى الدهر لم تَقِفْ * على المازل بين الظهير والجَفِّ
وما وقوفك وى أطلال مَرَلَةٍ * لولا الذى استدرجَتْ من قلبك الكَلِفِ
ان كنت أصحت مشعوا بساكنها * فلا وربك لا تُشعيك من شَغَفِ
دَعْ ذا وقْلٍ وى الذى قد فار من مُصر * المَكْرُمات وعزٍّ حير مُقْتَرَفِ
هدى رسالة شيخ من بى أسد * يُبدى السلام الى العباس وى المُشغَفِ
تُحطّها من حوارى المصر كاتئة * قد طالما ضَرَبْتَ وى اللام والألفِ
وطالما اختلعت صَبَا وشاتِيَّة * الى مُعلِّها باللّوح والكُتِفِ^(١)
حتى اذا تَهَدَّ التَّدْبِيلِ وأمتلا * منها وخيفت على الإسراف والقرَفِ
صِبت ثلاث سِينٍ ما ترى أحدا * كما يصون تِجَارْدُوه الصَّدفِ
فبينما الشيخ يهوى نحو عِلَّسه * مُأدرا لصلاة الصبح بالسَّدفِ^(٢)
سأت له نَهْمَةً منها فاصرها * مُطْلَةً بين يَحْفَفيها من العُرفِ
نَحَرٌ والله ما يدرى عَدَاتِيذِ * أَنْتَرْمُكِيْشًا أم عبر مكشفِ
وجاءه الساس أمواسا بمائهم * لِيَغْسِلُوا الرجل المُنْفِىَّ بالُطفِ
ووسوسوا قُرآن وى مسامحه * خافه الحنّ والإنسانُ لم يَحْفِ
شيئا ولكبه من حنّ حارية * أمتى وأصبح موقوفا على التَلَفِ
قالوا لك الويل ما أضررت قلت لهم * تطلعت من أعلى القصر ذى الشُرفِ
قلت أَيْبُكُمْ والله يَأْجُرُه * يُعِين قُوته فيها على صَعَفِ
فقام شيخ بَهِتٍ من رِجالهم * قد طالما خدع الأهوام بالخَلَفِ
فانتاعها لى ما نَحَى دِرْهَمِ فأتى * بها لى فالتقاها على كَيْفِ

(١) الكف : علم مرهين يكون فى أصل كتف الجيران كانوا يكون فيه لفظة القراطيس .

(٢) السدف : الصو . وأقال الصبح .

فَإِنْ دَاكُ كَمَا إِذْ حَاءَ صَاحِبُهَا • يَتَنَبَّي الدَّرَاهِمَ بِالْمِيزَانِ دَى الْكِفِّفِ
وَذِكْرُ حَقِّ عَلَى زَيْدٍ وَصَاحِبِهِ • وَالْحَقُّ فِي طَرَفٍ وَالطَّيْبُ فِي طَرَفٍ
وَبَيْنَ ذَلِكَ شُهُودٌ لَا يَصْرَمُ • أَكُنْتُ مَمْتَرَةً أَمْ فَيْرَ مَعْرُوفٍ
فَإِنْ يَكُنْ مَكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ • أَوْ لَا طَائِيَ مَدْمُوعٌ إِلَى التَّلَفِّ

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادقُ أنت ؟ قال : هم والله ، قال : يا غلام أدمع
إليه ألقى درهم ثمنها ، فأحدها ثم دخل على المهديّ فأخبره القصة وما أحتال له ، وأمر له
المهديّ ستة آلاف درهم ، وقال له المهديّ : كيف لا يصرم ذلك ؟ قال : لأني مُعْدِمٌ
لا شيءَ عندي .

دخل على إسحاق الأزرقي يهوده ، وكان إسحاق قد مريض مَرصاً شديداً ثم تعافى منه
وأفاق ، فكان من ذلك ضعيفاً وعند إسحاق طيب يصف له أدوية تُقَوِّي بدنَه ، فقال
أبودلامة للطبيب : أتصف هذه الأدوية لرجل أصعبه المرض ؟ ما أردت والله إلا قتله .
ثم ألتفت إلى إسحاق فقال : اسمع أيها الأميرمى ، قال : هات ما عندك يا أبا دلامة ،
فأدنا يقول :

تَحْ عَنكَ الطَّيِّبُ وَأَسْمَعُ لَيْتَنِي • لَأَنْتَ نَاصِحٌ مِنَ الصُّبْحِ
ذُو جَارِيَةٍ قَدْ تَلَبَّتْ وَالصُّبْحَ • لَيْتَ دَهْرًا وَفِي السَّقَامِ الْمُنَاحِ
عَادَ هَذَا الْكَبَّابُ كُلَّ صَبَاحٍ • مِنْ مُتُونِ الْفَتْيَةِ السُّطَاحِ
فَإِذَا مَا عَطِشْتَ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا • مِنْ عَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالْتَفَاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَاءِ فَاعْكُفْ عَلَى ذَا • وَهَلْ ذَا مَا عَظُمَ الْإِفْطَاحِ
تُقَوِّي ذَا الضَّعْفِ مَكَ وَتَأْتِي • عَنِ لَيْالٍ أَمَحَ هَدَى الصُّبْحِ

فضحك إسحاق وعُوداه وأمر لأبي دلامة بمئة درهم ، وكان الطيب نصرانياً
فقال : أعوذ بالله من شركك يا وكل « يريد يارجل » وقال الطيب : أقبل مني أصادك الله

ولا تسألني من شيء قدامه، فقال أبو دلامة : أما وقد أخذت أجرة صَفَقَتِي وقصبت الحق في نُصْحِ صَدِيقِي فامُتْ له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سلمة الوصيف واقفا، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهرًا ليس لأحد مثله ، فإن رأيت أن تُسَرِّفني بقبوله ، فأمر بإدخاله إليه ، نخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته ، فاذا رَدَدُونُ محمّلٌ أعنفُ هَرَمٍ ، فقال له المهديّ : أى شيء هذا ؟ ألم تزعم أنه مُهر ؟ قال له : أو ليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائمًا ، تسعيه الوصيف وله ثمانون سه ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سامة وصبيعا فهذا مُهرٌ ، جعل سلمة يُسْتَمِعُه والمهديّ يصحك ، ثم قال المهديّ لسلمة : ويلك ! إن لهذا من أحوال ، وإن أتى بها في تحمّل قصحك ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحتنه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلي صبره ، فاني ما شربت له الماء قط ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يلك ، قال : قد فعلت على ألا يعاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفصل ، فلولا أتى ما أخذت منه شيئاً قط ما فعلت معه مثل هذه ، فعصى سلمة ففعلها إليه .

• — أبان بن عبد الحميد اللاحقى^(١)

ذكرنا فى المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال ، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم ، جتعا وهزلها ، صعبها وهينها ، وكأوا قد اتخذوه أديهم الرسمى ، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلوات . فغضب الشعراء لذلك ؛ وكان أشدهم غصبا أبو واس الذى كان يكره البرامكة كرها شديدا ، وكانت بينه وبين أبان مهاجاة ذكرها صاحب الأغاني .

وكان أبان صديقاً للمعدل بن عيسى ، وكأما مع صداقتهما يتعابثان بالضحك ، ويهجوهم المعدل بالكفر ويسببه الى الشؤم . ويهجوهم أبان ويسبسه الى الفسء الذى تُهَجَّى به عبد القيس وبالقصص ، وكان المعدل قصيرا . مضى فى الإصلاح بينهما أو حُيِّنة المهلبي ، فقال له أخوه عسد الله وهو أسن منه : يا ابنى إن فى هذين شرأ كثيرا ولا بد من أن يُجرحاه ، فدمعهما ليكون شرهما بينهما وإلا فزقاه على الناس .

ومن قوله يهجو أبا الصير :

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك
أُتِيتُ على قبر * لك أم يلمن أحبارك
وما ترك فى الدنيا * إذا زرتَ عدًا مارك
ترى فى سقر المثنوى * وإليسَ عدًا حارك
بلى ترك باكيك * ودينك وأوتارك
ونحسان بات اللب * بل قد أيسن أطارك
تعالى الله ما أقب * ح إذ وليت أديارك

(١) نحد ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٩ . وقد ذكرناه ها لماسة ذكرنا عتبا عليه من مطبوعه لكتاب كلية ودمه . وقد أصعنا ها مالم نذكره فى ترجمته هاك .

خرج أبان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل اليه ، فتوسل الى من وصل له شعرا اليه ؛ وقال له :

يا عزيز الندى يا جوهراً الجو * هير من آل هاشم بالطاج
 إن ظننى ، وليس يخلف ظننى * بك فى حاجتى سبيل الساج
 إن من دونها لمصمت باب * أنت من دون قفله مفتاح
 نافت النفس يا خليل الساج * نحو بحر الندى مجارى الرياح
 ثم فكرت كيف لى وأسحرت الله * عد الإماء والإمباج
 وأندحت الأمير أصلحه الله * نسمر مشهر الأوضاج

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعجب بنفسه ، مدلل صلبه وأدبه ، تياه لا حد لتيهه وعروره :

أما من نيفة الأمير وكثر * من كوز الأمير ذو أرباج
 كاتب حاسب خطيب أديب * ناصح زائر على النصاح
 شاعر مُعلق أخف من الريد * شة مما يكون عند الجاح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أبان شديد الحرص على المال يُصطفى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والراى . وكان يحسد مروان بن أبى حَفْصة لمكانته من الرشيد ولظفروه بالصلات الضحمة والحوائر السنية ، فقد انتهى الأمر بنى العباس مع مروان بن أبى حَفْصة الى أن كانوا يحسونه بالبيت ألف درهم ، فعاط ذلك أبان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أبان البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد وإيصال مديحه اليه ؛ فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى به بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حَفْصة ، فقالوا : إن لذلك مدها فى هجاء آل أبى طالب ودمهم ، به يتخطى وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى تفعل ، قال : لا أستحل ذلك ، قالوا : ها تصنع ، لا يئى طلب الدنيا إلا بما لا يحل ! فقال أبان :

تَشَدُّتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أَعْمُ مَا قَدْ قُلْتُهُ الْعُجَمَ وَالْعَرَبَ
 أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيْهِ أَمْ أَبْنُ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ
 وَأَيُّهَا أَوَّلَى بِهِ وَبِهَيْدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ الثَّرَاثِ بِمَا وَجَّهَتْ
 فَإِنْ كَانَ عَمَّاسُ أَحَقَّ بِتِلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى سِدِّ دَاكِ عَلَى سَبْتِ
 فَأَبْنَاءُ عَبَاسٍ هُمْ يَرْتَوْنَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِأَنَّ الْعَمَّ فِي الْإِرْثِ قَدْ تَجَنَّبَ
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ .

فقال الفضل : مَا يَرِيدُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ شَيْءٌ أَتَحَبُّ مِنْ أَيْبَانِكَ . فَرَكِبَ وَأَنْشَدَهَا
 الرَّشِيدَ ، فَأَمَرَ لِأَبَانَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ اتَّصَلَ مَدْحُهُ لِلرَّشِيدِ بِعَدِّ ذَلِكَ وَخُصَّ بِهِ .
 وَكَانَ أَبَانُ هَجَاءَ قَبِيحِ اللِّسَانِ ، وَكَانَ مَعَ هَذَا شَرِيرًا قَاسِيًا يُؤْثِرُ الشَّرَّ وَيَحْدُ فِيهِ لَذَّةُ .
 وَقَدْ رَوَى لَهُ أَبُو الْعَرَجِ قِصَّةً يُحْتَمَلُ بِصِيهِ مِنَ الْقِسْوَةِ وَحَتَّ الشَّرِّ ، كَمَا أَنَّهَا تَعْلِيْقًا صَوْرَهُ
 مِنْ شَعْرِهِ وَمِنْ الْحَيَاةِ فِي عَصَرِهِ . قَالُوا : كَانَ يُقِيمُ بِالْمَقَرِّ مِنْ أَبَانَ رَحُلٌ تَفْغِي يُقَالُ لَهُ : مُحَمَّدُ
 ابْنُ حَالِدٍ ، وَكَانَ صَدُوقًا لِأَبَانَ ، فَتَرَوَّحَ مُحَمَّدٌ هَذَا تَقْفِيَّةً مَعْرُوفَةً هِيَ عِمَارَةٌ بِتِ عَدِّ الْوَهَابِ ،
 وَكَانَتْ عِمَارَةٌ عَيْتَةً مَوْفُورَةً الثَّرْوَةِ ، فَانْغَاطَ أَبَانُ لِهَذَا الزَّوْجِ ، وَقَالَ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الَّتِي
 بَلَغَتْ عِمَارَةٌ فَأَنْسَدَتْ زَوَاجَهَا :

لَمَّا رَأَيْتُ السَّبْرَ وَالشَّارَةَ : وَالْفَرَشَ قَدْ صَاقَتْ بِهِ الْحَارَةَ
 وَاللَّوْزَ وَالشُّكْرَ بُرْمَى بِهِ * مِنْ فَوْقِ دِي الدَّارِ وَدِي الدَّارَةِ
 وَأَحْضَرُوا الْكُلْهَيْنِ لَمْ يَتْرَكُوا * طَبَلًا وَلَا صَاحِبَ زَمَانَةٍ
 قُلْتُ : لَمَّا دَا قِيلَ : أَغْشَوْبَةُ * مُحَمَّدٌ زَوْجَ عِمَارَةٍ
 مَا دَا رَأَتْ فِيهِ وَمَا دَا رَحَتْ * وَهِيَ مِنَ النَّسَوَانِ تُحْتَارَةُ
 أَسْوَدُ كَالسُّفُودِ يُنْبِئِي لَدَى النَّسُورِ لِي مِخْرَاكُ قِيَارَةٍ^(١)
 يُخْرِى عَلَى أَوْلَادِهِ حَسَةً * أَرْعَمَةُ كَالرِّبَشِ طَيَّارَةٍ

وأهله في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سياره
 ويحك جزى واعصي دابه * فهذه أختك فراره
 اذا عما بالليل فاستيقظي + ثم أطمري إنك طعارة
 فصعدت مائلة سائلا * تخاف أن تصعبه القارة
 "سرور" عرتها فلا أطلحت * فإنها الهاء غزارة
 لو نلت ما أصدت من ريقها * إن لها نقشة محارة

فلما بلغت هذه القصيدة عمارة هربت، فحُرم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة الى أولها - فصعدت مائلة سائلا * رادحا في القصيدة بعد أن هربت .

حاس أمان ليلة في قوم قتلَ أما عبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نسب له . فبلغ ذلك أما عبيدة فقال في مجلسه . لقد أغفل السلطان كل شيء حين أغفل أخذ الجزية من أمان اللاحق ، وهو وأهله يهود، وهذه مازلم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف ، وأوصح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعى حطط التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصل به . فبلغ ذلك أمان فقال :

لا تَتِمَّ عن صديقي حديثا * وأستعذ من تسرر النقام
 وأحيفص الصوت إن طقت بليلا * وألغيت بالنهار قبل الكلام

قال عيسى براسماعيل : كافي مجلس أمان الأضاري فدكروا أمان من عبد الحميد ، فقالوا : كان كافرا ، منصب أبو زيد وقال : كان جاري ما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أمان يعوق الشعراء في شيء بحسب أنه هو الذي سقى اليه ، فقد استكر في الأدب العربي ما لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو من الشعر التعليمي ، طرَّق فيه فنونا غفلة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كيلة ودمنة» ليسهل عليهم

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه العصل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون رايته . وروى أبو العرج أبا تارعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعه من كتاب مخلوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من علم أبان لكليلة ودمنه ، مرأيا أن تثبتها ها ، لأن المطبوعة صاحت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو العرج . وها هي دي :

هَذَا كِتَابٌ كَذِبٌ وَمِحْمَةٌ • وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةٌ
بِهِ دَلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ • وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْمُنْدُ
فَوَصَّفُوا آدَاتُ كُلِّ عَالَمٍ • حِكَايَةٌ عَنِ أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
فَالْحِكْمَاءُ يَعْرِفُونَ قُضْلَهُ • وَالسَّحَاءُ يُسْتَهْوُونَ هَزْلَهُ
وَهُوَ عَلَى ذَاكَ تَبِيرُ الْخَفِيطِ • لَقَدْ عَلَى السَّائِرِ عِنْدَ الْفَعِيطِ
يَا مَسْ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ • فِي حَتِّ مَذْمُومٍ كَأَنْ قَدْ زَالَا
يَا نَفْسُ لَا تَتَّقِي وَلَا تَمْنِي • فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَمْنِي
مَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ إِلَّا يَنْدَمُ • إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسَيْدُمُ^(١)
دُنْيَاكَ يَا أَحِبَّاءَ وَالْإِخْوَانَ • كَثِيرَةُ الْأَلَامِ وَالْأَحْرَابِ
وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ هِيَ السُّرُورُ • آفَاتُهَا وَعَمَّهَا كَثِيرُ
يَا نَفْسُ لَا يَحْمِلُكَ حُتُّ أَهْلِكَ • وَلَا أَدَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكَ
فِي جَمْعٍ مَا يَرْصِيهِمْ فَإِنَّهُ • يَصْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّجِيهِ^(٢)
يُنَالُ قَوْمَ عَرَفَها وَتَحْتَرِقُ • رَأَى بِهِ يَرْصِي أَخُو الرَأْيِ الْحَقِّ
وَجَدْتُ ذَا النَّفْسِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا • فَزَادَهُ تَفَكُّرُهُ تَوَقُّرَا
وَقُلْ لَنَا رِصِيَّ أَهْمَانُهُ • وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) دمم وبرد . (٢) الدسة : محو يدس به الثياب أو البيت وفي الأصل «الدسة» بالهمزة وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقّ بها * ومن يقاسى الكد من أهابها
 مضجعا من الشرور * ونال أقصى غاية السرور
 ثم بحث عن كلّ فإن عُسّه * فلقى السعد وعاب عُسّه
 وأبصر الثواب في القيامة * فأمن الحسرة والتندامة
 ومثل الدنيا كبرق الخليل * من يفتقر منه بسقي يكذب
 وهو قياسا مثل يوم السائم * مُحرّجه أضغاث حلُم الحالم
 حتى اذا استيقظ صارها * ما كان في النوم به ألّا
 وكيف بالصبر على أيام * عما قليل من لا تصرام
 وكيف والدنيا ملأ كلّها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
 أشهد أن الله فردّ واحد * أقترأ وأنكر داك جاحد
 ليس له كفوا ولا نِدّا أحد * لم يَلِدِ الله ولا له ولد
 وإنى بما علمت مرتهن * ما كان منه من فيج وحسن

من باب الأسد والنور

وإن من كلب دى الميس * يرعى من الأروع بالأخص
 كتيل الكلب الشقى السائس * يهرج العلم العتيق الباس
 وإن أهل الفصل لا يُرصِيهم * شيء اذا ما كالب لا يعنيم
 كالأسد الذى يعبد الأرنب * ثم الى العير المجد ^(١) هرا
 يرسل الأرنب من أطفاره * ويتبع العير على أدباره
 والكلب من رفته ترصيه * للقمة تقذفها في ميه
 من يمشى ما عاش غير خامل * له سرور دائم ونائل
 فهو وإن كالب قصير العمر * أطول عمرا من حليف فقير
 ومن يمشى في وحشة وضيق * وقلة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم العير" والعير - الحمار .

فهو وإن عُمِّرَ طَوْلَ دَعِيرِهِ * ليس بمغبوط بطول عمره
 وقيل أيضا إنه قد يدعى ^(١) * للرجل العاضل فيما يتخى
أَلَا يُرَى إلا مع الأملك * أو يسُد الله مع السَّالكِ
 كالغيل لا يصلح إلا مَرَكَا * لمك أو رَامَا مَسِيَا
 قال له السَّجُّ لصد سمعت * وكَلَّ ما تقول قد فهمت
 لكنى لست أظن ما تظن * ^(٢) ما ثور من عَشٍّ بل طئى حسن
 قال له دمه من ثم أُنَى * وهذه من حاله هى التى
 رعته حتى تعذى طوره * وكان هذا لك منه شكره
 وتلك أخلاق اللثيم الفاجر * الكافر المنرور غير الشاكر
 ما لبث يزال ماصحا مَعا * حتى يرى من حاله آرماعا
 فصدحا يسمو الى ما فوقها * الى التى لا تستطيع أوقها ^(٣)
 وربما كان هلاكك الشجر * فى حُسْنِ النفس وطيب الثمر
 وذنب الطاووس فهو زينة * كذاك أحياء وميت حية
 ومادل الصبح لمن لم يشكره * كطاريح فى سَخ ما يبدؤه
 لا حير للماقل فى دى المنطرة * إن هو لم يعمده عند المنبرة
 وليس فى الصديق ذى الصفاء * حير إذا لم يك ذا وفاء
 الرجل العاقل من لا تُسَكِرُه * كأس سمر وأقنادر يُيطِرُه ^(٤)
 فالجبل الثابت فى أصوله * لا تقدر الريح على تحويله
 والناقص العقل الذى لا رأى له * يطى إذا ما مال أدنى منزله
 مثل الحشيش أيماء ريح حرت * مالت به فاقبلت وأدبرت
 الأهل والإخوان والأعوان * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملك : الملوك . (٢) كذا فى الأصل وله « بل الطل الحس » .

(٣) أرقها . قتلها . (٤) فى الأصل هكذا "يطره" .

والمال هادى الرأى والمرؤه * وهو على كل الأمور قوه
 والمال فيه العز والجمال * والدل حيث لا يكون المال
 وربما دعا الفقير فقره * الى التى يحط فيها أمره
 فيحسر الدين كما كان خير * دنياه والخمران ما لا يميز
 وليس من شئ يكون مفا * لذى النقى إلا يكون رجا
 تل الفقير ويكون دما * كذلك يدعى وبه يسمى
 فإن يكى تجمنا بقولوا أهوج^(١) * كذلك عد الحرب لا يرح
 وهو إذا كان جوادا سيدا * سمي للفقير مضيقا
 أويك ذا حليم يقل صيف * أويك بتاما يقل صيف
 الرجل العاقل مما يسدى * مفتط يكسبه للحميد
 لأنه باع قليلا فانيا * واعتاص من ذاك كثيرا باقيا
 فأعط اليس الكثير دائلة * ومدرك الجح لديه سائلة
 فلا تملن داعنى غنيا * حتى يكون ماحدا سريا
 وأعلم بأن الملك المشاورا * ذا العقل فيما بابه المؤازرا
 إنه يعصد بالتأييد * يفتى به عن كثرة الجود
 والحارم التاع أمر الحزيمة * الصحاء صير أهل التهمة
 يزداد حرما بهم ورثدا * زيادة البحر إذا ما مددا
 بما يصت فيه من أنهاره * حتى يبيح الموج من تياره
 والموت من مات كريما صابرا * خير من العيش ذليلا صاهرا

ولم يقل لنا الصولى في كتابه إلا هذه القطعة . وبعد أبان في هذا ناظرا للكتاب
 معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة
 طويلة في الصوم والركاة ، روى منها الصولى طرفا .

(١) الهوج الخن . وفي الأصل : «لوهج» باللام وهو تعريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كلية ودمة : ألا تعمل شعرا في الزهد * بعمل قصيدة
مزودحه في الصيام والزكاة . وترجمتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * قل أبان من هم الزواة“

وها هي دى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المُتَرَلِّ في القرآن * فصلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتبع المرسى
صلّى الإله وطيبه سلا * كما هدّى الله به وعلا
وبعضه على اختلاف الناس * من أثر ما من ومن قياس
والجامع الذى إليه صاروا * رأى أبى يوسف بما اختاروا
قال أبو يوسف أنا المقرض * فمضاه صومه إذا عرّض
والصوم في فقاره الأيمان * من حيث ما يجرى على اللسان
ومعه الحج وى الظهار ^(١) * الصوم لا يدفع الإنكار
وخطأ القتل وخلق المحرم * رأسه فيه الصيام فأهمهم
رمضان شهره معروف ^(٢) * وصومه مقرض بوصف
والصوم في الظهار إن لم يقدر * مطاهر يوما على محرر
والقتل إن لم يك عهدا قتله * فارت ذاك في الصيام مثله
شهران في العدة كمالين * متصلان لا مفترقان
والحنث في رواية مقولة * ثلاثة أيامها موصولة
ومطها في عنة الأيام * للحرّم الحائى في الإجماع
ثلاثة يصومها إن حقا * لا بأس إن ناسها أو فترقا

(١) الظهار مصدر طاهر الرجل من امرأته إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، فكى بالظهر عن العلى ناديا .

(٢) في الأصل : ”مطوف“ .

والصومُ في النُتمة ان لم يحيد * هَدْيًا وكان الصيام يقتدي
 صيامُ أيامِ مؤقَّتاتٍ * ثلاثة في الحج مفروضاتٍ
 ومد ما يرجع صومُ سبعة * عشرة كاملة في النعمة
 أما الثلاثة التي في الحج * فكان من أدركت من حج
 أو غيره ممن يرى أن يروية * يقول يوما قبل يوم التروية
 ويومها وصوم يوم عرفة * مؤتلفات الصوم لا مختلفه
 قالوا وإن أحب أن يفرقا * فذاك ما ليس عليه ضيقا
 إن كان ذاك الصوم مهعدما * يكون في عمرته قد أحرم
 ولو أراد الصوم في شواي * من سعد أن يوجب بالهلال
 عمرته لكان ذاك محزيا * فذاك يفتي من أتى مستفتيا

وهي طويلة جدًا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على احتراع هذا الفن، فقد كان مكانه
 مهم مكان المؤدب لصبياهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسهلا .
 وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم قليلة ودمة قد
 أطمعته، فظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ونختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عهد الصمد بن المعتدل حربدة
 إذا سكر، فعريد يوما في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان . وكان أيدا^(١) فقال
 لهم: كأوه إلى وحدي، وأحده وكتمه وحمله في بيت وأعلق بابيه، وقال: إذا أصبحتم
 فاطلقوه، وأنصرف، فبلغه أن عد الصمد حلف ليهوته سة، فقال حمدان يهوه:

قل لعبد الصمد الآخر * حق لا تقصبت طية
وعلى أملك فاعضب * وأكويها فى الهنيكة
أملك العملاء جاءته * حتى يسلمى ورقية
وهى ساقط ليلة فا * طمة أخرى اليه
فقضبا فيهم الحق * وقلنا السوية

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيده حمدان بن أمان بن عبد الحميد
ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما نال أهل الأدب * ما وأهل الكتب
قد وصموا الآداما * وأتعبوا الكتاما
لكل فن دفترا * مقطعا محبرا
صرفت أجاسا * وعلموها الناسا
بالخيال الرقيقه * والعطن الدقيقه
فأرشدوا الصللا * وعلموا الجهالا
سوى المحبين فلم^(١) * يرقوا لهم حق الدماء
فى علم ما قد جهلوا * وما به قد أشلوا
قد قلقت رهوتهم * وأستعبرت عيونهم
وحالفوا الشهادا * وحالفوا الرقادا
فليلهم طويل * وبومهم قليل
أمدانهم بحيلة * متممة عليه
نفوسهم حريئة * مشغوفة رزينة
ظاهرة عمومهم * باطمة كلومهم

(١) والاصل : "فلم".

ماضية عيولهم * قريحة حفوتهم
 إن طلمسوا لم يطلبوا . وإن شكوا لم يرحموا
 أحاسهم في لبيب * وفي دوام الطرب
 صابغة ألوانهم * صاحكة أسانهم
 قد سكوا القصورا * وقاروا السوروا
 تمرغوا للهجر * والسوى والفدر
 عاشقي هوائهم * بالله ما أقسامهم
 وعدهم وعيد * إقرارهم محمود
 نسي لأهل المشي * أهل الصا والرق
 ليس لهم وسيلة * ولا وحوه حيلة
 رأيت لما حيدلوا . وفي هوائهم وحلوا
 أن أُرشد المغفلا * الجاهل المصلا
 إلى الطريق الواضح * عند السلا العادج
 وأبدي كتانا * للوصيف ماما
 يا أيها الناس قموا . وصيتي وأتمموا
 فني صفاي عجب * وفي صكتي أدب
 قصيدتي مقومة * ألقاها منظمه
 فيها هوى العشاق * ومنية المشتاق
 وصفت أهل العشي * ولم أبل عن حق
 فاسمع مقالا صادقا * يا من بيت عاشقا
 للحب خلائن * هما التان
 الصبر والرفق معا * يوما إذا ما أحتمعا

فى عاشق مهجور * ماعد مفرور
 قفى قريبا وطرا * وبلغه الوطنرا
 ما الحسن والإحسان * والملك والسلطان
 يعدل وصل الإلف * وكسره للطرف
 ما حسن فى العين * أحسن من العين
 يوما اذا ما اتقيا * فى مجلس فاشتميا
 مداومين للظفر * قد أيا كل حذر
 ياداران الخلو * ويظهران الصبوة
 مساعدين أتمقا * باتا ولم يعترقا
 هواها مخزوب * سرهما مدفون
 مداريت أصحا * للناس لم يتصحا
 من حرب الحرف * ما بين ملك وأسف
 لى يبلغ الصب المني * إلا صبر وعسا
 إن الهوى ضرور * وأمره عيب
 وأهله أطوار * فيه لهم أوطار
 للعاقيل الشريف * والأحمق السحيف
 فمنهم مرزوق * محب مشوق
 على اضطراب الخلق * منه وسوء الخلق
 تقصى له الأوطار * وتعمل الأشعار
 مقررت ما يقصى * مطاوع ما يعصى
 ومنهم محروم * محارب مشغوم

على حالٍ هيئتُه * وحسبه وبهجته
 ومنهم من تُقدّا * ينالُ عيشًا رفدًا
 من غير سعى وطلّت * وعيرٌ كدّ وتصبّ
 قيّد ذاك الأسعدُ * والبحثُ منه أجودُ
 إذ فاز باللداتِ * ودركَ الحاجاتِ
 ومنهم من يتبّ * في حبه ويدأبُ
 أسقمه طولُ الموى * وشغفه وحدُ الموى
 هناك صبّ قد شقي * يؤمى له ما دأبَ لقي
 ومنهم الصيرُ * العاقلُ الحريرُ
 يحتملُ المجرانا * ويميلُ الأحرانا
 فلا يزال متلّ * حتى يالَ أملا
 ومنهم العميدُ * الجاهلُ البليدُ
 يُبِحُ بالتصجيرِ * والجهلِ والتكبيرِ
 يلقى الحيةَ ما هنا * فلا يزالُ ما كُنا
 ومنهم من يهوى * بالغيبِ يأتي عموا
 فيزدعُ القُموما * مستغلبًا مُموما
 فذاك حُ العيبِ * ليس به من عيبِ
 من دونه محابُ * ودونه أبوابُ
 والذاك لبثُ * وليس منه مكثُ
 حتى يرى مقهورا * في حبه محسورا
 ومنهم جأرُ * في حبه أزورارُ
 يُرمي إذا ما عَشِقَا * ورهنه قد علقَا

بِلَسْتَرَمِ الْبَاجَانَةِ * فليس يُبْدِي الْحَاجَةَ
 فِذَاكَ حُبُّ الْقَوَاتِ * وفيه كَرُبُ المَوْتِ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لِلطَّرِ * يَهْوَى وَلَمْ يَبْدُ الْبَصَرِ
 إِذَا رَأَى حَلِيلَهُ * دَاوَى بِهِ عَلَيْهِ
 يَكْتُمُ مَا يَقَايِي * مِنْ أَعْيُنِ الْجُلَاسِ
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْتَصَرَ * عَلَى الْحَلِيتِ وَالنَّظَرِ
 غَايَتُهُ السَّلَامُ * وَالْحَقُّ وَالْكَلَامُ
 مَدَافِعُ مَنْ حَبَّ * يَكْتُمُ وَجَدَ قَلْبِهِ
 يَنْفِي الْهَوَى وَيَكْرَهُ * وَالتَّجَرَّى يَسْتَرُهُ
 فِذَاكَ حُبُّ الْعَاقِلِ * حُبُّ أَدِيبٍ كَامِلِ
 وَمَعْصُهُمْ لَا يَقْبَعُهُ * إِلَّا عَمُودٌ يُوَدِّعُهُ
 قَدْ طَلَّتِ الْحَرَامَا * وَأَلْتَمَسَ الْأَنَامَا
 فِذَاكَ حُبُّ النَّبِيِّ * الْمَاجِنِ الْمُتَّقِلِ
 حَقٌّ لَهُ الْحَرَامُ * وَالْمَعُ وَالْخِذْلَانُ
 وَمَعْصُهُمْ مِدَاقُ * مِمَّا تَلَّى مَلَأُ
 مُسْتَعْمِلٌ لِلْكَذِبِ * مُحَرِّفٌ فِي الْكُتُبِ
 فِذَاكَ حُبُّ الزُّورِ * يَلْسَعُ كَالرُّسُورِ
 وَمَعْصُهُمْ عَيْدُ * عَايَةُ مَا يَرِيدُ
 خَلْوَةٌ مِنْ يَهْوَاهُ * فِي مَشْهَدٍ يَلْقَاهُ
 لَفْظَتُهُ مُسَارِقَهُ * مَيْتُهُ مُعَاقِبُهُ
 مَكَاتِمُ لِحَبِّهِ * فِي بُعْدِهِ وَقُرْبِهِ
 فِذَاكَ حُبُّ يَكِيدُ * نِيرَانُهُ لَا تَنْمُودُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَفِ • مَالَتْ حِينَ يُشَمَفُ
 اِذَا الْحَبِيبُ صَدَا • وَلَمْ يُرْ لَهُ وَدَا
 تَاهَ عَلَيْهِ وَحَرَّقُ^(١) • وَصَدَّ عَنْهُ وَحِمَقُ

وقال في آخرها :

قَدِ تَمَّ مَنَى وَصَفُ • وَلَمْ يَحَقِّقْ الرِّصَفُ
 وَأَنْقَضَتِ الْقَصِيدَةُ • مَحْبُوبُهُ حَمِيدُهُ
 وَالْحَمْدُ لِلرَّحْمَنِ • ذِي الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ
 وَالذَّمُّ لِلشَّيْطَانِ • ذِي الْعَرَمِ^(٢) وَالطُّغْيَانِ

(١) حرق من طيه ويحل .

(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفي الأصل « العرم » .

٦ - منصور النمرى^(١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنى الإمامة من على والطعن عليه ، لما كان يراه من تهديم مروان س أى حفصة بسبب ذلك ، فسلك مدحه ونحا نحوه — والشراء يومئذ انما يطلون الكسب — لكنه لم يصريح بالهجاء والسب كما فعل مروان ، ومن قوله فيه قصيدة مظمها :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ حُضُنَا * غَمَارَ الْحَسَنِ مِنْ بَلَدِ شَطِيرِ
بُحُورِ كَالْأَهْلِةِ حَافَاتِ * تَلَيْنَ عَلَى الشَّرَى وَحَلَى الْهَجِيرِ
حَمَلْنَا إِلَيْكَ أُنْمَالًا ثَقَالًا * وَمَثَلَ الصَّحْرَةِ الدُّزْ الثَّخِيرِ
مَقْدُوقَ الْمَدِيحِ بِمُتَّهَاتِهِ * وَغَايَتِهِ وَصَارَ إِلَى الْمَصِيرِ
إِلَى مَنْ لَا تُشِيرُ إِلَى رَسُولٍ * إِذَا ذُكِرَ النَّدَى كَفَّ الْمُنِيرِ

ودكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يَدُلُّكَ مِنْ رِقَابِ بَنِي عَلِيٍّ * وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَلِكِ الصَّغِيرِ
مَدَّتْ عَلَى ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى * وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَعِيرِ

(١) هو منصور بن الرزاق بن سلة النمرى الرمي ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن زرار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو الثاني وراو يشه ، هو أحد ، ومن بحر اسنق ، وبعده تشه . وضعه الثاني للعصل بن يحيى بن حاكم وقرطه عده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحه ، ثم وصله بالرشيد وحرث بعد ذلك بينه وبين الثاني وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، وكان النمرى قد مدح الفصل قصيدة وهو مقيم بالحريرة ، فأوصلها الثاني إليه واسترده له وسأله استصاحبه ، فأذن له في القدوم ، فحلف عده ، وعرف مذهب الرشيد في الشرع وإرادته أن يصل مدحه إياه بنى الإمامة من ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم مروان في ذلك مما كان يلزمه من تقديم مروان س أى حفصة وتخصيله إياه على الشراء والخوار ، فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأدما ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب وكان يعاقب من ينة قوية بقصد بها طلب الدنيا فلا بين ولا يدور . وتعد أحاده في الأمانى (ج ١٢ ص ١٦ وح ١٧ ص ١٤١ و ١٤٢) .

ولقد تحصل الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمت بهم * وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا بسوءت خلق * وردوا ما ياسب للدُّكور
وما لبني بنات من ثراث * مع الأعمام في ورق الزُّور

ومنها :

بى حس ورهط بى حسي * عليكم بالسداد من الأمور
فقد ذُقم قِرَاع بى أيبكم * عداة الرُّوع بالبيض الذُّكور
أحين شفوكم من كل وتر * وصمكم الى كيف ونير
وحادوكم على طما شديد * سُقيم من نوالهم العسير
ها كان العفوق لهم جراء * مصلهم وأدى للثُشور
ولمك حين تُبليهم أداة * وإن طاموا لمحزُون الصمير

فقال له : صدقت وإلا فعلت - وعلت، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيد يوما قصيدته التي أولها :

ما تقصى حسرة متى ولا جرع * اذا ذكرت شبابا ليس يرتجع
ناب الشباب وانفنى يلدته * صروف تغير وأيام لها جدع
ما كنت أوى شبابى كنه عربه * حتى آتقنى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحسن^١ والله لا يتبقى أحد يعيش حتى يحيطر في رداء الشباب .

ومن قوله بها يمدح الرشيد :

أى أمرى مات من هارونى في خط * فليس بالصلوات الخمس يتجمع
إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع

(١) رواية الأماك : "تبع" .

اِذَا رَفَعْتَ أَمْرًا فَإِنَّهُ يَرْفَعُهُ * وَمَنْ وَصَّيْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ مُنْصَحٌ
تَنْصِيهِ فِذَاؤُكَ وَالْأَطْلَالُ مُنْصَمَةٌ * يَوْمَ الْوَعَى وَالْمَايَا صَابِهَا فَرَجٌ
وَمَنْ قَوْلُهُ يَمْدَحُ الرَّشِيدَ :

يَا مَنْزِلَ الْحَيِّ ذَا الْمَعَانِي * لِمَنْ صَسَّاحًا عَلَى بِلَاسَا
هَارُونَ يَا حَيْرَ مَنْ يُرَى * لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ مَنْ عَصَاكَ
وَيَا حَيْرَ دِيرٍ وَحَيْرَ دِيَا * مَنْ آتَى اللَّهَ وَأَتَاكَ

وَنَاهِيكَ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي رَفَعْتَ السَّيْفَ عَنْ رِبِيعَةِ بَصِيصِينَ عَدَّ أَنْ جَرَدَهُ مِمَّا الرَّشِيدُ
وَهُوَ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

وَقَدْ عَلِمَ الْعُدُونُ وَالْجَوْرُ وَالْحَمَا * أَنَّكَ عَيَافٌ لِمَنْ مُرَايِلُ
لَوْ عَمِلُوا فِيمَا أَمَرَكَ لَمْ يَكُنْ * يَنْتَالُ بَرِيًّا بِالْأَذَى مُتَنَاقِلُ
لَا مَكَدَ أَرْحَامٍ وَنَفْسَ طَاعَةٍ * وَأَمَّا إِذَا أَصْطَلَتْ الْقَمَا وَالْقَسَائِلُ
وَمَا يَحْتَقِطُ الْإِحْسَانَ مِثْلَكَ حَاطِطٌ * وَلَا يَصِلُ الْأَرْحَامَ مِثْلَكَ وَاصِلُ
حَصْلَاكَ فَامْعَمًا مَعَادًا وَمَعَزَا * لَأَحْيَى عَصَبَنَا الْخَطُوبُ الْحَلَالُ
لَأَنْتَ إِذَا عَادَتْ بِوَجْهِكَ عَوْدٌ * تَطَامُنُ حُوفٌ وَأَسْتَقَرَّتْ مَلَابِلُ

اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ بَعْدَادٍ وَمِثْلِهِمْ مَصْبُورُ الْفَرَى ، وَكَانُوا عَلَى تَنِيدٍ ، فَأَبَى مَصْبُورٌ
أَنْ يَشْرَبَ مَعَهُمْ ، فَقَالُوا لَهُ : إِنَّمَا نَحْنُ الشَّرَابُ لِأَنَّكَ رَافِضِيٌّ ، وَتَسْمَعُ وَتُصْنِى إِلَى
الْعِيَاءِ ، وَلَيْسَ تَرْكُكَ الْبَيْزِ مِنْ وَرَعٍ ، فَقَالَ :

حَلَا بَيْنَ بَدْمَانِي مَوْصَعُ تَجَلُّسِي * وَلَمْ يَبْقَ عَدَى لِلْوِصَالِ نَصِيبُ
وَرُدَّتْ عَلَى السَّاقِ قَيْضُ وَرَبَّمَا * رَدَدْتُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ وَهُوَ سَالِبُ
وَأَيُّ أَمْرِي لَا يَسْتَنْهَشُ إِذَا جَرَتْ * عَلَيْهِ سَأَلُ كَفْهِي حَصِيبُ

قال النمرى : كنت واقفا على جسر بغداد أنا وعبد الله بن هشام ، وقد وخطني الشيب يومئذ ، وعبد الله شاك حديث السن ، فاذا أنا قَصْرِيَّة طريفة قد وقفت ، بفعلت أنظر إليها وهي تنظر الى عيد الله ثم انصرفت ، وقلت بها :

لما رأيت سَوَامَ الشَّيبِ متشراً * في لَمَني وعيدَ الله لم يَشِبْ
سَلَّيتُ سَهمين من عيِّدِكَ فانتضلاً * على سبيلِهِ دى الأذيال والطرب
كذا الضوايى رى منهن قاصدة * الى المروع مُعَرَّاة عن الخشب
لا أيت أصبحت تعقدُ بينا أرباً^(١) * ولا وعيشك ما أصححت من أربى
إحدى وحسين قد أصبحت حذتها * تحول بيني وبين اللهو واللعب
لا تحسبني وإن أعصيتُ من نصري * عَفَّاتُ عَكَ ولا عن شائك المعجب
عصب الرشيد على مصور النمرى لما أثبت قصيدته في مدح العلويين وأولها :

شأء من الناس راتبعُ هامل * يسلولون المومس بالباطل

ومها يقول :

ألاً مَسَاعِيرُ يَنْصَبُونَ لها * بسَلَّةِ اليص والفا الزابل
فغضب من ذلك عصباً شديداً وقال للمصل بن الربيع : أحصره الساعة ، فبعث المصل
وذلك ، هو حده قد تَوَقَّى ، فأمر نهبته ليُحْرِقَه ، فلم يزل المصل يُلَطِّفُ له حتى كَفَّ عنه .
واليك قصيدته في مدح العلويين نقلها عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب
الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شأء من الناس راتبعُ هامل * يُطْلَوْنَ النصوص بالباطل
تُفْتَلُ ذُذِيَّة - أَلَنِيَّ وَيَرَّ * جَوْنَ جَانِ الخلود للقاتل
وَيْلَكَ يَا قَاتِلَ الحسين لقد * تَوَتَّ بِجَمَلٍ يَنْسُوُ بالامل

(١) كذا في الأصل ولعله : * لا أت أصحت يعقد بينا أرب * بفكرين الفعل يعقد الضرورة وتسكين

الفعل في الضرورة وارد منه قول امرئ القيس : * ما يوم أشرب حير مستحق * أثمنا من الله ولا داء

(٢) في الشعر والشعراء "صايلت" .

أَيْ جَبَاهِ جَبَوَتْ أَحَدَى • حُفِرَتْهُ مِنْ حَرَارَةِ النَّاسِكِلِ
 بَأَى وَجْهَ تَلَقَّى النَّبَى وَقَدْ • دَخَلَتْ فِي قِصْلِهِ مَعَ الْبَاخِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدَا شِعَاعَتَهُ • أَوْ لَا فَرِّدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشَّكَّ عَدَى فِي حَالِ قَاتِلِهِ • لَعَنَى أَشْكَ فِي الْخَالِلِ
 مَعَى فِدَاءِ الْحُسَيْنِ حِينَ عَدَا • إِلَى الْمَنَايَا غُدُوًّا لَا قَايِلِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ أُنْعَى بِشَفَرَتِهِ • عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَتَى أَيْتَ تَعْجِيزِ الْآلَا • تَتَرَكَّلُ مَالِقُومِ قِمَّةِ الْعَاجِلِ
 لَا يَجْعَلُ اللَّهُ إِنْ تَجَلَّتْ وَمَا • رَبُّكَ عَمَّا يَرِيدُ الْفَاقِلِ
 وَعَازِلِ أَيْ أَحَبَّ نَسِي • أَحْمَدَ فَاتَرَبَّ فِي قِيمِ الْعَايِلِ
 قَدْ ذُقْتُ مَا دِينَكُمْ عَلَيْهِ هَا • وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَالِ
 دِينَكُمْ جَفَوَةَ النَّبَى وَمَا لَ • جَلَايَ لَأَلِ النَّبَى كَالْوَاوِلِ
 مَظْلُومَةِ وَالسَّبَى وَالْهَاجِلِ • يَذِيرُ أَرْجَاءِ مُقْلَةِ حَايِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَفْضُبُونَ لَهَا • سَلَةَ الْبَيْضِ وَأَلْقَا النَّايِلِ

وقال أيضا •

آلَ النَّبَى وَمَنْ يُحِبُّهُمْ • يَطْأَمْنُونَ غَافَةً أَلْقَتَلِ
 أَيْنُوا النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَمَنْ • مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَرْزَلِ^(١)
 وَأَشِيدَ الرَّشِيدُ هَذَا عَدُّ مَوْتِهِ قَتَلَ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُنَبِّشَهُ ثُمَّ أَرْفَعَهُ .

ومن جيد شعره قوله في الرشيد :

يَا زَائِرِنَا مِنْ أَلْيَامِ • حَيَّا كَمَا اللَّهُ بِالسَّلَامِ
 يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفِئُنِي • وَلَمْ تَتَّأَلَا يَسْوَى الْكَلَامِ

لم تَطْرُقْني وبي حَرَاكُ * إلى حَلَالٍ ولا حَرَامٍ
 هَيْبَاتٍ لِلْهُدَى والتَّصَابِي * وللمَوَاسِي وَلِلْإِيمَانِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ جِلْبِي * وَنَهَنَ الثَّيْبُ من عُرَايِ^(١)
 عَمْرُايَها لَقَدْ تَوَلَّتْ * سَالِمَةَ الْحَدِّ من عِذَائِي^(٢)
 فَهَ يَحْيَى وَتَرْبُ يَحْيَى * لَيْلَةَ أَعْيَاهَا مَرَامِي
 أَذْثَنِي يَطْلُوْلٌ قَهْمِي * وَعَرَّتَانِي مَعَ السَّوَامِ
 وَأَطْوَنَانِي عَلَى مَلَامِي * وَالثَّيْبُ شَرٌّ مِنَ الْمَلَامِ
 نُورُكَ هَارُوبٌ من إِمَامِي * سُلْطَانَةُ اللَّهِ ذِي أَحْتِصَامِ
 لَهُ إِلَى دِي الْحَلَالِ قُرَى * لَيْسَتْ لَعْنُودٌ وَلَا إِمَامِ
 يَسْتَعِي عَلَى أُمَّةٍ تَمْتَنِي * أَبَ لَوْ تَقِيهِ مِنَ الْجَمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَائِي * أَعْمَارُهَا قِسْمَةُ السَّهَامِ
 يَا حَبْرَ مَاضٍ وَحَبْرَ بَاقِي * سَدَّ النَّبِيَّ فِي الْأَنَامِ
 مَا اسْتَوْدَعَ الدِّينُ من إِمَامٍ * حَامِي عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يَوْسُفَ من رَأْيِهِ رَأَى * أَصْلَقَ من سَلَةِ الْحَسَامِ

وقال :

أُمِّيرُ كَيْفَ لِحَاةٍ * طُلْتُ إِلَى صَمِّ الصُّحُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عُدَايِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى النُّورِ
 ابْنُ الْبَالِي يَمْتَنِي * وَوَسْمِي سِمَةُ الْكِبَرِ
 أَطْلَعَانِ نُورَ شَيْئِي * وَفَرَشْتَنِي كَفَّ النَّبُورِ
 وَلَقَدْ تَيْتُ أَنَايِلَ * يَحْنِيَنَّ رُقَاتِ النَّحُورِ

٧ - السيد الحميري^(١)

« لم يكن السيد الحميري من أنصار الحسن والحسين، أو معارة أجمع لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين، وإنما كان من الكيسانية الذين كانوا ينصرون الآن الثالث من أبناء علي: محمد بن حوثة الحفصة، والذين كانوا يدسون بأنه لم يمت وإنما تعبب عن الناس واحتجب عنهم حياً وسيعود فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح بن العباس ويتقرب منهم مادام صاحبه محمد بن الحفصة لم يعد من عيبته بعد. ثم نستطيع أن نُمَيِّز هذا الشاعر بمُحْضلة لم رها في شاعر من الذين تحدثنا عنهم، وهي أنه كان ضعيفاً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه انحصلة جاءته من مذهبه نفسه في الرحمة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح الملوك والإيمان بهم حتى وصهم من الخير والكرامة بما يُقْبَل وما لا يُقْبَل، فكان كل حير يمكن أن يُنسب إلى العلويين، وصيه العقل أم لم يرصه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، وصيه العقل أم لم يرصه، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يُضفيها إلى أحد العلويين حتى يَظُنُّ فيها قصيده طويلة جيدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى دم السلف والى عليه.

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن معز الحميري والسيد لقده وبكى أما هاشم، كان شاعراً مقدماً مطروفاً، يقال إن أكثر الناس شعراً في الحاضرة والاسلام ثلاثة: شار وأبو النعمان والسيد، فانه لا يعلم أن أحداً قد رُفِعَ على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهو الناس شعره لما كان يهرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره ويستعمله في قذعهم والطعن عليهم فتجوز شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحزوا وترقا، وله طراد من الشعر ومثله قُلِّبَ يلحق فيه أو يغارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يخلو من مدح بن هاشم أو دم غيرهم عن هاشم صدقهم - توفي سنة ١٧٣ هـ - وتحدث ترجمته وأخباره في الأمان (ج ٧ ص ٢) وروايات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وَحَصْلَةُ أُخْرَى تَقْزِبُهُ مِنَ الزَّادَةِ الَّذِينَ حَاصِرُوهُ وَلَكِنَّا تَجْعَلُ الصَّلَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ صَبِيحَةً وَآخِرَةً فِي الْوَقْتِ عَمَّة .

وهي أنه كان يستبج صروبا من اللهو والمنكر، ويُسرف في شرب الخمر ويصير ذلك من ألوان العبث، لا لأنه كان يصعد الدين أو يزدريه بل لأنه كان يذل على صاحب الدين، كان يحث النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمجهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيمزفون له ذلك ويشفعون له في دونه وأثامه ليأ قدم بين يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم، وكان هو هاشم وبو علي خاصة يطعمونه في ذلك ويمزفون له به، وإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يصره لرحل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إن من أحب آل علي لم ترل له قدم إلا نشت له أخرى، وعل هذا كان السيد الحميري يلهو آمنا في ديه ودنياه، يعتمد في ديه على العلويين، ويعتمد في دنياه على العباسيين، يقتدر أن العلويين يشفعون له عند الله، ويعلم أن العباسيين يتقون شره ويؤثرون مدحه على إيمانه، وكان من مفاصيره من يكره ذلك ويمقتة كل المقت، ويصمر للسيد مداء وحفدا لا يعلما عداء ولا حقد، ومن هؤلاء سوار بن عبد الله العبزي قاضي الصرة للمصور، فقد كان المداء بينه وبين السيد شديدا، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور عير مرة، وكان السيد قد هجاه فأسرف في هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فهاء المنصور عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي معتذرا إليه، وأبى القاضي أن يقبل مصادره، فاستأنف السيد المهاء وأخ فيه . ويقال إن سوارا أمد شهودا يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فجزع وفزع إلى المنصور، فمزل المنصور سوارا من القضاء للسيد أو عليه، ولم يلبث سوار أن مات فجه السيد مدائه ونفضه وهجائه .

قال أبو جعفر الأعرج : كان السيد اسم تائم القامة، أشنب ذا وفرة، حسن الألفاظ جميل الخطاب، اذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه؛

وقال المرزوق . إن ههنا لرجلين لو أخذوا في معنى الناس لما تكا معهما في شيء : السيد الحميري
وعمران بن حطّان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول
في مذهبه ، وقال الأصمعي لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ،
ولولا ما في شعره ما قلعت عليه أحدا من طبقته ، وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين
السيد الحميري وبشار .

وكان السيد يذهب بمذهب الكبشانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك
شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو يشد الشعر ، فأقبل عليه وقال .

أيها المادح الصاد يُعْطَى • إن لله ما أيدي الباي
فاسأل الله ما طلبت اليهم • وأرج مع المقتل العواد
لأقتل في الجواد ما ليس به • وتسمى البخل باسم الجواد

قال بشار : من هدها قمره ، قال . لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم
لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبا لتصا .

ومن قول السيد :

أعريف رتبا بالثوب قد دتر • عتته أهاصب السحاب والمطر
وجرت به الأذيال ريمال حلفة • صبا ودور المشيات والبكر
مازل قد كانت تكور مجوها • هصيم الحصى ربا الشوى يفرها النظر
فطوف انطفا حنصانة عتريّة • كات حياها سدا دارة القمر
رتني بعيد مد قريب بها الووى • مات ولما أقص من صدة الوطر
ولما رأتني خشيّة السين موجما • أكفكف مني أدما يصبها دُرر
أشارت بأطراف إلى وقمعهما • كنظم بجمان خاتة السلك فاستغر
وقد كنت مما أحدث البين حافدا • فلم يغنى عني مه خووي والحدرد

لما استقام الأمر لني العباس قام السيد إلى أبي العباس السَّاح حين زل عن المبر فقال :

دُونَكُوهَا يَا بِي هاشم * بَقْدُوا مِنْ عَهْدِهَا الدَارِ سَا
دُونَكُوهَا لَا عِلَاقَهُ مِنْ * كَاتَ عَلَيْكَ مَلَكُهَا نَافِ سَا
دُونَكُوهَا فَالْبَسُوا تَاحَهَا * لَا تَعْدُوا مِنْكُمْ لَهُ لَا سَا
أَوْ حَيْرَ الْمَبْرُ فُورَانَهُ * مَا أَخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ هَارِ سَا
قَدْ سَاسَهَا فَلَكُمْ سَاسَةٌ * لَمْ يَتْرَكُوا رَطًّا وَلَا يَابِ سَا
وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهْطَ عَيْسَى فِيكُمْ آيِ سَا

وحدث هذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل مكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لَأَبِي عَاسٍ يَمِيَّ مُحَمَّد * لَا تُعْطِيَنَّ بِي عَدِيَّ دَرَمَا
إِحْرِمَ بِي تَيْمَ بْنَ مُرَّةٍ إِنْهُمْ * شَرَّ السَّيْرِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
إِنْ تَعْطِهِمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ عَمَّة * وَيَكَاشُوكَ إِنْ تُدَمَّ وَتُسْتَمَّا
وَإِنْ أَتَمَّتْهُمْ أَوْ أَسْعَمَتْهُمْ * حَاوُوكَ وَاتَّخَذُوا تَرَاكُ مَعَمَّا
وَلَنْ مَنَعَتْهُمْ لَقَدْ نَدَوْكُمْ * بِالْمَعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمَا
مَعُوا تَرَاتَ مُحَمَّدَ أَعْمَامَهُ * وَبَنِيهِ وَأَنْتَ مَدِيدَةُ مَرَمِمَا
وَتَأْمُرُوا مِنْ عِيرٍ أَنْ يُسْتَعْلَمُوا * وَكَيْ بِمَا فَعَلُوا هَالِكَ مَائِمَا
لَمْ يَشْكُرُوا مُحَمَّدَ إِمَامَهُ * أَفَيَشْكُرُونَ لِعَسِيرِهِ إِنْ أَتَمَّا
وَاللَّهُ مَنْ عَلَيْهِمْ مُحَمَّد * وَهَدَامَ وَكَسَا الْجُوبَ وَأَطَمَا
ثُمَّ أَنْبَرُوا لَوْصِيهِ وَوَلِيهِ * بِالْمَكْرَاتِ بِحَرِّ عَوْهِ الْعَلَمَا

أشد السيد جعفر من محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أُمِرُّ زُ عَلَى جَدَّتِ الْحَبِي * مِنْ قُلِّ لِأَعْظَمِيهِ الزَّكِيَّةُ
أَعْظَمًا لَا زَلَّتْ مِنْ * وَطَفَاءَ سَاكِيَةِ رَوِيَّةُ
وَإِذَا مَرَرْتَ قَبْرَهُ * فَأُطِّلْ بِهِ وَقِفْ الْمَطِيَّةُ

وَأَبِيكَ الْمُطَهَّرَ لُطْ * هَرِّ الْمُطَهَّرَةِ الْقِيَّةِ

كَبْكَاةٍ مُتَوَلِّةٍ أَتَتْ * يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمِيَّةِ

فَانْخَدَرْتُ دَمَوْعُ حَمْرٍ عَلَى حَدِيدِهِ وَارْتَمَعَ الصَّرَاحُ وَالْكَاةُ مِنْ دَارِهِ حَتَّى أَمَرَهُ بِالْإِمْسَاكِ
مَامَكَ .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَمَّا مَا بَحُسُ وَتَحَكَّ وَالْعَنَاءُ

أَتَيْتُكُمْ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ كَهْلٌ * تَرَاكَ طَيْبِكَ مِنْ وَرَجٍ رِدَاءُ

أَلَا إِنَّ الْأَمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَلِلَّاهِ الْحَقُّ أَرْبَعَةُ سَوَاءُ

عَلَى وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَيْتِهِ ^(١) * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ

فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ * يَكُونُ الشُّكُّ سَاءً وَالْمِرَاءُ

بِهِمْ أَوْصَاؤُهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * جَمِيعُ الْخَلْقِ لَوْ سَمِعَ الدُّعَاءُ

فَسَطَطَ سَطَطَ إِيْمَانٍ وَحَنَمَ * وَسَطَطَ عَيْنَتُهُ كَرَّ لَلَاءُ

سَقَى حَدَثًا نَصَمَهُ مُلْكٌ * هَتَوُفُ الرِّعْدِ مُرْتَجِرٌ رَوَاءُ

تَظَلَّلَ مُطَلَّةً مَهَا عَرَّالٍ ^(٢) * عَلَيْهِ وَتَقَنَّدِي أُخْرَى مِلَاءُ

وَسَطَطَ لَا يَدْوِي الْمَوْتُ حَتَّى * يَقُودَ الْخَيْلُ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ

مِنْ الْبَيْتِ الْمَحْجَبِ فِي سُرَاةٍ * شُرَاةٍ آفٍ يَبْهَمُ الْإِحَاءُ

عَصَائِبُ لَيْسَ دُونَ أَعْرَاحِلَ * بِمَحْكَةٍ قَائِمٌ لَمْ اِتِّهَاءُ

وَأُنْشِدَ الْعَنَى فَصِيدَتُهُ اللَّامِيَّةِ الَّتِي أَوَّلَهَا .

هَلْ عَدَّ مَنْ أَحْبَبْتَ تَتَوَيْلُ * أَمْ لَا وَاقِ اللُّومِ تَصْلِيلُ

أَمْ فِي الْحَقِّ مَكَ حَوَى بِاطِلُ * لَيْسَ تُدَاوِيهِ الْإِنَّا طِيلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العرلاء . مصب الماء من الراية ويحويها ، ويقال . أنزلت

العلماء عزالها إشارة إلى شدة ونوع المطر على التشبيه بهروله من أهواء المرادات .

فَلَقِيتَ بِمَعْرُورٍ حَذَاةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْمِيلُ
رِيًّا رَدَّاحَ السَّوْمِ نَحْمَصَاهُ * كَأَنَّمَا أَذْمَاءُ عُطْبُولُ
يَسْفِيكَ مَهَا حِينَ تَحْمُلُهَا * صَمٌّ إِلَى الْخَرِّ وَتَقْيِيلُ
وَذَوْقُ رَيْبِي طَيِّبٍ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ الْمَسْكُ مَعْلُولُ
وَفِي نِسْوَةٍ مِثْلَ الْمَهَا نُحْرِدُ * تَضْيِقُ عَنْقُ الْخَلَاخِيلِ

يقول فيها :

أُقْسِمُ بِاللَّهِ وَالْآلِيسَةِ * وَالْمَرْءِ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ

إِنِ عَلَى بَرٍّ أَوْ طَالِبٍ * عَلَى الثَّقَى وَالْبَرِّ تَحْوِيلُ

فقال : أحسن والله ما شاء ، هذا والله الشعر الذي يهجم على القلب بلا حجاب .

قبل السيد : مالك لا تستعمل في شعرك من العريب ما تُسأل عنه كما يعمل الشعراء ؟

قال : لَأَنِّ أَقُولُ شِعْرًا قَرِيبًا مِنَ الْقُلُوبِ يَلْزَمُهُ مَنْ سَمِعَهُ ، حَيْرٌ مِنْ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا مُعَقَّدًا
تَضِلُّ بِهِ الْأَوْهَامُ .

تقدم السيد إلى سَوار القاضى ليُشَهدَ عِده ، فلم يَرْضَ بِهِ ، فقام مُتَعَصِّبًا مِنْ مَجْلِسِهِ .

وكتب رُفْعَةً يَقُولُ فِيهَا :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَا مَنْصُورُ يَا حَيْرَ الْوَلَاةِ

إِنَّ سَوَّارَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ شَرِّ الْقَضَاةِ

تَعْتَلِي بِمَلِيٍّ * لَكُمْ خَيْرٌ مُوَاتٍ

حَدُّهُ سَارِقٌ مَتَرٍ * بِجُرَّةٍ مِنْ بَهْرَاتِ

لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِمَّتُهُ الْمُنْعَكَرَاتِ

وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُنَادَى * مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

يَا هِنَاءُ أَنْتَرُجُ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هَنَاتِ

مَدَحْنَا الْمَدْحَ وَمَنْ نَرَى * عَمَّ يُصَبِّ بِالزُّمَرَاتِ

مَا كُفِّيهِ لَأَكْفَاهُ اللَّهُ شَرَّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلبث قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المصور، وهو يومئذ نازل بالحضر، فسبقه السيد إليه فأنشده :

فل للإمام الذى يتجى بطاعته * يوم القيامة من مجبوبة النار
لا تستعين وجرالك الله سالحة * ياسير من دث في حكم بسوار
لا تستعين بنجيث الرأى ذى صائف * جم العيوب عظيم الكبر جبار
يضحى الخوصوم لديه من تحبرة * لا يرضون اليه لحظ أنصار
تيها وكبرا ولولا ما رقت له * من ضمه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المصور تسلم وقال : أما بلك خبر لياس بن معاوية حيث قبل شهادة المرزوق واستراد في الشهود ؟ ها أحوكك للتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته .

دخل السيد على المهدي لما باج لآفيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بال تجرى دمعك الساجم * أين قدى مات بها لآزيم
أم من هوى أنت له ساهر * صاة من قلبك الهائم
آليت لا أمدح ذا نائل * من معشر غير بنى هاشم
أوليتهم عندي يد المصطفى * ذى الفضل والمن أبى القاسم
فإنها بيضاء محودة * جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أى جعفر * خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم أبنيه * موسى على ذى الإربة الحازم
وللرشيد الراشع المرتضى * مقترض من حقه اللازم
فلحهم محسون معدودة * رغم أنف الحاسد الراغم
ليس طيبا ما بقوا غيرهم * في هذه الأمة من حاكم
حتى يردوها الى هابط * عليه عيسى منهم تاجم

ومن شعر السيد .

ما جرت حَظْرُهُ على القلب منى * فيك إلا استترتُ عن أصحابي .
من دموعٍ تحرى داك كُتَّ وحدى * حاليأ أسعدتُ دموعي اتقاي
إِنَّ حَبِيَّ لِيَاكِ قد سَلَّ حَمِي * ورماني بالشيب قبل الشباب
لو مَتَحَتِ اللَّقا شئِي بِكَ صَا * هاتَمَ القلب قد قَوَى و التراب

وبما قاله في الحبس :

فَيفَ بالديار وحبها يا مَرَحُ * وأسأل وكيف يُجيب مَنْ لا يَسْمَعُ
إِنَّ الدِّيارَ حَلَّتْ وليس بِحَوْها * إلا الصَّوَاغُ والحمامُ الوَقْعُ
ولقد تَكُونُ بها أواس كالدُّمَى * حُمْلُ وِعْرَةُ والرَّأبُ وِبرَوْعُ
حورٌ واعمٌ لا تُرَى و مثلها * أمثالُ من الصِّبَاةِ أذيعُ
مَرِيرٌ بعد نَأْيٍ وتجمع * والدفر صاج مُشْتَتٌ ما يَتَّجِعُ
عاسِمٌ يَأْكُ قد زَلَّتْ عَنِّي * عِدَّ الأمير تُعَرِّفُهُ وتَمِيعُ
تَوَقَّى هَوَاكَ إذا طَلَقَتْ مَحَاحِيهِ * فيه وتُسْمَعُ عِدُهُ قُشْعَقُ
قُلْ لِلْأَمِيرِ إذا طَعِمَتْ عَحْلُوه * مه ولم يَكُ عِدُهُ مَنْ يَسْمَعُ
هَبْ لِي الذي أَحَبَّهُ و أَحْمِدُ * ومه إنك حاصد ما تَزْرَعُ
يَخْتَصُّ آلُ مُحَمَّدٍ بِحَسَّة * في الصِّدر قد طَوِيَتْ عليها الأصْلَعُ

وقال يهجو امرأة واريث مؤسيرا من حلاته ، وكان تعبد زوجها على إسرائه

أقول يا ليتَ لِيلى في يَدَي حَبِي * من المداوة من أَعْدَى أَعَادِيهَا
يَعْلُوها فوق رُعي ثم يُجْدِرُها * و هوَ قَدَّهَدَى يومها مِيبَا
أَوَّلِيَّتْها في عِمَارِ البحر قد عَصَفَتْ * فيه الرِّياحُ فهاجَتْ مِنْ أَوَاذِهَا^(٢)

(١) الرعى : أمم يتقدم الجمل حمة رعون وروان . والجمل الطويل ودعدي الجمر فطهلى ، أى دحره

فندرج . (٢) الأراذى : أمواج البحر ممردها أدى .

أَوَلَيْتَهَا قَدَدَنْتَ يَوْمًا إِلَى مَرِيضِي * قَدْ شُدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
 حَتَّى يُرَى لَهَا مِنْ حُضْرِهِ زَيْمًا * وَقَدْ أَتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ دَاعِيهَا
 فَنَ بَكَاهَا فَلَا جَفَتْ مَدَامُهَا * لَا أَمْنَنَ اللَّهُ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا
 وَقِيلَ : إِنَّ آخِرَ قَصِيدَةٍ لَهُ هِيَ قَوْلُهُ :

أَشَاقَتَكَ الْمَازِلُ مَعْدَ هَيْدٍ * وَتَرْتِيهَا وَذَاتِ اللَّئْلِ دَعْدٍ
 مَازِلُ أَفْعَرْتُ مِنْهُنَّ مَحْتٍ * مَعَالِيَهُنَّ مِنْ سَبِيلِ وَرَعْدٍ
 وَرِيحٍ حَرْجِيْفٍ تَسْتَقُ فِيهَا * بِسَافِ التُّرْبِ تَلْعِمُ مَا تُسَدِّي
 أَلَمْ يَلْفُسْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْتِي * مَقَالُ مُحَمَّدٍ فِيهَا يُؤَدِّي
 إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَهَادَى عَلَى * وَخَوْلَةٍ حَادِيٍّ فِي الْبَيْتِ تَزْدِي
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي * بَوَارِي الرَّيْدِ صَافِي الْخَلِيمِ تَجْدِي
 يَمْوِزُ بِكُنْيَتِي وَأَسْمَى لَأْتِي * نَحْلُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بِعَدِي
 يُغَيِّبُ عَنْهُمْ حَقِّي يَقُولُوا * نَصَمْتُهُ يَطِيْبَةُ بَطْنُ لَحْدِ
 سَيِّئٍ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بِرَضَوَى * بِشَيْبِ بْنِ أَعْمَارٍ وَأُسْدِ
 مَقِيمٌ بَيْنَ أَرْيَامٍ وَيَعِينِ * وَحَقَّابُ تَرْوُحٍ خِلَالِ رُبْدِ
 تُرَاعِيهَا السَّبَاعُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَاقِبُهُنَّ مُفْتَرَاً بِجَدِّ
 أَيْنَ بِهِ الرَّدَى قَرَنُ طَوْرًا * فَلَا حَوْفٍ لَدَى مَرَحَى وَيُورَدِ
 حَلَقْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمَعْلَى * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ قَرَدِ
 يَطُوفُ بِهِ الْحَمِيْجُ وَكُلَّ حَايِمٍ * يَحْمِلُ لَدَيْهِ وَفْدُ مَعْدِ وَفَدِ
 لَقَدْ كَانَ ابْنُ خَوْلَةٍ غَيْرَ شَكٍّ * صِفَاءَ وَلَا تَقِيَّ وَخُلُوصَ وَدَى
 مَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا * أَسِيرُ وَمَا أُبَوِّحُ بِهِ وَأُبْدِي
 سَوَى دِي الْوَسْخِ أَحَدًا أَوْ مَلِيٍّ * وَلَا أَرْكِي وَأُطِيْبَ مِنْهُ عِنْدِي

وَمَنْ ذَا بَأْسٍ حَوْلَهُ إِذْ رَمَتْنِي * أَسْهَمَهَا الْمَنِيَّةُ حِينَ وَغَدَى
 يُذَيِّبُ عَمَّكُمْ وَيُسُدُّ مِمَّا * تَتَلَمَّ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدَى
 وَمَالِي أَنْ أُمِرَّ بِهِ وَلَكِنْ = أَقُولُ أَنْ يُؤَخَّرَ يَوْمُ تَقْدَى
 فَأُدرِكَ دَوْلَةً لَكَ لَسَتْ بِهَا * عَجَابٌ تُوصَفُ مَا تَعْدَى
 عَلَى قَوْمٍ تَتَوَّاهُ فِيكُمْ عَلَيَا * لَتُعْدَى مَسْكُومٌ بِأَحْيَرٍ مُعْدَى
 لَتَعْلَبَ بِأَعْلَمِهِمْ حَيْثُ كَانُوا * عَوْرَتَيْنِ سَامَةِ أَوْ تَعْبُدُ
 إِذَا مَا سِرَّتْ مِنْ تَلَيْدٍ حَرَامٍ * إِلَى مَنْ مَالِدِيَّةٍ مِنْ مَعْدَى
 وَمَادَا عَزَّهْمُ وَالْخَيْرُ مَبْهُمٌ * مَا شَوْسَ أَعْصَلَ الْأَيَّامِ وَرَدُ
 وَأَنْتَ لِمَنْ بَنَى وَمَعْنَا وَأَذْكِي * عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَرْدَاكَ مُرْدَى

٨ - سلم بن عمرو الخمار^(١)

كان مقطعا الى البرامكة والى الفصل بن يحيى حصوفا من بينهم ، وبه يقول
أبو العتاهية :

إعما الفصل لَسَلِمَ وحده * ليس فيه لِيَوَى سَلَمٌ دَرَكٌ

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . ولَسَلِمَ يقول أبو العتاهية
وقد صحَّ مع عُتْبَةَ :

واقفه واقفه ما أَمَالَى مَسْقَى * ما مَثَّ يَاسَلَمُ بعد ذا السَقَرِ
أليس قد طُفْتُ حيث طافَتْ وقد * لَتُ الذي قُلْتُ من الحجر

وله يقول أبو العتاهية وقد حُسِبَ إبراهيمُ الموصِلُ :

سَلَمٌ يَاسَلَمُ ليس دُونَكَ سِرٌّ * حُسِبَ الموصِلُ فالعِشُّ مُرٌّ
ما استطاب اللدَّاتِ ، مُدْسِكُنُ المَطِّ * بَقَّ رَأْسُ اللدَّاتِ واقفه ، حُرٌّ
تَرَكَ الموصِلُ مَنْ حَلَقَ اللِّ * لُهُ جميعاً وعيشهم مُقَشِّيرٌ

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد مرابي أبي بكر الصديق ، شأى البصرة ، وكان شاعرا مطبوعا منصرفا
وهود الشعر ، وكان مطاعرا بالحلاوة والصور والهجون ، واد شاعرية وتحررا بالشعر على يد شار ، لأنه كان يراه
وتلقاه ، أحد عمه واعتزف من عمره وسمع على سواه ، وكثيرا ما كان بأحد أقواله يسلحها ويمسحها كما مسح
هذا البيت

من رافق الناس لم يلقه بحاجته * وطار بالطلبات الفاتك الهيج

فعله

من رافق الناس مات عما * وطار باللدة الحسور

يلعب به شاربا مصب وأنهم ألا يدخل عليه ولا يعيده مادام حيا ، فاستشع اليه بكل صديق حتى رضى روعه
وقته مخمرة كانت يده . وكان صديقا لآراميه الموصلي المعنى المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة
وخصوصا الفصل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . ونجد ترجمته في الأغانى ج ٢١ ص ١١٠ وابن حطاف

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :

إذا تَبَّهَتْكَ صِعَاتُ الْأُمُورِ • فَبَّهْ لَهَا عُمَرَا ثُمَّ تَمَّ
فَتَى لَا يَبِيتُ عَلَى دِيْنَةٍ^(١) • وَلَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا بَدَمَ

تعت بها مع سلم الى عمر بن النّلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان حادّك - يعني هسه - قد قال في طريقه فيك قصيدة؛ قال : فإنك لَمُتْكَ ! قال : تسمع ثم تحكّم؟ قال : هات، فأنشده :

قد حَزَنِي الْمَاءُ مَا لِي دَوَاءُ • مِمَّا أَلَاقَى مِنْ حَسَانِ النِّسَاءِ
قَلْبٌ صَحِيحٌ كَتُّ أَسْطُوبِهِ • أَصَحُّ مِنْ سَلَمَى بَدَاءِ عَيَاةِ
أَنْفَاسِهَا مِنْكَ وَفِي طَرَفِهَا • يَحْمَرُّ وَمَا لِي بَرْدًا مِنْ دَوَاءِ
وَعَدَتْنِي وَعَدًا مَا وَفَى بِهِ • هَلْ تَصْلُحُ الْخَمْرُ إِلَّا بِمَاءِ

ويقول فيها :

كَمْ كُرْبَةٍ قَدْ مَسَّنِي صَرُهَا • نَادَيْتُ فِيهَا عُمَرَ رَ الْعَلَاءِ
فَأَمَرَهُ بِمِثْرَةِ أَلْفِ دَرَاهِمَ، فَكَانَتْ أَزَلَّ عَطَايَةِ سَيِّئَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ .

ومن قوله بَرِّي بِأَقْوَنَةِ بِنْتِ الْمَهْدِيِّ :

أَوْدَى بِأَقْوَنَةِ رَبِّبِ الزَّمَانِ • مَوْثِقَةِ الْمَهْدِيِّ وَالْخَيْرِ زَانِ
لَمْ تَطْلُوْا الْأَرْضَ عَلَى مِثْلِهَا • مَوْلُودَةٍ حَسَّ لَهَا الْوَالِدَانِ
نَاقُورٌ يَا بِنْتَ إِمَامِ الْمَهْدِيِّ • أَصَحَّتْ مِنْ زَيْهِ أَهْلُ الْجَنَانِ
بَكَتْ لَكَ الْأَرْضُ وَسَكَنُهَا • فِي كُلِّ أَتَقِي بَيْنَ لَانِسٍ وَحَانِ

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم يروز والهدايا بين يديه، فأنشد :

أَمِنْ رَجٍ تَسْأَلُهُ • وَقَدْ أَقْوَتْ مَنَازِلُهُ
فَلْيُفِ مِنْ هَوَى الْأَعْلَا • يَا حَبُّ مَا يُزَايِلُهُ

رَوَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْمُوعِ • وَإِنْ الْحَبَّ قَاتَلَهُ
 تَلَايِلُ صَدْرِهِ تَسْرَى • وَقَدْ نَامَتْ عَوَازُهُ
 أَحَقُّ السَّائِسِ بِالتَّضْيِيبِ • لَيْلٌ مِنْ تَرْخَى فَوَاصِلُهُ
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَحْلَا • قِى مَا صَحَّتْ حَمَائِلُهُ
 فَلَسْتُ أَرَى قَتَى وَالْأَلَا • مِنْ إِلَّا الْعَصْلُ فَاصِلُهُ
 يَقُولُ لِسَانُهُ حَيْرًا • صَعْلُهُ أَمَامِلُهُ
 وَمَنْهَا يُرْخَ مِنْ حَيْرٍ • وَإِنْ الْعَصْلُ فَاصِلُهُ

وكان ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق حاصرين، فقال لإبراهيم كيف ترى وتسمع؟ قال.
 احسن مرئى ومسموع، وفصل الأمير أكثر منه، فقال . حدوا جميع ما أهدى الى اليوم
 فاقسموه بينكم اثلاثا إلا ذلك الثقال، فإني أريد أن أهديه اليوم الى دنائير، ثم قال .
 لا والله ما هكذا تعمل الأحرار، يقوم ويدفع اليهم ثمه ثم يهديه، فتقوم بالى ديار، تحملها
 الى القوم من بيت ماله واقسموا جميع الهدايا بينهم .

كان المهدي يعطى مروان وسلما الحاسر عطيه واحده، فكان سلم يأتي باب المهدي
 على البرذون القاريه، قيمته عشرة آلاف درهم بئرج ولحام معصين ، ولأسه الحر
 والوشى وما أشبه ذلك من الثياب العاليه الأثمان، ورائحه المسك والطيب والعاليه تموج
 مه، ويحى، مروان س أى حفصه عليه قروكل وقبض كرايس وعمامة كرايس وخفا بجل
 وكساء غليظ، وهو مئنت الراحة، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم اليه بخلًا، فإدا قرم أرسل
 علامه فاشترى له رأسًا فأكله، فقال له قائل: أراك لا تأكل إلا الرأس، قال سم أصراف
 سعره فامن حيانة العلام ولا اشترى لحمًا يطبخه يأكل منه، والرأس آكل منه ألوانا: آكل
 من عيينه لونًا ومن طصصته لونًا ومن دماغه لونًا .

(١) تصوير . (٢) الكرايس : جمع كرايس وهو القنطل . (٣) أى حمار وكثير الصوف .
 علفه . (٤) الطصصة . أصل الساد .

كان سلم قد بُيَّ بالكيمياء، فكان يذهب بكل شيء له ماطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عَرَفَ أن باب الشام صاحب كيمياء عجيماً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسأل عنه، فذُلوهُ عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع مُعَوَّرٍ^(١)، فدفقتُ البابُ فخرج إلى ، فقال : من أنت فافاك الله ؟ فقلت : رجل معجبٌ بهذا العلم ، قال : فلا تُشهرني فأى رجل مستورٍ إنما أعمل القوتَ، قلت : إني لا أُشهرُك إنما أقتبسُ منك، قال : فاكتم ذلك، وبين يديه كوزٌ شبيهٌ صغيرٌ، فقال لي : اقلعُ عُرْوَتَهُ، فقلعْتُها، فقال : اسبُكها في البوتقة^(٢)، فصببْتُها، فانخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : ذَرَهُ عليه، ففعلتُ، فقال : افرغهُ، فافرغته، فقال : دمه منك، فاذا أصبحت فانخرج فيعه وعُدْ الى . فاحرسته الى باب الشام فبعثُ المتقالَ أحد وعشرين درهماً ورجعتُ اليه فأحبرته، فقال : اطلب الآن ما شئتُ، قلت : تُفِيدني ؟ قال : بمئة مائة درهم على ألا تُعلمه أحداً، فأعطيتُهُ وكتب لي صفةً فانتحيتها فاذا هي باطلية، ففعلتُ اليه، فقبل لي . قد تحوّل وإذا عُرْوَةُ الكوزِ الشَّبه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوزُ شَبَّهٌ، ولذلك كان يدخل اليه من يطله ليلاً ليحصى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد في حيرا وأن هذا كله ماطلٌ .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم واذا بين يديه فراطيسُ فيها أشعارٌ يرى ببعضها أم جعفر، وبعضها جاريةٌ غير مسمّاة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له : ويحك ما هذا ؟ فقال : تحدثُ الحوادثُ فيطالوننا أن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يتحمل بنا أن نقول غير الجيد، فبعدَ لهم هنا قبل كونه، حتى حدثتُ حادثاً أظهرناه ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : • سَيِّ الأَحَبَّةَ بِالسَّلامِ • فقال الرشيد : حياهم الله بِالسَّلامِ ؟ فقال سلم : • أَعْلَى وَدَاجِ أُمِّ مَقَامِ • فقال الرشيد : حياهم الله على أَى ذلك كان، فأنشده :

لم يبقَ منك ومنهم • غيرَ الجلودِ على العظامِ

(١) مورد : محرف . (٢) الشبه : النحاس الأصفر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصانع .

فقال له الرشيد : بَلِّ مَكَ، وأمر بإحراجه ، وتطير منه ومن قوله ، فلم يسمع منه نافي الشعر ولا أتابه بنى .

استوهب اصحاق الموصلي من الرشيد تركه سلم ، وكان قد مات عن غير وارث ، فوهبها له قبل أن يسلمها صاحب المواريث ، حصل بها على خمسين ألف دينار ، ورُوى أنه رُفع الى الرشيد ألف سلما قد توفى وحلف مما أحده مه حاصة ومن زُبيدة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما حلّقه من عقار وغيره مما اعتقده قديما ، فقبضه الرشيد ونظّم اليه مواليه من آل أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ؛ فقال : هذا حادى وتديى ، والذي حلّقه من مالى فأنا أحقُّ به ، فلم يُعطهم إلا شيئا يسبرا من قديم أملاكه .

(١) املكه .

٩ - رَبِيعَةُ الرَّقِيقِ^(١)

كان مُقَطَّعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مُجَالَسَةِ الخلفاء ، فَأُجِّلَ ذِكْرُهُ بسبب ذلك ؛ لكنَّهم كانوا يَسْتَعِدُّونَهُ اليهم . وأوَّلُ من فعل ذلك المَهْدِيُّ ، فَدَحَهُ ونال جَوَائِزَهُ ؛ وكان أَرَنُ الْمُعْتَرِّى ربيعةَ أَشْعَرَ عَزَلًا من أبي نُؤَاس ، لأنَّ في عَزَلِ أُمِّ نُؤَاس بَرْدًا كثيرًا ، وعَزَلُ هَذَا سُلَيْمٌ عَذِبٌ سَهْلٌ ، ولذلك فإنَّ شَهْرَتَهُ بَلَّغَتْ إلى مَلَاطِ الخليفة . وكان يمدح غير الخلفاء وَيُنَالُ جَوَائِزَهُمْ وَيُودُّ إلى بلده ، وإنَّ قَصْرَ أَسَدٍ في إعطائه هَمَاءً ، وله في ذلك حَلِيقٌ مع العباس بن محمد بن حلٍ من أمراء بني العباس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المَهْلِيُّ ويهجو يزيد بن أَسِيدِ السُّلَمِيِّ :

حَلَقْتُ يَمِيًا غَيْرَ دِي مَشْوِيَةٍ * يَمَسُّ أَمْرِي آلُ بَهَا غَيْرِائِمِ
لَشَتَانِ مَا بَيْنَ الْيَرِيدَيْنِ وَاللَّدَى * يَزِيدُ سُلَيْمٌ وَالْأَعْرُ بْنُ حَاتِمِ
يَزِيدُ سُلَيْمٌ سَالِمُ الْمَالِ ، وَالْعَقَى * أَحُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرِ مُسَالِمِ
فَهُمُ الْعَقَى الْأَزْدِيُّ إِتْلَافُ مَالِهِ * وَهُمْ الْفَقَى الْقَيْسِيُّ جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبُ التَّمَنُّاءُ إِلَى هَجْوَتِهِ * وَلَكِنِّي فَصَلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لربيعه : يا أبا أَسَامَةَ ، ما حَمَلَكَ على أن هَجَوْتَ رَجُلًا من قومك وفَصَلْتَ عليه رحلا من الأزد ؟ فقال : أَخْبَرْتُكَ ، أَتَقَتُّ فَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا دَاوِيُّ ، فَوَهَبْتُهَا على خمسمائة درهم ، وَرَحَلْتُ إِلَيْهِ إلى أَرَمِيَّةٍ ، فَأَعْلَبْتُهُ بِمَكَانِي وَمَدَحْتُهُ ، وَأَقَمْتُ عِنْدَهُ حَوْلًا ، فَوَهَبَتْ لِي

(١) هو أبو أَسَامَةَ ربيعة بن ثابت بن موالٍ سليم ، ويكنى أبا شَيْبَةَ ، وكان يرث الزُفَّةَ ، وبها مولده ومَشْوَةُ ، فأشجعهُ المَهْدِيُّ إليه ، فدَحَهُ حدةً قَصَادَةً وَأَتَاهُ عليها ثوبًا كبيرًا ، وهو من المكثريين المِهْدِيِّين ، وكان صريرا وبما أحل ذكره وأسقطه عن طِفْطِفِهِ عِدَّةً عن العراق وتركه حدةً الخلفاء . ومخالطةُ الشُّعْرَاءِ ومع ذلك فما عَدِمَ مَفْصِلًا مَقْدَمًا لَهُ . وتحدَّ أحماره في الأُغَاثِ (ح ١٥ ص ٣٨) ونزارة الأدب للغدادي (ح ٣ ص ٥٥) .

(٢) أي لا استثناءَ فيها .

(٣) هوريد بن أسيد (بسم الحمرة) من بني بني سليم ، وأحو الأزد هوريد بن حاتم من قبيلة بني المهلب .

خمسمائة درهم، فحملتُ وصرتُ بها الى منزلي، فلم يبقَ معي كبيرُ شيءٍ، فزلتُ في دارٍ يركاءُ، فقلتُ : لو آتيتُ يزيدَ بنَ حاتمٍ، ثم قلتُ : هذا ابنُ عمي فعلَ بي هذا الفعلَ فكيفَ بغيره ! ثم حملتُ نفسي على أن آتيه، فأعلمَ بمكاني، فركبني أسهرا حتى صهرتُ، فأنكرتُ نفسي من الجمالين . وكتبتُ بيتاً في رُقعة فالتقيته في دِهليزه، والبيتُ :

أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لَه رَاجِعَا • بِحُجَى حُتَيٍّ مِنْ يَزِيدَ بْنِ حَاتِمٍ

فوقعت الرُقعة في يد حاجبه، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى، فبعثَ حاتِي، فلما دخلتُ عليه قال : هِيَ أُنْسِدِي مَا قَلْتُ، فسمعتُ، فقال : والله لَتُنْشِدَنِي، فأنشدته، فقال : والله لا ترجعُ كذلك، ثم قال : أَرْزِعُوا حُفْيَه، فَرَمَا عَشَاهُمَا دَنَائِرَ وَأَمْرَ لِي بِإِلْمَائِي وَجَوَارِ وَكُنَى، ألا ترى لي أن أمدحَ هذا وأهجوَ ذاك ؟ قلتُ : بلى والله، وصارَ شِعْرِي حتى بلغَ المهدى، فكان سببَ دخولي اليه .

قيل لأبي زَيْدِ النَّحْوِيِّ : إن الأصمعي قال : لا يقال شَتَانٌ ما بينهما، وإنما يقال : شَتَانٌ ما هما، وأنشد قول الأعشى : شَتَانٌ مَا يَوْمِي عَلَى شُكُورِهَا . فقال : كَذَبَ الْأَصْمَعِيُّ، يقال : شَتَانٌ ما هما وشَتَانٌ ما بينهما، وأنشد لربيعة الرقي : « لَشَتَانٌ مَا بَيْنَ الْبَرِيدَيْنِ » وفي استنهاد مثل أبي زيد على دفع قول مثل الأصمعي بِشَمْرِ رُبَيْعَةٍ كِفَايَةُ لَهُ فِي تَمَعِيلِهِ . أمتدح ربيعةُ العبَّاسُ بنَ محمد بن علي بقصيدة لم يُسَبَقْ إليها حُسنًا، وهي طويلة، يقول فيها :

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا بْنَ مُحَمَّدٍ • قُلْ «لَا» وَأَنْتَ تُحَلِّدُ مَا قَالَهَا

مَا إِنْ أُعِدَّ مِنَ الْمَكَارِمِ خَصْلَةٌ • إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ حَالَهَا

وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَايَرُوا فِي بِلَدِي • كَأَنَّهُمْ كَوَاكِبُهَا وَكَمَتْ هَلَاكُهَا

إِنَّ الْمَكَارِمَ لَمْ تَرَلْ مَعْقُولَةً • حَتَّى حَلَّتْ بِرَاحَتِكَ عِقَالُهَا

فبعثَ اليه بدليتين، وكان يُقدِّرُ فيه ألفين، فلما نظر الى الديارين كاد بُحْنُ عَيْقَا وقال للرسول : حُذْ هَذَيْنِ الدَّيْنَارَيْنِ فَهُمَا لَكَ عَلَى أَنْ تَرُدَّ الرُّقْعَةَ إِلَيَّ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي الْعَبَّاسُ، ففعلَ الرسولُ ذلك، فأخذها ربيعةُ وأمرَ من كتبَ في ظهرها :

مَدَحْتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ الْمُحَلَّلِ . لَتَجْرِي فِي الْكَرَامِ كَمَا جَرَيْتُ
فَهَبْهَا مِدْحَةً دَهَتْ ضِيَاءًا * كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَأَقْرَيْتُ
وَأَنْتَ الْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وِفَاءٌ * كَأَنِّي إِنْ مَدَحْتُكَ قَدْ زَيْتُ

ثم دَعَمَهَا إِلَى الرَّسُولِ وَقَالَ : صَعَمًا وَ الْمَوْصِعَ الَّذِي أَحْضَتْهَا مِنْهُ ، فَرَدَّهَا الرَّسُولُ ، فَلَمَّا
كَانَ مِنَ الْغَدِ أَحْدَثَهَا الْعَبَّاسُ فَنَظَرَ فِيهَا ، فَلَمَّا قَرَأَ الْآيَاتِ عَصَبَ وَقَامَ مِنْ وَقْتِهِ فَرَكِبَ إِلَى
الرَّشِيدِ ، وَكَانَ أَثِيرًا عِنْدَهُ يُتَجَلَّى وَيَقْدُمُهُ ، وَكَانَ قَدْ هَمَّ أَنْ يَحْطُبَ إِلَيْهِ آتِنَهُ ، فَرَأَى الْكَرَامَةَ
فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : هَاهُنَا رِبِيعَةُ الرَّقِّ ، فَأُحْصِرُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : تَهْجُو
عَمِّي وَأَتْرَاخُلِي عِنْدِي ؟ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصِيرَ عُنُقَكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ
مَدَحْتُهُ بِمَصِيدَةٍ مَا قَالَ مِثْلَهَا أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي أَحَدٍ مِنَ الْخُلَفَاءِ ، وَلَقَدْ مَالَعْتُ وَ الشَّاءَ
وَأَكْثَرْتُ فِي الْوَصْفِ ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْخُذَهُ بِإِحْصَارِهَا ! فَلَمَّا سَمِعَ الرَّشِيدُ ذَلِكَ
مِنْهُ سَكَنَ غَضَبُهُ وَأَحْسَنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقَصِيدَةِ ، فَأَمَرَ الْعَبَّاسَ بِإِحْصَارِ الرَّقْمَةِ ، فَتَلَكَّأَ عَلَيْهِ
الْعَبَّاسُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَمَرْتَ بِإِحْضَارِهَا ، فَعَلِمَ الْعَبَّاسُ
أَنَّهُ قَدْ أخطأَ وَغَلِطَ ، فَأَمَرَ بِإِحْصَارِهَا ، فَأُحْصِرَتْ ، فَأَخْذَهَا الرَّشِيدُ وَإِذَا فِيهَا الْقَصِيدَةُ
بَيْنِيهَا ، فَأَسْتَحْصَمَهَا وَأَسْتَحَادَهَا وَأَغْنَحَتْ بِهَا وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي أَحَدٍ مِنَ
الْخُلَفَاءِ مِثْلَهَا ، لَقَدْ صَدَّقَ رِبِيعَةُ وَبَرٌّ ، ثُمَّ قَالَ لِلْعَبَّاسِ : يَمُ اثْنَتَهُ عَلَيْهَا ؟ فَسَكَتَ الْعَبَّاسُ
وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَجَرَّصَ رِيقَهُ ، فَقَالَ رِبِيعَةُ : أَتَأْتِي عَلَيْهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِدِيَارِينَ ، فَوَهْمُ
الرَّشِيدُ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاحِدَةِ عَلَى الْعَبَّاسِ ، فَقَالَ : بِحَيَاتِي يَا رَقِي نَكَمُ أَتَأْتِيكَ ؟ قَالَ :
وَحَيَاتِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَتَأْتِي عَلَيْهَا إِلَّا بِدِيَارِينَ ، فَخَصَّصَ الرَّشِيدُ عَصَا شَدِيدًا وَنَظَرَ
فِي وَجْهِ الْعَبَّاسِ وَقَالَ : سَوَّءٌ لَكَ ! أَيْ حَالٍ قَعَدْتُكَ عَنْ إِيَابَتِهِ الْأَمْوَالِ ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ
مَوْلَتْكَ جُهْدِي ، أَمْ أَتَقْطَعُ الْمَادَّةَ عَنْكَ ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَتَقَطَعْتُ ، أَمْ أَصْلُكَ ؟ فَهُوَ الْأَصْلُ
لَا يُدَانِيهِ شَيْءٌ ، أَمْ تَفْسُكَ مَلَّتْ ذَلِكَ بِكَ حَتَّى فَصَحْتَ آتَاكَ وَأَحْدَاكَ وَفَصَحْتَنِي

وَقَسَكَ • فَكَسَّ الْبَاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَيْطِقْ ، قَالَ الرَّشِيدُ : يَا عَلَامُ ، أَعْطِ رُبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَحِلْمَةً وَأَحْمِلْهُ عَلَى نَغْلَةٍ ، فَلَمَّا حُمِلَ الْمَسْأَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْبَيْسُ الْحَامَةَ قَالَ : بِحَيَاتِي يَارِقَى لَا تَذْكُرْهُ فِي شَعْرِكَ لَا تَعْرِضْنَا وَلَا تَصْرِيفْنَا ، وَقَرَّرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ يَتْرُوحَ إِلَيْهِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءً كَثِيرًا وَأَطْرَاحَ لَهُ .

قال أبو بشر : كُنْتُ حَاصِرًا رُبْعَةَ الرِّقَةِ يَوْمًا وَحَدَّثَنِي أَمْرًا فَتَأَلَّتْ : تَقُولُ لَكَ مُلَاةٌ إِنْ بَنَتْ مَوْلَايَ مَحْمُومَةً فَإِنْ كُنْتُ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً فَأَقْبِلْ ، فَقَالَ أَكُنْتُ لَهَا أَمَا يَبْشُرُ هَذِهِ الْعَوْدَةُ :

يَقُولُوا يَقُولُوا بِاسْمِ الْإِلَهِ الَّذِي • لَا يَبْرُصُ السُّقَمَ لِمَنْ قَدْ شَفَى
أَعْبَدُ مَوْلَاتِي وَمَوْلَاتَهَا وَأَبْنَاهَا يَعُوذَةُ الْمُضْطَعِي
مَنْ شَرًّا مَا يَعْزِضُ مِنْ عَلِيٍّ • فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسَدَا

فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا ثَمَّتٍ ، لَسْتُ أَحْسِنُ أَنْ أَكْتُبَ يَقُولُوا يَقُولُوا ، فَكَيْفَ أَكْتُبُهَا • قَالَ أَنْصَحَ الْمِدَادَ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَلَمِ ، وَأَدْعُ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فَلَهَا نَاعَةٌ ، فَعَمَلْتُ وَدَعَمْتُهَا إِلَيْهَا ، فَلَمْ تَلْتَأَنْ أَنْ حَادَتْ الْخَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَتَمَالَكُ مَحْكًا ، فَقَالَتْ لَهُ : يَاجِبُونَ مَا فَعَلْتُ بِنَا ! كَيْدًا فَتَصَحَّحْ مَا صَعَلْتَ ! قَالَ • هَا أَصْبَحُ ! أَشَاعَرُ أَمَا أَمْ صَاحِبُ تَعَاوِيدَ ! •

وَأَتَقَفْتُ لِلزَّقِ أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ مَعْنَى رَائِدَةٍ ، وَقَدْ لَقِيَتْهُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَدَحَسَهُ ، فَلَمْ يَبْهَشْ لَهُ ، فَهَجَاهُ قَصِيدَةً مُطْلَمًا :

مَعْنُ يَا مَعْنُ بَابُ زَائِدَةِ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الدَّرَاعِ لَا فِي السَّارِ
لَا تُتَاخَرُ إِذَا نَقَرْتَ مَا مَا • بَيْنَ وَأَنْفَرِ عَمَّكَ الْخَوْفَازِ

(١) العودَةُ • الرِّقَةُ : رِقَاقُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَرَجٍ أَوْ حَوْدٍ أَوْ مَرَسٍ • (٢) الْعَمْتُ الْعَاقُ الْبَيْتُ يَمُوتُ الرَّاقِقُ فِي الْعُقْدَةِ عَدِ الرِّقَةِ •

(٣) الْخَوْفَازُ هُوَ الْخَارِثُ مِنْ شَرِيكِ الثَّيْبَانِ ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ قَبِيلٌ مِنْ عَاصِمِ الْبَيْتِ حَمْرُهُ مَارِجٌ حِينَ حَافَ أَنْ يَمُوتَ ، وَقَدْ هَرَبَ ذَلِكَ سَوَاسِ حَانَ الْقُرَى فَقَالَ

وَحَمْرُهُ حَمْرًا الْخَوْفَازُ بَطْمَةً • سَقَمَهُ جَمِيعًا مِنْ دَمِ الْحُرُوفِ أَشْكَلا

ومن غزله أبياتٌ يُنقَى بها، وهي :

وترثهم أنى قد تبدلتُ خُلَّةً^(١) • سواها وهذا الباطلُ المنقُولُ
 لَمَّا افقه من ناع الصديقِ غيره • فقالت نعم حاشاك إنَّكَ تَفْعَلُ
 ستصيرمُ إنساناً إذا ما صررتنى • بحبك ما نظر بعده من تَدُلُّ

(١) الحلة الخلية .

١٠ - الرقائى^(١)

كان سهل الشعر مطبوعاً ، وكان منقطعاً إلى آل برمك ، مستغنياً بهم عن سواهم ، وكانوا يصولون به على الشعراء ، ويروون أولادهم أشعاره ، ويدونونها القليل والكثير منها ، تمصاً له ، وحفظاً لخدمته ، وتبويها باسمه ، وتحريكاً لشاظه ، حفظ ذلك لهم . فلما نيكوا صار إليهم في حبسهم ، فأقام معهم مدة أيامهم ينشد لهم ونسأيرهم حتى ماتوا ، ثم رثاهم فاكتر من رثائهم ، من ذلك قوله في جعفر :

كم هاتيف بك من بأك وبأكبه * يا طيب الصنف إذ تدعى والجار
إن يقدم القطر كست المزن يارقه * لمع الدانير لا ما خيل السارى

وقوله :

لعمرك ما بالموت عار حل الفتى * إذا لم تصنه في الحياة المعاري^(٢)
وما أحد حتى وإن كان سائلاً * أسلم مما عيته القفار
ومن كان مما يحدث الدهر حازعاً * فلا بد يوماً أن يرى وهو صار
وليس لدى عيش عن الموت مقصر * وليس على الأيام والدهر غابر
وكل شباب أو حديد إلى السلى * وكل أمرئ يوماً إلى الله صائر
فلا يبعدك الله عني جعفرأ * يروى ولو دارت على النواير
فأليت لا أنفك أببك ما دعت * على قنن ورقاء أو طار طائر

ومن ذلك قوله لما صلب الفضل بن يحيى وأجتاز به الرقائى وهو مصلوب على الخدع ، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو العصل بن عبد الصمد مولى وقاش ، وهو من أهل البصرة . توفي سنة ٢٠٠ هـ . ويحد ترحفه في الأمان (ح ١٥ ص ٣٥) ودييات الرقيات (ح ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .
(٢) المعاري : العايب .

أما واقه لولا خَوْفُ وإش * وعَيْنُ لظلفه لا تَتَّامُ
 لَطْفًا حولِ حَذِيكِ وَأَسْتَلَمَا * كما للباسِ ما تَحْمَرُّ أَسْلَامُ
 وما أَصْرَتْ قَبْلَكَ يَا بَنَ يَحْيَى * حُصَامًا حَتَفَهُ السِّيفُ الحُصَامُ
 على اللَّدَاتِ والدِّيا جميعا * ودولةِ آلِ بَرْمَكِ السَّلَامُ

فكتب أهلُ الأخبارِ ذلك الى الرشيد، فأحصَره فقال : ما حَمَلَكَ على ما قُلْتَ ؟ فقال :
 يا أَمِيرَ المؤمنين كانَ إلى مُحْسِنًا ، فلما رَأَيْتُهُ على الحالِ التي هو عليها حَزَنَتْنِي إِحْسَانُهُ ما مَلَكْتُ
 نفسي حتى قُلْتُ الذي قُلْتُهُ ، قال : وكم كان يُجْرَى طِيكَ ؟ قال : ألفَ دينارٍ في كُلِّ سَنَةٍ ،
 قال : إنا قد أَصْعَمَها لك .

ومن قولهِ يَصِفُ حَارِيَّةَ :

صَعَاتٌ وَحُسْنُ أَوْرَثَا القَلْبَ لَوْنَةً * تَصَرُّمٌ وَ أَحْشَاءُ قَلْبٍ مُتِمَّ
 تُمَثِّلُهَا نَفْسِي أَمْنِي فَأَنْتَنِي * عليها طَرُفُ السَّاطِرِ المَتِينِ
 يُجَلِّئِي حُبِّي لَهَا فَوْقَ طَائِفِي * من الشَّوْقِ دَأْبَ الحَاظِرِ المُتَقَرِّبِ

١١ - أبو العتاهية^(١)

قال أحمد بن رُعيّر : سمعت مُصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ،
فقلت له : بأي شيء أستحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ * طُولِ أَيِّ آمَالٍ
وأقلتُ على الدنيا * مُلِحًا أَيِّ إِمَالٍ
أيامنا تمهّزُ * عِراقِ الأهلِ والمالِ
فلا بدّ من الموت * على حالٍ من الحالِ

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حتى لا تحشويه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقزبه
الجاهل . وكان الأصمعي يستحسن قوله .

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن العاصم بن سويد ، أطلع أهل زمانه شعرا وأكثرم قولاً وأسهلهم لفظاً ،
وأمرهم بديهة وأتمحالا ، وأول من جع للشعراء باب الوعط والتزهيد في الدنيا والهي عن الاعتزاز بها ، وأكثر
من الحكمة .

ولد بين القريسة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة في عمل أهله . وكانوا نامة حاراً ، إلا أنه رأى بعضه عن عمله وقال
الشعر في صاه وأمرح طبعه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه « لو شئت أن أحمل كلامي كله شعراً لعلت »
مداع صيته وسلك طريق حلواء الكوفة . ثم قدم بغداد ومدح المهدي وتعرف شخص خدم قصر الخلافة
وحواريه فتمشق منهم فتاة تدعى عنة ، ولما يسى منها لها عبا يمس الشيء . ودرس كثيراً من مذهب المتكلمين
والشيعة والخيرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينقل عنه إلى الآخر حتى احتار له من كل ذلك
عقيدة محظطة أصغت به إلى العادة والزهد في الدنيا قولاً وعميشة على إطراد منه في حب المال وراجع له
واليجل به على الأهل ولولاه وانلهم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أصرب عن العمل وتصر بقوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو في حلال
ذلك يمدح الخليقة ويملك الدولة ويأخذ حوائزم ، ثم عرضت له حال امتنع منها من قول الشعر اليتى حتى حسه الرشيد
لعدم تملكه ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أحاب ملاجه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك المنزل
والمدح ، رقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفى سنة ٢١١ هـ

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتحد أحباره في الأمانى ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦
وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ وقهرست ص ١٦٠ .

أَنْتَ مَا اسْتَفْنَيْتَ عِيَا * حِيَكِ الدَّهْرَ أَخُوهُ

فَإِذَا أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ * سَاعَةً بَجَّكَ فُؤُوهُ

وَأَنْشُدْ لَهُ سَلَّمَ الْغَالِيَر :

سَكَنَ يَتَى لَهُ سَكْنُ * مَا بَهْدَا يُؤْذِنُ الرُّسْ

نَحْىَ وَى دَارَ يَحْسَرُهَا * يَبْلَاهَا مَا طَلَقَ لَيْسَ

دَارُ سُوَيْءٍ لَمْ يَدُمُ قَرَحُ * لِأَمْرِىءِ فِيهَا وَلَا حَرَنُ

وَى سَبِيلِ اللَّهِ أَهْشَا * كُلُّنَا بِالمَوْتِ مُرْتَهَنُ

كُلُّ هَسٍ عِنْدَ مَيِّتِهَا * حَظُّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَنُ

إِنْ مَالُ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ * مِثْلُهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنُ

وقال عبد الله بن عبد العزيز العُمَرِيُّ : أشعرُ الناسِ أو العتاهية حيث يقول :

مَا صَرَّ مِنْ حَمَلِ التَّرَاتِ مِهَادَهُ * إِلَّا يَتَنَامُ عَلَى الْحَرِيرِ إِذَا قَبِحَ

وقيل لأبى العتاهية : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطَّ إلا مثْلَ لى ، فأقول

ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامى شعرا كله لفعلتُ .

حُمُّ الرِّشِيدِ فَصَارَ أَوَّ الْعِتَاهِيَةِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ بِرُقْعَةٍ فِيهَا :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ أَنْتَ لَمْ * مَا تَوَا إِذَا مَا أَيْتَ أَجْمَعُهُمْ

حَلِيمَةُ اللَّهِ أَنْتَ تَرَجَّحُ بِالنَّاسِ * مِمَّنْ إِذَا مَا وُزِنَتْ أَنْتَ وَهُمْ

قَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ وَحْهَكَ يُفْ * نَحْنُ إِذَا مَا رَأَوْهُ مُعْصِدُهُمْ

فأنشدها الفصلُ بن الربيع الرشيْدَ ، فأمر بإحْصَارِ أبى العتاهية ، فما زال يُسَامِرُهُ ويَحْدِثُهُ

إِلَى أَنْ بَرِيءَ ، ووصل إليه بذلك السببُ مَالٌ جَلِيلٌ . وقد حَدَّثَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ بِهَذَا

الْحَدِيثِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ بِالْجَلْسِ : مَا هَذَا الشَّعْرُ يَسْتَحِقُّ لِمَا قُلْتَ ؟ قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ :

لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ ، فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، وَكَانَ أَحَدَ النَّاسِ ، الضَّعِيفُ وَاللَّهُ عَقْلُكَ لَا شِعْرَ

أبي العتاهية، ألأبي العتاهية تحول إنه ضعيف الشعر! فواقه ما رأيتُ شاعرا قط أطلع
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب منه إلا صرنا من السحر؛ ثم أنشد له :

فَطَلَعْتُ مِنْكَ حَسَائِلَ الآمالِ ، وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الْمَطَى رِجَالِي
وَيَلَسْتُ أَنْ أُنْقِىَ لَشَىءٍ نِلْتُ مِنْهُ ، مَا فِيكَ يَا دُنْيَا وَأَبَى بَقِيَّ لِي
فَوَجَدْتُ بَرْدَ الْيَأْسِ بَيْنَ حَوَانِجِي * وَأَرْحَتُ مِنْ حِلٍّ وَمِنْ تَرْحَالِ
يَأْيُهَا الْبَطَرُ الَّذِي هُوَ مِنْ عَيْدٍ ، فِي قَبْرِهِ مَمْتَزَّقُ الْأَوْصَالِ
حَذَفَ الْمَتَى عَنْهُ الْمُشْمَرُّ وَالْمُهْدَى * وَارَى مُسَاكَ طَوِيلَةِ الْأَذْيَالِ
حِيلَ أَسْ أَدَمَ فِي الْأُمُورِ كَثِيرُهُ * وَالْمَوْتُ يَقْطَعُ حِيلَةَ الْمُحْتَالِ
مَالِي أَرَاكَ لِحْزًا وَجْهَكَ مُخْلَقًا * أَحْلَقْتَ يَا دُنْيَا وَجُوهَ رِجَالِ
قَسَيْتُ السُّؤَالَ فَكُلَّانِ أَعْظَمَ قِيَمَةٍ * مِنْ كُلِّ عَارِفٍ جَرَتْ بِسُؤَالِ
فَإِذَا أَبْتَلَيْتُ بِبَدَلِ وَجْهِكَ سَائِلًا - فَاسْأَلْهُ لَتُنَكَّرَ الْمِفْضَالِ
وَإِذَا تَحَبَّيْتُ تَمَدُّرًا فِي بَلَدِهِ * فَاسْأَلْهُ يَدِيكَ بِسَاجِلِ التَّرَحَالِ
وَأَصْبِرْ عَلَى غَيْرِ الزَّمَانِ فَإِنَّمَا * فَرَجُ الشَّدَائِدِ مِثْلُ حَلِّ عَقَالِ

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله، جعلني الله فداك، إنى لم أُرَدِّدْ عليك ما قلت، ولكن الزهد مُدْعَبُ
أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال : أما ليس الذى يقول والمديح :

وَهَارُونَ مَأْمُورٌ يُشْفَى مِنَ الصَّدَى * إِذَا مَا الصَّيْدُ بِالرَّبْقِ عَصَتْ حَابِرُهُ
وَأَوْسَطُ بَيْتٍ فِي قُرَيْشٍ لَبِيتُهُ * وَأَوَّلُ عَزَى فِي قُرَيْشٍ وَآخِرُهُ
وَرَحْفٌ لَهُ تَحْمِيُّ الْبُرُوقِ سَيُوفُهُ * وَتَحْمِيُّ الرُّعُودِ الْقَاصِفَاتِ حَوَافِرُهُ
إِذَا حَمَيْتُ شَمْسَ النَّهَارِ تَقْضَاهَا حَكَّتْ * إِلَى الشَّمْسِ فِيهِ بَيْضُهُ وَمَقَافِرُهُ
إِذَا نَكَبَ الْإِسْلَامُ يَوْمًا بِسِكِيَةٍ * فَهَارُونَ مِنْ بَيْنِ الْبَرَّةِ نَاطِرُهُ
وَمَنْ ذَا يَفُوتُ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ مُدْرِكُهُ * كَذَا لَمْ يَفُتْ هَارُونَ ضِدُّ نَافِرُهُ

تخلص الرجل من شرّ أبي الأعرابي أن قال له . القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال نَحْمَاة بن أَثَرَس أَشدُّ أو العتاهيه .

إذا المرء لم يُعَيِّقْ من المال فَهْه * تملكه المأل الذي هو مالكة

ألا إنما مالى الذى أنا مُعَيِّقُ * وليس لى المأل الذى أنا تاركة

إذا كنت ذا مال فبادر به الذى * يَحِقُّ وإلا آستهلكته مَهالكة

فقلت له : من أين قصيت بهذا ؟ فقال . من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إما لك من مالك ما أكلت فأفيت أو لبست فألبيت أو تصدقت فأمضيت" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال : نعم ، قلت : فلم تحبس عبدك سبعا وعشرين بَدْرَه فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ولا تقسمها ذنرا ليوم ففرك وفافيتك ؟ فقال : يا أماه . والله إنك أقلت لهو الحق ، ولكنى أحاف الفقر والحاجة الى الناس ، فقلت : وبم تزد حال من أفقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري القمح إلا من عيد الى عيد ؟ فترك جواب كلامي كله ، ثم قال لى . والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحما وتوابله وما تبعه بخمسة دراهم ، فلما قال هذا القول أضحكى حتى أنهلنى عن جوابه ومعاتنته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس من شَرَح الله صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه ، فلزم منزله ، فاستطاع عمرو ، فكتب اليه :

كسنى اليأس عنك لما ار * قع طرئى اليك من كسلى

إنى اذا لم يكن أحرى ثقة * قطعتُ منه حبال الأمل

وكتب اليه مرة أخرى :

مألك قد حلت عن إخالك وآس * تَنَدَّأت ياعمرؤ شيمه كهدى

إنى اذا الباب تاه حاجبه * لم يك عندى فى حجره ^(١) ظره

لَسَمَ رُحُونُ الْحَسَابِ وَلَا • يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةً
لَكِنِ لَدُنْيَا كَالظَّلِّ بِهَجَّتِهَا • سَرِيعةُ الْإِقْصَاءِ مُذْشِرَةٌ
قَدْ كَانَ وَجْهِي لَدَيْكَ مُعْرِفَةً • فَالْيَوْمِ أَخْصِي حُرْمًا مِنَ النَّكْرِ

جلس المهديّ للشعراء يوماً فأدب لهم، وفيهم بشار وأُتخِج، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعطيه، وكان في القوم غير هذين أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال: يا أحاسنيم، أهذا ذلك الكوفي الملقب؟ قلت: نعم، قال: لا جري الله حيرا من جمعا معه، ثم قال له المهديّ: أنشد، فقال: ويحك! أو يستشد أيضا قلنا؟ فقلت: قد ترى، فأنشد:

أَلَا مَا أَسَيَّدْتِي مَا لَهَا • أَدَلًّا فَاحِجِلْ إِذْ لَأَلَا
وَأَلَا فَيَمِّمَ تَحْتَتْ وَمَا • حَفَّتْ سَقَى اللَّهِ أَطْلَالَهَا
أَلَا إِنِّ حَارِيَّةٌ لِلْإِمَا • مَ قَدْ أُنِكِّنَ الْحَسُّ سِرْبَالَهَا
مَشَتْ بَيْنَ حُورٍ قَصَارِ الْمَطَا • مُجَاذِبٌ فِي الْمَشَى أَكْفَالَهَا
وَقَدْ أَتَبَ اللَّهُ نَعْمَى بِهَا • وَأَنْعَبَ بِاللَّوْمِ عُدَالَهَا

فقال بشار لأشجع: ويحك يا أحاسنيم! ما أدري من أي أمرية أعجب، أم من ضعف، شعره أم من تشبيهه بحارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه؟ حتى أتى على قوله:

أَنْتَهُ الْخِلَافَةُ مُقَادَّةٌ • إِلَيْهِ تُحَرَّرُ أَدْبَالُهَا
لَمْ تَكْ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ • وَلَمْ يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَأَى أَحَدٌ عَيْهَ • لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالُهَا
وَلَوْ لَمْ تُطْلَعْ بِاتِّ الْعُلُوبِ • لَمَّا قِيلَ اللَّهُ أَعْمَالُهَا
وَأَنَّ الْخَلِيفَةَ مِنْ غُضِّ «لَا» • إِلَيْهِ لِيُنِصَّ مَنْ قَالَهَا

فقال بشار لأشجع وقد أهرق طرباً: ويحك يا أحاسنيم، أترى الخليفة لم يعط عن فوائده طرباً لما يأتي به هذا الكوفي!

ولما آتته متصور بن عمار بالزنتقة، لأنه لا يذكر في شعره الجثة والدار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وأعطَ الناس قد أصبحتَ منهما * إذ عيتَ منهم أمورا أنتَ تأتيها
كالمليس التوب من عُرَى وعورته * للناس مادية ما إن يوارىها
فأعظمُ الإثم عند الشرك ملته * في كل نفس عَمَّاها عن مساويها
عرفانها بيبوب الناس تُصيرها * منهم ولا تصر العيب الذي فيها

ويقول له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما ديت إلا التوحيد ، فقبل له قل شيئاً يتحدث به عك، فقال :

ألا إنا كلنا نأند * وأنى بنى آدم حاله
وبئذ هم كان من ربهم * وكلُّ إلى ربه عائد
فياغباً كيف يعصى الإله أم كيف يتحده الجاحد
وكلُّ شيء له آية * تدلُّ على أنه واحد

وسمع الجاحظ مرة من يشد أرجوزة أى العنابية التى سماها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

بالشباب المريح التصابي . روائحُ الجثة في الشباب

فقال للشد : قف، ثم قال : أطروا الى قوله : «روائحُ الجثة في الشباب» فإن له معنى كمنى الطرب لا يقد على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وحير المعاني ما كان القلب الى قوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبى العنابية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حسبك مما تنفيه القوت * ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فما جاوز الكفا * من آتقى الله رجاً وحافاً
فى المقادير فلهنى أو قنر * إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

لكل ما يؤدي وإب قل ألم * ما أطول الليل على من لم يتم
 ما آتت المرء بمنل عقله * وغير ذنر المرء حُسْ فِعْله
 إب الساد صذه الصلاح * ورب جند حره المزاح
 من جعل التمام عينا هلكا * مُلِكُك الشَّر كُاعِبه لَكَ
 إب الشات والفراع والحد * مفسدة للره أى مفسده
 يُصِيك عن كل بيع تركه * يترى الرأى الأصيل شكه
 ما عيش من آفته فاقه * نقص عيشا كله فاقه
 يارت من أخطا يتهديه * قد سرا الله غير حمده
 ما تطلع الشمس ولا تعب * إلا لأمر شأنه عيب
 لكل شيء مقد وحوهر * وأوسط وأصر واكبر
 من لك بالخص وكل مخرج * وسأوس في الصدر مه تغلج
 وكل شيء لاجق بحوهره * أصغره منصل ما كره
 ما زالت الدنيا لسا دار أذى * ممزوجة الصفو بالوان القذى
 الخير والشر بها أزواج * لذا نتاج ولدا نتاج
 من لك بالخص وليس خص * يثبت خص ويطيب خص
 لكل إنسان طيعتان * خير وشر وهما ضدان
 لك لو تستنشق الشحما * وجذته أثرتى ربحا
 والخير والشر اذا ما عدا * بينهما نور سيد جدا
 عيبت حتى غمى الشكوت * صرت كافي حائر مبهوت
 كذا قصى الله فكيف أصنع * الصمت إن صاق الكلام أوسع

ومن قول أبي العتاهية في الوحدة والتبسم بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأحلافهم * قَصِرْتُ أَسَانِيْسُ بِالْوَحْدَةِ

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرِي وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعِدَةِ

قال الأعمشى : شعرُ أبي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب
والخزف والتوى .

كان أبو العتاهية لا يعارق الرشيد في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج ، وكان يُجرى
عليه في كل سنة خمسمائة ألف درهم سوى الجوائز والمعاون ، فلما قَدِمَ الرشيدُ الرِّقَّةَ لَيْسَ
أبو العتاهية الصُّوفَ وترتد ، وترك حضورَ المادمة والقول في الغزل ، وأمر الرشيدُ بحبسهِ
الحبس ، فكتب إليه من وقته :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ * يَرَوْحُ عَلَيَّ الْهَمُّ مَعَكُمْ وَيَبْكُرُ

تَذَكَّرُ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّبِي لَكَ ذَلِكَ يَذْكُرُ

لِيَالِي تَذْكُرِي مَعَكُمْ بِالْقُرْبِ مَجْلِسِي * وَوَحْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبِشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَنَ لِي مَالِيسِ التِّي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَى بَهَا فِي مَالِيفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك ؛ فكتب إليه :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنِ النَّفَاسِ * وَهَامَ السَّامُورُ وَلَمْ يُؤَاوِ

أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ حَيْرُ أَمِينٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقِي فِيهِ لِيَاسِ

نَفَاسٌ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ رَ * وَأَنْتَ بِهِ نَسُوسٌ كَمَا نُسَاسِ

كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحُ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ طَبِيبُهُ رَاسِ

أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسِ بَاسِ * وَقَدْ أُرْسِلْتُ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسِ

وكتب إليه أيضا في الحبس .

وَكَلَّمْتَنِي مَا حَلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنِهِ * وَقُلْتُ سَابِقِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوِي

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانِ كَلَّمْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّمْتُ الْخَلْقَ لِمَا يَهْوِي

فامر بإطلاقه .

كل الهادي واجدا علي، أي التناحية للملازمة أحاه هارون في حلقة المهدي، فلما ولي

موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِبُ الْخَوْفُ وَالرَّهَاءُ إِذَا * حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيْبَ أَوْ فُكَّرَ
مَا أَيْسَ الْعَصَلُ فِي مَغْيِبٍ وَمَا * أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَصْدَرَ
هَكَمَ تَرَى عَزَّ عِنْدَكَ مِنْ * مَعْتَبِرٍ قَوْمٍ وَدَلَّ مِنْ مَعْتَبِرٍ
يُخْرِجُ مِنْ مَتْنِهِ الْقَضِيْبُ وَلَوْ * يَمْسُهُ عَيْرُهُ لَمَّا أَتَمَّرَ
مَنْ مِثْلَ مُوسَى وَمِثْلَ وَالِدِهِ أَلِ * مَهْدِيٍّ أَوْ حَلَدَهُ أَى حَقَمَرِ

مُتَّعَمَاتٌ فِي الدَّمِ * بِمِ مَّضْمَعَاتٍ مَالِيعِيرِ
 يَرْقُلْنَ فِي حُلِّ الْحَا * مِنْ وَاجْهَاتٍ وَالْجَارِ
 مَا إِنْ يَرَى الشَّمْسُ إِلَّا الْقُرْطَ مِنْ حَلِّ السُّورِ
 وَالْأَمِيرُ أَمِيرُ اللَّهِ * حَرْبًا مِنَ الدَّهْرِ الْعُثُورِ
 وَإِلَيْهِ أُنْتَمَا الْمَطَا * يَا مَالِ رُوحٍ وَبَالِ كُورِ
 صُغَرَ الْحُدُودِ كَأَنَّهَا * جُجَعْنَ أَجْمَعَةَ السُّورِ
 مُتَسَرِّلَاتٍ بِالطَّلَا * مِ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُجُورِ
 حَتَّى وَصَلَتْ بِهَا إِلَى * رُبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
 مَا زَالَ قَبْلَ عِطَامِهِ * فِي سِنِّ مُكْتَهِلٍ كَبِيرِ

استشده المأمونُ أحسن ما قال في الموت فأنشده .

أَنَسَاكَ حَتَّى كَأَنَّهَا * فَطَلَبْتُ فِي الدُّنْيَا الثَّبَاتَا
 أَوْفَقْتُ مَالِ الدُّنْيَا وَأَزْ * تَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا
 وَعَزَمْتَ مَكَ عَلَى الْحَيَا * وَطَوَّلَهَا عَزْمًا بَنَاتَا
 يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِي * حَسٍ قَدْ رَأَى كَمَا هَاتَا
 هَلْ مِهَا لَكَ عِبرَةٌ * أَمْ حَلَّتْ أَثْلُكَ أَنْفِلَاتَا
 وَمَنْ أَدَّى طَلَبَ التَّعَلُّ * تَ مِنْ مِثْلِهِ فَقَاتَا
 كُلُّ نَصَبٍ مَالِ * تَ أَوْ تَبَيْتَهُ يَبَاتَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أَطَاعَ اللَّهُ مَنْ مَلَأَ
 مَنْ لَمْ يُؤَاسِ السَّاسَ مِنْ فَصْلَهَا * عَرَّضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتِ الأولُ ، فأما الثاني فما صنعتَ فيه شيئاً ، الدنيا تُدِيرُ عَمَّنْ
 وأسى منها أوصى بها ، وإعما تُوجبُ السَّاحَةَ بها الأجرَ والعِصْنَ بها الوزرَ ، فقال : صدقتَ

يا أمير المؤمنين، أهل العِصْل أُولَى بالفِصْل وأهل النقص أُولَى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كَمْ عَاطِلٍ أَوْدَى بِهِ الْمَوْتُ * لَمْ يَأْخُذْ الْأَهْبَةَ لِلْمَوْتِ
مَنْ لَمْ تُزَلْ بَعْمَتِهِ قَبْلَهُ * زَالَ عَنِ النِّعَةِ بِالْمَوْتِ

فقال له : أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُصَحِّحُ كُلَّ سَهٍّ، فإِذَا قَدِمَ أَهْدَى إِلَى الْمَأمُونِ بُرْدًا وَمُطْرَقًا وَصَلَا سَوْدَاءَ وَمَسَاوِيكَ أَرَاكَ، فَيُعْثِقُ إِلَيْهِ بِعَشْرِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ، فَأَهْدِي مَرَّةً لَهُ كَمَا كَانَ يَهْدِي كُلَّ سَهٍّ إِذَا قَدِمَ، فَلَمْ يُكُنْ لَهُ وَلَا نَعَتْ إِلَيْهِ بِالْوُطِيفَةِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

حَبْرَوِي أُنْ مِنْ صَرَبِ السَّيِّئَةِ * حُذُنًا يَبِصَا وَصُغْرًا حَسَنَةً
أُحْدِثْتُ لَكُنِّي لَمْ أَرْهَأْ * مِثْلَ مَا كُنْتُ أَرَى كُلَّ سَنَةٍ

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال : أعملناه حتى ذكركنا .

أنشد المأمون بَيْتَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ بِحَاطَبِ سَلْبًا انْتَحَاسِرَ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو * أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعَاقِ الرِّجَالِ

فقال المأمون : إن الحِرْصَ يُفْسِدُ لِلدِّينِ وَالْمَرْوَةِ ، وَانْهَ مَا عَرَفْتَ مِنْ رَجُلٍ قَطُّ حِرْصًا وَلَا شَرًّا فَوَحَّدْتُ فِيهِ مُصْطَلَمًا ، فَلَمَّ ذَلِكَ سَلْبًا فَقَالَ : وَيْلٌ عَلَى الْجَرَّارِ الزَّيْدِيِّ جَمْعَ الْأَمْوَالِ وَكَذَبَهَا وَعَا الدُّورِ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ تَرَهَّدَ مُرَاءَاةً وَبِعَاقًا ، فَأُحْدِثْتُ بِي إِذَا تَصَدَّيْتُ لِلطَّلَبِ .

كان الرِّشِيدُ مِمَّا يَعْجِجُهُ عِاءُ الْمَلَايِكَةِ وَالرَّالَاتِ إِذَا رَكِبَهَا ، وَكَانَ يَتَأَدَّى بِعَسَادِ كَلَامِهِمْ وَلِحْنِهِمْ ، فَقَالَ : قُولُوا لِمَنْ مَعَا مِنَ الشُّعْرَاءِ : يَعْمَلُوا لِهَؤُلَاءِ شِعْرًا يَبْعَوْنَ فِيهِ ، فَقِيلَ : لَيْسَ أَحَدٌ أَقْدَرُ عَلَى هَذَا مِنْ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ وَهُوَ فِي الْحَبْسِ ، فَوُجِّهْ إِلَيْهِ الرِّشِيدُ : قُلْ شِعْرًا حَتَّى أَسْمَعَهُ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِطْلَاقِهِ ، فَنَافَخَهُ ذَلِكَ وَقَالَ : وَانْهَ لِأَقْوَلِ شِعْرًا يُحْزِنُهُ وَلَا يُسَرِّبُهُ ، فَعَمِلَ شِعْرًا وَدَفَعَهُ إِلَى مَنْ حَفِظَهُ مِنَ الْمَلَأَحِينَ ، فَلَمَّا رَكِبَ الْحَرَاةَ سَمِعَهُ وَهُوَ :

حَاتَكَ الطَّرْفُ الطُّمُوحُ * أَمَا الْقَلْبُ ابْتِخَافُوحُ
 لدواعي الخيرِ والشِّدَّةِ دُنُوٌّ وَنُزُوحُ
 هل لمطلوبٍ بدني * توبةً منه نَصُوحُ
 كيف إصلاحُ قلوبٍ * إنما من قُفُوحِ
 أحسن الله بها * إِنْ أَخْطَايَا لَا تَفُوحُ
 فإذا المستورُ مَيَّ * بين تَوْبَتِهِ قُصُوحُ
 كم رأينا من عزيزٍ * طُوِيَتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ
 صَاحَ مِنْ رَجِيلٍ * صَاحُ الدَّهْرِ الصُّدُوحُ
 موتُ من الناسِ والأَرْ * ضَ عَلَى قَوْمِ قُفُوحِ
 سيمير المرء يوما * جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ
 بين قِيَتَى كُلِّ شَيْءٍ * صَلَّمَ الْمَوْتَ يَلُوحُ
 كُلُّهَا فِي خَمَلَةٍ وَالْ * حَوْتُ يَغْدُو وَيُرُوحُ
 لَيْسَ الدِّبَا مِنَ الدِّدِ * يَا جَبُوقُ وَصَبُوحُ
 رُحْنٌ فِي الْوَتَنِ وَأَصْبَحَ * مِنْ عَلَيْهِنَ الْمُسُوحُ
 كُلُّ نَظَاجٍ مِنَ الدَّهْرِ * رَ لَهْ يَوْمًا نَفُكُوحُ
 نَحَّ عَلَى نَفْسِكَ يَا سِدَّ * كَبِيْرٌ إِنْ كَتَّ نَوْحُ
 تَمُوتُ وَإِنْ عُمُّ * رَتَّ مَا عُمَّرُ نَوْحُ

لما سمع ذلك الرشيد حمل يكي ويتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموا
 في وقت الموعظة ، وأشدتهم عسقا في وقت الغضب والغلظة ، فلما رأى الفضل بن الربيع
 كثرة نكاته أوما الى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنْ الرُّمَحِ الْهَيْلِ قُتُودِي * إِلَى ذِي زُخُوفٍ بَجَّةٍ وَجُنُودِ
 وَرَاجَ بَرَاغِي اللَّيْلِ فِي حِفْظِ أَمَّةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرْعُ عِزَّ رُقُودِ

دَالِيَةِ حَبْرِيْلُ يَقْدُمُ أَهْلَهَا ■ وِرَايَاتِ تَصْنِيْحِ حَوْلِهِ وَبُودُ
 تَحَايِ صِ الدُّنْيَا وَأَيُّقِنُ أَهْلَهَا ■ مُقَارَقَةُ لَيْسَتْ مَدَارِ خُلُودِ
 وَشَدَّ عَمْرَى الْإِسْلَامِ مِنْهُ بَهْتِيَّةٌ ثَلَاثَةُ أَمْلَاقِ وَلَاةِ عُهُودِ
 هُمُ خَيْرُ أَوْلَادِ لَمْ حَيْرُ وَالِدِ ■ لَهُ خَيْرُ آتَاءِ مَصَّتْ وَجُدُودِ
 بَوَالِصِطِيِّ هَارُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ ■ نَفِيرُ قِيَامِ حَوْلِهِ وَقُعُودِ
 تَقَلَّبَ الْخَاطِطُ الْمَهَابَةِ بَيْنَهُمْ ■ عِيُونَ ظَبَاءِ فِي قُلُوبِ أَسْوَدِ
 جُدُودِهِمْ شَمْسُ أَنْتِ فِي أَهْلَةٍ ■ تَبَدَّتْ لِرَأَى فِي عَصُومِ مُعُودِ
 فَوْصِلُهُ الرُّشِيدُ بِصِلَةٍ مَا وَصَلَ مِثْلَهَا شَاعِرًا قَطُّ .

١٢ - مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ^(١)

أحد الشعراء المقلقيين والنفاء المذممين

قال الشعر في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما ساله من قليل العطاء، ويُنفقه على ملأته مع إخوانه من حُلَماء الشعراء، ثم أقطع إلى يزيد بن مَرْزِدِ الشَّيْبَانِي قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدَّ من شعرائه، ومدحه ومدح البرامكة وحسُّ رأيهم فيه . ولما أصحَّ الحلُّ والمقد يد ذى الرِّياستين العُصلي بن سَهْل وزير المأمون في أوَّل خلافته قَرَّبه وأدَّاه . لأنه كان من حاصنه قبل وزارته، وولَّاه أعمالاً يُجرِّحان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله إلى أن أنفقها في اللذات ، وعاد إلى الفصل فقلَّده الصِّباع بأصْبَاحٍ فاكتسب منها ألف ألف أيضا . ولما قُتِل الفضل لزم منزله ونَسَكَ ولم يمدح أحدا إلى أن مات محرجا .

ومسلمٌ أوَّل من تكلف البديع في شعره وأستكثر منه في قوله ، وسَقَّه بشار إلى ذلك إلا أنه لم يلبع شأواً مسلماً فيه . وقد عدَّ العلماءُ هذا التصنع والتكلف إسعاداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراءُ مثل الحترى وأبى تمام وأبى المعتز وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولد الأنصار يلقب صريع العواقب ، شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية ، مشتهر ومولده الكوفة . وهو مما رجعوا أوَّل من قال الشعر المعروف بالبديع ، وهو لقب هذا الحسن البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم به أبو تمام الطائي ، فله حمل شعره كله ذمها واحداً فيه ، ومسلم كان متعباً متصرفاً في شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعراً حسن الخط . جيد القول في الشراب ، وكثير من الرواة يقرُّونه بأنَّ بواس في هذا المعنى ، وهو أوَّل من عقد هذه الطريفة واشترحها . وقال القاسم بن مَرْوَيْه : أوَّل من أسعد الشعر مسلم بن الوليد ، فله هذا المعنى الذي سماه الحسن البديع ثم جاء الطائي بعده فقص فيه . توفي محرجاً سنة ٢٠٨ هـ وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥ م . ونجد أحباراً في الأغانى (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد المهر يد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مرّج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فصنمه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظرفية ، فله حَزَالَة البدويين ، ورقة الحضريين .

لَقِيَ مُسْلِمٌ أَبَا نُوَّاسٍ فَقَالَ لَهُ : مَا أَعْرَفُ لَكَ بَيْنَا إِلَّا فِيهِ سَقَطٌ ، قَالَ لَهُ : فَا تَحْفَظْ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : قُلْ أَنْتَ مَا شِئْتَ حَتَّى أُرِيكَ سَقَطَكَ فِيهِ ، فَأَنْشَدَ .

دَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارَتَا حَا * وَأَمَلَهُ دَيْكُ الصَّبَاحِ صِبَا حَا

فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ : هَلَمْ أَمَلَهُ وَهُوَ الَّذِي أَدَكَرَهُ وَبِهِ آرَتَا ح ؟ فَقَالَ أَبُو نُوَّاسٍ . فَأَنْشَدَنِي شَيْئًا مِنْ شَعْرِكَ لَيْسَ فِيهِ سَلٌّ ، فَأَنْشَدَهُ مُسْلِمٌ .

عَاصَى الشَّاتِ فَرَّاحَ حَيْرُ مَعْنَدٍ * وَأَقَامَ يَسَّ عَزِيمَةٍ وَتَحْمَلَدُ

فَقَالَ لَهُ أَبُو نُوَّاسٍ : قَدْ جَعَلْتَهُ رَائِحًا مَقِيًّا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَبَيْتٍ وَاحِدٍ ، فَشَاغِبًا وَتَسَانًا سَاعَةً . وَكَلَّا الْبَيْتَيْنِ مَحْبِيجَ الْمَعَى .

أَجْتَمَعَ أَصْحَابُ الْمَأْمُونِ عِنْدَهُ يَوْمًا ، فَأَقَاصُوا فِي ذِكْرِ الشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : أَيْ أَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : حَيْثُ يَقُولُ مَاذَا ؟ قَالَ : حَيْثُ يَقُولُ وَقَدْ رَفَى رَحَلًا :

أَرَادُوا لِيُحْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عِدْوِهِ * فَطَيْبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ

وَحَيْثُ مَدَحَ رَحَلًا بِالشَّجَاعَةِ فَقَالَ :

يَمُودُ الْفَسَّ إِذَا صَنَّ الْجَوَادُ بِهَا * وَالْخُودُ مَالِغَسٍ أَفْصَى عَايَةِ الْجُودِ

وَهِيَ رَحَلَاتُ بَيْحِ الْوَحْهِ وَالْأَخْلَاقِ فَقَالَ :

قُحِّتْ مَآظِرُهُ عَيْنَ حَبْرَتِهِ * حُتَّتْ مَآظِرُهُ لِقُبْحِ الْخَبَرِ

وَتَقَارَلَ فَقَالَ :

هَوَى يَحْدُ وَحَيْبٌ يَلْبُ * أَنْتَ لَقِيَ بَيْنَهُمَا مَعْنَدٌ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : هَذَا أَشْعَرُ مِنْ خَضَمَةِ الْيَوْمِ فِي ذِكْرِهِ .

قال يزيد بن مَرْبَدٍ أرسل إلى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي ، فأتيته
لأننا سلاحى مستعدا لأمر إن أَرَادَهُ مِنِّي ، فلما رأى صحتك إلى ثم قال : يا يزيد ، خبرني
من الذى يقول فيك .

تراه في الأمن في دِرْعٍ مُصَاعِمَةٍ * لا يَأْسُ الدَّهْرَ أن يَدْعَى على عَجَلٍ
صَائِغِ الصَّائِغِ طَمُوحِ الْعَيْنِ هَمَّتْ * فَكَ السَّاءِ وَأَسْرُ الْعَاتِكِ الْخَطَلِ
فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال سَوَاءٌ لَكَ من سَيِّدٍ قَوْمٌ يُمَدِّحُ بِمَثَلِ هَذَا
الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد !
فاصرفت فلدعوت به ووصلته ووليته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذى يقول فيك :
لا يَبْقَى الطَّيْبُ حَذْبُهُ وَمُفْرِقُهُ * وَلَا يُنْسَحُ عَيْبُهُ مِنَ الْكُحْلِ
أَدا أَتَهَيَّ سَيْفُهُ كَانَتْ مَسَالِكُهُ * مَسَالِكُ الْمَوْتِ وَالْإِبْدَانِ وَالْقُلُوبِ
وإن خَلَّتْ بِمَحَلِّتِ الْمَسِّ مَكْرَهُ * حَيَّ الرَّحَاءُ وَمَاتِ الْخُوفُ مِنْ وَجَلِ
كَالْبَيْتِ إِنْ يَحْتَمِلُهُ فَاْلَمَوْتُ رَاحَتُهُ : لا يستريح إلى الأيام والدُّوَلُ
فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر
ولا تعرف قائله ! فخرج من عنده فجلا ، فلما صار إلى منزله دعا صاحبه فقال له : من
نالت من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ، قال : وكيف سمعته عني ، فلم تُقَلِّبْني بمكانه !
فقال : أخبرته أنك مُصَيِّقٌ ، وأنه ليس في يديك شيء يعطيه إياه ، وسأته الإمساك والمُقَامُ
أياما إلى أن تَنَسَّحَ ، فأكر ذلك وقال : أدخله ، فأدخله إليه ، فأنشده قوله فيه :

أَجْرَرْتُ حَلِيَّ خَلِيجَ فِي الصَّائِغِ عَزَلِ * وَتَمَرَّتْ هِمُّ الْعُدَالِ فِي صَدَلِ
هَاجَ الْكَأَمُ عَلَى الْعَيْنِ الطُّمُوحِ هَوَى * مُفَرَّقٌ بَيْنَ تَوَدِيعِ وَتُحْتَمَلِ
كَيْفَ السُّلُوْ قَلْبِي رَاحَ مُجْتَبَلَا * يَهْنِي صَاحِبَ قَلْبِي غَيْرَ مَحْتَلِ

(١) أحررت علامته تركته وشأه ، والخلج : الذي خلج عذاره في الصبا . (٢) الطموح :
المرحمة في الطر إلى الأحبة . ومفرق . مقسم .

عَاصِيَ الصَّرَاءِ عِدَاةَ الْبَيْنِ مُنْهِيْلٌ * من الدموع جرى في إثر منهيْل
لولا مُدَارَاةُ دَمَسِ الْعَيْنِ لَا تَكْشَعَتْ * متى سرائرُ لم تَظْهَرِ وَلَمْ تُحْلَلْ^(١)
أَمَا كَيْ الْبَيْنِ أَنْ أُرْتَمَى بِأَسْمِهِ * حتى رماني بلحظ الأعين النُّحْل
مَآخِئِي وَإِنْ كَانَتْ مَتَى صَدَقَتْ * صَانَةٌ حُلْسُ التَّسْلِيمِ بِالْمُقَلْ
مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ لَا نَظَرْتُ عَرِيكَتَهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مَتَى سَكْرَةُ الْفَزَلِ
حُرْمُ الْحَوَادِثِ عِنْدِي أَمَا احْتَلَسَتْ * مَتَى بَيَاتِ غِدَاءِ الْعَكْرَمِ وَالْكِلَالِ^(٢)
وَرُبُّ يَوْمٍ مِنَ اللَّذَاتِ مُحْتَصَرٌ * قَصْرُتُهُ لِمَاءِ الرَّاحِ وَالْمُحْلَلِ
وَابِلَةٌ جَلَسْتُ لِلْعَيْنِ مِنْ سِيَةٍ * هَتَكَتْ فِيهَا الصَّبَا عَنْ بَيْصَةِ الْحَمَلِ
قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا بِي الْيَوْمَ مِنْ كِبَرٍ * شَرِبَ الْمَدَامَ وَعَزَفَ الْقَبِيصَةَ الْعُطْلِ
إِذَا شَعَكَتُ إِلَيْهَا الْحَيَاةُ خَفَرَهَا * شَكَايَ فَاحَرَّ حَذَاها مِنْ انْجَمَلِ
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنَ الدَّهْرِ رَاقِدَةً * أَيَّامَهُ النَّصَا وَاللَّهُوَ وَالْحَذَلِ
وَطَبِيبُ الصَّرَعِ أَسْمَانِي مَوْذَنَهُ * كَأَنَّهُ عَمْدِي فِيهِ مُتَحَلِّ^(٣)
وَلِدَيْهِ لِمَطَاا الرُّكْبِ مُنْغَبِيهِ^(٤) * أَضْيَقُهَا يَوْجِبُ الْأَيْقِ الدُّلَلِ
فِيمَ الْمَقَامِ وَهَذَا الْجَمِّ مُقْتَرِصًا^(٥) * ذَنَا النَّجَاءِ وَحَانَ السَّيْرِ فَارْتَحِلِ
يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللَّيْثُ مُقْتَرِسٌ * مِيلَ الْحَاجِمِ وَالْأَعَايِ فَاعْتَدِلِ
حَذَارٍ مِنْ أَسِيدِ صِرَاعِهِ تَطْلِيلِ * لَا يُؤْلِغُ السِّيفُ إِلَّا مَهْمَةَ الْبَطْلِ
لَوْلَا يَزِيدُ لِأَمْحَى الْمَلِكِ مُطَرِّدًا^(٦) * أَوْ مَائِلَ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْقِي الطُّوَلِ
سَلَّ الْخَلِيفَةُ سَيْمًا مِنْ نَحْيِ مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مِنْ كَانَ دَا مَيْلِ
كَمْ صَائِلٍ فِي ذَرَا تَحْمِيدِ مَمْلَكَةٍ * لَوْلَا يَزِيدُ بَنَى شَيْئَانِ لَمْ يَصُلْ

(١) أي لم تخلص في . (٢) يريد الحمر والحواشي . (٣) مختصر، أي حصرته اللذات . والحلل .
جمع حلة وهي الصدفة . (٤) حفرها، أي ولد عليها الحفر وهو شدة الحياء . (٥) أي مختار .
(٦) منصية . متعة . والوجيف . صرب من السير . والقتل المصاعرات . (٧) يريد بالجم .
التر يا . ومترصا . متصا . (٨) مطردا، أي محذولا . وصرب السمك والطول مثلا .

باب الإمام الذي يفتّر عه اذا * ما أفتّرت الحرب عن أنيابها العُصْل
 من كان يَحْتَمِلُ قِرْناً عد موقفه * فإن قِرْنَ يزيد غير مُحْتَمِل
 سَدَ الثَّغُورِ يَزِيدُ عَدَ ما أَفْتَرَجْتَ * قائم السيف لا يانحلُّ والجبل
 كم قد أداق حِمَامَ الموت من بطل * حامى الحقيقة لا يُؤْفَى من الوَهْل
 أَعْرُ أَيْضُ يُعْنِي أَيْضُ لا * يرعى لمولاه يوم الرُّوعِ ما لَقَسَل
 يَفْتِي الوعى ويَهَابُ الموت في يده * يرى الموارِسَ والأبطال ما لَشَعَل
 يَفْتَرُ عَدَ أَفْتَرَارَ الحرب سَتِيماً * اذا تَصَيَّرَ وجه الفارسِ الطفل
 مُؤَوِّفٌ عَلَى مُهْجٍ والبُومُ دَوَّحٌ * كأنه أَحَلُّ يَسَى الى أمل
 ينال الرِّمَقَ ما يَتَيَّأُ الرِّحَالُ به * كالموت مستَحِيلًا يَأْتِي عَلَى مَهْل
 لَا يُقْفَحُ الحربَ إِلَّا رَيْثَ يَنْتَحِهَا * من هالك وأسير غير مُحْتَمِل
 إِذَا شَبِمَ بَارِقُهُ حَالَتِ حِلَاتُهُ * بين العطية والإمساك والعلل
 يُنْشِئُ المايَا المايَا ثم يَفْرِجُهَا * عن العوس مُبْلَلَاتٍ عَلَى الْمَهْل^(١)
 لَا يَرْحَلُ النَّاسُ إِلَّا نَحْوَ خَمْرِهِ * كالكهت يُضْحِي إِلَيْهِ مُتَقَى السُّلْ^(٢)
 يَقْرِي المية أرواحَ الكُجَاهِ كَمَا * يَقْرِي الضبُوفَ تُخَوِّمُ الكُومَ والبَزْلُ^(٣)
 يَكْسُو السيوفَ دماءَ الكاشِينَ به * ويعمل المأمَنَ تَجَانِبَ القَا الدُّبُل
 يَفْدُو تَفْدُو المايَا في أَيْتِهِ * شِوَارِعَا تُحْتَذَى النَّاسُ بِالْأَجَل
 إِذَا طَلَعَتْ فِتْنَةٌ عَنْ عِطَ طَاعَتِهَا * عَنَى لها الموتَ بين اليص والاسل
 قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَقَنَّهَا * فَهَنْ يَتَمَعُ في كُلِّ مُرْتَحَل
 تَرَاهُ فِي الْأَمْنِ في دِرْعٍ مُصَاعَفَةٍ * لَا يَأْمَسُ الدَّعْرُ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَمَل
 ضَائِقِ اللَّيْسَانِ طَمُوحَ الدَّيْنِ هَتَّةً * مَكَةَ الْعَاءِ وَأَسْرَ الْفَاتِكِ الْخَطِلِ^(٤)
 لَا يَبْقَى الطَّيْبُ خَذِيهَ وَمَقْرِقَهُ * وَلَا يَمْسَحُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُحْلِ

(١) الجبل : الققدان . (٢) يمس البيت الحرام . (٣) الكوم : الطعام الأسمه واحدا كوما .
 والزلل : جمع نازل وهو حاله قسه أعوام . (٤) جمع مان وهو الأسير . والخطل : ذو الخطل وهو الخطا .

اذا أنتفى سيقه كانت سالكه • مسالك الموت في الأبدان والقُلل
 وإن خلت بحديث المس فكره • حتى الرءاء ومات الخوف من وجل
 كالبيت إن هجته فالموت راحته • لا يستريح الى الأيام والدؤل
 إن الحوادث لما رُمِنَ هَضْبته ^(١) • أزمع من حار شيان بمُتَقَل
 فالدهم يبط أولاه أوأجره • ادلم يكن كان في أعصاره الأول
 اذا الشريك لم يفخر على أحد • تكلم الفخر عنه غير مُتَحَل
 لا تُكْذِبَنَّ راب الحلم معدنه • ورائته في بي شيان لم تزل
 سَلَوُ السبوف فاعشوا من يحاربهم • خطا بها غير ما تُكَلِّ ولا وُكَل
 الزائديون قوم في رماحهم • خوف الخيف وأمن الخائف الوجل
 كبيرهم لا تقوم الراسيات له • جُلُبا وطلهم في هدى مُكْتَل
 اسلم يزيد ما في الدين من أود • اذا سليت وما في الملك من خال
 أثنت سوي بنى الإسلام فاطلّت ^(٢) • يوم الخليج وقد قامت على زلزل
 لولا دفاطك مأس الروم اذ بككرت • من عزة الدين لم تأمن من التكل
 ويوسف البرم قد صبحت صكره • سكر يلفظ الأقدار دى زجل
 عافسته يوم عبر التهر مهلتته ^(٣) • وكان محتجرا في الحرب بالمهل
 والمارق أن طريف قد دلفت له ^(٤) • سكر لسايا مُسِيل حطل
 لما رآك مجدا في ميته • وإن دمعك لا يُسطاع بالحيل
 شام التال فابرت اللقاء له • مقدم الحظو ميا غير مُتَكَل
 ماتوا وأنت غليل في صدورهم • وكان سيمك يستشفى من الغل

- (١) هذا مثل، يريد لما دامت الحوادث من استماره • (٢) مئة الى شريك، وهو أحد أجداد يزيد
 (٣) هكذا في الأصل • وعدا أن الكلمة محرومة عن (اطلّت) أي ثنت • وهي واد اصل من وطد
 وكانت اوصلد ثم قلت ماء الاصل تاه وأدم المثل في المثل • (٤) عزة الهيم • حاة الاسلام
 (٥) أحد الثوارج على الرشيد • (٦) عاصه : فاحاه على عزة • (٧) هو الوليد بن طريف الناري

لو أن غير شريكك أطاف به • فاز الوليدُ بفتح الناصل الخِصْل^(١)
 وقلت بالدين يوم الرُس^(٢) فأعدت • سه قوائم قد أوقفت على مَبَل
 ما كان جمعهم لما لقيتهم • إلا كمثل مَأمٍ ربيع مُحِمِل
 ناوا ولولم يتووا من دنوسهم • لآب حيشك بالأسرى والتفيل
 كم آمين لك نافي الدار مُتَمَتِع • أحرته من حصون الملك والحوَل
 يابى لك الدَّم في يومك إن دُكر • عَضُّ حُسامٍ ومِرَضٍ غير مُتَدَل
 وما رقيق عزاه من بيوتهم • لا يَنكُلُون ولا يُوَتُون من نَكَل
 خلقت أجسادهم والطير ما كَفَّة • فيها وأفتتهم هاما مع القَل
 فانقرها لك وشهان من مثل • كذاك ما إيسى شهان من مثل
 كم مشهيد لك لا تُحصى ماثره • قَسَمَت فيه كرزق الإس والتحل
 لله من هاشم في أرضه حل • وأنت وأبك رُكُشا ذلك الجدل
 قد أعظموك ما تدعى لِهِنَة • إلا المُضِلَّة تَسْتُر^(٣) بالعَصَل
 يارب معكreme أصحت واحدا • أعيت صايد رأموها لم تُسل
 تَنَافَل الناس بالدينيا وزُجروها • وأب من بذك المعروف في شُغل
 أقسمت ما دُب عن جدواك طالبها • ولا دعت أعتام الحدة والهمزَل
 يابى لسائك منع الجود سائلة • ها يُتَحَلَج بين الجود والتحل
 صَنَعْتَ ظَنِي وصَدَقْتَ الظنونَ به • وحط حوكك عَقَدَ الرَّحْل عن جَمَل

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقصمها وأعذر ، فخرج الحاجب فقال
 لمسلم : قد أمرني أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : نعمون ألفا منها لك
 ونعمون ألفا لتفقتة ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
 بمائتي ألف درهم وقال : إفض الخمسين ألفا التي أخذها الشاعر وزده مظلها ، وسد

(١) الناصل : العيب . والحصل مثله . (٢) الرُس : وادي أذربجان . (٣) تَسْتُر بالفتحة :
 تاج العسر . والمصلحة : الدعاية .

مائة ألف لعنتك، فأنت صبيته وأعطى مسلماً حسين ألفاً أخرى . ولما أنشدته :
« لا يعبق الطيب » البيت . قال لخاريته : حرم طيباً مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشراء في السه علساً واحداً ، فيقصده فقصده
لذلك اليوم ويُسندونه ، هوَّجَه إليه مسلم راويته قصيدته التي أولها . « لا تدعُ بي الشوق »
قديم عليه يوم حلوسه للشراء ولحقه بَعَق حروجهم عنه ، فتقدم إلى الحاجب وحسّر
لثامه من وجهه ، ثم قال له : أستاذن لي على الأمير ، قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ،
قال : قد أنصرت وقتك وأنصرف للشراء وهو على القيام ، فقال له . ويحك ! إني قد وعدتُ
على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدبٌ يهمهم به ما يسمع ، فقال :
هاتِ حتى أسمع ، وإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه ، فأنشدته بعض القصيدة ، فسمع
شيئاً بقصره الوصف ، فدخل على داود فقال له : قديم على الأمير شاعر شعر ما قيل
فيك مثله ، فقال . أدجيل قائله ، فلما مثل بين يديه سلم وقال : قدمت على الأمير
— أعزّه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيري ممّ أمتدحه ، فقال . هات ، فلما
أفتح القصيدة وقال . « لا تدعُ بي الشوق » استوى حالها وأطرق حتى أتى الرجل على
آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير ، قال : في كم
قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبفأك الله ، قال : لو قلته في ثمانية أشهر ولكت محسناً ،
وقد اهتمتكم ، بلجوده شعرك وحول ذكرك ، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنقَرَتُك أرساة
أشهر في مثله ، وأمرت بالإحراء عليك ، فإن جئنا بمثل هذا الشعر وهبْتُ لك مائة ألف
درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير ، قال : قد أقلتك ، قال : الشعر
لمسلم بن الوليد وأما راويته والواعد عليك بشعره ؟ فقال : أنا أرب حاتم ، إنك لما أقتحت
شعره قلت : « لا تدعُ بي الشوق إني غير معدود » سمعت كلام مسلم يناديني ، فأجبت بدماء
وأستويت حالها ، ثم قال : يا علام ، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأجل الساعة إلى مسلم
مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

لَا تَدْعُ بِی السُّوقَ إِنِّي عِیر مَعْمُود . نَهَى النَّهْيَ عَنِ هَوَى الْهَيْفِ الرَّابِدِ^(١)
 لَوْ شِئْتُ لَا شِئْتُ رَاجِعْتُ الصَّبَا وَمَشْتُ * فِي الْعَبُوتِ وَفَانْتَفَى يَمْلُودُ^(٢)
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَصِيتُ آخِرَهَا * بِالزَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغِيدِ
 تَجَبَّعْتُهَا بُلْعَابُ الْمُنَزْنِ فَاغْتَرَلْتُ^(٣) * تَسْحِقُ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ
 كِلَا الْحَدِيدَيْنِ قَدْ أُطْعِمْتُ حَرَّتَهُ^(٤) . لَوَّالِ حَيٍّ إِلَى عُمْسٍ وَتَحْلِيدِ
 أَهْلًا بِوَامِدَةٍ لِلشَّيْبِ وَاحِدِهِ * وَإِنْ تَرَأَيْتُ بِشَحْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
 لَا أَجْمَعُ الْحِلْمَ وَالصَّبَا قَدْ سَكْتُ * عَسَى إِلَى الْمَاءِ عَنِ مَاءِ الْمَاقِيدِ
 لَمْ يَنْتَهِي مَدُّ عَنْهَا وَلَا كَرُّ^(٥) * لَكِنْ صَحُوتُ وَعُصْنِي عِیر تَحْضُودِ
 أَوْى بِي الْحِلْمُ وَأَقْنَادُ النَّهْيِ طَلَقَا * شَاوَى وَعِصْتُ الصَّبَا مِنْ عِیر مَحْبُودِ
 إِذَا تَجَمَّعَتْ فِي إِلَهَاتٍ عَنِ سِلْدِ * فَارَعْتُ أَرْضًا وَلَمْ أَحْمِلْ بِتَهْمِيدِ
 لَا تَطْلُبْنِي الْمُنَى عَنْ حَمْدٍ مَطْلَبِ * وَلَا أَحْوَلُ لَنِي غَيْرِ مَوْجُودِ^(٦)
 وَتَجَهَّلْتُ كَأَطْرَادِ السِّيفِ مُتَجَحِّزِ * عَنِ الْأَدْلَاءِ مَسْجُورِ الصِّيَاخِيدِ
 تَمَحَّى الرِّيَّاحُ بِهِ حَضْرَى مُوَلَّاةٍ * حَيْرَى تَلُودُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
 مُوقِفُ الْمُنَزْنِ لَا تَمْنَى السَّيْلُ بِهِ * إِلَّا التَّحُلُّلُ رِيثًا بَعْدَ تَجْهِيدِ
 قَرَّتْهُ الْوَحْدَ مِنْ حَطَّارِهِ سُرُجِ^(٧) * تَمَرَّى الْعَلَاةُ بِإِرْقَالٍ وَتَوْجِيدِ
 إِلَيْكَ مَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّاحِ بِهَا * مِنْ جُنْحٍ لَيْلٍ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
 وَبِلَدِي ذَاتَ عَوَلٍ لَا سَبِيلَ هَا * إِلَّا الظُّلُوبُ وَالْأَسْرَحُ السَّيْدِ
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكُبُهَا * مُدُنٌ تَوَافَى بِهَا تَذَرُّ إِلَى عِيدِ

(١) لَا تَدْعُ بِي السُّوقَ، أَيْ لَا تَدْعُ شَيْئًا . وَسَلَّاهُ دَعَلَ عَنْ مَعْنَى ذَلِكَ قَالَ : لَا تَدْعُ صَرِيعُ الْعَوَالِ طَلَسْتُ
 كَلَّاهُ ، وَقَالَ لَهْدَا الْقَبَّ كَارَهَا . وَمَعْمُودُ : مَاشِقُ . وَالْهَيْفُ : الْعَامِرَاتُ الْمَحْصُورُ . (٢) أَيِ دَهَتْ
 بِجَهْدِي . (٣) اغْتَرَلْتُ : احْتَطَلْتُ ، وَبَرِيدُ الْمَسْحِيِّ : مَا وَلَّى الْمَاءَ مِنَ الْحَرِّ أَسْرَعَ فِيهِ الْمَاءُ خَلَّةً ،
 وَمَا وَلَّى مِنْهَا الْقِتَاعُ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَجْلِهِ الْمَاءُ مَدَّ . (٤) الْحَرَّةُ : الْحِمِّ .
 (٥) الصَّدُّ : الْقَوْمُ . وَالْمَحْصُودُ : الْوَاهِسُ . (٦) أَيِ لَا تَدْعُونِي إِلَى هَسَا . (٧) الْخَطَارَةُ : النَّالَةُ
 تَحْرُكُ دَبَّهَا . وَالسَّرَجُ : الْحَصِيَّةُ .

كَلَفْتُ أَهْوَالَهَا عِيَا مَوْرَقَةً * اليك لولاك لم تُكْحَلْ بِتَسْهِيدِ
 حَتَّى أَتَيْتُكَ فِي الْأَمَالِ مُطْلِمًا * لِلْيَسْرِ عَيْدُكَ فِي سِرْبَالِ عَمُودِ
 مِنْ مَدَامَ أَلْقَيْتِ الْأَمَامَ لِي عَرَصًا * مُلِقَى رَيْهِ^(١) لِحَدِّ السِّيفِ مَصْفُودِ
 وَسَاوَرَتْنِي بِنَاتُ الدَّهْرِ فَأَمْتَحَتْ * رَنْحِي بِمُحَلَّةٍ شَهَاءَ جَارُودِ
 إِلَى سِنَى حَاتِمِ أَدَى رِكَائِنَا * حَوْصُ الدَّحَى وَسُرَى الْمَهْرِيَةِ الْقُودِ
 تَطْلُوِي الْهَارَ فَإِنَّ لَيْلَ مَحْطَلَا^(٢) * مَا تَبْتَحِطُ هَامَاتِ الْقِرَادِدِ
 يَنْشَلُ السَّمَاءُ بَيْدَاتِ الْمُقْبِلِ إِذَا * أَلْقَى الْمَحِيرُ يَدَايَ كُلَّ صَبِيحِ
 حَلَّتْ بِدَاوُدَ فَاثْنَاثُ وَأَغْلَلَهَا * حَذَوُ الْعَمَالِ عَلَى أَبْرِ^(٣) وَتَعْرِيدِ
 أَعْطَى فَاغْنَى الْمُسَى أَدَى عَيْطِنِهِ * وَارْهَقَ الْوَعْدُ نَحْمًا عِبرَ مَكُودِ
 وَاللَّهُ أَطْلَعَا مَارَ الْحَرْبِ إِذْ سُمِرَتْ * شَرَقًا بِمَوْقِدِهَا فِي السَّرْبِ دَاوِدِ
 لَمْ يَلَيْتْ أَمْرًا وَلَمْ يَفْطَهْرَ عَلَى حَدَثِ * إِلَّا أُعِينَ تَوْفِيقِ وَتَسْدِيدِ
 مُوَحَّدُ الرَّأْيِ تَنْشَقُّ الطُّونُ لَهُ * عَنِ كُلِّ مُلْتَمِسٍ مَهَا وَمَقُودِ
 تُنْمَى الْأُمُورُ لَهُ مِنْ مَحْوِ أَوْجُوهَا * وَإِنْ سَلَكَ سَبِيلًا عِبرَ مَوْرُودِ
 إِذَا أَمَاحَتْ يَمَى قَوْمِ عَقُوبَتِهِ * عَادَى لَهُ الْعَمُورُ قَوْمًا بِالْمُرَاصِيدِ
 كَاللَيْثِ بَلْ مِثْلُهُ اللَّيْثُ الْمَصُورُ إِذَا * عَنَى الْحَسِيدُ غِيَاءَ عِبرَ تَعْرِيدِ
 يَلْقَى الْمَيِّتَةَ فِي أَمْنَالِ عُذَّتْهَا * كَاللَّيْلِ يَقْبِيفُ جُلُودًا بِجِلْمُودِ
 إِنْ قَصَرَ الرِّيحُ لَمْ يَمِشْ الْحَطَا عِدْدًا * أَوْ عَرَّدَ السِّيفُ لَمْ يَهْمَمْ تَعْرِيدِ
 إِذَا رَنَى تَلْبَا دَايَ مَاهِلَهُ * وَإِنْ يُبَيِّنَ عَلَى تَحْطِ وَتَعْبِيدِ
 جَرَى فَأَدْرَكَ لَمْ يُعَفِّ يَمْهَلَتِهِ * وَأَسْتَوْدَعُ^(٤) الْبَهْرَ أَهْوَاسَ الْمَجَاوِيدِ

(١) الرهين : الأسير . والمصمود الموقوت بالحديد . (٢) المحلة : السة الحديثة . والجارود .

المحمدة من البسات . (٣) محطها . سالها . والقراديد . جمع قرد ، وهو المرتفع من الخبال

(٤) البهام : طائريشة القطا . والصيود . شقة الحر . (٥) التحريد من الخرد ، وهو داء يصيب الإبل

في قرونها . والأين . الثوب . (٦) البهر هو ما يسترى الإنسان عند المدح من المهن وتنازع الفس .

آل المهلب قومٌ لا يزال لهم • رِق الصريح^(١) وأسلابُ المداور
 مُظفرونٌ يُصيب الحرُّ أُنسهم • إذا العرارُ تملّقى بالمقايد^(٢)
 تَحْمِلُ مَناجِبَ لم يَقدِّم بِلادُهم • فسَى يُرَجَى لِقَاصُ أو لتوكيد
 قومٌ إذا هَذاة^(٣) شامتٌ سِوَقهم • وإنما عَقْلُ الصُّكُومِ المَقاحيد
 عسى يَدَاؤُك يا دَاوُدَ إِدْ عَلِقت • أَيْدَى الرِّدى بِوَاصِي الضُّمَرِ القُود
 داوِيتَ من دَائِها كُزَّمانٌ وَأَتَصَصت • لك المورث لأقوامٍ مَحاهيد
 مَلانِها فَرَعًا أَحلى مَعاقِلَها • من كل أبلَح^(٤) سَامى الطَّرَفِ صِنيد
 لما تَرَكْتَ عِلى أَدنى سِدادهم • ألقى إِلَيْكَ الأَقاصى بالمَقاليد
 لَمَسَهم يَيدُ اللَمِصِ مُتَّصِل • بها الرِّدى يَن تَلْيِيبٌ وتَشديد
 أَتَيْتَهم من وراءِ الأَمسِ مُطَّلِعًا • مانجِلُ تَرْدَى مَاطِلِ مَناجيد
 وطار في إثرِ من طار العِرارُ به • خوفٌ يَمارِصُه في كل أَحَدود
 فاتوا الرِّدى وَظَلَّاتِ المِوتُ تَنشُدُهم • وَأَنْتَ نَصَبُ المَيايا عِبرٌ مَشُود
 ولو تَلَّكَ دَيَّانٌ لما رَوَيْتَ • مِمَّه وَلَكى شَأها عَدَوَ مَزْمُود
 أَحَرَّه أَجَلٌ ما كاد يُحَرِّره • قَتَرَ بَطْوى على أَحشاءِ مَقُود^(٥)
 ورَأْسُ يَهْرانٍ قد رَكَّكَ قُتْله • لَدَنا كَفاه مَكَانُ اللَّيْلِ وَالْجَيد
 قد كان في مَعزِلٍ حَتَّى مَنَّتْ له • أُمُّ المِيتَةِ في أَبائِها الصِّيد
 أَحقُّ أُمِّ أَسَلَّتْهَ الفَاحِشَاتُ الى • حَدٌّ من السِّيفِ من يَعلُو به يُود
 أَلحَقَتْه صاحِبِهِ فاستقرَّ بِهِم • صرَبٌ يَهْرَقُ صَباتِ القَاحيد^(٦)

(١) رِق الصريح، أى استبعاد الحر • والمداور • الامداد واحد مدود • (٢) المقايد الجناح
 جمع مجراد • (٣) الهذاة • الفترة • (٤) الأبلح : الفكر • (٥) شأها : سيقها • ومرحود : مرحوب • (٦) المَعُود : الذى أصيب مُزاده • (٧) الصات :
 أوصال الرأس • والمقاحيد : جمع قحود وهى العلم الدائق فى مؤثر الرأس بين القفا وأعلى الرأس •

أَعْدَرْتُمْ قَرْمٍ حَرْبَ صَبَرْتُمْ لَهَا * يَوْمَ الْحُصَيْنِ شِعَارٌ عَيْرَ تَحْمُودِ
يَوْمَ اسْتَصَبَّتْ مَحْبَتَانِ طَوَاتَهُمَا ^(٢) * عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَثَرًا وَمَحْمُودِ
نَاهَضْتَهُمْ دَائِدَ الْإِسْلَامِ تَقَرَّعُهُمْ * عَهْ ثُلَاثَ وَمَنْقَى الْمَوَاحِدِ
تَحْمُودِ الْقَمْسِ إِذْ أَتَى الْقَمْسُ بِهَا * وَالْجُودُ بِالْقَمْسِ أَقْصَى عَايَةِ الْخُودِ
تَلَكَ الْأَرَارِي إِذْ صَلَّى الدَّلِيلُ بِهَا * لَمْ يُجْطِهَا الْقَصْدُ مِنْ أَسْيَافِ دَاوُدَ
كَانَ الْحُصَيْنِ رُبِّي أَبَ يَمُورُ بِهَا * حَتَّى أَحْدَتَ عَلَيْهِ بِالْأَحَادِيدِ
مَا رَأَى بِسُفِّ الْمَعْنَى وَتَمِطُهَا * حَتَّى اسْتَقْلَ بِهِ عَوْدٌ عَلَى عَوْدِ
وَصَفَتْهُ حَتَّى تُرْتَابُ الزَّمَاحُ بِهِ ^(٣) * وَتَحْسُدُ الطَّيْرُ مَهْ أَضْعُ الْيَدِ
سَعْدُ الصَّوَارِي قَرْمِيهِ نَاعُهَا * تَسْتَبِشِقُ الْحَوَّاهَا سَأَ تَضْعِيدِ
يَتَمَسُّ أَمَاءَهُ طَوْرًا وَمَوْقِعَهُ ^(٤) * يَلْقَى فِي عَاقِبِي مَهْ وَتَحْسِيدِ
فَكَانَ فَارِطٌ قَوْمٍ حَانَ مَكْرَهُهُمْ * نَارِصَ رَادَانِ شَتَّى فِي الْمَوَارِيدِ
بِوَمَ حَرَّاشَةِ إِذْ شَيْنَ مَوْجِعَهُ ^(٥) * يَتَحَوَّنُ مَكَّ يَلُومُهُ مَقْدُودِ
زَاحَفَتُهُ نَارَ سُفْيَانٍ مَكَانَ لَهُ * شَاءَ يَوْمَ يَهْلِكُ الْعَيْبُ مَشْهُودِ
بِحَا قَلِيلًا وَوَأَى زَحْرَ عَانِهِ * بِيَوْمِهِ طَبَرُ مَحْجُورٍ وَمَسْهُودِ
وَلَّى وَقَدْ حَرَمَتْ مَهْ الْقَا حَرَمًا * حَتَّى الْخَافَةِ مَيْتَا عَيْرَ مَدُودِ
زَالَتْ حُشَاشَتُهُ عَنْ صَدْرِ مُعْتَدِلِ * دَائِي الْكُحُولِ سَيِّدِ الصُّدْرِ أَمْلُودِ ^(٦)
إِذَا السَّيُوفُ أَصَاتَهُ تَقَطَّعَ فِي * سُرَادِي غَحْوَايَ الْخَلِيلِ مَمْدُودِ
مَقْدِي مِمَّا مَحَلَّتُهُ مِنْ حِلَاقِهِ * حُشَاشَةُ الزُّكُوسِ مِنْ حَرْدَاءِ قَيْدُودِ ^(٧)
حَلَّ اللَّوَاءِ وَحَالَ الْحِدْرَ عَائِدَهُ * مَعَادَ الْخُدْرِ تَرُبُّ الْعَكَاعِ الزُّرُودِ

(١) أَعْدَرْتُمْ حَاءَ مَا يَمْدُرُ عَلَيْهِ (٢) نَى أَعْرَتْ طَوَاتَهُمَا (٣) تَرْتَابُ . أَى تَسْتَفْكِرُ .

(٤) الْأَدْيَا . جَمْعُ . وَهُوَ الْغُلُّ أَجْرُ الْبَارِ . وَالْحَسْدُ الْهَمُّ (٥) مَوْجِعَةٌ . مَهْ يَمَّةٌ

(٦) أَمْلُودُ أَمْلَسَ (٧) الْحَرْدَاءُ . قَصِيرَةُ الشَّعْرِ وَالْمَدُودُ الْبَاقَةُ الطَّوِيلَةُ الطَّهْرُ .

وإن يكن شَبَّهاً حرّاً وقد تَمَدَّت * فائِثاً حَيْثُ لَا هَيْدَ وَلَا هَيْدَ^(١)
 كَلَّ ثَلَّتْ بِهِ فِي مَثَلِ خُطَّتِهِ * قَتَلَا وَاصْمَتَهُ فِي عَيْرٍ مَلْعُودِ
 عَافُوا رِضَاكَ صَاقَتِهِمْ مَقْوِيهِمْ^(٢) * عَنِ الْحَيَاةِ مَا يَاهِمُ لِمَوْعُودِ
 وَأَنْتَ بِالسُّدِّ إِدْهَاجُ الصَّرِيحِ هَا * وَأَسْتَمَدْتُ حَرْبَهَا كَيْدَ الْمَكَايِدِ
 وَأَسْتَعَزَّزْتُ الْقَوْمَ كَأَسَا مِنْ دِمَائِهِمْ * وَأَحْدَقَ الْمَوْتَ بِالْكَرَّارِ وَالْجَيْدِ
 رَدَدْتُ أَمْهَالَهَا الْقَصْوَى مَحْبِسَهُ^(٣) * وَشِئْتُ بِالْبَيْضِ عَوْرَاتِ الْمَرَاصِيدِ
 كُنْتُ الْمَهْلِكُ حَيْثُ شَكَتْ عَالَمُهُمْ * ثُمَّ انْفَرَدْتُ وَلَمْ تُسَقِّ بِتَسْوِيدِ
 لَمْ يَقْبَلِ السَّلْمُ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرِهِ * وَلَا تَأَلَّفْتُ إِلَّا سَدَّ تَبِيدِ
 حَقِّي أَجَابُوكَ مِنْ مَتَائِي حَيْرَ * رَاجٍ وَمُتَظَرٍّ حُفَا وَمُتَمُودِ
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّعَاءِ أَلْفَهُمْ * مَوْتُ تَحْزَنُ فِي شَقَى عِبَادِي
 وَوَيْدِيكَ نَقَايَا مِنْ سَرَاتِهِمْ * هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوْعِيدِ
 إِنْ تَعَفَّ عَنْهُمْ فَاهْلُ الْمَعْرَاتِ وَإِنْ * تُنْصَحُ الْعِقَابَ فَأَمْرٌ عَيْرٍ مَرْدُودِ
 إِسْمِعْ نَائِكَ قَدْ هِجَتْ مَلْعَمَةُ * وَقَدَّتْ مِنْهَا أَرْوَاحُ الصَّنَائِدِ
 أَقْدِيفِ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَكْنُكُ هَا * وَيَتَسَّعُ فِيهَا عَزْدُكَ مَجْدُودِ
 يَمْعَى سِزْمُكَ أَوْ يَحْزَرَى بِشَاوُكَ أَوْ * يَهْرَى بِمَجْدِكَ كَلَّ عَيْرٍ مَحْدُودِ
 لَا يَسْتَمْنُكَ حَمَى الْإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ * أَقَتَّ قُلْتَهُ مِنْ سَدِّ تَاوُودِ
 كَمِيتٍ فِي الْمُلْكِ حَقِّي لَمْ يَفِ أَحَدٌ * عَلَى صَبَاحٍ وَلَمْ يَحْزَنْ لِمَقْصُودِ
 أَعْطَيْتَهُمْ مَكَّ نُصْحًا لَا كِفَاءَ لَهُ * وَأَيَّدُوكَ بَرْكَانَ عَيْرٍ مَهْدُودِ
 لَمْ يَبِيعْ الدَّهْرُ يَوْمًا سَدَّ لَيْلَتِهِ * إِلَّا أَبْعَثْتَ لَهُ مَالِبَاسَ وَالْجُودِ
 أَجْرَى لَكَ اللَّهُ أَيَّامَ الْحَيَاءِ عَلَى * فَصَلِّ حَيْدَ وَجَدْتَ غَيْرَ مَعْكُودِ

(١) كَلَّانَ يَرْحَبُهَا الْإِثْلُ . (٢) مَقْوِيهِمْ، أَيْ هَائِهِمْ . (٣) الْأَهْمَالُ . جَمْعُ هَلٍّ، وَهُوَ

لا يفقد الدين خيلا أنب قائدها ، يُتهدى كل تمر غير معهود
 تحلات إذا آت عاتمها * ومقدمات على نصر وتأيد
 هناك أنك ممدى كل متمس * حودا وأبك مأوى كل مطرود
 تستأنف الحمدى دهر أوائله * موسومه بفعال مك محمود
 إذا عزمت على أمر بطشت به - وإب ألت قتيلا غير تصربد
 عودت بعك عادات خلقت لها * صدق الحديث وإنجاز المواعيد

دخل الوليد على الفصل بن سهل ليشره شعراء فقال له : أيها الكهل ، إى أجلك
 عن الشعر فصل حاحتك ، قال . بل تستم اليد عدى نأ سمع ، فأشده :
 دموعها من جدار الدس تسك * وقلها معرم من حرها يح
 حذ الرحيل به عنها هارقهها ليه اللهو واللذات والطرب
 يهوى المسير إلى مزو ويحربه فراقها فهو ذو هوى يرتف
 فقال له الفصل . إى لأحلك عن الشعر ، قال : فأعنى بما أحببت من عملك ، فولاه
 البريد بحر حان ^(١) .

هما مسلم قريشا ونفر بالأنصار شعر بمثل لك ناحيه من نواحي العصبية بين القائل
 وهو يعتبر، الى حد ما ، من الشعر السياسي ، فقال .

قل لمن تاه إد با عر جهلا ليس مائيه يعحر الأحرار
 ضاهوا وأقصروا فلقدا * رت عن القصد مكم الأنصار
 أبكم حاط داجوار عز * قبل أب تحتويه ما الدار
 أوحا أن يموت قوما يوتر * لم تزل تنطيم الأوتار
 لم يكن ذاك فيكم فدعوا الفتح * بر بما لا يسوع فيه أفتار
 ونزارا ففاحروا تفصلوهم * ودعوا من له عيى برار

(١) طدة عطية كانت بالقرب من بحر قنوق الى الجنوب الشرق منه

فما عزَّ مَكُّمُ الذُّلَّ والِدُه * سُرَّ عَلَيْكُمْ رَيْبُهُ كَثَرَار
 حَازِرُوا دَوْلَةَ الرِّمَانِ عَلَيْكُمْ * إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهِ أَطْوَار
 فَتَرَدُّوا وَمِنْ لِحَالَةِ الْأَو * لِي وَلِلْأَوَّحِدِ الْأَذَلِّ الصُّنَّار
 فَأَخْرَجْنَا لَهَا سَطْرًا لَهَا الصَّحْد * رَقْرِيشٍ وَغَرَّهَا مُسْتَعَار
 دَكْرَتْ عَزَّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا * قُلَّ أَنْ تَسْتَحِيرَنَا مُسْتَعَار
 إِنَّمَا كَانَتْ عَزَّهَا فِي حَال * تَرْقِيهَا كَمَا تَرْقَى الْيَوَار
 أَمَّا الْغَاخِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْم * نَزَلَقُومُ سَوَاهِمُ وَالْعَار
 أَحْمَرُوا مِنَ الْأَعْرَ أَلْم * صَوَّرَ حَتَّى أَعْتَلَّ أَمُّ الْأَصَار
 لَهَا الْعِزُّ قَلَّ عَرَّ قَرِيشٍ * وَقَرِيشٌ تَلَّكَ الدَّهْورَ تَحَار

فأمرى له ابن قتيبة فقال :

أَلَا أُنْثِلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُسْلِمٌ * وَأُفْلَقَ بِهِ الْأَحْشَاءُ مِنْ كُلِّ مُجْرِمٍ
 وَلَا تَرَحُّنَ عَنْ قَتْلِهِ مَسْتَتَابَةٌ * فَهُوَ عَنِ شِمِّ الْبَيْتِ مُتَّحَرِّمٍ
 وَلَا مِنْ مُسَاوَاةٍ لَهُ وَلِقَوْمِهِ * قَرِيشًا مَأْصِدًا لِمَعَادٍ وَجُرْهُمِ
 وَيَحَرُّ الْأَنْصَارُ حَمْلًا عَلَى الدِّي * بَصْرَةَ فَاوَرَا بِحِطِّ وَمَقَمِ
 وَتَمَسَّوْا بِهِ الْأَنْصَارَ لَا عَرَّ قَائِلٍ * أَرَادَ قَرِيشًا مَالِقَامَ الْمُدَنِمِ
 وَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَزَى مِنْ أَتَى * إِلَى نَسَبِ زَاكِ وَبَعْدَ مَقَدِّمِ
 وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ قَلَّ احْتِصَامُهَا * بِبَصْرِ قَرِيشٍ فِي الْمَحَلِّ الْمُنْتَظَمِ
 وَلَا مَالًا يُعْلَوْنَ أَقْدَارَ قَوْمِهِمْ * صُدَاءِ وَخَوَلَايَ وَلَحْمِ وَسِلْمِ
 وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ عَادُوا وَبَصْرِهِمْ * قَرِيشًا وَمَنْ يَسْتَعِصِمُ اللَّهَ يَعْصِمِ
 فَعَزَّوْا وَقَدْ كَانُوا وَفَطْيُونُ فَيْهِمْ * مِنَ الذُّلِّ فِي مَابِ مِنَ الْعِزِّ مَبْهِمِ
 يَسُومُهُمُ الْفَيْطُونُ مَا لَا يُسَامُهُ : كَرِيمٍ وَمَنْ لَا يُشْكِرُ الطُّلْمَ يُظْلَمِ
 وَإِنْ قَرِيشًا مَالًا ثَرَّ فَضْلَتْ * عَلَى الْخَلْقِ طَرَا مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْمِ

ما مال هذا العنق من صلاته * يئذ اليهم كف أخذم أغتم
 نسائي قريشا مسلم وفهمهم * مولى يمانى ويبيت مهتم
 اذا قام فيه غيرهم لم يحك لهم * مقام به من لؤم منى ومدغم
 جمائيس^(١) أشباه القروذ ابوانهم * ياعوب ما أتبعوا جميعا بدرهم
 وما مسلم من هؤلاء ولا ألى * واكنه من نسل عليج ملككم
 تولى زمانا غيرهم ثم ادعى * اليهم فلم يكرم ولما يكرم
 وان يك منهم فالتصير ولهم * مواليه لا من مدعى المترم
 وإن تدعه الأنصار مولى أئمتهم * هاربة نبتكركه الحلد الندم
 عقابا لهم فى إكهم وأذعائهم * لأقلب مقوش الدراع موتهم
 فلا تدعوه وأتبعوا منه تساموا * يقيكوه من مقال وماتم
 وإلا مضوا الطرف وأتطروا الردى * اذا احتلفت فيكم صوارد أسهمى
 ولم تحيدوا عنها بحثا يحكم * اذا أطلت من كل فتح ومعلم
 وأتم سواداب من أتم له * ولسم نساء السام المقدم
 ولا يسى الرأس الربيع عله * يسموكم مولى مسام ويتسمى
 كيف رصنم أن بسامى بئكم * ستمك الرث القصير المهدم
 ساحيل من سامى التى تطاولا * عليه وأكنوى منتهه بمسمى
 أبعدل بت بئر بى بكمة * توتها قريس فى المكاب المحزم
 قريس بخار الله والله خصمهم * بذلك فاقسم أياها الطيح وأزعم
 ومن تدعى منه الولاء مؤخر * اذا قيل للحارى الى المجد أقدم
 وكان مسلم قال قصيدته فى قريس وكنمها، فوقعت إلى اس قنر وأحابه عنها، فاستعل
 عليه وعتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عد مسلم فى هذا جواب أكثر من الاستقاء منها

ونُسبها الى ابن قبر والاذماء عليه أنه ألصقها به وسبها اليه ليعرصه للسلطان وخافه، فقال
ينفى من هذه القصيدة :

دعوتَ امير المؤمنين ولم تكن * هالك ولكن من يحفّ يحجم
وانك اذ دعوا الخليفة ناصرا * لكألترق في السماء بلم
كذلك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * وإن توقفه ثم في التوقم
هوت قريشا حامدا وتحتنى * رؤيدك يظهر ما تقول فيعلم
إذا كان مثل في قبيل فإنه * على ابن أوى قصرة غير منهم
سيكشفك التعديل عما قدوتى * به فأنثر عارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يبادر ودعا * ولا يُسمّال عهدا بالترحم
مضى سلفهم وصل يقبهم * لا سلف في الأول المتقدم
حروا حريتنا سابقين بسبتهم * كما أتيت كف نواشر معصم
وإن الذى يسمى ليقطع بينا * كأشمس البرسوع في محر أرقم
أضلك قرع الأبدات طريقها * فأصبحت من عيانتها في تهم
وحاتك عد الجرى لما أتيتها * تميم حاولت العلاء بالتقحم
فأصبحت ترمينى سهمى وثقى * بدى يمدى أصليت نارك فاضرم

ثم هجاه ابن قبر بقصيده أولها :

قل لعبد النصير سُلِّم الوعد * لا الذى اللئيم منزع النصاب
إخس يا كلب اذ نعت فى * لست من يحجب نبح الكلاب
أأرضى ومصبى مصب الع * تر وبقى في ذروة الأحساب
أن أحط الرمع من تمك بتي * بمهاجاة أو شيب الاوشاب
من إذا يميل من أبوه بدامد * به حياه يحميه رجع الجواب

وإذا قيل حين يُقِيل من أد * ست ومن تفتريه و الأنساب
قلت هايجى آبر قبر قَسمَ بَد * ست مذكرى نقرأ لدى اللّساب
وهى قصيدة طويلة فلم يحجها عنها مسلم شئ، حال فيه أن قبر أيضا :

لستُ أنفيك إن سوى نَكاكا * عن أيبك الذى له مُتَكاكا
ولمادا أنفيك يابن الوليد * من أب إن ذكرته أنراكا
ولو أنى طلبتُ الأم منه * لم أحده إن لم تكن أنت ذاكا
لو سواه أوك كان جَعَلنا * إذا السأس طأوعوا أبأكا
حالك دهرأ ميرجندق لبُريد * ونَحسوك الأشعار أنت كداكا

ثم هجاء بشمر أقَدَع فيه ، فشى اليه قوم من مشايخ الأنصار واستعاثوا بمشيحته من قراء
نميم ودرى العصل والعلم ، فمشوا معهم اليه ، فقالوا : ألا تستحى من أن تهجو من لا يحبك !
أن بدأت الرجل فأحاك ، ثم عدت فكف ، وتجاوزت ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التى
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها ويدت عنها و يصونها ليرحال أحلت ذلك منهم ،
فما زالوا به يعطوبه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقصة لمسلم فاقطعت .

ولمسلم من الوليد :

وإنى وإسماعيل يوم ودّأعه * لكالعمد يوم الرّوع فارقه النّصل
أما والحالات المُتَوّات بيما * وسائل أقتها المودة والوصل
لما خت عهدا من إحاء ولا نأى * بدكرك نأى عن صميرى ولا شغل
وإنى و مالى وأهلى كأننى * لنأيك لا مالٌ لدى ولا أهل
يُدْكَرنيك الدين والفصل والنجبا * وقيل الحسا وألهم وألهم والجهل
فالغاك عن مدمومها متبرّها * وألقاك فى مجودها ولك الفصل
وأحمسد من أحلافك البعل إله * يبرصك لا بالمال حاشا لك البعل
أمتيجهما مَرّوا بأهمال يَمّة * دَعِ الثقل وأحمل حاجة ما لها ثقل

شَاءَ كَعْرِفَ الطَّيِّبُ يُهْدَى لِأَهْلِهِ * وليس له إِلَّا بَنَى حَالِدَ أَهْلٍ
 إِنْ أَغْشَى قَوْمًا مَعْدَمٌ أَوْ أَزُورَهُمْ * فَكَالْوَحْشِ يَسْتَدْنِيهِ لِلْقَصَصِ الْمُحَلِّ
 وَلَهُ يَرْفَى يَزِيدُ بْنُ مَرْزُودٍ :

أَحَقُّ إِنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ * تَأَمَّلْ أَيُّهَا السَّاعِي الْمَشِيدُ
 أَتَدْرِي مِنْ مَيِّتٍ فَكَيْفَ فَاهَتْ * بِهِ شَفَاتِكَ كَانَ بِهِ الْقَصِيدُ
 أَحَابِي الْمَحِيدَ وَالْإِسْلَامَ أَوْدَى * مَا لِلْأَرْضِ وَبِكَ لَا تَمِيدُ
 تَأَمَّلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ * دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
 وَهَلْ شِئْتَ سَيُوفُ بَنَى زَارَ * وَهَلْ وَصِمْتَ عَنْ الْحِيلِ اللَّبُودُ
 وَهَلْ تَسْقَى الْبِلَادَ عِشَارُ مُزَيْنَ * يَدْرِئُهَا وَهَلْ يَحْصِرُ حُودُ
 أَمَا هُتِلَتْ لِمَصْرَعِهِ زَارَ * بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجْدُ الْمَشِيدُ
 وَحَلَّ صَرِيحُهُ إِذْ حَلَّ بِهِ * طَرِيفُ الْمَحْدِ وَالْحَسَبِ الثَّلِيدُ
 أَمَا وَاقِعُهُ مَا تَعَنَّكَ عَيْنِي * عَلَيْكَ بِدَمْعِهَا أَبَدًا نَجْمُودُ
 إِنْ تَجَمَّدَ دَمُوعٌ لَيْثِمٌ قَوْمُ * طَلَسَ لِدَمْعِ دَى حَسْبِ جَمُودُ
 أَعْدَى يَزِيدُ تَحْتَرِبُ الْبُؤَاكِي * دَمُوعًا أَوْ نُصَانِ لَهَا حُدُودُ
 لِنِكَكَ قَسَهُ الْإِسْلَامَ لَهَا * وَهَتْ أَطْنَاهَا وَوَهَى الْعَمُودُ
 وَيَكُوكَ شَاعِرٌ لَمْ يُنْقِ دَهْرُهُ * لَهُ تَسْبَا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
 مَنْ يَدْعُو الْإِمَامَ لِكُلِّ حَطَبٍ * يَبُوبُ وَكُلِّ مُعْضِلَةِ تَنُودُ
 وَمَنْ يَتَمَحَيَّ الْمَيْسَ إِذَا قَامَا * بِمِجْلَةٍ هَمَّ الْطُلُ الثَّجِيدُ
 إِنْ تَهْلِكُ يَزِيدُ وَكُلَّ حَى * فَرِيْسٌ لِلْيَةِ أَوْ طَرِيدُ
 أَلَمْ تَجِبْ لَهُ أَبَ الْمَايَا * فَكُنْ بِهِ وَهَنْ لَهْ حُنُودُ
 لَقَدْ عَزَى رُبْعَةً أَنْ يَوْمَا * عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف^(١)

قال إبراهيم بن العباس يصعبه : كان واقف على أدا تكلم لم يحث سماعه أن يسكت ، وكان فصيحاً حليلاً طريفاً اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب حُرَّاسان ومنيثوه ببغداد ، ولم تزل المباءة تقفمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد رى له الشيء البارع حذاً حتى تُلحقه بالمحسين .

وقال الحافظ : لولا أن العباس بن الأحنف أصدق الناس وأشعرهم ، وأوسعهم كلاماً وحاطراً ، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يحاوره ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما علم شاعراً لرمقاً واحداً لروحه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرمازي للعباس بن الأحنف

لا حَرَى الله دمع عبي حيراً * وحَرَى الله كل حير لساى

ثم دمي هليس مكتم شيئاً * ورأيت الناس ذا كتمان

كنت مثل الكتاب أحقاء طي * فاستدأوا عليه بالمؤان

ثم قال : هذا واقف طراز يطل الشعراء مثله فلا يقدر على .

(١) كان العباس شاعراً عربياً مطبوعاً من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولدياسة شعره ووق ، ولما يسه عدبة ولطف ، ولم يكن يحاور العرب إلى مدح ولا هجو ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على طرائفه وأطرب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الرواة لشعره يفتخرون به ، قال : وكان العباس من الطراف ولم يكن من العلماء ، وكان عربياً ولم يكن فاسقاً ، وكان طاهر النية ملوك المذهب شديد النطوف . ودلت في شعره ، وكان قصده العرب وشمله السب ، وكان - كما مقرر - لا عربياً عربياً واسع الكلام كثير التصرف في العرب وحده ، ولم يكن هجاء ولا مدحاً . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مذكروم بالآسيا سنة ١٢٩٨ هـ . وبعد أخباره وأشعاره في الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن حليكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والعقراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهذيل المَلَّافُ يُنْغِصُه ويلعبه لقوله :

إذا أردتُ سُلُوكًا كانَ ماصِرَكم * قلبي وما أنا من قلبي بمْتَصِر
ما كَثُرُوا أو اقلُّوا من إساءتكم * فكلُّ ذلك محوَّلٌ على القَدْرِ

فكان أبو الهذيل يلعبه ويقول : يَتَقَدَّرُ الكُفْرَ والفُجُورَ في شعره، فقال العباس — وقال
محمد بن يحيى . وأطى أنه يحو به أما الهذيل وما سمعتُ للعباس هجاء غيره — :
يأمنُ بِكُذِّبِ أخَارَ الرسول لقد * أخطأتَ في كلِّ ما تأتي وما تذرُّ
كذبتَ ما قَدَّرَ الحارِى عليك قد * أنالك مني بما لا تَشْتَهِي القَدْرُ

قيل للأصمعي : ما أحسنُ ما تحمطُ للحدّين * قال : قولُ العباس بن الأحنف :
لو كنتَ عاتيةً لسُكْنِ رَوْعِي . أَمَلِي رِصَالِكَ وَزُرْتُ عَيْرَ مَرَاقِبِ
لكن مَلَيْتَ فلم تكن لي حِيلَةً * صدَّ المَلُولِ حِلافَ صدِّ العاتِبِ
ومما أُنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت طَلُومٌ سَيِّئَةُ الطَّلِمِ * مالى رأيتُكَ ما حلَّ الجِسيمِ
يا من رَمَى قلبي فأَقْصَدَه * أنتَ العَلِيمُ بمَوْضِعِ السَّهْمِ

ولشعره الغزلي وقع في النفس، فانهم كانوا يفتنون كثيرا منه كقوله :

لو كنتَ عاتيةً لسُكْنِ رَوْعِي * أَمَلِي رِصَالِكَ وَزُرْتُ غيرَ مَرَاقِبِ
لكن ملئت فلم تكن لي حيلة * صدَّ المَلُولِ حِلافَ صدِّ العاتِبِ
وأنشده الأصمعي :

أناذونَ لَصْبٌ في زيارتكم * فعندكم شَهَوَاتُ السَّمْعِ والبَصَرِ
لأُضْمِرَ السَّوءَ إن طال الجلوسُ به * عَفَّ الضَمِيرُ ولكن فاسقِ النَظَرِ

فقال : ما زال هذا الفتى يُدْخِلُ يَدَه في زيارته فلا يُخْرِجُ شَيْئًا حتَّى أدخلوا فأخرج هذا،
ومن أدمن طلبَ شَيْءٍ ظَفَرِ بِيَعْضِهِ .

وقال سَعِيدُ بْنُ جُعَيْدٍ : مَا أَعْرَفَ أَحْسَنَ مِنْ شَعْرِ الْعَاسِ وَ إِحْمَاءِ أَمْرِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

أُرِيدُكَ بِالسَّلَامِ فَأَتَقَبِّمُ * فَأَعْمِدُ بِالسَّلَامِ إِلَى سَوَاكِ
وَأَكْثِرُ فِيهِمْ صَحْكَى لِيَحْفَى * فَيَسَى صَاحَكَ وَالْقَلْبُ نَاكِ

وَمَا تَمَثَّلَ بِهِ الْوَائِقُ فِي شَرْكَانٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْصِ حَوَارِيهِ :

عَدَلٌ مِنْ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَصْحَكَا * فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَلٌ كُلُّ مَا مَصَا
الْيَوْمَ أَبْكِي عَلَى قَلْبِي وَأَتَذَبُّهُ * قَلْبُ الْحُ عَلَيْهِ الْحُبُّ فَاصْبَدَا

وَمَا تَمَثَّلَ بِهِ أَيْضًا فِي مِثْلِ ذَلِكَ :

أَمَّا تَحْسِنِي أَرَى الْعَاشِقِينَ * بَلَى ثُمَّ لَسْتُ أَرَى لِي بَطِيرًا
لَعَلَّ الَّذِي يَبْدِيهِ الْأُمُورُ * سَيَجْعَلُ فِي الْكُرْهِ حَبِيرًا كَثِيرًا

وقال الرُّبَيْرُ : إِنْ الْأَحْفَ أَشْعَرُ النَّاسِ فِي قَوْلِهِ :

تَعْتَلُّ بِالشَّعْلِ عَا مَا تَكَلِّمُنَا * الشَّغْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشَّغْلُ لِلدِّبِ

ويقول : لَا أَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الدِّبِ حَبِيرًا وَسَرَّهَا إِلَّا وَهُوَ يَصْلُحُ أَنْ يَمَثَلَ فِيهِ هَذَا
النَّصْفُ الْآخِرُ .

وقال إِسْحَاقُ : لَعْدُ ظُرُوفِ ابْنِ الْأَحْفِ فِي قَوْلِهِ — يَصِفُ طَوْلَ عَهْدِهِ بِالْيَوْمِ —

قِيَمًا حَبْرًا أَيْهَا الرَّحْلَانِ * عَنِ السَّوْمِ إِنْ الْمَحْرَعَةَ سَهَانِي
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ * صِفَا السَّوْمَ لِي إِنْ كُنْتُ تَصْعَانِي
عَلَى قَلَّةِ إِعْجَابِهِ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْعَارِ .

قال أحمد بن إبراهيم : رَأَيْتُ سَلَمَةَ بْنِ عَاصِمٍ وَمَعَهُ شَعْرُ الْعَاسِ بْنِ الْأَحْفِ ، وَقُلْتُ

مِثْلَكَ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِحِمْلِ هَذَا ! فَقَالَ : أَلَا أَحْمِلُ شَعْرَ مَنْ يَقُولُ :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْبَبْتُ طَلْقَ نَكَمٍ * وَالْحَزْمُ سُوءُ الْبَطْلِ وَالْيَاسِ
يُقَلِّفُنِي الشَّوْقُ فَأَتَيْسَكُمُ * وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أتاني أعرابي مصبح طريف، جعلت أكتب عنه أشياء حسناً،
ثم قال: أنشدني لأصحابكم الحصريين، فأسدته العباس بن الأحف:
ذكرتُك بالفتح لما نمتُ * وبالراح لما قالت أَوْحَة الشَّرب
تذكرتُك بالفتح منك سِوالها * وبالراح طعماً من مَقِيلِك العذب
فقال: هذا عدك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حراً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن العصل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحف:
سحان ربّ العلا ما كان أغفلني * عما رميتُ به الأيامُ والزمنُ
من لم يَدُقْ فرقة الأحباب ثم يرى * آثارهم بعدهم لم يَدِرْ ما الحزنُ
قال حسين بن الصمّالك: لواء العباس يقول ماقاله في بيتين في أبيات لغيره، وهو قوله:
لعمرك ما يستريح المحب حتى يسوِّح بأسراره
فقد يكتم المرء أسرارَه * فتظهرُ بعض أشعاره

ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدمه فيه أحد فهو:
الحب أملكُ للذَّوادِ قَهْرَه * من أن يرى للسَّير فيه صيبُ
وإذا بدا سرُّ اللبِّ فإنه * لم يَسُدْ إلا والفق مغلوبُ
وقال أبو العتاهية: ما حدثت أحداً إلا العباس بن الأحف في قوله:
إذا امتنع القريبُ فلم تَسَلْه * على قرب فذاك هو البعيدُ
وقال الكندي: العباس بن الأحف مبيع طريف حكيم جزل في شعره، وكان قليلاً
ما يرصني الشعر، فكان يُشْد له كثيراً:

ألا تَمَحُّوْنَ كما أعجِبُ * حبيبٌ بُسِيءٌ ولا بُعِثُ
وأبني رصاء على نُحْطه * فإني على ويستصيبُ
فيا ليت حظي إذا ما أسأ * ت أنك ترضى ولا تَقْضُبُ

وكان إبراهيم الموصلي مشموفا بشعر العباس فيمنى في كثير من شعره، فما غنى فيه :
 وقد مُلِئَتْ ماءَ الشباب كأنها * قصيبٌ من الزَّيْجَانِ رِيَانُ أَخْصَرُ
 مُمْ كَسَمُونِي سِيرَعَمَ حِينَ أَزْمَعُوا * وقالوا اتَّعَدُوا لِلرَّوَّاحِ وَتَكْرُوا
 ومنه :

تَمَنَّى رَجُلًا مَا أَحْوَا وَإِنَّمَا * نَمِيتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ وَتَسْمَعَا
 أَرَى كُلَّ مَعْشُوقٍ يَرَى وَغَيْرَهَا * قَدْ اسْتَعْدَا طَوْلَ الْهَوَى وَغَمَّهَا
 ومنه :

يَكْتُ عَنِّي لِأَسْوَاعِ . من الحزن وأوجاع
 وَإِي كُلِّ يَوْمٍ عَسَدَكُم يَحْفَلُ بِي السَّاعِي
 أَعِيشِ الدَّهْرَ إِنْ عَشْتُ : قَلْبُ مِنْكَ مُرْتَاغِ
 وَإِنْ حُلَّ بِي الْبَعْدُ * سَيَتَعَانِي لَكَ السَّاعِي
 وقال الواثق بللسائه . أريد أن أصع لحًا في شعر معاه أن الإنسان كائنًا من كان
 لا يقدر على الاحتراس من عدوه، فهل تعرفون في هذا شيئًا ؟ فأنشدوه صرودًا من الأشعار،
 فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحنف :

قَلْبِي إِلَى مَا صَرَّرِي دَاعِي . نَكْثَرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي
 كَيْفَ احْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا * كَانَتْ عَدُوِّي مِنْ أَصْلَاعِي
 أَسْلَمْنِي لِحَبِّ أَشْيَاعِي * لِمَا سَعَى فِي عَدَا السَّاعِي
 لِقَلْبِي أَبْقَى عَلَى كُلِّ ذَا . يُوشِكُ أَنْ يَتَعَانِيَ النَّاعِي
 وما غنى فيه من شعره :

أَبْكَى الدِّينَ إِذَا قَوِيَ مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إِذَا أَقْطَعُوا لِلْهَوَى رَقْدُوا
 وقال إبراهيم بن العباس : ما رأيت كلامًا محدثًا أبحرَ في رقه ، ولا أصعبَ في سهولة ،
 ولا أبلغَ في إيجاز ، من قول العباس بن الأحنف :
 تَعَالَى نَجْدُ دَارَسِ الْعَهْدِ بَيْنَا * كَلَامًا عَلَى طَوْلِ الْحَقَاءِ مَلُومُ

وأشد إبراهيم بن العباس للأحنف

إن قل لم يفعل وإن سئل لم * يستئل وإن عتب لم يجيب
صت مضباني ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكو رب ما حل بي * من صد هذا المدين المفضب

ثم قال . هذا واقع الكلام الحسن المعنى ، السهل المأورد ، القريب المتناول ، المليح
اللفظ ، الدب المستمع .

ومما غنى فيه من شعره .

إم من أهدى لي الأرقا مستريحا سأمي قلقا
لو بيت الساس كلهم * بسهادي ببص الحدقا
كان لي قلت أعيش به * فاصطلي بالحب فاحترقا
أنا لم أرزى مودتكم . إعا للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز . لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد صعب الناس أذيال الطلوس سا * وفروق الساس ميا قولهم مرقا
فكادك قد رمى بالحب غيركم * وصادق ليس يذرى أنه صدقا

ومما تمثل به الفضل بن الربيع في أمر كان بينه وبين إحدى جواريه :

تمحل عظيم الدن من تحبه * وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم
إليك إلا تعير الدن في الهوى . يبارقك من تهوى وأهلك راغم

أشد تحلة الموصول قصيدته التي يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن * ليس لي بالفراق منك يدان

لعمل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتدا هذا
المعنى فأحسن به حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سَلَبْتَنِي مِنَ السُّرُورِ ثِيَابًا • وَكَسَتَنِي مِنَ الْمَعْمُومِ ثِيَابًا
كَلِمًا أَغْلَقْتَ مِنَ الْوَصْلِ مَابًا • فَضَحْتُ لِي إِلَى الْمَنِيَةِ مَابًا
عَذِيبِي بِكُلِّ شَيْءٍ سِوَى الصَّدْفَى دَقْتُ كَالْعُدُودِ عَدَابًا

قال الرياشي — وقد دُرِكَ عده العباس بن الأحنف — : وافته لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً .

أَحْرَمَ مَعَكُمْ مَا أَهْوَى وَقَدْ • نَالَ مِنَ الْعَاشِقُونَ مِنْ عَشَقُوا
صَرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ يُصْبِتُ • تُعَيِّىءُ لِلْسَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ

ألف الرشيد العباس بن الأحنف ، فلما خرج إلى خراسان طال مقامه بها ، ثم خرج إلى
أرمينية والعباس معه ، فاشتاق إلى بغداد ، فعارضه في طريقه ، فأنشده .

قَالُوا خِرَاسَانُ أَقْصَى مَا يُرَادُ بِنَا • ثُمَّ الْقُعُورُ نَقْدُ جِثَا خِرَاسَانَا
مَا أَقْدَرَهُ أَنْ يَدِي عَلَى تَحْيِيلِ • سَكَاكِ دِجْلَةٍ مِنْ سَكَاكِ حَيَّانَا
مَعَى الدِّي كَسْتُ أَرْجُوهُ وَأَمَلُهُ • أَمَا الدِّي كَسْتُ أَخْشَاهُ فَقَدْ كَامَا
عَيْنَ الزَّمَانِ أَصَابَتْنَا فَلَا نَظَرْتُ • وَعُدَّتْ صُوفُ الْمَجْرُ أَلْوَانَا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك خاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مُصْعَبُ الزُّبَيْرِي : العباس بن الأحنف وعمر بن أبي ربيعة • اابتدلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحبَّاه ، فليزما ما واحدا لو لزمه غيرهما ممن يكثران مخارهما
لضعف فيه .

١٤ - ابن مناذر

كان يَحْوَحْوَعِي سَ رَيْدِي شِعْرُهُ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَعْدِمُهُ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرْمَكٍ
وَعِيَرَهُمْ . وَلَمَّا كَانَتِ الْبَرَامِكَةُ وَالَّتِ الْوِزَارَةُ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ أَصْبَحَ شِعْرَاءُ
الْبَرَامِكَةِ فِي حَقَرٍ، فَأَرَادَ أَنْ يُنَادِيَ أَنْ يَقْرُبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ، فَأَغْنَمَ دَهَابَهُ إِلَى الْحِجِّ
وَتَمَدَّمَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ فَقَصِيدُهُ، فَلَاحَ الْيُسْرَى وَحَهُ الرَّشِيدُ، فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
لِلرَّشِيدِ هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ' مَبْسُ الرَّشِيدُ، قَالَ الْفَضْلُ : مُرْهُ أَنْ يُشَدَّكَ قَوْلُهُ
فِيهِمْ . أَنَا سِوَ الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ، فَأَمْرُهُ، فَأَعْتَدَرُ، فَأُلَاحَ عَلَيْهِ، فَأَشْدُهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ
الَّتِي يُطَرِّقُ بِهَا الْبَرَامِكَةُ :

أَتَانَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ : قِيَاطِيَتِ أَخَارِ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرٍ
إِذَا وَرَدُوا بِطَلَمَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ : تَجَنَّبِي وَالْفَضْلُ بْنُ تَحِيٍّ وَجَمْعُهُ
فَطُلْمٌ تَعْدَادٌ وَيَحْتَلُونَ الدُّخَى * عَمَّكَ مَا تَجَمَّحُوا ثَلَاثَةُ أَفْئَرٍ
فَمَا صَلَحَتْ إِلَّا لِحُودٍ أَكْفُهُمْ وَأَرْحَلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مَيْتَةٍ
إِذَا رَاحَ يَحْيِي الْأَمْرَ دَلَّتْ صِعَابُهُ * وَحَسْبُكَ مِنْ رَاجٍ لَهُ وَمُذَبَّرٍ
تَرَى النَّاسَ إِحْلَالًا لَهُ وَكَاتِبَهُمْ * عَرَايِسُ مَاءٍ تَحْتَ نَازٍ مُصَرِّمٍ^(٢)

وَلَمَّا قَرَعَ مِنْهَا أَتَعَ ذَلِكَ قَوْلُهُ . « كَانُوا أَوْلِيَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا مَدَحْتُهُمْ » فَأَمَرَ
الرَّشِيدُ أَنْ يُطْلَعُ، فَلَطَمُوهُ، وَأَمَرَ أَنْ يُسْحَبَ، فَسَحَبُوهُ وَنَحَرَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن ماضٍ، مولد في ربوع ، ويكنى أبا حمزة - شاعر صريح ، متقدم في العلم واللغة وإمام
بها - من أحد عبدة أكار أهلها . وكان في أول أمره يتمد ثم عدل عن ذلك ، فبعث الناس وتهتك وحلج وقذف
أعراض أهل البصرة حتى هي صبا إلى الحارث ، فانت هالك سنة ١٩٨ هـ . وقد أبحاره في الأمان (ح ١٧ ص ٩)
والشعر والشعراء (ص ٥٥٣) . (٢) الرازيق . جمع هرواق ، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض
يشبه الكركي . (٣) مصرع مانع شدة .

أبو بواس دفع إليه صُرَّةً فيها ثلثائة دينار ، وقال له : إِسْتَعِنْ بهذه وأعدرفى • ولم يُسد
أَبْنُ مَنَازِرٍ يرى خيراً بعد البرامكة •

قال الحسن بن علي كذا عند ماب سُفَيان بن عُيَيْنَةَ وقد هَرَبَ ما وعنده الحسن بن علي
التَّحْتِاحَ ورحلٌ من أصحاب الرشيد ، غفلا بهم وليس تأذَنَ لنا ، فجاء أَنُّ مَادِرَ قَرُبَ من
الباب ثم رمع صوته فقال :

يَمُرو وبِالزُّهْرِىِّ والسَّلفِ الأُلَى • بهم تَنَتَّ رَحْلَكَ عِندَ المَقَادِمِ
جَعَلَتِ طَوَالَ الدَّهْرِ يوماً لَصَالِحٍ • ويوما لَصَبَّاحٍ ويوما لِحَاتِمِ
وللحس التَّحْتِاحَ يوماً ودوهم • حَصَصَتِ حَسِيّاً دُونَ أَهْلِ المَوَاسِمِ
طَطَرْتُ وطَالَ الفِكْرُ بِكَ فلم أَجِدْ • رَحَاكَ جَرَّتْ إِلا لِأَخِيهِ الدَّرَاهِمِ

نُحْرِجُ سَمِيانَ وفي يده عصا وصباح : خدوا العاسق ؛ فهرب أَبْنُ مَازِرٍ منه وأِذِنَ لنا فدخلنا .
كان الرشيدُ قد وَصَلَ أَبْنُ مَازِرٍ مَرَّاتٍ صِلَاتٍ سَنِيَّةً ، فلما مات الرشيدُ رآه بقوله :

مَنْ كَانَ يَتَكَبَّرُ لِلْمَلِكِ • مَلِكاً وَلِلْهَيْمِ الشَّرِيعِ
فَلْيَكِ هَارُوتَ الحَلِيقِ • غَفَةً لِلْخَلِيفَةِ

قال علي بن محمد الوُفِيُّ : رَأَيْتُ أَبْنُ مَازِرٍ في الحَجَّ سَهَ تَمَانَ وتَسْمِينِ ومائة وهو قد كُفِّ
بَصَرُهُ تقوده جُوزِيَّةٌ حرة وهو واقف يشتري ماء قَرَبَةً ، ورأيتُهُ وَرَمَحَ التَّوْبَ والبَدَنَ ، فلما
صَرَا إلى البصرة أَنشأ وماتهُ في تلك الأيام •

كان يحيى بن زِيَادٍ يُرَى بالزَّنْدَقَةِ ، وكان من أطرف الساس وأنظفهم ، فكان يقال :
أَطْرَفُ مِنَ الزِّنْدِيقِ ، وكان الحارثي ، واسمه محمد بن زِيَادٍ ، يُظْهِرُ الزَّنْدَقَةَ تَنْظَاراً ، فقال فيه
أَبْنُ مَازِرٍ :

يَا أَبْنُ زِيَادٍ يَا أَبَا جَعْفَرٍ • أَظْهَرْتَ دِيماً غير ما تُخْفِي
مُرْنَدُقُ الظَّاهِرِ بِالْفِظِّ • باطِنِ إِسْلَامِ فَتَى عَفٍ
لَسْتُ بِزِنْدِيقٍ وَلَكِنَّمَا • أَرَدْتُ أَنْ تُؤَسِّمَ بِالظُّرُفِ

ومن قوله يرى سعيان بن عبيدة :

يُخْني من الحكمة نُورَها * ما تشتهي الأُفْسُ الوانا
يا واحدَ الأُمّةِ في عِلْمه - لَقِيتَ من ذى العرشِ غُفْرا
راحوا بسعيان على مشه * والعِلْمُ مَكْشُورٌ أَكْفا
إن الذى عُوْدِرَ بالمُخْنى - هَدَمَ الإسلامَ أركانا
لا يُعِيدُكَ اللهُ من مَيِّت * وَرَّثَا عِلْما واحْزانا

حطّب أبو أُميّة امرأة من ثَقِيف فَوَدَّعَهَا، وتصدى للقاصي أن يُضَمِّمَهُ مَالاً من أموال
البنائى فلم يُجِئْهُ الى ذلك ولم يَثِقْ به، فقال فيه أَسْ مَادِر :

أَبَا أُمَيَّةَ لَا تَمَصِّبْ عَلَى - بَرَاءُ مَا كَانَ بَيْنَا النَّصَبُ
إِنْ كَانَ رَدُّكَ قِسْمٌ عَنْ قَتْلِهِمْ * هِىَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُطْطَابِ قَدْ رَجَعُوا
قَالُوا عَلَيْكَ دِيُونٌ مَا تَقُومُ بِهَا * فِى كُلِّ عَامٍ بِهَا تُسْتَحْدَثُ الْكُتُبُ
وَقَدْ تَقَعَّمْ مِنْ نَحْسِ عَائِيهَا * مَعَ أَنَّهُ ذُو عِيَالٍ بَعْدُ مَا أَتَسْعَبُوا
وَفِى الْفِى فِعْلُ الْقَاضِي فَلَا تَحِيدُنْ * فَلَيْسَ فِى تِلْكَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبُ
أَرَدْتُ أَمْوَالَ أَيْتَامٍ تُصَمِّمُهَا * وَمَا يُصَمِّى إِلَّا مَنْ لَهُ نَسَبُ

قال له جعفر بن يحيى قُلْ فِى وفى الرشيد شعرا تصف فيه الألفه بيضاء، فقال :
قَدْ تُقَطِّعُ الرَّحِمَ الْقَرِيبَ وَتُكْفِرُ الدِّينَ * مَعْنَى وَلَا تَكْتَفِرُ الْقَائِمِينَ
يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي دَا الْهَوَى * فَإِذَا هُمَا نَفْسٌ تَرَى نَفْسَيْنِ

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان متبها بالزبدقة، فبلغ الى المهدي حبر زندقته، فبعث اليه يستقدمه من دمشق، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثل بين يدي المهدي قال له المهدي: ألسنت القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في تررى رأسه

قال: بل يا أمير المؤمنين! قال: وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت، فأمر به، فقتل وصلى على جثمانه مدة سنة ١٦٧ هـ. وأكثر شعره في الحكم الفلسفية.

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لا يتلج الأعلاء من حاهلي * ما يتلج الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في تررى رأسه
إذا أرعوى عاد الى جهله * كذي الصأ عاد الى نكسه
وإن من أدبته في الصبأ * كالمود يسقى الماء في عرسه
حتى تراه مورقا ماصرا * بعد الذي أصررت من يؤسه

وقوله:

لا يجيبك من يصون ثيابه * حذر القبار وعرضه مبدول
ولربما اتفق الفقى فرأيتنه * نيس الثياب وعرضه مقسول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكاة الشعراء، متبها بالزبدقة، قوى اللمعة، له منزلة سامية عند أهل مذهبه. نشأ في البصرة، وكان يقص على الناس ويعلمهم. توفي سنة ١٦٧ هـ. وتعد أكثر أخباره في نوات الرويات (ح ١ ص ١٩١) والدميري (ج ١ ص ٢٦).

وكان فيه ميل الى العزلة والانعطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله :

أَبَسْتُ نَوَحْدَقُ وَلَزِمْتُ بَيْتِي * فَتَمَّ الْعَزْلُ وَتَمَّ السَّرُورُ
وَأَدْبَى الرَّمَابُ فَلَيْتَ أَلَى * هُمِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ
وَلَسْتُ قَاتِلٌ مَا دُمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْحَسَدُ أَمْ تَزَلُ الْأُمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وحاوله الى ما تستطيع

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بدعية، وهي التي يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالرَّمَابُ يُهْزِقُ * وَيُظَلُّ يَرْقَعُ وَالْخَطُوبُ تُمَزِّقُ
وَلَأَبْ بُعَادَى عَاقِلًا خَيْرُهُ * مَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحَقُّ
فَارْأَ سَفَكَ أَنْ تَصَادِقَ أَحَقًّا * إِنْ الصَّدِيقُ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزِينِ الْكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا * يُبْدِي عَقُولَ ذَوِي الْعُقُولِ الْمُنِطِقُ
وَمَنْ الرِّجَالُ إِذَا آسَتُوا أَحْلَاقُهُمْ * مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتُشِيرَ يُطْرَقُ
حَتَّى يَحْمِلَ كُلُّ وَادٍ قُلُوبَهُ * فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ وَيُنْطِقُ
لَا أَلْفَيْتُكَ ثَاوِيًا فِي عَرَبَةٍ * إِنْ الْغَرِيبَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشِقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عُمَلَابُ هَامِلٌ * قَدَمَاتٍ مِنْ عَطَشٍ وَآخِرَ عِرْقٍ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِمَا * بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ * أَلَيْتَ أَكْثَرُ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ
لِكَمِّ فَضْلِ الْمَلِكِ عَلَيْهِمْ * هَذَا عَلَيْهِ مُوسَعٌ وَمُضَيِّقُ
وَإِذَا الْجَازَةُ وَالْعَرُوسُ ثَلَاثِيَا * وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَقَّرُ
سَكَتَ الَّذِي تَبِعَ الْعَرُوسَ مَبْتَهًا * وَرَأَيْتَ مَنْ تَبِعَ الْجَازَةَ يَنْطَلِقُ
بَنَى الدِّينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا * وَمَعَى الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزبيبة :

وَأَبْدَأُ عَدُوَّكَ بِالنَّحِيَةِ وَلِتَحْكُنْ * مَهْ زَمَانِكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَأَحْذَرُهُ إِنْ لَأَقِيْتَهُ مَتَبِّسًا * فَالَيْتَ يَسْدُو نَاهُ إِذَا يَعْصَبُ
إِنْ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ * فَالْيَقْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغِيبُ
وَإِذَا الْعَصِيدُ لِقِيَتَهُ مُثْقَلًا * فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُحْصَبُ
لَا خَيْرَ فِي وَدِّ أَمْرِي مُتَقَلِّبٍ * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَنْتَلِبُ
بِقَلْبِكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ لَكَ وَائِقٍ * وَإِذَا تَوَارَى عَيْكَ فَهُوَ الْمَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً * وَيُرْوِعُ مِنْكَ كَمَا يُرْوِعُ الثَّلَبُ
وَيَصِلُ الْكَرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِمَقْوَرِهِ * فَالْصَّغْحُ عَنْهُمْ وَالتَّحَاوُزُ أَصْوَبُ
وَآحْتَرُ قَرِيْبِكَ وَأَصْطَفِيهِ تَعَانُفًا * إِنْ الْقَرِيْبَ إِلَى الْمُقَارِبِ يُنْسَبُ
إِنْ النِّفَى مِنَ الرِّجَالِ مُعْكَرَّمٌ * وَتَرَاهُ يُرَبِّي مَا لَدَيْهِ وَيُرَبِّفُ
وَيُنْشِئُ بِالتَّرْحِيْبِ عِدَّةَ قُدُومِهِ * وَيُقَامُ عِدَّةُ سَلَامِهِ وَيُقَرَّبُ
وَالْفَقْرُ شَيْنٌ لِلرِّجَالِ فَإِنَّهُ * حَقًّا يَهْوَى بِهِ الشَّرِيفُ الْأَنْسَبُ
وَأَخْفِضُ جَا حَاكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ * بِتَدْلِيلٍ وَأَسْمَعُ لَهُمْ إِنْ أَدْسُوا
وَدَعِ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِنْ الْكَذُوبُ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ
وَرَيْنَ الْكَلَامِ إِذَا تَلَقَّتْ وَلَا تَكُنْ * ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ مَادٍ تَحْمَلُكَ
وَأَحْفَظْ لِسَانَكَ وَأَحْتَرِزْ مِنْ لَعْنِهِ * فَالْمَرْءُ يَنْسَلِمُ بِالسَّابِ وَيَعْطَلُ
وَالسَّرُّ فَاتَّكُمُهُ وَلَا تَنْطَلِقْ بِهِ * إِنْ الزُّرْحَاةُ كَثُرَتْهَا لَا يُشْعَبُ
وَكِدَاكَ سَرَّ الْمَرْءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ * فَشَرُّهُ أَلْسِنَةُ تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
لَا تَحْمِرُ صَنْ. فَالْحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُنْقِ الْحَرِيصَ وَيُزَيِّدُ

وَأَرْعَ الْأَمَانَةَ وَالْحَيَانَةَ فَاجْتَنِبْ * وَأَعْدِلْ وَلَا تَقْلُمَ يَطْبُكَ مَكْسَبُ
 وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْةٌ فَاصْبِرْ لَهَا * مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُكَبِّ
 وَإِذَا رُمِيتَ مِنَ الزَّمَانِ بِرَيْبِهِ * أَوْ مَالِكَ الْأَمْرِ الْأَشَقِّ الْأَضْعَبِ
 فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ * يَدْعُوهُ مِنْ جَبَلٍ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبِ
 وَأَحْدَرْ مَصَاحِبَةَ اللَّثَمِ فَإِنَّهُ * يُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّيْحِيقُ الْأَحْرَبِ
 وَأَحْدَرْ مِنَ الْمَطْلُومِ سَهْمًا صَائِبًا * وَأَعْلَمُ أَنَّ دُطَاهَهُ لَا يُجَبِّ
 وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قِيلَتْ نَصِيحَتِي * وَالنَّصِيعُ أَعْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ^(١)

كان شاعراً معلوماً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان مشغولاً بالفيلمان والشراب، ثم تَسَكَّ وتاب ورجعَ راجلاً على قَلَمَيْهِ وماتَ على تَوْبَةٍ وإقلاعٍ ومذهبٍ جميل، ومات وأبو العتاهية حَيٌّ وكان صديقه فرائه .

أخبر علي بن سليمان الأعمش عن محمد بن مزيد قال : حَدَّثْتُ عَنْ مَعْصِ أَحْصَابِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي الْعَتَاهِيَةِ وَنَعْنُ عَنْهُ، فَسَازَهُ فِي شَيْءٍ، فَسَكَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَقُلْنَا لَهُ : مَا قَالَ لَكَ هَذَا الرَّجُلُ يَا أبا إِسْحَاقَ فَأَمَّاكَ ؟ فَقَالَ - وَهُوَ يَحْدِثُنَا لَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ شِعْرًا - :

قَالَ لِي مَاتَ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ ، رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أبا عُمَانَ أَلَكَيْتَ عَيْي . يَا أبا عُمَانَ أَوْحَمْتَ قَلْبِي

قال : فمحببا من طبعه، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعرُ البصري مولى بنى سامة قد تَابَ وَتَزَهَّدَ وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشرون البنات، فكان إذا وَحَدَ شيئاً من شعره خرقه وأحرقه، وكان أمراً صَدِيقٌ، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عده، حتى إنه ليزكي عن فَعَصَةٍ كانت على امرأته .

وكان سعيد بن وهب يتعشَّقُ غلاماً يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه تَوَعَّدَهُ أَنْ يَحْرِحِرَهُ، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بنى سامة بن لؤي بن حمر، مولده ومثواه البصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها . وكانت الكوفة صناعة، فحضر مع البرامكة فاصطنعوه وتقدّم خدم . وتحدّ أحاربه في الأمان (ح ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَيِّئٍ • مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَعِيدٍ
أَنَا مَالِكُكُمْ أَجَاهُ • وَيَحْيَى مَالِكُكُمْ ^(١)عَدِيدٍ

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتَّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ • مَعْنَى مَنْ طَّارَةُ الدُّنْيَا
تَزُمُّهَا مِنْ كَثَبٍ خَسِرَةٌ • كَأَنَّا لَقَطُّ بِلَا مَعْنَى
يَعْلُوهَا السَّاسُ وَأَيُّهَا • تَلْعَبُ فِي الْأَرْزَلِ وَالْأَذَنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لي صديقا، وكان له ابن
يكى أبا الخطاب من أكبس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه
في كل حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، مات وله عشرين سنة، فجزع عليه جزعا شديدا
واقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوما لأعاته على ذلك وأستعطه، حين رأى ذلك ووجهي
فاصت دموعه، ثم أقبل حتى رحمته، وأنشدني :

عَيْنِ حُودَى عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ • إِذَا تَوَلَّى عَصَا عَمَاءِ الشَّيَابِ
لَمْ يُقَارَبْ دَسًا وَلَمْ يَتَلَجَّ الْحِدَّ • بَتَّ مَرْحَى مُطَهَّرِ الْأَهْوَابِ
فَقَدَّته عَيْنِي إِذَا مَا سَعَى أَزَّ • رَأَاهُ مِنْ حِمَاةِ الْإِثْرَابِ
إِنْ عَدَا مُوَحِّشًا لِدَارِي فَقْدَا صَدَّ • سَحَّ أُنْسُ الثَّرَى وَرَبَّ التُّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَبِيبِي فُلَانِي • لَكَ رَاجٍ مِنْهُ عَظَمَ الثَّوَابِ

ثم ناشدني ألا إذا كره شيء مما حدث إليه، فقممت ولم أحاطه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه
ويأمرهم بالحوادث حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق؛ فقال له :
أيها الوزير، إنني ما كنت أستعديت لهذه الحال، ولا تقدمت لها عدوى مُقدِّمة فأعيرتها،

(١) رجاه يوحاه ويحاه : صر به باليد أو بالسكين . وسمعت الهذرة هاها للشر .

ولكن قد حصرني بيتان أرجو أن يوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتهما، مربّ قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَصْلُ نَفْسَهُ بِأَمَّالِي * فَعَلَّا عَنِ مَدِيحَتَا مَلَقَالِ
أَمْرُونِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلَّا * كَثَرَ الْفَصْلُ عَنِ مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفصل وقال له : أحسنت والله وأحدثت ، ولئن قلّ القول ونزّر ، لقد أتسع المعنى وكثّر ، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلّ من أشده مديحا يومئذ ، وقال : لا حير فيا يحيى مد بيتك ، وقام من المجلس ، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدث الحرّميّ قال . كان المصل بن يحيى يأس أخاه جعفرا ويأسه جعفر ، وكان أنس بن أبي شيبخ حاضبا بجمعر ، يادمه ويأس به في حلّواته ، وكان سعيد بن وهب بهذه المترلة للفصل ، فدخلت يوما إلى جمعر ودخل إليه سعيد بن وهب فخذته وأنشدته وتنادر له ، وحكى عن المتأدّرين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطرب ويُضحك ، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك ، فلما خرج سعيد من عنده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أوّما تعرفه ؟ قلت : لا ، قال : هذا سعيد بن وهب صديق أحى أوى العاس وحلّصاه وعشيقه ، قلت : وأى شيء رأى فيه ؟ قال : لا شيء والله إلا القَدَر والرَّد والعنّاة ، ثم دخلتُ بعد ذلك إلى المصل ، ودخل أنس بن أبي شيبخ فحدثت وبذر وحكى عن المضحكين وأتى بكلّ طرفه ، فكانت قصة المصل معه قصة جمعر مع سعيد ، فقلت له مد أن خرج من حصرتي : من هذا المبرّم ؟ قال : أوّلا تعرفه ؟ قلت : لا ، قال : هذا أنس بن أبي شيبخ صديق أحى المصل وعشيقه وحاضته ، قلت : وأى شيء أعجبه فيه ؟ قال : لا أدري والله إلا القَدَر والرَّد وسوء الاحتمار ؛ قال : وأنا والله أَصْرَف بِسعيد وأنس من الناس جميعا ، ولكنني تجاهلت عليهما وساعدتهما على هواهما .

وحدث عمرو بن بانه قال : كان في حوارى رجلٌ من البرامكة ، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حسّناه ، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني ، فتأتى بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ، فَدْخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهْبٍ يَوْمًا وَحَلَسَ إِلَيْهَا مُعَادَاةً طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا مَعْدُ ذَلِكَ :

حَاجِبُكَ يَا حَسَا * فِي حَيْثُ مِنَ الشَّعْرِ
وَفِيهَا طُكُولُهُ شَرٌّ * وَقَدْ يُوفَى عَلَى الشَّرِّ
لَهُ فِي رَأْيِهِ شَقٌّ * طُكُولُ الْمَلْدَى يَحْرِى
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَحْرِى * لَدَى رَوْحٍ وَلَا بِحْرِ
وَأَنْتَ لَوْلَى أَنَّى مَالِدٍ * حَبِيبِ الْعَاجِبِ وَالشَّعْرِ
أَجِيبِي لَمْ أَرِدْ مُفْشَا * وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَثْرِ
وَلَكِنْ صُنِفْتُ أَيْبَاتًا * لَهَا حَقُّهُ مِنَ الزُّبْرِ

قال : مصعب مولاهما وتبرلونه وقال : أتمحش على حاربي تحاطبها بالحنى ؟ فقالت
له : حَقُّصٌ عَلَيْكَ ، مَا ذَهَبَ إِلَى مَا طَلَبْتَ وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي الْقَلَمُ ، مُرِّرْ عَنِّي ، وَصَحَّحْ سَعِيدُ
وَقَالَ : هِيَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِمَا صَمَمْتُ .

١٧ - الحسن بن وهب

حدث ميمون بن هارون : قال : كما عهد الحسن بن وهب فقال لَيَّان : عَفَى :
 أَنَاذَنُونَ لَصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ * مَعَكُمْ تَمَوَّاتُ السَّمْعِ وَالصِّرِ
 لَا يُضْمِرُ السَّوَاءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ - عَفَى الصَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسَقُ الظَّرِّ
 قَالَ فَضَحَكَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ : فَأَيُّ حَيْرِيهِ إِنْ كَانَ كَذَا أَوْ أَيْ مَعْنَى * فَجَلَّ الْحَسَنُ مِنْ
 بَادِرَتِهَا عَلَيْهِ ، وَتَجَبَّاهُ مِنْ حَقَّةِ جَوَابِهَا وَفَعَلَتْهَا .

وحدث محمد بن عيسى قال : جاء عداقة بن العباس بن العصل بن الربيع إلى الحسن
 ابن وهب ، وعنده بان جارية محمد بن حماد ، وهي مائمة سَكْرَى وهو يبيكي عندها ، فقال له :
 مَا لَكَ ؟ قَالَ : قَدْ كَسْتُ نَائِمًا بِجَاهَتِي فَأَيْبَتْنِي وَقَالَتْ : احْلِسْ حَتَّى تَتَرَبَّجَ جِلْسُكَ ،
 فَوَافَقَهُ مَا عَنَّتْ عَشْرَةَ أَصْوَاتٍ حَتَّى نَامَتْ ، وَمَا شَرِيتْ إِلَّا قَلِيلًا ، فَتَذَكَّرَتْ قَوْلَ أَشْعَرِ
 النَّاسِ وَأَطْرَفَهُمُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْفَفِ :

أَبَايَ الَّذِينَ أَذْأَقُونِي مَوَدَّتَهُمْ * حَتَّى إِذَا أَبْغَطُونِي لِلْهَوَى رَقَدُوا
 فَأَنَا أُنْكِي وَأُنْسِدُ هَذَا الْبَيْتَ .

وحدث محمد بن موسى بن حماد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
 له : ارْكَبْ وَأَجِئْكَ عَشِيًّا فَلَا تَنْتَظِرْنِي بِالْغَدَاةِ ، فَأَطَاعَ طِيْعَهُ ، وَأَسْرَعَ الْحَسَنُ فِي شَرِّهِ فَاكْرَ
 وَنَامَ ، وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ فَرَأَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَدَعَا بِدَوَاةٍ وَكَتَبَ :

رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرَّاحُ * وَأَسْرَعَتْ فَيْكَ أَوْتَارُ وَأَفْرَاحُ

وحدث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو
 غَمُورٌ فَقَالَ لَهُ :

هَبَاكَ قَدْ حَكَمًا مَيِّدُ * تَكْ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كَانَ
 وَلَوْ بَ عَيْنٍ قَدْ أَرَتْ * لَكَ مَيِّتٌ صَاحِبُهَا عَيْنَانِ

فأجابه الحسن بن وهب بمشرين بيتا وطالاه بمنظله ، فكتب إليه أربعة أبيات وطالاه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أبا علي حيرُ قولك ما * حصلت النخعة وعُتَصِرَه
ما عدنا في البيع من عتي * لستقلّ بواحد عشره
أما أهل ذلك غيرُ محنين * أرضى القديم وأقضى أثره
ها محى وقياك أربعة * والأراسون لديك منتظره

وقال صيد الله س سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعرُ من أبي إسحاق وأبي علي
(يعني عمه الحسن بن وهب) .

حدث علي بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكي : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي مملوكا كم كان يساوى ؟ فقال : أحبك من ذلك ، اصرفت ليلةً من دار الوائق ، فاجترتُ بدار الحسن بن وهب فدخلت إليه ، وإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب : ومك يساوى أحمد لو كان مملوكا ؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فنفق صوتا ، فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أصعبها . قال : ثم نفق صوتا آخر ، فقلت للحسن : يا أبا علي أضعِفْها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غني :

لولا الحياءُ وأن السير من حُلِّي * إذا قصدتُ اليك الدهر لم أقم
ألبس صدك سُكْرًا لقي جعلت * ما أبيض من قادات الرأس كالنم

فنهأ أحمد بن يحيى المكي فأحسن فيه كلَّ الإحسان ، فلما قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا علي ، أصعب الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعُك تقولانه ولست أدري ما معناه ؟ قال نحن نبيدك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يتشوق غلاما تحريرا للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتشوق غلاما روميا لأبي تمام ، فرآه أو تمام يوما صبَّ غلامه ، فقال له :

واقفه لئن أعقت^(١) الى الروم لتركمن الى الخزر، فقال له الحسن: لو شئت حُكمتا واحتكت، فقال له أبو تمام: أبا أشبك بداود عليه السلام وأشبه فمى بخصمه، فقال الحسن: لو كان هذا مطوماً حنفاء، فأما وهو مشورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقة له، فقال أبو تمام:

أنا على نصرٍ الدهر والعير * والمحادث والأيام فاعير^(٢)
أذكرتني أمر داود وكثفتي * مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعدك الشمس لم يحفظ المعيب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمير
إن أنت لم ترك السير الحثيث الى * جدير الروم أعقتا الى الخزر
إن القطوب له مئى محل هوى * محل مئى محل السمع والبصر
ورب أمتع منه حانباً ومئى * أمسى وتكته مئى على خطير
حزنت فيه حود المزم فأنكشت * عنه عيابه عن بقره هدير
سحان من سحنه كل حارجة * ما يك من طمغان العين بالنظر
أنت المقيم ما تفد رواحله * وفعله أبداً منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دجيل الى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا علي، أنت الذي تظعن على من يقول:
شهدت لقد أقوت مغانيكم عدى * وتحت كما تحت وشائع من برد
وانجدم من مد إتهام دارم * فيادع أنجذني على ساكني نجد
فصاح دجيل: أحسن والله! وحل يرد:

* فيادع أنجذني على ساكني نجد .

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت: إنه أشعر الناس .

(١) أعقت: أسرع . (٢) وردت هذه الأبيات في الأغاني وفيها بعض أخطاء تحمل بالآداب،

فأثبتها ها كما وردت في ديوان أبي تمام .

وحدث أحمد بن عبيد الله بن نافع قال : قلت لدعبل وقد عَرَضَ عليّ قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أوطأ :

• أباديتي ليس المَوَى من هوانيا •

فقلت له : ويحك أقول فيه هذا بعد قولك :

أب محل الحى يا حادى • حَبْرَسَاك الرانح المادى

وبعد قولك :

قالت سَلَامَةُ أبِ الْمَالِ قُلْتُ لَهَا • الْمَالُ وَيْحُ لَأَقَى الْحَمْدَ فَاصْطَلِحَا

وبعد قولك :

على أيماننا يتجرى الدى • وعلى أسبافنا تجرى المهج

والله إنى أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصقع، فقال : صدقت والله، ولقد بهتتني
وحذرتني، ثم مرّ قها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدني الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا
يرثي بها سكرانة أم أبيه عمر، وحمل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الخلال لو زُرْتُ قَرَبَا • فقلت وهل غير الفؤاد لها قَبْرُ

على حين لم أحنث فاجهل قدرها • ولم أبلغ اليس التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سُرْمَنَ رَأَى»، فتأخر الحسن بن وهب
عن محمد بن عبد الملك الزيات، وهو يوهئ دزير والحسن يكتب له، فاستبطأه محمد،
فكتب إليه الحسن يقول :

أوحب العذرى تراخى اللقاء • ما توالى من هذه الأنواء

لست أدرى ماذا أقول وأشكو • من سماء تعرفنى عن سماء

غير أنى أدعو على تلك بالثك • لى وأدعو لهذه بالبقاء

فسلامُ الإله أهديه غصا • لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اعتل الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياما كثيرة ، فلم يأته رسوله ، ولا تعرف حرمه ، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّها الوزيرُ أَيْدِكَ اللهُ • هـ وأبقاك لي قضاء طويلا
أجيبلا تراه يا أكرم الناس • يس لكجا أراه أيضا بجيلا
إني قد أفتُ عَشْرًا طيلا • ما تُرى مُرْصِلا إلى رسولاً
إن يكن موحى التعمد في الص • حة مّا على منك طويلا
فهو أولى بإسبة الناس برأ • واصقاداً لمن يكون عيلا
فلماذا تركتني عرسة الط • من الحاسدين جيلا لحيلا
الدين • فاعلمت سوى الشك • ير قريباً ليتي ودجيلا
أم ملّال • ما علمت لك الصا • حب مثل على الرمان ملّولا
قد أتى الله بالشفاء ما أم • يرف مما أنكرت إلا قليلا
وأكلت الدُرَّاج وهو عِدَاء • أملت عني عليه أهولا
بعد ما كنت قد حملت من الي • لمة عبثاً على الطباع ثقيلاً
ولعل قدِمتُ قبلك آتية • لك عدا إن وجدت فيهِ سيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دع الله عسك فائبة الده • ر وحاشاك أن تكون عيلا
أشهد الله ما علمت وما ذا • لك من العُسر حائراً مقبولا
ولعمري أن لو علمتُ فلا زل • تنك حولا لكان عندي قليلا
إني أرتجى وإن لم يكن ما • كان مما قمت إلا حليلا
أن أكون الذي إذا أصمرا الإخ • ملاص لم يتمس عليه كفيلا
ثم لا يسلُك المودة حتى • يحصل الجهد دونها مبثولا
فإذا قال كان ما قال إذ كا • ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

فاجعلنى لى الى التعلق بالمد * ر سبلا إن لم أحد لى سبلا
فقدما ما حاد بالصفح والمع * ووما ساع الخليل الخليل
وكتب محمد بن عبد الملك الى الحسن بن وهب وقد تأخره :

قالوا جفاك فلا عهد ولا حبر * ما دا تراه دعاه قلت أيلول
شهر تجدد حبال الوصل فيه ها * عقد من الوصل إلا وهو محلول
وكان محمد قد نذبه لأن يحرخ في أمر مهم فأحابه الحسن فقال :

إلى بحول أمرى أعليت رتبه * خطه منك تعظيم وتجميل
وأنت عُدته في نيل منه * وأنت في كل ما يهواه مأمول
ما طالى عك أيلول سذته * وطيبه ولعم الشهر أيلول
الليل لا قصر به ولا طول * والجو صاب وطهر الكأس مروح
والود مستطرق عن كل معجبة * يصحى بها كل قلب وهو متبول
لكن توقع وشك البير عى بلد * تحله فوكاه العين محلول
مالى إذا شمرت بى حك مبتكرا * نغم البغال أو المسوج المراسيل
إلا رعاياك الذى يعود بها * حد الحوادث حتى وهو مقلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على ^(١)مُسْنَدَه ، فعدل عن المسألة لئلا يعيق لمحمد
الطريق ، فعلق محمد أنه أشفق على نفسه من المسألة ، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه ،
وظن بنفسه أن يصيبها ما يصيبه ، فقال له محمد :

قد رأياك إذ تركت المسأ * وحاديقتى يسار الطريق
ولعمرى ما ذاك منك وقد جد * بك الحد من فعال الشفيق

فقال له الحسن :

إن يكن خوفى الخوف أرانى * أن ترائى مشبها بالعقوق
فلقد جارت الظنون على المش * غف والظن مولع بالشفيق

عَدَّ السَّيِّدَ الْأَحْلَ وَقَدَسَا * رَعَى الْخُوفَ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَاحْتَتِ الشَّمَالُ بَقِيًّا عَلَى السَّيِّدِ إِذْ هَالَتْ سُلُوكَ الْمُضْطَبِقِ
إِنْ عَسَى مَوْتَةً لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمُشَوِّقِ
طَوْدُ عِزٍّ خُصِمَتْ مِنْهُ يَدٌ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْوَتِي وَأَبِي الْبَرِّ وَعُمِّي وَأُسْرَتِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رُوِّعْتُ أَنَّى رَوَيْتِي * وَإِذَا مَا تَفَرَّقْتُ مَسْجُوعَ رَيْتِي

وحدث المبرد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم وهو مع المعتصم ، فسقاه وكتب إليه :

لَمْ تَلَقْ مِثْلَ صَاحِبٍ * أَنْدَى يَدًا وَأَعَمَّ حُودًا
يَسْقَى السَّيِّمَ فَقَرُّو * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ عُودًا
صَمْرَاءَ صَافِيَةً كَأَنَّ * نَكَّاسَهَا دُرًّا تَصِيدَا
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودَ لَا * حَصْرًا مِثْلَ ذَلِكَ وَلَا طِيدَا
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشَكْرَهَا * أَوْجِبْتُ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدَا
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّهَا * كُنَيْتُ رُحَاجَتَهَا عُقُودَا
وَأَحْمِلْ عَلَيْكَ بَانَ تَقْوَى * مَ بِشُكْرَهَا أَبَدًا عَهْدَا

ومن جيد شعره قوله :

بَابِي كَرِهْتُ الْبَارِلَاتِ أَوْقَدْتُ * صَرَمْتُ مَا مَعَالِكِ فِي إِسَادَهَا
هِيَ ضَرَّةُ لِكِ الْقِتَاعِ ضَيَّانَهَا * وَبَحَسَ صَوْرَتَهَا لَدَى إِيقَادَهَا
وَأَرَى صَبِيحَكَ بِالْقُلُوبِ صَبِيحَهَا * بَسَّيْلَهَا وَأَرَاكِهَا وَعَرَادَهَا
شَرِكَّتِكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنَهَا * وَصِيَّانَهَا وَصَلَّاحَهَا وَفَسَادَهَا

ومات الحسن بن وهب فرائه أخوه سليمان بن وهب :

مَعَى مَذْمُوعِي عِزِّ الْمَعَالَى وَأَصْبَحْتُ * لِأَلِي الْجَحَا وَالْقُوبِ لَيْسَ لَهَا نَظْمُ
وَأَخْبَى نَجْمِي الْعُكْرَ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هَمَّ بِالْإِنْصَاحِ مَنَظْمُهُ كَنَظْمُ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَمَعَتْهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرَوَةٍ أَفْذَرَتْهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَاشَةٍ أَقْيَيْتَهَا ، وَرَمَقٍ أَمْسَكَتَ بِهِ ، وَلَقْتَ بَيْنَ التَّلَفِّ وَبَيْنَهُ ، فَلِكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ
بِعَمِّ الدُّنْيَا حَدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَعَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا
هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي مَاقَتْ الْوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قَدْرَهُ ، وَأَتَتْ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ ؛
رَدَدْتَ عَنَّا كَيْدَ الْمَدْقُوقِ ، وَأَرَعَمْتَ أُنْفَ الْحَسُودِ ، فَحَنَّنْتَ نَجْأً مَكَ إِلَى ظُلٍّ ظَلِيلٍ ، وَكَفَيْتَ
كَرِيمًا ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَإِنْ يَبْلُغُ جُحُودَهُ الْمُجْتَهِدُ ؟ - .

١٨ - أشجع السلي^(١)

كان متصلا بالرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد مات :

قد غاب يحيى فما أرى أحدا * يأتس إلا بذكره الحسين
أوحشت الأرض حين فارقتها * من الأيادي العظام والمنين
لولا رحاء الإياب لأصدعت * قلوبا منه من الحزين

وقال أيضا :

رأيت بقاء الخير في كل وجهة * لفتية يحيى مُستكين خضما
فإن يُمس من الرقبين مؤملا * لأوبة يحيى نحوها مُطلعا
فما رُحى يحيى وحده مات عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

إذا مات يحيى عن بلادٍ تعيرت * وتُشرق إن يحتلها فتطيب
وإن قال الخير في كل بلدة * إذا لم يكن يحيى بها لعريب

وقال فيه حين أعتل :

لقد قرعت شكاة أبي علي * قلوب معاشير كانت صحاحا
فإن يدفع لـ الرحمن عه * صروف الدهر والأجل المتاحا

(١) هو أشجع بن عمرو بن ولد الشريد بن مطرود السلي، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عاصي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأحاده حتى عد من المحول، وكان الشعر يروى في ربيعة وأبسن، ولم يكن لقبس شاعر، لما نحم أشجع وقال الشعر اصحرت به قيس. وأقطع إلى الرامكة ومدحهم وأخص بجعفر فأعاده مدحه، فأعجب به حعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عبده، وله فيه المدايح المختارة، والقصائد السائرة. ونجد أشعاره وأحاده في الأخان (ح ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

فقد أسمى صلاح أبي عليّ • لأهل الأرض كلهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطاه فلنأنا • نبأ الموت حيث عدا وراحاً

وهو القائل ،

ليس لها جات إلّا • من له وجهٌ وقّاحٌ
ولسانٌ طرْمَدَارٌ • وغدوٌ ورواحٌ
إن أكنّ أظليلاً • جنةً عنى فالقحاحُ
فعلت الجهدُ فيها • وعلى الله الجاحُ

ويستجاد له في مدح الرشيد .

وصلت يداك السيف يوم تقطعت • أيدي الرجال ورأت الأقدامُ
وعلى عدوك يا أبا عبد الله محمد • رصداً صوء الصبح والإظلامُ
لإذا تنبه رُعته وإذا غفا • ملّت عليه سبوك الأعلامُ

ويستجاد له أيضاً قوله :

غداً يتفرق أهل الموى • ويكثر ملكٌ ومنزجُ
وتختلف الأرض بالطاعين • وجوهاً تُسد ولا تُجمعُ
وتغنى الطلول ويبقى الموى • ويصنع ذو الشوق ما يصنعُ
وأنت تُبكي وهم جيرة • فكيف يكون إذا ودّحوا
أنظّم في العيش مد الفراق • فبئس لعمرك ما تظنعُ

وفيها يقول في جعفر بن يحيى :

بديته مثل تدبيره • متى هتته فهو مستجمعُ
إذا همّ بالأمر لم يثمه • هجوعٌ ولا شادنٌ أفرعُ
في كفه للفنى مطلبٌ • وللسر في صدره موضعُ

وكم قاتل إذ رأى بهجتي • وما في فُضُوبِ النّفى أصحُّ
 فدا في ظلالِ ندى جعفر • يُحَرِّثُ النّفى أنفعُ
 وما حلفه لأمرئٍ مطمع • ولا دونه لأمرئٍ مقنعُ

وهو القائل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنى فنى الجود إلى الجود • ما مثل من أنى بوجود
 أنى فنى أصبح معروفا • منتشرا في البيض والسود
 أنى فنى مع الثرى بده • بهية الماء من السود
 قد ظم الدهر به ثلثة • حابها ليس بسود
 أنى فنى كان ومعروفا • يملأ ما بين دُرى اليد
 فأصمما مد تساميهما • قد حُما في طين ملحود
 الآن نخشى عثرات الندى • وعدوة البخل على الجود

ويستحاذ له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نيهك وكان صاحب شرط الرشيد وكان

جارا صوباً :

في سيف إبراهيم خوف واقع • بدوى التفاق وفيه أمن المسلم
 ويبيت بكتلاً والعبود هواجع • مال المصيع ومهجة المستسلم
 جمل الخطام ناف كل مخالف • حتى استقام له الذى لم يطمع
 لا يصلح السلطان إلا شدة • تنشى البرى بفضل ذنب الجرم
 ومن الولاة مقع لا يتقى • والسيف تقطر شمراته من الدم
 منعت مهابتك الغوس حديثها • بالأمر تكفه وإن لم تعلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تزوما • وكأس لا تزالها صبوحا
 كأنك لا ترى حساً جميلاً • بعيرك يا أخى إلا قبيحا

وَبَسْتَجَادَ لَهُ قَوْلُهُ فِي الرَّشِيدِ :

لَا زِلْتُ تَنْشُرُ أَعْيَادًا وَتَطْوِيهَا * تَمَيُّ بِهَا لَكَ أَيَّامٌ وَتَشْيِيهَا
مُسْتَقْبَلًا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَبَهْجَتَهَا * أَيَّامُهَا لَكَ نَظَمٌ فِي لِبَالِهَا
الْبَيْدُ وَالْعِيدُ وَالْأَيَّامُ بَيْنَهُمَا * مَوْصُولَةٌ لَكَ لَا تَقْفَى وَتَقْبِيهَا
وَلَيْتَ لَكَ الصَّرُّ وَالْأَيَّامُ مَقْبَلَةٌ * إِلَيْكَ بِالْفَتْحِ مَعْقُودًا بَوَاصِيهَا
وَبَسْتَجَادَ لَهُ قَوْلُهُ بِمَدْحِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ صَبِيحٍ :

لَهُ نَظَرٌ لَا يَنْمُصُ الْأَمْرَ دُونَهُ * تَكَادُ سُتُورُ الْغَيْبِ عَهُ تَمَزَّقُ
وَهُوَ الْقَائِلُ :

وَمَا تَرَكَ الْمُدَّاحُ فَيْكَ مَقَالَةً * وَلَا قَالَ إِلَّا دُونَ مَا فَيْكَ قَائِلُ
وَقَالَ أَيْضًا :

مَهْىَ ابْنٍ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقِ مَشْرِقُ * وَلَا مَفْرَبٌ إِلَّا لَهُ فِيهِ مَا دَحُ
وَمَا كُنْتُ أَذْرى مَا فَوَاضِلُ كَمِهِ * عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيَّبْتَهُ الصَّمَاخُ^(١)
فَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ مَيِّتًا * وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضْيِيقُ الصَّمَاخُ^(٢)
سَأَلْتُكَ مَا فَاصَتْ دُمُوعِي وَإِنْ تَقْضُ * لِحَسْبِكَ مَتَى مَا تُحِبُّ الْجَوَاخُ^(٣)
وَمَا أَمَا مِنْ رُزْقٍ وَإِنْ حَازِعُ * وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
كَانَ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَسْوَكَ وَلَمْ يَقُمْ * عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النَّوَاحُ
لَنْ حَسُنْتَ فَيْكَ الْمَرَاتِي وَذِكْرُهَا * لَقَدْ حَسُنْتَ مِنْ قَبْلِ فَيْكَ الْمَدَائِحُ

(١) الصَّمَاخُ : أَعْمَارُ عَرَاصٍ تَعْلَى بِهَا الْقُتُورُ . (٢) الصَّمَاخُ : حَجَّ حَصْبٍ : وَهِيَ الْأَرْضُ
الْحَرْدَاءُ الْمُسْتَوِيَّةُ الْوَاسِعَةُ دَاتٌ حَتَّى مَعَارٍ . (٣) الْجَوَاخُ الصُّلُوحُ .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هاجم بنحو شنيع، فبسه عد المتوكل لحبسه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حبسه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى نخراسان . فقال أول ما حُيس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ * وَسَأَمَّا لَأَسَابِ الْقَصَاءِ
وَوَطَّنَا عَلَى عَيْرِ آلِيَالِي * فَنُومًا سَاعَتُ بَعْدِ الْإِبَاءِ
وَأَقْبَبَةُ الْمُلُوكِ مَحَمَّاتُ * وَبَابُ اللَّهِ مَبْدُولُ الْفِنَاءِ
هِيَ الْأَيَّامُ تَكْثُرُ كَيْفَانَا * وَتَأْتِي بِالسَّامَةِ وَالشَّقَاءِ
وَمَا يُجْهِدِي الثَّرَاءُ عَلَى غَنِي * إِذَا مَا كَانَ مَحْظُورَ الْإِعْطَاءِ
حَلَبْنَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَصَرَّتْ * بِنَا عَقَبُ الْأَشْدَادِ وَالرَّحَاءِ
وَجَرَبْنَا وَجَرَبَ أَوْ لُونَا * فَلَا شَيْءَ أَحَزَّ مِنْ آلُوفَاءِ
وَلَمْ نَدَّجِ الْحَيَاءَ لِمَنْ ضَرَّ * وَبَعْضُ الصَّرِّ يَلْهَبُ بِالْحَيَاءِ
وَلَمْ نَحْزَنْ عَلَى دُنْيَا تَوَلَّتْ * وَلَمْ تُنْسَقِ إِلَى حَسَنِ الْعِزَاءِ
تَوَقَّ النَّاسُ يَنْ أَيْ وَاتَى * فِهِمْ تَنَحُّ الْخَفَاءِ وَالرَّحَاءِ

(١) هو عربي قرشي شاعر صريح مطبوع، وقد حرص المتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبعده لأنه كان كثير السعاية اليه مدعاه فكان اذا حلاه عرته أنهم يسيبوه ويلتوبوه، فيكتشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حفيظة، فعاد الى نخراسان بعد أن حبسه مدة . وكان مدحه في الشعر مذهب مروان بن أبي صفعة في هجاء آل أبي طالب ودمهم والإعراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورأيت تقول شعب رضوى * إمام، حاب ذلك من إمام

إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرقة السما

وله أقوال في الزلزل والفتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . ونجد أخاره في الأماص (ج ٩ ص ١٠٤)

وان حلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يفرّك من وعد إحاء * لأمرٍ ما عدا حسن الإخاء
 ألم تر مظهرين على عبا * وهم بالأمس إخوان الصماء
 فلما أن وليت عدا وراخوا * على أشد أسباب البلاء
 أت أخطأهم أن يصروني * بمالي أو بجاه أو نراه
 وخافوا أن يقال لم خذتم * صديقا فاذعوا قدم الجمعاء
 فظافرت الروافض والنصارى * وأهل الاعتقال على هياتي
 وعاونوني وما ذبح إليهم سوى على بأولاد الزناء
 بحيثشوع يشهد لاس عمرو * وعزّون لهاروب أكراني
 وما أجد ماء بنت أبي تميم * محذماء آل السان على الخنفاء
 إذا ما عدّ مطعكم رجالا * فما فصل الرجال على النساء
 عليكم لمة آفة أبنداء * وعودا في الصباح وفي المساء
 إذا تميم للاس قالوا * أولئك شر من تحت السماء
 أما المتوكل فووى رأيا * وما بالواقفة من خفاء
 وما حبس الخليفة لي عار * وليس بمؤيس منه الثاني

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به إليه وقالوا له :
 إنه يبعث الخدم ويفزعهم ، وإنه كثير العطن عليك واليب لك والإزراء على أخلافك ،
 ولم يزلوا به يوغرون صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، ففاه الى خراسان
 وكتب بأن يُصلب انا وردحا يوما الى الليل ، فلما وصل الى الشاذليخ حبسه طاهر بن
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصِّل يوما الى الليل مجزدا ثم أنزل ، فقال في ذلك :

لم ينصوا بالشاذليخ عشية الإثنين مسبقا ولا مجهولا
 تصبوا بحمد الله ملاء قلوبهم * شرما وملء صدورهم تجيلا
 ما أزداد إلا رفة نكوله * وأزدادت الأعداء عنه نكولا

هل كان إلا الليث فارق غِيْلَه * فَرَأَيْتَه في عَجَلٍ مَحْمُولَا
 لا يَأْمَنُ الأَعْدَاءُ من شِدَاتِه * شِدَا يَفْضُلُ هَامَهُم تَفْصِيلا
 ما عَابِه أَنْ بَزَعَتْه لِبَاسُه * فَالَسَيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَى مَسْلُولَا
 إِنْ يُتَنَدَّلُ فَالْبَدْرُ لَا يُزْرَى بِهِ * إِنْ كَانَ لَيْلَةً يَمُتُّهُ مَبْنُولَا
 أَوْ يَسْتَلْبِوهُ الْمَالُ يُحْزِنُ قُدُّهُ * ضَيْفَا أَلَمٍ وَطَارِقًا وَزَيْلَا
 أَوْ يَحْمِسُوهُ فَلَيْسَ يُحْمِسُ سَائِرُ * مِنْ شَعْرِهِ يَدْعُ الْعَزِيزَ ذَلِيلَا
 إِنْ الْمَصَائِبُ مَا تَعَدَّتْ دِينَه * يَمُّ وَإِنْ صَعِبَتْ عَلَيْهِ قَلِيلَا
 وَاقَهُ لَيْسَ مَسْأَلٌ عَنْ أَمْرِهِ * وَكَيْ بَرِيكَ نَاصِرًا وَوَسْكَيلَا
 وَلَقَدْ لَمِنَ إِذَا الْقُلُوبُ تَنَكَّشَتْ * عَنْهَا الْأَكِنَّةُ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلَا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أَطَاهَرُ إِنْ عَى تُرَاسَانُ رَاحِلُ * وَمُسْتَحَبُّ عَنْهَا مَا أَنَا قَائِلُ
 أَالصَّدْقُ أَمْ أَكُنِي عَنِ الصَّدْقِ أَيَا * تَحَبَّرْتُ أَذْنَهُ الْبَيْتِ الْهَاطِلُ
 وَسَارَتْ بِهِ الرِّجَالُ وَأَصْطَلَقَتْ بِهِ * أَكُفَّ قِيَانٍ وَأَجْتَنَبَتْهُ الْقِبَالُ
 وَإِنْ سَالَى الْحَمْدُ وَالذَّمُّ عَالِمُ * بِمَا فِيهِمَا نَامَى الرِّيمَةُ نَاضِلُ
 وَحَقًّا أَقُولُ الصَّدْقُ إِنْ لَمَّا لُ * الْبَيْتُ وَإِنْ لَمْ يَنْحَطْ مَالُودُ مَائِلُ
 أَلَّا حَرَمَةً تُزْعَى أَلَّا عَقْدُ ذَمِّ * بِلَا رِأْيٍ أَلَّا فِعْلٌ لِقَوْلٍ مُشَاكِلُ
 أَلَّا مُتَصَفِّ إِنْ لَمْ تَجِدْ مُتَفَضِّلَا * عَلَيْنَا أَلَّا قَاضٍ مِنَ النَّاسِ عَادِلُ
 فَلَا تَطْعَمَنَّ غِيظًا عَلَى أَنَا مَلَا * فَقَبْلَكَ مَا عَصَتْ عَلَى الْأَمَلِ
 أَطَاهَرُ إِنْ تُحْسِنُ فَنَاقَى حَسَنُ * إِلَيْكَ وَإِنْ تَجَعَّلْ فَنَاقَى بَاطِلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإني لا أقبل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عنك ! ألا حرمة * تجود بعفوك أن أمدا
لئن حلّ ذنبٌ ولم أعتد * لأنت أجل وأعلى بنا
ألم تر مدّا مدّا طوره * ومولى عفا ورشدا هدى
ومفيدة أصي تلافيته * فعاد فاصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل * يتيك وتصريف عنك الردى

وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حُسِنَتْ قفلك ليس بصائري * حتى وأى مهتد لا يفمّد
أو ما رأيت الليث يألف غيبله * كبرا وأوباش السباع تردّد
والشمس لولا أنها عجوبة * عن ناظر يك لما أصاء الفرقد
والبدر يدركه السرار فتجلى * أيامه وكأنه متجدد
والغيث يحصره الغمام فما يرى * إلا ورقه يراغ ويرعد
والزاعية لا يُقيم كعوبها * إلا التفاف وجذوة تنوقد
والسار في أحجارها عجوبة * لا تضطّل إن لم تُثرها الأزند
والحبس ما لم تشبه لندية * شعاع نهم المتزل المتوقد
بيت يحسد للعكر كرامة * ويزار فيه ولا يزور ويُحمد
لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لا يستلّك بالحباب الأععد
كم من عليل قد تحطّاه الردى * فنعما ومات طيبه والعود
يا أحمد بن أبي ذؤاد إنما * تدعى لكل عظمة يا أحمد
المع أمير المؤمنين ودونه * خوض الردى وخاوي لا تنقذ
أتم بنو عم النبي عميد * أولى بما شرع النبي عميد
ما كان من كريم فاته أهله * كرم مفارمكم وطالب المحيد

أَمِنَ السَّوِيَّةَ يَابْنَ عَمَّ مُحَمَّد * خَصَمٌ تُخَرَّبُهُ وَآخِرُ تُعِيدُ
 إِنْ الَّذِينَ سَعَوْا إِلَيْكَ بِبَاطِل * حَادُّ نَعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجْعَدُ
 تَبْدُلُوا وَجَيْتَا صِهْمٌ قَتَحَكُمَا * فَيَا، وَلَيْسَ كَغَائِبٍ مِنْ يَشْهَدُ
 لَوْ يَجْمَعُ الْخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلِسٌ * يَوْمَا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
 فَهَاءُ جُرَيْمٍ أَصْبَحَتْ أَعْرَاضُنَا * تَهْبَا تَقْسِمُهَا اللَّثِيمُ الْأَوْغَدُ

خرج علي بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب و خُصاف^(١)، فهرب من
 كان في القافلة من المقاتلة وتبَّت علي بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس إليه
 فدفعهم ولم يَحْطُوا بشيء. فقال في ذلك :

صَبَرْتُ وَمِثْلِي صَبْرُهُ لَيْسَ يُنْكَرُ * وَلَيْسَ عَلَى تَرْكِ التَّقِيهِ يُقْدَرُ
 غَرِيزَةُ حَزٍّ لَا اخْتِلَافٌ تَكْلُفُ * إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعَى الْمُتَصَبِّرُ^(٢)
 وَلَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْفُو بِنُودِهِ * وَبَاتَ عَلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تُعْكَرُ
 وَأَقْبَلَتِ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ حَاسِبٍ * وَتَارَ تَحَاكُ أَسْوَدُ اللَّوْنِ أَكْثَرُ
 بِكُلِّ مُشِيحٍ مُسْتَمِيتٍ مُشْتَرٍ * يَحْوِلُ بِهِ طَرْفُ أَقْبَى مُشْتَرٍ^(٣)
 بَارِضٌ خُصَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَامِعٌ * وَلَا مَاعٌ إِلَّا الصَّمِيعُ الْمَذْكُورُ
 فَقُلْتُ فِي عَيْنِي عَظِيمَ جَمْعِهِمْ * عَزِيمَةُ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْفُرُ
 بِمَعْتَرِكٍ فِيهِ الْمَايَا حَوَاسِرُ * وَارُ السَّوْعَى الْمُشْرِفَةِ تُسْمَرُ
 فَاصْنُتْ وَجْهِي مِنْ طُفَاتٍ سَيُوفِهِمْ * وَلَا أَنْحَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَنَا تُنْكَمَرُ
 وَلَمْ أَلْكَ فِي حَزِّ الْكَرِيمَةِ مُجْبَا * إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْوَرْدِ مَصْدَرُ
 إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ الْعَنَى وَجَّاهُ * وَاسْمَرُ خَطِيءٌ وَأَبْيَضُ مِبْتَرُ
 فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْكَرِيمُ بِنَفْسِهِ * إِذَا أَصْطَلَتْ الْأَطْلَالُ فِي التَّقَعِّعِ عَسْكَرُ

(١) برية بين الناس وحلب . (٢) خام : تكهن وجبن .

(٣) المشيح : المانع لما وراءه طهره . والأفب من الخيل : الحقيق الحمر الصامر الطن .

مَعْتَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَالَوْا قَلَامَةً * وَكُنْتُ شَجَامَ وَالْأَيْسَةَ تَقَطَّرُ
وَتَلَكْ بِجَايَانَا قَدِيمًا وَحَادَثًا * بِهَا تُعْرِفُ الْمَاضِي وَحَزَنَ الْمَوْثُرِ
أَبْتُ لِي قَرُومٌ أُنْجِبْتَنِي أَنْ أَرَى * وَإِنْ حَلَّ خَطْبُ حَاشَعًا أَنْضَجِرَ
أُولَئِكَ آلُ اللَّهِ فَهَرُبْ مَالِكِ * بِهِمْ يُخْبِرُ الْعَظُمُ الْكَبِيرُ وَيُفَكِّرُ
هَمْ أَلْمَنِكَبُ الْعَالَى عَلَى كُلِّ مَنْكِبٍ * سَيُوفُهُمْ تُفْنِي وَتُفْنِي وَتُفَقِرُ

كان علي بن الجهم يهاشر جماعة من قيان بغداد لما أطلق من حبه وردت من النفي،
وكانوا يتقانون ببغداد ويلرمون منزل من الكرخ يقال له المفضل، فقال فيه علي بن الجهم:

زَلْنَا بَابَ الْكَرْخِ أَطْلَبَ مَنِي * عَلَى نُحُيَاتِ مِنْ قِيَانِ الْمُفْضَلِ
مِلَاجِينَ سُرْنَجٍ وَالْفَرِيضِ وَمَعْدٍ * بِدَائِعِ فِي أَسْمَاعٍ لَمْ تَبْدَلِ
أَوَانِسَ مَا لِلضَيْفِ مِنْهُمْ حَشَّةٌ * وَلَا رِبَاسَ بِالْجَلِيلِ الْمَبْجَلِ
سَرَّ إِذَا مَا الضَيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ * وَيَفْقُلُ عَهْ وَهُوَ غَيْرُ مُقْبَلِ
وَيُكْثِرُ مِنْ ذَمِّ الْوَقَارِ وَأَهْلِيهِ * إِذَا الصَيْفُ لَمْ يَأْتَسْ وَلَمْ يَقْبَلِ
وَلَا يَدْفَعُ الْإَيْدِي الْمَرِيضَةَ عِثْرَةً * إِذَا نَالَ حَطًّا مِنْ لُؤْسٍ وَهَذَا كُلِّ
وَيُطْرِقُ إِطْرَاقَ الشَّحَاعِ مَهَابَةً * لِيُطْلِقَ طَرَفَ السَّاطِرِ الْمُنَاقِلِ
أَشِيرَ بَرِيدٍ وَأَعِزَّ بِطَرَفٍ وَلَا تَقْتَفِ * رَقِيبًا إِذَا مَا كَتَّ عِيرَ مُجَلِّ
وَأَحْرِضَ عَنِ الْمَصَاحِ وَأَهْلَجَ بِمَنْلِهِ * فَإِنْ نَحَدَّ الْمَصْبَاحُ فَادُّ وَقَبْلِ
وَسَلَّ عِيرَ مَمْنُوعٍ وَقُلَّ عِيرَ مَسْكِي * وَتَمَّ غَيْرَ مَدْعُورٍ وَتَمَّ عِيرَ مُجَلِّ
لَكَ الْيَتَمُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً * وَكُنْتُ مَلِيًّا بِالْبَيْتِ الْمَعْلِ
فَبَايَزَ بِأَيَّامِ الشَّبَابِ فَإِنَّهَا * تَهْمِي وَتَفْنِي وَالْقَوَايِدُ تَجْبَلِ
وَدَعِ عَنْكَ قَوْلَ النَّاسِ أَتَلَفَ مَالَهُ * فَلَا تُفْنِي مُدْرَأًا غَيْرَ مُقْبَلِ
هَلِ الْمَهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ طَرَحَتْ بِنَا * أَوَانِرُهَا فِي يَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مُعْجَلِ
سَقَى اللَّهُ بَابَ الْكَرْخِ مِنْ مَتْنِي * إِلَى قَصْرِ وَضَّاحِ فِرْكَةِ زَلَزَلِ

مَسَاحِبُ أَذْيَالِ الْفَيَآنِ وَمَسْرُوحِ الْ * حَسَانٍ وَمَتَوَى كُلِّ خَرْقٍ مُعَلَّلٍ
لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَيْسِ بِنِ نَجْمٍ يَحْمِلُهَا * لَا قَصْرَ عِزٍّ ذِكْرُ النُّنُورِ وَحَوْمَلٍ
إِذَا كَرَأَى أَنْ يَمْنَحَ الْوَدَّ شَادَنَا * مُقَصِّرُ أَذْيَالِ الْقَنَا فَيْرَ مُسْبِلٍ
إِذَا اللَّيْلُ أَدْنَى مَضْجَعِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * «عَفَرَتْ يَبْعِرِي يَا أَمْرًا الْقَهْشَ فَأَنْزِلْ»

دخل علي بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في عداة من صدقات الربيع وفي السماء
غيم رقيق، والمطر يهيم قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الخروج فخاصته
حطية له، فتنقص عليه عزمه وقر، فحضر علي بن الجهم بالخبر وقيل له : قل في هذا المعنى
لعله ينشط للصبح، فدخل عليه فأنشده :

أَمَا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شِمَائِلَهُ * تَحْمُوْ وَعِيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
كَأَنَّهُ أَسْتُ يَامِنْ لَا شَبِيهَ لَهُ * وَصَلُّ وَهَجْرٌ وَتَمْرِيْبٌ وَإِعْجَادُ
فَاصِحِرِ أَرَاخٍ وَأَشْرِبَهَا مُعْتَقَةً * لَمْ يَدْنِرْ مِثْلَهَا حِكْمِي وَلَا عَادُ
وَأَشْرَبُ عَلَى الرُّوضِ إِذَا لَحَتْ زَخَاوُهُ * زَهْرٌ وَوَدٌّ وَأَوْرَاقٌ وَأَوْرَادُ
كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَمَلُّ الْحَيِّبِ بِنَا * بَلْلٌ وَبُخْلٌ وَإِعْجَادُ وَمِعْجَادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فَمِلِكُكُمْ * عَنِّي وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ
فَاسْتَحْسِنِ الْأَبْيَاتَ وَأَمْرَ لَهُ بِثَلَاثَةِ دِينَارٍ وَحَمَلَهُ وَحَلَعَ عَلَيْهِ .

لما أطلق عبد الله بن طاهر علي بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذياع مدة، فخرجوا
يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرَجٌ كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا
صيدا كثيرا حسا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال علي بن الجهم يصف ذلك :
وَيْطَنَاتُ رِيَاضِ الزَّعْفَرَانِ وَأَسْكَنْتُ * عَلَيْنَا الْبُرْأَةُ الْيَقِصُّ حَمْرَ الدَّرَارِجِ^(١)
وَلَمْ تَقْمِهَا الْأَذْفَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَجْنَا حِمَاَهَا بِالْكَلَابِ الْبُؤَارِجِ^(٢)
بِمَسْتَرَوِيَّاتٍ سَابِحَاتٍ طَلُوتُهَا * عَلَى الْأَرْضِ أَمْثَالُ الْسَّهَامِ الْزَوَالِجِ

(١) واحده دراج (نعم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القنطاري إلا أنه ألعف .

(٢) الزاح من السهام : الذي يمشى على وجه الأرض ثم يمسي .

ومستشرقات بالهوادى كأنها * وما عَفِفتُ منها رؤوسُ الصَّوَابِجِ
ومن دالعاتِ ألسُنًا فكانها * ليلَى من رجال حاضعين كَوَاجِجِ
قلبتنا بها العيطانَ قَلْبًا كأنها * أأنملُ إحدى الغانياتِ الحَوَاجِجِ
فقل لبغاةِ الصَّيْدِ هل من مُفَاجِرِ * بصيدٍ وهل من واصلٍ أو غَاجِرِ
قرنًا بُزاةً بالصَّعُورِ وَحَومَتِ * شوَاهِيتُنَا من بعد صيد الزَواجِ
لما فُلِجَ آن أبي دِوَادٍ تَمَيَّتَ به على بن الهِجَمِ وأطهرنك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سوى خَيَالِكَ لأمًا * فوق الفِراشِ مَهْمَلًا بوسَادِ
فِرِحَتْ بِمَصْرَعِكَ البريةَ كُلَّهَا * مَنْ كَانَتْ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
كم جالسٍ فهِ قَدْ عَطَلَتْهُ * كى لا يَحْدُثَ فِيهِ بالإِسَادِ
ولكم مصابيحُ لَأَ أَطْعَمَاتِهَا * حتى تَزُولَ عن الطَّرِيقِ أَلْهَادِ
ولكم كَرِيمَةٌ مَعْنِيَرُ أَرْمَلِهَا * ومَحْتَتِ أَوْثَقَتْ في الإِفَادِ
إِنَّ الْأَسَارَى وَالسَّحُونَ تَفْرَجُوا * لَمَّا أَتَاكَ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ
وعَدَا لِمَصْرَعِكَ الطَّلِبُ فلم يَحْدِ * شَيْئًا لِمَا لَكَ حِيلَةُ الْآرَتَادِ
فَدَقَّ الْمَوَاتَ مَعْمَلًا وَمَوْجَلًا * وَاهَّ رَبَّ الْعَرْشِ بِالْمُرْصَادِ
لَا زَالَ فَالْجُكَّ الَّذِي بِكَ دَائِبًا * وَبَغَتْ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالْأَوْلَادِ

ومن جيد شعره قوله :

عَلِقَ الْهُوَى بِحَوَى هُوَا الْحَقِّ * وَمَلَكَتْنِي طَلَبَتُكَ الرُّقِّ
رِفْقًا بِقَلْبِي يَا مَعْدَبَهُ * رِفْقًا وَلَيْسَ لظَالِمٍ رِفْقُ
وإِذَا رَأَيْتُكَ لَا تُكَلِّتْنِي * ضَاغَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَالْأَفْقِ

وله أيضا :

يَا رَحْمَةً لِلْغَرِيبِ بِالْبَلَدِ النَّآ * زَجَّ مَاذَا بِنَمْسِهِ صَبَا
فَارَقَّ أَحِبَّاهُ فَاتْتَعَمَّعُوا * بِالْعَدِشِ مِنْ بَعْدِهِ وَهَاتَتْغَا

٢٠ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوما لبعض جلسائه : أقسم علي من حصرتم يعطى قصيدة علي بن جبلة
الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها ، فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أمير المؤمنين
ولا بد من إيراد قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي ، قال : قم فبني بها ، فعصى
وأناها بها وأنشده إناها ، وهي :

زادَ رَدَّ النَّفْيِ عَنْ صَدْرِهِ ، وَأَرْعَوَى وَاللَّهُوْهُنَّ وَطَرِيَهُ
وَأَبَتْ إِلَّا الْبِكَاءَ لَهُ * صَحَّكَتْ الشُّبَّ فِي شَعْرِهِ
نَدِي أَنِ الشَّبَابَ مَعَى * لَمْ أَبْلُقْهُ مَدَى أَثَرِهِ
وَأَقْصَمْتُ أَيَّامَهُ سَلَامًا * لَمْ أَجِدْ حَوْلًا عَلَى عِيَرِهِ
حَسِرْتُ عَنِّي بِشَاشَتِهِ * وَفَوَى الْحَمُودُ مِنْ قَمَرِهِ
وَدِيمٌ أَهْدَرْتُ مِنْ رَشَا * لَمْ يُرِدْ عَقْلًا عَلَى هَدَرِهِ
فَاتَتْ دُونَ الْعُصْبَا هَنَّةٌ * قُلْتُ فُوقَ عَلَى وَتَرِهِ
حَارَتَا لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَنْ * رَاحَ مَحْنِبًا عَلَى صِكْرِهِ
زَهَبَتْ أَشْيَاءُ كُنْتُ لَهَا * صَارَهَا حَلَمِي إِلَى صُورِهِ^(٢)

(١) هو علي بن جبلة الأسدي والمكوك لقبه ، وهو من الموالي أساء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، وله
في الحرية منها وشأ فيها ، وكان صريحا مد ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللطخ حله ، لطيف
المعاني ، مداح حسن التصرف ، وقد استعند شعره في ملح أي دلف البعل وأبي عاتم جديس عبد الجليل الطوسي ،
وراد في تصحيحها وتصحيح أبي دلف حاسة حتى يصل ربيعة على مصر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها
المكوك في أبي دلف منها :

كل من في الأرض من عرب * بين يديه إلى حصره
مستبر منك معكورة * يكتبها يوم مقتصره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجدد أكثر أحاده في الأغاني (ج ١٨ ص ١٠٠) وأبى حلكان طبع بولاق (ج ١
ص ٤٩٥) والشعر والنساء (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أناها .

دَعَجَدًا حَقَطَانِ أَوْ مُصِيرٍ * فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُصِيرِهِ
 وَامْتَدَّ مِنْ وَائِلٍ رَجُلًا * مُصِيرُ الْآفَاقِ فِي عَصِيرِهِ
 الْمَسَايَا فِي مَنَاقِيهِ * وَالْمَطَايَا فِي ذَرَا حُجَيْرِهِ
 مَلِكٌ تَدَى أَمَامِلِهِ * كَانِبُ لَاجِ الْوُجُهِ عَلَى مَقَرِهِ
 مُسْتَيْلٌ عَنْ مَوَاهِهِ * كَابِتُ سَامِ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ
 جَلُّ عِزَّتِ مَنَاسِكِهِ * أَيْمَنَ عَدَنَاتٍ فِي مُغِيرِهِ
 إِنَّمَا الدُّنْيَا أَوْ دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَأِهِ وَمُخْتَصِرِهِ
 فَإِذَا وَلَّى أَسْوَدُ دُلْفٍ * وَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَقْوَرِهِ
 لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي خَفَرِهِ
 يَادَوَاهُ الْأَرْضُ إِنْ فَسَدَتْ * وَبَدَّلَ الْهَرَمُ مِنْ عُسْرِهِ
 كُلَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ مَادِيهِ إِلَى حَصَرِهِ
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرَمَةٍ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحَرِهِ

وفيها يقول :

وَزُحُوفٌ فِي صَوَاهِلِهِ * كَصَبَاحِ الْخُمْرِ فِي أَنْوَرِهِ
 قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْنَسٌ * وَفِي مَنَاسِكِهِ وَمُشْتَجِرِهِ
 فَرَمَتْ حَقْوِيهِ مِنْهُ يَدٌ * طَوَّاتِ الْمُنْشُورِ مِنْ بَطْنِهِ
 زَرَّتْهُ وَالْخَيْلُ عَابِسَةٌ * تَحْمِلُ الْبُؤْسَ عَلَى عَقْرِهِ
 حَارِجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَكْرُجُ الطَّيْرُ مِنْ وَكْرِهِ
 وَعَلَى النِّعَمَانِ عُجَّتْ بِهِ * عَوْنُهُ ذَادَتْهُ عَنْ صَدْرِهِ
 عَمَطَ النِّهَاطِ صَفْوَتَهَا * فَرِدَّتْ الصَّعْوَى كَدْرِهِ
 وَلَقَرُوقُورٌ أَدْرَتْ رَحًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

قَدْ تَأْتَيْتَ الْقَاءَ لَهُ • فَاِنِ الْمُحْتَمُومُ مِنْ قَدَوِهِ
وَلَسَىٰ حَتَّى رَمَتْ لَهُ خُطَّةَ شِعَاءٍ مِنْ ذِكْرِهِ
فَنَصَبَ الْمَامُونِ وَأَخْتَاطَ، وَقَالَ : لَسْتُ لِأَبِي إِذْ لَمْ أَقْطَعْ لِسَانَهُ أَوْ أُسَيِّكُ دَمَهُ .

وَكَانَ يَمْدَحُ حُمَيْدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، فَلَمَّا سَمِعَ حَمِيدٌ هَذَا فِي أَيْ دَلَفٍ قَالَ أَيْ شَيْءٍ
نَقِيْتُ لِمَا عَدَّ هَذَا مِنْ مَدْحِكَ * قَالَ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حُمَيْدٌ * وَأَيَّدَهُ الْجِسَامُ
فَادَا وَلَّى حَمِيدٌ • صَلَّى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي حَمِيدٍ :

دِحْلَةُ تَسْقِي وَأَوْ عَامٍ * تُطْعِمُ مَنْ تَسْقِي مِنَ النَّاسِ
وَالنَّاسُ حَمَمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى رَأْسٌ وَأَبُ الْعَيْنِ فِي الرَّاسِ

وَقَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلِيَّ الْحَقِّ مَسْدَدًا * عَطِيَّةَ كَفَافَاتٍ مَدَحِي وَلَمْ تَرَى
مَا شِئْتُ بِرَقِّكَ حَتَّى يَلْتُ رَيْقَهُ • كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْجَدْوَى تُبَادِرُنِي

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي حَمِيدٍ :

إِلَى أَحْكَرِمْ خَطَّائِي وَصَلْنَا السَّهْبَ مَالِ السَّهْبِ
إِلَى مَضْمَعِ الْبَلِّ • وَمُلْقَى أَرْحَلِ الرُّكْبِ
حُمَيْدٌ مَفْرَعُ الْأُمَّةِ • فِي الشَّرِّ وَفِي الْعَرَبِ
كَأَنَّ النَّاسَ جِسْمٌ وَهْ • حَوْمُهُ مَوْصَعُ الْقَلْبِ
إِذَا سَأَلْتُمْ أَرْضًا • حَيْثُ أَمَّةُ السَّرْبِ
وَأِنْ حَادَّهَا حَلَّتْ • بِهَا رَايَةُ السَّفْرِ
إِذَا لَاقَى رَعِيْلَ الْمَوْتِ • تِ بِالشُّطْبَةِ وَالشُّطْبِ
وَبِالْمَذْيَةِ الْخَصْرِ • وَبِالْمَذْيَةِ الْقُصْرِ

صدا يجتمع القلب * له جدد من الرعب
 يأنوز الذي وآتى * ويا قومي أحي الدنـب
 أيا ذا الجود فاسلم ما * برث حقت الى حقت
 فأت العيث والتلم * وأت الموت والحرب
 وأت الجاسع الصار * و بين العبد والقرب
 لك الله تلافى السا * س عد العثر والنكـب
 ورد البيض والبيض * الى الأعماد والمخـب
 بإقدامك في الحرب * وإطعامك في اللزب
 فكم أمنت من خوف * وكم أمنت من شغب
 وكم أصلحت من خطب * وكم أمنت من خطب
 وما تمهرها إلا * يراك الطعن والصرـب
 تاهت بك فطانت * الى النفاية والحسب
 فعانت شرف الأحيـا * قوت الرأس للعجب^(١)

وما أسرف فيه فكمر أو قارت الكمر قوله في أبي دلف :

أت الذي تُهرل الأيام متزلفا * وتقل الدهر من حال الى حال
 وما مددت مدى طرف الى أحد * إلا قصيت أرزاق وآحال
 ترور محطاً تسمى البيض رابية * وتستهل جكي أوجه المال

وقال فيها :

كأن خيلك في أنشاء عمرتها * أرسل قطيرتها في فوق إرسال
 يخرجن من عورات الموت سامية * نشر الأنامل من ذى القز الصالى

وقال أيضا :

جلاء مشيبي تَزَلَّ • وأُنْسُ شبابِ رَحَلْ
طوى صاحبٌ صاحبًا • كذاك احتلافُ الدَّوَلِ
أعاذلتي أقصيرى • ككفالك المشيبُ العَدْلُ
بدا بدلًا مالنا • ب ليت الشبابَ البدل
جلالٌ ولكه • تحاماه حُورُ المَقْلِ

وقد كان حميد رك يوم عيد في حيش عظيم لم يَرْمُثْهُ ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا مأمير المؤمنين ويمنه • أبو عاتم قدو الندى والسحاب
وصافت لحاح الأرض عن كل موكب • أحاط به مستعلياً للواكب
كان سمو النقع واليخص موفهم • سماؤه ليل قرئت بالكواكب
فكان لأهل العيد عيد يسكهم • وكان حميد عيدهم المواهب
ولولا حميد لم تبلغ عن الندى • يمين ولم يدرك غي كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائل • ولا أعتام فيها صاحب فضل صاحب
له صمكة تستغري المال الندى • على عتبة تشجى القنا ما ترايب
دعيت بأيام السلا فإردا بها • وصرته عن مسعاك شأو المطالب
وعذلت ميل الأرض حتى تمدت • فلم يأ منها جانب فوق جانب
لفت ماذى الحزيم أمدة قطريها • كألك منها شاهد كل عاث

ثمخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى حراسان ، وقد مدحه فأجرل صلته ، واستأذنه في الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان بره يتصل عده ، فلما طال مقامه أشفاق إلى أهله فدخل إليه فأنسده :

راعه الشبيب إذ تَزَلَّ • وكفاه من العَدْلِ
وأقضت مدة الصَّسَا • واقصى اللهو والعزَلِ

قد لمدى دَمَتْهُ بِحَصَابٍ مَا أَدْمَلُ
 فَايَكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَا لَا عَلَى الرُّنَحِ وَالْعَطَلِ
 وَصَلِ اللَّهُ لِلْأَيِّ بِرُحْمَى الْمَلِكِ فَاتَّصَلِ
 مَلِكٌ عَزَمَهُ الرِّمَا بَ وَأَمْسَأَلَهُ الدُّوَلُ
 كَسْرُوهُ . نَحْدَهُ نَصْرُبُ الصَّارِبُ الْمَثَلُ
 وَإِلَى طَلِّ عَرَهُ يَلْعَا الْخَائِفُ الْوَحْلُ
 كُلِّ حَلَقِي سَوَى الْإِمَا بِمِ لِإِعَامِهِ حَوَلُ
 لَيْتَهُ حِينَ حَادَلِي بِالْعِي حَادِ بِالْقَعْلُ

صحك وقال . أَبَتَ إِلَّا أَنْ تُوحِشَا ، وَأَحْرَلِ صَبْتَهُ وَأَدِلْ لَهُ .

دخل على بر حمله المَكْرُوكَ على حُمَيْدِ الطُّوسِيَّ في أول يوم من شهر رمضان ، فأنشده :

حَمَلَ اللَّهُ مَدْحَلُ الصُّومِ فَوْرًا لِحُمَيْدٍ وَمُتَعَةٍ فِي الْعَاءِ
 هُوَ شَهْرُ الرَّيْبِ لِلْفَقْرَاءِ وَفِرَاقُ الدُّنْيَا وَالصَّبَاءِ
 وَأَنَا الصَّامُ الْمَلِي لِمَنْ عَا قَرَهَا مُعْطِرًا طُغُولُ الْعِلْمِ
 وَكَأَنِّي أَرَى الدَّاعِيَ عَلَى الْحَسِّ فَيَرْجُونَ صَحْبَهُمَ بِالْمَسَاءِ
 قَدْ طَلَوِي مَعْصَمَ زِيَارَةِ نَعْسِ وَاسْتَعَاصُوا مَصَابِحًا بِالْعَاءِ

ومها يقول :

بُحَيْدٍ - وَأَيُّ مَثَلٍ حَيْدٍ - فَحَرَّتْ طَبِيَّ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 حَوْدُهُ أَطْهَرَ السَّاحَةِ فِي الْأَرِّ ضِ وَأَعْنَى الْمُقْوَى عَنِ الْإِقْوَاءِ
 مَلِكٌ يَأْمُلُ الْعِبَادُ تَدَاءِ مَثَلٌ مَا يَأْمُلُونَ قَعْلَ السَّمَاءِ
 صَاعَهُ اللَّهُ مُطِيعَ النَّاسِ فِي الْأَرِّ صِ وَصَاعِ السَّحَابِ لِلْإِسْقَاءِ

فأمر له بحمسه آلاف درهم ، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك ؛ ثم دخل إليه ثاني

شَؤَال فأنشده :

عَلَّانِي بِصَفْوِ مَا فِي الدَّنَاسِ ، وَأَتَزَكَّى مَا يَقُولُهُ الْعَادِلَانِ
 وَأَسِيقًا فَاجْبَعِ الْمَيَّةَ الْعِيدِ ، يَشْفِي فَكُلُّ عَلَى الْجَدِيدِ فَنِي
 عَلَّانِي بِشَرِّةٍ تُدْعَى الْمَدِ ، ثُمَّ وَتَشِي طَوَارِقَ الْأَحْرَانِ
 وَالْقِيَا فِي مَسَامِيحِ سَدِّهَا الصَّوِ ، ثُمَّ رُقَى الْمَوْصِلَى أَوْ دَحَابِ
 قَدْ أَنَا شَوَّالٌ فَاقْتُلِ الْعَبْدِ ، شَيْءٌ وَأَعْدَى قَهْرًا عَلَى رَمَضَانَ
 نِيَمَ عَوْنُ الْمَنَى عَلَى نَوْبِ الدَّهْرِ ، يَرِي سَمَاحُ الْقِيَانِ وَالْيَمِينِ
 وَكُؤُوشٌ تَحْمَرِي بِمَاءِ كَرُومِ ، وَمَعْلَى الْكُؤُوشِ أَيْدِي الْقِيَانِ
 مِنْ حُقَارِي يُجْمِتُ كُلَّ احْتِشَامِ ، وَتُتَرِّ السُّدْمَانُ بِالْأَسْدَانِ
 وَكَانَتْ الْمِزَاجُ يَقْدَحُ مَهَا ، شَرًّا فِي سَبَابِكِ الْعِيقَانِ
 فَاشْرِبِ الرَّاحَ وَأَعِصِ مَنْ لَمْ فِيهَا ، لَهَا يَنْهَمُ عُنْدَ الْعِيَانِ
 وَأَحْمَبِ الدَّهْرَ مَا رَتَحَالٍ وَجَلُّ ، لَا تَحْتَفِ مَا يَحْتَرُهُ الْحَادِثَانِ
 حَتَّى مُسْتَطَوِّرٍ عَلَى الدَّهْرِ رَكَا ، مُجِيدٌ رَدًّا مِنْ الْحَدِثَانِ
 مَلِكٌ يَقْتَنِي الْمَكَارِمَ كَرًّا ، وَتَرَاهُ مِنْ أَكْرَمِ الْعِيَانِ
 حُلِقَتْ رَاحَتَاهُ لِلْخُودِ وَالسَّاءِ ، يَسِي وَأَمْوَالُهُ لَشَعْرِ الْبَسَانِ
 مَلْعَكُهُ عَلَى الْعَادِ مَعْدٌ ، وَأَقْرَبُ لَهُ سَوَاقِطُ
 أَرِيحَى الدَّاءِ جَمِيلُ الْحَيَا ، يَدُهُ وَالسَّاحُ مَقْتَدَارِ
 وَحَمَهُ مُشْرِقٌ إِلَى مُعْتَبِرِهِ ، وَيَدَاهُ مَالِيَتِ سَعِيرَانِ
 حَمَلِ الدَّهْرَ يَسِي يَوْمِيهِ قَسِيمِ ، يَسِي مُصْرِفٌ حَزَلٍ وَحَزَلِ طَعَانِ
 فَاذَا سَارَ فَاغْلِبِ الْحَرْبِ ، كُلُّ مَنْ نَهَضَ بِجَانِبِهِ الْخَافِقَانِ
 وَإِذَا مَا هَزَرَتْهُ لِسْوَالِ ، صَادَى عَنْ رَحْبِ صَدْرِهِ الْأُفْقَانِ
 غَيْثٌ جَدِيدٌ إِذَا أَقَامَ رَيْبُ ، يَتَفَقَّشُ بِالسَّنْبِ كُلَّ مَكَانِ
 يَا أَبَا ظَاهِمٍ قَبِيتَ عَلَى الدَّهْرِ ، يَرِي وَخُلِدَتْ مَا جَرَى الْمَصْرَانِ

ما بُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمَايَا * مِنْ أَصَاتٍ بِكُلِّكِ وَجَرَانِ
 قَدْ جَعَلُوا إِلَيْكَ سَتَّ الْمَطَايَا . هَرَّامًا مِنْ زِمَامِ الْخَوَانِ
 وَحَلَا الْحَاسَاتِ نَوَى عِيَايِ * صَامَاتٍ حَوَائِجَ الرِّجَالِ
 لَيْسَ حُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُتَا . بٌ وَلَا يَتَّقِنِي لَغِيرِكَ عَايِ

فامر له بمشرة آلاف درهم، وقال: تلك كات للصوم تخففت وحققا، وهذه للعطر
 فقد ردتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه مقصيده العينية المشهورة التي تُعَدُّ من نادر الشعر
 وديعه، وهي :

الدهير تبكى أم على الدهر تحزغ * وما صاحب الأيام إلا مُقْعَعُ
 ولو سَهَلَتْ عَكَ الْأَمَى كَانَ فِي الْأَمَى . عزاءُ معرِّ اللَّيْلِ وَمَقْعَعُ
 تَعَرَّ بِمَا عَزَبَتْ عَيْرَكَ إِسْهَا . سِهَامُ الْمَايَا حَامَاتٌ وَوُقْعُ
 أَهْنَا يَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ * أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ طَلَتْ تَضَعُضُ
 وَأَذْبَسَا مَا أَذَبَ السَّاسَ قَلْبَا . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْقِ لِلصَّبْرِ مَوْصِعُ
 أَلَمْ تَرَ لِلْأَمَامِ كَيْفَ تَصَرَّمت * بِهِ ، وَهَكَذَا نُذَادُ وَتُدْعُ
 وَدَيْفَ التَّقَى مَنَوَى مِنَ الْأَرْضِ صَبْقُ * عَلَى حَبْلِ كَانَتْ بِهِ الْأَرْضُ تُنْمَعُ
 وَلِمَا آفَقَتْ أَيَّامُهُ آفَقَتْ أَلْمَلَا * وَأَحْمَى بِهِ أَنْفُ السَّدى وَهُوَ أَجْدَعُ
 وَرَاحَ عَذْوُ الدَّيْرِ حَذْلَانَ يَتَجَى * أَمَانَتُ كَانَتْ فِي حَشَاءِ تَقْطَعُ
 وَكَانَ حُمَيْدٌ مَقْفَلًا رَكَتْ بِهِ * قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الصِّمِّ تَرْكُعُ
 وَكَتَبْتُ أَرَاهُ كَالرَّزَايَا رُزْثَهَا . وَلَمْ أَدْرَأِ الْخَلْقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
 حِمَامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أَنَسِهِ * حِمَامٌ، كَذَاكَ الْخُلُوبُ بِالْخُلُوبِ يُقَدِّعُ
 وَلَيْسَ شَرُّهُ أَنْ تُصِيبَ مَيْتَةً . جَمَى أَحْتَبَا أَوْ أَنْ يَذِلَّ الْمُتَمَعُ
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِيهَا الْمَنَايَا نَارَهَا . وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهَيْهِ لَيْسَ يُرَقَّعُ

نَعَاهُ حَمِيدًا لِلسَّرايا إِذا عُدْتُ * تَدادُ أَطرافَ الرِّماحِ وتُوزَعُ
 ولأَرْهَقَ المَكْرُوبِ ضاقَتْ أَمْرُهُ * لَمْ يَدْرِ حِوَماتِها كَيْفَ يَصْعُ
 وَلِلْيَضِ حَتَبُ العِوَالِ وَلَمْ يَدْعُ * لَهَا غَيْرَهُ دَاعِيَ الصَّباحِ المُفْرَعُ
 كَأَنَّ حَمِيدًا لَمْ يَقْضِ حَيْشَ عَسْكَرٍ * لِي عَسْكَرِ أَشْيائِهِ لا تَرْوَعُ
 وَلَمْ يَبْعَثْ الخَيْلَ المَغِيرَةَ بالصَّحَى * مِرْاثًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهَى ظُلْمُ
 رِواحٍ يَحْمِلُنَ النَّبَأَ وَلَمْ تَكُنْ * كَأَنَّه إِلا عَلَى التَّهَبِ تَرْجِعُ
 هَوَى حَبْلُ الدِّيبِ المَبِيعِ وَعَيْتُهَا إِلا * حَرِيعُ وَحايِبِها الكُمَى المَشِيعُ
 وَسَيْفُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَرِثْتُهُ * وَمَفْتاحُ بابِ الحَطَبِ وَالخَطَبِ أَظْغُ
 فَأَقَمَهُ مِنْ مُلْكِهِ وَرِباعِهِ * وَابْتَلَّه قَفَرٌ مِنَ الأَرْضِ تَلْقَعُ
 عَلَى أَى شَيْءٍ تَشْتَكِي النِّعْسُ سَعْدَهُ * إِلَى شَحْوِهِ أَوْ يَذْهَبُ الدَّمْعُ مَذْمَعُ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ حَالَ صَيَاوِها * عَلَيْهِ وَأَصْحَى لَوْها وَهُوَ أَضْعُ
 وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا وَأَوْدَى بِهاوِها * وَأَحْدَبَ مَرَعِها الدِّى كانَ يَمْرُغُ
 وَقَدْ كانَتِ الدُّنْيَا بِهِ مَطْمَئِنَّةً * فَقَدْ جَعَلَتْ أَوْتادُها نُتْقَلَعُ
 نَكى فَقَدَهُ رُوحُ الحَياءِ كَمَا نَكى * نَدَاهُ السَّدى وَأَبْنُ السَّيْلِ المُدْفَعُ
 وَمَارَقَتِ اللَّيْثُ الخُدُورَ وَأَبْرَزَتْ * عِواطِلَ حَسْرَتِي سَعْدَهُ لا تَقَعُ
 وَأَبْقِظُ أَجْفافًا وَكانَ لَهَا الكَرى * وَامَتْ عَيونُ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهْجَعُ
 وَلَكِنَّهُ مَقْدارُ يَوْمِ نَوَى * لِكُلِّ أَمْرٍ مِ مِ نِهاً وَمَشَرَعُ
 وَقَدْ رَأَى اللهُ المَلّا بِمُحَمَّدٍ * وَالأَصْلَ بَنَى فَرَعَهُ المَتَمَرَعُ
 أَغْرَتِ، عَلَى أَسْياهِهِ وَرِماحِهِ * تُقَسِّمُ أَهْالُ الحِمِيسِ وَتُجْمَعُ
 حَوَى عَنْ أَيْسِهِ بَذَلَ راحَتِهِ الدِّى * وَطَمَنَ الكَلْبُ وَالزَّاعِيَةُ شُرَعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثانية]

طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٣٧ م

ملحق الكتاب الثالث - عصر الأمين والمأمون

مقدمة

١ خصوص كتب الأئمة والمأمون — نص كتاب الأئمة إلى المأمون

٢ نص كتاب الأئمة إلى أخيه صالح

٥ القول على القرآن (ما كتبه المأمون إلى ولاته)

١٧ عهد ظاهر بن الحسين

٣٦ رسالة أبي (ما كتبه المأمون إلى أهل حراسان)

٣٨ ما كتبه السيدة ربيعة إلى المأمون — ما كتبه المأمون إليها

٣٩ رسالة أحمد بن يوسف

٤٨ وصحة وتاريخ حياته — ما حكاية الحافظ عنه

٤٩ ما حكاية دحل الخوازمي الشاعر عنه

٥٠ كتبه وطريقته في التأليف

٥٢ من كلام له في كتابه ثلثة وعشرة

٥٣ ما كتبه الى صديق له اهل من صف — رساله في الحل

٥٧ شيء من شعره

وصفه وتاريخ حياته ٥٩
من كلام له — ما كتبه الى الحسن بن مهمل — ما كتبه الى الاموي ٦١
من حكاية ٦٢

صفحة

٦٤	ما كتبه الى بعض الزملاء
٦٥	شيء من شعره
٦٦	حكاية له
٧٠	ما قاله أو محمد عداقه من أيوب النبى فيه

رسائل الجاحظ :

٧٢	وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بي أمية
٨٠	ما كتبه الى بعض إخوانه في دمع الزمان
٨٢	وصفه لقرين وبي هاشم
٨٣	ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستعطاف
٨٤	ما كتبه في دمع الحسد — دعاؤه في مؤلفاته
٩٢	ما كتبه في أحد البرىء يذب المذهب
٩٨	ما كتبه في أقسام البيان
١٠١	ما كتبه في مدح الكتب
١١٥	ما كتبه في التزعب في اصطلاح الكتب

باب الرسائل :

١٢٨	الفصول المتبعة من الرسائل المختارة في كل من — كتب رجل الى صديق له
١٣١	صل لسعيد بن حديد
	صل في هدية — فصل في شفاعته — فصل لرجل يحمي — فصل لأحد من يوسف
١٣٣	صل في الصبح لأبي علي — فصل لأحد من يوسف
١٣٤	صل لبقال رشة — صل في الوديع — صل في الصبح — جواب في فتح
١٣٥	صل في الصبح عن الخفاء — صل في الاعتذار
١٣٦	الى المأمون من مائل — صل لاس الكلى
١٣٧	صل لاراهيم بن اسماعيل بن داود
١٣٨	صل لعمر بن مسعدة
١٣٨	صل لبني من واضح الى الفصل من ربيع — صل لحل من يريد
١٣٩	وله في المجلد — وله الى بعض إخوانه
١٤٠	صل لاس ابن كاتبة الحيروان — صل لاس الكلى — صل لعل بن عبيدة الى ابن الكلى
١٤١	صل لمهاوية — صل لسعيد بن عبد الملك

١٤٢	صل لعل ن يريد الى بص احواه — وله الى بص احواه أيضا
١٤٤	صل في شكر... .. .
١٤٥	صل في صفة الحمد
	ما كتبه حمير بن محمد الأشعث الى رجل لم يكتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل
١٤٦	يشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي — توسل
	ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن المهدي — ما كتبه
١٤٧	محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب في الاعتذار

التعظيم :

١٤٨	التعظيم الأول — التعظيم الثاني
	صدر محمد مفرد — صدر محمد آخر — محمد مختار لكاتب حريمة — حاتم في فتح
١٤٩	الصارية — محمد لأحد بن يوسف الى الولاة من الخليفة
	محمد لابراهيم بن العباس في فتح اسماعيل بن اسحاق — التعظيم الثاني — محمد له متدا
١٥٠	مقام بين يدي الخليفة
١٥١	محمد ثان — محمد ثالث
١٥٣	محمد في فتح لاس العباس
١٥٣	وله في فتح اس العيث لما طهره
١٥٤	وله صدر كتاب الجيوش في محمد الله ومحمده
١٥٥	محمد لأحد بن يوسف في صدر رسالة الجيوش التي كانت تقرأ بحراسان
١٥٦	محمد للباس في مقام له بين يدي المأمون — محمد لمد الجيد في أف البلاد الحروري
	محمد في فتح الى أمير لقائمة — صدر محمد لسان بن عبد الجيد في حطة موحدة — محمد
١٥٧	لمد الجيد في فتح
١٥٨	محمد ثالث
١٥٩	محمد لأنس بن أبي شيب — محمد لمد الجيد في فتح يسطم فيه أمر الاسلام
١٦٠	محمد لمد الجيد أيضا
١٦١	محمد لقائمة — محمد ليد بن علي — محمد في الاسلام
١٦٢	محمد لأبي عبد الله
١٦٣	صدر رسالة في الجيوش لابراهيم بن المهدي
١٦٤	محمد في الاسلام وما آمن به على أهله
١٦٥	محمد في الجهاد وما بعث به الى صلى الله عليه وسلم

١٦٨ محمدى صبح لمعدى س حيد
١٦٩ محمد لان القمع
١٧١ محمد لسانى س عد المجد — محمد لأحدى س يوسف فى صبح السد
١٧٢ محمد لأنى عيد الله — محمد لمعدى س حيد
١٧٣ ما يمزوط به الحليمة
١٧٧ محمد لأنى عيد الله
١٨٠ ما يكتب به فى الخافين وقت الحريرة
١٨١ ما يكتب به فى صفة الخافين
١٨٤ ما يكتب به فى الصاة — ما يكتب به فى مدح نواز الخيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم
١٨٧ وصف الأولياء فى الكتب
١٨٨ ما يمزوط به أمير المؤمنين فى أواخر الكتب — سعيد س حيد

التحاميد فى أواخر الكتب :

١٨٨ محمد لمعدى س صر — محمد لاراهيم س العاس — محمد لأنى عيد الله
١٩٢ الله، لأمر المؤمنين فى أواخر الكتب

مختار ما كتب من باب التهانى فى كل فن :

١٩٣ تهة حليمة طهر — ما كتبه اراهيم س المهدي الى المتصم به محروحه عن أرض الزوم
١٩٤ تهة أحمد س يوسف الى عبد الله س طاهر به طهر — تهة حليمة محج
١٩٥ تهة ولاية — تهة لمعدى س حيد الى بعض احواله
١٩٧ ما كتبه محمد س مكرم الى أحمد س ديسار
١٩٨ تهة صرل عامل من عمله
١٩٩ ما كتبه محمد س مكرم الى اراهيم بن المذر
٢٠٠ تهة قرويج وسان أهل
٢٠١ تهة مولود كتبها العاس س الحسن الطالى الى المأمون
٢٠٤ ما كتبه اس القمع الى صديق له ولدت له حارية
٢٠٥ تهة لمعدى س مكرم الى صرالى أسلم

باب المنظوم :

٢٠٦ أمرواس
٢٤٩ النعان

فهرس المجلد الثالث

(ز)

صفحة	
٢٥٥	دعبل ...
٢٦٥	حسن بن الصالح
٢٧٨	محمد بن عبد الملك الزيات
٢٨٣	ابن القواب ..
٢٨٦	الحسري
٢٩٥	عبد الله بن طاهر ..
٢٩٨	ما قبل في هاء الأيمن وزنائه ..
٣٠٣	هاء يميني ن أكنم ..
٣٠٥	وصف ثورة بغداد وحرقها ..

مُلْحَقٌ

الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون، وهو الكتاب الذى أشربا اليه فى الحرة الأولى .
 إذا ورد عليك كتاب أخيك — أعاده الله من — فقدك — عند حلول ما لا مرد له
 ولا مدفع، مما قد أحلف وتسامح الأمم الخالية، والقرون الماضية، بما عزاك الله به .
 وأعلم أن الله جل شأؤه، قد اختار لأمر المؤمنين أمصل الدارين، وأجرل الخطبين،
 فقبضه الله طاهرا زائكا، قد شكره، وغمر دنيه، إن شاء الله . فقم فى أمرك قيام
 ذى الحزم والعزم، والناظر لأخيه ونفسه، وسلطانة وعامة المسلمين . وإياك أن يغلب
 عليك الجزع، فإنه يُحِيط الأجر، ويُعِيب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيا وميتا،
 وإنا لله وإنا إليه راجعون . وحذ البيعة على من قبلك، من قوادك وجندك، وخاصتك
 وعائتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التى جعلها لك
 أمير المؤمنين : من نسحها له وإبانتها، فإنك مُقلد من ذاك، ما قلبك الله وحليفته .

وأعلم من قبلك رأى فى صلاحهم، وسد خلتهم، والتوسعة عليهم، من أنكرته عند
 بيعته، أو أتهمته على طاعته، فابعث الى برأسه مع خبره . وإياك وإقالته، فإن البارأوى

به . واكتب الى عمال ثغورك ، وأمرأه أحادك ، بما طرقتك من المصيبة أمير المؤمنين ، وأعلمهم أن الله لم يرش الدنيا له ثوابا ، حتى قصبه الى روجه وراحته وحتته ، مَعُوطَا محمودا ، قائدا لجميع حلفائه الى الجحيم إن شاء الله . وصرهم أن يأخذوا البيعة على أجادهم ، وخوآصهم وعوامهم ، على مثل ما أمرتك به ، من أخذها على من قَلَّك ، وأوعز إليهم في صسط ثغورهم ، والقوة على عدوهم ، إلى متفق حالاتهم ، ولألم شعثهم ، وموسع عليهم ، ولا آين في تقوية أحادي وأصباري . ولنكن كُنُك إليهم كُنُا عامة لتقرأ عليهم ، فإن ذلك ما يسكنهم ، ويسط ألمهم . وأعمل بما أُمِرُّ به لمن حصرتك ، أو أَى عك من أجادك على حسب ما ترى وتشاهد . فإن أحاك صرف حسن اختيارك ، وصحة رأيك ، وبعد طررك ، وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشدك عصده ، ويجمع لك أمره ، إنه لطيف لما يشاء . وكتب بكر بن العتير بين يدي وإملأني في شوال سنة ١٩٢ هـ

٢ - وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا ورد عليك كتابي هذا ، عد وقوع ما قد سبق في علم الله ، وبعد من قضائه ، في حلفائه وأوليائه ، وحرَّت به سنته في الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، قال : ﴿ زُكِّلْ شَيْءٌ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . فاتخذوا الله على ماصار إليه أمير المؤمنين ، من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، إنا إليه راجعون ، وإياه نسأل أن يُحْيِي الخلافة على أمته بنبه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان لهم عَصْمَةٌ وكهفها ، وبهم ردها رحيا .

فشعرتي أمرك ، وإني لك أن تلقى بيدك ، فإن أحاك قد أختارك لما آمنتك له ، وهو مُتَّفَقٌ مواقع فقدامك ، لحق طبعه ، ونسأل الله التوفيق . وحذ البيعة على من قَلَّك ، من ولد أمير المؤمنين ، وأهل بيته ومواليه وحاصته وعامته لحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريعة التي جعلها

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسحها على القاسم أو إثنائها . فإن السعادة والإثمن في الأخذ بهذه والمضي على ما هذه .

وأعلم من قِلك من الخاصة والعامة رأي في استصلاحهم ، ورد مظالمهم ، وتقيد حالاتهم ، وأداء أرفاقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاعب ، أو هربا عمر ، فاسط به سطورة تجعله كلالا بين يديها وما خلفها وموعظة للتميز . وأصمهم إلى الميمون ابن الميمون الفضل — الربيع ولد أمير المؤمنين وحده وأهله ، ومُره المسير معهم فيمن معه ، وجده ورابطته ، وصبر إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحدثه ، فإنه ثقة على ما يلى ، يقول عبد العاتق ، وأصمهم إليه جميع جد الشرط ، من الروابط وغيرهم ، إلى من معه من جده . ومُره بالحد واليقظ ، وتقديم الحزم في أمره كله ، ليله ونهاره . فإن أهل العداوة والعدا لمسا السلطان يتيمون مثل حلول هذه المصيبة ، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه من لا يعرف إلا بالطاعة ، ولا يدين إلا بها ، بمعاقدة من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ، ومُره الخدم بإحصار روابطهم ، من بسط بهم وأجادهم مواضع الخلل من عسكرك ، فإنهم حد من حدودك ، وصبر مقتدتك إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، وسألتك إلى يحيى بن مُعاد ، فيمن معه من الجود ، ومُرها معاوبتك في كل ليلة .

وآزم الطريق الأعظم ، ولا تَعْدُونَ المراحل ، فإن ذلك أرقق لك ، ومُره أسد بن يزيد ، أن يتخير رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصير إلى مقدمته ، ثم يصير أمامه ، لتبته المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يتحضر في عسكرك بعض من سميت ، فاحترلواصمهم من ثيق طاعته ، ونصيحته وهيته ، عند العوام ، فإن ذلك لى بعوزك ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

ولأنك أن تَتَفَدَّ رأيا ، أو تُزِمَ أمرا ، إلا برأى شيخك ، وبقية أئامك ، الفضل بن الربيع ، وأقر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخرائط وغير ذلك ؛

ولا تُخْرِجَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ، مِنْ صَمْنٍ مَا عَلِيٍّ، إِلَى أَنْ تَقْدُمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أُوصِيْتُ بِكَرْنِ الْمُعْتَمِرِ بِمَا سَيُطْلَعُكَ، وَأَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قَدْرَ مَا تَشَاهَدُ وَرَى . وَإِنْ أَمَرْتُ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ مَعْطَاءٍ أَوْ رِزْقٍ طَلَبَكَ الْفَصْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الْمُنْتَوَى لِإِعْطَائِهِمْ، عَلَى دَوَاوِينَ يَخْضَعُهَا لِنَفْسِهِ، بِمُخْتَصِرٍ مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ، فَإِنَّ الْفَصْلُ بْنُ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ إِلَى عَدُوِّهِ وَصُولَ كَتَايَ هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ، وَكَرْبَنَ الْمُعْتَمِرِ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا مِنَ الرِّيدِ، وَلَا يَكُونُ لَكَ عُرْجَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ، بِمَوْصِعِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، حَتَّى تُؤَدَّعَهُ إِلَى عَسْكَرِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَانِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْعِيكَ اللَّهُ عَنكَ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ حَسَنَ التَّأْيِيدِ بِرَحْمَتِهِ، وَكُنْتُ بِكَرْنِ الْمُعْتَمِرِ بِي يَدِي وَإِمْلَائِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

ثم هم الذين حادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أصههم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تِلَاوَتِهِ ، مُطْلَقٌ قَوْلُهُمْ ، ومكذَّبٌ دَعْوَاهُمْ ، يَرُدُّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ وَيُنْجِثُهُمْ ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وعُروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السُّنَنِ الكاذب ، والتشعُّع لغير الله ، والتشعُّف لغير الدين إلى مُوافقتهم عليه ، ومواطاتهم على سَيِّئِ آرائِهِمْ ، تَرْثِيًا بِذَلِكَ عَدَمَهُمْ ، وَبَصْنًا لِلرِّيَاسَةِ وَالْعَدَالَةِ فِيهِمْ ، فترسكوا الحق إلى ما ظلمهم ، واتخذوا دون الله وليحة إلى صلاتهم ، فَقِيلَتْ بِتَرْكِتِهِمْ لَهُمْ شَهَادَتُهُمْ ، ونعدت أحكام الكتاب بهم ، على دَعَلِ دينهم ، وَقَلَّ أَدِيمُهُمْ ، ومصاد نيانهم ويقينهم ؛ وكان ذلك طائمتهم التي إليها حَرَّوْا ، وَإِيَّاهَا طَلَبُوا فِي مُتَابَعَتِهِمْ ، والكذب على مولاها ، وقد أخذ طيبهم ميثاق الكتاب ، أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمَّهُمُ اللَّهُ ، وإعْمَى أَبْصَارَهُمْ ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝ ﴾ . فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأئمة ، ورموس الضلالة ، المتفوضون من التوحيد خطأ ، والمتفوضون من الإيمان بصحتها ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الباطل في أوليائه ، والهاائل على أعدائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يُنْفَعُ في صدقه ، وتُطْرَحُ شهادته ، ولا يؤثَّقُ بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ، وَمَنْ عَمِيَ عن رشده وحفظه ، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عمما سوى ذلك من عمله ، والقصد في شهادته ، أَعْمَى وَأَصْلَلَّ سَبِيلًا ؛ وَلَعَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنِ أَجْمَعَ النَّاسَ بِالْكَذِبِ وَقَوْلِهِ ، وَتَحَرَّصَ بِالْبَاطِلِ فِي شَهَادَتِهِ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَوَحْيِهِ ، ولم يعرف الله حقيقة مرجه ، وأن أولاهم ردَّ شهادته ، في حكم الله ودينه مَنْ رَدَّ شَهَادَةَ اللَّهِ عَلَى كِتَابِهِ ، وَبَيَّتَ حَقَّ اللَّهِ بِبَاطِلِهِ ، فَاجْتَمَعَ مَنْ بِحَضْرَتِكَ مِنَ الْقَصَاةِ ، وَأَقْرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا إِلَيْكَ ، فَأَبْدَأَ بِامْتِحَانِهِمْ فَمَا يَقُولُونَ ، وتكشيفهم عما يمتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثيه ؛ وَأَعْلَنَهُمْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ مُسْتَعِينٍ فِي عَمَلِهِ ، وَلَا وَائِقٍ

فَإِقْلَدَهُ اللهُ، وَاسْتَحْظَهُ مِنْ أُمُورِ رَعِيَّتِهِ بَيْنَ لَا يُوثِقُ بَدِينَهُ، وَخُلُوصَ بُوْحِيدِهِ وَبِقِيَدِهِ،
فَإِذَا أَقْزَوْا بِذَلِكَ، وَوَافَقُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ، وَكَانُوا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى وَالنَّجَاةِ، قُرَّهِمْ بِنَفْسٍ
مَنْ يَحْصُرُهُمْ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى النَّاسِ، وَمَسْأَلَتِهِمْ عَنْ عِلْمِهِمْ فِي الْقُرْآنِ، وَبَرَكِ إِثْبَاتُ شَهَادَةِ
مَنْ لَمْ يَقْزَأْتَهُ مَخْلُوقٌ مُخَدَّثٌ وَلَمْ يَرِهِ، وَالْإِمْتِنَاعَ مِنْ تَوْقِيعِهَا عِنْدَهُ، وَكَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِمَا يَأْتِيكَ، عَنْ قُصَاةِ أَهْلِ عَمَلِكَ فِي مَسْأَلَتِهِمْ، وَالْأَمْرَ لَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ،
وَتَفَقَّدَ أَتَاؤَهُمْ، حَتَّى لَا تُقَدَّ أَحْكَامُ اللهِ، إِلَّا بِشَهَادَةِ أَهْلِ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ، وَالْإِحْلَاصِ
لِلتَّوْحِيدِ، وَكَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ . وَكَتَبَ فِي شَهْرِ
رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ٢١٨ هـ .

وَكُتِبَ الْمَأْمُورُ، إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فِي إِسْخَاصِ سَمْعِهِ مَرَّةً، مِنْهُمْ : مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ
كَاتِبُ الْوَأَقْدَى، وَأَبُو مُسْلِمٍ مُسْتَعْلَى بَزِيدَ بْنِ هَارُونَ، وَبِجِيٍّ بْنِ مُعِيْنٍ، وَرُحْمَرُ بْنُ حَرْبٍ
أَبُو حَيْثَمَةَ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ دَاوُدَ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي مَسْعُودٍ، وَاحْمَدُ بْنُ الدَّوْرَقِيِّ،
فَانْتَحَصُوا إِلَيْهِ، فَامْتَحَنَهُمْ، وَسَلَّمَهُمْ عَنْ حُلِيِّ الْقُرْآنِ، فَأَحَابُوا حَيْثَا أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ،
فَانْتَحَصَهُمْ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ، وَأَحْصَرَهُمْ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ دَارَهُ، فَشَهَّرَ أَمْرَهُمْ وَقَوْلَهُمْ
بِحَصْرِهِ الْعَقَاءِ، وَالْمُنَاجِيحِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، فَأَقْزَوْا بِمِثْلِ مَا أَحَابُوا بِهِ الْمَأْمُورَ حَتَّى سَبَّلَهُمْ،
وَكَانَ مَا فَعَلَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذَلِكَ أَمْرَ الْمَأْمُورِ .

وَكُتِبَ الْمَأْمُورُ عِدَّةً ذَلِكَ إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنْ مِنْ حَقِّ اللهِ عَلَى خُلَعَانِهِ فِي أَرْضِهِ، وَأَمَانَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، الدِّينَ آرْتَصَاهُمْ
لِإِقَامَةِ دِينِهِ، وَحَمْلِهِمْ رِعَايَةَ حُلُقِهِ، وَإِمَاعَةَ حُكْمِهِ وَسُنَّتِهِ، وَالْإِتِّمَامَ بِعَدْلِهِ فِي بَرِيَّتِهِ، أَنْ
يَتَّخِذُوا لِقَاءَ اللهِ أَمْسَهُمْ، وَيَتَصَحَّوْا لَهُ فِيمَا اسْتَحْظَهُمْ وَقَلَدَهُمْ، وَيَذَوُّوا عَلَيْهِ — تَبَارَكَ اسْمُهُ
وَتَعَالَى — بِفَضْلِ الْعِلْمِ الَّذِي أَوْدَعَهُمْ، وَالْمَعْرِفَةِ الَّتِي جَعَلَهَا فِيهِمْ، وَيَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَنْ زَاغَ
عَنَّهُ، وَيُرْجَوْا مَنْ أَدْبَرَ عَنِّ أَمْرَهُ، وَيَنْهَوْا لِرِعَايَاهُمْ تَمَّتْ نَحَاتُهُمْ، وَيَقْعُوهُمْ عَلَى حُدُودِ
لِيْمَانِهِمْ، وَسَبِيلِ فَوْزِهِمْ وَعَصَمَتِهِمْ، وَيَتَكَشَّفُوا لَهُمْ عَنْ مُقْطِعَاتِ أُمُورِهِمْ، وَمَشْتَبَاهَاتِهَا

عليهم، بما يدفعون الرب عنهم، ويعود بالصياء والده على كافهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتصييرهم، إذ كان حاملا لصون مصالحهم، وستظا لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساوئهم عما حُمِلُوهُ، ومخاراتهم بما أسلفوه، وقد تَوَهَّجُوا عَلَيْهِمْ، وما توفيقُ أمير المؤمنين، إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بينه أمير المؤمنين برويته، وطالعه بمكره، فتبين عظيم خطره، وحليل ما يرجع في الدين من وكفه وصرره ما يبال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصعبه عهد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم، وأشباهه على كثير منهم، حتى حسَّ عندهم، وررَّ في عقولهم، ألا يكون مخلوقا، فتمزصوا بذلك لدفع خلق الله، الذي نادى به عن خلقه، وتعدد محلاته من استداع الأشياء كأفها بحكمه، وإشائها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته، التي لا تُسَلَّعُ أولاهها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه، خلقا من خلقه، وحدنا هو المُخْبِثُ له. وإن كان القرآن باطلا به، ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وصاحوا به قول الصاري، في أدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وتأويل ذلك: إما خلقه، كما قال حل حلاله ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا رَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّمَارَ مَعَاشًا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾. فسوى عز وجل، بين القرآن، وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شبه الصعفة، وأحبر أنه جعله وحده، فقال: ﴿قُلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾. فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يُحاط إلا بمخلوق، وقال لمبه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَحْرُكُهُ يَدُ لِسَانِكَ تَتَمَعَّلُ بِهِ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الْقُرْآنَ حَتَّى تَتَذَكَّرُوا مِنْهُ وَأَشَارُوا بِهِ بِأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ يَكُونُ عَنَّا ذِكْرًا لِمَن أَهْمَهُ مِنْهُ﴾. وقال: ﴿قُلْ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأحبر عن قوم ذمهم بكنسهم، أنهم قالوا: ﴿مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. ثم أكذبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أُنْزِلَ الْكِتَابَ الَّذِي حَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. فسعى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكْرًا، وإيمانا ونورا وهدي ومباركا وعرييا

وقصصا ، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَحْتَمَعْتَ الْأَنْسَ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ﴾ .
 وقال : ﴿ قُلْ فَأَنذَرْتُكُمْ سُورَةَ مِثْلِهِ مُعْتَرِيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْسِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ نَبِيِّ يَدَّهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . بفصل له أولا وآخرا ، ودل عليه ، أنه محدود مخلوق ، وقد علم هؤلاء
 الجهلة بقولهم في القرآن ، التلم في دنهم ، والخرح في أماسهم ، وسهلوا السبيل لسدق
 الإسلام ، وأقرعوا بالتدليل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا ، ووصفوا خلق الله وفعله
 بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشابه أولى بحلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين ،
 لمن قال بهذه المقالة خطأ في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُعَيَّل
 أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صِدْقٍ في قول ولا حكاية ، ولا توليه
 لشيء من أمر الرعية ، وإن طهر قصد بعضهم ، وعُرف بالسداد مُسَدِّدٌ فيهم ، فإن الفروع
 مردوده إلى أصولها ، ومجولة في الحمد والدم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر ديه ، الذي
 أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعس الرشد في غيره أعمى وأصل
 سبيلا .

فأقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين ، بما
 كتب به إليك ، واصصهما عن جانبهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين
 على شيء من أمور المسلمين ، ألا بمن وثق بإحلاصه وتوجيهه ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقَرَّر
 بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم السهما في امتحان من يحضر
 مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، قس لم يقل منهم لأنه
 مخلوق ، أطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما قوله ، وإن ثبت عمافه بالقصد والسداد في أمره ،
 وأفضل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة
 في بصيرته ، ويجمع المرتاب من إعمال ديه ، وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك
 في ذلك إن شاء الله .

ثم لسطر ما حصل بعد ذلك بما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسماعيل بن إبراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين ، وأحضر أنا حسان الرامدي ، وذريرس الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفصل بن عام ، والذئبال بن الهيثم ، ومحماده ، والقواريرى ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجهم ، وإسماعيل بن أبي إسرائيل ، وآبن الهريش ، وآبن علفية الأكبر ، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأنا نصر الثمار وأنا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن بوح المصروب ، وآبن الفرحان ، وجماعة منهم القنبرس شيبيل ، وآبن علي بن عاصم ، وآبن القوام البراز ، وآبن شجاع ، وعبد الرحمن بن إسماعيل ، فأدخلوا جميعا على إسماعيل ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال إسماعيل الوليد . ما يقول في القرآن ؟ فقال . قد صرفت مقاتلي لأمر المؤمنين عمر مرة ، قال . فقد نحتد من كتاب أمر المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، مخلوق هو ؟ قال . الله خالق كل شيء ، قال : ما القرآن شيء ؟ قال . هو شيء ، قال . مخلوق ؟ قال . ليس بمخلوق ، قال : ليس قال : ما القرآن شيء ؟ قال . هو شيء ، قال . ما أحسن عمر ما قلت لك ، وقد استمهدت أمر المؤمنين ألا أتكلّم فيه ، وليس عسدي عمر ما قلت لك ، فأحد إسماعيل بن إبراهيم رقة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قلبه شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كسّ أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : أكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي عبرة ما سمع ، فادّحه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقالته .

ثم قال للذَّيَالِ نَحْوًا مِنْ مَقَالَتِهِ لَعَلَّ بَنِي أَبِي مُقَاتِلٍ ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حَسَّانَ الزَّيَادِي : مَا عِنْدَكَ ؟ قال : سَأَلْتُ عَمَّا شِئْتُ ، فَقَرَأَ عَلَيَّ الرُّقْمَةَ ، وَوَقَفَهُ عَلَيْهَا فَأَقْرَبَ بِمَا فِيهَا . ثم قال : مَنْ لَمْ يَقُلْ هَذَا الْقَوْلَ فَهُوَ كَافِرٌ ، فقال : القرآنُ مخلوقٌ هو ؟ قال : القرآنُ كلامُ الله واللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وما دونُ الله مخلوقٌ ، وأميرُ المؤمنين إمامًا وبسببه سميَّ عامة العلم ، وقد سمِعَ ما لم أسمع ، وعِلِمَ ما لم أعلم ، وقد قلَّده الله أمرنا ، فصار يُقِيمُ تَجْمَاً وصلاتنا ، ووَدَّيْهِ إِلَيْهِ زَكَاةُ أَمْوَالِنا ، ونَزَى إِمَامَتُهُ إِمَامَةً ، وإن أمرنا انْتَهَرنا ، وإن نهانا أَتَيْنَاهَا ، وإن دعانا أَجَبْنَا ، قال : القرآنُ مخلوقٌ هو ؟ فأعاد عليه أبو حَسَّانَ مَقَالَته ، قال : إن هذه مَقَالَةُ أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مَقَالَةُ أمير المؤمنين ولا يَأْمُرُ بِهَا النَّاسُ ، ولا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهَا ، وإن أُخْبِرْتَنِي أَنَّ أمير المؤمنين أَمَرَكَ أَنْ أَقُولَ قُلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، فإِنَّكَ التَّحْقُّقُ المأمون عليه ، فَمَا أَلْعَنَتْنِي عَنْهُ مِنْ شَيْءٍ ، فإن أَلْعَنَتْنِي عَنْهُ بَشِيءٌ صِرْتُ إِلَيْهِ ، قال : مَا أَمَرْتَنِي أَنْ أَلْعَنَكَ شَيْئًا ، قال علي بن أبي مُقَاتِلٍ : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها ، قال له أبو حَسَّانَ : مَا عُدِيَ إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، فَرِنِي أَتَمِّرُ ، قال مَا أَمَرْتَنِي أَنْ أَمَرَكَ ، وإنما أَمَرْتَنِي أَنْ أَمْتَحِكَ .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال له : مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أم مخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليه ، فامتنع به في الرقعة ، فلما أتى إلى ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) وأمسك عن لا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنْ حَلْقِهِ ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البَكَّاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سميعٌ مِنْ أَذُنٍ ، بصيرٌ مِنْ عَيْنٍ ، فقال لإسحاق لأحمد بن حنبل : مَا مَعْنَى قَوْلِهِ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فَمَا مَعْنَاهُ ؟ قال : لا أَدْرِي هُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلَّهم يقول : القرآنُ كلامُ الله ، إلَّا هُوَ لَا الْمَرْءُ قَتِيئَةً ، وعبيدُ الله بن محمد بن الحسن ، وابنُ عَلِيَّةٍ الْأَكْبَرِ ، وابنُ الْبَكَّاءِ ، وعبدُ الْمُعَمِّ بْنِ إِدْرِيسَ

ابن بنت وَهْب بن مُسَّة ، والمُطَّقَّرَانِ مُرَحَّأ ، ورحلا صريرا ليس من أهل العِقه ، ولا يُعرفُ بشيءٍ منه إلَّا أَنَّهُ دُتس في ذلك الموضع ، ورحلا من ولد عمر بن الخطَّاب قاضي الرقة ، وابن الأحرر ، فأما ابن السَّكَّاء الأكبر فإنه قال - القرآن مجعول لعول الله تعالى : ﴿ إِنَّا حَمَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَالْقُرْآنُ مُحَدَّثٌ لِقَوْلِهِ . ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ ﴾ ﴾ قال له إسحاق : فالمجعول مخلوق قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق قال : لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكنت مقالته ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن السَّكَّاء الأصغر فقال - أصلحك الله - : إن هذين القاصيين أئمة ، فلو أمرتهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : هما من يقوم بحجّه أمر المؤمنين ، قال : فلو أمرهما أن تُسمعانا مقالتهما لِحُجَّتِي ذلك عليهما ! قال له إسحاق : إن شهدتَ عدما بشهادته فستعلم مقالاتهما إن شاء الله ، فكنت مقالة القوم رحلا رحلا ووُحِّتْ إلى المأمون ، فكثت الصوم سبعة أيام ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون . حوَّابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم . وهالك هو مانعُله حتما لكلنا .



بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين دَأْبُكَ حوَّابُ كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليه مُتَصَصِّمُهُ أهل القفلة ، ومأجسو الراسه فما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرك به أمر المؤمنين ، من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم ، بذكر إحصاءك حعفر بن عيسى ، وعدد الرحمن بن إسحاق ، عدد ورود كتاب أمر المؤمنين ، مع من أخصرت ممن كان ينسب إلى العِقه ، ويُعرف بالحلوس للحدث ، وتُصِبُ منه للفتيا عدسه السلام ، وقرأتكَ عليهم جميعا كتاب أمير المؤمنين ، ومسألتكَ إياهم عن اعتمادهم في القرآن ، والدلالة لهم على خطيئهم ، وإطاعتهم على هي السبيله ، واختلافهم في القرآن ، وأمركَ مَنْ لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحدث والعتوى ، في السر والعلانية ، وتقدَّمَك إلى السَّيِّدِي ، وعاس مولى أمير المؤمنين بما

تقدّمت به فيهم الى القاصيتين بمنزل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان من يتحصّر مجالسهما من الشهود، وتكتب الكتب الى القضاء في الواحي من عملك بالقدوم عليك، لتحيلهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين، وتثبتك في آخر الكتاب أسماء من حصر ومقالانهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت، وأمير المؤمنين محمد الله كثيرا كما هو أهله، ويسأله أن يصلي على عده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله في التوفيق لطاعته، وحسن المعونة، على صالح بينه رحمه .

وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن . وما رجع اليك فيه كل أمرئ مهم، وما شرحت من مقالهم، فأما ما قال المعرور شرر الوليد في نفي التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك واستعماده أمير المؤمنين، فقد كذب بشيء ذلك وكفر، وقال الزور والمكر، ولم يكن جري بين أمير المؤمنين وبنته في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظر أكثر من إحساره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادع به إليك، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وأبصبه عن قوله في القرآن، واستيقه منه، وإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقاتته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، وإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصر على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وأبعت اني أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمنزل ما تمتحن به بشرا، فإنه كان يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالع، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره واكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وأبعت اني أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له : ألسنت القائل لأمر المؤمنين إنك تحل وتحرم والمكلم له بمنزل ما كتبت به، مما لم يذهب عنه ذكره، وأما الذئبال بن الهيثم، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يشربه في الأبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبي العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مفتنيا آثار سلفه ، وسالكا ما همهم ، ومُخْذِيا سبيلهم ، لما نرح إلى الشرك بعد إيمانه ، وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العَروم ، وقوله إنه لا يُحْسِنُ الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله ، لا في سده ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحْسِنُ الجواب في القرآن مِيجِيسه ، اذا أحذه التاديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرفَ حقوى تلك المقالة ، وسبيلَه فيها ، وأستدلَّ على جهله ، وآفته بها ، وأما الفصل بن غانم ، فأعلمه أنه لم يتخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما آكتسب من الأموال في أقل من سنة ، وما شخر يده وبين المُطَّاب بن عبد الله في ذلك ، وأنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الديار والدرهم رغبته ، فليس بمُستَكْرَأَبٍ يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإينارا لعاقل معهما ، وأنه مع ذلك القائل لعل بن هشام ما قال ، والمخائف له فيما حاله فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، وقضه الى غيره ؟ وأما الرِّبَادِيّ ، فأعلمه أنه كان مُتَّحِلًا لأوَّلِ دَعْيٍ كان في الإسلام حُوفٍ فيه حكمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حديرا أن يسلك مسلكه فانكر أبو حسان أن يكون موثى لرياد ، أو يكون موثى لأحد من الناس ، — وذكر أنه إنما نُسِبَ الى رِياد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبي نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خِساءَ عقله بحِساءَ متَّجِرِه ، وأما الفصل س القرحان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أحدَ الودائع التي أودعها لِيَاهِ عبد الرحمن بن إسماعيل وغيره ، ترَّصبا بن استودعه ، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيل عليه عن تقاضم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسماعيل لا جراك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وإيمانك لِيَاهِ ، وهو معتقِدٌ للشرك ، ملسخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن روح ، والمعروف بأبي مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغل يا كل الرما ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله وعجدهم ،

ألا لإدبارهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للصارى مثلا، وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبك بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام، وأنه من الدينار والدرهم دينه، وأما سعدويه الواسطيّ فقل له: قبح الله رجلا لم به التصبغ للحديث، والترين به، والحرص على طلب الرئاسة فيه، أن يمتنّى وقت المحبة يقول بالتمزب بها: متى يُمتحن فيجلس للحديث؛ وأما المعروف بسعاده، وإكباره أن يكون سميع من كان يحالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، الهول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شعله بإعداد السوى، وحكّه لإصلاح تحاده، وما ودائع التي دهمها إليه على بن يحيى وغيره ما أدله على التوحيد وألهاء، ثم سلّه عما كان يوسف بن أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وحالهما، وأما العواريريّ فعبا تكشف من أحواله، وقوله الرشا والمصاعبات ما أمان عن مذهبه، وسوء طريفته، وتحمّاق عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لجمهور عيسى الحسنيّ مسائله، فتقدّم إلى جمهور عيسى في رصده، وترك الثمة به، والاعتنامه إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب لمجوابه معروف، وأما محمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلّمه لم ينتحل السّحلة التي حكيّت عنه، وإنه بعد صبيّ يحتاج إلى تعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليّك المعروف بأبي مُسهر، بعد أن نصّه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن، فحمّهم عنها، وبلّغ فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ دميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيا عليه فأشهر ذلك وأطهره إن شاء الله، ومن لم يرجع عن شركه من سميت لأمر المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشرى الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فأحلهم أجمعين، مؤقنين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤتيمهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلمهم الى من يؤمر بسليمهم اليه ، ليُصَّهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قُوَّةَ إِلَّا بالله ؛ وقد أخذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُنداريَّة ، ولم يظفر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجلا به ، ففترقا الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأعِدَّ لِمَا أَتَاكَ من أمر أمير المؤمنين ، وعمل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بُنداريَّة معدة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عهد طاهر بن الحسين الى عبدالله آبه هذا العهد، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، وقال : ما أتى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبير والرأي، وإصلاح الملك والرعية، وحفظ النعمة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدم فيه . وأمر أن يكتبَ بذلك الى جميع المال في رواحى الأعمال . ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية أثرا ذكره على ما فيه من طول رغبة منا في ألا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطر، وهما كه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة تحطه ، وحفظ رعيته ، وألزم ما ألهسك الله في العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر اليه ، وموقوف عليه ، ومستول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويحييك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوحى عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عساده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والبت عهم ، والدفع عن حريمهم وبئضهم ، والحقن لدمائهم ، والأمر لسييلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاحدك بما فرص عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومسايلك عنه ، وميثك عليه بما قدمت وأخرت ، هرع لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يذهلك عنه دهل ، ولا يسعلك عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملاك شاك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتُسب إليه هالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالاس قبلك في مواقيتها على سننها في أسباع الوصوه لها وأفتاح ذكر الله فيها ، وترتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، وتصدق فيها لربك نيتك ، وأحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وآداب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك بالأحد بمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثارة على حلاته، وأقتفاء آثار السلف الصالح من صده، وإذا ورد عليك أمر فاستمع عليه باستحارة الله وتجوّاه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وانحاش ما حاءت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحقّ لله عليك، ولا تميل عن العدل فيما أحببت أو كرهت، لقريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحلّته وكتاب الله والعالمين به، فإن أفضل ما ترين به المنة العقبى في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والفائدة له، والأمر به، والسعى عن المعاصي والمونقات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله، عز وجل، وإحلالا له وقدركا للدرجات العلوية والمعاد، مع ما في طهوره للناس من التوفيق لأمرك والمهبة لسلطانك، والأتس به والثقة بعدك. وعليك الاقتصاد في الأمور كلها فليس شيء أبين بها ولا أحصر أسما ولا أجمع فصلا من القصد، والقصد داعية إلى الرشده، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق مفسد إلى السعادة، وقوام الدين والسنة المسادية للاقتصاد، فأثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنة المعروفة ومعالج الرشده، فلا عاة للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجه الله ومرصاته، ومرافقة أوليائه، في دار كرامته.

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث المرء، ويحصن من الدوب وأكلى لم تحوط نفسك من بليك، ولا تستصلح أمورك، بأفصل منه، فاته، وأهتد به تم أمورك، وتزد مقدرتك، وتصلح حاجتك وعانتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعتك، والنفس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستند به العمة عليك، ولا تيهض أحدا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراءة والظنون السيئة بهم مائمه، وأجعل من شأنك، حسن الظن بأصحابك، وأطرد عنك سوء الظن بهم، وأرفعه عنهم، يُسك ذلك على أصطباعهم ويرياصتهم، ولا يفتقد عدو الله الشيطان في أمرك مغفرا،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهَيْكَ مِدْحَلْ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ ، وَ سَوْءِ الطَّنِّ ، مَا يُنْقَضُ عَلَيْكَ
لِإِذَا عَيْشُكَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْدُ بِحَسَنِ الطَّنِّ ، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ ، وَتَتَكَيَّفُ بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِهَابَيْتِهِ مِنْ
أُمُورِكَ ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ ، وَالْإِسْتِقَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ . وَلَا يَمْلِكُ حَسَنُ الطَّنِّ
بِأَصْحَابِكَ ، وَالرَّافَةِ بِرَعِيَّتِكَ ، أَلَّا تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئَلَةَ وَالبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ
الْأَوْلِيَاءِ ، وَالحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالطَّرْفَ مَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا ، بَلْ لِيُكْنِيَ المُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ،
وَالحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالطَّرْفَ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَحُلَّ مَوَاقِفِهِمْ ، آثَرُ عَدَدِكَ مَا سَوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ
أَقْوَمُ لِلدِّينِ ، وَأَحْيَا لِلنَّسْلِ ، وَأَحْلَسُ يَتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا ، وَتَعَزُّدُ تَقْوِيمِ هَسْكَ ، تَفَرَّدَ مِنْ
يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا صَعَّ ، وَعِزَّى عَمَّا أَحْسَسَ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا ، وَرَبَّعَ مِنْ
أَتَمَّهِ وَعِزَّزَهُ ، فَاسْأَلْكَ مِنْ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ ، مَهْجِ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةِ الْهُدَى ، وَأَقِمَّ حَدُودَ اللَّهِ
فِي أَحْصَابِ الْحَرَامِ عَلَى قَدَرِ مَا زَلِمَ ، وَمَا اسْتَحَقَّوهُ ، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَتَّاهُونَ بِهِ ، وَلَا
تُؤْثِرْ عَقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي تَعْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ ، لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ طَنِّكَ ،
وَاعْزِمْ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ مَا لَسَ الْمَعْرُوفُ ، وَحَاطِبِ الشُّبْهِ وَالبِدْعَاتِ ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ ،
وَتَقَمَّ لَكَ مَرْوَةُكَ ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا قَبْلَ بِهِ ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَأَبِجْهِ ، وَأَقْبَلِ الْحَسَنَةَ ،
وَأَدْفَعْهَا ، وَأَعْمِضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ دِي عَيْبٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَشَدُّ لِسَانَكَ عَنْ قَوْلِ الْكُذْبِ
وَالزُّورِ ، وَأَبِصْ أَهْلَهُ ، وَأَقْصِ أَهْلَ النِّيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فَسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ
وَأَجْلُهَا ، تَقْرِيبُ الْكُذُوبِ ، وَالحِرَاءَةُ عَلَى الْكُذْبِ ، لِأَنَّ الْكُذْبَ رَأْسُ الْإِثْمِ ، وَالزُّورُ
وَالنِّيمَةُ حَاطَتُهُمَا ، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا ، وَقَائِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبُهَا وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمَطْعِمِهَا
أَمْرٌ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَعَزُّ الْأَشْرَافِ مَالِحِقُ ، وَوَاصِلُ الصَّعْفَاءِ ، وَصِلِ
الرَّحِمَ ، وَابْتَغِ ذَلِكَ وَحَةَ اللَّهِ ، وَعِزَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَتَمِّمْ فِيهِ نَوَابِهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَاجْتَنِبِ
سَوْءَ الْأَهْوَاءِ وَالجُورَ ، وَأَصْرِفْ عَنْهَا رَأْيَكَ ، وَأَطْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ ، وَأَعِمْ الْعَدْلَ
سِيَاسَتَهُمْ ، وَقَمِ الْحَقَّ فِيهِمْ ، وَالمَعْرِفَةَ الَّتِي تَنْتَهِي بِكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى ، وَأَتَمِّمْ هَسْكَ عِنْدَ
الْغَضَبِ ، وَآخِرَ الْوَقَارِ وَالْحِلْمِ ، وَإِيَّاكَ وَالحِلَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالمَرُورَ مَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، وَلِيَاكَ أَنْ

تقول . إني مُسَلِّطٌ أَهْلَ مَا أَشَاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ فَيْكَ إِلَى تَقْصِ الرَّأْيِ ، وَقَلَّةِ الْيَقِينِ مَا لَهُ
 وَحْدَهُ لِاشْرِيكَ لَهُ ، وَأَحْيَيْتُ اللَّهَ وَحْدَهُ إِلَيْهِ فِيهِ ، وَالْيَقِينُ بِهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَلِكَ اللَّهَ ، يُعْطِيهِ مِنْ
 يَشَاءُ ، وَيُعْرِضُهُ مَنْ يَشَاءُ وَلَنْ تَجِدَ تَعْيِيرَ الْعَمَةِ ، وَحُلُولَ الْبِقَعَةِ ، إِلَى أَحَدٍ أَسْرَعَ مِنْهُ ، إِلَى حَمَلَةِ
 الْعَمَةِ ، مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ ، وَالْمَبْسُوطِ لِيَدِهِ فِي الدَّوْلَةِ ، إِذَا كَفَرُوا بِسَمِيعِ أَمْرِ إِحْسَانِهِ ، وَأَسْتَطَالُوا
 عَمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَعَوْا عَنْكَ شَرَّ هَسِكَ ، وَلَكِنْ دَخَارُكَ وَكَوْزُكَ الَّتِي تَنْحَرُونَ تَكْثُرُ ،
 الدَّرُّ وَالتَّقْوَى ، وَالْمَعْلَمَةُ ، وَاسْتِصْلَاحُ الرِّعْيَةِ وَعِمَارَةُ مَلَاذِمِهِمْ ، وَالتَّعَقُّدُ لِأُمُورِهِمْ . وَالْحَفِظُ
 لِمَا نَهَيْتُمْ ، وَالْإِعَانَةُ لِلْمُهَوَّمِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمُودَ إِذَا كَثُرَتْ وَذُنُوبُهَا وَانْخِرَاضُهَا ، لَا تَنْفُزُ ، وَإِذَا
 كَانَتْ فِي إِصْلَاحِ الرِّعْيَةِ ، وَإِعْطَاءِ حَقُوقِهِمْ ، وَكَفِّ الْمُؤَيَّةِ عَنْهُمْ ، نَمَتْ وَرَبَّتْ ، وَصَلَحَتْ
 بِهِ الْعَامَةُ ، وَتَزَيَّنَتْ بِهِ الْوَلَاءُ ، وَطَابَ بِهِ الرِّمَازُ ، وَأَعْتَقَدَ فِيهِ الْعَرُّ وَالْمَعْمَةُ ، فَيَكُنْ كَرْتَرَانُكَ
 تَعْرِيقُ الْأُمُودِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَوَقْرُهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قِبَلَكَ حَقُوقِهِمْ ،
 وَأَوْفِ رَعِيَّتَكَ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ . وَتَعَهَّدْ بِمَا يَصْلُحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ
 ذَلِكَ قَرَّبْتَ الْعَمَةَ إِلَيْكَ ، وَأَسْتَوْحَشْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ ، وَكَسَتْ بِذَلِكَ عَلَى جَبَابَةِ تَحَرَّاجِكَ ،
 وَتَمَّعْتَ أُمُودَ رَعِيَّتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرَ ، وَكَانَ الْجَمِيعُ لِمَا شِئْلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ
 لَطَاعَتِكَ ، وَأَطِيبَ نَفْسًا كُلَّ مَا أَرَدْتَ ، فَاحْهَدْ هَسَكَ ، فَمَا حَدَّثْتُ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ ،
 وَتَمَّعْتُ حِسْبَتِكَ فِيهِ ، فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا أَتَقَيُّ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ، وَأَعْرِفُ لِلشَّاكِرِينَ
 شُكْرَهُمْ ، وَأَتَبَهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيكَ الدُّنْيَا وَعَمْرُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ ، فَتَنْهَاطُونَ بِمَا يَحِقُّ
 عَلَيْكَ ، فَإِنَّ التَّهَاطُوتَ يُوجِبُ التَّعْرِيطَ وَالتَّفْرِيطَ يُوْرِثُ الْبَوَارَ ، وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ اللَّهُ ، وَفِيهِ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى ، وَأَرْجُو الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَطْهَرَ لَدَيْكَ فَضْلَهُ ،
 فَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ ، وَطَلِبِ اعْتِمَادَ بَرِّكَ اللَّهُ حَمْدًا وَإِحْسَانًا . فَإِنَّ اللَّهَ يَنْشِبُ مَقْدَرُ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ
 وَسِيرَةِ الْمُحْسِنِينَ ، وَقَصَاءُ الْحَقِّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَالْأَلْسُنُ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَلَا تَحْتَقِرُونَ
 دُنْيَا ، وَلَا تَمَاطِلُنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمُنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصْنَعَنَّ كَعُمُورًا ، وَلَا تَتَاهَنَنَّ عَدُوًّا ،
 وَلَا تَصْدَقَنَّ تَمَنَّا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ مَاسِقًا ، وَلَا تَبْعَنَّ غَاوِيًّا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ

مُرَاتِبًا ، ولا تُخَيِّرُونَ إِنْسَانًا ، ولا تَرُدُّونَ سَائِلًا فَقِيرًا ، ولا تُخَيِّمُونَ مَاطِلًا ، ولا تُلَاحِظُونَ
مُصْحَكًا ، ولا تُحْلِمُونَ وَعْدًا ، ولا تُنْفَعُونَ غَفْرًا ، ولا تَهْلِكُونَ غَضَبًا ، ولا تَأْتِينَ بِدَعَا ،
ولا تُنْشِئُونَ مَرَحًا ، ولا تَرْكُسُ سَمْعًا ، ولا تُهْرِطُونَ فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ ، ولا تَدْعُو الْأَيَّامَ عَيْنًا ،
ولا تُفْهِمُونَ عَنِ الظَّالِمِ رَهْمَهُ مِنْهُ ، أوْ عَمَامَةً ، ولا تَطْلُبُونَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَكْثَرُ
مُشَاوَرَةِ الْعُقَهَاءِ ، وَاسْتَعْمِلَ بِسُكِّ الْحِلْمِ ، وَحَدَّ عَنْ أَهْلِ التَّجَارِبِ وَدَوَى الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ
وَالْحِكْمَةِ ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ أَهْلَ الذِّقَّةِ وَالْمَعْلُ ، وَلَا تَسْمَعَنَّ لَهُمْ قَوْلًا ، وَإِنْ
صَرَرَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَعْبِيَّتِهِمْ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ سَادًا لِمَا اسْتَقْلَتْ فِي أَمْرِ رَعِيَّتِكَ مِنْ
الشُّعْخِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَرِيصًا ، كُنْتَ كَثِيرَ الْأُحْدِ ، قَلِيلَ الْعَطِيَّةِ ، وَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ
لَمْ يَسْتَقِمْ لَكَ أَمْرُكَ إِلَّا قَلِيلًا ، فَإِنْ رَعِيَّتِكَ أَعْمَا تَعْتَقِدُ عَلَى عَجَبِكَ مَالِكًا عَنْ أُمُومِهِمْ ،
وَتَرْكُ الْحُودِ عَلَيْهِمْ ، وَيَدُومُ صَعْدُ أَوْلِيَائِكَ لَكَ ، بِإِلْفِصَالِ عَلَيْهِمْ ، وَحَسَنَ الْعَطِيَّةِ لَهُمْ ،
فَأَحْتَلِبِ الشُّعْخَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى بِهِ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ، وَإِنْ الْعَاصِي مَعْرَلَةٌ حَرَزَى ،
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ يُؤَيَّسْ نَفْسُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فَهَبْ طَرِيقَ الْحُودِ
بِالْحَقِّ ، وَأَحْمِلْ لِلْسَّامِينَ كُلِّهِمْ مِنْ يَتَكَ حِظًا وَصَبْرًا ، وَأَيُّضًا أَنْ الْحُودَ مِنْ أَفْصَلِ أَعْمَالِ
الْعَادِ ، فَأَعْبُدْهُ لِنَفْسِكَ حُلْفًا ، وَأَرْضَ بِهِ عَمَلًا وَمَدْهَبًا ، وَتَمَقَّدْ أُمُورَ الْحُدِّ فِي دَوَاوِيهِمْ ،
وَمَكَاتِبِهِمْ ، وَأَدْرِ عَلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ ، وَوَسِّعْ عَلَيْهِمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، لِيُدْهِبَ بِذَلِكَ اللَّهُ فَاغْتَمَ ،
وَيُقَوِّمَ لَكَ أَمْرَهُمْ ، وَيَزِيدَ فِي قُلُوبِهِمْ فِي طَاعَتِكَ وَأَمْرِكَ ، حُلُومًا وَاشْرَاحًا ، وَحَسَبُ
ذِي سُلْطَانٍ مِنَ السَّعَادَةِ ، أَنْ يَكُونَ عَلَى حُدِّهِ وَرَعِيَّتِهِ ، رَحْمَةً وَعَدْلَةً وَحِيطَةً وَإِصَافَةً
وَعِائِنَةً ، وَشَفَعَتَهُ وَرَبَّهُ وَتَوْسِعَتَهُ ، فَنَزِيلُ مَكْرُوهِ أَحَدِي الْيَلِيَّتِينَ ، بِاسْتِشْهَارِ تَكْلِفَةِ الْبَابِ الْآخِرِ
وَلَرُومِ الْعَمَلِ بِهِ تَلْقَى أَنْ شَاءَ اللَّهُ نَجَاحًا وَصَلَاحًا وَفَلَاحًا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ مِنَ اللَّهِ ، مَالِكًا الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ ، لِأَنَّهُ مِزَانُ اللَّهِ الَّذِي
تَعْتَدِلُ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ فِي الْأَرْضِ ، وَبِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي الْقَضَاءِ وَالْعَمَلِ تَصْلُحُ الرِّجَّةُ ، وَتُؤَمِّنُ
السَّبِيلَ ، وَيَتَصَيَّبُ الْمَظْلُومُ ، وَيَأْخُذُ النَّاسُ حَقُوقَهُمْ ، وَتَحْسُنُ الْمَعِيشَةُ ، وَيُؤَدَّى حَقُّ

الطاعة ، ويزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتحرى السنن والشرائع ، وعلى تجارها
يُنْتَحِزُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ فِي الْقَضَاءِ . وَأَشْتَدَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ وَتَوَزَّعَ عَنِ الطُّغْيَانِ وَأَمَصَ لِإِقَامَةِ
الْحُدُودِ ، وَأَقْبَلَ الْعَمَلَةَ ، وَأَيْدَى مِنَ الصَّحْرِ وَالطُّلُقِ ، وَأَقْبَعَ بِالْقِسْمِ ، وَلَتَسْكُنَ رِيحُكَ ،
وَيَقَرَّ حَدُّكَ ، وَاسْتَمَعَ بِصَوْتِكَ ، وَابْتَهَ فِي صَمْتِكَ ، وَأَسَدَّدَ فِي مَسْطَقِكَ ، وَأَنْصَفَ الْحَقَّ ،
وَقَفَّ عَسَدَ الشَّهْرِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ ، وَلَا يَأْخُذُكَ فِي أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ عُجَاهٌ وَلَا مُحَامَلَةٌ ،
وَلَا لَوْمٌ لِأَنْفِكَ ، وَتَثَبَّتْ وَثَانٌ ، وَرَاقِبٌ وَأَنْظَرٌ ، وَتَدْرُسُ وَتَتَمَكَّرُ ، وَأَعْتَبَ وَتَوَاصَعَ لِرَبِّكَ ، وَأَزَافَ
بِجَمِيعِ الرِّعْيَةِ ، وَسَاطَ الْحَقِّ عَلَى بَعْضِكَ ، وَلَا تَسْرِعَنَّ إِلَى سَعْدِ دَمٍ ، قَالَ الدِّمَاءُ مِنْ اللَّهِ مِمَّا كَانَ
عَظِيمَ اتِّهَاكُمَا مَا سِيرَ حَقُّهَا ، وَأَنْظَرُ هَذَا الْخِرَاحُ الَّذِي اسْتَقَامَتْ عَلَيْهِ الرِّعْيَةُ ، وَجَمَلَهُ اللَّهُ
لِلْإِسْلَامِ عِزًّا وَرِصَةً ، وَلِأَهْلِهِ سَعَةً وَنَمَّةً ، وَلِعَدْوَهُ وَعَدْوَهُمْ كِتَابًا وَعِطَاءً ، وَلِأَهْلِ الْكُمَرِ
مِنْ مَعَاهِدَتِهِمْ دَلًّا وَصَحَارًا ، مُورِّعَهُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ ، وَالْمُعْجُومِ فِيهِ ،
وَلَا تَدْفَعُ مِنْهُ شَيْئًا عَنْ شَرِيفٍ لَشَرَفِهِ ، وَعَنْ عِيٍّ لِمَاءِهِ ، وَلَا عَنْ كَاتِبٍ لَكَ ، وَلَا أَحَدٍ
مِنْ خَاصَّتِكَ ، فَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ ، فَوْقَ الْإِحْتِمَالِ لَهُ ، وَلَا تَكَلِّمْ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ ، وَأَحْلِ
النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى مُرِّ الْحَقِّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ لِأَقْبَتِهِمْ ، وَأَلْزَمُ لِرِصَى الْعَامَةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ جُعِلْتَ
بِوَلَايَتِكَ حَازِنًا وَحَافِظًا ، وَرَاعِيًا ، وَأَمَّا سَمَى أَهْلَ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ ، لِأَنَّكَ رَاعِيَهُمْ ، وَقِيَّعَهُمْ ،
تَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا أَعْطَوْكَ ، مِنْ عَفْوِهِمْ وَمَقْدَرِهِمْ ، وَتُعْفِقُهُ فِي قَوَامِ أَمْرِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ ،
وَتَقْوِمُ أَوْدَهُمْ ، فَاسْتَعْمَلْ عَلَيْهِمْ فِي كَوْنِ عَمَلِكَ ، دَوَى الرِّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّحَرُّمِ وَالْخَبَرِ
بِالْعَمَلِ ، وَالْعِلْمَ بِالسِّيَاسَةِ وَالْعَفَافِ ، وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ الْإِلَازِمَةِ
لَكَ فِيهَا تَقْلِيدٌ ، وَأُسْدُ الْبَيْتِ ، وَلَا يَسْطَلُكَ عَنْ شَاغِلٍ ، وَلَا يَصْرِفُكَ عَنْ صَارِفٍ ، فَإِنَّكَ
مَتَى آثَرْتَهُ ، وَقَمْتَ فِيهِ الْوَاوِحَ ، اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ ، وَحَسَنَ الْأَحْدُوثَةِ
فِي عَمَلِكَ ، وَاسْتَحَرَّرْتَ بِهِ بِالْمُحِبَّةِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَعْتَى عَلَى الصَّلَاحِ ، فَذَرْتَ الْخِسْرَاتِ
بِيَدِكَ ، وَقَفَّتِ الْعِمَارَةُ بِنَاحِيَّتِكَ ، وَطَهَرَ الْحَصْبُ فِي كُورِكَ ، وَكَثُرَ خِرَاحُكَ ، وَتَوَقَّرَتْ
أَمْوَالُكَ ، وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى أَرْتَاطِ حَدِّكَ ، وَإِرْصَاءِ الْعَامَةِ ، بِإِطَاعَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ

ففسك، وكنت محمود السياسة، مَرصِيّ العدل في ذلك عند عدوك، وكنت في أمورك كلها، ذا عدل وقوة، وآلة وعلّة، فنافس في هذا، ولا تقدّم عليه شيئاً، مُخَدّ مغنة أمرك، إن شاء الله، وأجعل في كل كوره من عملك أمياً، يحبرك أحوار عمالك، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل في عمله، مُعَايٍ لأمره كله، وإن أردت أن تأمره بأمر، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، وروحوت فيه حسن الدواع، والضح والضح فأنصحه، والاحتوقف عنه، وراجع أهل البصر والعلم، ثم خذ فيه عدته، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره، قد واثقه على ما يهوى، ففقوا على ذلك وأعجبه، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه، ويُقص عليه أمره، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وبأشره بعد عون الله بالقوة، وأكثر استتارته منك، في جميع أمورك، وأفرغ من عمل يومك، ولا تؤخره لفدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لفيد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي آخرت، وأعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه، وإذا آخرت عمله أجتمع عليك أمر يومين، فشمك ذلك حتى تُعرض عنه، فإذا أمضيت لكل يوم عمله، أرحت نفسك وبدك، وأحكمت أمور سلطانك، وأظهر أحرار الناس وذوى الشرف منهم، ثم استيقن صفاء طويتهم، وتهذيب مودتهم لك، ومطاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك، فاستجلسهم، وأحسن إليهم، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دحلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا خلقتهم مَساً، وأورد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحقق الذي لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أحى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، وشرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك، لتطرفها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوى الأساء ویتاماهم وأراملهم، وأجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداءً بأمير المؤمنين أعزّه الله في العطف عليهم والصلة لهم، ليُصلح الله بذلك عيشتهم، وبرزقك به بركة وزيادة، وأجر للامراء من بيت المال، وقدم حملة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، و الحرابة على غيرهم، وأنصب لمرضى المسلمين دُورا
تؤويهم، وتقوموا يرفعون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم شهواتهم، ما لم يُؤد ذلك
إلى سرف في بيت المال، وأعلم أن الناس إذا أُعطوا حقوقهم، وأُفصل أمانيتهم لم يُرضهم
ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم، طمعا في نيل الزيادة، وفضل
الرفق منهم، وربما يرم المتصنّع لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره ودهمه، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرتب في العدل ويعرف عاسن أموره في العاقل
وفصل ثواب الآمل، كالذي يستقل ما يقتر به إلى الله، ويتمس رحمة به، وأكثر الإذن
للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكن لهم أحراسك، وأخفص لهم جاحك، وأظهر لهم
شرك، ولين لهم في المسألة والمطلق، وأعطف عليهم بحودك ومصلك، وإذا أعطيت فأعط
سباحة وطيب نفس، وأتمس الصبيحة والأحر، غير مكدر ولا مئاد، فإن العطية على ذلك
بحارة مُرتجة إن شاء الله، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مصى من قملك، من أهل
السلطان والرياسة، و القرون الخالية والأمم البائدة، ثم أعنيص في أحوالك كلها بأمر الله،
والوقوف عند محنته، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك
وخالفه، ودعا إلى تحط الله، وأعرف ما جمع عمالك من الأموال، وينفقون منها،
ولا تجمع حراما، ولا تُفق إسراها، وأكثر محالسة العلماء، ومشاورتهم ومحالطتهم، ولكن
هواك أتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعالها، ولكن أكرم دُحلاتك وحاصتك
جليك من إذا رأى عيا فيك لم تمعه هيتك من إنهاء ذلك اليك، في سر، وإعلامك
ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وأنظر عمالك الذين بمحضرتك،
وكتائبك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه يكتبه ومؤامرتة
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورجعتك، ثم قرغ لما يُورده عليك من ذلك
سمكت ونصرك، وفهمك وعقلك، وكرّر النظر إليه والتدبير له، مما كان موافقا لمزج والحق
فامضه وأسبحر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التبت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا
الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تصنع المعروف إلا على ذلك ،
وتفهم كتابي إليك ، وأكثر الطرقيه ، والعمل به ، وأستس بالله على جميع أمورك وأستحره ،
إن الله مع الصّالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضا ،
ولدينه نظاما ، ولأهله عزّا وتمكينًا ، وللذمة والمِلّة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن
عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته ، تمام فضله عليك ،
وكرامته لك ، حتى يصلحك أفضل أمثالك نصيبا ، وأوفرهم حظا ، وأستأمر ذكرا وأمرأ ، وأن
يُهلك عدوك ومن تأواك ونهى عليك ، ويرزقك من رعيّتك العامية ، ويحجز الشيطان
عك وبوساوسه ، حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المباسين على الحق، والباشرين للذين،
من أهل خراسان وعيرهم من أهل الإسلام . سلام عليكم ، فإن أمر المؤمنين بتجدد اليكم
الله الذي لا إله إلا هو ، وسأله أن يُصَلِّيَ على محمد عبده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، دى العز والسلطان، والور
والرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم المثل والطول على أهلها، قبل
استحقاقهم لمثوبيته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى حمل ما أودع عباده من نعمته، دليلا
هاديا لهم الى معرفته، بما أأادهم من الآكباب، التى يفتهمون بها فصل الخطاب، حتى آقتنوا
علم موارد الاختبار، ويقيموا مصادر الاعتبار، وحكوا على ما هكل بما طهر، وعلى ما عاب بما
حصر، وأستدلوا بما أراهم من الخ حكنه، ومُتقى صفعته، وحاجة مترايل خلقه ومُتواصله،
الى القوم بما يُلهمه ويُضايحه، على أن له نارا أنشاء وأبتدأه، ويتر عبه لبعض . فكان
من أقرب وجودهم، ما يشارون به من أصهم فى تصرف أحوالهم، ومُؤن آتقالهم،
وما يظهرون عليه من الحر عن التانى لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدواهم، مع أن
تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا الى الخلفة المحككة، والدورة المعجزة،
ليس لهم فى شئ منها تطف يفتونه، ولا مقصد يعتمدونه من أصهم، فإنه قال تعالى
ذكره: ﴿يَأْتِيَا الْإِنْسَانَ مَا حَرَّكَ رَبَّكَ الْكَرِيمَ الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فى أَىْ صُورَةٍ مَّا
شَاءَ رَجَّلَكَ﴾ . ثم ما يفتكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر
والأحوم مسحرات، على مسير لا يثبت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التى بها صلاح
الحرث والسل، وإحياء الأرض، وإفاح السات والأشجار، وتعاون الليل والنهار، ومر الأيام
والشهور والسير، التى تُخصى بها الأوقات، ثم ما يوحد من دلائل التركيب فى طقات
السقف المرموع، والمهاد الموصوع، باحتلاف أجزائه وألثامها، ونخق الأنهار، وإرساء

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه
 بعد أن لم يكن متريقاً في السماء ، ونشأته إلى أحله في البقاء ، ثم تحاره مُنْصِياً إلى عاية القاء .
 ولولم يكن له مُفْتَسِحٌ عدد ولا مُقْطَعٌ أمد ، ما أرداد بشوء ، ولا تحيفه نقصان ، ولا
 تفاوت على الأزمان ، لأن ما لا حد له ولا نهاية ، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة .
 ثم ما يوجد عليه سفته من ثبات حصه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يسره ، وبه
 استبداده إلى متى تفاده ؛ كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ
 أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَن عَلَيْهَا مِنِّي وَسِيٌّ وَهُوَ رَبُّكَ
 ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأحصار عن آيات الله عز وجل ودلالاته
 في سمواته التي تحي ، وأطواق الأرض التي دحا ، وأثار صمعه بما برأ وذرا ، ثابت في فطر
 العقول ، حتى يسحر أولى الرب ما يذلولون على أنفسهم من الشبهة فيما يعملون له من
 الأصداد والأنداد . حل عما يشركون . ولولا بوحدته بالتدبير ، عن كل ميين وطهير ،
 لكان الشركاء حذراء أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلقون ، ولم يكن التحلف وإنشائه وإزالته
 ليخلو من أحد وحيته ، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه وراه . حل الديق خالق
 الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ
 وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذَا أَنذَرَ كُلُّ إِلَهٍ مَّا خَلَقَ وَلَمْ يَلَمْهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ سُحْنِ اللَّهِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم عمة الله عز وجل على خلقه افتقاده إياهم ، وأنه يستددم
 ويدلهم على مفاهيمهم ، ويحبهم مصابهم ، ويهديهم لما فيه صلاحهم ، ويرعهم في المحافظة
 على التمسك بدين الله عز وجل ، الذي حمله عظمة لهم وحاراً بينهم .

ولولا ما تقدم به من تلافهم واستدراكهم بفصل رحته ، لاجتاحهم التلُّف ، لقصور
 معرفتهم عن التائي لأقواتهم ومعانيهم ، ولم يكونوا ليقصروا على حطوطهم وأقسامهم عما بوا
 عليه من الجمع والرغبة ، ولتبالكو ابني معصم على بعض ، وعدوان قوتهم على صميمهم ، ولكته
 بعد تعريفه إياهم ملك قدرته وحلاله عزته ، مع إليهم أنبياء ورسله مبشرين ومُدرين ،

بِالآيَاتِ الَّتِي لَا تَنَالُهَا أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ ، قَرَضُوا بِمَا قُصِّطَ بِهِمْ ، وَارْتَدَّ عُوا عَنِ التَّابِعِي وَالنَّظَامِ ،
لَمَّا وَعَدُوا مِنَ الثَّوَابِ الْحَسِيمِ وَخَوُّوا مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ ؛ وَلَمْ يَكُونُوا يُطِيعُوا أَمْرًا
لَا أَمْرًا وَلَا نَهْيًا لِسَاءِ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَنْتَبِهُهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ حَالَفَهُ مِنَ الْمُطِيعِينَ ، وَتَحْوِيفِ
يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةَ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَحَايَ تَحْجِشُونَ لَهُ مَوْزُونَ مَا تُعَدُّوهُ . فَاذْنَحَ اللَّهُ عِزَّ
وَحُلَّ بِأَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ —
كَأَقْصَى فِي وَجْهِ الْمَرَلِ — وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُمْ ، فَقَالَ حُلَّ وَعِزُّ . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالنَّحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .
وَحُلَّ مَا قَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَغْلَفِ عَلَى دَرَارِيهِمْ وَأَسَانِهِمْ سَبَبًا لَمَّا أَرَادَ مِنْ نَفْسِهِمْ وَتَسْلِيمِهِمْ ،
وَمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَهْمِ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ ، لِيُنَجِّسَ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، وَيَتْلُوهُمْ أَهْمُ أَحْسَنُ
عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رُسُلُ اللَّهِ عِزُّ وَحُلُّ إِلَى حُلِّهِ تَتَرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبَرْهَانِ الْقَاطِعِ ،
لَا يَحْدُونَ لَمَّا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًا وَلَا مَدْفَعًا ، لِقَوْلِ اللَّهِ عِزُّ وَحُلُّ :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَهَامَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أُخْرِبُوا وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فَلَمْ يَحْدِ الْمَكْدُونُ مَسَاغًا إِلَى دَفْعِ مَا أُفِيمَ عَلَيْهِمْ مِنْ لَازِمِ الْحَقَّةِ ،
إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاهِدَةَ . وَكَانَ أَبْدِيَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُعْشُونَ فِي أَعْصَارِ الْحَقِّ ،
نُذْرًا لِلْأَمَمِ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ اللَّهُ عِزُّ وَحُلُّ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهَتَاهُ وَدَا
وَجِيدًا لَا غَاضِدَ لَهُ وَلَا رَادِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَعْصِدُونَ أَصَابًا بَكًّا ، وَجِهَارَهُ صَمًّا ، فَكُتِبَ بِهِ
الْقَوْمُ الَّذِينَ يُبْثِ فِيهِمْ أَوَّلُ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَلُوكُ أَفْطَارِ السَّلَادِ تَوْجِيهِ الْأَحَادِ ،
وَمُرَافِقَةِ الْقِسْوَةِ وَالْعِتَادِ وَمَنْعِي الْمَوَاتِلِ ، وَنَصَبِ الْحَائِلِ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، لِذِي يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
بِأَلْيِ حَيْ أَحْسَنُ﴾ . ثُمَّ حَاهِدَ بَيْنَ أَطَاعَةِ مَنْ عَصَاهُ ، وَبَيْنَ اتَّبَعِهِ مَنْ خَالَفَهُ ، حَقٌّ
أَعَزَّ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكَلَ لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ . فَلَمَّا أَخْبَارَ اللَّهُ لَهُ
مَا لَدَيْهِ ، وَاخْتَصَّ بِهِ عَنْدَهُ : مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْجَزَاءِ الْكَرِيمِ ، مَدَّ اسْتِقَامَهُ الدِّينِ

ودخول الناس فيه أوجاجاً، حلقه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة الجباء من أدانيه ولحمته، لإقامه الشرائع المفترضة، وإهاد حكم الله المنزل، واقتناء السنة الماثورة وحفظها له في قرابته وبجبي دعوته، وإتماماً لما أوجب له من الفصيلة، وقريب الوسيلة، وانجازاً لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذي أصطفاه وأرتصاه. وكان اختيار أولى العصل من لحمته وعصبته لإرث جلالته، ومن عظيم الزلف التي رغب الى الله فيها أبنائه، وبما اقتضى في منزل وحيه، وأختص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى جرأه من تبعه على الرسالة، وهداية من الصلاة، فكانت فصليتهم عزيزة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى حلقه وألزمهم أدائه، فقال عمر وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل بما أحبر به وأطهره من تطهيره أيامهم وإذهايه الرجس عنهم، على أصطفاه لهم، فقال تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ لَقَدْ يَرْضَى اللَّهُ لِيُنْصِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حق الوارثة في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ نَحْسُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأحلهم من الناهية والصيت بالمثل الذي أعلى به أمرهم وربع به دكرهم، لما أحب من البينين في الدلالة عليهم، والمداية لهم، فإنه يقول عمر وجل: ﴿لَنُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الأئمة المقلدون أمر عاده حامله أنسابهم، متقطعة أنسابهم، غير محصوصين بمصلحة يروونهم بها دون غيرهم، لم تعد طليبتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المفترصات على كافة الأمة، أو على بعض دون بعض، وإن كان لأهل الشرق والعرب من دوى القص والكمال أن يجتاروا لأنفسهم، فليس في احتجاج آرائهم مع تعزقهم واختلافهم طمع آخر أيام الدهر. وإن كان الى خاصية دون عامة، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال الى مثل ما احتاجوا اليه في انتمهم، إذ لم يكن أهل الأرياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطسوا على اتفاق،

لعماد آحادهم قسلاً بلوعهم غايه الاجتهاد في المعص والتكشيف ، وحاجتهم الى اختبار
 البلدان ، وتمحيص أولي الفصائل بالامتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم ،
 والاختلاف فيمن عَسَوْا أن تحتوه ويقدموه ، حتى تنالك الرعية بطالمها بينها ، ويطرق
 من يليها من الائم إياها ، إلا لا دائد عنها ولا محامى . فإذا أُرمت الأئمة الحاجة إلى
 نصب الحكام لإقامه الدين ، وتسيط الحقوق من المسلمين ، ومجاهدة ملؤهم من
 المشركين ، لم يكن لهم في الإمام عليهم تحار إلى التحاص من حقه إليهم ، ولا ريب
 عند المعرفة برأيه الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، في دمه عن عاده ما لم يحصل في حيلهم له
 وسعاً ، ولا في حيلهم له دركاً ، وكما ينه إياهم ما يُعجزهم من البحث والتقيب عن ولادة
 أمرهم ، بنصبه إياهم ، وما رفعهم إليه من الدرجة الى أعلاها وأساسها ، إذ وصل نسبهم
 برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقرص موقتهم على حلقه ، ولم يشنهم جهلهم للعرض الذي
 لزمهم له ، ولم يجب عليهم فرض في معرفة من سواهم . ولم يزل سياق أئمة الهدى مطرداً ،
 وخطاهم متصلاً ، يتلقاه كائن كابر ، ويؤديه أول الى آخر ، حتى تساهى الى أمير
 المؤمنين ، وهو حال دار دعوه ، وبين أسواره من أهل خراسان ، فنظر به حيرهم ، وعرفوا
 ما تصرف به أحوالهم ، وطهر لهم من بيان محته على من نازعه في الأمر ، وشاهدوا من
 إملاعه في العدر ، واستظهاره بالتأني والصبر ، ما أراح عنهم الشبهة وكشط الحيرة ، حتى
 استلوا^(١) نوصه محقه ، وحاموا الربيع على أديابهم فيما أعطوه من صفة أيتانهم ، وهو
 ماض على عادته ، مستديم للوادعه ، متلوم على المراجعة ، نال غايه ما في وسعه من الرخصة
 في دفع الولاية التي سته بها الرعية ، حتى صاب عليه في ديه ترك القيام بما أنهض الله به
 من قفلها وقلده من حملها ، وحاف المخلوع فأسعت بالثرة والفره ، فضاول أولياء الحق ماغيا
 طاعيا ، لما أراد الله من تأييدهم عليه باليد والحقه التي يجب لها قلبه ، ويئت بها
 في عضده ، ويقبل الله ما شرفكم به من الصبر والعلة فيه التي جعلها الله للتقين . فاجتمع

لكم معشر أهل نُرسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث حلالٍ أحصاكم الله مصيبتها، وسني مراتها، دون ثلاث شملتكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي حصكم الله بهن، فما تقدم لأسلافكم من نُصرة أهل بيت النبي، والقائمين بعيرائه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما أترككم الله به من نُصرته في دعوته الثانية .

وأما الثالثة، فما تقدمتم به من صحة صماثكم، وعص ما حمتكم .

وأما الثلاث اللواتي هن لكم ولعيركم :

فمن ما أكد الله لأمر المؤمنين في أعقاب المسلمين : من العهد الذي أحد إصره، وألهمهم الوفاء به والتسك نوائقي عصمته، عند محاولة المخلوع ما حاول من الإعلان بالردة، والتس من تسديل معالم الدين وتعميه آثاره، فلم يُلَفِ الرعية سُدى مهملين، لا جامع لأصرهم، ولا صام لثَرهم .

ومنهن ما أفادكم الله وإياهم من العير، عند حلول العير من غدر وحر، تدكرة لأولى الهى، وحممة بالفة على من أدر وتوتى، ليندى متعير ويتعط مُزدر، ﴿وَلِيُخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَيِّقَ الْكَافِرِينَ﴾ . ومنهن آجتاع أهل الفصل من المسلمين . من لم يكن له نُصر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايخة في الدعوة الثانية، فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرهين والمُصرين ومدينة السلام والمشرق والمغرب من عار أو أنجد من المتمسكين بذهمهم المُوفين بسدورهم، من إخوانكم، وإن كان الله قد قدّمكم في الأمرين جميعا فتوق حالكم على غيركم، يتنون من معاصدكم ومكاهتكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم ومودة بينكم، يبد بها ما كان الشيطان يبرع به بين أهل التاعد والأساب، والتأني في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء، والاعطواء على الأحقاد والذمن، وطلب تقديم الإحس، وصار أهل السمو الى الدرجة العليا والاعتصام بالعروة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مشرحة صدورهم بمكاهته، مُبسطة أيديهم بمعاونه على حقه،

منسحقة آمالهم في إذكاء ناره على عدوه والإثخان في بلاده وأفتاح تمتع حصونه ، بما جمعهم الله عليه من الألفة ، ورحم عنهم من الحمية والعصية ، راجين عودتهم الى أحسن ماصى عليه سلفهم ، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سلامة الصدور ، وصلاح ذات الدين ، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم ، قد أفرد الله عنهم نفرة التحارب والتجاذب ، وجعل ما كان يسعى به مصهم من الإعداد لبعض ، زياده في ريمهم ، وحدنا في شوكتهم ، لانتلاهم في دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الصائرا ، وعاذ البصائر . والى الله يرتع أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نجه ، وتليعه منتهى سؤله وعاية هيمته ، في اعزاز ديه وإدلال من صد عن سبيله ، إنه سميع قريب .

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على العمة تذكر ما كانت عليه الحال قبلها ، فاستدعوا الإفاضة فيما رفع الله من حساستكم وأعلى من أقداركم ، سفرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما ألاك الله في الدعوه الأولى مما لا يؤدى حقه إلا بعون الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم لطمعه وتوفيقه ، فأنالهم رعايت الأقسام وسني الخطوات ، ورحم درجهم ودرج خلويهم وأعقابهم من بعدهم ، بمدادهم مستضعفون يخافون أن يقطفهم الناس ، مدعون بقهر عدوهم واستنثاره عليهم ، ثم لم يلبثوا أن صاروا الى الحال التي يرونهم بها من العبطه والبهجة ، إلا أنهم أحدها بحقها ، وكانت في أيدي الطلبة من أهل بيت اللمة وأتباعهم بحدسه^(١) الباطل ونعمة الابتلاء ، **وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّ يَنْصُرُهُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** . وليس أحدكم بحارج من المحبه بما أليس من العمة ، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها ، بل الذي يلزمكم استدانتها والقيام بمحفظها ، على حسب ما أولاكم الله منها ، فربما كان الذي يعقب أهلها من العقلة والاعتزار ويُلهم بها من حيورها وسرورها ، أعظم إنما وحبوا مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر ، لما يستولى عليهم من استكانة اللمة ، والاعتزار بالتقصير ، والفرع الى ربههم في تفويس كُرهم ، فإنه

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَخْرِضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُوْدُعَايَ عَرِيضٍ ﴾ . فاحتكم اذا أنعم الله سعيكم وأظلمكم بطليعتكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من منه وِراسة ما آتاكم من فضله ، بالشكر المتري للزيد . فتمهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أنفسهم بتدكر ما سهل الله لكم من الحزونة ، ودلّل لكم من العسوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُراق الملة ومُحالّي أهلي القيلة ، وأحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم بئى الله عليكم حُماة الدين ، وأنصار الأئمة الراشدين ، وحصول كافة المسلمين ، بعد ما أجتث الله بكم قُرُون النّاعى ، وأباد بكم صاديد الصلاة ، وبُشرد من لم تستحمله سيوفكم ، وأصرع اليكم من أذعن وأستسلم ، وقد استشرهكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشّان ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمدايسة ، فبين ذلك مُجهَر مُعَالِنٌ ، ومُنْتَسِرٌ مداهى ، وداحلٌ فى عدادكم ، وواحدٌ فى سوادكم ، يرى أمته من طهوركم ، قطعهُ عليكم فى دولتكم بريسة التّمويه وحُدّغ التشبيه ، أيسرُ عليه كُلفة وأعظمُ فيكم حرجا ونكاية ، فتوقّوا هذه الطبقة أشدّ التوقى ، فإن أكثر من يلجأ الى استباحه الحيلة ، من عجز عن المباداة والإسحار ، وعند طهور الحازم وعلنته يَحْتَرِز من لطيف الخدع وحى الاستدراج .

وأحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من استقراء الطراهه ، والركون الى راحة الدّعة ما قد رأيتم و ناله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبه طول الدم والحسرة ، فإنكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوكم ، والخوف لبائقتهم مُتِحْفَظِينَ مُتَحَفَظِينَ لما كان يرومكم به من حنّله وحيله ، ثم أنصيتم الى الخلج وقد جهدكم السعى ومسكم الصّيب ، وسيلقى الشيطان فى أمانيك أن قد اكتنيتم بسالف ما قاسيتم ، ويحد من ضَعْف العزائم مُعِينًا داعيا الى اعتنام الحفص ، والإحلال الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاحتار ، وتَمَتَّلُوا مواصي الآثار مِن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزّة من زوال الهم ووقوع الغير ، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مُرْتَبَنٌ بما ألزمكم من حياطته واستثنائه ؛ فقد وجبت عليكم الحجة بما حضكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنة بما هداكم الله ، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعذار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقدمه الى ما يبعث من بعده ، فكانه قد اختبر التجربة ، مع استمداده عما يستعبد ، ولسنيزد ما يفتح له ورأيه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى من سواكم ، ممن هو أعسر طاعة عليكم وأعذر بمصيبتكم ، حتى تبدموا باستصلاح أنفسكم ، وأنه لن يرجي لكم القوة على مجاهدته عذوكم حتى تقووا على مجاهدته أهوائكم ، فإن على كل امرئ رية من أمره ، وعطاء من غيبه ، لا يكشفه إلا محنة المعركة ، والإذعان بالصحة ، فهناك يؤمن طلبة الجهل والمعاذ ، وإذا أمنت هاتان الحلتان أنشدت بإذن الله تلم الآفات ، وقوف المكاره . فإنه لا تحاف الصلوات على من أهدى ، ولا أعماد الحور على من أنتصف من هوى .

وليكن أول ما نتعهدون به أنفسكم ، وتثارون عليه من صالح أدبكم تأسف الحق بيسكم ، بتقديم أهل الصائل والآثار المحموده مكم وتفعيم أمركم ، فقد علمتم أن منكم المعز العائب الذي لا يترك شأوه ولا يورارى ملاؤه ، حين كشف الإبلاد صوائر القلوب وحلا مشتبهات الطون ، فصرح بالمحاربة بعد التقدم في المحنة ، وفاء بمؤكد العهد وركوبا مسه لمائل الخطر ، غير هائب مع محصه الحق ما برق لديه الكس المغلوع ورعد ، ولا مستوحش فيما عود به الى من تولى وأدبر ، حتى أتى الغاية التي أخرى إليها في الله عز وجل وفي خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايعة والمكافئة والنصرة والحظ الجزيل والامر المبين ، ثوابهم واجب وحققهم لازم ، ثم منكم من يحفظ لسله وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول في ذكر اليتيمين : ﴿ وَأَمَّا الْإِطْعَامُ فَكَانَ لِلْعَامِلِينَ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَّبُّكَ وَيُخَوِّلُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يرى توريث الحكمة والذمام سنة عليه في أخلاقه التي يراها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى وراثة التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الفناء بأنفسهم ، ثم

يتلوه من أقدى [سهم] وأهدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد بلاء نفسه الى نلاء سلفه ، ثم يتمه بعد الملى بنفسه ، ثم تلوهما التوسل بآمانه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقاً لطقفه ، فليقتصر كل امرئ منكم على المرتبة التي أحله بها سعيه ، وليسلك الى الأزدباد فيها بالريادة من نفسه ، فإن من الفتوى العظيمة على أهل الدول ما يبرع به الشيطان بهم ، ويكثر عدهم ما يكون منه ، فيوافق من الخيف للأفئس ما يبعد به مساعا الى ما يروم من إقناع الشحاء منهم ، وتثبيت الإحس في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لمزية من وقفه ، واعتباط من دونه كفي ماترك . وإن تحلص نياتكم . ونسلم صمائركم ، حتى تمحصوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتعتدوا ما ملهم شاملا لكم ، ولتحانبوا طريقه من اقتصر بأمنيته على حاصته ، وتعتب فيما أوثر به أهل الفصل دونه . وكفى عظة فيما نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فَصَّلَ اللَّهُ بِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية . ولا يلتمس أحد مودته عن سوء بيه بحس مداراة في طاهر ، فإن الله مقلد كل امرئ رتبة عمله ومطوقه طوق سربرته . ولا يحدرك بما يلزمه لإمامه ، فإنه إنما يفدر في حفظه ويخص قسمه ، ويخص نفسه . ثم لا يقتصر على استصلاحها حتى يتناول من كانت مته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو معان من تأديتهم لا ينشأ أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصبها ، وقريبها الى متاهيها ، حتى يستفيض شاملا علما ، بعد أن بدا محلا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متعقد من تثقيمكم وتقويمكم على صالح الأدب ومجود السيرة ، ما لا يتعقد به من سواكم ، فإنه إن كان يوجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ، لما يلزمه من فصل العساية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن في أخلائكم من التقديم في التأديب والعهود ، وحوها من الصرر : منها : أنكم أولى بحس الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف محكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم الناسون ، متى قصرتم وأخطأتم ، أفضى
أثركم من نصبتهم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تزدوا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان
قينا أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سيمتموه ، ثم تحرى هذه المادة والطبقات ، حتى يطرد
السياق ، الى أن يستفيض الفساد في حشوا الساس وعامتهم ، فلا تُعنى قوة ولا حزم ولا
شدة ، ألا العجز والإصاعة ، ثم يجد الأعداء مساعا الى الطس والعيب ، فلا يملكون أن
يرهبوكم ويستولوا عليكم المشل ، وإن الأيدي إنما تنسط بعباذ العزائم ، والعزائم إنما تنفذ
بثبات المحمة ، والمحمة إنما تثبت إذا كانت عن الحق . وإذا أصبح أول هذه الرسوم ، التي
رسم لكم أمير المؤمنين ، تبعته تواليه وشعبته لواحقه ، ووجد العدو الملاحظ مكان العورة ،
مطمعا في إهمال ما كان يُبذله من الغزاة ، ويتوفق به من ساهرة التفرصة ، وليكن ما تفيضون
فيه وتعدوه طهيرا على طاعي إن طعن في دولتكم ، ما ألهم الله أمير المؤمنين : من شمول
رعيته بالعدل ، وفرض الأمر في مصمراتها ومقتلها ، ورفع به عنهم من سيرا الجود ، وبسط
به يده من إثابة أهل البلاء ، وضمد الحرائم لأولى الزلل ، والإبلاغ في دعاء من عاند وشاق
الى التوبة والإثابة ، وإقالة العثرة عند القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تعلموه صبر محلا ،
ولا حثك لأحد ممن أظفره الله به سترا ، ولا وقفه على عورة . ثم تولى الله أمير المؤمنين ،
في حروبه شرقا وغربا ، التي أغناه الله عن الإطباب في وصف صنع الله لكم فيها ،
لاستفاضة أحبارها وذهابكم ، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشافي
حظفه ، أن ينتكب من الإسهاب ، في غير ما حمد له ورأى من تفرج أسماعكم وأذنانكم ،
لوعى ما التمس أن تؤول من تبصيركم حفظكم ، وتنبهوكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين
في نفسه وفيكم الله ، وكفى به مينا .

وإن أمير المؤمنين مع ما تحتم به اليكم لعل نعمة من حيالة الله حلائفه التي جعلها
حرزا لدينه وقواما لخلقه ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها آيئلا بل من خلع
رغبها وأضاع حظها منها ، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة . وإنما أتي

المُقَصِّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ صَعْفِ الرُّوْيَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ بِمَعْلَمِهِمْ فَيَرْتَعَاوِزِينَ بِهِمْهُمْ ، وَفِيهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَنْجُوهُ .

وَأَسْتَدِيمُوا مَعِشَرَ الْمُسْلِمِينَ سَاعَ النِّعَةِ بِمُحَمَّدٍ مُوَلِّيَهَا وَالْمُتَطَوِّلَ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ قَلْبُهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ سُلْبِهَا ، ثُمَّ يُعْقِبُ النَّدَامَةَ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نَظَرَةٌ بِمَكْنِ فِيهَا اسْتِقَالَةُ الْفَارِطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا مَقْوَرٌ زَلٌّ . وَتَقْوُوا مِنْ رِيَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ أَنْتَارَكُمْ ، وَمَا مَعَى مِنْ مَلَأَ كُلَّ أَمْرٍ مِنْكُمْ ، بِمَا تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، أَسْنَى مَا تَرْفَعُ إِلَيْهِ آمَالُكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمَمُكُمْ ، إِلَى مَا يَذْنُرُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِدَاهُ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهُ ، وَجَاهَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَأَيَا بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَرِيلِ ثَوَابِهِ وَكَرِيمِ مَأْبِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَعْصِيلٍ .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَ بِمُعْطَايِهِ تَنْهَكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ ، وَتُثْبِتَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقَطَّعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَجَرِّهِ فِيكُمْ ، لِيَأْجِبَ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ ، وَيَرْحُو مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيكُمْ ، وَلِيَأْخُذَ مِنْ اتِّصَالِكُمْ بِحَبْلِهِ ، وَمَا يَشْمَلُهُ مِنَ الصَّنِيعِ فِيمَا وَلَّاهُمْ اللَّهُ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهُ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلاً ، وَتَكْتَمِلُ الْإِحَادَةُ حَتَّى ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (اذْعُوبِي أَسْتَحِبُّ لَكُمْ) ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِصَاةِ أَلْفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ حَبْلُكُمْ ، وَأَنْ يُتِمَّكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَسْ ، وَيُورِضَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِهِ ، مَا يُوَاصِلُ لَكُمْ مَزِيدَهُ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسَدِ الْدَافِعِينَ ، وَيَحْفَظَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حُفِظَ بِهِ أَمَامَ هَدْيٍ فِي أَوْلِيَائِهِ وَشَيْعَتِهِ ، وَيَجْعَلَ عَنْ ثَقَلٍ مَا حَمَلَهُ مِنْكُمْ . وَبِأَنَّهُ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَسُوءُ مِنْ جَرَائِكُمْ مَالِحِي ، وَحَلِيكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِ ، وَبِهِ يَرْضَى نَاصِراً وَوَلِيّاً ، وَكَفَى بِأَنَّهُ وَلِيّاً وَكَفَى اللَّهُ نَصِيرَا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وللأُمون — لما كتبت إليه السيِّدة رُبَيْدَة عد مُقتل ولدها الأُميين خطابها
الآتي تستمطعه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرِي خَبَّ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلٍّ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٍ عَدَّ صَفْعَكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ ، فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ مَعْنَكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ بِكَ الشَّرَّ .

هذه رُقعة الوَالِه التي رجوك في الحياة لنوائب الدهر ، وفي الممات لجليل الذكر . وإن
رَأَيْتَ أَنْ رَحِمَ صَمْعِي ، وَأَسْتَكَاثِي ، وَقَلَّةَ حِيلِي ، وَأَنْ تَهْلَ رَجْمِي ، وَتَحْتَسِبَ فِيهَا جَعْلَكَ
اللَّهُ لَهُ طَالِبًا وَفِيهِ رَاعيًا فَافْعَلْ ، وَدَعَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَيْعِي إِلَيْكَ .

فكتب إليها المأمون .

وَصَلَّتْ رُقْعَتِكَ مَا أَقَاهَا ، أَحَاطَ اللَّهُ بِتَوَلَّاتِكَ بِالرَّعَايَةِ ، وَفَقَّطَ عَلَيْهَا وَسَائِي — شَهِدَ
اللَّهُ — حَمِيعُ مَا أَوْصَحَّتْ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ مُعَدَّةٌ ، وَالْأَحْكَامَ حَارَةٌ ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةٌ ،
وَالْمُحْلُوقُونَ فِي قَضَائِهَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالدُّبَا كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ إِلَى مَمَاتٍ ،
وَالْعَبْدُ وَالنَّسَى حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُ رَاحِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُحْدِثَ
لَكَ ، وَلَمْ تَتَقَدَّرْ فَمَضَى إِلَى رَحِمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَجْهَهُ . وَأَمَّا بَعْدُ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مَا
تُخْتَارِ ، وَالسَّلَامُ .

(هـ) أحمد بن يوسف^(١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المظوم والمشهور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر الخالق الرازق ، فاطر السموات والأرض ، الذي أحاط بكل شيء علما ، ونطق به حبرا ، وأنقسه حكمة وعلما ، وآلف بين مختلفه ومُتَّفِقه ، ليدل قوام بعضه على بعض ، على اتصال تدبير مشيئته ومُتَدَعِه ، وأنه أحد صمد ، لا يضد له ولاية ، إذ قدر له حاجته ثم شدّها بلاعها الى الغاية الى جعلها ، فقال حل وعزّ **﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾** ، وحكى عن نبيّه موسى عليه السلام ، **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعْلَى كُلِّ شَيْءٍ حَقٌّ ثُمَّ هَدَيْتَنِي ﴾** ، وقال الله تعالى **﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانُهُ تَفْصِيلًا ﴾** ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته ، بل رضى منهم باليسر ، وقبل منهم العفو ، وحمل طاعتهم إياه عائدة عليهم بحريل الخطّ في دينهم وديناهم . لعناه عن عاداتهم ، وأنشاع قدرته ما تطول عليهم . مُمتِنّا وحائنا ، وإدنا وعائنا .

والحمد لله الذي أصطفى عبدا صلى الله عليه وسلم . نبيا لرسالته . وأتممه على وحيه ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأسه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد ، فأدّى الى حلقه الرسالة . واستفدّهم من الصلابة ، وصدّع بأمر ربه وحاهد في سبيله . وبصّح لآمنته حتى أتاه اليقين من ربه . بعد استناره الحق . وظهور المحقّة ، فصلى الله عليه بشيرا ونديرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد نلّا من المهلكه ، وجمع الألفة بعد الفُرقة ، وأوضح الهدى بعد الدُّروس . ومعالم الرشده بعد الطُّموس ، وكان المؤمنين رحما .

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين . والأئمة الراشدين . الهاديّ اتقى ، الطاهر الزكى ، الإمام المأمون أمير المؤمنين ، أعزّ الله نصره ، صدّ ثلثتهم ، ورأى صدعهم وقلده خلافتهم ، وجعله لكافة المسلمين عينا ورحمة ، وجعل ما أُلهمه من العدل والإحسان

اليهم ، مية عليه ورحمة دحرها له ، دون الخلفاء قبله ، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة ،
وسياسة من تقدمه ، ومع الرعية من عطفه وطهره ، ما لا يحل عنهم أو به ولا يؤدي عنهم
شكره ، الا هو لا شريك له ، وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين وثوبته ، على صلته ربح
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التي هي رحمه وقربته ، وأختياره لولاية عهده الأمير الرضى
على بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورعى محته ، وعرف استقلاله ، بما قلده
في هديه ، وديه ووفائه ، بما أكد الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيده الله ، في أعتيابه
من ازوره وأسأه عما شفع رأيه ، وأغد تدبيره ، حين هم لاستصلاح ما استرعاه الله ، من
أموار عباده ، لما آتق القائم بدعوته ، ورئيس شريعته ، الأمبر ذا الرياستين رحمه الله ،
فأتممه مكانهما ظهيرا ووزيرا دون من سواه ، فأتبع منهاج أمير المؤمنين أيده الله ، وسار بسيرته ،
شرقا وعربا ، وغورا ونجدا ، مؤفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفيا لأثره وسنته ، لحسم الله به
الأعداء ، وقمع به الأعداء ، من غنة الأمم ، وطواعيت الشرك ، وأباد على يده ، أهل الشقاق
والنفاق ، و كل أثق وطرف ، يحذ أمير المؤمنين أعزّه الله ، وركه ساسته ودولته ، ونصح
سعى من قام بنصرة من قام بحقه ، وأبار رهايه ، حتى توفاه الله عز وجل ، حين بلغ همته
وغايته ، وحج أحله ، وأتقطعت مدته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عد إمامه أكرمه الله ،
وعد الخاصة والعامة ، وكان من إجلال أمير المؤمنين ، الحادث الذي نزل به ، فأحيا آثاره ،
بوصف محاسنه ، في مشاهده وتمامه . ورحمه عليه عدد ذكره ، وحفظه في ثمنه ، وأهل
حرته ، وفيمن كان بحمد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتم به نعمته ، عددا وعندكم معشر
الشعبة ، فقد أصبح أمره بكم متصلا ، وموقعه من جماعتكم متمكنا ، فيصمكم ما يقصه ،
ويستطكم ما يستطه من لومة المصيبة ، وحسن العفى ، وقد علمتم معشر أهل المحا والنهى ،
والطاعة لله عز وجل وحليفته . ودوى الفناء والبقاء في دعوته من أهل خراسان وغيرهم
من حصر ممن آمتحن الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين أبقاء الله ،
والمجاهدة دونه ، والصبر على مواطن الصلح والألواء ، والنز عن البيضة والحريم ،

والمتمحلين للنصب، والمصائب التي انحلت، حتى كأن لم تكن، وبقي أحرها على الله عز وجل، ومحمود ذكرها شائعا في الناس، إن نيم الله، قد جلت ولطفت، وخصت وعتت، وعلت وسمت، وتمت ودامت، حتى قصروا عن موارينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لها معشر إخواننا سبب إلى مكافأة ملائه بالعمل، فحق حُذراء أن يحمد في القول، وطيب في الوصف إن شاء الله حل وعز، فقد حمل ذكر النعم من أسباب الشكر، وقد حدد لنا أمير المؤمنين أيده الله من الحياه والكرامه، وجبريل الجيله، وسبي الرنة التي قرئ بها عليكم كتابه ما يستعرق جهدها، ويستفزع وسعها، فزعب إلى الله عز وجل، ولي الرعة، ومؤتي السؤل والطيلة، في إعاننا على تأدية ما وحب له، فيا محبا من فوائده ونحله، ثم نسترفدكم ونستميكم على شكره، وإمدادنا بما لفته طافتكم في السبي له فقد آدنا نفل ما حملنا، ونفل ما طوقنا، وعطمت فافتنا إلى استعمال القوى من الأئس والحامه، والخاصة والعامة، في جراه ما حلل أمير المؤمنين فيما من سبه، وشيئا من ناله أياديه وطارفها، وقديميها وحديثها، وكيف يوحد إلى موازاه أمير المؤمنين سبيل سدل جهد، أو بلوع حشد، فإما فتندى هده، ونعشو بوره في دينا، وليس نحرنا عن أن نحرى حقه، بواصي عا مؤونة الدؤوب في التحزى لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أحر مصائل الشكر ومافه، وجعله من اسمائه، (وَمَنْ قَطَّوعَ خَرًّا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)، وقد قال تعالى: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا). وقال تعالى: (إِنْ تَقْرَئُوا اللَّهَ قَرْعًا فَسَبَّحَهُ بِمَا نَفَعَكُمْ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ كَرًّا وَبُحْرًا). ولولا أن الله عز وجل رصيه لنفسه، لأحلبنا عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، وسره في مكافأة من من وتقول، ثم حتى يذكر فصله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى أفتح أول ما علم حله بالحمد، وحمله بذه كتابه، وحامه دعوة أهل جته، فقال عز وجل، (وَأَحْرَ دَعَاؤُهُمْ أَنْ يَحْمَدُ قَبْلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وحلق الله السموات والأرض، ومن برا ودرا في الحياه ينلوعاده بشكره، وأعد الحيه في الآخره لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لِلْكَافِرِينَ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلْوَنًا) (سورة اعراف: 101-102).

كَفَرْتُمْ إِنَّ عِدَائِي لِشَدِيدٌ ۖ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ۖ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بَازِيَةً وَأَنْتُمْ خَائِلَةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ۖ ، جعل التقوى واقعة ، والشكر مرجوا ليدل على ارتجاع رتبته ، وعلق درجته
عده ، وقال ليجية . وسى عليه السلام : ۖ إِيَّايَ أَصْطَفَيْتَ عَلَى الْإِنْسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي خُذْ
أَيَّتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فلم يكفه الا أحد ما أعطاه ، والشكر على ما أنعم ، وأحبر
بكرته في العاد ، فقال تعالى : ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ، فاية بعمه أحل قدرا ، وأسنى
أمرأ ، بمشتر الشيعه من بعمه أمير المؤمنين ، أيده الله . عند الأمير دى الرياستى ، ومراسه
الى رتبته بها ، فإنه أعطاه رياسه الحرب ، ورياسه التدبير ، وعقد له على رأسها علما
في رواية دعويه ، وقلده سيعهما وحتمه بحام الخلافة . وحاتم الدولة ، وحمل صلاته من
صاحب حرسه ، وصاحب شُرطته . ومسرته بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وحلفه ،
وصوله الخلويس على الكرسي محصرته ، في صدر كل مجلس جلس . الا أن يؤثر به من أحب من
أبناء الخلافة . وقدمه في دخول دار الأمير راكا الى أقصى مكان ينهى إليه أحد من سى هاشم .
لأنه مهم ، وأعظمهم عماء عنهم ، صمأ صاحب دعويه وسيعه على عدوه وبابه الذى
يدخل اليه منه ، وولاه حيزوله في أقطار الأرض . ومقدمته محصرته ، وقلده من الشعور ما قد
علبت ، بما أفرده في عهده ، الى ما أنقده من أمره ، في جميع سلطانه ومملكه ، من مشارق
الأرض ومعاربها ، وأن يأتي الوصف على ما فصله به ، وقدمه وشرفه على الناس
كافة ، ولكنا نحيط بذكره ، ثم نكل السامعين الى ما يرجعون اليه من المعرفة اتى لا تبليها
الصحة . ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى عليه وتكلمته ،
ومناشرته بلجهازه ، إلى حمرة بيده ، وقاسى من القُصص ، ورحاء الحزن ، وإدراء القُرة ،
وإرافة الدمه ما حال بيده من الكلام ، وكاد يجمع من القول والدعاء في صلاته عليه ، من
الحكم ، وحفظ أهل الحرمة ، به رعاية له بهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقر حاصته ، وقواده
وتماله . وكتابه على مراتبهم ، وحيد بمجده ، وتم ملقه ، وحدد لجنده ، وتلى كريبته ، نظرا
عظما ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يبعه في حياته غاية الا اتى من ورثها ،

وأمر بقراءة قُتُوحه، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدّم من مَنبِغِه، وأخبر أنه كان سبَّه، والمفتَّح به، وولّى محمد بن الحسن جِلّالته، ونَصَّبه مَنبِغِه، وأقامه مُقامه الى أن جَدَّد المهدى، فاستحلفته على ما ولى بحضرته، ثم تتابع كتب أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصابب الأمير دى آل رياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتعويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجاراة، ولا فوقه مَصْغدا، حتى جَدَّد لنا من كرامته، ما قد قُرئ عليكم فى كتابه، فبلغ بنا ما لم تكن المهم تَبْلُغه، والأمانى يُحِيط به، لولا ما محضا الله عز وجل من الترقى والفضل، الى ما تَحْسِر من دونه الأنصار، وتقطع دونه الآمال، وإنما أقتصصناه ودكرنا ما أبلانا وأصطحب عندنا من بلانه بدعائنا الى الله عز وجل، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رجبته والطر بالصبح، والأخذ بالفضل، والأمير المعروف، وصلة المروءة والوفاء بالمهد، والشكر لثَن، ورعاية الأخلاق الحمودة، وإحطاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تافسوها وتَشَاحوا فيها، وصارت هى الذرائع اليه، والوسائل عده، فلو تأمل متأمل أهل الرُفعة، والأثره لديه، لوحد الأخص فالأخص، والأهل قدرا عده هو الأنصل دينا ومروءة، فلو لم يكن فى الحظوة عنده إلا إيمانها لصاحبها صحة المحبة، والزاهة عن كل غِلّة، لكان فيها أعظم الصلطة، وأعدل الشهادة والدلالة، وسفصى عليكم بما أحرناكم عنه مالا سبيل الى تحمده وإنكاره، بوصوح معالمة ومَنازله، أو ليس المجاهد عن دين الله، والمحامى عن نعمة المسلمين، والموائى لأغلظ عدوهم شوكة، وأخوفهم عداوة، والمُنجع فى بلادهم، بمن كان لا يرام، ولا يُحاول لاستصمابه وشدة مقاساته، حتى أَدعى حيمويه بالعبودية له، ثم أباح حرمة حين نمزج عليه، حتى بلغ السبى الى ولده، وحاربوا به، وسافنا حيولُه، حتى توصلت الى قُنته، ومتهى عزه، أو ليس مُسكن التهج بالمشرق، حتى حَبَّت البران فيه، وأدعى رؤساؤها وقادتها، أو ليس غازى بلاد بابل حين علمى أمرها، وبذل، ونكت وقص، حتى أجتبأت أرومته، وأباح حرمة، وأراح المسلمين من معوّته، أو ليس ساذ الثعور، ومُحص

عَوْرَها ، والمبايَرة لتديريها ، والمُسْعَد المُكابِدة المُنَحِّح فيمِص أرادها ، وفَاكَ العُصَاة ، من رِقَ الإِسَارِ ، وبايَرة الرحمة على فقراء المسلمين وصُعبائهم وأهل المُسْكَةِ ، وَاخْلَعةَ منهم ، وقاسِمِ الصَّدَقَاتِ في أهلها ، وعَايرَ الموسم ومَحْصَه من الآفَاتِ حِاطَةَ لِلسَّائِفِ في سَجَمِهِمْ ، وما يَتَقَرَّبُونَ به إلى رَبِّهِمْ ، وهل أَقَرَّنَ لأحد من الأئمة ما أَقَرَّنَ له في الملك والدين والعزَّ ، والتواضع والسَّعة ، والنَّذل والمِدره ، والعمو والعلطه ، والألبان في مواضعها ، والنَّسك مع الهمة ، والسُّطوة مع الإقالة ، وهل تركَ معشرَ الأولياء والأخوان في الدين عَايَةً لم تَسْمُ سِا إلى شرفها ، وعلى مراتبها ، ومُسزَادِ الحُطِّ في عاجل وآجل ، لم يَلْعَاه ويَحْتَارَ لها حَاصِ مَكْرَمَتِهِ ، ومُدَّعِرَ عَاقِبَتِهِ . أَرشَدَا إلى الدين ، وسَلَكَ بِمَا سُلِّلَ الجِبة ، حَارِلَا الملك ، فلم يبق وراءَ ما ملكَا عَايَةً ، وَوَرَدَ بِمَا الحُرُوتِ وسَادَهَا لَهَا ، فلم يَدَّعِ عَايَةً للتعليم والتدريه ، سُلِّطَ عليها سلطان الله الذي أَنَاهُ فلم يَدَّعِ عَايَةً في التعلد والعقه ، فَمَكَّ عِلْمَا العَصَائِلِ ، ثم فَصَّلَا بِهَا ، عَلَبَ لَهَا الإِثْمُ ، ثم حَوَّلَاها . عِلْمَا طَرَائِقِ الشَّرَفِ ، ثم نَرَفَا بِهَا ، أَحْبَرَا عَنِ الأَسَاءِ فَكَلَّمَا مؤوَبَةً التَّاسِهَا ، وَأَعَايا بما عَدَهُ فيها ، أَحَدَ على أَيْدِيَا الحَيْرِ للرَّعِيَةِ ، فَوَهَبَا لَهَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ مَقَالَتَا عِدِ الشُّبْهِ ، وَأَتَمَّدا أَمْرَا في التَّنْذِيرِ .

فِيهَا أَنهَا الإمام المصوَرُ المهدي الرَّشِيدُ حُرَّتْ فَصَائِلُ الآءِ ، وَأَهْتَدَيْتْ بِهِدْيِ الأَنْبِيَاءِ ، أَشْكُرُكَ عَنِ الإسلامِ ، فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالنَّاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَنِ الأَنْبِيَاءِ ، فَأَنْتَ الْمُفْتِيحُ لِمَتَعَمَّا عَوْنَهُ ، وَالْمُنْتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمُعِطِفُ عَلَيْهِمْ بِحَسَنِ الْعَائِدَةِ عِندَ مَا هِجَتْ مِنْكَ سَوْرَةُ الْعَصَبِ ، فَأَطْفَأْتَ بَارَهَا ، وَأَحْمَدَتِ لَهَبَهَا ، وَعُدَّتْ عَلَى مَنْ سَبَّهَ ، وَأَصَابَ حُطَّهَ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْمُسَاحَدِ ، فَأَنْتَ الَّذِي أَسْتُسْأَلُ عَلَى التَّقْوَى ، وَتَعَمَّرَتَا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمَابِرَ وَرَكَّتَا ، تَلَوْنَهَا صَائِمًا ، وَتَطِيقُ عَلَيْهَا صَادِقًا ، وَيَدْعُو إِلَى الرُّشْدِ عَلَيْهَا مَاصِحًا ، وَتَعْتَمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَدَّأَهَا بِحَسَا ، وَتَتَلُو مِنْ قَوَارِعِهِ ، مَا تَصِيحُ لَهُ الأَسْمَاعُ وَتَلِينُ لَهُ الْقُلُوبُ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ، وَالْمَحَرِّ وَزَمَرِمِ ، وَمَشَاعِرِ الْحُجِّ ، وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدَّتْ لَهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فامتّ النازع إليها ، من كلّ مخ عقيق ، والحاليين بها من الركوع
والسجود ، أم نشرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما جعلت فيه من غيرته .
بعوك عن محرمهم ، ومصاعبتك ثواب محسبهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد أدرس
وأنطلس ، بعد اللقاء بنى الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك ،
ودوى رحمه ورحمك ، ماصيغ الناس . ووصّلت منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل ،
قد قرّص صلة الأرحام ، فكان أطوع خلق الله عز وجل فيما قرّض عليه . أم نشرك
عن العوام ، فقد ألتست المسلمين ثوب الأمن ، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة ، وعدلت
بيهم بالإصاف ، وتولّيت دونهم النصب ، وآثرتهم الراحة . أم نشرك عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنبت الذى رفعت مدارهم ، ووقرت عددهم ، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء
أسعد ولا أحطى منهم في سلطانك ، بما بذلت لهم من المعاونة ، ووليهم من الثور
والأمصار ، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص ، أم نشرك عن الأحكام والسنة ، فأنبت
الذى أنهجت سبلها ، فأوحيت قرصها ، وباصت في أهلها ، أم نشرك عن الأعداء فأنبت
الذى بدأتهم بالحقنة ، ودعوتهم الى القيفة والإبابة ، ثم شئت معقاً للعور ، وسنتهم بعد
البؤس ، وآنتتهم من الوحشة ، أم نشرك على مكارم الأخلاق ، وأنبت الذى ثنت وطأنتها ،
ونفيت عنها أصدادها ، ولو طلقت الفصل ، لطلقت شركك ، في إزالته إياها عن اللثام ،
وإخطائك من أعتري إليها . أم نشرك عن الثور ، فأنبت الذى تممتها ، وحصت عوراتها ،
أم نشرك عن السلف ، فأنبت الذى أشدت بضاعهم ، وحفظتهم في أبنائهم ، أم نشرك عن
برّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القصيب الذى شقق به ، حتى جعلتهما ريتك ،
وسموت بهما في أعيادك ، عد حشدك ، على الطهر والزكاة ، والسك والتقوى ، أم نشرك
عن المسامين في رعايتك إياهم ، وما ترعيتهم من جنابك ، وتنف عنهم من الآفات ، وتيمل
عنهم من جبايرة الكفر ، وتعض من جيوش الشرك والنكث ، وتمنع من الحصور
المستعصبة ، وتسهل من الطرق الوعرة ، أم نشرك عن تواضعك لله عز وجل وإصاليح

المسلمين طلبا للرفعة عند الله . أم شكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عدا وقائدا وسفّدا . وكان مأمورا بعملته أمرا . وآله للعوه جعلت الفقه له آله ، فإما أتصل شكره بشكر الله عز وجل ، وصممه - معه الله تعالى وطاعته ، طاعه الله فهو الله لك شرف المنازل ، ورقاك درج العوائل . وحراك الله عما وعن عريا ، مما شكر من أطلق أو صامت ، جريل الثواب ورمع الدراح ، وأمسك ما أتاك وأمع الأثمة ما آتاهم ملك ، والحمد لله ذى الرعيات ، ومتم الصالحات ، شكرا لرب العالمين ، فإنه منّ طلاقا ، ومُنّى جهدا ، وبه نستعين على أادية فرائضه ، أنه لا يمس على ذلك الا هو . أحبُّ أن سكر اليكم أمر المؤمنين أيده الله ، اد ورد على من أسامه وافصاله ، مالا أطلع بالعمل ، ولذ يكون ما أقتصصا عليكم . داعيا لكم ، الى أن شكره عنا ، وعن أنفسكم ، وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وفقنا الله له ، فيما شرحنا وأوصحنا ، من الدلالة والبيان أن يكون محتملا يتنعم به من حصرا ، ومن عسى أن يؤدى اليه الحرُ عما ، أو حدث بعدنا ، وصفت بهذه المكرمة الرائعة ، والمآثره النارة ، التي آدتها الله لأمر المؤمنين . أعز الله نصره ، وأفرده بها ، دون الأثمة والخلفاء ، أن تمر بالأسماع صفحا ، وتختار على القلوب سهوا ، حتى تؤكد بالشواهد والبرهان ، لبقى ذكرها ونفعها والخلو والأعقاب ، ونحن نسال الله عز وجل الذى جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — ألفتا ، وعلى طاعته أهواءا وصحائرا ، وأمالا من الفطنة في دولته وسلطانه ، ما لم يتحوه شيعة إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتم بورا أمير المؤمنين ، ويحل كسره ، ويتمتع ببقائه ، حتى يلغيه سؤاله وهنته في الاستكثار من البر وآذار الأجر ، وأستجاب الحمد والشكر ، وأن لم ته الشعث ، وبرأت به الصدع ، ويصلح على يديه الفساد ويرتق به قنوق هذه الأثمة . ويُنشئ سياسته وبكاته في عدوها ، ويتاح الفتوح في بلدانهم حتى توبه من منفع السعى ، ورعائب الخط في الدنيا ، ما يحسرل عليه ثوابه في الآخرة ، وأرشد بحبائه واصفياءه ، الذين يقول لهم ﴿ قَاتِلُوا اللَّهَ تَوَاتَّ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ومن توقعاته نقلا عن كتاب الصولى .

وقع الى عامل طالم « الحق طريق واضح لمن طلبه تهديده مخته ولا تخاف ثمرته
وتؤمن في السر مفته فلا تسفلن مه ولا تعذلن عه هه بالعت و مناصحك فلا تخوحي
الى معاودتك فليس سد التقدة اليك إلا سطوة الإنكار عليك » .

ووقع في عاية بإنسان الى معص العال « أما هلا نأتم العناية وله شديد الرعاية وكنت
أحب أن يكون ما أرعته طررك من أمره و تكاى مستودعا تتمك من حطاي فلا تعذلن
سمايتك الى غيره ولا تمنحن معذك سواء حتى يبله إرادته وتجاوز به أميته إثناء الله » .
وفي كتاب أن طيعور من توقعات أحمد بن يوسف الشئ الكثر فارجع اليه
إن شئت .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — أتى رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا صرّ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ، قال . درهم ، قال : لقد هونتَ الدرهم وهو طائع الله في أرضه

(١) هو من أبناء العصر وكان من رحلات الولاية والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتاباً حاكى به كتاب طيبة وديمة وسماه « ثلثة وعشرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون . ولد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دستهبان كورة بين الأهوار وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن واهيون (راهون) وكنيته أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو حوزي المولد ، عراقى المنشأ ، تحول إلى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسلام ، وحرارة العرب » حوت من العلم الأساس أصوله ومروعه ، ومن القاميين على تجميع مصنفاته ونحوه ، صدر روحه طاب محالها وبها معها ، واستأثر عقله بما اقتنسه من نور مباحها فتخرج بلبانها ، ولا شك أنهم كانوا طائفة نالية حداً ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل أن سهل بن هارون كان شيعياً ، وشيعة العراق في ربه كانوا على الإطلاق بمنزلة ، ولم يؤثره أنه تنقص أحداً من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، باعتداله مع الأحياء ، وما أثره أنه حاص عمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وأتهموه بأنه كان مع الشيعة بين الذين يصحرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العم صلا ، وإذا صححت هذه التهمة فمن الصعب ألوميق بين مذهب من يقول بالشيوعية ومن يقول بالشيعة ، حل ألقى الذي سر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال . « كان سهل سبلاً في همه ، عتيق الوعة ، حسن الشارة ، سيذا من العدامة (العي) متمثل القائمة ، مقول الصورة ، يقضى له بالحكمة . قبل الحيرة ، ورقة الذهب ، قبل المحاطة ، وبذقة المذهب ، قبل الانحناء ، والمائل ، قبل التكشف (الطهور) » . وكان الجاحظ ماوجه وثامه . وقيل لقراني ولعله أراهم من دكوان كاتب الهادي ووريره . بك وبن سهل بن هارون صداقة فامته لنا كي معروف ، فقال « هو كالنير ، وأذن العلم ، واسع العلم ، إن حدث لم يكد ، وإن مودح لم يهصب ، كالنير أين وقع ، مع ، وكالشمس حيث أولت ، أحييت ، وكالأرض ما حلتها حلت ، وكالما . ظهور لثمنه ، وواقع له من أمر إليه ، وكالطاهر الذي تغلف منه الحياة بالنسم ، وكالبار الذي يمشي بها المقرور ، وكالسيار التي قد حست بأصاف الورق » . صورته جيلتان في وصف سهل صورهما مصوران مدحان عاشا خرقه ، وعتيها بخلفه وخلفه .

وأتهموا سهل بن هارون بالحل وأوردوا له قصصاً وبرادر ، وربما كان اتهامه بالحل سالماً فيه تراء به التهمة والبادرة ٥٠١ . من محاصرة للاستناد الباحث السيد محمد كرد علي ألقاها بالجميع الطلي العربي بدمشق ونشرها بحقي الجميع والمتنصف .

لا يعصى ، وهو عَشْرُ العَشْرَةِ ، والعَشْرَةُ عَشْرُ المِائَةِ ، والمِائَةُ عَشْرُ الأَلْفِ ، والأَلْفُ دِيَّةُ المسلم ، ألا ترى الى أين آتَى الدرهم الذى هَوَّنَتْهُ ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ، ولولا أنصرافه لم يستك .

وحكى دَعْبِلُ الخَزَاعِيّ الشاعرُ قال : ألقا يوما عد سَهْلُ بنِ هَارُونَ ، وأُطْلُنا الحديثَ حتى أَصْرَبَ به الجُوعُ ، فدعا مَعْدَانَهُ فَأَتَى نَصْحَهُ فيها مَرَرْتُ تحتَ دِيكَ هَرِمٍ ، فأحد كسرةً وتَعَقَّدَ ما فى الصَّحْمَةِ فلم يَحْدُ رَأْسَ الدِيكِ فسقى مطرُفاً ، ثم قال للفِلامِ : أين الرَأْسُ ؟ قال : رَمَيْتَ بِهِ ؟ قال : وَلِمَ ؟ قال : لم أَطْعَمْكَ تَأْكُلُهُ ، قال : وَلِمَ طَبَنْتَ ذَلِكَ ! فوالله إِنى لَأَمَقْتُ من يَرى بِرِجْلِهِ فكيف رَأْسُهُ ! ولو لم أَكْرَهُ ما صَمَعْتَ الا لِلطَّيْرِ والعَالِ لَكِرْهُنَّ ، أما عَلِمْتَ أَنَّ الرَأْسَ رَئِيسُ يَتَعَالَى بِهِ ، وفيهِ الحَوَاسُ الخمسُ ، ومنه يَصْبِغُ الدِيكُ ، ولولا صَوْنُهُ ما أُرِيدَ ، وفيهِ مِرْقَةٌ الذى يُتَبَرَّكُ بِهِ ، وعِيَهُ التى يَصْرَبُ بَصَفَاتُهَا المَثَلُ فيقال : شَرَّابُ كَمَسِ الدِيكِ ، ودماغه عَجَبُ لُوجِ الكَلْبَةِ ، ولم أَرْ عَظْماً قَطُّ أَهْتَشُ تحتَ الأَسنانِ مِثْلَهُ ، وإن كَانَ يَلِغُ من نُبْكِكَ أَمْكُ لا تَأْكُلُهُ ، مَعْدَمٌ ما يَأْكُلُهُ ، أو ما عَلِمْتَ أَنَّهُ حَيْرٌ منْ طَرَفِ الجَنَاحِ ومنْ رَأْسِ العُنُقِ ! أنظر أَي رَمَيْتَهُ ، فقال : والله ما أَدْرِى ، قال : أنا والله أَدْرِى ! إِنَّكَ رَمَيْتَ بِهِ ، والله فى بَطْنِكَ ، فوالله حَسْبُكَ .

ومن مؤلفاته كُتُبُ البَحْلَاءِ .

ولما صَفَّ سَهْلٌ كُتَابَهُ فى البَحْلِ أَهْدَاهُ الى الحَسَنِ بنِ سَهْلٍ وأَسْمَاعَةَ ، فكَتَبَ إِليه الحَسَنُ : قد مَدَحْتَ ما دَمَّه اللهُ ، وَحَسَنْتَ ما قَبَّحَهُ اللهُ ، وما يَقُومُ بِمَسَادِ مَعَالِكَ صَلَاحُ لِعَطِّكَ ، قد جَعَلْنَا ثَوَابَ مَدْحِكَ فِيهِ قَبُولَ قَوْلِكَ ، فما تُعْطِيكَ شَيْئاً .

وَأَتَتْهُمْ سَهْلُ بنِ هَارُونَ بالبَحْلِ وأُورِدَ لَهُ فى ذَلِكَ قِصَصٌ وبُودِرُ وَغَدَهُ الجَلِاحُطُ من "مُتَعَالَى البَحْلَاءِ وَأَتَتْهُمُ الْعُلَمَاءُ" قال : ما عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا جَزَدَ فى البَحْلِ كَتَامًا إِلا سَهْلُ بنِ هَارُونَ ، وَأَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الثَّوْرَى ، والبَحْلُ فى العَرَسِ عَالِبٌ فى الجَمَلَةِ ، عُلْبَةُ الكَرَمِ عَلَى

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التعميط الذى رآه سهل فى تسدير العرب ، أن يُقِلَّ لقومه بأرائه المبرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُهِدَ قَطَّ تَعْرِيطُ آلَا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُقَطَّعَ العرس فى صوف العلم والآداب ، وناهيك بمآل كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتابَ الكثيرَ المعانى ، الحسنَ الطَّمِّ ، فيسُّهُ الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصْغِي إليه ، ولا القلوب تَتَمُّ نَحْوَهُ ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلُّ منه فائدةً ، فيحُلُّه عند الله من المققع ، أو سهل بن هارون ، يُقِيلُ الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقه سهل فى كتابه طريقه أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يكلف للكلامه ، فلا يُشاهد فيه الناقد أثرَ التعمُّل ، بل لا يكلف من إرسال المس على صحتها ، فهو وأبن المققع والجاحظ على عِرَارٍ واحد .

وقيل إن سهلاً كاتبٌ سلاطین ، والجاحظ مؤلف دواوس . وكان كلامه نعمةً موسيقيةً تعرف آتِها بجلته من ربها بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، لا تحفل بالانجماع إلا إذا جاءت حقو الخاطير ، شأن لُغَاءَ الصدير الأول . وكان قول الشعروا أكثر شعره ممّا أملأه قلبه ، فى عرض من أعراس المجتمع . وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوَال والقِصَار ، والكتب الجُزْأَ والمجْدَه ، والسَّيرَ الحَسَنَ المولَّده ، والأخبار المدقَّبة . ولقبه مرةً بالكاتب ، ولعلَّ لقب الكاتب فى شعره أكبر من علم . وذكره أبى الدیم فى البلاد وقال إنه شاعرٌ مُقِيلٌ ، وعده فى الشعراء الخُجَّاب . وقال إنه كان ممن يعمل الائتمار والخرافات على أُنْبُسِه الناس والطير والبهائم هو وعدُّ الله بن المققع وعلى بن داود كاتب ربيده . وشعره نحسوس ورقة . أما الدهشة فى تأليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب الغر والعلب ، وكتاب اسباسيوس (أساموس) فى اتحاد الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب تحفة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الفزاليين، كتاب ندود وودود ولشود، كتاب الرياض، كتاب ثعلبة وعمرء، (وي رواية ثعلبة وعفره) على مثال كتاب كتيبة وديمثة، قلده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي : يزيد عليه أى على كتيبة وديمثة في حسن تطعمه وقد صنفه للمأمون .
ومن تأليفه : كتاب الهزلية والمحرومي ، كتاب الوامق والمدراء إلى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق إلا أيام ويلا لأسف على واحد منها فيما علما .

دخل سهل على الرشيد وهو يصاحك المأمون، فقال : اللهم زده من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مريباً على أمسه، مقصراً عن عهده، فقال الرشيد . يا سهل، من روى من الشعر أحسنه وأرصفه، ومن الحديث أفصحه وأوصحه، إذا رام أن يقول لا يعجزه القول؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما طست أن أحداً تقدمنى الى هذا المعنى، قال بل أعنى ههنا حيث يقول :

رأيتك أميس حير بهى لوى * وأنت اليوم حير مك أميس
وأنت عدا تزيد الحير صعباً ، كذلك تزيد سادة عبد شمس

وقد شهيد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إن تجاعى الخطب، ومحرى المريص عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلاماً بتصور ذراً، ويحمله المنطق السرى جوهراً، لكان كلامهما، والمثني من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عد كلام الرشيد وديته وتوقيعاته في كتبه، فذمين حين، وجاهلين اميين، ولقد عثرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا أتقادت الا لهم، وأنهم حصص الامام، ولباب الكرام، وملتح الأيام، عشق مطير، وجوده حبر، وجرالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، وأكتمال خصال، حتى لو فخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمناوير

من حصّاهم ، كثير أيام من سواهم من لُذّن آدم أيهم الى الصبح في الصور ، وآتعت أهل القصور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما هاتّ إلّا بهم ، ولا غولت في الفجر إلّا عليهم ، ولقد كانوا مع هديب أحلافهم ، وكريم أعرافهم ، وسعيه آفاقهم ، ورفيق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشرافهم ، وقاوه أعراصهم ، وهديب أعراصهم ، وأكتمال جلال الخير فيهم ، الى ملء الأرض مثلهم في حب محاسن المأمون كالفئة (الغلة) في البحر ، والحردلة في المهمة القفر .

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في ساد صحايا البرامكة والزريد والمأمون لم يجنم بالصحة الحقه ، ومال به سهل الى المصاحبه ، وحرّجه على نحو ماله العُرس ، في الإطراء والمَلَق لولى الأمر .

وروى بعض الرواه أن المأمون كان استقل سهل بن هارون ، وقد دخل عليه يوما والناس على مراتبهم ، فتكلم للمأمون بكلام ذهب فيه كلّ مذنب ، فلما قرع من كلامه أقبل سهل بن هارون على الخُصّ فقال : مالكم سمعون ولا تُوب ، وتُشاهدون ولا تُتفهون ، وهممون ولا تُتمحون ، وتُسمعون ولا تُشعرون ! والله إنه ليقول ويعمل في اليوم القصير ما فعل سمرّوان في الدهر الطويل ، عَرَبَكُمْ كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يُعرف بالنواء من لا يسعر بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الأول ، وعرف أنه الرجل كلّ الرجل ، ففرّقه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده .

ومن كلام له في كتابه عملة وعمره :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مُقسّما هل الذي يحدون به من تمصلكم ، فإنّ تقديم الهالة مع الإطراء في الفريضة شاهد على وُهن العقيدة ، وتقصير الرؤية ، ومُصير التدبير ، ومحلّ بالأختيار ، وليس في مع محمد به عوض من مصاد المروءة ، ولروم القيصبة “ .

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عَدُوٌّ يَلَادُ الْمَالِ فِيهَا يَسُوهُ * مُنَوَّعٌ إِذَا مَا مَتَعُهُ كَانَ أَحْرَمًا
مُدَلَّلٌ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ عَيْرَ أَنْ تَرَى * مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَعْنَمًا
وَلَتَبَّ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ أَتْلُ مِنْ صَعْف :

” لعنى جبر الفترة في إلمامها وأحساسها، والشكاه في حلولها وأرتحالها، فكاد يشغل
القلوب ماؤه عن السكون لآخره، وبذهل الحيرة وآسدهاته، عن المسرة وآنتهاته، وكان
تغيري في الحالين بقدرهما آرتياحاً للأولى، وآرتياحاً للآخري “ .



وكتب في الحل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمرك وجمع شملك وعلمك الخير وحملك من أهله . قال الأحف برقيس :
يا معشبر بن نعيم ، لا تُشِيرْ عُوا إِلَى الْفِتْنَةِ فَإِنَّ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَى الْقَتْلِ أَهْلُهُمْ حَيَاءً مِنَ الْعِرَارِ .
وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمّة فتأمل عيًّا فإنه إما يعيب الناس
فصل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن يعيب ما ليس بعيب . وقبيح أن تنهى
مُرشدًا وأن تُفَرِّيَ مُبْشِفِي . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدكم ،
 وإبقاء السليم عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسْنِ الْبَيَةِ فيما بيننا وبينكم . وقد تعلمون
أنا ما أوصياكم إلا بما آخَرْتَاهُ لَكُمْ ، ولأصفا قلّكم ، وشُهِرْنَا بِهِ فِي الْأَوَاقِ دُونَكُمْ ، ثم نقول
في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَحَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْتَ كُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . وما كان آخِصًا
سِوَىكُمْ فِي حُرْمَتِنَا بِكُمْ أَنْ تَزْعُمُوا حَقَّ قَضِيدِنَا بِذَلِكَ إِلَيْكُمْ عَلَى مَا رَعَيْنَاهُ مِنْ وَاجِبِ حَقِّكُمْ ،
فلا المُتَدَرِّجُ الْمَسْطُوعُ بَلَقْتُمْ وَلَا بِوَاجِبِ الْحُرْمَةِ قُتِمَ . ولو كان ذكر العيوب يُرَادُ بِهِ تَحْزِيرُ الْإِيَابِ
فِي أَنْفُسِنَا مِنْ ذَلِكَ شَغْلًا .

عَبْتُمُونِي بِقَوْلِي لَخَادِمِي : أَجِدِي الْعَبِيَّ فَهُوَ أَطْيَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رِيعِهِ ^(١) . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكُوا الْعَبِيَّ فَإِنَّهُ أَحَدُ الرَّيْعَيْنِ ^(٢) .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ تَمَيَّنَ مِنْ فَاكِهِهِ رَطْبَةٌ بَقِيَّةٌ وَمِنْ رَطْبَةِ غَرِيْبَةٍ عَلَى عَبْدٍ سَهْمٍ وَصَيَّ حَنْبَعٌ وَأَمِيَهُ لَكُمَاءٌ وَزَوْجَةٌ مُصْبِغَةٌ ^(٣) .

وَعَبْتُمُونِي مَا خَتَمْتُ وَقَدْ خَتَمَ بَعْضُ الْأَثَمَةِ عَلَى مِرْزُودِ سَرِيْقٍ وَعَلَى كَلَسِ فَارَعٍ ^(٤) . وقال : طِبَّةٌ خَيْرٌ مِنْ طَلِيَّةٍ ، فَأَسْكَمْتُ عَمْسَ خَتَمٍ عَلَى لَأْشَىءٍ وَعِثْمَ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ .

وَعَبْتُمُونِي أَنْ هَلْتُ لِلْفِلَاحِ : إِذَا زِدْتَ فِي الْمَرْقِ قِرْدٌ فِي الْإِصْبَاحِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّادِمِ مَا تَلَمَّ طِيبُ الْمَرْقِ .

وَعَبْتُمُونِي بِخَصْفِ التَّعَلِّقِ وَبِتَصْدِيرِ التَّمْيِصِ وَحِينَ زَعَمْتُ أَنْ الْمُخْصُوفَةَ مِنَ التَّلِّقِ أَفْنَى وَأَقْوَى وَأَشْنَى مَالِئَةً وَأَنْ التَّرْقِيعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّقْرِيطَ مِنَ التَّصْيِيعِ . وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نَظْلَهُ وَيُرْقِّعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاجٍ لَأَجَبْتُ . وقالت الحكماءُ : لَا حَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ رَجُلًا يَرْتَادُ لَهُ عُذَّتَانِ وَأَشْرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَأَتَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتَ بِهِ دَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ يَوْمَ قَانَطٍ يَلْبَسُ خَلْقًا وَيَلْبَسُ النَّاسُ حَدِيدًا ، فَتَهَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وقد علمتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ الْجَدِيدِ فِي مَوْضِعِهِ . وقد جعل الله لكل شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمًا بِهِ ، وَرُصْعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجَالًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وقد أَحْيَا اللهُ بِالنِّسَمِ وَأَمَاتَ بِالْذَّوَاءِ وَأَغْصَنَ الْمَاءُ . وقد زَعَمُوا أَنَّ الْإِصْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِيِّ . وقد حَبَرَ الْأَحْفُفُ بَنِي قَيْسٍ يَدُ عَتَرَ وَأَمْرُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

(١) الرِّيحُ : الْمَاءُ وَالزَّيَادَةُ . (٢) إِمْلَاكُ الْعَبِيَّ إِسَامٌ عَنْهُ . (٣) الْكُمَاءُ : الْحَقَاءُ .

(٤) الْمُرُودُ : رِجَالُ الْزَادِ . وَالسَّرِيقُ : طَعَامٌ يَخْتَدُّ مِنَ الْحِطَّةِ أَوْ الشَّيْرِ . (٥) - عَنِ الْمَلِكِ : تَرْزَعُهُ .

(٦) تَصَدَّقَ بِالتَّمْيِصِ : أَنْ يَجْعَلَ لَصَدْرِهِ بَطَانَةً .

يَفْرَكَ السَّل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْصَةً فقد أكل دَجَاجَةً .
وَأَبَسَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حِلْدَ أَصْحِيَّةٍ . وقال رجل لعص الحِجَاء : أريد أن أهْدِيَ اليك
دَحَاةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيُوضًا .

وعبتمونى حين قلْتُ : من لم يعرف مواصِعَ السَّرَفِ فى الموجود الرخيص لم يصرف
مواصيع الاقتصاد فى المُنْتَجِى الغالى . ولقد أُتِيَتْ مَاءٌ للصَّوْءِ على مِلْعِ الكِفَايَةِ وَأُتِيَتْ من
الكِفَايَةِ ، فَلَمَّا صُرْتُ الى تَفْرِيقِ أَجْرَائِهِ على الأَعْضَاءِ والى التَّوْفِيرِ عَلَيْهَا من وَضِيعَةِ الْمَاءِ^(١)
وَحَدَّثْتُ فى الأَعْضَاءِ قَصَصًا عَنِ الْمَاءِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ لَوْ كُنْتُ سَلَكْتُ الاقتصادَ فى أوَائِلِهِ
لَخَرَجَ آخِرُهُ على كِفَايَةِ أَقْلِهِ وَلَكِنْ نَصِيبُ الْأَوَّلِ كَنَصِيبِ الْآخِرِ ، فَعَبْتُمُونِى بِذَلِكَ وَسَمِعْتُمْ
عَلَيَّ ؛ وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ وَذَكَرَ السَّرَفَ : أَمَا إِنَّهُ لَيَكُونُ فى الْمَاءِ وَالْكَلَالِ فَلَمْ يَرْضَ بِذِكْرِ
الْمَاءِ حَتَّى أَرْدَفَهُ الْكَلَالُ .

وعبتمونى أن قلت : لا يَنْتَرِكَ أَحَدُكُمْ بِطُولِ عَمَرِهِ وَتَقْوِيَسِ ظَهْرِهِ وَرِقَّةَ عَظْمِهِ وَوَهْنَ
قُوَّتِهِ وَأَنْ يَرَى نَحْوَهُ أَكْثَرَ دَرَجَاتِهِ ، فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ الى إِنْجِرَاجِ مَالِهِ مِنْ يَدِهِ وَمَحْوِيلِهِ الى مِلْكِ
غَيْرِهِ والى مُحْكِمِ السَّرَفِ فِيهِ وَتَسْلِيْطِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّهُ يَكُونُ مُعْمَرًا وَهُوَ لَا يَدْرِي ،
وَمَعْدُودًا لَهُ فى السَّنِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُرَرَّى الْوَلَدَ عَلَى الْيَأْسِ وَيُحَدِّثُ عَلَيْهِ مِنْ آفَاتِ
الدَّهْرِ مَا لَا يَحْطُرُّ عَلَى نَالٍ وَلَا يُدْرِكُهُ عَمَلٌ ، فَيَسْتَرْذِهِ مِمَّنْ لَا يَرْذُوهُ وَيُظَاهِرُ الشُّكْوَى الى مَنْ
لَا يَرْحَمُهُ أَصَمَّتْ مَا كَانَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ وَأَقْبَحَ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ ، فَعَبْتُمُونِى بِذَلِكَ ،
وَقَدْ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْمَاصِ : "إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَمِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
تَمُوتُ غَدًا" .

وعبتمونى بأب قلت . نَأَى السَّرَفُ وَالتَّوَدِيرُ الى مَالِ الْمَوَارِيثِ وَأَمْوَالِ الْمُلُوكِ وَأَنْ
الْحِفْظَ لِلْمَالِ الْمَكْتَسَبِ وَالْفَقْرَ الْمَحْتَلَبِ والى مَنْ لَا يُعْرَضُ فِيهِ بِذَهَابِ الدِّينِ وَأَهْتِصَامِ
الْعَرَضِ وَنَصَبِ الْبَدَنِ وَاهْتِمَامِ الْقَلْبِ أَسْرَعُ وَمَنْ لَمْ يَحْسَبْ فَقَتَهُ لَمْ يَحْسَبْ دَحْلَهُ

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغي قدره فقد أودن بالفقر وطاب نفسا بالذل .

وعثمونى بأن قلت : إن كسب الحلال يصم الإغناى فى الحلال . وإن الخبيث يترع الى الخبيث ، وإن الطيب يدعو الى الطيب ، وإن الإغناى فى الهوى يحجب دون الهدى ، محبته على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتبديرا قط إلا والى حنبه حق مُصَيِّع . وقد قال الحسن . إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فانظروا فيماذا يُفِقُّه فإن الحديث إما يُتَّقِى فى السرف . وقلت لكم بالشقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأتم فى دار الآفات ، والجرائع غير مأمونات : فإن أحاطت بمل أحدكم آفة لم يرجع إلا الى نفسه . فاحذروا النقم باختلاف الأمكة فإن البلية لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد والأمة والشاة والبعير : ترقوا بين المايا . وقال أس سيريى لمص البحرىين كيف تصنعون أموالكم ؟ قالوا : نخرقها فى الشمر فإن عطل بمص سلم سمى . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أهوالنا فى البحر . قال أس سيريى : " نخسها نخرقها وهى صناع " .

وعثمونى بأن قلت لكم عد إشفاق عليكم : إن للبنى لسكرا وللال لثروه ومن لم يحفظ العى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم رسط المال لحوف الفقر فقد أهمله .

بعثمونى بذلك وقد قال ريدى حله ليس أحد أقصر عقلا من عى أمين العقر ، وسكر البنى أكثر من سكر الحمر . وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برمك :
وهو ب تلاد المال فيما يؤبه : مسوخ إذا ما سمعه كان أحرما

وعثمونى حين رعتم أى أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُعاد العلم وبه تقوم العلم قبل أن تعرف فصل العلم ، فهو أصل والأصل أحن بالتفصيل من العرع ، فقلتم .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفصل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له :
 فما مال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك
 لمعرفة العلماء بفصل المال وجهل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالهما هي القاصية بينهما .
 وكيف يستوى شئٌ حاحه العامة اليه وشئٌ يفتنى فيه بعضهم عن بعض .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتحاد النعم والعقراء باتحاد الدحاح . وقال
 أبو بكر رضى الله عنه : إني لأبغض أهل بيت يسمقون فقه الأيام في اليوم الواحد . وكان
 أبو الأسود الدؤلى يقول لولده : اذا بسط الله لك الرزق فابسط وادا قصص فاقصص .

وعبتموني حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كمفصل الالة تكون في البيت
 اذا احتيج اليها استعملت وإن استغني عنها كانت عُدَّة . وقد قال الحصين بن المدر :
 وجدت أن لى مثل أحد دها لا أسمع منه شئ . قيل له : ما كنت تصنع به ؟ قال :
 لكثرة من كان يحثمنى عليه لأن المال معدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب
 البنى فلوم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وفل في قلب عدوك لكان الخط فيه حسيا والنع
 فيه عطيا .

ولسا مدع سببه الأبناء وتعلم الخلفاء وتادبت الحكماء لأصحاب آلهو ؛ ولستم على
 تردون ولا رأي تهمدون ، هدموا الطر قبل المرم وأدركوا مالكم قبل أن تذكروا مالكم .
 والسلام عليكم .

وسهل هو القائل :

تسمي همان قد كسما بالي * وقد تركا قلبي محلة يلبال
 هما أدريا دمسى ولم تذر عبرتي * رهيه حد دات سيط وحلحال
 ولا قهوة لم يبق منها سوى الذى * على أن تحاكي النور رأس ذبال

تَحُلُّ مِنْهَا حُرْمُهَا وَعَاسَكْتُ * لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ انْخَالِي
 وَلَكِنَّا أَتَيْتُكَ بِمِيبٍ نَجِيٍّ * عَلَى حَدِيثِ تَبَكِّي لَهُ عَيْنُ أُمْنَانِي
 وَرَأَى حَلِيلِي لَا يَقُومُ بِهِ الْأَمْسَى * وَخَلَّةٌ حُرًّا لَا يَقُومُ بِهَا مَالِي
 فَوَاحِشْرَقِي حَتَّى مَتَى الْقَلْبُ مُوَحَّحٌ * لَتَقَرَّ حَلِيلِي أَوْ تَعْدُرُ إِفْضَالِي
 وَمَا الْعَصْلُ إِلَّا أَنْ تَتَّخُذَ بَائِلِي * وَإِلَّا لِقَاءَ الْخِلِّ ذِي الْخُلُقِ الْعَالِي

وهو القائل :

إِذَا أَمَرْتُ صَاقَ عَمِّي لَمْ يَصِقْ خُلُقِي * مَنْ أَنْ يَرَانِي عَيْبًا عَمَّهَ مَا لِيَّاسِ
 لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أُغْنَى بِفَضْلِهِ * مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقَرًّا مَنِ الْبَاسِ

(ز) عمرو بن مسعدة^(١)

كان كاتباً بليغاً، جزل المارة وحيّزها، شديد المقاصد، فصله شائع، ونُله ذائع، أشهر من أن يُنبه عليه، أو يُبدّل بالوصف إليه، قد وليّ للأمون الأعمال الجليلة، وألحق بنبوي المراتب البليلة. وسمّاه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزهته لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعد الله الوزير بن مسعدة * وبث له في الساس شكر ومحمد

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكاتب ملك وأخوه يبرور على حركات ونحسا بعد التركية وتشبها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العال طهرت كفايته وبلاده، وباللغة توصل إلى الخليفة عبد أحد أمراء لائل في رساله، قال أحد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على الأمون بيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوّب، فلما مرّت على ذلك مدّة من زمانه التفت إلى وقال : يا أحد أدراك معك ما تراه مني، قلت نعم، فقال ان في هذا الكتاب كلاماً طيراً ما سمعت الرشيد يقول في اللامعة، رعم أن اللامعة إنما هي الشاهد من الاطلاقة، والفقر من معنى الحية، والدلالة القليل من الغلط، على الكثير من المعنى، وما كنت أفهم أن أحداً يقدر على ذلك . وقال . هذا كتاب عمرو بن مسعدة اليها، فهكته فاداً فيه . « تخاطبني إلى أمير المؤمنين، ومن قلى من قواده، وروساء أحماده، في الاقياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة حد تأثرت أرذافهم، وراقياد كهافة تراحت أعطياتهم، فاحتلت لذلك أحوالهم، والثالث معه أمورهم » . فلما قرأته قال . ان استحقاقك بذلك بشئ أن أمرت لحد قله فأعطيتهم لمة أشهر، وأما على محاراة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صاعته . وفي رواية أن الأمون أمر لعمر بن مسعدة بربق ثمانية أشهر وأه قال لأحد بن يوسف . قد در عمرو ما أله ! ألا ترى إلى إدماحه المسألة في الأحبار، وإعجابه سلطاناً من الآثار .

وكان عمرو بن مسعدة وكنته أو الفصل ايضاً أحراراً، وكان الأمون يسميه الزوي لياص وصحه وكان يحصب وتقوى بأدبة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم يصرف منشأه ومولده وأساتيده وعاية ما عرفاه أنه كان أحد باحوة أدسة أحسن أومهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحسان حتى حانت من أحدهم هذه اللامعة البادرة التي كان من أثرها أن أصبح عبير الأمون، وكان هو وأبو عماد ثقت من يحيى يكنان بين يديه ويحصلون معه ويمازجانه . ولكن يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونهم يجب أن يطوى على صفات طالية يمر عليها في الأثران والآثران .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أرفع من يدي جعفر بن يحيى الرميكي فرجع إليه طلبه ورقة يستردوه في روايتهم فرى بها إلى وقال : أجب عنها فكنتت : « قليل دائم خير من كثير مقطوع » صر يده على طهرى وقال : =

فهو كما كتبت الحسن بن سهل إلى محمد بن سيماعة القاضي وقد احتاج إلى رجل يؤلفه
مسنن الأعمال فقال: إنه يريد رجلاً حامداً لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طعنة، قد هدته
الآداب، وأحكمه التحارب، ليس تغيب في رأيه، ولا يطمون في حسبه إن أؤتمن على
الأمرار قام بها، وإن قلّد مهمّاً من الأمور أجزأ فيه، له سن مع أدب ولسان، تُعقده
الزمانة، ويسكته الحلم، قد فُرع دكاه وِفْطَة، وعص على قارحه من الكمال، تكفيه
الخطئة، وترشده السكنة، قد أنصر حدمة الملوك وأحكمها، وقام في أمور حميد فيها، له
أماه الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وحواب الحكماء، لا يبيع
نصيب يومه بحرمان عده، يكاد يسترق قلوب الرجال بملأه لسانه، وحُسن بيانه، دلائل
الفصل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة، مُصطليحاً بما استنهض، مستقيلاً بما حمل.

— أي ويرى في حديثك. وقد شهد لعمر بن مسعدة باللائحة أعيان البان في عصره ومهم الفصل من سهل يقال فيه .
إنه ألع الناس، ومن لئحته أن كل أحد إذا سمع كلامه طى أنه يكتب مثله فإذا رآه سد عليه . وهذا كما قيل لأحد
العلماء ما حده اللئحة* فقال التي إذا سمعها الجاهل طى أنه يقدر على مثلها، فإذا رآها استصمت عليه .
وله يؤخر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص وأورد مسألة في التأليف، وعده من القديم في الشعراء الكتاب
ولم يذكر إلا أنه ولأخيه محاسب حسين ورقة من الشعر وهي من الصانع أيضاً . والعالم أن بهام القول
لم تترك له وقتاً يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة . وما تخطه العلماء والأدباء من كلامه،
فهو مما صدر عنه بالمناسات، ورواه له المصنفون به، وما أعلم المخطوطة منه . والمطلون أن لو كانت سمعت
له رسالته على إنجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أحوالاً طويلة وهو قاص على يراعه يبالغ بها
الموصوعات السياسية والإدارية في ذلك المجتمع العظيم لا شك أنه مجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا
معروفاً بالبحار . ١ من محاضرة الاستاذ الباحث محمد كرد علي شرها مجلة المجمع العلمي العربي . وفي عمرو بن
مسعدة قال محمد البديق وقد اعتل :

قالوا أبو الفصّل معتل فقلت لهم * صبي العبداء له من كل محذور

يا ليت طننه في غير أنف له * أمر العليل وإلى غير مأحور

وتحذرت حنته في معجم الأدباء لياقوت (ح ٦ ص ٨٨) وأبو حنكان (ح ١ ص ٥٥٥) والرازي بالروايات
للصدي (ح ٥ ص ٥٠٢) قسم ثالث من الأصل المتنوع في المخطوط مدار الكتب المصرية) .
(١) في الأساس : ومن الجواز ملاصق طيب الطعنة وحسب الطعنة (بالكسر) وهي الجهة التي منها يترق
(بوزن الحرفة) . (٢) أجزأني كذا : كفاي . (٣) فرعن دكاه، وِفْطَة، أي جرب واختبر
فيها . (٤) وعص على قارحه، تخاية من بلوه درجة الكمال .

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظم الناس أجراً ، وأنبههم ذكراً ، من لم يرض بموت العدل في دولته ، وطهور الحق في سلطانه ، وإيصال المانع الى رعيته في حياته ، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه ، ومعد وفاته وانقراضه .

وقال . الخطّ صوّر الكتّيب ترّد اليها أرواحها .

وقال . الخطّ صورة صليلة لها معانٍ حليلة ، ورُبما صاق عى العيون ، وقد ملاّ احطار العيون .

وقال لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وموائد علمه ، ومن كانت عايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردى العيب ، سرياً الى الدم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنك متى ادا عرس سقى ، واذا أسس سقى ، ليستمّ تشييد أسسه ، ويحني عمار عرسه ، وناؤك عدى قد شارف الدروس ، وعرسك مشف على اليوس ، هدارك بهاء ما أسست ، وسقى ما عرست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه :

أما بعد ، فوصل كفى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُدبروني عن سالم وأدبرهم * وحلده بين المي والأف سالم
أى يحل منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضة يستشع له بالزيادة في مراتبه وجمل كتابه بعريضا :

أما بعد ، فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك على ، في إلحاقه سطراته من الخاصة فيما يرقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشعين ، وفي ابتدائه بملك تعدى طاعته والسلام .

فكتب إليه المأمون : "قد عرفنا توطئتك له ، وتريقك لنفسك ، وأجبتك اليهما ، ووافاك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يعطني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه ذلك تعدى طاعته" : من الكلام السرّي الذي يدلّ على مبلغ أدب عمرو وتُعبّد غوره في السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية الخلفاء .

قَدِمَ رَحْلٌ مِنْ أَسْبَاءِ دَهَاقِينَ^(١) قَرِيشٍ ، عَلَى الْمَأْمُونِ لِعِدَّةٍ سَلَفَتْ مِنْهُ ، فَطَالَ عَلَى الرَّحْلِ اسْطِزَارُ نَحْوِ أَمْرِ الْمَأْمُونِ ، فَقَالَ لِعَمْرُو بْنِ مُسْعَدَةَ : تَوَصَّلْ مِنِّي رُقْعَةً إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَكُونَ أَنْتَ الَّتِي تَكْتُبُهَا تَكُنْ لَكَ عَلَى نِعْمَتِكَ . فَكَتَبَ : "إِنِّي رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يَفَكَّ أَسْرَ عَبِيدِهِ مِنْ رِقْعَةِ الْمُطَّلِ بِقِصَاصِ حَاجَتِهِ ، أَوْ يَأْذَنَ لَهُ بِالْإِصْرَافِ إِلَى طَلَبِهِ فَعَلَّ إِنِ شَاءَ اللَّهُ" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يَجَجِبُ مِنْ حَسَنِ لَعَطِهَا ، وَإِعْجَازِ الْمِرَادِ . فَقَالَ عَمْرُو : هَا نَتَيْجَتُهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : الْكَثَابُ لَهُ فِي هَذَا الْوَقْتُ بِمَا وَعَدَنَاهُ ، لِثَلَاثِائِثَ فِصْلٍ اسْتَحْصَاسًا كَلَامَهُ ، وَبِحَازِنَةِ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، صِلَةً مِنْ دَنَاءِهِ الْمُطَّلِ . وَسَمَّاجَةٍ الْإِعْصَالِ .

وهذا مما يدلّ على سعة عقل المأمون وولوعه باللاعة وقدره أهلها حقّ قدرهم ، دَعَا مَا هُنَاكَ مِنْ مِثْلٍ مَا أَحْبَبْتُ إِلَّا الْجُودَ وَالْعَطَاءَ .

وَمِنْ حِكْمِ عَمْرُو بْنِ مُسْعَدَةَ :

الصُّودِيَّةُ عَوْدِيَّةُ الْإِحْاءِ . لَا عُجُودِيَّةُ الرُّقْ . الْوَدَّ أَعْطَفَ مِنَ الرِّحْمِ . إِنْ الْكَرِيمُ لَيَرْتَعَى مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا رَعَى الْوَصْلُ مِنَ الْقَرَابَةِ . عَلَيْكُمْ بِالْإِخْوَانِ فَإِنَّهُمْ زِينَةُ فِي الرَّحَاءِ ، وَعُدَّةٌ لِلْبَلَاءِ . مَثَلُ الْإِخْوَانِ مَثَلُ الْبَارِ ، قَلِيلُهَا مَتَاعٌ ، وَكَثِيرُهَا تَوَارٍ . الْفَسْ بِالصَّدِيقِ ، آئِسٌ مِنْهَا بِالْعَشِيقِ ، وَعَزَلُ الْمُودَةِ ، أَرْؤُ مِنْ عَزَلِ الصَّبَابَةِ . مِنْ حَقُوقِ الْمُودَةِ ، عَفْوُ الْإِخْوَانِ ، وَالْإِغْضَاءُ عَنْ تَقْصِيرٍ إِنْ كَانَ . ذَكَرَ رَجُلٌ رَجُلًا فَقَالَ : حَسْبُكَ أَنَّهُ حَالِقٌ كَمَا تَشْتَهَى إِخْوَانُهُ . الْمُودَةُ قَرَابَةٌ

(١) الدهاقين : الرعاة . أرباب الأملاك بالسراد ، وأحدهم دهقان (تكر الال معرب) .

مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء .
 اقطاعا موده الأشرار . المحروم من حريم صالحى الإحوان . لقاء الخليل شعاء الغليل .
 قلة الرياسة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا . علامة الصديق
 اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتدنى بالكتاب . لا يصدك الطن على صديق
 قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأئس ، أثمرت مودته
 ندما . اذا قدمت الحرمة ، تشبهت بالمقاربة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من
 باطن الحقد . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الأود ما بقى العتاب . تكون الحقد
 في العواد ككؤن النار في الزناد . القريب بعيد عداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن
 عدوك وإن كان مقهورا ، واحذر وإن كان معقودا ، وإن حذ السيف فهو وإن كان مموذا
 لا نعرض لعدوك في دولته ، فإنها اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح
 العدو تأيب .

روى النبي قال : أحربا بعض أصحابنا قال : شهد المأمون يوما وقد حرج من
 باب البسان بمعداد فصاح به رجل بصري يا أمير المؤمنين إلى تزوجت امرأة من
 آل رباد وإن أما الرازي فزف بيها وقال : هي امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن
 مسعدة فكسب إلى أبي الرازي .

إله قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزبادية وحلكت إياها إذ كانت من قريش . فنى
 بحاكمك اليك العرب ؟ لا أتم لك فى أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يابى الهاء بأن تُلصق
 بها من ليس منها ؟ نخل بين الرجل وامرأته ، فليس كان زياد من قريش ، إله لأبن ثميّة
 بى عاهره ، لا يفتخر ، بقرابتها ولا يتطاول بولادنها . ولئن كان أبى عبيد ، لقد باء بأمر
 عظيم ، إذ أذعى الى غير أبيه ، لخط تجملة ، ومليك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عاية الى بعض العمال في قضاء
 حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد ، لا زيادة عليه .
 فكسب عمرو :

كاتبى اليك كتابٌ واثقٌ بنَ كُتبتُ اليه ، معنًى بنَ عُكَيْبٍ له ، ولن يَضِيعَ بينَ الثَّقَةِ
والعَايَةِ حَامِلُهُ .

وكتب الى بعض الرُؤساء ، وقد تزوجتُ أمه فسأله ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس
سَلَّ بها ، وذهب عنه ما كان يَحْدَهُ . وقيل : إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العَيمِد وهى :
الحمد لله الذى كَشَفَ عَايَتَ الحَيَّةِ ، وهَذَا لَسَرِ العَوْرَةِ . وَجَدَعَ بِمَا شَرَعَ من
الْحَلَالِ أَنْفَ النِّيرِ ، وَمَعَ مَنَ عَصَلَ الْأَمْهَاتِ ، كَمَا مَعَ من وَاذَّ البَيَاتِ ، اسْتَرَالَا لِلْعُوسِ
الْأَبْيَةِ ، عَنِ الْحِمَةِ حَيَمَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، ثُمَّ عَرَّصَ لِحَرْيلِ الْأَجْرِ ، مَنَ اسْتَسْلَمَ لَوَاقِعَ قَصَائِهِ ،
وَعَوَّضَ حَالِيَّ الدَّرَمِ صَرَعِي نَازِلِ مَلَايِهِ ، وَمَاكَ الذى نَزَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرَكَ ، وَوَسَّعَ
فِي السَّلْوَى صَبْرَكَ ، وَأَهْلَكَ من التَّسْلِيمِ لِمُسَيَّبَتِهِ ، وَالرَّصَا بَقِصَتِهِ ، مَا وَفَّقَكَ له من قَضَاءِ
النَّوَاحِ فِي أَحَدِ أَوَائِكَ ، وَمَنَ عَطَمَ حَقَّهُ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَ الله تَعَالَى جَدُّهُ مَا تَحَوَّرَتْهُ من
أَنْفٍ ، وَكَظَمَتَهُ من أَسْفٍ ، مَعْدُودَا فَمَا يُعْطَمُ بِهِ أَجْرَكَ ، وَيَجْزِلُ عَلَيْهِ دُنُورَكَ ، وَقَرَنَ
بِالْخَاصِرِ من اسْتِعَاصِكَ فَعْمَلَهَا ، الْمُتَسَطَّرِ من ارتِصَاصِكَ بِدَفْنِهَا ، فَتَسْتَوِي بِهَا الْمَصِيبَةُ ، وَتَسْتَكِلُ
عِهَا الْمُثْوَبَةُ ، فَوَصَلَ الله لِسَيْدِي مَا اسْتَشْعَرَهُ من الصَّبْرِ عَلَى عُزْسِهَا ، بِمَا يَكْتَسِبُهُ من الصَّبْرِ
عَلَى نَسَمِهَا ، وَعَوَّضَهُ من أَسْرَةِ فَرْشِهَا ، أَعْوَادَ عَشْنِهَا ، وَجَعَلَ عَالَى حُدُّهُ مَا يُنْعَمُ بِهِ عَلَيْهِ عِندَهَا
من نِعْمَةٍ ، مَعْرًى من نِعْمَةٍ ، وَمَا يُولِيهِ بَعْدَ قَبْصِهَا من مِغْنَةٍ ، مُبْرَأً من مِحْنَةٍ ، فَاحْكَامِ
اللهِ عَالَى حُدُّهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، جَارِيَةٌ عَلَى عَيْرِ مُرَادِ المَخْلُوقِينَ ، لَكِنَّهُ تَعَالَى يَخْتَارُ لِعِبَادِهِ
المُؤْمِنِينَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي الْعَاجِلَةِ ، وَأَيْقَى لَهُمْ فِي الْآجِلَةِ ، احْتَارَ الله لَكَ فِي قَبْصِهَا إِلَيْهِ ،
وَقُدُومِهَا عَلَيْهِ ، مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهَا ، وَأَوْلَى بِهَا ، وَجَعَلَ الْقَبْرِ ، كُفُوءًا لَهَا وَالسَّلَامَ .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الذى طار يشر بن عيات المريسي بحصرة أمير المؤمنين
في مسألة خلق القرآن :

جاءني خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمعٌ من العرسان والزجاله لعماني مكرماً على دابته
حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل مجلسي في محبته

التي كان يجلس فيها ثم أدين لي بالدخول عليه فدخلت فلما صيرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيمٌ على ما كنتَ عليه أو قد رجعتَ عنه ؟ فقلتُ : بل مقيمٌ على ما كنتُ وقد ازدددتُ بتوفيقِ الله تعالى إياي بصيرةً في أمرى ؛ فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملتَ نفسك على أمرٍ عظيمٍ ، ولفقتَ العايةَ في مكروهاها ، وتعرّضتَ لما لا قِوَامَ لك به في مخالفةِ أمير المؤمنين ، وادعيتَ بما لا يثبتُ لك به حجةٌ على مخالفتك ، ولا لأحدٍ غيرك ، وليس ورامك بعد الحقّة عليك إلا السيِّفُ ، فانظرَ لنفسك وما درَ أمرَكَ ، قل أن تقعَ المناطرةُ وتظهرَ عليك الحقّةُ ، فلا تنفعك الدّامةُ ولا يقلُ منك معدرةٌ ولا تُقال لك عثرةٌ ، قد رحمتُك وأشفتُك عليك مما هو نازلٌ بك ، وأنا أستقبلُ لك أمير المؤمنين وأسأله الصّمعَ عن جُرمك ، وعظيم ما كان منك إذا أظهرتَ الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان ، وأحدُك الأمانَ منه والجائزةَ ، فإن كاتب لك طَلامةً أرلّتها عك وإدكأت لك حاجةً قصبتها لك ، فاما حلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقلتَ على ما أنت عليه ورجوتَ أن يخلصك الله تعالى على يدَي من عظيم ما أوقعتَ نفسك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليلٌ جداً . ذكر المترجمون له أنه كان له فرسٌ أدهمُ أمرٌ ، لم يكن لأحد مثله قِراةً وحُسنًا . بلغ المأمونَ حره ، وبلغ عمرو ابنَ مسعدة ذلك . يخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه تحمّده ، فوجه به إليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يُدَا . نيه إذا عُدَّ إمامٌ
فصل الدّاس كما يَهْد . فصل قصصاً ما تَمَامُ
قد مثلاً يَجْوَاد . مثله ليس يُرَامُ
فرسٌ يُزْهِى به لَد . حُسنَ سَرَجٍ وِلْجَامُ
دونه الخيلُ كما مَث . ملك في الفصل الأمامُ

وجْههُ صُبْحٌ وَلَكِنْ سَاثِرُ الْجَسْمِ ظِلَامٌ
وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلْو * لَيْ عَلَى الْمَيْدِ حَرَامٌ

وعمره هو القائل :

وَمُسْتَعِيبٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْدْتُ * أَكَايِمُهُ حُتَّى فَيَنْأَى وَأَقْرُبْتُ
إِذَا جَدْتُ مَنِي بِالرِّصَا حَادٍ بِالْجَلَا * وَبَزَعُمُ أَقَى مُذْنِبٌ وَهُوَ أَذْنِبُ
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّصَا خَوْفَ تَحْسِرِهِ * وَعَلِمَهُ حُتَّى لَهُ كَيْفَ يَفْقَسُ
وَلِي غَيْرُ وَحْدَةٍ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ * وَلَكِنْ لَا قَلْبَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

ووقع مرة في طهر رقعة لرحل :

أَعِزَّزَ عَلَى نَاصِيٍّ أَنْتَ طَالِبُهُ * لَمْ يُكَيِّسْ التُّخُّجَ فِيهِ وَأَقْصَى أَمَدُهُ

ولعمرو س مسعده حكايات منها ما حكاه القاضي التنوخي في كتاب الفرج ضد الشدة :
قال عمرو بن مسعده : كُتِبَ مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرقعة
قال : يا عمرو، ما ترى الرَّجَجِيَّ قد احتوى على الأَهْوَارِ، وهي سلة الخير وجميع المال قبله
وطمع فيها، وَكُنْتُه متصلة بملها، وهو يتعلل وترفص في الدوائر * فقلت : أما أكرمي
أمير المؤمنين هذا، وأخذ من يصطوره إلى تحمل ما عليه . فقال : ما يقضى هذا، فقلت :
يا أمير أمير المؤمنين بأمره، فقال : ما نرجأ إليه بنفسك حتى تُصعده بالحديد، فتحمله إلى
بنداد وتقص على جميع ما في يده من أموالها، وتتظري أعمالها وترتب لها عمالاً، فقلت :
السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال : ما فعلت فيما أمرتك به * قلت :
أنا على ذلك، قال : أترد أن تجيء في غد مودعا * قلت : السمع والطاعة، فلما كان
في غد جئته مودعا، فقال : أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببنداد إلا يوما واحداً،
فاضطربت من ذلك إلى أن حصنى واستخلفني ألا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت

حتى قدمت بغداد ، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام وأخمدت في زلالي أريد الصرة وحمل لي في الزلالي خيش واستكثرت من الثلج لشدة الحر .

فلما صرت بين بجرخان وحل سمعت صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملاح ، فوجئت بضعف الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين حلق العميص ، فقلت للغلام : أجه ، فأجابني ، فقال : يا علام ، أنا شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى ، وقد أحرقتني الشمس وكادت تنلفني ، وأريد حل ، فأحملوني معكم فان الله يحبس أحر صاحبكم ، قال : فشمته الملاح وأتمره ، فأدركتني رقة عليه وقلت : حذوه معا ، فتقدمنا الشط وحضنا به وسجلناه ، فلما صار معا في الزلالي وأخذنا نتقدم فدفعت اليه قبضا ويمديلا وعسل وجهه واسراع وكأنه كان يتنا وعاد الى الدنيا فحصر وقت الغذاء وتقدمت وقلت للعالم . هايت يا كل معا ، بجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكل أديب بطيف مير أن الجوع أثر به ، فلما رُفعت المائدة أردت أن يقوم ويتسل يده ناحية كما تعمل العامة في محال الحاصه فلم يفعل ، فسلت يدي وتقدمت أن آمر بقيامه ، فقلت : قدموا له الطشت ففعل يده ، وأردت بعدها أن يقوم لأمام فلم يفعل ، فقلت : يا شيخ ، أي شيء صاعتك ؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب ، فتأومت عليه ومددت رجل فقال : قد سألني عن صاعتي وأنت أعزك الله ما صاعتك ؟ فأكبرت ذلك وقلت : أما حيت على معنى هذه الحياكة ولا بد من احتمالها ، أتراه الأحق لا يرى زلالي وغلمانى ومعنى وأن مثلى لا يقال له هذا ! فقلت : كاتب ، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة ، فأبهم أنت ؟ فورد على قولك لائك موردا عظيما وسمعت كلاما أكثرته وكنت متكا بجلست ، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

بم ، كاتب نرجح يحتاج أن يكون عالما بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبثوق والفتوق والرتوق . وكاتب أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلل والحرام

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكانت مَعُونَةٌ يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمواثات والسياسات . وكانت حَيْشٌ يحتاج أن يكون عالماً بِجُلِّ الرجال وِشَيَّاتِ الدَّوَابِّ ومُدَارَاةِ الْأَوْلِيَاءِ وَشَيْئاً مِنَ الْعِلْمِ بِالنَّسَبِ وَالْحِسَابِ . وكانت رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والمصول والإطالة والإيجاز وحُسْنِ اللَّعَاةِ وَالْخَطِّ ، قال : فقلت : إني كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لي :

أصلحك الله ، لو أنَّ رجلاً من إخوانك تَرَقَّحَ أَتَمَكَ فاردت أن تكتبه مهتاً فكيف كَتَبْتَ تكتبه ؟ ففكرتُ في الحال فلم يحطري بالي شيء ، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وحياً ، قال : فكيف تكتب إليه تعريه ففكرت فلم يحطرسألي شيء ، فقلت : اعفني ، قال : قد فعلت ، ولكك لست بـكاتب رسائل ، قلت : أنا كاتب نَحْرَاج ، قال : لا بأس ، لو أنَّ أمير المؤمنين ولَاكَ نَاحِيَةٌ وَأَمْرُكَ فِيهَا بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ وَتَقْصِي حَاحَةَ السُّلْطَانِ فَيَنْظُمُ إِلَيْكَ بَعْضُهُمْ مِنْ مَسَاحِيكَ وَأَحْصَرْتَهُمْ لِلظُّرَيْيْنِ مِنْ رَجَيْتِكَ ، خَلَفَ الْمَسَاحَ اللَّهُ الْعَظِيمُ لَقَدْ أَنْصَعُوا وَمَا ظَلَمُوا ، وَحَلَفَتِ الرَّيَّةُ بِاللَّهِ لَهُمْ لَقَدْ جَارُوا وَظَلَمُوا ، وَقَالَتِ الرَّيَّةُ : قَفْ مَعَا عَلَى مَا مَسَّحَوْهُ وَأَطْرَسَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ ، نَهَرَحَتَ لَتَقِفَ عَلَيْهِ ، فَوَقَعُوا عَلَى رَاحِ شَكْلِهِ قَاتِلَ قَتَا ، كَيْفَ كَتَبْتَ تَمْسَحُهُ ؟ قلت : كنت أحد طوله على أنعراجه وعرصه ثم أصر به في مثله ، قال : إنَّ شَكْلَ قَاتِلِ قَتَا أَنْ يَكُونَ زَاوِيَتَاهُ مَحْدُودَتَيْنِ وَفِي تَحْدِيدِهِ تَقْوِيسٌ ، قلت : فَآخِذَ الْوَسْطِ فَأَصْرِبُهُ فِي الْمَرْضِ ، قال : إِذَا يَنْفِي عَلَيْكَ الْعُمُودُ ، فَأَسْكِنِي ، فقلت . وَلَسْتُ كَاتِبَ نَحْرَاجٍ ، قال : وَإِنَّا مَا أَنْتَ ؟ قلت : أَمَا كَاتِبُ قَاضٍ ، قال : أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا تَوَفَّى وَخَلَّفَ امْرَأَتَيْنِ حَامِلَتَيْنِ أَحَدَهُمَا حُرَّةً وَالْأُخْرَى سَرِيَّةً ، وَوَلَدَتِ السَّرِيَّةُ عِلَامًا وَالْحُرَّةُ حَارِيَّةً ، فَصَدَّتِ الْحُرَّةُ إِلَى وَلَدِ السَّرِيَّةِ فَأَحْدَثَتْ ، وَتَرَكْتُ بَنِيَّ الْجَارِيَّةِ فَاخْتَصِمَا فِي ذَلِكَ ، فَكَيْفَ الْحُكْمُ بَيْنَهُمَا ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي ، قال : فَلَسْتُ بِكَاتِبِ قَاضٍ ، قلتُ . فإنا كاتبُ جيش ، قال : لا بأس ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ جَاءَا إِلَيْكَ لُحْلِيَهُمَا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَسْمَهُ وَأَسَمَ أُبْيَهُ كَلِمَ الْآخَرِ إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا مَشْقُوقُ الشَّفَةِ الْعُلْيَا ، وَالْآخَرُ مَشْعُوقُ

الشقة السفلى ؟ كيف كنت تحلبهما ، قال : قلت : فلان الأفلح وفلان الأعم ، قال : إن رزقهما مختلفان وكل واحد منهما يحيى في دعوة الآخر ، قلت : لا أدري ، قال : فلست بكتاب حيش ، قلت : أنا كاتب مَعُونَة ، قال : لا تسألني ، لو أت رجلين رُفعا إليك قد نَجَّ أحدهما الآخر شَجَّةً مُوصَّحَةً^(١) ، وشح الآخر شَجَّةً مأمونة ، كيف كنت تحصل بينهما ؟ قلت : لا أدري ، قال : لست إذاً كاتب مَعُونَة ، اطلب لمسك أيها الرجل شغلا غير هذا ، قال : فصعرت إلى مسمى وعاطفي ، فقلت : قد سألت عن هذه الأمور ويحوز ألا يكون عندك حواها كما لم يكن عدى ، فإن كنت عالم بالحواب فقل ، فقال .

عم ، أما الذي تروج أمك فتكتب إليه : أما بعد ، فإن الأمور تجري من عند الله غير محبة عادته ولا اختيارهم ، بل هو تعالى يختار لهم ما أحب ، وقد بلغني تزويج الوالدة حار الله لك في قصصها ، وإن القصور أكرم الأرواح وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قنا تمسح العمود حتى إذا صار عندا في يدك صر بته في مثله ومثل ثلثه ما نخرج فهو المساحة .

وأما الجارية والعلامُ فيؤزَنُ لَبَنُ الاثنين ، فأيهما كان أخف فالجارية له .

وأما الجديان المتعقا الأسمين ، فإن كان الشق في الشعة العليا قيل فلان الأعم ، وإذا كان في الشعة السفلى قلت فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجتين طصاحب الموصحة ثلثُ الدية ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أحاب هذه المسائل بعثتُ منه وامتحنته بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا في جميعها حادقا بليفا ، فقلت : ألسنت رعمت أمك حائك ، فقال : أما أصلحك الله حائك كلام ولست بحائك تسأله ، وأنشأ يقول :

مَا مَرَّ رُؤْسٌ وَلَا نَسِيمٌ * إِلَّا وَلَى فِيهِمَا نَصِيْبُ

فَذَقْتُ حُلُوًّا وَدَقْتُ مُرًّا * كَمَا لَكَ عَيْشُ الْفَقِي صُرُوبُ

وَوَائِبُ الدَّهْرِ أَذْيَبُنِي * وَإِنَّمَا يُوعَظُ الْأَذْيَبُ

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أما رجلٌ كاتبٌ دامت عُطْلَتِي ، وَكُثُرَتْ
عَيْتِي ، وتواصلتِ غِنَتِي ، وَقَلَّتْ حِيلَتِي ، لَحَرَحْتُ أَطَابُ تَصَرُّفاً قُطِعَ عَلَى الطَّرِيقِ فَصُرْتُ
كَمَا تَرَى ، فَهَشِيتْ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لَى الرِّلَالِ اسْتَعْنْتُ بِكَ ، قلتُ : فَإِنِ قَدْ خَرِجْتُ
إِلَى مُتَصَرِّفٍ حَلِيلٍ أَتَحْتَاجُ بِهِ إِلَى حِمَايَةِ مِثْلِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُكَ بِحِلْمَةٍ حَسَنَةٍ تَصْلُحُ لِمِثْلِكَ
وَنَحْسَةِ آلَافٍ دَرَاهِمٍ تُصَالِحُ بِهَا أَمْرَكَ ، وَبُعْدُ مِنْهَا إِلَى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ،
وَتَصِيرُ مَعِى إِلَى عَمَلِي فَأُوَلِّيكَ أَهْلَهُ ، فقال . أَحْسَنَ اللَّهُ حِرَاكَ إِذَا مَحْدَى بِحَيْثُ أَسْرَكَ ،
وَلَا أَقُومُ مَقَامَ مُعَدِّ اليك إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَرَ بِتَقْيِصِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْضَهُ ، وَانْجَدَرَ إِلَى
الْأَهْوَارِ مَعِى ، فَحَلَّتْهُ الْمَاطِرُ لِلرَّحْمَى وَالْمَحَاسِنِ لَهُ مَحْصَرَى ، وَالْمُسْتَحْرَجُ لَمَّا عَلَيْهِ ، فَمَامَ
بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَظُمَتْ حَالُهُ مَعِى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وَوِى عَمْرُوسُ مَسْعَدَهُ يَقُولُ أَوْ مُحَمَّدٌ عَدَا اللَّهُ سَ أَيْوُبَ التَّيْمَى :

أَعِيسَى عَلَى نَارِي نَاصِبٍ * حَيْيٌ كَوَاجِيكَ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ نَاقُوسَهُ فِي السَّمَاءِ ■ لَمَّا كَاتِبٌ أَوْ يَدَا حَاسِبِ
فَرُؤَى سَازِلَ تَذْكَارُهَا * يَهَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
عَرَبٌ بِمِيزَانِ لَاطِفِهِ * وَبَنَى عَلَى عَصْرِهِ الدَّاهِبِ
كَعَاكٍ أَوْ الْفَصْلِ عَمْرُوسُ النَّدَى * مَطَالَعَةَ الْأَمَلِ الْكَادِبِ
وَصَدَقُ الرَّجَاءِ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ * لَعَمْرُؤُ بِنَ مَسْعَدَةِ الْكَاتِبِ
عَرِيضُ الصَّبَا طَوِيلُ الصَّبَا * فِي الْعِرِّ وَالشَّرَفِ الشَّاقِبِ
بِى الْمَلِكِ طَوْدُهُ لَهُ يَتُّهُ * وَأَهْلُ الْحِلَافَةِ مِنْ عَالِ
هُوَ الْمُرْتَجَى لَصُرُوفِ الزَّمَانِ * وَمُعْتَصِمُ الرَّاحِي الرَّاغِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ * عَلَى الصَّبَفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بِأَدَمِ الرِّكَابِ وَتَوْنِ الثِّيَابِ * بِِ الطَّرَفِ وَالْعُفْلَةِ الْكَامِبِ
وَمُثْلُهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ * وَزَجْوَهُ لِقَلْبِ الْكَارِبِ

حَصِيْبُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ * شَيْمَةُ لَيْلِ الْجَنَابِ
 يُرَوِّى الْقَمَّاءَ مِنْ مَحْوَرِ الْعِدَا * وَيُغْرِقُ فِي الْجُودِ كَالْأَعْبِ
 إِلَيْكَ تَدْتِ مَا كَوَارِهَا * حَرَّاجُ فِي مَهْمِهِ لَاحِ
 كَأَنْ نَعَامًا تَبَارَى بِهَا * سَوَائِلُ مِنْ بَرِّ عَاصِبِ
 يَرِدُّ نَدَى كَفِّكَ الْمُرْتَمَى * وَيَقْصِيَنَّ مِنْ حَقِّكَ الْوَاحِ
 وَفَقَّ مَا أَنْتَ مِنْ حَابِرِ * بِسَجَلِ لَقُومٍ وَمِنْ حَارِبِ
 فَتَسْقَى الْعِدَا بِكَؤُوسِ الرَّدَى * وَتَسْقَى مَسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاعِي نَفْسِهِ بِالْعَطَا * وَكَمْ يَلْتَ الْعَطْفُ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْحَلَالِقُ أُعْطِيَتْهَا * وَقَضَلُ مِنَ الْمَاعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبَتِ الشَّاءَ وَكَسَبُ الشَّاءِ * أَفْضَلُ مَعْنَسِهِ الْكَاسِبِ
 يَقْبُكُ بِجَلْوِ سَتُورِ الدُّجَى * وَطُشْكُ يُخْبِرُ الْعَائِفِ

رسائل الجاحظ

رسائله في بنى أمية

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ^(١) : أطال الله فناءك ، وأتمم نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرك ، أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، إلى طبقات متفاوتة ، ومنازل مختلفة : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الأئمة واحتياج الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولا بدعة فاحشة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا أحد ولا عيل ولا تأوّل ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أتتكم منه ، ومن خبّطهم إياه بالسلاح ، وتبع طلبة الجحرا ، وقرى أوداجه بالمشاقص ، وشذح

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن عمرو بن محبوب الكنانى الضرير صاحب التصانيف المنتهية والرسائل المنددة . وقد تقدّم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوال سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة وشأ بها فتاوى كل من ومارس كل علم عرف في زمانه بما وضع في الإسلام أو قل من الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في دلم كل ما يقع عليه الحس أو يحطره لئال بهوراية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والحوات ، وصاف لأحوال الناس وروحه معانيهم واصطراهم وأحلاصهم وحيلهم إلا أنه علب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب المروى بالفلسفة والفكاهة فهو أول من ألّف الكتب الحساسة لصوبه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرها .

وكان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دقاة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انهمهم ويتطلموه من الرسوم والمادات وأرواح البصية المدهية وعدم مبالاة بوقوع المتوحيش فيه . وكان سمعا جوادا كثير المواصاة لإسواءه وكان على دمامة خلقه وتناقص خلقه حبيب الروح ، فكه المجلس ، غاية في الطرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الحملة أحد أمداد العالم وأحد جميع اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ بعدد مقبرة الجدران . وتجد ترجمته في مصم الأداة لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وأبى خلدن (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) في الأصل : « المخلص » .

هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قتل ذلك : من
 كم وجه يجوز قتل من شهيد الشهادة، وصلى القسلة، وأكل الديج، ومع صرب نسائه
 بحصرتهم، وإلحاق الرجال على حرمتهم، مع اتقاء نائلة بنت الفراءصة^(١) عنه بيدها، حتى أطلقوا^(٢)
 أصبعين من أصابعها، وقد كسفت عن قباها، ورفضت عن ذيلها ليكون ذلك رادعا لهم،
 وكاسرا من غرهم، مع وطنهم في أصلاعه بعد موته، وإلقائهم على المربة جسده مجزوا
 بعد محبه، وهي الخزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفنا لساه وأياماه وعقائله،
 بعد الست والتعطيش والحصر الشديد، والمنع من الموت، مع احتجاضه عليهم وإلحاقه لهم،
 ومع احتجاعهم على أن دم العاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أو زنى
 بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رجل عدا على اللباس بسببه فكان في أمثاعهم
 منه عطيه، ومع احتجاعهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهر منها على جريح،
 ثم مع ذلك كله دمر^(٣) وأعلى عليه وأرواحه وحرمة وهو حالس في محرابه ومصحفه بلوح
 في حجره، لن يرى أن مؤحدا يقيم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرهم لقد احتلوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت نائره، ولا يكمل
 طالبه، وكيف يصيب الله دم وآية، والمستقم له، وما سيمما بدم بعد دم يحجب بذكر يا عليهما
 السلام، علا غلبانه، وقيل ساحه، وأدرك بطائنته، وطلع كل محبته، كدمه رحمة الله
 عليه .

ولقد كان لهم في أحده، وفي إقامته للباس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما طهر من
 رماحه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي كذره حتى لا يحسن،
 بذكره، ما يُضيق عن قتله إن كان قد ركب كل ما قد فوه به، وأدعوه عنه، وهذا كله
 بحصرة حلة المهارين والسلف المقدمين، والأبصار والتابعين .

(١) قال في شرح الاموس . كل ما في العرب من هذا الاسم «مراصة» مهرهم الماء الامراصة اما نائلة
 هو بالفتح لا غير . (٢) أطلقوا : قطعوا . (٣) حصصهم مصا عليه متهددين .

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة، ومراتب متباينة : من قاتل ومن شاذ على عصبه، ومن حاذل عن هجرته، والعاقر ناصر لإرادته، ومطيع بحس نيته، وإنما الشك متباينة، وفي حاله، ومن أراد عزله والاستبدال به، فأما قاتله، والمعين على دمه، والمُرِيدُ لذلك منه، مُضِلٌّ لاشك فيهم، ومُرائٍ لا امتراء في حكمهم، على أن هذا لم يقدّم منهم العجوز . أما على سوء تأويل، وإما على تعمد للشقاء، ثم ما رالت الفتن متصلة، والحروب مرادة، كحرب الجبل، وكوقائع صقيع، وكيوم التَّهْرَوان، وقبل ذلك يوم الزُّلُوفَة^(١)، وبعه أيسر ابن حُيَيف، وقُتِلَ حَكِيمٌ حَلَّةً، إلى أن قُتِلَ أشقاها على بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأسمده الله بالنهادة، وأوحى لقاتله البار واللعنة، إلى أن كان من اعرال الحس عليه السلام الحروب وتخليته الأمور، عند انتار أحماسه، وما رأى من الحلل في عسكره، وما عَرَفَ من احتلامهم على أبيه، وكثرة تلوسهم عليه، فصدّها استوى معاوية على الملك، واستند على بقيه الثوري، وعلى جماعه المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سَمَّوه عام الجماعة، وما كان عام حماسه، بل كان عام مُرْقَبَةٍ وقهرٍ وحَبَرِيَّةٍ وَعَلِيَّةٍ، والعالم الذي نحولت فيه الإمامة مُلْكًا كَسْرِيًّا، والخلافة عَصْبًا قَيْصَرِيًّا، ولم يقدّم ذلك أجمع الصلّ والفسق . ثم مارالت معاصيه من حسن ماحكياً، وعلى منابر مارتنا، حتى رَدَّ قصبة رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً مكتشفاً، وبجحد حكّة تحمداً طاهراً، في ولد العِشْرَاش وما يجب للعاهر، مع اجتماع الأمة أن تسميه لم تكن لأبي سميان فراشا، وأنه إنما كان بها عاهراً . فخرج بذلك من حكم المختار إلى حكم الكمار، وليس قتل مُجْرِمٍ عَدِيٍّ، وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعة يزيد الخليل، والاستئثار بالنقود، واختيار الولاية على الهوى، وتعطيل الحدود بالشعاعة والتقربة، من حسن جحد الأحكام المصنوعة، والشرائع المشهورة، والسِّنَنِ الْمَنصُوبَةِ، وسواء في باب ما يستحق من الكمار بجحد الكتاب، وردّ السنة إذا كانت السة في شهره الكتاب وطهوره، إلا أن أحدهما

(١) الزاوية : موضع قريب من المعرة كانت فيه وقعة الجبل أول البهار .

أعظم ، وعقاب الانرة عليه أشد ، فهذه أول كَفَرَةٍ ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلا فيمن
يَدْعَى إمامتها ، والخلافة عليها ، على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفارها ،
وقد أُرْبِتْ عليهم مابنةُ عصرا ، ومُتَدَعَةٌ دهرما ، فقالت : لا تَسْوَهُ ، وإن له محمدا ، وست
معاوية بعده ، ومن يُخِصِّصه فقد خالف السنة ، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ، ممن
بجحد السنة ، ثم الذي كان من يزيد أبيه ، ومن عماله ، وأهل نُصْرته ، ثم عزو مكة ، ورمى
الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح
السلام ، وأوتاد الإسلام ، معد الذي أعطى من نفسه ، من تمرير أشاعه ، والروح إلى
داره وسرّه ، أو الذهاب في الأرض ، حتى لا يُحَسَّ به أو يُقَامَ حيث أُمِرَ به ، فأبوا إلا
قتله ، والرد على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده ، أو أسلمها إلى عدوه ، وحير فيها من
لا يرد عليه إلا بئرب دمه ، فاحسوا قتله ليس بكفر ، وإمامة المدينة ، وهنك الحرمة ،
ليس محبة ، كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقلة المسلمين ؟ فإن قلتم
ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحجّز به ، والمتحصّص ببيطانه ، أما كان في حق البيت وحرمة
أن يحصّروه فيه ، إلى أن يُعْطَى بيده ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أخذت عليه الأرض
إلا موصع قدمه ! واحسوا مارووا عليه من الأشعار ، التي قولها شرك ، والتثمل بها كفر ،
شيئا مصوغا ، كيف تصنع سقر القضيب بن سِنِّي الحسين عليه السلام ، وحمل بنات
رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأفتاب العارية ، والإبل الصعاب ، والكشف
عن عورة على بن الحسين عند الشك في ملوعه ! على أنهم إن وجدوه ، وقد أنبت قتلوه
وأن لم يكن أننت حملوه ، كما يصنع أمير حيش المسلمين ، بدرارى المشركين ، وكيف
تقول في قول عُيَيْد الله بن زياد لإخوته وحاصته ، دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا السل ،
فأحيم به هذا القرن ، وأميت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة !

خبرونا علام تكل هذه القسوة ، وهذه المظلة ! بعد أن شقوا أنفسهم بقتلهم ، وبألوا
ما أحبوا فيهم ، أثقل على نصب ، وسوء رأي وحقد ، وبعضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخوب

وإيمانٍ مخروج ! أُم تدلّ على الإخلاص ، وعلى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم ، والحفظ له ، وعلى براءة الساحة ومحنة الضريرة ! إن كان على ما وصفنا لا يصدو السقّ والصلال ، وذلك أدنى مازله ، فالماسق ملعون ، ومن نهى عن نهى الملعون فلعون .

وزعمت مائة عصرنا ، ومنفعة دهرنا ، أن ستّ ولأه السوء حسنة ، ولعن الحورة بدعة ، وإن كانوا يأخذون السيّ السيّ ، والولّى الولّى ، والقريب القريب ، وأحافوا الأولياء ، وأتموا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، وإطهار القدرتوا التهاون بالأمة ، والقمع للزعية ، وأنهم غير مدّاراة ولا تقيّة ، وإن عدا ذلك إلى الكفر . وحاوز الصلال إلى المحمّد ، فذاك أصل تمّ كفّ عن شتمهم ، والبراءة منهم ، على أنه ليس من استحقّ اسم الكفر بالقتل كنّ استحقّه برّد السمة وهدم الكعبة ، وليس من استحقّ اسم الكفر بذلك كنّ شه الله محلقه ، وليس من استحقّ الكفر بالتشبيه كنّ استحقّه بالتجوّير ، والبائس في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، واس ر باد وأبيه ، ولو ثبت أيضا على يزيد أنه تمثّل بقول بن الزّبّري :

ليت أشياخي بيديّ شهدوا * جرع الخزرج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلّوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لا تسل
قد قتلنا النّز من ساداتهم * وعدلناه بيديّ فاعتدل

كان تجوّر الباغي لرّه ، وتشبيهه محلقه ، أعظم من ذلك وأقطع ، على أنهم مجعون على أنه ملعون من قتل مؤمّا ، متعمدا أو متاولا ، فإذا كان القاتل سلطانا حائرا ، أو أميرا عاصيا ، لم يستحلّوا سته ، ولا حلمه ، ولا بهيه ، ولا عيه ، وإن أحاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأحاح الفقير ، وظلم الضعيف ، وعطلّ الحدود والتعزير ، وشرب الخمر ، وأظهر الفجور ، ثم ما زال الناس يتسكعون مرة ، ويدهنونهم مرة ، ويغارونهم مرة ، ويشاركونهم مرة إلا بقيّة من عصمه الله تعالى ذكره ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ،

وطاملهما الجحاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي مُسلم ، فأعادوا على البيت بالهدم ، وطى حرم المدينة بالقزو ، هدموا الكعبة ، واستباحوا الحرمه ، وحولوا قبلة واسط ، وأتروا صلاة الجمعة ، الى مُعَيَّرَ بَنِ الشَّمْسِ ، فإن قال رجل لأحدهم : أتى الله فقد أحرث الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول جهاراً فبرحتل ، وعَلَانِيَةً عِيسَى ، ولا يُعْلَمُ القتل على ذلك إِلَّا أَقْبَحُ من إنكاره ، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين رثماً وعط الحبايرة ، وخوفهم العواقب ، وأراهم أن في الناس قتيًا يَهْتَوُونَ عن الفساد في الأرض ، حتى قام عد الملك بن مروان ، والجحاج بن يوسف ، فزبر عن ذلك ، وحاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مسكر فعلوه ، فاحسب تحويل القبلة كان طعنا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسب ما رَوَوْا من كل وجه ، أنهم كانوا يزعمون أذ حليعة المرة في أهله ^(١) أرفع هذه من رسوله اليهم ، باطلا ومسموعا مولدا ، واحسب وتسم أيدي المسلمين ونقش أيدي المسلمات ، وردهم بعد الهجرة الى قُورَاهِم ، وقتل العقهاء ، وسب أئمة الهدى ، والنصب لعنره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول في جمع ثلاث صلوات هيئ الجمعة ، ولا يُصَلُّونَ أَوْلَاهُنَّ ، حتى تصير الشمس على أعالي الجُدُرَانِ . كَلَامُ الْمُعْتَصِرِ ، فإن نطق مسلمٌ ، خُيِّطَ بالسيف ، وأحدثه العُمد ، وشك بالزُمَاح ، وإد قال قائل : أتى الله أحدثه العزة بالإثم ، ثم لم يرَصَ إِلَّا بِشَرِّ دِمَاعِهِ على صدره ، ووصله حيث تراه عياله ، وبما يَدُلُّ على أن القوم لم يكونوا إِلَّا في طريق التفرُّد على الله عز وجل والاستحقاق بالدين ، والهاون بالمسلمين ، والابتدال لأهل الحق ، أَكُلُ أُمَرَائِهِمُ الطَّعَامَ وشربهم الشراب على ما برهم أيام جُمُعِهِمْ وِجُوعِهِمْ ، فعَلْ ذَلِكَ حُبِيشَ بَنِ دُلْحَةَ ، وطارة مولى عثمان ، والجحاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إن كان كفرا كله فلم يسلم كفرا بانه

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الجحاج انه قال في كلام له . ويحكم أحليعة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسول اليهم ، يريد بذلك تحصيل مقام الخلافة على مقام الرسالة . ومثل هذا روى الجحاج بالكفر وقد عقد ابن عذر في العقد الفريد صلاحيين دعم ان الجحاج كان كافرا واضح العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) في الأصل «حسن» وهو خطأ والصواب ما أنشأه كا في شرح القاموس والطوى .

عصرنا ، وروايص دهرنا ، لأنّ حس كمر هؤلاء غير كمر أولئك . كان اختلاف الناس في القدر على أنّ طائفة تقول كلّ شيء مقصّد وقدر ، وتقول طائفة أخرى كلّ شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي ، ولم يكن أحد يقول إنّ الله يعبّذ الأبناء ليغيّط الآباء ، وإنّ الكمر والإيمان مخلوقان في الإنسان ، مثل العي والبصر ، وكانت طائفة منهم تقول إنّ الله يرى لا تزيد على ذلك ، وإن حافت أن يطلّ بها التشبيه قالت يرى ملاكيف تَقَرَّرًا من التجسيم والتصوير ، حتى نبئت هذه البائسة ، وتكلّمت هذه الرافضة ، فقالت حسيا ، وحملت له صورة وحدّا ، وأكمرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير ، ثم زعم أكثرهم أنّ كلام الله حسّ وسين وحمة وبرهان ، وأنّ التوراة غير الرور ، والزبور غير الانجيل ، والانجيل غير القرآن ، والبقرة غير آل عمران ، وأنّ الله تولى تأليهه ، وجعله برهانه على صدق رسوله ، وأنّه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص ، ولو شاء أن يبدله بدله ، ولو شاء أن ينسخه كلّ بعره نسخه ، وأنه أنزله تنزيلا ، وأنه فصله تفصيلا ، وأنه بالله كان دون غيره ، ولا يقدر عليه إلا هو ، غير أنّ الله مع ذلك كله لم يخلقهم ، فأعطوا جميع صفات الخلق ، ومعو اسم الخلق .

والمحب أنّ الخلق عد العرب إتما هو التقدير نفسه ، فلذا قالوا : حلق كذا وكذا ، ولذلك قال . ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ وقال : ﴿ وَإِذَا تَخَلَّقَ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ فقالوا : صمعه وجعله وقدره ، وأنزله وفصله وأحدثه ، ومعو خلقه ، وليس تأويل خلقه أكثر من قدره ، ولو قالوا بدل قولهم : قدره ولم يخلق خلقه ولم يقدره بما كانت المسألة عليهم إلّا من وحده واحد ، والمحب أن الذي معه بزعمه أن يزعم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سلفه ، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق ، وليس ذلك بهم ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الحروف ، وعلى جهة تقطيع الحروف ، وإعمال اللسان والشفتين ، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولما كنا عندهم على غير هذه الصفة ،

وكنا لكلامنا غير حالفين ، وجب أن الله عز وجل لكلامه غير حالف ، ادكنا غير حالفين
لكلامنا ، وإنما قالوا ذلك ، لأنهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه قرآنا ، وإن لم يقرؤا بذلك
بالستهم فذلك معاصم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأئمة لا يخافون معاصيها الإثم والصلال ، إلا ما حكيت لك عن بي أمية ،
وبى مروان ، وعملهم ، ومن لم يبدل إكهارهم حتى نحت الوابت ، وتاعتها هذه العوام ،
فصار العالب على هذا القرون الكفر ، وهو التشبيه والخبر ، فصار كهرهم أعظم من كهر من
مصى في الأعمال التي هي العس ، وشركاء من كهر منهم تتولهم ، وترك إكهارهم ، قال
الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرحو أن يكون الله قد أعان المحققين ، ورجهم وقوى صعفهم ، وكثر قتلهم ، حتى
صار ولأه أمر ما في هذا الدهر الصعب والرمس العاسد أشد استبصارا في التشبيه من
عَلَيْقًا ، وأعلم بما يلزم فيه مآ ، وأكشفت للقناع من رؤسائنا ، وصاروا الناس وقد انتظموا
معان العساد أجمع ، وعلما عاياب البدع ، ثم قربوا بذلك العصبية إلى هلاكها عالم بعد
عالم ، والحجة إلى لا تبقى دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العمم
من مذهب الشموهيه ، وما قد صار إليه الموالي من الفقر على العمم والعرب ، وقد نحت
من الموالي ما جنة ، وستت منهم ماسة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبي
صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » ولقوله : « الْوَلَاءُ لِحُجَّةِ كُلِّحُمَةِ النَّسَبِ لَا يُبَاعُ
وَلَا يُوهَبُ » .

قال : فقد علما أن العمم حين كان فيهم الملك والنبوه كانوا أشرف من العرب ،
ولما حوّل ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا : نحن معاشر الموالي
بقديمتنا في العمم أشرف من العرب ، ولاحديث الذي صار لنا في العرب أشرف من العمم ،
وللعرب القديم دون الحديث ، ولما خصلتان جميعا واهرتان فينا ، وصاحب الخصلتين

(١) كذا في الأصل ، ولعله . وصاروا شركاء . الخ . (٢) ما من منح الميم والعين . المادة والمدر .

أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِ الْخِصْلَةِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْمَوْلَى مَعْدُنَ أَنْ كَانَ عَمِيًّا عَرَبِيًّا بَوْلَانَهُ ، كَمَا جَعَلَ حَلِيفَ قُرَيْشٍ مِنَ الْعَرَبِ قُرَشِيًّا بِجَلْعِهِ ، وَجَعَلَ إِسْمَاعِيلَ مَعْدُنَ أَنْ كَانَ أَعْمِيًّا عَرَبِيًّا وَلَوْلَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنْ إِسْمَاعِيلُ كَانَ عَرَبِيًّا » مَا كَانَ عَدْنَا الْآأَعْمِيَّا لِأَنَّ الْأَنْعَمِيَّ لَا يَصِيرُ عَرَبِيًّا ، كَمَا أَنَّ الْعَرَبِيَّ لَا يَصِيرُ أَعْمِيًّا ، فَإِنَّمَا عَلِمَا أَنَّ إِسْمَاعِيلَ صَبِيْرَهُ اللَّهُ عَرَبِيًّا مَعْدُنَ أَنْ كَانَ أَعْمِيًّا ، فَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَذَلِكَ حَكَمَ قَوْلُهُ « مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ » وَقَوْلُهُ : « وَالْوَلَاءُ ثَمَّةٌ » . قَالُوا : وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَانًا لِمَنْ لَمْ يَلِدْ ، كَمَا جَعَلَهُ أَمَانًا لِمَنْ وَلَدَ ، وَجَعَلَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَلِدْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَجَعَلَ الْبَحَارَ وَالِدَ مَنْ لَمْ يَلِدْ فِي قَوْلِهِ مَرَهُدًا كَثِيرًا قَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهِ فِي مَوْصِعِهِ ، وَلَيْسَ أَدْعَى إِلَى الْفُسَادِ ، وَلَا أَحَلَّتْ لِلشَّرِّ مِنَ الْمَعَاحِرِ ، وَلَيْسَ عَلَى طَهْرِهَا إِلَّا نَخَوْرُ (أَلَا قَلِيلٌ) وَأَيُّ شَيْءٍ أُعْطِيَ مَنْ أَنْ يَكُونَ عَدُوُّكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَشْرَفُ مِنْكَ ، وَهُوَ مُقَرَّبٌ أَنَّهُ صَارَ شَرِيًّا بِتَقِيْلِكَ إِيَّاهُ .

وَقَدْ كُنْتُ — مَدَّ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ — كُنَّا فِي مُعَارَاةِ حَقَطَانَ ، وَفِي تَفْصِيلِ عَدَنَانَ ، وَفِي رَدِّ الْمَوَالِي إِلَى مَكَائِهِمْ مِنَ الْعَصْلِ وَالْقَصْصِ ، وَإِلَى قَدْرِ مَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ بِالْعَرَبِ مِنَ الشَّرَفِ ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ عَدْلًا بَيْنَهُمْ ، وَدَاعِيَةً إِلَى صِلَاخِهِمْ ، وَسَهْنَةً عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ ؛ وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُرْسِلَ بِالْجُزْءِ الْأَوَّلِ إِلَيْكَ ثُمَّ رَأَيْتُ إِلَّا يَكُونُ إِلَّا مَعْدُنَ اسْتِئْذَانِكَ ، وَاسْتِئْذَانِكَ ، وَالْإِتِّهَاءِ فِي ذَلِكَ إِلَى رَعْبَتِكَ ، فَرَأَيْتُ فِيهِ مَوْفَقِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَبِهِ الثَّقَةُ .

وكتب الى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفِظَكَ اللَّهُ جَمْعًا مِنْ وَقْفِهِ لِلْقَاعَةِ ، وَاسْتَعْمَلَهُ الطَّاعَةَ ، كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَحَالِي حَالًا مِنْ كَثُفَتِ عُمُومِهِ ، وَأَشْكَتُ عَلَيْهِ أُمُورِهِ ، وَأَشْتَبِيهِ عَلَيْهِ حَالُ دَهْرِهِ ، وَتَحَرَّجَ أَمْرِهِ ، وَقَلَّ عِنْدَهُ مِنْ يَثِقُ بَوَاقِيهِ ، أَوْ يَحْمَدُ مَعْبَةَ إِحْسَانِهِ ، لِاسْتِدَالَةِ زَمَانِنَا ، وَفُسَادِ أَيْمَانِنَا ، وَدَوْلَةِ أَنْدَالِهَا ؛ وَقَدْ كَانَ مَنْ قَتَمَ الْحَيَاءَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَحَكَّمَ الصَّدْقَ فِي قَوْلِهِ ، وَآثَرَ الْحَقَّ فِي أُمُورِهِ ، وَنَبَذَ الْمُشْتَبَاهَاتِ عَلَيْهِ مِنْ شُؤْنِهِ ، تَمَّتْ لَهُ السَّلَامَةُ ، وَفَازَ بِوُفُورِ حَقِّ الْعَافِيَةِ ، وَحَمْدِ مَغْبَةِ مَكْرُوهِ

العاقبة ؛ فنظّرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتموّلت دولته ؛ هوجدنا الحياه متصلًا بالحرمان والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القِصّة ، وإخلاق العِرض من طريق التوكّل دليلًا على صحافة الرأي ، إذ صارت الحُظوة البالغة ، والنعمة السابغة ، في لزوم المشيئة ؛ وسناء الرزق من جهة عماشاة الرخاء ، ومُلابسة مَعزّة العار ، ثم نظريا في تعقب المتعقب نقولنا ، والكاشر مُخْتَصًا ، فألقا له علما واضحا ، وشاهدا قائما ، وسارا يلبا ، إذ وحدنا من فيه السُّنُوِيّة الواضحة ، والمثالب الفاصحة ، والكذب المُبَرَّج ، والخُلف المُصَرَّح ، والجهالة المُفَرطة ، والركاكة المُستَحَقَّة ، وضعف اليقين والاستثبات ، وسرعة الغضب والجراه ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأعلب ، والحظ الأوفر ، والقدر الربيع ، والجواز الطامع ، والأمر النافذ ؛ إن زلّ قبل حكم ، وإن أخطأ قبل أصاب ، وإن هَدَى في كلامه وهو يقطن قبل رؤيا صادقة من نَسَمه مَارَكَة ؛ فهذه حُجَّتنا واثقه على من زعم أن الجهل يَحْيِص ، وأن التوك يُرْدِي ، وأن الكذب يَهْرِي ، وأن الخُلف يُزْرِي ، ثم نظريا في الوفاء والأمانة والتُّبَلِّ والبلاعة وحسن المذهب وكِمال المروءة وسَمَةِ الصدر وقَلَّة الغضب وكرم الطبيعة ، والفائق في سمعه علمه ، والحاكم على نفسه ، والمالب لمواه ، هوجدنا هلا بن هلا ؛ ثم وحدنا الزمان لم يُصِصمه من حقه ، ولا قام له وظائف قَرَصه ، ووحدا فصائله القائمة له قاعدة به ، فهذا دليل أن الطّلاح أجدى من الصّلاح ، وأن الفصل قد معنى زمانه ، وعَقَّت آثاره ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على صدره ، ووحدا العقل يَتَّبِقي به قريئه ، كما أن الجهل والحق يَحْطِئ به حديثه ؛ ووحدا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُترما عن الأيام حيث يقول :

تَحَامَقَ مع الحق إذا ما لَقِيْتَهُمْ . ولا يَهْمُ بالجهل صلّ أحمى الجهل

وحلّط إذا لاقيت يوما محلّطا * يُحَلِّطُ في قول صحيح وفي هزل

فإني رأيت المرء يشقى بعقله * كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

بقيت — أبقاك الله — مثل من أصبح على أوفاز، ومن الثقلة على جهاز، لا يسوغ
 عمة، ولا تطعم عيه عصمة، في أهاول يياكره مكرهها، ويرأوسه عقابها، فلوات
 عاء أحيب، والتصرع يس، لكانت العدة العظمى، والرجفة الكبرى، فليت أى أنى
 أسبطله من الفحة، ومن بجاء الصيحة، فصى لكان، وأذن به فكان، مواله ما عذبت
 برففه، ولا ريح ولا تحطة، عداى عبي برؤية المفايلة المذمة، والأخبار المهلكة،
 أن الرمان يؤكل عدابى، أو ينصب ما يامى، فما عيش من لا يسرباح شقيق، ولا يصطحب
 أول نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويقمه طلته، فقد طالت الغمة، واطلبت الكربة،
 دلمت الظلمة، ونمد السراج، وتباطأ الأفراس .

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قد علم السام كيف كرم قريش ومخائها، وكيف عقولها ودعاؤها، وكيف رأيا
 كاؤها، وكيف مياستها وديورها، وكيف إيجازها وتحسيراها، وكيف راحة أحلامها
 الحف الحليم، وحنة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صرنا حد اللقاء، وشانها في اللأواء،
 ياف وعافها إذا استحسن القدر، وكيف جودها إذا حث المال، وكيف دكرها
 حاديت غد، وقلة صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه،
 ياف وصفها له ودعاؤها اليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعرافها، وكيف وصلوا
 يهم بحديثهم، وطريقهم بتلدهم، وكيف أشبه علايتهم سرهم، وقولهم فعلهم، وهل
 لامة صدر أحدهم إلا على قدر معد مديره، وهل غفلته إلا في وزن صدق ظنه، وهل
 ه إلا كيقين غيره .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فعم الدَّيْلُ مِنَ الرَّثَّةِ الاعتذار، و نَسِ العِوَصُ من التوبة الإصرار، وإن أحق
ن عَطَمْتَ عليه بجلتك من لم يَسْتَشْمِعْ إليك بمعرك، وإحدى بمعرفي يَبْلُغُ جَانِكَ وعَايَةَ عَمُوكَ،
يَحِيتُ لِمَعْنَى المَعْوِ من رَثَّتْهَا عَدُكَ، وقد مَسَى من الأَلَمِ ما لم يَشْفِهِ عِيرُ مُوَاصِلَتِكَ .

وله في الاستعطاف

ليس عدى أعزك الله سَبَبٌ ولا أَقْدَرُ على شِعْبٍ إلا ما طَبَعَك اللهُ عليه من الكرم
الرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نِتَاجِ حَسَنِ الظنِّ وإثبات العِصْلِ بِمَآلِ المَأْمُولِ
أرجو أن تكون من الشاكرين فتكون حير مُعْتَبٍ، وأكون أَفْصَلَ شاكر، ولعل الله يجعل
هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإيقطاع إليكم والكون تحت أحسنتكم،
يكون لا أعظم بركة، ولا أُنَمَّى قِيَّةٍ من ذنب أصححت فيه، ومثلك — حِلَّتْ فِدَاكَ —
ناد الدسب وسيلة، والسبئية حسنة، ومثلك من ألقب به الشر حيرا والمُرمَّ عَمَّا .

من عاقب فقد أحد حظه، وإنما الأحرى الأحرى، وطيب الذكرى الدنيا، على قدر
لاحتمال وتجرع المراز وأرجو، ألا أصيب وأفك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعمو
من صُمر ذنبه وعظم حقه، وإنما العِصْلِ والناء المَعْوِ عن عظم الجرم صميغ الحرمة،
إن كان العفو عطيا مُسْتَطَرَفًا من صيركم فهو تِلَادٌ فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس
لى مخالفه أمركم، فلا أتم عن ذلك تَتَكَاوَنُ، ولا على سالف إحسانكم سَدَمُونَ، وما مثلكم
لا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يتر بَلَجٍ من بحاسرائيل إلا أسمعوه شرا
أسمعهم حيرا، فقال له شَمُّوْنَ الصعا : ما رأيتُ كالْيَوْمِ كَلَّمَا أسمعوك شرا أسمعهم حيرا
قال : كلُّ أَمْرٍ يُبْفِقُ تَمَا عنده وليس عندكم إلا الخير ولا في أَوْعِيَتِكُمْ إلا الرحمة
وكلُّ إِنْذَارٍ بِالَّذِي فِيهِ يَبْصَحُ ” .

وله في ذمّ الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داءٌ يهلك الجسد ، علاجهٌ حسيرو صاحبه يحجر وهو باب عامض ،
وما ظهر منه فلا يُدأى وما طلّ منه قُدأويه في عَآءٍ ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
« دَبَّ اليك داءُ الأمم من قبلكم : الحسدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر ، وحليف
الباطل ، وصَدَ الحقُّ منه تُولَدُ العداوةُ وهو سببُ كُلِّ قطيعة ومفرق كلِّ جماعة ، وقاطع
كل رَيمٍ من الأقرناء ومُحِلِّ التفرق بين القرناء ، ومَقْعُ الشرِّ بين الخلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

(١) وقد ذكر الجاحظ سلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها مد أن وصمها فقال :
جَنَبَكِ الله الشبهة ، وعَصَمَكِ مِنَ الحيرة وحمل يبك وبين المعرفة نَسَاءً ، وبين الصدق
سَبَاءً ، وَحَبَّبَ اليك التثبت ، وزَيَّنَ في عيك الإنصاف ، وأذاقك حلالة التقوى ، وأشعر
قَلْبَكَ عِزَّ الحقِّ ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين ، وطرَدَ عَكَ ذُلَّ الطمع ، وعَرَفَكَ ما في الباطل
من الدَّلة ، وما في الجهل من القِلَّة ، ولَعَمْرِي لقد كان غيرُ هذا الدناء أصوبَ في أمرِك ، وأدَلَّ
على مقدار وَزْنِك ، وعلى الحال التي وَصَفْتَ نفسك فيها ، ووسَّمتَ نِعْمَ رَصْدَكِ بها ، ورَضِيتَها
لديك حفظاً ، ولُروءَكَ شكلاً ، فقد انتهى إلى مِثْلِكَ كلُّ أبنٍ بصالح ، وتحلَّك على ، وطعُك
على مَعْبَدٍ ، وتتقَبُّك له في الذي كان جرى بينهما في مساوئ الديك وعجاسه ، وفي ذكر
سامع الكلب ومصاره ، والذي خرجا إليه من استقصاء ذلك وجميعه ، ومن تَبَعَهُ ونظمه ،
ومن الموازنة بينهما ، والحكم فيهما .

ثم عَيَّنَتِي بِكَلَامٍ حَسِيلٍ للصوص ، وكتاب عِشِّ المصناعات ، وعَيَّنَتِي بِكَلَامٍ المُلح
والطُّرْف ، وما حَرَّ من الوادر وبرْدُ ، وعاد يارِدُها حارّاً بفرط برْدِهِ ، حتى أمتعَ بأكثر من
أمتاع الحارِّ ، وعَيَّنَتِي بِكَلَامٍ أحتجاجات البُعلاء ، وما قَضَتِهم للسُّعَاء ، والتقوى في الفرقين

(١) اعتماداً في تصحيح هذه الفصول على الأصل المتوفر في المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥
آداب ، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التعريف وملأ بالأخطاء .

الصدق اذا كان صاراً في العاجل ، والكذب اذا كان ناهياً في الآجل ، ولم جعلنا الصدق أبداً محموداً ، والكذب أبداً مدموماً ، والفرق بين النيرة وإضاعة الحرمة ، وبين الإفراط في الحجة والأثمة ، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة ، وقلة الأكرات بسوء القالة ؛ وهل النيرة اكتساب وعادة ، ونص ما يعرض من جهة الديانة ولبعص التريده والتحسن به ، أو يكون ذلك شيئاً في طبع الحرية وحقيقة الجوهرية ، ما كانت العقول سليمة ، والآفات متيقية ، والأحلاط معتدلة ، وعبثى بكتاب الصرخاء والمهجناء ، ومعاذرة السودان والحران ، والموازنة بين حق الخوولة والعمومة ؛ وعبثى بكتاب الررع والتعل ، والزيتون والأصابع ، وأقسام فضول الصناعات ، وصرائب التجارات ، وكتاب فصل ما بين الرجال والنساء ، وقرق ما بين الذكور والإناث ، وفي أى موضع بقليل ويفصلان ، وفي أى موضع يكون حق المخلوقات والمفصولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أى موضع يكون حقن أوجب ، وأى عمل هو بين أليق ، وأى صاعة من فيها أبلغ ، وعبثى بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية ، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحجة ، الى حد العصبيه ، وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بتقص القحطانية ؛ وعبثى بكتاب العرب والموالى ، وزعمت أنى بجمست الموالى حقوقهم ، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم ، وعبثى بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول في قرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب ، ونسبته الى التكرار والترداد ، الى التكثير والجله بما فى المعاد من الخطل ، وحمل الناس المؤمن ؛ وعبثى بكتاب الأصنام ، وبدكر أعتلالات الهند لها ، وسهب عبادة العرب إياها ، وكيف أختلما في جهة العلة مع اتعاقبهما على جملة الديانة ، وكيف صار عبادة البسدة^(١) والمتمسكون عبادة الأوثان المحوطة ، وأصنام المسجورة ، أشد الناس إلها لما دانوا به ، وشعفا بما تسدوا له ، وأطهرهم حداً ، وأشدهم على من خالهم ضيقاً ، وبما دانوا صبابه ونعماً ، وما الفرق بين البد والوثن ، وما الفرق بين الوثن والصنم ، وما الفرق

(١) البسدة جمع بسدة ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نصة كما قال ابن دريد .

بين الدُّمَيَّةِ والجُنَّةِ ، ولم صَوِّروا في حَمايرهم وبيوت عِباداتهم صُورَ عظامهم ورجالِ دعوتهم ، ولم تَأْتَقُوا في التَّصوِيرِ ، وتَجَزَّدُوا في إِقامة التَّركِيبِ ، وبالقوا في التَّحسين والتَّفحيم ، وكيف كانت أَوَّلِيَّةُ تلكَ العِباداتِ ، وكيف افترقت تلكَ السَّحَلُ ، ومن أَيْ شَيْءٍ كانت حَدَّعُ تلكَ السَّدَنَةِ ، وكيف لم يَزَالُوا أَكْثَرَ الأَصْصافِ عِدداً ، وكيف شَمِلَ ذلكَ المَنْهَجُ الأَجْنَاسَ المختلفةَ !

وعَبَتِي بَكَّابُ المَعَادِدِ ، والقولُ في حَوَاهِرِ الأَرْضِ ، وفي اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الفِلَازِ ، والإِخبارِ عَن ذَائِبِهَا وَجَامِدِهَا ، ومُخْلِقِهَا وَمَصْصُوعِهَا ، وكيف يُسْرِعُ الأَهْطَالُ إلى مَعْضَا وَيُطْعِمُ عَن بَعْضِهَا ، وكيف صَارَ بَعْضُ الأَلْوَانِ يَصْنَعُ وَلَا يَصْبِغُ ، وَبَعْضُهَا يَنْصَبُ وَلَا يَصْبِغُ ، وَبَعْضُهَا يَصْبِغُ وَيَنْصَبُ ، وَمَا القَوْلُ في الإِكْسِيرِ والتَّطْلِيفِ ، وَعَبَتِي بِكَلَّابِ فَرْقِ مَا بَيْنَ هَاتِمٍ وَعَبْدِ شَمْسٍ ، وَبِكَلَّابِ فَرْقِ مَا بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، وَفَرْقِ مَا بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَنِّ ، وكيف القَوْلُ في مَعْرِفَةِ المُدْهَدِّ وَأَسْتَطَاعَةِ العَمْرِ ، وفي الَّذِي كَانَ عَدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ ، وَمَا ذَلِكَ العِلْمُ ، وَمَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِمْ : كَانَ عَدَهُ اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمِ ، وَعَبَتِي بِكَلَّابِ الأَوْفَاقِ وَالرِّيَاصَاتِ ، وَمَا القَوْلُ في الأَرْزَاقِ وَالْإِنْفَاقَاتِ ، وكيف أَسْبَابُ التَّثْمِيرِ^(١) وَالتَّرْقِيعِ وكيف تَحْتَظُّ التَّجَارُ الحُرَفَاءُ ، وكيف الأَحْتِيَالُ لِلوَدَائِعِ ، وكيف التَّسَبُّبُ إلى الوَصَايَا ، وَمَا الَّذِي يُوْجِبُ لَهُمُ التَّعْدِيلَ ، وَيَصْرِفُ إِلَيْهِمْ بَابَ حُسْنِ الظَّنِّ ، وكيف ذِكْرُنَا غَشَّ الصَّاعَاتِ وَالتَّجَارَاتِ ، وكيف التَّسَبُّبُ إلى تَعَرُّفِ مَا قَدْ سَتَرُوا ، وَكَشْفِ مَا مَوْهُوا ، وكيف بَابُ الاحْتِرَاسِ مِنْهُ وَالسَّلَامَةِ مِنْ أَهْلِهِ ! . وَعَبَتِي بِرِسَالَتِي ، وَبِكُلِّ مَا كَتَبْتُ بِهِ إلى إِخْوَانِي وَخُلَطَائِي مِنْ مَرْنَحٍ وَجِدَّةٍ ، وَمِنْ إِمْصَاحٍ وَتَعْرِيصٍ ، وَمِنْ تَفَاقُلٍ وَتَوْقِيفٍ ، وَمِنْ هِجَاءٍ لَا يَزَالُ وَثْمَةً مَاقِيَا ، وَمَدِجٍ لَا يَزَالُ أَثَرُهُ نَافِيَا ، وَمِنْ مُلَحٍّ ، تُصَحِّحُكَ ، وَمَوَاعِظَ تَبْكِي ، وَعَبَتِي بِرِسَالَتِي المَاشِئَاتِ ، وَاحْتِجَاجِي فِيهَا ، وَأَسْتَقْصَانِي مَعَانِيَا ، وَتَصَوِيرِي لَهَا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، وَإِظْهَارِي لَهَا فِي أَمَمٍ حَلِيَّةٍ ، وَزَعَمَتَ أَنِّي قَدْ خَرِجْتُ بِذَلِكَ مِنْ حَدِّ المَعْرِفَةِ إلى حَدِّ الزَّيْدِيَّةِ ،

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإمراط فيه ، وزعمت أن
مقالة الزيدية خطبه مقالة الرافضة ، ومقالة الرافضة خطبة مقالة العالية ، وزعمت أن
و أصل القصية ، والذي جرت عليه العادة أن كلّ كبير ما قبله صغير ، وأن كلّ كبير فإنما
هو قليل بجمع الى قليل ، وأنشدت قول الرازي :

قد يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيل * وَأَمَّا الْقَرْمُ مِنَ الْأَوِيل^(١)
* وَيُحَقُّ النَّخْلُ مِنَ الْفَيْل *

وأنشدت قول الشاعر :

رُبَّ كَبِيرٍ هَامَهُ صَغِيرُ * وَفِي الْبُحُورِ تَعْرِقُ الْبُحُورُ
وَقَلَّتْ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ :

وَأَعْلَمُ بَنِي فَاتِنَه * مَا لَمْ يَتَّبِعِ الْعَلِيمُ
إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا * مِمَّا يَبْجَحُ لَهُ الْعَظِيمُ

وَقَلَّتْ وَقَالَ الْاَنْخَرُ :

صَارَ جِدًّا مَا مَرَحْتُ بِهِ * رُبَّ جِدٍّ سَاقَهُ اللَّعِبُ

وأنشدت قول الاخر وهو عترة^(٢) :

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ * تُقْصِي الْأُمُورَ وَرَهْطَ وَرْدَةٍ غُيْتُ
قَدْ يَتَعَثُّ الْأَمْرُ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ * حَتَّى تَطْلُلَ لَهُ السَّمَاءُ تَصَبُّبُ

وَقَالَتْ كُثْبَةُ بِنْتُ مَعْدِيكَرَبَ :

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ أَنَّهُ قَوْمُهُ * بَنِي مَازِنٍ أَنَّ سُبَّ رَاغِي الْمُخَضَّمِ

وَقَالَ الْاَنْخَرُ :

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ * وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَازِحُ

(١) الأفيال : صر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطرفه وهما من جملة أبيات في ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من المُعَصِّية ولا تُلِدُ الحَيَّة إلا حَيَّة » ؛ وعبت كُتَّابِي في خَلْقِي القرآن ، كما عبت كُتَّابِي في الرَّدِّ على المُشَبَّهَةِ ؛ وعبت كُتَّابِي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبت كُتَّابِي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبدیع تركيبه ؛ وعبت مُعَارَضَتِي الزَّيْدِيَّة ، وتفصيل الاعتِرَالِ على كُلِّ نَحْلَةٍ ، كما عبت كُتَّابِي في الوعد والوعيد ، وكُتَّابِي على النصارى واليهود ، ثم عبت بِجُمْلَةِ كُتُبِي في المعرفة ، وأتَمَسْتُ تهجينها بكلِّ جِيلَةٍ ، وصَفَرْتُ من شَأْنِهَا ، وحَطَّطْتُ من قَدَرِهَا ، واعتَرَضْتُ على ناصحِيهَا والمُتَصَفِّين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرَّدِّ على أصحاب الإلهام ، وكتاب المُجْتَمَعَةِ في تَبَيُّنِ نُفُوزِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكتاب الْأَخْصَارِ ، ثم عبت كُتَّابِي إنكارِي بَصِيرَةٍ غَامِغٍ الْمُرتَدِّ ، وبَصِيرَةٍ كُلِّ حَاحِدٍ وَمُلْمِدٍ ، وتَفْرِيقِ بَيْنِ أَعْتَرَامِ الْقَمَرِ وَبَيْنِ اسْتَبْصَارِ الْحَقِّ ؛ وعبت كتاب الرَّدِّ على الجُتْهِمِيَّةِ في الإدراك ، وفي قولهم في الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النَبِيِّ وَالْمُنْتَقَى ، والفرق بين الحِلِّيلِ وَالْمُخَارِقِ ، وبين الحَقَائِقِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَعْلَامِ الْغَاهِرَةِ ؛ ثم قصدت إلى آتَابِي هَذَا بِالتَّصْفِيرِ لِقَدْرِهِ ، وَالتَّهْجِينَ لِنُظْمِهِ ، وَالْإِعْتِرَاضَ عَلَى لَفْظِهِ ، وَالتَّحْقِيقَ لِمَعْنَاهِ مَزِيدٍ عَلَى نَحْوِهِ وَسَبْكِهِ ، كَمَا زَرَّيْتُ عَلَى مَعْنَاهِ وَلَفْظِهِ ، ثُمَّ طَعَمْتُ فِي الْفَرَضِ الَّذِي إِلَيْهِ زَعَمَا ، وَالْغَايَةِ الَّتِي إِلَيْهَا أَجْرِيَا ، وَهَذَا كِتَابٌ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مِنْ أَسْمِهِ ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ مِنْ لَفْظِهِ ، هُوَ كِتَابٌ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُتَوَسِّطُ الْعَامِّيُّ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَالَمُ الْخَالِصِيُّ ، وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ الرَّيِّصُ ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْحَافِظُ .

أما الرِّيِّصُ فَلتَعَلَّمُ وَالْأَدْرَبَةُ ، وَللترتيب والرياسة ، وللتسرين وتمكين المادة ، اذ كان جليله يتقدم دقيقه ، واذا كانت مُقَدِّمَاتُهُ مَرْتَبَةً ، وَطَبَقَاتُ مَعْنَاهِ مُتَرَتِّبَةً ؛ وَأما الْحَافِظُ فَلِكِفَايَةِ الْمُؤَوَّنَةِ ، وَلِأَنَّ كُلَّ مَنْ التَّقَطَّ كِتَابًا حَامِعًا ، وَبَإِذَا مِنْ أَمْهَاتِ الْعِلْمِ بِمَجْمُوعَا كَانَ لَهُ غَنَمُهُ ، وَعَلَى مُؤَلَّفِهِ عَرْمُهُ ، وَكَانَ لَهُ نَعْمُهُ ، وَعَلَى صَاحِبِهِ كَدُّهُ ، مَعَ تَعَرُّضِهِ لِمَطَاعِنِ الْبُغَاةِ ، وَلَا عِتْرَاضِ

(١) المصروفة الثنين : من لم يحبر الأُمُودَ ، وَالْمَحَاطِلِ الْأَيُّهُ .

(٢) أَجْرِيَا : تَصَدَّدَا .

الماسيين ، ومع غرضه عقله المكشود على العقول الفارعة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة ، ومتى طفر بمنله صاحب علم ، أو هم عليه طالب فقه ، وهو وادع رآيه ، ونشيط حام ، ومؤلفه مُتمم مكشود ، فقد كُفِيَ مؤوبة جمعه ، ونحبه وتبغه ، وطلبه ، وأغاه ذلك عن طول التفكير ، واستعداد العمر ، وفل الحذ ، وأدرك أقصى حاجته ، وهو مُتَمِّع القوة ، وعلى أن له حد ذلك أن يجعل مُسومه عليه صرما من التوفيق ، وظفّره به بابا من التسديد .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رمة الأمم ، ونشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا ، وإسلاميا جماعيا ، فقد أحد من طُرف الفلسفة ، وجمع بين معرفة السماع وعلم التحرية ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وحدان الحاسة وإحساس الغريزة ، ويشتهي العتيان كما يشتهي السيوج ، ويشتهي العاتك كما يشتهي الباسك ، ويشتهي اللاعب دو اللهو كما يشتهي الحدى دو الحزم ، ويشتهي المفل كما يشتهي الاديب ، ويشتهي العمى كما يشتهي القبط ، وعنى بحكاية قول العثانية والصّرارية وأنت تسمعننى أقول فى أول كتابى : وقالت العثانية والصّرارية ، وكما سمعننى أقول : وقالت الرافضة والزيدية ، حكمت على بالنصب لحكايتى قول العثانية ، فهلا حكمت على بالتشيع لحكايتى قول الرافضة ، وهلا كُتْ عندك من الغالية لحكايتى مُحج الغالية ، كما كُتْ عندك من الناصة لحكايتى قول الناصة ، وقد حكينا فى كتابنا قول الإناصية والصُفْرية ، كما حكينا أقاويل الأراقة والحدية ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجية ، وكل أسم سواها وإنما هو مرع وبيعة وأشتاق منها ، ومحول عليها ، فهلا كما عندك من المحمكة الخارجة ، كما صرنا عندك من الصرارية ، والناصة ! وكيف رصيت ما تكون الشيعة الى أعراس الساس أسرع من المارقة ! اللهم إلا أن تكون وحدت حكايتى عن العثانية والصّرارية أشع وأجمع ، وأتم وأحكم وأحود صُعة ، وأعد عاية ، ورأيتنى قد وَهَنْتُ حَقَّ أوليائك قدراً ما قُوِيْتُ باطل أعدائك ، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضرا ، وبرهائك على ما آدَته وانحما .

وعنى نكبات العاصية مهلاً عبثي بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى
الامتناع من طاعة الأئمة الذين رجعوا أن ترك الناس سدى ملاقيم أرد عليهم ، وهماً بلا
راج أريح لهم ، وأحذر أن يجمع لهم ذلك بين سلامه العاقل ، وعزيمة الآجل ، وأن تركهم
تسراً لا نظام لهم أهد لهم من المعاسد ، وأجمع لهم على المرشد ! بل ليس ذلك بك ، ولكنه
لما بهرك ما سمعت ، وملاً صدرك الذى قرأت ، وأسلّك وأبطرك فلم تنجبه للحمّة وهى
لك معرّضه ، ولم تعرف المقاتل وهى لك مادية ، ولم تعرف باب المخزج إذ جهلت باب
المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سب الأقباليه أشقى لداك ،
وأطلع فى شعاع سقمك ، ورأت أن إرسال اللسان أحصر لذة ، وأهد من الصب ، ومن
إطالة العزّة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصاعقة ، ولو كنت حين قطعت لعجزك
وصلت بقصد تمام عيرك ، وأستكفيت من هو وقوف على كفاية مثلك ، وحيث على
تقويم أشاهك ، كان ذلك أزين فى الساحل ، وأحقّ بالمشوبة فى الآجل ، وكنت إن
أخطأتك العيمة لم تحطك السلامة ، ولقد سلّم عليك الخالف ، بقدر ما أثبت له منك
المواقف ، وعلى أنه لم يثقل منك إلا بقدر ما ألزمت من مؤونة تنقيعك ، والتشاغل بتقويمك ،
وهل كنت فى ذلك إلا كما قال العروى : * وهل يصير السحاب نحر الكلاب * ° وإلا
كما قال الشاعر :

هل يصير الحرّ أمسى راحرا * أنى رعى فيه غلام بحجر

وهل حالنا فى ذلك إلا كما قال الأول

ما صرّ تلبّ وائل أهوتها * أم ملّت حيث تتأطع البحران

وقال حسان :

ما أمانى أنبّ الحزن تيس * أم لحانى ظهر غيب لثم

وما أشك أنك قد جعلت طول إصرارها عك مطية لك ، ووجهت حاتمنا عك الى
الخلف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفيح بفعل العفو سببا
الى سوء القول :

إِنْ عُدَّتْ وَاقِهِ الذِّى فَوْقَ عَرْشِهِ * مَحْحُكَّ مَسُونِ الْعَرَّارِينَ أَزْرَقَا
فَإِنَّ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُصْرَبَ الطَّلِي^(١) * وَأَنْ يُعْمَسَ الْعَرِيسُ حَتَّى يُفْرَقَا^(٢)

وقال الأول :

وَمَا نَفَى عَنْكَ قَوْمَا أَنْتَ خَائِفُهُمْ * كَمِثْلِ وَفِكَ جَهْلًا بِجَهَالِ
مَاقَسٍ إِذَا حِيدُوا وَأَحْبَبَ إِذَا قَيسُوا * وَوَازِنِ الشَّرَّ مِثْقَالًا بِمِثْقَالِ

وقال الآخر :

وَصَفَاتِي دَوَائِيهَا مَضَائِينِ * حَتَّى يَمُتَّ وَالْحُقُودُ حُقُودَا
وَأَيُّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي سِلَاسُ الْحَارِثِ، وَلَا مُعَارَصَةٌ هُؤُلَاءِ : الشَّرُّ وَالشَّرُّ،
وَالْجَهْلُ بِالْجَهْلِ، وَالْجَفْدُ بِالْجَفْدِ، إِنْ عِنْدِي مَا قَالَ الْمَسْعُودِيُّ :

قَسَا تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهَا خُلُقَاتِي * وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْخَيْرِ
وَلَا تَعْجَبْ أَنْ تَرِيْعَا قَسَا * هَا حَيْثُ الْأَهْوَاءُ شَرًّا مِنَ الْيَكْرِ
مَلُوشَتْ أَذْلَى فَيْكَا عَيْرٌ وَاحِدٌ * عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي سِتْرِ
إِنْ أَنَا لَمْ أَمْرَ وَلَمْ أَنَّهُ عَكَّا * صَحَّكَتْ لَهُ حَتَّى يَلْعَجَ وَيَسْتَشْرِى^(٣)

وقال التَّيْرُبِيُّ بَوَلَّتْ :

بَرَى اللَّهُ عَنِّي حَمْرَةَ سَةِ بَوَلِّ * بَرَاءَ مُبْسَلٍ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبِ
بِمَا حَرَّتْ عَنِّي الْوُشَاءَ لِيَكْذِبُوا * عَلَى وَقْدِ أَوَّلِيَّتِي فِي السَّوَانِبِ

يقول : أخرجت حمري الى من يشتهي أن أعاب عندها .

ولو شئنا لمارصاك من القول مما هو أقبح أثرًا، وأبقى وشما، وأصدق قبلا، وأعدل
شاهداً، وليس كل من ترك المعارضة فقد صمغ، كما أنه ليس كل من عارض فقد استصر،

(١) الطلي : الأحاق .

(٢) العريس : القدي يتوسل الناس بالشر .

(٣) كذا في الأصل، وفي المسانىء مادة بلعج : تصاحكت حتى يبلعج ويستشري .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كَفَبْنَا مَوْنَةَ المَعَارِصَةِ ، وكفيت نفسك لُزُومَ المَارِ ،
وهو قوله :

إِنْ كُنتَ لَا تَرْهَبُ دُمِّي لِمَا • تَعْرِفُ مِنْ صَفِيحِي عَنْ الْجَاهِلِ
فَاحْشَ سَكُونِي آذَانًا مُنْهَضًا • نِيكَ لِمُسْجُوعٍ خِمَا الْفَاقِلِ
فَالسَامِعُ الدَّمَ مُقَرَّبَ بِهِ • كَالطَّلْمِ الْمَاكُولَ لِلْأَكْلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا • أَسْرِعُ مِنْ مُنْجِدٍ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى السَّاسَ إِلَى دَقِّهِ • دَمَوْهُ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ
مَلَا تَهْجَ إِنْ كُنْتَ ذَا إِدْرِيَةِ • حَرَبَ أَخِي التَّجْرِبَةَ الْعَاقِلِ
إِنْ ذَا الْعَقْلَ إِذَا هَتَّهَ • هَتَّ بِهِ ذَا خَبَلٍ خَاسِلِ
يُنْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ • طَبِكَ عِ الصَّرَّ الْآحِلِ

وقد يقال : إن العفو يُسَدُّ مِنَ اللَّيْمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ ؛ وقد قال الشاعر :
وَالْعَفْوُ عِنْدَ كَيْبِ الْقِسْمِ مَوْعِظَةٌ • وَمَعْصُهُ لَسَعِيهِ الْقَوْمِ تَذْرِيبُ

إن كَأَفْدَ أَسَانَا فِي هَذَا التَّفْرِيعِ وَالتَّوْقِيفِ ، فَالَّذِي لَمْ يَأْخُذْ مِنَّا بِجُحْمِ الْقُرْآنِ ، وَلَا بِأَدَبِ
الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الْفِطَنِ الصَّحِيحَةِ ، أَوْ إِلَى مَا تَوَجَّهَ
الْمُقَاسِسُ الْمُطَرِّدُ ، وَالْأَمْثَالُ الْمَصْرُوبَةُ ، وَالْأَشْعَارُ السَّائِرَةُ ، أَوَّلَى بِالْإِسَاءَةِ ، وَأَحَقُّ بِاللَّانِمَةِ ،
قَالَ اللَّهُ حَلَّ شَاؤُهُ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى الْأَتْرُفَ وَازِرَّةَ وَرَرَّ أَنْتَرَى ﴾ وقد قال النبي عليه
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " لَا تَحْمِي بِمَيْكَ عَلَى شِمَالِكَ " وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَأَدَابُ رَسُولِهِ ،
وَالَّذِي أُثِرَ بِهِ الْكَلَامُ ، وَدُلَّ عَلَيْهِ فِي مُجْمَعِ الْعُقُولِ .

أَخَذَ الْبَرَى بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ

ثم قال في أَخَذَ الْبَرَى بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ . فَأَمَّا مَا قَالُوا فِي الْمَثَلِ الْمَصْرُوبِ ، " زَمَنْتِي بِدَائِمِهَا
وَأَنْسَلْتُ " . وَأَمَّا قَوْلُ الشُّعْرَاءِ وَذَمُّ الْخَطْبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، وَمَا ضَرَبُوا
فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ ، كَقَوْلِ الْبَاقِيَةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي شِعْرِهِ :
وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرْكَنِي • كَلَّفَنِي الْمَرْيُوكِيُّ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِمُ

وكانوا إذا أصاب إليهم العُزُكُورُ السليم ليذهب العُزُ عن السقيم فاسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم ، وكانوا إذا كثرت إبلُ أحدهم فلفت الألف فقصوا عينَ المصل ، وإن زادت الإبلُ على الألف فقصوا عيه الأخرى ، فذلك المُعَقُّ والمُعَمَّى اللذان سمعتَ بهما قال المرزوق :

طَبْتُكَ بِالْمُعَقِّ وَالْمُعَمَّى • وَبَيْتُ الْمُجْتَبَى وَالْحَافَاتِ^(٢)
وكانوا يزعمون أن المُعَقَّ يطرُد عنها العينَ والسَّوَّافَ^(٣) والغارة فقال الأول :
فَقَاتُ لَهَا عَيْنَ الْعَجِيلِ تَمِيقًا • وَفِيهِ رَعْلَاءُ الْمَسَامِيعِ وَالْحَامِ
الرَّعْلَاءُ : التي تُسَقُّ أذنُها وتترك مُدَلَّاةً لِكَرَمِهَا .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأُمية ، كقول الرجل إذا بلغت إبلُ كذا وكذا ، وكذلك عَمِيَ ذُبْحُ عِدِ الْأَوْتَانِ كَمَا وَكَا عَتِيرَةٌ ، وَالْعَتِيرَةُ : من سُكِّ الرَّجِيَّةِ ، والجمع عَتَارُ ، والعنائر من النساء ، وإذا بلغت إبلُ أحدهم أو صمهُ ذلك العدد استعمل التأويلَ وقال : إِنَّمَا قَلْتُ : إِنِّي أَذْبَحُ كَذَا وَكَمَا شَاءَ ، وَالطَّبَاءُ : شاء ، كما اتَّالَمَ شَاءُ ، بفعل ذلك القُرْآنُ كُلُّهُ مما يصيد من الظباء ، فلهذا يقول الحارث بن حِزَّاةَ الْبَشْكِيِّ :

عَتَا مَاطِلًا شَدُوْحًا كَمَا تَدُ • تَرُعُ عَنْ مُجْرِهِ الرُّبَيْصُ الظَّبَاءُ

بعد أن قال :

أَمْ عَلَيْنَا حُنَاحُ كَيْدَةٍ أَنْ يَغْدُ • نَحْمُ عَازِيَهُمْ وَمَا الْجِرَاءُ
وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تنسرب ، إمَّا لِكَدْرِ الْمَاءِ وإمَّا لِقَلَّةِ الْعَطَشِ ، صرَبوا الثَّوَرُ لِيَقْتَحِمَ الْمَاءَ لِأَنَّ الْبَقَرَ تَتَّبِعُهُ كَمَا تَتَّبِعُ الثَّوْلُ الْمَصْلُ ، وكما نَتَّبِعُ أَتْنُ الْوَحْشِ الْجِمَارَ ، فقال في ذلك خوف بن الخَيْرِ :

تَمَّتْ طِيَّةٌ جُهْلًا وَجُبَا • وَقَدْ حَالَتْهُمْ فَأَوْا حَلَامِي
يَهْجُونِي أَنْ يَهْوَتْ جِبَالُ سَلَمَى • كَصَرَبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّلَامِ

(١) في اللسان مادة «عقا» «الحق» • (٢) كما في الأصل وفي اللسان «المجتبى»

بالحاء المهملة • (٣) السواف مر من الابل • (٤) كما في الأصل وفي اللسان مادة «تر» «وطلبا» •

وقال في ذلك أس بن مُدْرِكَة في قتله سُلَيْك بن السُّلَكَة :

إني وقلي سُلَيْكاً ثم أعقله * كالثور يُصْرَبُ لماعيتِ البقر
أَنْهتِ للسرِّ إدا تُفْتَنِي حليته * وإذ يُسَدُّ على وجعها الثغر^(١)

وقال الهَيْيَانُ الفهمي :

كما صُرِبَ العُصُوبُ أن عاف باقر * وما ذنبه أن عافت الماء باقر
ولما كان الثور أمير القر، وهي طيعه كطاعة إناث الحل للعُصُوب سماه ناسم أمير
النحل .

وكاوا يزعمون أن الحن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى يُمَسِّك البقر عن الشرب
حتى تهلك، وقال في ذلك الأعشى :

وإني وإن كلمتوني ورجم * لأعلم من أمسي أحق وأحوبا
لكالثور والحن يصر طهره * وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر * وما إن تعاف الماء إلا ليصر

كأنه قال : إذ كان يُصْرَبُ أبدا لأنها عافت الماء، فكانها إنما عافت الماء ليضرب،

وقال يحيى بن منصور النخعي في ذلك :

لكالثور والحن يصر وجهه * وما ذنبه إن كانت الجن طامنة

وقال نهشل بن جَرْم :

أترك عارض وبسو عدي * وتصرم دارم وهم برأ
كدأب الثور يُصْرَبُ بالحرأوى * إذا ما عافت القر الطلاء
وكيف تكلف الشعرى متيلا * وبينهما الكواكب والسماء

(١) في السان : « صنت » . (٢) في الأصل « وإن » والصواب في السان .

(٣) الصر : الشعر الذي في مؤخر السرج .

وقال أبو نؤيرة بن حصين حين أخذه الحكم بن أيوب ذنب العطرزق :

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعني * ونصحي إذا ما متنى بالحق
ولا ساء سرائ العرافة صالح * بي ولا كلفت دئ العطرزق

وقال حدّاش بن زهير حين أحد بدماء بني عمارب :

أكلفت قتلى معشر لست منهم * ولا دارهم داري ولا نصرهم نصري
أكلفت قتلى العيص عيص شواحيط . وذلك أمر لم تُسب له قدرى

وقال الآخر :

إذا عركت عجل بآدب طيّر * عركنا بئيم اللات دئ بي غيل

ولما وجد اليهودي أحاحيص الصابني في منزله حصاه هاب ، وأحد خبيص بن عيس بحاية اليهودي قال قيس بن زهير : أناخذنا بذنب عيرنا ، ونسألها العقل ، والقاتل يهودي من أهل تيماء . قال . والله لو قتله هيئف الريح لوديتموه ، فقال قيس لبي عيس : الموت في بني ديبان خير لكم من الحياة في بني عامر ، ثم أنشأ يقول :

أكلفت ذا الخبيص إن كان طالما * وإن كنت مطلوما وإن كنت شائلا
حصاه أمرؤ من أهل تيماء طار * ولا يقدم الإنسي والحن طالما
فهلا بي ديبان أمك هائل * رمت يئف الريح إن كنت راها
إذا قلت قد أظلت من شر خبيص * أنا في نأري شره متناطا
فقد حملت أبأدنا بتجويك * كما تحنوي سوقي العصاه الكرايا

ولما قتل لقمان بن عاد أبته وهي مخمّر بنت لقمان قال حين قتلها : أليست أمراءه . وذلك أنه تزوج عده ساء وكلهن حنه في أهسبن ، فلما قتل أمراهن وزل من الحمل كان أول من تلقاه مخمّر أبته ، فوشب عليها فقتلها ، وقال وأيت أيضا أمراءه ، وكان قد استل أيضا بأن أخته كانت محقة ، وكذلك كان زوجها ، فقالت لإحدى ساء لقمان . هذه ليلة طهرى

وهي ليلتك، قد مضى أم في مصجحك، فإن لقمان رجلٌ مُنجِبٌ، فسي أن يقع على فأُنجِبَ،
فوقع على أخته فحملت بَلَقِيمَ وفي ذلك قول النثر بن تَوَلَّى :

لَقِيمُ لِقْمَانٍ مِنْ أُخْتِهِ * فَمَا كَانَ أَبَ أُمِّهِ لَهُ وَابَتَا
لَيْلَى حَقَّقَ فَاسْتَحْصَنَتْ * عَلَيْهِ فَعُورُهَا مُظْلِمَا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ عَمَّ^(١) * لَهَاتَ بِهِ رَجُلًا مُحْكَا

مضرت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنته مُحْمَرَا فقال خُفَافُ بْنُ نُدْبَةَ في ذلك :
وَعَبَّاسٌ يُدَبِّبُ لِي الْمَايَا * وَمَا أَذْنَبْتُ إِلَّا ذَنْبَ مُحْمَرٍ

وقال في ذلك أبو أُدَيْبَةَ :

أَتَجَمُّعُ تَيْيَامًا بِلَيْلَى إِذَا نَأَتْ * وَهَرَانَهَا طُلُمًا كَمَا طُلِمَتْ مُحْمَرُ
وقال الحارث بن عُبَّاد :

قَرَّبَا مَرَبَطَ الْعَامَةِ مَنَى * لَفِحَتْ حَرُّ وَائِلٍ عَنِ حِيَابِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُبَانِهَا عِلْمُ الدَّ * وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي
وقال الشاعر وأظنه أبو المقفع :

فَلَا تَلِمِ الْمَرْءَ فِي شَانِهِ * فَوْتَ مَلُومٍ وَلَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عِدْرَا وَأَتَتْ تَلُومُ * وَكَمْ لَانَمَ قَدْلَامٌ وَهُوَ مُلِيمُ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سيفيَّار الرومي : فَمَاتَ لِمَا عَلَا الْخُورَقُ، وَرَأَى
بُنْيَا مَا لَمْ يَرِ مَثَلَهُ، وَرَأَى ذَلِكَ الْمُسْتَشْرِفَ، وَخَافَ إِنَّهُ هُوَ اسْتَبْقَاهُ أَنْ يَمُوتَ مِثْنِي مِثْلَ ذَلِكَ
الْبُيَّانِ لِمَلِكِ آخَرٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِيَ مِنْ فَوْقِ الْقَصْرِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْكَلْبِيُّ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
بعض الملوك :

جراني جراه الله شرَّ بَرائِهِ * جراه سيماروما كالب ذاديب
 سوي رَسه الثَّيَّانَ سَمِعَ حَمَّةَ * يُسَلِّ عليه القراميد والسَّكِب
 فلما رأى الثَّيَّانَ تَمَّ سَحْوُهُ : وأض كَيْل الطوددى الداح الصب
 قَظَن سِنَارُ هَ كُلَّ حَسْوِهِ * وفار لديه المَسْوَذَ والقُرب
 فقال اقدفوا باللعج من رأس شاهقي * هناك لَمَرَّ الله من أعظم الخطيب

وحاء المسلمون يَروى حَلَفٌ عن سَلَفٍ ، وتأنع عن ساقٍ ، وأتبرَّعُ عن أُولٍ ، أهِمَّ
 لم يحتلموا في عيب قول المحتاج : لأحدثُ ، السَّيِّءَ السَّمِيَّ والوَلِيَّ والوَلِيَّ ، وابلجارَ الخار ،
 ولم يحتلموا عن لمن شاعرهم حيث يقول -

إذا أُحْذَ البرىء بغير جُرمٍ * تحبَّ ما يُحاذِرُه السقيمُ

قال : وقيل لعمرو س عُبِدَ إن فلانا لما قَدَّمَ رَحُلًا ليصير عُنُقَهُ قَبِيلَ لِه : إنه
 مجنون ، قال : لولا أَن المصون يَلِدُ عاقلا نَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، قال فقال عمرو - وما خلق الله البار
 إلَّا بالحق .

ولما قالت التَّعْلِيَّةُ للمصنف س حكيم في وقعه البشر : وَصَّ الله عِمادَكَ ، وأطال شهادَكَ ،
 وأقلَّ رَمادَكَ ، فوالله إن قُتِلتْ إلَّا نساء أساطهن دُمِيَّ ، وأعالهن نَدَى . فقال لمن حوله : لولا
 أن تلِدَ هذه مثلها نَخَلَيْتُ سَبِيلَهَا ، فبلغ ذلك الحَسَنَ فقال . إن الجفاف جُدُوَّة من نارجهم .
 قال ودَمَ رجلٌ عند الأُخْفِ بِن قيس الكَافَّةَ السَّمَّ ، فقال عند ذلك الأُخْفِ : رَبُّ
 مَلُوم لا ذَنْبَ لِه ، فبهذه السيرة سَرَّتْ فِيا ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن
 ابن حسان :

وإنَّ أَمْرًا يَمْسَى ويصبح سالما * من الناس إلَّا ما جَنَى لَسَمِيدُ

وقلت : وما نال أهل العلم والظفر ، وأصحاب العكر والعيبر ، وأرباب النحل ، والعلماء
 بمحارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الأنطلاء ، يكتبون كتب الطُراء والمُلغاة ، وكُتِبَ
 الفُراغ والظُلُماء ، وكُتِبَ الملاهي والمكاهات . وكُتِبَ أصحاب الحصومات والمراء ، وكُتِبَ

أصحاب العصبية، وحمية الحاهلية، حتى كأنهم لا يحاسون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يحامون تصفّح العلماء، ولا لائمه الأدياء، وتشفّ الأكفاء، ومساءة الخطأ؛ مهلاً أسكت رحمك الله عن عيدا، والطمس عليها، وعن الكشورة والموعظة، وعن تحويف ما فيه سوء العاقبة إلى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وسد أن تكلم في تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام. وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام
البيان :

وحدنا الحكمة على صريين . شئٌ جميلٌ حكمةٌ وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشئٌ جعل حكمةً وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بذن الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واحتلها من جهة أن أحدهما دليلٌ لا تستدلُّ، والآخر دليلٌ يستدلُّ، فكلُّ مُستدلٍّ دليلٌ، وليس كلُّ دليلٍ مستدلٍّ، فشارك كلُّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجساد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واحتج للاسناد بأن كان دليلاً مستدلّاً، ثم جعل للمستدلَّ سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك ببياناً؛ وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام . لفظٍ وخطٍ وعقدٍ وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يستدلُّ تمكيه المستدلِّ من نفسه واقتياده كلَّ من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحثي من الدلالة، وأودع من غيب الحكمة، والأجسام الحُرُس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة، ومُعَرِّبه من جهة صحة الشهاده، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استحضرهما، وينطعان لمن استنطقهما كما يحير المزال وكود اللون عن سوء الحال، وكما يطق السمن والنصرة عن حسي الحال، وقد قال الشاعر :

مجاوبوا فاشوا بالذي أت أهلُه * ولومكوا أنتم عليكم الحقائق

وقال آخر :

مَن تَكُ في عدوٍّ أو صديقٍ * تخبرك العيون عن القلوب

وقد قال المُثَلَّى في صدق شبه الذئب ، وفي شدة حسه وأسترواحه :

يستعبر الريح إذا لم يَسْمَعْ * مثل يقراع الصفا الموقع

وقال عترة وهو يصف بيتَ عرأت :

حَرَّو الجَاحِجَ كَأَن لَّحَيَّ رَأْيِهِ * حَلَمَانِ بِالْأَحْصَارِ هَشَّ مُوَلَّعُ

وقال الفصل بر عيسى بن أنان في قَيْصَصِهِ : سل الأرض فقل : مَنْ شَقَّ أَهَارِك ، وعَرَسَ أَشْجَارَك ، وَحَيَّ نِمَارَك ، فإن لم تحك حوارا ، أحاسك اعتبارا ، فموصوع الحسم ونصبتُه دليلاً على ما فيه ، وداعيةً اليه ومَنبَه عليه ، فالحماد الأنكم الأحرص من هذا الوحه قد شارك في البيان الإنسان الحَيُّ الناطق ، من جعل أقسامَ البيان خمسة فقد ذهب أيضا مدها له جوارى اللغة ، وشاهد في العقل ، فهذا أحدُ قِسَمَي الحِكْمَةِ ، وأحدُ مَعَيِّنَي ما آستخزنها الله تعالى من الوديعه .

القسمه الأخرى ما أودع صدورُ صُوفٍ سائر الحيوان من صروب المعارف ، وفطرها على عريب المِشْدَايَات ، وسحر حاحرها له نصرب العم الموروة ، والأصوات الملحنة ، والمحارج الشجيه ، والأعالي المطربة ، فقد يقال . إن جميع أصواتها معدلة ، وموروة موقعة ، ثم الذي سَهَّلَ لها من الرفق العجيب في الصعته مما دلله الله تعالى لمباقيها وأكفها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ماهايا لها من الآله ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف ، والصعته البديعه عن عر تأديب وتنقيف ، وعن غير تقويم وتلقي ، وعن غير تدرج وتميز ، فملت بعبوها ومقدار قُوَى فطرتها من البديه والارتحال ، ومن الابتداء والاقتصاب ، ما لا يقدر عليه حُذَّاقُ رجال الرأى ، وفلاسفة علماء البشر يبيد ولا آله ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أَكْثَلُهُمْ حِصَالَا ، وَأَتَمُّهُمْ حِلَالَا ، من جهة الارتجال والاقتضاب ولا من جهة التسف والاقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأني له ، والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأنساب الميعنة عليه فصار جهد الإنسان الناقب الحس ، الجامع القوي ، المتصرف في الوحه المتقدم في الأمور يعجز عن عفو كثير منها ، وينظر اد نظر

الى صروب ما يحيى. منها كما أعطيت العكوت ، وكما أعطيت الشربة ، وكما علم النمل ،
 بل عرّف التوتوت من بديع المعرفة ، ومن عريب الصصة في غير ذلك من أصناف الخلق
 ثم لم يوجد المعرّ وأصهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الحمحج والخشاش وصغار
 الحشرات ، ثم حمل الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، ودا التكاف
 والتجربة ، ودا التأتى والمناصة ، وصاحب الادحار والمتعقد لشان العاقبة متى أحس شيئا
 كان كل شيء. دونه في الموصى عليه أسهل ، وحمل سائر الحيوان وإن كان يُمس أحدها
 ما لا يُمس أحدق الناس متى أحس شيئا غيبا لم يمكنه أن يُمس ما هو أقرب منه
 في الطن . وأسهل منه في الرأى ، بل لا يُمس ما هو أقرب منه في الحقيقة ، فلا الإنسان
 حمل منه كذلك ، ولا شيء من الحيوان آختر ذلك ، فأحسنت هذه الأحاس بلا تعلم
 ما يمتنع على الإنسان ، وإن تعلم فصلا لا محاوله اد كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها اذ كان
 لا يأمل الخلق بها ، ثم حمل تعالى وعز هاتين الحسنتين إزاء عيون الباطرين ، ونحوه أسمع
 المعتبرين ، ثم حث على التمكير والاعتذار ، وعلى الأتباط والأزدحار ، وعلى التعزف والتبين ،
 وعلى التوقف والتدكر ، جعلها مدكرة مبهمة ، وجعل الفطر تنشى. الخواطر ، ويجول بأهلها
 في المداهب ، ذلك رب العالمين . سبحان الله رب العالمين .

وهذا كتاب موعظة وترغيب ، وتفقه ونبيه ، وأراك قد عنته قبل أن تيف على
 حدوده ، وتتفكر في فصوله ، وتذكر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد عطتك فيه
 بعض ما رأيت في أثنائه من مزيج لم تعرف معانيه ، ومن ظالة لم تدرك عورها ، ولم تدرك
 لم أجلبت ولائى علة تكلفت ، وأى معنى أريج بها ، ولائى جد أحيل ذلك المزل ،
 ولائى رياضة يُحسنت تلك البطالة ، ولم تدرك أن المراح جد اذا اجتلب لأن يكون علة للجد ،
 وأن البطالة وقار وزمانه اذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الحليل بر أحمد : لا يصل
 أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ، قال أبو شمر : اذا كان
 لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابها هذا، لأنّ إن حملنا جميع من يتكلّف قراءه هذا الكتاب على مرّ الحقّ، وصعوبة الجهد، وثقل المؤونة وحقيقه الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تحرّد للعلم وفيهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزّه، وبال من سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ، والكثرة من السآمة، وما أكثر من يُقاد الى حفظه بالسواحيِر، والسوق العنيف، وبالإخافة الشديده .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال .

ثم لم أرك رصيت الطعن على كلّ كتاب لي عنيه، حتى تجاوزت ذلك، الى أن عثت وصع الكتب كيما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوحوه - وقد كنت أعجب من عيبك المصّ بلا علم، حتى عثت الكلّ بلا علم، ثم حاوزت ذلك الى التشجيع، ثم تجاوزت التشجيع الى نصب الحرب، فعثت الكتاب وبم الدرّ والمعدة، وبم الجليلس والمعدة، وبم النشوة والزهة، وبم المشتعل والحرفه، وبم الأيسر ساعة الوحدة، وبم المعروفة ببلاد الفرنّة، وبم القوس والدخيل، وبم الوزبر والريل، والكتاب وعاء مليّ علبا، وظرفٌ حثيثٌ ظرفا، وإماءٌ شحّ شراحا وحذا، إن شئت كان أبيض من تحياي وائل، وإن شئت كان أبيض من اقل، وإن شئت صحّكت من بواده، وإن شئت عجت من عرائف فوائده، وإن شئت أفتك بوايده، وإن شئت شحّكت مواعطه . ومن لك بواعظ مليه، وبزاجرٍ مُعزٍ، وبباصيك فاتك، وبباطق أنرس، وببارد حارّ، وفي البارد الحارّ يقول الحسن بن هاني :

قلّ لزهير إذا أتمّنى وشدا * أقلل أو أكثر فانت مهذار
صحّت من شدّه البرودة حتى صرت عدي ككأنك البار
لا يعجب السامعون من صغتي * كذلك الثلج بارد حار

وَمَنْ لَكَ طَلِيبٌ أَعْرَاقٌ ، وَرُوحِي هَدْيٌ ، وَبَارِسِي يُونَانِي ، وَتَقْدِيمٌ مَوْلَدٌ ،
وَبِمَتٍ يُتَعَمَّقُ ، وَمَنْ لَكَ نَشِيءٌ ، يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَاقِصَ وَالْوَاضِعَ ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
وَالشَّاهِدَ وَالْفَانِي ، وَالرَّبِيعَ وَالْوَصِيعَ ، وَالْعُثَى وَالسَّمْنَ ، وَالشَّكْلَ وَحِلَافَهُ ، وَالْحَدْسَ وَصِدْهُ .
وبعد ، فإني رأيت سنانا يتجمل في رُؤْد ، أَوْ رُوصَةً تُنْقَلُ في حِجْرٍ ، وَاطْفَافًا يُنْقَلُ عَنِ
الْمَوْتِ ، وَيُتْرَجَمُ كَلَامُ الْأَحْيَاءِ . وَمَنْ لَكَ مَوْئِسٌ لِأَيَّامٍ إِلَّا سَوْمُكَ ، وَلَا يُبْقِي إِلَّا بِمَا
تَهْوَى ، أَمْسَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْمَ لِلْمَرْمَنِ صَاحِبُ الْمَرْءِ ، وَأَصْطَلُ لِلْوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ
الْوَدِيعَةِ ، وَأَحْفَطُ لِمَا اسْتَحْفَظَ مِنَ الْأُمْتِ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرُوسِ ، بَلْ مِنْ الصَّبِيَّانِ
قُلُوبَ اعْتِرَاضِ الْأَشْعَالِ ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قُلُوبَ التَّمَتُّعِ بِمِيرَ الْأَشْخَاصِ ، حِينَ الْمَايَةِ تَائِمَةٌ لَمْ تَقْصُ ،
وَالْإِدْهَانُ فَارِعَةٌ لَمْ تَقْتَسَمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَاهِدَةٌ لَمْ تَسْتَعِ ، وَالْعَلِيَّةُ لَيْتَهُ هِيَ أَفْضَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّاعِ ،
وَالْقَصِيبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوفِ ، حِينَ هَذِهِ الْحَصَالُ لَمْ يَسَلْ حَدِيدُهَا ،
وَلَمْ يُهْلِكْ عَرَبُهَا ، وَلَمْ تَنْتَفِرْ قُوَاهَا ، وَكَأَنَّهَا قَالَتِ السَّاعِرُ

أَتَانِي هَوَاهَا قُلُوبٌ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى : فَصَادَفَ قُلُوبًا هَارِعًا فَتَمَكَّنَا
وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ :

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَنْبِتُ صَدْيُهُمْ : مِنَ الْقَوَائِلِ مَا لَعَدَاوُهُ يَنْشَعُ
هَذَا مَعَ قَوْلِهِ : التَّعَلُّمُ فِي الصِّغَرِ كَالْقَشِّ فِي الْمَخْرِ ، وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :
تُرْكِي رِيحَ لَهْ الرُّوحَاءِ حَتَّى : تَكْرَثَ الدَّارُ عَلَى الْبَصِيرِ
كَوَحْيٍ فِي الْمَخَارَةِ أَوْ وَشُومٍ : مَأْدَى الزُّومِ مَاقِيَةِ الْوُورِ
الْوُورُ شَيْءٌ كَانَ يُعْمَلُ فِي الْمَخَاطَةِ مِثْلَ الْحَصْرِ الْيَوْمِ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَهُوَ صَالِحٌ عَنِ عَبْدِ الْقَدُوسِ :

وَلَئِنْ مَنِ أَذْبَتَهُ فِي الصَّبَا : كَالْعَوْدِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي عَرْمِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُوَرِّقًا أَحْصَرَ : بَعْدَ الَّذِي أَصْرَتْ مِنْ يُسِيهِ

(١) كَمَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَهَا . «جملتها» .

(٢) فِي الْأَصْلِ . «تَبِيَّةٌ» وَهِيَ حَقْلٌ صَوَاهُ مَا أُسْتَأْنَدَ مِنَ الشَّجَرِ وَالشَّجَرَاءِ لَا فِي تَبِيَّةٍ .

وقال آخر :

يقوم من ميل العلام المؤدب * ولا يفع التأديب والرأس أشيب

وقال آخر :

أذبت عرسى بعدما هيرمت ، ومن العاء رياضة الهرم

وقد قال ذو الرقة لميسى بن عمر : اكتب شعري فالكاتب أعجب الى من الحفظ ،
إن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهت في طلبها ليلة ، فيصع في موضعها كلمة في وزنها
ثم يشدها الناس ، والكاتب لا تنسى ، ولا يُبدل كلاما بكلام ،

وعت الكاتب ولا أعلم حارا أربز ، ولا حليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا ممثلا
أحصع ، ولا صاحبا أظهر كفاية ، ولا أقلّ جاية ، ولا أقلّ إملالا وإبراما ، ولا أقلّ
خلافا وإبراما ، ولا أقلّ عيبة ، ولا أمدّ من عصبية ، ولا أكثر أعجوبة وتصريما ، ولا أقلّ
صلحا وتكلفا ، ولا أمدّ من مرء ، ولا أترك شغب ، ولا أزهد في حدال ، ولا أكف
عن قتال ، من كتاب ، ولا أعلم قريبا أحسن مواتاة ، ولا أعجل مكافاة ، ولا أحصر
مؤونة ، ولا أخف مؤونة ، ولا شحره أطول عثمرا . ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة ،
ولا أقرب مجي ، ولا أسرع إدراكا ، ولا أوحّد في كلّ إمّا من كتاب ، ولا أعلم نتاحا
في حدائثه سنّه ، وقرب ميلاده ، ورحيص ثيمه ، وإمكان موجوده ، يجمع من التداير
العجيبة ، والعلوم العربية ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن
الحكم الرقيقة ، والمذاهب القديمة ، والتعاريب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون
الماسية ، والبلاد المتراخية ، والأمثال السائرة ، والأهم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لبنته عليه الصلاة والسلام : **رِاقِرًا وَرَثَكَ الْآلَ كَرَمَ الْإِدَى عَمَ**
بِالْقَلَمِ ، وصف به تبارك وتعالى حده أن علم بالقلم ، كما وصف به بالكرم ، وأعتد
ذلك في بيمه العظام ، وفي أباديه الحسام ، وقد قالت : **القلم أحد اللسانين** ،
وقالوا : **كل من عرف فصل اللمعة في بيان اللسان كان بمصل اللمعة في بيان القلم**

أعرف ، ثم جعل هذا الأمر قرآماً ، ثم جعله في أول التبريل ، ومُستَمِيع الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أن حاحه بعض الناس إلى بعض صفة لازمة لعلهم ، وحلقة قائمة في حواهرهم ، وثانسة لا تزيلهم ، وعيطة محاعتهم ، مشتملة على أداينهم وأقاصيهم ، وحاحتهم إلى ما عاب عنهم ، بما يُمِيشهم ويُحييهم ، وأحد أزمافهم ، ويُصلح نالهم ، ويجمع شملهم ، وإلى التماون على دَرَكَ ذلك ، والتواور عليه كحاحتهم إلى التعاون على معرفه ما عصرنهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تصب عنهم ، فحاجة العائب موصولة بحاحه الشاهد ، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى إلى معونة الأقصى ، معاني متصته ، وأساس متصلة ، وحال متقيدة ، وجعل حاجتنا إلى معرفة أحوار من كان قلنا كحاحه من كان قلنا إلى أحوار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدنا إلى أحوارنا ، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالرسول ، ولم يُسخر لهم جميع خلقه إلّا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وأردباد في الآلة ، وفي كل ما أُحدث المومنين ، وجمع لهم العتاد ، وذلك الممدار من جميع الصفين وفق لكثرة حاجتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعد عوَرهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وقطره الإنسانية ، ثم لم يقطع الريادة عنهم إلّا لمحض حلقهم عن احتيالهما ، ولم يُجز أن يهزق بينهم وبين المعجز إلّا بسد الأعيان ، إذا كان المعجز صفة من صفات الخلق ، وتنا من موت العبيد ، ولم يُخافِ الله تعالى أحداً يستطيع بلوع حاحته سعه دون الاستعانة ببعض من يُخبره ، وأدبهم مُسخر لأقصاهم ، وأحلقهم مُيسر لأدقهم - وعلى ذلك أحوَج الملوك إلى السوق في باب ، وأحوح السوق إلى الملوك في باب ، وكذلك النقي والفقر ، والعد وسيده.

ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان حولا وفي يده مُدالاً مُيسراً ، إما بالاحتياال له ، والتلطيف في إرادته وأسمااته ، إما بالصوله عليه والفتك به ، وإما أن يأتيه سهواً ورهواً ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها احتال لها ، ولما صال عليها ، إلّا أن الحاجة تفترق

في المجلس والجهة، وفي الحفظ والتقدير، ثم تمد الإنسان بالعكر فيها، والنظر في أمورها، والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريعة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتفكير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذي حمله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومُعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعترفا لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة، ومُداواة الخيرة؛ ولأن أكثر الناس عن الناس أنهم منهم عن الأشباح المائلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يُتعرَف ما فيها من دقائق الحكم وكسور الأدب، ويبايع العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، والنظر التام النافذ، وبالآداة الكاملة، وبالأبواب الوامرة، والصبر على مكروه العكر، والاحتراز من وحوه الخدع، والتحصن من دواعي الهوى، ولأن الشكل أهم من شكله وأسكن إليه وأصب به، وذلك موجود في أجسام البهائم وصرور السباع، والسمي عن الصبي أنهم وله آلف، وإليه أزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لبيه عليه الصلاة والسلام: **زَوَّلُوا جَعَلَهُ مَلَكًا لِحَقْلَتَاهُ رَجُلًا** لأن الإنسان عن الإنسان أنهم، وطاعه بطاعه آس، وعلى قدر ذلك يكون موقع ما سمع منه، ثم لم يرض من البيان لهم بصنف واحد، بل جمع ذلك ولم يهزق، وكثر ولم يُقَلَّل، وأظهر ولم يُخَفِّف، جعل أصناف البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والثرحمان الذي اليه يرجعون عند اختلافهم في أروعة أشياء وفي حصلة حامية، وإس قصص عن ملوع هذه الأرض في جهاتها، فقد تكمل بحسنه الذي وصع له، وصرف إليه .

وهذه الحِصَال الأربع : هي اللطع والخط والإشارة والمقد، والخصلة الخامسة : ما أوحى من حجة الدلالة، وصدق الشهادة، ووصوح البرهان في الأحكام الجامدة الصامتة، والساكنة الثابتة، التي لا تيس ولا تهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداحل دخل عليها، أو عد ممسك خلتى عنها بمد تعييده كان لها، ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل

- الموجودات ، جعل اللفظ للسامع ، وحمل الإشارة للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، في معرفة المقَدِّ إلاً بما فصل الله به بصيب الناظر في ذلك على بصيب اللامس ، وجعل الخط دليل على ما عاب من حوائجهم عنه ، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه ، وجعله خارفاً لما لا يأمن مبيانه مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يحمل للشام والذائق في ذلك بصيها .

ولولا خطوط الهدد لصاع من الحساب الكثير البسيط ، ولطُغَت معرفة التصاعيف ، ولَعَلِمُوا الإحاطة بالاورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا سد أن تعاطى المؤونة ، وتنتقص المنة ، ولصاروا الى حال متحززه وحُصور ، وإلى حال مصيبة وكلال حد ، مع التشاغل بأمر لولا فقد هذه الآلة لكأن أرغ لهم ، وأرد عليهم أن يصيروا ذلك الشغل في أبواب مافع الدين والدنيا ، ومع الحساب معلوم ، والحلقة في موضع فقدته معروفه ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ الرَّشْمُ وَالْقَمَرُ يُحْسِبَانِ ﴾ ، والبيان عرَّف الناس القرآن ، قال الله سارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ صِبَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَآزِلَ لِيَعْلَمُوا عِنْدَ السَّيِّئِ وَالْحَسَابِ ﴾ ، فأجرى الحساب بحرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، ويحسبان مازل القمر عرَّفها حالات المَدِّ والجَزَر ، وكيف تكون الريادة في الأهلة وأصناف الشهور ، وكيف يكون المُعْصَان في حلال ذلك ، وكيف تلك المرات وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدونة ، والاحار المُخَلَّدَة ، والِحِكَم المخطوطة الى تحضُّر الحساب وعصر الحساب ، لَطَلَّ أكثر العِلْم ، ولَغَب سلطانُ النِّسْيَان سلطانُ الذِّكْر ، ولما كان للناس مفرج الى موضع استدكار ، ولو لم ذلك لحُرِّبَ أكثر البع ، اد كما قد علمنا ان مقدار حفظ الناس لمواحل حاجتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ، ولا ينفي فيه عناء محمود ، ولو تكلف عاقمة من يطلب العِلْم ، ويصطليح الكُتُب ، ألا يزال حافظاً لِفَهْرَس كُتُبِه لأعجزه ذلك ، ولتُكَلِّف شَطَطاً ، ولتَغْلَه ذلك عن كثير مما هو أوثق به ، ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم مئين الصوت مُخَوِّداً ، وأعد مهيك لصوت صاحبك وممالكك ، والمُناوِن لك ما كان صياحاً صِرْفاً ، وصوتاً مُضْمَناً ، ونِداءً حالصاً ، ولا يكون مع ذلك ألا وهو يبيد من المفاهمة ، وعُطْل من الدلالة ، فجعل الله حل وعز اللفظ لأقرب الحاحات ، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً ، والكتاب للنازح من الحاحات .

فأما الإشاره فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، وكسر الأجفان ، ولئى الشفاه ، وتحريك الأعماق ، وقص حِلته الوحه ، وأعدّها أن تُلوّى بثوب على مقطع جبل تُحاه بين الناظر ، ثم ينقطع عملها ، وتدرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شى فصل عن آنتها مدة الصوت ، وتنتهى الطرفى الحاحه ، الى التفاهم بالحطوط والكُتُب . فأى نفع أعظم ، وأى مَرِيق أعوذ من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا .

وليس لأمّقد خط الإشاره بعد العايه ، ولا للإشاره خط الخط بعد العايه ، فذلك وصح الله عزّ وجلّ القلم فى المكان الرفيع ، ونوّه ذكره فى المُنْصِب الشريف حين قال : **رَبِّتْ وَأَلْقِمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ، فأقسم بالقلم كما أقسم بما يحفظ القلم إذا كان اللسان لا يتعاطى شأوه ، ولا يُسْق عماره ، ولا يجرى فى حِلته ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاحات الناس بالخصره أكثر من حاحاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاحه الى بيان اللسان حاحه دائمه رايكة ، ورايه نائتة ، وكاتب الحاحه الى بيان القلم أمراً يكون فى الغيّه وعند البائنه ، ألا ما حُصّت به الدواوير ، فإن لسان القلم هالك أبسط ، وأثره أعم ، فذلك قدّموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أتمّ هو من ماصع اليد والمرامق التى فيها ، والاحاح التى تبلمها ، من ذلك حفظها وقسطها من ماصع الإشاره ، ثم نصيها فى تقويم القلم ، ثم حفظها فى التصوير ، ثم حفظها فى الصاعات ، ثم حفظها فى المقعد ، ثم حفظها فى الدع عن العس ، ثم حفظها فى إيصال الطعام والشراب الى القم ، ثم التوصؤ والامتناع ، ثم استقاد الدماير والدرام ، ثم نُس الثياب ، وفى الدفع عن العس أصاف الرمى ، وأصاف الصرب ، وأصاف الطس ، ثم الصرت الثقب بالعود وتحرك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ، وكيف

لا تكون كذلك ولها صرب الطسل والدّف وتحرّيك الصماقيّ، وتحريك غماري خروف المرامير، وما في ذلك من الإطلاقي والجليس؛ ولو لم يكن في اليد إلا إمساك العيان والزمام والحطام، لكان ذلك من أعظم الخطوط .

وقد أصطر بنا في الحكم من القفد والإشارة، ولولا أن مفرّنا في هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحبّ أن يعرفه إخواننا وحطّائونا، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أوّلَى بها منه، إذ كنت لم تارعي، ولم تغفّني من طريقي فصل ما بين القفد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللقط وبينهما؛ وإنما قصدنا بكلامنا إلى الإحراز عن فصل الكتب .

والكتاب هو الذي قيّد على الناس كُتِبَ عِلْمُ الدرس، وحساب الدواوس، مع حقّه نغله، وصدر حممه، صامت ما أسكتته، وبلغ إذا استنطقته، وس لك مُسامر لا يتدنّك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك . ولا يحوِّك إلى التحمل له، والتدبّر منه، ومن لك رائران شئت جعل رمارته عيّا، ووروده نحسا، وإن شئت لرمك لروم طلك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مُكتَفٍ نفسه ولا يحاج إلى ما عده صيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشاره اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك حاص الحاص، إذا كان أحص الحاص قد يدخل في باب العام، إلا أنه أدنى طفاقه، وليس يكتفي حاص الحاص باللعط عما آذاه، كما كتفاء عام العام، واللقاب إلى منه وبين أحص الحاص .

والكتاب هو الجليس الذي لا يُطْرِك، والصديق الذي لا يُفْرِك، والرفيق الذي لا يُمَلِّك، والمستمع الذي لا يَسْتَرِدك، والجار الذي لا يَسْتَبْطِلك، والمصاحب الذي لا يريد استعراج ما عندك باللق، ولا يعاملك بالكر، ولا يحدّك بالتعاق، ولا يمتثل لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إشتاك ، وشهد طباعك ، وسط لسانك ،
وحود بيباك ، ونعم أعاطك ، ويبح نفسك ، وعمر صدرك ، ومحك تعظيم العوام ،
وصداقة الملوك ، وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أهواء الرجال فى دهر ، مع السلامه
من الفرم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف باب المكتسب بالتعليم ، والحلوس من مدى من
أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم عرقا ، ومع السلامة من محالسه الغضاء ، ومقارنة
الأعياء .

والكتاب هو الذى يُطيمك الليل كطاعته بالهار ، ويُطيمك والسعر كطاعته فى الحصر ،
ولا يمتل يوم ، ولا تتره كلال السهر ، وهو المعلم الذى إن آتقرت لم يفرحك ، وإن
قطعت عنه الماده لم يقطع عك العائده ، وإن غزلت لم يدع طاعتك ، وإن هتت ربح
أعاديك لم سلب عليك ، ومتى كت منه متعلقا بسبب أو متغصما بأدى حل ، لم تصطرك
معه وحشه الوحده الى حليس السوء ، ولو لم يكن من فصله عليك ، وإحسانه اليك ،
ألا تمتع لك من الحلوس على ناك ، والطير الى ألساره لك ، مع ما فى ذلك من التعرض
للقوى الى تلم ، ومن فصول الطور . ومن عادة الخوص فيما لا يعينك ، ومن ملأسه
صغار الناس ، ومن حصور أعاطهم الساقطه ، ومما يهيم العاسده . وأحلاقهم الرديّة ،
وحالاتهم المدمومه . لكان فى ذلك السلامة ثم القيمه ، وإحراز الأصل مع أسفاده الفرع .
ولو لم يكن فى ذلك إلا أن تسطك عن تحف المني ، وعن آتياد الراحة ، وعن اللعب ،
وكل ما أشبه اللعب ، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسع العمة ، وأعظم المنّة ، وقد علما
أن أتمل ما يقطع به الفزع نهارهم ، وأصحاح المكاهات ساعات ليهم ، هو الشئ الذى
لا ترى له فيهم مع النيل أثرا فى أزديايدى فى تحربة ولا فى عقل ، ولا فى مروءه ولا فى صود
عمرض ، ولا فى إصلاح دين ، ولا فى تخير مال ، ولا فى تربية صنيعة ، ولا فى استناء بإسام .
قال أبو عبيده قال المهلب لنيه فى وصيته : يا بني لا تجفوا فى الأسواى إلا على
نزاد أو وراق .

وحدثني صديق لي قال : فرأت على شيخ شامي كتابا فيه مائت عطفان ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ، وسيمع الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولايت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدرى ، وقال ابن الجهم : اذا غشيتي العاص في غير وقت نوم وبس الشيء اليوم الفاصل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فاجد أعترازي للفوائد ، والأرجمية التي تعزى عند الطفر بعض الحاجة ، والذي يثنى قلبي من سرور الاستانة . وعز التثني ، أشد إيقاطا من سبى الحبر ، وهذه المهتم .

وقال ابن الجهم . اذا استجست الكتاب واستعدته ، ورحت منه الفائدة ، ورايت ذلك فيه ، فلو تزوي وأما ساعة بعد ساعة أضركم بقي من ورقه بحافة استماده ، وأنقطاع الماده من قبله ، وإن كان المصحف في عظم الختم ، وكان الورق كثير العدد ، لرايتكم كيف تم غشيتي ، وكل سرورى .

وذكر القتيبي كتابا لمص القدماء فقال . لولا طوله . وكثرة ورقه ، استجته ، قال ابن الجهم : لكنني ما رعتي فيه إلا الشيء الذي رعتك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا فأحلا من فائدة ، وما أحمي كم قرأت من صغار الكتب نخرحت منها كلها دخلت .

وقال القتيبي ذات يوم لابن الجهم . ألا تتعجب من فلان ! نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سثوية في يوم واحد وساعة واحدة ، فقد فرغت الحاراية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حر تحير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من سثوية على تعليم حارسه ، قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شيئا واحدا ، وأراك ترغم أنه قد فرغ من مقالة ، قال القتيبي : وكف طمت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب . قال لأنى سمعته يقول لأبيه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا ؟ قال : أنفقت كذا وكذا ، قال : أما رعتي في العلم أنى طمت أنى أنفق قليلا وأكثر كثيرا ، فاما ادصرت أنفق الكثير وليس في يدي منه إلا المواعيد فأنى لا أريد

العلم بنىء . والإنسان لا يعلم حتى تكثر سماعه ، ولا يُدّ من أن يصير كمنه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإماى عليه من ماله ألدّ عده من الإماى من مال عدوه . ومن لم تكن صفته التى تخرج فى الكُتب ألدّ عده من عشاى القيان ، والمستهترين الثنيان ، لم يبلغ فى العلم مئلا رصيا . وليس يتنع بإضافه حتى يؤثره اتخاذ الكتب إثار الأعرابى فرسه اللّبن على عياله ، وحتى يُؤمل فى العلم مالا يُؤمل الأعرابى فى فرسه .

وقال إبراهيم بن السّدى مرة . وِدِدت أتب الرادقه لم يكونوا حُرصاء على المعالاه بالورق النقى الأبيض ، ولا على تحمّر الحمر الأسود البرأى ، ولا على استعادة الخط والإرعاب لم يحط . فإنى لم أركورى كتبهم ورقا ، ولا كالحطوط التى فيها خطأ . وإنى صيرت مالا عظيما مع حبيّ لئال وصعى للعرم ، لأنّ سماء المسس بالإماى على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف المسس وعلى السلامه من سُكر الآفات . وقلت لإبراهيم . إن إساى الرادقة على الكتب كإساى الصبارى على البيج ، ولو كانت كتب الرادقة كُتبت حِكْمه ، وكتبت فلسفه ، وكانت مقابيس تبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعزف الساس أبواب الصاعات ، أو سئل التكسب والتحارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الساس من الفطن والأدب ، أو كان ذلك لا يُعزب من عى ، ولا يباعد من مأثم ، لكانوا ممن قد يحوز أن يُفلق بهم تعظيم البيان والرعة فى التبيين ، ولكمهم ذهبوا فيها مذهب الديابة على طريق تعظيم الملة ، فأتما إنفاقهم فى ذلك كإساى المجوس على بيت الدار ، وإساى الصبارى على صُنّان الذهب ، أو كإففاق الهند على سدنة البُدّ ، ولو كانوا العلم أرادوا لكان العلم لهم معرضا ، وكتبت الحكمة لهم مَدولة ، والطرق إليها سهلة معروفة ، فما نأثم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياتهم كما يُزخرف الصبارى بيوت عبادتهم ، ولو كان هذا المعنى مُستحسا عند المسلمين ، وكانوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وإعشة على الخشوع ، لَبَلّوا فى ذلك مَقْصودهم ما لا يبلغه الصارى ضاية الجُهد.

وقد رأيتمْ مسجد دمشق حين استعاز هذه السبيل ملك من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرومه ، وأن الروم لا تسحو أنفسهم به ؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّه بالحلال ، وعطاه بالكرايس^(١) ، وطبّح سلاسل القاديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤل والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصبيح محاب لسة الاسلام ، وأن ذلك الحُسن الرائع والمحاسن اللّفاق مذهب للقلوب ، مشعلة دون الحشوع ، وأن البال لا يكون مُعْتَمدا وهماك شيء يُعزّزه ويُعترص عليه .

والذى يدّنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا جبر طريف ، ولا صعة أدب ، ولا حكمة عصرية ولا فلسفية ، ولا مشكلة كلامية ، ولا تعريف صياغة ، ولا استعراض آله ، ولا تعليم ملاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مُقارعة عيدين ، ولا مُناصلة عن نيحة ، وحله ذكر البور والطامة ، وسائح الشياطين ، وتسافد العماريت ، وذكر الصّديد والتهويل صمود السنخ ، والاحار عن شقلون وعن المهامة والمهامة ، وهذري وعي ودعوى وحرامة وعصف وتكذّب ، لا نرى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثا مؤثقا ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأي كتاب أجهل ، وأي تدبير أسد من كتاب يُوجب على الناس الطاعة والتّويع بالديانة على جهه الاستنصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يقيمون إلّا دينا أو دُنيا .

فأما الدنيا فاقامة سُوقها وإحصاء فعيها . وأما الدين فأقل ما يُطعم في استجابة العامة واسمالة الخاصة ، أن يصوّر في صورة مُغلطة ، ويؤمّه تمويه الديار البهرج والدرهم الزائف الذى يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل . فليس اهاتهم عليها من حيث ظنت . وكل دين يكون أظهر اختلا وأكثر مسادا يحتاج من الرقيق والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كراس . قوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الحسن ، فارس مزوب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعاً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتمالهم في إظهار تعظيمه .

وقال معهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال لي : اكتبُ كل ما تسمع ، فإن أحسن ما تسمع حيرس مكانه أبيص . وقال الخليل بن أحمد : تكثر من العلم ليعرف ، وتقل منه ليحفظ . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب ، والقليل وحده للصدر ، وأشد قور ابن يسير .

أما لو أعي كل ما أسمع * وأحفظ من ذلك ما أسمع
ولم أستخدم غير ما قد جمعتُ لقل هو العالم المقتنع
ولكن نفسي إلى كل مو * ع من العلم تنسعه تفرع
أشاهد ما لي في تحلي * وعلمي في البت مستودع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جميعه أسمع
ومن بك في عليه هكذا * بكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً وإعياً * بجمعك للمعلم لا يتفع

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها ، إن الكتب لا تُنقى الموق ، ولا تُحول الأحمق عاقلاً ، ولا الوليد ديكاً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قول فالكتب تشهد وتثبث وترجع وتشفى ، ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه ، فإن ذلك إنما يصور له لشيء اعتراه . فمن كان عاقلاً ديكاً حافظاً فليقصده إلى شينين أو ثلاثة أشياء : فلا يترع عن الدرهم والمطارحه ، ولا يدع أن يتز على سمه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بحوائص ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويتحوضون فيه ، ومن كان مع الدرهم لا يحفظ شيئاً إلا نبى أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أهد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت بابه فرأيت به يطر
في دفتر حليته فارع اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ما قد اشتغلوا على سوءه ، وهم جلوس
على خُميرة لم وعدهم طُيور ، قال : قد مرنا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فإذا فتى حالى
في وسط الدار وإذا أصحابه حوله ، وإذا هم يصبُ الحى ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ،
فقال الذى كان سعى بهم : السوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عثرتم بها ، قال قلت :
واقه لا أكشف فتى أصحابه شيوع وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء .
قال وأنشد رجل يونس النحوى قوله :

أُسْتَوْدَعُ الْعِلْمُ قِرْطَاسًا فَصَبَّعَهُ • فَيُنْسُ مُسْتَوْدَعُ الْعِلْمِ الْقِرَاطِيَّسُ

قال فقال يونس : قاتله الله ، ما أشد صابته والعلم وأحسن صيافته له ! إن علمك من
روحك ، ومالك من بدك ، فصعبه منك بمكان الروح ، وصعب مالك بمكان البدن .

وقيل لابن دأحه وأخرج كتاب أبي الشَّعْمَقِ وإذا هو في حُلود كوفية ودقتين
طائفتين ومخطَّ عجب ، فقيل له : لقد صيغ درهمه من نحو شعرا أبي الشَّعْمَقِ ، قال :
لا جرم والله إن العلم يُعْطِيكُمْ على حساب ما تُعْطُونَهُ ، ولو استطعت أن أودعه سُويدهاء
قلبي وأجعلهُ مخطوطاً على ناظرى لعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت المصاطين بين يديه والرجال مُثَوِّلاً
كأن على رؤوسهم الطير ، ورأيت فرشته ويزته ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو
في بيت كتبه وحواليه الأنساعاط والرووف والقماطر والدفاتر والمساطر والمخابر ، وأرأيت به
قطَّ الحُمِّ ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة
المحبة ، ومع الفحامة الخلاوة ، ومع السُودَد الحِكْمَة .

وقال ابن داحه : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يحالس الناس ، ونزل مقبره من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلّا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحده ، فقبل له : فقد جاء في الوحده ما قد جاء ، قال . ما أمدها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وصروب من الحطوط بعد ذلك تدلّ على قدر متّعه الحطّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَلُكُمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال الله عز وجل . ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال . ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِتَيْبَةٍ ﴾ وقال . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ طَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ أَوْفَرًا كَانَتْ كَفَى يَفْعِلُكَ الْيَوْمَ طَلَيْتَ حَسِبًا ﴾ .

الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الحطّ في الأرض عند التمر وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الحطّ ومقدار الحاجة إليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال .

« إن على من شكر المعرفة بما وى الناس ومراشدهم ومصارفهم ومافهم ، أن يحتمل ثقل مؤنتهم في معرفتهم ، وأن يتوسّى إرشادهم وأن جهلوا فصل ما ينسدى اليهم . ولئ يصابن العلم بمنثل بدله ، ولئ تُستبقي العمة فيه بمنثل شره . على أن قراءة الكتب ألح في إرشادهم من تلاحقهم ، إذ كان مع التلاق يشدّ التصع ، ويكثر انطالم ، وتعميط العصىية ، وتقوى الحجة ، وبعد المواجهة والمقابلة يشتدّ حبّ العلبة ، وشهوة الماهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأمة من الخصوع ، وعن جميع ذلك تحدث الصعائن ويظهر التائن ، فاذا كانت القلوب على هذه الصفة ومن هذه الهيئة ، آمنت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ، وليست للكتب علة تمنع من ترك العبة ، واصابة الحجة ، لأن الموحّد مدرسا والمنفرد

بعثهم معايبها ، لا يُبَاهِي نفسه ، ولا يُعَالُ عقله ، وقد عدم من له يابها ، ومن أحله يعال ، والكتاب قد يفصل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه مأمور :

مها ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان على تعاوت ما بين الأعصار ، وتعاقد ما بين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل وإصع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب ، ومُساكلة اللسان وهدايته لا تحوزان محلّس صاحبه ، وسلع صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كُنْه ، ويعنى العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لها الأواثل في كتبها ، وحلّت من عجيب حِكْمَتِها ، وفوت من أنواع سِيرِها ، حتى شاهدنا بها ما عاب عا ، ونصحا بها كل مُستفلق كان عليها ، بجمعها الى قليلا كثيرهم ، وأدركا ما لم يكن تُدرّكه إلا بهم ، لقد حثّ حقلنا من الحكمة ، وصعف سببا الى المعرفة ، ولو أُلْجِنا الى قدر قوتنا ، وسلع خواطريا ، ومسهي تخريقتنا لما تُدرّكه حواسنا وتشاهده نفوسنا ، لقد قلت المعرفة ، وقصرت الهمّة ، وانقصت المنة ، وطاد الرأي عقيا ، والخطا فاسدا ، ولكلّ الخد ، وتلد العقل . وأكثر من كتبهم هعا ، وأشرف منها خطرا ، وأحسن موقعا ، كُتِبَ الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإجبار عن كل عبرة ، وتعريف كلّ سيئة وحسنه . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف ، فقد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ اَلَمْ دَلِكْ اَلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا قَرَأْتَ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . ويسمى أن يكون شيئا لم بعدا كسبيل من كان قبلنا . على ما قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أنّ من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا ، مما يخطر العالم بإظهار ما عنده ، وما يمنع الباصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نعيم التقيّة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد اليّ والجھل ، وقامت سوى البيان والعلم . والإنسان ليس يجد في كلّ حال إنسانا

يُدرِّسه ومُقوماً بِنَقْمه، والصر على إلهام الرِّبِّ شديدٌ، وصرِف العس عن مُغالاة العالم أشدَّ منه هما .

والمتعلم يجد في كلِّ مكان الكتاب عَيْداً، وبما يحتاج إليه قائماً . وما أكثر من حوط في التعلُّم أيامَ حُمُول دكره وأيامِ حداثَةِ سِنِّه . ولولا جِياذ الكتب وحَسَنُها ، ومُتَنُّها ومُخَصَّرُها ، ثم تَحَزَّكَتْ هِمَمُ هؤلاء لَطَلَب العلم ، ومارعت إلى حبِّ الأدب ، وأعت من حال الجهل وأن تكون في عِمار الحشو لَنَحَل على هؤلاء من الصرر والمَصْرَه والجهل وسوء الحال ما عسى ألاَّ يَمِكن الإخار عن مِقداره إلا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تَعَفَّهوا قَلِيلَ أَنْ تُسَوِّدُوا . وقد يَحِد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويحالس العقهاء خمسين سَنَةً ، ولا يعد قبيها ولا يجعل قاصياً ، وما هو إلا أن يَطْرُق في كتب أبي حنيفة وأشاه أئى حبيبة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تَمُزَّباه قَطْعُن أَنَّهُ ماب بعض العال ، والحرى ألاَّ يَمُزَّ عليه من الأيام إلاَّ اليسير حتى يصيرَ حاكماً على مِصير من الأمصار ، أو تَلِدُهُ من البُلدان .

ويبغى لمن كتب كتاباً ألاَّ يكتبه إلا على أن الس كلُّهم له أعداء ، وكلُّهم عالم بالأمور ، وكلُّهم مُتَفَرِّع له ، ثم لا رضى بذلك حتى يَدَّع كتابه يعب ويَحْتَمِر ، ولا يَتَّقى بالرأى المطر ، وإن لَاسْتِئْءاء الكتاب فِتْنَةً وَغُماً ، فإذا سَكَّت الطبعة وهدأت الحركة ، وتراحت الأَحْلاط ، وعادت العس وافرّة ، أعاد الطرفيه وتوقف عند فُصوله توقف من يكون وَزُن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ، ويتهمهم معنى قول الشاعر :

إِن الْحَدِيثَ تَغَرَّ الْقَوْمَ حَلَوْتُهُ . . . حَتَّى يَكُونَ لِمِمْ عِيٍّ وَإِثْأَرُ

ويقف عند قولهم في المثل : "كلُّ مُخِر في الحلاء يُسَرِّ" ، فيحاف أن يعنريه ما يعنرى من أجري فرسه وحده ، أو حلا قلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . ويعلم أن صاحبَ القلم يعنريه ما يعنرى المؤدّب عد صريه وعِقابُه ؛ فما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط يَضْرَبُ مائة، لأنه ابتدأ الصرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما صرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في عصبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإثثار، وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يتدنَّى الكتاب وهو يُريد مقدار سطرَيْن فيكتب عشرة. والحفظ مع الإقلال أمعكس، وهو مع الإثثار أسد.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَاقِلَ إِنَّمَا لَمْ يَكُنْ بِالْمَشْعُوكِ كَثِيرًا مَا يُتْرَكُ مِنْ وَلَدِهِ وَيَتَّخِذُ فِي عَيْبِهِ مِمَّا هُوَ الْقَبِيحُ فِي عَيْنِ عَرِهِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ لَفْظَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ نِسَابًا مِنْ أَبِيهِ، وَحَرَكَتُهُ أَمْسٌ بِهِ رَجَاءٌ مِنْ وَلَدِهِ، لِأَنَّ حَرَكَتَهُ شَيْءٌ أَحَدُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَبَدَائِهِ، وَمِنْ عَيْنِ جَوْهَرِهِ فَصَلَتْ، وَمِنْ نَفْسِهِ كَانَتْ، وَأَمَّا الْوَلَدُ كَالْمُحْتَضَةِ يَتَّحِطُّهَا، وَكَالْثَامَةِ يَقْدِفُهَا، وَلَا سَوَاءٌ إِحْرَاقُكَ مِنْ نَفْسِكَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ مَسْكٌ، وَظَهَارُكَ حَرَكَةً لَمْ تَكُنْ حَتَّى كَانَتْ مَسْكٌ، وَلَدَاكَ نَحِيدٌ قَبْلَ الرِّجْلِ بِشِعْرِهِ وَقَبْلَهُ سَكَاةً وَكَيْدِهِ، فَوْقَ قَبْلَتِهِ مَجْمَعٌ بِسَمَتِهِ.

وَلَيْسَ الْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُ إِلَى إِفْهَامِ مَعَانِيهِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ السَّامِعُ مِمَّا فِيهِ إِلَى الرُّوْيَةِ فِيهِ. وَيَحْتَاجُ مِنَ اللَّفْظِ إِلَى مَقْدَارٍ يَرْتَمِعُ بِهِ عَنْ الْعَاطِ السَّيْلَةِ وَالْحَشْوِ، وَيَحْطُهُ عَنْ حَرِيبِ الْأَعْرَابِ، وَوَحْشِيَةِ الْكَلَامِ. وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُهْدِّه حَدًّا وَيُقْفَحَهُ وَيَصْفِيَهُ وَيَرْزُقَهُ حَتَّى لَا يَطْفَأَ إِلَّا بِاللَّتِّ وَالسَّرِّ، وَاللَّفْظِ الَّذِي قَدْ حَذَبَ نُصُولُهُ وَتَعَرَّقَ زَوَائِدُهُ، حَتَّى عَادَ حَالِصًا لَا شَوْبَ فِيهِ، فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يُفْهَمْ عَنْهُ إِلَّا بَأْسٌ يَحْتَدُّ لِمِ إِفْهَامِهِ وَتَكَرَّرًا، لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَدْ تَعَوَّدُوا الْمَسْوُوطَ مِنَ الْكَلَامِ، وَصَارَتْ أَفْهَامُهُمْ لَا تَزِيدُ عَلَى طَاعَاتِهِمْ إِلَّا بَأْسٌ تُعْطَسُ عَلَيْهَا وَتُؤَخَّرُ بِهَا، إِلَّا تَرَى أَنَّ كَلَامَ الْمُنْطَلِقِ الَّذِي قَدْ وُضِعَ بِهِدَا الْأَمِّ لَوْ قَرَأْتَهُ عَلَى جَمِيعِ حَطَاءِ الْأَنْصَارِ وَلَفَاءِ الْأَعْرَابِ لَمَا فُهِمُوا أَكْثَرَهُ، وَفِي كَلَامِ إِقْلِيدِسَ، كَلَامٌ يَدُورُ وَهُوَ عَرَبِيٌّ وَقَدْ صُنِيَ، وَلَوْ سَمِعَهُ بَعْضُ الْخَطْبَاءِ لَمَا فُهِمَهُ، إِلَّا بَأْسٌ يُفْهَمُهُ مَنْ يَرِيدُ تَحْلِيلَهُ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ جِهَةَ الْأَمْرِ، وَتَعَوَّدَ اللَّعْظَ الْمُنْطَلِقَ الَّذِي اسْتُخْرِجَ مِنْ جَمِيعِ الْكَلَامِ.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لصحابي العدي : ما الإيجاز ؟ قال أن تحبس فلا تُعطى ، وتقول فلا تُعطى ، قال معاوية : أو كذاك تقول . قال صحابى أقنني يا أمير المؤمنين ، لا تُعطى ولا تُعطى . ولو أن سائلا سألك عن الإيجاز قلت : لا تُعطى ولا تُعطى وبحضرتك خالد بن صموان لما عرّف بالديهة وعد أول وهلة أنت قولك لا تُعطى مُصنّن بالقول ، وقولك لا تُعطى مضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتصوه ورووه ، ولو أن قائلا قال لعصا : ما الإيجاز ؟ لقلت أنه كان سيقول الاحتصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الساب من الكلام من أتى عليه فيما تسع بطن طومار^(١) فقد أوجر ، وكذلك الإطالة . وإما ينبغي أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا برّدد وهو يُكتفى في الإيهام بشرطه ، فما فصل عن المقدار فهو الخطأ .

وقلت لأبي الحسن الأحفش . أنت أعلم الناس بالحو ، فلم لا تحمل كتبك مضمومة كأها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تتقدم مص العوبص وتؤخر بعض المضموم ؟ قال : أنا رجل لم أصع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوصع الذى تدعوى إليه قلت حاشيتهم إلى فيه ، وأما عابى المألة ، فإذا أصع بعضها هذا الوصع المضموم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى القماس فهم ما لم يفهموا ، وأنا قد كسبت في هذا التدبير ادكت إلى التكبس ذهبت ، ولكن ما بال أراهم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثل في موافقته وحسن نظره وشدة عيافته ، فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أن يوسف السمعاني كتب هذه الشروط أيام جلس سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدم إليه رُحُلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها مؤقرة ، لكان ذلك خطأ ولغوا ، ولو كتب في دهرها شروط دهر سلمان لكان ذلك عرارة ونقصا ،

وجَهْلًا بالسِّيَاسة وما يَصْلُحُ لكلِّ دَهرٍ ، ووَحَدنا السَّاسَ اِدا خَطَّوْا فِى صُنْعِ بَينِ العِشائرِ
أَطالوا ، واِدا أَتَّسَدوا الشَّعْرَ بَينِ السَّباطِينِ فِى مَدحِ المُلوكِ أَطالوا ، فَلإِطالَةَ مَوْضِعٍ وَلَيسَ
دَلالَةٌ مَحْطَلٌ ، ولِلإِقلالِ مَوْضِعٌ وَلَيسَ دَلالَةٌ مِنْ عَجْرٍ .

ولو لا آتى أَتَكلَ عَلى أَنتَ لا تَمَلُّ نَابِ العولِ فِى البَعرِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى العَيلِ ، ووِى الدَرَّةِ
حَتّى نَحْرُجَ اِلى النُّوصَةِ ، ووِى العَقْرِبِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى الحَيَّةِ ، ووِى الرُّمْلِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى
المِراءِ ، ووِى الدِّمَّانِ والنَّحْلِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى العِزبانِ والعِقدانِ ، ووِى الكَلَفِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى
الدِّيكِ ، ووِى الذَّنَبِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى الصُّعْ ، ووِى الظُّلْفِ حَتّى نَحْرُجَ اِلى الحافِرِ ، ووِى الحافِرِ
حَتّى نَحْرُجَ اِلى الحُفِّ ، ووِى الحُفِّ حَتّى نَحْرُجَ اِلى البُرْثِ ، ووِى البُرْثِ حَتّى نَحْرُجَ
اِلى المِطْلِ ، وكَدَلِكِ القَوْلِ فِى الطَّيْرِ وعائِدَةِ الأَصْوافِ ، لَرَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكِ يُوجِبُ الدِّلالَ ،
وَيُغَيِّبُ الصَّغَرَةَ الماسِمةَ مِنَ البُلُوعِ فِى الصَّهْمِ ، وتَعْرِفُ ما يُجْتَاجُ مِمَّا اِلى التَّعْرِفِ ، مَرَأَيْتُ أَنَّ
جُمْلَةَ الكِتابِ وَإِنْ كَثُرَ عَدَدُ ورَقِهِ ، أَنَّ ذَلِكِ لَيسَ بِما تَمَلُّ مِنْ كَثَرَةِ قِراءَتِهِ أَمَداً وتَعْتَدُ عَلى
بِهِ بِالإِطالَةِ ، لِأَنَّهُ وَإِنْ كانَ نَظَماً واحِداً فَانَّهُ كُتِبَ كَثيرُهُ . وَكُلُّ مِصْحَفٍ مِناها أَمَ عَلى
جَدَّةٍ . فَإِنْ ارادَ قِراءَةَ الحَمِيعِ لَمْ يَطُلْ عَلىهِ النِّابِ الأوَّلُ حَتّى يَهْجُمَ عَلى السَّانِى ، ولا السَّانِى
حَتّى يَهْجُمَ عَلى الثَّالثِ ، هُوَ أَمَداً مُستَفيِدٌ ومُسْتَطَرِفٌ ، وَسِمْيَهُ بِكَوْنِهِ حَمَما لِعَعضِ ،
ولا يَزَالُ نِشاطُهُ رانِداً ، ومَتى حَرَحَ مِى آى القِراَنِ صارَ اِلى أَثَرٍ ، ومَتى نَحْرَجَ مِى أَثَرٍ
صارَ اِلى حَرٍ ، ثُمَّ نَحْرُجُ مِى الحَرِّ اِلى شَعْرٍ ، وَمِى الشَّعْرِ اِلى بَوادِرٍ . وَمِى البَوادِرِ اِلى حِجَمٍ
عَقَلِيَّةٍ ومَقايِيسِ سِدادٍ ، ثُمَّ لا يَبْرُكُ هَذا النِّابُ لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ أَثَقَلُ ، والمَلالُ اِليه أَسْرَعُ ،
حَتّى يُقْصَى بِهِ اِلى مَرَحٍ ومُكاهِمَةٍ وِلى مُخَفِّ وتُرافِهِ . وَلَستُ أَراهُ بِمُحَقِّقا إِذْ كَنتُ إِتِما
اسْتَعْمَلْتُ سِيرةَ الحِكماءِ ومَأدِبَةَ العُلَماءِ ، وَرَأَيْنا اِلهَ تَبارَكَ وتعالى إِذا حاطَبَ العربَ
والأَعرابَ أَمْرَحَ الكَلامِ نَحْرُجُ الإِشارَةَ والوَحىَ والحَسَنَ ، واِذا حاطَبَ بى إِسرائِيلَ
أَوْحَى عَنْهُمْ حَمَلَهُ مَبسوطاً ورادٍ فِى الكَلِمِ . فَاصْوبِ العَمَلَ أَتِباعَ آثارِ العُلَماءِ والإِحتِذاءِ

على مثال القدماء ، والأحد بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتف
في كلمة له :

أَقْلْتُ أَهْرُبُ لَا أَلُو مُعَاذَهُ • في الأرض منهم فلم يُخَصِّنِي أَهْرَبُ
يَقْصُرُ أَوْسٍ • وَالَّتِ حَادِفُهُ • إلى التواويس والمأخور والحرب
فَأَيُّ مُؤَسِّلٍ مِمَّا اعْتَصَمْتُ بِهِ • مِنْ وَرَائِي حَيْثَا مِنْهُمْ الطَّلْتُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَائِي عَيْرٌ مُعْجِرِهِمْ • قَوَاتًا وَلَا هَرَبًا قَسَرْتُ أَخِيحُ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا • حَادِلًا • حَارًّا لِيَوِّه لَا شَكْوَى وَلَا شَفْتُ
قَرَدًا تُحَدِّثُنِي الْمَوْتُ وَتَطْلُقُ لِي • عَنَ عِلْمٍ مَا ظَلَمْتُ عَنْهُمْ الْكُتُبُ
هُمْ مُؤَسُّوْنَ وَالْأَلْفُ عَيْتُ يَوْمٍ • فَلَيْسَ لِي فِي أَيْدِيهِمْ أَرْبُ
لِلَّهِ مِنْ حُلَسَاءٍ لَا حَلِيْسُهُمْ • وَلَا عَيْرُهُمْوُ لِلشَّوْرِ مُرْتَقُ
لَا مَادِرَاتِ الْأَدَى يَحْتَسِي رَوِيْعُهُمْ • وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَطْلَقُ دَرِيْ
أَقْبُوا لَنَا حِكْمًا تَبَقَى مَا فِيهَا • أُخْرَى الْيَلَالِي عَلَى الْأَنَامِ وَأَنْتَعَبُوا
فَأَيُّ أَدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدَتْ يَدِي • يَوْمًا إِلَيْهِ وَنَادِي مِنْ بَدَى كَثُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْآثَارِ رَمَاهَا • إِلَى السَّجَى ثِقَاتٍ مَسْرَّةٌ مُحُ
أَوْشِنْتُ مِنْ عَرَبٍ عِلْمًا مَاتُوا • فِي الْخَاهِلِيَةِ اسْتَسَى بِهِ الْعَرَبُ
أَوْشِنْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْلَاجِ مِنْ عَجَمٍ • تُبْنِي وَتُخْرِجُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ • وَقَدْ صَحَّتْ دُونَهُ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقْبُ
يَا قَانَلَا قَصَّرْتُ فِي الْعِلْمِ مِثْلَهُ • أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ مِمَّا قَالَ يَنْتَسِبُ
إِنِّي الْأَوَائِلُ قَدْ مَاتُوا • حَلَّاقَ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَا مَاتَ مِمَّا امْرُؤٌ أَبَى لَهَا أَدَامًا • يَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو جبر وهو يصِفُ صحيفَةَ كُتِبَ لَه فيها بَستَن وسَقا :
 راحت بَستَن وسَقا في حَقِيقَتِهَا • ما حَمَلَتْ حِمْلَهَا الأَدنى ولا السَّدَدَا
 ولا رَأَيْتُ قَلوصًا قَتَلَهَا حَمَلَتْ • سِتَن وسَقا ولا جَابَتْ بِهَا لَدَا
 وقال الزاجر :

تَعْلَمَنَّ أَنَّ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ • تَنَقَّى وَيُفِي حَدِيثُ النُّهْرِ العَتَمَ

يقول كُتَّامُ الدِّي تَكْتُمُهُ عَلَى يَتَّى فَتَأْخُذِي بِهِ وَتَذْهَبُ عَنِّي فَيَا يَذْهَبُ • وَمَا يَذَلُّ عَلَى
 نَعَمِ الكِتَابِ أَنَّهُ لَوْلَا الكِتَابُ لَمْ يَحْزَنْ أَنْ يَلْمَ أَهْلَ الرِّقَّةِ وَالْمَوْصِلِ وَتَدَادَ وَاسِطَ مَا كَانَ
 بِالْبَصْرَةِ وَحَدَّثَ مَالِكُوفَةَ فِي بَيَاضِ يَوْمٍ ، فَكَوْنُ الحَادِثَةِ مَالِكُوفَةَ عُدُوَّةَ يَعْلَمُهَا أَهْلُ البَصْرَةِ
 قُلُوبَ الْمَسَاءِ •

وذلك مشهور في الحَمَامِ الهُدَى : اَنَا حَمَلْتُ رُؤَا قَالَ اللَّهُ حَلَّ وَعَزَّ ، وَدَكَرَ سُلَيْمَانَ
 وَمُلْكُهُ الدِّي لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِثْلَهُ ، فَقَالَ : (وَتَمَقَّدَ الطَّرَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْمُتَنَهَّدَ) إِلَى
 قَوْلِهِ : (أَوْ لَا دَجَمَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) • فَلَمْ يَلَسَّ أَنْ قَالَ الْمُتَنَهَّدُ : (وَجِئْتُكَ مِنْ
 سَيِّئٍ يَسِيًّا يَقِينٍ إِنِّي وَحَدَّثْتُ أَمْرًا تَبْلُكُهُمْ وَأَوْثَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) •
 قَالَ سُلَيْمَانُ : (أَنَهْفَ يَكُنَّى هَذَا فَالْفَقْهِ إِلَيْهِمْ) وَقَدْ كَانَ عِده مِنْ يُتْلَعُ الرِّسَالَةُ عَلَى تَمَامِهَا مِنْ
 عِفْرَتٍ وَمِنْ عَصَمَ مِنْ عِده جُلُمَ مِنَ الكِتَابِ فَرَأَى أَنَّ الكِتَابَ أَهْمَى وَأَسْنَلُ وَأَكْرَمَ وَأَنْعَمَ
 مِنَ الرِّسَالَةِ عَنْ ظَهْرِ لِسَانٍ وَإِنْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ مَا فِي الكِتَابِ • وَقَالَتْ مَلِكَةُ سَأَ : (يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِي إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ) هَذَا مَا يَذَلُّ عَلَى قَدَرِ اخْتِيَارِ الكُتُبِ وَقَدْ يَرِيدُ بَعْضُ
 الْحِلَّةِ الْكِبَارِ وَمَعْصُ الأَدْمَاءِ وَالْحِكَاةِ أَنْ يَدْعُو مَعْصَ مَنْ يَجْرَى مَجْرَاهُ فِي سُلْطَانٍ أَوْ أَدَبٍ إِلَى
 مَأْدَبَةٍ أَوْ نِدَامٍ أَوْ خُرُوجٍ إِلَى مُتَنَزَّهِ أَوْ مَسْ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ ، فَلَوْ شَاءَ أَنْ يُتْلِعَهُ الرِّسُولُ إِرَادَتَهُ
 وَمَعْمَا لَا أَصَابَ مَنْ يَحْسَنُ الأَدَاءَ وَيَصْنُقُ فِي الإِبْلَاعِ فَيَرَى أَنَّ الكِتَابَ فِي ذَلِكَ أَسْرَى
 وَأَنَّهُ وَأَبْلَغُ وَلَوْ شَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَّا يَكْتُبَ الكُتُبَ إِلَى كَسْرَى وَيَقْصُرَ وَالتَّجَاشَى

والمُقَوِّسَ وإلى سِى الْجَلَدَى وإلى السَّاحِلَةَ من جَمِير وإلى هَوْدَه بن على وإلى الملوك العظام
والساده الشحاء لعمل ولوحْد المُلْع المعصوم من الخطأ والتسديل، ولكنه عليه السلام لم
أن الكتاب أشبه تلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأطلع في تعظيم ما حواه الكتاب،
ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الاليسه للمرسلين ولم يودعها الكتب لعمل ولكنه
تعالى وعزّ علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبئ، وقد يكتب بعض من له مرتبة
في سلطان أو ديانة الى بعض من يشاكله أو يتخفى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يتجزمه
ويتحتمه، وربما لم رضى بذلك حتى يسونه ويعظمه .

قال الله حل وعز : (أَمْ لَمْ يَسْأَلَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِرَاهِيمَ الْاَلِدَى وَفِي) قد كرم صُحُف
موسى الموحوده و صُحُف إراهم النائمة الممدومة ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة
في الكتب . قالوا . وكانت فلامسة اليوماتية تَوَرَّث البات العين وتَوَرَّث البين الدين ،
وكانت تصل المحز بالكفاية والمؤومة بالكلفة وكانت تقول : لا تَوَرَّثوا الابن من المال
إلا ما يكون عَولاً له على طلب المال، وأعدوه بحلاوه العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة لبصير
جمع العلم أعلت عليه من جمع المال، وليرى أنه العده والعناد، وأنه أكرم مُستفاد، وكانوا
يعولون : لا تَوَرَّثوا الاكس من المال إلا ما يَسُد الخلة، ويكون له عولاً على درك الفصول
إن كان لا بد من الفصول، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفصول في فساد، وإن كان
صالحاً كان فيها أورتخوه من العلم، و تقيم له من الكفاية ما يَكفيه الحال، فإن الحال أفضل
من المال، ولأن المال لم يزل تابها للحال، وقد لا يَنفَع الحال المال، وصاحب الفصول
يعرض فساد على شها لصاعة مع تمام الحكمة واجتماع القوة، مما طمَّح بها مع عِزَّة
الحداثة وسوء الاعتار وقلة التجربة ! وكانوا يقولون : حير ميراث ما كسبك الأركان
الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة وعمل لك حلالة المحنة، وبقى لك الأحدثوة الحسة،
وأعطاك عاجل الخير وأجله، وطاهره وباطنه، وليس يجمع ذلك إلا أكرام الكتب الفيسة
المشتملة على يسابيع العلم، والجامعة لكموز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق ؛

ومجيج الذين الذي يصنعه وعسد وصوح برهانه تسكن العوس وتلج الصدور، ويعود القلب معمورا، والعرايا، والأصل مسيحا، وهذه الكتب هي التي تريد في العقل وتشدّه، وتداويه وتصلحه، وتهذه وتنفي الحث عنه، وتفيدك العلم ونصايق ينسك وبين الخطة، وسودك الأحد بالقة وتلج الحال وتكيب المال. ووراة الكتب الشريفة والأواب الربعة منبه للورث وكردعد الوارث، إلا أنه كبر لا تحب فيه الركاه ولا حق السلطان، وإذا كابت الكور حامدة سقمها ما أحد منها كان ذلك الكرم دائما يذهب ما أحد منه، ولا يرالها المؤرث مدكورا في الحكاء ومؤها باسمه في الأسماء، وإماما متسوما، وعلمه متصوما، ولا يرال الوارث محفوطا، ومن أحله محوما مومنا، ولا ترال تلك الخطة نامية ما كانت تلك العوائد قائمه ولي ترال فوائدها موحوده ما كابت الدار دار حاجه، ولي يرال من سطيمها في الهلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: متى وزنته كئانا وأودعته علما فقد وزنته ما قبل ولا يستعمل، وقد وزنته الضيمه التي لا تحتاج الى إثارة، ولا الى سقى، ولا الى إسجال بإعبار، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكار ولا الى أن يثار، ولبس عليها غش ولا للسلطان عليها خرج، وسواء أفدته علما أو وزنته آلة علم، وسواء دفعك اليه الكفاية أو ما يحلج الكفاية، وأما تحرى الأمور وتعرف الأعمال على قدر الإمكان، من لم يقدر إلا على دفع السب لم يحب عليه إحصار المسبب، فكتب الآماء تحبب للأحياء، ونحيا لذكر الموتى.

وقالوا: متى كان الأسحاما نارا وكانت موارثه كئنا نارة، وآداما جامعها، كان الولد أحدر أن رى التعلم خطأ وأحدر أن يسرع التعلم إليه ويرى تركه خطأ، وأحدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أنتج له، ومنهاج قد وطئ له، وأحدر أن ينرى اليه عرق من تحله وسقى من عرسه، وأحدر أن يحمل بدل الطلب للكتب النظر والكتب، فلا يأتى عليه من الأيام مقدار الشغل بمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وإما تفيد الكفاية من تمت آدابه، وتوافت اليه أسبابه، فأما

الحدّث القَرير، والمَقْصُوص العَقير. نَحِير موارِيثه اليَكْمَاية الى أن يَلْعَ التَّام، وبِكَلِّ اللَّطَلَب. نَحِير مِيرَاث وُورَث كَتَبْ وعِلْم، وَحِير المَوَرَّثِينَ من أَوْرَث مَا يَجْمَع وَلَا يُفَرِّق، وَيُصَرِّ وَلَا يُعْمِي، وَيُعْطِي وَلَا يَأْخُذ، وَيَحْجُود مَالَكَلِّ دُونَ البَعْص، وَيَدْعُ لَكَ الْكَزْر الَّذِي لَيْسَ لِلسُّلْطَان فِيهِ حَقٌّ، وَالرَّكَارَ الَّذِي لَيْسَ لِلْمُقْرَأ فِيهِ نَصِيبٌ، وَالنَّعْمَةَ الَّتِي لَيْسَ لِلْحَاسِدِ فِيهَا حِيلَةٌ، وَلَا لِلصَّوْص فِيهَا رَعَّةٌ، وَلَيْسَ لِلْمُخْصَم عَلَيْكَ فِيهِ حِجَّةٌ، وَلَا عَلَى الْجَارِ فِيهِ مَوْنَةٌ.

وَأَقَامَ عِمْرَاطُ فَإِنَّهُ قَالَ - يَبْنِي أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ لَا يَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ كِتَابٍ عِلْمٌ وَصَعَهُ أَحَدٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ ثَمَانِيَةَ أَوْحَةٍ، مِمَّا اطْمَعُ وَالْمَنْفَعَةُ، وَالنَّسَبَةُ وَالصَّحَّةُ، وَالصَّدْفُ وَالتَّالِيفُ، وَالْإِسَادُ وَالتَّدْبِيرُ، فَأَقُولُهَا أَنْ يَكُونَ لِمُصَاحِبِهِ هِمَّةٌ، وَأَنْ يَكُونَ فِيهَا وَصْعٌ مَنَمَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ يَسَرٌّ يَسِبُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَكُونَ مَحْبِبًا، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى صَدْفٍ مِنْ أَصَافِ الْكُتُبِ مَعْرُوفًا، وَأَنْ يَكُونَ مُؤْتَلِفًا مِنْ أَهْرَاءِ تَحْسَنَةٍ، وَأَنْ يَكُونَ مُسَدَّدًا إِلَى وَجْهِهِ مِنَ وَجْهِهِ الْحِكْمَةِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ تَدْبِيرٌ مَوْصُوفٌ. فَذَكَرَ أَنْ أَقْرَاطُ قَدْ جَمَعَ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ الْأَوْحَةَ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَهُوَ كِتَابُهُ الَّذِي يُسَمَّى «أَقْوَرِ يَسْمُو» تَفْسِيرُهُ. كِتَابُ الْعَصُولِ. وَقَوْلُكَ وَمَا لَعُ مِنْ قَدَرِ الْكَلْبِ مَعَ لَوْمٍ أَصْلُهُ، وَحُثُّ طَعْمِهِ، وَسُقُوطُ قَدْرِهِ، وَمَهَابَةُ بَعْضِهِ، وَمَعَ قَلَّةٍ حَيْرَةٍ وَكَثْرَةِ شَرِّهِ، وَاجْتِنَاعُ الْأُمِّ كُلَّهَا عَلَى أَسْتِسْقَاطِهِ وَأَسْتِسْفَالِهِ، وَمَعَ صَرِيحِهِ الْمَثَلِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَعَ حَالِهِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مِنَ الْعَزْزِ عَنِ صَوْلَةِ السَّاعِ، وَأَقْتِسَادِهَا، وَمِنْ تَمَعُّبِهَا وَتَشْرِفِهَا وَتَوَحُّشِهَا، وَقِلَّةِ إِسْمَاحِهَا، وَعَنِ مَسْأَلَةِ الْهَانِمِ وَمُوَادِعَتِهَا، وَالتَّمَكُّنِ مِنْ إِقَامَةِ مَصْلَحَتِهَا، وَالِاسْتِمَاعِ بِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي طَعْمِهَا دَفْعُ السَّاعِ عَنْ أَنْفُسِهَا، وَلَا الْاجْتِنَابُ لِمَعَانِيهَا، وَلَا الْمَعْرِفَةُ بِالْمَوَاصِعِ الْحَرِيْزَةِ مِنَ الْمَوَاصِعِ الْمُخَوِّفَةِ. وَلِأَنَّ الْكَلْبَ لَيْسَ نَسِيجٌ تَامٌ وَلَا سِيَمَةٌ تَامَةٌ حَتَّى كَانَهُ مِنَ الْخَلْقِ الْمُرْتَكِّ، وَالطَّبَائِعِ الْمُلَفَّفَةِ، وَالْأَحْلَاطِ الْمُخْتَلَةِ، كَالْعَمَلِ الْمُتَلَوَّنِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَثِيرَةِ الْعُيُوبِ الْمُتَوَلِّدَةِ عَنْ مِزَاجِهِ، وَشَرِّ طَبَائِعِهِ مَا تَحَاذَتْهُ الْأَعْرَاقُ الْمُتَصَادِقَةُ وَالْأَخْلَاقُ الْمُتَفَاوِتَةُ، وَالْمَاصِرُ الْمُتَبَاعِدَةُ، كَالزَّاعِمِ مِنَ الْحِمَامِ الَّذِي دَهَشَتْ عَنْهُ هِدَايَةُ الْحِمَامِ، وَشَكَلَ هُدْيُهُ وَسُرْعَةُ طَيْرِيَّاهُ، وَطَلَّ عَنْهُ نَحْرُ الْوَرَّشَانِ، وَقُوَّةُ حَاحِهِ، وَشِدَّةُ عَصِهِ، وَحَسَنُ

صوته، وشجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، وأحتماله وقوع البادى، وحرص الحالب.
 وى الراعى أنه مسرول متقل، وحدث له عظم بدن وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه.
 وكذلك البغل نرح من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتائجهما يبقى بقاءهما،
 وهو لا يعيش له ولد وليس يقيم، ولا يبقى للعلّة ولد وليست عاقر، ولو كان الغل عقيما
 والعلّة عاقرا لكان ذلك أزيد في قوتها وأتم لشتتها، مع البغل من الشقّ والعط ما ليس
 مع أبيه، ومع العلّة من الشوص وطلب السقاء ما ليس مع أمها، وذلك كلّ قذح والقوة
 ونقص في البنية، ونرح عر موله أعظم من عرا ميل أعمامه وأحواله، فترك شبههما ونزع
 الى شيء ليس له في الأرض أصل، ونرح أطول عمرا من أوبه وأصبر على الانتقال من
 أوبه، أو كابر المدترة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أحسن نباحا من البغل
 وأفسد أعراقا من السمع، وأكثر عيوما من العيسار، ومن كلّ خلق خلق إذا ترك من
 ضد، ومن كلّ شجرة شجرة مطعمة بخلاف، وليس يقرى مثل ذلك الخلائق من الدجاج،
 ولا الورداني من الحمام، وكلّ صنف دخل على خلقه، وكلّ رقة عرّصت للحيوان، فعلى
 قدر جسده وعلى وزن مقداره وتمكّنه يظهر العجز والعيب. وزعم الأحمسي أنه لم يسبق
 الحلبة درس أحصم قط. وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلّة أبلق قط ولا تلقاء.

والهداية والحمام والقوة على حد العاية إنما هي للخصمة من الحضر. وزعموا أن
 الثيات كلّها صنف ونقص، والثبة كلّ لون دخل على لون. وقال الله حلّ وعزّ: (زَقَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُبِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَمَّاةٌ لِأَثِيَةِ فَيَا أَيُّهَا زَعَمَ عَثَامُ
 أَبْنِ الْحَكَمِ أَنْ أَبْنِ الْمَدَنَةَ مِنَ الْمُؤَنَّثِ بِأَحَدِ أَسْوَأِ خِصَالِ أَبِيهِ وَأَرَادَ حِصَالِ أُمِّهِ فَتَجْتَمِعُ

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم والعين المهملة. وله الدث من الصع وهو سبع مركب فيه شدة الصع
 وقوته وحرارة الدث وحت (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٢٢) - (٢) العسار بكسر العين والسين
 الساكنة والألف عسارة. وله الصع من الدث وحمه عسار (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ١٣٩) -
 (٣) الخلاسي: الولد بين أوبس وأبيض وأسود، والدريك بين دحاحتين هدية وعارسة. - (٤) الورداني
 فالراء المهملة طائر متولد من الورشان والحمام وله عراة لون وطراة فذ.

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه اذا خرج كذلك لم تُتَّجِع فيه أدب ولا يَطْمَع في علاجه طبيب، وأنه رأى في دور تقيف متى آحتمت فيه هذه الخصال، ما كان في الأرض يوم ألا وهم يتحدثون عنه شيء يَصْعُر في جنبه أكبر دُنب كان يسب إليه .

وزعمت أن الكلب في ذلك كان لُحْتِي الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كان لُحِي الذي لما قُطِع منه ما صار به الذكر خلا خرج من حد كمال الذكر فيقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أخى للفرزة الأصلية وبقية الخوهرية، وزعمت أنه يصير كالبيد الذي يقسده إفراط الخو، فيُحْرِجُه من حد الخل، ولا يُدْخِلُه في حد البيد . وقال مرداس بن حِدام :

سَقِيَا عَقَالًا نَالِيَا شُرْبَةً * هَالَتْ بَلَّتِ الْكَاهِلِي عِقَالِ
فَقُلْتُ اصْطَلَحْتُهَا بِأَعْقَالٍ فَإِنَّمَا * هِيَ الْحَمْرُ حَبْلًا لَهَا مَجَالِ
رَمَيْتُ نَامَ الْحَلَّ حَبَّةً عَلَيْهِ * فَلَمْ يَتَمَسَّ مَهَا ثَلَاثَ لَيَالِ
بِحَمْلِ الْحَرَامِ الْحَلَّ قَدْ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا ، وَقَدْ يَتَوَلَّدُ عَنِ الْحَلِّ إِذَا كَانَ حَمْرًا مَرَّةً الْخَمْرُ .

وقال سعيد بن وهب

هَلَّا وَأَمَتْ بِمَاءٍ وَحَمَكُ تُسْتَهَى * رُوْدُ الشَّابِّ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِصِ
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِحَمَكِ لِحْيَةً * دَهَتْ يَمْلِكُ مَلَّ كَفِّ الْقَارِصِ
مِثْلُ السَّلَافَةِ عَادَ خَمْرُ عَصِيرِهَا * بَعْدَ اللَّذَازَةِ حَلَّ حَمْرِ حَامِصِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والماء الوسط، والسادرة العائرة التي لم تحرج من الخز إلى البَرْد فتَصَحَّك السِّن ولم تحرج من البَرْد إلى الخو فتَصَحَّك السِّن .

باب الرسائل

١ - الفصول المستخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل الى صديق له .

إن آمالك شادوا أفكارهم بالمصائل التي كانت فيهم ، وإليك قد كتبت أحدث في مذكرتهم فأويت على عايتهم ، ثم أخلطك الهوى ببعض حديثك وحوذك ، من لباس فصلك الذي كنت تطول به على أكفائك ، وتملك به أمة كافة حذك ، وألقيت مالك بل شر عواقبه عليك لا لك إن رأت مكاره وادبره عك .

فصل - قيل . إن مروءة الرجل في نفسه تستلزم لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عرف له ، وتبقى في الأعقاب والاصحاب ، ولقيه يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن يسطروا في دينهم بالصيغة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بذل الهوى بالتقوى في قلوبهم ، ومات سوره العصب فيهم لأعلامهم ، وسكت العامة الى علم وذلت لإصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يقمه ، وللظالم من الكبر ما يقمه ، بذل الحسن عليه ردة ، وذلل المسيء بالحق عليه ردة . فأقول ما أمرك به رضاء الله وتحموا . فأما رجاؤه فإن تحسن به في الشجع إذا أطلعت ، ويكون لك وقاية إذا آثرته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به ونهاك عنه مراعيا ، فإن تقيّة المؤمن زيد في أنشراح صدره ، وإن شدة خوفه تردّ هواه على عقله .

(١) خلا عن احجار المعطوم والمنور لاس طبعور .

(٢) الحديث : النابية والحالة والطريقة .

فصل - تنبه ادا بُهت، وأذكر اذا ذُكرت، وأنتمنع فقد وُعِظت، وأسمع فقد نُوديت، تنبهك الوعيد، وحذرك الزاجر، وأمرك ونهالك الكتاب، ونفثك آثار الموب، وودعك الى الجمة مليء جواد، فاحذ الحذ، فقل المهجره يُريح المُدْلج .

فصل - ما طرأت في معروى عند أحد، فوجدته قصر عن أمله وكان يمكن أن يكون أكثر منه، إلا عدده سيئة لى عنده، لأنى دوقته ما أحب، ثم معنه إياه، وكأنى قصدت لإشخاص قلله . ولا نظرت في معروى عند أحد فوجدته قد تنهى عن تنهى أمله . وكان يمكن أن يكون أكثر منه، إلا رابى في ذلك واتراً لعمى، لأنه كفى عيائها وإزراءها، أن أقع^(١) . فصل تحفه بمثل ما أقع رجلا من فصل يحفه عليه .

فصل - ما أنت من يعلم من جهل به، ولا تحس منه نادره زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عرّف حيرهما فآثره، وشرفها حاجته . وقد رأيت ما ساقط اليك الطاعة من حفظ الماحلة، فلا تنعزس لروال ما أنت فيه، فتحسر الخطيئ، وتندم في القارين، فقد رأيت من عاند الحق كيف صرعه الله وبسط يد وليه على سمك دمه، وإحلال النعمة به، فصار بعد أن كان في الأمية مثلاً، ولجميع الخلق عاية وأملاً، فكرة في الاعتبار، وعظة للأبصار . فلا يُبعد الله إلا من طلم وحتر، وذهب عن الحق وأدبر . وأنت اليوم مُحْكَم في أمرك، محير في رأيك، تُدعى الى حفظك بالخط الجزيل بتدال . فاهتيل ما قد هدف لك وهو يمكن ليدك، فإنك إن أهملت وتراجعت، لم يكن الحق ووليته وحشة اليك، ومصت أحكام الله في نصرها وتأبيدها على أدلالها^(٢)، وصفرت يذك بما لا يُشرف لك بمثله، وأخطرت بدمك وأسسته أخبت سسيل وأصل سبيل، حيث لا تنكى عليك السماء والأرض .

(١) يئاس في الأصل . ولعله . أن أقع حتى يصل تحفه بمثل ما أقع رجلا الخ .

(٢) على أدلالها : على رسوخها وطريقها .

فصل — الناس رحلاب : عالم لا غنى به عن الازدياد، وحاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يندعه من الأمور مُعِدًّا ، ولا المتعلم على ما يستفيد منه قادرا وفيًّا .

فصل — إن أنب عطلتسا من أمورك ، وأعقبت طهورا من أفتالك ومؤونتك ، وتركتنا أفعالا في ولايتك من تبهك وتحريكك ، فقد أنزلنا منزلة من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوء من لا يُعين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصل — إن إعلامي إياك .^(١) غير محدّد شيئا ، ولكنه أقرب من الجليل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للأئمة على المسيء المقصر .

فصل — الذي أعتمدا عليه من رأيك ، وثيق به من حبل بطرك، قد خلطني بأهل صائمتك ، والخاصة من ثقاتك ، وبسّط أمل فيك الى عاية حير يُرثى ، أو جريل حطّ يُؤمل .

فصل — ليس يسوع لأحد في الأمير آمل ، ولا يتوَحَّه اليه منه رعبه، ولا يلزمه في قضاء حقه ، ودانته مؤنته^(٢) إلّا وفصله مستغرق لها .

فصل — من أحمد الأمور وأجمل المذاهب ، ما كان آخره موصولا بأوله ، ومؤدباً بذوه الى تحد عاقبته ، لحافظ على الأمور التي حسن فيها عسد أمير المؤمنين أنرك ، مستغلا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَمِلا بها في العم عندك ، والإحسان الواصل اليك ، فيما يوفقك الله له منها ويحصك به من الفصل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك ، ويستمتعته في العمة فيك .

فصل — قد كان يجب أن نجعلنا بمتامة التمس علينا في خاصة الشاكرين لفضلك ، ولا نجعلنا بتواتر الإساءات اليها في عامة الشاكرين لك .

(١) بياض الأصل . ولعل الكلمة المتحركة «عاجتي» . والظاهر أن طبة «محدد» محذرة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصل - عِلِّي بِمَا جَى اللهُ عَلَيْهِ أَحْلَاقَ الْأَمِيرِ أَكْرَمَهُ اللهُ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ رَأْيَهُ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِ، وَتَوَتَّ الْعَصْلُ عَلَى مُتَمَيِّسِي فَصْلِهِ، يَبْعَثُنِي عَلَى الْكَتَابِ فِي مِثْلِ مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ فِيهِ، مِنْ طُلَامِهِ مَطْلُومٍ يَسْتَعِيزُ فِيهَا بِعَدْلِهِ، وَحَاجَةٍ مَلْهُوفٍ يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى فَصْلِهِ؛ فَأَجْعُ إِلَى مَا أُنْتِيسُ مِنَ الثَّوَابِ فِي ذَلِكَ مُوَافَقَةً رَأْيِ الْأَمِيرِ، وَإِذْ كَارَهُ مَا يَحِبُّ أَنْ يَذْكُرَ بِهِ، فَزَادَ اللهُ الْأَمِيرَ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَوْزَعَهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَيْهَا مَا يُوجِبُ لَهُ ثَنَاءَهَا عِنْدَهُ، وَتَزَادَفَهَا لَهُ .

فصل - أَنَبَ وَالْجَدُّهُ مِنْ أَحْتَمَلِ الصَّبِيحَةِ، وَقِيلَ الْأَدَبُ، وَصَدَّقَ الْخَيْلَةَ وَحَلَّصَ عَلَى الْخَيْلَةِ وَحَسَّ الطَّلُ، فَاسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ وَقَدَّمَهُ جَبِيلٌ مَدَّهِه وَآثَارُهُ، وَبَرَّتْ عَلَى قَصْدِ السَّبِيلِ طَاعَتُهُ، وَأَشْتَدَّتْ عَلَى السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ مَأْسَمَحَتُهُ، فَأَصْبَحَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتَنَاهَى فِي رِيكَ وَتَكْرِمَتِكَ، إِلَّا رَأَاكَ مُسْتَحَقًّا لَهَا وَلَيْسَ تَوْفَقُهَا، وَلَا يَرْصَلُ إِلَى دَرَجَةِ إِلَّا رَأَاكَ أَهْلًا لِأَشْرَفِ مِنْهَا، صُنْعًا مِنْ أَنَّكَ مَا وَقَفْتُ لَهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وَوَهَبَ لَكَ مِنْ حِيلِ مَبْرَاتِهِ، وَالْمَكَانِ مِنْهُ وَالْأَثَرُ عِنْدَهُ .

فصل - فَصَلُّ مَشَارَكَتَنَا إِيَّاكَ فِي مَحَبِّهِ الْأُمُورِ وَكَرَاهِيَّاتِهَا يَجْلِسُ فِي السَّرُورِ بِالنَّعْمَةِ عِنْدَكَ - بِحَدِّدِهَا اللهُ لَكَ - وَوَحْدَ الشُّكْرِ بِمَا تَكُونُ لِحَقِّهَا قَاصِيًا، وَلِلرَّيْدِ فِيهَا مُوجِبًا .

سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ - شُعْلُكَ يَقْطَعُنَا عَنْ مَطَالَتِكَ مَالِحِقِي فِي جَوَابَاتِ كُتُبِي إِلَيْكَ، وَصَدَّقْ . وَدَتْنَا لَكَ يَمْعًا مِنَ التَّقْصِي فِي الْمَجْهَةِ عَلَيْكَ، وَمَنْ يَكُلُّكَ إِلَى رَأْيِكَ فَإِنَّهُ لَا يَبْغِي بِكَ إِلَّا لَكَ، صَلَةَ إِخْوَانِكَ وَالتَّعَاهُدَ لَهُمْ مِنْ رِيكَ، بِمَا يُنْشِئُ فَصْلَكَ وَالنَّعْمَةَ عَلَيْهِمْ فَيْكَ .

وَفُلَانُ بَنِي وَبَيْنَهُ مَوْدَةٌ أَقْدَمَهُ بِهَا عَلَى الْأَخْوَةِ؛ لَأَنَّكَ تَمَلِّمْ قَرَبَ مَا بَيْنَ الْمَوْدَةِ وَالْقَرَابَةِ، وَقَدْ تَلَوْتَهُ عَلَى الْحَالَاتِ كُلِّهَا، فَلَمْ يَزِدْنِي اخْتِيَارُهُ إِلَّا اخْتِيَارًا لَهُ، وَلَا أَعْلَمُ بِالْعَسْكَرِ جَلِيلًا إِلَّا وَهُوَ لِي صَدِيقٌ، يَشْكُرُ بِشُكْرِهِ وَيُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمِثْلَ فِيمَا آتَى إِلَيْهِ . فَأَمَّا مَنْ بَيْنَ إِخْوَانِهِ فَلَسْتُ أَعْدِلُ عَنْ قَضَاءِ حَقِّهِ، وَلَا أَتَأَخَّرُ عَنْ مَعْرِفِ مَنْ أَمْسَدَى إِلَيْهِ، فَإِنْ رَأَيْتُ أَنَّ

تُجِلُّهَ بِالْحَلِّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ سَعْسَعَهُ وَسَلَفُهُ ، هَوَالَهُ مَا رَأَتْ سُوقُ الْإِحْرَارِ أَنْفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، أُنْقِ اللَّهُ تَارَكَ وَتَعَالَى مَا بَيْنَكُمْ وَرَيْحِ مَا صَبَّحَكُمْ .

فصل — إنَّ أحدًا ليس بمسْتَحْلٍ شَيْئًا مِنْ عَصَارَةِ عَيْشِ إِلَّا مِنْ بَيْنِ حِلَالِ مَكَارِهِ ، هُنَّ أَتَطَّرَ بِمَاحِلِ الدَّرَكِ آحِلَ الْإِسْتِقْصَاءِ سَلَّتْهُ الْأَيَّامُ فُرْصَتُهُ ، لِأَنَّ مِنْ صِبَاعَتِهَا السُّلْبَ ، وَمِنْ شَرْطِ الرِّمَانِ الْإِفَاتَةَ .

فصل — إنَّ الْأَمِيرَ قَدْ حَلَّ فَصْلُهُ عَنِ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ احْتِمَادٌ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهَا ، وَيَسْتَوْجِبُهُ بِهَا .

فصل — قَدْ أَصْبَحَ الْمُخْتَلِفُونَ مَحْتَمِعِينَ عَلَى تَقْرِيطِهِ وَمَذْمَعِهِ ، حَتَّى إِنْ الْعَدُوُّ يَقُولُ أَصْطَرَارًا مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ أَحْتِيَارًا ، وَالْبَعِيدُ يَثْنِي مِنْ إِعَامِهِ عَلَيْهَا بِمَا يَثْنِي بِهِ الْقَرِيبُ حَاسًا .

فصل — الْمَائِلُونَ إِلَيْهِ مِنْ بَيْمٍ مُكْتَبِعَةٍ مِنْ تَالِيِهِ بِهِ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَطَائِفٌ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَمَوَاهِبَ مُتَّحِدَةٍ ، وَهَوَائِدَ مُتْرَاكَةٍ ، هِيَ بِمَسْوُطَةٍ بِهِ إِلَى بَرَكَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ حَظُّ^(١) مَنْ أَتَصَلَ بِهِ ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَصْلِهِ ، وَزَادَ أَوَّلِيَّاهُ بِهِ وَبِرَكَّةِ دَوْلَتِهِ .

فصل — أَتَعَدَّتْ أَحَا لَا يُدْتَمَّ إِحَاؤُهُ ، وَلَا تُشْكُرُ أَحْوَالُهُ ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا ، وَأَنْصَالِ الْمَكْتَابَةِ وَأَقْطَاعِهَا ، بِحِدَةٍ مُتَصَرِّفًا مَعَكَ فِي الْخَطُوبِ الَّتِي يَطْرُقُ بِهَا الزَّمَانُ ، وَيَدَا لَكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُتَمَتَّحُ فِيهَا الْإِحْوَانُ .

فصل — أَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطْلُوقُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْحَلَالَةِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعِيُونِ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولًا بِالْإِنْسَاءِ فِي مُدَّتِهِ ، وَالْإِدَامَةِ لِعَزِّهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .

أحمد بن يوسف — عَدَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، فَإِنْ تَخَّ مِنْ شَأْنِكَ فَقَدْ آذَنَّاكَ .

في صفة حرب — كَانَتْ لَكُمْ الْكُرَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّرَّةُ ؛ فَعَمَلُوا حِمْلَةً كَاذِبَةً ، أَتْبَعَهَا نَأْمُرِي صَادِقَةً .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فون كلامي وعيون مقالتي، دفترًا ظريف المعاني، شريف المعاني، صحيح الألفاظ، يلدُّ أمواه الناطقين، ويلين على أسماع الصامتين.

فصل في شفاقة — لفلان قبلك حاحه، ليس يحتاج فيها الى معديتك ونصفتك المبسوطتين لمن لا يتوسل بمحطتك ومعرفتك، ولكنه يريد ما في ذلك السدل والإنصاف من الرفق والإحسان المذخورين للخاصة والإخوان.

فصل لرجل تميمي — صَعُف حالي مدعوني الى كثرة الطلب، ومَعْرِفِي بِعَمَلِ رأيك تحجزني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلاً صايتك، وحسن بطرك، والكرم يستحيي بعصه لعص، ويبعث بعصه بعصًا، ودير حيلته الغير على العقود، فعنه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه الى المنع، بخاءه عقله على البدل، وحالي حائنه لدى فضلك وبعمة الله عليك من سدّ خلتها، ومدادوا عتتها مجاهك الواسع، ورقدك الباع.

أحمد بن يوسف — قد نَدَلْتُ لبا من نصك أعزّ مبدول وأهسه، والمودة التي كلما يُحمد من صاحبها، فهو لها باع. وثقتنا بك واستنامتنا الى حاجتك، على أحسن ما أكد الله بيننا وبك. وإن كان مدى اللقاء بيننا لم يطل فأنزل منه ما رعاه أهل الوفاء والمخالصة، ويقصر في المحافظة عليه وعلى أكثر منه، من دُحِلَتْ نيتته، وصَعُفَتْ خُلَّتُهُ.

فصل — قد أصبحت لخاصته عُدّه، وللعامة عصمة، وللأمام ثقة في مسامحتك.

فصل في الصفيح لأبي علي — إِبْتِ الذي قرط منك، وإن تجاوزَ مني ما أرساه لك، لم يبلغ ما يُقصي عليك، وحيث انتهى ما يحالفني من قولك وفعلك، فإن وراءه تعمّدًا مني لإساءتك وصفتها عن رثك، فإن تأمّنًا لا تحك، وإن يسؤ طُك لإعما يحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهدي في هدية استقلها :
 بلني استقلالك لما ألفتك، والذي نحس عليه من الأُنس سهل عليا قلة الحشد لك في البر، فاهلينا هدية من لا يحتملهم الى من لا يقتمهم.

كتب عَقَّال بن شَبَّة - الى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إن الله انجبتك من جوهره كرم وميت شرف، وقسم لك خطراً شهرته العرب وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعاد حطرك بقدرته مبسوطة، ومثلته المحوطة، بجميع أكفالك من جماهير العرب، يعرف فضلك، وسره ما حار الله لك، وليس كلهم أداله الرمان ولا ساعده الخط، وأب أحق من تعطف على أهل البيوتات، وعادهم بما يبق له ذكروه ويحسن به شره، مثلك . وقد وحثت اليك فلانا، وهو من دينه قراي، وذوى الهبة من أسرق، وعرف معروفك، وأحدث أن تلبسه بعمك وتصرفه الى وقد أودعني وإياه ما تحمده أقبيا على النشر، جميلا في الميت .

فصل في التوديع

أسعدودع الله الأمير أحمسي وداعه، وأسأله أن يعمله في كتمه وجرزه، فقد أكرم المثوى، وأحسن الابتغاء، فأطال الله له البقاء، وأدام طله النماء .

في الصفيح

لمنى كتابك، تذكر كتابي اليك بوصى عك مؤجدي، وردى لك الى أحسن ما عهدت من مرلتك عدى . وقد حلت ما التحل الذى حلطاك فيه فانفسا، وأدحلك منه مداحل أهل يقنا، ولست تؤق من جهالة ما أنت فيه، ولعوض ما أنت عليه من التعارب تستعاد بمثلها العبر، ويتنع بها في عطف الأمور .

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن علي رحمة الله عليه :

قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما ألقى الله في مئذره السوء، وأنه لما عصمهم الحرب، وألمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذب الله طونهم، وحذل تحرجهم، وقتل إمام صلالهم، وحفظ لأمر المؤمنين ما صيعوا من حقه، وحاط له ما أباحوا من الفدر فيه . وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكاكه على نعمه، الصفيح عنهم، وتقمذ حرمهم

وأن يسمهم من عدله ، بما يرد به الجاهل عن جهله ، والعوي عن غوايته ، ويعلمون مكانه من الله ، واستجابته لعزّه وبصره ، وأنه الخليفة المتّق ، والإمام المتّالف ، وأنه يُقدّم العمو في الطاعة ، على النجّة في العقوبة ، والحنّة في الاستصلاح ، على القوة في التأييد ، فامسك منهم بيدك ، فإن أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله ، ورحا به ما ليس صائما عنده من ثوابه .

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى العدر ، قلّدها عيال المحرو ، لم يكن أقرب ما الى الدن ، ونحن نرد عليك من نفسك ، وأخذ لنفسك منك ، حتى يكون تركا إياك ، وعدرنا فيه وأورا .

فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدها ، وبعد ما بين طرفيها .

آخر — أقهرت في الثبّت أمانه ذوى النجى ، وقدمت المقدم من الأمان على العجلة ، وأطمت في أمرك البظرة ، وانهيت الى العُدرة والمعرفة ، فلكت ما ملّكتك ، وحكمت على الذى حكم عليك ، فأخذت مثل الذى أعطيت .

فصل — بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها ، والخيرة بعد الله عز وجل .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقصون الحقوق التي يجب عليهم ، ويحافظون على الأمور التي تدرهم ، لقلّت اللائمة ، وحلّصت المودة ، وارتفعت أسباب العتاب ، ولكنهم عجزوا متفوضون ، يصمقون عن العلم ، وأكثر ما تدركه عقولهم ، وسوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العدر ، ولا تستحق الإيثار ، ولم أرل عابا على نفسى فيما صيغت من مكاتبتك ، مع معرفتي بفضلك ، وموقع ذلك عندك ، وما اعتدأرى اليك ، سوء طن بك ، ولا حماة للأمتك ، ولئن قلت ما طلمت ، غير أنى أحببت أن أكفيك المؤونة ، فيما عسيت أن نقص عنه من مقايستى ومعاتتى ، وأنا أحب أن تقل العدر ، وتعين على مستقبل البر .

فصل - أنت و زمان إن لم تمالط أهله ، و تحتلهم على ماى أيديهم ، و تصبر على مكاره الأمور بعد المطالعة ، لم تصل الى شىء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتنه من محاسنك شىء ، إلا رأى في مساوئ عيرك عوصا منه ؛ فكان بذلك أطلع ، و اليه أسكن ، عليك العذر ، فإن عاينه الى حذر ، و أقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، ولما يطفر أو يدلل .

الى المأمون من عامل

قل من يسارع الى بدل الحق من نفسه ، إذا كان الحق موصرا به ، و قل من يدع الاستعانة بالناطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، و سبب مكتسبه ، و اذا تعرق الحق في أيدي جماعة فطلوت به ، تشابهت و الكره لئله ، و تعاونت على دفعه و منه ، بالحيل والشبهة قولاً و فعلاً ، و احتاج المثلئ لاستحراج ذلك الحق من أيديها ، الى استعمال محاهدتها و مصابرتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان خبر ما أملك الله في فلان بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان ، خيراً عظم مكانه من أمير المؤمنين ، و حسن موقعه من الدين ، ثم ردف خبرك بإدعائه بعد ما عصه من بأسك ، و منه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، و طلب عهد الأمان ، و إنك بدلت له ما طلب لا لرهبة بقيت و حاجتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين و أدبه ؛ فكان لما عرصت عليه في أول أمره دعيه حفظ فيما كسفت عنه البلوى من محمود أثرك ، و اجتمع لك في ذلك حطائ : الطغر آجرا ، و الدرك لما حاولته أولاً ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيداً بالصبر و المعونة ، و الحمد لله على ما حقق من الظن ^(١) . من هذه النعمة على يديك و سمعك .

(١) ياصر في الأصل . و قيل الكلمة المترددة « و آت » .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرق قليلا أجمع، ولا إيجازا أكما من إطباق، ولا احتصارا أبلغ في معرفة وفهم مسه، وما رأيت كتابا على حارته، أحاط بما أحاط، وصرت طئى في فلان فعلم ذلك سرورى، وقد يستعطف الظالم، ويستعنت المتجنى؛ وفي رفقك وعلمك بالأمور ما يصلح الفاسد، ويدلّل الصعب، ويثقل المدبر؛ ولا يبعث حور من حار عليك، من الاعتقاد في المحنة عليه، والأحد بالثقة في أمره، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك منقصة ولا عصابة، بل فيه الإمداد والإنذار والاستنصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل — أنا في حال عافية، نتجاوز الى حال نعمه، والحمد لله حتى يرصى، فقد أرى، فاما ما أشرت به، وحسرت من إقصاء رأيك فيه، والإسباك عه، فذلك جعل لمن نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرصا لحصه أن يتعدى^(١)، وذكرت أدب ملاية، وعسدا لعلامة الطمع المستقل مع الإسام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عدا قتل ولا حل، ولو كان ما استحللنا حبسه صفة كفف، ولا تميمص طرف، وذكرت أنه لا يستعني مثلا عن مثيها، وأبدال الله كثيره عديدة، وما كان عليها فقد أحد ممن كان قبلها في دارها، محال بيها وبنيه حائل، ولا احتللا له مع طر الله تارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله حراك، وحاط لي فيك ما أحت منك، وكما لك المهم وكما به لك، فما تقوم نفس لو كانت لي أنعمى مقامك في نصيحتي ويرى، والاهتمام لي، بما أنا عه ساهية لاهية من أمرى، لا أعذميك الله ولا النصيحة منك.

فصل — قال أبو جعفر الزكمانى للحسن بن سهل ووعده شيئا فأنطق عليه .
أنا أعرف تكامل الثقة فيك، ووحاجة الفصل بك، وأعلم أن فعلك يرئى على قولك، وأن إنجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره لي أن يملحه المناثر

عه ، وإلا فأتيت على ما أقول ادا سأتى من سنته على شكرك ، عما لمعه من الخط على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي ، فقال : فاصل ما ينبغي أقوله .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على طمأنينة الى ، وتطلع شديد ، وبند عهد بعيد ، ولوم منى على
ما مستنى به ، من حمائك ، على كثرة ما دعت من الكتب ، وعدمت من الجواب ،
فكان أول ما سبق الى من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا عما تحقدنى من رأيك ، فى المواصله
الملكية ، ثم تصاعف المسره ، بحبر السلامة ، وعلم الحال فى الهيئه ، ورأيك بما تطاهرت
من الاحتجاج ، فى ترك الكلاب ، سالكا سبيل التخلص مما أما تحلصك منه ، بالإعصاء عن
الرامك المحمده ، فى ترك الابتداء والإحابة . ودكرت شعلك بوجوه من الأشغال كثيره
متطاهره ممكنه ، لا أحضرك مناه الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة للجواب ، ويقضى
مسك فى كل شهر كتاب ، ول [تلم] من مسك فى البر قليلا ، إلا ألزمت نفسى عنه
كثيرا ، وإن كنت لا أستكثر شيئا مسك ، أدام الله ودتك وثبت إحاطك ، وأستراح لى
مسك ، فأريك فى مناه الكتب ومخادى مها بحرك مؤقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قدأ تدا الله من حرمى لك ، ووصل من الشعب بلى و يدك ماحله ذخيره ليوم الحاحه ،
وعدة عند ملي النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها ، وكثرة معاريف بقاتمها ،
فى احترام الأعس فى خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يهتدها ، ويمر من الأشياء عليها ،
وكان ذلك لا سبيل الى دفعه ، ولا حيله يستعان بها عند روله ، إلا الرضا عن الله عز وجل
فيا فقى ، والتسليم لأمره فى كل ما أتى ، والسكون الى الأسوه التى نهج الله سبلها ، وخفف

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرجا بعد ذلك لحسن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في واطى الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كتبتُ كتبْتُ الى أمير المؤمنين أُعْذُهُ المَطَرَةُ التي أصابنا، وما أزل الله بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدُهُ رحيمه، يُولِي مَطَرًا أَنْزَلَهُ اللهُ نَاحِسًا ما رأينا من المطر وبابلا جَوْدًا، لا يَهْتَرِ عِزُّهُ ولا يَتَعَوَّى حَوْدُهُ، إِلَّا الى دِيْمَةٍ عَن دِيْمِهِ، يَتَرَانِي اليها يسيرا رنجًا تعود، فأقامت علينا سماءَهُ مُسْتَمْلَةً بِذلك وكذلك الى عروب الشمس، ثم أقطع مطرها بسكون من الريح، وَتَوَدُّ من القُرْ، وفصل من الله عظيم، يَنْشُرُ به رحمته، وَيَسْطُرُ به رزقه، فأسع الحمه، وأوسع البركة، وأوتق بحمد الله معارف الخصب والحي. والله محمود على آلائه ومشكور على ثلاثه، وما أزل الله من سُقْيَاهُ ورحمته، بعد الذي أقلتُ به السة البرية والقحيط وعدم الإمطار، وشدة ما بلغ الناس من الصوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقًا أمران . منهما الإحاة في الدين، فهو سبب وصية الله بين عباده بالأنفة والمحبة التي أعطت بها قرائن القلوب من بعضهم الى بعض، فأصلحت محبتهم مَرائِزَ جِلْمِها، وتَقَطَّعتْ فيما بينهم عاطفاتُ وصلها، ومنهما بجاملة جميل الأعداء، وحفظ ما يَحِقُّ لأهل حسن البلاء؛ ثم الصَّائِعُ بعد ذلك في مواقعها فضائل بقدر ما جرت به أسبابها ولطفت مداحلها .

فصل — الصاعقة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة، ويريد في أسبابها أواصر المودة، وقد جعلك الله في صاعتك مُقَدِّمًا، وفي مودتك مُتَفَضِّلًا، فلا زالت عك مع الله، ولا رِحَتْ سَكَا لإخوانك، وأُنْسا وموصعا لما تَسْتَمِيحُونَ من معروفك، وَيَسْتَمْبِرُونَ من يدبترك .

فصل - إن لك من قلبي لموصعا معمورا بالمودة والثقة ، والاستمرار
والأمانة ، فلا يُخرج فلانا من سعة جميل رُكّ، الى عُقى استحقاقه .

آخر

قد طالت الصاباة اليك ، وللهمر عُقْبُ عائدة بالنع والصبغ ، ولا سيما لمن كان على
مثل شاكلتك في أدبك وفضلك وإصباغك إخوانك وبرّك بهم ، وما توجهه على نفسك
لهم مما يُقصرون عن شأوك فيه .

الكلبيّ

كان أسلافنا تمارصوا ذيوها من الصفاء يستأذيها كلّ عَقب من صاحبه ، وقد أوردونا
مودة لا تعجزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أُعَيْنَ كاتب الخيزران

ليس يكون منك شيء ، وإن حُسْ ، إلا وحُسْ طنى بك يَلْمُهُ ، فاستمّ أحسن ما كان
منك ، تمّ لك أحسن ما يُحبّ مني . ولا تمعك الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الريادة
في عهد ، فإنه لقلّ شيء لا يريد إلا بقص ، والزمان يحقّ الكثير ، كما روى على الريادة القليل .

ابن الكلبيّ

أنت من أطول ممكاته وأنيق مجيل رأيه ، وأعتمد على رده ، وأرحو ذرك كلّ فصله
به ، وقد أحبّ علمه مقزّم الله عز وجل لديك .

عليّ بن عبيدة الى ابن الكلبيّ

وصل الله أنام غمري باتاع موافقتك ، ولولا موعد أحد عليّ ، لأطعنك فيما أمرت به ،
متنعا مع إحابتك مرور هسي برؤيتك في السلامة .

أما بعد ، إني أصبحت وقد استعرع الأمير مني كلّ مودته وبصيحته ، وبلغ جهد
وطاقه فيما عرفت له فيه موافقة .

فصل — فإن الذى شَعَبَ الله بنا من التواصل والكتاب، مدعوى الى متاعه الكتب اليك فى تعهد حَقِّك ، وإن كان الحِرص طاهر الحال قلباً يُغْنَى ، وإن له من الأُنس والموقع فى الكتب ما ليس لِمُسْتَمْرَضَاتِ الْأَخْبَارِ .

فصل — قد كُتِّ أعلت الأمر انقطاع سى فلاب الى فلاب ، ما هوأهم وبصائرهم وشراء ما قَسَلَه صره، وما كان وصل الينا فى ذلك من الأَور التي حملوا إصرها، وبقي لنا أجرها ودكرها وبافتها وسافقتها، محس عدد الأمير وحآياه وذخائرهُ، ومن يامل يومه وعده، ولا مُتَحَطِّى له عه ولا مقتصر دونه .

عُمارة

لبنى كَأَنَّكَ يصف كذا . فإن رأيتَ أَلَّا تَعْتَمِدَ على ما اصبقت [به] من عندك، وأطعْتَ فيه الهوى من قبول عموك، وتَجَمَّلَنِي أَحَدٌ مَن بُسِرَ بسرورك، وتَشْرَكَ فى مُهمَّاتِ أمورك، فإنى أحذهم وأوسطهم عناية بما عَمَّاكَ وتوسَّطَ ما عَمَّاكَ، فعملت .

فصل — والدق من دارك إِد الدار جامعةً والجبل مُتَصِلٌ، إد نخس فى الاستقاء بالخبر والعلم بِدَحْلَةِ الحال، ممرلة من كَأَنَّهُ يُعَاى مَن يَشْتَأى اليه ويضوبه فى كل يوم، حتى نَأَتْ النوى، وأتَتْ فى اللقاء والإنظار فى كلِّ أمر وعلى كلِّ حال مَن لا يُسْنَكُ فى صماء عيه، وصدق إحاثه .

فصل — مُشاركنا إِيَّاكَ فى محبوب الأمور ومكروها يَحُلُّا مَحَلَّكَ فى السرور بالنعمة يَحْدِّدُها الله لك ، ويُوجب من الشكر علينا مثل الذى يوجب عليك . فَوَصَّلَ اللهُ كلَّ نعمة تَهَبُّها لك من الشكر بما يكون لحَقِّها قاضياً، ولتزيد فيها موحباً .

سعيد بن عبد الملك

كنت على شُغْلٍ فى قِطْعٍ من القِرطاس، ولم يَقْطَعْ بى حَسُّ الظنِّ لك فى قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه؛ فإلك تقبل دون حَقِّك، وتَهَبُ الذنب فيه، فيكون شُكْرُكَ

(١) فى الأصل : « ... وسراء ماله ... » . (٢) فى الأصل « طلبا . . » رهو لا يؤدى العرس المراد .

حاريا على سبيلين، كلاهما يُبين لك عن فضلك، ويوحى لك ما لا يقصُر معه إلا غيـبـون
الحظ خـسـيـس الصـيـب .

فصل — وقد طهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدل شاهد على
حسن مُقَلِّه، ورَدَّ اليك من رآه وتفقده ما أرحو أن يكون فيه أعظم العوض . والله
أسأل أن يتولى لك أمورك في السراء والصرء، والشدة والرخاء، والشكر وحسن العراء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تم الله علينا وعلى العم، وأجرل لنا ولك محاسن صالح القسَم . إن الله تبارك وتعالى
أخرى بينا ويسك لطيف عودَه، وخاص أحوة، غير أن المعرفة قد تُجهد بعد الخبره،
والثقة إنما تعرف بعد التجربة، وقد أحببت أن يعلم من قِلك الذي أحدث الله لك من
حال دولتك، وأن يُعلم هل أبقت لنا ملك الدعة سعة، أم تركت لنا ملك صفة يعرف
بها عهدك وأمل بها وصلك . وإن أصحاب السلطان، محال ملوى في التغير والانتقال،
إلا من ناله من الله تبارك وتعالى عصمه . وإن كنت على ما رجونا من الوفاء، وحسن
الحفظ للوثة والإحاء، فذلك لم يرض لفسه إلا بأجل الأخلاق وأوقفيها للسداد . وإن
حجزك من ذلك ما تآى به الأقدار، مُتَصَرِّف الليل والنهار، بَعْدُكَ بما تعدر به أهل
السلطان، ادا عيبتهم الحال، وتكرت شمائلهم بين الإخوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إعلم أي اليك مشوق، وأن صلة الإخوان كرم، وحير الصلات ما لم يكن لها وجه
إلا الرءاء والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإحاء، فإن الذي يكتب لإخوانه على حال
الرغبة يكفى القائل كتابه حيث شاء، إن أحب مال به الى الصحة، وإن شاء وصمه
لرغبة، والرغبة أملكهما به . والذي يكتب لإخوانه على حال الضرورة، فقد يستقطع الصلة
(٢)

(٢) في الأصل : « ما نذك » .

(١) في الأصل : « وأحرلنا ... » .

(٣) في الأصل : « وأملكها ... » .

عند الحَدَثِ عَافَةَ المَلامَةِ من البَاسِ على القَطيعَةِ السَّعَاءِ المشهُورَةِ لِإِخْوَانِهِ ، فإنَّ الَّذِي لَا مَوَدَّةَ لَهُ قَدْ يَصِلُ ذَلِكَ فِي تِلْكَ القَطيعَةِ بِأَهْلِ البَلَاءِ .

وَالِكِبَابِ عَلَى مِثْلِ حَالِنَا وَهَالِكِ الْيَوْمِ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا صِحَّةَ الْإِحَاءِ وَالشُّوقِ إِلَى المَحَادَّةِ بِالْكِتَابِ ، حِينَ لَا يَلُومُكَ الْإِلَهُونَ لِمِزْلَةِ الْبَلَاءِ تِلْكَ الْإِلَافَةُ عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَلَا يُوصَعُ مِنْكَ الرِّعَاةُ فِي الْإِطْلَاعِ . إِيَّاكَ أَنْ تَعْتَلَ بِالشُّغَالِ أَنْ كَسَتْ فِي حَاصَةِ نَفْسِكَ ، فَإِنْ أَدَاءَ الْحَقِّ وَصِلَةَ الْإِخْوَانِ أَعْطَمَ انْخِلَاصَهُ مِنْكَ حَاصِهِ . وَأَمَّا أَمْرًا فِي كُلِّ هَذَا كَأَمْرِكَ الَّذِي نَسْتَعِي مِنْ حَاصَتِكَ تِلْكَ الَّتِي لَدَا ، فَإِنْ لَدَا مَا لَكَ ، وَهَذِهِ الَّتِي لَدَا لَكَ ، أَلَيْسَ مَا سَرْتَا سَرَّكَ وَمَا سَلَسَاهُ حِظًّا لَكَ ، فَهَذِهِ كَذَلِكَ وَذَلِكَ كَهَذَا . وَاللهُ يُوَفِّقُنَا وَإِيَّاكَ . وَأَنْتَ يَا يُوسُفَ . هَكَذَا حَالُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَا وَصَفْتُ لِأَبِي سَعِيدَ ، عِيرَ أَنَّهُ سَأَلَا أَمْرًا لَمْ يَسْأَلَاهُ قَطُّ ، فَلَهُ فَصْلُ السُّسْرِ عَلَيْنَا فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَلَمَّا فَصَّلُ الْمَرْغَلَةُ عَلَيْكَ فِي الْإِلَافَةِ . وَلِي أَذَعْتُ وَالْفِعْلَ ، دُونَ أَنْ تَشْفَعَهُ بِالْعَمَلِ الَّذِي هُوَ صِلَةُ الْقَوْلِ . وَسَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحِمَهُ اللهُ ، وَقَعَصَى اللهُ عِزَّ وَجَلَّ بِالْحُسْنَى لَدَا وَلَكَ .

فصل — أَنَا نِي تَحَابُّكَ ، وَأَصَمْتُ أَنْ يَسَرَّنِي بِسَلَامَتِكَ ، وَمَا حَاقَ بِهِ كَرُمُ رِزْقِكَ ، وَلَعِيفُ عِيَايَتِكَ ، مَا لَمْ أَقِدْ فِي حَالَتِكَ مِنْ حَالَتِكَ ، فَكَانَ الْكِتَابُ مُصَدِّقًا لِمَا سَلَفَ ، مُبَشِّرًا بِمَا يَسْتَأْبَفُ ، مُدَرِّرًا مِنْكَ عَهْدًا مَوْصُوعًا ^(١٦) مِثْلَهُ طَرِيقَ وَقَلْبِي ، مُلْصَقًا ذِكْرَهُ لِسَانِي وَقَلْبِي . فَلَا عِدَّتُكَ ، بَلْ أَمْتَعْنِي اللهُ بِكَ فَأَطَالُ ، وَكَثُرْنِي بِقِيَامِكَ .

فصل — أَنَا نِي تَحَابُّكَ فَطَامَ قَلْبِي وَطَرِي ، بَعْدَ مَا كَانَ شَاحِصًا إِلَيْهِ ، مُنْشَوِّقًا إِلَى رُؤْيَيْهِ ، ثُمَّ مَلَأْنِي سُرُورًا مَا رَأَيْتُ فِيهِ مِنْ آثَارِ رِزْقِكَ وَكَرِيمِ تَعَقُّدِكَ . وَأَفْصَلُ مَا عِنْدِي مِنْكَ قَلْبُهُ ، بِمَا إِنَّ ذِكْرَهُ ، فَلَا اسْتِرَاحَةَ إِلَى الدَّكْرِ ، وَإِنْ أَمْسَكْتُ ، فَلِلْمَحْرَعِ الشُّكْرِ . فَأَمَّا الضَّمِيرُ هُنَا عَلَى الْإِقْرَارِ بِعُضْلِكَ ، وَالنِّيَّةُ خَالِصَةٌ بِشُكْرِكَ . وَقَلِيلٌ ذَلِكَ لَكَ ، فَأَعْطَاكَ اللهُ فَأَطَابَ ، وَوَهَبَ فَأَجْرَلُ .

(١) وَالْأَصْلُ : «عَافَةُ السَّلَامَةِ مِنَ الْبَاسِ...» . (٢) وَالْأَصْلُ يَأْصُ . (٣) وَالْأَصْلُ : «مَالَا اسْتِرَاحَةَ...» .

فصل — وصل إلى كمالك فقل لى حين نظرت الى اثر يدك تجرى قلبك فى بطن صهيبتك ، أنك مائل بين عيني : أنظر الى شخصك وأسمع من لعظك ، فابتعث ذلك منى طربا شاقا ، وصابغة هيجت الأخران وذكرت الإحوان . وكنت من إحوالى الدين أحر بسلامتهم للود الذى أحرى الله ميدا و بينك ، فواصلنا بجرمته ، وتعاطفنا بوصله .

فصل — إن الله جعل عاقبة كل نعمة وإن عطمت ، تما لأؤلها ، وجعل الشكر عليها سببا لتقامها وموجبا لأحسن الريادة بها .

فصل فى شكر — فإن الله جعلك للخير مقيدا ، وللفضل موصيا ، فبما جعلته نفسك من ثقل أعباء المروءة ، وحمّلها عليه من عظام المكارم ، حتى صرت بما أعم الله به عليك ، مُتَمَتَّى كُلِّ أَمَلٍ وَعَايَةِ كُلِّ رَعْنَةٍ . ثم أَلْبَسْتَ النِّعْمَةَ لِبَاسَ التَّوَّاصِعِ ، وَاسْبَغْتَ فِي الْأَخْلَاقِ مِنْ سَبْقَتِ بِهِ عَلَيْكَ الْأُمُورِ ، حَتَّى كَانَتْهُمْ فِي النِّعْمَةِ لَكَ شُرَكَاءُ . وَتَحَنَّنْتَ عَلَى الْأَقْرَبِينَ وَالْمُنْتَفِرِينَ مِنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَكْءَاءِ ، حَتَّى كَانَتْهُمْ لَكَ وَلَدٌ ، وَأَحْبَرْتَ نَفْسَكَ حِينَ سَاعَدَكَ الدَّهْرُ ، عَلَى طَبِيعَةِ التَّقَرُّبِ إِلَى الْعَامَةِ ، فَكَلَّمَهُمْ يُدِيلُ عَلَيْكَ بَدَاؤُ رَغْبَتِهِ ، وَيَتَمَتَّحُ مِنْكَ مَتَاعُهُ فَصَلِّ ، فَلَا عِدَمْتُ إِلَّا زَالَ تَتَمَشَّحُ سَقَطُهُ ، وَتُحْمِلُ عَثْرَةَ ، وَتُسَدُّ حَلَلًا ، وَتُزِيلُ أَمَلًا ، وَلَا عِدَمُ مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ مِنْكَ ، أَنْ يَسْتَيْمَ هَذِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَعَلَى رِصْدِهِ ؛ فَإِنْ مِنْ سَعَادَةِ الْعَامَةِ أَنْ يَجْعَلَ سَائِرَهَا عِنْدَ حِيَارِهَا . وَمِنْ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ عَلَيْهَا الْمَوْجِعُ لَهَا ، أَنْ يَحْصُ شَرَارُهَا بِمَوْضِعِ رَغْبَاتِهَا .

فاسلم كلاك الله هذه النعمة ، غير متفص بها ، ولا مكدر عليك صفوها ، حتى تُسَلِّمَ النِّعْمَةَ الْعَاجِلَةَ إِلَى النِّعْمَةِ الْبَاقِيَةِ ، فَإِنَّا وَإِنْ عَلِمْنَا أَنَّ مِنْ شَأْنِ الدَّهْرِ الْقَدَرَانِ فِي الْعَوَاقِبِ هَذَا عَلِمْنَا أَنَّ مَا أَمْدَى إِلَيْكَ مِنَ النِّعْمَةِ ، قَدْ أَذِيَتْ حَقَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ حَقَّ لِإِخْوَانِكَ فِيهَا ، فَكُنْتَ أَنْحَرَمَسَ نَالَ فَصْلَكَ ، كَرَمًا فِي السَّاءِ ، وَرِضًا فِي الْأَثَرَةِ ، فَبَرَّ مُطَاوِلَ لِمَا نَامِلٍ ، وَلَا مُتَصَبِّعٍ لِمَا تَحْذَرُ ، فَإِنَّا تَجَرَّى شُكْرُ الْمَاصِي مِنْكَ ، وَرَجَاءُ الْبَاقِي ،

هنرى تضييعا ما فى عَقْد الرأى ، وإزراء بنا فى وثائق الأمور، ألا تَمَحْك من أنفِسا مَوْدة الولد ورقة الوالد . وإذا أعطاك أمرؤ ثمرة فواده، فقد فرَح اليك من جميع حَقِّك ، لأن ذات يداصرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر . وكفى لأمرئ من أمرئ أن يستولى عليه حتى لا يَدَعَ لغيره فيه فضلا . وكفى بك لما من غيرك . وكثير منا أن نقوى على أداء أدنى صوف حَقِّك ، غير أن أوتق أمورنا فيك عهد أنفسنا ألا نسامَ النظر الى ممالك بَهيجين بك إن رَدَّتْ، وعادين لك إن شُعلت .

فصل — إن الهدى والضلالة يقتسمان دَوْل الأزمة، لمير كرامة للباطل ، ولا هوان للحق . وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل، وسمعة بين دولة تكون لهم، يقومون لله فيها بحقه ويُظهرون هذه وديته، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كُهوفا للخيرات، ومُعديا للمحسات، يستكنن الحق فى صدورهم، ويأوى البر والصدق اليهم، فهم بين يومئ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفصل .

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين تُخطِ الله وعقوبته، لأن الله تعالى لم يجعل فى الباطل فرجا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانت إملاء واستدراحا، وكاوا فيها على مَدْرَجَة هَلَكَة وسبيل حِمَة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق ، كاوا فيها بين ذل وصيم، وحوف وجرع، وقد سئلت عليهم المطالع، وصافت عليهم الأرض بما رَحَبَتْ . فى أى يومئهم مستراحهم : أيوم دولتهم، وهم لا يشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النعمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يصبرون على الحِمَة ولا يُصبرون من العِى ؟ وأهل الحق بين حالى عِبْطَة وحسبة، وأهل الباطل بين حالى إملاء ويقمه .

فصل فى صفة الجند — إن الغالب على أهواء جماعة من فِظام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرب الى الله بحِمَتِه ومُباحثته وطاعته، ومُعاده مدقه، وتلك نعمة يَتَتَوْنها ويتقربون الى الله بها، ويتوسلون الى الأمير بحِمَى قوم خالوا .

فصل - حل بين فلان وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أَرْضَى
 لربك ، وأجمع للألفة ، وأقوم لعمود الخلافة الذي سَدَّدَ الله دعائم الإسلام وأَسَّسَ الدين به .
 وأعلم أن من حاط الله دينه ، ورمت عن فوقه الجماعة ، وعادى أهل القضا لها ، ابتعثه الله
 أما من حول الحساب وصيق الخشعر ، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكفى لله ببحث افتراض
 عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ) .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكتبه
 لست بما صرَّفت الى من معروفك ماسر مني ، بما أهديت الى من قضاء الحق حلك ،
 وقلة ذوى الحرمة بك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا بأنس إلا بمن يعتمد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يُساوره في أمر حَدَث
 ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة في رأيه ، وأصالة في عقله ، بمستغنى عن مكاشفة
 أهل الرأي ، لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفصل في حلقه ، وإشراكه إياهم ، في عطاياه ،
 فرائك في كذا .

ركب ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد
 الى إسحاق بن ابراهيم الموصلي
 عدى من أبا عبده ، ومُجْتَنَّا عليك ، إعلاماً إياك .

توصل

توصل رجل الى رجل بمحمد بن عبد الملك وأدعى قرابته منه ، وبلغ ذلك متحداً فكتب
 الى المتوصل اليه :

بلغني أن رجلاً ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتاباً ذكر أنه مني ، وما أنكر أن يتفجع بي
 من توسل بنسي ، إلا أنه من ادعى قرابته ، ولا قرابة له ، كان استعمال الشعاة في أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل
أسعدك الله بخارجيتك، التي بذلت فيها مجهتكَ، ومُهَجَّ مَّ هو موصول بك مَّا .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك : من صديق مؤمِّل، أو حم راجٍ، إن منعتهما شتاك
وبهتاك، وإن أعتبهما الباهة اغتالاك^(١) .

محمد بن مُسَعَّر

قال : كُتُّ أبا ويحيى رُ أَكْثَمَ عَدُ سُفْيَان، فكن سُفْيَان، فقال له يحيى : مَا يُيَكِّك
يا أبا محمد؟ قال :

بعدُ جالستى مَنْ حَالَسَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْتَلَيْتُ بِجَالِسَتِكُمْ ،
فقال له يحيى : قُصِيْبَةُ مَنْ جَالَسَتْ مِنْهُمْ بِجَالِسَتِهِمْ لِيَاكَ عَدَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغْلَمُ مِنْ مُصِيْبَتِكَ بَاءً ؟ فقال : يَا عَلَامُ، أَطْنِ السُّلْطَانَ سِيحْتَاحَ إِلَيْكَ .

دخل ميمون بن مهران على بعض حلفاء بنى أمية - وأحسبه عمر بن عبد العزيز - فقال
له وقد قصد في أخريات مجلسه : عِظْنِي، فقال له : إِنَّكَ لَمِنْ خَيْرِ أَهْلِكَ إِنَّ وَقِيَّتَ ثَلَاثًا، قال :
مَا هِيَ ؟ قال : السُّلْطَانُ وَقَدْرَتُهُ، وَالشَّبَابُ وَعِزَّتُهُ، وَالْمَالُ وَقِيَّتُهُ، فقال : أَنْتَ أَوَّلَى تَمَكَّائِي
مَنْ فَارْتَمَعَ إِلَيَّ، فَأَجْلِسْهُ مَعَهُ عَلَى سِرِّرِهِ .

ابن وهب في الاعتذار

لو لم تعدرك لم نعدز أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا في لائمة ههنا، كما كنا لك في عدرك .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفي طائفتك فصل عن إساءتنا، من أين يسقط
بين فضلك والاعتذار !

آخر

فلا من حملة المروف، يكثر عند: هم قليله و شكرهم، ويقل لهم كثيره و عظيم حقوقهم .

فصل — لئ عمت عن رأى يك، لقد أصرت بك .

فصل — تقيب فاشتاق، وتلقى فلا أشتى .

٢ — فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب و أبواب لا نظير لها

من ذلك ما كتبه به و التعميد لله عز و حل و أوائل الفسوح و أواخرها و أوائل الكتب التي فيها تعميد الله عز و حل .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والروية، والمتعزذ بالبقاء والقدره، والمتعجب بالكبرياء والعظمة، ذى الجلال والإكرام، والإفصال والإعلاء، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والتمثل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخر بلا نهاية، الذى لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأنصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حية فى طلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى فى الدهور بلا طهير، وملك السماء بقدرته، وبها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أصطعاهم تجاورته، وجعلهم على طاعته، وزعمهم عن معصيته،

وحماهم حلة عرشه، وسُكَّانَ سَمَواته، ورسله إلى أديانه، يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لَا يَقْتُرُونَ، ودحا الأرض وبسطها لكافة حلقة، وقسم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم في قبضته يَتَقَلَّبُونَ وعلى أفضيته يَحْرُونَ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تمجيد مفرد

الحمد لله العلى مكانه، المير برهانه، التامة كلماته، الشامية آياته، والحمد لله ولى أوليائه وعدو أعدائه .

وصدر تمجيد

الحمد لله العالى الذى لا يُقَلَّبُ، والمُقْتَدِر الذى لا يُعَانِ، والمُنْجِز وعده، والمؤيِّد أوليائه، وانلأتم بالقُلُجِ^(١) والظهور لهم، والمُؤَدِّل من أعدائه، ومُحِيط دائرة السوء بهم .

ولكاتب نَزِيمَة بن خازم فى فتح الصَّائِرِيَّة تمجيد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى الْمَلَكُوتِ والقُدْرَةِ، والخَبْرُوتِ والعِزَّةِ، والسايطان والقوة، أهل المحامد كلها، ومدر الأُمُور وولَّيَّها، وحالق الخلائق وارثها، ومجبتها ومحييها، وناعتها ووارثها، الذى أَوْحَبَ على نفسه بما نَعَدَ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللوح المحفوظ عده إعراز ديه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجتة، وإرهاق باطل أعدائه، الصارفين عن طاعته، والجاحدين لرويته، المكذِّبين بكنته ورُسله، بلع بذلك أمره، ويطبق به كتابه، فإنه يقول تبارك اسمه فى المُتَرَلِّين فرقانه . (بَلْ تَقْدِفْ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) .

وتمجيد لأحمد بن يوسف إلى الولاية عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المِنَّة الظاهرة، والمُنْجِج القاهرة، الذى قَطَعَ بينه وبين عاده المعنيرة، ورادف عليهم البيَّة، ومُهَلَّة الطَّيْرَةِ، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم

(١) الملح . الفلج والفر، يقال قح فلان على حصه، أى طب وطهر .

المكتوب، وما ذَرَّ لهم من ثواب الآخرة النَّجَح المطلوب، فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شقَّى في الرحمة، يختص بها أهلها المتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، الماديرين أعمالهم إلى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَجَع.

وتحميد لإبراهيم بن العباس في فتح اسماعيل
الحمد لله مُعَزِّ الحَقِّ ومُدْبِرِهِ، وقَامِعِ الباطل ومُزِيلِهِ، الطَّالِبِ فلا يَفُوتُهُ مَنْ طَلَبَ،
وَالْعَالِ فلا يُفْجِرُهُ مَنْ عَلَبَ، مُؤَيِّدِ حُلِيِّتِهِ وعِبَادِهِ، وَنَاصِرِ أَوْلِيَائِهِ وَحَرَبِهِ، الَّذِينَ أَقَامَ بِهِمْ
دَعْوَتَهُ، وَأَعْلَى بِهِمْ كَلِمَتَهُ، وَأَطْهَرَ بِهِمْ دِينَهُ، وَأَدَالَهُ بِهِمْ حَقَّهُ، وَحَادَهُ بِهِمْ أَعْدَاءَهُ، وَأَمَرَ
بِهِمْ سَبِيلَهُ، حَمْدًا يَنْقُلُهُ وَبِرْصَاءَ، وَيُوجِبُ أَفْصَلَ عَوَاقِفِ بَصَرِهِ، وَسَوَاحِجِ نَفْسَانِهِ.

التحميد الثاني

الحمد لله الْعَالِيبِ دِي الْقُدْرَةِ، وَالْقَاهِرِ ذِي الْعِزَّةِ، الَّذِي لَمْ يِقَابَلْ بِالْحَقِّ بِاطْلَا فِي مَوْطِئٍ
مِنْ مَوَاطِنِ التَّحَاكُمِ بَيْنَ عِبَادِهِ، إِلَّا جَعَلَ أَوْلِيَاءَ الْحَقِّ مِثْلَ حَرْبِهِ وَجُدَّهِ، وَجَعَلَ الْبَاطِلَ بِهِمْ
فَلًّا مَكْرُومًا، وَدَجِيسًا زَهُوقًا، إِنْ هَمَّ بِهِ أَوْلِيَائُهُ كَانَتْ مَرَاصِدُ عَوَاقِفِهِ مُعْرِقَةً مَا جُمِعَ،
وَمُتَّعَةً مَا أُعِدَّتْ، وَقَانِدَةً مَاشِيعَةً إِلَى مَضْرَعِ الطَّالِمِينَ، حَتَّى يَكُونَ الْحَقُّ الطَّالِبَ الْأَعَزَّ، وَالْبَاطِلُ
الْمَطْلُوبَ الْأَذَلَّ، وَأَوْلِيَاءَ الْحَقِّ الْأَعَزَّ بَدَا وَأَبْدَا، وَأَشْبَاعُ الصَّلَالِ الْأَخْصِرِينَ أَعْمَالًا وَكَيْدًا،
قَصَاءُ اللَّهِ وَسُنَّتُهُ، وَعَادَةُ اللَّهِ وَإِرَادَتُهُ، فِي الْفِتْنَةِ الْمَصْصُورَةِ أَنْ تَمَرَّ وَلَا تُثْرَامَ، وَأَنْ يُمْكِنَ لَهَا
فِي الْأَرْضِ كَمَا مَكَثَ لِلدِّينِ مِنْ قَلْبِهَا، وَفِي الْفِتْنَةِ الْبَاكِينَ عَنْهُ، أَنْ تَرِلَّ فَتَكُونَ كَاتِبَتُهَا السُّفْلَى،
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَكِيمٌ.

وتحميد له مبتدأ مقام بين يَدَي خليفته

أما بعد، فالحمد لله الْأَوَّلِ بِلَا أَيْدٍ يُخْصَى، وَالْآخِرِ بِلَا أَيْدٍ يَتَّقَى، الظَّاهِرِ خَلْقُهُ بِيَرَّتِهِ،
الْمُزَيَّزِ فِي سُلْطَانِهِ بِعَظَمَتِهِ، الْفَرْدِ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ بِقُدْرَتِهِ، الْمُدَبِّرِ فِي مَلَكِهِ بِجَبَّارَتِهِ، الَّذِي نَامَى
عَنِ الْأَشْيَاءِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا تَحْوِيًا، وَاتَّصَلَ بِهَا فَلَمْ يَكُ مِنْ عِلْمِهَا حَيًّا، وَهُوَ فِيهَا غَيْرُ مُسْتَكِنٍّ،

ومعها غيرُ مُتَمَّسٍ في بلج البحار، ومعاوز القفار، وشَوَاحِ الجبال، وكُتُبَان الزوال، مع كُلِّ حَاقٍ، وفي كُلِّ أَفْقٍ، وعلى كُلِّ شَرَفٍ ومكان، وفي كُلِّ وقت وأوان، موجود إذا طُلِبَ، وقريبٌ حيثُ نُدِبَ، عالمٌ خَفَيَاتِ الغيوب، وَخَطَرَاتِ القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من تَجَوُّى ثلاثةِ الأهوراءُهم، ولا خمسةِ الأهوراءِهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ الآهوراءِ معهم، وما تسقط من ورقةٍ ألا يعلمها ولا حبةٍ في طُلمبات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسَ ألا في كتاب مبين .

وتحميد ثالث يتلو الأول

الحمد لله المتعالي عن تشبيه الجاهليين، وتحديد الواصفين، وتكييف الناصتين، يُوصَفُ لا بالقرص والطول، ويُنْتَعَتُ غير الشرح المثلول، ويُنْجَدُ لا بالخلق المعدود، والجسم الموجود، بل يُتَنَاهَى من وصفه، الى ما دَلَّ عليه من صُنعِه، ويُوَقَّفُ عليه من بعته، على ما أَخْبَرَ به عن نفسه، وكيف يُوصَفُ مَنْ لم يَرَهُ أحد، ويُحَدُّ من لم يَحْدِهْ بلد، أو يُنْشَبَ غير ذى أعضاء، أو يُكَيَّفَ غير ذى أجزاء؛ لَوُرِّيَ لَوْصِفَ، ولو وُصِفَ لِمَثَلٍ، ولو مُثِّلَ لَكَانَ لَهُ نَظِيرٌ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، لا تُحِثُّه الأقطار، ولا يحويه قرار، ولا تُدْرِكُهُ الأنصار وهو يدرك الأنصار، وهو اللطيف الخبير، لا يوصف أولاء، ولا يُدْرِكُ أَتْرَاءَ، ولا يُعْرِفُ مُتَبَاهٍ، عَظُمَ أَنْ يَحْصِرَهُ قَهْمٌ، وَجَلَّ أَنْ يُدْرِكَهُ قَهْمٌ، وامتنع من أن يخالَه علم، ولا يُغَيِّرُهُ ليل ولا يومٌ، ولا تأخذه سِنَّةٌ ولا يومٌ، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يَشْفَعُ عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسِعَ كَرْسِيُّهُ السموات والأرض ولا يُؤوده حِفْظُهُما، وهو العلى العظيم .

وتحميد ثالث

الحمد لله الذى أَلْهَمَا من الإقرار بربوبيته، والإيمان بوحدانيته، وأنه غير ذى صَاحِبَةٍ يسكنُ إليها من وَحْشَةٍ، ولا ولدٍ يتكثر به من ضَعْفِ قِلَّةٍ، ولا شريك يعاونه من عجز قُدْرَةٍ، ولا ظهير يكاتفه لَمَلال قُدْرَةٍ، ما جعل لنا به أَوْثَقَ الأسبابِ لَدَيْهِ، وأرجى الوسائل

اليه ، إذ كان من أكر ما دللنا الإقرار به يصير يجحد ما أختصنا الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحككت السُّحطة على أهلها ، وحلّت القُمة بمن فارقها ؛ ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة مه ، بسط اليها آمالنا وأحسن عليها أطامنا بكرم عموه ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ، إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم ، تزييه لهم شياطينهم ، وراست على أفئدتهم ... وما ظلمته قرأهم الى الساس من كل طمع يُعجى وسبر يُنجى ، جرأ بما أشركوا الله ما لم يزل به سلطانا ، إن الله لا يغير أن يشرك به ، وبغير ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشرك بالله فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

ونحمده يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذي استدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتداء ، لجعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تدبيره ، وتصاريق أموره ؛ مُجما واضحة ، وآيات بينة ، وعبرا شافية ؛ تشهد له بمرّة القدرة ، ونفاذ الحول والقوة ، خلاق مدبرا بلا مشورة أحد ، ساعدا دحاهن على المساء على غير مسند ، مبسوطات في تكاثف أجزاءهن ، على معين ماء مسخر من تحت ، حرّ حلالن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أقواتا ، وحصل لهن من الجبال أوتادا ، ثم استوى الى السماء وهي دُحان ، فقال لها ولأرض آتينا طوطا أو كرمها قائلا آتينا طائعين . ففطر من الدخان في ختمه على الهواء سبعا ، جعل بينهن من الجو مُتسما ، سبغ سموات طباقا مُرتبعتا ، بلا دعائم قبلها ولا علاقات ، يُمكنهن قدرة أن يرتفعن فوق ما حبسن عليه ، وأن يهوين الى قرار دون ما رصهن اليه ؛ فأنهن صنتها ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشُّهب الثاقبة ، والنجوم الراضعة ، وسحر الشمس والقمر علميا للهدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجوا للشياطين ، وأوقاتا لاحتلاف السين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل

سابق النهار وكل في فلك يسبحون ، فصباح سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ بلا معاناة لقول ، ولا ضعف من حول ؛ ثم أسكنهم من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتنامهم لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يُشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبُهتاناً ، يُسبِّحونه بالليل والنهار لا يعترفون ولا يسأون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يحافظون ربهم من فوقهم ويعملون ما يؤمرون .

ونحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأمر دينه وأكرم طاعته أوليائه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، جعل جنته منهم المصورين ، وحر به منهم العالين ، نهج بهم سبيله ، وأقام بهم حجته ، وحاهد بهم أعداءه ، وأطهر بهم حقه ، ولقح بهم الباطل وأهله ، وأعل كلتهم ، وآيد صرهم ، وألف لهم وبهم ، ومكن لهم في الأرض ، جعلهم أئمة وجعلهم الواردين .

والحمد لله المعز لدينه ، المظهر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المكن لحزبه ، المنتقم بهم ممن صدف عنه ، مؤيداً لدينه بالصر ، ليظهره على الأديان ، وحفه بالعر ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وحجوده بالعلج فهم الأعلون إن استصبر بهم ، والأعزون إن كاد بهم ، والأقربون منه إحلاصاً وعملاً ؛ حمداً يؤازر معه ، ويمتري بمثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البَيْعِث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أبنائه وحلفائه ، وهادئ أوليائه ، أولياء الحق وحزب المُنْدى ، الذين أقام بهم سبيل الرشاد ، ونصب بهم مناهج الدين ، فأظهره على الدبر كله ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تمجيد الله وتمجيده

أما صد ، فالحمد لله الذى حلت بعمه ، وتظاهرت منه ، وتناحت أباديه ، وعم
إحسانه ، إله كل شئ وحالقه ، وارثه ومصوره ، والكائن قبله ، والباقي بعده ، كما قال
في كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر
فوق عباد ، المتعالى عن شئ حلقه ، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير ، خلق العباد
بقدرته ، وهدام برحمته ، وأوضح لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم
من عبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال حل حلاله : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ حَمَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهْيَبٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَفَخَّ فِيهِ مِنْ
رُوحِهِ وَجَمَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من حلقه إياهم بتبليغه ما مثل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلام
التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، وبسرهم خواطرم وفكرهم ، والهيئة
التي هياهم لها ليقع الأمر والهي عليهم ، فلا يكلمهم فوق طاقتهم ، ولا يحشمهم ما يقصر
عه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ، ليؤمنوا به ويعبدوه ، فيستحقوا
به رحمته ورضوانه ، والخلود فى النسيم المقيم ، والطلل المديد ، والعيش الدائم ، كما قال
تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رِجِمَ رَكًّا وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من ظره ورأفاه بهم أن
بعت فيهم أنبياء ورسله ، يدعوهم الى طاعته ، ويبينون لهم هدايه ، ويوضحون لهم سبيله ،
ويهدونهم الى رحمته ، ويعيدونهم نوابه ، وينذرونهم عقابه ، ويسطون لهم توبته ،
ويحذرونهم خطئه ، ويبينون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواعظه ، ويعلمونهم
كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من راحته بهم ، ونظره لهم ، أن ينهم اليهم بالجميع الظاهرة ،
والأعلاخ البينة ، والشواهد الطائفة ، التى أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليّهم ، وأثابهم عمل سواهم ، ليكون أدعى لهم الى تصديقهم ، والقول عنهم ، وأؤكد
للحجة على من أبى ذلك منهم .

ومحمد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرا بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور
والرّهان ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدّم بالمرّة والعقول على أهلها ، قبل
استحقاقهم لثبوته ، المحاطة على شرائع طاعته ، الذى حصل ما أودع عاده من نعمته ،
دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أفاضهم من الآليات ، التي يفهمون بها فصل الخطاب ؛ حتى
أقتنوا علم موارد الاختبار ، وثيقوا مصادر الاعتار ، وحكوا على ما يظن بما ظهر ، وعلى
ما غاب بما حصر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتَقَنِّ صنعته ، وحاجة مُتَرَاوِلِ
حلقة ومُتَوَاصِلِهِ ، الى القوام بما يُلْمُهُ ويُصلِّحُهُ ، على أن له نارا هو أنشأه وابتدأه ، وبسر
بعصه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ في تصرّف أحوالهم ،
وموئد استعالمها ، وما يُطْهَرُونَ عليه من العجز عن التأمّل لما تكاملت به قواهم ، وتمت به
أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلقة المُحَكَّمة ، والصورة المُعْجَبة ،
ليس لهم في شيء منها تَلَطُّفٌ يَتِمُّونُهُ ، ولا مَقْصِدٌ يَتِمُّونُهُ من أنفسهم ، وإنه قال تعالى
ذِكْرُهُ : ﴿ زَيَّأُوا الْإِنْسَانُ مَا عَمِلَكُمْ رَبُّكَ الْكَرِيمَ أَلَدَىٰ حَقِّكَ قَسْوَاكَ فَمَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ
مَا شَاءَ رَجَّلَكَ ۚ وَمَا يَتَعَرَّوْنَ فِيهِ مِنْ حَلْقِ السَّمَاءِ وَمَا يَجْرِىٰ فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ۚ وَالْعُجُومِ
مُسْتَحَرَاتٍ عَلَىٰ مَسِيرٍ لَا يَثْبُتُ الْعَالَمُ إِلَّا بِهِ ۚ مِنْ تَصَارُيفِ الْأَزْمِنَةِ ، الَّتِي بِهَا صَلَاحُ الْحَرْثِ
وَالْقَسْلِ ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ ، وَلِقَاحِ الْبَيَاتِ وَالْأَشْجَارِ ، وَتَعَاوُرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَتَمَرُّ الشُّهُورِ
وَالْأَيَّامِ ، وَالسَّيْرِ الَّتِي تُحْصَىٰ فِيهَا الْأَوْقَاتُ ۚ ثُمَّ مَا يَوْجَدُ مِنْ دَلِيلِ التَّرَكُّبِ ، فِي طَبَقَاتِ
السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْمَهَادِ الْمَوْصُوعِ ، بِاخْتِلَافِ أَجْرَانِهِ وَالتَّامُّهَا ، وَخَرَقِ الْإِنْهَارِ ، وَإِرْسَاءِ
الْجِبَالِ ، وَمِنْ التَّامِّ الشَّاهِدِ عَلَىٰ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ مِنْ إِنْسَانِهِ الْخَلْقِ وَحُدُوثِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ ،
مُتَرَقِّيًا فِي النَّمَاءِ ، وَثَبَاتِهِ إِلَىٰ أَجَلِهِ وَالبَقَاءِ ، ثُمَّ غَايَهُ مُقْصِئًا إِلَىٰ آخِرِ الْفَنَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

مُفْتَحُ عَدَدٍ ، وَلَا مُقْطَعُ أَمَدٍ ، وَمَا أَزْدَادُ بَنَشْوَةٍ ، وَلَا تَحْقِيقُهُ تَقْصَانُ ، وَلَا تَهَاوَتْ عَلَى الْأَزْمَانِ ، لِأَنَّهُ مَا لَا حَدَّ لَهُ وَلَا مَهَادَةَ ، عَيْرٌ يُمْكِنُ الْإِحْتِمَالُ لِلْقَصِّ وَالرِّبَادَةِ ، ثُمَّ أَجْرَى فِيمَا ذَكَرَ مِنْ حَلْقِ اللَّهِ وَحَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَصَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَ بِهِ مِنْ مَبْثُوثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَانِهِ .

وتحميد للعباس في مقام له بين يدي المأمون

الحمد لله على صمه عليا ، وإحسانه إليا ، بالأرض المبتسطة ، والسما المرفوعة ، والرياح المسحورة ، والأمطار الباردة ، والأوقات القائمة ، والمنايع الداعمة ، والديس الميس ، والأدب القويم ، حمداً يكون إليه صاعدا ، ولديه نائبا ، ولملكوته مائلا ، والحمد لله حمداً يثبت رسوانه ، ويورث إحسانه ، ويوجب مزيدَه ؛ فهو المسم المحمود ، والمتطوّل المشكور ، لا إله إلا هو لا شريك له ، كما شهد الله وملائكته قائما ما يقسط لآله إلا هو العزيز الحكيم .

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الحروري

الحمد لله الناصر لبيته ، وأوليائه وحلفائه ، المطهر للحق وأهله ، والمبدل لأعدائه وأهل البدعة والصلابة ، الذي لم يجمع بين حقٍّ واطل ، وأدب طاعةٍ ومعضية ، إلا حمل الثمرة والفلاح والمقامة لأهل حقه وطاعته ، وحمل الخزي والدلة والصغار ، على أهل الباطل والخلاف والمعضية ، حمداً يتقلبه ويرصاه ، ويوجب به لأمر المؤمنين وأهل طاعته الريادة التي وعد من شكره ، والحمد لله على ما يتوسل من إعزاز أمر المؤمنين ونصره وإفلاحه وإظهار حقه ، على ما وقع بأعدائه وأهل معصيته والخلاف عليه من سطواته وقهاته وأسه ، فيما ولي أمير المؤمنين من موالاة من والاه ، وعداوة من تنى عليه وعاداه ، لا يكله في شيء من الأمور إلى نفسه ، ولا إلى حوله وقوته ومكيدته ، فإنه لا حول ولا قوة لأمر المؤمنين إلا به .

وتحميد في آخر فتح

الحمد لله المُرسل إليه ، المظهر لحقه ، الناصر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهل الكفر ، المُرسل بهم من مأسه ، وثقمته وجوانحه ، الذي لم يجمع بين أهل حقه ، وباطل عدوه ، في موطن من مواطن النجاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفر ، وأفرج عليهم الصبر ، ومسحهم الصبر ، وجعل الدائرة وسوء العاقبة على عدوه ، وأهل الكفر ، حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويحسُّ به المزيد .

وتحميد في فتح الى أمير القمامة

الحمد لله الفتح العليم ، الذي خص الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ الحمة ، وأحسن الولاية ، وأعظم الكفاية ، وحفظ ما استرعا ، وأعزّ أولياءه . وفتح بالمدّة أعداءه ، وجعل حسن السابقة له ولأهل طاعته ، ودائرة سوءه على أهل معاندته ، حمدا يحسُّ به القواء ، وتريد به السماء .

وصدر تحميد لفسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الذي لا يُدرك حبر إلّا برحمته ، ولا يُسال الفصل إلّا بشفاعته ، وليّ التسديد للحصايات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المتبرّ برهائه ، العزيز سلطانه ، الثابت كلمائه ، الشافيه آياته ، النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه مُلكه ، وعزّ في سماواته بظلمته ، ودبر الأمور علمه ، وقدرها بحلمه ، على ما يشاء من عزّمه ، مُتديعا لها بإنشائه إياها ، وقدرته عليها ، واستصغارها عظيمها ، نافذة إرادته فيها ، لا تجرى إلّا على تقديره ، ولا تنتهي إلّا الى تأجيله ، ولا تقع إلّا على سق من حتمه ، على كلّ ذلك بلطعه وقدرته ، وتصريف وحيه ، لا تعدل لها عنه ، ولا سبيل لها غيره ، ولا علم أحدٌ بخفاياها ومعاياها إلّا هو ، فإنه يقول في كتابه الصادق : ﴿ وَعِنْدَهُ مَعَائِجُ الْغَيْبِ ... ﴾ الى آخر الآية .

ونحميد ثان

الحمد لله الذى علا بالتحبب التى استتر بها عن جميع خلقه ، وأستغنى بها عنهم لما تَوَحَّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة ، رموا عليهم بجمَّة ومُتَعَاوِلَا وهو فيما يُبْحَى من أقداره ، معصلا لهم بابتدائه خلقهم فى أحسن تقويم ، وإعطائه إياهم حائل كل حير مقسوم ، وتسعيه لهم جميع ما فى السموات والأرض ، وتسطه لهم فى معانيهم أوسع الرزق ، وإسباغه عليهم فيما أفصل المم التى لطفت فطنت ، وعظمت فطهرت ، وليست فعمت ، وانتشرت خلقت ، وكثرت فلا يحصيا عاد ، وجرت فلا يؤدى حق ما أقرض منها شاكر ، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَمُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُغْنِصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَمُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يقتصر بهم فى إكرامه وتفصيله إياهم على عاجل ، فإنه مُضْمِلٌ زائل مما أعطاهم إياه ولم يكلفهم فى معرفة حائقهم تبارك وتعالى ، ومُتَوَلَّى المم عليهم ، والاحسان اليهم ، والارتياش لهم ، ولا فى مُبْتَنَى سبيل طاعته ، وأداء حقه ، وشكر نعمته ، واستجاب غبطه المعاد اليه الى أن يَؤُوا ذلك عقولهم ، والظرف فيه بالسهم ، والتصريف له على أهوائهم ، فإنه لو ألبأ ذلك اليهم ، وأفردهم فيه الى أنفسهم ، ووكلهم فيما أمرهم به الى معدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولتاحت فيه منهم العقول ، ولأضلَّهم عن قصده الممى ، ولمال بهم الى غيره الهوى ، ولاستحكم عليهم شرك الردى ، ولكنه بحث فيما ألباه الهاديس ، يدعوهم الى الصراط المستقيم ، بسوره الممى ، وديه القويم ، وآياته البينة ، وكُتبه العارقة التى يتن فيها تحابه ومكرهه ، وطاعته وممصيته ، وثواب العريقين فى ذلك من عاده ليحدروا ما حذرهم فيه من مُحْطه ، ونزل بهم فيه من يقمته ؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكشَّف لهم الجهالة ، وهدى من الصلالة ، ونصرهم سبيل الحق ، وبين لهم معالم الإسلام ، ليرجع جائز ، ويقصد زائع ، ويعرف جاهل ، وليعبد الرب بما وحد به نفسه ، وليستعين العلم ، ويستعين الحق ، وليبتغى من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع ، وأداء فرائضه التى قرَّض ، وإيتاء طاعته التى أوجب ، وليكون لله

الجمعة البالغة على عادته فيما تركوا من ذلك وسفّهوا بعد استبانتهم لهم ، واستفاضته فيهم وإعداده اليهم ، فانه يقول : ﴿ لِيَبْلُوكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيَّةٍ وَيَحْيَىٰ مِنْ حَىٍّ عَنْ بَيَّةٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَسْمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَحْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَحْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ﴾ .

لأنس بن أبي شريح

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالمقول مجبته ، الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أميا فوق له ، ومسلما فاذى عنه حجج به المنكر ، وثأف به المذير ، وثبت به المستنصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعية دينه ، ثم أورثكم عهده وخصمكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الواسعة .

ولعبد الحميد في فتح

يُعظم فيه أمر الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فالحمد لله الذي أصطفى الإسلام ديناً رضى شرائعه ، ودين أحكامه وورثه ، ثم كتمه بالسر المؤيد ، وأيده بالظفر القاهر ، وأزله بالسعادة المتجبة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جنده الغالين ، وأنصاره المصلين ، كلما قهر بهم ماوتوا أورثهم رباقتهم المأمولة ، وأموالهم المثيرة ، ودارهم العسيحة ، ودولتهم المطولة ، أمرها حتمه على نفسه ، ثم جعل من عابدهم وأبتغى غير سبيلهم مسلما قد استهوت به ذلّة الكفر طغلبها ، وحيرة الجهالة بيجوارها ، ونيه الشقاء بمغاويه ، وكلما ازدادوا لدعوة الحق إباء ، ازداد الحق اليهم ازدلافا ، وعلينهم عكوكا ، وهيم إقامه ، الى أن يحل بهم غير الغلبة ، ونحاة المتجاوز ، راعين فيما شوقهم اليه ، محتاطين على ما يندبهم له ، قد بدّلوا في طاعة الله دماءهم ، وقبّلوا المعرض عليهم في مبايعه ربهم لهم بأصمهم الجملة . محمود صبرهم ، مستحل بهم عزهم ، الى حيز الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذي أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أمته ، أن اختار لموارث نبوته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن نبوض به ونفع عليه ، ومواسية فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذي تم وعده لرسوله وحليفته في أمة نبيه مسلما

له بما أكرم عليه . والحمد لله المعزّ للبيه ، المتولّي بصراحتة ببيته المتخلّي من عاداهم وناوَاهم ،
حمداً يزيد به من رضى شُكره ، وحمداً يطوّر حمد الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم
بِعَمِّه فلا توصف ، وحلت أياديه فلا تُحصى ، الذى حَمَلْنَا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ،
وامنه يستعين أمير المؤمنين على ذلك ، وإليه يرجع ، إنه على كل شئ قدير .

ولعبد الحميد أيضاً

أما بعد ، فالحمد لله الذى اصطنع الإسلام لعبه ، وأرتضاه ديناً للملائكته ، وأهل طاعته
من عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ولجأةً وسعادةً لمن هدته به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم
وجعلهم بما أكرم عليهم منه أوليائه المقربين ، وحرته العالين ، وحدته المصورين ، وتوكل
لهم بالظهور والعلوّ ، وقضى لهم بالعلوّ والتحكين ، وجعل من حاله وعزّه عه وابتنى
سبيل غيره أعداءه الأتقيين ، وأولياءه الشيطان الأحمسين ، وأهل الصلابة الأسفلين ، مع
ما عليهم فى دنياهم من اللذل والعصّار ، وما تحل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد
لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عزيزٌ ذو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضله تفضيلاً ، فلم يبق ملك مقرب ،
ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتد إلا دانّ به ، واتصل إلى ولاية الله بما هداه له
منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وحبرته من أهل الإسلام الذين اصطنع ، تفاسمٌ
ولا تقاطعٌ ، ولا تحاسدٌ ، ولا تقاطعٌ ولا تدابرٌ ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتآزر
والتراحم ، والتوادد والتصاف ، قلوبهم متفقةٌ ، وأهوائهم مؤتلفةٌ ، وأيديهم على أهل معصيته
مبسوطةٌ ، أوصوا على الحق ، وإحواوا فى الدين ، أَلَفَ الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ،
فقال فى كتابه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ (إلى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه
فما بينهم ، وكذلك كان أسلاف الحق قبلهم ، فى توادد وتبازرهم ، وتواصلهم وتمازجهم ،
وبذلك دانّ أهل السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يحتذوا مثالا غيره ، وبه يدين

فه الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة، سنة مسنونة، وشريعة متبوعة، لا يتفنون بها بدلاً، ولا يريدون عنها حولا، ماكل طاعة الله اهل سلامة في دنياهم، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم، لم تقطع الولاية فيما بينهم، لاقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، جمعهم في داره وجواره، كما آلف في الدنيا بين قلوبهم، وعصم بالإسلام ألفتهم .

تحميد

الحمد لله المنيب على حمده وهو ابتداءؤه، والميم بشكره وعليه جرائؤه، والمضي بالإيمان وهو عطاؤه .

ولقأمه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام ومصله، وشرفه وعظمه، وأعل منزله، وجعل أهله القامنين به، والحمددين عليه، أوليائه وحزبه الذين قصى لهم بالتمكين، والظهور على الدين كله ولو كره المشركون .

ولزيد بن علي رحمة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النعم بالشكر، والشكر بالمزيد، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة، وأن تركه خطيئة مهلكة، وأومن بالله إيماناً نفى إحلاسه الشرك، وبقية الشك، وأتوكل عليه توكل الوافي به ثقة أهل الرجاء، ومفرج أهل التوكل .

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي آختر الاسلام دياً لعصه، وأنبيائه ورسله، وشره وعظمه، وأثاره، وأظهره، ونزهه وأعزّه ومعه، ولم يقبل غيره، ولم يجعل حُسن الجزاء إلا لأهليه، الدين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمغفرة والرافة، وعلى من خالفه وابتنى غير سبيله الحسرة والتندامة، واللثة والعتار في الآخرة والأولى، والمات والمحق، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذي اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نُسوته ، واختاره له من رسالته ،
وحبّاه بفضيلته ، وأجناه من أفضل عماير العرب ، وأشرفها منصّباً ، وأعرقها حسناً ،
وأكرمها نسباً ، وأورأها زبائداً ، وأرفعها عماداً ، فعمته النور ساطعاً ، وبالخلق صادعاً ، وبالهدى
أصرأ ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى الدين مُهيماً ، وإلى سبيل ربّه داعياً ، وبالكتاب حاملاً ،
ملغ عن الله الرسالة ، وهدى من الصّلالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنجى معالم الدّين وأدى
فرائضه ، وبتّ شرائعه ، وأوضح سُننه ، ونصح لأئسته ، وحاهد في سبيل الله حقّ جهاده
حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تمجيد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإظهار حقّه وإعادِ سابق قصائنه فيمن ذرّاً ورّاً من عباده ،
بإدخال من أراد أن يدخل في رحمته ، وإعجابه ما حقّ له من العبادَةِ على خلقه ، بابتدائه
خلقهم ، ومطاهرته الآلاء عليهم ، وإحسانه الالاء صدمهم ، وإبلاغه في الحجج إلى عامتهم ،
ديار رعيه نفسه وملائكته الذين أسكنَ سماواته ورسله ، فأتى على وحه من لم يرض
إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعزّه به منه ، وأطهر به ووره ، وأراد أن يسلو به
عباده ، تحقيقاً لما سقى به علمه ، وإهدافاً لما جرت به مقاديره ، أن بعثَ إلّا شرع من
ديسه . وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين ، من ارتضى واختار من أنبيائه
ورسله المُجتبى ، لتبليغ رسالته وإظهار حقّه ، وأسْتَشْلَ (١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة
التي أطلعت عليهم وعيّنهم ، ليعدّ ملخصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له
بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لما أُرسلوا به ، والنصيحة لمن أُرسلوا إليه ،
غير مغنّين فيما بُعثوا له ، ولا متفرّقين فيما استعملوا فيه ، يدعوهم آخر إلى ما دأبهم إليه
أول ، فيصدّق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدّون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فصت
رسل الله وأنبيأؤه على ذلك سالكين منهاج الحق وسبيله ، والدُّعاء إلى الله عز وجل وإلى

طاعته ، هادين مهدين غير محوسين شيئا مما كانوا أهلّه في المنزلّة عند الله ، والقرّة منه ، والوسيلة إليه ، هم ومن آمن بهم وعزّزهم ، وآتّع الور الذي أنزل مهمهم ، حتى قصص بهم الأنهار ، وتقطعت بهم الآنار . وتحرمتم الاحال .

وكذا لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمة قدّمها لماده قبل خلقه إياهم ، واستجابه إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشرّعه لهم ديناً يديسون به ، ثم جعل محبته وحبه ومتابعة رُسله رحمة تلافهم بها بعد تقديمها ، ومنة طاهرها عليهم قبل استجابه لها ، تطوّلاً على العباد بالعباد ، وإعداداً اليهم بالحجج ، وتقدّمة بالوعد ، وإنداراً إليهم عواقب سمطه في المعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقّه على قتره من الرسل ، وطُوموس من معالم الحق ، ودرويس من سُلّ الهدى ، عند الوقت الذي بلغ في سابق علمه ومقاديره ، أن يحتجّ لدينه الأصمياء ، ويختار له الأولياء ، الطاهرين بحقه ، القاهرين لمن ابتغى سبيلاً غير سبيله ، معظّم حرمة ، ووسّع حورته ، وصدّع أمره ، وحاهد عن حقه في حومات الصلّاة وطُلمات الكمر ، الحلق المين ، والسرّاح المير ، ثم حملّه مصدّقاً لمن سبقه من الرسل ومُجدّداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة ، ثم حمل لدينه وطائف وظفها على أهلّه ، وشرائع شرّعها لهم لا يَجُكُّ ديبهم إلا بها ، وحمل أداها إليه ، واعتصامهم بها إماماً لدينه ، ونظاماً لنوره ، وقواماً لحقه ، واستيحاً لما وعدّ عليه من ثوابه ، وأثماً لما أوعد من حاقه من عقابه ، فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأحرل لهم فضله وأجره ، وجعل لهم عزّه وعُلوّه ، واختار لهم العلة والمقامة على من فارقتهم فيه إلا معرفتها ، وأداؤها بما يُستكمل به حدودها ، وتما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لنفسه ، ورعى أن يعبدّه من في سمواته من الملائكة المقرّين ، ومن في أرضه من النّبيين والرّسّلين ، ومن آمن بالنور الذي هداهم له من التّجّلين ،

واختار لرسائله في سابق عهده ، والدكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تمجيد

الحمد لله المتكبر في حروته المتعبر بسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحجب عن خلقه ، فلا تُدركه في الدنيا أَسَارُ الباطرين ، ولا يُحيط به أوهامُ المتوهمين ، ولا تبلغه صعادتُ الواصعين ، الذي لا يؤوده عظيم ، ولا يموته مطلوب ، ولا يحجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تمجيد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذي فصل بين الحق والباطل ، وفقد قضاؤه في خلقه ، وحكم مبهم بجرى حكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعز والفلاح ، والتكفين للحق وأهله ، وبالدلل والوقيم والخزى والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً حاريةً باقيةً ، وسنةً ماصيةً ، لا رادَ لما قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذي احصى محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصططحه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، بما أحل وحرم ، ورصى ومحط ، وأمر به ونهى عنه ، وحمله حاتم التبيين والمُهيئ عليهم ، وكناه الذي أنزل ، آخر الكتب المصدق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تمجيد في الإسلام وما آمنت به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لدين الله الذي ارتضاه لنفسه ، ولين اصطفاه من خلقه ، واجتباؤه من عباده وجعله ممثلاً بين المُنْدى والضلالة ، وفُرْقانا بين الحق والباطل ، وحاجراً بين الكُفْر والإيمان ، وظوائف وظفها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، فجعل أدامها إليه وبمرقتها له ، وعافظتهم عليها ،

واعتصامهم بها قواما لدينه ، ونظاما لنوره وثباتا لحقه ، واستحيابا لما وعد من ثوابه ، وأما
لما أوعد من عقابه . ليس يسع أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الدين
ستامهم المسلمين بالإسلام ، وأحرز لهم فضله وعمره ، وأصاب لهم القلب على من حالهم وطارقهم
بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله ، والتكذيب بكتبه ورسيله ، ودلتهم فيه قراؤهم ،
وقادتهم إليه أهواؤهم ، من الملل الضالة ، والأديان المجموعة ، التي لم يتزل بها من الله سلطان ،
ولا كتاب ولا برهان ، إلا مفرقتها وأداؤها بما بُسّطت من حدودها ومعاملها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم
أما بعد ، فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وقدر الأمور صلبه ، وأشد على ما مضى من
مشيئته ، من غير أن يكون له ظهير في ملكه ، أو مُعبر على ما يرى من عجائب خلقه ،
واحتذاء به على سابق من صفة غيره ، فوجد نفسه ما تعجز به دون غيره من خلقه ، ليُعد
مُخلصاً مُبرأ من الأنداد ، إتماماً لنوره ، وتميزاً لتوحيده . وتأييداً لِدِينِهِ ، وإعلاءً لمن اعتصم
به ، وإفلالاً لمن حاله وعدده وعيد غره ، وإحقاقاً لكلبه ، فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ
حَقَّقَ كَلِمَہٗ رَبِّكَ ۖ الْآيَةُ ۚ بِذَلِكَ أُنْزِلَ كُتُبُهُ ۖ وَأُرْسِلَ رُسُلُهُ ۖ وَاحْتَجَّ بِهِمْ ۖ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ السَّالِمَةِ ، وَالْأُمَمِ الْحَالِيَةِ ، بِدَعْوِ آخِرِهِمْ إِلَى مَا سَقَى إِلَيْهِ أَقْلُهُمْ ، مِنْ
عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، لَا يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ قَوْلِهِ ۖ وَلَا يُؤْتُونَ مِنْ كُتْرِهِ ۖ يُعْزِمُهُمُ اللَّهُ قُوَّتَهُ ،
وَيُؤَيِّدُهُمْ بِجَدِّهِ ، وَيَصْرِفُهُمْ وَيَصْرِفُهُمْ إِلَى أَنْ تَحْتِثَّ اللَّهُ تَحْتِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا خَصَّهُمْ
بِهِ ، وَجَعَلَهُ مُصَدِّقاً لَهُمْ ، وَمُهِمِّناً عَلَيْهِمْ ، وَحَاتِمَ الدِّينِ بَعْدَهُمْ ، يَمِصُّ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيَجَاهِدُ
مَنْ لَمْ يُجِبْهُ إِلَى الدِّخُولِ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَأَظْهَرَهُ اللَّهُ وَأَنَارَ حَقَّهُ ، وَأَرْهَقَ عَدُوَّهُ ، وَأَعْجَزَ مَا وَعَدَهُ
وَأَتَمَّ بِذَلِكَ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ أَتَمَّهُ ، فَإنه يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ۖ ۝

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح العليم ، الرحمن الرحيم ، العزيز الحكيم ، الذي أعز الإسلام بقدرته ،
وأيد به نصره ، فلم يُلحِد فيه مُلْحِدٌ ، وَتَسْتَبِيحُ الْكَلِمَةُ وَتَقُوتُ الْعَصَا سَاعَ ، وَيُوضَعُ

في الكفر والمعصية مُوضِعٌ، ويمتنع من قصائده وإرادته مُمنعٌ إلا أذله الله وقصمه، وأضرع خذله، وأنعس خذله، وضلل سعيه، وتغلل تواراه واستنصاه به حمدا دائما لا انقطاع له، ولا نغاد لمذته .

تحميد ثامن

والحمد لله الذي احتار الإسلام وشره، وكرمه وطهره، وأطهره وأعزّه، وفطر طيبه ملائكته، ونعت به ألباءه ورُسُلَه . واحتار له حيرته من خلقه عجا صلي الله عليه، فبعثه رسالته، وأكرمه توحيه، وأصطفاه على خلقه، بَشْرَ بالجنة من أطاعه، ويُنْذِرُ بالنار من عصاه . وجعله ديبه القم الذي لا يُقبل دينا غيره ولا يُنيب أحدا إلا عليه .

تحميد في فتح

الحمد لله العريرى ملكوته القاهر فوق رتبته، الذي خلق الخلق بقدرته، وأنقذ ميهم لإرادته ومشيئته، وقدر كل شيء وأتقنه وأحكمه، وأحاط علما به، فلا يهرب منه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

صدر تحميد في فتح

الحمد لله الذي استدع الخلق لا من شيء، وجعل الليل والنهار كهفا ومستجنا لكل حق، مُقدِّرته تتحرك البحار، وجرث لمواقيتها الأنهار، فدار وطارد الليل والنهار، لا إله إلا هو ربُّ المرش العظيم .

والحمد لله الذي فات عظمتُه أنصار المرتين . وعلا بحمده عن خطرات الحاسيين، واحتجب بأستار خبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمقين . ولم تحوئ الكعبة، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكيفية، ولا أدركه حاجس تبعيض ولا كُفْيَة، ولم يُنسب إلى زياده في حين، ولا إلى قصيره في شهور ولا سنين، فكل أمره - عزَّ جلاله - تمام ودوام، وكل صفات صمعه اعتدال وكأل، وكل ما دونه يحتكم فيه الصفاء والزوال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

والحمد لله الذى عرفنا ربوبيته إماما ، ونهجه لنا سبيل طاعته مآ وإكراما ، وتعبنا بفرضه تقويما وتعلينا وأمتانا ؛ فقامت علينا وعلى الخلق حجته ، بالصاعد أمره ، والمبلغ لرسالته ، والمجاهد فيه حق جهاده ، عهد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر تمكنه ، ونصر وليه ، وحدل عدوه ، وأوقع بأسه ونقمته بمحل العرية ، وجرثومة الضلالة ، ومنح الشرك ، ومزكر الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء ، وسفك الدماء ، والمثلة بالأسرى ، وقلة المراقبة والأرصاء .

تمجيد

الحمد لله حمدا يكون رضاه مستباه ، والمزيد من فضله جراءه . والحمد لله حمدا اليه ينأهى حمد الحامدين ، وشكر الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحصى نعمائه ، ولا تُحصى آلائه ، ولا يُكافأ بلاؤه ، ولا يُبلغ شكره إلا بتمه وتوبيقه ، حمدا يرصاه ويتقبله ، وزكوا لآله ، ويوجب ما تأذق للشاكرين من يده .

تمجيد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، دى المآ والإمام ، والحلال والاكرام ، الذى أصطفى الإسلام دينا ، وأصطفى له من عباده أهلا هداما له ، وأكرمهم به ودين لهم ما يأتون ، ولم يتركهم في ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ، فله المحبة البالغة ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حن عن بينة ، وإن الله لسميع عليم .

والحمد لله الذى ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتبعه لأبع الرسالة ، وعنه إلى خلقه كافة ، فتلغ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما عنه له بحقه ، ثم أنجز له وعده ، وأتم له كلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الدين كله ولو كره المشركون .

تمجيد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأئول الآخر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القوى العزيز ، الذى لا يقدر العباد قدره ، ولا يحصىون نعمه ، ولا يبلغون شكره ، المحيط بكل شئ ، علما ،

والمُخَصَّى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا - فَلَا تُعْجِزُهُ كِبَرٌ ، وَلَا يَمُوبُ عَنْهُ صَغِيرٌ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِجَنِّهِ ، سَمْعَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تمجيد

الحمد لله المتَّوَحَّدُ بالخَلْقِ والأَمْرِ ، هَادِرًا قَاهِرًا أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
عَدَدًا ، وَمَلَأَهُ عَظَمَةً ، وَوَسَّعَهُ عَدَلًا ، وَأَتَقَنَهُ صُنْعًا . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْحَقِّ مَنْ أَطَاعَهُ ،
وَأَذَلَّنَا بِالطَّائِلِ مَنْ عَصَاهُ ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْجَاهِلِيَّةَ حَرْزًا حَرِيرًا ، وَمَوْتَنَا مُنِيفًا ، فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ
أَهْلِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ ، وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ ، إِلَّا تَوَحَّدَ الصَّامِعُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَأُنْجِحَ سَعْيُهُمْ ،
وَأَعْلَى كَلِمَتِهِمْ ، وَأَهْلَجَ مُخْتَلِمَهُمْ ، وَأَزَلَّ أَهْلَ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ ، الرَّادِّينَ لِأَمْرِهِ الدَّلَّةَ
وَالصَّغَارَ فِي عَاجِلِهِمْ وَأَحْلَاهُمْ ، حَمْدًا يَكُونُ لِمُزِيدِهِ مَوْجِبًا ، وَلِحَقِّهِ مُؤَدِّيًا .

تمجيد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أَنَا سَعْدٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْحَمِيدِ ، الْعَالِمِ لِمَا يَرِيدُ ، الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ ،
وَأَمْضَاهُ عَلَى مَشِيئَتِهِ ، وَدَبَّرَهُ بِعِلْمِهِ ، وَأَظْهَرَ فِيهِ آثَارَ حِكْمَتِهِ الَّتِي تَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ،
وَتُسَبِّحُ لِدَوَى الْأَلْبَابِ رُوحَ بَيْتِهِ ، وَتَكُذُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي مَلَكَةِ فَيَازَعَهُ ،
وَلَا مَعِينٌ عَلَى مَا خَلَقَ فَتَلَزَمَهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَ بِتَصَرَّفٍ عَادَةٍ فِي حَالٍ إِلَّا كَانَتْ دَلِيلًا
عَلَيْهِ ، وَلَا تَقَعُ الْأَنْصَارُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانُوا شَاهِدًا لَهُ ، عَمَّا رَسَمَ فِيهِ مِنْ آثَارِ صُنْعِهِ ، وَأَبَانَ فِيهِ
مِنْ دَلَائِلِ تَدْبِيرِهِ ، إِعْدَادًا بِحِجَّتِهِ ، وَتَطَوُّلًا بِسَعْمَتِهِ ، وَهَدَايَةً إِلَى حَقِّهِ ، وَإِرْشَادًا إِلَى سَبِيلِ
طَاعَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ ، الْمَلِكِ الْجَبَّارِ ، الَّذِي أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ وَآخْتَارَهُ ، وَارْتَضَاهُ
وَطَهَّرَهُ ، وَأَعْلَاهُ وَأَطَهَّرَهُ ، بِجَهْلِهِ نَحْمَةَ أَهْلِهِ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ ، وَوَسَّيْتَهُمْ إِلَى النَّصْرِ عَلَى مَنْ
عَدَى فِي حَقِّهِمْ ، وَأَتَنَّى عِزَّ سَبِيلِهِمْ . وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَى حَقِّهِ ، وَيَهْدُونَ إِلَى سَبِيلِهِ ،

بالآيات التي يهتدون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها المحبة على المحالين، حتى انتهت كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فتره من الرسل، واختلاف من الملل، ودثور من اعلام الحق، واستعلاء من الباطل، والبأس عاندون عن سبيل ربهم، يتساقفون دماءهم، ويحلون ما حرم الله عليهم، ويصدون من دون الله ما لا يصبرهم ولا يسمعهم، وأيده بالبرهان الواضح، والمخجج القاطع، والآيات الشواهد؛ وأزل عليه كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وحمل فيه أوضح الدليل على رسالته، وأعدل الشواهد على نوره، إذ عمر المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على صر الأيام، وكثره الأعداء والمنازعين، فتحذاهم به في المواسم، ويقصدهم بحجته في المحافل، ولا يزدادون عنه إلا حسورا وعجزا، ولا ترداد محبة الله عليهم إلا تظاهرا وعلوا؛ ثم أيده بالصر بأصاير ألف بينهم بطاعته، وجمعهم على حقه، ولم تشمهم بضرة دية، معد الشقاق المتصل بينهم، والحرب المفرقة لجماعتهم؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَقْوِيهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقدم إليه وعده بالنصرة والتكفين، لجملة بشرى المؤمنين، ومحبة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدين، فهزم ناقلا من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلظ نضما عنهم أهل القوة ممن ناوَاهم، فقل به حذمهم، ونقص جموعهم، وأفتح حصونهم، وحرز معاقلهم، وأطهر بحتته ونصره عليهم، وأعجز ساق وعده لهم وفيهم، والله لا يخلف الميعاد.

تمجيد لابن المقفع

الحمد لله ذي العظمة القاهرة، والآلاء الطاهرة، الذي لا يعجزه شيء ولا يتمتع به، ولا يذفع فضاؤه ولا أمره، ﴿وَأَمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. والحمد لله الذي خلق الخلق بيده، ودبر الأمور بحكمه، وأفزع فيما آتاه وأعطى منها عزمه، بقدرة منه عليها، وملكته منه لها، لا معقب لحكمه، ولا شريك له في شيء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار. ما كان للناس الخيرة في شيء من أمورهم، سبحانه الله تعالى عما يشركون.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما أختار من الأمور دِينَهُ الذى أرتضى لنفسه ولن أراد كرامته من عبادِهِ، فقام به ملائكتُهُ المقرونون، يُعْظَمُونَ حلالَهُ، وَيُقَدِّسونَ أَسْمَاءَهُ، وَيَذْكُرُونَ آلاَمَهُ، لَا يَسْتَحْسِرُونَ عى عاداتِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، وَقَامَ بِهِ مَنْ أختار من أنبيائِهِ وخُلَفَائِهِ وأولِيائِهِ فى أَرْضِهِ، يُطِيعُونَ أَمْرَهُ، وَيَذُبُّونَ عى تَحَارُمِهِ، وَيُصَدِّقُونَ وَعْدَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِ، وَيَأْخُذُونَ بِحَقِّهِ، وَيُجَاهِدُونَ عَدُوَّهُ، وَكَانَ لَهُم عِندَ ما وَعَدَهُم من تصديقِهِ قَوْلُهُم وإِصلاحِهِ حَقَّتْهُمْ، وإِعْزَازِهِ دِينَهُم، وإِطْهَارِهِ حَقَّتْهُمْ، وَتَمَكِّينُهُ لَهُم، وَكَانَ لَعْدُوهُ وَعَدُوَّهُم عِندَ ما أَوْعَدَهُم من جَزَائِهِ. وإِحْلالِهِ نَأْسَهُم، وَأَنْتِقَامَهُ مِنْهُمْ، وَعِصْيَهُ عَلَيْهِم، مَعَى عِلى ذَلِكَ أَمْرُهُ، وَبَعْدَ فِيهِ قِصَاصُهُ فِى ما مَعَى، وَهُوَ مَحْصِيهِ وَمَقْدُهُ عِلى ذَلِكَ فِى ما بَقِيَ. لَيْتُمْ مَوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَلِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُطْلَأَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

والحمد لله الذى لَا يَبْقِى عى الأمور وَلَا يَنْدَرُهَا عَمْرُهُ، اسْتَدَّأَهَا بِعِلْمِهِ، وَأَمْصَاها بِقُدْرَتِهِ، وَهُوَ وَلِيُّهَا وَمَنْتَهاها، وَلِىُّ الْحَيَرَةِ فِيها، وَالْإِمْصَاءَ لِمَا أَحَبَّ أَنْ يُمَصِّىَ مِنْها، يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سِوَا اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله العِزَّاجِ الْعَظِيمِ - الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، ذِى الْمُنِّ وَالطُّولِ، وَالْقُدْرَةِ وَالْحَوْلِ، الذى لَا تُمَسَّكُ لِمَا فَتَحَ لِأولِيائِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا دَافِعُ لِمَا أَنْزَلَ لأَعْدائِهِ مِنْ نِقْمَتِهِ، وَلَا رَادُّ لأَمْرِهِ فى ذَلِكَ وَقِصَائِهِ يَعْمَلُ ما يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ ما يُريدُ .

والحمد لله الْكَثِيرِ مُحَمَّدٍ وَمِىه اسْتَدَّأُوهُ، وَالْمُنِىمِ شُكْرَهُ وَعَلَيْهِ جِزَاؤُهُ، وَالْمُتَّقِى بِالْإِيمَانِ وَهُوَ عَظَاؤُهُ .

لَا خَر

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى يَتَطَوَّلُ بِالْحَمْدِ مُبْتَدَأًا، وَيُعْطِى الْخَيْرَ مَنْ يَشَاءُ وَيُثْبِتُ عَلَيْهِ .

تحميد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر .

الحمد لله الذي نثر رحمته في بلاده ، وبسط سيمته على عباده ، الذي لا يزال العاد منه
في رزق يقسمونه ، وفضل ينظرونه ، لا ينقصه ما قلّه ، ولا ينقص ما عدّه .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وليّ الحمد ، وأهل الناء والمجد ، حالي الخالق ، ومدبر الأمر ، المسبح على عباده
والموجب عليهم محبة ، فليسوا يرحون إلا سعة قصله ، ولا يتحدرون إلا ما أحترحوا من
مقصيته ، لما سق من حريل إحسانه ، وتظاهر من آثانه ، وتقدم به الإعداد والإبذار
اللذان لا يستحيف بما عظم منهما إلا من استحوذ عليه الشيطان ، وأستولى عليه الخذلان ،
وقاده الجئين الى موارد الملكة .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أصطفى الإسلام دينا مطهّره وأساءه ، وأطهره وأعلاه ، وزينه بكل
حسنة ، ونقى عنه كلّ سيئة ، وحمله الى مدخور كرامته سببا واصلا ، وسبيلا نهجا ، وبعث به
حمدا صلى الله عليه وسلم تهدي من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين .

تقريره في الخليفة

الحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين لخلافة ، وتلاق الأمة بسُلطانه ، جعله القائم فيهم
بقسطه ، والمستبرع في ألتاس مصلحتهم منه .

لأحمد بن يوسف

عن دى الراستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذي حفظ من ديه ما ضيع الملعدون ، ورأب مه ما [فرقتة]^(١)
الصدعة ، وأعاد من حبله ما حاولوا تقصه ، حتى أعاد لعباده أحسن ألتهم ، ورد اليهم أجل

(١) ياصر في الأصل . وما أتيهنا باسم المقام .

عَودِهِمْ ، مِنْ الْإِسْتِثْلَاءِ بِعَدِ التَّرْدِي وَحُكْمِ الْمَطْلَبِ ، وَالِاسْتِفَادَةِ بِعَدِ التَّوْرِيظِ فِي الْمَهَالِكِ ، وَبَلَغَ حَلِيفَتَهُ الْقَائِمَ بِحَقِّهِ ، الْمُؤْتَمَّ بِكُتَابِهِ ، الْقَائِدَ عَنْ حَرَمِ الدِّينِ ، وَمِيرَاثِ النَّبِيِّينَ ، أَجَزَلَ مَا يَلِيقُ لِحُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، مِنْ إِعْلَاءِ الْكَلِمَةِ ، وَغَلْبَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَالْفَوْزِ بِالْعَاقِبَةِ الَّتِي وَعَدَهَا الْمُتَّقِينَ ، وَمَعْرِضَ لَهَا أَشْعَرَ قَلْبِهِ ، وَشَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ ، مِنْ إِمْضَاءِ حُكْمِ الْعَرَائِضِ الْمُوجِبَةِ ، وَاقْتِفَاءِ السَّبِيلِ الْمَهَادِيَةِ ، حَيْثُ سَلَكَ بِهِ مِنَ الْمَسَاحِجِ ، حِمْدًا يُوَازِي بِعَمِّهِ ، وَيَبْلُغُ أَدَاءَ شُكْرِهِ ، وَيُوجِبُ مَزِيدَهُ .

والحمد لله على ما حصصا به من إعلاء الدرجة ، وإسَاءِ الرتبة ، في مشايعة أمير المؤمنين — أَيَّدَهُ اللَّهُ — وَالْمُحَاضِرَةِ عَنْ حَقِّهِ ، وَالْوَفَاءِ لِلَّهِ بِمَا عَقَدَهُ لَهُ ، لَا يَرِيدُ بِمَا كَانَ مِنَّا إِلَّا وَجْهَهُ ، وَلَا نَسِيَ فِيهِ إِلَّا لِرِصَالِهِ ، حِمْدًا لَا يُحْصَى عَدْدُهُ ، وَلَا يَنْقُطِعُ أَمْدُهُ .

تحميد لأبي عبيد الله

أَمَّا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ دَيِّ الْأَلَاءِ وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعَاقِلِ وَالْعَرَّةِ ، الَّذِي أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ دِينًا لِنَفْسِهِ ، وَمَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ وَمَنْ كَرَّمَ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّهِ ، فَبَعَثَ بِهِ نَبِيًّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتِصَاصًا لَهُ فِي ذَلِكَ تَكْرَامَاتِهِ ، وَأَصْطَفَاهُ لَهُ بِهَ عَلَى عِبَادِهِ ، فَأَعَزَّهُ وَمَعَهُ ، وَكَفَاهُ وَحَاطَهُ ، وَتَوَكَّلَ لِأَهْلِهِ بِالْعِلْمِ وَالتَّحْكِيمِ ، وَالظُّهُورِ وَالتَّأْيِيدِ ، فَلَمْ يُلْعَدْ فِيهِ مَلِيحٌ ، وَلَمْ يَزَعْ عَنْ قَبُولِ حَقِّهِ رَانِعٌ ، بَعْدَ إِعْدَارِ اللَّهِ إِلَيْهِ ، وَإِعَادَةِ الْحَقِّ لِلَّهِ عَلَيْهِ ، إِلَّا أَنْزَلَ بِهِ مِنَ الدَّلِّ وَالصُّمَارِ وَالْأَجْتِيَاكِ وَالِاسْتِثْصَالَ مَا يَجْمَلُ لَهُ فِيهِ قَعًا ، حِمْدًا كَثِيرًا دَائِمًا مُرْضِيًا لَهُ ، مُؤَمَّا مِنْ عِيَرِهِ ، وَوَحْدًا لِأَفْضَلِ مَزِيدِ ثَوَابِهِ .

تحميد لسعيد بن حميد في فتح

أَمَّا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَمِّ فَلَا يَبْلُغُ أَحَدٌ شُكْرَ رَحْمَتِهِ ، وَالْقَادِرِ فَلَا يَبَارِصُ فِي قُدْرَتِهِ ، وَالْعَزِيزِ فَلَا يُقَالِبُ فِي أَمْرِهِ ، وَالْحَكِيمِ الْعَدْلِ فَلَا يُرَدُّ حُكْمُهُ ، وَالْبَاصِرِ فَلَا يَكُونُ نَصْرُهُ إِلَّا لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ ، وَالْمَالِكِ لِكُلِّ شَيْءٍ فَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ عَنْ سُلْطَانِهِ ، وَالْمَهَادِي إِلَى سَبِيلِ رَحْمَتِهِ فَلَا يَصِلُ مِنْ آفَاقِ لَطَاعَتِهِ ، وَالْمُقَدَّمِ إِعْدَارَهُ لِيُظَاهِرَ بِهِ مُجْتَمَعَهُ ، الَّذِي جَمَلَ دِينَهُ لِعِبَادِهِ رَحْمَةً ، وَحِلَاقَتَهُ عَصْمَةً ، وَطَاعَةَ خُلَفَائِهِ فَرَضًا وَاجِبًا عَلَى كَافَّةِ الْأُمَمِ ، فَهُمْ الْمُسْتَحْفَظُونَ فِي أَرْضِهِ

على ما سبقت به رُسله ، وأماؤده على خلقه فيما دُعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على منافع
حقه ، لئلا تُشعب بهم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الحادثة
التي تدب إليها عبادهم ، بهم يُحيى الدين من البقاء الطاعين ، وَصُحِبَتْ معالم الحق من
الفؤاد المخالفين ، مُحْتَمِينَ على الأئمة يكاتب الله عز وجل الذي أسصمهم به ، ورُعاة للأمر
بحق الله الذي اختارهم له . إن جادلوا كانت حجة الله معهم . وإن حاربوا فالصر لهم ،
وإن حاهدوا كان في طاعة الله نصرهم ، وإن ضام عدو كانت يكاية الله حائلة دونهم ،
وَمَعْقِلًا لهم ، وإن كادهم كائد فاته في عوهم . نصهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإتما
طأدى الذين عزهم وحرس بهم حقه ، ومن ناوأهم فإتما طعن على الحق الذي تكلؤه حراسهم ،
جيوشهم بالرغب مصوره ، وكائبهم بسططان الله من عدوهم تحوطه ، وأيديهم بذنبا عى
دين الله عالية ، وأشياهم بتناصرهم غالبية ، وأحراب أعدائهم بنفيهم مقموعة ، وَجُتِثَتْ
عد الله وحلقه داحضة ، ووسائلهم إلى الصر مردودة ، وأحكام الله بمخذلانهم واقعة ،
وأقداره بإسلامهم إلى أوليائه حارية ، وعادته فيهم وفي الأئمة السالعة والقرون الخالصة
ماضية ، ليكون أهل الحق على يقنه من إنحاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قدّم
إليهم من الإنذار ، مُعْجَلَةً لهم نعمة الله بأيدي أوليائه ، مُعْذًا لهم العذاب عند ردّهم
إليه نزيها موصولا بواصيهم في دنياهم ، وعداب الآخرة من ورائهم وما الله بظلام للعبيد .
وصلّى الله على محمد وآمينه المصطفى ، ورسوله المرتضى ، والمنقذ من الضلالة والعمى ، صلاة
نامية بركائها ، دائما اتصاها ، وسلم تسليما .

والحمد لله تواضعا لمظلمته ، والحمد لله إقرارا بربوبيته ، والحمد لله اعتراقا بقصور أفضى
منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فما يُقرّظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمر المؤمنين وراثته ، وساق إليه خلافته ، بالحاجة منها إليه ،
والرغبة منه عنها ، وأستخلص من خلقه من جعله ظهيرا للحوادث ، ومُدة للنوازل ؛ فلما

أَفَصَبَتْ الخِلافةَ إِلَيْهِ حَسْرَ أَمَامِهِ أَحَاجَتُهُ ، وَكُشِفَ قِبَاعُهُ لِحُجَارَتِهِ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اخْتَصَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَخْلَاقِهِ ، وَارْتَضَاهُ لَوْلَايَةِ أَمْرِ أُمَّةٍ نَبِيٍّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْقِيَامَ بِحَقِّهِ ، وَالدَّبَّ عَنْ حُرْمَاتِهِ ، وَحَاطَ لَهُ مَا اسْتَرْطَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَلَّدَهُ بِمَحْسَنِ الْوَلَايَةِ وَالْكَفَايَةِ ، وَتَوَكَّلَ لَهُ بِالْحِفْظِ وَالتَّائِيدِ ، وَالصَّرِّ وَالْغَلَّةِ وَالطُّهُورِ عَلَى مَنْ عَتَدَ عَنْ طَاعَتِهِ ، وَصَدَفَ عَنْ حَقِّهِ ، وَأَبْتَنَى غَيْرَ سَبِيلِهِ ، كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ تَطَوَّلَ بِهَا عَلَيْهِ ، وَمِنَّةً مِنْهُ تَوَحَّدَ بِهَا لَهُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ نَبِيَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَزِينَتَهُ ، وَفِكَرَهُ وَرَوِيَّتَهُ ، مَسَدَ أَفْصَى اللَّهِ بِالْخِلافةِ إِلَيْهِ ، وَحَمَلَهُ الْقَائِمُ بِنَارِ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَحْفَظَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ فِيمَا فِيهِ عِزُّ الدِّينِ ، وَعِظَامُ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرْهِيئُ الشُّكْرِ ، وَإِذْلَالُ الْأَعْدَاءِ ، وَإِشْخَاطُهُمْ وَوُقُوفُهُمْ ، وَتَحْصِينُ الْبَيْتَةِ ، وَإِشْخَاطُ الثُّغُورِ ، وَلَمْ يُنْتَشِرْ ، وَصَمَّ الْأَطْرَافَ ، لَا يَفْتَأَ عَنْ ذَلِكَ مَائِيٌّ ، وَلَا يَدَّهْلُهُ عَنْ تَعْقِدِ كَبِيرِ أَمْرِهِ وَصَمِيرِهِ وَمُقَاتِلَتِهِ ذَاهِلٌ ، يَسْتَقِيلُ كَثِيرًا مَا يُنْفِقُ مِنَ الْأَمْوَالِ فِي سَدِّ الثُّغُورِ ، وَتَحْصِينِهَا وَحِرَاسَتِهَا ، لِمَا يَرْحُو بِهِ مِنْ حَسِمِ الْخَطِّ ، وَجَرِيلِ الدُّخْرِ ، وَكَثِيرِ الْأَجْرِ ، تَقَرَّبَا إِلَى اللَّهِ وَاحْتِسَابًا لَهُ فِي جَنْبِ نَوَابِهِ ، وَكَرِيمَ مَا بِهِ ، حَتَّى رَأَى بِهِ الصَّدْعَ ، وَرَتَّقَ بِهِ الْعَتَقَ ، وَأَتَمَّ بِهِ السُّبُلَ ، وَأَقَامَ بِهِ الْعِرَاقَ ، وَأَفْلَجَ بِهِ الْمَجْجَ ، وَأَعْلَى بِهِ الْمَرْجَ ، وَأَرْهَقَ بِهِ الْبَاطِلَ ، وَأَحْيَا بِهِ الْحَقَّ ، وَأَشَامَ بِهِ سِيُوفَ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَالْفِتْنَةِ ، لَا تَأْخُذُهُ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَالْإِتْبَارِ لِدَيْبِهِ ، وَالْإِنْصِبَاحِ لِأَمَةِ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالذَّبِّ عَنْ حُوزَتِهِمْ ، وَالرِّمَى مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَدَعْمَ نَاقَةِ أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالْفَاقِ وَالْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ عَنْهُمْ قَرَّةً وَلَا سَآمَةً ، تَوْفِيقًا مِنَ اللَّهِ ، وَتَسْدِيدًا لِحُرْمَتِهِ ، وَتَأْيِيدًا لِعَزْمِهِ ، إِذْ كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا ، وَلَيْبِهِ نَاصِرًا ، وَبِحَقِّهِ قَائِمًا ، وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ مِنْذُ أَفْصَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَخْلَاقِهِ ، وَحَيَّاهُ نِكَامَتَهُ ، يَخْتَصُّهُ بِالْخِلافةِ فِي كُلِّ مَا أَمَضَ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَتَوَلَّاهُ بِالتَّوْفِيقِ فِي كُلِّ مَا أَبْرَمَ مِنْ تَدْيِيرِهِ ، وَيَجْعَلُ عَنْهُ

أضاه ما حمله ، وتبينه بتأييده على ما قلده ، ويحمله بحمل الصبح فيما ولاه وأستحفظه ،
ويُلهمه جهاد عدوه ، ويحويه بنصره ، حمدا قاصيا لحق نعمته ، مُوجبا أفضل مريده .

والحمد لله الذى أورث أمير المؤمنين مواريت نبوته ، وصير اليه مقاليد خلافته ،
وأوجب ذلك له بالقرابه برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثة لوراثته من عصيته وأوتى الناس
به ؛ ثم أعز نصره ، وأعل كلمته ، وأطبع حجته ، وأظهر على المشركين والمناقين ، ومن حاذه
وعانده من الناكثين والمنافين ، والبايعين والمخلصين ، فأتمس حدودهم وصل وصل .

والحمد لله الذى عرّف أمير المؤمنين مد استحلته فى أرضه ، وآتمته على خلقه ، من
عظيم يمنه . ولطيف صنعه . وجليل بلاته ، وأعزّار نصره . وأعلاء مذه وكلمته . وإعلاج
حجته على من صاده وحاذه ، إن الله عظيم طوله ومته آرتقى أمير المؤمنين لدينه ، وأصلطحه
لخلاصته . فقلّاه شربالها . ورداه بهائمها وجمالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل
فيها ، فأيدته بقوة ، وأعزّه بنصره ، وحاطه بكفائته ، وتوتّى الصبح له فى جميع أموره . فلم
يكفه كائده ، ويأمنده مُعانده ، ويمرّق عن طاعته الواجة ماريق ، ويلبّد فى إمامته مُلحد ،
تمس يُمالن بمعصيه ويشقاق ، أو ينطوى على عِلّ ونفاق ، إلّا أوص الله كيدته ، وأتمس جدّه ،
وطاجل المبادئ سداوته . الشاهر على الدين والمسلمين سيفه ، ناصطلام ونوار ، وأمكى
مه بذلة وصغار ، وقتل المسرّ عيره ، المُنطوى على عِلّه تقيظه وعمته ، وأمانه بدائه وحسرنه ،
إنجازا منه حل شأوه لوعده . وإتماما لكلمته فيما وعد الدين آمنوا وعملوا الصالحات من
أستحلامهم فى أرضه ، وأتقنن فى دينه ؛ وله الحمد دائما ، والشكر خالصا ، كما هو أهله وكما
ينبئني أن يُحمد ويُشكر ، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذى لم يبق لأمر المؤمنين عدوا من الناكثين والجاحدين ، والمشركين
والمناقين ، حاول نقضا لإمامته التى صيرها الله إليه ، وقلده إياها ، أو صاول حيشا من
جيوشه التى أعدّها لأحاطة من دين الله ونحارمه ، وإقامة سننه ومعالمه ، إلّا أحلّ به النعمة ،
وأصابه الى الصغار والنّلة ، واليوار والهلكة ، وتحمّله الى ناره وعذابه .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بمباحثته ، ويتوحد له من اعزاز بصره وإعلاء كلمته ، وإصلاح مجتمعه ، وتأييد أوليائه وأنصار حقه ، وأنزل الناس والقمة والمثلثات والسطوة بمن عايناه ، والذلت عن حريم المسلمين وأهل به بما يبين به عن مكانه مه ، ومثلته عنده ؛ حمدا ربنا بذلك كما هو أهلهم ومستحقه ، مشكورا بغير منته فيه وطوله ، مسؤولا لتمام أحسن عائدته وما جرى سنته ، فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلته ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين بسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأييد بصره ، عادة بتبين بها برهانه ، ويقطع بها مجتمعه ، ويدل بها على كرامته عليه ، ويخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويعمل ما نزل بأعدائه المتولين عنه ، الراغبين إلى عيره ، الملتصدين بحقه ، عطفه لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يعطيه من البسط في ملكه ، والتمهيد فيما خوله له ، ويؤقفه من السطوة بعدوه ، والتشكيل بمن حاله ، مجتنبين متظاهرين ، وعبرتين صين ؛ فيعتصم معتصم ، ويحجج ناجح ، وليشجب [شاجب] ^(٢) ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضح منه الإحذار ، وكان الله عباده عليا ، وباعمالهم خيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بحللاته : وحمله وارث وحيه ، وقبته بكتابه في عاذه ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خيرة أمة أخرجت للناس به ؛ فهو الميمون في تديره المنجح حويله ، الميمون العينة ، الموفق الرأي والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلاق قدرته ، واختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلافة ، وأصطلحه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وألمه إقامة أحكامه ومرايسته ، والعمل بحقه وعدله ، وأل أهل الشرك به ، وأتقها إلى أيام دولته ، وحظرها عمن كان قبله ؛ حتى حاز له أجزاها ، وأبقى له ستمها وذكراها ، ونشر عنه أحداثتها وسماعها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن المتناحية ، التي لم تكن تترام من أهلها ، ولا يطمع في زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم حثوها وعنادها ، والأئم المستصحب مراسمها وجهادها ، الحامية في آباد الدهور رحاها ؛ فأنفذ فيهم مكيدته ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، ولعلها بالنسب . (٢) كذا في الأصل ، ولعلها بالنسب .

سَعِيَّةً ، ورامهم بالتحويل ، وملاً قلوبهم رُجَاءاً مَهْ ، فَأَذِنَ مُدْعِيهِمْ طَاعَتَهُ ، وَأَتَقَادُوا لِأَمْرِهِ ، وَصَارُوا يَدًا وَأَعْوَانًا لِأَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ .

أما بعد ، فَإِنَّ أَعْظَمَ الْعَمَلِ قَدْراً ، وَأَحْلَاهُ أَمراً ، وَأَسْرَاهُ مَوْقِعاً ، وَأَوْجَبَهَا شُكْراً ، مَا عَمَّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ نَفْعُهَا ، وَعَادَتْ عَلَيْهِمْ عَائِدَتُهَا ، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ عِزَّ الدِّينِ ، وَدُلَّ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي حِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَطَّلَالَ اللَّهِ تَقَاهُ يَمِينُهُ وَبَرَكَاتُهُ ، وَمَا أَحْلَصَ اللَّهُ مِنْ نَيْتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَتَأْدِيَةِ حَقِّهِ فِيهَا اسْتِحْقَاقُهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَفِرْعَ لَهُ نَفْسِهِ ، وَأَصْبَحَ فِيهِ بَدَنُهُ ، وَأَسْهَرُ فِيهِ لَيْلُهُ ، مِنْ حِيَاطَةِ حَرِيمِ الْإِسْلَامِ ، وَالزِّيَادَةِ فِي حُدُودِهَا مُتَّصِلًا مُتَّاعاً ، وَالْعَمَلِ مُتَطَاهِرُهُ وَمُتَوَافِرُهُ ، فَسَهَّلَ الصَّعْبَ ، وَدَلَّلَ لَهُ الْعَزِيزَ ، وَقَصَّ عُنَاةَ الْأَعْدَاءِ وَمُتَكَبِّرِيهِمْ ، وَالْمُسْتَعْصِينَ وَالْمُسْتَصْعِبِينَ مِنْهُمْ ، فِي آبَادِ الدَّهْورِ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ ، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ حُصُونَ مَدَائِنِهِمْ ، وَبَعَثَ قُلَاعَهُمْ ، وَأَعَدَّ مَكِيدَتَهُ فِيهِمْ ، فَبَيَّنَّ مَقْتُولَ وَمَأْسُورَ ، وَشَرِيدَ طَرِيدٍ عَنِ مَحَلَّتِهِ ، وَمَوْصِيعَ عِزِّهِ وَمَنْعَتِهِ ، مُسْتَسْلِمَ مُعْطَى قِيَادَتِهِ بِأَجْحَاطِهِ ، وَكَلَّاهُ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَنْهَ وَعَطْوَلِهِ قَدْ أَوْصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ صُسْعِهِ لَهُ فِيمَا قَلَّدَهُ مِنْ حِلَافَتِهِ ، وَحِيَاطَتِهِ إِيَّاهَا فِيمَا يَحُوطُهُ مِنْ دِينِهِ ، وَعَرَفَهُ مِنْ كَيْفَايَتِهِ فِيمَا قَامَ بِهِ مِنْ حَقِّهِ ، وَأَيَّدَهُ مِنْ نَصَرِهِ فِيمَا جَاهَدَ عَنْهُ فِي سَبِيلِهِ ، مَا قَدْ جَعَلَ النِّعْمَةَ بِهِ عَامَةً ، وَالشُّكْرَ بِهِ لَازِماً ، وَإِيَّةَ بِهِ وَاجِبَةً ، وَالصُّعْبَ عَظِيماً ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى يَمِينِهِ فِي ذَلِكَ كَثِيراً .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَجْتِهَادَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُقَامَ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، فِي آتَاءِ اللَّيْلِ وَنَهَارِهِ ، فِيمَا فِيهِ صَلَاحُ عِبَادَتِهِ ، وَإِعْزَازُ دِينِهِ وَإِقَامَةُ حَقِّهِ .

بِسْمِ اللَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمَّا آتَرَضَ مِنَ الطَّاعَةِ لِرُؤَاةِ الْأَمْرِ مِنْ خُلَفَائِهِ جَعَلَ أَوَّلَهَا مَاطِقَةً عَنْ فَضْلٍ أَوَّاهِهَا ، وَوَادَتْهَا ثُجْرَةً عَنْ حِمِيدٍ عَوَاقِبَهَا ، وَمَوَارِدَهَا مُبَشِّرَةً بِالْخَوْفِ مَصَادِرَهَا ، بِمَا يَتَّقِبُهُ أَهْلُهَا مِنَ السَّعَادَةِ فِي الْمَاضِي مِنْ أَوْلِيَائِهَا الْقَائِمِينَ بِحَقِّهَا ، وَعَادَ مِنَ الشَّقْوَةِ عَلَى مُقَارِفِ الْمُتَعَصِّبَةِ الْمُتَعَدِّينَ إِلَيْهَا ، حِينَ أَقْبَلَتْ بِهِمْ هَوَادِي الْعَيْنِ ، وَكَشَفَتْ لَهُمْ تَوَالِيهَا عَنِ الْبَوَارِ

والملكّة ، مُعتدّين حين لا عذر ولا حُجّة ، طالين للهَارِبِ مد أن كانت منازلُ السلامة بهم مُطمَئِنّةً ، وحائمين وقد كانت سُبُلُ الأَمْسِ لهم واضحةً ؛ قد جعلتهم النّعمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً ، وعزّت بهم وبين النّعم الشّاملة ، وحصلت السّعادة لى أنعمت بهم باقيةً ، ستّة من الله بهم ماصيةً ، وعادة حارِيةً ، ولن تحدّ لِسّة الله تديلا ولن تحدّ لِسّة الله تحويلا .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لخلافته حرس به ديه من البُعاه الكليين عه ، وأحتصّه بأعلاء رُتب كرامته ، وأقرض طاعته على عاده ، وجعلها بمواقفها في ديه نظاما لسائر فرائضه ، فتاركها مفارق لعصمه حقّه ، حارج من جملة الأئمّة التى سبقت لها رحمته ، يستنصر أشياع الباطل والله حاذله ، ويُعالب الحقّ والله عاله ، ويُطلب مالا سبيل له اليه والله طاله ، حتّى يجلبه أجله عن أمّله ، وأقدار الله فيه عن تقديره ، وهوّد قصاء الله فيه عن نفوذ حيله ، فصلا بين الله على أوليائه وقصاء مه عدلا في أعدائه ، والله ذو الفصل العظيم .

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لرعاية عبادّه ، وحفظ بلادّه ، وتسيّد أحكامه ، وإقامه حدوده ، جمع به الألفه ، وكتب به نوائق العِنة ، وأصلح به أمور الأئمّة ، وسكّن به الدّماء ، ودفع به عظيم البلاء ، وأقعد به من الجُهد والأواء ، وجدّد لرعيته العبر الشّافية ، والبِظّة الباهية ، وجعل همّه السّعى لرّبه ، وطلّب الحقّ الذى أوحى له من جِلائه ، ليؤدّى فرسه في الأمانة التى حملها ، فيُوح له بذلك مالا يزول ولا يتقطع من ثوابه ، فأعمل رايه في الرّافة بمن ولّاه أمره ، والحياطة له ، والعناية بصلاحيهم ، فأعطاه لين المواعظ في وقت التّانى ، والنفوذ لإقامة المحمّة والبيّة ، وشدّة السّطوة على من عمط النّعمة وعدّه الإصرار على التّرويع والقيّة ، متّا من الله وتفضلا ، وإحسانا وتطوّلا ، والله ذو فصل عظيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُتدينا ومُعقّبا ، وأولا وآخرنا ، وقيل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رِعة ، ومُقدّمة كلّ طليّة ، أن يُصلّى على صفوته من عبادّه ، وحِبرته وخاتم أنبيائه ورُسله ، محمدٍ عبده ورسوله ، أَهْصَلَ صلواته ، ويُبارك أَكْثَرَ بركاته ، وأن يُديم له كرامته ، ويُجرى عنده أجمل عاداته ، ويُثِمّ له ما أختص به من إحسانه ؛ حتّى يملأ الأرض عدلا وقسطا ،

والإسلام تأبدا وعِزًّا، والشُّرك ذُلًّا وقَعًّا، إِنْه وَلِيَّ كُلِّ عِمَّةٍ، وَمُسْتَهْيَ كُلِّ رَعَةٍ، وَعَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ .

ولم يزل أمير المؤمنين مدد الوقت الذي أفضى الله إليه بحلافته ، وأكرمته برّد حقه من إرث نبوته ، يتلقى عظيم العمة في ذلك بالإخلاص للبيته والطّوية في الصّصح عن كلّ زَلّة ، والإفالة لكلّ عَثْرَةٍ، والتّعمد للهفوة وقبول الفِئنة ، والإيابة ممّ عظم جرمه ، وجلّ دُبّه ، وطق أن لا توبة له ، وكلما حدّد الله له ممة ، حدّد له في ذلك نيّة حسّه ، شكرًا لله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به ، وارنبا لبعمه عنده ، واسراده من بحيل مواهبه ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيته ، واستقامة أحوالها ، وحياطينها والدّث عنها ، وكفّ الأذى والمكره عن الدّاء والقاصي منها ، ويخصّص إلى ذلك بكل ما يحدّ إليه السبيل ويجهّد فيه ، ويعمل لكثرة أوقات دهره في كلّ ما ملّعه بحسّه بطرا لها ، وحدّبا على كافّتها ، وإشعافا من سوء حالها ، إذ كان لها والدّا برّا ، وراعيّا كالثّا ، واطرا لطيفا ، ويستعمل كلّ ما يرجو اتّلاقها ، والإبقاء على أحوالها ، والسلامة لها في دينها ودنياها ، ويصّب لذلك ليله ونهاره ، ويديبُ فيه نفسه ، ويعمله شعله دون غيره .

والحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين بحلافته ، وأكرمته بإرث نبوته ، وجعل حلافته حلافة يمين وبركة ، ولطف وسعادة ، انتاش بها أوليائه من ، وورد الهالكّة فرع منزلتهم ، وشرف درجتهم ، وأعلى كُتبتهم ، وأدلّها أعداءهم ، وحدّ دوائرهم ، وردّ دائره السوء عليهم ، وحباه مَرِيّة نصرة وتمكيه ، وإعزازه وتأبيده ، وإطهاره على من داواه وعند عن حقه ، وصدف عن طاعته ، فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لحلافته فأبده بها ، جعل الحقّ نيّته ، وإعزاز الدّين بُعِيته ، ومحاهدة أعداء الله شرقا وغربا ورا وبجرا نهيمته وإرادته ، ثم يسره في ذلك لما أحسن به عونهُ ، على من استحفظه وقلّده ، فصلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لسابق عليه وسالف قضائه، الذى لا يستطيع الناس رده، ولا منعه ولا صرفه، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته، وما أبتعته له من الصبر لدينه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه، وأحسن في ذلك عونه فيه وولائه، وأيده في نفسه، لم يتقصه حدلان خافل، ولا مخالف من حالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تماما وإحكاما؛ حتى أظهر حقه، وأطلع مجتبه، ومحقق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حربه العاليين، وحُذنه المصورين، وجعل عدوه وعدوكم حرب الشيطان الخامسين، وأولياءه الأذلين، بغير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأولاه، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار إليه من الخلافة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلاديه، وأنجيّ لسمه، والدّابّ عن دينه وحقه، والمُصابّ لأهل الشرك والمجُود به؛ ثم نصره وأظهر فضله أيامه ودوّقه، ومبشّر له في يلاذ عدوه، وجعل كلمته العليا وأنصاره العاليين، ومنّ نأواه من أهل الخلاف الأذلين المقهورين؛ وعرفه من نعمته في ذلك وميته وحيل صنعه وعاداته، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الذائنين عن الإسلام وأهله؛ حمدا متبعا لا انقطاع له ولا أنصرام، دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

كصوّوا على أديبارهم مَكُونٍ مَهْزُومِينَ، قد ضرب الله وجوههم، وقت في أعضادهم، ومنع الأولياء أكتافهم؛ فقتلهم في كلّ فج، وعلى رأس كلّ تَلْمَة ومُهْرَب ومَسْلُك؛ أباد الله خَضْرَاءَهُمْ وَقَضْرَاءَهُمْ، وحصد شوكتهم، وفلّ حدّهم، وأباح نيران صلاتهم وكفرهم، وشقّ منهم الصدور، وأدرك منهم الإحْن، وقبّل المسلمين أموالهم وذرائعهم، وجعلهم لهم خَوْلا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

والظهور والقلة جراً من الله لمن أحلّه إلى المعصية وأبغى عير سبيله السلوكه . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأعتصم بالحصون ، وتعوذ بالجبال ، ولاد بالقلع ، ولبأ إلى الأودية ، من صياصيهم ، وأمكن من نواصيهم ، واستحرجهم من أوزارهم ومعاقلهم وتعوذهم ، وأخذ أسيراً ذليلاً مكمواً حائماً قد نحب الوحل قلبه وملاز أرب صدره ، متوقفاً أن يرسل الله به من الثقات والمثلاث مالا مرد له عن مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الجراحات ، وعصت السيوف ، وشرعت فيهم القنا ، وهتتم نار الحرب ، وعالمهم أنزال ، ومارسهم الأبطال ، واستحق فيهم القتل ، وصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطبقوا بالموت مرأماً ولا حل الحرب مقاماً .

في صفة الخالعين

الناصيين لدين الله ، المكذبين بآياته ، الخاخذين رساله ، الجاطلين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم ، وقطعهم السبيل وأتباعهم المحارم وسعكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها معير حلتها وأقترف وأحتمل وزرها ، أليم العذاب وشديد العقاب ، فأناؤا إلا نادياً في صلاتهم ، وعُتُوا في طغيانهم ، وشبوتوا على عصيانهم ، وهتفوا على كفرهم ، لأعدائهم السالفة ، وعوائلهم المتقدمة ، وبوائقهم المشجية ، موقف ميملا بين ثكل التقدم وحقيقة الاصطلام في التآثر ، دعاهم إلى الفئسة والمراحمه والإثابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، استظفها بالحمية عليهم ، ورجاء لصع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيهم معي ، جمع أصحابه ، وصم جده ، وتحرز في معسكره ، وخدق على منزله ، وأحترس بجهده ، فأقلت معسكرى ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسُلِي وأدعوه إلى حقله ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراً ممن عطف الطاعة ، وسيف الجماعة ، وقد ركعوا في العتة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فانتشر خبرهم ، وكثرت تبعهم ، وكبر وزرهم ، وقفل وقومهم ، ثم أدعوا لطاعتهم ، وأستقلوا

باهيين من عَثَرَتِهِمْ ، وَمتعشِبِينَ مِنْ رَثَمِهِمْ ، فُعِثِرَتْ ذَوْبُهُمْ ، وَقُلْتُ تَوْبَتُهُمْ ، وَفُسِحَ لَهُمْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَشُرُفَتْ مَنَزِلَتُهُمْ ، وَأَسْتَدْلُوا بِالْخَوْفِ أَمَّا وَاللَّهِ عَزَّاءُ ، فَأَنَّى بِهِ مِيلَ الْهَوَى ، وَعَلَيْهِ الشَّقْوَةُ ، وَمَسْتَعْلَى الْعَوَايَا ، وَالْقَدَرُ الْحَارِبُ ، وَالْقَصَاءُ الْمَحْتَمُ . وَتَقَدَّمْتُ فِي مَوَاقِفَتِهِمْ وَتَرَعِيهِمْ ، وَالْأَحْذُ بِالْمَحْقِ مِنْهُمْ ، مِنْ عَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَا تَأْوُلُ سِلَاحٍ ، وَلَا تَأْوُسُ صِيَالٍ^(١) ، وَعَرَصْتُ عَلَيْهِمُ الْبُوءَةَ ، وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِيمَانَةِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَلَوْا حِدَّتَهُمْ وَأَحْدَثُوا نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَوَّاءُوا لَا تَنَادِيَا فِي عَيْتِهِمْ وَنُكُوصَا عَلَى شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مَا جَرَّهَتْهُمْ وَعَرَفْتُ مِنْ اللَّهِ الْخَيْرَ فِي مَحَارِبَتِهِمْ ، وَأَسَمِعْتُ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَكْفَيْتُهُ أَمْرَهُمْ ، وَرَحُوتُ حَسَنَ عِلَادَتِهِ عَدَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْنَالِهِمْ . ثُمَّ وَحَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَعَدَّوْا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مُفْتَرُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ آوَوْا حُدُوعَ الْخُرُوبِ وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ السَّاتِّ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَهْلُ عِدَدٍ وَعُدَّةٌ ، وَنَاسٌ فِي أَنْفُسِهِمْ وَقُوَّةٌ ، اخْتَذُوا الْإِسْلَامَ حِلًّا ، وَسَرَّوْا نَحْوًا يَرْحُونَ عِزَّتَنَا وَيَأْمُلُونَ عَفْثَنَا ، فَوَقَفَ حِدَدًا بِمَكَانِهِمْ آخِذِينَ أَهْلَتَهُمْ ، مَتَمَسِّكِينَ بِالطَّاعَةِ فَمَا بِهِ إِمْرُهُمْ ، فَأُورِعْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةً فَدَعَوْهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَبَالُوهُمْ بِمِحْرَاحَاتٍ مَعَ قَتْلِ مَنْهُمْ عَدَاوَتُهُمْ ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَدَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا الْقَهْقَرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَتِهِمْ ، فَاسْتَحَاشَوْهُمْ فَاجَاهَمُ بِالْمَكَانِفَةِ وَالْمُؤَاوِزَةِ ، وَأَقْلَسُوا بِحَيْثُمُ وَحَقَّقَهُمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْفَصَاءُ وَطَارَتْ أَفْنَدُهُ حِدَدًا رُعَا مِنْ حَتْلَتِهِمْ ، وَطَلَعَتْ الْقُلُوبُ الْخَاسِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ لُؤَاغِ الْحَرْبِ وَهَوَاصِي رَوَاصِيهَا وَأَشَالِ لَيْثَتِهَا ، تَرْتَسُوا بِالطَّاعَةِ فَأَوَّاءُوا حَسَنَ الْعَاقِبَةِ ، وَهَضَبُوا الدِّينَ ، فَوَقَّفُوا بِالْمَتَكِّ ، أَسْتَدْلُوا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَّفُوا لَهُمْ ، وَازْدَادُوا بَصِيرَةً فِي أَمْرِهِمْ ، وَبَعَاذُوا وَحْدًا فِي أَحْبَادِهِمْ وَمُعَاهِدِهِمْ ، فَهَبَّتْهَا قَائِمُ الْقُسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ فِي أَمْلَانِهِمْ ، يَسْأَلُونَهُمُ الْكَرَّةَ عَدَا الْكَرَّةَ ، وَيَعِدُونَهُمُ الْعَلْبَةَ ، وَيُثْنُونَهُمُ السَّلَامَةَ ، وَيَصْمُومُونَ لَهُمُ الْعِيْمَةَ ، فَمَآوُوا إِلَيْهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ فَهُوَ عِزٌّ وَجَلٌّ عَلَيْهِمْ ، فَشَافَعُوا سَاعَةَ بِالْفَقِي

بعد تزاميم إرشافا . بالسهم فلما رأى أعداء الله حِجَمَهُمْ، وعرفوا صدقهم، وحافوا حِجَمَهُمْ،
نكصوا على أعقابهم، يريدون الفُتْحَ بمسكرهم، وتحولك أصحابا في طلبهم، ورحوا سوء
الصباح لهم، فأمسوا في أثرهم، فلما أحسوا الفساق أعطوهم الصمة وآلوا إلى ديارهم
لا يلوى قريب على قريب، ولا ذو رحم على حبيب؛ ونالتهم القُتْيُ فهدرتهم، وعضت
هائمهم السيوف فكلمتهم، وحيل بينهم وبين الدحول من باب عسكرهم، فأخذوا في غير طريقه
مبهزين، قذف الله حِجَمَهُمْ، وقتل كثيرهم، وقتل عاقبتهم، ورحح أصحابا إلى معسكر أعدائهم
سد التشريد والتعريق بجماعتهم، فأحاطوا بهم في آحرليتهم، فلما رأوا غفلتهم، وأموا
عِزَّتَهُمْ، وأنشروا مكان العرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون، قازون غافلون متفرقون،
فوضعوا السلاح فيهم، ضربا بالسيوف، وطعنا بالرماح، وصربا بالأعمدة، وذبحا بالشعار،
لا يشبون من جرحوا، ولا سُقُوت من كلبوا، عر مدعوين ولا مموعين، حتى آثنت
السيوف، ونحطمت القُتْيُ وآدقت الأعمدة، وكَلَّت الشعار، وبقيت منهم هذه يسيرة
وشرذمة قليلة ممن لم يله القتل، فأخذوا أسرى، وأوثقوا حليدا، وجُلبوا قيودا، وكان
أول رأس أتاني بحبره بشيرهم^(١) وأسرع به إلى دو المعرفة منهم رأس عدو الله المارفي^(٢)
الباغي، الشاق لعصا المسلمين، ملأني رئيس صلاتهم، وقائد جهالتهم، ومستغوى
جماعتهم، مفرته محلته ونعته وصفته في عدد كبير من رموس قواده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدعوا في كل جبل وحر، منهزمين هارين، لا يستطيعون لما
أتاهم من عذاب الله دفعا ولا معا يبد ولا قوه؛ ولا يلحسون إلى ركن وعصمه، قد تشتت
بهم نظامهم، وفارقهم وجوههم وأعلامهم، فأحدهم أسرا قسرا قدمهم النصب، وملأ
قلوبهم الرعب وتحزمتهم الوقائع، ونجبتهم الهزائم، وتحيعهم القتل، وعلب الله عز وجل
لأمير المؤمنين على حصه الذي كان مُأف عزه، وموضع منته في نفسه، ومجتمع عدته،
ومادة قوته، فقوضوا عساكرهم، وأقشعوا عن حصنهم يتبع أحرم أولهم، متحيرين متلذذين،

(١) في الأصل : « بخيرم » . (٢) في الأصل « برأس عدو الله » .

أذلة حاسرين، فتزقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلبس أسحز القتل فيهم ، وفشت الحراحات في عاتمهم ، وطحتهم الحرب بكلكلها ، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها ، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم ، فقلوا منزوين معلولين ، وركب المسلمون أكافهم ، يقتلونهم في رموس جالهم ، وحلال عياصهم ، ويطون أوديتهم ، ومقاصي تلاعهم ، وفي كل ناحية من وواحيهم ، حتى غز الليل دونهم ، وأغزوهم هربا في معاقلهم .

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عرّ بصلاله ، وتمحصن بمعاقله ، وأستكمل قواه ، وكثف تدبيره ، ولبا إلى مانع منه ودافع عنه ، عطعت عليه عواطف الحق وأولياء الحق وأنصاره ، ناقضين ما أرم ، ومتداولين ما سدّ ، ومتوغلين إلى غية ببصائرهم ، وإلى باطله بمحقهم ، فاستزّل عن موضع عزّه قسرا ، وأمكن الله أولياءه أسرا ؛ سة الله فيمن ععدّ عن سبيله ، وألحد في دينه ، ومرتق عن الطاعة وثاقها ، وأستبدل بالحق ومنهاحه ، ولن تعد لسة الله تبديلا ، ولن نلحد لسة الله تحولا ، ولن تعد من دونه مُتّحدا ولا بصيرا ؛ حتى إذا تراءى الجمعان تراء الشيطان من حربه ، وأرهق الله ما طلهم محقه ، وجعل الملعج والظفر لأولى الحزبين به ، بذلك حرت سة الله في الماضين من حلقه ، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما نلا من طاعته ، وأختبر من بصيخته ، ويُنّ بقيته ، وشدة شكيته ، وصحة عريته ، وصدق نيته ، وثقل وطاه على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين ، وعلمه بمراوطة الحرب وممارستها ، ومكيدة الأعداء ومواقفتهم فيها ، فشرّ تسمير أهل الحسة وحسن الظن بالله من غير وثية ولا فترة ولا بقاء حدّ ولا اجتهد ، راجيا أن يُنجح الله سعيه ، ويفلج حجته ، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حمله ، والاضطلاع بما أسد إليه ، والامتنال لسيرته ، والالتقاء إلى أمره ، والقبول لأدبه ، والخوف بما يستنبه له من حروبه وأموره مثل الذي جعل عند فلان : يفضلهم بطوليه ، ويطولم بمحاسنه ، ويتقسمهم بحسن بلائه وفضائه ،

ومواقفه ومساعدية، لم يخبره أمير المؤمنين في جميع حصاله إلا وحده عند الاختار والتحصيل
 سالكا لما به، قابلا لأمره، متعا لأثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات،
 حتى صار عد أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمرتبة والرفعة، يرى ذلك
 قليلا في كثير ما وجب طاعته وصبغته، فبارك الله عليه ولب طهيرا . فأقدموا متوكئين
 على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللاأواء والجهد والتمتع وكل الشقاء
 وحارة القيط، وصعوبة الأرام من أعداء الله الكفرة، يرحون نصر الله ويحجز ما وعد الصابرين
 والمجاهدين في سبيله من الظفر والنصر والمنة على عدوهم، توحد به من نصرهم واعزازهم
 أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالنصر والعز والحيلة، وحمل حسن العاقبة لهم،
 وكنت من حادثهم وأحلد إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله
 الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزز حكيم، أعظمهم
 عساة، وأحسنهم بلاء، وأشدتهم صولة، وأقساهم بكاية، وأنهم سريرة، وأضاهم عزيمة،
 وأربطهم حاشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأراهم لوثائق الإيمان، وأشدتهم
 تحديا على السلطان، فأرره بهم، وحقق أطراف حلاته بأيديهم، فكفوه المهم وقاموا
 دونه ما كلم، غير مستعجلين بقاء، ولا متعصبين لطلب جراء، قد تعبدتهم الوفاء، وعوا
 بقربة الولاء، إن الله حمل أمامه أعلاما في الطاعة يهدون إليها وأوليته قادة إلى سبيل
 الصبيحة يتمسك الماسحون بآثارهم فيها، باقيا على ذكر الأيام ذكر مساعدتهم، وزائده على
 تصرف الأيام حقوقهم، وياديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرف الأبحار عن سالف لهم إلا
 وصلوه بمحادث، ولا يتقدم لهم من بلائهم أول إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى في أمره على
 منهاج قد أوضه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهل له مذهبها، ويتمسك بغيرا
 وثيقة قد رأى آثارها على من تقدمه، والله محمود . ولم يزل الله يعترف أمير المؤمنين في كل
 ما أسده إلى فلان من أعماله وقلة من أموره، المألوفة في قصاص الحق عليه وبين القبية فيما
 يتولاه، والاجتهاد في كل ما قرب به من الله وحليفته . وأمير المؤمنين يمد الله على ما ينصحه

به من نعمته، وإياه يستعين على قضاء حقه، إنه سميع قريب . فإن كلامك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلع اليه منك ويؤمله عدك، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك، ويؤثرك منه بحظك، للذي كان يلفه وينتهى اليه من حرك، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير، وتثقل في درجتها، مساميا لاهل الفصل في مراتبهم، مترتبا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم، وحسن طريقتهم، وليس أكافهم . فحقق الله طبه لك، وأحباب دعاءك، وبلغ بك أمنيته، وأعطاه بك رعته . وكنت فيما هديت له نافعياك إليه راعيا، ودحوالك فيه مخفيا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها دحيه، وأعلاها درجه، وحبرها عاقبة، وأعمها سلامة، وأسمها كهفا، وأقفاها شرفا، وأعدلها حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المالك فيها، وسهاء الثروة، وأبسط القدرة، واتساع المملكة، وظهور العتس وعز الحكيم، والنصره في الدار التي حبيب فيها قليل ما ترحو أن يصير اليه من نواب الله عز وجل وحسن محاربه بالعيم المقيم في دار الأمد، ومحل الأبد، بما لا يعمه إحصاء، ولا يكرن له أسبا، وبلاءه فرحا وأبتهاحا، وسرورا وحذلا، ورحاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقه أن يغلب لك على حظك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عده رعتك، وإلى ذلك سموك وهزك . وليس بملك أمير المؤمنين مقتعرا بك أثرا يحمده، ومتصفا بحبر يبهجه، ومستعدنا بعمه من الله عز وجل يرحو اتصالها وآساقها لديه بك، حتى يتأهى إلى الدرجة العليا، والعاية القصوى، فيما (يذنيه) من أحتاث أرومه القسقة وقطع دابهم . وناقه الثقة والحول والقوة، متعزوا من الله فيما فارقه من جهاد عدوه أتم مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين في جبهه، وأحسن ما أبلى، دائدا عن حريم، ومحصا كبيضه، ومداها عن ملة، مشمر شاريا لله بسه، طارحا عنه لباس الغفلة، متحافيا عن مهاد الوطاة، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يتمتع لأمر المؤمنين طرّف أت فيه، ولا أمر يُبين عليه ويمسك بسبب من اسبابه .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّؤَالِ الدرحة العليا ، والاعتصام بالعروة الوثقى ، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته ، مُنْشَرَحَةً صدورهم بِمَكَاهِته ، مُبْطِطَةً أَيْدِيَهُمْ بِمَعَاوِنَتِهِ ، وَوَقِيمَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَوْلِيَاءِ دِينِهِ وَأَنْصَارِهِ ، قَوْمٌ آزَوْهُمْ بِالْصَّرِّ ، وَكَفَّفَهُم بِالْيَقِينِ ، وَأَلَّفَ بَصَائِرَهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَيْدَهُمْ بِوَيْدَادِ الْقَوَى ، فَلَمَّا أَمَرَهُمْ أَطَاعُوا أَمْرَهُ ، وَلَمَّا مَرَّصُوا فِي دَاخِلِ طَاعَتِهِ ، مَرَّصَ اللَّهُ بَصَرَهُمْ وَتَحَكُّمَهُمْ ، بِجَاهِدِ مُجَاهِدَتِهِمْ مُسْتَضِيرًا مُحْتَسِبًا ، وَقَامَ قَائِمُهُم بِالْحَقِّ عَلَيْهِ بِمُخْلِصًا مُحْتَسِبًا ، وَقَادَتْهُمْ طُلُوعُ الدِّينِ وَدَوَاعِيهِ أَرْسَالًا قُدُّمًا ، فَاتَّبَعُوا سَبِيلَهُ لَا مَآكِلِينَ مِنْ إِقْدَامِ ، وَلَا مُتَوَقِّعِينَ عَنْ أَرْتِيَابِ ، وَلَا مُتَهَيِّبِينَ ، مَعَ دَحَائِلِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ ، عُدُوًّا وَلَا عَادَا ، طَالِبِينَ بِثَارِ الدِّينِ نُفَاتِهِ ، وَطَوَائِلِ الْإِسْلَامِ عِدَاتِهِ . مِنْ صَوُوفِ أُمِّ الْكَفْرِ وَمَرَدَةِ الْفَقَاقِ وَأُتَمَّةِ الْمُخْلَصِينَ ، مُتَعَلِّسِينَ لِلْحَقِّ وَبُصْرِهِ ، وَلِئِنْ تَمَّ الْحَقُّ بِهِمْ وَمَعَى ، وَإِنْ مَعَ الْحَقِّ مَنْ نَكَّثَ عَنْهُ بِالْإِسْنَمِ وَأَنْدَسَهُمْ ، حَتَّى تَصَحَّ اللَّهُ عَنْهُ وَحَلَّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاقِلَ الشَّرْكِ وَأُتَمَّةً ، وَأَنَاحَ الْبَاطِلِ وَأَرْكَانَهُ ، وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ وَأَنَاعَهَا ، فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، إِنْ هَزَنَتْهُمْ قَطَعُوا قَطْعَ الْحُسَامِ ، وَإِنْ أَحْرَيْتَهُمْ فِي عَظِيمِهِ وَقَعُوا وَقَعَ الْجِيَادِ ، وَإِنْ اسْتَغِيثَ وَدَامَ الْغَدَاءُ لَكَ عَنْ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، كَانُوا رَصْدًا لَكَ فَوْقَ أَعْنَاقِ الْحَاسِدِينَ .

مَا يُقَرَّرُ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَانِ الْكُتُبِ

لِيَعْرِفُوا مَوْقِعَ نِعْمِ اللَّهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . يَحْوِطُ بِهِ فِي أَوْلِيَائِهِ ، مِنْ الْبَصَرِ وَالتَّحَكُّمِ ، وَعَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ الْوَقْمِ وَالتَّوَهُمِ ، وَيَشْكُرُ اللَّهُ عَلَى النِّعْمَةِ فِي ذَلِكَ ، إِنْ الشُّكْرُ مُحْصَسٌ لِلنِّعْمِ ، وَأَمَّا مَنْ الْغَيْرِ ، لِيَتَذَكَّرَ مَوَاقِعَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، فَيَا يَجْمَعُ اللَّهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَلِمَتِهِمْ ، وَيَحْوِطُ مِنْ حَرَمِهِمْ ، وَيُحِيلُ مِنْ مَاسِهِ وَنِقْمَتِهِ بِمَنْ صَدَفَ عَنْ سَبِيلِهِ وَحَاوَلَ تَنْشِيطَ جَمَاعَتِهِمْ وَتَوَهُمِينَ حَقِّهِمْ ، وَيَقَالُونَ ذَلِكَ بِمَا تُرْتَبِطُ بِهِ نِعْمُهُ ، وَيُسْتَدْرَكُ مَزِيدُهُ .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما مع حليفته من هؤلاء المُرَاقِ الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزَّيد .

٣ - التحاميد في أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله المزلزيه ، أُلْطِهر لحقه ، المؤيد لأوليائه ، الصامع للإسلام وأهله ، الباهر لخليفته ، الحافظ لما أستحفظه ، المتوحد بالعمه عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

والحمد لله المزيل لما يهدد المبطولون ، ويمكر به الماكرون ، ويكيد به الماحدون ، يحميكم لبيده وحليفته ، ودماً عن ديه وحقه ، وإطهاراً لأوليائه وحر به ، وإمصاءً لعزائمه وقدرته ، منما قادراً ، ومُغْلِياً ممهلاً ، عدلاً اذا استدبح ، متفصلاً اذا أنعم ، حمداً يُستَنزَلُ به نصره ، ويُتَلَعُ به دسواه ، ويُتَرَى بمثله مواسل مزیده .

تحميد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع عَمَاده التي تُمد سها ، على جميع آلائه وجميل لائمه ، فيا ولي به حليفته ، وبصر به ديسه ، وأقام به حقه ، وأعز به وليه ، وقمع به من أُلْحد عن سبيله ، حمداً يؤدَى حق سته ، ويوح به أفضل مزیده بمه وطوله .

تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأُمير المؤمنين في دولته وسلطانه ، وإمامه المسلمين من صتمه وكراماته ، في حسيم الأمور ولطيفها ، وحاصها وعامها ، بما يحصله للنعمه تماماً ، وعلى ما يحل سدوه من نأسه وقوارعه ، ويوقع بهم من جوانحه وأستقصاله ، ما يكون لموعوده إنجازاً ، حمداً يبلغ رضاه ويستوجب مزیده .

تمجيد آخر

الحمد لله الذى تمّ لأمر المؤمنين نعمته ، وأكمل دعوته ، وجعل العاقبة فيه لمن آختره
خلافته ، وردّ إليه من شدّ عسه من رعيته ، وأتى أمير المؤمنين بصمعه على حدّ نيته وقدر
أمنيته ، ولم يُعَلِّ رأيه ولم يُخَلِّف ظنه ، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيقبله ، ويرفع
إليه فيبلغ رصاه ، حمدا يكون لأوسع نعمه جراه ، ولأفصل إحسانه كفاء ، وللزيد من
فصله وإحسانه موجبا ، وإلى أصل الدرجات عنده مؤذيا ، وللخلود فى جنته وسيلة وسببا .
آخر :

الحمد لله الذى جمع لأمر المؤمنين ما حباّه بمروة بصره وتمكيه وإعزازه وتأبيده ،
وإطهاره على من ماواه وصدّ عن حقه ، وصدف من طاعته ، ووقفه لأختصاص فلان
بما وكلّه إليه وعصيه به من أعاء أموره وحلائل أعماله ، وأحرى بهلان وعلى يديه وبركته
وسعادة حقه ويُنّ طائرته ، من نتاج الفتح ، وتواتر النصر ، وإقبال الصبح ، وإعلاء الحق
وإمارته ، وإزالة الباطل وإبادة ، حمدا يؤدّى حقه ، ويرى عزه ، ويمير من أحسن^(١)
مزیده ، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة ، وخصّه بالإمامة ، وقلّده من أمور عبادته
وبلاده ما تولاه بكفائته وكلامته وتأبيده وحياطته ، حمدا يوجب المزيد من فصله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أجز وعده ، وبصر عبده ، وأيدّ جده ، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا
وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة طائد وإبادة عائد وإقالة مستقيل .
ويسأل الله أمير المؤمنين ، مسألة العبد سيده ومولاه رهبة إليه متدلّلا له أن يصلّى أفضل
صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات ما يقرم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكفه فيما حَافَ وأستحفظه عليه بأفصل تأييده وأعز نصره، وأن يب له مع كل نعمة يحثها له حارسا من شكرها، يتابع به أفصل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر تنويقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولّى العم عليه وعليكم، أن يُلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوفه وإياكم أفصل الأعمال وأرصادها عنده وأشتها أستباحا لما وعد الشاكرين من مزيده . إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولّاه خلافته وأعلاه بها، أن يطوفه ما حمله، ويلهمه العدل بين رعيته، ويلهمهم بصيحتته وطاعته، ويُصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرعب الى الله الذى أبدى بصره ومكى له بعب حول منه ولا قوه، أن يُلهمه وإياكم شكره وذكره وحشيتته، ويشمله وإياكم طاعته ومُرضاه ومحته، وأن يترّفه وإياكم الريادة فى نعمه والنصر على عدوه والتمكس فى ملاده، إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرب أمير المؤمنين فى إعانته على بيته وتليعه منتهى سؤاله وعاية همته وإعزاز ديه وإدلال من صد عن سبيله، إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدماء تطولا وتكفّل بالإجابة حتما، فقال ﴿أَدْعُوايَ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رصاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حللكم، وأن يمتكم أحسن ما تؤدكم من مَنه . ويوزعكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده، وأن يكفكم كيد الكائدين، وحسد الباعين، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم، أفصل ما يحفظ به إمام هدى فى أوليائه وشيعته . ويحمل عنه ثقل ما حمله من أمركم، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما يسوى من جرائكم والحصى، وتحمّلكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليا، وكفى بالله وكفى بالله نصيرا .

ويسأل الله أمير المؤمنين، أن يُحسّن على صلاح نبيه عونه، وأن يتولاه فيما أسترعاه، ولاية جامعة، لصلاح ما قلده، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مغايبه وفواصله ، أن يُصَلِّيَ أَفْصَلَ صلواته على أفصل أنبيائه ، وأن يجعل ما أذنر لأمر المؤمنين إلى دولته وحلافته ، وحياه به من وسائل الخير عده ، أن يجمع إلى أحسن توفيقه لما يرصى من شكره وحنن معونته على ما أصلح له به ، فإنه شاكِرٌ بِحَثِّ من شكره ويوجب لمن وفق لشكره مزيداً منه وطوله وفصله وإمامه ، إنه حواد كَرِيم .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُسْتَدْتاً وَمُعَقَّاً وَأَوَّلَا وَآخِرَا ، وقُلَّ كُلِّ مُسَالَّةٍ ، وأمام كُلِّ رَعِيَةٍ وَمُقَدَّمَةٍ كُلِّ طِلْئَةٍ ، أن يصَلِّيَ على صعوبه من عاده وحير حلقه وحاتم أنبيائه ورسله ، محمد عِده ورسوله ، أَفْصَلَ صلواته ، ويبارك عليه أَكْثَرَ رِكَاكِهِ ، وأن يديم له كرامته ، وتَحَرَّى عِده على أحمل عاداته ، وأن يتم له ما أَحْتَفَ به من إحسانه ، حتَّى يَمْلَأَ الأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا ، والإسلام تَأْيِيدًا وَعِزًّا ، والشرك ذُلًّا وَقَمًّا ، إنه وَلِيُّ بَعْتِهِ وَمُنْهَى كُلِّ رَعِيَةٍ ، وَطَائِفَةٍ كُلِّ حَاجَةٍ ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وأمر المؤمنين يقول : الحمد لله طاعه لأمره ، وأعتصاما من العتة شكره ، وأستدامة لِعِمِّهِ الْمُتَرَايِدَةِ عِده ، إنه سميع قريب .

وأمر المؤمنين ، يسأل الله السامع كلام من جهر ، والعالم بغيب من أسر ، المطالع على صمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَفِيدَ من يشاء رحته ، والمُتَمَنِّعَ على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحق أهواءكم وينصركم على أعدائكم وَيُصْلِحَ دَاتَ بَيْكُمْ وَلَا تَكَلِّمْ فِي مَوَاطِنَ مِنْ مَوَاطِنِ اللِّقَاءِ ، والتحاكم والتنازع ، إلى أهكم ، ويكميكم ويكنيكم إنه سميع قريب .

الدعاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهَيِّئَ أمير المؤمنين ما صَحَّ له ، وَيُعَيِّدَ على شكر ما أولاه ، إنه وَلِيُّ ذَلِكَ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ وَالسَّلَامُ .

وله :

ونسأل الله أن يهبنا أمير المؤمنين الكرامات التي يُناهبها ، والعزم التي يطاهرها عليه ،
والفتوح التي جعلها في حياته ، وولاياته ودولته ، ويهب له من المعرفة بحقه في ذلك والشكر
له بحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظم رعة وأقصى أمية ، من ذخائر الخير ووصيلة الأجر
وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمر المؤمنين في عابر أموره ، أحسن ما عوّده في سالفها ، من السلامة التي
حرسه بها من المكارة ، والعز الذي قهره به الأعداء ، والبصر الذي منّك له في السداد ،
والهدى الذي وهب له به المحنة ، والرفق الذي أدز له به الحلب ، والاستصلاح الذي
أنقست له به الرعة ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبل به ، أحد حللانه
ديكرا ، وأقامه في العدل أثرا ، وأطولهم في العمر مُدّة ، وأحسنهم في المعاد مُقلا .

أسأل الله لأمر المؤمنين بعمّة لا تزول ، وكرامة لا تنفد ، وعز لا يصابم ، وبصر
لا يبل ، وكرامة يتعلم بها جميع الصلاح ، حتى لا يكون مأول من ذلك أسعد منه بآخر ،
ولا يماض أسرمه بمستقبل .

أسأل الله لأمر المؤمنين في عاقبة كلّ بعمه أفضل ما وهب له في عاجلها ، حتى يجعل
كلّ بعمه أهم بها عليه ، وكرامة حارها له ، موصولة بالتمام ، محوطة بالحفظ ، مكشوفة من العير ،
ممدودة إلى طول عايات البقاء ، لا يشوب صفوها كدر ، ولا سلامتها غير ، ولا سرورها
تغيص ، وهما الله أمير المؤمنين الظفر ، وأدام له عادة البصر والتكبير الموصح ، وتجنّبه
المُدْحِصَة بحجة أعدائه ، والغلبة المُطْهره لحقه ، المُتَحَاة لمن حاله ؛ ثم لا يريحت نعمة الله
راحة بمثل في الأولياء نصرا ، وفي الأعداء إباحة ، وفي الراكثين شيكلا .

سرا لله أمير المؤمنين بما أهدى له من كراماته ، وحاطه به من منته ، وأيده به من
نصره ، وجعله وما استرقاه من ديه وسلطاناه ، في كنفه الذي لا يُسْنَح وتحت يده المأبغة
وجباحه المحفوظ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه في تمكينه وتوحيدهم، ونَصْرِهِ وحِدْلانهم، وإِعْزَازِهِ والمجاهدة لهم، ولا زالت نِعْمَةُ الله تَرْيِدُهُ قُوَّةَ الظَّفَرِ، وعِزَّةَ الصَّوْرِ، وتَمْدِيدَ من آفَاقِ الأَرْضِ بالبِشَارَاتِ والْفَتْوحِ، حَتَّى تَمَلَأَ له مَا بَيْنَ طَرَفَيْ مُلْكِهِ أَمَّا وَعِزُّهُ، وَيَمَلَأُ به قُلُوبَ أَعْدَائِهِ حُوقًا وَدُجُبًا، وَيَمْتَدِّمُ عَلَى خِلَافِهِ سَطْوَةً وَتَكِيلًا .

أحمد بن يوسف

وَهَذَا اللهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِعَمِهِ، وَمَلَأَهُ كَرَامَتُهُ، وَأَوَّلَى لَهُ قُتُوحُهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى جِيَاظَتَهُ وَكِمَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا عَابَ عَدُوَّهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ وَالْإِمْتِنَاعَ بِهِ .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة حليفة ظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع اللَّبَّةِ الْمُحْتَمَّةِ، ومع الطَّعْرِ الْمَعْدَرَةِ، وجمع لعدوه مع الدِّلِ السَّطْوَةِ، ومع جُحُوضِ الْمُحْتَمَّةِ الْكُلِّ، فلم يجمعه والاكثين مَوْطِنٌ من مواطن الصَّوْرِ، إِلَّا جَعَلَ الْمُحْتَمَّةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلَسَانَ الْعَذْرِ فِيهِ مَعَهُ، وَيَدَ الظُّهُورِ فِيهِ لَهُ، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ عَدَّ الظَّفَرِ مِنَ الشُّكْرِ، وَعَدَّ الْقَلَجِ مِنَ التَّوَاصِعِ، وَعَدَّ الْقُدْرَةَ مِنَ الْعَفْوِ، مَا جَعَلَهُ مُسْتَوْجِبًا لِمَا أَصْفَاهُ بِهِ، مُعْزَفًا بَاقِ الْعَدْرِ مُنْقَطِعٍ مِمَّنْ نَكَهَ، وَأَنْ مُسْتَرَادَّ الْمُحْتَمَّةِ وَمَطْلَبُ السَّلَامَةِ، فِي التَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ وَمَا حَمَلَتْهُ، وَالْمُجَاهَدَةِ دُونَهُ .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهتفه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عُمُورِيَّة

الحمد لله الذي تم لأمر المؤمنين غَزْوَتَهُ، فَأَدَلَّ بِهَا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَشَفَى بِهَا صَدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، ثُمَّ سَهَّلَ اللهُ لَهُ الْأَوْبَةَ سَالِمًا عَانِمًا، وَكَذَا وَكَذَا، وَلِيَهَيِّجَ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، مِمَّا

أحصاه فلا يساء، ليقفه به موقعا يرصاه، فإنه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمُ الْآيَةَ، فَطَوَى اللَّهُ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَازِحَ الْبُعْدِ بَرًا وَبَحْرًا، وَوَقَاهُ وَصَبَ السَّعْرَ سَهْلًا وَوَعْرًا، وَحَاطَهُ بِجَرَّاسَتِهِ كَالثَّاءِ، وَدَافَعَ عَنْهُ بِحَفِيطِهِ رَاغِبًا؛ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ إِلَى الْمَحَلِّ مِنْ دَارِهِ، وَالْوَلَكُنْ مِنْ قَرَارِهِ، وَحَرَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ حَاصَةً، وَبَعْنَ رَجِيَّتِهِ كَافَةً، بِتَقْيَرِهِ مُسْتَحْلَفًا عَلَيْهِمْ، وَقَائِمًا مُقَامَهُ فِيهِمْ هَرُونَ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ اسْتَحْلَفَهُ رَفِيقًا شَعِيقًا، حَلِيًّا وَقُورًا، يَقْطَانًا سَاحِلًا، لَمْ يُسَدِّبْ عَلَيْهِ أَمْرًا، وَلَمْ يَنْتَشِرْ عَلَيْهِ طَرْفٌ، وَلَمْ يَضَعْ مَعَهُ سَبِيلًا، وَلَمْ يُسَاحِطْ وَلِيًّا مُكَامَلًا، وَلَا عَدُوًّا مُخَالِفًا، وَلَا سَيْفَ أَشْرَعَهُ، وَلَا سَوْرَ أَقْرَعَ بِهِ؛ فَثَلَّ جِرَاهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَحْيِيرِهِ إِيَّاهُ، جَزَاهُ اللَّهُ عَلَى مَا حَفِظَ مِنْ وَصَاتِهِ، عَلَى مَحْمُودٍ مُقَامَهُ، إِنَّهُ مُجِيبُ الدَّاعِي .

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

بهتة نظفر

بلغني - فتح الله عليك - خروج أن السرى إليك، والحمد لله الباصر لديه الميز لوليه وحليفته على عبادته، المذلل لمن صد من حقه ورعب من طاعته؛ ونسأل الله أن يطاهر النعم ويفتح بلدان الشرك به، والحمد لله على ما والاك منذ طعنت لوجهك، فلما تندكر سيرتك في حربك وسلمك، وتكثر التعجب لما وقفت له، من وضع الشدة واللبان موصعهما، ولا تعلم سائر حُدد ولا رعية مُدلل بينهم عدلك، ولا عما بعد القدره عني أسفه وأصفه عفوك .

تهتة خليفة بمحج

أصلح الله أمير المؤمنين وأراه من الزيادة في عيحه، ما يكون تاما لما ابتدأ به من فصله؛ والحمد لله على ما خص به أمير المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل في نيته، وحمله يستعين على دينه، بما بسط له في دنياه، ويحمل على بدنه النصب فيما يتقرب به إليه؛ فيجفؤ عن دعيته على لينها، ويشحص عن عُمانيته على فضلها، إثارة لآخرته، وأداء لحق ربه؛ بادر له بذلك ليكرمه به، ثم يستعمل فيه نفسه، تقربا إليه، فيسعد به بالإذن

في ذلك حين كان من الله له ، وبالعَمَل فيه حين كان لله معه ، فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلاً على قبوله الخير حين يعمل لربه ، وكان من ذلك ما أيد الله لأمر المؤمنين في ريادة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لا توافي إلا معها . ولا تكون مأساة إلا فيها ، فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، ونرح منه نقصاً نُسكه ، أجزأه الله عليه في آبدانه ، ثم آتته له باستيائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئة لحاج

لَقَدْ أَتَى الرَّصَا فِي أَمَلِكِ مِنْ نَحْجِ كُلِّ حَاجَةٍ وَإِبْلَاحِ كُلِّ أُمِّيَّةٍ . وَتَقَبَّلَ كُلَّ دَعْوَةٍ خَصَصْتَ بِهَا نَفْسَكَ أَوْ تَحَمَّتَ بِهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِكَ ، فِي مَجَامِعِ وَجْهِهِ ، وَتُعْتَرِلُ قَوَارِعَهُ ، فَكُنْتَ شَافِعًا مَنْ شَهِدَكَ ، وَوَافِدًا مَنْ عَابَكَ ، يَسْتَفْجِعُ بِدَعَاكَ ، وَيُرْجَى بِرَكَّةٍ تَحْصُرُكَ ، وَالْقُرْبَى إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَصِلَ حَاجَتِكَ .

تهنئة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصاً وإليها واصلًا .

آحر :

وَلَمْ تَقْطَعْ عَنِّي الْعَمَّةَ إِذْ أَصَابَتْكَ ، وَلَمْ تَتَعَدَّى إِذْ دَخَلَتْ لَكَ ، وَلَمْ أَحُلْ مِنْ لَازِمِ شُكْرُهَا ، وَمَا يُعَلِّكَ اللَّهُ مِنْهَا ، إِذْ قُلَّدْتَهَا ، اعْتِدَادًا بِكُلِّ مَا طَوَّقْتُ مِنَ الْمَنْ ، وَإِنْ حَاجَا عَلَى هَيْئَةٍ مَا حَلَّتْ مِنَ الشُّكْرِ .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سُرَّكَ اللَّهُ بِتَتَابُعِ بَعْمِهِ ، وَتَرَادُفِ إِحْسَانِهِ ، وَزَادَكَ مِنْ فَوَاصِلِ أَقْسَامِهِ . بَلَقَى — أكرمك الله — ما وهب الله لك من مُلْطَاكَ ، فَقَوَّكَ اللَّهُ عَلَى مَا اسْتَرْعَاكَ . وَرَزَقَكَ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَوْلَاكَ .

وفي مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك في الكرامة ، وخصبك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب
الله لك من سلطانك ، فسررت به ، وسألت الله إتمام بعمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك
للعديل في سيرتك ، وعز من المحبة لك في قلوب رعيتك ، وأن يُعيبك عليه ، ويرزقك السلامة
في الدين والدنيا .

وله في مثله :

أنا أُنهي لك العمل الذي وُليته ، ولا أهدئك به ، لأن الله أصاره الى من يُورده موارد
الصواب ، ويصدره مصادر الحق ، ويصونه من كل حلل وتقصر ، ويُصفيه بالرأى
الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأوجب لك تطوله للزبد
مها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يصونها من الفتن ، ويحوطها من النقص .

آخر :

قد وُليت من العمل ما أسأل الله عز وجل أن يرزقك بركةً بذمه وعاقبته ، ويُعطيك
الرصاص من وُليت له وعليه .

آخر :

هناك الله هذه النعمة المفضلة ، الدال أولها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخر :

أسعدك الله هذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل نطل السلامة منها ، وتنبئ الكفاية
فيها الى أملك بنهايته ورجائك عايته ، ورزقك السلامة ممن وُليت له وعليه .

آخر :

سرك الله بما جدد لك من هذه المنزلة ، وقنعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وُليت
له ومن وُليت عليه .

وكتب محمد بن محمد الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أنرك فيما نل من أعمالك ،
ورمك إياها بجرمك وعزمك ، وأيقناشك^(١) أهلها من جور من ولهم قلك ، وسرورهم بتناول
أيامك والكون في طلل يدك وحناك ، في إمانة من تحضه ونعمه حمتك ، وتحول به
الحول حيث حالت بك ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
مكسومة ، كما ردّها على عيرنا في عيرك . ولوددت أن ألك كان عاب آثارك هذه ومقابك ،
وإن كان الاقتراف لم يقع بينكما حتى علم ألك حلقه ، وألقى اليك بأمره ومعاقد نقته ،
وحملك موضع اختصاصه وأثرته ، وصرف ذلك عن كان لا يستحقه ، ودم سالف رأيه
فيك وفيه وحيد آخره ، ثم سمة اتصلت لك بما قلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
وتلاحمت عليها وآسقت ، ما مسحت في كاتبك ، ومستقر نقتك ، وحامل أعبائك ، من
الكفاية والصبيحة ، ووصعه عن قلك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطائفة
إليه وروح الثقة به ، لا كما ابتلى أخوك ، فإنه صحه خلط عليه أمره ، وأفتى أسرارها الى
صاحب ريده ، فاهل ذلك بينهم ، وقطع جالهم ، حتى هجمت آثاره مع حسنها ووصوحها ،
وصيرت يده من حفظ عمله ، وليرمه الدم من أهله ، فهذه ثغيبه إلى ، في أطراح صبيحة له
كاست فيه ، ويسألني أن أخص اليه كاتباً يتحمل ثقله ، ويصح له ما أرتحه من أمره . وهذا
من سعادة حدك ، ويثمن طائرك ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،
وهيئنا هناك الله فتمه حاصها وعاقبتها ، وأوزمك شكرها ، وأوجب لك الشكر أحسن المزيديها .

تهنئة بعزل

كتب رسول الى مالك بن طوق لما عُزل عن عمله :

أصبحت والله فاصحاً مُتبعاً : أما فاصحاً فلكل وإل قبلك بحسن سيرتك ، وأما مُتبعاً

فللكل وإل بمدك أن يلحقك .

(١) اتيناك أهلها : استفادهم .

فصل

سواء عليا أوليت أم صُرفت ، إنا لنشهد لك الولاية ، بما بسط الله من يدك ببذل العُرف ، ونهتلك بالعرُوف بما لحقك من ناء ما أسلفت من الجليل ؛ ولا نخاف عليك أن تعارق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقَةٌ إليك . فهناك الله العمة ، وأعانك على الشكر ، وأتدك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

بإعني صَرفُك ، غار الله لك ، وهناك لطيف نظره وحليل إحسانه ، فإني أرى الرّحل عد حروحه من العمل سالما قيا من مائمه ودنسه ، أوتى بالتهنئة منه عد دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عد بدء تلتسه به بالخلاص منه ممصوما بريثا من تبعاته ورواح آثامه ، أولى من عُني به وأحت صلاحه ، ولذلك قدّمتُ تهنيتك .

ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حَفِظَكَ الله بحفظه ، وأسعَ عليك كرامته ، وأدامَ اليك إحسانه . إن سرورى بصرفك ، أكثر من سرور أهل عَمَلِكَ بما خُصّوا به من ولايتك . وقد كُتِّ — أعزك الله — فيما يُرْمَا بك عنه ، بما أنت عليه في قدرك وأستهانك ، ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطنا نفسا بالدى رحوبا . فالحمد لله الذى سلّمك منه ، وسأله تمام بعمه عليك وعلينا فيك ، بديلك أملك وأمالنا فيك ، وشماخ ما كان من ولايتك أعظم الدرجات وأشرف المراتب ، ثم حصصك الله بحميل الشُّعب ، وبلغك غاية المؤمنين . إن من سعادة الوالى — حفظك الله — وأعظم ما يُحَصُّ به في عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والعاقة مما يُخاف منها ، وقد خصصك الله منها بمنه وطوله ما نرجو أن يكون سببا لك الى نيل ما تستحق من المراتب . والله نسأل بإزاعتك شُكرا ما من به عليك ، وتبليقك غايَةً أملك في جميع أمورك ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسن ما كَشَفْتَ عك الولاية، وأجمل ما أبرر منك العمل ، قد كسبك الله حمد
ولايتك وعَزَلَ عك لائمها، بما أنشركك من عدلك، وظَهَرَ من معروفك ، فادا ساءك
هذا فليسررك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حمداً يَحْمُزُ حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خيرة لك ، فإن
زادك نعمة وبقاك لشكرها ، وإن أنتحك بلى من نعت حاسد أو كيد كائد ، أثار
برهانك وأفلح مُجَنِّك وجمع بين وليك وعدوك في الشهادة لك ؛ وإن تقل أمراً عن
يدك ، فربما يرجعه اليك غتلاً لفقدك . هذا الى ما جعل عدلك من خواص السم التي إن
ذكرها فاطنبا أو تحوزا فقصرها ، كان عايقاً الى الحسود دون مدى عايتك . وقد زادك
الله بهذا الحادث فصلاً عظيماً ؛ لما طهر من وِلِّهِ العامة اليك وتعلمها الى ما كانت فيه :
من لين إنصافك وكرم أحلاقك ، ووَحْشَةِ الخاصة لما فَقَدَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير
تمضلك . وأيقن أهل الرأي والتأمل لصفحات الأمور ، أن كل ما حرج عك فعائد
اليك ويتصل به غيره ، حتى تستقر في يدك عرأ الأمور ومعاقدها ، وتفتح برأيك وتدير
أبوابها ومعالقها ، فلينبك أن كل ما زاد عيرك قصا زادك فصلاً ، وكل ما نقص من الرجال
وحطها الحق بك شرفاً . فزادك الله وراداً منك ، وجعلنا ممن يَقْلُهُ رأيك ، ويقدمه
اختيارك ، ويقع من الأمور بموافقتك ، ويمر مني على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه قِداً ، وأطال في الخير والسرور بقاءك ، وأتم بعمه
عليك ، وأحسن منها حزينتك ، وبلغك أقصى أمتك ، وقدمني أمامك ، وقد بلغني ما اختار الله لك ،
فسررت من حيث ينم لك من لا يعرف قدر النعمة عليك ، ولا يراك بعين استحقاقك .

ولئن ساءى ما ساء إخوانك من عزك ، لقد سرتى ما يسر الله لك . والحمد لله الذى جعل
انصرافك محمودا ، وقضى لك فى عاقبتك الحسنى ، وأقول :

إنيك أن أصبحت مُجْتَمَعُ الحمد وراعى المعالي والمخامى من المجد
وأنت صلت الأمر فىا وليته ففرقت ما بين الغواية والزُشْد
فلا يحسب الباعون عزك معما فإن الى الإصدار عاقبة الورد
وما كنت إلا السيف جرد للوعى فأحمد فيها ثم رُد الى العمد
وقد قال الأول :

من يكنُ ورود العزل مُكْتَنَّا .. فإننى بورود العزل مسرور
بعد الولاية عزل يستين به .. طولُ الولاة وعد العزل تأمير

أما ما عندى مع تصوّر العاقبة لك فى نعى ، فيمتنى فى أمرك فى حال المنعة
ما يحضنى مه فى وقت تحدّد العمة . ومحسب صميرك الشاهد على ما عدى ما أحده لك
فى نعى . فلا رلت فى نعيم متاعه متعقدة ، ولا عيّبت الثروة والزيادة ، ولتلك الله أقصى
أملك ، وأمل أخيك لك ، وكنت أعدائك ، وجعلنى وقائك المقدم عك . أحب أن
تشرح لى صورة الأمر إلا ما تأدّت ، وكيف كان الابتداء ، فإنى لا أشك أنها حيلة
ونبة من عزّ الصاحب الجليل القدر ، ولها عاقبة مه إن شاء الله محودة ، ونُغضى من ذلك
الى ما تسكنى اليه نعى ، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

طائرُ الثمينِ يليكنُ هذا الباء ، وماساب السعادة فليتنصل عقدُ هذا الاجتماع ، وبكلّ ذكاء
الولد ، وثروة العدد ، فتتجرّلك الأقدار ، وفى أطول عايات البقاء تلتمّ هذه الفيلة والسرور .

* تهنئة بتزويج

بلغنى تزوّحك من علانة ، بإلواء والسين ، تهنئة السلف الصالحين ، وبلغ سنة المجتهدين
المتبحرين ، وتقول على يمين الطائر ، وسعادة الجعد ، ونماء العدد ، وأتعاق الهوى ، وطبيب

الماسمة، واجتماع السَّمَل، وثبات الرِّيع، وتَمَلَّ النِّعم . أسأل الله الذى قصاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها نَحْصًا ، وأن يُؤَنِّزَ حِمَامَهَا الى آتِهَا نَفْسِكَ عنها ، ويجعلك حائزًا لثَرَمِهَا ، وَيُولِّتَ المال وهداة العوِش وملاهاة الفوائى سدها .

تهنئة لقسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى بجمع الأمير أهله على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك تَمِيمًا ، والسَّمَل محتما ، والبركة عظيمة ، والأُمُور سليمة ، وكذلك فقد عَظَّمَ الله القَسَمَ منه لزوجه ، حَمَلَ الأمير سَكَنًا لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، وإبه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ . فلما كان الأمير هو المطور اليه ، وهى المطور اليها ، أختارها الأمير لنفسه وأختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدا مع فصلها فى نفسها فصلا باختيار الأمير إياها ، واختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ، فكان ذلك فصلا من مائه زَيِّه فصل ، وكرامة من الله وصلَّ سَعْيُهَا سمص . فرفع الى الله عز وجل أن يزيد الأمير فى كلِّ سَعَةٍ مبسوطة ، ونعمه مقسومة ، ويعطيه فى ذلك شكرا يكون لرساء مَوْحًا ، كما أعطاه فصلا كان الشكر له به واجبا ، ثم يَمْلَأُ الأمير ذلك بأحسن ما مَلَى أَحَدًا من خلقه كرامة اصطمها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أحذقنى ما أحدث الله لأمر المؤمنين من المَوْهبة التى ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظًا من رِعِيته . فعمر الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم ببور الحكمة وأبصارهم حتى يَسُدَّ بهم عَصْدُكَ ، وَيُسَدَّ بهم ثُلُوتُكَ ، وَيُلْقِهم الناية المأمول لهم بلوغها بعدك ، غير مُقَعَّد بك مَهَل ، ولا مُحَلَّ بك أَجَل ، ولا مُكَذَّبك أَهْل ، ولا مُنْقَطعة أيامك ، حتى تُحْتَرَمَ أنفُسًا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهته بمولود له :

بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهآك نعمته بعطيته ، وملأك كرامته بهائته ،
وأدام سرورك زيادته، وجعله ماراً تقياً، ميمواً ماركاً زكياً، ممدوداً له في البقاء، متلقاً عاية
الأمل، مشدوداً به عصدك، مكثراً به ولدك، مُدماً به سرورك، مدفوعاً به الآفات حك،
مشعوعاً بأكثر العدد، من طيب الولد .

وله في مثل ذلك :

هآك الله هذه العائدة التي أفاذكها، وبارك الله في الهبة التي ررقكها، وشفعها بإخوه
متواترين ، يسرورك في حياتك ويحموك في عحك .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهته بمولود :

حُيِّلْتُ فداك . للبقاء ولولدك، في الساء بابه، وفي الخير شابه، وعلى الركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إله ليس من سم الله، وفوائد قسّمه — وإن خُصّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تعيد
العمة في الولد، لثباتها في العدد، وزياتها في قوّه المصد، وما يتّصل به من عظيم بهجتها،
ويُرّحى من ناقى ذكرها في الخُلوْف والأعقاب، ولاحق بركتها في الدماء والاستغفار . وإن
الله قد أفاذك وأنا لك علاماً سرياً، سَمِّيته فلاءاً، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافقة بالنصر الذي أظهره الله به على عدوّ الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمته ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين في طارف نعمه
وتالدها ، وشَفّع له قديم مسه بمحادثها، ورزقه دكورا طيبين مهتدين ، يأنس بهم ربّه،
ويتصل بهم نجاحه، ويعملهم فزّة زاكّة، وبقيّة صالحة .

آخر :

بلغني الذي وهب الله لك ، جعله الله دُحرا سَيّآ ، وَعَقَا كَرِيما .

عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ

أما بعد ، فإن هبة الله لك هبةٌ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَزِيَادَتُهُ لِيَاكَ فِي صَدَقَتِهِ لِحَلِّكَ عَنْده
وَمَكَانِكَ فِي دَوْلَتِكَ مِنْ دَوْلَتِهِ . وَقَدْ بَلَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ وَهَبَ لَكَ غُلَامًا سَيِّرِيًّا ، فَبَارَكَ
اللَّهُ لَكَ فِيهِ ، وَجَعَلَهُ بَارِزًا تَقِيًّا ، مَارَكًا سَعِيدًا وَزِيًّا .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذي رضى مآ يسير القول عند عظيم العمة ، حمدًا نستوجب به لقاء هذه
الْمَوْجِهَةِ لِلنَّهْءِ وَالْعَائِدَةِ ، فَإِنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تَزَلْ مُتَّاعَةً ، فَقَدْ كَانَ مَا يَقْضِي الْأَمَلُ
مَا ذَكَرَ أَفْرَادُ الْأَمْرِ سَعْسَعَهُ وَقَلَّةُ تَسْلُهُ ، وَمَا لَا يُؤْمِنُ مِنْ أَمْتِ قَطَاعِ الذِّكْرِ بِمَوَاتِ الْأَحْلِ ،
وَهُنْ دُثُورُ الْأَنَامِ ، بِوَأَقْعِ الْجَمَامِ ، وَقَدْ أَصْحَبَا مِنْ اللَّهِ مَنْ يَدِينُ فِي مُسْجِدِ الْمَهْلِ ، وَمَنْه
مَوَاقِعِ الْأَحْلِ ، لَمَنْ أَرَادَ فِيهِ مَوْضِعَ أَمَلِنَا فِي حَسَنِ الْخِلَافَةِ مِنَ الْأَمِيرِ وَإِحْيَاءِ ذِكْرِهِ .

تهنئة بمولود

سِرُّكَ سِرٌّ يُخْصِنِي مِنْهُ مَا يُخْصِنُكَ ، وَتَقَلِّسُنِي فِيهِ الْعَمَّةُ مَا تَقَلِّسُكَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى
النِّعَمَةِ بِكَ وَعِنْدَكَ .

كتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغني من متجدد نعم الله عزّ وجلّ عليك ، وإحسانه إليك فيما رَزَقَكَ
مِنْ الْهِبَةِ مَا أَشْتَدُّ حِلْيَتُهُ ، وَمَا لَتَ اللَّهُ أَنْ يَشْفَعَهُ بِأَمْتَالِهِ ؛ وَلِذَلِكَ أَقُولُ :
قَدْ شَفَعَ الْوَاحِدَ بِالْوَافِدِ * وَأَرْغَمَ الْأَنْفَ مِنَ الْحَاسِدِ
إِبْرَاهِيمَ قَرْعِيًّا بِمَا * أُعْطِيَتْهُ مِنْ هِبَةِ الْمَسْجِدِ

قد قلتُ لِمَا بَشَّرُونِي بِهِ . بُورِكَ فِي الْمَوْلُودِ لِلْوَالِدِ
إِنَّمَا تَرَحُّوْا وَاحِدًا مِثْلَهُ * وَالطَّائِرُ الْمَيْمُونُ لِلْوَالِدِ

وله الى بعض إخوانه يهته بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إِلَّا كُنْتُ بِهِ سَهِجًا، أَعْتَدَ
فيه بالعمة من الله الذي أوحى عليّ من حَقِّكَ وعَرَفَنِي مِنْ جَمِيلِ رَأْيِكَ . فزادك الله
حياء، وأدام إحسانه اليك . وقد طمئني أَنَّ الله وَهَبَ لَكَ عِلَامًا سَرِيًّا، أَكْمَلَ لَكَ صُورَتَهُ،
وَأَتَمَّ حُلْفَتَهُ، وَأَحْسَنَ الْبَلَاءَ فِيهِ عَدَكَ، فَاشْتَدَّ سُرُورِي بِذَلِكَ، وَأَكْثَرْتُ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهِ .
فَارَكُ اللَّهَ فِيهِ، وَحَمَلَهُ نَارًا تَمِيًّا، يَشُدُّ عَصَدَكَ، وَيُكْثِرُ صَدَدَكَ، وَيُقِرُّ عَيْكَ .

وكتب إسماعيل بن يحيى الى بعض إخوانه يهته بابتنة له :

رُبَّ مَكْرُوهٍ أَغْبَى مَسْرَةً، وَمَحْبُوبٍ أَغْبَى مَعْرَةً . وَحَالِي الْمُنْعَةُ وَالْمَصْرَةُ، أَعْلَمُ
بِمَوَاضِعِ الْخَلِيقَةِ .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الأمانة المستعانة، وحملها لكم زينا، وأجرى لكم بها حيرا، فلا
تكرمها، فإنَّهنَّ الأثمات والأحوات، والعَمَاتُ وَالْخَالَاتُ، وَمِنْهُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ،
وَرُبَّ عِلَامٍ سَاءَ أَهْلُهُ بِعَدِّ مَسَرَّتِهِمْ، وَرُبَّ حَارِبَةٍ فَرَّحَتْ أَهْلَهَا بِعَدِّ مَسَاءَتِهِمْ .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول

مولود كان :

أما بعد، فإن مما أعتزف من مواهب الله، نِعْمَةٌ خُصِّصْتُ بِمَزِيَّتِهَا، وَأَصْطَفَيْتُ
مَحْصِيَّتَهَا، كَانَتْ أَمْرِي مِنْ هِبَةِ اللَّهِ وَلَدًا سَمِيَّتُهُ فَلَانًا، وَأَمَلْتُ بِقَائِهِ بِعَدِي حَيَاةً وَذِكْرِي،
وَحُسَّ حِلَاقِي فِي حُرْمَتِي، وَاشْرَاكَه لِيَأَيَّ فِي دُعَائِهِ، شَانَعَا إِلَى رَبِّهِ عِدَّ حُلُوتِهِ فِي صَلَاتِهِ
وَتَجَنَّبَهُ، وَكُلَّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ طَاعَتِهِ، فَإِذَا طَرُتُ إِلَى شَخْصِهِ تَحَوَّلَ بِهِ وَجْدِي وَظَهَرَ بِهِ

سرورى، ونعمّعت عليه مه أمه الولد، وتولّت حتى به وحشة الوَحْدَة، فأنا به جَدِل
 فى مَعْبَى ومَشْهَدَى، أأحاول من جِسه ييدى فى الطَّلَم، وتارة أطاقه وأرشفه، ليس يَعدله
 عدى عظيماى الهوائد، ولا منفسات الرغائث، سَرَى به واهه لى حل حين ساحق،
 فشذ به أُررى، وحملنى من شِكْره فيه ما قد آدنى بتقل حمل النعم السافه الى به، المقرونة
 سَرَأُها فى العجب بقدر ما يدركى به من رقة الشفقة عليه، عمامة محاذية المايا إياه،
 ووَجَلًا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذى آمتن علينا بنصص صُنعهُ والأرحام،
 وتأديته بالزكاء، وحرّمه بالعافية، أن يرزقنا شكرًا محمّلًا فيه وفى غيره، وأن يجعل ما يهب لنا
 من سلامته والمُده فى عمره موصولًا بالريادة، معروفًا بالعافية، عموطًا من المكروه، فإنه
 المان بالمواهب والواهب الملقى، لا شريك له. تحلنى حل الكتاب اليك لعلم ما سُررتُ به
 على محالك فيه وشرك إياى فى كل محه أسداها الى ولّى النعم. وأهل الشكر أولى
 بالمزيد من الله حلّ ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقطة الى دار جديدة

تاهى الى قُلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله قُلة المكروه عنك، ونقطة السرور
 اليك، ودوام نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصل نعمة فينا
 عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أما أقول الحمد لله الذى وفقك لشكرك، وعرفك هدايته، فطهر من الأتريات قلبك،
 ومن الاقتراء عليه لسانك. وما زالت محابلك مُتمثلة لنا بحيل ما وهب الله لك، حتى كأنك لم
 تزل بالإسلام مؤسوما، وإن كنت على غيره مقيما. وكنا مؤمنين لما صرّت اليه، مشفقين
 لك مما كنت عليه، وادكاد إشفاقا يستعلى رءاؤنا، أنت السعادة بما لم تزل الأنفس
 تعد منك. فأسأل الله الذى تورك فى رأيك وأصاء لك سبيل رشدك، أن يوفقك
 لصالح العمل، وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار.

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نواس يادم ولد المهدي ويلازمهم فلم يُلَفَّ مع أحد من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقي منه أشياء كرهها وكُرِهَتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو علي الحسن بن هانئ ، الشاعر المصنف ، الحاذق الماسح ، صاحب البيت الطائر ، والشعر السازع ، ورأس المحدثين عند شارح . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة حورستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ ببيتا هذمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، تعلم العربية وروى في الأدب ، فلم تنمأ أمه بحاله وأسلمته إلى عطار البصرة ، فلبث عنده لا يفتقر من معانة الشعر والاختلاف إلى الأدباء والمحدثين ، إلى أن صادفه عبد العطار والدة من الحباب الشاعر الماسح الكوفي في إحدى قدامته إلى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأمرجه والدة معه إلى الكوفة ، فبقى معه ومع قدامته من حلفاء الكوفة وقضخ عليهم في الشعر وفاقهم جرعا . وقدم بغداد وقد أوتت سبه على الثلاثين ، فاقبل بعض الأعراء ومدحهم ، وبلغ حيرة الرشيد فأذن له في مدحه ، فمدحه بقصائد طيبة وحده مرة على هجو مصر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ومدحهم ومدحهم الحبيب عامل مصر ، ثم اضطلع إلى مدح محمد الأمين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعريه مدحه ، ولم يلبث بعد حروجه من السجن أن مات بسدادة .

وكان أبو نواس حيل الصورة ، فكأن المحصر ، كثير الدعاية ، حاصر الدنيا ، متبها في اللغة والشعر والأدب ، متصفا باليافة على المصرية . وأجمع أكثر علماء الشعر وعذبة وغول الشعراء على أن أبا نواس أشهر المحدثين عند بشار وأكثرهم تمنا وأرصبهم نقولا وأبدعهم حبالا مع دقة لفظ وديع معنى ، وأنه شعر مطبوع رزق كل من من هو الشعر .

واتنزه كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المهرجيات ، وكان شعره لجاج الفساد والقذوة الدنية ، لقلبه العزل من أوصاف الخمر إلى الذكر والخروج بذلك من مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قسلة وقيل شيطانة والده . ورواد على ذلك أعراده بالإبداع في وصف الخمر ، فكان يمدح سوء لمن تأخر ، فافتقر شعره الشان في زمانه وصده وحاكوه وطلب إليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يصدق طريقا إلا إذا مرح شعره بشيء من ذلك ، وإن لم يقع في محطراته .

ورسمه عندائه الحارقال . كان أعارف الناس مطلقا ، وأعرهم أديما ، وأعدهم على الكلام ، وأسرهم جواما ، وأكثرهم حياة ، وكان أبيض اللون ، يجلس الوجه ، طليح العمة والاشارة ، مائت الأعضاء من الطويل والقصير ، مسون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العيى والمصحك ، حلو الصورة ، لطيف الفك والأطراف . وكان صريح اللسان ، جيد البيان ، عذب الأنفاط ، حلو التماثل ، كثير الوادو ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة، فأقبل الناشئ على أبيه هاني وقال له : إن عاش أسك هذا وقال الشعر ليقلته بلسان شتوم .

ثم اتصل بولاية بن الحُبَاب الأسدي ، لقيه بدار البَاحِثِي الأسدي والى الأهواز للصور، فقال له والدة : إني أرى فيك محابيل فلاح، وأرى أنك لا تصعبها، وستقول الشعر وتعلو فيه، فاصحبنى حتى أنثرك، فقال : ومن أنت ؟ قال : أبو أسامة، قال : والدة ؟ قال : هم، قال : أما والله حُطِيتُ بِمَاكَ في طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بمداد من أحلك، قال : ولماذا ؟ قال : شهوة لقتائك ولأبيات سمعتها لك، قال : وما هي ؟ فأشده :

ولها ولا دنْبُ لها * حُبُّ كَأَطْرَافِ الزُمَاجِ

بحرحتُ فَوَادِي المَهْشُورِ فَاثْقَلْتُ مَجْرُوحِ الوَاحِي

سَلَّ الحَلِيفَةُ صَارِمًا * هُوَ لِلْعَسَادِ وَلِلصَّلَاجِ

أَحْدَاهُ كُفُّ أَمَى الْوَلِينِدِ يَدَا مُسَارِيَةِ الرِّيَاجِ

الْقِيَّ بِحَابِ خَيْضَرِهِ * أَمَقَى مِنَ الْأَمَلِ الْمُنَاجِ

وَكَأَنَّمَا ذَرَّ الحَبَا * عَلَيْهِ أَفْهَاسُ الرِّيَاجِ

قصي معه، ثم سأله أن يرحل الى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والعريب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنة، ثم قدم ففارق والبة ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلماً حديلاً راويةً خللاً، رقيق الطبع ثابت الهمم في الكلام اللطيف .
ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره، منها قوله :

وَذَاتِ خَدِّ مَوْرَدٍ * فِقْصِيَةِ الْمَتَجَرِّدِ

تَأَقَّلَ الْعَيْبُ مِنْهَا * عَاسًا لَيْسَ تَقْدَرُ

== راوية للأشعار ، علامة بالأخبار ، كان كلامه شعر موزون . توفي سنة ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره في كتاب خاص باسم « أخبار أبي نواس » لأن مطبوع مصر سنة ١٩٢٤ والأخاني (ج ١٨ ص ٢) و (ج ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و (ج ١٦ ص ١٤٨) دار حلقات (ج ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والمهرست (ص ١٦٠) والبغد الفريد (ج ٣ ص ٣٣٧) .

فعضه قد تَماهى * وعضه يتولد
والخس في كل شيء * منها مُعاد مرّدد
ومنها قوله :

يا عاقِدَ القلب عَنِّي * هلا تَدَكَّرتَ حَلًّا
تَصَكَّتْ عَنِّي قَلِيلًا * من القليل أَقلًّا
يُصْكَادُ لَا يُعْزَى * أَقلُّ في اللفظ مِن لَا
ومنها قوله في امرأة أسَمَّها حُسْن :

إن اسم حُسْن لوجهها صفةٌ * وَلَا أَرَى دَا فِي عِيَرِهَا جُمُعًا
فهى إِذَا تُنَبِّتَ فَقَدْ وُصِفَتْ * فيجمعُ الإسمُ معيَّنَ مَعًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لَهْزِيرِ إِذَا حَدَا رَشْدًا * أَقلُّ أَوْ أَكْثَرُ فَاثَتِ مِهْدَارُ
مُحْتَمَّ من شِدَّةِ البرودة حَتَّى صَرَّتْ عَدَى كَأَنَّكَ الْبَارُ
لَا يَجِيبُ السَّامِعُونَ مِن صَفَى * كَذَلِكَ التَّلُحُّ بَارِدٌ حَارُ

هذا شيء أحده أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فاهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط
في البرودة انقلب حاراً، وقالوا: إن الصَّنَدَل يحكّ منه اليسر فيبرد، فإذا أكثر منه سخن .

قالوا . كان أبو نواس دعياً يخلط في دعوته . من ذلك قوله يهجو عربَ البصرة :

أَلَا كَلَّ بَصْرِي يَرَى أَمَّا الْعَلَا * مُكَمَّهٌ مَحْمَقٌ لَمَنْ جَرِيَسُ^(١)
فَان تَفْرِسُوا نَحْلًا فَا نَ عِرَاسَا * صِرَاتٌ وَطَلَسٌ فِي النُّجُورِ تَحِيْنُ
فَا نَ أَكَّ بَصْرِيًّا فَا نَ مُهَاجِرِي * دِمَشْقُ وَلَكِنْ الْحَدِيثُ فَوْنُ
مَعَاوَرُ قَوْمٍ لَيْسَ بِلِسْنِي وَبَيْنَهُمْ : أَوْاصِرُ إِلَّا دَعْوَةُ وَطَنُونُ
إِذَا مَا دَعَا بِاسْمِي الْعَرِيفُ أَجَبْتُهُ * إِلَى دَعْوَةٍ مِمَّا عَلَى تَهْوَنُ

(١) المكهة : المراس الكثيرة . والسحق . الطويلة ، يربد الحل . والجريس ها : موضع بمحيط النهر .

ثم هما اليمن في هذه القصيدة بقوله :

لأزدد عُثْمَانَ مالمَهَلَتْ رَوْهٗ * إذا أَفْخَرَ الْأَقْصَامَ ثُمَّ تَلَيْنُ
وبكر ترى أن السَّوْءَ أَزَلْتُ * على سَمْعٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ حَيٌّ
وقالت نَجْمٌ لَا زَى أَنْ وَاحِدًا * كَأَحْمَا حَتَّى الْمَمَاتِ يَكُونُ
فَمَا كُنْتُ قَبِيلاً مَعْدَا فِي ثُبَيْة * وَخَيْرٌ بِهِ إِنْ الصَّغَارُ مَتَوَتْ
وإنما نشأ أَوْفَوْاسُ مَالِصَةً وَلَيْسَ لَهُ بَدْمَشَقُّ قَلْبٍ وَلَا مَعْدُ .

وعما هما به اليمن أيضا قوله لما نتم بن حُذَيْج :

وردنا عَلَى هَاشِمٍ مَصْرَهُ * فَارْتِ تَحَارَتَا عِيسَى
يقول فيها :

رَأَيْتُكَ عَدَّ حَصُورَ الْخَلَا * ن شَدِيدًا عَلَى الْعَدِّ وَالْعَبْدِ
وَتَحَنَّنْتُ حَتَّى يَحَافَ الْجَلِيدُ * س شَدَاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلَةِ
وَتَحَنَّنْتُ ذَلِكَ نَجْمٍ عَلَيْهِ * يَكْنُذُ فَاسْتَعِ عَلَى كُنْذِهِ
وَإِنْ حُدَيْجًا لَهُ هَرُّهُ * وَلَكِنَّا زَمَنَ الرِّدَّةِ
وَمَا كَانَ إِيمَانُكَ بِالرَّسُولِ * سَوَى قَتْلِكَ صَبْرَهُ عَدَّةِ
تُعَذِّبُهَا فِي مَسَاعِيكُمُ * كَعَذِّ الْأَهْلَةِ مَعْتَدَةِ
وَمَا كَانَ قَاتِلُهُ فِي الرَّحَالِ * بِجَمَلٍ لَطِيفٍ وَلَا يَرْشِدَةِ
فَلَوْ شِئِدْتُهُ قَرِيضُ الْبَطَا * ح لَمَّا عَحَّتْ تَارُكُمُ جَمَلُهُ^(١)

وقوله أيضا :

مَا مَكَ سَامِي وَلَا أَطْلَعَا الدَّرْسُ * وَلَا وَاطَقِي مِنْ طَيْرٍ وَلَا نُرْسُ
يَا هَاشِمُ بَنَ حُدَيْجٍ لَوْ عُدَّتْ أَبَا * مَثَلُ الْقَلْبِ لَمْ يَلْقَ بِكَ الدَّرْسُ
إِذَا صَبَحَ الْمَلِكُ الْعَاهُتُ وَافِدَهُ * وَمِنْ قُضَاعَةِ أَمْرِي عَدَّهُ حُسْنُ

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عَمَرُوا * فلم ينل مثلاً من مثلهم أنس
أورحت مثل حوى في مكارمه * هيات منك حوى حين يتمس
أو كالسومل اذ طاف الهام به * في تحفل لحب الأصوات برئيس
فاختار ثكلاً ولم يغير بدمته * إذ قيل أشرف تر الأوداج تلجس
ما زاد ذلك على تيه خيصته به * وكيف يعدل غير السوء الفرس
وقوله :

يا هاشم بن حذيج ليس نكرم * بقتل صهر رسول الله بالسد
أدجم في إهاب العيرجته * فليس ما قلتم أيدكم لفد
إن تقتلوا ابن أبي بكر فقد قتلت * ثجراً بدارة ملحوب بنو أسد
وطردوكم الى الأبال من أجلى * طرد النعام اذا ما تاه في البلد
وقد أصاب شراحيلاً أبو حنيس * يوم الكلاب فادفعتم بيد
ويوم قلتم لزيد وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أبرجت من ولد
وكل كندية قالت لجارتها * والدمع ينهل من مثنى ومفريد
ألمى امرأ الفيس تشيب بغانية * عن ثاره وصفات النوء والوتد

وقد رأى أبو نواس خلفاً الأحمر بعد موته بقصاص من شعره، منها قصيدته التي أولها

قوله :

لو كان حي وأثلاً من الثلف^(١) * لو ألت شقواء في أصل شحف
أم فرج أحرزته في الحلف^(٢) * مرغب الأنفاد لم يا كل بكف
كانه مستعمد من الحشرف^(٣) * هاتيك أو عصاه في أصل شرف
زوغ في الطبايق^(٤) والزرع الألف^(٥) * أودى جماع العلم مذ أودى خلف

(١) وأثلاً : ناسحاً . وراثت : بلات . والشعراء : الطاب . والشحف : رموس الجبال .

(٢) الحلف : العار في الجبل . ومرغب : صار ذا صب، والزرع صغار الریش . والأنفاد جمع لند بالهم

وهو لجة في الحلق . (٣) الطبايق والزرع : نوطان من الشجر .

من لا يَمُدَّ العلمَ إلا ما عَرَفَ * قَلْبُهُمُ مِنَ الْعَالَمِ انْحُسِفَ
كُلُّهُمُ نِسَاءً مِنْهُ نَفَرِي * رَوَايَةٌ لَا تُحْتَنَى مِنَ الصَّحَفِ
ومنها قوله يرثيه :

لَا تَيْلُّ الْعَصْمُ فِي الْمَضَابِ وَلَا * شَقَوَاءُ تَقْدُو فَرْحِينَ فِي لَجَفِ
يُكِنُّهَا الْحَوْ فِي النَّهَارِ وَيُو * وَيَا مَسَاوِدُ الدُّجَى إِلَى شَرَفِ
تَحْسُو بِمُجْشُوشِهَا عَلَى صَرِمِ * كِفْعَةُ الْمُحَنِيِّ مِنَ انْخَرَفِ
وَلَا شَبُوبٌ بَاتَتْ تَوَزَّقَةُ الشَّرَفِ مِنْهَا بَوَائِلُ قِصَفِ
دَانٍ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَصِيدِ وَفِي * بَهْوِ أَمِينِ الْإِيَادِ ذِي هَدَفِ
دِيدُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلِيهِ * حَتَّى إِذَا أَنْجَابَ حَاجِبُ السَّدَفِ
غَدَا كَوَقْفُ الْمَلُوكِ يَنْهَتْهُ الشَّقِيطُ قَطْعُ مِنْ مَتْنِيهِ وَالْحَكْتِفِ
كَانَ شَدْرًا وَهَتْ مَعَاقِلُهُ * بَيْنَ صَلَاةِ فَلَمَبِ الشَّنَفِ
وَإِخْدَرَى صَلْبِهِ النَّوَاقِ صَلَاصِلِ أَمِينِ الْقُصُوصِ وَالْوُطُفِ
مُتَفَرِّدٍ فِي الْقَلَاةِ تُوَسِّعُهُ * رِيًّا وَمَا يُحْتَلِيهِ مِنْ عَلَفِ
مَا تَرَكَ الْمَوْتَ مِنْ أَوَّلَى شَبَحًا * نَادَتْ بِتِلْكَ الْفَلَالِ وَالشَّنَفِ
لَمَّا رَأَيْتُ الْمَنُوتَ آخِذَةً * كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَعْفِ
بَتْ أَعَزَّى الْمَوَادِّ عَنْ خَلْفِ * وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا يَفْضُ يَكْفِ
أَنْسَى الرِّزَايَا مَيِّتٌ يَحْتُ بِهِ * أَمْسَى رَهْنِ السَّرَابِ فِي جَنَفِ

- (١) القلبد : البئر العميقة . والعالم : جمع علم وهو البئر الكبيرة الماء . والحسف جمع حفرة
وهي التراب التي حفر في حجارة فح منها ماء عزيز لا يقطع . (٢) الخوشوش : الصدر . والصرم :
فرح المقاب . (٣) الشجوب : الشاب من الثيران والعنم . والشرة : مرة من مازله القمر .
(٤) الوصيد : بيت كالحطيرة يخط من الحجارة لئلا أى النعم وعيرها في الجبال . والإياد : التراب يحصل حول
الحوص أو الجلباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من ماء أو كتيب ومل أو حل .
(٥) يهت : يساقط ويخفف . والقطقط : المطر الصغير أو المتنازع الطعم القطر وهو لى هودب الزداد وقيل
البرد أو صباره .

كَانَ يُسَمَّى بِرَقْفِهِ عُلْفًا * فِي غَيْرِ عِيٍّ مِمَّهِ وَلَا عُنْفٍ
يُحِبُّ عَمَكَ الَّتِي عُشِيَتْ بِهَا * مِنْ قَمَلٍ حَتَّى يَنْشَفِكَ فِي لَطْفٍ
لَا يَهْمُ الْحَاءَ فِي الْقِرَاءَةِ نَالًا * وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلْفِ
وَلَا يَعْشَى مَعَى الْكَلَامِ وَلَا * يَكُونُ إِنْشَادُهُ عَنِ الصُّحُفِ
وَكَانَ مِنْ مَعَى لِسَانٍ حَلْفًا * فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ حَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أوى زيد فكتب العريب من الألفاظ، ثم نظّر في نحو سيبويه،
ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زناد ويحيى القطان وأزهر السمان وغيرهم،
فلم يختلف عن أحد منهم، وأدرك الناس علمه، ثم قديم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضاً يتترو ويُدعى للفرردى . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني، فهجاه
الحكم وذكر ربه العود ونفى عليه ونكده . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يحو بها
خفيف، وهى :

الْمُ تَرَحَّعَ عَلَى الطَّلَلِ الطَّلَسُ * عَصَاهُ كُلُّ أَسْمَمٍ دَى الرُّنْجَاسِ ^(١)
وَذَايِرِ التُّرْبِ مُرْتَبِكٌ حَصَّاهُ * نَسِيجِ الْمَيْثِ مِعْقَةَ الدِّهَاسِ ^(٢)
سَوَى سَفْعِ أَمَارَتِهَا اللَّيَالَى * سَوَادَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ أَفْهَاسِ ^(٣)
وَأَوْرَقَ حَالِفِ الْمُنْشَوَةِ هَابٍ * كَصَاوِيءِ الْفِرَاحِ مِنَ الْهَلَاسِ ^(٤)
مَنَارُلٌ مِنْ عُقْبَةِ أَوْسُلَى * أَوْ الدِّهْمَاءِ أُخْتِ بَنَى الْهِمَاسِ ^(٥)
كَأَنَّ مَعَاذَ الْأَوْصَاحِ مِنْهَا * بِمَيْدِ أَغْنُ نَوْمٍ فِي الْيَكْثَاسِ ^(٦)
وَتَيْمٌ عَنْ أُخْرَى كَانَتْ فِيهِ * مُجَاحَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ ^(٧)
فَمَنْ ذَا مَبْلَغُ عَمْرٍأَ رَمُوسًا * فَقَدْ ذَكَرْتَ وَذَلِكَ فَيَرَاسِ

(١) ساء تسمية : مثله وجهه . (٢) طلاس بالكسر : دارس . والأسمم : السحاب . والارنجاس .

الزبد . (٣) المعقعة : حل في الزبل .

(٤) الاحباس : يماض فيه كثرة . والسمع : يريدها الألفاظ . (٥) الهلاس : الصمور وهاب :

لونه لون الهباء . (٦) بجة بالتأني : تنسب اليها الخمر .

فلم أجزئك هجرتي ولكن = وائب لا يزال لها سُقاسي
 وائب تمجيز الأدماء عنها = وبياً دونها اللين النطاسي
 وقد تالفت عن أحباب قوم * هم ورتوا مكارم ذي نواس
 فإن لك أوقدت للحرب ناراً * ما غطيت خوفاً الحرب راسي
 سأبلي حير ما أبلى عظام * اذا ما التسل أُلجم بالقياس^(١)
 وسمت الواثلي بفاقرات * بين وسمت رهط أبي فراس
 وقالت كاهل وبنو قعير * حناتك إنما لست بأس
 ما بال النماح ثنت بشتي * وفي زمعاتهم دم الفراس
 وما حامت عن الأحساب إلا = لترفع ذكرها بأبي واس

مارضه الحكم وهما ، فانقلب على الترابية وأدعى أنه من حاء وحكم ، فزجره يزيد بن
 منصور الحميري حال المهدي وقال له : أنت حوزي ، فالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولى
 لهم ، فتركوه ، وقال مصمم لمص : إليه لطريف اللسان عزيز العلوم فدعوه ، وهذا الولاء
 يتعصب لنا ويكيد عا ويهجو الترابية ، فكان كما قالوا وكما طبوا ، فانقلب الى اليمن وصقل
 عن كنيته بأبي فراس واكتفى بأبي واس ، تشبهاً بكنية ذي نواس كما كانت اليمن تكني ،
 وندم على هجاء ابي ، ووجدتهم له أبصر ولدعوته أقبل ، فاعتذر الى هاشم بن حديج الكندي
 من هجائه ، ومدح اليمن فقال :

أهاشم خذمتي رصاك وإن أتى . رصاك على مسمى مصر ملوم
 فأقسم ما جاوزت بالشتم والدي * وصرعي وما مرقت غير أديمي
 فعدت بحقوي هاشم فاعاذني * كريم أراه فوق كل كرم
 وإن امرأ أغصى على مثل زاتي * وإن جرحته به لحشد حليم
 تطاول فوق الناس حتى كأنما * يرون به نحا أمام محوم

إذا أمتازت الأحساب يوما ما هلهما ، أناخ إلى عادية وشميم
 إلى كل معصوب به التاج مقول * إليه أيادي عامر وشميم
 وكان قبل أن يتخلى لليمن ويدعى لقرار يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :
 فاسقنيها وغرب صو * تأ، لك الحير، أعما
 ليس في بيت دمية * لا ولا زجر أشاما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفضل هذه القصيدة وهي :
 ودار ندأ عطلوها وأدبوا * بها أثر منهم جديد ودارس
 مساحب من جز الزقاق على الترى * وأصفاث ريحان جنى وبابس
 حبست بها سحبي بحدت عهدهم * واتي على أمثال تلك الحابس
 ولم أدر منهم غير ما شملت به * بشرق سابط الديار السابس
 أفتا بها يوما ويوما وثالثا * ويوما له يوم الترحل خامس
 تدار علينا الراح في عجدية * حبتا بأنواع التصاوير فارس
 قرأتهما كسرى وفي جباها * مها تروها بالقيس الفوارس
 فالحمر ما زرت عليه جوبها * ولما ما دارت عليه القلائس^(١)

وقوله يصف كزمة وعربها بالهجمة وهو يريد الدنان :

لنا هجمة لا يدرك الذئب تغلها * ولا راعها نزو الفحالة والخطر
 إذا امتنحت ألوانها مال صموها * إلى الكت إلا أن أوبارها خضر
 وإن قام فيها الحالبوب أقتهم * ببجلاء ثقب الجوف دوتها النمر
 مسارحها الغري من نهدهصر * قطربل فالصالحية فالعقر

(١) يعني أن الحمر مصبوع بها إلى حلق الصور صرعا - وقوله : « ولا »، يعني أنهم صوا الماء في مزجها حتى

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كَسَرِي وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثُ مَا أَبَقْتَ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرٌ
قَصَرْتُ بِهَا لَيْسِي وَلَيْلِ ابْنِ حُرَّةٍ * لَهُ حَسْبُ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرٌ

وَفِي تَعَالُجِ أَبِي نُوَاسٍ فِي شِعْرِهِ يَقُولُ الرَّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

نَبَطِي فَأَذَا قَهْلٌ لَهُ * أَنْتَ مَوْلَى حَكِّمٍ قَالَ أَجَلٌ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ بِهِ * لَاحِقًا فَاللهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ
وَاضِعًا نَسَبَهُ حَيْثُ اشْتَبَى * فَأَذَا مَا رَأَاهُ رَبُّ رَحَلٍ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجُوتُ الْفَضْلِ دَعَرِي وَهُوَ عَدِي * رَقَاشِي كَمَا زَعَمَ الْمَسْوُولُ
فَلِمَا سُئِلْتُ عَنْهُ رَقَاشِي * لَتَعْلَمَ مَا تَقُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَّصْنَاهُ إِلَيْهَا * لَتَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا تَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَمَدًا مِنْ رَقَاشٍ * مِنَ الْأَثْنِ أَذَعَتْ فِيهَا الْقِيُولُ
وَحَدَّثَنَا الْفَضْلُ أَحْكَمَ مِنْ رَقَاشٍ * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاهُ الرَّسُولُ
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلرَّقَاشِيِّ إِذَا جَعَّه * لَوْ مِتَّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجُكَ
لَاتَنِي أَكْثَرُ مِنْ عَرَضِي وَلَا * أَفَرُّهُ يَوْمًا إِلَى عِرْضِكَ
إِنْ تَهْجُنِي تَنْجُ قِيَّ مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الْعُرْفُ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عِرْضِي فَاهْجُهُ رَاشِدًا * لَا تَدْنُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجُوكَا
وَاللهُ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا * كُنْتُ بِأَهْيَ لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيًّا مِنْ صَنَمَةِ السُّوقِ * وَصَنَعَةُ السُّوقِ ذَاتُ تَنْشِيقِ
مَا رَأَيْتُكُمْ يَتَزَارَعُونَ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ عُلُوقِ

ويعمل الوطء والعلات ولا . يصلح إلا لحمل لباريق
لقد صربا بالطلأ لك في التقوم صحيح وصيح في البوق
قد أحد الله من رقاش على . رصهم المجد بالموائيق
فالناس يستقون للعلا قُدَمَا * وهم وراء مكسرو الشوق
هذا كذا كم وفي الهياج اذا . هيج ما شئت من وآشيق^(١)

وقال أيضا يهجو

أصبح الفصل طاهر التيه . وذاك مد صرت أهاجيه
فله شعري، أي مفواهيه . لكل من دوني قوافيه
كم بين فصل مد حاجيته . وبني قبل أهاجيه
فالمجد لله وإن كنت لم . أحصل بقوم تصحوا فيه
رضيت أن يستمنى ساقط . يشيخي خير من مواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماحى ويعت ويحى بسه واسم أنه ثلاثي، وذلك مشهور عنه . ولو عصب هو سه على أبيه لمعاه ولم يحشيم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكيمين . يمتخر يمين ويمدحهم لذلك، ويمدح العجم ويدكرهم لأنه منهم، فذلك قال في العجم ما قال .

قال أبو الفرج الأصمهاوي : كان أبو عبيد يقول : ذهبت اليمين بجذ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجذته ، وأبو نواس هزله . وكان يقول : ذهبت اليمين بجيد الشعر قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوتال ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول . شعراء اليمين ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرؤ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه العطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في صونه . وكان يقول : يحشيني من شعر أبي نواس قوله :

(١) جمع ناشق وهو اسم طائر، أعشى معزب .

بَنِيَا عَلَى كَسْرِي سَمَاءَ مُدَامِيَّةٍ * مَكَلَّلَةٌ حَافَاتُهَا بِخُجُومٍ
فَلَوْ رُدِّي كَسْرِي بِنَ سَاسَانَ رَوْحُهُ * إِذَا لَا صُطْفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

ومثل يعقوب بن السَّكَيْتِ عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من
الجاهليين فلا سرى القيس والإعشى، ومن الإسلاميين طَجْرِي والمَرْدُق، ومن المحدثين
فَلَاثِي نَوَاسٍ حَسْبُ. وقيل: للعتبي من أشعر الناس قال: عند الناس أم عدى؟ قيل
عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؟ قيل: صدك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يرَ شعراً أبى نواس فليس
بتام الأدب. ومثل: من أشعر المحدثين؟ قال: الذي يقول.

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَمَ * سِ مِنْ أَزْوَارِهِ قَمَرَا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسًّا : إِذَا مَا رَدَّتْهُ طَطَرَا
عَيْنُ حَالِطِ التَّغْيِي * رُ مِنْ أَحْقَانِهَا الْحَوْرَا
وَوَجْهِهِ سَائِرِي لَوْ . تَصُوبُ مَاءُوهُ قَطَرَا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عَيْرِ طُرَرَا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعراً أبى نواس علمت أن
ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سَقَلْتُ عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ تَقَدَّمِي مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعُلُوتِ
عَنْ طَبَقَةٍ مِنْ مَعِي وَمِنْ يَحْيَى عَدِي، فَأَنَا نَسِيحٌ وَحْدِي.
وحدث جماعة من الرواة من شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما أبى نواس قول
الشعر، وكان حلاً راوية عالم.

وقال أبو عبيد: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قَرَصَ الشعرِ ثَلَقَانِي وهو سكران ماطرٌ
شاربُه بَعْدُ، فقلت له: كيف فلان عبدك؟ فقال: هَيْلُ الظِّلِّ، جامد السيم؛ فقلت:
زِدْ، فقال: مظلم الهواء؛ مِنْ الْقَاءِ، فقلت: زِدْ، فقال: غليظ الطمع، بارد الشكل؛

قلت : زد ، فقال : وَحَمِ الطَّلْعَةَ عَصِرَ الْقَلَمَةِ ؛ قلت : زد ؛ قال : نَأَى الْجَنَبَاتِ ، بارد
الحركات ؛ قال : نَحَفْتُ عَه ؛ فقال : زدنى سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ فقلت : « كفى من
القلادة ما أحاط بالمتق » .

وقال سليمان بن أبى سَهْل لأبى نَواص : ما الذى استجيد من أجناس شعرك ؟ فقال :
أشعارى فى الخمر لم يُقَلْ مثلاً ، وأشعارى فى الفزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى
إن لم يزاحم عزلى ما قلته فى الطَّوْد .

وكان يقول : ما قات الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن اثنتان ، وليلى ،
فما طبك بالرجال ؟ وإنى لأروى سبعة أَرْجُوزَةٍ ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْعاً فى عِطَم الشعر ، فقال : لا أَذْنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ
أَلَفَ مقطوع للرب ما بين أَرْجُوزَةٍ وقصيدة ومقطوعة ؛ فغاب عنه مدة وحصر إليه فقال
له : قد حفظتها ، فقال : أنسيتها ، فأشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سألَه أن يأذن له فى عِطَم
الشعر ، فقال له : لا أَذْنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أَرْجُوزَةٍ كأنك لم تحفظها ، فقال له :
هذا أمر يصعب على - وإنى قد أنقست حفظها ، فقال له : لا أَذْنُ لك إلا أن تنساها ، فذهب
إلى بعض الدَّيْرَةِ وحلأ بعصه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتهما حتى كأن
لم أكن قد حفظتهما قط ، فقال له : الآن مانظم الشعر .

وكان أبو نَواص يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون
فى بستان موق ، وعلى حال أرتضيها من صلاة أو صل بها أو وعد بصله ، وقد قلت وأنا على
غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه
فيستقيط كثيراً منها ويترك صافيتها ، ولا يشره كل ما يقذف به خاطره . وكان يهيم الشعرُ
فى الخمر فلا يعمل إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر مالبغى ولا بالسرع بل كان
فى منزلة وسعى .

وكان الأصمعي يقول : يسجني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعفُ كَرِّ الطرفِ تحسب أنها * قريبة عهد بالإفاقة من سُقْمِ
وإني لآتي الأمر من حيث يُتَّقَى * ويسلم سَمِي حين أترع من أرمي

قال العتّابي لرجلين تآخرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهلية ما فُضِّل
عليه أحد .

وقال أبو عمرو الشيباني : أشعرُ الناس في وصف الجمر ثلاثة : الأعشى والأخطل
وأبو نواس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعراً في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده ليل الناس إليه
وشهوتهم لمعاشرته ، وبُعْدِ صِيتِهِ ونُظْرَفِ لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردتُ أن أجد ، قلتُ مثل
قصيدي « أيها المتأبطُ عن عُمره » ، وإذا أردتُ العبثَ قلتُ مثل قصيدي : « طاب
الموى لعميده » ، فأما الذي أنا فيه وحدي وكلُّه جيدٌ فإذا وصفت الجمر .

وقال أبو ذؤناب : سَأَا عند التَّوْزِيّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ
الحاضرين ، فقال له التوزي : أقول هذا لرجل يقول :

يخافُه الناسُ ويرجونه * كأنه الجنةُ والنارُ
ويقول :

فأجازه جودٌ ولا حلَّ دونه * ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ
ويقول :

قَتَمَتْنِي فِي مَقَاصِلِهِمْ * كَتَمَتْنِي الْبُرَّةُ فِي السَّقَمِ

قال ابن الأعرابي يوما جلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم :
إذا حَبَّ فيها شاربُ القومِ خلته * يُقْبَلُ في دِجٍّ من اللَّيْلِ كوكبا

وقال آخر :

كَأَنَّ كُبْرَى وَصْفَى مِنْ قَاتَمَهَا * حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا * وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَعْرَا

وقال آخر :

مَكَانَ الْكُذُوسِ فَيَا نَجْمٌ * دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِيَا

وقال آخر :

صَبْرَاءُ لَا تَنْزُلُ الْإِحْرَاءُ سَاحَتَهَا . لَوْ مَسَّهَا حَمَرٌ مَسَّهُ سَرَاءُ

فقال اس الأعرابي إن هذا كله لشاعر أغرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخره ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَتَرَلُّ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ * فَدَهْرُ سُرَّاهَا نَهَارُ

قال مسلم بن بهرام لَقِيتُ أُمَّ الْعَتَاهِ فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ أَشْعَرُ السَّاسِ ؟ قال : تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها ؟ قال : كُلُّا أُرِيدُ ، قال : الذي يقول في المديح .

أَدَا نَحْنُ أَشَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ * فَأَنْتَ بِمَا تُفْنِي وَفَوْقَ الَّذِي تُفْنِي

وَأِنْ جَرَّبْتَ الْإِفْطَاطُ يَوْمًا بِمَدْحَةٍ * لَمَعِيكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي يَمِي

والذي يقول في الزهد

أَلَا رُبَّ وَجْهِ فِي التُّرَابِ عَتِيقِي * وَيَارُبَّ خُصِي فِي التُّرَابِ رَقِيقِي

وَيَارُبَّ حَرِيمٍ فِي التُّرَابِ وَتَجْدِيدِهِ . وَيَارُبَّ رَأْيٍ فِي التُّرَابِ وَثَبْتِي

فَقُلْ لِمَرْيَبِ الدَّارِ إِنَّكَ وَاحِلٌ * إِلَى مَنْزِلٍ مَا فِي الْمَحَلِّ تَحْيِي

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَأَبْنُ هَالِكٍ * وَفُو تَسْبِي فِي الْهَالِكِينَ عَرِيقِي

أَذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشِفُ * لَهُ مِنْ عَدُوِّ نِيَابِ صَدِيقِي

وكان يقول : سبقني أو نواس الى ثلاثة أبيات وِدِدْتُ أنى سبقته إليها بكل ما قلته
إذ أنه أشعر الناس فيها ، بها قوله :

يا كبير الذنوب عمو الذ * هـ من ذنوك أكر

وقوله :

مَنْ لم يكن لله متبها * لم يُبَيِّن عتبا الى أحد

وقوله :

إذا أمتحن الدنيا لبَّ تكشفت * له عى مدو و ثياب صدي

ثم قال . قلت في الرهد ستة عشر ألف بيت وِدِدْتُ أن أواش له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النطام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبى نواس . كأن هذا الفقى
بُيِّع له الكلام فاختار أحسنه . وقال مصمم : كأن المعاني حُبِيت عليه ، فأحد حاجته
وخرق الباقي على الساب . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدث الحسين بن الحبيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ
أما وعد الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلقي على قعاه ، فقال لعبد الله بن طاهر .
يا أبا العباس ، مَنْ أشعر مَنْ قال الشعر في خلافة بنى هاشم ؟ فقال . أمير المؤمنين أعرِفُ
بهذا وأعل عينا ، فقال له المأمون : على ذلك قَفَلْ ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ،
فقال عبد الله بن طاهر . أشعرهم الذى يقول :

ويا قبر ممي كنت أوَّل حُفرة * من الأرض خُطت للمباحة متلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : قلت : بل أشعرهم الذى يقول :

أشبهت أعدائى فصرْتُ أُحِبُّهُمْ * إذ كان حَفَى منك حَفَى مِنْهُمْ

فقال المأمون : يا أحمد أبيت إلا غَزَلَا ! أين أتم عن الذى يقول :

يا شقيق النفس من حَكَم * نِمْتُ عى لَيْسلى ولم أتم

قلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلَت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا ليُبْتَ تَكشَفَتْ * له عن صدو في ثياب صديق
وَرَدَ على العنابي بِحَبِّ عِدَّةٍ من اليجار من أهل قَلَسْرين ، فدخلوا وسَلَمُوا ، وكان في يده
رُقْعَةٌ ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هذه الرُقْعَةِ وادياً ما سَلَكَه أحدٌ قبله ؛
فمظروا فإذا هو شعر أبي نواس في جِمان جارية آل عبد الوهَّاب التقيّ ، وهو قوله :
رَجَّعَ الكَرَى بين الجفون عَجِلُ * حَتَّى عَلَيْهِ بُكْيٌ طَوِيلُ
يا ناطراً ما أَقْلَمْتَ لحظائهُ * حتى تشحطَ بَيْنَهُ قَبِيلُ
أَحْلَلْتُ قُلَى من هَوَاكَ حِمْلَةً * ما حَلَّهَا المشروبُ والمأْكُولُ
بِكَالِ صورتك التي من دونها * يَخْفِرُ التشبُّهُ والتَّحِيلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةِ فوقها * دون السَّيَمِينِ ودونها المَهْزُولُ
وبما أنشدَه العنابي لأبي نواس فقال أحسن وأجَاد :

متايُّهٌ بِجِمالِهِ صَلِفُ * لا يَسْتَطَاعُ كَلَامُهُ نِيهَا
لِلْحَسَنِ في وَجْهَاتِهِ بَدْعُ * ما إن يَمْلَأُ الدَّرَسَ قَارِيها
لو كانتِ الأنبياءُ تَعْقِلُهُ * أَجْلَلَنَّهُ إِجْلَالُ بَارِيها
لو تَسْتَطِيعُ الأرضُ لَأَقْبَضَتْ * حتى يَصِيرَ جَمِيعُهُ فِيها

وقوله :

إن السَّعَابَ لَتَسْجِي إذا نَظَرْتُ * إلى نَدَاكَ فَنَاقَسْتُهُ بِما فِيها
حتى تَهْتَمَ بِإِقْلَاجِ فيمَنْئُها * خَوْفٌ من السُّنْطِ من إِجْلَالِ مَنْشِيها

قال محمد بن صالح بن مَيْسَر الكَلَّابِي : لما دَخَلْتُ المَرَّاقُ صَرْتُ إلى مدينة السلام
فَسَأَلْتُ عَمَّنْ بها من السَّعْرَاءِ الحَسِينِ ، وفلك في أيام خلافة الأُمَيْنِ أو عند موته قبل
دخول المأمون بِسِيرٍ ، فَقِيلَ لي : قد ظَبَّ عليهم قَتَى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هاني ويعرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيطاً من شعره ، فأتاني فتي كان من أهل الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئاً؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ؛ فأنشدني :

أنى ما بال قلبك ليس يَسْقَى • كأنك لا تظُنُّ الموتَ حَقّاً
ألا يا بنَ الذين مُتُوا وادعوا • أما والله ما ذهبوا لتَسْقَى
وما للنفس عندك من مُقام • إذا ما استكملت أَجْلاً وِرْزَفا
وما أحدٌ يزادُكَ منك أَخطَى • ولا أحدٌ يَنْبِيكَ منك أَشَقَى
ولا لك غيرَ تَهْوَى الله زادُ • إذا جمعتَ الى اللَهوات تَرَقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسنَ من هذا ؟ قلت بلى ، فأنشدني في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد • وليس لما تَطْوِي المِيتَةَ ناشِرُ
فلا وصلَ إلا عِبرةٌ تستدِيمُها • أحاديثُ فيس ما لها الدهرَ ذاكَرُ
ثَنَ عَمَرْتُ دورَ بن لا أودّه • لقد عَمَرْتُ من أحبِّ المقابرِ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدّه • فلم يَبْقَ لى شيءٌ عليه أُحاذِرُ
فقال : بحقٍّ ما ظب هذا على أهل الأدب وقَدَموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصمّ : كنا عند أبي نُعَيْم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين ذكرتُ شعرَ ليلى بنتِ أبي أربد :
ذَهَبَ الَّذِينَ يُسَاسُ فِي أَكْثَانِهِمْ • وَبَقِيَتْ فِي حَلِيفٍ يَكْسِلِدُ الْأَجْرَبِ
ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذَهَبَ النَّاسُ فَاسْتَقَلُّوا وَصَبَرْنَا • سَلَفًا فِي أَرَاذِلِ النَّسَائِسِ
فِي أَنْيَاسٍ تُعْطَمُ مِنْ عَدِيدِ • فَإِذَا قُشِّسُوا فَلَيْسُوا بِنَاسِ

كلما جثُّ أُنْتَى العَصَلْ مِنْهُمْ * بِذُرُونِي قَبْلَ السَّوَايَ بِيَّاسِ
وَبَكَّوْا لِي حَتَّى تَمَيَّتُ أُنَى * مُفَلَّتْ عَسْدَاكَ رَأْسًا بِرَاسِ

ثم قال : أتدرون لمن الشعر ؟ قلنا : لا ، قال : للغساسبي هاهنا .

قال أبو عبد الرحمن الصِّيرِي - رأيتُ مسلم بن الوليد بُجْرَحَان وهو يتولاها ، فسألني عن حَلَفْتُ من الشعراء . فقلت له : أما من الكوفيين فأبو بواس ، وهو مُقَدَّم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يَا إِنْسَانُ لَا أَتَ تَقِيرُ أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ : « تَقْمِزْ » نَحَرْتُ مِنْ بَيْنِ مَقْنَى شَاعِرٍ قَطْ ! ثم قال ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُجِيلُ وَيَغْطِي من صفة المخلوق الى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقوله : وَأَخَذْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ * لَتَنَحَاكُ الطُّفْءُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِي وهذا من الإعراف المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما في تَحْطِئِهِ صفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله .

يَحِلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ * فَكَلَّ حَلْقِي خُلُقُهُ مِثْلُ
وكقوله :

* بَرَىءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ

ومما قيل عن أبي بواس إن الشعر إما هو بين المدح والمهزاء وأبو بواس لا يُحْسِنُهَا ، وأجودُ شعره في الجمر والطَّوْدِ ، وأحسنُ ما فيها مأخوذ ليس له وإما سَرَقَهُ ، وَحُسْنُكَ مِنْ رَجُلٍ يَرِدُ الْمَعْنَى إِيَّاكَ فَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَتَنَبَّأَ عَلَيْهِ حَتَّى يَحْيَى بِهِ قِيحًا ، مثل قوله : « وَذَاوِي بَالَتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ » أحده من قول الأعشى : « وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا » والذي أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قوله : « إِنَّ الشَّبَابَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ » أحده من قول الباعة الجعدي : « فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ » . وقوله : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ لَهَا بِه » أحده من قول أبي النجم . « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ كِسَانِهِ » . ولكن رُبُّكَ أَبُو وَاسٍ فِي شِعْرِهِ أَنْ سَارَ وَحَمَلَهُ النَّاسُ وَقَدَّمَهُ أَهْلُ عَصَرِهِ ، وَإِنَّ لَهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَشْيَاءَ حَسَامًا لَا يَدْعِيهَا وَلَا يَطْرَحُهَا إِلَّا حَاهِلٌ بِالْكَلَامِ أَوْ حَاسِدٌ .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زور * صغراء تحظى في صغر
مرت إذا الذئب اقتصر * بها من القوم الأثر
كان له من الجزر * كل جبين ما اشتكر^(١)
ولا تملأه شمر * ميت النساءى الثمر
عصفها على خطر * وقدر من الفرر
يبازي حين قطر * يهزه حين الأثر
لا تشك من سدر * ولا قريب من خور^(٢)
كأنه سد الصمر * وعد ما جال الصفر^(٣)
وأنمح في حمر : - جاب رناع المتفر^(٤)
يحدو بحف كالأثر * ترى أثابج القصر^(٥)
منه هوشم الجدر - رعين أبكار الخضر
شهرى ربيع وصفر * حتى إذا الفعل جفر^(٦)
وأشبه السقى الإر * وش أذخار القر^(٧)
قل له : ما تأخر ؟ * وهن إد قلن : أشر
غير عواص ما أمر - كأنها لمن نظر
ركب يسيمون مطر * حتى إذا الظل قصر

- (١) المرت : الأوص لا ناث فيها ، واقهر الأثر اقتناه وتمه . (٢) الحرد (هتج) : ما يدح من الشاء ذكرًا كال أواقي . واحدة : جرة . وما اشكر : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر الذى لا يكاد يظهر . (٣) عصفها : ملكها تحيطا ، والرد ، الخطر . (٤) السدر : التحير . (٥) الصمر (الصم وصمتين) : الحزال . والصمر : جمع صمار (الفتح) وهو ما يشد به الحبر من شعر مصعور . (٦) الجاب : الحمار الملبط من حمار الوحش . (٧) الأثابج جمع شبع وهو وسط الشىء ، والقصر جمع قصرة وهي أصل الملق ، (٨) جعر : اشبع من الصراب . (٩) السى : كل شجر له شوك ، وش : صب ، والقر : جمع قررة وهي الوهدة المستديرة من الأوص .

يَمْنَنَ مِنْ حَتَّى هَجَرَ * أَخْصَرَ طَلَمَ الْعَكْرَ
 وَبَيْنَ أَحْقَافِ الْقَتَرِ * سَارَ وَلَيْسَ لِلْسَمَرِ
 وَلَا تِلَاوَاتِ السُّورِ * يَمْسَحُ مِرْنَانًا بِسِرِّ^(١)
 رُمْتُ بِمَشْزُورِ الْمِرْدِ * لَأَيُّمُ كُفْلُومِ الْفُفْرِ^(٢)
 حَتَّى إِذَا ضَلَّطَ السُّطْرُ * أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ تُحْمَرْ
 دَهْيَاءَ يَحْمِلُهَا الْقَدَرُ * فَيَتَلَكَّ عَنَسٌ لَمْ تُدَرْ
 شَهْنَا إِذَا الْآلُ طَهَّرَ * إِلَيْكَ كَلَمَا السُّفْرِ
 خُوصًا يُحَادِثُ النَّظَرَ * قَدْ اطْلُوتَ مِنْهَا أَسْرَرُ
 عَلَى الْقَرَارَى الْحَبَرِ * لَمْ تَتَقَعْدْهَا الطَّيْرُ^(٣)
 وَلَا السَّبِيحُ الْمَرْجَرُ * يَاقُصِلُ لِلْقَوْمِ الْبَطَرُ
 إِنْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصْرُ * وَلَا مِنْ الْخُوفِ وَرَرُ
 وَنَزَلَتْ إِحْدَى الْكُتَرِ * وَقِيلَ تَهْمَاءُ الْعِيَرِ
 فَالنَّاسُ أَبْيَاهُ الْحَذَرِ : فَرَجَتْ هَاتِيكَ الْفُفْرِ
 عَا * وَقَدْ صَابَتْ بِقَرْ * كَالشَّمْسِ فِي تَحْصِينِ بَشَرِ^(٤)
 أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرُ * أَوَّلُكَ حَتَّى عَنْ مُضَرِ
 يَوْمِ الرِّوَاقِ الْمَحْتَصِرِ * وَالْخُوفُ يَقْصِرِي وَيَذَرُ
 لَمَّا رَأَى الْأَمَرَ الْقَطْرَ * قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصِرَ^(٥)
 كَهْرَةُ الْمَصْئَبِ الدُّكْرِ * مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبَرَ^(٦)

- (١) المرباب القوس . (٢) دمت شئت ، ومشزور معقول ، والمرح جمع مرة وهي قوة القتلى ،
 واللام : الشديد ، والعمر كعمر الليل ، والبرق تشبه الدقيق بالأوتار ودلائيم العرائن . (٣) القارارى . الحياط
 (٤) القر : القارار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه صارت قرو وقت قرو . قال طرفة بن العبد الكرى .

كث منهم كالمطلى رأيه * فاعجل اليوم عطاء وجهر

سأدرا أحسب مي رشدا * ضاعبت وقد صارت قمر

- (٥) اشتد . (٦) هبر . قطع .

وَأَنْتَ تَقْتَأِفُ الْإِنْسَرَ * مِنْ ذِي مُجْبُولٍ وَعُرَرِ
 مَعِيدٍ وَرَيْدٍ وَصَدَرَ - وَإِنْ عَلَا الْأَمْرَ أَقْصَرَ
 فَأَيْنَ أَصْحَابُ الْقَمَرِ * إِذْ تَبَرَّأُوا كَأْسَ الْمَقْرِ^(١)
 وَقُصِّرُوا بِمَنْبِ قُصْرِ * هِيَاتٍ لَا يَحْيَى الْقَمَرِ
 أَحْمَرَتْ إِذْ دَبَّوا الْخَمَرَ - شَكْرًا، وَحَرًّا مِنْ شَكْرِ^(٢)
 فَاللهُ يُعْطِيكَ الشُّبْرَ * وَفِي أَعَادِيكَ الظُّلَمَرِ^(٣)
 وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَصَرَ * وَأَنْتَ إِنْ حَفَا الْحَصَرَ^(٤)
 وَهَرَدَهُمْ وَكَخَنَرُ * عَنْ مَاجِدِيهِ وَنَسَرَ^(٥)
 أَعَيْتَ مَا أَعْنَى الْمَطَرُ * وَفِيكَ أَحْلَاقُ الْيَسَرِ
 فَأَنْتَ أَوَّلَا إِلَّا الْمَسَرُ * أَمْرُوتَ جَبَلًا فَاسْتَبَرُ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزَّمَرِ * تَهْوِي لِأَدْفَانِ النَّفَرِ^(٧)
 مِنْ جَذْبِ أَلْوَى لَوْ تَرَى * إِلَيْهِ طَوْدًا لَا مَاطَرَ^(٨)
 صَعِبَ إِذَا لَاقَى آبَسَرُ - وَإِنْ هَفَا الْقَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الْأَمْرَ جَسَرُ * ثُمَّ تَسَامَى فَفَقَرُ
 عَنْ شَفِيقٍ ثُمَّ هَدَرُ * ثُمَّ تَنَاجَى نَخَطَرُ^(٩)
 بَدَى سَيْبٍ وَعُذُرُ - بِمَضْعِ اطْرَافِ الْوَبَرِ
 هَلْ لَكَ وَالْمَلْ خَيْرُ * فِيمَنْ إِذَا غَتَّ حَصَرُ^(١٠)
 أَوْ نَالَكَ الْقِسْمُ تَأَرَّ * وَإِنْ رَأَى حَيْرًا شَكَّرُ
 * أَوْ كَانَ تَقْصِيرُ عَدَرُ *

(١) المقر: المرء. (٢) أحمرت: ردت إلى الصحراء. ودوا البحر: مشوا بحمين. والجر: ما سترك من شهر أو ساء أو نحوه. (٣) البحر والقوة. (٤) الصيق. (٥) كثر أمدى من ناحية، ونسر: عسى. (٦) أي أحسنت فقه. (٧) جمع نمرة وهي فرة البحر. (٨) الأولى: الشديد الغصوة. (٩) أصوح وأصمى. (١٠) السبب: شعر الدب والعرف والناحية، والمدحج مدار. (١١) قصد لفظ هل الاستعظامية فأدخل عليها الألف واللام.

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها : « ومستعيد إخوانه ثرائه . بلغت
الأمين ، فبعث إليه ، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضّ نظير أمه
العاهرة ، ويا مدعى ولاء حاء وحكم ! أتدري يابن القنّاء من توليت وإلى من أددعت ؟
إلى الأُم قبيلتين في اليمن ، علوّج ماضين . أنت تكتسب بشعرك أوساخ أيدي الناس اللثام ،
وتقول : . ولا صاحب التاح الحصب في القصر » أما والله ما نلت مني شيئاً بعد ذلك
أنداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إني والله ! سمع هو مع هذا من كار التثوية^(١) (وكان يرى
بذلك) ؟ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأتاه سليمان بعنه
نهر ، فشبهوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوصع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه
المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترغمون أنه يتزل مع كل قطرة
ملك ، فكم ترائي أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدح ؟ فغضب محمد ، وأمر به
إلى السجن . فذلك قول أبي نواس :

ياربُّ إني القوم قد ظلموني * وبلا اقرارٍ مظلٍ حسبوني
وإلى الجحود بما عرفت حلاقه * ربّي لما ليك يكتنهم تسبوني
ما كان إلّا الحرّى في مبدانهم * في حكلٍ نحرى والمجانة ديني
لا العدر يُقل لي ويفرق شاهدي * منهم ، ولا يرضون حلف يميني
ما كان - لو يدرون - أول حبا * في دار متقصه ومزل هويني
أما الأمين فليست أرحو دقعه * عني ، من لي اليوم بالمأمون

فيلفت أبياتاً المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته حتى لا يؤثله . مات قبل دخول
المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة إلى محمد الأمين وولي الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرع محمد
للهو والصيد والزهرة ، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لزهرة . نخرج ذات يوم وقد أمر الجند

(١) التوبة أصحاب الامين الأولين وهم الذين يرعون أن الور والطلحة أوليان قديتان ، بحلاف الجوس

فانهم قالوا حدوث اللطام .

والقوَادَ فركوا، ولبس ثيابه وتقلد سيفه، وأُصِدتِ الحَرَاقَاتُ والزَّلَاحَاتُ في دِخْلَةٍ، فقال له اسماعيلُ بنُ صَبِيحٍ - وكان كاتبَ سِرِّه - : يا أمير المؤمنين ان قوَادَكَ وحَنْدَكَ وعاتمةَ رعينتك قد حُبَّتْ نفوسُهم، وبساتِ ظُلمَتُهُمْ، وكَبُرَ عَدمُهم ما يرون من احتجائك عنهم، فلوحسَّتْ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيا لهم ومراحة لآمالهم ! فجلس في مجلسه وأذن للناس عامةً فدخلوا على مراتبهم ومازلمهم، وقام الخطباء فخطبوا، والشعراء فأنشدوا، فلم يكن أحد منهم يتمتدئ إلى الاطبات والتطويل، إلا أُمِرَ بالسكوت ومُيِّع من القول .

وقام ميمَن قام أبو نواس، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَرٍ ومَدَرٍ، وإبل ووصفٍ للبقر وبيوت الشَّعر، قد جَفَّتْ أَلْفاظُهُمْ، وظَلَمَتْ مَعايِبُهُمْ، ليس لهم نَصْرٌ بمدح الخلفاء وتثني مكارمهم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده فليعمل، فأذن له فأنشده :

أيا دارها بالماء حتى تُجْلِيَهَا * طل تُكرم الصُّبَّاءَ حتى تُهَيِّبَهَا
أعالي بها حتى إذا ما ملكَتْهَا * أهتُ لإكرام الخليل مَصُونَهَا
وصعراء قُلُوبِ المَرْجِ بِيصَاءٍ مَعْدَةٍ * كأنَّ شِمعَ الشمسِ يَفْثُكُ دُونَهَا
تري العينَ تستعفيك من لَمَانِهَا * وتَحْصُرُ حتى ما تَحِلُّ جَفُونَهَا
زُرُوعُ بِنَفْسِ المَرْءِ عَمَّا يَسُوءُ * وَيُجْهِدُهُ أَلَّا يَزَالَ قَرِيبَهَا
كَانَ يَوَاقِبُنَا رَوَاكِدُ حَوْلَهَا * وَرَزَقَ سَمَائِرَ تَدِيرُ عُيُوبَهَا
وَتَمْطِطُ حَلَّ الدَّهْرِ مِنْهَا بِخَوِيهِ * دَلَعْتُ إِلَيْهَا فَاسْتَلْتُ جَنِينَهَا
كَأَمَا حُلُولُ بَيْنِ أَكْبَابِ رَوْضَةٍ * إِذَا مَا سَلَبْنَاهَا مَعَ اللَّيْلِ طِينَهَا

إلى أن أكل القصيدة . فقال له محمد : ألم أُنَهَكَ عن شرب الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين، والله ما شربتها منذ نَهَيْتَنِي عنها ومعنى من شربها، وأما الذي أقول :

أَيُّهَا الرَّائِحَابِ بِاللَّوْمِ لَوْ مَا • لَا أَذُوقُ الْمَدَامَ إِلَّا شَيْمًا
 مَالِي بِالْمَلَامِ مِثْلَ إِمَامٍ • لَا أَرَى لِي حِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا
 مَاصِرَهَا إِلَى سِوَايَ طَائِي • لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
 كَرُحْطَى مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ • أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمُ النَّسِيمَا
 فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا • قَعْدِي يُحَسُّ التَّحَكِيمَا^(١)
 كُلٌّ عَنِ حِلْيَةِ السَّلَاحِ إِلَى الْحَرِّ • بَ فَاَوْصَى الْمُطِيقُ إِلَّا يَحِيَا

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام بعض الشعراء فأشد :

تَرَقَّى فِي مَضَالِلِهِ الْآمِينُ • وَزَايَلَهُ الْمُشَاكِلُ وَالْقَرِينُ
 وَأُورِقَ زَهْرَةُ التَّقْوَى وَعَزَّتْ • حِلَافَتُهُ وَصُدِّقَتِ الظُّلُومُ
 تَمَسَّ سَارَ الْخُلُقَاءِ مِنْهُ • يَدٌ بِخِلَافِ طَاعَتِهَا الْمَوْتُ
 يَحَابُ الْخَوْفُ صَوْلَتَهُ وَيَرْجُو • نَدَاهُ الْجُودُ فَهُوَ لَهُ حَدِينُ

فقال عتبة من حصر : قد أوجر وأحاد، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر
 به يا أمير المؤمنين الذي يقول :

أَلَا يَا حَيَّرَ مِنْ رَأْيِ الْعَبِثُونَ • نَظِيرُكَ لَا يُحَسُّ وَلَا يَكُونُ
 وَمَصْلُكَ لَا يُحْتَدُّ وَلَا يُحَارَى • وَلَا تَقْوَى حِيَازَتُهُ الظُّلُومُ
 فَانْتَ تَسْبِجُ وَحَدِيكَ لَا شَبِيهَ • تُحَاشِيهِ عَلَيْكَ وَلَا حَدِينُ
 جُلِيتَ سِلَا مُشَاكَلَةَ لَشَى • فَانْتَ الْقِسْقُوقُ وَالْتِمَاعَانُ دُونُ
 كَانَ الْمَلِكُ لَمْ يَكْ قَبْلُ شَيْئًا • إِلَى أَنْ قَامَ بِالْمَلِكِ الْآمِينُ

قال : ففصله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بديها .

(١) القصد من الخواص : الذي يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا ، غير أنهم قعدوا عن الخروج

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحرّاقَةَ إلى الثَّيَابِيَّة، واصطَفَتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وُجِلَتْ معه المطايحُ والخزائن . وكان ركوبه حرّاقَةً^(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو يادبه، فقال :

يَحْضُرُ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطْلَايَا * لَمْ تَسْخَرْ لِصَاحِبِ الْمَحْرَابِ^(٢)
فَإِذَا مَا رَكَابُهُ يَسْرَتُ بَحْرًا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْثَ غَابِ
أَسَدًا بَاسِطًا ذِرَاعِهِ يَمْدُو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كُلِّجَ الْأَنْيَابِ^(٣)
لَا يَبَانِيهِ بِالْقَهَامِ وَلَا السُّو * يَطُ وَلَا تَحْمِزُ رَجُلَهُ فِي الرُّكَايِ
يَحْبِ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَهَ لَيْثٍ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَحَّوْا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتَ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَصْرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوْرٍ وَمِنْتِيرٍ وَجَاحِ * بَيْنَ تَشَقُّ الثُّبَابِ مَدَّ الْعُبَابِ
تَسِيْقُ الطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا سَ * تَحْمَلُوهَا بِحَيْثِيَّةٍ وَذَهَابِ
أَرَاكَ لِلَّهِ لِلْأَمِينِ وَأَبْقَا * وَأَقْبَى لَهُ رَدَاءَ الشَّبَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَامِيٌّ مَوْقِفٌ لِلصَّوَابِ

ويقال : إن هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد، وقد ركب حرّاقته الدُّلْفَيْنِ ؛ فقال له شيخٌ إلى حابه : إتق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ، إن الله لم يسعّر لصاحب المحراب الدُّلْفَيْنِ، وقد سحر له ما هو خير من الدلفين، فأبى شيء تنكر من هذا .

قل أن حبيب : كنت مع مؤنس بن عمران، ونحس يزيد الفضل بن الربيع ببغداد، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن صلبًا عليه ! فعلما ؛ فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان للأمين ثلاث من السمر المسروقة بالحرافات لركوبه خاصة، وهي الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه في بيت المقدس . (٣) أهرت الشدق : راسه . وكلج الأنياب : كاشرها .

لئوس: أين تريد ؟ فقال : أريد أما العباس المفضل بن الربيع ، قال فبلغه رقعة أعطيكها ؛ قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يد في الناس واحدة * كيد أبو العباس مؤلاها
 مام البعثة على مضاجهم * وسرى الى نفسى فاحياها
 قد كئت حقتك ثم أسى * من أن أحاطك خوفاك الله
 فعفوت عني عفو مقتدر * وجبت له نقام فالناها

فكانت هذه الأبيات سبب خروج من السجن .

إصرفت أبو نواس من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة ، فدخل فقام في الصف الأول ، فقرأ الإمام : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس من حلقه . ليك ، فلما قصبت الصلاة تسوّه وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا له حمدويه صاحب الرندقة ، وأحضر أما نواس فقال له حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هذا ماحن ، وليس هو بحيث يُطْلَق ، فقال له الرشيد : وَيَحْك ! إنه وقع في بعض مه ثيء ، فامسحه . قال : نطقت له صورة ماني ، وقال له : أنصق عليها ، فأهوى أبو نواس به ليقب عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ما جى . قال : ودعا رجلا من الرابذة مشهور ، وقال له : انصق عليها ، فقال : وما معنى الصاق ! إنه من أحلاق الشوك ولا أصله ، وأنى أن يفعل . فقال الرشيد لبعض حدم القصر : إمسح هذا (يعنى أما نواس) الى السندى ، فقل له : أذبه وأطلقه ،

(١) لوه أحدرا لمه ، وهو موضع القلادة في الصدر . (٢) هومان فالك الحكيم ، الذى ظهر في زمن سابوردي الاكاث من أردشير ، وقتله بهرام من هرم من سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . اتخذ له دينا بين الهوسبة والصراية . وكان يقول نوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول نوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف ماني عيسى البراق ، وكان في الأصل محوسيا طرطا بداه القوم ، أن الحكيم ماني دهم أنت العالم مصوع مرك من أصلين قديمين : أحدهما نور الأخر طلبة ، وأنها أركيان لم ير الا وان يرالا ، وأنكر وجود شى . الا من أصل قديم ، وأنها لا يرالا قوتين حساسيتين سميتين صيرتين ، وهما مع ذلك في العس والصورة والعمل والتدبير متصادقان ، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشخص والعمل .

(انظر المال والعمل للهرستاني)

وبهذا (يعني الزنديق) فقل له : احبسه قَبْلَكَ الى أن تستيته، فان تاب وإلا قتلناه .
 قال : فعسى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للصادم : الى أين
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندی، قال : ها تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قَبْلَهُ
 حتى تُسْتَتَاب أو تُقْتَلَ، ويؤدَّب هذا ويطلقه . قال : فرجع أبو نواس يده ولطمه، وقال
 له : يا بن الزانية، من الساعة نسيت ! . وتصربهم الرشيد، فقال : رُدُّوهم ، فقال
 لأبي نواس : ما هذا الذي رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُبَلِّغَنِي ويطرحني بحيثُ
 أنسى أبدا أو أبقي محلدا ، سَلِّه يا أَمير المؤمنين عن الرسالة، فإدا هو قد عيَّرها ، فصحك
 من أبي نواس وأطلقه .

قال رُزَيْس الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلي بن الخليل في سوق الكرخ،
 وكما نجتمع ونتناشد الأشعار وتتناكر الأخبار وتحدث بها . فقال أبو نواس : أدبَرمُ
 كأن في نفسي وكان أسرع الخلق في طاعتي، فما أدري ما أحثل له ؟ فقال علي بن الخليل
 يمازحه : يا أبا علي، سَلِّ شيخك وأبتادك يُعْطَمُهُ عليك، فقال له أبو نواس : من تنفي ؟
 قال : من أنت في طاعته ليلك ونهارك (يعني ابليس) فان لم يقبض لك هذه الحاجة ،
 فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقرَّ عيه بمصيبة، فقال : هو أسدُّ رأيه من أن يُخَيَّلَ
 بي أو يُحَدِّثَني ، واقصص مجلسا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع، وأخذنا
 في أحاديثنا، فصحك أبو نواس، فقلنا له : ما أصحكك ؟ فقال : ذكرتُ قول علي بن
 الخليل يومئذ : سَلِّ شيخك يعطمه عليك . حينئذ قد سألته يا أبا الحسن فقصى الحاجة ،
 وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أعت اليه ومن غير أن أستبره ، فعاتني
 واسترضاني، وكان الغضب منه والتجني، وأحسب الشيخ (يعني ابليس) كان يتسمع علينا
 في وقت كلامنا، وقد قلت أبايا في ذلك ؟ قلنا : هلينا، فأنشد :

لما جفاني الحبيب وامتعت - عني الرسالاتُ مه وانلبرُ
 واشتد شوقي فكاد يقتلني - ذكرُ حبيبي والمم والمِعْكُرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له .. في خلوةٍ والدموعُ تحدرُ :
 أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أفرحَ جَفْنِي البكاءُ والسهْرُ *
 إن أنت لم تُلقِ لي المودةَ في .. صدر حبي وأنت مقتدر
 لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ عَمَّا * ولا جرى في مفاصلي السَّكْرُ
 ولا آرائُ القرآنِ أدْرُسُهُ .. أروح في ذمِّهِ وأبتَكُرُ
 وألزم الصومَ والصلاةَ ولا .. أزال دهرى فأنخير أتمرُ
 ما مصتُ بعد داك ثالثةً حتى أُناني الحبيبُ يتنذرُ
 وبطلتِ الودَّ والوصالَ على .. أفصل ما كان قبلَ هينجرُ
 ياها مئةً لقد عظمْتُ .. عدى لإبليس ما لها خطرُ

لما قَدِمَ أبو نواس على الحَصْبِ بِمِصْرَ أدن له وعده جماعة من الشعراء فاستنشدوه ، فقال له : ها جماعة من الشعراء هم أقدم مني وأسنُّ ، فأذن لهم في الإشاد ، فان كان شعري نظيرَ أشعارهم أُنشدتُ وإلا أُمسكتُ ، فاستنشدهم الحَصْبُ ، فأنشدوا مديحا في الحَصْبِ ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعرا أبي نواس ، فتبسم أبو نواس ثم قال : أُنشدك أيها الأمير قصيدةً هي بمزلة عصا موسى تتلقَّفُ ما يَهِكُونُ* قال هات ، فأنشده قصيدته التي أولها :
 أجارةً يَتَبَيَّنُ أبوكَ عُبُورُ * وميسورُ ما يُرَجَى لديك عِيبُ
 حتى آتَى على آخرها ، فانقص الشعراء من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان حرج إلى مصر في زِيَّ الشُّطَارِ وتقطيعهم بَطْنَةً قد صَفَّقَهَا وَجَّيْنِ واسعين ودبل محرور وصل مطلق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الحَصْبِ بهذه الصورة ازدراء واستحق به ، وكان تورد عليه كتبُ الحِلَّةِ ممن

(١) هو الحَصْبُ بن عبد الحميد المصبي أمير مصر على الحراج . وإليه نسب مئة الحَصْبِ بالوجه القليل وليس مار صاحب نهر أبي الحَصْبِ ، ذاك عبد الصور يقال له مردوق . وكان هذا رئيسا في أراضيه .
 فانقل إلى بغداد وصار كاتبا مهروبا الزاري ، ثم انقل إلى الأمانة .
 (٢) الشطارة : جمع شاطر وهو من أحيا أهل حيا .

ساب السلطان، ووردت كتب أبي واس فيها قراءها ولم يستشده، فأنصرف مهموما .

وحاه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب . فاستحضره فأنشده :

أحاره يَتَيْتَسَا أُولُكَ عِيُورُ * وميسورُ ما يُرَجَى لَدَيْكَ عَيْسِرُ
فان كَيْتَ لَا حِلْمًا وَلَا أَنْتَ زَوْجَةٌ ^(١) * فلا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورُ
وجاورتُ قوما لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ * ولا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورُ
مَا أَمَا الْمَشْعُوفُ صِرَّةً لَا زَيْبُ * ولا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَى قَدِيرِ
وَأَنَّى لَطَرْفُ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاوِرُ * فَقَدْ كَذَبْتُ لَا يَحْفَى عَلَى صَمِيرُ
كَمَا نَظَرْتُ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ لَهَا * عُقَاتُ أَرْصَاعِ الْيَدَيْنِ نُشُورُ ^(٢)
طَوْتُ لَيْلَتَيْنِ الْقَوْتُ عَنِّي صُرُورِ * أَزْيَعَبَ لَمْ يَنْهَتْ عَلَيْهِ شَكِيرُ ^(٣)
فَأَوْفَتْ عَلَى عَلِيَاءَ حِينَ بَدَا لَهَا * مِنَ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالْعَصِيرُ بِمُورِ ^(٤)
تَقَلُّ طَرَفًا وَيَحْتَاجُنِي مَضَارِهِ * مِنَ الرِّائِسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ ذُرُورُ ^(٥)
ولما قال أبو واس :

تَقُولُ الَّتِي مَنِ يَتَيْتَا خَفَّ مَرَكِي * عَزِيزٌ طِينَا أَنْ نَزَاكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مَصِيرٍ لِمَنِ مَطْلَقٌ * تَلَى إِنَّ أَسَابَ الْعَنَى لَكثيرِ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَمَجَلَتْهَا بَوَادِرُ * جَرَتْ بِحَرَى وَجَرَّهِنَّ عَيْرُ
دِيرِي أَكْثَرَ حَسَدِيكَ رِحْلَةً * إِلَى مَلِدٍ فِيهِ الْحَصِيبُ أَمِيرُ

قال له الخصيب : أَدَا نَكْثَرُ حَسَادَهَا وَتَبْلَغُ أَمَلَهَا، وَأَمَرَ لَهُ مَالْفَ دِينَارَ .

(١) الحلم الصديق . (٢) الدود : حروح العظم من موحه أو زواله وفي البيت من سوء التركيب ما به ، والتقدير فيه كما طارت عقاب لما أَرْصَاعُ الْيَدَيْنِ مَدُورُ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ . (٣) أَزْيَعَبَ تصغيرُ أَرْصَعَ وهو الفرح ذو الرصع أي الریش الدقيق اللين . والشكير : الریش أَوَّلُ مَا يَسْتَبْدُو . (٤) الْعَصِيرُ : التلح أو الخليلد . ويمور : يهز أو يهيج . ويذهب أو يميل على وجه الأرض . (٥) الْحَاجَانُ مَثْنَى حَاجٍ وهو العظم الذي يَنْتَبِطُّ عَلَيْهِ شَعْرُ الْحَاجِبِ . وَالْمَدْرَدُ : مَا يَدُورُ فِي الْبَيْتِ مِنَ الدَّوَاءِ .

وتأملها :

إذا لم تَزُرْ أَرْضَ الخَصِيبِ رَكْبًا * فأيّ فَيّ بَعْدَ الخَصِيبِ تَرور !
 فما جازَه جَوْدٌ وَلَا حَلَّ دَوْنَه * ولكن يصبر الجودُ حيث يصبر
 فَيّ يَشْتَرِي حَسَنَ الثَّاءِ بِمَالِه * ويعلم أن الدَّائِرَاتِ تَنُورُ
 ولم تَرَ عَنَى سُوْدَدًا مِثْلَ سُوْدَدِ * يَحِلُّ أَوْ يَصِيرُ بِهِ وَيَسِيرُ
 وَأَطْرُقَ حَيَاتِ الْبِلَادِ لِحَبِي * حَصِيْبِيَّةِ التَّصْمِيمِ حِينَ تَسُوْرُ^(١)
 سَمَوْتِ لِأَهْلِ الْجَوْرِ فِي حَالِ أَمْنِهِمْ * فَاصْهَرُوا وَكُلُّ فِي الْوَقَائِي أَمِيرُ
 إِذَا قَامَ عَنَتُهُ عَلَى السَّاقِ حِلِيَّةٌ * لَهَا خَطْوُهُ عَدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ
 هُنَّ يَكُ أَمْسَى حَافِلًا بِمِقَاتِي * قَابَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَبِيرُ
 فَا زِلْتُ تُوَلِّيه الصَّبِيحَةَ يَافِعًا * إِلَى أَنْ بَدَأَ فِي الْعَارِضِينَ قَصِيرُ^(٢)
 إِذَا عَالَهُ أَمْرٌ لَا تَأْتِي كَفَيْتُهُ * وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْكَفَاءُ مُنِيرُ
 إِلَيْكَ رَمَتْ الْقَدُومُ هُوحٌ كَانِمًا * جَاهِجَهَا نَحْتُ الرِّجَالِ قُورُ
 رَحَلْنَا سَا مِنْ عَقْرَقُوفٍ وَقَدْ بَدَأَ * مِنَ الصَّحْرِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ شَمِيرُ^(٣)
 فَمَا تَحِدُّتُ الْمَاءَ حَتَّى رَأَيْتُهَا * مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَمَاعَ تَنُورُ^(٤)
 وَعُثِرْنَا مِنْ مَاءِ الْغَيْبِ بَشْرِيَّةِ * وَقَدْ حَانَ مِنْ دَيْكَ الصَّاحِ زَمِيرُ
 وَوَابِقَ إِشْرَاقًا كَنَاسَ تَدْمِي * وَهَنَ إِلَى رُغْنِ الْمَدْحَى صُورُ^(٥)
 يُؤْمِنُ أَهْلُ الْفُوطَيْنِ كَانِمًا * لَهَا عَدَ أَهْلُ الْفُوطَيْنِ تُوورُ
 وَأَصْبَحْنَا بِالْجَوْلَانِ يَرْحَمُنْ حَضْرَهَا * وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَحْرَاحِهَا شُكُورُ^(٦)
 وَقَاسَيْتُ لِيْلَادُونَ يَيْسَانَ لَمْ يَكِدْ * سَا صَبِيحُهُ لِلظَّالِمِينَ يُبِيرُ
 وَأَصْبَحْنَا قَدْ قَوَزْنَا مِنْ نَهْرِ طَيْرِسَ * وَهَنَ عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ زُورُ^(٧)

(١) تسور : تف . (٢) القتيير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) تجددت : عرفت .

(٥) صور : ماثلات . (٦) يرصحن : يكرهن . (٧) دور : جمع زوراء بمعنى مائة .

طوالب بالركبان غرة هاشم * وفي القراما من حاجهن شقوق^(١)
ولما أنت فسطاط مصر أचारها * على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم تسمم كأن جبينه * ساء العجريت يرى صوته ويبر
زها بالخصيب السيف والرمح والوعى * وفي السلم يزهو مبر وسرير
جواد إذا الأيدي كعقر عن الندى * ومن دون عورات النساء عبود
له سلف في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
وإني حدير اد طمعتك الملى * وأنت بما أملت منك جدير
هان تولى ملك الحمير ماله * وإلا فاني طاذر وشكور

وقال يمدح العباس بن المصل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكة ثلاثة ما منهم * إن حصّلوا إلا امر قريح
ساد الربيع وساد فضل عدّه * وعلت بعباس الكريم فروع
عباس عاصم إذا احتدم الوعى * والفضل فضل الربيع ربيع

وقال يعاتب عمر الوراق :

يأس جفائي وملا * نسيت أهلاً وسهلاً
ومات مرحباً لما * رأيت مالى قلاً
انى أطمك تحيى * فيما فعلت القيرلى^(٢)
تلقاه في الشر ينأى * وفي الرخا يتدل

وله في عزة النفس :

ومستعبد إخوانه يترأه * لبست له كبراً أرّ على الكبير
إذا صمّنى يوماً وإياه تحفّل * يرى جاني وعراً يزيد على الوعر

(١) جمع شق وهو الأمر المتصق بالقلب المهم له .

(٢) القولى : كان لمجر وكان لا يسمع لأحد شيئاً إلا ساء إليه وداحله ولا يخلط عن طعام لأحد ، وإذا سمع

محسوسة لم يقر ذلك ، صر به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يرق طيه . - القولى -

أحالفه في شككه وأجره • على المطلق المروور والظفر الشزير
وقد زادني تيباً على الناس أني • أراي أقامهم وإن كنتُ ذا فقير
فوالله لا يُبدي لاني بلقاءة • إلى أحد حتى أُصيب في قبوري
ولا يطعمني في ذاك متى طامعٌ • ولا صاحبُ التاج المحجَّب في القصر
ولو لم أَرث نغراً لكات صباي • عن الناس حسبي من سؤال من الفخر
دخل أبو يواس مد ما نك على قوم من إخوانه عديم شرابٍ ومُمن، همرصوا عليه
الجلوس فأبي، وأخذ الدواء والقرطاس وكتب :

إذا لم تشه نفسك من هواها • ونحس صوتها فإليك عني
فاني قد شيعتُ من المعاصي • ومن إدمانها وشيعتُ مني
ومن أسوا وأقمح من لبيب • يرى متطرا في مثل سبي

ومن شعر أبي نواس :

عنى المصلى وأقوت الكُتُب • مِنِّي فالمردان فالقُتُب
منازلٌ قد عَمَرْتُهَا يَمَعًا • حتى بدا في عُداري الشُبُ
في تبية كالسيوف هَزَمُ • نَزَحَ شايب وزأهم أدب
ثم أَرَأَبَ الزمانُ فاقسموا • أيدي سباً في البلاد فاشمُوا
لن يُخَلِّفَ النُعمَ مثلهم أدا • على هيبات شأهم عُمُ
لما تيقنتُ أن رَوْحَتهم • ليس لها ما حيثُ مقلُ
أُلبيتُ صبا لم يُسلِه أحد • واقسمتني مارتُ شُعُ
لذاك أتى إذا رُزئتُ أحَا • طيس يسي وبينه نَسُ
فُطِرْتُ لمرئبي ولي بقرى ال • كرج مَصِيفٍ وأتى العِمُ
رُضعتني دَرَّها وتَلَحُّفني • طَلَّها والمَجِيرُ يَلُفُ
إذا تَنَسَّه النُصُونُ حَلَّتني • قَبَانُ ما في أديمه جَرُ

تَبَيَّتْ فِي مَاتَمِ سَمَمِهِ * كَمَا تَرَأَى الْفَوَاقِدُ السُّلْبُ
يُبُّ شَوْقِي وَشَوْقُهُنْ مَعَا * كَأَنَّمَا يَسْتَحِمُّ الطَّرَبُ
قَعَمْتُ أَحْوَالي الرِّصَاعِ كَمَا * تَحَامَلُ الطُّغْلُ مَتَّه السَّعْبُ
حَتَّى تَحِيرْتُ بِتَ دَنْكَرَةِ * قَدْ عَمَمَتْهَا السَّوْنُ وَالْحَقُّ
هَتَكَتْ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ .. مَهْلَهُلُ النَّسْجِ مَا لَهُ هُتُّ
مِنْ نَسْجِ نَرْقَاءَ لَا تُسَدِّدُهَا * أُجِيَّةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طُتُّ
ثُمَّ تَوَحَّاتُ حَضَرَهَا بِشَمَا الْ .. بِأَشْيَى بِهَاءَاتٍ كَأَنَّمَا هَتُّ
فَاسْتَوْسَقَ الثَّرْبُ لِلدَّمَامِ وَأَجْد * رَاهَا عَلَيْهَا الْخَبِيرُ وَالْقَرَبُ
أَقُولُ لِمَا تَحَايَكَا شَمَا * أَيُّهَا لِلنَّشَابَةِ الدَّهَبُ
هَمَا سَوَاءٌ وَفَرَّقُ بَيْنَهُمَا * أَيُّهَا حَامِدٌ وَمَسِيكُ
مُنْسٌ وَأَمْنَاهَا عَمْرَةٌ * صُورٌ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالصُّلُ
يَتَلَوْنَ لِإِجْلِهِمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ حَرِيرٌ نَحْوُهَا حَبُّ
كَأَنَّمَا لَوْلُو تَبَدُّدُهُ * أَيْدِي عَدَارَى أَقْصَى بِهَا اللَّعْبُ

ومن جيد شعره قوله لما سمعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء
بغراسان أن يعبوا الأمين شعر أرى نواس ويقولوا هو حليسه ويديمه ويشدوا على المابر
شعره، سمعه الأمين فقال .

غَسَا بِالطَّلُولِ كَيْفَ يَلِيَا * وَأَسْقِيَا نَطْلِكَ النِّهَاءَ النِّمِيَا
مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَلِيْبٍ * يَمْنَى غَضَبُ أَنْ يَكُونَا
أَكَلُ الدَّهْرِ مَا نَجَسَمُ مَهَا * وَتَسْقِي لُبَّهَا الْمَكْشُومَا
ثُمَّ قُبِحَتْ فَاسْتَصْحَكَتْ عَنْ لَآئِلٍ * لَوْ تَجَمَّرْنَ فِي يَدٍ لَأَقْبَيْنَا
وَأَدَا مَا لَمَسْنَاهَا فَهَاءٌ * تَمْنَعُ الْكَفَّ مَا يُبَيِّعُ الْيُومَا

في كؤوس كأنهن نُجُومٌ * جارياتٌ برؤسها أيدياً
 طالعاتٌ من السقاة عينا * فإذا ما عرينَ يفرينَ فيا
 لو زى الثربَ حولها من سيد * قلتَ قومٌ من قرةً يضطلُّوا
 وعزاً يديرها بسان * باعياتٌ يزيدنها المُسرُّ لنا
 ذاكَ عيشٌ لو دام لي عيرائي * حفته مكرهاً ونفث الأيبا
 أدير الكأسَ حان أن نسقينا * وأنقير السود إنه يلهينا
 ودع الذكرَ للطلولِ إذا ما * دارتِ الكأسُ بتره ويمينا
 ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

عرد الديك الصُّوح * فاسقِي طاب الصُّوحُ
 اسقني حتى ترائي * حساً عندى القبيحُ
 قهوةٌ تذكر نوحاً * حين شاد العلك نوحُ
 نحن نحميها ويأبى * طيبُ عَرَفٍ يَفُوحُ
 فكان القومُ نُهبي * بينهم سكٌ ذبيحُ
 أنا في دنيا من العدا * اس أعبدو وأروحُ
 هاشميُّ قَبْدي * عده يفلو المديحُ
 لم الجود كتابٌ * بين عينيه يَلُوحُ
 كلُّ جورٍ يا أميري * ما حلا جودك ريجُ
 إنما أنتَ عطايا * أبدا ما تستريجُ
 يَجُّ صوتُ المايِ ما * منك يشكو ويصيحُ
 ما لهذا أحدٌ بو * قَ يديه أو تصيحُ
 جُذنتُ بالأموالِ حتى * قيل ما هذا صيحُ
 فهو بالمالِ جوادٌ * وهو بالمرضِ نجيحُ
 صَوَّرَ الجودُ مثلاً * وله العباسُ رُوحُ

قال محمد بن عيينة : أقيمت أنا نوايس بعسكركم فقلت له : أحب أن تشدني من
شعرك شيئا تعصن به علي غيري ، فأشدني :

يَكْفِي الكَرِيمَ مِنَ الْكَلَا * م لَمْ يَحَادِثْهُ أَقْلُهُ
وَالشَّيْءُ شَيْءٌ لَمْ يَرَلْ * بِأَدَقِّهِ يَأْتِي أَجَلُهُ
إِنْ لَمْ يَصْبِكَ مِنَ الْكَرِيمِ * م الْحُرُّ وَابِلُهُ فَعَلُّهُ
يُنْدِي مَكَارِمَهُ كَمَا * يُبْدِي وَرِيدَ السَّيْفِ سَلَّهُ
وَالسُّدُلُ يُوقِعُ هَمَّهُ * مَتَعَّدًا فَمَا يُبْدِلُهُ
وَالْحُرُّ يَكْرِمُ نَفْسَهُ * بِالصَّفْعِ عَنِ لَا يُجِيلُهُ

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صَبْتُ عَلَى الْأَمِينِ ثِيَابَ مَدَى * فَكُلُّ السَّائِسِ حَسٌّ وَأَسْتَجَادَا
وَلَوْلَا فَصْلُهُ مَا جَادَ شِعْرِي * وَلَا أَعْطَنِي الْعِطْرُ الْقِيَادَا
وَقَالُوا قَدْ أَحْدَثَ قُلْتُ إِنِّي * وَجَدْتُ الْقَوْلَ يَمْكِي بِجَادَا

ومن نغمياته :

ذَكَرَ الصُّوْحَ بُحْرَةً فَأَرَاتَا * وَأَمْلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صِيَا حَا
أَوَقَّ عَلَى شَرْفِ الْجِدَارِ بُسْطَانِي * عَرِيدًا يَصْفَقُ بِالْجَوَاحِ حَا حَا
فَإِذَا صَاحَكَ بِالصَّبُوحِ وَلَا تَكُنْ * كَسَوِيٍّ غَدَاً عَلَيْكَ شَحَا حَا
إِنَّ الصَّبُوحَ جَلَاءُ كُلِّ مَخْر * بَدْرَتْ يَدَاهُ بِكَاسِهِ الْإِصْبَا حَا
وَحَدِيدٍ لَدَاتِ مِثْلَ صَاحِبِ * تَقَنَّتْ مِنْهُ مَكَاةً وَمَزَا حَا
بَيْتُهُ وَاللَّيْلُ مَلْتَبَسٌ بِهِ * وَأَزْحَكُ عَنْهُ تُنَاسَهُ فَأَنْزَا حَا
قَالَ إِنِّي الْمَصْبَاحُ ، قُلْتُ لَهُ أَتَبْذُرُ * حَسَنِي وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مَصْبَا حَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَا حَا

من قهوة حاءك قل مزاحها * عطلًا فاليسما المزاج وشاحًا
شك الرأل فؤادها فكأنها * أهدت اليك بريحتها نقاحًا
صعراء تعترس العوس فلا ترى * منها بين محوى السات جراحًا
ومنها :

لا تبك ليل ولا تطرب الى هد * وأشرث على الورد من حرأ كالورد
كأسًا اذا احدثت في حلق شاربها * أهدته حمرتها في العين وانخد
فانلمر ياقوته والكأس لؤلؤة * من كنف لؤلؤة ممشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرًا ومن يدها * حراها لك من سكرين من مد
لي نسواتي وللذمان واحدة * شيء خصصت به من دونهم وحدي

كان الأحمى يصل أا واس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمس حلت الخلاء * وطال وقت الزمان واعتدلا
وعنت الطير بعد غميتها * واستوفت الخمر حوقها كذلا
واكتست الأرض من راحها * وشق ثياب تحاله حلا
فاشرث على جنة الزمان فقد * أصبح وجه الزمان مقبلا
من قهوة تذهب الموم فلا * أرهب فيها الملام والعدلا
كزحجة ترك الطويل من العيد * ش قصيرا وتبسط الأمل
تلمع لمع السراب في قدح ال * قوم اذا ما حباها انفلا
يقول صرّف اذا مزجت له * من لم يكن للكثير محملا
فستق هذا بقدر طاقته * وأحل على ذا قدر ما احتملا
عجنا بشيب من طبائعها * حسن وطيب ترى به المثلا

كان أبو نواس لا يُسْتَشَدُّ شَيْئاً مِنْ شِعْرِهِ إِلَّا أَشَدَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُيَمَّةٍ * تَهْمُ بِدَا مَنْ رَامَهَا بِزَيْلِ (٢)
 إِذَا عَارَصَتْهَا الشَّمْسُ قَاءَ طَلَلُهَا * وَإِنْ وَاحَتْهَا آذَنْتُ مَدْحُونِ
 حَطَطْنَا بِهَا الْأَنْفَالَ قُلْ هَيْبَةٍ * صُورِيَّةٌ تُدَكِّي مَعِيرَ قَبِيلِ
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاتَتْ بِمَذَقَةٍ * مِنَ الطَّلِّ فِي رَثِّ الْأَنْاءِ صَبِيلِ (٣)
 كَأَنَّا لَدَيْهَا سَ عِطْفَى عَامِيَةٍ * حَقَّ زَوْرُهَا عَى مَرَكٍ وَمَقْبِيلِ
 حَلَّتْ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةُ الصَّنَا * بَعَثْنَا مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ تَشْمُولِ
 إِذَا مَا أَنْتَ دُونَ الْأَلْهَاءِ مِنَ الْغَنَى * دَعَا هُمُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ
 هَلَمَا تَوَقَّى الشَّمْسَ حِجَّ مِنْ الدُّخَى * نَصَائِبَتْ وَأَسْتَحْمَلَتْ حَيْرَ حَمِيلِ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا * وَدَلَّتْ صَعْمًا كَابَ عَيْرَ دَلِيلِ
 مَنِيٌّ وَقَدْ وَسَدْتُ يُسْرَاى حَدَّه * أَلَا رَمَا طَالَتْ عِبْرَ مُبِيلِ
 وَأَنْزَلْتُ حَاقِيقَ بِحَقْوَى مُسَاعِدِ * وَإِنْ كَانَ أَدْنَى صَاحِبِ وَحِيلِ
 وَأَصْبَحْتُ أَلْحَى السَّكْرَ وَالسُّكْرَ حَيْسُ * أَلَا رُبَّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ نَقِيلِ
 صَكْفِي حَرَمًا أَنْ الْجَوَادَّ مَقْتَرٌ * طِيْهَ وَلَا مَعْرُوفَ عَدَّ بِحَمِيلِ
 سَأْنِي الْغَنَى إِمَّا حَلِيسَ حُلَيْمِي * يَقُومُ سِوَاهُ أَوْ حَيْفَ سَبِيلِ
 بِكُلِّ فَنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَاهُ * إِذَا بَوَّهَ الرُّخْفَابِ مَاسِمَ قَبِيلِ
 لَحْمِيسَ مَالٍ أَنَّهُ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أُنْخِي بَطْنِيَةَ اللَّطِيَّاتِ أَكْوُولِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى الدُّنَى * وَلَيْسَ حَوَادُّ مَقْتَرٌ كَبَحِيلِ

(١) الناطور - حائط الحبل والكرم والرزع وفي الدارح : الناطور والناطور بالطاء المهملة حائط الزرع ، من كلام أهل السواد وليس مرقى محض . (٢) الزيل مصدر كالزلال . (٣) أى مبرمى هاجرة ، وهو رية سما إلى الشجرى المور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) أى الشمس ، أى توقفت فى الفروع وراها . وراعت بمذقة ، أى دخلت عليهم من تلك الحمية المعلقة التى تنب على الأواء الصعبة من الذهب الرث لم تقو الشمس وعليهم لم تمنعهم الحمية مسترقى وصير طلالا ولكنه شمس وطل ، فشبهت بالمدقوق من اللز ، أى المروج .

إن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشاب مطية الجهل - ومحس الضحكات والمزحل
 كان الجمال اذا ارتعت به - ومثيت أخطر صبت العيل
 كان البليغ اذا نطقت به - واصاحت الآذان لملي
 كان المشفع في مآربه - عند الفتاة ومدرك التبيل
 والآمرى حتى اذا عزمت - نفسي أعان يدي بالفعيل
 فالآن صرت الى مقاربة - وحططت عن طهر الصارخيل
 والراح أمواها وإن رزأت - بلب المعاش وقلت قصلي
 صغراء مجدها مراريها - جلت عن الطراء والمثيل
 دُخرت لآدم قل حقيقته - فتفتته بخطوة القبيل
 فأتاك شيء لا تلاميسه - إلا بحسي غير رنة العقل
 فزود بها العيب في بئير - حر الصفيحة فامع سهل
 فاذا علاها الماء الهسا - حيا شية حلا حل الخيل
 حتى اذا مكنت جوائعها - خطت بمنزل أكارع الثمل
 حطيت من شئ ومجتمع - عليل من الإغمام والشكل
 فاعذر أحاك إياه رجل - مرنت ماسمه على العذل

ومن طيب شعره، والشر الأول من القصيدة لفظ ابن الدمية .

أعادل ما على وجهي قسوم - ولا عرصى لأول من يسوم
 يفضني على الفتان أتى - أيت فلا ألام ولا أوم
 أعادل إن يكس برداي رثا - فلا يملك بينهما كريم
 شقيقت من الصبا واشتق مني - كما اشتقت من الكرم الكروم
 فليست أسوم للذات نفسي - مياومة كما دفع الغريم

ومتصلب بأساب المعالي * له في ككل مكرمة قديم
 رعت له النداء ثم خذها * وقد أخذت مطالعها الجوم
 تتدنية زال العس فيها * وتنتهن الحؤولة والعموم
 فقام وقت من أخوين هاجا * على طرب وليهما سيم
 أحر الرق وهو يحتر رحلا * يحور به النعاس ويستقيم
 سلب الندمان ما أوفته منها * وسلها ما احتوى منها الكريم
 كلا الشحصين متصف ولكن * قصت وطرا وذا مها سقيم

وقال :

إني صرعت الهوى الى قبر * لم تشدله العيون بالنظر
 اذا تأملت ما طامتك آل * إقراراه من البشير

ومن قوله :

يا شقيق الفيس من حكم * نمت عن ليلى ولم أتم
 فاسقني الكرا الى آخرت * يحمار الشيب في الرحم
 نمت أنصات الشا ما * عدا ما جارت مدى الحرم
 فهي لليوم التي يرك * وهي ترب الدهر في القدم
 عفت حتى أو اتصلت * بلساب ناطقي وقم
 لا حبت في القوم مائلة * ثم قصت قصة الانم
 فوعتها بالمزاح يد * حلق لسيف والقلم
 في تداعي سادة زهر * أخذوا اللذات من أم
 فعمشت في مفاصلهم * كعمشي البر في السقم
 فعلت في البيت اذ من جت * مثل فعل الصبح في الظلم
 فاهتدى ساري الفلام بها * كاهتداء السفر بالعلم

ومن طُرْدِيَّاتِ أَبِي نَوَاسٍ فِي صَمْعِ الْكَلْبِ :

أَمِيتُ كُلَّ أَهْلِهِ مِنْ كَدَّةٍ قَدْ سَعِدْتُ حُدُودَهُمْ بِمَدَّةٍ
فَكُلَّ حَيْرٍ عَندهمْ مِنْ عِنْدِهِ وَكُلَّ رِفْدٍ مَالِهِمْ مِنْ رِفْدِهِ
يَطْلُ مَوْلَاهُ لَهُ كَمَدَهُ بَيْتُ أَذَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْدِهِ
وَأَبِ عَمْرَى حَلَّاهُ بِبُرْدِهِ ذَا عُسْرَةٍ مُجْبَلَا بِزَيْدِهِ
تَلَدُّ مَهَ الْعَرُ حَسَنَ قَدِّهِ يَا حُسْنَ شِدْقِيهِ وَطُولَ قَدِّهِ
تَلَقَّى الطَّبَاءُ عَنَّا مِنْ طَرْدِهِ بَسُرْتُ كَأَنَّا شُدُّهُمَا مِنْ شَدِّهِ
* يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ نَسِجَ وَحِيدِهِ *

أَبُو نَوَاسٍ وَجَنَانُ

قال أبو الفرج : كَانَتْ حَاثَ هَذِهِ حَارِبَةُ آلِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَبْدِ الْمُجِيدِ الثَّقَفِيِّ ، وَكَانَتْ حَلَوَةَ حِمْلَةٍ الْمَطَرِ أَدِيمَةً ، وَيُقَالُ : إِنْ أَمَا نَوَاسٌ لَمْ يَصْدُقْ فِي حَيٍّ أَمْرًا فِي غَيْرِهَا ، وَقِيلَ لَهُ يَوْمًا إِنْ حَاثَ قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْحَجِّ ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ حُجِّهِ وَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَا يَهْوَى الْمَسِيرُ مَعَهَا وَالْحَجُّ عَابِي هَذَا إِنْ أَقَامَتْ عَلَى عَزِيمَتِهَا ، وَقَالَ وَقَدْ حَجَّ وَطَادَ :

أَلَمْ تَرَ أَيَّ أَمِيَّتٍ عَمْرَى بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبُهَا عَمِيرُ
فَلِمَا لَمْ أَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهَا يَقْرُبُنِي وَأَعْيَتُنِي الْأُمُورُ
صَحَّحْتُ وَقُلْتُ قَدْ صَحَّحْتُ حَاثَ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

قال مَنْ شَهِدَهُ حِينَ حَجَّ مَعَ حَاثَ وَقَدْ أَحْرَمَ : لَمَّا حَاثَ اللَّيْلُ حَلَّ يَلْبِيَّ بِشَمْرٍ وَيَحْدُو بِهِ وَيَطْرَبُ ، فَفَتَى بِهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

إِلَهَا مَا أَعْدَلْتُكَ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ
لَيْسَ لَكَ قَدْ لَبِيتُ لَكَ * لَيْسَ لَكَ إِلَّا الْحَمْدُ لَكَ
وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ * وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَكَ

والساجحات في القلَّك * على تجارى المُسلَّك
 ما خاب عدُّ أملك * انت له حيث سلَّك
 لولاك يا ربِّ هلك * ككلُّ نبيٍّ ومَلَك
 وكل منى أهل لك * سبَّح أو لبى فلَّك
 يا مخطئا ما أعفك * عجل وادر أجلك
 واختم بحير عملك * لييك ان الملك لك
 والحمد والعمَّة لك * والمزلا شريك لك

وفيها يقول :

حقى عيني قد كاديس فقط من طول ما اختلج
 وفؤادى من حرج بك والهجير قد تصج
 خبرني فديك قد حى وأهل متى الصرخ
 كان مبعادنا نرو ج زياد فقد نرج
 أنت من قتل طائفة بك فى أصيق الحرخ

قال الأصمهاى : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوى . دخلنا على أبى نواس سؤده
 فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبك وبين الله عز وجل هنأت ، كُنت الى الله عز وجل ،
 فكى ساعة ثم قال : سائِدُونى سائِدُونى ، ثم قال : أأخوف الله عز وجل وقد حدثنى حماد
 ابن مسلم عن ريد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " لكل نبي شفاعَةٌ وإنى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمى يوم القيامة " أفترانى
 لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دُتْ فِي السَّقَامِ عُلُوًّا وَسُقْلًا . وَأَرَانِي أَمُوتُ عُصْبًا نَعُصُوا
 لَيْسَ تَمَيُّي مِنْ لِحْظَةٍ بِي إِلَّا . نَقَصْتَنِي بِمَرِّهَا فِي جُرُوءَا
 دَهَتْ حِدَّتِي بِحَاجَةٍ نَعِي . وَتَطَلَّبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ يَهْضُوا
 لَهْفَ مَيِّي عَلَى لِيَالٍ وَأَيَا . مِمْ تَحَاوِزُهُنَّ لِقَبَا وَلَمَّسُوا
 قَدْ أَسَاكَ كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالِد . هُمْ صَفْعًا عَنَا وَغَفَرَا وَغَفَّوَا

ثم قال :

يَشْفِرُ حَىَّ أَنَاكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ . صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفَا
 قَدْ بَرَّتْ حَسَمَهُ الْحَوَادِثُ حَتَّى . كَادَ عَنِ الْخِلَاقِ يُخْتَفَى
 لَسُو تَامَلْتَنِي تُتَصَرَّ وَجْهِي . لَمْ يَبْنِ مِنْ كِتَابٍ وَجْهِي حَرَفَا
 وَلَكَزَّتْ طَرَفَ عَيْلِكَ فِيهِ . قَدْ بَرَاهَ السَّقَامُ حَتَّى تَعَمَّى

وكان عمر أبي واس تسعا ونمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي

قال أحمد بن سَهل : تذاكرنا شعرَ العتّابي فقال بعضُنا : به تكلف ، وبصره بعضُنا ،

فقال : شيع حاصر ، ويحك ! يُقال إن في شعره تكلفا وهو الفائل :

رُسُلُ الضميرِ اليك تَتَرَى * مَالشَوْ ظَالِمَةً وَحَسَرَى
مَرْجِيَّاتٍ ^(٢١) مَا يَبْدُ * نَ عَلَى الْوَحَامِنِ مَدْمَسَرَى
مَا جَفَّ لِلْمَيْسِ نَ * لَدُكَ يَا قِرِيرَ الْعَيْنِ بَجَرَى
فَأَسْلَمَ سَلِمَتَ مُبَرَّآ * مَن صَبَوْنِي أَمْدَا مُعَرَى

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتّابي التلّقي من ولد عتاب بن أسيد ثم من بني نبط بن وائل ، شاعر مترسل طبع مطوع متصرف في فنون الشعر مقدم ، من شعراء الدولة العباسية ، وكان مقطعا إلى البرامكة هو معوه للرشيدي ووصلوه به ، فملح عنه كل ملح وصلت فوائده به .

وكان حسن الاعتدال في شعره ورسائله وله مصنفات في المطلق والأدب واللغة وكان يقم في رأس عين عبيدا عن دور الخلفاء والأمراء . وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشباعه إليه فغدا وسأله قيس عطيظ وهو روة وحرف ، وعلى كتمه ملحمة حامية عبر سراويل ، فلما وقع الخبر فقدمه إلى الرشيد أمر بأن تهرش له هجرة وتقام له وطيفة فعملوا ، فكانت المائدة إذا فُتحت إليه أحدها رقافة وملها وحلط الملح فالتراب فأكلها ، فإذا كان وقت اليوم نام على الأرض ، والخدم يتقدمونه ويتعجبون من فعله . وسأل الرشيد عنه فأحبروه فأمر طرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد المقليل وهو في منزله فسلم عليه واختب له مرحب به وقال له « ارتفع » فقال « لم آتلك للخلوس » قال « فما حاجتك » قال « دابة أطلع عليها إلى رأس عين » فقال « يا غلام ، أعطه الفرس الغلالي » فقال : لا حاجة لي بذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أطلع عليها : فقال لغلامه « انص مع فاشع له ما يريد » فعسى منه فشدل به العتّابي إلى سوق الحير فقال الغلام : إنما أرى أن اتاح لك دابة فقال له : إيه أرسلك معي ولم يرسل معك فأن عملت ما أريد والآن أصرف : فعسى معه واشترى حمارا بمائة وحسين درهما وقال : ادع إليه فمعه - فذهبه إليه مركب الحمار عريا بمرثعة عليه وبردة وسافاه مكشوشا ، فقال له يحيى بن سعيد « مصحتي ! أهلي يحمل ذلك على هذا ! » فصحك وقال « ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك » ومعنى إلى رأس عين .

توفي سنة ٢٢٠ هـ وتجد أحسابه في الأغاني (ح ١٢ ص ٢) وروايات الوفيات (ح ٢ ص ١٣٧) .

(٢) أي مقلعات بالتقليل حتى يصل إلى ذلك .

إِنَّ الصَّابَةَ لَمْ تَدْعُ * مَنَى سَوَى عَظِيمٍ مُبَرَّى
وَمَدَامِ عَبَّرَى عَلَى * كَبِدٍ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَّى

أَوْ يُقَالُ إِنَّهُ مُتَكَافٍ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

فَلَوْ كَانَ لِلشَّكْرِ مَخْصُوبٌ * إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ الْبَاطِلُ
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ * لَتَعْلَمَ أَنَّ أَمْرَهُ شَاكِرٌ

وَحَدَّ الرِّشِيدُ عَلَى الْعَتَايَ مَدَحِلَ سِرًّا مَعَ الْمُتَطَلِّمِينَ فَبَرِئَ إِذْ ، فَتَلَّ بَيْنَ بَدَى الرِّشِيدِ وَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ آدَنْتَنِي الْبَاسَ لَكَ وَلَعَسَى فَيْكَ ، وَرَدَّنِي آتِلَاؤُهُ إِلَى شُكْرِكَ ، وَمَا مَعَ تَدْعُوكَ قَاعَةَ فَيْزِكَ ، وَلَيْعَمَّ الصَّائِنُ لِنَعْمَى كَسَتْ لَوْ أَعَانَنِي عَلَيْكَ الصَّبْرُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

أَحْضَيْتُ الْمَقَامَ الْعَمْرَانَ كُلَّ عَرَى * سَاءَ حُلْبٍ أَوْ رَلَّتِ الْقَدَمَايَ
أَتَرَكْنِي حَذَبَ الْمَعِيشَةِ مُقَرَّأً * وَكَفَاكَ مِنْ مَاءِ الْبَدَى تِكْفَايَ
وَتَحْمِلُنِي سَهْمُ الْمَطَامِعِ مَدَامَا * تَلَّتْ يَمِينِي بِالْبَدَى وَلَسَانِي

فَاعْتَبِ الرِّشِيدَ قَوْلُهُ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ الْحَلَجُ ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِجَاهِزِهِ .

كَلَّمَ الْعَتَايَ يَحْيَى بْنُ حَالِدٍ فِي حَاجَتِهِ بِكَلِمَاتٍ قَلِيلَةٍ ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : لَقَدْ زُرَّ كَلَامُكَ الْيَوْمَ وَقُلَّ ، فَقَالَ لَهُ وَكَبِفَ لَا يَقْلُ وَقَدْ تَكْصِفُنِي دَلَّ الْمَسْأَلَةُ وَحَيْثُ الْطَلَبُ وَخَوْفُ الرَّدِّ ، فَقَالَ :
وَاللَّهِ إِنِّي قَلَّ كَلَامُكَ لَقَدْ كَثُرَتْ هَوَائِدُهُ ، وَقَصَصِي حَاجَتَهُ .

قَالَ يَحْيَى بْنُ حَالِدٍ الرَّمَكِيُّ لَوْلَاهُ إِنْ قَدَرْتُمْ أَنْ تَكْتُبُوا أَلْعَاسَ كَثْرَتِهِمْ بَيْنَ عَمْرٍو الْعَتَايَ فَصَلَا عَنْ رَسَائِلِهِ وَشَعْرِهِ ، فَلَمْ تَرَوْا أَلَدًا مِثْلَهُ .

وَقَفَّ الْعَتَايَ سَابِ الْمَأْمُونِ لِنَتَمَسَّ الْوُصُولَ إِلَيْهِ ، فَصَادَفَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ جَالِسًا يَنْتَظِرُ الْإِدْنَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَأَيْتُ أَعَزَّكَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ أَمْرِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَحَلْتُ دَاخِلًا ، قَالَ لَهُ : لَسْتُ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِحَاجَتِهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَاجِحًا فَقَدْ يَفْعَلُ مِثْلُكَ مَا سَأَلْتُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً ، وَجَعَلَ زَكَاةَ الْمَالِ رِقَّةَ الْمُسْتَعِينِ ، وَزَكَاةَ الْبِلَاحِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَقْبِلٌ عَلَيْكَ بِالزِّيَادَةِ إِنْ شَكَرْتَ ، أَوِ التَّخْفِيرِ إِنْ كَفَرْتَ .

وإني لك اليوم أصلح منك لمسك، لأنني أدعوك إلى آزيداد نعمتك وأنت تأتي، فقال له يحيى: أفعل وكرامه، ونرح الإردن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ ببنى عهد السلام إلا أن أستاذن المأمون للعتابي، فأذن له .

وقبل له . لو تزوجت، فقال: إني وجدت مكابده العفة أيسر على من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دُعيل : ما حسدت أحدا قط على شر كما حسدت العتابي على قوله :

هَيْبَةُ الإِخْوَانِ قَاطِعَةٌ . لأنني الحاجات عن طلبه

إذا ما هَيْبَتْ دَا أَمَل . مات ما أَمَلَتْ من سببه

كان العتابي حالاً ذات يوم ينظرو كتاب، فتر به بعض حيرانه، فقال : أيش ينفع العلم والأدب من لا آله . فأنشد العتابي قوله .

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَقَفُوا . ذَا اللَّيْلِ يَنْظُرُونَ فِي الْآدَابِ وَالْحِكْمِ

قَالُوا وَلَيْسَ بِهِمْ إِلَّا تَقَاسُتُهُ^(١) . أَأَنْفَعُ ذَا مِنْ الْإِقْتَارِ وَالْعُلْمِ

وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا الْخَطُّ الَّذِي حُرِّمُوا . لِحَاكِمِ اللَّهِ — مِنْ يَلْمِ وَمَنْ فَهَمِ

ومن قوله أيضا .

لَيْسَ كَأَنْتَ الْدِيَا أَمَّا لَكَ ثَرَوَةٌ . فَأَصْبَحْتَ ذَا يُسِرُّ وَقَدْ كُنْتَ ذَا عُصِرَ

لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ عَجَازِيَا . مِنَ اللَّوْمِ كَأَنْتَ تَحْتَ سِتْرِ مِنَ الْمَقْرِ

وقال أيضا :

رَحَلَ الرَّحَاءُ إِلَيْكَ مَعْتَرِيَا . حُسِنَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ بَدَاهَتِي أَمَلِي . وَشَا إِلَيْكَ عِثَانُهُ شَكْرِي

وَجَعَلَتْ عَيْنُكَ عَيْنَ مَوْعِطَةٍ . وَرَحَاءَ عَمُوكَ مَتْنِي أَمَلِي

لما سعى منصور الثمري بالعتابي إلى الرشيد أعْتَظَ عليه فطلبه، فسَتره جعفر بن يحيى

عنه مئة وجعل يستعطفه عليه حتى استلب ما في نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

ما زلتُ في عَمَرَاتِ الموتِ مُطَرَّحًا * قد صاق عني فسيحُ الأرض من حيلي
ولم تزلْ دأبًا تسمى لطفك لي * حتى أختلست حياتي من يَدَيَّ أُلْحَى
عاد عد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصَنَّبِ كلثوم بن عمرو العتّابي في علة
أعتلّها، فقال الناس : هذه خَطَرُهُ خَطَرْتُ ، فلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عد الله بن
طاهر :

قالوا الزّيارةُ خَطَرَةٌ خَطَرْتُ * ويحاذِرُكِ ليس نالِخَطَرُ
أَظِلُّ مقالَهم بثانية * يستفيدُ المعروفُ منْ شكري
فلما لفت أبايَه عد الله بن طاهر صحك من قوله ورك هو وإسحاق فعاداه مره
ثانية .

كانت له أمراءه من ماهلة ، فلما معى الى رأس عَيْنِ قالت له : هذا مصور التمرى :
قد أخذ الأموال خلقَ نساءه وى داره وأشتري صبا وأنت ههنا كما ترى ، فأنشأ يقول :
تلوم على تَرَكَ العِني ماهِلِيَّةُ * دوى الفقر ضحا كلِّ طُوفٍ وتالِد
رأت حولها السَّوانِ رُفُلٌ في الترى ، مَقْنَلِدَة أعاقها القلائدُ
أسرَّكَ أنى لَتُ ما نال جمعُهم * من العيش أو ما نال يحيى من حالِد
وأنت أمير المؤمنين أعصى * فخصبما المُرَهَقَاتِ السَّوَادِ
رايتُ رِيعاتِ الامور مَشُوبَةً * بمسودعات في بطون الأساود
دعني تَحْنِي مِيتِي مطمئنة * ولم اتحتم هَوَلُ تلك الموارد

لما قَدِم العتّابي مدينة السلام على المأمون أدن له ، فدخل عليه وعده إسحاق بن إبراهيم
الموصل ، وكان العتّابي شيخا حليلا نبلا ، فسلم مرَدَّ عليه وأدناه وقربه حتى قُرِبَ منه ، فقل
يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يحميه بلسان ذُلُقٍ طَلَقَ ،
فاستطوف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداغة والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخف به ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، الإيتاس قبل الإيتاس ، فاشتبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستههما ،
(١)

فأومأ إليه وعمره على معناه حتى فهم، فقال: يا علام، أَلَفَ دينار، فأبى بذلك، فوضع بين يدي العتّابي وأحدوا في الحديث، وعمر المأمونُ إسماعق بن إبراهيم عليه، بهصل العتّابي لا بأحد في شيء إلا عارصه إسماعق، فبقي العتّابي متعجبا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أتأذني في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لإسماعق يا شيع، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمي كُلُّ بَصَلٍ، فتبسم العتّابي وقال: أما أنتَ فعروف وأما الاسم ففكر، فقال إسماعق: ما أقل إصافك! أتكر أن يكون اسمي كل بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابي: لله دَرَك! فما أَجَبَكَ، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفر عليك وأمر له بمثله. فقال له إسماعق: أما إذ أقررتَ بهذه فتوهمني تجهذي، فقال: ما أطك إلا إسماعق الموصلي الذي ينتهي إليها حبه، قال: أما حيثُ طننتَ، وأقل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون: — وقد طال الحديث بينهما — : أما إذ قد أتممتما على المودة فاصبرا متاديين، فاصبر العتّابي إلى منزل إسماعق فأقام عنده.

قال عثمان الوراق: رأيت العتّابي يأكل حبا على الطريق بيساب الشام، فقلت له: وَيَمُك! أما تستحي؟ فقال لي: أرايتَ لو كا في دار بها بَقَر كَت تستحي وتعتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روي لا غير واحد أنه من بلغ لسانه أَرْبَئة أنه لم يدخل النار، ما بقي أحد إلا أخرج لسانه يومئذ به نحو أربعة أنه ويقدره حتى يعلمها أم لا، فلما همزقوا قال لي العتّابي: ألم أحبك أنهم قر؟.

قال العصل: رأيت العتّابي بين يدي المأمون وقد أسس، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فإزال المأمون يُنْهضه رويدا رويدا حتى أقله فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو المتأبى الى صديق له يستحديه :

أما بعد - أطل الله بفاك وحمله يمتدك الى رضوانه والحنه - فإك كست
 صدنا روصة من رياض الكرم، تنهج النفوس بها، وتستريح القلوب اليها، وكنا نغفيا
 من الحجة^(١) استياما لرهبتها، وشفقة على خصرنا، وأدحارا لثرتها، حتى أصابنا سعة
 كانت عسدي قطعة من سبي يوسف أشتد علينا كلها، وعاب قطعها، وكذبنا عيومتها،
 وأخلفنا بروقها، وقدنا صالح الإحوان فيها، فانتحنتك . وأنا ما بجاعى إياك شديد الشفقة
 عليك، مع على ماك موضع الرائد، وأك تفتلى عن الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدك
 إلا فى حومة^(٢) الأهل . وأعلم أن الكريم اذا أستحيا من إعطاء القليل ولم يملكه الكثير،
 لم يعرف جوده ولم تظهر همته . وأما أقول فى ذلك :

اذا تكزمت عن بذل القليل ولم . تقدر على سعة لم يطهر الجود
 بث السؤال ولا تمكك قلبه . فكل ما سد فقرها فهو محمود
 قبل فشاطره جميع ماله .

(١) الحجة . طلب الكلاء فى موضعه . (٢) الكلب انقضى وبلاه الشاء، وهو من يصيب

الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة ها الحماة والطلامة .

٣ - دَعِيل^(١)

شاعر متقدم مطوع نهاء حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا دوابه أحسن إليه أم لم يحسن، ولا أظن منه كبيراً أو صغيراً .

وكان دعل من الشيعة المشهورين ناليل الى على صلوات الله عليه . وقصيدته : «مدارس آيات تلت من تلاوه» من أحسن الشعر وفاحر المدائح المفعولة في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أن على س موسى الرضا محاسن، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المصروبة باسمه وحل عليه حنله من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم . فلم يبعها فمقطعوا عليه الطريق فأحدوها، فقال لهم . إنها إنما أراد الله عز وجل وهي محزمة عليكم، فذهبوا إليه ثلاثين ألف درهم، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه سبباً ليكون في كفته، فأعطوه فرد ثم، فكان من أكماله .

قال إبراهيم بن المهدي لأمون قولا في دعل يخصه عليه، فصحك المأمون وقال : إنما تحزنني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقطوا * وأرصوا بما كان ولا تسخطوا
سوف تعطون حبيبة^(٢) * لتلذها الأمرد والأشمت
والمقديبات^(٣) لقوادكم * لا تدخل الكبس ولا تترط
وهكذا يرزق قواده حليمة^(٤) مضجعه البربط

(١) هو دعل بن علي بن دربر من جماعة أصله من الكوفة وحامد عداد طلب من الرشيد . وهو شاعر مطوع نهاء . حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم ولا دوابه أحسن إليه أولم يحسن، ولا أظن منه كبيراً أو صغيراً، فكان الناس يحابونه ويتقونه حتى المأمون فإنه محامد شديد واحتمل ذلك منه . توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتحدث أساحه في الأسارى ح ١٨ ص ٢٩ وابن حلكان ح ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء . ص ٥٣٩ والظهرست (ص ١٦١) . (٢) يريد أصواتا منسوبة الى حنين الخيزر المعنى .

(٣) يريد أصواتا منسوبة الى محمد المعنى .

قَدْ حَتَمَ الْعَصْكَ بِأَرْزَاقِكُمْ * وَصَحَّحَ الْعِزَّمَ فَلَا تَسْخَطُوا
بَيْعَةَ إِبْرَاهِيمَ مَشْتُومَةً * يُقْتَلُ فِيهَا الْخَلْقُ أَوْ يَقْطَعُوا

فقال له إبراهيم : فقد والله هجأك أنت يا أمير المؤمنين ، فقال : دع هذا عك فقد عفوت
عه في هجائه لإيأى لقوله هذا ، وصحح . ثم دخل أبو عاصد ، فلما رآه المأمون من بُعد قال
لإبراهيم : دعبل يمسر على أبى عباد في الهجاء ويهجم عن أحد ! فقال له : وكان أبا عباد
أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أعلم
وأصفيح ، والله ما رأيت أبا عباد مبيلا إلا أمصكى قول دعبل فيه :

أولى الأمور نصيحه وفساد د امرؤ يذبره أبو عباد
حرق على جلسائه فكأنهم حصروا الملحمة ويوم جلال
يسطو على كتابه بدواته قصص بدم وضح بداد
وكأنه من دبير هرقل مقلت حرد يحز سلاسل الاقياد
فاشدد أمير المؤمنين وثاقه فامتح منه بقية الحداد

وكان «بقية» هذا محموتا في الجارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت
الباس جميعا ، فانت دهررك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كعفت عن هذا وصرفت
هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! انى تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يتنعم
بهم إلا على الربهة ، ولا يبالى الشاعر وإن كان مجيدا اذا لم يحف شره ، ولئن يتفك على
عرصه أكثر ممن يرعى اليك في تشريعه ، وعبوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل
من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجلود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع
بقولك ، فادا رأيك أوجعت عرص غيره وفصحته آتقك وخاف من مثل ما جرى على
الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقدع أحد صنيع الشاعر من المديح المصرع ، فضحك
أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنه .

كان سببُ خروج دجبل من الكوفة أنه كان يتشطر ويصحب الشطار، فخرج هو ورجل من أنجع فيما بين العشاء والعمة، بغلسا على طريق رجل من الصَّيارفة، وكان يروج كل ليلة بكيسه الى منزله ، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه بقرحاه وأخذ ما في كُتبه، فاذا هي ثلاث رُمات في نِزقة، ولم يكن كيسه ليلتذ معه ، ومات الرجل مكانه ، وأسترد دجبل وصاحبه وحدَّ أولياء الرجل في طلبهما وجدَّ السلطان في ذلك ، فطال على دجبل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

قال أحمد بن حنبل : كايوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دجبل ، فلما رأياه قلنا : هذا صبيدنا، فأخذناه، فقال صالح : ما نضع به * قلنا : ندبجه، فذبحناه وشويناها . ونرح دجبل صال عن الديك عرّف أنه سقط في دار صالح، فطلبه متابعهذناه وشربا يوما، فلما كان من الفد خرج دجبل فصلّ الفداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد يجتمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويتأهبهم الناس — بغلس دجبل على باب المسجد وقال :

أَسْرَ الْمُؤَدَّنَ صَالِحٌ وَضِيؤُهُ * أَسْرَ الْكَيِّ هَقَا حِلَالِ الْمَاقِطِ

عَشُوا عَلَيْهِ يَبِيْسُهُمْ وَبَاتَهُمْ * مِنْ بَيْنِ نَافِثِيَةِ وَأَخْرِ سَامِطِ

يَتَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْفَقُوا * حَاقَانِ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ

تَهَشَّرُوا فَانْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَفْعَاؤُهُمْ بِالْحَائِطِ

فكتبتها الناس عنه ومَضَوْا ، فقال لي أبي، وقد رجع الى البيت : ويحك ! صاقت عليك المأكَل فلم تَجِدُوا شيئا تاكلونه سوى ديك دجبل ! ثم أنشدنا الشعر، وقال : لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا آشرتيه وشتت به الى دجبل وإلا وقصا في لسانه، ففعلت ذلك .

قال أحمد بن أبي كامل : كان دجبل ينشد كثيرا هجاء له ، فأقول له فيمن هذا ؟ فيقول ما أستحقه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب ، فادا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر أسمه في الشعر .

كان دعبيل يختلف الى الفضل بن العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خروجه وفهمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا مُؤسَّ للفضل لو لم يأت ما عَابَهُ * يستفرغ السَّمَّ من سَمَاءِ قِرْقَابَةٍ
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعهُ * جهلاً لأعراض أهلِ المجد عِيَابَهُ
إن عابى لم يَبْتَ إلا مؤدَّبَهُ . وحسَّه عابُ لما عابَ آدَابَهُ
فكان كالكلبِ صرَّاهُ مَكَلَّبَهُ . لم يره فعدا فاصطاد كَلَابَهُ
كان دعبيل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مِةٌ إلا تميتُ موته .

كتب دعبيل الى أبي نَهْشَل بن حَمِيد الطوسي قوله :

إعما العيشُ في مُدامه الإخوا * ن لا في الجلوس عند الكُفَّاء
ويصرف كأنها الشَّن البر * ق إذا استعرصت رقيق السحاب
إن تكوُّوا تركمُ لُدَّة العيد * ش حذار العِقاب يومَ العقاب
فدعوني وما ألدَّ وأهوى * وأدفعوا في صدر يدم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرعاني: سمعت دعبيل يقول في كلام جرى «لَهْسَك» فأنكره عليه؛ فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لي رجل إلا رأيته دون وصفه لَهْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعُود : حضرتُ أبا دُلْف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شئ تروى لأخى خُرَاعَة يا قاسم ؟ فقال : وأى أخى خُرَاعَة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومنَ تعْرِيف فيهم شاعر ؟ فقال : أَمَا من أنْفُسِهِم فأبو الشَّيْص ودعبيل وابن أبي الشَّيْص ودادود بن أبي رِزِين ، وأما من موالِهم فظاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبيل ! هات أى شئ عندك فيه ؟ فقال : وأى شئ أقول في رجل لم يُسَلِّم عليه أهلُ بيتِه حتى هُجَاهم ، قَرَنَ إحسانَهُم بالإساءة وبذلهم بالمع وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؟ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول في المطلب بن عبد الله

أَبْنُ مَالِكٍ، وَهُوَ أَصْدَقُ النَّاسِ لَهُ وَأَقْرَبُهُمْ مَعَهُ، وَقَدْ وَقَدَ إِلَيْهِ إِلَى مَصْرَ فَأَعْطَاهُ الْجَزِيلَ
وَوَلَّاهُ، وَلَمْ يَنْمَعْ ذَلِكَ أَنْ مَالَ فِيهِ :

يَا ضَرْبُ نَدَى طَلْعَةِ الطَّلَامَاتِ مَشِيدَا * لِمَؤْمٍ مَطْلِبٍ فِيَا وَكُنْ حَكِيمَا
تُخْرِجُ نُرَاعَةً مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَ لَهَا لَوْ مَا وَلَا كَرَمَا

قَالَ الْمَأْمُونُ : قَاتِلْهُ اللَّهُ ! مَا أَغْوَصَهُ وَالطُّغَى وَأَدْعَاهُ، وَجَعَلَ يَضْحَكُ. ثُمَّ دَخَلَ عِنْدَ اللَّهِ
أَبْنُ طَاهِرٍ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ تَحْفَظُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِدَعْبَلٍ؟ فَقَالَ : أَحْفَظُ أَيْبَاتَهُ فِي أَهْلِ بَيْتِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ : هَاتَهَا وَيْحَكَ ! فَاثْنَدَهُ :

سَقِيَا وَرَبِّمَا لِأَيَّامِ الصَّمَامَاتِ * أَيَّامِ أَرْفُلٍ فِي أَنْوَابِ لَدَائِ
أَيَّامِ غَضَنِ رَطِيبٍ مِنْ لَيَّانَتِهِ * أَصْوَالِ عِرْجَارَاتٍ وَتَكَاتِ
دَعِ عَمَكَ ذَكَرْ زَمَانَ قَاتِ مَطْلُهُ * وَأَقْدِفْ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْحَمَّالَاتِ
وَأَقْصِدْ كُلَّ مَدِيحٍ أَنْتَ قَاتِلُهُ * نَحْوِ الْمُدَّةِ بَنَى بَيْتِ الْكَرَامَاتِ

قَالَ الْمَأْمُونُ : إِنَّهُ قَدْ وَجَدَ وَاتَّقَهُ مَقَالًا فَقَالَ، وَنَالَ بِعِيدِ ذَكَرَهُ مَا لَا يَنَالُهُ فِي وَصْفِ غَيْرِهِمْ.
وَمِنْ قَوْلِ دَعْبَلٍ وَبِهِ غَاءُ :

أَيُّ الشَّبَابِ وَأَيُّ سَلَكَا : لَا أَيْنَ يُطْلَبُ صَلٍّ مِنْ حَلَكَا
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمٌ مِنْ رَحَلٍ * صَحِيحُ الْمَشِيبِ بِرَأْسِهِ مَبَكِي
يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ يَوْمُكَ * يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سُفِكََا
لَا تَأْخُذْنَا بِظُلَامَتِي أَحَدَا * قَلْبِي وَطَرَفِي دَمِي أَشْرَكََا

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَدْبَرِ : لَقِيتُ دَعْبَلَ بْنَ عَلِيٍّ فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ أَجَسَرُ النَّاسِ عِنْدِي
وَأَقْدَمُهُمْ حَيْثُ تَهْوَلُ :

إِنِّي مِنَ الْقُصُومِ الَّذِينَ سَيُؤْفِكُهُمْ * قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَّفَكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ مَدَّ طَوْلَ نَمُولِهِ * وَأَسْتَقْدُوكَ مِنَ الْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أحذ المشيبُ من الشباب الأغيث * والناثباتُ من الأثام بمرصِد
فقال : يا أبا إسحاق ، أنا أحمل خَشْبتي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصليني عليها .

كان دجيل يخرج فيصيب سبب يُلَوِّد الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكانت
الشراة والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرؤونه ، وكان اذا لقيهم وضع
طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا غلاميه : صف وشعف ، وكاما مغيين ، فاقعدهما يغنيان
وسقام وشرب معهم وأنشدهم ، فكانوا قد عرفوه وألوه لكثرة أسفاره ، وكاوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دجيل لنفسه في أحد أسفاره :

حَلَّتْ حَلًّا يَقْصُرُ الْبَرُّ دُونَهُ ويعجز عه الطيفُ أن يَجْشِيَا

قال البحرى : دجيل بن علي أشعر عدى من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دجيل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، وبذهبه أشبه بمذاهبهم ، وكان يتعصب له .

كان المتعم يفتص دجلا لطلو لسانه . وبلغ دجلا أنه يريد اغتياله وقتله ، فهرب
الى الجبل ، وقال بهجوه :

بكى لِسَنَاتِ الدِّينِ مَكْتَلِبُ صَبٍّ * وفاض فَرَطُ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِهِ خَرَبٌ
وقام إمام لم يكن ذا هِدَايَةٍ * فليس له دين وليس له نُب
وما كانت الأنبياءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ * يُمَلِّكَ يَوْمًا أَوْ تَدِينُ لَهُ الْعُرُبُ
ولكن كما قال الذين تناهوا * من السلف الماصين اذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكُتُبِ سبعةٌ * ولم تأتسأ عن ثامن لم تُكُنْ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ * جِارٌ إِذَا عُدُوا وَثَامِنُهُمْ كُلُّ
وإني لأعجل كلهم عك رفعةً * لأنك ذو ذَنْبٍ وليس له ذنب
لقد ضاع ملك الناس اذ ساس مُلْكُهُمْ * وصيِّفٌ وَأَشْنَأَسُ وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ
وَفَضَّلَ بَنُ مَرْوَانَ يُسَلِّمُ ثُلَمَةً * يظل لها الإسلام ليس له شعب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلت إذ غيبوه وأنصرفوا * في خير قبر خير من غير مدفون
لن يجبر الله أمةً فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعل يمارسه :

قد قلت إذ غيبوه وأنصرفوا * في شر قبر لشر مدفون
إذهب الى السار والعداب ما * حلقك إلا من الشياطين
مازلت حتى عقدت بيعةً من * أضرت بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الواصل :

الحمد لله لا صبر ولا جلد * ولا عزاء إذا أهل البلاء رقدوا
حليعة مات لم يحزن له أحد * وأحرقام لم يصرح به أحد
ولقد أحسن في وصف سمر سافره ، فطال ذلك السفر عليه ، فقال فيه :

ألم يأن للسمر الدين تمحلوا ، الى وطني قل المات رجوع
فقلت ولم أملك سواي عبث * نطق بما صمت عليه صلوع
تتبعكم دار تمزق شملها * وتتمل شتيت عاد وهو جمع
كذلك الليالي صرفهن كما ترى * لكل أمان جذبته وربيع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجرى ومسلمى حتى أعود .

ومن قول دعل وفيه غناء :

سرى طيف ليل حين آن هبوب * وقضيت شوقا حين كاد يدوب
فلم أر مطروقا يحمل برحلة * ولا طارقا يقري المني ويئيب

ومن قوله :

لقد عجبني سلمي وذاك عجب * رأت بي شيئا عجلته خطوب
وما شئتني كبرة غير أني * بدهر به رأس المطمئنين

وقال في صالح بن عطية الأعمى وكان من أقبح الناس وجهاً، وحاطب فيها المتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول أمرئ حبيب عليك عُلم
أنكرت أن تفتّر عك صيعة * في صالح بن عطية الجهم
ليس الصانع عده صنائع * لكنهن طوائف الإسلام
إصرن به حبش الصدو فإنه * حبش من الطاعون والريام

قال أبو تمام : ما زال دعل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقراً بأستاديته، حتى ورد عليه
بجرحان بغفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعل وكتب إليه :

أبا محمد كعا عبيد مودة * هوأنا وقلبانا جميعا معاً معا
أحوطك بالغب الذي أنت حاطي * وأجرع إشفافاً من أن تتوجع
فصيرتني سداً تتكناك منيما * لمسى عليها أزهبُ الخلق أجمعا
عشت الهوى حتى تداعت أصوله * بنا وأبتذلت الوصل حتى تفعلا
وأزلت من بين الجوانح وألفتني * دخديره ود طاملاً قد تمع
فلا تلحنني ليس لي فيك مطمع * تمحوت حتى لم أجد لك مرقعا
فهبك يميني استاكتك فقطعتها * وحبست قلبي صبره فتشجع
ثم تهاجرا ما ألقيا بعد ذلك .

أجرى الرشيد على دعل رزقا سنياً ، فكان أول من حرّضه على قول الشعر . فوافقه ما بلغه
أن الرشيد مات حتى كافاه على فعله من العطاء السنّي والنفي بعد الفقر والرفعة بعد الخمول
بأقبح مكافأة ، وقال فيه يهجو من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس حق من الأحياء فعله * من ذى يمان ومن بكر ومن مضير
إلا وهم شركاء في دمانهم * كما تشارك أيسار على جر
قتل وأمر وتحريق ومنية * فعل الفزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمة معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبني العباس من حذر

إِرْعَ طُلُوسَ عَلَى الْقَبْرِ الزَّيِّ إِذَا * مَا كَتَّ تَرَّعَ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِي طُلُوسَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعِيبَرِ .
مَا يَنْبَغُ التَّجَسُّسَ مِنْ قَرَبِ الرِّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّيِّ قَرَبَ التَّجَسُّسِ مِنْ صَرَرِ
هَيْهَاتَ، كُلِّ أَمْرٍ يَدْرَهُنَّ عَمَّا كَسَبَتْ * لَهُ يَدَاهُ نَحْنُ مَا شَلَّتْ أَوْ قَدَّرَ

* استدعى بعض بني هاشم دعلا وهو يتولى للمتعصم حاجة من واهي الشام، فقصده
إليها فلم يقع به بحسن ظن وحماه، فكتب إليه دعل :

دَلَيْتَنِي بِسُرُورٍ وَعَدَكُ فِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْفَرَقِ
حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ انْتِقَاصُكَ شُهْرَةَ الْبَلَقِ
أَنْشَأْتَ تَحَلُّفَ أَنْ وَذَكَ لِي * صَافٍ وَحِبْلِكَ خَيْرَ مَسْحِقِ
وَحَسْبَنِي فَقَعًا مَقْرُورَةً * فَوِطْطَنِي وَطًا عَلَى حَقِّ
وَصَبَبْتَنِي عَلَمَا عَلَى عَرَضِ * تَرِيمِنِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَدَقِ
وَطَبَنْتَ أَرْضَ اللَّهِ صَبَقَةً * عَنِّي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَصْقِ
مَنْ فِيمَا جُرِّمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنَى بَوَعْدِكَ حِينَ قُلْتَ ثِقِي
وَمَوْدَةٍ تَحْصُو عَلَيْكَ بِهَا * هَمْسِي بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
فَمَنَى سَأَلْتُكَ حَاجَةً أَدَا : فَاشْدُدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى عَلَقِ
وَقَفَّ الْإِحَاءُ عَلَى شَفَا جُرُوفِ : هَارٍ مِغْنَهُ بَنَعَةِ الْخَلْقِ
وَأَعْدَلِي قُفْلًا وَجَآمَةً : فَاشْدُدْ يَدِي بِهَا إِلَى عَنِي
أَعْضِيكَ مِمَّا لَا تَحْتَ بِهَا * وَأَسْدُدْ عَلَى مَذَاهِبِ الْأَفْقِ
مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَصَهَا * وَأَدَلَّنِي بِمَسَالِكِ الْعُكْرُقِ

دحل دعل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو يبغداد :

جَشْتُ بِلَا حُرْمَةٍ وَلَا بَهَبٍ * إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ
فَافِضْ ذِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ * غَيْرُ مُلِحٍّ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجهه إليه بهرة فيها ألف درهم ، وكتب إليه :
 أعجلنا فانك عاجلٌ رزنا • ولو آتتظرت كثيرة لم يهل
 نغد القليل وكن كأنك لم تقل • ونكون نحن كأننا لم نفعل
 مات دعبل بقرية من قرى السوس ، مع إليه مالك بن طوق من ضرب ظهره
 مكازها رُجٌ مسموم مات من غد •

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

« شاعرٌ ظريفٌ شديدُ الظُّرفِ ، ربما أقطعَ نظيرهُ في شعراءِ العصرِ العبَّاسيِّ كلَّهُ ، وهو معَ ظُروفه وإسرافه في المَجَوفِ ، قليلُ الفحشِ في اللفظِ . غيرَ مُبالِكٍ على القولِ الآثِمِ والألفاظِ المنكَّرةِ ، لا يَغتَبرُها ولا يَحصِدُ إليها ، وإنما يَعرِضُ لها إذا أصطَّارَ إليها اضطِراراً وهو على ظُروفه ورقةٌ حاشيتهُ وحرِّصه على نَقَاءِ اللفظِ وطُهره شاعرٌ بالمعنى الصحيح لهذه الكلمةِ ، مجوِّدٌ إذا فَكَّرَ ، مَظفَرٌ إذا بحثَ ، موَفِّقٌ إلى اللفظِ المتينِ ، والأسلوبِ الرِّصينِ في ضيرِ جفوةٍ ولا غِلظةٍ ، لا يعرفُ التكلُّفَ في لفظٍ ولا معنى ، وإنما ينطلقُ لسانه معَ صحبتهِ ، وحببتهِ سهلةٌ مرسلةٌ غيبةٌ غزيرةُ المادةِ ، لا تكادُ تُضَبُّ ، ولا يالها إعْياءٌ أو كَلالٌ ، وحيلتهُ كلها عِبَرٌ وعِظَاتٌ ولكها عِبَرٌ وعِظَاتٌ مبنسةٌ ليستَ بالمظلمةِ ولا العابسةِ ولا بالتي تَرَدُّكُ وتُتَرَكُ ، وتجعلُ للحزنِ والألمِ إلى قلبك سبيلاً ، ولعلك لا تجدُ من شعراءِ هذا العصرِ رجلاً مثلهُ ، تقرأُ أخباره تُظَلُّ مبنسةً منذَ تتدبَّرُ إلى أنْ تنتهيَ دُونَ أنْ تَمُوسَ أو تَنطَبَّ . وربما تجاوزتَ الابتسامَ إلى الإغراقِ في الضحكِ من حينٍ إلى حينٍ ، ولككُ لن تتركِ الابتسامَ إلى الحزنِ الشديدِ . وربما أعترضتكِ في طريقكِ بحبابةٍ محرَّنةٍ ولكن هذه السحابةُ رقيقةٌ هادئةٌ هَيِّيةٌ ، فهي أضعفُ من أنْ تزيلَ ابتسامتَكَ . وكان هذا الشاعرُ من المعمرينَ ، بلغَ المائةَ أو كادَ ، وعاصرَ طبقاتٍ من الشعراءِ ، وألواناً من حاشيةِ الخلفاءِ ، ولكنه ظلَّ محتفظاً بشخصيَّتهِ الوداعةِ المبنسةِ ، تغيَّرَ الناسُ وأختلفتِ الظروفُ ، وظلَّ هو واحداً

(١) هو مولدٌ بأهلهُ ، ولدَ في البصرةَ وشأها ونامَ الخلفاءُ من بني العباسِ ، وكان حليماً فاسداً وكان مع ذلك حسنَ التصرفِ في النظمِ وشعره يقولُ رويقٌ ، هجر من المصينِ وله معاني جديدةٌ في المجرَّكانِ أبو نواسٍ بأحدِها عنه ، ومع أن أبانوَاسَ مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاكُ مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تماصرا لأن مولدهما مقاربٌ لأن ابنَ الضحاكِ همكثيراً . وهو أزلُّ من نادمِ الأُميينِ وله فيه مدائحٌ كثيرةٌ ، وعمره ما طويلاً حتى قاربَ مائةَ سنةٍ وماتَ في حِلَّةِ المسلمينِ أرامَ المصيرِ . ويحمدُ أخباره في الأغانِي (ج ٦ ص ١٧٠) وابنِ حُلَكان (ح ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوثِ صديقِ الدكتورِ طه حسينِ أستاذِ الآدابِ العربيةِ بالجامعةِ المصريةِ .

لم يتغير. كان حليماً، بل كان يُعرف بالخليع، وكان كثير المحبون مُسْرِفاً فيه، وما أحسب أن
أما بواس سقه إلى لذة أو برز عليه في مأثم، ولعكسه على حلاسته وإسرافه في المحبون
وتهاككه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق وطهارة المنصر ووجوده
الأصل، كما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأحلامه انزلاقاً دون أن تترك
فيها أثراً باقياً، وإنما كانت الآثار التي تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه
الأشعار الجلية الحلوة التي سأطهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كبيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون إلى الخلفاء بعد الجهد
والكد، وسد التلطف وحسن الحيلة، وإنما كان متصلاً بالخلفاء اتصالاً شديداً، يشارهم
و يرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل إلى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء
يبحثون عنه، ويخبرون على عشرته ويدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان
شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

ه ترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب طريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر
حلو المذهب، لشعره قبول ورويق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في التمر فيغير
عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه إلى أبي نواس، وله معان في صفتها
أربع فيها، وهما: مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين
الذين تخلوا أشعارهم ومذاهبهم بجملة من التكلف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قتلها في المحروهي :

بُدِّلَتْ مِنْ تَحَاتِّ الْوَرْدِ بِالْأَلَاءِ * وَمِنْ صَبُوحِ دُرِّ الْإِنْبِيلِ وَالشَّاءِ^(١)

فلما انتهيت منها إلى قولي

حتى إذا أَسِيدَتْ فِي الْبَيْتِ وَأَحْتَصِرْتُ . عِنْدَ الصَّبُوحِ بِسَائِمِينَ أَكْثَفَاءَ

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي تَمَّتْ وَاصْفَهَا * عَنِ مِثْلِ رَقْرَاقَةٍ فِي جَفْنِ مَرْهَاءَ^(٢)

فصمقي صمقة أفزعتني وقال : أحسنت والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن ، إنك أفزعتني والله ، فقال : بلى والله أنت أفزعتني ورُعتني ، هذا معي من المعاني التي كان فكري لابد أن ينتهي إليها أو أخوص عليها وأقولها ، مسبقةً في إليه واحتلته متى ، وستعلم لمن يروى إلى أم لك ؟ فكان والله كما قال ، سمعت من لا يعلم برويا له :

لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يُستسى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه ، فذكر له جماعة فيهم الحسين بن الصّحاك ، وكان من جلساء عمه المغلوع ، فلما رأى اسمه قال : أليس هو الذي يقول في عمه :

هلا بقيت لَسَدَ فاقنا * أبدا وكـا لغيرك التَّلَفُ

فلقد خَلَقْتَ خلائفا سَلَفُوا * ولسوف يُعَوِّزُ بعدك الخَلَفُ

لا حاجة لي فيه ، والله ولا يراني أبدا إلا في الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان من تهاونه له وتعريضه به ، وأحمد حسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان لحسين بن الصّحاك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحب أن أسمع مني بيتين ، فقال : أنشدتهما ، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكراً إذ حَبَّانا * بنصرك يا أمير المؤمنين

فأنت خليفة الرحمن حقاً * جمعت سماحة وجمعت ديناً

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعمرك يا أمير المؤمنين حسين بن الصّحاك ، قال : قد أحسن ، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا ، فقال : وما هو ؟ فأنشدته قوله :

أجرني فإنني قد عَلِمْتُ إلى الوعد * متى تُخَيِّرُ الوعدَ المؤكد بالعهْدِ

أعيذك من خَلَفِ الملوك وقد بدا * تَقَطُّعِ أنفاسِ عليك من الوجودِ

أيخجل فرَّد الحسن عني بائِل * قليل وقد أفردته بهوى فرْدِ

رأى الله عبداً لله خيرَ عباده * فَلَمَّكَه والله أعلم بالعبدِ

ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميزة بين الضلالة والرشدِ

فاطرق ساعة ثم قال : ما تطيب نفسي له بخير بعد ما قال في أمي محمد ما قال .

ومن قوله يرثي محمدا الأمين :

أُطِلَّ حَرْنَا وَأَيْكَ الْإِمَامَ مُحَمَّدًا * بِحُزْنٍ وَإِنْ خِفَتْ الْحَسَامُ الْمَهْدَا
فَلَا تَمَيَّتِ الْأَشْيَاءُ سِوَا مُحَمَّدٍ * وَلَا زَالَ تَحْمِلُ الْمَلِكُ مِنْهَا مُبْنَدَا
وَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيدَا مُشْرِدَا

ولحسني في محمد الأمين مراثي كثيرة جياد، وكان كثير التحقق به والمؤالة له لكثرة إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وطع من جرعه عليه أنه حُوِّلَ فكان يُنكر قتله لما بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستر وأنه قد وقف على دُعائه في الأمصار يدعو إلى مراجعة أمره والوفاء ببيعة صفاً به وشعقه عليه .

ومن جيد مراثيه إياه قوله :

سَالُوا أَنْ كَيْفَ مَحْنٌ ؟ فَقُلْنَا * مِنْ هَوَىٰ حُجَّةٍ فَكَيْفَ يَكُونُ ؟
نَحْنُ قَوْمٌ أَصَابَنَا حَدَثُ الدَّهْرِ * مَرَّ فَقُلْنَا لِرَبِّهِ نَسْتَعِينُ
تَقْنَى مِنَ الْأَمِينِ إِيَابَا * لَهْفَ نَفْسِي وَأَيْنَ مِنْهُ الْأَمِينُ

ومن جيد قوله في مراثيه إياه .

أَعَزَّى يَا مُحَمَّدُ عَكَ نَفْسِي * مَعَاذَ اللَّهِ وَالْأَيْدِي الْجَسَامِ
فَهَلَا مَاتَ قَوْمٌ لَمْ يَمُوتُوا * وَدُفِعَ عَكَ لِي يَوْمَ الْجِثَامِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ صَادَفَ مَكَ غُثَا * أَوْ اسْتَشْفَى بِقَرَبِكَ مِنْ سَقَامِ

وقال أيضا برثيه :

يَا حَيْرَ اسْرْتَهُ وَإِنْ زَعَمُوا * إِنِّي عَلَيْكَ لَمُتُّ أَسْفُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي هَكْذَا * حَرَمِي حَلِكِ وَمَقَلَّةٌ تَكْفُ
وَلَيْسَ تَقِيَّتُ بِمَا رُؤِيتُ بِهِ * إِنِّي لِأَشْهُرُ فَوْقَ مَا أَصْفُ
هَلَا قِيَّتَ لَسَةً فَاقْتَنَا * أَبَدَا وَكَانَ لِنَفْسِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَعْتَ خِلَافَا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُمَوِّزُ بَعْدَكَ الْخَلَفُ

- لَامَاتٍ رَهْطُكَ سَدَ هَفَوْتِهِمْ * إِنْ لِرَهْطِكَ سَدْعَا شَيْفٌ ^(١)
 هَتَكُوا بِمَحْرَمَتِكَ الَّتِي هُتِكَتْ * حُرْمُ الرُّسُولِ وَدَوْبِهَا السُّجُفُ
 وَتَمَّتْ أَقَارِيكَ الَّتِي حَدَّاثٌ * وَجَمِيعُهَا بِالذَّلِّ مَعْرِفٌ
 لَمْ يَفْعَلُوا بِالشَّطِّ إِذْ حَصَرُوا * مَا تَفْعَلُ الْفَيْرَانَةُ الْأَنْفُ
 تَرَكُوا حَرِيمَ أَبِيهِمْ فَقَلَا * وَالْمُحْصَنَاتُ صَوَارِحُ هُتُفٌ
 أَدَّتْ مُخْلَقَهَا عَلَى دَهَشٍ * أَكْأَرْهَقُ وَرَتَّ النَّصْفُ
 سُلِّتَ مَعَاجِرُهُنَّ وَأَجْتَلِيَتْ ^(٢) * دَاثُ الْقَابِ وَوُزْعُ الشَّفِ
 فَكَأَنَّهُنَّ جِلَالٌ مُنْتَهَبٌ * دُرٌّ تَكْشِفُ دُونَهُ الصَّدْفُ
 مَلِكٌ مَحْوُوفٌ مُلْكُهُ قَدَرٌ * قَوَاهِي وَصَرُفُ الدَّهْرِ غَنَافِلُ
 هِيَاةٌ بَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَهَا * عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَهَا شَرَفٌ
 لَا هَيْبُوا مُحْصَا مَشْرِفَةٌ * لِلْعَادِرِينَ تَحْتَهَا الْجَدَفُ
 أَقْبَعْدَ عَهْدِ اللَّهِ تَحْتَبِلُهُ * وَالْقَتْلُ سَدَّ أَمَانِيهِ سَرَفٌ
 فَسَتَعْرِفُونَ عِدَا عَاقِبَةٍ * عِزُّ الْإِلَهِ فَأَوْرِدُوا وَقُفُّوا
 يَأْمَنُ يُحَوِّنُ يَوْمَهُ أَرْقٌ * هَدَّتِ الشَّجُونُ وَقَلْبُهُ لَهْفٌ
 قَدْ كَسَتْ لِي أَمْلًا عَيْتٌ بِهِ * مَعْصَى وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْأَسَفُ
 صَرِيحُ النَّظَامِ وَعَادُ مُنْكَرُنَا * عُرْمًا وَأَنْ يَكِرَ بَعْدَكَ الْعُرْفُ
 فَالْشَّمْلُ مَتَشَرِّفٌ لِقَدْرِكَ وَالْ * لَدُنْيَا سُدَى وَالْبَالُ سَكُفُ

وقال أيضا يرثيه :

- إِذَا دُرِكَ الْأَمِينُ بَعَى الْأَمِيَا * وَإِنْ رَقَدَ الْخَلِيْلُ سَمَى الْجُمُوعَا
 وَمَا بَرِحَتْ مَنَازِلُ بَيْنَ بَصَرِي * وَصَكَّالَوَادِي تُهَيِّجُ لِي شَجُونَا
 عِرَاصُ الْمَلِكِ خَاوِيَةٌ تَهَادِي * بِهَا الْأَرْوَاحُ تَنْسُجُهَا فُونَا

(١) معض منكر . (٢) جمع معمر بالمر وهو ثوب تتخذه المرأة أى تشده على رأسها .

تَحْشُونَ عِزَّ مَا كُنْهَا زِمَانٌ * تَلْعَبُ بِالْفُرُوفِ الْأَوَّلِينَ
 فَشَتَّتْ شَمْلَهُمْ بَعْدَ اجْتِمَاعٍ * وَكُنْتُ بِمَحْسَنِ أَلْفَتِهِمْ ضَنْبًا
 فَلَمْ أَرِ بَعْدَهُمْ حُسْنًا سِوَاهُمْ * وَلَمْ تَرَهُمْ عِبُونَ الْبَاطِرِينَ
 هَوَا أَسْفًا وَإِنْ شَتَّتَ الْأَعَادَى * وَآوَى عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَصَلَ الْعُرْفَ بِعَدِكَ مُتَعَوِّهٍ * وَرَفَعَهُ عَنِ مَطَايَا الرَّاغِبِينَ
 وَكُنْ إِلَى جَانِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحَى عَلَى السَّعُودِ وَيَمْتَدِينَا
 هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هَوَتْ الْمَعَالَى * لِهَدَنَةِ وَرِيحِ الصَّالِحِينَ
 سَتَدُبُّ بِعَدِكَ الدُّنْيَا جَوَارًا * وَتَسْدُبُّ بِعَدِكَ الدِّينَ الْمُصَوَّنَا
 فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاةُ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحًا مَهِيًا
 تَعْقِدُ عِزُّهُ مُبْصِلٌ يَكْسِرِي * وَمِلَّتُهُ وَقَدْ لَ الْمَسْلُومَا

وقال أيضا يرثيه :

أَسْفًا عَلَيْكَ سَلَاكَ أَقْرَبُ قُرْبَةٍ * مَنَى وَأَحْرَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدى : حين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أَيُّ دِيَاغِيَةِ حُسَيْنٍ * هَبَجَتْ لَوْعَةً حَزَنِي
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الرَّا * هَرَمَ فِتْرَةً جَفَنِي
 بِأَبَى شَمْسٍ نَهَارٍ * بَرَزْتُ فِي يَوْمٍ دَجَنِي
 قَرَّبَتْنِي بِأَلْسِي حَتَّى * لِي أَنَا مَا أَحْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مَيْمَنِي * دُحُولِي وَتَجَرُّنِي
 مَا أَرَى فِي مَنْ الصَّبِي * رَوْحَ إِلَّا حَسَنَ طَنِي
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْعَدَى * رَلْمَا تَعْرِفَ مَنِي
 أَسْتَعِذُّ أَفْقَهُ مِنْ إِعْرَا * ضَرَّ مِنْ أَعْرَضَ عَنِي

لما ولي المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلم أستاذنه في الإنشاد ،
فأذن له ، فأشده قوله :

هَلَّا سَأَلْتَ تَلِذَّ الْمَشَاوِ * وَمَتَّعَ قَلَّ فِرَاقَهُ بَشَلَانِ
إِنْ الرَّقِيبَ لِيَسْتَرِيبَ سَقْسَا * صُعْدَا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِقْلَاقِ
وَلَيْثُنَ أَرَبْتُ لَقَدْ نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ * عَزَى عَلَيْكَ تَحْيِينَةُ الْآمَاقِ
نَفْسِي الْعِدَاءُ لَخَافِيَفَ مَرَقِيبَ * حَصَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً عِنَاقِ
إِذَا لَا حَوَابَ لِمُقْعَمٍ مَتَحَصَّرَ * إِلَّا الدَّمُوعَ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبْشَرٌ بِخِلَافَةِ * خَصَّتْ بِهِجَتِهَا أَمَا إِحْمَاقِ
وَاتِهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةٍ * مِنْ كُلِّ مُشْكَلَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
أَعْطَتْهُ صَفْقَتَهَا الصَّمَاثُ طَاعَةً * قَبْلَ الْأَكْثَفِ مَا وَكَّدَ الْإِيتَاقِ
سَكَنَ الْأَمَامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامِيَةٍ * عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْدَبَ الْأَحْلَاقِ
خَفِيَ رَحِيَّتُهُ وَدَافِعَ دُونَهَا : وَأَحَارَ تَجَلُّفَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتصم : أدن مني ، فدنا منه ، ففلاحه جوهرًا من جوهر كان بين
يديه ، ثم أمره بأن يخرج من هه ، فأخرجه وأمره بأن يُعْطَمَ ويدفع اليه ويخرج الى الساس
وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فصله ، فكان أحسن ما مُدِحَ به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ يُقَى بِاللَّهِ * هُ تَعَطَّ الصَّبْرُ وَالنُّصْرَةُ
صِكْلُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ * فَلَاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النَّصْرُ بِمَوْنِ اللَّهِ * وَالْعِزَّةُ لَا الْفَزَّةُ
وَالْإِزَاقُ أَعْدَا * ثَكُّ يَوْمِ السُّوءِ وَالذُّبْرَةِ
وَكَأْسُ تَلْفِظِ الْمَوْتِ * كَرِيهُ طَعْمُهَا مُرَّةُ

سَقُونَا وَسَقِينَا * وَلَكِنْ بِهِمِ الْحَرَمُ

كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَا * عَلَيْنَا وَلَنَا مَرَّةٌ

ومن قوله في غضب حِطَّةٍ للوائق من زيارته أخرى في نوتها :

غَضِبْتُ أَنْ زَرْتُ أُخْرَى حِلْسَةً * فَلَهَا التُّسَى لَتَيْنَا وَالرَّمَا

يَا مَذْنِكَ الْفَسْ كَاتِ هَمُوءَ * فَاغْفِرِيهَا وَأَصْفَحِي عَمَّا مَعَى

وَأَتْرَكِي الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَهُ * وَأَنْتُسِي جَوْرِي إِلَى حَكَمِ الْقَضَا

فَلَقَدْ بَيَّهْنِي مِنْ رَقْدَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَيِّرَانُ النِّعَا

كان الواثق يتحطى حارية له ماتت، بخيزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد

إلى حاله ، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلاة في اليوم فليت نومي كان طال قليلا
لأتمتع لطفاتها، فقل في هذا شيطا، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ مَا عَقَلَتْ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَا رَقَدَا

وَأَقَامَ السُّومَ فِي مَذْنِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكَأَ أَبْدَا

بَابِي زَوْرٌ تَلَفْتُ لَهُ * قَتَفْتُ إِلَيْهِ الصُّعْدَا

بَيْنَا أَصْحَكَ مَسْرُورَا بِهِ * إِذْ تَقَطَّعْتُ عَلَيْهِ حَكِيدَا

لما أعيته الحيلة في رما المأمون عه رمى بأمره إلى عمرو بن مسعدة وكتب إليه :

أَنْتَ طَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَدَى الْهِيَاصِ * وَشِبَاهِي مِنْ دُونِ كُلِّ شِهَابِ

أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ ظُلْفُورِي وَنَابِي

أَتُرَانِي أَنْسَى أَيْدِيكَ إِلَيَّ * خُذْ إِذَا أَسْوَدَ نَائِلُ الْإِمْحَابِ

أَيْنَ أَخْلَاقُكَ الرِّصِيَّةَ حَالَتْ * فَأَمْ أَيْنَ رِقَّةُ الْكَتَّابِ؟

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَطْلَمَا * إِنَّ هَذَا لَوَصْمَةٌ فِي السَّحَابِ

فَمَنْ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ غَنَى * قَوْمَةً تَسْتَجِيزُ حُسْنَ الْخَطَابِ

فَلَمَّا لَإِلَهِ يُطْفِئُ مَنَى * بِكَ نَارَا عَلَى ذَاتِ الْإِتْهَابِ

فلم يزل عمرو يطيف للمأمون حتى أوصله إليه وأدّر أَرْزَاقَهُ .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحصاره، فلما حصر سلم، فرد عليه السلام رداً جافياً، ثم أقبل عليه فقال: أحبرك عك، هل عرفت يوم قُتل أخى محمد هاشمية قُلت أو هُتكت؟ قال: لا، قال: ها معنى قولك:

وَسِرْبَ ظِلَاءٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ . هَتَمَ بِدَعْوَى جَبْرِحَى وَمَيَّتْ

أَرَدَ يَدَا مَنِ إِذَا مَا دَكَّرْتُهُ * عَلَى كَبَدِ حَرَى وَقَلْبِ مُعْتَتِ

فَلَا بَاتَ لَيْلُ السَّامِتِينَ بَسِيطَةٍ * وَلَا لَفَتْ أَمَانُهُمْ مَا تَمَّتْ

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة عظمى، وروعه فاجأتى، وبسه فقدتها بعد أن عمرتى، وإحسان شكرته فأطعنى، وسيد فقدته فأقلقنى، وإن عاقبت فمحقتك، وإن عطفت فبفصلك، فدمعت عينا المأمون وقال: قد صوّت عك، وأمرت بإدراار رزقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت حقوقك امتناعى من استخدامك.

ومن قوله:

وَكَا لَوْرِدَةِ الْجِرَاءِ حَيَا بِأَحْمَرٍ * مِنَ الْوَرْدِ يَمْشَى وَفَرَاطِقِ كَالْوَرْدِ

لَهُ عَنَاتٌ عَدَا كُلَّ نَحْيَةٍ * سَبِيهِ قَسَدَى الْحَلِيمِ إِلَى الْوَجْدِ

تَمَيَّتْ أَنْ أَسْقَى بِكَفِّهِ شَرِبَةً * كَرَّزْنَى مَا قَدْ نَسِيَتْ مِنَ الْمَهْدِ

سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَرَتْ فِيهِ لَيْلَةً * حَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ جَبِيٍّ عَلَى وَعْدِ

ومن قوله:

وَإِذَا بَى مُنْعَمٍ لَعَزَمَ * قُلْتُ لَهُ إِذَا خَلَوْتُ مَكْتَمًا

تُحِبُّ بِاللَّهِ مِنْ يَحْصُكُ بِالِ * وَهَذَا قَالَ لَا وَلَا مَعَا

ثُمَّ تَوَلَّى بِمُقَلَّتَى خَيْجَلٍ * أَرَادَ رَجْعَ الْجَوَابِ فَاحْتَشَا

فَكَتَّ كَأَلْبَتْنَى بِحِلْسِهِ * بَرًّا مِنَ الشُّقْمِ فَابْتَدَا سَقَمًا

وقال فى هوى له:

عَالِيَمٌ بِحَيْبِهِ * مَطَرِيقٌ مِنَ الْيَةِ

يُوسُفُ الْجَمَالِ وَفِرَ * عَوْنٌ فِي تَعَدِيهِ

لا وحقاً ما أنا فيه * من عطف أَرْجِيهِ
 ما الحياةُ نافعة * لي على تأييده
 الميم يَسْأَلُهُ * والجمال يُطِيبُهُ
 فهو غيرُ مكثرت * للذي أُلَاقِيهِ
 تَأْيِيهِ تُزَهِّدُهُ * فِي رِجَتِي بِهِ

ومن قوله في هوى له :

إن من لا أرى وليس يراني * نُصِبَ عَيْنِي مُثَمِّلُ الْأَمَانِي
 بأبي مَنْ صَبْرُهُ وَصَبْرِي * أَدَا بِالْمَقِيبِ يَتَحَيَّانِ
 نحنُ نَحْصَانُ إِن نَظَرْتُ وَرَوِ * حَانَ إِذَا مَا أَحْبَبْتُ يَمْتَرِحَانِ
 فَاذَا مَا حَمَمْتُ الْأَمْرَ أَوْ هَمَّ * نَشَى بَدَأُكُمْ وَبَدَانِي
 كَانَ وَقَفَا مَا كَانَ مِنْهُ وَمَتَى * فَكَأَنِّي حَكَيْتُهُ وَحَكَانِي
 خَطَرَاتُ الْحَمُونِ مَا سِوَاهُ * وَسِوَاهُ تَحْوِزُكَ الْأَدْبَانِ

ومن قوله :

فَلَدَيْتُ مَنْ قَالَ لِي عَلَى خَمْرِهِ * وَعَصَى مَنْ جَعَلَهُ عَلَى حَوْرِهِ
 سَمِعَ بِأَشْعَارِكَ الْمَلِيحِ هَا * يَتَقَبَّلُ شَادَ بِهَا عَلَى وَتَرِهِ
 حَبْلِكَ بَعْضُ الَّذِي أَدْعَتْ وَلَا * حَسْبُ لَصَبٍّ لَمْ يَقْصُ مِنْ وَطَرِهِ
 وَقُلْتُ يَا مُسْتَعِيرَ سَالِمَةِ الْإِلَ * يَحْتَشِفُ وَحُسْنِ الْعُتُورِ مِنْ نَقَرِهِ
 لَا تَتَكَبَّرْ الْحَبِيبَ مَنْ طَرَبَ * عَاوَدَ فِيكَ الصَّبَا عَلَى كِبَرِهِ

ومن قوله :

سَائِلُ طَلِيْعِكَ عَنْ لَيْلِي وَعَنْ سَهْرِي * وَعَنْ تَسَاعِ أَنْفَاسِي وَعَنْ مَكْرِي
 لَمْ يَتَحَمَّلْ قَلْبِي مِنْ ذِكْرِكَ إِذْ نَظَرْتُ * عَيْنِي إِلَيْكَ عَلَى تَحْوِيٍّ وَلَا سَكْرِي
 سَقِيًا لِيَوْمِ سُرُورِي إِذْ تَسَاوَعَنِي * صَفْوَةُ الْمُدَامَةِ بَيْنَ الْأَسَى وَالْخَفَرِ

وَفَضَّلَ كَسَاكَ يَا بُنَيَّ فَأَشْرَبَهُ * جَهْرًا وَتَشْرَبُ كَأَمْسِي غَيْرُ مُسْتَرِ
وَكَيْفَ أَشْمِلُهُ لَيْلِي وَالزَّمَنُ * نَحْرِي وَتَرْفَعُهُ كَتَى إِلَى بَهْرِي
فَلَيْتَ مُدَّةَ يَوْمِي إِذْ مَضَى سَلَامًا * كَانَتْ وَمُدَّةَ أَيَّامِي عَلَى قَدَرِ
حَتَّى إِذَا مَا أَطْلُوتُ عَمَّا بَنَاشْتُهُ * صِرَا جَمِيعًا كَذَا حَازِرِينَ فِي الْحَقَرِ
وَمِنْ قَوْلِهِ لَمَوَى كَانَ لَهُ :

تَمْزِييَاسٍ عَنْ هَوَايَ فَإِنِّي * إِذَا أَصْرَعْتُ فَضِي مَهِيَّاتٍ عَنْ رَدَى
إِذَا خُنْتُ مَالِيكَ وَدَى هَالِكٍ * يُدَلُّونَ إِذْ لَالِ الْمَقِيمِ عَلَى الْعَهْدِ
وَلِي مَسْكٌ بَدَاجِئِي مَدَمًا * وَإِنْ جِلَّتْ أُنَى لَيْسَ لِي مَسْكٌ مِنْ مَدَمٍ
لَمَّا وَلِيَ الْوَائِقِ انْخِلَافَهُ أَشْدَهُ حَسْبِي :

أَكَلْتُمْ وَجَدِي فَايَكْتُمْ * بَيْنَ لَوْ شَكُوتُ إِلَيْهِ رَحِمُ
وَإِنِّي عَلَى حَسِّ ظَلَمَتِي بِهِ * لِأَحْدَرِ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَحْتَشِمَ
وَلِي عَهْدُ لِحَطَّتِهِ رَوْحُهُ * تَحْقِيقُ مَا طَلَبَهُ الْمُتَّهِمُ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ لِي * حُبًّا وَأَحِبَّهُ قَدْ عَلِمَ
وَإِنِّي لَمُفِصٌّ عَلَى لَوْعَةٍ * مِنْ الشَّوْقِ فِي كَدَى تَضْطَرُّمِ
عَشِيَّةً وَقَعْتُ عَنْ مَقْلَةٍ * مَفْجُوحٍ وَزَفَرَةٍ قَلْبِ سِدَمِ
فَمَا كَانَ عَدُوِّي مُسْعِدًا * سِوَى الْعَيْنِ تَمْزِجُ دَمْعًا بِدَمِ
سَيِّدِكَ مِنْ بَابِ أَوْطَانِهِ * وَيَكُنِي الْمَقِيمِينَ مِنْ لَمْ يُقِمِ

كُتِبَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ رَحَاءٍ فِي يَوْمِ شَكٍّ، وَقَدْ أَمَرَ الْوَائِقِي بِالْإِطَارِ، فَقَالَ
هَرَزْتُكَ لِلصَّبُوحِ وَقَدْ نَهَانِي * أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الصَّيَامِ
وَعَدَنِي مِنْ قِيَانِ الْمَصْرَعَتِ * تَطْلِيْبُهُ بَهْرَتِ عَائِقَةِ الْمَدَامِ
وَمِنْ أَمْثَالِهِ إِذَا أَمْتَشَيْتُنَا * تَرَا بَعْدَ تَمَرِ الْعَرَامِ
فَكُنْ أَنْتَ الْجَوَابُ طَيْسَ شَيْءٍ * أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَنْفِ الْكَلَامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخَرُ ووجهه إليه سلام نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غِلمة أقران حسان الوجه . ومهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ يَا أَشْ * كَلَّ مِنْ عَصِي الْجَيْنِ
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنَى الرُّو * مَ إِلَى دَارِ حَمِيرِ
أَتَحْصِ الكَهْلَ إِلَى مَوْ * لَكَ يَا قُرْزَه عَيْنِ
أَرِهَ الصَّفَّ إِذَا آسَمَ * صَى وَطَالِبِهِ بَدَيْنِ
وَدَجَّ اللَّفْظَ وَخَاطَبَ * لَهُ مَغْزِ الْحَاجِبَيْنِ
وَاحْذَرِ الرَّجْمَةَ مِنْ وَجْ * هَكَ فِي خُفَى حَتَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن اعرض عنه :

تَيْبَهُ عَلِيًّا أَنْ رُزِقَتْ مَلَاخَةٌ * مَهْلًا عَلِيًّا مَعْصَ تَيْبِكَ يَا بُرْ
لَقَدْ طَالَ مَا تَكَا مِلَاحًا وَرَمَا * صَدَدْنَا وَتَهَا فَمَ غَيْرَا الدَّهْرُ

وله في هوى مُجِيب عنه :

فَلَنْ مِنْ لَا كَانَ ظُ * بِا بِحَبِيبِي لَحَمَاءَ
أَرْصَدَ الْبَابَ رَقِيدَ * نَ لَهُ فَاصْتَنَاءَ
فَإِذَا مَا أَشْتَقُّ قَرِيبَ * وَلِقَائِي مَنَاءَ
جَمَلُ اللَّهِ رَقِيدَ * هَ مِنْ السُّوءِ فِدَاءَ
وَالَّذِي أَتَرَحُّ فِي الشَّ * دَنِي قَلْبِي وَلَوَاءَ
كُلُّ مُشْتَقٍّ إِلَيْهِ * فَمِنْ السُّوءِ فِدَاءَ
بِسَيِّئَةٍ مِنْ حَالَتِ الْإِخْ * رَاسَ مِنْ دُونِ مُنَاءَ

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه ، فلم يطلق ذلك لكبر سنه ، فقال للتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكرفيا ويسجز عن خدمتك ، فبلغه ذلك ، فدفع الى أحد بن خدونه أبياتا قالها وسأله لإصالحها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهى :

أما فى ثمانين * وثمانيها * عدير وإن أألم اعتذر
فكيف وقد جزئها صاعدا * مع الصاعدين يتسع أثر
وقد رفع الله أعلامه * عن آبن ثمانين دون البشر
سوى من أصرت على نسة * وألحد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أمراء الإله * له فى الأرض نصب صروف القدر
فإن يقص لى عملا صالحا * أثاب وإن يقص شرا غفر
فلا تلج فى كبر هذى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * فمن ذا يلوم إذا ما عذر
وإنى لنى كنف مبدق * وميز بنصر أبى المتصر
يأرى الرياح بفضل السما * ج حتى تبد أو تحير
له أكتد الوحي مبرأته * ومن ذا يخالف وحى السور
وما للسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا الجهر

فلما أوصلها شيمها بكلام يعدره وقال : لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ، فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ - محمد بن عبد الملك الزيات^(١)

كان محمد شاعراً مجيداً لا يُقاس به أحد من الكتاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقَلِّ وصاحب قصار ومقطعات . وكان محمد شاعراً يُطيل فيجيد ، ويأني بالقصار فيجيد ، وكان ليلياً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة أشترط ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفاً بجائل ، فأجيب إلى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خور في الطبيعة ، وصعف في المنة ، ما رحمت شيئاً قط ، فكانوا يطعمون عليه في دية بهذا القول ، فلما وُصع في الثقل والحديد قال : أرحموني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئاً قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لما ماتت أم ابنه عمرو ثاها بقصيدة منها :
يقول لي الحِلَّان لو زُرْتُ قَبْرَهَا * فقلتُ وهل عبر العوَاد لها قَبْرُ
على حب لم أحدث فأجهل قهرها ، ولم أُلح السِّن التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أنحب الشيءَ ترحوه فتُحرِّقه * قد كنتُ أحسب أني قد ملأت بدي
مالي إذا عيبتُ لم أذكر بصلحه ، وإن صرَّحتُ فطال السَّقمُ لم أعد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أمان بن حمزة واشتهر باسم الزيات لأن حده (أمان) كان يحلق الزيت من مواضعه إلى سداد ، وكان أديباً شاعراً عالماً بالحوالقة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان في أوّل أمره من حملة الكتاب ثم صار وزيراً للنعمان ولأبيه الراجي . ولما تولى الحوكل قص عليه وأمر بإدخاله في تور من حديد كان من الزيات أفعه لتطيط المصادر بن وأوامر المودين المطالبين بالاموال وقيد بحملة عشرة وطلا من حديد ، ثم أمر بالتمارح مع أن مكث فيه أربعين يوماً ، فوجدوه ميتاً وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ومحمد ترجمه في الأمان (ح ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ح ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم يحب لمكتب حزين * خدين صباية وحليف صبر
يقول اذا سألت به بخير * وكيف يكون مهجور بخير

وكان لمحمد رثون أشبه لم رثله قراة وحسنا، صعى به محمد بن خالد الى المعتصم
ووصف له فرائته، فمات اليه المعتصم فأحده مه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :
كيف المرء وقد صعى اسيله * عا فودعا الأحم الأشهب
دب الوشاة فأسدوك ورعا * تعد القى وهو الأحب الأقرب
لله يوم مات عفى طايها * وسليت قرك أى علق أسل
نفس مرققة أقام فريقها * ومعى ليطيته فريق ينجت
فالآن اذ كملت أدائك كلها * ودعا العيون اليك لون منيع
وأخير من سمر الحدائد خيرها * لك خالصا ومن الحللى الأمر
وعدت طنان اللام ككأنما * فى كل عضو مك صنج يضرب
وكان سرحك إذ علاك عمامة * وكأنما تحت العمامة كوك
ورأى على بك الصديق حلالة * وعدا العدو وصدره يتلته
أنساك لا زالت اذا ميتة * عصى ولا زالت يمينى تك
أصمرت مك اليأس حين رأيتنى * وقوى حالى من قواك تقص
ورفعت حين رحبتك بحسره * لله ما فعل الأحم الأشهب

ولما وث إبراهيم بن المهدي على الخلافة أقرض من مياسير التتار مالا، فأخذ من
عبد الملك أى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أرتقا اذا جاءنى مال، ولم يتم أمره
فاستحى ثم طهر ورضى عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسامين
وأردت قضاها من قيمهم، والأمر الآن الى عيرى، فعزل محمد بن عبد الملك قصيدة
خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطنى

المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه المصيبة الى المأمون، تخاف أن يقرأها المأمون
 فيندبر ما قاله ، فيوقع به ، فقال له : حدى مى بعض المال ونحم على مصه ، ففعل ؛
 والقصيدة قوله :

الم ترأت الشيء للشيء صلة * تكون له كالدار تُفتح بالزند
 كذلك جربت الأمور وإنما * يدلك ما قد كان قبل على البعد
 وطلى إبراهيم أت مكانه * سيئت يوما بمنزل أيامه الشكر
 رأت حسبا حين صار محمدا * خير أمان في يديه ولا عقد
 فلو كان أمسى السيف فيه نصرة * قصيره بالقاع مُعِفِرَ الخد
 إذا لم تكن الخند فيه بقية * فقد كان ما بلغت من خبر الجدي
 ثم قتلوه بعد أب قتلوا له * ثلاثين ألفا من كهول ومن مُرد
 وما بصروه عن يد سلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حقد
 ولعكه النذر الصراح وشفقة الـ * حلوم وعد الرأي عن سنن القصيد
 فذلك يوم كان للناس عبرة * سبق بقاه الوحي في الحجر الصلبد
 وما يوم لإبراهيم إن طال عمره * ما بعد في المكروه من يومه عدى
 مدكر أمير المؤمنين مقامه * وأمانه في الهزل مه وفي الحد
 أما والذي أميت عدا حليقة * له شر إيمان الخليفة والعبد
 إذا هن أحواد المابر ماسته * تنفى يلى أو يمة أو هيد
 فواقه ما من توبة زعت به * اليك ولا ميل اليك ولا ود
 ولكن إحلاص الضمير مقررب * الى الله زلنى لا تيهد ولا تُكدي
 أذاك بها كرها اليك بأنفه * على رعه وأستار الله بالحميد
 فلا تتركى للناس موضع شبهة * فانك مجزى بحسب الذى تُسدى
 فقد غلطوا للناس في نصب مثله * ومن ليس للنصور ابن ولا المهدي

فكيف بمن قد باع الناس وألقت - بيعته الرُكبان عَوْرًا الى تَحْدِ
ومن سَكَتَ تسلُّمُ الخلافة سمعه - يُأْدَى به بين الشَّاطِلين من تُعْدِ
وإلى امرئٍ تَمَّى بها قَطْعَهُ * هَارِقَهَا حَتَّى يُغَيِّبَ فِي المَحْدِ
وَزَعَمَ هَدَى النُّهَيْتَةِ أَنَّهُ * إِمَامٌ لَهَا فَمَا تُبَيِّرُ وَمَا تُهْدِي
يَقُولُونَ مَتَى وَأَبَى سُنَّةَ * تَمَّ بَصْعَلِ الرَّأْسِ حَوْنُ القَفَا حَمْدِ
وقد حملوا رُحْصَ الطعام مَهْدَهُ ٢ رَحِمَا لَهُ الْيَمِينُ وَالْكُوكُ السَّعْدِ
إذا مَا رَأَوْا يَوْمًا عِلَاءَ رَأَتْهُمْ * يَحْمُونَ نَحْمَانَا إِلَى ذَلِكَ المَهْدِ
وإِقَالَهُ فِي العِيدِ يُوحِفُ حَوْلَهُ * وَحَيْفَ الْحِيَادِ وَاصْطِكَكَ الْقَبَا بِالْجُرْدِ
وَرَحَالَهُ يَمْشُونَ بِالْبَيْصِ قَنَلَهُ * وَقَدْ تَبَعُوهُ بِالْقَصِيبِ وَبِالْبُرْدِ
إِنْ قُلْتَ قَدْ رَامَ الخِلَافَةَ قَنَلَهُ * فَلَمْ يُؤْتَ فِيمَا كَانَ حَاحِلٌ مِنْ جَدِّ
فَلَمْ أَجْرِهِ إِذْ خَيَّبَ اللهُ سَمْعَهُ * عَلَى خَطَا إِذْ كَانَ مَهْ عَلَى عَمْدِ
وَلَمْ أَرِضْ بَعْدَ الْعَوِّ حَتَّى رَضْتُهُ * وَلَقَدْ أَوَّلَى النَّفْسَ وَالزَّمْدِ
فَلَيْسَ سِوَاءَ حَارِجِي رَحَى بِهِ * إِلَيْكَ سَقَاءَ الرَّأْيِ وَالرَّأْيِ قَدْ يُرْدَى
تَعَادَتْ لَهُ مِنْ كُلِّ قُورٍ عَصَاةٌ * مَتَى تُورِدُوا لَا يُصْدِرُوهُ عَنِ الْوَرْدِ
وَمَنْ هُوَ فِي بَيْتِ الْخِلَافَةِ تَلْتَقَى ٢ وَكَانَ الْآثَاءُ فِي ذُرْوَةِ المَحْدِ
فَمَوْلَاكَ مَوْلَاؤُهُ وَحُنْدُكَ حُنْدُهُ * وَهَلْ يَجْمَعُ الْقَبِيحُ الْحُسَامِينَ فِي عَمْدِ
وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ أَهْلُ بَيْتِكَ أَمَى * رَأَيْتُ لَمْ وَحْدًا بِهِ أَيْمًا وَجَدِ
يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ مِنْ أَبِي مُلَيْتِهِ ٢ صَوِيرٌ عَلَى الْأَوَاءِ دَى مِرَّةٍ حَلْدِ
قَدَامَا وَهَاتَ بَعْضُهُ دُونَ مُلْكَا * عَلَيْهِ لَدَى الْحَالِ الَّتِي قَلَّ مَنْ يَقْدَى
عَلَى حَبِيبٍ أَعْطَى النَّاسُ صَفْقَ أَكْفِهِمْ * عَلَى سِ مَوْسَى بِالْإِلَافَةِ وَالْمَهْدِ
هَذَا كَانَ فِيمَا مِنْ أَمَى الصِّمِّ عَيْرُهُ * كَرِيمٌ كَمَى مَا فِي الْقَوْلِ وَفِي الرَّدِّ
وَجَرَدَ إِبْرَاهِيمَ لَوْتَ فَسَهُ * وَأَبْدَى سِلَاحًا فَوْقَ ذَى مَيْعَةٍ نَهْدِ

وأول ومن يبلغ من الأمر جهده طيس بدموم وإن كان لم يُعَدِ
فهدي أمور قد يحاف ذوو الهوى * مقبها والله يهديك للرشد
وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاح وكتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشاس
وكتبه أحمد بن الخصب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
لعض أهل السكرك ، وهي :

يا بن الخلائف والأملك إن نسوا * حرّت الخلافة عن آباءك الأول
أجرت أم رقدت عيناك عن عجب * فيه البرية من خوف ومن وهل
وليت أربعة أمر العاد معا * وكلهم حاطب في جبل محتل
هذا سليمان قد ملكت راحته * مشارق الأرض من سهل ومن جبل
ملكته السد فالشحرين من عدد * الى الجزيرة فالأطراف من ملل
حلافة قد حواها وحده فصت * أحكامه في دماء القوم والعسل
وابن الخصب الذي ملكت راحته * حلافة الشام والعازير والتفصل
فيل مصر فبحر الشام قد جريا * بما أراد من الأموال والحلل
كانهم في الدى قسمت بينهم * بؤ الرشيد زمان القسم للثول
حوى سليمان ما كان الأمين حوى * من الخلافة والتبليغ للأمل
وأحمد بن خصب في إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجامع السبل
أصحت لا ناصح يأتيك مستترا * ولا عناية حوفا من الحيل
سل بيت مالك أين المال تعرفه * وسل تحراك عن أموالك الجمل
كم في حبوسك من لادنوب لهم * أسرى الكذب في الأقياد والكجل
سميت باسم الرشيد المرتضى فيه * تُسمى الأمور التي تُخفى من الزلل
عنه فيهم مثل ما عانت يدها معا * على البرامك بالتهديم للقلل

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غافله ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصب ،
وأخذ منهما ومن أسبايها ألف دينار فجعلها في بيت المال .

٦ - ابْنُ الْبَوَّابِ^(١)

لما أتى المأمون بشعر ابن البواب الذي يقول فيه :

أَيُّخْلُ قَرْدُ الْحَسِيِّ قَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بِهِوَى قَرْدِ
رَأَى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَمَّكَه وَأَنَّه أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ * ثَمِيرَةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القاتل :

أَعْنَيْ جُودًا وَأَيْكَا لِي مُحَمَّدًا * وَلَا تَذَنَّرَا دَمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فِرْحَ الْمَأْمُونُ بِالْمُلْكِ مَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرًّا مُطَوَّرَدَا

واحدة بواحدة ، ولم يوصله بشيء . ولما يحيط عليه قال قسيمة يمدحه بها ، ودرس مَنْ
عَدَاهُ فِي مَعْصَاهَا لِمَا وَحَدَّثَهُ نَشَاطًا ، فَسَأَلَ : مَنْ قَاتَلُهَا ، فَأُجِبَ بِهِ ، فَرَضَى عَنْهُ وَرَدَّهُ إِلَى رِسْمِهِ
مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مُبِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوٍ أَلَا * حَزِينٌ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا طَاعِمًا عَابَ مَا * عَدَاهُ مَاتَ الْقَطِيعُ
أَبْكَى الْمَيُوتَ وَكَانَتْ * لَهُ تَقَرَّرَ الْعَيُونُ
يَاهَا الْمَأْمُونُ أَلَا * حَمَارُكُ الْمَيُوتِ
لَقَدْ صَقَّتْ بِكَ دُنْيَا * لِلْسَّالِمِينَ وَدِينِ
عَلَيْكَ بَوْرٌ جَلَالٌ * وَنُورٌ مُلْكٌ مُبِينِ

(١) هو عبد الله بن عباس بن أهل بخارى ، رضى عنه جماعة معه رغبة إلى الخراج بن يوسف ، هربوا
عنده بواسط ، فأقطعهم سكة بها ، فاحتطوها ورووها طول أيام سى أمية ، ثم انقطعوا من الدولة العباسية إلى الربيع
لخدمته ، وكان عبد الله بن محمد هذا يحلف المصلين بن الربيع على حجة الخلفاء ، وكان صالح الشرقيته وراوية لأخبار
الخلفاء طاب أمومهم .

القولُ منك فعَال * والظنُّ منك يَقيِن
 ما من يديكَ شِمَال * صكنا يديكَ يَعمِين
 كأنما أنت في الجَو * د والتقى هَارُونَ
 مَنْ نال من كلِّ مُضِل * ما نالَه المأمون
 تألَّف السَّاسُ منه * فصلُّ وجودِ ولِي
 كالدرِّ يدو عليه * سَكِيهٌ وسُكُون
 فالرزق من راحتيه * مقسَّم مضمون
 وكلَّ خَصْلَةٍ مُضِل * كانت منه تَكُون

ومما يعنى فيه قوله :

أَفَقِيَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْمَعْدَبُ كَمْ تَصْبُو ؟ * فلا النَّأْيُ عَن سَلَامِكَ يُسَلِّ ولا الْقُرْبُ
 أَقُولُ عِدَّةَ أَسْتَضْبِثُ مِمَّ عَلَيَّ ؟ * من الْحُبِّ كَرْبٌ لَيْسَ يُشْبِهُه كَرَب
 إِذَا أَهْرَيْتُكَ الصَّبْرَ مِنْ بَعْدِ قَايَةٍ * فادْخَاثُ شَكَايِكَ أَثَقَّكَ الْقَلْبُ
 وَلَوْ أَنَّ رَكْبًا يَمْسُوكَ لَقَادِمٌ * نَسِيمُكَ حَتَّى يَسْتَدْلِكَ الرِّكْبُ

أملق ابن الواب حين حَفَاهُ الخليفة وَطَّتْ رِسَةً عَنِ الخُدْمَةِ، فَرَحَلَ إِلَى أَبِي دُلْفَ
 القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها إلى بغداد، فما
 نعدت حتى مات، وهي قوله :

طَرَقَتْكَ صَائِمَةُ الْقُلُوبِ رَاثُ * وَنَأَتْ فُلَيْسُ لَهَا إِلَيْكَ مَابُ
 وَتَصَرَّمَتْ مِنْهَا الْمُهَوِّدُ وَغُلِقَتْ * مِنْ دُونِ نَيْلِ طِلَابِهَا الْأَبْوَابُ
 فَلَا ضَيْدَ عَنِ الْمَوِيِّ وَطِلَابِهِ * فَالْحَبُّ فِيهِ بَلَّةٌ وَعَذَابُ
 وَأَخْصُ بِالْمَدْحِ الْمُهَذَّبِ سَيْدَا * نَقَّائِهِ لِلْجَدِيدِ رِغَابُ
 وَإِلَى أَبِي دُلْفٍ رَحَلْتُ مَطْلِقِي * قَدْ شَفَّهَا الْإِرْقَالُ وَالْإِحْمَابُ

تملو بنا قُلَّالَ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهوية وشعاب
 فاذا حلت لدى الأمير بأرضه * نلتُ المنى وتحققت الآراءُ
 مَلِكٌ تأمل عن أبيه وجده * بجَدًّا يقصُّ دونه الطُّلابُ
 وإذا وزَّنت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعْتُ لفضل قديمه الأحسابُ
 قومَ ملؤا أملاكَ هكَلِ قبيلة * فالتأُسُّ كلهم له أذنانُ
 صرَّبت عليه المكرماتُ قباها * فعلا العمودُ وطالت الأطبابُ
 عقيم النساءُ بمنله وتعطلت * من أن تُضمَّنَ مثله الأصلابُ

٧ - انْخِرَيْجِي^(١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحٌ جيّادٌ، ثم رثاه بعد موته، فقليل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود؛ فقال : كُنّا يومئذ نعمل على الرضاء، ونحس اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد . وهو القائل في عينيّه :

أُصِيبَ إِلَى قَائِدِي لِيُجَبِّنِي * إِذَا أَلْقَيْتَا عَنِّي بُحْبِينِي
أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ السَّلَامَ وَأَنْ * أَفْضَلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالْذُّونِ
أَسْمِعْ مَا لَا أَرَى فَأَعْرِضْهُ أَنْ * أَحْطَى وَالسَّمْعُ عِندَ مَأْمُونِ
لَهُ عَيْنِي الَّتِي يَجْعَتُ بِهَا * لَوْ أَنَّ دَهْرًا بِهَا يُوَانِسُنِي
لَوْ كُنْتُ حُرَيْتُ مَا أَحْدَثْتُ بِهَا * تَسْمِيرَ تَوْحٍ فِي مُلْكِ قَارُونِ
حَقٌّ أَخْلَاثِي أَنْ يَسْوُدُونِي * وَأَنْ يَمَزَّوَانِي وَيَكُونِي

وهو القائل :

إِذَا مَا مَاتَ بَعْضُكَ فَابْكِ بَعْضًا * فَإِنَّ الْعَيْنَ عَنْ بَعْضٍ قَرِيبُ
يُنْقِضِي الطَّيِّبُ شِفَاءَ عَيْنِي * وَهَلْ عِندَ الْإِلَهِ لَهَا طَلِيبُ

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من الصم، وهو القائل :

لَا أَمْرُ مِنْ مَرَاةِ الصَّمِّ أَلْسِي * مَرَقَ الْأَطَاخِ حِذَا طَلِيبِ الْحَرِّ

وكان مولد أبي حريم الذي يقال لأبيه - حريم الناعم - وهو حريم بن عمرو بن حمزة بن عوف بن سعد بن ديان .
وعنى أبو يعقوب الحريمي بعد ما أسن، وكان يقول في ذلك شعرا، منه قوله :

هَلْ تَكُ عَيْنِي حَيًّا بَوْرَهَا * فَكَيْفَ قُلُوبُهَا بَوْرَ عَيْنِهَا
هَلْ يَسْمَعُ قَلْبِي وَلَوْ كُنَّا * أَرَى بَوْرَ عَيْنِي إِلَيْهِ سَرَى
فَأَسْرَجَ بِهِ إِلَى بَوْرِهِ * مَرَاجَا مِنَ الْعِلْمِ شَيْءَ الْعَمَى

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يَلْمِ الزمانُ بِنفسٍ * مداد وتَعَثَّرَ بها عوائِرها
إد هي مثلُ العروسِ بِأَيْدِهَا * مُهَوِّلٌ للفقى وحاصِرها
جَنَّةُ دُنْيَا ودارُ مَقْبَلَةٍ * قَلَّ مِنَ النَّائِبَاتِ وَائِرها
دَرَزَتْ حُلُوفُ الدُّنْيَا لساكنِها * وَقَلَّ مَعسُورُها وَعَاصِرها
وَأَصْرَجَتْ بالنَّعِيمِ وَأَتَجَبَّتْ * فِيهَا بِلْدَاتُهَا حَوَاصِرها
فَالْقَوْمُ مِنْهَا فِي رَوْصَةٍ أَثِقَ * أَشْرَقَ عِيبُ الْفِطَارِ زَاهِرُها
مِنْ عَرَّهِ الْعَيْشِ فِي طُلُوعِهَا * لَوْ أَنَّ دُنْيَا يَوْمَ عَاصِرها
دَارُ مَلُوكٍ رَسَتْ قَوَاعِدُها * فِيهَا وَقَرَّتْ بِهَا مَاصِرها
أَهْلُ الْمَلَا وَالْقَرَى وَأَنْدِيَةِ الْ * فُجَرَا إِذَا عُتِدَتْ مَعَانِرها
أَرَاخُ مُسَمًى فِي إِرْثِ مَمْلَكَةٍ * شَدَّ عُرَاها لَهَا أَكْبَرُها
فَلَمْ يَزَلْ وَالزَّمَانُ دَوَّ عِيرَ * يَدَّحَ فِي مَلِكِهَا أَصَاغِرُها
حَتَّى نَسِيتُ كَأَسَا مُثْمَلِهِ * مِنْ هِنَةِ لَا يُقَالُ مَآثِرُها
وَأَفْرَقَتْ مَعْدُ أَلْفَةٍ شَيْعًا * مَقْطُوعَةً بِدَنَها أَوَاصِرُها
يَا هَلْ رَأَيْتَ الْأَمْلَاكَ مَا صَنَعَتْ * إِذْ لَمْ يَزَعْها مَالُصَحْ زَاغِرُها
أُورِدَ أَمْلَاكًا مَوْسِمُ * هُوَّةٍ عَنَى أَهْبَتِ مَصَادِرُها
مَا صَبَرُها لَوْ وَقَّتْ بِمَوْتِهَا * وَأَسْحَكَتْ فِي الثَّقَى صَاغِرُها
وَلَمْ تُسَافِكْ دَعَاءَ شَيْعَتِهَا * وَتَتَعَلَّلُ فِتْنَةً تُكَارِها
وَأَقَمَتْهَا الدُّنْيَا الَّتِي بُجِيعَتْ * لَهَا وَرَعْبُ الْعَمُوسِ صَاغِرُها
مَازَالَ حَوْضُ الْأَمْلَاكِ [...] * مَسْجُورُها مَالِهُوِي وَسَلِجِرُها
تُنْقِي فُصُولَ الدُّنْيَا مُكَاثَرَةً * حَتَّى أَجِيعَتْ كَرَّها دَاحِرُها

تيسع ما جمع الأثوة لا * أبناء لا أوتحت متاجرها
 يا هل رأيت الجباب راهرة * يروق عين الصير زاهرها
 وهل رأيت القصور شارعه * تُصكّن مثل الدمي مقاصرها
 وهل رأيت القرى التي عرس الـ * أملاك مخضرة دساکرها
 محسوفة بالكروم والسحل والـ ^(١) * ترينحان قد ديمت محاجرها
 فإنها أصبحت حلايا من الـ * بإسنان قد ديمت محاجرها
 قفرا حلاء تعوى الكلاؤها * يُسكر منها الرسوم دائرها
 وأصبح السؤس ما يفارقها * إلقاها والسرو زاهرها
 بزند ورد والياسربة والـ * شطين حيث آتت معابرها
 والرحى والخير راية الـ * حليا التي أشرفت قاطرها
 وقصر عبديه عبرة وهدي * لكل نفس زكت سرائرها
 فأين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وحابرها
 وأين خصياتها وحشوتها * وأين سكانها وعامرها
 أين الحرادية الصقال والـ * أحشش تعدو هذا مشافرها
 ينصدع الجسد عن مواكبها * تعدوها متربا ضوامرها
 بالسد والهد والصقال والـ * حوبة شيت بها برابرها
 طيرا أباييل أرسلت عبثا * يندم سودانها أحامرها
 أين الظباء الأنكار في روصة الـ * حلك نهاديها عرائرها
 أين عصاراتها ولدتها * وأين مجبورها وحابرها
 بالمسك والعبر الجماني والـ * يلجج مشبوبة مجامرها
 يرقلن في انقز والجاسد والـ * حوشى غطومة منامرها

(١) كذا في الطري في حوادث سنة ١٩٧ هـ ، طبع بلاق وطبع أوردبا .

فَايَن رَقاصها وزامرها * يُجِبْنَ حيث آتته حلاجها
 تكاد اسماعُهم تُسَلَّ اذا * عارض عيدانها مَزارها
 أمت بكفوف الحمار حالية * يسعها بالجحيم ساعرها
 قائما أصبحت بساحتهم * عادَّ ومستهم صرارها
 لا تعلم النفس ما يأتها * من حادث الدهر أو يُياكرها
 تُضحي وتسمى دَرِيَّة غَرَصا * حيث استقوت بها شراثرها
 لأسهم الدهر وهو يرشُّها * تُحِطُّها مرة وباقرها
 يابوس بغداد دار مملكة * دارت على أهلها دوائرها
 أمهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كباثرها
 بالخسيف والقذف والحريق وبال * حرب التي أصبحت تُساورها
 كم قد رأينا من المعاصي بها * كالماهر السوء
 حلت ببغداد وهي آمنة * داهية لم تكن تُخافها
 طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائها
 رق بها الدين واستخف بذى ال * معصل وعز النسك فاجرها
 وخطم العبد أنف سيده * بالزغم واستعبدت بخادرها
 وصار رب الخيران فاسقهم * وأبقر أمر الدروب دايرها
 من ير بغداد والجند بها * قد رَبَّقَتْ حولها عاكرها
 كل طحونٍ شبيه باسلة * تُسَقِطُ أحبالها زمايرها
 تلقى بَنَى الردى أوائسها * يُرهقها للقاء طاهرها
 والشيخ يعدو حَزْمًا كَتَبُهُ * يُحَلِّمُ أعجازها يماورها
 ولزهر بالقول مأسدة * مرقومة مُلَّةً مكاسرها
 كتاب الموت تحت الوية * أبحر منصورها وناصرها

يَعْلَمُ أَنَّ الْأَقْدَارَ وَاقِعَةٌ * وَقَعَا عَلَى مَا أَحَبَّ قَادِرُهَا
خَلَقَ بَعْدَادُ مَا يَتَيْنِ مِنَ الْإِلَ * ذَلَّةً فِي دُورِهَا عَصَافِرُهَا
عَمُوفَةٌ بِالرَّدَى مَطْقَةٌ * بِالصَّفْرِ عَمُوفَةٌ جَبَابِرُهَا
وَيَسَّ شَطَّ الْأُرَاتِ مِنْهُ إِلَى * دِحْلَةٍ حَيْثُ أَتَهَتْ مَعَابِرُهَا
كَهَادِي السُّمَرَاءِ نَافِرُهُ * تَرْكُضُ مِنْ حَوْلِهَا أَشَافِرُهَا
يُحْمَرُّهَا نَا وَذَاكَ يَهْدِيهَا * وَيَسْتَسِي بِالنَّهَابِ شَاطِرُهَا
وَالْعَكْرَجُ أَصَوَاقُهَا مَطْلَةٌ * يَسْتَنْ عِيَارُهَا وَعَايِرُهَا
أُحْرِجَتِ الْحَرْبُ مِنْ مَوَاقِعِهَا * آسَادُ عِيَلِ عُثْبَا تُسَاوِرُهَا
مِنَ الْبَوَارِي تَرَأُّسُهَا وَمِنْ الْإِلَ * حُوصُ إِذَا آسَلَامَتْ مَقَافِرُهَا
تَفْدُو إِلَى الْحَرْبِ فِي جَوَاشِينِهَا * صَوَفَ إِذَا مَا عَنَتِ أَسَاوِرُهَا
كَتَائِبِ الْهِرْشِ نَحْبَ رَابِتِهِ * سَاعَدَ طَلَّازُهَا مَقَاسِرُهَا
لَا الرِّزْقُ تَنَى وَلَا الْمَطَاءُ وَلَا * يُحْمَرُّهَا لِلْقَاءِ حَاشِرُهَا
فِي كُلِّ ذَرْبٍ وَكُلِّ مَاجِيَةٍ * خَطَّارَةٌ يَسْتَهْلُ خَاطِرُهَا
بِمَثَلِ هَامِ الرِّجَالِ مِنْ فِائِقِ الْإِلَ * صَحَرُ يَزُودُ الْمَقْلَاعَ بَازِرُهَا
كَأَنَّهَا هَوَى هَامِهَا عِدَفُ * مِنْ الْقَطَا الْكُفْرَ هَاجَ نَافِرُهَا
وَالْقَوْمُ مِنْ تَحْتِهَا لَمْ زَحَلْ * وَهِيَ تَرَامِي بِهَا خَوَاطِرُهَا
بَلْ هَلْ رَأَيْتَ السِّيَوفَ مُصْطَلَةً * أَشْهَرُهَا فِي الْأَسْوَاقِ شَاهِرُهَا
وَالْحَيْلَ تَسْتَنْ فِي أَرْقَتِهَا * بِالْأُتْرُكِ مَسُونَةُ خُنَابِرُهَا
وَالنَّفْطُ وَالنَّارُ فِي طَرَائِقِهَا * وَهَائِبًا لِلدُّخَانِ عَامِرُهَا
وَالنَّهْبُ تَمْدُوبُهُ الرِّجَالُ وَقَدْ * أَبْدَتْ خَلَائِجُهَا حَرَائِرُهَا
مُصْصَوِّصَاتٍ وَسَطِ الْأَرْزَقَةِ قَدْ * أَبْرَزُهَا لِلْعِيُونِ سَاوِرُهَا
كُلُّ رَقُودٍ تَضْمَعِي تَحْبَاهُ * لَمْ تَبْدُ فِي أَهْلِهَا عَاجِرُهَا

بَيْقَصَة حِذْر مَكُونَة بَرَزَتْ * للناس منشورة غداؤها
 نَعَثُ فِي ثَوْبِهَا وَتُفْجِلُهَا * كَتَبَتْ خَيْلَ زَيْمَتِ حَوَافِرِهَا
 تَسَالُ أَيْنَ الطَّرِيقَ وَالْهَيَّةَ * والبار من حلفها تبادوها
 لَمْ تَجْتَلِ الشَّمْسُ حَسَنَ بَهْجَتِهَا * حتى آجَلَتْهَا حَرْبٌ تُشَاوِرُهَا
 يَاهِلُ رَأَيْتَ الشَّكْلَ مُؤَلَّوْلَةً * في الطُّرُقِ تَسْمَى وَالْجَهْدَ بَاهِرِهَا
 فِي لَأَثَرٍ مَشَى عَلَيْهِ وَاحِدَهَا * في صدره طعنة يُسَاوِرُهَا
 فَرَاءَ تُلْقَى النَّشَارُ مِنْ يَدِهَا ^(١) * يَهْرَهَا بِالسَّانِ شَاوِرِهَا
 تَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ وَتَهْتِفُ مَا * تَشْكُلُ وَيَعِزُّ الدَّمْعُ حَامِرِهَا
 عَرَّعَ مَالِمْسٍ ثُمَّ أَسْلَمَهَا * مَطْلُوعَةً لَا يُخَافُ ثَائِرِهَا
 وَقَدْ رَأَيْتُ الْفِتْيَانَ فِي عَرَصَةِ الـ * حَمْرِكَ مَعْمُورَةً مَانِرِهَا
 كُلُّ مَنَى مَنَاعُ حَقِيقَتِهِ * تَنْسَقُ بِهِ فِي الْوَعَى مَسَامِرِهَا
 بَانَ عَلَيْهِ الْكَلَابُ تَهْنُؤُهُ * مَغْضُوبَةً مِنْ دِيمِ أَطَاوِرِهَا
 أَمَا رَأَيْتَ الْخَيْلَ جَائِلَةً * بِالْقَوْمِ مَكْكُوبَةً دَوَائِرِهَا
 نَعَثَ بِالْأَوْجِ الْحَسَانَ مِنْ الـ * قَتَلَى وَعُلَّتْ دَمًا أَشَاعِرِهَا
 يَطْلُتُ أَكْبَادَ قَتِيَّةٍ تُجْبِدُ * يَقْلِقُ هَامَاتِهِمْ حَوَاوِرِهَا
 أَمَا رَأَيْتَ النِّسَاءَ تَحْتَ الْحِجَابِ * نَيْقَ تَعَادَى شُعْمًا ضَفَائِرِهَا
 عَقَائِلُ الْقَوْمِ وَالصَّائِرِ وَالـ * عَتَسَ لَمْ تُخْتَرْ تَعَاوِرِهَا
 يَحْمِلُنَ قُوَّتًا مِنَ الطَّمِينِ عَلَى الـ * أَكْنَفَ مَعْمُوبَةً مَعَاوِرِهَا
 وَذَاتَ عَيْشٍ صَنَكَ وَمُقْعِصَةً * تَشْدَحُهَا صَخْرَةً تُسَاوِرِهَا
 تَسَالُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سُلِّيتِ * وَأَبْثَرَ عَنْ رَأْسِهَا عَقَائِرِهَا
 يَا لَيْتَ مَا وَالِدُهَا ذُو دُوبٍ * تُرْجَى وَأُخْرَى مُخْتَشَى بَوَادِرِهَا

(١) هكذا في هامش النسخة الأوربية من الطبري . وفي نسخة ولاق وأوربا (في حلفها) :

* فرأها بين النشار مریدها * وهي رواية طاهر طليبا التحريف وصادق المصنف .

هل ترجى أرضاً كما قُتيت * وقد تساهت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الراسخين ريسا * لايت تأتي للنصح شاعرها
 بأب خير الولاة قد علم الـ * سأس اذا عُدت ما نزلها
 طيعه الله من برئته الـ * حامون سائسها وجارها
 سميت اليه آمال أمته * مقادة برّتها وفاجرها
 شاموا حبا العدل من تحاييله * وأتخمرت بالنقى صائرها
 وأحمدوا منك سيرة جلّ الـ * شك وأخرى تحمت معاذرها
 واستحمت طاعه برفقك للـ * حامون تحيتها وعازرها
 وأنت تسمع في العالمين له * ومقلّة ما يكفل ناطرها
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته * أوجب فصل المزيّد شاكرها
 وأحذر فداء لك الرية والـ * أجاد مأمورها وآمرها
 لا تردت عمره بعسك لا * يصدر عنها بالرأى صايرها
 عليك تخضاعها فلا تلج الـ * فخر ملتحة زواجرها
 والقصد إن الطريق دوشمّ * أشامها وعثها وجائرها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد طرقت هذيتها أوائلها
 وأنت سرسورها وسائسها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجالا رأيت سيرتهم * حالف حكم الكتاب سائرها
 وآمئذ الى الناس كف مرحمة * نسته منهم بها مفاقرها
 أمكنك العدل إذ هممت به * وواققت مده مقاديرها
 وأبصر الناس قصد وجههم * وملكت أمة أغايرها
 تُشرع أعناقها اليك اذا الـ * مادات يوما جمّت عشايرها
 كم عدنا من نصيحة لك في اللـ * وقربى عزّت زواجرها

وَحَرَمِهِ قُرْبَتِ أَوَاصِرُهَا * مَكَ وَأُخْرَى هَلْ أَنْتَ ذَاكِرُهَا
 سَنَى رَجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلَبُهُمْ * رَانَحُهَا بِأَكْرَ وَمَا كَرُهَا
 دُونَكَ غِرَاءَ كَالْوَذِيلَةِ لَا * تَفْقَدُ فِي مِلَّةِ سَوَارِهَا
 لَا طَلَمًا قَتْنَهَا وَلَا تَطَكْرَا * لِكُلِّ نَفْسٍ نَفْسُ تَوَامِرِهَا
 سَيَرَهَا اللَّهُ بِالْمَصْبِحَةِ وَالْ * حَشِيَّةٍ فَاسْتَدَجَتْ مَرَاثِرَهَا
 حَاءُكَ تَحْيِي لَكَ الْأُمُورَ كَمَا * يَشُرُّ رَزَّ التَّحَارَ مَا شَرُهَا
 حَتْمَهَا صَاحِبَا أَحَا نِقَةِ * يَطْلُ عُجْبًا بِهَا يُحَاصِرُهَا

ومن حيد شعره قوله :

النَّاسُ أَحْلَاقُهُمْ شَنَى وَإِنْ جِيلُوا * عَلَى تَسَابُهُ أُرُوجٍ وَأَحْسَادِ
 الْحَبِيرِ وَالشَّرِّ أَهْلٌ وَكُتِلُوا بِهِمَا * كُلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي مَسْهَادِ
 مِنْهُمْ خَلِيلُ صَفَاءِ ذُو عَافِظِيهِ * أَرَسَى الْوَفَاءُ أَوَاخِيهِ أَوْتَادِ
 وَمُشَعَّرُ الْغَبِيرِ نَحَى أَضَالُهُ * عَلَى سَرِيرِهِ عَمَرُ غِلْهَا نَادِ
 مُشَاكِسٌ حَدَّعَ جَسَمَ غَوَائِلُهُ * يَدِي الصَّفَاءِ وَيَحْيَى صَرِيَّةَ الْهَادِي
 يَانِيكَ مَا لَنِي فِي أَهْلِ الصَّفَاءِ وَلَا * يَنْفَكَ يَسْمَى بِإِصْلَاحِ الْإِنْسَادِ

ومن حيد شعر الخريمي قوله :

أَضَاحَكَ صَفَى قَلْ إِنْزَالِ رَحْلُهُ * وَيُحْصِبُ عَدَى وَالْمَحَلَّ حَدِيدِ
 وَمَا لِحَصْبِ الْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى * وَلَكِنَّمَا وَحْدَهُ الْعَكْرِمُ خَصِيبِ

ومن حيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوقَكَ عِنْدِي عِقْلًا * أَنَّهُ عَدْلَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرِ
 وَتَنَاسِيهِ كَانَتْ لَمْ تَأْتِهِ * وَهُوَ عَدْلُ النَّاسِ مَشْهُورُ كَبِيرِ

وهو القائل :

وَلِنْ أَشَدَّ النَّاسِ فِي الْحَشْرِ حَمِيرَةٌ * لَمُورُوتُ مَا لِي غَيْرَهُ وَهُوَ كَامِيرَهُ
 كَفَى سَهْمًا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبِعَ الْغُصَا * وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ طَائِرُهُ

ويُستجاد له قوله :

ودون السدى في كل قلب ثنية • لها مَصَدُّ وعمر ومُتَعَدِّ سَهْل
وَوَدَّ العقي في كل نيل يُبْلِه • اذا ما أَقْصَى لو أن نائله جَرَل
وأعلم عِلما ليس بالظن أنه • لكل أَماس من ضرائبهم شَكْل
وَأَنَّ أَغْلَاءَ الزمان غَاوَهُم • قليل اذا الإنسان زَلَّت به النعل
تَرَوُّد من الدنيا متاعاً لغيرها • فقد شَمَرَتْ حذاء وأنصرم الحبل
وهل أنت إلا هامة اليوم أو يد • لكل أَماس من طوارقها أَلْئَكْل

وفي هذا الشعر يقول :

أما لعفد ناسٍ إذ تعيرني بجميل • سَفاهاً ومن أخلاق حَارَتِي الجهل
إن تعهرى يا جميل أو تَجَمَّل • فلا نهر إلا موقه الدين والعقل
أرى الناس شَرَّما في الحياة ولا يرى • لقبر على قبر علاء ولا فُضِّل
وما صَرَّتِي أب لم تَلِدُنِي بِجَارٍ • ولم تَشْتَمِل حَرَمٌ علي ولا عَمَل

وهو القائل :

ما أحسن ألفبته في حينها • وأفح ألفبته في كل حين
من لم يزل مَنُوما عِرْسَه • مُأَصِّبا فيها لرب الطون
أوشك أن يُعْرِيبها بالذي • يحاف أن يبرزها للعيون
حسبك من تحصينها وَضَعُها • مك إلى عِرْص صحيج ودين
لا تَطْلُع مك على ريبه • فيتبع المقرون جبل الغرين

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان بهل من علو المرتلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحل الذي لا يُدفع، وفي السباحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحد.

وكان أديبا طريفا جيد العناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثيرة أحسن فيها وقَلها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تَلِينُنا الحَدَقُ النَحْرُ * لُ على أتنا تَلِين الحَدِيدُ
طَوْعُ أيدى الظَّاءِ تَقْتادنا العِيبُ * بن وتقتاد بالطَّمانِ الأسودا
تَمْلِكُ الصَّيْدُ ثم تملكنا إليهِ * خُصُ المصوناتُ أَعْيَا وخدودا
تَنقُ سحطُ الأسود ونخشي * تَحطُ الخُشْفُ حين يُبدى الصدودا
فترانا يومَ الحَكْرِيةِ أَجرا * را وفي السِّلْمِ للغواني عيدا

أعطاه المأمون مائةً مصرلِسةً، نَراَحَها وصِباَعُها، فوجهه كله وفوقه في الناس ورجع صِفرا من ذلك، ففَاطَ المأمونَ صَعلُه، فدخل إليه يومَ مَقَدمه، فأَنشدَه أبا ناسِ قَاطِها في هذا المعنى، وهى :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق كان سيدا نبيلًا عالمًا بالهبة شهيرًا، وكان المأمون كثير الاعتدال عليه، حسن الاتصالات إليه لثقافته ورعايته لحق والده وما أسلفه من الطاعة في خدمته، وكان واليا على الديور لما حرق هاتك الخوارج على خراسان وأوقع الخوارج أهل قرية الجراء من أعمال نيسابور وأكثرها فيها العباد واتصل الخبر بالمأمون فنت إلى عبد الله وهو بالديور يأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المظفر قد اقتلع بها تلك السنة، فلما دخلها سطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل رازم من حانوته وأشده .

فد ققط الساس في زمامهم * حتى إذا حثت حثت بالمرور

فيضان في ساعة لنا قدما * فسرعا بالأمر والمطر

قول الشام والعراق ومصر . وتوفي سنة ٢٤٠ هـ . ولمحمد ترجمته في ابن حلكان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغانى

تَمَسِّي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْنَاقُ حَاضِمَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبَا غَيْرَ مُهْتَمِّمٍ
 إِلَيْكَ أَقْلْتُ مِنْ أَرْضِ أَقْتُ بِهَا * حَوَّلِينَ مَدَكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمٍ
 أَقْفُو سَامِيكَ الْإِلَافِي خُصِمْتَ بِهَا * حَذَوُ الشَّرَّارِ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
 فَكَانَ قَفْصِي فِيهَا أَيْ تَسَعُّ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنِّمِ
 وَلَوْ وَكَلْتُ إِلَى مَعَى عَيْنِي بِهَا * لَكِنْ بَدَأْتُ فَلَمْ أَعْزُ وَلَمْ أَلَمْ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِستُ عليك مَكْرَمَةً لَتَهَا ، ولا أَحْدُوتهُ حَسَنَ عَمَلِكَ
 دَكْرَهَا ، ولكن هذا شيء إذا عَوَدْتَهُ نَفْسَكَ اقْفُرت ، ولم تقدر على لَمْ شَعْنِكَ وإصلاح
 حالِكَ . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مَعْرَسَتَهُ الْمَأْمُونُ خَرَّاجَهَا ، فَصَبَعَ الْمِرَّةَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا
 كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفٍ دِيَارًا أَوْ مَحْوَهَا ، فَأَتَاهُ مُعَلِّ الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ
 فِي الْجَوَائِزِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاحِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمِبْرَقِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَمَا مُعَلِّ
 الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مَنَى مَا كَانَ مَسْكَ مَعَ جِهَادٍ وَعِلَاطٍ ، فَلَا يَنْقُطَنَّ عَلَى قَبْكَ ، وَلَا يَسْتَحْفَكَ
 الَّذِي يَلْمُكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ الْبَاسِ عَمَّوًا عَدَّ مَقْدِيرَةٍ * وَأَظْلَمَ الْبَاسِ عَدَّ الْجُودِ لَالٍ
 لَوْ أَصْبَحَ الْبَيْلُ يَتَجَرَّى مَاءُهُ دَهَبًا * لَمَّا أَشْرَتَ إِلَى تَحْرِيفٍ يَمْحَقَالٍ
 تُقْبَلِي بِمَا فِيهِ رِقَى الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ * وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعَاضَ الْحَمْدَ بِالْغَالِي
 تَفَكَّكٌ بِالْبُسْرُكِّفِ الْعُسْرِ مِنْ زَمَنِ * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَسْوِمٍ بِإِقْلَالِ
 لَمْ تَحْمِلْ كِفْكَ مِنْ حُودٍ لِحْتَبِيطِ * وَمُرْعَفٍ قَانِلٍ فِي رَأْسِ قَتَالِ
 وَمَا بَتَّتْ رَعِيْلَ الْخَيْلِ ۞ بَلَدٍ * إِلَّا عَصَفَتْ نَارَ زَاقٍ وَأَجَالِ
 إِنْ كُنْتُ مَنَّا عَلَى مَا مَنَنْتَ بِهِ * فَإِنَّ شَكَرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
 مَا زِلْتُ مُقْتَصِبًا لَوْلَا مَجَاهِرَةٌ * مِنْ أَلْسِنِي خُضْنَ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك عد الله وسرَّ بما كان منه وقال : يا أما السَّراء، أفرِضني عشرة آلاف دينارها
أَمِيتُ أملكها، فأقرَّصه فدفعتها إليه .

كان موسى بن حاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمه وجلسه، وكان له مؤثرا
مقدِّما، فأصاب منه معروفًا كثيرًا وأحازه بجوائز سنية هناك وقبل ذلك، ثم إنه وجد عليه
في قصص الأمر بجماء وظهوره منه بعض ما لم يحبّه، فرجع حينئذ إلى بغداد وقال :

إِنْ كَانَ عَدُّ اللَّهِ خَلَا نَا • لَا تُبَدِّلُنَا عُرْفًا وَإِحْسَانَا

حَسْبُنَا اللَّهُ رِضِينَا ه • ثُمَّ بَعَدَ اللَّهُ مَوْلَانَا

يعنى به المأمون، وغنّت فيه حاريتة وسمعه المأمون، فاستحسسه ووصله وإياها، فبلغ
ذلك عد الله بن طاهر، فعاظه ذلك وقال : أَلْهَلْ ! صمتنا المعروف إلى غير أهله فضاغ .

• ولعبد الله الحُلَا صاعها، فلما ومن مختارها وصدورها ومقدِّمها لحنه في شعر أخت
عاصية فإنه صوتٌ نادرٌ جيّدٌ صحيحُ العمل مُزْدَوِّجُ النغم، بينَ لينٍ وشِدَّةٍ على رسم الخنّاق
من القُدَّماء، وهو :

هَلَا سَقَيْتُمْ بَنِي سَهْمٍ أَسِيرَكُمْ • نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي

الطاعِ الطَّلعةُ الجَلَاءُ يَتَبِعُهَا • مُصَرَّجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادِ

ومن غنائه أيضا :

رَاحَ حَقْبِي وَوَادَ الْقَلْبَ دَاءُ • مِنْ حَبِيبِ طِلَابُهُ لِي عَمَاءُ

حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُلْغِي لِي • مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ

مَنْ تَعَزَّى عَمَّنْ يَحِبُّ فَنِي • لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين ورثائه

قيل في هجائه :

لم نُجِّك لماذا للطرث • يا أبا مومي وترويح اللَّمَّ
 ولترك الخس و أوقاتها • حرصا منها على ماء العنب
 وشيف أبا لا أكى له • وعلى كؤثر لا أخشى العطب
 لم تكن تعرف ما حد الرضا • لا ولا تعرف ما حد النصب
 لم تكن تصلح للك ولم • ثمطك الطاعة بالملك العرب
 أيا الباكي عليه لا بكت • عين من أسكك إلا للبحر
 لم نُجِّك لما عرصتنا • للعانيق وطورا للسلب
 ولقوم صبروا أعدا • لم يدو على الرأس الذئب
 في عذاب وحصار مجهد • سدد الطرق فلا وحة طلب
 زعموا أنك من حاشر • كل من قد قال هذا قد كذب
 ليت من قد قاله في وحة • من جيع داهب حيث ذهب
 أوح الله علينا قتله • فادا ما أوجب الأمر وجب
 كان والله علينا فتنة • غضب الله عليه وكتب

وقال عبد الرحمن بن أبي الهذاهد يرثيه :

يا غرب جودي قد بُت من ودي • فقد قدما الفزير من دمي
 ألوت بدنياك كف ثابته • وصرت مُفصى لسا على يقمه
 أصبح للوت عندنا قلم • يصحك بين المون من علمه
 ما استترت ذرة المون على • أكرم من حل في ربيحه
 خليفة الله في برثيه • تمصر أبدى الملوك عن شبيهه

يَفْتَرَّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَلْبٍ • يَنْشَقُّ عَنْ نَوْرِهِ دُجَى غُلْبَةٍ
 ذُرْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَابِهَا • إِذْ أَوَّلَعَ السَّيْفُ مِنْ نَجِيعِ دَمِهِ
 مَنْ سَكَتَتْ نَفْسُهُ لِمَصْرَعَةٍ • مِنْ عُمَمِ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَجَمِهِ
 رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ • حَتَّى تَذُوقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ
 كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزًا مَمْلُوكَةً • يُقَالُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ
 يَا مَلِكًا لَيْسَ عِنْدَهُ مَلِكٌ • لِحَالِمِ الْأَنْبِيَاءِ فِي أَيْمِهِ
 حَادٌّ وَحَى الَّذِي أَقْبَتَ بِهِ • نَحَى غَزِيرَ الْوَكَيْفِ مِنْ دَيْمِهِ
 لَوْ أَحْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَمْرِ تَقِيَةٍ • أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَدِيمِهِ
 أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ سَطَوْتُهُ • إِلَّا مَرَامَ النَّشِيمِ فِي أَجْمِهِ
 حَلَدَكَ الْعِزَّ مَا سَرَى سَدَفٌ • أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَثَى فِي قَدِيمِهِ
 أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا أَتَرْتَهُ بِهِ • يَقْرَعُ سَنَ الشَّقَاةِ مِنْ نَدِيمِهِ
 أَتَرُدُّوُ الْعَرِيشَ فِي هَذَاكَ كَمَا • أَتَرَى عَادَهُ وَفِي مَارِيهِ
 لَا يُبْعَدُ اللَّهُ صَبُورَةَ تَلِيَّتٍ • لِحَيْرٍ دَاجٍ دَعَاهُ فِي حَرَمِهِ
 مَا كُنْتُ إِلَّا كَلِمٌ ذِي حُلُمٍ • أَوْحَى بِأَبِ السَّرُورِ فِي حُلُمِهِ
 حَتَّى إِذَا أَطْلَفْتَهُ رَقْدُهُ • عَادَ إِلَى مَا أَعْتَرَاهُ مِنْ عَدِيمِهِ

وقال أيضا يرثيه :

أَقُولُ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْفِرَارِ • سُبِقِيَتِ الْغَيْثُ يَا قَهْصَرَ الْقَرَارِ
 رَمَتْكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ عَيْنٍ • فَصِرْتَ مُلَوَّحًا بِدُخَانِ نَارِ
 أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَّوْا • وَأَيْنَ مِزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ
 وَأَيْنَ عَمِّدُ وَأَنْبِيَاءُ مَالِي • أَرَى أَطْلَالَهِمْ سُودَ الدِّيَارِ
 كَأَن لَمْ يُؤْتَسَّرُوا بِأَنْبِيَسِ مُلْكٍ • يَطْوِلُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ
 إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ حَوْنًا • لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْنَعُ بِالْقِطَارِ

لقد ترك الزمانُ بى أبيه * وقد عمرتهم سُود البحار
 أضاءوا شمسهم بخرت بحيس * فصاروا فى الطلام بلا نهار
 وأحلوا عنهم قرا ميرا * وداستهم خيول بى الشرار
 ولو كانوا لهم كفوا ومنلا * اذا ما تُهجوا تيجان عار
 ألا بان الأمام وآرثاء * لقد صرم الحشى منابنار
 وقالوا انخلد يسع فقلت دلا * يصدر يائيه الى صفار
 كذلك الملك يتبع أوليه * اذا قُطِع القرار من القرار
 وقال مقدس بن صبيح يرثيه :

خليل ما أتتك به الخطوب * فقد أعطاك طاعته النجيب
 تلت من شمارج المايا * متايا ما تقوم لها القلوب
 خلال مقابر البستان قمر * يُجاو قمره أمدٌ غريب
 لقد عظمت مصيته على من * له فى كل مكرمة نصيب
 على أمثاله العبرات تُدرى * وتنتك فى ما يمه الجيوب
 وما أكثرت زبيدة عه دما * تُخص به النسيبة والنسيب
 دعوا موسى أبنه لكاه دهر * على موسى أبنه دخل الحزيب
 رأيت مشاهد الخلفاء مه * خلاء ما بساحتها يجيب
 ليتنك أنى كهل عليه * أنوب وى الحشى كبد تدوب
 أصيب به البعيد نخر حزنا * وطاين يومه فيه المرئيب
 أمدى من بطون الأرض شغفا * يحركه النداء ما يجيب
 لئن نعت الحروب اليه نفسا * لقد بلغت بمعمره الحروب

وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخير أُمَامٍ قام من خير عَصْرٍ * وأفضل سَامٍ فوق أعوادِ منبر
لِوَارِثِ علم الأولين ومهمهم * ولِلْكَ المأمونِ من أم جعفر
كُتِبَتْ وعِبي مُسْنَوِلُ دُمُوعِهَا * اليك أبْنِ عَمِي من جفوني ومُحْجَرِي
وقد مَسَّنِي ضُرٌّ وَذَلَّ كَاتِبِي * وَأَرْقَى عِني يَا ابنَ عَمِي تفكْرِي
وهِمَّتْ لِيَا لَاقِيْتُ صد مصابه * فأمرى عظيم مُنْكَرٌ جَدُّ مُنْكَرِ
سَأَسْكَو الذي لَاقِيْتُهُ بعد فقده * اليك شَكَاةُ المستهامِ المُقَهَّرِ
وأرجو لما قد مَرَّ بِي مذ فقدْتُهُ * فإنت لبقي خير رَبِّ مُفِيرِ
أنى طاهرٍ لاطهر الله طاهرا * فما طاهرٍ فِيا أَنَّى يُطَهَّرِ
فأخرجني مكشوفةً الوجه حائرا * وَأَنْتَ أَسْوَلى وأحرق أَدْرِي
يَعِزُّ على هَارُونَ ما قد لَقِيْتُهُ * وما مَرَّ بِي من ناقص الخلقِ أَمُورِ
فإن كَانَ ما أسدى أمرَ أُمَمِيته * صَبَرْتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقَدَّرِ
تذكر أميرَ المؤمنين قرايحي * فديُّنُكَ من ذِي حِرمَةٍ مُتَدَكِّرِ

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربك ربَّ العِزَّةِ الصَّمَدِ * ماذا أَصْبَا به في صُبْحَةِ الأَحَدِ
وما أَصِيبَ به الإسلامُ قاطِئَةً * من التَّصْمُعِ في رُكْنَيْهِ والأَوْدِ
مَنْ لَمْ يُصَبِّ بِأَمِيرِ المؤمنين ولم * يُصْبِحْ بِمَهْلَكَةِ والمِ في صُعدِ
فقد أَصِيبَتْ به حتى تَبَيَّنَ في * عقلِي ودينِي ودنياي وفي جِسدِي
يا لَيْلَةً يَسْتَكِي الإسلامُ مُدَّتْهَا * والعالمونَ جميعاً آخِرَ الأَبَدِ
عَدَرَتْ بِالْمَلِكِ الميمونِ طائرُهُ * وبالإمامِ وبالضُرْغاةِ الأَسَدِ
سَارَتْ اليه المنايا وهي تُرْجِيهِ * فوَاحَتْهُ بأوغادِ ذَوِي عَدَدِ
بِشُورَ حَيَاتٍ وأَعْتَامٍ يَقُودُهُ * قُرَيْشٌ بِالْبَيْضِ في قُلُوبِ من الزَّردِ

فصادفوه وحيثاً لا يُمين له * عليهم غائب الأنصار بالمدد
 بغزوه المنايا غير مُتَمَتِّع * فردا يمالك من مُستيلم فرد
 يلقى الوجوه بوجه غير مُتَبَدَّل * أبهى وأبقى من القُوْهِية الجُدُ
 واحسرتا وفريش قد أحاط به * والسيف مُرْتَعِد في كف مُرْتَعِد
 فما تحوَّك بل ما زال متصبها * منكس الرأس لم يُدَي ولم يُعد
 حتى اذا السيْف وافى وسط مقرِّقه * أفرته عنه يداه فعل مُتَد
 وقام فاعلقت كتفاه لَبَنه * كصيفيم شرس مستبسل ليد
 فاجتره ثم أهوى فاستقل به * للأرض من كف لث مُخرج حرد
 فكاد يقتله لو لم يُكَاثِرَه * وقام مقلتا مه ولم يحكد
 هذا حديث أمير المؤمنين وما * بقصت من أمره حروا ولم أزد
 زالت أنثبه حتى المات وإن * أخنى عليه الذي أخنى على لبَد

وذكر عمرو سنة أن محمداً بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة أبة علي بن المهدي قالت
 البيتين الآتين وقيل أهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مملكة بمحمد :

أبيك لا للنسيم والأنس بل للعالي والرحم والأترس
 أنكى على هالكٍ بضعته به * أرملنى قل ليلة العرس

هجاء يحيى بن أكنم^(١)

وعدتلك في المجلد الأول أن تذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى
أكنم، وما هو ذا :

أزقه رُحَّ الهوى وسدِّمهُ • ومَلَّه الحثَّ فات يالْمُ
طورا يُعَانِيهِ وطورا يُسْتَمُّ • مثل الحريق في الحشا يُصَرِّمُهُ
ففاصيت العيرُ بدمع تَسْجُمُهُ • تمت عليه كلُّ شوقٍ يَكْتُمُهُ
وباح بالحب الذي يُجْجِمُهُ • وناث والقلبُ يُسَايِي هِمُّهُ
من لمحٍ قد تراه يَرْجُمُهُ • أصبح بالنساء عارِ أُمِّهِ
طال تصاييه وطال سَقَمُهُ • وبلى الجسمَ ورقتَ أعظمُهُ
يشهدني الله على من يَفْلُكُهُ • بمنعه طعمم الكرى ويعْرِمُهُ
وأما له بصيرم من لا بصيرُهُ • أصبح هذا الدين رثاً رِثْمُهُ
عطله الجور وطال قِدْمُهُ • تحثُّ من الجور عليه دِيمُهُ
قَدَّ معنى رَمَعَهُ وأرْسَمُهُ • إلا بقايا قويمه وجمُّهُ
أوطئته الجور فاضى مغْلَمُهُ • يرود به شأؤه وسمُّهُ
من يشهد الجور ونحن نعلمُهُ • أنوك قاص في السداد نعلُهُ
يقول حقا لا تُعَيَّبُ ترجمُهُ • مد ولى الحكم أبيع حرْمُهُ
وأتهكت من الفضاء حُرْمُهُ • وأضطربت أركانه ودِعْمُهُ
واقه تَبْيِيهِ ونحن نهْدِمُهُ • ياليت يحيى لم يَلِدْهُ أَكْنَمُهُ
ولم تَطَأْ أرضَ العراق قَدْمُهُ • ملعونة أخلاقه وشيمُهُ^(٢)

(١) أطربا كتناء من يحيى بن أكنم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) . (٢) حتماً بعد هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تلي الآداب العامة .

والله والله لقد حَلَّ دُمُهُ * لو أن للذين عِمَادًا يَدْعُمُهُ
 بِعِذْلِ مِنْهُ الْمَيْلَ أَوْ يَقْوَمُهُ * لَكَانَ قَدَرَنَ عَلَيْهِ مَا تَمُّهُ
 أَرْجُو وَيَقْصَى اللَّهُ لَا يُسَالِمُهُ * مِنْ وَجْهِهِ هَذَا وَلَكِنْ يَقْصِمُهُ
 * بِالسَّيْفِ إِذَا حَلَّتْ عَلَيْهِ نَقْمُهُ *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتحريب وحسنة شعواء وقتل ودماء،
فانا نترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تَقَطَّعَتِ الْأَرْحَامُ بَيْنَ الْعَشَائِرِ * وَأَسْلَمَهُمْ أَهْلُ التَّقَى وَالْبَصَائِرِ
فَدَاكَ أَنْتَقَامُ اللَّهِ مِنْ حَلَقِهِ بِهِمْ * لَمَّا أَحْتَرَمُوهُ مِنْ رُكُوبِ الْكِبَائِرِ
فَلَا نَحْصُ أَظْهَرْنَا مِنَ الذَّنْبِ تَوْبَةً * وَلَا نَحْنُ أَصْلَحْنَا فِسَادَ الْمَرَائِرِ
وَلَمْ نَسْمَعْ مِنْ وَاعِيٍّ وَمَذْكُورٍ * فَيَسَّخَعَ بِنَا وَغُظَّ بِنَا وَآمِرٍ
فَابِكْ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا تَقَطَّعَتْ * عِرَاهُ وَرَبَّحَى ضَرْهُ كُلَّ كَافِرٍ
فَأَصْبَحَ بَعْضُ النَّاسِ يَقْتُلُ بَعْضَهُمْ * مِمَّنْ يَبْرِبُ مَقْهُورٍ عَزِيزٍ وَقَاهِرٍ
وَصَارَ رِئُوسُ الْقَوْمِ يَحْمِلُ مَعَهُ * وَصَارَ رِئِيسَا فِيهِمْ كُلُّ شَاطِرٍ
فَلَا فَاجِرَ لِلْبَرِّ يُحْفَظُ حَرَمَهُ * وَلَا يَسْتَطِيعُ الْبَرُّ دَفْعًا لِمَاجِرٍ
تَرَاهُمْ كَأَمْثَالِ الدَّنَابِ رَأَتْ دَمًا * فَأَمَّتْهُ لَا تَلْوَى عَلَى زَجَرِ زَاجِرٍ
وَأَصْبَحَ قُتْلُ الْقِبَائِلِ بَيْنَهُمْ * تَسَلَّ عَلَى أَقْرَانِهَا بِالْخَنَاجِرِ
فَابِكْ لِقَتْلَى مِنْ صَدِيقٍ وَمِنْ أَحَدٍ * كَرِيمٍ وَمِنْ جَارٍ شَمِيقٍ مُجَاوِرٍ
وَوَالِدَةٍ تَبْكِي بِحَزَنِ عَلَى أَمْنِهَا * فَيَكُنِي لَهَا مِنْ رَحْمَةٍ كُلِّ ظَائِرٍ
وَذَاتٍ حَلِيلٍ أَصْبَحَتْ وَهِيَ أَيْمٌ * وَتَبْكِي عَلَيْهِ بِالْدموعِ الْبَوَادِرِ
تَقُولُ لَهُ قَدْ كُنْتُ عِزًّا وَنَاصِرًا * فَفَيَّبَ عَنِي الْيَوْمَ عِزِّي وَنَاصِرِي
وَأَبْكُ لِلْإِحْرَاقِ وَهَدْمِ مَنَارِلٍ * وَقَتْلِي وَإِنْهَابِ اللَّهِ وَالْفَخَائِرِ

وإبراز ربات الخدود حواسرا • نرجس بلا ثمن ولا بآزر
 تراها حيارى ليس تعرف مدعياً • نوافر أمثال الغباء النواصر
 كأن لم تكن بعدد أحسن منظرا • وملهى رآه عين لآء وظاهر
 بلى هكنا كانت فأذهب حسنها • ويبد منها الشمع حكم المقادر
 وحل بهم ماحل بالناس قبلهم • فاحضوا أحاديثا لباد وحاضر
 أبعداد يا دار الملوك ومحتى • صروف المسايا مستقر المنابر
 ويا جنة الدنيا ومطلّ النقى • ومستند الأموال عند العرائر
 أبني لساين الدين عهدتهم • يحلون في روض من العيش زاهر
 وأين ملوك في المواك تقتدى • نُسب حسانا بالجوم الزواهر
 وأين القصة الحاكون برأيسهم • لورد أمور مشكلات الأوامر
 أو القائلون الساطقون بمكة • ورصف كلام من خطيب وشاعر
 وأين مراح للوك عهدتها • من نرفة فيها صوف الجواهر
 تُرش بماء المسك والورد أرضها • يَفُوح بها من بعد ريح القوامر
 ودوح الندى فيه كل عثية • الى كل قياس كريم العناصر
 وأين قيات تستجيب لغمها • اذا هو لبها حين المرامر
 وأين الملوك الفرس من آل هاشم • وأشباههم فيها اكتفوا بالمصادر
 يروحون في سلطان بعض العشار • يروحون في سلطان بعض العشار
 يحادل إعماءهم سكبرائهم • فنالتمو بالكؤأ أيدي الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تنأصروا • كزلت لها خوفا رقاب الجبابر

وقال عمرو بن عبد الملك الوَرَّاق يكي بغداد ويهجو طاهرا ويمرض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعين * ألم تكوني زماناً قُترة العين
 ألم يكن فيك أقوامٌ لهم شرف * بالصالحات والمعروف يلقون
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قُربهم زينا من الرين
 صاح الزمانُ بهم بالبن فاقصرصوا * ما ذا الذي جعنتي لوعة البن
 استوعق الله قوماً ما ذكرتهمو * ألا تحترما العين من عيني
 كالوا ففرقهم دهرٌ وصنعهم * والذهب يصدع ما بين الفريقين
 كم كان لي مُنعِد منهم على زمني * كم كان منهم على المعروف من عون
 لله در زمان كان يجعنا * أين الزمان الذي ولّى ومن أين
 يا من يحترَب بغداداً ليعمرها * أهلكت هسك ما بين الطريقين
 كانت قلوبُ جميع اليايين واحدة * عيا وليس يكون العين كالذين
 لما استبهم فرقتهم فرقاً * والناس طراً جميعاً بين قلين

ولبعض فتيا بغداد :

كيت دما على بغداد لما * فقدت عَصاة العيش الأبيق
 تَبَدَّلْنَا هوساً من سرور * ومن سَعَة تدلنا بضيق
 أصابتها من الحساد عين * فأفت أهلها بالمتجسِق
 قومٌ أحرقوا بالنار قسراً * ورائحة تسوح على عريق
 وصائحة تُنادى وأصباحا * وما كية لفقدان الشفيق
 وحوراء المدامع ذات دَل * مضمتها الجاسد بالخلوق
 تحترق من الحريق الى اتهايب * ووالدها يفتز الى الحريق

وَسَالِسَةُ الْفَرَالَةِ مُقَلَّتِيهَا * مَصَاحِكُهَا كَلَالَةُ الْبُرُوقِ
 حَيَارَى كَالْمَدَايَا مُبْعِكَرَاتِ * عَلَيْهِنَ الْقَصَائِدُ فِي الْحُلُوقِ
 يُنَادِينَ الشَّفِيقَ وَلَا شَفِيقُ * وَقَدْ بَقِيَ الشَّمِيقُ مِنَ الشَّمِيقِ
 وَقَوْمٌ أُتْرِجُوا مِنْ طَلِّ دُنْيَا * مَنَاءُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
 وَمُفْتَرٍ قَرِيبُ الدَّارِ لَمَقَى * لَا رَأْسَ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 نَوَاطِلُ مَنْ قَتَلَهُمْ جَمِيعَا * مَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْقَرِيقِ
 فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَيْسِهِ * وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنَ صَدِيقِ
 وَمَهْمَا أَلَسَ مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى * فَإِنِ ذَاكَ دَارَ الزُّبُقِ

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

شئت لك هنا الهاثم من مراجع الكتاب هذا دواوير الشعراء ومججات اللغة
التي أشرنا اليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية .

تاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط .
تاريخ المشاركة لصليبا س يوحنا ،
مخطوط .
تاريخ بغداد للطبيب العسادي ،
مخطوط .
تاريخ بغداد لاس طيفور (الجزء السادس
طبعة أوربا) .
تاريخ التشريع الاسلامي للرحوم
الخصري بك ، طبعة مصر .
تاريخ الآداب السلطانية والدول
الاسلامية لابن طاطا ، طبعة
أوربا .
تاريخ الجحوم الزاهرة لابن تفريردي ،
طبعة أوربا .
الحق والتاريخ لأبي زيد اللحى ، طبعة
باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .
الآثار الباقية لليروني ، طبعة ليسك .

تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليد .
تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبعة مصر .
تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة
مصر وباريس .
تاريخ العقوبي ، طبعة ليدن ناشراف
المسيو هتسبا .
تاريخ أبي الفدا لللك المؤيد ، طبعة
الاستانة .
تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عدا الله
محمد بن يوسف ، طبعة أوربا .
تجارب الأمم لان مسكويه ، طبعة مصر .
تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن حلدون ،
طبعة مصر .
الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ،
طبعة ليدن .
نظم الجواهر لابن البطريق ، طبعة
أكسفورد سنة ١٦٥٩ للشرق
ادوار بوكوك .

- مختصر تاريخ الدول لأبي العرج الملقب،
طبعة بيروت .
- تاريخ الامم، طعة أوروبا .
- فتوح الشام للواقدي، طعة مصر .
- نشوار المحاصرة وأحار المداكرة، طعة
مصر .
- ولاء مصر وقصاتها للكندى، طعة
بيروت .
- مختصر أحبار الخلفاء لاس الساعى،
طعة مصر .
- كشف الطون لحاى خليفة، طعة
الأستانة وليسك ومصر .
- المستطرف للإشهى، طعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموى، طعة
ليسك ومصر .
- المهر للبيوطى، طعة بولاق .
- الأحكام السلطانية للوردى، طعة
أوروبا .
- أعلام الناس للاتيندى، طعة مصر .
- كتاب المعارف لاس قتيه، طعة أوروبا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومى، طعة
مصر واشراف من حليوث .
- الفهرست لابن الديم، طعة ليسك .
- طبقات الأئم لابن صاعد، طعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبى أصيعة،
طعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطى، طعة مصر .
- طبقات الأدياء لعبد الرحمن الأتبارى،
طعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن حطكان، طعة
مصر .
- وفات الوفيات لابن شاكر الكتفى،
طعة مصر .
- الملل والنحل للشهرستانى، طعة مصر .
- ألف باء لوسف البلوى، طعة مصر .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري،
طعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للملادى، طعة ليدن .
- كتاب البلدان لابن الفقيه الحمداى،
طعة ليدن .
- كتاب البلدان لليقوى، طعة ليدن .
- مسالك الممالك للاصطخرى، طعة
ليدن .
- المسالك والممالك لابن حوقل، طعة
ليدن .
- أحسن التقاسيم للقدسى، طعة ليدن .
- المسالك والممالك لابن حرداذبه، طعة
ليدن .
- الأعلاق العيسى لابن رسته، طعة ليدن .
- حسن المحاضرة للسيوطى، طعة مصر .
- بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى
طبعة بغداد .
- مقدمة الياذقوى ميروس تريب البستانى
طبعة مصر .

كتاب الكشكول للعامل، طبعة مصر.
 سراج الملوك للطرطوشي، طبعة مصر.
 كتاب الخراج لقدامة بن حمصر، طبعة
 لندن.
 كتاب الخراج لأبي يوسف، طبعة
 بولاق.
 تاريخ الوزراء المنسوب للصولي، طبعة
 بيروت.
 أشهر مشاهير الإسلام، لارحوم رفيق
 العظم بك، طبعه مصر.
 كتاب نفع الطبيب، طبعة مصر وأوربا.
 مفاتيح العلوم للحواري، طبعة مصر.
 معيد العلوم للحواري، طبعة مصر.
 كتاب المواهب الفتحية لارحوم
 الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.
 كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.
 مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر.
 خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي،
 طبعة دمشق.
 مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت.
 مجموعة مجلة المجمع العلمي، طبعة دمشق.
 مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر.
 مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر.
 بعض فصول وساحت من المجلة
 الآسيوية.
 حديث الأربعاء للدكتور طه حسين،
 طبعة مصر.

حضارة الإسلام في دار السلام لجميل
 مندور، طبعة مصر.
 كتاب الأغاني للأصبهاني، طبعة بولاق
 والسامري.
 الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية.
 نهاية الأرب، طبع مطبعة دار الكتب
 المصرية والنسخة الفتوحانية
 بالدار.
 صحح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب
 المصرية.
 كتاب التاج المنسوب للماحظ، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية.
 كتاب الأمان لأبي علي التتالي، طبع
 مطبعة دار الكتب المصرية.
 كتاب الكامل للبردي، طبعه مصر.
 كتاب البيان والتبيين للماحظ، طبعه
 مصر.
 العمدة لابي رشيقي، طبعة مصر.
 كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي، طبعه
 فردرك شوالى.
 كتاب المحاسن والاضداد للماحظ، طبعه
 لندن.
 كتاب البغلاء للماحظ، طبعة مصر.
 كتاب الحيوان للماحظ، (نسخة
 فتوغرافية محفوظة بدار الكتب
 المصرية).

حلبة الكيت، طبعة بولاق .
 خزائن الأدب لابن حجة الحموي، طبعة بولاق .
 خزائن الأدب للقدادي، طبعة بولاق .
 محاضرات الفلسفة لستلانته بالجامعة المصرية .
 محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسيور كرونليو، طبعة روما .
 مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكيري زاده، طبعة حيدر آباد .
 محاضرات الشيخ عبد الوهاب الحار بالجامعة المصرية .
 محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي بالجلدة المصرية .
 محاضرات الأستاذ الخصري بك في تاريخ الأمم الإسلامية، طبعه مصر .
 محاضرات الأستاذ الخصري بك في تاريخ الدولة الأيوبية، طبعه مصر .
 التمدد الاسلامي للرحوم جورجي بك زيدان، طبعة مصر .
 تاريخ آداب اللغة العربية للرحوم حورجي بك زيدان، طبعة مصر .
 طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا .
 طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر المتور والمقطوم لابن طيفور .
 رسالة بني أمية للماحط، خطية .

منهل الرقاد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصي بك، طبعة مصر .
 محاضرات الأستاذ الاسكندري المدرس بدار العلوم، طبعه مصر .
 الوسيط للأستاذ الاسكندري المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العرسة للاسناد مصطفى صادق الرافعي، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العرسة للرحوم عاطف ركات بك ورملائه، طبعة مصر .
 مهذب الأفاضل للرحوم الخصري بك، طبعه مصر .
 ملحة العرب للذكور أحمد صيف، طبعة مصر .
 الشعر والشعراء لاس قتيبة، طبعة ليدن .
 طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الحمصي، طبعه ليدن ومصر .
 كتاب الأدباء لاس الجوزي، طبعة مصر .
 العقد الفريد لللك السعيد، طبعة مصر .
 العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر .
 لطائف المعارف للثعالبي، طبعة ليدن عيوب الأحبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوروبا .

رسائل البنساء للأستاذ محمد كرد علي ،
 طبع مصر .
 جهرة أشعار العرب لأبي زيد : طبعة
 مصر .
 المفضليات للضبي ، طبعة مصر .
 حماسة البحتري ، طبعة بيروت .
 الصاعثين لأبي هلال العسكري ، طبعة
 مصر .
 الموشى لأبي الطيب ، طبعة أوروبا .
 ديوان الحماسة لأبي تمام ، طبعة مصر .
 معاني الأدب وشرحه ، طبعة بيروت .
 مختارات المارودي ، طبعة مصر .
 حياة الحيوان للدميري ، طبعة مصر .
 عيون السوارب لابن شاذان الكنتي
 (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب
 المصرية) .
 العرج بعد الشدة للتونسي ، طبعة مصر .

كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله
 محمد بن عبدوس الجهمياري طبعة
 فينا سنة ١٩٢٦
 كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي
 طبعه جوتقين سنة ١٨٥٤
 الأوراق للصولي ، خطية .
 مطبوعات تذكاري جيب الانجليزية
 وخاصة مؤلفات الأستاذين
 مرحليوث و برون .
 زهر الآداب للمصري ، طبعة مصر .
 المشبه و أسماء الرجال للنحوي ، طبعة
 أوروبا .
 الوافي بالوفيات للسفدي (المحفوظ
 بدار الكتبة المصرية تحت
 رقم ١٢١٩) .
 أخبار أبي نواس لابن منظور ، طبعة
 مصر .

المصادر الأفرنجية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris
 Life of Mohamet by Sir W Muir (London)
 The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by
 Ameer Ali. (London).
 D. S. Margolouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London)
 in "Heroes of the Nations' Series"
 H. Lammens "Études sur les règnes des Califs Omayyades Moawia
 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beyrouth)
 Library of Universal History (N. Y)
 History of Arabic Literature. Cl Huart (London)
 A Literary History of Persia. Ed G Browne. (London)
 A Literary History of the Arabs by R. A Nicholson. (London).
 Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London)
 The Caliphate: its rise decline and fall by Sir W. Muir (London).
 Annals of the Early Caliphate by Sir W Muir (London).
 Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
 Encyclopaedia of Islam (Luzac)
 Encyclopaedia Britannica. (London)
 La Grande Encyclopédie. Paris.
 The Historians' History of the World by H. S Williams.
 (New York).
 Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings (London)
 The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by
 Gibbon. (London)
 The History of Philosophy in Islam by J de Boer translated by
 Jones. (London).
 Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle)
 Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Anda-
 lusie par les Almoravides by R Dozy. (London).
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitu-
 tional Theory by D. B. Macdonald. (London).
 Margolouth's Works Etc.
 R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes 1927.
 Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik.
 (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٥٤٩/٣١٥٠)

